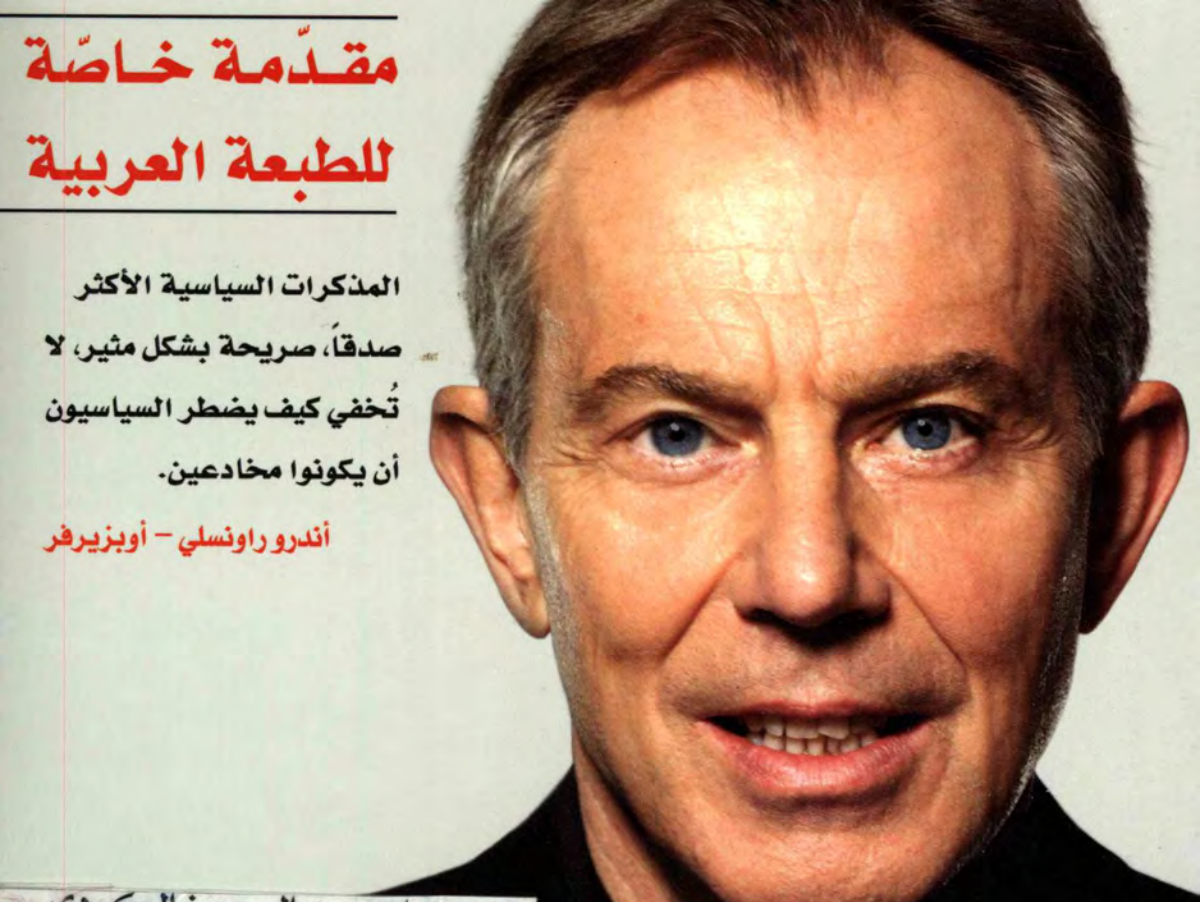
مقدّمة خاصّة للطبعة العربية

المذكرات السياسية الأكثر صدقاً، صريحة بشكل مثير، لا تُخفي كيف يضطر السياسيون أن يكونوا مخادعين.

أندرو راونسلي – أوبزيرفر



تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

مذكّرات طوني بلير

مسيرة رئيس وزراء

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

استطاع أن ينتقد نفسه بهذا الشكل، اعترف بأخطائه، وأطلق نكاتٍ على نفسه.

ماري آن سيغارت – الإندبندنت

مذكّرات رؤساء الوزراء تكون عادة رسمية خاضعة لرقابة ما. أما مذكرات طوني بلير فهي ودودة، ارتجالية، مغايرة، بها صراحة تشدُّ إلى القراءة بقوة.

كريغ براون – ميل أون صنداي

مذكّرات طوني بلير

مسيرة رئيس وزارة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

Originally published by Hutchinson as: **A Journey.**
Copyright © Tony Blair 2010.

الطبعة الأولى ٢٠١١
ISBN: 978-9953-88-607-7

ترجمة: سعيد حسنية
تدقيق لغوي: محمد زينو شومان
الإخراج الفني: فدوى قطيش

Front cover photography by John Swannell.
Backcover © NI Syndication.com/Richard Cannon - *The Times*.

المحتويات

شكر وتنويه ٧

مصادر الصور ٩

مقدمة الطبعة العربية ١٣

مقدمة ٢١

الفصل الأول: توقعات عظيمة ٢٥

الفصل الثاني: الزعيم المتدرّب ٦٣

الفصل الثالث: حزب العمال الجديد ١٠٩

الفصل الرابع: شهر العسل ١٦٣

الفصل الخامس: الأميرة ديانا ١٩٧

الفصل السادس: السلام في إيرلندا الشمالية ٢٢٣

الفصل السابع: «إننا نحكم بالنثر» ٢٨٥

الفصل الثامن: كوسوفو ٣١٧

الفصل التاسع: قوى المحافظة ٣٥٧

الفصل العاشر: إدارة الأزمات ٤٠١

الفصل الحادي عشر: نصر لحزب العمال الجديد ٤٣٥
الفصل الثاني عشر: ٩/١١: «جنباً إلى جنب» ٤٧٣
الفصل الثالث عشر: العراق: العد العكسي لبدء الحرب ٥١٣
الفصل الرابع عشر: القرار ٥٦٩
الفصل الخامس عشر: العراق: ما بعد الحملة العسكرية ٦٠٣
الفصل السادس عشر: الإصلاح الداخلي ٦٥٥
الفصل السابع عشر ٢٠٠٥: ثنائية طوني بلير/ غوردون براون ٦٩٧
الفصل الثامن عشر: النصر والمأساة..... ٧٤١
الفصل التاسع عشر: المواجهة ٧٧٩
الفصل العشرون: نهاية اللعبة ٨١٧
الفصل الحادي والعشرون: الرحيل..... ٨٤٩
الفصل الثاني والعشرون: تذييل..... ٨٩٩

شكر وتنويه

دأب بوب بارنيت، المحامي والصديق والمفاوض الاستثنائي، على قيادة المفاوضات التي أوصلتني إلى راندوم هاوس، وذلك منذ اللحظة الأولى التي ظهرت فيها فكرة تأليف هذا الكتاب. كانت تلك شراكة سعيدة منذ ذلك الحين. أود على وجه الخصوص توجيه الشكر إلى غايل ريبوك، وهي صديقتي منذ مدة طويلة، ويمكنني أن أضيف الآن، وبكل فخر، صفة ناشرة هذا الكتاب إلى صفة الصديقة. أظهرت غايل حماستها لهذا المشروع، وإيمانها الذي لم يتزعزع بأنها سوف تسلّم ذات يوم نصاً كاملاً، وذلك بالرغم من الدلائل التي تشير إلى العكس.

أود التنويه بالمهنية الهادئة لفريقها في راندوم هاوس، كما أريد توجيه شكري إلى كارولين كاسكوين ودافيد ميلنر على جهودهما التي بذلاها في تنقيح هذا الكتاب، وهما اللذان عاشا معه لمدة تقترب من المدة التي قضيتها أنا معه، وكانا رائعين طوال هذه الفترة. أريد كذلك توجيه شكري إلى سوزان ساندون، وشارلوت بوش وكلير راوند، وكذلك ريتشارد أوغلي الذي قام بتصميم الغلاف، وإلى فيونا غرينواي على الجهود التي بذلتها في البحث المتعلق بالصور، وكذلك إلى بقية فريق الإنتاج المخلص.

أود توجيه الشكر إلى الذين عملوا معي في الولايات المتحدة، سوني ميتا وجوناثان سيغال من **دار نوف**، اللذين أظهرا حماستهما لهذا المشروع منذ البداية. وتبيّن لي أن إرشاداتهما ونصائحهما لا تقدّر بثمن.

أريد توجيه الشكر إلى الفريق الذي عمل معي، ومن بينهم كاثرين ريمر وفيكتوريا غولد، وهما اللذان وقفا معي أثناء كتابتي كل الكلمات التي توزعت على مئات الأوراق، كما رفضا تمرير كل المكالمات الهاتفية، وكل الاجتماعات والمشاغل الأخرى التي كنت أرحب بها في العادة، والتي كان من شانها إبعادي مؤقتاً عن هذه العملية الإبداعية. أقدمت كاثرين وفيكتوريا على انتزاع هاتفي المحمول «البلاك بيري» من بين يدي، مع اقتراب الموعد النهائي الذي حدّده الناشر لتسليم النص. قدّم إليّ أنطوني مجرز، وهو الباحث الذي اعتمدته، الوقائع ومواد البحث، كما تفحص، ومن دون كلل، آلاف الوثائق. إنني ممتن كذلك لنقاد الكتب على تقديمهم الأفكار والنصائح التي أفادتني كثيراً في تنقيح هذا الكتاب، وأذكر منهم: آندرو أدونيس، ودافيد برادشو، وآلاستير كامبل، وماثيو دويل، وبيتر هايمان، وفيليب غولد، وجوناثان بويل.

أريد الإشارة كذلك إلى عددٍ كبير من الذين شاركوني في حياتي السياسية، وهم الذين لولاهم لما تمكّنت من تأليف هذا الكلام. أذكر منهم وكيلي في سيدجفيلد جون بيرتون، وزوجته ليلي وأعضاء حزب العمال في سيدجفيلد، وهم الذين وضعوا ثقتهم بي منذ البداية والذين أظهروا إخلاصهم الثابت منذ ذلك الحين. إنني أدين بقدرٍ كبيرٍ من الامتنان إلى فريق العمل الذي رافقني في سنواتي الأولى كزعيم للمعارضة، وإلى الفريق الذي عمل معي في داوننغ ستريت. أعتقد أنه لا يمكن للمرءً أن يتمنى وجود مجموعة أكثر إخلاصاً ومهنية من حوله، وقد ورد ذكر أسماء بعضهم في هذا الكتاب. أريد إهداء هذا الكتاب، بطبيعة الحال، إلى أسرتي التي تحدث عنها.

أخيراً، أود توجيه الشكر إلى الأشخاص الذين يعملون معي الآن في هذه المرحلة الجديدة من مسيرتي السياسية منذ أن غادرت داوننغ ستريت. إنني معجب على الدوام بالحماسة والالتزام اللذين تبديهما هذه المجموعة، للمساهمة في حلّ بعض القضايا التي تشغل العالم هذه الأيام، والتي أحاول العمل عليها، ومنها فهمٌ أكبر لما بين الأديان السماوية، والسلام في الشرق الأوسط، والحلول المتعلقة بالتغيّر المناخي، ومشاكل أنظمة الحكم في أفريقيا. إنهم يعرفون أنفسهم ولابد أن يكونوا فخورين جداً بالعمل الذي يقومون به.

مصادر الصور

القسم الأول

الصفحة الأولى من الصور:

Author's private collection[1]; Author's private collection; Author's private collection; Francis Mathes/Author's private collection

الصفحة الثانية من الصور:

Courtesy[2] of Alan Collenette; Courtesy of Alan Collenette; Courtesy of Alan Collenette; Mirrorpix; Photograph by Jacob Sutton, Camera Press London; Author's private collection

الصفحة الثالثة من الصور:

Author's private collection; Ian McIlgorm/Press Association Images; Neville Marriner/*Daily Mail*/Rex Features; Author's private collection

الصفحة الرابعة من الصور:

Gemma Levine/Hulton Archive/Getty Images; Westminster Press/Author's private collection; Tom Kidd/Rex Features; Author's private collection

الصفحة الخامسة من الصور:

Reuters/Kieran Doherty; Author's private collection; PA Photos/Topfoto; Kevin Holt/*Daily Mail*/Rex Features

الصفحة السادسة من الصور:

Neil Munns/PA Archive/Press Association Images; Tom Stoddart/Getty Images; Tom Stoddart/Getty Images; Tom Stoddart/Getty Images

الصفحة السابعة من الصور:

Author's private collection; Clive Limpkin/*Daily Mail*/Rex Features; Rebecca Naden/PA Archive/Press Association Images; Tim Rooke/Charles Ommanney/Rex Features

---

(1) Author›s Private collection :مجموعة المؤلف الخاصة

(2) Courtesy :تقدمة

الصفحة الثامنة من الصور:

© Martin Argles/eyevine; PA Photos/Topfoto; Rooke/Jorgensen/Rex Features; Author's private collection

القسم الثاني

الصفحة الأولى من الصور:

© Annie Liebowitz/Contact Press Images/nbpictures; Owen Humphreys/PA Archive/Press Association Images; Tom Stoddart/Getty Images; David Giles/PA Archive/Press Association Images; © Chris Laurens; © Fred Jarvis

الصفحة الثانية من الصور:

Tom Stoddart/Getty Images; Rex Features; Courtesy of the William J. Clinton Presidential Library; Courtesy of the William J. Clinton Presidential Library; Courtesy of the William J. Clinton Presidential Library

الصفحة الثالثة من الصور:

Courtesy of the William J. Clinton Presidential Library; Sipa Press/Rex Features; Reuters/Blake Sell

الصفحة الرابعة من الصور:

Author's private collection; Reuters/Paul Bates; Rex Features; Rex Features

الصفحة الخامسة من الصور:

PA/PA Archive/Press Association Image; PA Archive/Press Association Images; Rex Features; PA/ PA Archive/Press Association Images; PA Archive/Press Association Images; PA Wire/PA Archive/ Press Association Image

الصفحة السادسة من الصور:

Martin McCullough/Rex Features; James Gray/NI Syndication; PA Photos/Topfoto; Sipa Press/Rex Features; Cathal McNaughton/PA Archive/Press Association Images; Martin McCullough/Rex Features

الصفحة السابعة من الصور:

Reuters/Crispin Rodwell; Martin McCullough/RexFeatures; Author's private collection; Author's private collection

الصفحة الثامنة من الصور:

Rex Features; John Stillwell/PA Archive/Press Association Images; Richard Young/Rex Features; Rex Features; Reuters/Pawel Kopczynski

القسم الثالث

الصفحة الأولى من الصور:

Author's private collection; Author's private collection; Author's private collection; Photograph by Mary McCartney, Camera Press London; Author's private collection

الصفحة الثانية من الصور:

Peter Macdiarmid/Rex Features; Mike Forster/*Daily Mail*/Rex Features; Reuters/Dylan Martinez; Stefan Rousseau/PA Archive/Press Association Images

الصفحة الثالثة من الصور:

Reuters/Pool old; Adrian Dennis/AFP/Getty Images; Adrian Dennis/AFP/Getty Images; Toby Melville/PA Archive/Press Association Images; Anthony Measures; Author's private collection

الصفحة الرابعة من الصور:

Ron Sachs/Rex Features; Photograph by Moreen Ishikawa, courtesy of the George W. Bush Presidential Library; Photograph by Moreen Ishikawa, courtesy of the George W. Bush Presidential Library

الصفحة الخامسة من الصور:

Spencer Platt/Getty Images; Johnny Green/PA Archive/Press Association Images; Paul J Richards/AFP/Gettyx Images; Andrea Mohin/NYT/Redux/eyevin; Chris Ison/PA Archive/Press Association Images

الصفحة السادسة من الصور:

Reuters/Erik de Castro; Stefan Rousseau/PA Archive/Press Association Images; Jeff Christensen/Pool/Getty Images; Reuters/Pool/Stefan Rousseau JV

الصفحة السابعة من الصور:

© Nick Danziger/nbpictures; © Nick Danziger/ nbpictures; © Nick Danziger/nbpictures; PA/PA Archive/Press Association Images; © Nick Danziger/nbpictures

الصفحة الثامنة من الصور:

© Nick Danziger/ nbpictures; © Nick Danziger/nbpictures; © Nick Danziger/nbpictures; © Nick Danziger/nbpictures; Sipa Press/Rex Features; © Nick Danziger/nbpictures

القسم الرابع

الصفحة الأولى من الصور:

© Simon Walker/NI Syndication; Dan Chung/Guardian News & Media Ltd; Ian Waldie/ Getty Images; Jerome Delay/AP/Press Association Images

الصفحة الثانية من الصور:

Ian Waldie/Getty Images; Chris Ison/PA Archive/Press Association Images; Ian Waldie/Getty Images; Rota/Anwar Hussein Collection/Getty Images; © Nick Danziger/nbpictures; *The Times*/Peter Nicholls/NI Syndication

الصفحة الثالثة من الصور:

Ilan Mizrahi/Redux/eyevine;EG/*Israel Sun*/ Rex Features; PA/PA Archive/Press Associatiob Images; Tom Hanson/AP/Press Association Images; Sipa Press/Rex Features; Camera Press/ Alastair Grant/Rota

الصفحة الرابعة من الصور:

Dan Chung/Guardian News & Media/eyevine; John Gichigi/Getty Images; Adrian Dennis/ AFP/Getty Images; Kevin Coombs/PA Archive/Press Association Images; Dylan Martinez/ AP/Press Association Images

الصفحة الخامسة من الصور:

Reuters/Mike Finn Kelcey; Paul Faith/AFP/Getty Images; Stefan Rousseau/PA Archive/ Press Association Images; Reuters/ Nigel Roddis

الصفحة السادسة من الصور:

Jeff J Mitchell/Getty Images; Dan Chung/Guardian News & Media Ltd; Photograph by Zoe Norfolk, Camera Press London; © Felix Clay/eyevine

الصفحة السابعة من الصور:

Daniel Berehulak/Getty Images; Thaer Ganaim/PPO via Getty Images; Reuters/Jim Young

الصفحة الثامنة من الصور:

Matthew Doyle; Reuters/Nayef Hashlamoun; Benny Thomas/GEMS Education; © North News and Pictures Ltd

مقدِّمة الطبعة العربية

أمضي هذه الأيام شطراً كبيراً من حياتي في الشرق الأوسط. تبدو لي هذه المنطقة مثيرةً، ومليئةً بالتحدّيات، ومقلقةً على الدوام. يحمل تفاعلي مع هذه المنطقة شبهاً كبيراً مع الوقت الذي أمضيته في منصبي، وعلى الخصوص ما يتعلق بالعراق، ومع المخاطر التي تهدّد أي شخصٍ يجرؤ على أخذ مسعى السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين على عاتقه. لكنني، على الرغم من ذلك، أحب الإقامة في هذه المنطقة. ولو سمح لي وقتي بتعلّم لغة جديدة لكنت اخترت تعلّم اللغة العربية. يصعب على الأجنبي فهم هذه الثقافة فكيف الحال إذا أراد المشاركة فيها؟ لكني أعرف أن لهذه اللغة جمالاً وعمقاً عظيمين.

لم أتوقّع الأحداث التي وقعت في الأشهر الأولى من العام ٢٠١١. لكن سبق لي أن قلت منذ سنوات إن هذه المنطقة تمرّ بتغييرات. أما المسألة فهي: إلى أين ستقودها هذه التغييرات؟

بدت الأوضاع غير قابلةٍ للاستمرار، وساد شعور بأنها غير قابلة للاستمرار على ما هي عليه، وكان واضحاً أنها غير قابلة للاستمرار، لكن ظهر، مع ذلك، أنها غير قابلة للتحريك. سارت الأحداث خلال أسابيع قليلة بسرعةٍ مذهلة. تخيّم أجواء الثورة على هذه المنطقة أثناء كتابتي هذه الأسطر، ويستعيد عدد كبير من الناس اكتشاف أصواتهم في سياقها، كما يستعيدون اعتزازهم، ويكتشفون من خلال جهودهم الخاصة الإمكانيات اللامحدودة للحرية. لا يتعلق السؤال الذي يحيط بأي ثورة بالكيفية التي تبدأ فيها، بل بكيفية انتهائها. ويصح ذلك على هذه الثورة.

تُعتبر الأسطر التالية محاولةً مستندةً إلى تجربتي، بمرارتها وحلاوتها، وهي تستند إلى التحديات والخيارات التي يتوجّب على المنطقة مواجهتها هذه الأيام، كي تنجح

هذه الثورة وتجلب الحرية والازدهار. لا تأتي الثورات كلها بهذه النتائج، لكن هذه قد تنجح بالإتيان بها. ولا تأتي هذه النتائج بالاحتجاجات لوحدها لأن تغيير النظام القديم هو المهمة الأسهل، لكن بناء النظام الجديد هو الاختبار الصعب والشاقّ والمستمرّ لطبيعة ذلك النظام.

دعونا أولاً نضع هذه الثورة في سياق التغييرات العالمية. إن السّمةَ الرئيسة لعالم اليوم هي وتيرةُ التغيير. غيّرت التكنولوجيا وسائل الاتصالات، ووسائل الإعلام العامة والاجتماعية، وأصبحت الأفكار تنتقل بشكل فوري، وتبدأ التحركات بدوّامةٍ من الاضطرابات والهيجان. يبرز خلال هذه العوامل كلها خيار أساسي واحد للمستقبل: الانفتاح أم الانغلاق؟ أي اتجاهٍ تأخذه هذه الثورة؟ هل تتحرك نحو الاقتصادات والمجتمعات المنفتحة التي يتم فيها تبادل الأفكار، والابتكارات، وصيغ السياسات؟ أم تتجه نحو نظرة مغلقةٍ إلى العالم، ثقافياً واقتصادياً؟ وهل ثورةٌ كهذه نزعةً تمتدّ إلى خارج الحدود والمعتقدات والدول؟ أم أنها تبادل صيغةً قمعية بأخرى؟ ثمّة خيارٌ مفتوحٌ اليوم أمام الشرق الأوسط، وهو أكثر أهميةً بكثير من التمايز القديم ما بين اليمين واليسار.

نتساءل ثانياً، وبشكلٍ مرتبطٍ بما تقدّم، عن أي سياق لماضي المنطقةُ يُمهِّد المسرح لمستقبلها؟ إن الأنظمة القديمة في المنطقة ليست غير قابلة للإستمرار كأنظمةٍ فحسب بل كمفاهيم كذلك. تعامل بعض قادة المنطقة مع الغرب في الأساس، وشكّلوا تحالفات قوية معه، لكنهم شجّعوا شعوبهم على النظر إلى الغرب بنظرة عدائية وخالية من الاحترام، واعتبار نمط حياته مناقضاً تماماً لنمط حياة المنطقة. شكّل هذا الوضع تناقضاً خطيراً ما بين الحكّام والمحكومين، الأمر الذي ساهم في حالة عدم الاستقرار الكامنة في هذه المنطقة، وفي عدم النضج السياسي. ودفع هذا التناقض بالناس إلى تبني عقلية, لم تعتبر مشاكل المنطقة ناتجة من الداخل، بل مفروضة من قوى خارجية. لم يسبق قط أن تأسّست دولة عظيمة على عقلية الضحية. أما الواقع فهو أن مشاكل المنطقة هي من صنع المنطقة نفسها. لم يرغب القادة السياسيون الغربيون في حرمان شعوب المنطقة من حرياتها، على عكس الأساطير الكثيرة المنتشرة بين الناس عن سياسة الغرب. كان هؤلاء القادة مهتمين، بأن لا ينتج عن هذه الحريات أمور أسوأ. وليس هذا بالأمر السهل إطلاقاً. أعتقد أن الجدال

المبرّر، حول ما إذا كانت إزاحة صدّام حسين عن الحكم أمراً صائباً أم لا، هو جدال مرشّحٌ للاستمرار. لكن المقلق في الجدالات الشائعة في المنطقة هو القول إن ما حدث بعد سقوطه – وبعد شهرين فقط من بداية الأزمة – هو، بطريقة ما، بسبب إزاحته عن السلطة. لم يكن محتماً ظهور الإرهاب الذي حدث، أو حتى التدخل الإيراني، كما أنه غير مبرّرٍ بالكامل, على الرغم من اقتراح استبدال نظام صدّام حسين بعملية ديمقراطية بقيادة الأمم المتحدة، مع تمويل سخيّ يهدف إلى دعم عملية إعادة الإعمار في البلاد.

أما الحقيقة فهي أن عدم الاحترام الحقيقي الذي أبداه الغرب إزاء المنطقة كان في الاعتقاد بأن العرب عموماً والمسلمين خصوصاً ونظراً لأسباب ثقافية، أو لأسباب أخرى، غير مؤهلين لممارسة الديمقراطية. لم تثبت صحّةُ هذهً الفرضية كلياً. لكنّ إرادة التغيير وتحقيق هذه الإرادة، وحتى ما هو أكثر من ذلك، الوصول إلى التغيير نحو الأفضل، ليس بالمهمة السهلة على الإطلاق.

أما النهج الأفضل في هذا السبيل بالنسبة إلى المصلحين في المنطقة وأصدقائهم خارجها، فهو تنفيذ عملية التغيير التطوّري الذي يشجّع السير في مسارٍ ثابتٍ نحو التقدم. لكنّ الخيار المفتوح الآن هو التطوّر التدريجي مقابل الثورة. أما استمرار الواقع الراهن فليس بالخيار المتاح. قال لي أحد القادة الحكماء الذي يحاول دفع بلاده قُدُماً: إما أن نقوم نحن بالتغيير وإما أن نتغيّر نحن. يعني ذلك أن المسار الأفضل، الذي يجب على العالم الخارجي دعمه، هو المسار الذي ينشغل فيه القادة بإجراء جملة من الإصلاحات الثابتة التي تتبنّى متطلبات القرن الواحد والعشرين خطوةً خطوة. يجب هنا على الرأي العام الغربي أن يفعل شيئاً باتجاه إنضاجه: لا تشكّل الاحتجاجات التي تجري في الشارع أساساً صالحاً للحكم. يجب علينا أن نكون واضحين في الدعم الذي نقدّمه للديمقراطية ولحقوق الإنسان وحكم القانون، ومع ذلك نقول إن زعزعة الدول الرئيسة في الخليج، على سبيل المثال، ليس استراتيجية حكيمة أو تكتيكات مناسبة. يعني ذلك أنّ علينا دعم التغيير، ولكن مع شيء من الحذر.

هناك أمر ذو أهمية مماثلة، وهو إدراك أن الديمقراطية هي أمر يتجاوز الحقّ في التصويت. أسمع في بعض الأحيان هذه العبارة «نريد صيغتنا الخاصة بنا من

الديمقراطية». ويعني ذلك رفض تلك الصيغة من الديمقراطية التي يفرضها الآخرون، وخصوصاً تلك التي يفرضها الغرب. لكني أقول، لحسن الحظ أو ربما لسوء الحظ لا توجد سوى صيغة واحدة للديمقراطية. توجد بطبيعة الحال أعدادٌ متنوعة من الدساتير، وأنظمة انتخابات مختلفة، ومؤسّسات مختلفة للبُنى الديمقراطية. إنه مفهوم واحد يتعلّق بما يتعدّى المعاناة الموجودة في العالم. يتعلّق هذا المفهوم بحكم القانون، وهو الحكم الذي يمارسه جهاز قضائي مستقل. يتعلّق هذا المفهوم كذلك بحرية التعبير عن الرأي، وربما يتعلق أيضاً بحرية الأسواق. لكن المؤكّد أن هذا المفهوم يتعلّق بحرية المُعتقَد الديني.

يكمن في هذه النقطة الأخيرة خيار صعبٌ وحاسم آخر: أي اتجاه يأخذه الإسلام؟

أقول للذين يشعرون بالانزعاج من مثل هذه التساؤلات الأساسية، والذين يعتقدون أن التعبير لا يفيد عن الأمر بهذه الطريقة، إن الإحجام عن مناقشة هذا الموضوع هو مؤشّر على وجود أزمة. لا يمكن للمرء فصل موضوع الإسلام عن عملية فهم المنطقة. يعني ذلك أن النقاش موجود، وحتى الآراء المتصارعة موجودة. يقف، من جهة، أولئك الذين لا يُنتقص من إيمانهم شيء، لكنهم يريدون رؤية ما يشبه حركة إصلاحية في الإسلام. ويعتبر هؤلاء أن أفكار المتطرفين ونظرتهم إلى العالم، وليس أساليبهم فقط، هي أمور تتصف بالعدائية. إنهم منفتحون، وجاهزون، ومستعدّون وقادرون أن يكونوا جزءاً من القرن الواحد والعشرين. وهناك، من جهةٍ أخرى، أولئك الذين يفضّلون الرؤية المحافظة للإسلام، ولمذاهبه وممارساته، وعلى الرغم من أنهم يمقتون الأفعال التي يقوم بها المتطرفون، ويمتلكون، على الأقل، تعاطفاً قليلاً مع الطريقة التي ينظرون بها إلى العالم. هناك بطبيعة الحال أولئك الذين يتبنّون موقفاً وسطياً، ويمكننا إطلاق وصف «الإسلاميين» على بعضهم. أعتقد أن ما يهمّ الغرب هو ألاّ يعتبر منظمة مثل «الإخوان المسلمون» منظمةً متماسكةً وملتزمةً بعقيدة ثابتة ومحدّدة. يضمّ الإخوان المسلمون إصلاحيين من بينهم, ويُحتمل أن يتغيّروا مع الزمن ليصبحوا مثل الديمقراطيين المسيحيين في ألمانيا، أي يكون لقب الحزب دينياً، لكنه يحتضن العلمانية في جوهره.

ثمّة احتمال مماثل أن لا يحدث ذلك، وأن تقوم أحزاب جيدة التنظيم تكون إسلامية بالاسم والجوهر بالإمساك بزمام السلطة. يتعلّق أمر حدوث هذا الوضع،

جزئياً، أو عدم حدوثه، بكيفية تعاملنا مع الإخوان المسلمين. أما أنا شخصياً فأفضّل الحوار، وليس الاستبعاد. إننا بحاجة إلى أن نفهم كيف ينظرون إلى أنفسهم، وهم بحاجة إلى النظر إلى أنفسهم كما نراهم نحن. إنني أفضّل الكشف عن المواقف والسياسات بدل تركها تتطور مع إحساس بالعزلة، أو ما هو أسوأ من ذلك، أي تركها تتطوّر دون معرفة ما يعتقده العالم الخارجي فعلياً. أما أنا فاخترت طريقةً لتسهيل هذا التواصل، أي ما تقوم به مؤسسة طوني بلير للأديان وما تنشغل به من إقامة حوار بين الأديان، وبرامجها وتحرّكاتها الهادفة إلى تشجيع الأديان المختلفة على أن يفهم بعضها بعضاً.

يبدو من غريباً على الدوام أن أهتمّ أنا، الزعيم السياسي السابق، بالحوار بين الأديان. لكن سبب ذلك واضحٌ جداً. إن الدِّين في هذه المنطقة مهمٌ جداً. أما إذا طرحنا على الأوروبيين هذا السؤال: هل الدِّين مهم عندكم أم هو مهمٌ جداً؟ فإن الذين سيجيبون بنعم لن يزيدوا إلا قليلاً عن ٣٠ في المئة. أما في الولايات المتحدة فإنها تزيد قليلاً عن ٦٠ في المئة، لكن النسبة تزيد عن ٩٠ في المئة في باقي دول الشرق الأوسط.

يعني ذلك أن كيفية تطوّر الإسلام ليس قضية تتعلق بالسياسة، بغضّ النظر عن مدى تقاطع السياسة مع كل شيء. إن هذا التطوّر هو قضية تتعلق بالإيمان.

يبدو في هذا السياق أن ما يحدث في إيران يحمل أهمّيةً قصوى، وذلك لأن التغيير في طهران سيحسّن كثيراً مدى تفاؤلي الذي أشعر به حيال التغيير في المنطقة كلها.

إن تغيير النظام هناك من يمكن أن يزيل خطر قيام إيران النووية، مع ما يحمل ذلك من كوارث محتملة، ويحرّر قوى التحديث، ويصيب القوى الرجعية بالإحباط. سيسمح ذلك لإيران ـ وهي حضارة عظيمة إضافة إلى كونها دولة عظيمة – بأن تولد من جديد.

سيساعد هذا الأمر على مواجهة التحدي المستمرّ في المنطقة: أي حلّ النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني. إنني أكتب وأتحدث كثيراً عن الجانب السياسي في هذا التحدي، ويشتمل هذا الكتاب على قدرٍ كبيرٍ من معالجة هذا الموضوع. كما يتحدث

فصلٌ آخر عن عملية سلام أخرى، وهي العملية التي ظنّ كثيرون أنها صعبة، لكنها تمكّنت أخيراً من الإقلاع، أعني عملية السلام في إيرلندا الشمالية. أريد هنا التركيز على نقاط عدة أعتبرها في غاية الوضوح. يجب حلّ هذا النزاع نظراً لوجود ضرورة عالمية لهذا الحل، واستراتيجية إقليمية ملحّة للقيام بهذا العمل. ويتمثّل الحل العادل الوحيد في إقامة دولتين لشعبين. ويجب كذلك إجراء المفاوضات السياسية بالتزامن مع تغييرات مكملة على الأرض. أعتقد أن من الخطأ الكبير الاعتقاد أن الثورة الجارية حالياً تعني أن اهتمام العالم العربي قد انتقل إلى مكانٍ آخر. إنني أعتبر أن النزاع ما زال قائماً، وما زال محتفظاً بأهمّيته التي كانت له على الدوام، وأنه ما زال يلعب دوراً حاسماً في المنطقة وفي سلامها واستقرارها.

أما النقطة التي أريد التشديد عليها في هذا السياق فتتعلق بالفرق ما بين القادة والمديرين. يمتلئ عالم السياسة بالمديرين، وينجح بعض هؤلاء كثيراً في إدارة السياسة. أذكر ذات مرة أنني تأملت في لائحة بأسماء الوزراء على أمل إجراء تغيير وزاري بين الوزراء المقرّبين مني، ولاحظت اسم شخص معيّن. قال لي أحدهم: «إنه مناسب فعلاً. يمكنني القول، بصدق، إنه لم يعطِنا أيّ سبب للشكوى منه البتة». قلت: «وماذا أنجز؟» فجاءني الجواب: «لا أعرف ماذا أنجز على وجه التحديد، لكنه قام بإدارة الوزارة بشكلٍ جيدٍ بالفعل». لا أريد القول، بالمناسبة، إن الأمر يدعو للاستياء (سبق لنا أن استعرضنا أسماء كثيرين، وبتسرّع، ولأسباب مغلوطة) لكنني أقول إن المديرين ليسوا قادة أبداً. إنهم يحركون أحجار الرقعة، لكنهم لا يعيدون تصميمها.

أما القادة فهم يقومون بأشياء مختلفة بطبيعتها، ويخاطرون في بعض الأحيان، ويعودون إلى المبادئ الأولى. يطرح القادة أسئلة عن الغاية مما يجري. إنهم يتحركون بطرائق مفاجئة ومغامِرة. وهم معرّضون للمعاناة من إخفاقاتٍ كبيرة، ومرشّحون لتحقيق نجاحات كبيرة.

أما الأهمّ من ذلك كله فهو أنهم ينظرون إلى المشكلة بطريقة مختلفة، أي مثل ما يفعل المصوّر الذي يقوم بتصوير موضوعه من زاوية مختلفة، أو مثل الرسّام الذي تغيّر ضربات فرشاته طريقة رؤيتنا للعالم. إنهم يلتقطون الأشياء المهمة ويسخّرونها.

إنني الآن في عمق أعماق النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني. يمكنني حتى أن

أتكلم إلى ما لا نهاية عن سلبياته وإيجابياته، وعن تعقيداته. إنه نزاع بسيط جداً على مستوى معيّن. يوجد شعبان، أحدهما ذو غالبية يهودية، والآخر ذو غالبية مسلمة، وهما يعيشان جنباً إلى جنب في مساحة صغيرة من الأرض. أما إذا نظرنا إلى خريطة المنطقة فإننا سنضطرّ إلى الاقتراب كثيراً منها كي نتمكن من رؤية إسرائيل وفلسطين في وقتٍ واحد. تُعتبر هذه المنطقة أراضي مقدّسة، وهي المركز الروحي للأديان الإبراهيمية، أي إنها منجم ذهب. تحتوي المنطقة على مواقع تاريخية لا مثيل لها، كما تتمتّع بمناخ رائع، ويتميز سكانها باستعدادهم للمخاطرة من أجل تحقيق تقدّم في أعمالهم. وتتّمتع هذه البلاد بموقع مدهش ما بين الشرق والغرب، وهي بوابة بلاد العرب وما بعدها. يبدو هذا النزاع وكأنه يجري ما بين أفراد أسرة واحدة حول إرثٍ يقوم التضخّم والمحامون والمحاسبون بالتقليل من قيمته حتى يتلاشى تماماً.

يتوجّب على القيادة الإسرائيلية النظر إلى القضية الفلسطينية على أنها لا تتعلق بالسياسة فحسب بل بالكرامة كذلك. ويتوجّب على القيادة الفلسطينية بدورها أن تنظر إلى قلق الإسرائيليين بشأن قضايا الأمن على أنها ليست عذراً، بل على أنها، ولأسبابٍ متعددّة، قضايا تمسّ وجودهم بشكلٍ كبير.

كان من بين أهمّ الأشياء التي تعلمتها في إيرلندا الشمالية أن كل طرفٍ يفترض الأسوأ عن الطرف الآخر، وأن كلا الطرفين هما على خطأ. لكن الطريقة الوحيدة من أجل اختبار النيات هي إظهار النُبْل وليس الحقد.

يجب على إسرائيل أن تمتلك رؤية وتبصّراً يساعدانها على إدراك أن الفلسطينيين من دون دولة تخصّهم يقومون بإدارتها، بالإضافة إلى العالم العربي والمسلم الأوسع، سيعانون إحساساً مريراً بالظلم يؤدّي في نهاية الأمر إلى إضعاف إسرائيل. ويجب على الفلسطينيين، والمنطقة بأسرها، النظر إلى إسرائيل ليس بوصفها جسماً غريباً مغروساً في المنطقة، بل بوصفها دولة يُنظر إليها، ويجب أن يُنظر إليها لولا هذا الصراع، على أنها نموذج للمنطقة فيما يتعلق بالمشاريع، والحرية، والإبداع.

إن لي كوان يو، وهو مؤسّس سنغافورة الحديثة، هو قائد أكنُّ له إعجاباً كبيراً لهذا السبب إلى جانب أسبابٍ أخرى. كانت سنغافورة في البداية، أي بعد تحريرها من الاستعمار البريطاني، جزءاً من ماليزيا، لكنّ هذه الأخيرة سرعان ما تخلّت عنها

في الستينيات من القرن الماضي. كان اقتصاد سنغافورة ضئيلاً، وهكذا تجاهلتها جارتها الكبرى. أمسك لي كوان بالاقتصاد وبناه، وهو لم يأبه لشيء إلا إذا كان ناجحاً في جلب الازدهار والتقدّم للسكان. تجاهل لي كوان يو كل قاعدة من قواعد التفكير التقليدي، ورفض تطبيق كل قواعد الصوابية العقائدية، ونبذ مجالات واسعة من التقاليد، ولم يعمد إلى إلقاء مسؤولية محنة البلاد على أي دولةٍ من الدول، لأنه كان يترقّب الفرص السانحة. امتلك لي كوان التواضع الذي أتاح له معرفة كل ما يأتي من الثقة الحقيقية بالذات. كان يرى ما يراه الآخرون، لكنه رآه بطريقة مختلفة. وتمكن بهذه الطريقة من إنجاز شيء ظنّ الآخرون أنهم عاجزون عنه. هذه هي القيادة الحقيقية.

أما هذه المنطقة فهي تفتقد كثيراً القيادات الحقيقية حيث الحاجة إليها هي في حدّها الأقصى. إذاً، ما هي الإمكانيات الموجودة في هذه المنطقة؟ يوجد سبب يجعل كل الأجانب عن المنطقة، مثلي أنا، الذين يأتون إلى الشرق الأوسط يجدون فيه نوعاً من السحر. تمتلك المنطقة، بطبيعة الحال قدراً كبيراً من القساوة والأحقاد المتوارثة، لكنها تحتفظ كذلك بجمالها وروحها. قمت في السنة الماضية بزيارة قرية صغيرة تدعى سيباستيا، وهي تقع في التلال المجاورة لمدينة نابلس في فلسطين. تعاني هذه القرية التخلّف الشديد على الرغم من أمجادها الغابرة. وتوجد في القرية كنيسة يعود تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي. ويقول بعضهم إن رفات يوحنّا المعمدان وُجد فيها. يقع في منطقة مجاورة جامع يحيى الذي يعود تاريخ بنائه إلى زمن صلاح الدين الذي حكم في القرن الثاني عشر، كما توجد على بعد مئات قليلة من الأمتار آثار يونانية ورومانية تغطّي مساحةً واسعةً من الأرض التي لا يزال أحد القصور والمسارح المدرّجة موجودَين فيها.

بزغ من هذه المنطقة الإلهام لأجمل الأديان في العالم، وكذلك أرقى الفنون والثقافات، لكن المنطقة غابت طويلاً جدّاً عن الصفوف الأمامية للتقدم. والعالم ينتظر عودتها.

طوني بلير

نيسان/أبريل ٢٠١١

مقدّمة

قصدت أن يكون هذا الكتاب مختلفاً عن المذكّرات السياسية التقليدية، التي لاحظتُ أن معظمها سهل التدوين عادةً. إنّ ما ستقرأه في هذا الكتاب لا يندرج في خانة الوصف التقليدي للأشخاص الذين التقيتهم، أو للأعمال التي قمت بها. تستبعد هذه المذكّرات مجموعةً من الأحداث، والتواريخ، وبعض السياسيين، لكن السبب لا يعود إلى ضآلة أهميّتها، بل لأنني لم أقصد الكتابة كمؤرّخ بل كزعيم. ظهرت، وستظهر من دون شك، روايات كثيرة عن فترة السنوات العشر التي أمضيتها كرئيس للوزراء، ولا أشك كذلك في قدرة عددٍ كبير من الأشخاص على الكتابة عنها. لكنْ هناك شخص واحد، هو أنا فقط، يمكنه التحدث عما يعنيه أن يكون المرء محور تلك الفترة من التاريخ.

يمكنني القول، والحالة هذه، إن هذا الكتاب هو رواية شخصية، ووصف لمسيرتي خلال فترةٍ محدّدة من التاريخ تطوّرت فيها شخصيتي السياسية، وصورتي الشخصية إلى حدّ معيّن، أو حتى تغيّرتا. بدأتُ كنموذج معيّن من القادة، لكنني انتهيت إلى نموذج آخر، وهذا هو سبب تسميتي هذا الكتاب رحلة [مسيرة]. وصفت، بالطبع، الأحداث الرئيسة التي حدثت في فترة رئاستي للحكومة، لكني فعلت ذلك من زاوية الشخص الذي اتخذ القرارات العائدة إلى تلك الأحداث. إنها ليست رواية موضوعية، ولا أدّعي أنها كذلك، لكني آمل، مع ذلك، أن تكون منصفة.

بوّبت هذا الكتاب بحسب المواضيع، وذلك بدلاً من اتباع تسلسلٍ زمني محدّد.

صحيحٌ أنّ هذه المواضيع تبدأ، أساساً، من العام ١٩٩٧ وتنتهي في العام ٢٠٠٧، لكنني عالجت في هذا السياق مواضيع متفرقة، مثل تسلّمي للسلطة، أو إيرلندا الشمالية، أو الأميرة دايانا، أو أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، أو العراق، أو مسألة إصلاح الخدمات العامة، أو الألعاب الأولمبية، أو تموز/يوليو ٢٠٠٥. يمكنك، كقارئ، أن تنتقي موضوعاً معيّناً، وأن تنظر إليه في ذاته إذا أردتَ، وذلك على الرغم من وجود مواضيع كثيرة مرتبطة به. هناك بعض الأمور التي تتبع هذا السياق، مثل علاقتي بغوردون براون، وبالرؤساء الأميركيين.

سبق لي أن قرأت سيراً ذاتية، أو مذكّرات، تبدأ بحماسةٍ بالغة، لكنها لا تلبث أن تغرق في لُجّة اليأس والتعجّل كلما دنا موعد تسليم النص للناشر، لذلك اتخذت خطوةً غير عادية تتلخّص في كتابة الفصول من دون تسلسلٍ معيّن. عمدت إلى معالجة بعض أصعب هذه الفصول في البداية، وانتهيت إلى معالجة أسهلها، وذلك لأنني أردت الحفاظ على زخمي، وعلى طاقتي، في الكتابة حتى النهاية. أمضيت ثلاثة أعوام في وضع هذا الكتاب.

لا يمكنني اعتبار هذا الكتاب، ببساطة، مجرد مراجعة للماضي، على الرغم من أنه يعالج، بالطبع، أحداثاً مضت، لكنه يتفحّص هذه الأحداث كما كانت في أثناء حدوثها. لا أعدّ نفسي شخصاً يحب استرجاع الماضي في واقع الأمر، وذلك لأنني أتطلع إلى المستقبل، كما أريد تحقيق أمورٍ كثيرة وجعل أهداف عظيمة أمامي لحياتي. إنني مستمرّ في العمل بجهدٍ يماثل ما تعوّدته في الماضي، كما أنني ما زلت أتعلم.

يتطلع كتاب رحلة [المسيرة] A Journey نظرة نحو المستقبل علاوةً على استخدامه الماضي للإضاءة على القضايا التي لا تزال عالقةً في الوقت الحاضر، وخصوصاً ما يتعلّق منها بالقضايا الخارجية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، والصراعات الدائرة في العراق وأفغانستان، وكذلك ما يتعلّق منها بإدخال إصلاحات مهمّة إلى قطاعات الصِحة، والتعليم، والرفاه الاجتماعي، والقوانين، والنظام، وهي الأمور التي لا تزال تشغل الحكومات الحالية. أسعى كذلك إلى رسم صورةٍ للعالم كما هو، وكما يُحتمل أن يكون، وليس فقط كما وجدته عندما كنت في

السلطة. يعالج الفصل الأخير بالتحديد الفترة الواقعة ما بين العامين ٢٠٠٧ و٢٠١٠، ويسلّط الفصل الأخير الضوء على وقائع لا تتوافق ومعظم الآراء السائدة عن الأزمة الاقتصادية، وعن تحدّيات الأمن التي ما زالت ماثلة. وكذلك يعالج هذا الفصل الجدال القائم هذه الأيام بشأن القضايا اليومية.

أخيراً، إنني أعتبر هذا الكتاب نوعاً من الرسالة المطوّلة للبلد الذي أحبّه، والذي فزت فيه بثلاثة انتخابات عامة متوالية، مع العلم أنّ حزب العُمّال لم يتسلّم السلطة حتى ذلك التاريخ لفترتين كاملتين ومتواليتين. أمّا أطول فترة أمضاها حزب العمال في السلطة فقد كانت ست سنوات، في حين أن حكومتي بقيت ثلاث عشرة سنة في السلطة. كان يمكنني البقاء في السلطة لفترة أطول، كما ذكرت في الفصل الأخير، لو أن هذه الحكومة لم تبتعد عن سياسات حزب العمال الجديد.

تمكّنت من إحراز كل هذه الانتصارات نظراً لوجود مجموعة من الأشخاص الذين يشاطروونني الشعور ذاته بشأن بريطانيا التي هي بلد عظيم. إننا نشعر أنّ الشعب البريطاني هو، في أحسن حالاته، شعبٌ شجاع ومصمّم، ومغامر، لكننا نحتاج إلى رؤية، وإلى مفهوم، وإلى إحساس بمكاننا في هذا العالم وبمستقبلنا، بالإضافة إلى حاجتنا إلى احترام عميق لماضينا. هذا هو سبب كوني مُجَدِّداً في الماضي، وسأبقى كذلك. ولذلك أعتبر نفسي مجدِّداً أكثر من كوني سياسياً تقليدياً من اليمين أو من اليسار. أردت أن أجدّد حزب العمال بحيث يتمكن من تقديم بدائل تقدّمية لحكم المحافظين، بصورة مستمرة، وليست موقتة. أردتُ تحديث بريطانيا بحيث تتمكّن من الحفاظ على افتخارها بالاضطلاع بقيادة العالم في مطلع القرن العشرين بصفتها أقوى دولة فيه، ومن دون أن تشعر بالنقص وبتراجع نفوذها عند حلول القرن الواحد والعشرين، لأن ذلك الدور لم يعد يناسبها. أردت أن نكون بلداً فخوراً لأنه بلد ثقافاتٍ ومعتقداتٍ متعدّدة، يتبنّى سياساتٍ مناهضة للتمييز من أيّ نوعٍ كان، ويهتمّ بالكفاءة أكثر من الانتماء الطبقي، إضافة إلى أن بلادنا مرتاحة بوجود المجتمع المنفتح والاقتصاد المعولم. أردت أن يتبنّى مجتمعنا مجموعةً جديدةً من الطموحات داخل بلادنا وخارجها كذلك. أردت إصلاح تقديماتنا وخدمات الرفاه الاجتماعية في دولتنا بحيث تتمكّن من مجاراة العالم كما هو في العام ٢٠٠٥، وليس في العام ١٩٤٥. قصدت كذلك استخدام عضويتنا في الاتحاد الأوروبي، وتحالفنا مع

الولايات المتحدة، من أجل التأثير في القرارات التي تُتخذ في هذا العالم، وذلك وعلى الرغم من تقلّص قوتنا مقارنةً ببعض الدول الناشئة. أردت كذلك أن نلعب دوراً جديداً في قاراتٍ مثل إفريقيا بوصفنا شركاء في التنمية. ووضعت من ضمن أهدافي صوغ سياساتٍ جديدة يتمكّن من خلالها الشركات الناجحة، والأشخاص الطموحون، من التعايش براحة إلى جانب مجتمع الفرص المتساوية والتعاطف.

يسعى هذا الكتاب إلى وضع رؤيةٍ كهذه، وأعتبر أنني نجحت في بعض النواحي وفشلت في بعضها الآخر، لذلك أعتبر أنّ الكتاب يعالج مشروعاً قيد الإنجاز. ويعرض هذا الكتاب رأيي في السبب الذي يحول دون توافق القوى الفاعلة في هذه البلاد، سواء منها قوى اليمين أو اليسار، مع رؤيةٍ كهذه، وبالتالي سعي هذه القوى إلى عرقلتها، كما يعرض السبب الذي يدفعني إلى اعتبارهذه الرؤية الأمل الوحيد لمستقبل بريطانيا.

وعلى الرغم من أن سياساتي تخطّت، عمداً وعن وعي، اليمين واليسار التقليديين، إلا أنني لا أريد أن يفهم القارئ أنني أنأى بنفسي عن السياسات الحزبية القائمة حالياً. بيّنت في السابق، ومراراً، أنني أدين لحزب العمال ولأعضائه، ولمناصريه، وللناشطين فيه، بقدرٍ كبير من الفضل، وذلك لأنني أجهدتهم كثيراً، لكنهم نظروا إلى الأمر بعين استثنائيةٍ من الفخر والولاء. لا أُخفي أنني أفكر أحياناً بطريقة محافظة، وعلى الخصوص في ما يتعلّق بالأمور الاقتصادية والأمنية، لكن قلبي ينبض دائماً بمشاعر تقدمية، وسيظلّ روحي روح متمرّدٍ على الدوام.

الفصل الأول
توقُّعات عظيمة

توجّهت في الثاني من شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٧ نحو داوننغ ستريت [مقرّ رئاسة الوزارة البريطانية] لأول مرّة بصفتي رئيساً للوزراء. لم يسبق لي حتى ذلك الحين أن تسلّمت منصباً حكومياً، أكان كبيراً أم صغيراً. كانت تلك وظيفتي الحكومية الأولى والوحيدة.

شهدت ليلة الانتخابات في الأول من شهر أيار/مايو احتفالات صاخبة، ومظاهر ابتهاج، ومشاعر عالية من الآمال والتوقّعات. لكنّ الشعب لا يتمكن من صنع التاريخ عن طريق القفز في الهواء والرقص. انتهت في ذلك التاريخ فترةُ حكم المحافظين التي امتدت ثمانية عشر عاماً، وفاز حزب العمال، أي حزب العمال الجديد، فوزاً ساحقاً. شعرت عندئذٍ بأنّ حقبةً جديدة على وشك أن تبدأ، وسرت في أعماقي أحاسيس كشحنةٍ كهربائية حينما سرت بحماسةٍ بين الحشود التي تجمعت بعناية وعلى نحو منضبط على الرغم من ضغط الانتخابات، وعدم النوم طوال الليل، وتقدمت من خلال البوابات الحديدية إلى مبنى شارع داوننغ بحماسةٍ شديدة. سرت شحنة الحماسة هذه ليس بين الحشود فقط، بل من خلال البلاد بأسرها. تأثر الجميع بهذا الجوّ الذي رفع من معنوياتهم، وأعطاهم الأمل، وجعلهم يعتقدون أن كل الأشياء ممكنة الحدوث، وأن مجرد إجراء الانتخابات والروح الذي يحيط بها هو أمرٌ كفيلٌ بتغيير العالم.

ينطبقُ هذا الأمر على الجميع ما عداي أنا، لأنّ الشعور الذي خيّم عليّ كان شعور الخوف. كان ذلك النوع من الخوف الذي لا يشبه أيّ إحساس سبق لي أن شعرت به، أي إنه كان أعمق من الشعور الذي أحسستُ به في ذلك اليوم الذي علمت فيه بأنني سوف أتولى زعامة حزب العمال. تمكّنت من احتواء ذلك الخوف حتى ليلة الانتخابات، وذلك بفضل الروتين والصرامة اللذين رافقا الجهود الجسدية والذهنية للحملة. وكانت الحملات الانتخابية أمراً مألوفاً لديّ سواء من الناحية العاطفية أو السياسية، كما تمكّنتُ من وضع استراتيجية تمكّن حزبنا من الانتقال من المعارضة إلى الحكم. التزمتُ هذه الاستراتيجية لأنني أدركت أنني إذا فعلت ذلك فلن أفشل أبداً. أقدمتُ على إعادة تعريف حزب العمال ليصبح حزب العمال الجديد. أردت أن يكون هذا الحزب الجديد قوّةً تقدمية متغيرة في السياسة البريطانية، كما وضعت خلاصةً لبرنامج يشتمل على بنودٍ تضمن حصوله على المصداقية، لكنه يفتقد التفاصيل التي كانت ستسمح لخصومنا بإدانته وانتقاده. تمكّنت كذلك من شنّ هجوم قويّ وصادق على الحكومة القائمة، كما تمكّنت من تجميع ماكينة انتخابية سرسةً وفعّالة.

أردت غرس النظام والانضباط داخل الحزب، حتى بين فريق العمل الذي يحيط بي، لذلك كنت المحارب الدائم ضد الرضا عن الذات والاسترخاء. تحدثت مراراً عن إمكانية خسارة التفوق الذي أحرزناه في استطلاعات الرأي، وكيف ينبغي لنا عدم الاستهانة أبداً بحزب المحافظين، وتحدثت كذلك عن معاناتنا لهذه المشكلة، ولذلك التحدي. لقي كلامي آذاناً صاغية لأننا خسرنا في أربعة انتخاباتٍ على التوالي، ولأننا لم نحكم لفترتين كاملتين ومتواليتين حتى ذلك التاريخ. وصل الأمر بالحزب إلى حد الاعتقاد بعدم وجود إمكانية لفوزنا، وبأن من غير المسموح لحزب العمال، لأسباب مقدّسة أو شيطانية، تحقيق فوزٍ في الانتخابات بغضّ النظر عن الجهود التي نبذلها. واعتبر بعض الناس أنّ ذلك يماثل قوانين لعبة كرة القدم القديمة، أي إنها لعبة من كرة مستديرة، ومن فريقين يتألف كلاهما من أحد عشر لاعباً، وتستغرق المباراة خمساً وأربعين دقيقة في كل نصف فترة، بحيث يربح الألمان على الدوام.

اعتبرت كل ذلك مجرد خرف محض. خسرنا في الماضي جراء ابتعادنا عن الناخب العصري في عالمٍ عصري. إن أول قاعدة في السياسة هي عدم وجود قواعد

مطلقاً، أقله ليس بمعنى وجود خاسرين دائمين ورابحين حتميين، لأن المرء إذا امتلك السياسة المناسبة، والاستراتيجية المناسبة، فسيحوز دوماً فرصةً للفوز، ومن دون هذين الأمرين سيخسر بغضّ النظر عن الثقة بتحقيق النصر.

ساعدني التظاهر بأنّ حزبنا قد وصل إلى مفترق طرق، على تحفيز رفاقنا وإبقائهم متوافقين مع سياسة الحزب، وذلك على الرغم من ثقتي الضمنية التامة بالفوز، التي تمكنت من إخفائها. يُضاف إلى ذلك أنني كنت أعتبر أن رئيس الوزراء الحالي [في ذلك الوقت]، جون مايجور، هو أفضل بكثير مما يعتقده معظم الناس. يمتلك الرجل جاذبيةً شديدةً كشخص، لكنّ حزبه قد حاد، لحسن الحظ، عن خطّه ليتخذ موقفاً يمينياً متشدّداً وصارماً. وتعلّمت من خلال الفترة التي قضيتها كزعيم للمعارضة، والتي بدت طويلة لامتدادها لثلاثة أعوامٍ تقريباً، كيفية دفعه وحزبه في مساراتٍ متعاكسة.

قرّر مايجور شنّ حملة انتخابية طويلة لمدة ثلاثة أشهر. كانت هذه الفترة قاسية بالطبع، لكنها لم تكن ذات طبيعة غريبة، إذ إنها توافقت مع نمطٍ معيّن. كانت آمال خصومنا معلقة على إمكانية ارتكابنا خطأً ما عندما أحيد عن الصواب نتيجة حيلة ما، أو ضربة حظ، بحيث يتغيّر مزاج الجمهور. لكن ذلك كان من الأمور المستحيلة.

انقسم المحافظون بدلاً من ذلك، كما كان متوقعاً. وكان أحد القياديين في حزبه يستقيل كلما حاول مايجور إعادة الحزب إلى الواجهة مجدّداً، أو كلما كان هذا المسؤول أو ذاك يتلفظ بشيء يحمل قدراً معيّناً من الغباوة، أو حينما كان يقع في فضيحة ما. تكررت هذه الأمور الثلاثة في وقتٍ واحد، وأحياناً مع الشخص ذاته. كان الأمر شبيهاً بمشاهدة عملية انتحارٍ بطيئة، أو أحد الأشخاص الماهرين في فنّ التخلص من أحجارٍ إسمنتية مربوطة إلى ساقيه، مع وجود أصفادٍ في يديه، يدخل بعد ذلك صندوقاً من الرصاص ويقفله، ثم يقفز إلى مياهٍ عميقة. قد يفكر المرء في كيفية تخليص ذلك الشخص من كل هذه القيود، لكنه لا يلبث أن يتيقن من عجزه عن ذلك. يعجب المرء من إمكان أن يضع حزبٌ ما نفسه في هذا الموضع، لكنّ خصوم هذا الحزب يمتلكون إمكان دفعه إلى هذا الموضع إذا ما امتلكوا ما يكفي من الذكاء، وتمكنوا من احتلال منطقة الوسط، مما يدفعهم إلى جانب الملعب.

وهكذا كانت فترة الحملة الانتخابية طويلة وشاقة، أي كما كانت على الدوام، وخاضعة لتقدم وتراجع زائفين، واستطلاعات رأي صادمة وأحداثٍ مذهلة، لكن النتيجة كانت واضحةً في نهاية الأمر، مع أن ميزان النصر لم يكن بهذا الوضوح. خطرت في ذهني فكرة محدّدة، وكنت مستعداً للمراهنة عليها بمبلغ كبير. اتضح لي مدى ضخامة هذه الفكرة في ليلة الأول من أيار/مايو، وهنا بدأتْ عندي مرحلة الخوف.

مرّ اليوم المحدّد للانتخابات من دون أحداث، أي كما جرت العادة. تتوقف الحملات الانتخابية ويتوجّه المواطنون إلى صناديق الاقتراع. خرجت من المركز المحدّد للاقتراع في دائرتي الانتخابية، أي في تريمدون كوليري، وهي قرية تعدين قديمة تقع بالقرب من سيدجفيلد في مقاطعة ديرهام حيث بقيت نائباً عنها في المجلس النيابي لمدة أربعة عشر عاماً. وقع المنجم في هذه القرية ضحية سياسات الإغلاق التي سادت الستّينيات. توجّهت نحو مركز الاقتراع مع شيري والأولاد، الأمر الذي أعطى صورةً للعائلة المثالية أمام جمهورٍ من المصوّرين الذين أرادوا التقاط صورةٍ لنا. يتعيّن على المرء في مثل هذه الحالات أن يبتسم لكنْ مع شيء من الاعتدال، وأن يتكلم من دون أن يؤشر كثيراً بيديه، أي يتعيّن عليه أن يبدو طبيعياً وكأنه يخرج في نزهة ممسكاً بيد زوجته، بينما يرتدي بنطال بذلة مع ربطة عنق، في حين يسير الأولاد في الخلف، وكل ذلك من أجل الإدلاء بصوته في كشكٍ موقّت قبل أن يشغل مكانه في التاريخ.

عدت إلى المنزل في ذلك اليوم، لكن سبق لي أن انتظرت الهزيمة في أيام الانتخابات ثلاث مرات من قبل، أي في الأعوام ١٩٨٣، و١٩٨٧، و١٩٩٢. رحت أتساءل يومئذ عما سيعنيه الأمر بالنسبة إليّ، وكيف سأتصرف في فترة المعارضة التالية، وما إذا كنتُ سأحصل على فرصةٍ للمساعدة على إخراج حزبنا من مسار الهزيمة. تركّزت الأنظار عليّ هذه المرة بينما كنت أجتاز الدرجات الأخيرة التي تفصلني عن النصر. يتمكن القلق من التغلّب على كل المشاعر الأخرى، ويجد المرء صعوبة في محاولته تهدئة أعصابه. حاولت التركيز على كيفية اختيار الوزراء، كما هاتفتُ غوردون براون، وبيتر مندلسون الذي كان مسؤولاً عن استراتيجية الحزب. وجاء جون بريسكوت من هال كي يتحدث معي عن تشكيل الوزارة، كما تحدثت تكراراً مع

فيليب غولد، وهو المسؤول عن استطلاع الرأي، بالإضافة إلى أعضاء الحزب، عن احتمالات الفوز بالأغلبية، لكنني فعلت ذلك بغية تمضية الوقت في واقع الأمر. لم أتمكن، في ذلك الوقت، من إدراك مدى جسامة ما كان على وشك الحدوث.

بدأت إدراك الأمر مع بداية عملية عدّ الأصوات التي كانت تجري داخل الأبواب المغلقة لمركز رياضي خالٍ في نيوتن آيكليف. أظهرت النتائج الأولية تفوقاً كبيراً لمصلحتنا، وهي النتائج التي كان يُمكن أن تتغيّر تغيراً طفيفاً، لكن كان من المستبعد أن تكون خاطئة إلى حدٍّ بعيد. اتجهنا نحو فوزٍ مؤكّد، الأمر الذي يعني أنني سوف أصبح رئيساً للوزراء. بدأت معنوياتي تتغيّر مع تقدم المساء وظهور النتائج تباعاً. كانت غاية الرحلة [المسيرة]، على الدوام، هي تغيير البلاد، لكن جهودنا المعمقة تمركزت حول الوصول إلى النقطة التي تمكّننا من فعل ذلك. قمنا باستغلال كل لحظةٍ من لحظات يومنا في سبيل التغلّب على التحديات، والتأكد أنّ العربة جاهزة لهذه الرحلة، وكذلك المحرك، وأنّ الركاب، سواء من هم على متن هذه العربة، أو أولئك الذين يهتفون بحماسةٍ من ورائنا، لا يقطعون علينا الطريق من أمامنا. عمدنا إلى التأكد من كل هذه الأمور وإجراء مناقشاتٍ معمقة تهدف إلى رسم خطة تحرّكنا في هذا الوسط الحكومي الجديد، وذلك فور اجتيازنا هذه المرحلة. حافظنا في تلك اللحظات على ذهنية المعارضة، التي تعوّدناها لوحدنا مدة سنواتٍ طويلة، وهي الأمور التي سيطرت على تفكيرنا. كانت قوانا الفكرية والعقلانية مع اقتراب موعد تسلّمنا للسلطة منصبةً كلها على كيفية تشكيل الحكومة، على الرغم من ميلنا العاطفي نحو الوصول إلى هذه المرحلة.

كان ذلك هو العمل الوحيد الذي نجيده، وكان واحد أو اثنان من قدامى الحزب من أمثال جاك كنغهام، ومارغريت بيكيت، هما الوحيدين اللذين شغلا مناصب وزارية ثانوية في حكومة كالاهان بين العامين ١٩٧٦ و١٩٧٩، لكن تحتّم على الآخرين، بمن فيهم أنا، أن يشاركوا في السلطة بصفتهم مبتدئين تماماً. عرف العضوان القديمان في الحزب الحكومة العمالية عندما كانت في نزاعها الأخير، لذلك كان زمن، وطابع، وروحية العام ١٩٩٧ بعيدة عن زمن وطابع وروحية السبعينيات بعد المرّيخ عن الأرض.

أما نحن فقد وضعنا أنفسنا في الجو، وامتلكنا الزخم اللازم للحفاظ عليه، وكنا

نعتقد أن بداية كل مغامرةٍ جديدة تفرض نفسها على الذين يجهلونها. وثقنا جيداً بأننا عندما نصل إلى هذه المرحلة سوف نضع كل شيء وراءنا، ونكون بذلك قد قهرنا خصومنا بسهولة، وخرجنا من عتمة الانعزال. ألم نخُضْ حملة انتخابية عظيمة؟ ألم نطعن أعداءنا بحربتنا وكأنهم ثمرة فاكهة ناضجة؟ ألم تنجح استراتيجيتنا، التي بدت مثل هدية القدر إلينا، في تشتيت الكبرياء المتأصّلة في مُخَيّلتهم وأفئدتهم؟ أليس الحكم مجرد مرحلة أخرى في المسيرة ذاتها، ولربما كانت مرحلة جديدة تأخذنا بعيداً، لكنها غير مؤكّدة، ولا يمكننا توقّعها الآن وهنا، لكن أيمكن أن تكون مختلفةً حقاً إلى هذا الحدّ؟ أعتقد جازماً أننا لن نخسر تلك المزايا في المراحل اللاحقة التي تنتظرنا في مسيرتنا، وذلك إذا كنا جريئين، وإذا تصرّفنا بثقةٍ تامة، وإذا حافظنا على روحية الإمكانية ذاتها، وهي الأمور التي مكّنت فريقنا، ببراعة، من الوصول إلى هذه المرحلة.

أعتقد أنّ جميع الذين يحيطون بي يفكرون بهذه الطريقة ذاتها، ولطالما راودني الشعور ذاته بين وقتٍ وآخر. في تلك الليلة، ومع اقتراب تحقُّق فكرة كوني رئيساً للوزراء، تلاشت الأفكار القاتمة من أمامي، لكنني كنت خائفاً من الوقوف أمام الأضواء وجهاً لوجه.

كنت خائفاً لأنني أدركت أن هذه المرحلة ليست مجرد مرحلةٍ أخرى في المسيرة ذاتها. سندخل الآن مجالاً جديداً وغريباً علينا. خفت كذلك لأنّني شعرت بالغريزة بأن العقبات والتحدّيات التي ترافق ذلك المنصب تختلف من حيث نوعية تعقيداتها عن التحديات والمصاعب التي سبق لي أن واجهتها. كنت خائفاً لأنني في مرحلة إصراري على تحطيم الحكومة، كنت أدرك أن الرأي العام عندما يغضب على الحكومة، حتى وإن تكن على صواب، فلا يعود يهتمّ أكانت إجراءاتها صائبة أم خاطئة، وأن المزاج العام الذي تخلى عن مساندة الحكومة واحتضننا سيكون قاسياً في حملاته، ولن يكترث مطلقاً لغير إرضاء ذاته. خفت كذلك لأنني فكّرت بيني وبين نفسي فجأة، وفي تلك اللحظة، ليس بوصفي الشخص الذي فاز وسيتسلم السلطة، والذي يتحدى الآخرين للوصول إلى هذا المنصب، وليس بوصفي ذلك النبيّ، بل بوصفي حاملاً مسؤولية الذي لن يتمكّن من تفسير سبب فشل أمورٍ كثيرة، والشخص الذي يتخذ قرارات لوضع الأمور في نصابها. أدركت في أعماقي أنني لا

أعرف شيئاً عن مدى صعوبة هذه المهمّة في واقع الأمر، وإن كان هذا الشعور يندفع بطريقه نحو الظهور، وأنني لا أعرف شيئاً عن كيفية عمل الحكومات، كما أنني لا أعلم، فوق كل شيء، أي شيء عن ردة فعلي عندما ينقلب مزاج الرأي العام ضدّي، لأنني كنت أعرف أن هذا سوف يحدث في يومٍ من الأيام.

بدأت الاحتفالات بالفوز في لندن، وبالتحديد في مقرّ القيادة في ميلبانك (أي المبنى الذي شنّ منه حزب العمال حملته الانتخابية، وهو نموذج يُحتذى في قساوة الحملات الانتخابية). أما دائرتي الانتخابية في مقاطعة ديرهام، حيث كانت تجري عملية فرز الأصوات، فقد كانت الأجواء فيها تفوح بالهوس والابتهاج. عُرف جمهور حزب العمال بهذه الحماسة منذ القِدم، لكن هذا الأمر ينطبق على جمهور المحافظين والديموقراطيين الأحرار، وعلى آخرين كذلك.

ثمة ملاحظة غريبة في النظام البرلماني، كونه يوجب على رئيس الوزراء الذي هو نائب عن دائرته الانتخابية، أن يخضع للتصويت وأن يقف فوق المنصّة مع بقية المرشحين ويكون مجرد مرشح عن دائرته، بينما يقرأ الموظف المسؤول النتيجة، وهو أمرٌ يحمل قدراً كبيراً من الإذلال. إنه إجراء غريب، لكنه ديموقراطيّ تماماً، ولعله أقرب لأن يكون صائباً. تحظى المعارك الانتخابية الكبيرة بتغطية كبيرة بالطبع، لكن ناخبي رئيس الوزراء وزعيم المعارضة لا يحظون بدعم الأحزاب الرئيسة في البلاد وحسب، بل بدعم عدد لا يُحصى من المرشحين الآخرين الذين يسعون وراء الشهرة لعدة أسباب (وأحياناً لمجرد الشهرة). إنهم يقرنون أسماءهم بأسماء غريبة ومدهشة مثل سكرووي درايفر (حزب الروك والرول)، وبوني ماروني ستينيفورث (حزب مونستر رايفنج لوني)، وجوناثان كوكبرن (حزب ضرورة إقصاء بلير)، وشيري بلايرأوت جيلهام (حزب المتقاعدين)! ويحقّ لكل حزبٍ من هذه الأحزاب أن يرسل بعض المندوبين لفرز الأصوات، لذلك كنت تراهم يختلطون معاً، بينما اكتفيت أنا بمشاهدة الانتخابات في أنحاء البلاد على شاشة التلفزيون في الطابق العلوي.

لم يمرّ وقت طويل قبل أن يشير الميزان بوضوح إلى فوز حزبنا. لم يكن الأمر مجرد فوز، لأنه كان فوزاً ساحقاً. مرّت ساعتان فشعرت بالقلق الفعلي. كان الحيّز المتحرك في أسفل شاشة التلفزيون يُظهر فوز حزب العمال بأكثر من مئة مقعد، بينما

لم يفز المحافظون إلاّ بستة مقاعد فقط. انتابني الشعور آنئذ بأنني قد أقدمت على عملٍ غير دستوري. سبق لي أن رغبت في إلحاق الهزيمة بحزب المحافظين، بطريقةٍ لبقةً، لكن ماذا يحدث لو سحقناه سحقاً؟ تزايد، لحسن الحظ، عدد المقاعد التي فازوا بها، لكن كان من الواضح أن الأغلبية التي فزنا بها ستظل تاريخية. بدأ الناس بالاسترخاء وراحوا يتناولون الشراب، أما أنا فلم أتناول أي شراب نظراً لوجود أعمال كثيرة بانتظاري. سيتعيّن عليّ إلقاء خطب، وكتابة رسائل، وتعديل بعض اللهجات، والمحافظة على بعض السلوكيات التي ينبغي أن تتوافق مع ضخامة الفوز.

بدأت مشاعري عند هذه النقطة بالابتعاد عن مشاعر سائر الأشخاص المحيطين بي تقريباً. شعرت بثقل المسؤولية التي توشك أن تُلقى على عاتقي، وذلك بالتوازي مع ضخامة الشعور بالانتصار الذي حقّقه حزبنا. أعلم أن هذا يبدو غريباً تماماً، لكن الأمر وصل بي إلى حدّ الشعور ببعض الانزعاج. ألا يستطيع أعضاء الحزب إدراك مدى ضخامة المهمّة الملقاة على عاتقنا؟ وهل فكّروا بالفعل أن إصدار إعلان مبادئ من أجل استغلال المزاج السائد، بتفاصيله المحدودة عن عمدٍ وبالضرورة، سيكون كافياً لحكم البلاد؟

اقترب مني أحد الأشخاص مترنّحاً، وكان الأول من بين كثيرين في تلك الليلة، وقال لي: «أليس هذا مدهشاً؟ ستكون رئيس وزراء عظيماً يا طوني، وأنت عظيم بالفعل». خشيت أن يكون جوابي له: «ابتعِد عني». كيف أمكنه أن يعلم أنني سوف أكون عظيماً؟ وكيف يمكنني أنا أن أعلم ذلك؟

استدعينا عند حلول منتصف الليل دافيد هيل، وهو شخص يتمتّع بقدر كبير من التعقل والصلابة، وكان هو المسؤول الصحفي في الحزب، إلى ميلبانك. صحنا به بأن أعضاء الحزب قد تعدّوا حدودهم خلال احتفالاتهم، بحيث أن الأمر بدا وكأنه خرج عن سيطرتهم، لذلك سيتعيّن عليهم أن يهدأوا قليلاً. قال لنا: «إننا على وشك تحقيق أكبر انتصارٍ في تاريخنا، وسننهي بذلك فترة ثماني عشرة سنة متوالية من حكم المحافظين. أعتقد أن من الصعوبة بمكان إبلاغهم بوجوب المحافظة على هدوئهم».

حوّلت انتباهي إلى الكلمات التي كنت على وشك الإدلاء بها. تعيّن عليّ إلقاء

ثلاثة خطابات: الأول عند فرز الأصوات لتأكيد فوزي كعضوٍ في البرلمان، والثاني خلال الاجتماع المحلّي للحزب في النادي العمالي الكائن في قرية تريمدون، الذي يقع على مسافةٍ قريبة من مركز دائرتي الانتخابية، والثالث في قاعة الاحتفالات الملكية في لندن قرابة الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً حيث ستقام مناسبة كبيرة لمناصري الحزب ولوسائل الإعلام.

ناقشت محتويات هذه الخطابات مع ألاستير كامبل، المسؤول عن الاتصالات، الذي أعرف بأنه كان صلباً كالصخرة خلال الأعوام الثلاثة الماضية. تدلني خبرتي في الحياة على وجود نوعين من المجانين: العاديون، وهم الذين يشكّلون خطراً، والأشخاص الذين يدفعهم جنونهم إلى الابتكار، والقوة، والإبداع والحيوية. كان ألاستير من النوع الثاني. أما المشكلة مع أصحاب ذلك النوع فهي أنهم يميلون إلى التقلّب والصعوبة، كما أنهم ينفجرون في بعض الأحيان ويتركون آثاراً مدمّرة. ويتعيّن على المرء أن يدرك أنه لا يستطيع ترويضهم، لكن يمكنه التحدث معهم بعقلانية. أما الأمر الذي يجعلهم مختلفين ولامعين فهو أنهم لا يتماشون مع أنماط السلوك العادية والمتوقّعة. هؤلاء الأشخاص هم على الحافة على الدوام. تخطى ألاستير هذه الحافة في المراحل التالية، وذلك قبل مغادرته الحزب في العام ٢٠٠٣. كان يفقد السيطرة على أعصابه في بعض الأحيان مثله مثل سائر الأشخاص المبدعين، لكنه كان في معظم الأوقات، وعلى الخصوص أثناء سنوات المعارضة والمرحلة الأولى من الحكم، رجلاً لا يُستغنى عنه، ولا يمكن استبداله، وكأنه ذو شخصية ثانية. طبّق الرجل، مع غوردون وبيتر مندلسون، بطريقة تقترب من الإبداع، مفاهيم حزب العمال الجديد، وتمكّن من ترجمتها بطريقة إعلامية في عصر وسائل الإعلام. لكنّ الغريب هو أن الرجل كان أقرب، في حقيقة الأمر، إلى مفاهيم حزب العمال القديم. اقترب مزاجه من مزاجي أنا في تلك الليلة، فتصرف من دون حماسة وعلى نحوٍ يقترب من الشعور بالخيبة. ناقشنا الخطابات التي كنت سألقيها، وابتعدنا عن الصخب الذي يحيط بنا كي نتمكن من التحدث عن نقاط التركيز لكل خطاب: في الخطاب الأول، العائلة؛ وفي الخطاب الثاني، الحزب؛ وفي الخطاب الثالث، البلاد.

ظهرت مشاعري الحقيقية والوحيدة عندما تحدثت عن والدي. رأيت دموع الفخر في عينيه في أثناء إلقاء خطابي بعد فرز الأصوات. فكرت في مراحل حياته

التي عاشها: كولدٍ بالتبني في غلاسكو حيث كان والده بالتبني يعمل في تجهيز المراكب في حوض غوفان للسفن؛ أما والدته بالتبني فكانت مزيجاً غريباً من والدة متعصّبة رفضت إعادته إلى والدته الحقيقية، ومن امرأة اجتماعية قوية شغلت في فترة شبابه منصب الأمينة العامة للشبيبة الشيوعية في غلاسكو، وما لبثت أن شاركت في الحرب بصفة جندي، لكنها أنهتها برتبة رائد بالوكالة، وما لبثت أن انضمّت إلى حزب المحافظين، هذا في وقت كان الجميع تقريباً في سياق الاتجاه السياسي المعاكس.

التحق والدي بالدراسة الجامعية، وأصبح محامياً متمرّساً، وما لبث أن أصبح عضواً ناشطاً في حزب المحافظين. كان أحد المقاعد المضمونة للمحافظين في شمال إنكلترا موجوداً في هيكسهام، وكان والدي مرشّحاً قوياً ومضموناً في انتخابات العام ١٩٦٤. وصل الأمر إلى حدّ حيازته لفترة خاصة به في التلفزيون المحلي. كان رجلاً لامعاً، وذا حضور ساحر، ورجلاً طموحاً إلى درجةٍ غير معقولة. وافق والدي القالب الذي كان يبحث عنه حزب المحافظين في عالمٍ متغيّر، ولم يتمكن أحد من مناقشته في المسائل الطبقية. كان يعرف هذه الأمور جيّداً، وعاشها بنفسه، كما تعلّم كيفية الإفلات منها.

تعرض والدي في إحدى ليالي تلك السنة، وبعد مشاركته في سلسلة اجتماعات عادية، وفي عدة مناسبات اجتماعية، وبعض العمل الشاق، لنوبةٍ قلبية خطرة كادت تودي بحياته. نجا من هذه النوبة، لكنه اضطُرّ على مدى ثلاث سنوات مؤلمة إلى تعلم الكلام من جديد. أتذكر كيف أن والدتي ساعدته كثيراً يوماً بعد يوم، وكلمة بعد كلمة، ومع كل جملة متعبة بعد أخرى. أتذكر كذلك كيف أن مدخولنا قد انخفض بين ليلةٍ وضحاها، كما ابتعد عنه بعض أصدقائه. أما النبأ الساحق فقد جاء عندما علمنا أن نطقه لن يعود إلى طبيعته أبداً، وأن حياته السياسية قد انتهت.

أثّر والدي كثيراً في توجّهاتي السياسية، لكن ليس لأنه علّمني قدراً كبيراً من السياسة، ومن ممارستها العملية (وخصوصاً لكونه يقف في الجهة المقابلة لتوجّهي السياسي، وهو الأمر الذي أثرى مناقشاتنا السياسية التي كانت حامية في بعض الأحيان، على الرغم من أنها بدأت تقلّ شيئاً فشيئاً)، بل لأنني تعوّدت في طفولتي أن أصغي إلى مناقشاته مع أصدقائه، وأن أستوعب بعض حججه، وأن ألاحظ الحماسة في أصواتهم، كما تمكنت من معرفة بعض تعقيدات السياسة وخفاياها.

أتذكر المرة الأولى التي قابلت فيها سياسياً. أستغرب الآن بأن من قابلتهم كانوا أشخاصاً مثل مايكل سبايسر، الذي أصبح نائباً عن حزب المحافظين فيما بعد، حتى باتريك جنكين، الذي إذا لم تخنّي الذاكرة، شارك في حكومة السيدة ثاتشر. كانوا يأتون لتناول الغداء في منزلنا في هاي شينكليف في ديرهام. أتذكر، وإن بشكل ضئيل، كيف أن مايكل كان شاباً محافظاً يعد بالكثير في ذلك الوقت، وأراد الحصول على أحد المقاعد، علماً أن والدي كان له بعض النفوذ بخصوص مقاعد ديرهام.

غير أن هذه الأمور كلها لم تتمكن من التأثير كثيراً في تطوري السياسي. لكن والدي علّمني، قبل كل شيء، وإن كان ذلك بطريقة غير مقصودة تماماً، السبب الذي يدفع بأشخاص مثله إلى أن يصبحوا محافظين. كان شخصاً فقيراً، ينتمي إلى الطبقة العاملة، لكنه كان يتطلع إلى الانضمام إلى الطبقة الوسطى. عمل بجهد، وكان ذلك إحدى مزاياه الأساسية، وأراد أن يكون أولاده أفضل منه، وفكّر، كما فكّر كثيرون غيره من أبناء جيله، بأن النتيجة المنطقية لجهود الأشخاص الذين لهم عقليته ذاتها هي أن ينضموا إلى حزب المحافظين. كان ذلك جزءاً من المفاهيم العامة: إذا نجح المرء، فلا بد أن يكون من حزب المحافظين، وكان ذلك وجهين لعملة واحدة. تركّز طموحي السياسي في ذلك الحين على كسر هذا الترابط، وعلى تبديل هذه العملة بحيث تصبح كالتالي: إذا كنتَ متعاطفاً، وإذا كنت تهتمّ بمن هم أقلّ حظاً منك، وإذا كنت تؤمن بالمجتمع كما تؤمن بالفرد، فذلك يعني أن تكون من حزب العمال. يمكنك أن تكون ناجحاً، وأن تهتمّ بالآخرين، وأن تكون طموحاً ومتعاطفاً، ومؤمناً بالنخبة وتقدّمياً في الوقت ذاته. يُضاف إلى ذلك أن هذا كله ليس مشاعر متنافرة يصعب اجتماعها معاً، لأن ثمة طرقاً مناسبة لتحقيق تقدم مؤكد، كما أنها تحقّق متطلبات الطبيعة الإنسانية الواقعية منها، وليس المثالية.

أثّر بي والدي كثيراً، وكذلك والدتي، وإن بطريقةٍ أخرى. كانت مختلفة عن والدي مثلما هي الحال مع أي شخصين يعيشان معاً. كان والدي أقرب إلى شخصيتي، فهو مندفعٌ ومصمّم، وذو تركيز شديد، لكن هذا التركيز قد يتحول بسهولة، ويا للأسف، إلى أنانية بالنسبة إلينا نحن الاثنين. أما والدتي فهي، في المقابل، لطيفة، ومحببة، حتى أنها تكاد تقترب من القداسة. كانت خجولة، حتى أنها لا تستسيغ الصُحبة كثيراً، لكنها ساندت والدي في حياته السياسية كزوجة ومرافقة. أسرّت لي مراراً بأنها

لم تكن من حزب المحافظين [أو محافظة] في واقع الأمر. شعرت بأنها مستبعدة لسبب ما، ولربما يعود ذلك إلى أنها كانت من أصولٍ إيرلندية. اعتقدت كذلك أن بعض أصدقاء والدي من المحافظين قد ابتعدوا عنه عند مرضه.

ماتت والدتي عندما بلغت الثانية والعشرين من عمري، وذلك بعد أن أصيبت بسرطان الحنجرة. لقد كان من الواضح في ذلك الوقت, كما أتذكر الآن، أنها لن تتمكن من النجاة، لكن بقاءها على قيد الحياة لمدة خمس سنوات بعد تشخيص مرضها بالسرطان كان معجزةً صغيرة.

كان ذلك صدمةً كبيرة بالنسبة إلي، كما أعتقد أن ما من صدمة تماثل خسارة أحد الوالدين. لا أقصد القول إنها تعادل خسارة أحد الأبناء، لأنها ليست كذلك، ولأن لا شيء يعادل خسارةً كهذه. لكنني أقصد أنها تؤثّر في المرء بطريقة فريدة، وعلى الخصوص عندما تحدث في فترة شبابه. كانت وفاة والدتي صدمةً لي لأنني عجزت عن التفكير فيها. ساءت حالتها كثيراً عندما كنت أنهي آخر أشهر دراستي في إكسفورد، وكنت أعمل بجدّ لتحضير امتحاناتي النهائية. أخفى عني والدي وشقيقي بيل حقيقة حالتها. عدت إلى منزلي في نهاية شهر حزيران/يونيو، وقال لي والدي عندما جاء ليقلّني من المحطة: «إن والدتك مريضة جداً بالفعل».

قلت متوقعاً بغباوة، لكن على أمل أن يعطيني والدي بعض الطمأنينة: «أعرف ذلك، لكنها لن تموت. أليس كذلك؟»

ردّ عليّ: «أجل، أخشى القول إنها تحتضر». انقلب عالمي رأساً على عقب، كما صعُب عليّ تخيّل هذا الأمر. إن الشخص الذي تربّيت على يديه، واعتنى بي، والذي وجدته بقربي ليساعدني ويدلّلني، الشخص الذي أحبّني من دون أن يتوقع أي شيء في المقابل، ومن دون إجراء أي تقييم لشخصي، ومن دون أن يرغب في الحصول مني على أيّ شيء، هذا الشخص الذي أحبّني بكل بساطة، كان على وشك الموت.

لم تعد الحياة قط كما كانت عليه من قبل. وحدث ذلك عندما أصبحت الأمور أكثر إلحاحاً، وعندما قويت طموحاتي. أدركت فجأة أن الحياة محدودة، لذا ينبغي أن نعيشها مع إدراكنا هذا. إنني أفتقدها في كل يومٍ من أيام حياتي.

استمرّت مظاهر الابتهاج والاحتفالات التي رافقت ليلة الانتخابات، ودارت من حولي مثل موجة مدّ بحرية، وتعيّن عليّ التفكير في ما يجب عمله في هذه الأوقات الهامة، وفي تحقّق طموحاتي، لكني فكّرت فيها وأدركت أنها على الرغم من مرضها ستكون فخورةً جداً بهذا الفوز، إلا أن ذلك ما كان ليغيّر شيئاً، مهما كان بسيطاً، من محبتها لي. كان حبّها لي تاماً بالفعل، ومن دون غاية إلا في ذاته، لذلك كان، بطبيعة الحال، أكثر صدقاً من التملّق الذي ساد أجواء الأول من أيار/مايو من العام ١٩٩٧.

رأيت والدي في هذا الوقت في تريمدون، كان يتطلع نحوي مدركاً أنه يستطيع تحقيق كل آماله من خلالي. أدركت عندما التقت أعيننا أنه يفكّر في الأمر ذاته الذي أفكّر فيه: كان على والدتي أن تكون هنا كي تشهد كل ذلك.

انتزعت أفكاري بعيداً، وعدت بها إلى المهمة التي بين يديّ الآن. كانت الجماهير في كل مكان، وكانت النشوة تغمر نادي حزب العمال في تريمدون. استقللنا طائرةً من مطار تيساید، وكانت نتائج الانتخابات تصل تباعاً إلى ألاستير في أثناء طيراننا. علمنا حينئذ أن كبار أعضاء حكومة المحافظين قد خسروا مقاعدهم، ومنهم وزير الدفاع مايكل بورتيلو، ووزير الخارجية مالكولكم ريفكيند. كان الأمر أشبه بالزلزال السياسي. جلست مع شيري كي أستجمع أفكاري للخطاب الذي سألقيه في فيستيفال هال [قاعة الاحتفالات]. كانت تعرف بماذا أفكر، وكعادتها في مثل هذه الحالات تحدثت معي بطريقة يعجز عنها أيّ شخص آخر. أخبرتني أنها كانت تعرف أن الأمر سيكون صعباً جداً، وأن أوقاتاً جميلة وأخرى سيئة في انتظارنا، وأن السياسة تبدأ هكذا، لكنها لا تنتهي أبداً بالطريقة ذاتها، وأن من حسن حظي أنني سأقوم بهذه المهمة لأننا نمتلك شيئاً قيماً كي نقدّمه للناس، كما سنفعل هذا معاً.

شاءت المصادفات الغريبة أن نتيه عن طريقنا نحو فيستيفال هال حين كان عريف الاحتفال يعلن قدومنا من خلال الأغنية التي اعتمدناها لحملتنا الانتخابية، ومن بين كلماتها «لا يمكن للأمور إلا أن تسير نحو الأفضل». سمع الجمهور المنتظر هذه الكلمات لكننا لم نظهر بالفعل على منصة المسرح، أي كما يفعل آل فون تراب. وصلنا أخيراً إلى هناك. كان انضباطي الذهني تاماً. إن انتصارنا كان ضخماً، وذلك يستدعي قدراً أكبر من الوعي بالمسؤولية. تعيّن عليّ أن أمتنع عن الظهور بمظهر

رئيس الحزب الذي آل إليه كل شيء، بل يجب عليّ أن أظهر بمظهر رئيس الوزراء، وليس مثل اللاعب الذي فرغ توّاً من تسجيل هدفٍ في ويمبلي.

لم يكن الأمر سهلاً قط، وسرعان ما توصّلت إلى قناعة بأن أكثر تجارب الحياة إزعاجاً هي أن يكون المرء الشخص الوحيد الذي لا يتناول الشراب في حفلةٍ ما. ولا يمكن لأي شيء أن يغيّر حقيقة أنني لا أتناول شراباً في حين أن الآخرين ينالون منه ما شاؤوا. ها هم يصرخون، ويبكون، ويضحكون، وكل ما أستطيع قوله هو: «أجل، شكراً لكم. إنها لحظة مميزة جداً». رأيت عدسات التصوير مصوّبة نحوي في كل الأوقات، والمصورون يصورون، والمراسلون يكتبون. يمكنني أن أضحك، لكن لا ينبغي لي أن أنسجم مع الجوّ السائد. يمكنني أن أعانق الجميع، لكن مع تربيتة الكتف فقط. يمكنني أن أشكر الجميع، لكن بقدرٍ معين فقط. رأيت وجوهاً مألوفة رافقتني خلال الحملة الانتخابية، وأصدقاء عرفتهم منذ أعوام مضت، وأشخاصاً لم أرهم من قبل. كانت كل لحظة بالنسبة إليهم لحظة لا تنسى، ولحظة يجب أن يُنظر إليها كواجب قبل المضي قُدُماً.

رأيت نيل كينوك، وهو مسؤولٌ في حزب العمال، وسبق لي أن تعلمت منه الكثير، وكان لقائي إياه نابعاً من القلب، ومحفوفاً بالدفء الحقيقي الذي لا يُمكن إخفاؤه. لاحظت، حتى عندما كنت معه، نظرة ألاستير القلقة وهو يشير إليّ بضرورة الصعود إلى منصة المسرح. أدركت أنه بإمكان الآخرين أن يسترخوا، أما نحن فلا نزال على المسرح، وهناك جمهور ينبغي لنا إرضاؤه.

يحمل زعيم المعارضة مسؤولية كبيرة، لكن السعي للوصول إلى أعلى مركز في أي بلد هو عملٌ شاق. يعني ذلك أن يكون المرء حامل راية السياسات التي يتبنّاها، وسياسات حزبه، والمعتقدات التي يقدّرها تقديراً عالياً. إن أي شخص سبق له أن خاض حملة انتخابية للفوز في انتخابات يعرف مدى جسامة هذه المسؤولية. يجد المرء بانتظاره عشرات القرارات التي تتعلق بالتنظيم، والاتصالات، والموظفين، والسياسات التي يجب أن تتّبع، وذلك بسرعة وفاعلية. وإذا ما تمكّن المرء من القيام بهذا بصورة حسنة، فسيكون ذلك تحضيراً جيداً، ومؤشّراً حقيقياً على القيادة، لكن التأثير لن يكون هو ذاته فيك كشخص. وما إن تُلقى على كاهلك أعباءُ القيادة بصفتك رئيساً للوزراء حتى تدرك أن التوازن، والأهمية، والتعقيد هي أمور مختلفة

تماماً. لا توجد هذه العناصر على الجانب ذاته من جوانب طيف القيادة، وذلك لأنك تنتقل إلى بعدٍ جديد تماماً. هناك أمرٌ آخر: إن القيام بوظيفة يعني إدارتك لفريق يتعيّن عليه أن يكون كفريقٍ حقيقي. صحيحٌ أنك زعيم، لكن تعاونك يجب أن يكون حاضراً على الدوام، كما أن مودّتك تتعزز بالخبرة، ويكون تفاعلك مع الآخرين محكوماً بإلفةٍ تستشعر عن بعد، وهكذا يشعر الفريق بأنه عائلة واحدة، أو كأنه عصبة من المتآمرين الذين يتقاسمون التفكير ذاته.

صعدت الدرج المؤدّي إلى المنصة، وحاولت أن أدفع أفكاري وخزّان الطاقة عندي نحو الكلمات التي أوشك على قولها. حدّدت في آخر الأمر مصدر الخوف الذي كان يتنامى في أعماقي طوال النهار. ألفيتُ نفسي وحيداً، ولن يُحيط بي أي فريق، ولا زمرة أصدقاء يظهرون لي المودّة، وستختفي المشاعر المشتركة بين أشخاص أحمّاء. سيكونون في جانب، بينما أقبع أنا في الجانب الآخر. أدركت أنهم سيعجزون، في مرحلة ما، عن التأثير في حياتي، وسأعجز بدوري عن التأثير في حياتهم.

وقفتُ على منصّة المسرح وتفحصت الجمهور. رأيت الناس مصطفّين فوق جسر واترلو، ليس خارج فيستيفال هال فقط، بل أيضاً حول ضفاف نهر الثايمز. رأيتهم يهتفون، ويلوّحون، كما ترددت في أوساطهم أمواج من المشاعر. شعرت حينئذ بنفاد الصبر الذي رافقني طوال النهار، وتطلعت إلى انتهاء هذه الاحتفالات المزعجة كي أتفرغ للعمل. أردت قبل كل شيء أن أعرف ما معنى أن يحكم المرء، راسماً على وجهي أفضل الملامح.

ما إن بدأتُ بالكلام حتى شرعت الشمس بالطلوع، وما لبثت أنوار الصباح أن تسلّلت بألوانها البرتقالية الجميلة، وظهر النور الأزرق الرمادي الذي يبشّر بيوم جميل. لم أستطع إلا أن أقول كلمات، لكنّي ندمت فور تلفظي بها: «لقد انبثقَ فجرٌ جديد، أليس كذلك؟». أعطت هذه الكلمات دفعاً إضافياً لمن امتلكوا مسبقاً توقّعات وصلت بهم إلى عنان السماء ورفعتهم إلى مدار أعلى. حاولت بسرعة إعادة هؤلاء إلى عالم الواقع، وركّزت على أننا انتُخبنا على أساس حزب العمال الجديد، وأننا سوف نحكم بصفتنا حزب العمال الجديد. ربما لم تحمل كلماتي أهمّيةً خاصةً في ذاتها، لكنني كنت متوجّساً من فكرة أن البلاد قد تخشى عواقب التفويض باللامركزية الذي أعطتنا إياه، وأننا قد نعود إلى سياسات حزب العمال القديم، ولا

نستطيع تطبيق مفاهيم حزب العمال الجديد التي وعدنا بها. سعيت إلى تهدئة هذه الخواطر وأدركت أن أي شيء ينضح كبرياءً أو غروراً، ومهما كان ضئيلاً، لا بدّ أن يعود لملاحقتنا في المستقبل.

عدت أخيراً برفقة شيري إلى منزلنا في آيلينغتون في شمال لندن عند السابعة صباحاً. كان المنزل محاطاً بالناس، لكنني أردت النوم لفترة ساعة واحدة قبل التوجّه إلى القصر لمقابلة الملكة، وتسلّم مقاليد السلطة. بدا الأمر غريباً بالنسبة إلي أن نعود إلى المنزل الذي بقي كما تركناه، لكن مع معرفة بأننا سننام فيه لليلتين إضافيتين فقط قبل أن نتركه إلى الأبد [فترة طويلة].

أنعشتني ساعة النوم أكثر مما توقّعت، واكتمل وصول النتائج في هذا الوقت. أحرز حزبنا أغلبية ١٧٩ مقعداً أكثر من كل الأحزاب الأخرى مجتمعة، وكان تأثير ذلك مزلزلاً، لأنها أكبر أغلبية أُحرزت في تاريخ بريطانيا. تمكّنا من إحراز مقاعد لم يسبق لنا أن فزنا بها بتاتاً من قبل، مثل مقعد هووف (الذي احتفظنا به حتى العام ٢٠٠٥)، كما أن بعض المقاعد قد عادت إلينا للمرة الأولى منذ الفوز الساحق الذي أحرزه آتلي في العام ١٩٤٥. لاحظنا أن بعض المقاعد التي افترضنا أنها مضمونة [زرقاء] وغير قابلة للتغيّر قد أصبحت حمراء الآن، مثل هاستينغز، وكراولي، وورشستر، وبازيلدون، وهارو. بقيت هذه المقاعد حمراء خلال جولتَي الانتخابات التاليتين.

اتصل بي جون مايجور كي يعترف بهزيمة حزبه، وذلك قبل وقت قصير من إغلاق صناديق الاقتراع في الليلة السابقة، وبعد أن أكدت النتائج النهائية النصر الذي أحرزه حزبنا. كان لطيفاً جدّاً، لكن الأمر ليس سهلاً بالمرة. يمتلك الرجل نقاط قوة كثيرة، لكن نقطة الضعف في موقفه هي أنه أخذ محاولاتي الحثيثة لإزاحته عن الحكم بصورة شخصية.

إنه أمرٌ غريب يحيط بعالم السياسة، لكنّ القادة والأحزاب قد يصلون إلى مرحلة الغضب الشديد والحقيقي بسبب ما يعتبرونه هجمات غير عادلة عليهم (أستطيع القول إنني عانيت هذه الظاهرة بنفسي، على الرغم من أنني قاومت ذلك الشعور)، لكنهم يتجاهلون تماماً مدى الإنصاف الذي تتميز به هجماتهم. أما عندما أعود بذاكرتي إلى طبيعة سلوكياتنا عندما كنا في المعارضة، فأُعجب كثيراً بالمهنية العالية التي

ميّزت سلوكنا، على الرغم من تميّز بعض تكتيكاتنا بالانتهازية والسطحية الشديدتين. يُضاف إلى ذلك أن هذه التكتيكات التي زرعنا بذورها قد نبتت بطرقٍ لم نتمكن من استشرافها، وحملت معها عواقب مهدّدة لحزبنا.

كانت هجماتي على مايجور سياسية على الدوام، ووصفته بأنه زعيم ضعيف لحزبٍ مقسّم، بينما كانت هجمات المحافظين عليّ شخصية جداً، وقد استمرت كذلك. قالوا عني أنني كاذب، ومخادع، ومحتال، وغير ذلك من الأوصاف، وهذا ما جعل مايجور يستصعب مكالمتي، لكنه كلّمني. بادلته في اليوم التالي التعبير عن تقديرٍ مبالغٍ فيه له (على الرغم من عدم تأكدي أن ذلك لم يُضف ملحاً على الجروح).

أما المكالمة التالية التي تلقيتها فقد كانت من بيل كلينتون. كانت المكالمة هامة جداً بالنسبة إلي، فقد كان صوته دافئاً بالفعل، كما عبّر عن سروره الواضح لوجود رفيق تقدّمي له في السلطة خارج الولايات المتحدة. أدركت حينئذ أنه يعرف ما كنت أفكّر فيه، ويعرف المخاطر التي تنتظرنا في المستقبل، وأنه يحضّرني، بلطفٍ لكن بوضوح، للتغييرات التي كانت على وشك الحدوث.

كانت الرحلة من ريتشموند كريسنت في إيلينغتون إلى قصر باكنغهام رحلة استثنائية. خرج الناس من بيوتهم، واحتشدوا في الطريق ملوّحين ومبتهجين. رأيت طائرات مروحية وهي تحوم فوقنا للتصوير مباشرة. تمكّن الناس بهذه الطريقة من معرفة مكان وجودنا وحضروا لتحيتنا. بدا الأمر وكأن البلاد بأسرها في يوم إجازة. تتمتّع لحظاتُ التغيير السياسي الكبير بقدرة غريبة على التوحيد، كما يدلي الناس بأصواتهم لأسبابٍ متعددة. يصوّت بعضهم للحزب ذاته في جميع الأحوال. (لقد صوّت لحزب العمال في العام ١٩٨٣. لم أعتقد في ذلك الحين أن إحراز حزب العمال النصر هو أفضل شيء للبلاد، وذلك على الرغم من كوني مرشحاً عمالياً!). تصوّت مجموعاتٍ كبيرة من الناس بدافع الولاء أو العادة. أما عندما تبدأ النتائج بالظهور، وتكون بالفعل لمصلحة البلاد التي تحتاج إلى تطبيق اللامركزية فالذين يصوّتون ضدك يشاركونك في احتفالات النصر. يبدو الأمر وكأن الناس يحتفظون بصوتين: الأول يدلون به في صناديق الاقتراع، والآخر يدلون به في عقولهم.

رأينا حشوداً أخرى عندما عبرنا بوابات قصر باكنغهام، إذ كان الناس متحمّسين لإلقاء نظرة على رئيس الوزراء الجديد. لاحظت آنئذ أن شيري متحمسة كثيراً. أردت، كعادتي، الانتهاء من هذا الأمر، لذلك بذلت جهداً كبيراً في هذا الوقت للتقيّد بالأعراف، والتقاليد، والمراسم وهي عوامل من شأنها تأخير العملية.

دُعيت إلى الجلوس في غرفة انتظار صغيرة تجاور الغرفة التي كانت فيها الملكة. شعرت بالتوتّر على نحوٍ مفاجئ. كنت أعرف تقاليد البروتوكول الأساسية لكن على نحو غامض جداً. يتضمّن البروتوكول ما يسمى «تقبيل الأيدي»، أي رمز استخدام سلطة الملكة من أجل التمكن من الحكم. كانت رئيسة الدولة، بينما كنت أنا رئيس الوزراء التابع لها. وقف مسؤولٌ طويل القامة إلى جانبي حاملاً عصا. قال لي: «عليّ أن أقول لك أمراً سيّد بلير (لاحِظ هنا أنه استخدم لقب سيّد بلير حتى وقت تعييني) أنه لا يتعين عليك أن تقبل يدي الملكة بالفعل في هذا الحفل، بل يكفي أن تلمسهما بشفتيك بلطف».

أعترف أنني شعرتُ بالصدمة. ماذا يمكن أن يعني ذلك بحقّ السماء؟ أيتعيّن عليّ مسّهما كما يفعل المرء عند تلميع زوج من الأحذية، أو ملامستهما قليلاً؟ كنت لا أزال في حالةٍ من الارتباك الموقّتَ حين فُتح الباب ودُعيت إلى الدخول. تعثّرت، ويا للأسف، بسجادة بحيث وقعت بالفعل على يدَي الملكة. لم ألمسهما بلطفٍ بل طوّقتهما. عدت إلى الوضع الطبيعي لأجدني جالساً قبالتها. التقيت الملكة من قبل بطبيعة الحال، لكن هذا اللقاء كان مختلفاً. كان ذلك اجتماعي الأول معها، وكنت أمتلك الكثير لأقوله للملكة. لاحظت أمرين خلال هذا اللقاء: الأول هو أنها كانت خجولة تماماً، وهو أمرٌ مستغرب بالنسبة إلى شخص بمثل خبرتها ومقامها، والثاني هو أنها صريحة في الوقت ذاته. لا أقصد أنها غير لطيفة أو غير مبالية، بل هي صريحة فقط. «أنت عاشر رئيس وزراء عندي. كان ونستون هو الأول، أي إن ذلك حدث قبل أن تولد». تحدثنا لفترةٍ ما، ولم يكن حديثنا عادياً لأنه شمل مواضيع عامة عن برنامج الحكومة، لذلك استغرق الحديث وقتاً. دُعيت شيري بعد ذلك لتقديم احتراماتها للملكة التي لاحظتُ أنها ارتاحت أكثر معها. (كانت شيري مرتاحة معها على الدوام خلاف الشائعات التي أوحت بعكس ذلك). شرحت شيري لها أموراً عملية تتعلق بأولادنا، وكيف أنهم سوف يستغربون العيش في داوننغ ستريت. أبدت

الملكة تعاطفها عموماً. أخشى أنني جلستُ هناك وأنا أبدو متحمساً أكثر من اللازم، ولم أكن واثقاً لا بكيفية إنهاء المحادثة ولا بالوقت المناسب لإنهائها. ركّزت في ذلك الوقت على ما سأقوله على درج داوننغ ستريت. شعرت بدوار نتيجة قلّة النوم. تفهمت الملكة الوضع بطبيعة الحال، وأبقت على المحادثة للوقت المحدد فقط. أنهتها بعد ذلك بإشارة بسيطة منها ورافقتنا مودّعة.

قال لي الشاب الطويل الذي يحمل عصا وهو يرافقنا نزولاً عبر الدرج إلى السيارة التي تنتظرنا: «من هنا، يا سيادة رئيس الوزراء».

توجّهنا من هناك إلى داوننغ ستريت. تمكّنت من الصعود إلى المنصة بعد أن شققت طريقي بين الحشود، وهي المنصة التي سأستخدمها في مناسباتٍ عديدة أخرى في السنوات التالية. عكسَ الكلام الذي قلته رغبتي الشديدة في الابتعاد عن أجواء الابتهاج والتهاني، التي أدرك جيداً أنها لا تعني الكثير إزاء الطريقة التي سوف نحكم بها، وذلك كي ننصرف إلى العملِ الفعلي. تحدثت عن خططٍ، وبرامج، وعن سياسات. لم يكن خطابي مطولاً، لكنه ركّز بوضوح على ما سنفعله عندما أدخل مقرّ رئاسة الوزراء للمرة الأولى.

لكن الكلام الذي قلته، في واقع الأمور، لم يكن يحمل أهمّيةً في ذاته، لأن جوّ الاحتفال بالفوز كان يفرض نفسه، وكان يصعب عليّ الوقوف في وجهه مثلما يصعب عليّ محاولة الوقوف أمام شاحنة قادمة. حملتُ على عاتقي توقعات جيلٍ بأسره. أرادوا أن تكون الأمور مختلفة، وأن ننظر، ونشعر، ونمتلك مزايا حقبة جديدةٍ بوصفي متزعماً لهذه المشاعر. كنا أشبه بحركة، وكنا مرتبطين بمصلحة مشتركة واحدة: التخلص من القديم وتقديم الجديد. لم يكونوا مهتمّين بالحرج المترافق مع تخطيط سياسات الحكومة، أو بالطبيعة الشرسة لعملية اتخاذ القرارات. جلس بعضهم فوق أعمدة ترتفع فوق شارعٍ بشع تُجرى فيه أعمال السياسة الحقيقية والمباشرة. لا يتمكّن هؤلاء من ذلك العلو من رؤيّة شيء غير أفق أحلام المستقبل التي يستطيعون الوصول إليها، وإمكاناتها، وفرص تحقيقها.

كان بمستطاعي تخيّل ما يفكر فيه باراك أوباما عندما أطلق حملته الانتخابية الرئاسية، والاستثنائية، التي فاز بها في العام ٢٠٠٨. برزت في أحد المستويات

الإثارة والطاقة اللتان خلّفتهما الآمال التي ألقيت على عاتق المرشح، وهما اللتان تماثلان بتأثيرهما دفع المرء قُدُماً وتشجيعه، الأمر الذي يعادل تأثير السحر. تحلّق البلاد في الأعالي في مثل هذه الأحوال ويتعيّن على المرء أن يكون معها.

أما على مستوى أعمق، فإنك سرعان ما تدرك أنك على الرغم من كونك محط تلك الأمال، وأنك ساهمتَ فيها كثيراً، فإنها باتت تمتلك روحاً من عندها، وأن ذلك الروح يحلّق في الأعالي على نحوٍ لا يمكنك التحكّم فيه. إنك ترغب في التقاط ذلك الروح، وترويضه، وإلجامه لأنّ استقلاليته تقود الجمهور إلى إحساسٍ مستحيلٍ من التوقّعات.

لا يمكن تحقيق توقعات من هذا النوع، وهذا هو الأمر الذي يتعيّن عليك أن توصله إلى الناس. يُمكنك أن تخبرهم ذلك مراراً، لكن لا يُمكن تقييد ذلك الروح كثيراً. يتلاشى ذلك الروح في نهاية الأمر تاركاً أتباعك مع عالم الواقع، وهو واقع لم يسبق لك أن أنكرته البتة، بل على العكس من ذلك كنتَ تحاول أن تلفت انتباههم إليه، بأن الخطر يكمن في الصحو من الأوهام، وهو أمرٌ أشدّ إيلاماً بسبب الأمور التي سبقته.

هكذا كان شعوري على أيّ حال.

بدا الأمر غير واقعي لأنه غير حقيقي. هكذا كان مفهوماً أن الناس سيشعرون, وأنني سوف أوجه هذا الشعور، وهكذا كان مفهوماً أنه يمكننا أن نكون معاً قوة لا تقهر. غير أن الأمر كان، وبطريقةٍ أشمل، خداعاً للطرفين، لكن ليس ذلك النوع من الخداع المقصود، أو الصادر عن نياتٍ سيئة، أو دوافع سيئة، لكنه هو الخداع الذي يولّده أمل إمكان الفصل ما بين الإنجازات والخيارات الصعبة. ربما كانت كلمة وهم أكثر تعبيراً عن هذا الوضع. لكن ما أن فسح رجل الشرطة الطريق وانفتح باب ١٠ داوننغ ستريت، حتى شعرت بأن انتخابي رئيساً للوزراء هو نوع من الانطلاقة الجديدة بالنسبة إلي، وولادة شيء أفضل مما كان من قبل.

كان الأمر بالنسبة إلى قدامى موظفي الرقم عشرة أشبه ما يكون بالصدمة. غادر جون مايجور قبل دخولي بلحظات قليلة وفقاً للتقاليد، التي تقضي أيضاً أن يصطفّ الموظفون عند دخول رئيس الوزراء في الممرّ الذي يؤدي إلى قاعة مجلس الوزراء،

وأن يصفّقوا. نسي بعض الموظفين آخر حكومة عمالية عملوا معها، إذ كانوا شباناً حينئذ. أما الغالبية العظمى منهم فقد ودّعت توّاً ثمانية عشر عاماً من حكم الحزب ذاته.

أدركت وأنا أتفحص صفّ الوجوه، وكلها لم تكن مألوفة لديّ، وهي وجوه الأشخاص الذين سوف يرافقونني في الأحداث الآتية، وبعضهم من أصدقائي، أن عدداً منهم كان منزعجاً من مغادرة الحرس القديم [الحكومة القديمة]، وأن عدداً قليلاً من النساء كن يشهقن أو يبكين. انتابني شعور كلّي بالذنب عندما وصلت إلى آخر الصف، لأنني تسبّبت بكل هذه الفوضى، لكن لا حاجة بي إلى القول إنني تجاوزت هذا الشعور.

دخلتُ بعد ذلك قاعة مجلس الوزراء، التي لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. إنها رائعة، سواء في ذاتها أم بسبب التاريخ الذي صُنع في داخلها. توقّفت لحظةً وتلفت حولي، فصُعقت من جو القداسة الذي يفوح منها. تراقصت آلاف الصور في ذهني مثل عروض بطاقات الصور المتعاقبة. تخيّلت غلادستون، ودزرائيلي، وآسكويث، ولويد جورج، وتشرشل، وآتلي. شهدت هذه القاعة كذلك على مناسبات الحرب والسلم، واستقبلت إيرلنديّين ومايكل كولنز، وممثلي المستعمرات العديدة الذين دخلوها من أجل التفاوض بشأن استقلالها. شهدت هذه القاعة تطور إحدى أعظم الامبراطوريات على مرّ الزمن، وشهدت بقاءها وتلاشيها. فكّرت في الأزمات والكوارث، والقرارات والمشاورات، والاجتماعات التي خصّصت لمناقشة أفضل الطرق الدنيوية والعقائدية لحكم البلاد. شهدت هذه القاعة الصغيرة، التي تُشرف على حديقة داونغ ستريت، كل هذه الأحداث، كما شهدها عمودان مستعاران يؤشّران على نهاية الطاولة، التي كان صنعها نتيجة لقرارٍ اتخذه ماكميلان الذي أرادها أن تكون بيضوية الشكل، بحيث يتمكّن رئيس الوزراء الجالس في وسطها من رؤية وجوه الوزراء ولغة أجسادهم، وعلى الخصوص أيّ إشارات صغيرة تدل على الولاء أو المعارضة. رأيت المقعد المخصّص لرئيس الوزراء، وهو الوحيد المزوّد بأذرع، إما لضرورة كونه الأفخم بين المقاعد، وإما لأن رئيس الوزراء يحتاج إلى مساندة أكبر من بقية وزرائه.

رأيتُ في الغرفة الخالية، أمين مجلس الوزراء السير روبين بتلر جالساً في الكرسي

المجاور لمقعد رئيس الوزراء، وهو الرجل الذي اكتسب شهرةً خاصة به وخبرةً كبيرة، والذي عمل إلى جانب مارغريت ثاتشر وجون مايجور. أشار إلى مقعد رئيس الوزراء، فجلست عليه وشعرت بالارتياح لأنني أزحت ثقل جسمي عن قدميّ بعد كل هذه الضوضاء التي مرّت في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة.

قال لي: «حسناً. ماذا الآن؟» كان سؤالاً موفّقاً. تابع القول: «لقد تدارسنا البيان الحكومي، ونحن على استعداد كي نبدأ بالعمل به بالنيابة عنك». لا أدري لماذا شعرت بالقليل من الانزعاج غير المبرّر.

يمكنني القول، على ضوء ما تطور بعد ذلك إلى عدم اتفاق حاد بشأن طبيعة اتخاذ القرارات في حكومتي، وما سمّي بأسلوب «الصوفا» في اتخاذها، أنني لاحظت منذ البداية أن روبين يتمتع بمهنية عالية، وبتهذيبٍ رفيع، كما يُمكن الاعتماد عليه. لم يبدِ إعجابه ببعض التجديدات، لكنه قدّم كل ما في وسعه من أجل تطبيقها بنجاح. أظهر الرجل حياداً فيما يتعلّق ببعض أفضل تقاليد الموظفين الحكوميين البريطانية، وكان ذكياً وملتزماً خدمة البلاد بعمق.

لكنه كان تقليدياً بكل ما يرافق ذلك من نقاط قوة وضعف تترافق مع احترام التقاليد، وكان في ذلك مثالاً جيداً لعددٍ كبير من كبار موظّفي الخدمة العامة. عرفتُ في وقتٍ مبكر أنه لم يوافق على إعطاء منصب رئيس فريق الموظفين لجوناثان بويل، وعلى تعيين ألاستير، وصديقتي القديمة ومساعدتي آنجي هنتر. على الرغم من أن جوناثان كان قد خدم سابقاً في القطاع العام، إلا أنه كان مع ألاستير وهنتر «مستشارين خاصين»، وجاء تعيينهم في الحكومة الجديدة سياسياً. يدير الموظفون الحكوميون النظام البريطاني بصورةٍ أساسية حتى في أعلى المستويات. هناك مع ذلك عدد قليل من المستشارين الخاصين بين وقتٍ وآخر، وذلك بعكس النظام الأميركي، على سبيل المثال، الذي يسمح بوجود آلاف من هؤلاء المستشارين. اعتبر بعضُ الأشخاص أنني ارتكبت مخالفةً دستوريةً عندما أصبح لدي سبعون مستشاراً، وذلك بعد مرور سنوات قليلة على وجودي في الحكم.

يُنظر إلى المستشارين على أنهم جزءٌ حيويّ من الحكومة الحديثة، وهم يحملون معهم التزامات سياسية معينة، وذلك ليس بالأمر السيّئ بالضرورة (درجت على

الاعتقاد أنهم لا يلقون الرضا عندما يأتون من صفوف اليسار، لكن لعل ذلك مجرد خوف لا مبرّر له!). يمكن لهؤلاء أن يحملوا معهم الخبرة، وإذا أُحسن استخدامهم فبإمكانهم التفاعل مع الموظفين الحكوميين المحترفين، الذين يستفيدون بدورهم من التفاعل معهم ويتحسن بذلك مستواهم. يمكنني أن أقول الآن، بل يمكنني أن أشدّد على، أن عدداً كبيراً من الموظفين الحكوميين لم يعملوا مع المستشارين الخاصين بطريقة جيدة فقط، لكنهم استمتعوا بذلك، وطالما نشأت صداقات حقيقية نتيجة لهذا التعاون.

جرى نقاش بين روبين وجوناثان بشأن ما إذا كان ألاستير أو جوناثان يستطيعان إعطاء التعليمات إلى الموظفين الحكوميين، وهو أمرٌ حُسم في وقتٍ لاحق. (وبالمناسبة، لم توجّه أي شكوى ضد الرجلين من الموظفين الحكوميين طوال عملهما في داوننغ ستريت). لم أتمكّن، إلى الآن، من تصديق، أن أسلافي لم يكن لديهم رئيس فريق للموظفين من الناحية العملية، لكن جوناثان هو أول رئيس فريق الموظفين الذي سُمي علناً. لم يوافق روبين على هذا الإجراء، واعتبر أن ذلك تداخل مع مسألةٍ أخرى، وهي كيفية اتخاذ القرارات. امتلك الرجل هنا نقطة هامة. تمكّنت حكومتنا، في واقع الأمر، من تثبيت أقدامها خلال السنة الأولى أو نحو ذلك، وتمكّنا من مواجهة تحديات الحكم، كما بدأنا بالتصرّف كوحدةٍ متراصّةٍ جداً، وهكذا شعر بعض الموظفين الحكوميين بأنهم مستبعدون.

أمّا من ناحيتنا، فقد عملنا بوضوح من أجل تنفيذ سلسلة ضخمة من الالتزامات التي تؤدّي إلى اللامركزية. دُهشنا كذلك، بسرعة، عندما لاحظنا وجود ثغرةٍ كبيرة بين القول والعمل. أمّا في المعارضة فلا وجود لهذه الثغرة، لأن المرء لا يسعه إلا أن يقول. لكن عندما يصل المرء إلى الحكم، فسرعان ما تنكشف الثغرة بصورة البيروقراطية، وخيبة الأمل، والإحباط. قرّرنا، لهذا السبب، ومنذ الأشهر الأولى من حكمنا، العمل وفق الذهنية التي اتبعناها عندما كنا نسعى إلى الوصول إلى الحكم، وإلى تغيير حزب العمال.

بقي معنا روبين ثمانية أشهر فقط، وتمكّنا مع الوقت من توسيع آفاق ذهنيتنا، ومن التكيّف. وبرز في هذه الأثناء الوزراء الذين تعاطفوا مع التغييرات التي أزمعنا

إجراءها. تغيّرت طريقة العمل في الحكومة، كما نشطت الحكومة، وكذلك اللجان الحكومية التي كانت خير توازنٍ بين المستشارين الخاصين وعمل الموظفين الحكوميين.

أما الاتهامات المتعلقة بشأن «حكومة الصوفا» فقد كانت، لكل ذلك، مضخّمة على الدوام. ويعود ذلك، بدايةً، إلى أن الزعماء كان لهم، وعلى الدوام، حلقات داخلية من المستشارين. يُضاف إلى ذلك أن روبين ركّز كثيراً على أن أسلافي كانوا متمسكين بمبدأ حكم الوزراء، ولذلك لاحظت أن ذلك لا يتطابق بعض الشيء، على ما أذكر، وإن كان عن بعد، مع السيدة ثاتشر وطبيعة علاقاتها مع وزرائها.

برزت نقطةٌ جدّية أخرى، وهي التي كانت أساس الخلاف المتعلق بطريقة عمل الحكومات الحديثة. سأتحدث لاحقاً عن أن الأدمغة المطلوبة لجعل الدولة الحديثة تعمل بنجاح تختلف عملياً عما كان ضرورياً في منتصف القرن العشرين، لأن الأمر لا يتعلق كثيراً بتقديم النصائح التقليدية بشأن سياسات الحكومة، بل يتعلق أكثر بتسليم المشاريع وإدارتها. أما المهارات المطلوبة فهي تشبه تماماً تلك المطلوبة في القطاع الخاص. يصدق هذا على موظّفي الحكومة، كما يصدق على السياسيين. إن المهارات الكفيلة بإيصالك إلى البرلمان لا تتطابق بالضرورة مع تلك التي تؤهّلك لتسيير إدارة تضمّ آلاف الموظفين، ولديها ميزانية تقدّر بالمليارات.

يُضاف إلى ذلك أن وتيرة السياسة الحديثة، وإدخال الرقابة على وسائل الإعلام، سواء عن خطأ أو صواب، يختلفان اليوم عما كانا عليه قبل خمسة عشر أو عشرين عاماً. يعني ذلك وجوب اتخاذ القرارات، وتحديد المواقف، ورسم استراتيجيات وإعلانها بسرعة تتوازى مع سرعة الضوء عند مقارنتها بسرعة الصوت.

لا يعني كل ما تقدم، وبطبيعة الحال، أن القرارات يجب أن تُتَّخذ من دون التحليل المناسب، لكنه يعني أن البنية القديمة للأبحاث المتعلقة بسياسات الحكومة، التي يقدّمها الموظفون الحكوميون إلى الحكومة، والتي يناقشها وزراؤها مع رئيس الوزراء بصفته الرئيس المخوّل، واتخاذ القرارات بشأنها، لم تعد تتناسب والاستجابة إلى متطلبات عالم سريع التغيّر، أو حتى مع البيئة السياسية التي تتغير بوتيرة أسرع. يمكننا القول، لهذا كله، إن إدخال مستشارين خاصين لا يُعتبر خرقاً للصلاحيات، بل

هو طريقة ذكية تماماً تهدف إلى توسيع مجال الاستشارات وجعل الحكومة تتحرك. واكتشفت في وقت مبكر أن المشكلة التي يعانيها الموظفون الحكوميون لا تتمثل بإعاقة عملهم، بل بالخمول.

أقول، مع ذلك، إن هذا كلّه كان في عالم المستقبل عندما جلست وتأملت قليلاً عملية توجيه التعليمات لهذا النظام البريطاني الشهير. كان لا بد أن يتعلّق الأمر الأول بوزارة الخزانة من أجل النظر في استقلالية مصرف إنكلترا. مرّ ذلك اليوم وسط شعور ببعض الدُّوَار، وانشغلت في معظمه بتعيين موظفي الحكومة والوزراء. كانت تلك لحظة من الابتهاج بالنسبة إلى بعض الناس ولحظة من الحزن بالنسبة إلى بعضهم الآخر. انتهيت من تعيين المراكز الأساسية، لكن حكومة الظل كانت أكبر مما تحتمله الحكومة. اضطررت إلى إبلاغ ثلاثة أعضاء أنهم مؤهلون ليكونوا وزراء، ، لكني لا أستطيع تعيينهم في الحكومة. وافق اثنان منهم على تولي منصبيهما الوزاريين، بينما فضّل الثالث العودة إلى المقاعد الخلفية. فكّرت أنني أصبحت في موقع المسؤولية، وأدركت تماماً أن في الأعوام التالية ستزداد الحاجة إلى طرد موظفين ووزراء، وإلى إغضابهم أو رفضهم.

يتوقع المرء أن الحكومة في تلك الساعات، والأيام، والأسابيع، الأولى تمتعت بحياةٍ رائعة. عدت في مساء أول يوم لي كرئيس الوزراء إلى ريتشموند كريسنت لتمضية آخر ليلة لي هناك. تمكّنا بعدً أيام قليلة من تناول طعام صيني في داوننغ ستريت، كما أن والدي حضر لتمضية بعض الوقت معي، وهذا ما سرّه كثيراً، وجعلني أشعر بكثيرٍ من الفخر.

تسلّمت أول صندوقٍ أحمر، وأولى توصياتي، وأولى الرسائل التي يتعيّن عليّ توقيعها، وبدأ جميع أعضاء الفريق في تثبيت أقدامهم، وانتقلوا من كونهم أعضاء هجوميين في المعارضة ورسم خطط هيكل الحكومة [القلعة]، إلى الجلوس في قصر الحكم للإشراف على الخطط التي رسمناها سابقاً. كان فريقُ العمل الذي يحيط بي مباشرةً مجموعة استثنائية من الناس، وهي تختلف جداً في شخصياتها وتطلعاتها، لكن أفرادها موحّدون معاً مثل كتيبةٍ واحدة، وملتزمون هدفاً مشتركاً ومشبعون بروح رفاقي يتميز بصلابة الفولاذ. سبق لي أن وضعتُ بعض القواعد للأشخاص الذين أعمل معهم عن قرب. يحتلّ العمل الأولوية عندي، وليست لديّ مواقف لومٍ مسبقة،

كما أعتبر أن المزاح مقبول شريطة أن يأتي في مكانه الصحيح، لكن لا مكان للخيانة عندي. قلت لهم أن يهتمّوا بعضهم ببعض، وأن يبقوا معاً، وأن يحترموا بعضهم بعضاً، كما قلت لهم إن من المفيد أن يحبوا بعضهم بعضاً.

نفذ الموظفون توصياتي على وجه الإجمال. وجد جوناثان صعوبة في بداية الأمر في التخلي عن دوره كرئيس فريق الموظفين في مكتب زعيم المعارضة، وفي الانتقال من صفة الديبلوماسي إلى عالم المراوغة السياسية، لكنه ما إن استقر في منصبه حتى لمع فيه. سأتحدث في وقتٍ لاحق عن مساهمته في عملية السلام المتعلقة بإيرلندا الشمالية، على أن مساهماته الأساسية في الحكومة تمثلت في معرفته بنظام الخدمة المدنية [الموظفون الحكوميون]، وبنسبة استثنائية في المداومة على العمل (يستطيع استيعاب المعلومات بسرعة البرق)، وفي سياساته التي تتبنى، بالطبع، سياسات حزب العمال الجديد. تعاطف فريقي مع قطاع الأعمال، وتبنى تطلعات الطبقة الوسطى في طموحاتها، وكانت لديه القدرة على العمل في أي مجال غير سياسي، وبكل سهولة. كان مسانداً قوياً لحزب العمال، لكنه لم يكن عضواً في هذا الحزب.

تميزت سالي مورغان، أمينة الشؤون السياسية، التي أصبحت فيما بعد مديرة العلاقات السياسية والحكومية، بأنها شخصية عمالية يمكنها الوصول إلى عالم الشخصيات السياسية الكبيرة الذي يعجز غيرها عن الوصول إليه، وكانت تساند الطموح والمعايير العالية، لكنها كانت تجد صعوبة في مماشاة سياسات حزب العمال القديم. تمكّن ألاستير وسالي، بالإضافة إلى بروس غروكو، سكرتيرتي البرلمانية الخاصة منذ العام ١٩٩٤، من فهم وجهة نظر الحزب، لكن من دون الموافقة عليها بالضرورة، لكنهم تمكنوا من فهمها دوماً، ولذلك كانت الاستشارات التي قدموها بشأن تغييرها قيّمة جداً بالنسبة إلي.

اكتشفتُ منذ البداية أمراً محدّداً بخصوص ألاستير: يمتلك الرجل قدرة عظيمة على غرس الولاء. كان فريق اتصالاته خليطاً من الموظفين الحكوميّين والمستشارين الخاصين. تمكن هذا الفريق من الالتحام معاً في عملية شديدة الفاعلية. أعجب الفريق به، ووقف إلى جانبه، وأوحى إليه بمزيجٍ من الفكاهة، والصراحة، والجرأة.

كانت كايت غارفي هي مساعدتي والمؤتمنة على السجلّ اليومي. يُمكن لأي طالب بارع يحضّر للحصول على درجة دكتوراه فلسفة أن يكتب أطروحة تامة عن أهمية جدولة الأعمال بالنسبة إلى رئيس وزراء، أو رئيس عصري. لكن إذا وصفنا عملها بأنه ائتمان على السجل اليومي فقط، فكأننا وصفنا لينون ومكارتني بأنهما شخصان يكتبان كلمات الأغاني. يبقى هذا الوصف صحيحاً لكنه يعجز عن التعبير عن الأهمّية الكبيرة لعملها. إن كيفية استخدام الوقت بفاعلية أمر مهمّ جداً، وسأتحدث لاحقاً عن أهمّية هذا الموضوع بالنسبة إلي. كانت كايت فاتنة وطريفة، وهاتان ميزتان تخفيان ميزة شديدة الصلابة عندها. كانت تمسك دفتر المواعيد بقبضةٍ حديدية، وكانت مستعدّة لقطع يد أي شخصٍ يتدخل فيه، لكن مع ابتسامة الفوز بطبيعة الحال.

سأتحدث الآن عن ليز لويد التي جاءت إليّ مباشرةً من الجامعة بوصفها باحثة، لكنها ما لبثت أن شقّت طريقها حتى أصبحت نائبة رئيس فريق الموظفين. بدت مثل وردةٍ إنكليزية، وكانت مقتدرة جداً من الناحية الفكرية، ويمكنها أن تكون مثقفة قوية أو سيدة اجتماعية، بحسب المناسبة، لكنها كانت مستقيمة وشفافة فوق كل شيء، وكذلك منصفة مع الجميع بحيث أنها امتلكت تأثيراً مهدّئاً في مكانٍ يعجّ بالنشاط والفوضى.

أذكر كذلك جايمس بيرنيل، ذلك الشخص اللامع على نحو مدهش، الذي يساهم مساهمةً قيمة جداً في قضايا السياسات الحكومية، وبقي يتعلم مهنة السياسة لمنصب مستقبلي كنت متحمساً كي يحصل عليه.

سأتحدث أيضاً عن دافيد ميليباند بصفته رئيس دائرة السياسات الحكومية، الذي بدا في الثانية عشرة من عمره في ذلك الوقت. أدى دافيد عملاً بارعاً عندما وضع تصوّراً موحّداً لبرنامج الحكومة، وهكذا أبقى الوزراء سعداء حتى وهو يقودهم، بقوةٍ في بعض الأحيان، نحو اتجاه مغاير لما أرادوه في البداية. كان رجلاً مثالياً لفترة ولايتنا الأولى، ذكياً بالفعل، وصريحاً، يتبنى سياساتٍ حزبية حكيمة. كان الرجل في المعسكر ذاته الذي يضمّ سالي وألاستير، لكنه تماشى كذلك مع سياسات حزب العمال الجديد.

تولى بات ماكفادين مهمّة تنظيم الحزب، لكن كان واضحاً في فترة مبكرة جداً أنه يمتلك مزايا سياسية مدهشة، وكذلك الإمكانيات الفكرية التي تؤهله لكي يكون وزيراً من الدرجة الأولى.

أذكر كذلك بيتر هايمان، الذي تميّز بسياسة متغيرة واتصالات موجزة، وكان لامعاً على الدوام ويضجّ بالأفكار الجديدة، كما أنه لا يخشى مطلقاً التعبير عن آرائه ومجادلتي أنا، أو أي شخص آخر، لكنه يتمتع بشخصية محببة. غادر بعد ذلك كي يصبح أستاذاً (أستاذاً ناجحاً جداً).

كان تيم آلان بديلاً ممتازاً لألاستير بوصفه نائبه في مكتب الصحافة، وكان واضحاً أن الأقدار تهيّئه لأمورٍ عظيمة. (كان يجب عليه أن يبقى في عالم السياسة، لكنه قرّر تأسيس تجارة ناجحة).

جاءت سارة هنتر، وهي ابنة أحد أصدقاء كبير المستشارين ديري إيرفين، وجوناثان بيرس، وكانا شابين متحمّسين للعمل معي عندما كنت زعيماً للمعارضة، ولكي يساعداني في منصبي، كما أنهما بقيا معي، لحسن الحظ، إلى أن قرّرت سارة التفرغ لإنجاب الأطفال. عمل الاثنان بجدٍّ كبير، كما أنني سُرِرْتُ جداً بالعمل معهما. أما هيلاري كوفمان، التي خدمت مع كل زعيم لحزب العمال بدءاً بمايكل فوت حتى الآن، فكانت كذلك جزءاً من فريق، وكانت ذات خبرة كبيرة بالإضافة إلى تمتعها بالهدوء. اضطرّت مراراً إلى مواجهة قضايا شخصية في وسائل الإعلام، وهذه لم تكن قليلة، لذلك كانت عرضة لتفاهات مروعة من كل جانب، وذلك من خلال سعيها لغربلة القمح وتنقيته من القشّ المتراكم.

أما الشخصان اللذان يمكن وضعهما في خانة «الشخصيات الفريدة» فكانا آنجي وديري. كانت آنجي صديقتي المفضّلة. تعارفنا منذ أن كنت في عمر السادسة عشرة، وذلك عندما حاولت التسلّل إلى كيس نومها، وكنا في حفلة أقيمت في اسكوتلندا (لكني لم أنجح آنئذ!). اعتنت بي في الجامعة، وما لبثت أن ظهرت مجدداً في حياتي عندما أصبحت عضواً في البرلمان، وبقيت معي منذ ذلك الحين. كانت جذّابة ومفعمة بالحماسة، واستخدمت هاتين الميزتين كي تحصل على نتائج هامة، لكن إذا أخطأ المرء في تقديرها، فسيكون عليه تحمّل العواقب. أعتقد أنها

تتمتع بفطرة سياسية إبداعية وحدسٍ طبيعي أكثر من أي شخصٍ آخر التقيته، كما كانت ذكيةً جدّاً بحيث يمكنها أن تصبح قاسية أكثر من أي واحدٍ منا. يخيّل إليّ أنها تشعر بضرورة أن تقوم بحمايتي أنا، أو حماية مشروعي.

كان ديري يعمل خارج الحكومة، كما هي الحال مع بيتر مندلسون وفيليب غولد، لكنه كان في صميم فريق العمل. كان أهمّ ما جلبه ديري هو قدرة تحليلية سياسية صارمة وُضعت تحت تصرف أي شخص يواجه مشكلة تتطلب هذه القدرة على التحليل. وسبق لي أن قلت مراراً إنه يمتلك دماغاً بحجم بطيخة، وذلك لأن الناس كانوا ينتقدون نبرة الاحترام والتوقير التي كنت أبديها تجاهه. يتعيّن أن يوضع دماغ الرجل في متحفٍ عندما يموت، إنه الدماغ الذي كان يجدر بالدكتور فرانكشتاين أن يسرقه. يُمكن أن يكون الرجل أعمى من الناحية السياسية، لكنه يقدر من الناحية الفكرية أن يرى الوضع برمّته بوضوح وتركيز، وهما ميزتان قيّمتان في عالم السياسة الغامض والفوضوي، لذلك فهاتان الميزتان تستأهلان أن تلقيا التقدير اللازم. وإذا كان يتعيّن عليّ اختيار أي شخص، سواء أكان من ضمن دائرة الموظفين الحكوميين أو من خارجها، ويتميّز بغرورٍ فكري في تلك الأيام الأولى يصل إلى حد الاستعلاء، فسأدفع ديري إلى الواجهة، وأكتفي بمشاهدتهم يرتعدون بينما يسدّد سهامه عليهم وكأنه ماكينة قولبة صناعية، ويروح يدمغهم ويصفعهم بحيث يتحولون إلى شكلٍ جديد قبل خروجهم من الناحية الأخرى.

كان بيتر مندلسون صديقي وحليفي المقرّب. كان ذكياً وجذّاباً وطريفاً، أي إنه يمتلك كل الأمور التي تميّز الشخص الذي يُعتبر رفيقاً رائعاً. يمتلك الرجل ميزتين تجعلان منه مستشاراً سياسياً بارزاً. يتمكن بيتر من تحديد إلى أين تتجه الأمور، وليس أين كانت فقط. قال غوردون إن بيتر يستطيع أن يقول لك ليس ما يفكّر فيه الناس هذه الأيام فقط، بل ماذا سيفكرون غداً. لهذا الأمر قيمة كبيرة بالنسبة إلى الاستراتيجية السياسية.

أما ميزته الأخرى فكانت قدرة تحمّله للضغوط الشديدة. يُمكن للرجل أن يكون عاطفياً جداً، مثلنا جميعاً، إذا ما تعلق الأمر بمشاعره هو. لكن إذا ما وُجد في خطّ المواجهة، أو في خضمّ معركة سياسية، فستراه مثل أبي هولٍ روماني، أي هادئاً،

ومنضبطاً، وفعالاً بطريقة استثنائية. أما عندما يهاجم العدو بضراوة، فإنه يلتزم الهدوء، ويوجّه الجنود وأحياناً كبار القادة، ثم يبحث عن نقطةٍ يوجّه منها هجوماً مضاداً، ويبدو أثناء كل ذلك بمظهر من يستمتع بما يفعله. إن ميزةً كهذه هي نادرة بالفعل، وعندما يجدها المرء في شخصٍ ما فإنه يقدّرها كثيراً.

كان فيليب غولد الجزء الأخير من فريق العمل المركزي. كان شخصاً يتمتع بعصا سحرية. تحدّدت مهمّته في كيفية جريان الأمور في اللحظة الراهنة، وهكذا كان مثالاً لمستطلع آراءٍ ممتاز. لاحظت بمرور الزمن أمراً آخر: كان الرجل، بالفعل، محلّلاً عظيماً للرأي العام. يعمد الرجل إلى تحليل هذا الرأي، ويفسّره ويتوقع عواقبه، وكل ذلك بفهم عميق يتخطى التعابير العادية التي تشبه: «إنهم يحبون هذا»، أو «إنهم يكرهون هَذا الأمر». تصل تحليلاته إلى حيث يُمكن أن يؤخذ الرأي العام بالإضافة إلى مواقع ارتياحه الحالية. جعلته هذه الميزة محلّلاً استراتيجياً أكثر منه مستطلع آراء.

انتقد فيليب فكرة تقديمي لخطاب مطولٍ أثناء انعقاد مؤتمر الحزب السنوي. تسببت هذه العملية، ولمدة ثلاث عشرة سنة، بالألم، والذعر، والهوس، والإبداع بنسبٍ متساوية تقريباً بين فريق الموظفين الذي يعمل لدي وبيني أنا. تعودت أن أكرّس نفسي لهذا الخطاب لمدة أسبوع قبل اليوم المحدّد للاجتماع، وكثيراً ما كانت تتجمع عندي خمس عشرة أو عشرون مسودة. كنت آمل أن تسهل هذه العملية سنة بعد سنة، لكني كنت ألاقي الصعوبة ذاتها مثل كل مرة. كان الخطاب الذي ألقيته في العام ٢٠٠٦، وهو أفضل خطاب برأيي، صعباً كالخطابات الأخرى.

قرّرت في يوم الاثنين الذي سبق يوم خطاب الثلاثاء في العام ١٩٩٥، وكنت ما زلت في صفوف المعارضة، أن الأمر ميؤوس منه، وأن المسودة كانت عديمة النفع، كما أن دماغي أصبح مشوشاً، لذلك كان يتعيّن عليّ الاستقالة بسبب عجزي هذا. وكان من المقرر لي أن أقف أمام عدسات التصوير في ذلك الصباح في إحدى المدارس مع كيفن كيغان، وكان آنذاك مديراً لفريق نيوكاسل يونايتد (وهو فريقي المفضل). كنت في حالة يأسٍ عند وصولي، لذلك قال كيفن إن من الأفضل أن نلعب مباراة تمهيدية أمام الحاضرين (ووسائل الإعلام). تعقّد الأمر أكثر عندما قلت: «بالتأكيد. حسناً، إنني مستعدّ لأي شيء تريدون». حينئذ شعر ألاستير

وبعض الموظفين الآخرين من فريق عملي بالرعب التام. كنت أمرّ آنئذ بفترةٍ من عدم الاكتراث التام. كانت تلك مخاطرة كبيرة بالطبع، أي كما هو الحال دائماً عندما يمارس زعيم سياسي الرياضة علناً. لا يتوقع منك أي شخص أن تكون لامعاً في مثل هذه الحالات، لكن لا يسعك أن ترضى بأن يكون مستواك متدنياً، وإلا فإنك سوف تبرهن بوضوح عن عدم أهليتك لقيادة البلاد. لا يتعلّق الأمرُ هنا بركل الكرة، وهو الأمر الذي لا يمكنك أن تخطئ فيه كلياً، بل إنك سوف تلعب رأساً مقابل رأس. وهكذا فإنها طريقة سهلة كي تبدو في منتهى البلاهة.

تخطيت كل هذه الأمور، وكان كيفن في منتهى الاحتراف بطبيعة الحال، ولذلك تمكّن من توجيه الكرة إلى حيث يمكنني التقاطها. وصل الأمر إلى تسديدنا تسعاً وعشرين ضربة رأسية في تلك الفترة، الأمر الذي يُعتبر مدهشاً (ولعل هذا الأمر نال شهرة أكثر من الخطاب نفسه!).

أما أسوأ تحدّ رياضي واجهته فقد حدث بعد سنوات قليلة، وذلك عندما وافقت على أن ألعب مباراة يعود ريعها إلى المشاريع الخيرية مع آيل ناستايز، وبات كاش، ومع المؤلّف والفكاهي ألاستير ماكغوان، وذلك في نادي الملكة. إنّ كرةَ المضرب هي اللعبة التي يمكنك أن تلعبها بطريقة جيدة، أو سيئة، أو إذا كنت متوتراً جداً فقد يؤدي ذلك بذراعيك إلى رفض إطاعة دماغك. أما أنا فلعبت بالطرائق الثلاث. كنت رئيساً للوزراء، ولذلك كنت منشغلاً جداً. لم يسبق لي أن قصدت نادي الملكة من قبل، ولم أكن قد لعبت فوق العشب منذ أيام الجامعة. وصلت بمزاج عادي، ثم علمت أن مباراتي كانت بعد نهائيات نادي الملكة السنوية مباشرة، وهي المباراة التي كان سيلعب فيها تيم هينمان أمام جمهورٍ يبلغ تعداده ستة آلاف شخص. اختفى شعوري العادي ليحلّ محله شعورٌ من الهلع. يُعتبر الهلع أسوأ شعورٍ نفسي يرافق لعبة كرة المضرب، لذلك تتسبب بالانهيار على نحوٍ مؤكد. لكنني أُنقذتُ من الإحراج لأن الدور النهائي الذي لعبه تيم استغرق وقتاً أكثر من المتوقع. وافقت آيلي ناستازي، مشكورةً، على التمرّن معي. استمررنا في التمرّن لمدة ساعتين قبل بدء المباراة الرسمية. استعددتُ جيداً خلال هذه الفترة، وزال بذلك قدر كبير من الهلع الذي سيطر عليّ، فتمكّنت من اللعب بطريقة جيدة. أقسمت بعد ذلك أن لا أخوض هذه المخاطرة مجدداً!

أعتقد أنني استطردت قليلاً. كان دور فيليب في الخطابات التي كنت ألقيها في المؤتمرات يقتصر على مساعدتي على تحديد الرسالة التي أودّ إيصالها. كان يُدخل لمسةً واضحةً من التناغم على الجمل المتنافسة في الخطاب. لا أستطيع تحديد عدد المرّات التي أنقذ فيها خطاباتي، وأعطاها دفعاً وقوة.

يلاحظُ القارئ مما أوردته أعلاه أنني فخورٌ بفريق العمل. تألف الفريق من مجموعة من الأشخاص الذين يمتلكون مواهب فوق العادة. لكن إذا سألني أحدهم ما هي الميزة التي أحببتها فيهم أكثر من غيرها، فسأجيبه بأن هذه الميزات كانت غير قابلة للتجزئة. إنهم جماعة نادرة الوجود، وهم طبيعيون جداً، لكنهم ليسوا تقليديين كثيراً. إنهم بشر، لكنهم يمتلكون تلك الجرعة التي تميّز المكافحين ممن يكتفون بالكد، وأولئك الذين يأخذون الحياة كما تأتيهم، ممن يعيشون حياتهم كمغامرة. كنت محظوظاً حقاً لأنهم عملوا معي.

كانت الأيام المئة الأولى من أيام الحكومة منتجة على نحو مذهل. أصدرنا عدداً كبيراً من البيانات التي ساهمت ليس في إحداث تغيير في الحكومة فقط، بل في تغيير ثقافة الحكم.

أعلنا في الثاني من شهر أيار/مايو إلغاء المساعدات الحكومية للمدارس الخاصة، بغية الاستفادة من تلك الأموال في تحسين التقديمات الحكومية للأطفال الرضّع.

أنشأنا في الثالث من أيار/مايو دائرةً جديدةً للتنمية الدولية، وفصلنا المساعدات عن دائرة الخارجية. لم يلقَ هذا القرار تأييداً لدى دائرة الخارجية التي خسرت التحكّم في قسم كبير من موازنتها. تعاطفت شخصياً، بمرور الوقت، مع بعض الاعتراضات التي قدّمتها الدائرة. كانت كلاير شورت وقتئذ وزيرة الدولة في الدائرة الجديدة، وتضمّنت سلطتها توجيه سياسة التنمية دولياً، فتوافد عددٌ كبير من الأشخاص للعمل في دائرتها. شابهت هذه الدائرة منظمةً غير حكومية داخل الحكومة، الأمر الذي سبّب قدراً كبيراً من المشاكل الكبيرة بين وقتٍ وآخر، لكن إذا وضعنا الأمور في إطارها الصحيح فأظن أن هذه الدائرة كانت جديرة بإنشائها، كما أنها أعطت بريطانيا وجوداً كبيراً في أنحاء العالم النامي. وعلى الرغم من أنني أستطيع تصوّر نظرة استياءٍ

من ألاستير (الذي لم يكن يطيقها)، وأنا أكتب هذه الكلمات، إلا أنني أعتقد أنها كانت تتمتع بموهبة حقيقية للقيادة. لكن المشكلة هي أنها كانت تعتبر الأشخاص الذين لا يتفقون معها أشخاصاً سيّئين، بدلاً من اعتبارهم مخطئين، وهي سمة خاطئة عند السياسيين. أما إذا أظهرت حدّةً في طباعها فيمكنها أن تكون مريرة بالفعل. لكن يمكننا القول إننا فخورون بسجل مساعداتنا، كما أنها تفتخر بدورها فيها.

أعلن غوردون في السادس من شهر أيار/مايو استقلال بنك إنكلترا.

أدخلنا في التاسع من أيار/مايو إصلاحاتٍ على عملية استجوابات رئيس الحكومة لتصبح جلسةً واحدةً في الأسبوع، بحيث تكون مدة الجلسة نصف ساعة بدلاً من جلستين تستغرق الواحدة منهما خمس عشرة دقيقة.

أعلنت الحكومة في الحادي عشر من أيار/مايو تقديم تعويضات إلى قدامى محاربي حرب الخليج.

وأعلنت الحكومة في الثاني عشر من أيار/مايو إصلاحات في مديرية اليانصيب الوطني، وذلك من أجل السماح بتحويل الإيرادات نحو قطاعَي الصحة والتعليم، كما أن غوردون أقدم على تخفيض ضريبة القيمة المضافة المفروضة على المحروقات فأصبحت ٥٪ من أجل المساعدة على تخفيض فواتير التدفئة.

أما في ١٤ أيار/مايو فقد أكّدنا التزامنا منع الدعاية لمنتوجات التبغ.

أعادت الحكومة في ١٥ أيار/مايو حق الانتساب إلى النقابات العمالية بالنسبة إلى موظفي إدارة الاتصالات الحكومية، وهو القرار الذي يُبطل مفعول قرار حكومة المحافظين الذي يقضي بمنع عمال الاستخبارات، حتى أولئك الذين يأتون في أسفل سلّم الوظائف، من الانتساب إلى النقابات العمالية.

أصدرنا مشاريع قوانين في ١٦ أيار/مايو تقضي بإجراء استفتاءات حول امتيازات اسكوتلندا وويلز، كما أعلنت الحكومة خطةً تتضمّن سبع نقاط تهدف إلى إنعاش صناعة السينما البريطانية.

أصدرت الحكومة في الأسبوع الرابع من عملها قراراً يقضي بمنع تصدير الألغام الأرضية، كما قرّرنا إجراء تصويت حرّ على حظر تام على المسدسات، وذلك بعد

المجزرة التي حدثت في دونبلاين في اسكوتلندا، والتي ذهب ضحيتها سبعة عشر شخصاً.

شكّل وزير الدفاع جورج روبرتسون في نهاية شهر أيار/مايو هيئةً لمراجعة الاستراتيجيات الدفاعية، كما عيّنت الحكومة في الأسبوع التالي رئيساً للجنة الحدّ الأدنى للأجور، وهي اللجنة التي أُنيطت بها مهمةُ تحديد الحدّ الأدنى للأجور للمرة الأولى في بريطانيا.

وبدأنا مع نهاية الأسبوع السادس بتطبيق استراتيجية محو الأمية، وذلك بغية رفع مستويات أداء تلاميذ المدارس الابتدائية في القراءة والكتابة والرياضيات.

أما في ١٦ حزيران/يونيو فقد وقّعنا اتفاقية العقد الاجتماعي الأوروبي. بقيت هذه المسألة نقطة خلاف لمدة عقدٍ من الزمن بيننا وبين المحافظين الذين اعتقدوا أن هذه الخطوة قد تعيق قدرتنا التنافسية. أما نحن فكان رأينا أن هذه الاتفاقية تتعلق بحقوق التوظيف الأساسية، مثل الإجازات المدفوعة الأجر، كما أنها تُعتبر سمة ضرورية من سمات المجتمع العادل. أحب أن أشير هنا إلى أنني استخدمت دعمي للعقد الاجتماعي من أجل سحب دعمنا لمبدأ المهنة المغلقة closed shop (إلزام العاملين مهناً محددة الانتساب إلى نقابة معينة). أعلن روبين كوك، وزير الخارجية آنذاك، بلهجة المنتصر، توقيع العقد الاجتماعي مما كان سبباً لقدرٍ كبير من الابتهاج بين أعضاء حزبنا وبين النقابات (التي نسيت مبدأ المهنة المغلقة في ذلك الحين).

قدّم غوردون في ٢ تموز/يوليو موازنته الأولى، التي تتضمن رزمة التقديمات مقابل العمل، والتي سيتمّ تمويلها من الرسوم التصاعدية على المرافق المخصخصة. وأعلن ديري بعد يومين ما أصبح فيما بعد خططنا بالنسبة إلى قانون حقوق الإنسان، أي إدخال المعاهدة الأوروبية لحقوق الإنسان في القانون البريطاني. أما تيسا جويل الوزير الجديد المسؤول عن الصحة العامة، فقد قدم مقترحاتٍ تهدف إلى مواجهة اللامساواة في الشؤون الصحية. وهكذا مضينا على هذه الحال من الإجراءات، والبيانات، والتطلعات وهي أكثر من أن تُذكر كلها.

لم تقتصر هذه على إدخال تعديلاتٍ في سياسات الحكومة، وهي التعديلات

التي كانت بمثابة إدخال اللامركزية في طريقة حكم بريطانيا، وفي دستورها، وفي مواقفها.

انتهت فترة المئة يوم مع نشر خطتنا التي تقضي بمنح لندن أول محافظ لها للمرة الأولى منذ قرون. استرحنا في اليوم الذي حمل الرقم مئة، أو على الأقل هذا ما فعلته أنا. سافرتُ جواً إلى توسكانيا أولاً، ثم توجّهت إلى جنوب فرنسا بحثاً عن فرصةٍ للاستراحة بعد ذلك العمل المتواصل الذي تميزت به الأشهر الأولى.

أيّ نوع من القادة كنته أنا في تلك المرحلة؟ يمكنني القول إنني امتلكت فلسفةً تختلف عن الفلسفات التقليدية لرجال السياسة العماليين. أتيت من الطبقة الوسطى، كما أن سياستي كانت ترتبط بالطبقة الوسطى بطرق عديدة. كان الدافع من وراء برنامجي هو تلبية طموحات الفئات الناجحة في المجتمع، بالإضافة إلى طموحات العاطلين عن العمل والفقراء. كان ذلك هو السبب، علاوة على التركيز أمام الحزب أنني لم أهمل جذوره، الأمر الذي دفعني إلى إلقاء أول خطاب مهمّ لي في ٢ حزيران/يونيو خارج مجلس العموم، أي في مجمّع آيلزبيري السكني الذي يقع إلى الجنوب من لندن، وهو كان مجمّعاً منسياً ومهمَلاً في عهد المحافظين. ركزتُ في خطابي على الخطوط الأساسية لسياسات الأمة الواحدة، وأرسيت في هذا الخطاب، عن قصد، موقفي كموحّدٍ للأمة. لم أرغب في خوض حربٍ بين الطبقات، لأنني لا أحب التفرقة أو الخلاف. أدركت كيف يتمكن المرفّهون، والأقل رفاهية، من صوغ نقاط من الاهتمامات المشتركة، كما أنني لا أطيق سياسة الحزب الطبقية بفروقها المبالغ فيها، ونزاعاتها المليئة بالأحقاد، وانحيازاتها غير العقلانية.

أوضحتُ كذلك المواضيع التي تتضمنها تلك الفلسفة: الرفاه للمساعدة hand up وليس للتبذير، والمسؤولية التي ترافق الفرص، والرغبة في إعادة صوغ الحكومة بحيث تتمكن إداراتها من العمل بتناغم، وتقديم خدمات اجتماعية نوعية تتوافر بحسب الحاجة إليها، وليس بحسب الثروة، وتكوين مجتمعات متحرّرة من الخوف المنتشر من الجرائم الصغيرة، والسلوكيات التي تهدّد المجتمع، والتأكيد، الذي يلامس مرتبةَ التقديس، على الأمور المفيدة والنافعة، وبكلماتٍ أخرى تحرير أنفسنا، سواء أكنا من اليسار أو من اليمين، من العقيدة بغية جعل البلاد تتحرك نحو الرفاه العام.

يمكنني، بعد مراجعة كل هذه الأمور، أن أقول الآن إنها كانت أموراً جيدة من دون استثناء، كما أنها حاكت آراء كثيرة عبّر عنها بيل كلينتون. أما الأمر اللافت هنا فقد حصل عند زيارته التي قام بها في أواخر شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٧، عندما كان في طريقه إلى قمّة حلف شمال الأطلسي. دعوته للحضور إلى مقرّ الحكومة حيث كان الوزراء غير متحمسين لهذا اللقاء. تحدث أمامنا بلهجةٍ مفعمة بالحيوية، واستخدم بعض العبارات التي استخدمها الحزب في حملته الانتخابية (وكأنه مناصرٌ درسها كلها) كما أدمجها، بذكاء، في خبرته في الحكم. أتذكّر دوماً قوله: «لا تنسوا: يمثّل التواصل خمسين بالمئة من المعركة في عصر المعلومات. قولوا هذا مرة، ومرتين، وداوموا على ترادها، وعندما تنتهون ستدركون أنكم لم تقولوها كفاية».

أنجزتُ قيادة حزب العمال نحو النصر، كما تمكّنت من إعادة تشكيله وإعطائه فرصةً ليكون حزباً حقيقياً للحكومة. تطلب كل ذلك درجةً معينة من المهارة السياسية والشجاعة. لم أكن ذلك الشخص المجنون في ذلك الوقت كي أتصوّر أن الأمور لن تصبح أصعب، وأكثر دقةً، وحتى أبشع في المستقبل. كنت أعرف أنني أستمتع بشهر عسل، ولم تكن لديّ أيّ أوهام بشأن الزواج، حتى ولو كان نصفي الآخر يمتلكها. جعلني كل ذلك خائفاً، وحذراً، مع شعور بأنني موجود فوق حافةٍ خطرة، وذلك على الرغم من أن الأمور بدت في ذلك الوقت وكأنني معصوم من الخطأ، وأنني قادر على مواجهة أيّ تحدّ.

إذاً، ماذا كان ينقصني؟ كانت هناك بساطة في اعتقادي أن بمجرد تبني نهج يستند إلى العقلانية بحيث يكون بعيداً عن العقائد الأيديولوجية، سيصبح بالإمكانِ حلّ المشاكل الصعبة، وكشف القضايا المعقّدة، وتقريب المواقف المتباعدة. صحيحٌ أن هذا النهج يمتلك حسناته، حتى أنه ضروريّ في بعض الأحيان، لكنه غير كافٍ بشكلٍ كبير. إن هذا النهج، في واقع الأمر، ينجح مع العقول المنفتحة، لكنه لا يزيلُ الحاجة إلى التحليل، وإلى تفحّص الخيارات السياسية، وإلى ملاحقة عمق أعماق المشكلة، ومحاولة حلّها عند عقدتها الأساسية. لكن ما أن يهبط المرء من عليائه، أي حيث يستطيع أن يتنفس بِحُرية هواء الإجماع والقيم المشتركة، والأهداف المشتركة، حتى يصل في نزوله إلى ذلك المستنقع الذي تكمن فيه المشكلة، لكن ماذا سيجد؟ سترى حينئذ أن المشكلة حافلة بالصعوبات غير المتوقعة، والألغام التقنية، وفوق

كل ذلك المصالح الخاصة التي تريد أن يبقى الحل مدفوناً مع المشكلة. لا تستجيب هذه المصالح، سواء أكانت مهنية، أم مالية، أم اجتماعية، بلطفٍ لمحاولتك تغييرها. سرعان ما يجد المرء أن المعارضة السياسية، التي تريد إبعادك كي تحل مكانك على رأس السلطة، قد تحالفت مع تلك المصالح الخاصة، وسرعان ما تقوم بهجوم مضاد.

أما أهمّ ما في الأمر فهو أنها لا تحارب بنزاهة. صحيحٌ أنك كرئيس تمتلئ برغبة صادقة كي تفيد المصلحة العامة. وصحيحٌ أنك ترغب في أن تكون أقوى رجلٍ على رأس السلطة، وأن تكون الرجل الذي يتخذ القرارات، لكنك مع ذلك، صادقٌ في رغبتك الهادفة إلى تحسين العالم. ربما تظن أنك والمعارضة غير متفقين، لذلك فالأجدى أن تحلّ الأمور بعقلانية. وإذا سمعتك أنا فسوف تسمعني أنت. وربما نتمكن من إقناع بعضنا بعضاً، لكن إذا لم نتمكن من ذلك فلا بأس، إذ يمكن للأشخاص العقلانيين أن يختلفوا، وأنا أعرف أن كلينا سيتقبّل أنني رئيس الوزراء، وسيتعيّن عليّ أنا أن أقرر.

كلا، لا تسير الأمور على هذا المنوال، وهي لا تسير هكذا مطلقاً في واقع الأمر. إنهم يصوّبون عليك، ويدحضون حججك، ويشوّهون دوافعك، كما يسخرون من نزاهتك، ومن تأكيداتك أن نياتك طيبة في العمل من أجل المصلحة العامة. يُعتبر هذا الوضع، دائماً، أكبر صدمة بالنسبة إلى السياسيين التقدميين الذين يصلون إلى السلطة. يصوّب اليمين عليك من البعيد وبحماسةٍ كبيرة، وبعدائية مفرطة، وبنقدٍ مرير يجعلك تترنح. تُذهل لهذا الوضع، وتشعر بالإهانة، لكنك تُفاجأ فوق كل ذلك، ويتحوّل النقد إلى اتهامات، وتتحول نقاط الخلاف إلى مشاجرات. أما محاولاتك تغيير الأمور فتتحول إلى هجماتٍ على حريات خصومك الأساسية. وربما تعتقد أنك قد أتيتَ إلى بيئة مناقشات، لكنّ سرعان ما تكتشف أنك قد دخلت حلبة ملاكمة مع ملاكم شرسٍ، وجمهورٍ يصرخ أثناء مراهنته على الفترة التي يمكنك الصمود فيها.

اكتشفتُ منذ فترة طويلة أول درس من دروس الجرأة السياسية: فكّر من جديد. تعلمت بعد ذلك الدرس الثاني: استعدّ للقيادة واتخاذ القرارات، وها أنا اليوم أدرس الدرس الثالث: كيفية خوض المغامرات المحسوبة. سأقوم بعزل بعض الأشخاص سواء أحبوا ذلك أم لا. ويتعيّن عليك أن تحسم فور أن تقرر. إنني أقوم، مع ذلك، بحساب مدى الأذى الحاصل، وقيسه، وفهم أبعاده، وتقدير قيمته، ثم أنتقل إلى

التخفيف من عواقبه. إنني أتفادى، بهذه الطريقة، عنصر مفاجأة الهجوم المضاد، وأعوّد نفسي النقد المتهكّم، ثم أبدأ بتطوير درع من اللامبالاة شبه التامة، وهو أمر في منتهى الخطورة عند القائد، لكنه يُعتبر مع ذلك ضرورياً جدّاً لبقائه.

بدأت في هذه الأثناء بالإمساك بزمام الأبعاد الأخرى للحكم، التي لا يكفي معها أي قدرٍ من الجرأة السياسية: التفاصيل التقنية لتصحيح مسار السياسات الحكومية. أدركت أنه يتعيّن عليّ أن أختار بين ما هو محقّ وما يُعتبر من الدهاء، لكن تقرير ما هو محق أمرٌ معقد في ذاته، كما أنه مثير للجدل بصورة كبيرة. اقتربت كثيراً من القناعة بأن تغيير أمة هو أمر أصعب بكثير من تغيير حزب، وذلك مع تزايد تمحيصي للحقائق. أما المجازفات الكامنة في هذا الموضوع، والجرأة اللازمة لخوض هذه المجازفات، فهما أمران مختلفان تماماً.

صمّمت أن أبذل أقصى جهودي ، كما صمّمت أن أفعل ذلك بعناية، لكن حتى عندما كنا في هذه الأشهر الأولى، وحتى عندما بدا الأمر وكأننا سادة المشهد السياسي، تمكّنت من تحديد موقع الدرس التالي: ماذا يحدث عندما تصل إلى مخاطرةٍ غير محسوبة؟ وإذا لم يكن خصومك يمثلون المصالح الخاصة المعتادة، وعندما لا يكون الضجيج المثار من ذلك غير النوع العادي الذي يثيره أي شخص يحاول تغيير أي شيء، لكنه يصدر عن أصوات عادية لأشخاصٍ عاديين؟ وماذا يحدث إذا لم يكن النزاع مع الحزب، أو مع قسمٍ محدّد من الجمهور، بل مع قسمٍ واسعٍ من هذا الجمهور؟

أدركتُ أنني قائد محبوب جداً. بدا الأمر أشبه شيء بقصةٍ غرامية مع الجمهور، ومن الجانبين. رحنا نتصوّر، مثل المتزوجين حديثاً، أنفسنا نكبر معاً، ونتعلّم معاً، ونختلف من وقتٍ لآخر مثل الأزواج كافة، لكن مع الحفاظ على العمق الذي يجعل حبنا حقيقياً وكاملاً، والذي يمكننا استعادته على الدوام. لكن ماذا يحدث لو تزايد التباعد بيننا؟

الفصل الثاني
الزعيم المتدرّب

استغرقت المسيرة من المعارضة إلى رئاسة الحكومة فترة ثلاث سنواتٍ. تبدو هذه الفترة قصيرةً للوهلة الأولى. لا يتعلق الأمر بشعور المرء تجاهها، فكل يوم يمرّ بتثاقل، ويحمل كل أسبوع معه قلقاً جديداً، أو حادثة معينة، أو تصريحاً يؤثّر سلباً في تناغم المسيرة من حالة العَجز [المعارضة] نحو سُدّة الحكم. ويقوم منافسوك، أو أحد العاملين في وسائل الإعلام، من بين الذين سئموا، أو انزعجوا من نجاحك، بمحاولة تلطيخ سمعتك، والتقليل من قيمتها، حتى السخرية منها. وتحمل كل سنة معها ذروةً جديدةً [هدفاً جديداً] ينبغي لك بلوغها كي لا تفقد زخمك.

أتطلع، على الرغم من كل ذلك، إلى المقالات والتعليقات التي صدرت خلال تلك السنوات فيخيّم عليّ شعور بالاستهزاء تجاه المشاعر التي سيطرت عليّ في ذلك الوقت. هل كانت الأمور صعبةً إلى هذه الدرجة؟ كان الأمر أشبه بنزهة، وفي منتهى السهولة، ومجرد هرولةٍ لطيفة نحو خطّ نهاية السباق. أعدت قراءةَ المذكّرات التي كتبتها، وتذكرت المكالمات الهاتفية، وراجعت محاضر الاجتماعات، وكل تلك التي كنت أعتبرها مهمّةً جداً، والتي أسهمت كثيراً، برأيي أنا، فأُدهش من بساطتها وسهولتها.

أما الأمر الذي لم يتغيّر ما بين المعارضة والحكومة فقد كان عمق التركيز. كنت

أتعلّم في ذلك الوقت، بالطبع، وأستمرّ في الوصول إلى مستويات جديدة عند كل منعطفٍ مهم. بدت الأمور في ذلك الوقت، وبطبيعة الحال، أصعب بكثير، وكأنها تحمل تحدّيات أكبر.

يتعلّم المرء في صباه الشجاعة والخوف لأول مرة في الملاعب، أي عندما يمارس الأولاد الشرسون شراستهم فتشعر عندئذ بالخوف من التعرّض للأذى. تستدير أخيراً، عند حدٍّ معين، وتبدأ بالمواجهة. إنني ما زلت أتذكر هذه اللحظة بالذات عندما حدثت معي. كنت في حوالى العاشرة من عمري، وكنا خارج بوابات مدرسة ديرهام كورسترز، أي في حيّ كاثيدرال كلوز الجميل والقديم حيث عشنا في البداية عند قدومنا إلى المدينة، وهو الحيّ الذي يضمّ مكتبة جمعية ترويج المعرفة المسيحية القديمة، ومنازل وبيوتاً ريفية أصغر حجماً تعود إلى القرن الثامن عشر وتقع جميعها بالقرب من تلك الكنيسة النورماندية العظيمة.

لم يكن خصمي بتلك الشراسة الكبيرة، وبالتأكيد لم يكن من النوع المرعب جداً. إنني ما زلت أتذكر اسمه حتى الآن. دأب ذلك الصبيّ في استفزازي لمدة أسابيع. أزعجني الأمر كثيراً، وخشيتُ الذهاب إلى الصفّ الذي يوجد فيه، كما تجنّبت كل الأماكن التي قد يوجد فيها. اقترب مني ذات مرة على نحو مفاجئ، وكنا قرب بوابات المدرسة. بدأ الصبيّ باستفزازي، ولسبب ما، أو حتى من دون سبب بالمرة، قلت له إنني سوف أضربه إن لم يتوقف. أدرك أنني أعني ما أقول، وكنت أعنيه فعلاً، وظهر ذلك في عينيّ، وهكذا توقف. أعتقد أن من السخف أن يتذكر المرء، بعد كل هذه السنين، تلك اللحظة الدقيقة التي أظهرت تطور الشخصية، أليس كذلك؟

تتعلم بعد ذلك ممارسةَ الشجاعة في مواقف مختلفة: عندما تظهر على المسرح للمرة الأولى، وحين تتمنى لو لم توافق على الظهور بالمرة، وتلعن كل ذرائعك وتتفجّع على كبريائك، ويصبح كل ما ترغب فيه هو العودة إلى الزاوية. لكنك لا تفعل ذلك لسببٍ ما. أما أنا فتوجّهت إلى لندن للمرة الأولى لوحدي عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري، وقضيت شهوراً بمفردي في باريس، وذلك مثلما فعلت بعد امتحانات المحاماة في العام ١٩٧٦. أجريت مكالمة، وسعيت لعقد ذلك الاجتماع. كنت أدفع، وأقود سيارتي، وأسعى لتحقيق أمورٍ محدّدة. كانت كل خطوةٍ من هذه الخطوات مخيفةً بالنسبة إلي، ومع ذلك كان كل تراجع لا يعني الندم على فرصةٍ

ضاعت فقط، بل الأسوأ من ذلك، احتقار الذات بسبب عدم استجماع ما يكفي من الشجاعة للمضي في المحاولة.

أشعرُ بالدهشة في بعض الأحيان للطريقة التي مضيت فيها قُدُماً، لكني كنت أدرك الكفاح المتواصل لأخذ الخيار والمضي قُدُماً. يبقى الخيار خياراً، أما الخيار البديلِ فهو خيار مغرٍ على الدوام، وهو يترافق مع مجموعة من الحجج القيّمة، لكنها لا تشكل لحظةً ملائمة لأنها مخاطرة شديدة. أما إذا كانت تلقى معارضةً من الآخرين فستتوافر لحظة أخرى. لا تتوافر هذه اللحظة في معظم المرات، وعلى أيّ حال فإنك تدرك السبب في أعماقك: الخوف أن تكون في العراء، ومكشوفاً، ومعرضاً للسقوط. إنك إذا لم تحاول قط أن تنجح، فلن تضطرّ إلى مواجهة الفشل. إذاً لماذا تُقدم على تلك الخطوة؟

مرّ معي عدد من الأشخاص لا يمتلكون شكاً كهذا، وهم الذين يمتلكون جرأةً كامنة في أعماقهم تدفعهم إلى التقدم بصورةٍ فطرية، ومن دون أفكارٍ مسبقة. تُعتبر الجرأة بالنسبة إلى هؤلاء أمراً طبيعياً وعادياً مثل التنفس. لكنهم يواجهون مشكلةً من نوعٍ آخر. أما مشكلتي أنا فتتعلق بالصراع بين الجرأة والخوف، بينما مشكلةُ الآخرينَ هي مواجهة عواقب عدم خشيتهم. يدفعك الخوف إلى إجراء حسابات، ويمكن لهذا الأمر أن ينقذك في بعض الأحيان (على الرغم من أن الإفراط في هذه الحسابات قد ينهي طموحاتك). أما بالنسبة إلى الذين لا يجرون أبداً هذه الحسابات ويمضون بتهور، فالمخاطرة قد تكون متهورة، وتؤدّي إلى السقوط. لكني أعجبت على الدوام بذلك الإحساس، وأحببت الزهو الذي يرافقه، وافتقاده للتحكم.

انتسبتُ إلى حزب العمال بعد مغادرتي جامعة أوكسفورد. أما جيوف غالوب، الذي ترك الجامعة قبلي بسنة واحدة فقد قرر الانضمام إلى حزب العمال الأسترالي. قال مبتهجاً: «يُمكن أن يكون هذا خيانةً للمبادئ، لكنها الطريقة الوحيدة التي تمكّننا من إحداث تغيير». تمرّدت روحه المتحررة في النهاية ضد العقائديين والحالمين من اليسار المتطرف. أظنّ كذلك أنه تأثر كثيراً بالمنطق الواسع الذي تتمتع به زوجته بيف.

بذلتُ مجهوداً كبيراً من العام ١٩٧٥ حتى العام ١٩٨٣، في عدة فروع من الحزب. لكن آرائي بدأت بالتغيّر. كنت أعمل في البداية، وكنت أعمل بجدٍّ فعلاً.

تعرفت عن طريق إحدى صديقاتي إلى ديري إيرفين الشهير، وكان آنذاك في السادسة والثلاثين من عمره فقط، وهو يُعتبر واحداً من أفضل المحامين المبتدئين وألمعهم. هكذا بدأت تلك العلاقة التي غيّرت حياتي.

علّمني ديري كيفية التفكير بطريقة ذكية. كنت قد «نجحت في الامتحانات» فقط قبل أن ألتقي ديري، ولم أمتلك حينئذ أي فكرة عن كيفية التفكير. أعني التفكير فعلياً: التحليل، وتشريح المشكلة بدءاً بمنطلقاتها الأساسية، ثم صوغ حلٍ لها بعد الانتهاء من تفكيكها.

كان ديري معلّماً سلطوياً بالنسبة إلي كتلميذ، لكنه كان عبقرياً. تعودت مساعدته على كتابة خلاصات الوقائع، وتحرير الالتماسات عنه. أتذكر المرة الأولى التي كتبت فيها خلاصات الوقائع عندما أعطيته إياها متوقعاً منه أن يقرأها، وأن يضيف إليها تعليقاً أو اثنين، لأنني اعتبرت أن من الطبيعي أن يقوم بكتابتها بنفسه. تطلع فيها، ووقّعها، وطلب إلي، إبان جزعي الشديد، أن أطلب إلى الكاتب إرسالها. قلت له بشيء من الهلع: «هل هذا أمرٌ صائب؟» كنت أعني حينئذ أنني مجرد تلميذ!

قال لي بعد أن رفع نظره عن الطاولة: «حسناً. أعتقد أنك حضّرتها كأحسن ما تستطيع. أليس كذلك؟» كان يدمدم بينما سيطر عليّ الذعر. تمتمت شيئاً يشبه: «حسناً، كانت في منتهى الصعوبة لكني آمل أن تكون مرضية. كانت أول...» تناولها ورماها في وجهي. «لا أريد سماع تفاهاتك، ولا أريد سماع أفكارك المجتزأة. أريد الحصول على أفضل ما عندك من عمل، وهو العمل الذي ستكون مسؤولاً عنه شخصياً. أفهمت؟»

قلت بخنوع: «أجل».

«إذاً عد إليّ بعد أن تنتهي منها». عاد ينظر إلى طاولته بعد ذلك. ثم قال لي من دون أن يتطلع نحوي: «هيا، إذهب من هنا».

عدت بعد ذلك بمسودة مختلفة وأفضل منها. طلب إلي هذه المرة أن أجلس، ثم تفحصها، وشرح لي أخطاءها، ودقّق في الحجج الواردة فيها، وفوق كل ذلك ركّز على استنباط الحلول. أدهشتني عملية التوصل إلى الحلول هذه، وهي التي ما زالت تدهشني إلى اليوم.

أما معظمُ الآخرين الذين يدقّقون في مشكلة عويصة ما، فإنهم يعتبرونها صعبة، ويفكرون فيها. ربما يقرأونها، ويتعرفون إلى ما قاله الآخرون عنها. إنهم يفكرون في أيّ الحلول يُعتبر الأفضل من بينها. يختارون بعد ذلك واحداً منها، أو يصدرون أصواتاً مثل «همم و آه» تعليقاً عليها، ثم يقرّرون أنها صعبة جداً بالفعل.

عندما يواجه ديري مسألةً قانونيةً يصبح مثل ذلك الكلب الحامل عظماً الذي يُضرب به المثل. إنه يتمسك به، ويتفحصه، ويدفنه في التراب، ثم يستخرجه ثانية، ويتراجع، ثم يحدّق إليه. إنه لا يتوقف أو يتأمل في المسألة إلى أن يستخرج منها كل معلومةٍ مهما كانت صغيرة، وقبل أن يستخرج منها أهمّ ما فيها ويتفهمها كلها، وفوق كل ذلك فهو لا يتقبّل أبداً التحليلات التقليدية لمجرد أنها تقليدية. إنه يعود إلى المبادئ الأساسية، ويذهب إلى ما يتعدى ما هو تقليدي وما يختبئ بين ثناياه، وكثيراً ما كان يأتي، من فرط إبداعه، بتحليل ينظر إلى المسألة بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً. في مرات كثيرة، كما أتذكره كانت تبدو إحدى القضايا ميؤوساً منها عند النظر إليها بطريقة تقليدية، لكنها تكتسب أملاً جديداً على نحوٍ مفاجئ عندما يتم النظر إليها بطريقةٍ مختلفة.

لم يكن ديري قط من النوع الذي يساوم عندما يتعلق الأمر بالقضايا العقلية. تدهمك المشكلةُ إذا لم تكن مستعداً كلياً، وإذا لم تكن مهتماً بشكلٍ تام، وكنتَ منشغلاً عنها بعضِ الشيء. وإذا كانت قواعد لغتك أو تهجئة مفرداتك خاطئتين، وإذا ارتكبتَ خطأً مطبعياً، أو إذا كتبتَ جملةً غير متينة، فسيتعيّن عليك أن تتوقع منه انفجاراً مدوّياً. يمتلك ديري، عندما يثور، مخزوناً كبيراً من المفردات اللفظية المدهشة بالفعل. كنت أخشاه، وأُعجب به، وأقدّره، لكني مدينٌ له فوق كل شيء.

كان ديري عمّالياً معتدلاً، ولم يسبق له أن عبث أبداً مع اليسار المتطرف، كما أنه كان يزدري الأساس الفكري المزيّف لهذا اليسار، كما أنه اعتبر الملتزمين به سطحيين. إنه يماثل شيري في هذا الوضع. امتلكت شيري بدورها تأثيراً كبيراً، ليس لأنها كانت صديقتي قبل أن تصبح زوجتي، أو حتى على افتراض أننا أمضينا وقتاً كبيراً في مناقشة الأمور السياسية، وهو الأمر الذي لم نفعله، بل لأن دعمها لحزب العمال كان أمراً طبيعياً، ومعقولاً، ونابعاً من خبرة الحياة الواقعية. لم يكن لديها أدنى اهتمام إطلاقاً بالظهور بمظهر المثقف أو السياسي. إن الأهمّ من ذلك كله هو أنها

بقيت، من بين جميع الذين عاصروني، في الموقع السياسي ذاته منذ البداية حتى النهاية. بقيت هادئة وهي تشاهد الذين كانوا على يسارها ينتقلون إلى يمينها، لكنها حافظت على موقعها ذاته. يشبه وضعها هذا وضع وكيل دائرتي الانتخابية جون بيرتون. لاحظت بمرور الوقت سياسيين تقدميين عمليين وعقلانيين، وهم الذين برهنوا أن لا غنى عنهم في تحقيق التغيير السياسي، بدلاً من الاكتفاء بالتحدث عن هذا التغيير.

كرست نفسي للقانون أثناء السنوات الأربع أو الخمس الأولى من ممارستي لمهنة المحاماة. استهلك عملي الجزء الكبير من وقتي، لأنني عملتُ ما لا يقلّ عن اثنتي عشرة ساعة في اليوم، أي لم يتبقَّ عندي سوى القليل من الوقت للنشاط السياسي، لكني كنت منتسباً إلى فروع الحزب المحلية: أولاً في إيرلز كورت، وبعد ذلك في مارليبون، وأخيراً في هاكني. ساهمت كذلك بين الحين والآخر في كتابة مقالات لصحيفة نيوستايتسمان، التي كانت في ذلك الوقت مجلة أسبوعيةً رصينة. تمكنت من الاجتماع مع جون سميث، وشخصياتٍ عمالية أخرى، عن طريق ديري.

لا أستطيع تذكر ذلك الوقت الذي توجّهتُ فيه إلى البرلمان للمرة الأولى، لكني أتذكر تلك المناسبة وتأثيرها فيّ بكل وضوح. كان طوني بووث، والد شيري، مناصراً قديماً لحزب العمال، وبصفته نجماً إذاعياً وتلفزيونياً شهيراً كان يعرف عدداً كبيراً من النواب العماليين. كان توم بيندري رجلاً فطناً ومقتدراً جداً، وكان ملتزماً بطبيعة الحال، لكنه رأى ما يكفي ليجعل من نفسه رجلاً مادياً worldly إلى حدّ كبير. كان وضع سياسات حزب العمال بعد هزيمته في العام ١٩٧٩ شبيهاً بعض الشيء بوضع فرنسا الثورية في زمن انقلاب ثيرميدور Thermidorian Reaction الذي أنهى عهد الرعب بعد الثورة الفرنسية، أي إنه تميّز بالصراعات الداخلية، والدسائس، والاتهامات المضادة المريرة. كان قسم كبير من أعضاء الحزب ينظر إلى النواب باعتبارهم تجاراً خونة أقدموا على «خيانة الاشتراكية». تصرّف هؤلاء، أثناء تقريرهم المسار الذي ستأخذه الأمور، بالطريقة المعهودة لأعضاء البرلمان، أي بمزيجٍ من المواجهة الجريئة، والإذعان المذل للجمهور، والارتباك المؤلم.

تمكّنت شيري من ترتيب لقاءٍ بيني وبين توم من خلال طوني. كنت في ذلك الوقت أستعرض فكرة الترشّح للبرلمان، لكني كنت متردّداً بعض الشيء. وجّه

توم دعوة إلينا كي ننضمّ إليه في تناول شراب في وقت متأخر من الليل في مقهى مجلس النواب، وذلك لأنه مضطر للبقاء في البرلمان للتصويت. دخلت من خلال باب المدخل حيث يتجمعون من أجل جلسة استجواب رئيس الوزراء PMQ. لم تكن الإجراءات الأمنية في ذلك الحين مشدّدة كما هي الحال هذه الأيام. صعدت الدرج، ومررت بقاعة وستمنستر التي كانت إلى يساري، وهي القاعة التي حوكم فيها تشارلز الأول، وحيث جلس الملوك والملكات، ورؤساء الدولة القليلون، وحيث رُفعت التماثيل المتضررة، التي لم تزل معروفة حتى اليوم، للفرسان من عصورٍ خلت، ووُضعت في كوى إلى جانب رايات المعارك القديمة.

سرت إلى الردهة المركزية حيث ينتظر الجمهور لقاء نوابهم في البرلمان، ثم توقفت. وقفتُ لبرهةٍ مصعوقاً بعد أن خطرت في ذهني فكرة مفاجئة. هذا هو المكان الذي أريد أن أوجد فيه. كان الأمر غريباً جداً. أما وجه الغرابة فيه فيعود إلى أنني لم أفكر في الأمر من قبل، وهو غريب أيضاً لأنني لم أُعرف فيما بعد على أنني «عضو في مجلس العموم». تملّكني إحساسٌ قوي: سأكون هنا، وفي هذا المكان. هذا هو قدري، وهذا المكان هو مقرّي السياسي. سأمضي في عمل كل ما يلزم كي أدخله.

ذُهلت شيري بما رأته في ملامحي. رحت أجول في المكان جيئة وذهاباً محاولاً استيعاب معالمه. تفحصت هندسته، وكأن التطلع إلى المبنى سيمكنني من اكتشاف سرّ الدخول إليه، ليس بسبب دعوةٍ توجّه إليّ، ولكن كجزءٍ من حقي. عاودني فجأة، أثناء كتابتي لهذه الأسطر، ذلك الشعور من مخزونات عاطفة قديمة استكانت منذ وقتٍ طويل، كما أشعر بأنني اشتقت إلى مجلس النواب. شعرت عند انتهاء مهمّاتي الرسمية في شهر حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٧، أي بعد نحو ثلاثين عاماً، بالتعب، وبأنني بذلتُ ما يكفي من الجهد، لذلك أردت المغادرة والابتعاد. لكنني الآن، وأنا أستعيد مشاعري في تلك الفترة، عاودني بعضُ الشعور بالحماسة التي شعرت بها في ذلك الوقت. يمتلك قصر العدل جاذبيته الخاصة به، وهو بالتأكيد مكان أكثر فخامة، لكن أن يكون المرء عضواً في البرلمان، وأن يكون أحد المشرّعين في البلاد، وأن يسير عبر هذه الممرات والغرف الواسعة من دون أن يعترضه أحد، لهو أمرٌ مليئ بالإثارة وروح المغامرة، كما يثير إحساساً بالوصول إلى مستوى جديد وعالٍ من الوجود.

اعتبرني طوم طائراً غريباً تماماً في ذلك المساء. لم نكد نتعارف حتى بدأت أُمطره بالأسئلة. كيف وصلتَ إلى هنا؟ وماذا يُمكنك أن تفعل لأجلي؟ وبمن يجدر بي أن أتصل؟ وماذا يمكنني أن أفعل؟ وكيف يمكنني القيام به؟ قال لي: «لم أكن أعرف أنك في عجلةٍ من أمرك». بدا مسروراً لأنني أتصرف مثل ولدٍ فائق النشاط.

أتاح لي طوم لقاء بعض الحلفاء السياسيين المحتملين، وأعطاني نصيحةً قيّمة عن المستوى المنخفض لسياسات حزب العمال. تابعت السعي من دون هوادة لتحقيق هدفي منذ ذلك الوقت حتى الانتخابات الفرعية التي جرت في بيكونزفيلد في العام ١٩٨٢. ضاعفتُ تصميمي بعد تلك الانتخابات الفرعية حتى حانت فرصة سيدجفيلد أمامي في أواخر أيام برلمان ١٩٧٩-١٩٨٣. بدا لي حينئذ أن كل شيء قد ضاع، لكنني صمّمت على خوض انتخابات العام ١٩٨٣، وكذلك على ترك أروقة قصر العدل في لندن، والانتقال إلى نيوكاسل كي أشغل المقعد الذي يشغله نيك براون في المجلس، خصوصاً وأن نيك فضّل خوض انتخابات مضمونة في شرق نيوكاسل. كانت الخطة حينئذ تقضي بالاستحواذ على دائرة والسند المجاورة، وهي الدائرة التي شغل مقعدها ستيف بايرز في وقتٍ لاحق. اتصلت خلال يأسي هذا بأصدقاء والدي القدامى مستفسراً إياهم عن أمورٍ كثيرة. حرت في النهاية بشأن ما يجدر بي فعله، لكن مجرد إقدامي على هذه الأمور كان ذلك مقياساً لطموحاتي.

أما طموحاتي بشأن حزب العمال، فكانت تتطور بسرعة تكاد تماثل سرعة تطور طموحاتي الشخصية. حرصتُ على عدم الابتعاد كثيراً عن الآراء السائدة في الحزب في ذلك الوقت، وعلى عدم الميل كثيراً إلى اليسار، لكني أدركت مع ذلك، ومنذ البداية أننا كنا في المكان الخطأ. أُعجبت كثيراً بمايكل فوت، لكنه كان بالنسبة إلى دينيس هيلي بمثابة خيار رومانسي.

اختيرت شيري لتمثّل دائرة شمال ثانيت، الأمر الذي كان بمثابة تعويض عن هيرني باي ومارغايت، وهو مقعد للمحافظين لم تتمكن من الفوز به. طُلب إليها الترشح فوافقت، لكن لم تكن تطمح أن تكون عضواً في البرلمان. كانت ترى نفسها أقرب ما يكون إلى محامية، هذا في وقت ازدادت فيه حماستي كثيراً. امتلكت

شيري الفرصة كي يكون أداؤها أفضل من أدائي بكثير بفضل مؤهلاتها، إذ كانت الأولى عندما نالت شهادتها، وكانت الأولى في السنة التي تقدمت فيها لنيل شهادة المحاماة.

أتاح لي تبني ترشيحها خوض تجربة أخرى كان لها تأثيرها الكبير. كان والدها يعرف طوني بين معرفة جيدة. طلب إليه أن يتحدث مع حزبها في مارغايت. كلّفتُ أن أنقله من منزله الكائن في هولاند بارك كي أقلّه إلى هناك. أقول للمناسبة إن طوني هو الآن أشبه شيء بكنزٍ قومي. أما في ذلك الوقت فقد كان بالنسبة إلى قسم كبيرٍ من المحافظين، والمعتدلين منهم على الخصوص، مثل الشيطان. لا أعني أنهمً كانوا يكتفون بمخالفته في الرأي، لأنه كان يصيب الناس بالاختناق الفعلي نتيجة الغضب. كان الرجل مكروهاً أكثر من بقية المكروهين بالنسبة إلى قسم كبير من رجال وسائل الإعلام، وهو الأمر الذي أدى، بطبيعة الحال، إلى إضفاء صفة البطل عليه من قِبل قسم كبير من اليسار.

لم يسبق لي أن سمعته يتحدث قبل تلك الليلة. جلست بكل سرور مأخوذاً ومتشجعاً بحديثه. رحت أفكّر: يا ليتني أستطيع التحدث مثله. لم يكن محتوى حديثه أكثر شيء أعجبني فيه، لأنني لم أتفق، في واقع الأمر، مع قسم كبير من محتواه، لكنني أُعجبت بقوته، وبقدرته على استخدام الكلمات من أجلً التأثير في الناس، ليس إقناعهم فقط بل حثّهم. استرجعتُ حديثه في ذهني لفترة أيام، وأسابيع، بعد ذلك. كان ذلك الخطاب بالنسبة إليه مجرد واحد من ستة أحاديث ألقاها في ذلك الأسبوع، ولم يكن حديثاً مميزاً فقط، لكنه كان بالنسبة إلي بمثابة كشف.

لاحظت، أولاً وقبل كل شيء، ثقته المطلقة. استرخى الجمهور منذ بداية الخطاب وتمكّن من الإصغاء، لأنه عرف أن المتحدث هو رجل متمكنٌ من حديثه. بدأ بالخطاب وتطلع إلى الحاضرين. لم تُسمع عند ذلك أيّ أصوات، ولا تعليقات تدل على التشكك، ولا أي طاقة سلبية. لم يكن سبب ذلك غياب الشجاعة عند الحاضرين، بل كان وجود الإيمان بالذات. استحوذ الرجل على انتباههم بسهولة وكأن ذلك أمرٌ طبيعي.

استخدم الرجل، بالدرجة الثانية، المرح. وإذا تمكّن أحدهم من إضحاكك

فمعنى ذلك أنه وضعك تحت سطوته. يتلاشى هنا التوتّر بين المتحدث والمستمعين حتى يسهل عليهم معرفة قدرته، والعكس صحيح.

ثالثاً، لاحظتُ وجود ذلك الخيط الرفيع الذي يجمع بين أقسام الحديث. اشتمل الخطاب على حجج قوية، على الرغم من وجود بعض الاستطراد في بعض الأحيان، فبدا أن الخيط كاد ينقطع، لكنه كان يعود دائماً إلى الموضوع الأساس، فيعود الخيط إلى البروز مجدّداً.

رابعاً، كانت الحُجّة مناسبةً بشكلٍ جيد ولم تكن مقحمةً إقحاماً في الحديث. قُدّمت الحجة عموماً في البداية، لكنها لم تظهر بوضوح تام إلا بعد إضافة طبقة بعد أخرى من الكلمات المساندة إليها، وعندئذ برزت الحجة واضحة. ظهر، فجأة، أن كل الكلمات كانت مترابطة، ووضح الهدف وبانت الحجة، وسرعان ما يتكون لديك اعتقاد أن الجميع سيلمسون قوة الخطاب ويتفقون معه، ما عدا أولئك الذين يصرّون على العناد.

تحدثنا في طريق عودتنا عن المتشددين. أردت أن أعرف رأيه بهذه المجموعة التروتسكية التي تسلّلت إلى صفوف حزب العمال. كنت حينئذ أمثّل الحزب في دعوى قضائية أُقيمت ضدّه. عرفت أن لا سبيل إلى التعامل معهم غير طردهم، وذلك لأنني درست أشياء كثيرة عنهم وعن طرقهم. لم يوافقني على هذا الرأي، لكني تمكّنت من تحديد نقطة الضعف الأساسية في موقفه: كان يعشق دوره كمثالي، وكحامل راية، وكرجل مبادئ مقابل المهنيين من أعضاء البرلمان الذين لا يعتنقون أيّ مبادئ. إنه لا يريد مواجهة أولئك الذين يعيقون تحقق المثالية. كان واعظاً وليس جنرالاً، لكن الواعظين لا يربحون المعارك.

تسلّمت بعد مرور أحد عشر عاماً زعامة حزب العمال، وتزامن ذلك مع بلوغي عامي الواحد والأربعين. وكان سلفي في زعامة الحزب قد توفي في ١٢ أيار/مايو من العام ١٩٩٤. بقي الرجل زعيماً للحزب لمدة عامين فقط، لكنه كان شخصية بارزة، فقد كان وزيراً في آخر حكومة عمالية، ومستشاراً ناجحاً في مجلس الملكة، ومجادلاً لامعاً في مجلس العموم، وصديقاً مقرباً من ديري ودونالد ديوار، وأحد أعقل الأشخاص وأشدّهم ذكاءً وثقةً بالنفس من الذين يمكن أن يلتقيهم المرء.

لعب الرجل، بطريقة غريبة دوراً فعالاً في عملية إيصالي إلى البرلمان في العام ١٩٨٣، ما أوصلني إلى زعامة الحزب. نصحني معظمُ الأشخاص الذين استشرتهم عندما فكّرت في الترشح للانتخابات الفرعية التي جرت في بيكونسفيلد في أيار/ مايو من العام ١٩٨٢، بعدم الترشّح. قالوا لي ليس هناك أي أمل لحزب العمال للفوز بذلك المقعد. أما جون، وعلى العكس من كل هذه الآراء، فقال لي إن ذلك هو السبب بالذات الذي يجب أن يدفعك للترشح، لأن أحداً لن يلومني [في حال الفشل]، كما أنني سوف أحصل على انتباه الرأي العام، وسوف أكون في موقع أقوى للحصول على مقعدٍ مناسب في الانتخابات التالية. كان محقاً في رأيه هذا.

كان جون هو المرشح الأقوى لزعامة الحزب بعد الهزيمة التي مُنيَ بها الحزب في العام ١٩٩٢، أي عندما خسر نيل كينوك للمرة الثانية. كان أداؤه ممتازاً عقب كارثة آلية أسعار الصرف، أي عندما دُفعت بريطانيا للخروج فجأة من نظامها المعتمد، والدخول في الاتحاد المالي، كما أنه أحرز تفوقاً جلياً، على الرغم من أنه ليس كاسحاً، في استطلاعات الرأي.

كان جون يعاني أزمةً صحية، وأُصيب في العام ١٩٨٨ بنوبةٍ قلبية خطيرة. كان يشغل في ذلك الوقت منصب مستشار الظل. عمل غوردون بالنيابة عنه، وكان أداؤه رائعاً، وهكذا اكتسب سمعة رجل المستقبل [الآتي]. عاد جون بعد غياب عدة أشهر، واستأنف عمله وبدا أنه تعافى. لكن يبدو أن النوبة القلبية قد أصابته بسبب طريقة معيشته. كان جون بديناً، وعلى الرغم من أنه كان يمشي كثيراً إلا أنه كان يشرب كثيراً، بطريقة لم ألاحظها قط من قبله أو بعده. لا أعني القول إنه كان يثمل في الأوقات التي يجب أن يكون صاحياً فيها، وذلك لأنه كان ذا مهنية عالية في عمله، لكني أعتقد لو أن ميدالية أولمبية تُمنح للشرب لكان جون منافساً للحصول عليها، حتى بعد أن يهزّ الآخرون رؤوسهم ويبتعدوا عن الميدان.

أذكر أنه عندما ترأس وفداً إلى الصين في الثمانينيات، وكنت أنا عضواً في هذا الوفد، كان يرافقنا بعض الشخصيات الصينية المحلية الهامة في شنغهاي. قضينا معاً أمسيةً رائعة، وشربنا قدراً كبيراً من الويسكي، والماوتاي، والجعة. تقدمت السهرة وتخللها أنخاب كثيرة، وسادها جو من التنافس إلى أن دخلت شخصية مهمة مع جون في منافسة على الشراب. تابع الرجل الصيني الشرب بطريقة عظيمة بحيث تفوّق على

جون، لكني أعطيته نقاطاً أكبر في النهاية (أما أنا فتحولت إلى شرب الشاي الأخضر قبل عدة ساعاتٍ). دفع جون جميع الحاضرين إلى النهوض على أقدامهم وضمّ أذرعهم، ثم دفعهم إلى تأدية أغنية مثيرة على طريقة الجوقة، وقد تضمنت كلمات «أولد لانغ ساين».

كان جون يشعر بسرور كبير عندما يكون مع الآخرين، وكان يحب التوجه إلى غرفة التدخين في مجلس العموم بعد انتهاء دورة التصويت، وكان المحافظون في تلك الأيام يختلطون بسرور مع النواب من أعضاء حزب العمال، للاستراحة حينئذ من هموم السياسة لفترةٍ من الوقت. كانت هذه هي الغرفة ذاتها حيث كان ف. إي. سميث وتشرشل يجلسان ويتحدثان وكأنهما صديقان حميمان (كانا كذلك بالفعل)، وذلك في حين كان يتم تبادل كلمات قاسية في الوقت ذاته في قاعة المجلس (كانت بعض الكلمات شديدة القساوة حقاً). إنني أشعر بالخجل لأن صداقةً من هذا النوع باتت نادرة هذه الأيام، حتى نادرةً جداً. أحبّ جون أن يتحدث، ويتذكر الأحداث، وأن يسترخي ويرتاح. كان الشراب بمثابة مهدّئ له. كان مثل ديري في هذا. لم يكونا ليفعلا ذلك قبل إحدى المناسبات الكبيرة. كانا يعقدان أحياناً جلسة شراب كبيرة، بحيث إذا تسنى لهما الوقت يبدآنها عند الغداء ويمضيان فيها حتى وقت متقدم من الليل.

يتمكّن جون، ويا للأسف، من تناول كمية كبيرة من الشراب. أقول، ويا للأسف لأن ذلك يعني عدم وجود فترة انقطاع، ولا طريقة تمنعه من التوقف عندما يزيد الشراب عن حدّه، ولا إشارة تحذير، ولا حتى من عقاب كافٍ في اليوم التالي. أما بالنسبة إلي، فإنني أمتلك نقطة محددةٍ جداً أشعر بعدها بتوعكٍ، ولا ألبث أن أستسلم للنوم، كما أنني متأكد أنني سألقى عقابي الشديد في اليوم التالي، لكن ديري وجون كانا يخرجان في الصباح التالي ويمزحان بشأن تأثير الطقس في مشاعرهما، لكنهما يقدران بالفعل على مواجهة يوم مليء بالتحدّيات المعقولة.

اضطرّ جون، بطبيعة الحال، إلى التخفيف من تناول الشراب بعد أزمته القلبية، وهو ما قام به فعلاً. خسر بعض الوزن، وشدّ رحاله نحو جبال مونرو (جبال اسكتلندية يبلغ ارتفاعها ما يزيد عن ٣٠٠٠ قدم). تزايدت الضغوط عليه نتيجة تزعمه للحزب، ولاحظت مع قدوم العامين ١٩٩٣ و١٩٩٤ أنه بدأ بالشرب مجدّداً وبكميات أكبر من المستحسن. أحسّ أنه يعود إلى عادةٍ قديمة محببة إليه. أحبّ هنا أن أشدد ثانية على

أن الشراب لم يكن ليؤثر مطلقاً في أدائه، لأن الشراب كان شيئاً يقوم به في نهاية اليوم، لكن صحّته أخذت تضعف أكثر مما كان يظنّ (أو لربما أكثر مما كان يودّ أن يعترف به)، وعلى الرغم من التحذيرات المستمرّة التي كانت توجهها إليه إليزابيت، زوجته وحبيبته، فقد كان يستصعب المضيّ في حياته من دون فترة استرخاء ورفقة الذين كان يجتمع بهم.

جرت حملةُ تبرّعات من أجل الانتخابات الأوروبية مساء يوم ١١ أيار/مايو من العام ١٩٩٤. اجتمع كل أعضاء حكومة الظل في فندق لائق في لندن. لم يكن الفندق فخماً جداً، لكنه على درجة أفضل مما تعوده حزب العمال، وذلك لأننا قصدنا تعزيز ما كان في ذلك الوقت دعماً محدوداً بعض الشيء من قطاع رجال الأعمال.

كنت مراقباً في ذلك الوقت، ولم أكن متكلماً. جلست إلى طاولة وكأنني أحد أفراد حكومة الظل الذين يُتركون وشأنهم على غرار رجال الأعمال. أتذكر جون عندما وصل مع زوجته وبدأ بإلقاء التحية على الناس. أتذكر كذلك أنني تطلعت إلى عينيه عندما تحدثنا. رأيت أنه يبدو متعباً جداً. أتذكر حديثه الذي كان رائعاً وإن كان خالياً من الحيوية. كانت نهاية الحديث جيدة: «هذا كل ما نطلبه، الفرصة كي نخدم بلادنا».

رغبتُ بعد ذلك في الانصراف، لأنني كنت مضطراً لأن أبدأ نهاري باكراً في اليوم التالي. كنت سأسافر إلى أبردين في محطة انتخابية. كانت ابنتي كاثرين في السادسة من العمر في ذلك الحين، وكانت متعودةً الاستيقاظ في الليل، حتى نيكي وإيوين، اللذان كانا أكبر سناً، لم يكن من المضمون أن يناما طوال الليل، أو أن يستيقظا باكراً، وعلى الخصوص في هذه الفترة مع تزايد طول النهار. لم يكن نومي من النوع المتقطع عادةً، لذلك كان من المستحسن أن أتوجّه إلى المنزل كي أنام فوراً. تسللت خارجاً ما إن أتيحت لي فرصة مناسبة، وعدت إلى ريتشموند كريسنت.

حطّت طائرتي في مطار أبردين عند نحو التاسعة. استقبلتني سيارة أقلّتني إلى مركز الحزب كي أحصل على شرح موجز للحملة المتوقعة في ذلك اليوم. تلقيت في طريقي من المطار اتصالاً هاتفياً من أحد الأشخاص الموجودين في مركز الحزب في

لندن. أخبرني الرجل أن جون قد أصيب بنوبةٍ قلبيةٍ خطرة، كما أن أحداً لا يعرف ما إذا كان سيعيش أم لا.

اتصل بي غوردون بعد لحظاتٍ قليلة، وكان مصدوماً مثلي. اتفقنا على متابعة الحديث عند وصولي إلى مركز الحزب. كانت مكالمة أخرى بانتظاري بعد وصولي مباشرة. قال لي المتصل إن جون قد تُوفّي. حاولت أن أهدّئ من روعي، خصوصاً وأنه كان يمثل جزءاً هاماً من حياتي، كما أحببته كثيراً. أمضينا أوقاتاً كثيرة معاً في العمل في أثناء المناسبات الاجتماعية. أدركت ماذا سيحدث الآن بعد رحيله: على الرغم من أن الناس سوف يحاولون استيعاب هذه الأخبار، وعلى الرغم من فترة الحداد، ومن تفكيرهم في جون سميث كرجل، وكزعيم سياسي، وصديق، فإن الانتباه سيتحول عندما يُطرح السؤال الذي يُطرح كل مرة عند غياب زعيمٍ ما، وهو من سيخلفه؟

كانت لحظةً تحسّبتُ لها، أحياناً عن قصد، وعن غير قصد في معظم الأحيان. بقيت أفترض لسنواتٍ عديدة، وعلى الأقل حتى العام ١٩٩٢، أن غوردون هو الذي سوف يتزعم الحزب. لم أكن سعيداً بهذا الافتراض وحسب، بل ابتهجت به بالفعل. لم أكن أرغب في الحصول على هذا المركز. كنت مترفّعاً بما يكفي تحسّساً بمسؤولياته وآلامه. لا أريد هذه المسؤولية، وإذا كان أحد الأشخاص يريدها فسأكون مساعده ويده اليمنى. هذا ما يريحني، وهذا مناسب لي في واقع الأمر.

خسرنا أربعة انتخابات متتالية بحلول العام ١٩٩٢. يُضاف إلى ذلك أن نسبة الأصوات التي حصلنا عليها توقفت عند حوالى ٣٢ بالمئة. وعلى الرغم من مرور ثلاث عشرة سنة على حكم المحافظين، ووسط ركود اقتصادي يمكن للمرء أن يفترض أنه سببه جزئياً، لم نستطع تجاوز سقف ٣٢٪. لماذا؟ بدا الإصلاح الانتخابي مغرياً بالنسبة إلى بعض الناس، لأن البلاد بغضّ النظر عن أدائنا في الفترة التي تفصل ما بين الانتخابات، ترتدّ علينا يوم التصويت. كان ذلك فحوى تفكير أعضاء حزب العمال، وخلاصة تعليقاتهم.

إنني أعتبر أن كلمة الانهزامية ليست خاطئةً بقدر ما هي سخيفة. وما هو السبب، الذي يجعلها هكذا بحق السماء؟ أدركت منذ أوقاتٍ مبكرة، حتى قبل انتخابي

عضواً في البرلمان في العام ١٩٨٣، أن مشكلة حزب العمال هي من صنعه، وهو الذي يغذّيها. إننا لسنا على اتصال مع العالم الحديث. يمكن للحزب، أساساً، اجتذاب نوعين من الناس: أولئك الذين ينتمون إلى فئة العماليين التقليديين، وأولئك الذين توصلوا إلى قناعة بدعم الاشتراكية أو الديمقراطية الاشتراكية من خلال عملية فكرية، بينما انتميت أنا إلى الفئة الثانية. ولا أستطيع اعتبار أن أياً من هاتين الفئتين هي السائدة، وعلى الخصوص أننا إذا جمعناهما معاً فإنهما تعجزان عن تشكيل عدد ناخبين يكون كبيراً بما يكفي كي يتمكن الحزب من الفوز والحكم.

يُضاف إلى ذلك أن عدد المنتمين إلى الفئة الأولى آخذٌ بالتناقص لأن أيام الاتحادات العمالية القديمة قد ولّت، وولّى معها عدد كبير من الصناعات التي هيمنت عليها: الفحم، الفولاذ، بناء السفن، والمنسوجات. أما الصناعات الجديدة، وعلى الخصوص تلك التي تتعلق بالتكنولوجيات الناشئة، وصناعات الخدمات الحديثة، فهي لا تنجذب بطبيعتها إلى ميل الاتحادات العمالية إلى الخلط بين إثارة العمال والسياسة. أما الأهمّ من ذلك كله، هو أن الأمر ينطبق على أولئك الذين عملوا في هذه الصناعات. أعتقد أن أموراً مثل الاجتماعات، والقواعد، والثقافة والتراث قد أصبحت موضة قديمة نهائياً. تفهمت بعض الاتحادات العمالية هذا الواقع الجديد فحاولت إدخال تغييرات. لكن مستوى الرفاهية كان كبيراً جداً، ومغرياً جداً، ومسيطراً بالنسبة إلى القيادة على نحو يمنعها من الشعور بالحاجة إلى إحداث تغيير. تمكّنت القيادات، مع ذلك، من إدراك أهمية هذا الأمر بحيث إنها اتخذت خطوات في بعض الأحيان في سبيل هذا التغيير، مثل ما حدث عند إنشاء خدمات اتحادات النقابات الجديدة، لكنها فشلت في ترك أي تأثير حقيقي. عجزت القيادات عن إدراك حقيقة الخيار المطروح: إما التغيير وإما التلاشي. لا وجود لانتخابات عامة تسفر عن رأي غير قابل للتغيّر بحيث يكون حتمياً. هذا هو سبب التناقص المستمرّ للأعضاء، والدعم، والتأثير. لكن مما يؤسف له هو أن هذه القيادات ما زالت قويةً ومؤثّرةً إلى حدّ كبير داخل حزب العمال، وهو الحزب الذي يحتضنهم ويكرمهم، الأمر الذي زاد من رفاهيتهم.

يُضاف إلى ذلك أن طبيعة قيادات الاتحادات العمالية نفسها آخذةٌ بالتغيّر. كانت قيادات الاتحادات العمالية في مطلع القرن العشرين ومنتصفه، مثل إيرني بيفين،

وجاك جونز فيما بعد شخصيات قوية. كانوا رجالاً من الطبقة العاملة الذين تمكنوا من الوصول إلى الثقافة التي حرمهم إياها المجتمع، وذلك عن طريق الاجتماعات النقابية، والكلّيات، والمؤتمرات، كما كانوا نماذج فذّة في التطوير الذاتي. كان عدد الذين يحضرون الاجتماعات في تلك الأيام كبيراً جداً، حتى أن اجتماعات الفروع التي يحضرها المئات لم تكن بالأمر الاستثنائي. كانت هذه الاجتماعات مجالاً واسعاً للجدال الذي كان يجري بشراسة في بعض الأحيان، والنقاشات، واتخاذ القرارات. استدعت هذه الاجتماعات وجود أشخاص قياديين حقيقيين، يجيدون رسم الاستراتيجيات والتكتيكات مجتمعة من أجل إعطاء دفعٍ لقضية ما تبدو للمجتمعين في ذلك الوقت معقولةً وضرورية.

أما قدامى عمال المناجم الذين أمضوا حياتهم في مناجم الفحم الموجودة في شمال شرقي البلاد، فقد أخبروني غير مرة عن مظاهر الجدية التي كانت ترافق هذه الاجتماعات، وعن أهمّيتها في المجتمع، وحتى عن عظمتها، وذلك فيما يتعلق بما تمثله للسكان المحليين. كان تحمّل المرء مسؤولية في الفرع يعني أن يلعب دوراً رئيساً. وإذا تمكّن المرء من أن يكون مسؤولاً فذلك يعني أنه يضع قدميه على سلّم تحقيق الإنجازات. إن شغل مركز زعيم منجم ديرهام، على سبيل المثال، كما فعل سام واتسون، الزعيم الشهير في الخمسينيات، كان يعني أنه شغل منصباً يتولى سلطةً حقيقية. وعندما كان آتلي زعيم حزب العمال، ويُطرح اقتراح مشكوك فيه، كان يقول: «لا يُمكننا تبنّيه، لأن سام واتسون لن يوافق عليه».

لكن يتعيّن على كلّ الحركات التقدمية أن تحذر النجاحات التي تُحرزها. إن التقدم الذي تحققه يعيد صوغ المجتمع التي تعمل فيه، ولهذا سيتعيّن عليها إعادة صوغ نفسها كي تحافظ على وجودها، وإلا ستنتهي إلى أن تصبح تردّدات فارغة لما كان ذات مرة صوتاً عالياً وقوياً. يعني ذلك أن الترددات ستظلّ موجودة، لكنها سترافق مع تأثيرات قليلة. سيتقلّصُ عدد الملتزمين بهذه الحركات مع تقلّص تأثيرها، لكنهم سيزدادون تشدداً، وسيصبحون أكثر اهتماماً بحماية فضائهم الآخذ بالتقلص، وذلك بدلاً من أن يفهموا أن صوت الأزمان قد تحرك قدماً، ولذلك سيتعين عليهم الإصغاء قبل أن يشرعوا في الكلام. يحدث ذلك في كلّ التنظيمات. يُعتبر هذا الوضع مميتاً بالنسبة إلى الذين لم يواجهوا تحولاً مفصلياً من قبل، وهو التحول الذي

يجبرهم على المواجهة والتعقل. يميل القادةُ الجددُ للاتحادات العمالية إلى تقليد القديم، لكن في سياق متغيّر يصبح هذا غير مجدٍ، ما عدا المحافظة على معنويات أولئك الذين يريدون المضي قُدُماً كما كانوا من قبل.

لم تأتِ مارغريت ثاتشر، عندما أقدمت على مواجهة النقابات المهنية، بفكرة جديدة من غرفة مغلقة. كانت الفكرة موجودةً من قبل: سبقها إلى هذا الموقف هارولد ويلسون وباربرا كاستل في In Place of Strife، كما أوردها إدوارد هيث في قانون العلاقات الصناعية الذي صدر في العام ١٩٧١. تمثلت تلك الفكرة بمحاولتين لإخضاع الاتحادات العمالية للقانون السائد. أما الفرق فكان أن عند تولي ثاتشر السلطة كان من الواضح أن ذلك الهجوم التدريجي على امتيازات النقابات المهنية قد فشل، وأن الهجوم الثوري هو الذي سينجح. امتلكت ثاتشر الشخصية، وصفات القيادة، والذكاء وهي الصفات التي مكّنتها من تحقيق ذلك.

تلقت ثاتشر مساعدةً من خصومها كذلك، أي عندما أصبح آرثر سكارجيل زعيماً لعمال المناجم، واستفادت كذلك بدايةً من إضراب ١٩٨٤ – ١٩٨٥. كان من الواضح أن الخيار كان ما بين وجود رئيس وزراء يميني متشدد يكون، مع ذلك، منتخباً بطريقة ديموقراطية كزعيم للدولة، ويكون موقفه صحيحاً بالنسبة إلى تجاوزات سلطة النقابات، وبين قيادة نقابية يسارية ستكون غير نقابية وبعيدة جداً عن العالم الحديث.

استعرضت الأضرار التي لحقت بحزب العمال عقب انتخابات عام ١٩٨٣، وأدركت أن لا مناص من التغيير. لم تتمكّن قاعدةُ الاتحادات العمالية من دعم حزبٍ سياسي حديث إذا كان ذلك الحزب يريد الوصول إلى سُدّة الحكم.

توصّلت مع الوقت إلى استنتاج آخر يتعلق بالفئة الثانية من الناس التي تنجذب إلى الحزب. تمتلك طريقة التفكيرِ الفابية في حزب العمال جذوراً عميقة، وتاريخاً مهيباً. كان أكثر اللامعين فيها من الذين أتوا من أصولٍ ثريةٍ نسبياً، وكانوا غير راضين عن اللامساواة، أشخاصاً مميزين. إن أشخاصاً مثل جورج أورويل، وهوغ دالتون، وستافورد كريبس، وأعضاء نادي الكتاب اليساري الجديد، وأعضاء جمعية هالداين، كانوا يميلون لأن يكونوا مثقفين، وملتزمين، ومتحمسين، وعقلانيين جداً

في منهجيتهم. كان طوني بين مثالاً واضحاً على ذلك، وكان طوني كروسلاند مثالاً آخر (كان أستاذ طوني بين في أوكسفورد). تعرف الرجلان إلى السياسة اليسارية لأول مرة عبر الحياة الجامعية، أي كما كانت الحال معي أنا. يمكن للمرء في تلك البيئة المصطنعة نوعاً ما أن يكوّن فكرةً واضحةً عن عدم المساواة في النظام. نشأت مناقشات نتيجة ملاحظة أن الظروف الاجتماعية قد تقدم الفرص أو تحجبها، لذلك غيّر التعرّف إلى هذه الأفكار من وجهة نظرهم إلى الحياة. ما أن تغيّرت نظرة الرجال إلى الحياة حتى أصبحوا مناصرين أشدّاء للتحرك الاجتماعي وللحزب الذي يمثل الاتحادات العمالية والطبقة العاملة، اللتين كان يتعين أن تتغيّر ظروف أفرادهما المعيشية المتواضعة، سواء من حيث الإسكان، والتعليم، أو العناية الصحية.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً لتحديد طبيعة المشكلة مع هذه الفئة الثانية: فعلى الرغم من أنها تهتمّ بأحوال الناس، إلا أنها لا تبدو مثلها. كانوا مثل شخصية جورج دوهاميل الذي يقول: «إني أحب الإنسانية، لكني لا أطيق البشر فقط». لا أقصد أن أقول هنا، بالمناسبة إنهم كانوا منعزلين أو مزعجين لأنهم كانوا رائعين ومفعمين بالمرح، لكن أعني أنهم لم يمتلكوا الطموح. كانوا إيثاريين على نحو مفرط تقريباً بالنسبة إلى منفعتهم السياسية. وعندما تم تقليص الظلم وعدم المساواة، علماً أن ذلك حدث بفضلهم جزئياً، فشلوا في استخلاص مغزى ما حدث. يحتاج الشخص الفقير في البداية إلى من يهتمّ بأمره، وبعد ذلك إلى شخص يتحرك، لكن ما أن يتخلّص من فقره حتى يصبح هدفه هو أن يغدو ميسوراً. يمكننا القول، بكلماتٍ أخرى، إن الأمر بالنسبة إلى شخصٍ كهذا يتعلق بالتطلعات والطموح، والاستمرارية وبناء الذات، وجني مقدارٍ معينٍ من المال، وإبقاء مستوى عيش الأسرة مقبولاً، وضمان مستقبلٍ أفضل لأولاده. كانت أعظم رغبة لوالدي هي أن أتلقى تعليمي في مدارس خاصة، وليس أي مدرسة خاصة قديمة فقط، ولذلك اختار Fettes لأنه ظنّ، وأعتقد أن شخصاً ما قد أخبره كذلك، أنها الأفضل في اسكتلندا.

كانت المشكلة مع هذا النوع من المثقفين هي أنهم لم يفهموا هذه العملية تماماً، أو أنهم استاؤوا منها إذ فهموها. أرادوا، بمعنى ما، تمجيد الطبقة العاملة، وليس ترفيعها إلى الطبقة الوسطى، لكن الطبقة الوسطى تعني بالتحديد ما يريده العامل المتوسط لنفسه أو لأولاده. إن إيمان المثقفين بالمساواة قد اتجه على نحوٍ خطرٍ إلى

عالم المساواة في المداخيل، وليس المساواة في الفرص. إن الصيغةَ الأخيرةَ تحمل معنى تحريرياً، بينما الصيغةُ الأولى سرعان ما يُنظر إليها على أنها قيد. إن الدافع الذي حرّك عدداً كبيراً من الذين تلقوا مساعدةً من المفكرين ذوي النيات الطيبة كان دافعاً نخبوياً وليس تحقيق العدالة. أراد هؤلاء تلقي المساعدة في صعود السلّم، لكن ما إن وصلوا إليه حتى اعتبروا أن صعود هذا السلم هو أمرٌ محصورٌ بهم فقط.

فسحت الثمانينيات المجال للتسعينيات، وتوالت الهزائم. تزايدت قناعتي في هذه الفترة أن ما ينقص حزب العمال بشكلٍ أساسي هو بعض التحالفات السياسية. رحت أتساءل، أين هو الدعم من قطاع رجالِ الأعمال؟ وأين هي روابطنا مع الرجال الذين يديرون أعمالهم الصغيرة بأنفسهم؟ وأين هم، فوق كل شيء، الأشخاص الطموحون، وهم الذين تسير أمورهم بطريقة مرضية لكنهم يريدون تحسينها كثيراً، وأين الذين هم في أسفل السلّم، لكنهم يريدون الصُّعودَ إلى القِمّة؟ أعتقد أن المثقفين كانوا على حقّ في قولهم إن الأحوال الاجتماعية يقررها النجاح في الحياة، لكن بشكلٍ جزئي. يدخل كذلك في تقرير هذه الأوضاع العمل الجاد، والشخصية، والتصميم، والإصرار، والحيوية. تساءلت عن أولئك الناس الذين هم في صفوفنا؟ فاستنتجت أنهم غير موجودين في أي مكان.

امتلكت، حتى في العام ١٩٨٣، أفكاراً كثيرة عن التأميم والدفاع، كانت ستُدهش طوني بلير عام ١٩٩٤، وتستثير السخرية منه. أعرف أننا كنا حزباً يعيش خارج زمانه، لكن تعيّن عليّ ممارسة بعض الحذر في هذا الشأن. كادت آرائي حول التحديث في الحزب، التي كانت غريبةً نوعاً ما، أن تستبعدني عن الترشح تماماً في العام ١٩٨٣.

لم أتمكن، مع ذلك، من نزع القناع تماماً من حين إلى آخر. حضرت بعد انتخابات العام ١٩٨٣ مباشرة، وبصفتي نائباً جديداً في البرلمان مهرجاناً أقيم بعد الانتخابات عُقد في قاعة مدينة سبيني مور. كنا قد خسرنا خسارةً ساحقةً هي أسوأ من هزيمة العام ١٩٧٩، أي منذ إصابة البلاد بركودٍ اقتصادي شديد. رفض الشعب حزب العمال رفضاً شبه تام.

حمل المهرجان اسم «دروس من الهزيمة». دعا المنشور الذي روّج للمهرجان إلى إجراء نقاشات في منتهى الصراحة. سبق لي أن عملت في سلك المحاماة لمدة

ثماني سنوات، ولهذا تعودت النظر إلى الحقائق، وتشريحها، وتحليلها، ثم إعادة جمعها واستخراج الاستنتاجات منها. تمرّنت على أن أكون عقلانياً في طريقة تفكيري. دفعني ذلك إلى الاستنتاج أننا تلقينا هزيمةً ساحقةً ماحقة. كانت تلك أسوأ الهزائم في تاريخ الحزب. يُضاف إلى ذلك، وكما استنتجت من تحليلاتي الشخصية، أن بعض الذين صوّتوا معنا قد أبلغوني أنهم فعلوا ذلك على الرغم من سياساتنا، وقياداتنا، وليس بسببها.

اتبع طوني بين ما يعادل في السياسة حيلة المناشدة، وذلك ما بين عامَي ١٩٧٩ و١٩٨٣. أقنع الرجل حزب العمال أن السبب الحقيقيّ الذي جعلنا نخسر انتخابات العام ١٩٧٩ أمام السيدة ثاتشر كان وقوف جيم كالاهان، رئيس الوزراء العمالي، إلى جانب اليمين المتطرف. أعرف أن هذا الكلام يبدو غريباً بعض الشيء، لكنه كلامٌ صحيح. تحوّل الحزب، بعد اقتناعه بهذا الرأي، إلى اليسار بحدّة، وساند مسألة نزع السلاح النوويّ من جانب واحد، والانسحاب من الاتحاد الأوروبي، والتأميم الشامل. مثّل هذا الأمر مكافأةً مميزةً وكبيرة لشخصيته وقدرته على الإقناع. بدا الأمر، لبرهةٍ قصيرة، وكأنه أصبح قادراً على الفوز بالانتخابات لمنصب نائب رئيس الحزب، وهو الأمر الذي سوف يمكّنه من الاستحواذ على قوة كبيرة داخل الحزب. كان منافسه دينيس هيلي، مستشار الحكومة العمالية السابق، قد اضطر إلى اتخاذ إجراءاتٍ قاسية من أجل تنظيم الاقتصاد بعد طلب بريطانيا مساعدة صندوق النقد الدولي في العام ١٩٧٦. لكنّ فوز بين كان يعني هزيمةً للقيادة بأسرها، وكان الأرجح أن يسفر ذلك عن سقوط مايكل فوت بعد ذلك بقليل. تمكّنا من تفادي هذا الوضع بصعوبة، لكن الحزب انقسم بنتيجة اتجاهه نحو اليسار، وتشكل حزب جديد في الوسط، هو الحزب الاشتراكي الديمقراطي، الذي سرعان ما اجتذب مساندةً كبيرة من الناخبين العماليين المعتدلين.

يُمكن للمرء أن يستنتج منطقياً أن الفترة الممتدّة ما بين العامين ١٩٧٩ و١٩٨٣ كانت بمثابة كارثة تامة، وأن خللاً كبيراً يكمن في مكانٍ ما. اعتقدتُ أن كل ذلك كان جليّاً جداً.

بدا أن شعارَ المهرجان يؤشّر إلى أن الناس أرادوا أن يتعلموا بعض الدروس. ضمّت المنصة الرئيسة لهذا الاجتماع، بالإضافة إليّ بوصفي عضو البرلمان المحلي،

دينيس سكينر بوصفه حامل راية اليسار المتطرف في ذلك الوقت، بالإضافة إلى مجموعة منوعة من النقابيين. لم يكن بوسع أحد غير شخصٍ غير معقد – أي أنا – أن يعتبر أن النقاشات ستكون متوازنة، وصريحة.

ضمنت في ذلك الحين اختياري لأكون مرشح حزب العمال للمقعد بدلاً من رجل يُدعى ليس هاكفيلد الذي كان خيار اليسار المتطرف. كان الرجل ظاهرةً سياسيةً مثيرةً للاهتمام بالفعل، وهو ينجح فقط في إظهار التأثير الغريب الذي تمتلكه السياسة في الناس. كان الرجل في الستينيات أصغر نائب عمالي في المجلس، وكان معتدلاً، ووزيراً، ونجماً صاعداً. لكن، ولأسباب اعتبرها الجميع متعلقة بالطموح، مع أنها قد تكون إيماناً صادقاً، أصيب بعدوى بين، فتحوّل بين ليلةٍ وضحاها إلى اليسار المتطرف المأجور. فَقَدَ دائرته الانتخابية نتيجة عملية إعادة تنظيم الدوائر التي شملت البلاد بأسرها، وهي العملية التي أدت، بالمناسبة، إلى ظهور دائرة سيدجفيلد. عمد الرجل بعد ذلك إلى التجوال في البلاد محاولاً منع إعادة اختيار نواب البرلمان في ذلك الوقت للترشح. أُغلقت الأبوابُ في وجهه نتيجة عدة أسباب، فتحول إلى ما يشبه ترانسلفانيا وهو يجول ما بين قرية وقرية، تعلق جميع منازلها ألثوم والصلبان فوق أبوابها. اقترب الرجل كثيراً من النجاح في سيدجفيلد. لم يمنع من تحقق هذا النجاح سوى التنظيم البارع الذي أظهره جون بيرتون، وهو حليفي الرئيس في دائرتي الانتخابية، والذي أصبح وكيلي فيما بعد. غضب ليس هاكفيلد كثيراً لهزيمته، وسرت تمتمات وشائعات من معسكره، أن بعضهم يريد استبعادي من أجل تمكينه من المشاركة في منافسات إعادة اختيار المرشحين. كان الأمر، برمّته، قاسياً جداً.

كنت أنا، على أي حال، عضو البرلمان في سبيني مور، لذلك كنت أول من تكلم في ذلك الاجتماع. نهضت، ثم قدّمت ما أسمح لنفسي بوصفه تحليلاً منطقياً، وعقلانياً، ودقيقياً جداً، للأسباب التي أدت إلى خسارة حزب العمال، والدروس التي يجب أن تُستخلص منها. كنت صريحاً وموجزاً بقدر ما استطعت.

بدأت بإيضاح موضوع حديثي، الذي تركز على أن حزب العمال فقدَ اتصاله بالآخرين، وفشل في تحديد مدى التغيّر الذي أصاب المجتمع. أريد أن أشدّد هنا على أمرين كنت فخوراً بهما: أحدهما مواقف حزب العمال التي ورثها من فترة «التلفزيون الأبيض والأسود» (اقتنى معظم الناس في العام ١٩٨٣ أجهزة تلفزيون

ملوّنة)، أما الأمر الثاني فهو أن الحزب كان «يكرر، ببساطة، الشعارات القديمة التي ورثناها من أجدادنا».

لا أقصد أن أقول إن الحزب غارق في لُجّة عاصفةٍ عاتية، لكن في تلك الأيام كنت أدوّن كل شيء، ولم أمتلك حينئذ المقدرة على تعديل خطابي المكتوب. كانت تلك آرائي، وقد قمت بتدوينها. قرأت هذه الأفكار. قوبلت نهاية الخطاب بتصفيق هزيل من بعض المناصرين الذين أحضرهم جون معه. جلس الباقون جميعاً مكتوفي الأيدي، وأعتقد أن هذا هو الوقت الوحيد الذي رأيت فيه شيئاً كهذا، بينما كانت وجوههم متجهّمة، وكأنهم أُجبروا على ابتلاع عصيرٍ من الليمون الحامض.

نهض دينيس. بقي الجمهور متناغماً من دون تكتيف الأيدي، لكن وجوه الحاضرين عكست ابتسامات تكلّف نتيجة تلهفهم على سماع كلماته. كانوا يعرفون ماذا سيحدث تالياً، بعكسي أنا.

تحول دينيس في السنوات التالية إلى واحد من بين أفضل مناصريّ، هذا إن لم يكن أفضلهم على الإطلاق. لم يوافق على أيّ من سياساتي، لكنه كان يحب الشخص الذي يهاجم المحافظين. وعلى الرغم من عدم تيقني أنه سوف يشكرني على هذا الكلام، إلا أنه أصبح فيما بعد شخصاً أكثر ليونة ولطفاً. تعود الرجل، بشكلٍ خاص، إعطائي نصائح بشأن استفسارات ذكية لرئيس الوزراء، كانت تشير بدقة كبيرة إلى نقاط ضعف منافسيّ من المحافظين، كما أعطاني ملاحظات قصيرة، وشرح لي الأمور التي كان من شأنها أن تحشد الناس من خلفي. كان دينيس في تلك الأيام شعلةً أصيلة، وكان بالإضافة إلى ذلك عبقرياً في نوع محدّد من خطابات مهرجانات اليساريين. كان طبيعياً، وطيّب القلب، وهو الأمر الذي يفتح أمامه مجالات واسعة (لم يكن يحبها كثيراً، وهو الذي كان عاملاً في منجم مفتوح، ويعتبر أن المناجم تضرب كثيراً في عمق الأرض).

إن التعرض للمهانة صراحةً وعلناً هو أمرٌ عظيمُ الأهمية في تعلّم الدروس. خلُص الاجتماع إلى استنتاج دروس قليلة جداً (لعلنا تعلمنا الدروس الخطأ) من الهزيمة التي تلقاها حزبُ العمال، لكني تعلمت درساً كبيراً من دينيس في ذلك اليوم.

بدأ بالقول: «إذاً، يُفترض أن يكون نائبكم الجديد في البرلمان عمالياً [شدّد

كثيراً على كلمة «عمالياً»]، بحيث تكون خبرته في سياسة حزب العمال [شدّد ثانية على كلمة «العمال»] حتى الآن تشتمل على [قرأ هنا من قصاصة ورق بتوقيت ومهارة استثنائيين] مدرسة جوقة ديرهام [وهي مدرسة خاصة يكرهها عمال المنطقة كثيراً]، وكلية فيتس في إدنبرا، التي قالوا لي عنها [في حديث جانبي] إنها تماثل إيتون في اسكتلندا، كما أنني لا أعرف الكثير عنها [ضحكات كثيرة وتصفيق]، وكلية سانت جون، وأكسفورد [قالها بلهجة استهجان خاصة]، وتشمل كذلك نقابة المحامين [تصفيق كثير]، وهو الشخص الذي لا يمكن المراهنة عليه كثيراً [ضحكات مدوّية]، لكنه يختزن خبرةً كبيرةً في هذا المجال [إشارات إيمائية]. يعتقد عضوكم الجديد في البرلمان أن أجدادنا لم يعرفوا ما كانوا يتحدثون عنه، وأن الوقت قد حان كي نتخلى عنهم، وأن هذا هو الوقت المناسب كي نخبرهم بذلك، لا سيما وأن عدداً كبيراً منهم لم يمتلك قط جهاز راديو، دعك من جهاز تلفزيون أبيض وأسود، كما أنهم لا ينتمون إلى بريطانيا مارغريت ثاتشر [ظهرت هنا بعض ملامح الرعب على وجوه الحاضرين]. حسناً، دعني أقل لك يا أنطوني تشارلز لينتون بلاير [وهو اسمي الكامل، وقد طُبع عدة مرات هكذا، لسوء الحظ، أثناء انتخابات بيكونسفيلد الفرعية] إن جدودي من الفقراء، والصحيح كذلك أنهم أناس بسطاء. إنني أقرّ بذلك، كما أنني أجرؤ على القول إنهم من جيلٍ قديم بالنسبة إلى مبادئ الولاء والتضامن عندهم، لكنهم كانوا أناساً محترمين وفخورين لأنهم من الطبقة العاملة». شكلت هذه الكلمات الأخيرة ذروةً في أهمّيتها وترافقت مع تصفيق حاد، وهتافات، واستحسانٍ عام إلى درجة كادت ترفع السقف الذي من فوقنا.

توالى المتحدثون بعد ذلك واحداً فواحداً، وكلهم قدموا قصصاً تمزّق شغاف القلوب عن العزم، والبطولة، وآداب الأجداد التي تصل إلى حدّ التقديس. قال عدد من الخطباء إن الفضل في كونهم على قيد الحياة الآن يرجع إلى إخلاص جداتهم، بينما روى آخرون قصصاً عن تدخل الجدة أو الجد لإنقاذ أحياءٍ بأسرها من الدمار التام. لمّح هؤلاء، لكن من دون أن يوضحوا، إلى أن أجدادي كانوا من طبقة النبلاء أصحاب الأراضي، ولربما كانوا من مالكي المناجم الذين يتمسّكون بشعارات لا يستطيع غيرهم أن يتصورها، لكنها كانت قريبةً، بالتأكيد، من تمريغ وجوه الفقراء في التراب.

تصوّرتُ أن الأمور لا يمكن أن تصل إلى هذا الحدّ من السوء، لكني كنت مخطئاً. التفت نحوي المتحدث الأخير، وذلك بعد أن أتمّ تغطية سيرته الخاصة عن الأجداد، وختم حديثه بالقول: «أنا آسف لأنك لا تعي تاريخ الناس الموجودين هنا أو عاداتهم، لكن أيها الرفاق والزملاء، لدينا شخص هنا يعي ذلك التاريخ...» شاهدنا خلف القاعة ليس هاكفيلد وهو يتقدم. هبّت عند هذا الحدّ عاصفة من التصفيق والترحيب.

لاحظتُ أثناء انسحابي أن الناس يجتنبون التطلع إلى عينيّ مباشرة، ويندفعون من جانبي كأنني رجل مريض. وضع رجل طيّب، كان وكيلي في ذلك الوقت، جورج فرغسون، وزوجته حنة ذراعيهما على كتفيّ. قال جورج: «لا تقلق. كنتَ الرجل الوحيد هنا الذي تكلم بأمورٍ مهمة، وأنا أنتمي إلى الطبقة العاملة مثل أي واحدٍ منهم».

قال جون: «إنه على حق، لكن حاول في المستقبل أن تتحدث عن هذه الأمور بطريقة أفضل». وهذا ما فعلته.

كانت حنة امرأةً رائعةً لعدة أسباب. فبالإضافة إلى تربية أطفالها قد تبنت أطفالاً آخرين، وانتمت إلى حزب العمال كأفضل ما يكون الانتماء، لكنها مثّلت مظهراً مختلفاً لما كان يسمى، وبنوعٍ من التعالي، «الطبقة العاملة».

كان جزء من مشكلة حزب العمال أن تلك العبارة كانت وصفاً عاماً يحمل في طياته الغموض كما يحمل الإضاءة. استنتجت أن اتجاهين مختلفين من التفكير يتصادمان معاً في تلك العبارة، الأمر الذي يوحي بالكثير عن بريطانيا المعاصرة. ربما كان هذان الاتجاهان موجودين على الدوام، لكن التقدّم الاجتماعي ذاته الذي ساعد حزب العمال على تحقيقه هو الذي دفع بالتوتر إلى السطح.

ناسبت هذه العبارة [الطبقة العاملة] وصفاً للمدخول، ونوع الوظيفة. وهي تناسب عادة، لكن ليس دائماً بأي حالٍ من الأحوال، اتجاه التصويت، لكنها لا تتلاءم مع وصف المواقف من الأمور المطروحة. سيطر أحد هذين الاتجاهين على الناشطين في النقابات وفي الحزب، كما تبنوا الآراء اليسارية ذاتها التي تبناها جناح المثقفين، لكنهم كانوا أكثر تشدداً في المجالات التي تتعلق بالسياسة الاقتصادية.

أما الاتجاه الآخر فقد مثّله أشخاص من أمثال جورج وحنة، اللذين كانا في

مكان آخر ومنغمسَين أكثر في العالم غير السياسي مثل معظم الناس العاديين. فهمَ هؤلاء الطموح، ورحبوا به بدلاً من الاستياء منه. كانوا من النوع الصلب بشكلٍ مذهل، بالنسبة إلى القوانين والأنظمة. اعتقد هؤلاء أن الأوضاع الاجتماعية يجب أن تتغيّر، لكنهم لم يقبلوا قط أن تشكّل هذه الأوضاع عذراً للسلوك الإجرامي.

تحدّثتُ، بعد وقت قصير من فوزي بالمقعد النيابي ولم أكن قد تعودت بعد أساليب سيدجفيلد، في اجتماع أحد الفروع عُقد في قرية تدعى تودهو، وهو الفرع الذي كانت حنة عضواً فيه. أثير في الاجتماع موضوع عقوبة الإعدام. سألني أحدهم إذا كنت أدعم تطبيق هذه العقوبة في حال حدوث جريمة. كنت في ذلك متعوداً الطرق السياسية المتبعة في أيلنغتون، وليس سياسات محافظة ديرهام. كان سؤال كهذا يُعتبر بسيطاً في أيلنغتون. يُمكن للمرء أن يعطي إجابة تقليدية، ويرى الرؤوس تومئ، بينما يستمرّ الاجتماع. يُعتبر هذا السؤال، في واقع الأمر، أحد الأسئلة القليلة التي يمكنني الرد عليها، عموماً، بإجابة يعتمدها جناحُ اليسار، ولذلك رحّبت بالسؤال. وهكذا أجبت بطريقة مناسبة، أو هكذا ظننت.

أجبت بثقة: «كلا. لا أدعم هذه العقوبة، وسأقول لكم لماذا. إذا لم أكن مستعداً لشنق ذلك الشخص بنفسي فلا يجدر بي أن أطلب إلى الدولة أن تفعل ذلك بالنيابة عني». جلست وأنا أشعر برضا كبير عن نفسي.

صاحت حنة: «حسناً. أما أنا فسأشنقه».

قالت امرأةٌ أخرى تبدو عليها ملامح البساطة، لكنها لاقت استحساناً كبيراً: «أجل. سأقترب وأمزقه إرباً إرباً بدوري».

أعرف أن هذا الشعور إزاء هذه القضية أصبح نادراً في هذه الأيام. لكن النقطة الأساسية هي: لم تكن «الطبقة العاملة» مجموعة متجانسة مثلما كان يفترض بعض السياسيين، وكما استندوا إليها في طريقة تفكيرهم. كان حزب العمال يخسر قسماً كبيراً من الاتجاه الذي كانت تمثله حنة. نستنتج من ذلك أن اتجاهي السياسي والفكري حتى في العام ١٩٨٣، واضحاً وإن لم يكن قد تشكل تماماً: يتعيّن إصلاحُ حزب العمال إصلاحاً جذرياً، وهذا لا يكون بإجراء بعض التعديلات، أو الانحراف درجاتٍ قليلة، بل يكون عن طريق تغيير واسع في طريقة تحركه، وطريقة تفكيره،

وبرنامجه، وفي مواقفه قبل كل شيء. أما كيفية تحقيق هذا التغيير، ومدى سرعة التغيير، وأيّ قضايا ينبغي مواجهتها أولاً، وأيها يجب تأجيلها إلى وقتٍ آخر، فذلك كله ما هو إلا مسألة تكتيكات. لكن كان من الواضح أن المجتمع كان يمرّ في مرحلة تغييرٍ بالمثل، إلا أن حزب العمال لم يكتفِ بعجزه عن الانتباه إلى هذه الظاهرة، بل كان يتوارى عنها.

كنت بحلول انتخابات العام ١٩٩٢، في طليعة تحرّكات الحزب الثابتة، وإن ببطء، نحو التحديث. كنت في المقدمة على الدوام، أحياناً بوصفي المتحدث باسم المدينة، أو المتحدث في شؤون الطاقة، عن مواضيع مثل تغيير المواقع الأساسية للنقابات عند الحديث عن شؤون فرص العمل، لكني لم أوغل كثيراً في التقدم بحيث أغيب عن الرؤية. كنت أكثر الأشخاص صراحة، لكنني حرصت على أن أبقى مع المجموعة، وأن لا أصبح معزولاً بحيث يُشار إليّ بالبنان. سبق لي أن تعلّمت درس دينيس جيداً أنْ لا جدوى من أن يكون المرء على صواب بشأن نقاط فشل مؤسسة ما إذا ما فشل في إقناع المؤسسة بها. يتعيّن على المرء أن يتكلم بلغة المؤسسة من أجل تغيير قواعد المناقشات التي تجري بحسب تلك اللغة، وإلا فإنه يعرّض نفسه كي يكون مثالاً مناسباً للشخص الذي هو على حق، لكنه غير مؤثر.

توصّلت كذلك إلى استنتاج يفيد بوجود مشكلتين أساسيتين في عملية التغيير في حزب العمال: كان الاتجاه صحيحاً، لكن الوتيرة كانت بطيئةً جداً، لكن الأخطر من ذلك، وعلى الرغم من إعجابي بشخصية نيل كينوك، أنني لم أكن مرتاحاً قط للطريقة التي برّر فيها الرجل عملية التغيير.

على الرغم من أن نيل كان فاعلاً على نحو كبير في عملية وصول حزب العمال إلى السلطة، لكنه فضّل القيادة القوية على إزالة روح العداء في الحزب وتبني جناح سكارجيل في الحركة النقابية. سمحت قيادته هذه لجون سميث، وأنا بعد ذلك، بإحداث التغييرات اللازمة للفوز. كانت الحُجّة الكامنة وراء هذه السياسة على النحو الآتي: «إسمعوا أيها الرجال. خسرنا الانتخابات، أي إن الناخبين لن يتبنوا سياساتنا. أنا آسف، لكن يبدو أنه يتعيّن علينا تغييرها. كان من الواضح أن أعضاء الحزب يستسيغون فحوى رسالته: يحتاج الحزب إلى الوصول إلى السلطة، لذلك يتعين علينا الوصول إلى تسوية مع الناخبين. كان ذلك أفضل بكثير من الشعار الشهير لليسار

المتطرف «لا تسوية مع الناخبين»، وهو الشعار الذي كان مطبوعاً على لافتاتهم، بينما كنا نحاول نحن تحقيق الإصلاح. بدا لنا في ذلك الحين أن الحزب والكتلة الناخبة يقفان في موقعين مختلفين، وهكذا سيضطرّ الحزب إلى التغيّر بعكس رغبته. أمّا موقفي أنا فكان على النحو الآتي: الناخبون على حق، ويتعيّن علينا أن نتغيّر، ليس لأننا مضطرون إلى ذلك، بل لأننا نريد أن نتغيّر. ربما يبدو الفارق دقيقاً جداً هنا، لكنه فارق أساسي.

كان رأيي في ذلك الحين أن الحزب يحتاج إلى إعادة توجيه في برنامجنا وسياساتنا. احتجنا، تحديداً، إلى الفصل، مفاهيمياً بين الالتزام بقيَمنا (غير المحدّد بوقتٍ معين) وبين تطبيقها (المحدد بأوقات معينة). سنبقى، ويجب علينا بطبيعة الحال أن نبقى، نكافح من أجل العدالة الاجتماعية، لكن ذلك لا يعني في عالم اليوم تطبيق المزيد من هيمنة الدولة. أما في قضايا معينة، مثل الدفاع والقانون والنظام، فإن الصلابة لا تعني اتخاذ موقفٍ متشدد، بل الاستجابة العقلانية لتهديدات العالم المعاصر، سواء على الصعيد العالمي، أو في زوايا الشوارع.

حاولت كذلك إثارة مسألة الطلب إلى نيل التنحّي مع جون سميث. قاد نيل حزب العمال بشجاعةٍ كبيرة، وأنقذه من الاندثار السياسي، كما كوّن أساساً للحكومة، لكنه اضطرّ إلى خوض انتخابات العام ١٩٨٧ على أساس بيان غير مقنع أبداً. كنت مقتنعاً، لأسبابٍ عديدة، أن الشعب البريطاني لن يُقدم أبداً على انتخابه رئيساً للوزراء. كانت الروحيّة السياسية للقرن العشرين المنصرم قد بدأت بالتغيّر. لا تزال الأحزاب مهمّة، لكن مع تقلّص الولاء للحزب زادت ظاهرةُ الولاء لزعيم الحزب. يحبّ المحللون السياسيون والسياسيون المتمرّسون وضع تصور لاتجاهات الناخبين، وفي معظم الأحيان تحمل هذه التصورات قدراً كبيراً من الحقيقة، لكنهم يميلون على الدوام إلى التقليل من أهمية زعيم الحزب. يمكننا فهم هذا الأمر إلى حدّ ما، لأن من المؤكد أن سياسات حزبٍ ما هي المهمة، وكذلك الحركات الاجتماعية التي تُملي عواقب هذه السياسات، والأحداث التي تشكّل المصائر. لكن فيما يتعدى نقطة معينة، فإن الناس يميلون هذه الأيام إلى التقليل من أهمية تمايز اليسار من اليمين، وذلك لأنهم يعتقدون أن السياسات قابلة للتعديل، ويعرفون كذلك أن البرامج والبيانات لا يمكن أن تُظهر كيف سيستجيب شخص ما للأحداث. إن شخصية الزعيم، ومدى

حب الناس له، وميزاته، تصبح ذات أهمية قصوى إلا إذا كانت السياسات محدّدة وواضحة إلى درجة كبيرة، وبعيدة عن الغموض. يمكن لهذه العوامل أن تحدّد نتيجة الانتخابات، وهو أمر شديد الأهمية هذه الأيام، هذا إذا لم يكن الأمر الأكثر أهمية. إن الأمر هو بهذه البساطة، لذلك إذا كان الناس لا يريدون إعطاء أصواتهم إلى نيل، وهذا ما حصل بالفعل، ورفضوا انتخابه في العام ١٩٨٧، لذلك لن ينتخبوه في العام ١٩٩٢ إلا إذا تغيّرت نظرتهم إليه بصورة كبيرة. لكن هذا الأمر لم يحصل.

خاض جون انتخابات العام ١٩٩٢، وكان من المحتمل أن نربح الانتخابات لو كان هو الزعيم، بدلاً من أن يكون مستشاراً في حكومة الظل. لكن عندما لمّحت إليه في العام ١٩٩١ أن عليه أن يتوجه إلى نيل كي يطلب إليه التنحّي عن الترشح، وكذلك قلت له إنني وغوردون وآخرون سوف ندعمه، سارع جون إلى استبعاد الفكرة. قال لي: «سأكون زعيماً فيما بعد». انتهى الأمر عند هذا الحد. كانت المشكلة هي أن زيادة نسبة الضرائب التي اقترحها بالنسبة إلى الذين يكسبون ثلاثين ألف جنيه وما فوق، أمراً مقبولاً جداً بين أوساط مناصري الحزب، لكنه قد يمثل مشكلة مع الجمهور، وذلك بسبب معرفة جون أنه سوف ينافس في زعامة الحزب فيما بعد. كان جون محبوباً ومحترماً، لكن زيادة نسبة الضرائب هذه كانت بمثابة قنبلة موقوتة حقيقية تهدد الحملة الانتخابية لحزب العمال، وذلك بسبب إقدام المحافظين، بذكاء، على كشف مسألة زيادة نسبة الضرائب هذه. شعرت، بطريقةٍ ما، بعد أن هُزمنا أن جون لن يخوض الانتخابات التالية.

بدأت عند انطلاق حملات الترشيح لانتخابات العام ١٩٩٢ بمحادثة مع غوردون كان لها نتائج بعيدة المدى. كان رأيي أننا تراجعنا كثيراً منذ هزيمتنا في العام ١٩٨٧، وذلك بسبب حذرنا الشديد. صحيح أننا أصبحنا الآن زعماء الجيل الجديد من دون منازع، لكن عندما أصبح غوردون بديلاً لجون فقد أحسن عندما اختار نيجيل لاوسون. كنا نحصل على اهتمام معتدل من وسائل الإعلام، وكان هذا الاهتمام يتزايد في الانتظام، وعادة ما كان إيجابياً. حسمنا موقفنا أخيراً عندما وقفنا إلى جانب طبقة النخبة المهتمة بالسياسة، لكن جيلنا لم يكن قد تسلّم المسؤولية بعد لأننا كنا في طريق الصعود، ولم نكن في مركزٍ يسمح لنا بإملاء الشروط. أما في صلب الفريق الاقتصادي لانتخابات العام ١٩٩٢، فقد برز جون كمستشارٍ في

حكومة الظل، ومارغريت بوصفها وزيرة الصناعة في حكومة الظل، وغوردون بوصفه الوزير الأول في حكومة الظل، وأنا بوصفي وزير العمل. كنا شريكين من الشبان، وكنت أنا الأصغر. تراجعتُ مجدداً، على الرغم من شعوري بخيبة الأمل والقلق. يُضاف إلى ذلك أنني كنت مستمراً في التعلّم والتفكير، وفي محاولة تحديد موقفي من القضايا المطروحة، وكنت أحاول استنباط العناصر الأساسية لتعريفٍ سياسي في المستقبل. كنت أمضي مع غوردون ساعات لا نهاية لها، حتى أياماً، في مناقشاتٍ وجدالاتٍ سياسية، وفي مراجعة القضايا وإعادة مراجعتها، وتحديدها وتحسينها، إلى أن يظهر فيها، في نهاية الأمر، نوع من الوضوح. لم يكن التركيز على السياسات المهمة، أو على الأقل ليس دائماً، لكن ركّزنا على تحديد اتجاه البوصلة، وترتيب الحجج المتعلقة بالاتجاه الذي يتعيّن على الحزب اتباعه، وتنسيقها. أمضينا أشهراً في محاولة صوغ هيكلية إصلاح الحزب. طلع عليّ غوردون بفكرة التوصّل إلى عملية انتساب جماعية إلى الحزب، وذلك عن طريق تحويل العمال الذين يدفعون رسوم الانتساب لنقاباتهم إلى أعضاء كاملين في الحزب. أما أنا فقد ركّزت أكثر على الطريقة الأنسب لتوسيع قاعدة الحزب، وسحب السلطة من أيدي الناشطين غير التمثيليين، ووضع نفوذ النقابات ضمن ضوابط صارمة.

أثرتُ كذلك موضوعاً ساخناً مع غوردون تمثّل في فكرة أنّ الهزيمة إذا حصلت بحسب ما أظن، فسيتعيّن عليه أن يترشح لزعامة الحزب، وأن يتحدى جون إذا كان ذلك ضرورياً. أحببت جون كثيراً، لكني شعرت بحدسي، وبعمقٍ شديد، بأن هزيمةً أخرى، وخصوصاً تلك التي تؤشر إلى أننا لم نقترب قط من الفوز، كانت ستشير إلى ضرورة إحداث تغيير حاسم. كان جون سياسياً عظيماً، وهو رجل طيب القلب فعلاً، لكنه لم يكن مصلحاً حازماً، لا في الأسلوب ولا في الجوهر.

قاربتُ سن الأربعين بحلول العام ١٩٩٢، ومضى عقد من الزمان على وجودي في المعارضة. سيطر عليّ شعور بخيبة الأمل جرّاء فكرة تمضية خمس سنوات إضافية في التقدم بخطوات بطيئة نحو إحداث التغيير في الحزب. وإذا كانت الخطوات نحو التغيير بطيئة جداً فقد نفشل وسأبلغ سن الخمسين قبل أن نرى أثراً للحكومة، وما الهدف من ممارسة السياسة غير الفوز بالسلطة، وممارسة الحكم، ووضع السياسات التي يؤمن بها المرء موضع التطبيق؟ يُضاف إلى ذلك ظهور بعض الآراء ذات اليمين

وذات الشمال التي كانت تعتبر أن الحزب أصبح يؤمن بالقدر أكثر فأكثر بالنسبة إلى حظوظنا بالفوز. خشي أصحاب هذه الأصوات أن يكون الحلّ الوحيد هو تغيير النظام الانتخابي، أو حتى أسوأ من ذلك، أي تقبّل مصيرنا بأن نكون في المعارضة إلى الأبد.

كنت مقتنعاً أَنْ ليس من المحتّم فقط تبنّي الفرضية القائلة إن جون سيصبح زعيماً بعد هزيمة الحزب مباشرة، بل يجب العمل على تحدّي هذه الفرضية. أقول للإنصاف إن غوردون لم يكن ملتزماً. سيكون ذلك طلباً كبيراً، كما أن جون سوف يحسّ أن ذلك هو نوع من أنواع الغدر. يُضاف إلى ذلك أن غوردون لم يكن متزوجاً، وسبق لي أن أخبرته، بصراحة، أنني أعتقد أن هذا الأمر يمثّل مشكلة. اعتقدت كذلك أن الحزب سيكون مستعداً لبعض الحيوية، وأن النشاط سوف يدبّ في صفوفه، وأن ضخّ عنصر الشباب والطاقات الجديدة من شأنه أن يعطي نتائج باهرة. تصوّرتُ نفسي مستشاراً لحكومة الظل في سياق هذا السيناريو، الذي سيكون من ضمنه جون وزيراً مثالياً للخارجية، إذ كان رجلاً مؤهلاً بما يكفي ليضطلع بهذه المسؤولية.

لم أعتبر في ذلك الحين أن من الخطأ، أو من عدم الإخلاص، الاستعداد لهذا الأمر. أعرف أن آخرين قد لا يوافقون على هذا. شعرت أن مركز القيادة يجب أن يؤخذ في لحظة من الحماسة، وليس من الضروري أن يؤخذ عندما تحين «اللحظة المناسبة»، أي أن يتم الاستيلاء عليه إذا أمكن. كان نظام Buggins نظاماً فظيعاً في اختيار الزعيم، لكنه يتنافى، في واقع الأمر، مع كل المفاهيم التي يجب أن تتمحور حولها القيادة. كانت ستحدث مواجهة شرسة لو أن جون تحرّك كي يحل محل نيل، لكنه كان سينجح، برأيي، ولكان التاريخ مختلفاً. استنتجت من عدم استعداده للتفكير في المسألة طبيعة القيادة عنده: أي إنها يجب أن تكون ثابتة، وجدّية، وممكنة التوقع. لم تتناسب طريقة قيادته هذه مع الطبيعة المريعة لمأزق حزبنا. هذا ما شعرت به، على أي حال، سواء أكان ذلك صواباً أم خطأً.

بدأت النتائج الأولية بالوصول ليلة التاسع من شهر نيسان/أبريل من العام ١٩٩٢. بدا لي أن نظام تقسيم الدوائر الانتخابية الغريب قد يُسفر عن مجلس نيابي عاجز عن التوصل إلى إجماع. ظننت لبرهة أن توقّعاتي بالهزيمة كانت خاطئة، لكن مع تقدم الليل توضّحت أمور كثيرة. تحدثت مع غوردون وبيتر بعد أن أصبحتُ عضو البرلمان

الجديد عن هارتبول. قلت لهما إن علينا متابعة السعي. لم أفاجأ لأن بيتر كان قلقاً بسبب عدم استعداد غوردون للالتزام مجدداً.

لاحت أمامنا هزيمة جديدة، ووقع الحزب في لجة اليأس. لم تكن الحال معي كذلك، لأنني شعرت بطاقة كبيرة في أعماقي. ماذا يمكننا أن نقول؟ كانت قيادة الحزب مشغولة بالنواح، لكني أظن أنها فعلت ذلك إلى درجة مبالغ فيها. انهالت علينا في اليوم التالي عروض إجراء مقابلاتٍ مع وسائل الإعلام. لم يكترث أحد من الحزب لهذه العروض، لكني أجريت معظمها بنفسي. أوضحت في هذه المقابلات موقفي بصراحة الرجل الذي تحرّر من سجن سياسي وفكري أن الحزب قد فشل لأننا فشلنا في التماشي مع الحداثة بما يكفي. سيتوجب علينا الآن أن نقوم بذلك، وليس عن طريق خطواتٍ خجولة ولكن بخطواتٍ واضحة وقوية. يتعيّن هذه المرة أن تكون التغييرات أساسيةً، وواضحة، وأن تهدف إلى إعادة التحامنا مع الناس الذين سعينا إلى خدمتهم. لامست بحذرٍ وسهولة موضوع زعامة الحزب. قلت إن نيل لم يُعلن بعد تنازله، كما حدّدت موقفي بصلابة في مجال التغيير الصارم في هيكلية الحزب، وبرامجه، وسياساته. لا أستطيع تفسير كيف أن فكرة تزعّم الحزب قد انطلقت عندي منذ ذلك الصباح، ولا أدري السبب الذي دفعني إلى ذلك. ذكّرني أعضاء الحزب بعد سنوات عديدة بأنهم فكّروا في ذلك اليوم أنني قد أكون الشخص الذي يبحثون عنه.

عدت من إجراء المقابلات في الأستوديوهات، وطلبت إلى غوردون الحضور إلى سيدجفيلد مع نيك براون، الذي كان نائباً في نيوكاستل المجاورة. كان الرجل مدير حملتنا في انتخابات وزراء حكومة الظل، كما لعب دور الناقد غير الرسمي بالنسبة إلي وإلى غوردون (لعب هذا الدور بالفعل، وبشكلٍ رسمي في الحكومة في عام ١٩٩٧).

ضغطتُ في البداية، وبطبيعة الحال على غوردون بفكرة ترشحه لزعامة الحزب. عرضت حججي جيداً، لكنه رفض الالتزام بالفكرة. اتصل بي جون هاتفياً في هذه الأثناء كي يؤكد لي دعمه. اتصل بي في مايروبيلا، تريمدون كولييري التي تقبع في قلب الدائرة الانتخابية. فكرت في التحدث إلى غوردون كي أشرح السبب الذي يُبعد جون عن زعامة الحزب، لكني كنت متوتراً. شكل الأمر مأزقاً حقيقياً بالنسبة إليّ. إذا لم أُظهر دعمي لترشيح جون في حين أن غوردون يرفض الترشح، فقد يضر

ذلك بعلاقتي مع جون إذا ما أصبح زعيماً للحزب. أما من الجهة الأخرى، فقد بقيت على ظنّي أنني قد أمتلك فرصة لإقناع غوردون، وذلك عندما رفعت سماعة الهاتف في مكتبي الكائن في مايروبيلا كي أرد على جون.

راوغت جون في البداية، فلاحظ تردّدي، وهو المعروف بمراوغته. قلت له: «أريد التحدث مع غوردون أولاً».

قال جون: «لقد تكلمت معه. إنه موافق معنا».

لم أجرؤ حينئذ على التردّد أكثر، لذلك وافقت أنا الآخر. لكن جون أبلغني بعد مضي عدة أشهر، وبكل براءة، أنه كان قد اتفق مع غوردون قبل الانتخابات على النقاط التالية: يتسلّم جون الزعامة، ويكون غوردون مستشار الظل. عرفت أن غوردون لن يترشح للزعامة، وعرفت في أعماقي أنها كانت غلطة.

بقيت مسألة تقرير منصب نائب الرئيس. كان ذلك المنصب يخضع للانتخاب، لكن عادة ما يشغل هذا المنصب وزير رفيع في حكومة الحزب. كان روي هاتترزلي، الذي كان يشغل منصب نائب الرئيس وقتئذ (بالإضافة إلى منصب مستشار الظل حتى العام ١٩٨٧) مع نيل في السنوات التسع من زعامته. لم يكونا صديقين مقربين بالضبط، لكن ذلك الوضع لم يكن غريباً في ذلك الوقت. كان الرجل مستعداً للتنازل بدوره عقب الهزيمة. سألني في سياق تلك المكالمة مع جون عن دور نائب رئيس الحزب. قال لي إنني أدرك، كرئيس للحزب، أن يكون إلى جانبي نائب رئيس من الشبان، إما أنت وإما غوردون. طلب إلي أن أتفق أنا وغوردون على هذه المسألة. أضاف أن المشكلة مع غوردون هي أنه اسكتلندي مثله. كانت مارغريت بيكيت بديلاً آخر، وهي امرأة قديرة بالفعل، وقد تشكّل بالإجمال خياراً سليماً، وذلك على الرغم من كونها من جيل جون ذاته.

عدتُ بعد انتهاء المكالمة إلى غرفة الجلوس كي أتحدث مع غوردون ونيك. قلتُ لغوردون: «يقول جون إنك تسانده».

قال لي: «يصعب عليّ أن أقول عكس ذلك». كان من المنطقي أن أشعر بأنني خُذلتُ قليلاً.

قلت له: «يريد أن يعرف إن كان أي واحد منا يريد أن يكون نائباً للرئيس». شرحت له بعد ذلك أن على الرغم من أن غوردون كان أكبر مني، فإن وجود رجلين اسكتلنديين سيحدث مشكلة، وخصوصاً بالنسبة إلى جنوب إنكلترا حيث يقلّ أنصارنا كثيراً. قال نيك إننا كلانا نمتلك حظوظاً قوية، لكن الأمر الأهم هو أن نعرف من منا يمتلك دعماً أكبر من بين هيئة نواب حزب العمال. وافق على إجراء عملية جسّ نبض.

جرت نقاشات على مدى اليومين التاليين أو نحو ذلك. التقينا مجدداً، فقال نيك: «أجمعَ نواب حزب العمل على اختيار غوردون من بينكما».

عرفتُ أن ذلك ليس صحيحاً، وأن الحال لا يُمكن أن تكون كذلك، وأن الحماقة لا يمكن أن تصل بنواب حزب العمال إلى هذا الحدّ. تحدثت وسائل الإعلام عن الصعوبات التي يلاقيها في مناطق نفوذه التقليدية في الشمال، وويلز، واسكتلندا، وكيف أنه سوف يواجه كارثةً إذا لم يكسر الطوق ويتمكّن من الحصول على دعم الطبقة المتوسطة في الجنوب. كان اختيار رئيس اسكتلندي للحزب مخاطرةً كبرى من ضمن هذه الظروف، حتى مع وجود نائب رئيس إنكليزي، لكنها مخاطرة محسوبة يُمكن خوضها. هل يُمكن خوض هذه المخاطرة مع وجود نائب رئيس اسكتلندي؟ سيعني ذلك وجود قيادة اسكتلندية بأسرها. وهل يُسمح بهذا، حتى مع التزامنا قبول هذا الوضع؟ لا أرى الوضع مقنعاً، لأنه كان الجنون بعينه.

اكتشفتُ أمرين في هذين اليومين أو الثلاثة أيام: أولهما أن غوردون لم يقتنص الفرصةَ المؤاتية، والثاني أنه ونيك كانا يعملان معاً، وأن ولاءهما مكرسٌ لهما بالدرجة الأولى. أعتقد أنني ابتعدت قليلاً عن غوردون منذ تلك اللحظة. ابتعدت بقدرٍ ضئيل لا يُمكن لعين المراقب أن تلاحظه، وذلك لأنني لم أرفق ذلك بأي شيء يدلّ على ابتعادي عنه، أو حتى بشيء يدلّ على تناقص مشاعر الودّ تجاهه. كان ابتعاداً ضئيلاً في مجاله، لكنه مؤثّرٌ في عواقبه. غُرست في ذلك الوقت فكرة سعيي في المستقبل نحو رئاسة الحزب بدلاً منه.

تربع جون، كما هو متوقّع، على مركز رئاسة الحزب، واضطلع غوردون بمنصب المستشار في حكومة الظل. سألني جون عما أريده، لكنه دُهش عندما سمع جوابي

الذي فكّرت فيه ملياً وطويلاً. اخترت منصب وزير الداخلية في حكومة الظل، وهو المنصب الذي يعتبره سياسيو المحافظين والعمال على السواء، في العادة، منصباً قليل الأهمية. لا يستطيع المحافظون إظهار شدّة كافية. إن الأشخاص المخلصين، والمحترمين (المتحررين ضمنياً) يختارون الذهاب إلى مؤتمر حزب المحافظين، ويحاولون إثارته، ودفعه نحو التطرف، وغير ذلك من أمور، لكنهم يُكشفون على الدوام. أما المشكلة مع حزب العمال فهي معكوسة، لأن جماهيره تتوقع أموراً أكثر تحرراً، ومع ذلك كان وزير الداخلية العمالي، أو وزير الداخلية في حكومة الظل، يعرف أن الجمهور المراقِب لا يحب الحديث عن الأمور التحررية. تعلمت شيئاً واحداً عن السياسة: إن أولئك الذين ينظرون نظرة متطرفة، سواء من اليمين أو من اليسار، يمكنهم، على الدوام، أن يميزوا ما إذا كان شخصٌ ما مناصراً حقيقياً للحزب أم لا. يضطرّ هؤلاء في بعض الأحيان إلى إرضاء الجمهور، لذلك يتحدثون عن أمر يهمّ جناح اليسار، لكنه لا يكون مهماً جداً في العادة! أردت أن أبذل جهدي في هذا المنصب، لكن أتعرفون شيئاً؟ تمكنوا دائماً من معرفة أن هدفي ليس هذا المنصب أبداً. ظهر هذا الأمر في نبرة صوتي، ولغة جسدي، وهما العنصران اللذان يمتلكهما المتحمّس الحقيقي، لكن يفتقدهما الممثل.

إن منصب وزير الداخلية في حكومة الظل، على أي حال، ليس بذلك المنصب الذي يسعى وراءه كثيرون. لاحظت، على الرغم من ذلك، الأمور الآتية: أ) أن جمهور حزب العمال، وناخبي حزبنا على الخصوص، كانوا قلقين بالفعل بشأن قضايا القانون والنظام، لذلك فهم أقرب إلى أن يكونوا صارمين من كونهم متهاونين، وكذلك ب) أن الانقسام الحاد بشأن الآراء اليسارية واليمينية هو أمر خاطئ، بكل بساطة ووضوح. يضع اليسارُ اللوم على الظروف الاجتماعية، بينما يضع اليمينيون اللوم على الفرد. لكن أي رجل عادي ومعتدل يمكن أن يلاحظ، أو هذا ما اعتقدته، أن اللوم هو مزيج من الاثنين معاً.

خامرتني، شخصياً، مشاعر قوية تجاه موضوع الجريمة. مضت سنوات طويلة وأنا أعتبرها عاراً لا ينبغي للناس تحمله، كما كرهتُ المواقف المتحرّرة للطبقة الوسطى تجاه هذا الموضوع. لا يقع أفراد الطبقة الوسطى ضحية الجريمة في العادة، بل الأشخاص

الأكثر فقراً، وهم الأشخاص الذين نقول إننا نمثلهم. يشعر الناس المعوزون كذلك بالغضب الشديد تجاه الجريمة، ولا أعني هنا مجرد الجرائم الخطرة، أي القتل والسرقة، وغيرهما، لكني أقصد كذلك الاضطرابات المعادية للمجتمع التي هي من العيار الخفيف، وكذلك التخريب. لا يمكننا أن نتوقع من الناس تعود هذا النوع من الجرائم أثناء انتظارهم تحقق المجتمع الفاضل، ولا يمكننا أن نقول لهم أن يتحملوه بصبر إلى أن يأتي أحدهم لتنظيف شارعهم من جحيم الجريمة. يدلنا المنطق، بطبيعة الحال، أن الشبان كلما تلقوا تعليماً أفضل، وخصوصاً الشبان في المدن الداخلية، زادت فرصهم في الحصول على وظيفة، وازدادت احتمالات أن يكونوا من ذوي السلوك الحسن.

ماذا نستنتج من كل ذلك؟ نستنتج أن محاربة الجريمة هي قضيةٌ شخصية، وهي تتناسب تماماً السياسات الجديدة التي تتعدى القديم من اليسار واليمين، وبما أن أي شخصية من حزب العمال لم يُقدم عى إحراز أي نجاح في هذا المضمار (على الرغم من وجود وزراء داخلية عظام من حزب العمال، حاولوا إدخال إصلاحات، مثل شوتر إد، وروي جنكنز) لذلك فالميدان مفتوح بالنسبة إلي كي ألعب فيه. هذه المرة كنت واثقاً جداً بالأمور التي أستطيع إنجازها. كنت على حق في هذا الخيار لأن ذلك قد عزّز موقعي داخل الحزب والبلاد، كما حقّق دفعاً عظيماً، بالإضافة إلى إبراز مواهب القيادة عندي. تبنيّتُ موقعاً عمالياً تقليدياً، وحدّثته، وجعلته شعبياً، وسحبت بساط المحافظين من تحته.

شاءت سخريةُ الأقدار أن يلعب غوردون فيما بعد دوراً مثيراً للاهتمام في مساعدتي على صوغ ما أصبح بعد ذلك عبارتي المأثورة.

تعودنا السفر إلى الولايات المتحدة بين وقتٍ وآخر. فعلنا ذلك، فوق كل شيء، للراحة وللتفكير. تعودنا، لسببٍ ما، المكوث في فندق كارليل في نيويورك. إن كارليل بعيد عن حزب العمال الجديد بمثل بُعدِ الإفراط في شرب الخمور عن مبادئ الكنيسة الميثودية. إنه كذلك فندق خاص استخدمه رجال من أمثال غاري غرانت، وجيمي ستيوارت. كانت إيرثا كيت تغني في مقهى الفندق بينما يظهر وودي آلان مع مزماره [الكلارينيت]. كان الناس في ذلك الوقت يتأنقون في ملابسهم قبل تناول العشاء، وكان الجو رسمياً جداً، أما الهندسة الداخلية فكانت رائعة، لكن الجوّ كان صارماً. لم يكن هذا الجو يروقني عادةً، لكن من المضحك أنني تعودته. كانت إدارة

الفندق رصينة، وكان فريق الموظفين ودياً مع النزلاء. يعني ذلك أن الفندق كان حسن الإدارة على الرغم من قناع الطبقة العليا الذي يتخذه.

جلسنا في إحدى المرات، وكان ذلك في أواخر العام ١٩٩٢، كي نتحدث. وعلى الرغم من أنني كنت ما زلت أتأمل الفرصة التي ضاعت منا نتيجة الهزيمة في الانتخابات، إلا أنني بدأت التركيز بشكلٍ معمق على المهمة التي هي بين أيدينا. شرحت عند ذلك منهجي الأساسي: يتعيّن علينا، بالطبع، أن نركز على الظروف الاجتماعية وأن نكون صارمين في التعامل معها، لكن يتعين علينا كذلك أن نكون متشددين مع الجريمة ذاتها. ويتعيّن علينا أن نجعل ذلك قضية حزب العمال عن طريق إدماج موقفٍ تقليدي في موقفٍ عصري.

كان هذا هو المجال، في تلك الأيام بالتأكيد، الذي أظهر فيه غوردون شيئاً من عبقريته. قال لي: «أتعني أن تقول «التشدد إزاء الجريمة وأسبابها»».

قلت له مدهوشاً بعبقريته: «أجل. هذا ما أعنيه بالضبط».

تحولت هذه العبارة فيما بعد إلى شعارٍ لي، لكنه كان شعاراً غير معتاد، وكان يُخفي، في واقع الأمر، فكرةً فلسفية. استخدمتُ هذا الشعار بعد عودتي بوقتٍ قصير في أحد خطاباتي، ولم أندم بتاتاً.

استفاق المحافظون من صدمة هذا الهجوم، ودهشوا كثيراً، إلى حدّ العجز عن التصديق، لأن سياسياً من حزب العمال تمكّن من «سرقة» قضيتهم، لكنهم أُعجبوا كثيراً بالطريقة التي استخدمتها. كان كين كلارك في ذلك الوقت وزيراً للداخلية. لم يكن هذا ميدانه قط. كان متحرّراً، وممتعضاً من مؤتمر حزبه. أمضى كين أشهراً عديدة في تحمّل مفاعيل هذه القضية على نحو مبالغ فيه، فما كان من جون مايجور إلا أن قرّر، عن حكمة، نقله إلى وزارة الخزانة، حيث ميدانه الحقيقي، كما نقل مايكل هوارد إلى منصب وزير الداخلية، وهو المنصب الذي ناسبه تماماً بصورةٍ موقّتة. تزايدت صعوبةُ القضية فيما بعد، لأن مايكل غيّر بصورة صارمة نبرة المحافظين وسياستهم نحو اليمين، وهكذا وضع أمامي بعض الخيارات الصعبة تكتيكياً. كان متشدّداً جدّاً بحيث كنت سأضع نفسي في مخاطرة الابتعاد عن الحزب إن تبعته، وإن لم أتبعه فسأبتعد بنفسي عن الناخبين. لكن سمعتي توطدت في ذلك الوقت.

تمكّنت كذلك من تفصيل السياق الاجتماعي لهذه السياسة بطريقة لا يستطيع أي مسؤول من المحافظين أن يجاريها بسهولة بعد أربعة عشر عاماً من الحكم، خصوصاً وأن ذكريات الثاتشرية كانت لا تزال حيةً في الأذهان. أما في شهر شباط/ فبراير من العام ١٩٩٣، فقد حدثت جريمة قتل مروّعة في مرسيساید ذهب ضحيتها بلغر، وهو طفلٌ لا يتعدى السنتين من عمره. نفّذ الجريمة ولدان لا يتجاوزان العاشرة من العمر. أعطت هذه الكارثة مثالاً على التفكّك الاجتماعي. ولا حاجة بنا إلى القول إن الولدين ينتميان إلى أسرتين متفككتين. ترافقت التقارير عن هذه الجريمة مع توصيف للحياة، والظروف، والتقاليد التي تعيش في ظلها مجموعات محدّدة من الشبان، يبدو أن أسرهم معزولة عن تقاليد الأسر الأخرى. تمكّنت، وبفاعلية، من تحويل هذ الصورة إلى رمزٍ لبريطانيا تحت حكم المحافظين، وقد تفكّكت فيها المعايير الاجتماعية، وتقلّصت مظاهرُ الرفاه الاجتماعي، وحدث ذلك على نحوٍ يُنذر بالخطورة.

فعلتُ ذلك بنيةٍ طيبة، وحدّدت ما اعتبرته مواضع الخطأ في الأوضاع، وذلك في خطاب لي لقيَ تعميماً واسعاً، وهو أمر غير معتاد مع سياسي معارض لا يتزعم حزبه:

نزلت نشراتُ الأخبار في الأسبوع الماضي بمثابة ضربات مطرقة على ضمير هذا البلد النائم، الأمر الذي يدفعنا إلى الاستيقاظ والتطلع بتركيزٍ إلى ما نراه. إننا نسمع عن جرائم مرعبة بحيث تستثير مشاعر الغضب وعدم التصديق بنسبٍ متساوية. تحمل عناوين الأخبار الصدمات معها، لكن ما يصدمنا أكثر هو معرفتنا أن في كل المدن، والبلدات، والقرى تقريباً تتكرر صيغٌ أخرى، وإن تكن بأشكالٍ أقل حدّةً من الأحداث ذاتها التي أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية تقريباً. أليست هذه هي مظاهر مجتمعٍ أخذ يفقد أهليته كي يحمل ذلك الاسم...

كانت المشكلةُ التاريخيةُ التي ترافقت مع الاشتراكية القديمة هي ذلك الميل نحو تصنيف الفرد، والحقوق، والواجبات، وكل الأمور الأخرى، داخل أفكار «المصلحة العامة»، وهي التعبير الذي أسوأ ما فيه ترادفه مع معنى وجود الدولة. إن موضع الخطأ في مفهوم الحقوق الحالي هو الاعتقاد أن غياب المجتمع يعني غياب الحرية. أما الأمر الأهمّ هنا فيبقى انتشال مفهوم المجتمع community من نظرة الدولة الضيّقة،

ووضعه في إطار يساهم مجدّداً في إفادتنا جميعاً. إننا نريد مجتمعاً جديداً يحمل مفهوماً حديثاً للمواطنية، وهو الأمر الذي أصبح حاجةً ملحة تأخرت في التحقق.

أتأمل الآن الماضي، فأرى أن التحليل كان خاطئاً على الرغم من أن المشكلة كانت حقيقية، الأمر الذي ترك آثاراً في السياسات المتبعة التي سأتحدث عنها لاحقاً. حدث تأثير كبير في مواقفي السياسية بمرور الوقت، وهي المواقف التي استمرّت في التصاعد.

بدأتُ بتوسيع آفاق مواقفي في اتجاه آخر، بينما اعتبرتُ أن جون سميث لم يكن حازماً حقيقياً، لكنه كان يتمتّع بما يكفي من الذكاء والشجاعة كي يدرك أن على الحزب أن يحدّث نفسه. ارتبط جزءٌ من هذه العملية بعلاقتنا بالنقابات، التي تمحورت في ذلك الوقت حول مبدأ الصوت الواحد للعضو الواحد، بينما أرادت اللجان التنفيذية للنقابات الوطنية، التي كانت تصوّت على اختيار مرشح، أن يمتلك جميع الأعضاء صوتاً واحداً، بحيث يتمّ التوصل إلى تصويت أكثر توازناً على منصب رئيس الحزب مع إتاحة الفرصة لأعضاء البرلمان كي يمارسوا دوراً في الأمر.

تبدو فكرةُ أن النقابات قد مارست دوراً حاسماً كهذا في عملية اختيار المرشحين ورئيس الحزب فكرةً غير مقبولة، وحتى مضحكة هذه الأيام، لكن حزب العمال ذاته قد انبثق من لجنة ممثلي العمال، وهي هيئة تكوّنت في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وكان من أهدافها، بالتحديد، إيصال «الرجال العاملين» إلى البرلمان. أنشأت النقابات هذه الهيئة، وموّلتها، وأدارتها، لذلك فجذور الحزب والنقابات متداخلة على نحوٍ لا يمكن الفصل بينها. فلهذا الواقع تأثيرات متشابكة طويلة الأمد.

قرّر جون دعم مبدأ صوت واحد لرجل واحد، كما أنني وضعت ثقلي وراء هذه الحملة. تمتلك النقابات ذكريات مريرة عن قراري الذي اتخذته عندما كنت وزير العمل [التوظيف] في حكومة الظل في العام ١٩٨٩، وقد قضى بإنهاء دعم حزب العمال لمبدأ «التوظيف لأعضاء النقابات»، لذلك كان قراري بتبني هذا المبدأ قد زاد من المسافة بيني وبينها. أسفر هذا الأمر عن دفعي إلى الواجهة بوصفي الشخص الذي له موقف واضح وصريح حيال تمكين الحزب من الفوز. وبعد سنوات من

معاناة حزب العمال اللوم والتوبيخ ومشاعر الدونية وإن لم تظهر بل بقيت تحت السطح، ها قد ظهر رجل واثقاً جداً بنفسه، ومستعدّاً لمواجهة المحافظين، كما أنه يمتلك اللهجة والأسلوب ذاتهما اللذين يتوافقان كثيراً مع مشاعر الناخبين الذين نعرف أننا نحتاج إليهم، والذين برهنوا أنهم بعيدو المنال على الدوام.

مرّت الأشهر، وتحدّد موقعي أكثر بصفتي رجلاً حازماً يحمل معه هدف تحديث الحزب. شعرت بإحساسٍ متزايدٍ من الإيمان، وبالإيمان بالأقدار. شعرت كذلك بأنني ملتزم، وواضح، وواثق فوق كل شيء بكل الحجج التي أوردها، كما وثقت بأنها كانت صحيحة، وآمنتُ بأنها ستجتذب البلاد إلى جانب الحزب.

كانت علاقتي مع غوردون لا تزال وثيقةً جداً، لكن مع اقتراب سنة ١٩٩٢ من نهايتها أقدمتُ على خطوة صغيرة أخرى، لكنها مهمة، أبعدتني عنه. نشطت في ذلك الحين حركة توزيع الغرف على أعضاء البرلمان. تساوى في هذا التوزيع أعضاء البرلمان كافة، مع استثناء الوزراء في الحكومة الذين خُصّصت لهم غرفٌ خاصة. وُجدت في ذلك الحين مجموعة من الغرف في ميلبانك. كنت أنا وغوردون في ذلك الوقت في ١ شارع البرلمان، أي مقابل جسر وستمنستر مباشرة. قرّر غوردون الإنتقال إلى ميلبانك، وطلب إلي الانضمام إليه. نصحتني شيري، بكل لطف، فوجئت بأن آنجي نصحتني بالأمر ذاته، لذلك لم أذهب. لم يكن الأمر مهماً جداً، لكنه كان مؤشراً آخر.

كان غوردون يبلي بلاءً حسناً بوصفه مستشاراً في حكومة الظل، وراح يواجه المحافظين بطريقة مسؤولة ومحسوبة، لكن أُخذ عليه، وإن كان بقدر ضئيل، دعمه لآلية أسعار الصرف، وهكذا عندما انهارت تلك السياسة تأثر بها، وإن قليلاً. قال لي فيما بعد إن هذه المسألة، بالإضافة إلى تضييقه على الإفراط في الإنفاق العام، كانا وراء تفضيلي عليه، لكن الأمر لم يكن كذلك. يعود السبب في الواقع، إلى أنني كنت أنا الشخص الذي وضع نفسه في الواجهة ليتلقى المخاطر، وكان هذا زمن الرجال الذين يتلقون المخاطرات. لاحظت أنا هذا الأمر، أما هو فلا.

أوشك العام ١٩٩٣ على نهايته، فتغيّر شيء لم يستطع معظم الناس فهمه. أقول إن الناس لم يستطيعوا فهمه، لكن لربما أخطأنا نحن معاً في هذه المسألة. وضعتني الصنداي تايمز، على سبيل المثال، على غلاف مجلتها في شهر أيار/مايو من العام

١٩٩٢، وكتبت تحت صورتي هذا التعليق: «الزعيم الذي تاه عنه حزب العمال». كان من شأن هذا الأمر أن يثير مشاعر الغيرة في العادة، لكن الأمر لم يثر أي شيء ولعل ذلك يعود إلى أن أحداً لم يأخذ الأمر بجدية كافية. كان بيتر مندلسون في ذلك الوقت صديقاً مقرباً منا نحن الاثنين. تمكّن بيتر من ملاحظة الأثر الذي تركه هذا الأمر عندي. قال ممازحاً: «إنك تقترب من الزعامة». قال لي ذلك عندما وقفنا أمام السياج خارج الباب الأمامي لمنزلي في ريتشموند كريسنت. كنا عقدنا اجتماعاً على الفور، وكان من الواضح أن ثقتي بنفسي قد تركت انطباعاً كبيراً لديه.

سألته مستفسراً: «من منا تقصد...؟»

ردّ عليّ: «لا تغتر بنفسك كثيراً؟ أتعرف، ما زال غوردون هو القائد التالي المفترض».

قلت: «هممم».

تطلع إلي ثانيةً وابتسم بطريقته الخاصة: «هممم. سأفكر كثيراً في هذه المحادثة».

قلت ضاحكاً، وعلى الرغم من أنني قلقت لأنني أفصحت له عن الكثير: «لن أقلق إذا فعلت».

ربّت كتفي قبل أن يستقل سيارته: «أما أنا فسوف أقلق».

حرت في ما أفكّر في واقع الأمر. لم أكن أحلل بالفعل، لكنني أعطيت حدسي حريةً كاملة. أقول إنني كنت خائفاً من التوقف والتفكير ملياً، لأنني كنت أعرف إلى أين سيقودني حدسي. بدا الأمر وكأنني كنت أصحو كل صباح مع شعورٍ بأنني ازددت قوة، وأصبحت أكثر ثقةً بنفسي. كان كل لقاء مع أعضاء حزبي، حتى مع الحزب الآخر، يضيف طبقةً أخرى من الفولاذ إلى هيكلٍ قويّ جداً كان قد بدأ بالتكوّن. تمكّنت من رؤية الفرصة المؤاتية للإمساك بزمام حزب العمل، وذلك من أجل إعادة تأهيله لدخول الماكينة الانتخابية التي تتمكّن من كسب الناس. نظرت إلى الأمر وكأنني رجل أعمال يتمكن من رؤية فرصته العظيمة التالية، أو مثل فنان يكتشف، على نحوٍ مفاجئ، موهبته الإبداعية، أو مثل مدرّبٍ، أو لاعبٍ يستطيع تمييز لحظة المجد عندما تلوح.

كان ذلك شعوراً استثنائياً، بمعنى معرفة أنك تستطيع إنجاز شيء يفوق ما هو عادي.

كنت أواجه مشاعري تجاه غوردون، التي كانت لا تزال مفعمةً بالودّ العميق والولاء الكبير، لكني شعرت بالزلزال الذي كان يتهيأ للحدوث. بقي رأيي لمدة عشر سنوات يوحي بضرورة قيامه بحسم الأمر، بحيث أكون أنا الرجل الثاني في القيادة. وأحببت كثيراً مفهوم تقديم الاستشارة، والنصح، والحث، والتوجيه من وراء الكواليس، والاكتفاء بمشاهدة ثمار جهودي. يمكنني القول إنني في تلك اللحظة لم أمتلك أي رغبة جامحة في التقدم إلى وسط المسرح، وذلك على الرغم من أنني أحسست بالتغيّر الذي يجري في أعماقي إلى حد تمكني من مراقبته. شعرت بطاقةٍ متوقّدة، وبحماسة كبيرة، وبإحساس بأنني أمتلك رسالةً معيّنة. حاولتُ جهدي كبتَ هذه المشاعر، ولاحظت أموراً عنه للمرة الأولى في مناقشاتنا لم ألحظها كلها من قبل. لاحظتُ لديه حذراً فكرياً مغلّفاً بذكاء، وإن بدا لي أنه لا يتناسب مع الحاجة الاستراتيجية إلى قطع الصلة مع ماضينا على نحو قاطع.

واظبتُ على تدوين يومياتي، وإن بشكلٍ متقطع، في السنوات الأولى لوجودي في البرلمان، أي في الفترة ما بين العامين ١٩٨٣-١٩٨٥. لاحظت، بجلاء، عند إعادة قراءتي لهذه اليوميات أن غوردون امتلك منذ البداية نزعةً للبحث عن طريقة لإعادة صوغ السؤال بدلاً من الاعتراف بالحاجة إلى إيجاد الجواب الصعب. كان لامعاً، ويمتلك معرفةً بالحزب تفوق معرفتي أنا، كما يمتلك، حتى في ذلك الحين، دماغاً تكتيكياً حاداً، لكن هذا الدماغ كان يعمل، في معظم الأحيان، بحسب مؤشّرات مألوفة وتقليدية. كان رائعاً في الحيّز الذي يعمل فيه، لكنه لم يكن يجرؤ على المخاطرة بالعمل من خارجه.

جازفتُ في العام ١٩٩٤ باللعب خارج ملعبي بالنسبة إلى سياسة الحزب وعملية إصلاحه. بدأتُ، مستاءً في البداية وحزيناً فيما بعد، بملاحظة أن شيئاً ما كان مفقوداً. كان يفتقد شيئاً، هو ما بدأت أدرك أنه موجود في داخلي.

لم أكن أعرف، بطبيعة الحال، أن جون سوف يموت قبل أوانه. لكن، باستثناء ذلك، بدأت بالتفكير، وبطريقة غريبة، بأن ذلك قد يحدث. لا أقصد أن القول إنني

توقعت ذلك، أو إنني امتلكت شيئاً يماثله في الغرابة، لكن لو طلب إلي أحدهم، في منافسة خاصة، أن أراهن على حياتي حول ما إذا كان سيموت أم لا، لكنت ترددت. واظبت على إبعاد الفكرة من ذهني، لكنها رفضت الابتعاد عني.

زرت باريس برفقة شيري في شهر نيسان/أبريل من العام ١٩٩٤، وذلك من أجل إلقاء خطاب أمام مدرسة التجارة الأوروبية في فونتنبلو. كان من المفترض أن هذه هي آخر عطلة عادية لنا، ولذلك تركنا الأولاد في المنزل. نصحنا ديري بالإقامة في فندق صغير قرب مونمارتر. كانت الغرف صغيرة جداً، لكنها جميلة كما كان موقع الفندق يتوسط المدينة. أتذكر أنني استيقظت في أول صباح لنا هناك، ثم أيقظت شيري. قلت لها: «إذا مات جون فسأكون أنا، وليس غوردون، زعيم الحزب. أعتقد، بطريقة ما أن هذا سوف يحدث. إنني أعتقد أنه سوف يحدث فعلاً». هل كان ذلك نوعاً من التنبؤ؟ لم يكن كذلك بالمعنى الضيّق، لكن الأمر كان غريباً مع ذلك.

توجهنا مساء السبت لمشاهدة لائحة شيندلر، الفيلم الذي أخرجه ستيفن سبيلبرغ ويتحدث عن رجلٍ أنقذ عدداً من اليهود من معسكرات الاعتقال النازية، وتمكن بذلك من إنقاذ آلاف الأرواح.

تعرفتُ إلى سبيلبرغ بعد عدة سنواتٍ. أخبرته كيف أن الفيلم قد أثر بي أكثر من أيّ فيلم آخر شاهدته من قبل. ظنّ ستيفن، وهو رجل متواضع بطبيعته، أنني أبالغ كما يفعل رجال الفنّ، لكني لم أكن أبالغ. كنت مشدوهاً خلال الساعات الثلاث وربع الساعة. جلسنا لمشاهدة الفيلم وفوّتنا العشاء علينا ونحن نتحدث عنه لفترة طويلة أثناء الليل.

مرّ مشهدٌ في هذا الفيلم تذكرته مراراً، وهو المشهد الذي يُظهر رالف فينيس في غرفة نومه وهو يجادل صديقته. نهض كي يذهب إلى الحمّام، لكن النقاش استمر، بينما راحت هي تسخر منه مثلما تفعل أي صديقة. تطلع الشاب إلى نزيلٍ آخر في المعسكر عندما كان في الحمّام. تناول بندقيته وأطلق النار عليه، واستمرّ في الجدال. فكرت في الفتاة. إنها لم تطلق النار على أي شخص، لأنها كانت مجرد متفرّجة.

لكنها لم تكن كذلك، لعدم وجود المتفرجين في مواقف كهذه، وهي كانت قريبة جداً، ولذلك فالمسؤولية غير بعيدة عنها. لكن ماذا بشأن الأوضاع التي تعرف عنها،

والتي لا نكون قريبين منها؟ ماذا بشأن الجريمة البعيدة عنا، والظلم الذي لا يمكننا مشاهدته، والألم الذي لا نستطيع مراقبته، مع أننا نعرف أنه موجود مع ذلك؟ إننا نعرف ماذا يحدث، سواء أكنا قريبين من الأحداث أم لا. لا نُعتبر متفرجين في تلك الحالة. إذا عرفنا وفشلنا في التحرك فالمسؤولية تقع على عاتقنا.

بدأت المجازر في رواندا بعد أشهرٍ قليلة. عرفنا بها، لكننا عجزنا عن التحرك، ولهذا فالمسؤولية تقع علينا.

يبدو أن ذلك هو نوع من الاستجابة غير العملية، أليس كذلك؟ لكنّ المشكلة هي في طبيعة مشاعري. أما مسألة ما إذا كانت هذه الاستجابات مقبولةً عند شخصٍ يتولى مسؤولية قيادة البلاد أم لا، فتبقى مسألة أخرى. سأتحدث عن هذا الموضوع بتفصيل أكبر لاحقاً.

عدتُ منتعشاً من باريس، لكني حملت معي ذلك الإحساس الغريب بالسلطة، والتوقع، والتنبؤ بالأحداث.

مات جون بالفعل بعد ذلك. كنت متهيئاً من الناحية الذهنية عندما بدأت أولى مناقشاتي مع غوردون. شعرتُ بأنني أراوغه قليلاً، الأمر الذي برهنت الأحداث التالية على أنه كان خاطئاً. تعود الرجل في الفترة ما بين نيسان/أبريل ١٩٩٢ وأيار/مايو ١٩٩٤، أن يلجأ إليّ طلباً للاطمئنان، وهو ما كان يحصل عليه. ولمَ لا؟ كنت أعرف ما يكفي عنه بحيث أيقنت أنني إذا ما حرمته من هذا الاطمئنان، فمعنى ذلك هو ذهابنا إلى مواجهة. ولمَ لا؟ ربما كان ذلك مجرد هاجسٍ لا مبرر له، ولعل تلك المواجهة لن تحدث أبداً. ربما يستمرّ جون ويبقى رئيساً للوزراء، وعندئذ من يعلم ماذا يخبئ المستقبل.

قلت له ذات صباح من أيام أيار/مايو، وكنا جالسَين في مكتب الحزب نراقب الناس الذين يسيرون في الشارع خارج المكتب وهم يعلمون جيداً أن حياتهم سوف تستمرّ كما كانت من قبل، أما أنا فسوف تتغيّر حياتي إلى الأبد.

أعلم أنني زدتُ من قوتي كثيراً، وكنت أعلم أنه سوف يضغط عليّ، ولربما سيصبح هجومياً، حتى أنه قد يستخدم لغة التهديد. لكني تجاوزت ذلك كله.

قال لي: «حسناً. دعنا نتحدث عندما تتراجع عن هذا». لاحظت هنا تغيّراً طفيفاً، لكنه تغيّر واضح، في نبرته.

قمتُ بزيارةٍ خاطفةٍ إلى أبردين كما هو مخطط. كانت الزيارة مخصّصة لإحدى شركات العلوم والتقنية التي ما زلت أتذكرها. أدليت بتصريح مقتضب للصحافة حول وفاة جون، وعبّرت عن شعوري بالصدمة والحزن. استقللتُ الطائرة التالية المتجهة إلى لندن بأسرع وقتٍ ممكن. ربما تحدثت مع غوردون ثانية، لكني لا أستطيع الجزم بذلك. وما إن خرجت من الطائرة ودخلت نفق الركاب في مطار هيثرو حتى لاحظت أن أحد المصوّرين كان بانتظاري كي يلتقط صورتي. دهشت لذلك، ورحت أتساءل هل الأمر هكذا؟

توجّهت إلى مجلس النواب. كان الشعور بالصدمة، والحزن الصادق يخيم على الحاضرين، لكن العجلات السياسية كانت تدور بطبيعة الحال. التقيت مو ماولام الذي كان غير متأثر كعادته (أو هكذا يبدو)، فقال لي بصراحة: «لا بدّ أن تكون أنت. لا تتراجع بأي حالٍ من الأحوال». أوحت لي شيري التي أقلّتني من هيثرو إلى لندن بالرسالة ذاتها، حتى بعباراتٍ أقوى من هذه. كان عقلي قد اتخذ القرار قبل أن يبلغاني رأيهما.

التقيتُ بيتر مندلسون عندما كنت أجول في الردهة التي هي بجانب غرفة مجلس العموم، وكنا قد تحدثنا سابقاً عبر الهاتف، وإن كان ذلك بحذر.

قال لي: «آه، كنت آمل أن أراك. دعنا ننتهي الآن من كل ذلك. ما زال غوردون في المقدمة الآن، وما زال الشخص الذي يحوز الأحقية».

حرت في ما كان يقوله كما هي العادة في حالةٍ كهذه، لكنني كنت متأكداً مما أردت قوله.

قلت له: «بيتر. تعرف أنني أحبك، لكنه دوري هذه المرة. أنا متأكد من هذا. أريدك أن تساعدني على تحقيق هذا».

قال لي: «لست متأكداً جداً من هذا». غاب المزاح عن حديثنا هذه المرة. وقفنا

لبرهة وتطلع كلانا إلى الآخر عبر الطاولة ذات الغطاء الجلدي الأخضر القابعة في الجهة الشمالية من ردهة آي.

قلت له بعد أن وضعت يداً على كل كتفٍ من كتفيه: «بيتر. لا تخذلني. إنه دوري. أعرف ذلك وسأغتنم الفرصة».

أجابني: «لا تكن متأكداً من هذا».

تحدثتُ بهدوءٍ هذه المرة، وعادت لهجةُ الصداقة إلى صوتي: «فهمت. لكن تذكّر فقط ما قلته لك».

دخل أحدهم الردهة. ابتعدنا وذهبنا في اتجاهين مختلفين، وكأننا تصرفنا بطريقة التخاطر عن بعد.

الفصل الثالث

حزب العمال الجديد

كانت البلاد في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة لا تزال مهتزّةً لخسارة جون سميث. أصرّت مو عليّ أن أحضر اجتماعاً أعدّ له من أسمتهم «الصقور» من أجلي. تألف هؤلاء من مجموعة منوعة من أعضاء البرلمان، بالإضافة إلى بعض الوجوه المألوفة وأخرى الجديدة. كانوا من المناصرين العاديين للحزب، لكنهم كانوا شخصيات غير عادية. شكّل هؤلاء القسم غير الفكري للنواب العماليين في المجلس، أي الذين تعلموا السياسة بالطريقة الصعبة، وكانوا يتمتعون بالصلابة وعدم الخوف، وبالانضباط. قالت لي: «هؤلاء هم الأشخاص الذين سيعملون لأجلك. يهدف هذا الاجتماع إلى إظهار تمتعك بالمجال والعمق اللازمين لك للفوز».

لا أستطيع أن أتذكر الوقت، والمكان بالتحديد لأول اجتماع لي مع غوردون، لكن ربما بدأت معه المحادثة الحاسمة عبر الهاتف. كان اتصالاً تميّز بالحديث العاصف، والتفكير، والتوقّعات، ومن غير تخطيط كثير في محاولاتنا لتحديد تصوّر للوضع.

عدتُ بعد الاجتماع إلى ريتشموند كريسنت. وجدت مجموعة من المصوّرين خارج المنزل. بقي المصوّرون، أحياناً بأعداد كبيرة، وبأعداد قليلة في أحيان أخرى، منذ ذلك الحين يداومون على المكوث على بعد عشر ياردات من نافذة غرفة نومنا.

شعرت بإحساسٍ غريب، وببعض القلق المفاجئ على الرغم من إسدالنا للستائر السميكة، لكنيً شعرت في ذلك الوقت بإحساس مثير نتيجة الاستحواذ على اهتمام وسائل الإعلام.

تمكّنت من السيطرة على نفسي، لكن ظهر عليّ بعض القلق. بقيت أستيقظ لأسابيع عديدة بعد وفاة جون والعرق يبلّل القسم الخلفي من شعر رأسي، وكان ذلك يحدث للمرة الأولى في حياتي. وكيف يمكنني السيطرة على مشاعري عندما كانت اليقظة تتغلب على النوم.

أظهرت شيري قوةً هائلةً خلال تلك الأشهر. عرفت أن حياتها كانت على وشك التغيّر، كما شعرت بنوعٍ من الرهبة مثلما شعرت أنا، ولعلها شعرت برهبةٍ تفوق تلك التي شعرت بها أنا بطريقة ما. كانت هي، المحامية التي تتمتع بمواهب فكرية، والتي تعيش في شمال لندن، على وشك أن تصطدم بعالم الصحف الشعبية [الصفراء]، وعلى وشك التعرّض المستمرّ للأضواء. سمحت لها خلفية الطبقة العاملة أن تختلط مع أي شخص والتآلف معه، لكن تجربتها السابقة والوحيدة مع ذلك النوع من الشهرة كانت مع والدها، ولم تكن تجربةً سعيدة.

طوقتني بذراعيها في تلك الليلة وحاولت تهدئتي، وقالت لي الأمور التي كان يجب أن تقال لي، وأعطتني شعوراً بالقوة، وجعلتني أشعر وكأنني أوشك على القيام بما هو صائب. لم يتملّكني أي شك أنه يتحتّم عليّ الاستمرار، لكني احتجت إلى بعض التطمين، واحتجتُ فوق كل شيء إلى قوة دفعٍ عاطفية.

إنني مكتفٍ ذاتياً من الناحية العاطفية، وأكثر من اللازم بطرقٍ معينة. إنني ألتزم عاطفياً لأنه يأتي إليّ بطريقة طبيعية. لكني أخشى هذا الالتزام، وأخشى أن أفقد التحكم، لأن عواقب الاهتمام بالآخر قد تكون مؤلمة، بالإضافة إلى الخشية من الاعتماد على الآخر. يُضاف إلى ذلك الخشية من تعلّم درسٍ جديد، ومن الحبّ الذي يسير باتجاه خاطئ، وحقيقة أن الطبيعة الإنسانية هي طبيعة هشّة ولا يُمكن الاعتماد عليها.

احتجت، بأنانية، في ليلة ١٢ أيار/مايو من العام ١٩٩٤ إلى الحب الذي أعطتني إياه شيري. أردت الحصول عليه كي أحصل على القوة، لذلك كنت مثل شخصٍ

يندفع وراء غريزته. كنت أعلم أنني سأحتاج إلى كل ذرّةٍ من ذرّات القوة العاطفية والمرونة كي أتمكّن من مواجهة ما ينتظرني. كنت منتشياً، وخائفاً، ومصمّماً، وذلك بمقادير متساوية تقريباً.

كان للخوف، على الرغم من كل ذلك، عواقب استمرّت حتى هذا اليوم، ولا يمكنني التأكد أن هذه العاقبة مؤذية أم لا. لم أرغب في مواجهة غوردون في السباق نحو رئاسة الحزب. أمتلك تفسيراً عقلانياً لهذا الأمر: تتطلب مواجهة كهذه أن نكون متمايزين، وهذا يعني أنه سيصطفّ في النهاية إلى يساري [سياسياً]. ظهرت مقالة في اليومين التاليين في جريدة ذي تايمز، ولعل بيتر هو الذي كتبها، وهو الذي كان لا يزال غير ملتزم تأييدي، لكنه كان يحاول إدارة الموقف فيما بيننا. استعرضتُ المقالة خطاباً كان غوردون على وشك أن يلقيه أمام مؤتمر حزب العمال في ويلز الذي كان سيُعقد في سوانسي. قُدّم الاجتماع على أنه اختبار لعربة بلير [الانتخابية]، وكان من الواضح أنه قد صُمّم لتعزيز دعم النقابات. ظهرت ثغرة بين الجناحين الرئيسيين للمعتدلين. أدركت أنني سوف أفوز، لكن ماذا سيكون الثمن؟

سأكون أكثر صراحةً وأقول إنني امتلكت سبباً آخر يدفعني إلى عدم الدخول في منافسة مباشرة: كنت خائفاً من النفور، أو القسوة، والحزن، وهي الأمور التي قد تترافق مع المواجهة التي تنشب بين صديقين أصبحا خصمين. لا يمكنني تحديد أي شعورٍ كان هو الأقوى – الحسابات السياسية أو الخوف العاطفي – لكن تمازجهما دفعني إلى التصميم على محاولة مداهنته قليلاً بدلاً من مواجهته.

عجزتُ عن تحديد ما إذا كان قراري هذا صائباً أم لا، وذلك بعد عدة محاولات، وتخمينات عديمة الجدوى أجريتها فيما بعد. إن إلحاق الهزيمة به يعني أنني هزمته، موقتاً على الأقل، لكن ذلك لا يعني أنني أخرجته من الحياة السياسية، وذلك لأننا نحتاج إليه على أيّ حال، كما أن من شأن ذلك إلحاق الضرر بمفهوم حزب العمال الجديد وإضعافه، وهو المفهوم الذي كان يتبلور في ذهني. حاولنا جعل هذه المنافسة لطيفة، لكنها ظهرت بشعةً على الدوام. رغبت في دفعه إلى ترك ميدان المنافسة طوعاً. لكن لا أريد أن يسيء القارئ فهمي. كنت مستعدّاً للمواجهة، لكن المواجهة لم تكن خياري أنا.

لم يكن غوردون، بطبيعة الحال، السياسي الوحيد الذي يمثّل تحدياً بالنسبة إلي. حاولت في محادثتي الأولى مع جون بريسكوت أن أحمله على الاقتناع بضرورة الخروج من المنافسة والاكتفاء بالترشّح لمنصب نائب الرئيس. كان حديثي معه ودّياً، لكن جون أبدى إصراره على الترشح. أدرك الرجل، وعن حقّ، أنه إذا ترشح للمنصبين فسيعزز بذلك فرصه في الفوز بمنصب نائب رئيس الحزب. أما مارغريت بيكيت فكانت، في المقابل، أكثر حكمةً لأنها اختارت الترشح لمنصب نائب الرئيس فقط. شغلت مارغريت منصب الرئيس الموقّت بعد وفاة جون مباشرة، وذلك إلى حين إجراء الانتخابات، ولذلك فقد أُعطِيت منصب نائب رئيس الحزب تقديراً لها. أفترض هنا أنها رفضت المنصب بسبب بعض الكبرياء الذي شعرت به. أجدني مضطرّاً إلى القول في هذا المجال إنها كانت لطيفةً معي تماماً بعد ذلك. أما استعداد جون للدخول في منافسة، وكذلك ملاحظته الصائبة التي وجهها إليّ بأن المبايعة هي فكرة خاطئة، قد ساهما في إعطائي دفعاً إضافياً لخوض المعركة. أدركت عند ذلك أنه لا يمكنني، ولا يجب، أن أتوقّع الحصول على المنصب، بل عليّ الخروج والفوز به.

كانت مشاركة غوردون في المواجهة أمراً مختلفاً تماماً، وهو الأمر الذي أطلق سلسلة معقّدة من المراهنات على النتيجة في أماكن متنوعة بعيدة عن مجلس العموم وبين العيون المترقبة. اجتمعنا في منزل شقيقة زوجتي في مكان قريب من ريتشموند كريسنت، واجتمعنا كذلك في منزل صديقي نيك رايدن في إدنبرا، وكذلك في شقّة يمتلكها والدا صديقتي القديمة وحبي الأول، أماندا ماكنزي ستيوارت. أبقينا الحوارات سريةً لأسباب وجيهة، بينما انتشرت الشائعات في العالم من حولنا. كان ذلك مجرد سباق للفوز بمنصب زعيم المعارضة، لكنه كان إحساساً متعاطفاً قوياً أشّر إلى أن حزب العمال يمتلك فرصاً قويةً في الانتخابات التالية. كانت حركة التوقعات قوية بوجود «شيء ما في الهواء» بحسب ما تقوله كلمات إحدى الأغنيات. كانت تلك مجرد لحظة في زمن، وتغيّر في مشاعر جيل، ولحظة إلهام لربما لن تغيّر النتيجة الحزب فقط، لكنها ستغيّر البلاد أيضاً، ولربما لن يحدث ذلك عن طريق تغيير الحكومة فقط، بل سيترافق الأمر كذلك مع تغيّر في العقلية.

خفّت حدةُ المنافسة لعدة أسابيع، وذلك لأن التوافق تم، بمسعى من اللجنة

التنفيذية القومية، على عدم إكمال الحملات الانتخابية إلا بعد انتهاء الانتخابات الأوروبية التي كانت ستُجرى في منتصف شهر حزيران/يونيو. تكوّن لدينا سبب آخر يدفعنا إلى الحفاظ على السرية. قلق الداعمون لي بشأن ما يُمكن أن نتفق عليه. وخشي الداعمون له أن يوافق على الانسحاب بينما يريد الكثيرون منهم أن يستمرّ في الترشح، كما خشي الداعمون لي أن أقدّم له بعض التنازلات. كان القلق يسود معسكر داعمي الفريقين في كل مرة نجتمع فيها، وهم الذين كانوا يتميزون بالتصلّب، بشأن التنازلات التي قد يُقدم عليها أيٌّ منا. هذا هو السبب الذي دفع بآنجي وسوناي، المساعد الأقرب لغوردون، إلى عدم الإفصاح عن ترتيبات الاجتماعات. وكان المصوّرون الصحفيون يلاحقونني باستمرار، ولذلك كنا نبذل عنايةً كافيةً في اختيار أماكن الاجتماعات، لكني أظنّ أن اجتماعنا في منازل أصدقائي كان مؤشّراً كافياً إلى المساعي التي كنت أقوم بها.

كان منزل ليندسي، شقيقة زوجتي وزوجها كريس، آمنا تماماً. وكان نيك أحد أقدم أصدقائي منذ أيام مدرسة فيتس، كما أنه رجل موثوق به تماماً، ورجل ذكيّ ورصين. أحببت كذلك الجو الرومانسي الذي يحيط بالاجتماع في منزل أماندا، هناك حيث تقيم أول فتاة وقعتُ في حبها، وحيث أستذكر شعور الرغبة العارمة، والإحساس الغامر بوجود شيء فريد في نوعه، ويصعب التعبير عنه، حتى أنه غامضٌ في بعض الأحيان، لكنه مثير، ومبهج بحيث يدفع بالقلب إلى زيادة نبضاته. كنت في الثامنة عشرة من عمري في ذلك الوقت، وفي سنتي الأخيرة في مدرسة فيتس. كانت الفتاة الوحيدة في تلك المدرسة، وكانت أولى الفتيات التي اختيرت، كتجربة، لأنها ابنة رئيس هيئة الأمناء. كانوا عائلة رائعة، فالوالد هو القاضي البريطاني في محكمة العدل الأوروبية، أما والدتها فقد كانت دبلوماسية، بحكم الطبيعة وليس بحكم المهنة، ورائعة ومبهجة.

كانت العائلة تضمّ أربع بنات، وكانت أماندا الأكبر بينهن. غرقتُ في الحبّ حتى أذنيّ في ذلك الوقت. امتلكت العائلة منزلاً حجرياً جميلاً يعود إلى القرن الثامن عشر في نيوتاون، وكانت شرفاته وأقواسه آيةً في الفنّ المعماري. إنني أعتبر أن إدنبرا لربما كانت جميلة مثلها مثل أي مدينة أخرى في العالم. كنت أعرف،

وأحب، كل شارع يحيط بنيوتاون، كما أنني جبتها كلها، وكنت أجد حتى لسنواتٍ عديدة بعد ذلكً الأمن، والراحة، والاطمئنان في تلك الأماكن التي ألفتها، كما أحببت الإحساس بالإيمان والكمال في هندستها التي بدت وكأنها تُلهم ساكني إدنبرا الذين ينتمون إلى الطبقتين المتوسطة والعليا. لم أشعر بالخوف هناك، لكني شعرت بثقةٍ، وبطريقة غريبة قليلاً، عندما كنت في منزل أماندا وكل الدلائل تشير إلى حضورها، حول المهمة التي هي بين يدي.

بذلت، وعن عمد، آخر ما تبقى عندي من عوامل الجاذبية والمودّة، ليس عن طريق الإقناع فقط، ولكن أيضاً عن طريق التودّد. كنا أنا وغوردون قريبَين جداً بشكلٍ لا يُمكن إلغاؤه لمدة عشر سنوات. كنا قريبين جداً كأقرب ما يكون عليه اثنانً في السياسة. لم تكن علاقتنا مهنيةً فقط، بل كانت علاقة صداقة. صعُبت الأمور بعد ذلك، وأصبحت مشحونة، إلا أنها انتهت خطرةً في آخر الأمر، فشعرت أن الضرر قد زاد كثيراً، لأن مودّتنا كانت حقيقية. كانت تلك شراكة سياسية بالطبع، لكنها كانت مستندة، ولعلها مؤسّسة، على إعجاب صادق بيننا. ولم يسبق لأحد منا أن التقى أي شخص مثل الآخر. لاحظت أنه غريب في بعض الأحيان، وكي أكون محدّداً، لاحظتً غرابةً في التأمل الذاتي، والتركيز. وجدته ذات صباح، وكان يوم السبت، مرتدياً بذلة وقميصاً أبيض. كان محاطاً بطوفانٍ حقيقيّ من الصحف. بدا لي الأمر في ذلك الحين غريباً بطريقة محببة. يمكن لغوردون أن يكون لطيفاً، وكريماً، ومهتماً، ولم يكن مرحاً في العادة فقط، لكنه يمتلك ذكاءً حاداً وفكراً نيّراً. لم يقتصر النقاش على الأمور السياسية، بل تبادلنا نقاشات معمّقة، وأموراً شخصية، وضحكات، بالإضافة إلى أمور فلسفية، ودينية، وفنية، وأمور الحياة اليومية التي تهمّنا وتثيرنا كبشر.

كنتُ، من جهتي، ذلك النوع الجديد من الأشخاص بالنسبة إليه. كنت غير سياسي في رؤيتي للسياسة، واعتمدت على الحدس أكثر من التحليل، أو كي أكون أكثر دقّة، منذ أن بدأت بتحليل وإعادة تحليل السياسة. أما نقطة الانطلاق عندي فكانت الحدس. علّمني في البداية أشياء على الدوام: كيفية قراءة المناورات الدائرة داخل حزب العمال، والخطوط التي يجب عدم تجاوزها مع النقابات، وكيفية إعداد الخطابات، والوقت المناسب للسكوت، والوقت المناسب للكلام في مناقشات

الحزب الداخلية. أختصر كل ذلك بعبارة واحدة: علّمني مهنة السياسة بالطريقة ذاتها تقريباً التي علّمني فيها ديري مهنة المحاماة.

استفاد مني بمرور الزمن رؤيةً مختلفة تتمثل في نظرة الشخص العادي إلى السياسة. إن أصعب شيء بالنسبة إلى سياسي متمرّن هو أن يفهم أن معظم الناس، وفي معظم الأوقات، لا يعطون أولوية قصوى طوال اليوم. أو إذا ما فعلوا ذلك فإنهم يتأوّهون، أو يتنحنحون، أو يقوّسون حواجبهم، وذلك قبل أن يعودوا إلى الاهتمام بأولادهم، وبآبائهم، ورهونهم، ورؤسائهم، وأصدقائهم، وأوزانهم، وصحّتهم، وأمورهم الجنسية، وأغانيهم.

يُعتبر دافيد بلاكيت مثالاً ممتازاً للشخص الذي أمضى حياته في السياسة، لكنه يتمكّن من التفكير كإنسان. أخبرني ذات مرة أنه حتى في ذروة شهرته كوزير للداخلية كان الناس يقتربون منه ويسألونه: «رأيناك على شاشة التلفزيون. كيف حالك؟» والأغرب من هذا أنهم كانوا يرونه أحياناً مع كلبه المدرّب، وكانوا يعرفون من هو، لكنهم كانوا يقولون: «لم نعرف قط أنك فاقد البصر».

لا يُستغرب أبداً أن يتحول الناس بآرائهم في مراحل معينة. إنهم يعمدون، أو على الأقل قسم كبير منهم إلى التركيز والإصغاء. إنها لحظات موحية، لذلك من المهمّ جداً أن يلاحظ المرء هذه الأوقات، لأن عدم ملاحظتها أمر بالغ السوء. أما السياسي المحترف فكل لحظة من لحظات صحوه موحية، سواء جزئياً أو كلياً. إن مجال السياسة بالنسبة إليهم هو مجال مبهج على الدوام، كما يمتلك نوراً ساطعاً يضيئ بقسوة على بيئة مليئة بقمم الطموح وسقطاته، وبالمخاطرات والإنجازات. يقلق السياسيون دائماً حيال ما يمكن أن يعترض طريقهم عبر هذه البيئة. يعتبر معظم الناس العاديين أن السياسة ما هي إلا عالم بعيد ومليء بالضباب في معظم الأحيان. إن العجز عن فهم هذه النقطة يمثل نقطة ضعف مهمّة عند معظم السياسيين، لأن هذا الأمر يؤدّي بهم إلى رؤية الصورة الصغيرة، وليس الإطار الأكبر للأحداث. يعني ذلك أيضاً أنهم لا يدركون الأمور بنِسَبها الحقيقية، ولذلك يتكون عندهم نوع من الذعر، كما يمنعهم عن فهم الأمور المهمة وما يحرّكها.

كانت صداقتنا حقيقية، وكان يتمّمها إطار سياسي هو أكبر بكثير من مكوّناته.

نجحت علاقتنا على هذا النحو، لكن الوقت حان لتقرير من منا سوف يمضي قدماً، وهكذا وصلت هذه الصداقة إلى مأزقٍ حقيقيّ.

كان جوهر حُجّتي على هذا النحو: كنت أنا صاحب الحظّ الأوفر بالفوز على صعيد البلاد (أظهرت الاستطلاعات الأولية في أول يوم عطلة بعد وفاة جون أنني أتقدّم كثيراً على أي مرشح آخر. وكان جون بريسكوت متقدّماً على غوردون)، لكننا تقاسمنا برنامجاً سياسياً واحداً، وهكذا فإننا سوف نعمل معاً، وسيصبح مع الوقت شخصاً بارزاً، هذا إذا لم يكن الشخص الأبرز المؤهل لتسلّم القيادة. بقي مع ذلك شرط واحد، وهو الأمر الذي تحول إلى موضوع لنقاشات كثيرة تميزت بالحدة في بعض الأحيان. سأساعده على النجاح ما دام يعمل معي بشكل مناسب ويقبل قيادتي، طوال وجودي في رئاسة الحزب. لم يكن ذلك مطلباً صعباً كي يُطلب أو يُعطى. وعلى الرغم من عدم وجود صفقة بمعنى استبعاده كشرطٍ لقبولي تقديم المساعدة إليه كي يأتي بعدي في السلطة، لكن ساد فيما بيننا جوّ من المصلحة المتبادلة. وإذا سألني أحدهم عما أنوي فعله، وماذا يُمكن أن يحدث، لكنتُ قلت له إنني سأحكم فترتين قبل التنازل. بدا ذلك منصفاً بالنسبة إلى الحزب إلى البلاد، وليس بالنسبة إلينا فقط. كان الرجل يفوق الآخرين مقدرةً، ووزناً، ومهارة.

أعود مجدّداً لأفكر في الأمر. كنت تواقاً جداً إلى الإقناع، ومستعدّاً لتقديم بعض التنازلات. لكن لم أكن أستطيع ضمان أي شيء في واقع الأمر، ولم يكن من الحكمة أن أوحي أنني أستطيع فعل ذلك. أما الأهمّ من كل ذلك فهو أن هذا الموقف كان سيتجاهل كون شخصية القيادة لا تتضح إلا بعد أن يصل المرء إلى سدّة الحكم. أما المعارضة فهي أمر مختلف تماماً. لا يعرف المرء هذه الأمور حينها، لكنه الواقع. لا يعني هذا أن المعارضة لا تتطلب الشخصية القيادية، لكن تلك الحاجة تتضاعف مئة مرة بعد الوصول إلى الحكم. إن نواقص المرء في المعارضة سرعان ما تتحول إلى عجزٍ عندما يصل إلى الحكم، ونقاط الضعف تصبح مميتة، أما الأمور التي يُمكن تبريرها فتبقى مثل بُقع لا يُمكن إزالتها. تتضاعف كذلك، وعلى نحو مشابه، نقاط القوة، كما أن القرارات تتردّد ليس بين أعضاء الحزب فقط، لكن في أنحاء البلاد بأسرها، حتى أن هذه الترددات تصل، في بعض الأحيان إلى العالم. إن شخصية القيادة، إذا ما وجدت، تبرز وتدوم.

ما كان يجدر بأيّ منا أن يحاول التنبؤ بالمستقبل. كنت حريصاً على إقناعه بموقفي والرضا به، أما هو فكان حريصاً على استخراج أقصى ما يمكن في ذروة الفرصة المتاحة. لم يكن الأمر معقولاً بأي طريقة من الطرائق، وإن كان مفهوماً، وخصوصاً مع النتائج التي رافقته، على الرغم من أنني لست متأكداً حتى هذا اليوم من الفرق الذي كان سيحصل فيما لو اتبعنا طريقة أخرى. أما الواقع فقد كان يشير إلى أنني كنت أمتلك الرئاسة، لكنه يريدها لنفسه. كان ذلك واقع الحال في ذلك الحين وبقي كذلك. ربما كان الأمر مقدّراً على هذا النحو إلا إذا أراد أحدنا الضغط على الزرّ النوويّ وقرّر شنّ أعظم حرب يقدر عليها لتحيطم الآخر. كان ذلك خياراً متاحاً لكلينا: أردت أنا استبعاده، بينما أراد هو الاستقالة والترشح ضدي، لكن ضخامة الضرر الذي يرافق هذا المسار أبعدتنا عن نقطة الانفجار.

كانت المناسبة الأولى، في الواقع، التي لمّح فيها إلى إمكانية قبوله التنحي جانباً وتقديم الدعم لي، في منزل أماندا. تظاهر غوردون حتى ذلك الحين بأنه سوف ينازعني الرئاسة. كنت أعرف أنه لن يفعل، كما كنت أعرف كذلك أن المناقشات المطولة كانت شرطاً ضرورياً من أجل توجيهه نحو الموقف الصائب. لم أكن قلقاً بسبب منطقه، بل بسبب كبريائه.

ترافق النقاش كذلك مع أمر آخر يحمل أهمّيته الخاصة، وهو أمر أطلق توقّعات كثيرة بعد ذلك. أراد غوردون إطلاق يده في السياسات الاقتصادية. قدّم بيتر، الذي كان بدأ العمل لمصلحتي، ورقةً في إحدى المراحل، تضمّنت التنازل عن التحكم في السياسة الاقتصادية. بقيت الورقة، ويا للأسف، لكن جوابي، الذي كان عنيفاً بصورة غير اعتيادية، لم يكن له حظّ البقاء. قبلت التفاعل المباشر. قبلت الشراكة. أما فكرة القيادة الثنائية فقد رفضتها رفضاً مطلقاً. عزّز هذا الموقف أسطورة أنني لا أكترث للسياسة الاقتصادية. أما الواقع فهو خلاف ذلك تماماً، لأننا كنا في حالة مبارزة قاسية على القوة. بقيت دوماً متمسّكاً بشدة بهذا الموقف، أقلّه حتى الفترة الثالثة، وكنت مستعداً للتراجع بحدة إذا تطلب الأمر ذلك.

كانت المحادثات صعبةً بطبيعتها، لكنها لم تكن عنيفة، أو مريرة، أو حتى خالية من مشاعر الصداقة. كنا مثل اثنين تحابّا ثم راحا يتجادلان بعد ذلك في مهنة أيّ منهما تأتي أولاً. كانت هناك أمور كثيرة على المِحَكّ، كما كانت هناك

أمور كثيرة تدعم علاقتنا. لم يكن عندي أي شك، مع ذلك، بأنه شعر بإحساس من الصدمة والخيانة. لم يكن يتوقّع أن أدفع بنفسي إلى الواجهة. كان يعتقد أنّه سياسي متفوّق. لم يكن، بالمناسبة، مدركاً لتفوقه الفكري. أما المضحك في الأمر فهو أنني لعبت، أثناء جدالاتنا الدائمة التي ميّزت صداقتنا حتى ذلك الحين، دور المحامي التحليلي، أو دور الأستاذ الجامعي الذي يحاول تنظيم منطق وعقلانية مواقفنا بشأن سياسات الحزب. كان هو السياسي البارع. لا أعني أنه لم يكن أكثر اقتداراً من الناحية الفكرية، لأنه كان كذلك ولا يزال، بمعنى الشخص الذي يحصل على أفضل علامة، ويقدر على تأطير القضية الفكرية التي نعمل عليها. كنت أميل إلى امتلاك الفكرة، أما هو فكان يهتمّ بترجمتها إلى سياسةٍ عملية. كان كذلك مستشاراً لامعاً يمكنه رؤية نقطة القوة في أمرٍ ما. كان بإمكانه إعطاء ست زوايا لهذا الأمر، وكثيراً ما كان يدفعك إلى رؤية أمرٍ ما تحت ضوء جديد بالكامل. تعودت أن أقارنه بديري في هذا المجال. كنت أستفيد من النقاش، وأخرج راضياً من الناحية الفكرية، ومحفزاً، ومتحمّساً. كانت المناقشات طويلة، ومع ذلك لم نضيّع لحظات كثيرة. كان عقلانا يتحركان بسرعة، وعلى نحو متناسق. أما عند حضور الآخرين فكنا نشعر بتناقص وتيرة النقاش وتراجع حدّته. كان الأمر يشبه حبيبين متلهفين ليكونا لوحدهما، لكنهما ينزعجان بسبب زيارة أصدقائهما. كنا نحاول دفع هؤلاء الأصدقاء إلى الخروج، ونحاول توجيههما نحو الباب بتربيتة لطيفة على الظهر. لم تكن صداقتنا بمثابة صندوق مغلق بالضبط، لكن الإحساس بالاستقلالية كان قوياً، وكان طاغياً في بعض الأحيان. يصعب علينا، تحت ضغوط القيادة، فتح هذا الصندوق المغلق أمام تأثيرات العالم الخارجي، سواء أكانت جيدة، أم سيئة، أم بين بين. لكن هذا ما كان يحدث بالطبع.

حمل الأمر صعوبةً مضاعفةً بالنسبة إليه. امتلك غوردون توقعات كان عليه استبعادها، وكان من الممكن إيقاظها مع الزمن، لكن كان يصعب عليه معرفة، أو تقرير متى، وكيف، أو في أي ظروف، سيتمّ ذلك. أما من جهتي فلم أكترث – صدّق أو لا تصدّق – لأنني تحولت إلى طلب القيادة، لكن بتردد. أتذكر عطلة نهاية الأسبوع التي تلت وفاة جون، وبعد أن علمت بقرب ظهور نتائج استطلاع الصنداي تايمز. انتظرت ظهور ذلك الاستطلاع، وفكرت كيف أن الأمور سوف تبدو أسهل إذا

ما أظهر الاستطلاع تفوق غوردون، وهكذا سأمتلك العذر كي أقول لأصدقائي الذين يدعمونني: «حسناً، لم أكن أنا في نهاية الأمر». لم تحدث الأمور على هذا النحو، لكن حتى لو حدثت هكذا لكنت قطعت شوطاً كبيراً. أقصد أن أقول لو أتيحت لي الفرصة لحلّ عقد مختلف الدوافع عند مفترق الطرق هذا، لكنت اعتقدت، بصدق، أن من الأفضل أن أتولى القيادة. مضت علينا حينئذ خمس عشرة سنة في المعارضة، وتراجعنا في مناطقنا الأساسية، أي في الشمال، واسكتلندا، وويلز، وداخل المدينة. أبقت إنكلترا الوسطى على شكّها فينا وقلقها حيالنا على الرغم من خيبة أملها من حزب المحافظين. كانت الأوضاع تستصرخ الحزب كي يقفز قفزةً ثوريةً وتحديثية، والانفلات من تلك المناطق، ولكي نُظهر، للمرة الأولى، أن بإمكاننا الفوز بالمساندة في أي مكان، وأن بإمكاننا تجاوز الانقسامات، وأن بإمكان الحزب توحيد الأمة. كنت أنا الرجل المجدّد في الشخصية، واللغة، وفي الزمن، والانطباع، والمزاج. اتضح هذا الأمر في النهاية مهما حاولنا تجزئة هذه الأمور.

بعد المحادثات التي جرت في منزل والدَي أماندا حيث انتقلا إليه بعد أن كبرت العائلة، جلسنا في المطبخ وتطلعنا نحو الحدائق والأجمات في تلك المساحة الصغيرة تحت جسر دين القريب من المكان الذي نجحت فيه كثيراً، منذ سنوات، في مشروع تطوعي لمصلحة الفقراء، وبالنيابة عن طلاب المدرسة. جلسنا في ذلك الوقت كي نعالج كيفية ترتيب انسحابه بشرف.

مرّت فترة في منزل نيك رايدن، وهي الفترة التي أعطتنا فكرة واضحة عن كل هذه الأمور. كان نيك قد انتقل تواً إلى منزلٍ كبيرٍ وقديم، وكان يقوم بعملية ترميم للمنزل. وافق الرجل، بلطف، على الخروج من المنزل وتركنا وشأننا كي نتحدث. نهض غوردون بعد مضي ساعة، أو نحو ذلك، كي يتوجه نحو الحمّام. انتظرت في الطابق السُّفلي، ومرّت خمس دقائق، ثم عشر دقائق، ثم خمس عشرة دقيقة. شعرت ببعض القلق. رنّ جرس الهاتف على نحوٍ مفاجئ. لم أكن في منزلي لذلك لم أرد. سمعت صوت آلة التسجيل التابعة للهاتف، وانطلق صوت نيك يطلب إلى المتصل أن يترك رسالة. انطلق، فجأة، صوت آخر من الآلة: «طوني. أنا غوردون». واو. شعرت بصدمةٍ حقيقية. ماذا يجري بحقّ السماء؟ تابع الصوت: «أنا في حمّام الطابق العلوي، ولا يمكنني الخروج».

استُبدل باب الحمّام في إطار عملية الترميم، لكنه لم يزوّد مقبضاً من الداخل. أمضى غوردون ربع ساعة في محاولة العثور على رقم نيك في هاتفه الخلوي. لم أسمعه بسبب ترتيبات عزل الصوت في المنزل. توجّهت نحو الحمّام، وقلت له: «يمكنك أن تنسحب من المنافسة وإلا سوف أتركك في الداخل».

تمكّنت في آخر الأمر، وبمساعدة بيتر، من صوغ إعلان يفيد أن غوردون سوف يدعمني، وهو فعل ذلك عندما مشى بتردّد حول نيو بالاس يارد (ساحة القصر الجديد) الواقعة تحت بيغ بن. نجح الأمر كجزء من علاقتنا مع وسائل الإعلام، لكن سرعان ما تبيّن أنه كان أقلّ نجاحاً على صعيد العلاقة فيما بيننا.

أما أساس المشكلة فقد كان اعتقاده أنني قد أكون وعاء فارغاً يستطيع أن يسكب فيه السائل الذي ينتجه ويعالجه كما يريد. لم أكن متأكداً إطلاقاً، وما زلت كذلك، أنه اقتنع بذلك الوهم القائل إنني مجرد رجل واجهة يقوم بيتر بتدريبه بعناية، وبعد ذلك ألاستر بمرور الوقت، لكني غير قادر على التحرّك بنفسي. كان ذلك مجرد هراء بالطبع، ليس بسبب مهارتي الشخصية، لكن لأن من المستحيل على رجل في مثل مركزي أن يكون نتاجاً لشخص آخر. لا يمكن لذلك أن يحدث. هناك آلاف القرارات، سواء الكبيرة منها أو الصغيرة، لا يستطيع اتخاذها غير القائد. لا يمكن للمرء أن يصطنع لغة جسده أو يتظاهر بها، لأنه مهما كان يجيد التمثيل، فذلك لا يُعتبر أداءً صحيحاً.

تشبه هذه الحالة الوقت عندما يقول لي بعضهم: «أوه، إن هذا وأولئك لا يؤمنون بشيء، وهم ليسوا سوى خطباء ماهرين». تحتوي هذه العبارة، من حيث أنها عبارة حول السياسة، على تناقض، وعلى الخصوص بالنسبة إلى شخص يمسك بمقاليد السلطة العليا. إن تمحيصَ المواقف يصبح أكثر دقةً في مناصبَ السلطة الأولى، والأمر يمسّ شغاف الروح. يتطلع الناس إلى القائد كما يفعلون مع شخص يرونه كل يوم في مكان العمل. ربما يتمكن الزعيم من خداع الناس وتضليلهم لوقتٍ معيّن، لكنهم لا يلبثون أن يتوصّلوا إلى قرارٍ حقيقي بشأنه. يستطيع الناس، وبغضّ النظر عما إذا كانوا يوافقونك على ما تفعله أم لا، معرفة ما إذا كنت تؤمن بما تفعله. أما إذا لم يكن لديك معتقدات جوهرية كسياسي، وحدسٍ حقيقي نابع من الإيمان، فلن تكون خطيباً ماهراً أبداً. إن أفضل الخطابات هي التي تنبع من القلب، لكن ربما يكون هذا

الكلام ساذجاً بعض الشيء، لكنه واقعي. إنني أعتبر بيل كلنتون أصدق مثال على هذا الكلام. كُتب الكثير أنه على الرغم من كونه خطيباً رائعاً، لكنه لا يؤمن كثيراً بأي شيء. لكن هذا الكلام ليس صحيحاً بالمرة. يمكننا القول إن الرجل لا يؤمن بكونه ديمقراطياً تقليدياً، لكنه لم يقم بصوغ السياسات التقليدية للحزب الديمقراطي. كان كلنتون ديمقراطياً جديداً، وهو تحدّث بهذه الصفة في خطاباته، لأن ذلك هو ما يؤمن به، وهذا هو سبب نجاحه في التعبير عن اتجاهه هذا.

ربما يكون غوردون قد فكّر أن بإمكانه أن يملأ الكوب كما يشاء، لكن كان يستحيل أن تجري الأمور على هذا النحو، ولم يلبث الاستياء الكامن أن بدأ بالظهور أخيراً. افترقنا في مسألة إسناد منصب نائب الرئيس لجون بريسكوت. أما أنا فيمكنني أن أتعايش مع مارغريت بيكيت في ذلك المنصب، لكني إذا أردت أن أكون منصفاً فسأقول إن جون قدّم مساهمته في الحملة، الأمر الذي لم تفعله هي. اختلفنا كذلك على هُويّة الشخص الذي يجب أن يُدير حملتي لمنصب الرئاسة. اعتقدت مع أنصاري (بعد أن فرض هذا التمييز نفسه) أننا لا يمكن أن نسند هذه المهمة إلى غوردون لأننا كنا مقربين جداً. سيتعيّن عليّ الآن التحضير لذلك الوقت الذي لن أستطيع العيش فيه، كرئيس الحزب، في حيّز مغلق. يُمكن أن يكون غوردون الرجل المفضّل، لكنه ليس الرجل المفضّل الوحيد. أما من جهتنا فكنا نعتقد أن جاك سترو هو المرشّح الأفضل، لأنه لا ينتمي إلى أي معسكر، وهكذا فإنه سيحسّن فرص قبولي بين نواب حزب العمال. تعيّن عليّ شرح هذا الموقف لغوردون، لكنه أبدى استياءه الشديد تجاهه.

مرّت فترة الحملة الانتخابية لرئاسة الحزب من دون أي حادث. ساندني عدد قليل من رؤساء النقابات، لكن المنتسبين إلى هذه النقابات ساندوني بدرجة أكبر، كما كسبنا دعم قسم كبير من أعضاء الحزب، ونواب البرلمان. انشغلنا طوال هذه المدة بتقليل التعليقات الخاطئة التي تميل إلى الاستسلام، أو إلى إعطاء تنازلات إلى اليسار. تعودتُ، وإن ببطء، الشعور بأنني سوف أصبح رئيساً للحزب.

كانت الشمس ساطعةً في تلك الأيام، وأتذكر جيداً الأوقات التي كنت أجول فيها في البلاد من ضمن الحملة الانتخابية، وكان الطقس حاراً، بل حاراً جداً في بعض الأحيان. سادت الحماسة المزاج العام. لم تحدث اختراقات كبيرة في تلك

المرحلة، ولا حوادث معينة، لكن اتضح لي أنني كنت أمثّل نوعاً مختلفاً جداً من رؤساء حزب العمال. ولّد هذا الأمر اهتماماً كبيراً، وقدراً فائقاً من الحماسة، والدعم. حاول المحافظون في ذلك الوقت التظاهر بأن كل ذلك هو مجرد وهم، لكنهم كانوا قلقين فعلاً من وراء قناع عدم اكتراثهم. كنت أعرف أنني إذا امتلكت عباءة القيادة، مع القدرة على ارتدائها بما يناسب قياسي، فسيغرقون في لجة اليأس.

بدأت بتنظيم فريق العمل بعد ترشيحي لمنصب الرئاسة، بينما رُشّح جون لمنصب نائب الرئيس. انضمّ بيتر إلى حملتنا بشكل كامل، لكن ذلك أبعده كلياً عن غوردون الذي اعتقد، بشكل ليس بغريب عن طريقة تفكيره، أن بيتر قد خطّط لترشيحي منذ البداية. لم يكن هذا الأمر صحيحاً بالمرة، أقلّه بحسب علمي، لكن كان يُمكن للأمر أن يكون صحيحاً بالنسبة إلى بيتر، غير أنه أخفاه عني ببراعة! لكني أعتقد أن هذا الأمر ليس صحيحاً بالمرة. أحبّ بيتر أن يلعب دوماً دور شخصية مكيافيلي، لكن تجربتي علّمتني أنه رجل يتمتع بشفافية عالية، ومنفتح على الأشخاص الذين أعرفهم.

قضينا يوم عطلة في شهر أيلول/سبتمبر ١٩٩٤، في فندق تشوتاون غلين في نيوفورست، وكذلك لاحقاً في العام ١٩٩٥، حيث عقدنا اجتماعاً ثانياً، وكان مغلقاً ضمّني أنا وبيتر، وغوردون، وألاستر، وفيليب، وآنجي، وجوناثان، وسو، وذلك في فريثام لودج التي تقع في نيوفورست كذلك في منزل شقيق جوناثان. أطلقت أخبار الاجتماع الثاني سيلاً متواصلاً من المشاكل مع جون بريسكوت، وهو الذي لم يحضر الاجتماع. تحدث غوردون خلال النهار مع بيتر على حدة، وطلب إليه العمل من ضمن تخطيطه ورعايته. قال بيتر، وبكل وضوح، إنه يعمل لرئيس الحزب. ساد جو من العدائية بين الرجلين منذ ذلك الحين، لكن أياً منهما لم يكن عدواً مناسباً للآخر.

ركّزت من جهتي في اختيار شخص مناسب للتعامل مع وسائل الإعلام. استعرضت مع بيتر أسماء المرشحين المناسبين: آندي غرايس الذي يعمل في صحيفة الإندبندنت، وبيتر ماكماهون الذي يعمل في صحيفة السكوتسمان، وباتريك وينتور من الغارديان. كانوا جميعاً مناسبين، ومناسبين فعلاً، وأردت شخصاً يعمل في الصحف الشعبية، فوقعت على ألاستر غامبل. لكني لم أكن متأكداً أن هذه الوظيفة تناسبه كثيراً، لكنها كانت عظيمة بالنسبة إلي. أردت رجلاً صلباً فرأيت فيه الرجل المناسب والعبقري. كانت ضربة موفقة.

ما إن قررت اختيار ألاستر حتى قررت أن أقنعه بحماسة. يمكنني أن أتحمس عندما أضع هدفاً أمامي. صمّمت على معارضة رفضه للمنصب في حال رفضه. كان الأمر صعباً في البداية. نظّم الرجل حياته منذ إصابته بانهيار عصبي، كما ترك عادة الشرب. أما رفيقته فيونا ميلار فكانت متشكّكة في أمر توليه الوظيفة، وفكرت، عن حق، أن هذه الوظيفة من شأنها تغيير حياتهما. كان مقدرًا له أن يمضي بعيداً في عالم وسائل الإعلام، وهو يمتلك مؤهّلات النجم في هذا العالم، وهكذا كان سيتعيّن عليه أن يضحّي بالكثير. كان يُبدي إعجابه إزاء بيتر وأحبه، لكنه خشي أن ينتهي إلى التنافس معه. صعُب علينا إقناعه لهذه الأسباب كافة.

زرته أخيراً في المنزل الذي يقضي فيه عطلاته في منتصف شهر آب/أغسطس من العام ١٩٩٤. يقع منزله الصيفي هذا في ذلك الجزء من فرنسا حيث كان يقضي فيه عطلاته كل سنة. كان نيل وغلينيس كينوك، وفيليب غولد وزوجته غايل يقضون إجازاتهم هناك. أما بالنسبة إليّ فقد كانت فكرة قضاء عطلة مع أشخاص ناشطين سياسياً فكرةً مروّعة. لكن لم أجد طريقةً للتهرّب من الأمر. أعجب الرجل بالفكرة، وراح الجميع يتجاذبون أطراف الحديث بسرور.

يقع المنزل في فلاسن، بروفنس، في مقاطعة مزدحمة بالقرى الفرنسية النموذجية في ذلك الريف الرائع. أعتقد أن مسعى البريطانيين لإعادة احتلال فرنسا بالوسائل السلمية كان مسعى مبرّراً تماماً.

وصلتُ إلى المنزل، ومكثت لتناول الغداء، واصطحبت نيل معي. تحدثت حتى منتصف الليل مع ألاستر على حدة، وأقنعته بالقبول. أعطيته التطمينات اللازمة بشأن بيتر. كان قلقاً بشأن أنصار غوردون، لكنه أراد قبل كل شيء أن يعرف ما إذا كنت سأسانده كي يقوم بما هو ضروري.

أثرتُ موضوع البند الرابع، وهو البند الرئيسي في ميثاق حزب العمال في دستورنا. أما بعد الهزيمة التي مُني بها حزبنا في العام ١٩٩٢، فقد تكونت عندي فكرة واضحة، لكن من دون أن أناقشها مع أي شخص حتى مع غوردون، فيما لو أصبحت رئيساً للحزب في يوم من الأيام فسيكون من الضروري إعادة كتابة الدستور، بحيث يتمّ التخلص من الالتزامات القديمة التي تقضي بالتأميم وسيطرة الدولة.

كان اليساريون، الذين لا يحبون التسويات، أو الذين لا يتماشون مع طريقة التفكير الحديثة يكرّرون البند الرابع في كل مناسبة، هم الذين أفرغوا هذه الكلمات من معانيها السياسية. دعا هذا البند، من بين أمور كثيرة، إلى الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، والتوزيع، والتبادل. قصد سيدني ويب، وهو الشخصية الفابية العظيمة من جناح المثقفين في الحزب، عندما كتب هذا البند في العام ١٩١٧، أن يتجنّب اللغة البولشفيةَ لليسار المتطرف. يُضاف إلى ذلك، بطبيعة الحال، أن هذا البند عكس الفكر التقدمي الدولي الذي يرى في إلغاء الرأسمال الخاص أمراً مرغوباً فيه.

إن ما كان تفكيراً يسارياً سائداً في مطلع القرن العشرين أصبح في عالم أواخر القرن العشرين، في هذه الأيام، تفكيراً غير واقعي، وحتى تفكيراً غامضاً كلّياً، وهو العالم الذي تبنى، بما في ذلك روسيا، فكرة اقتصاد السوق. لكن هل يمكننا تغيير هذا البند؟ وللمصادفة لم تتم إثارة الموضوع أثناء الحملة الانتخابية لرئاسة الحزب. أثير الموضوع، لكنه ليس إلى درجة تحقيق تقدم في هذا المجال. أقفلتُ النقاش لكن من دون أن أستبعده تماماً.

أشار معارضو إجراءات التغيير فور إعلانها إلى أنها تغييرات رمزية في الغالب. لم يؤمن أحد، اللهم ما عدا اليسار المتطرف، بالبند الرابع كما كُتب، كانت هذه هي حُجّتي، وهي أن أحداً لا يؤمن به، كما أن أحداً لم يجرؤ على إلغائه. يرمز هذا الواقع، في حقيقة الأمر، ليس إلى شيء لاغ في دستورنا فقط، بل إلى رفض مواجهة الواقع، وإلى رفض التغيير بشكلٍ واسع، وإلى عدم الاستعداد لتبني العالم الحديث بكل طيبة خاطر. أريد أن أقول إنّ هذا هو رمز مهمّ جداً. كان ذلك البند صورة دفينة، ومجرد مثال. إن كسر هذا الرمز سيعني تغيير النفسية التي يعمل بها الحزب، وهي نفسية رجعية سببت الأضرار وهي، بالتحديد، التي أبقتنا في المعارضة لفتراتٍ طويلة. يعني هذا الأمر كذلك أننا على الرغم من إمكانية حزبنا تحقيق نتائج جيدة، بين وقتٍ وآخر، في مواجهة المحافظين كنتيجة لانخفاض شعبيتهم، لا نستطيع ضبط قيَمنا على نحو ثابت. لم يكن إلغاء البند الرابع، بالنسبة إليّ، مجرد شعار انتخابي، أو بنداً ناجحاً من بنود العلاقات العامة، أو مسألة صياغة بليغة، بل كان حيوياً إذا كان من المحتم أن يغيّر حزب العمال نفسه.

تنزع الأحزابُ التقدمية إلى التعلّق بدوافعها العاطفية. وتمتلك هذه الأحزاب

شعوراً بأن الناخبين لا يتقاسمون رأياً واحداً، ولذلك تكون مستعدّة للتخفيف من هذه الدوافع. تتمنى هذه الأحزاب في أعماقها لو لم يكن الأمر كذلك، وهي تتمنى فوق كل ذلك أن يتمكن الجمهور في يوم من الأيام، وفي بيئة متماسكة لربما، من مقاسمتها هذه الدوافع. إن ذلك مجرد وهم، لأن الجماهير لن تفعل ذلك. يعرف التقدميون هذه الحقيقة، لكنهم يحافظون على سعيهم للوصول إلى هذا الهدف بقوة، بحيث يكون إغراء إعادة إلزام أنفسهم هذه الدوافع قوياً جداً. أما الدافع الأساسي فهو الاعتقاد أنهم إذا تسلموا السلطة فسوف يستخدمونها لمنفعة الشعب، وكلما تمتعوا بسلطة أكبر زادت هذه المنافع. هذا هو سرّ تعاطفهم مع الدولة والقطاع العام.

لا يقتصرُ الأمر على الدوافع غير المناسبة، بل بالعكس لأن هذه الدوافع تكون مؤسّسةً على مشاعر التضامن الحقيقية والصادقة. لكن كان يجدر بالتاريخ أن يعلّمنا الاعتدال بطريقتين أساسيتين. الأولى، أن قطاع الدولة والقطاع العام يُمكن أن يصبحا مصالح قوية ذات صلاحيات واسعة بإمكانها إعاقة المصلحة العامة، أو حتى مناقضتها. والثانية، مع التحسن في المستوى التعليمي للناس، والتحسن في مستوى ثرواتهم، يصبحون أقلّ استعداداً للسماح لأي شخص آخر، بتحديد خياراتهم بالنيابة عنهم. أما إذا أُبقي هذا الدافع ضمن السيطرة، أي إذا أُبقي ناشطاً ومضبوطاً، فإن الحكومة التقدمية تصبح خياراً حسناً ومقبولاً للحكومة المحافظة، لكن إذا لم يكن الحال كذلك فهي لا تكون مقبولة.

إنّ مساندةَ البند الرابع لمبدأ الملكية العامة لسائر وسائل الإنتاج، والتوزيع، والتبادل، لا يمثّل سيطرة أو تحكماً، بل يمثّل دعوة للتساهل غير المقيّد. لم يكن هذا البند صحياً، أو حكيماً، أو، للأسف، بلا معنى. كان هذا المبدأ يعني، على مستوى معيّن، الكثير، وكان معناه سيئاً. إن تغيير هذا المبدأ لم يكن أمراً سطحياً لأنه كان يعني، ضمناً، تغييراً هاماً، وعميقاً، ودائماً للطريقة التي يفكر الحزب فيها ويعمل بموجبها، وحتى يحكم بواسطتها فيما بعد.

يعتقد كثيرون أنّ هذا العمل سهلٌ جداً، لكن جزءًا من سبب اعتباري هذا العمل سهلاً يعود، إلى طبيعة قدومي إلى العمل السياسي، أي إلى دافع إزالة بعض الأساطير التي كانت تُعتبر مقدّسةً في عقيدة حزب العمال. لم تربطني أي علاقة مع اتحاد أوكسفورد عندما كنت طالباً، ولم أكن عضواً في نادي حزب العمال، كما أنني لم

أشارك بتاتاً، في النشاطات السياسية الطالبية، أو على الأقل لم أشارك فيها على نحو مركز. أما من تأثّرتُ بهم فهم الستراليين, وهندي, وأوغندي. زوّدني كل واحد من هؤلاء الأشخاص الأربعة رؤية بقيت معي، وشكّلت توجّهي نحو السياسة. كان جميعهم من اليسار، بالطبع، لكنهم كانوا أشخاصاً مختلفين ذوي تجارب مختلفة.

كان زميلي الطالب جيوف غالوب هو الأنشط منا سياسياً، وهو الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء غرب إستراليا. كان شخصيةً لامعةً، يمتلك فكراً استثنائياً. علّمني الرجل كل العبارات والتعريفات المناسبة للسياسة اليسارية في ذلك الوقت، كما كان عضواً في الجماعة الماركسية الدولية، وهي واحدة من جماعات أخرى، كانت تروتسكية الاتجاه، ازدهرت في السبعينيات من القرن الماضي. ولا حاجة بي إلى القول إن كل شخص من حزب العمال كان مرشّحاً للانضمام إليها. كان ثمة كذلك منافسون أشدّاء بين صفوف الحزب الشيوعي، وهم الذين كانوا أكثر تنظيماً بكثير، وكانت لهم روابط مع النقابات العمالية والأشخاص العاديين المنظمين. ومع أن جيوف التزم هيكلية الديالكتيك الماركسي، إلا أن روحه وفضوله الفكري رفضا التقيّد بها. كان يحلّل ويعيد التحليل على الدوام وكان يضطلع بتفكيرٍ جديد، وأفكارٍ ملهمة جديدة. علّمني جيوف كيف تساهم الظروف الاجتماعية في تشكيل الشخصية، كما علّمني كذلك كيف يجدر بي أن لا أكون تابعاً غير مفكّر لليسار.

عزّز بيتر طومسون هذه الفكرة عندي. كان كاهناً إنكليكانياً إسترالياً، ولعله كان الشخص الأكثر تأثيراً في حياتي. كان بيتر طالباً ناضجاً في أواسط الثلاثينيات من عمره عندما كنا في إكسفورد. كتبت في جنازته عندما مات في العام ٢٠١٠ النصّ الآتي:

ليس ثمة إلا أشخاص قليلون جداً يمكن أن يقول عنهم المرء: لقد غيّروا حياتي. غيّر بيتر حياتي، فمنذ اللحظة الأولى التي التقيته فيها، أي عندما كنت أقيم حفلةً في غرفتي في سانت جون، ثم خرجتُ إلى الشرفة وأنا أترنح قليلاً. تطلعت إلى الأسفل فرأيت بيتي وهو يتطلع نحوي إلى الأعلى: «كنت سأنتبه لو كنت مكانك يا رفيقي». غيّر حياتي منذ تلك اللحظة الأولى، وأكسبها معنى وهدفاً، كما رسم مسارها.

كان صديقي، وأستاذي، وناصحي، ومرشدي، وهو الذي ألهمني كل خيرٍ فعلته

في حياتي. أما بالنسبة إلى أخطائي العديدة فقد جعل مني رجلاً أفضل لأنني عرفته، فأصبحت الرجل الأفضل، والأقوى، والأكثر ولاءً، والأقل ضعفاً والأكثر تفاؤلاً بشأن الاحتمالات التي تحملها الحياة، وأكثر تفاؤلاً بإمكانية تحقيقها، وأكثر شجاعة في تقبّل قيودها.

تعودنا القول عند وفاة أحدهم أنه سيترك فراغاً في حياتنا. لكن رحيل بيتر لا يترك أيّ فراغ. إن حضوره يملأ هذا الفراغ. كان هناك عندما كنت بأمسّ الحاجة إليه، وسيكون معي على الدوام عندما أحتاج إليه. إن النور الذي شعَ في بيتر هو من القوة بحيث أن الموت يعجز عن إضعافه.

هكذا عمل الله من خلال بيتر. كان، بعد كل شيء، كاهناً فريداً من بين الكهنة. أبقى بيتر وهيلين اللطيفة منزلهما مفتوحاً لنا جميعاً، لكن على الرغم من أننا شربنا شاياً كثيراً بالإضافة إلى أشياء أخرى فقد كانت حفلةً فريدةً من نوعها. لم ألاحظ قبلها ذلك التنافر المحبب بين طوق الكاهن الأبيض وعاداته.

لكن هذه هي الأمور التي تعرّف ببيتر: إنه خليط غريب من التقليدي والمجدّد. كانت مسيحيته قويةً وليست ضعيفة، أما هو فكان فاعلاً وليس متفرجاً، ومفكراً وليس واعظاً فقط. تميّزت أفكاره بالجرأة، وبالريادة، وبالاستشراف بالنسبة إلى القرن الواحد والعشرين.

سبق لي أن التقيتُ أشخاصاً كثيرين من المشاهير والناجحين الذين يعدّهم العالم من العظماء، لكني لم ألتقِ رجلاً أعظم من بيتر. إنني أشعر بأنه معي وأنا أكتب هذه الكلمات، وسأظل أشعر به إلى جانبي على الدوام. أعرف وسط حزني عليه أن أعظم إنجازٍ يمكنني أن أرغب فيه هو أن يفكّر فيّ بفخرٍ عندما تحينُ ساعتي.

بقي تأثيره طوال هذه السنوات كلها وكأنه تذكير مستمرٌّ لي بأن الحياة ينبغي أن تُعاش مع هدف. كان بيتي يسارياً من الناحية السياسية، لكن الدّين كان يأتي بالدرجة الأولى بالنسبة إليه. ينطبق هذا الأمر عليَّ كذلك، بطريقة من الطرائق. لا يعني هذا أنه كان يفصل بين الأمرين، وكذلك الأمر بالنسبة إلي، لكن الإطار الذي تنظر به إلى العالم يكون مختلفاً إذا أعطيتَ الأولوية للدّين. تنطلق الأديان مع قيَم تتولد من رحم نظرة شاملة إلى الجنس البشري. أما السياسة فتبدأ بتفحص المجتمع ووسائل تغييره.

تتعلق السياسة بالقيم، بالطبع، أما الدِّين فيتعلق عادة بتغيير المجتمع، لكن المرء يبدأ من موقعٍ مختلف.

إن ذلك أمرٌ حيويّ في عملية فهم سياساتي. إنني أبدأ بتحليل البشر وأعتبر ذلك بمثابة بوصلتي، وعندئذ تأتي السياسة في المرتبة الثانية. لكن عندما أتأكد لاحقاً أن «المشكلة التقدمية» هي الفصلُ غير الكافي بين الغايات والوسائل، تراني ألجأ إلى هذا النهج الذي غرسه بيتر في نفسي، وهو النهج الذي يسمح لي أن أصل إلى ذلك الاستنتاج بكل سهولة.

كان جيوف يعطيني كتباً سياسية كي أقرأها. أما بيتر فقد أعطاني أعمال الفيلسوف جون ماك موراي، مثل العقل والعاطفة، وشروط الحرية. سبق لي أن طوّرتُ نظرية حول كون الاشتراكية تتعلق «بالمجتمع»، أي إن أفراد المجتمع ملزمون بواجبات بعضهم تجاه بعض لأنهم كائنات اجتماعية، وليسوا أفراداً مستقلين. هذا هو الأمر الذي دفعني في اتجاه محاولة استعادة قيم حزب العمال الحقيقية من كوَم الأفكار المتوارثة التي تراكمت فوقها كي تحجب معانيها. أما بالنسبة إلي فالأمر تعلّق بالاشتراكية أكثر مما تعلق بنوعٍ معيّن من التنظيم الاقتصادي في حقبةٍ معينة من حقب التاريخ.

أما الرجل الهندي الذي أثّر في حياتي فقد كان طالباً متخرجاً يدعى آنمول فيلاني. كان جالساً ذات يوم في غرفته الكائنة في الطابق الأرضي في مبنى رباعي الجهات يقع في كلية سانت جون. أعطاني آنمول فكرةً [إدراكاً] بقيت معي، وأثّر بي تأثيراً كبيراً في السنوات التالية، يتعلّق ببرنامج إصلاح القطاع العام. أستطيع، حتى هذه اللحظة، تخيّل تلك اللحظة.

ناقش آنمول معي الأفكار الجديدة التي تلقيتها من جيوف، ولربما فعل ذلك بسبب تجاربه في الهند، لكن كذلك بسبب امتلاكه نضجاً سياسياً أكثر. كنت أحاول تجربة هذه الأفكار معه، كنت أحثّه وأستفزّه، على أمل الحصول على تفهم أكبر للغة الجديدة التي كنت أتعلّم التحدّث بها. كنا نتحدث عن الرأسمالية والدولة. ردّدت حينئذ مقولة أنه يتوجب على الدولة أن تتسلّم إدارة المصالح الرأسمالية، وهي التي لا تهتمّ إلا بالأرباح، وما كل هذه الأفكار إلا الشعارات الماركسية المعتادة.

هزّ آنمول رأسه، وقال لي: «إن الأمر ليس بهذه السهولة. يُمكن للدولة أيضاً أن تكون مصلحة مخوّلة. لكنها ليست الشيء ذاته مثل مصلحةٍ عامة، ليس من الناحية العملية على الأقل».

قلتُ بإصرار: «لكنها يجب أن تكون كذلك».

أجابني ساخراً من سذاجتي: «إن ما يجب أن تكون عليه، وما هي عليه فعلاً هما أمران مختلفان تماماً يا صديقي».

كان أولارا أوتونو، وهو رجل أوغندي، الشخص الرابع الذي أثّر في حياتي. كان هذا الشاب رئيساً لاتحاد الطلاب في جامعة كامبالا، واضطرّ إلى الفرار من وجه عيدي أمين. ضمّته سانت جون إلى ملاكها. كان خطيباً مفوهاً، ورائعاً بالفعل، وإنساناً روحانياً محبباً. أعتقد أنه كان ينظر إلى الطلاب اليساريين الذين يتحمسون للماركسية في الأمكنة المغلقة في إكسفورد بدرجة من الخصوصية التي يرتاحون إليها. تمحورت سياساته حول التنمية، وعلى عبء الفساد والحكم المريع اللذين يدمران آمال الناس. علّمني أن أنظر إلى ما يتجاوز حدودَ الطالب الغربي، وأن أفكر في العالم الذي لا يهتمّ بمناقشة «الرأسمالية مقابل الاشتراكية»، لكنه يناقش الحياة، والأمل، والصحة مقابل الموت بسبب مصائب الفقر، والصراعات، والمرض.

كنا مجموعةً غير عادية من الأشخاص، متنوعة، وغير تقليدية، وحرة التفكير، تمكنت، في لحظةٍ كان فيها عقلي منفتحاً ومستعدّاً للتقبل ومتحمّساً للتعلّم، من تشكيل هيكلية تفكيري للسنوات التالية.

عندما كنت أتحدث عن أفكاري بشأن البند الرابع مع ألاستر في فرنسا، لاحظتُ أنه أعجبَ بجاذبية هذا الموضوع. ولاحظت كذلك عند مغادرتي أن عقله كان يعمل على كيفية إقناع الآخرين بهذا الأمر. اكتشفت كذلك في سياق هذه المحادثة أمراً لم أكن متأكداً منه مئة بالمئة في السابق، وهو أنه كان يقارع أفكاراً عظيمة. كان شخصاً من النوع الذي يتعيّن عليك أن تدفعه إلى الخلف، وليس إلى الأمام. أحببت هذه الفكرة في عالم محكوم بالجبن، والحذر، والإفراط في الحسابات. كان قابلاً للجدال مع بيتر مندلسون (ولعمري فعلا ذلك حقاً)، وعلى الرغم من ذلك كان بإمكانهما أن يشكلا قوةً سياسيةً هائلةً إلى أقصى حدّ يمكن للمرء أن يتصوره.

كان بيتر يتسلّل إلى داخل القلعة عبر ممرّ سري. وكان يشقّ طريقه بخفة، ورشاقة، وذكاء، ومناورات حاذقة نحو غرفة العرش. أما ألاستر فكان يشبه عموداً كبيراً من خشب السنديان يخترق بوابات القلعة، وهو في هذا يُعيي الزفت المغلي، أو الأبواب المصفّحة عن إبقائه خارجاً. كان الرجلان يعملان بتنسيق، لكنهما يخوضان المعركة بكل الجرأة التي لا تقلّ عن الجنون إلا بقدرٍ يسير. كانا يربحان المعركة، يربحانها بلباقة.

تعودت تقسيم إجازاتي في تلك الأيام، لذلك قسّمت هذه الإجازة بين فرنسا وإيطاليا. أمضيت هذا الجزء الأول قرب تولوز، ثم استقللنا القطار إلى أقصى شمال ليغوريا حيث يمتلك والدا تيم آلان منزلاً فوق التلال القريبة من كريسبيانو. كانت تلك واحدة من آخر العطلات الحرة والسهلة التي أمضيتها. لم يكن لدى أي شخص من سكان القرية أدنى فكرة عن هويتي. ولم أكن محاطاً حينئذ بالحماية، ولا بإجراءاتٍ أمنية، أو بفريق موظفين، بل كنا مثل أسرة تمضي أوقاتها معاً. شعرت آنئذ بسعادةٍ عارمة. كنا نتوجّه إلى مطعم القرية حيث يستطيع المرء الجلوس إلى طاولة مع الآخرين. كان الطعام بسيطاً، لكن المعكرونة كانت من صنع محلي يُضاف إليها صلصات لذيذة وتحضّر بأشكالٍ متنوعة. وكان باستطاعة المرء أن يشارك في مناسبة من المناسبات التي تقام في شهر آب/أغسطس وسط بيئة ريفية ساحرة تشارك فيها كل قرية قديمة بشيء من التسلية في الباحة العامة بما في ذلك وجبة طبخ محلية رائعة.

ربما كانت آخر مرة تمكنت فيها من التجوال والسفر بصورةٍ عادية (كنت قد أصبحت رجلاً بارزاً في بريطانيا) من دون أن يعرفني أحد. زرنا ذات ليلة مطعم لاغافارينا دي أورو في قرية بوديزانا بغية تذوق طبقٍ خاص من البيتزا المحلية تسمى بانيغاسي، لكننا استبعدناه بسبب خطأ في الطلب (بفضل لغتي الإيطالية الركيكة)، ولم تتوافر طاولة خالية لنا. حجزنا طاولة مجدداً وتوجّهنا إلى هناك بعد ليلتين. لا أعتقد أن شيئاً كهذا قد حدث معي بعد ذلك.

حصلتُ وأنا هناك على نتائج استطلاع للرأي، وهي النتائج التي أظهرت أننا حققنا أعلى مستوى وصل إليه حزب سياسي على الإطلاق، أي إننا تقدّمنا على الآخرين بثلاثين نقطة. لم أعوّل كثيراً على هذه النتيجة لأن نقاط التفوق يمكن أن

تظهر وتختفي، لكنها كانت مؤشّراً على أن انتخابي كرئيس للحزب قد نال رضا الجمهور. إن من شأن هذا الأمر أن يساعدني داخل الحزب. لم تسيطر عليّ أي أوهام في ذلك الوقت. إن عدداً كبيراً من الذين صوّتوا إلى جانبي، وأعتقد أنهم الأغلبية، قد فعلوا ذلك ليس لأنهم يشاركونني في رؤيتي للحزب، بل لأنهم اعتقدوا أنني الفائز. كان ذلك كافياً للوقت الحاضر. أردتُ استخدام الجمهور من أجل تغيير الحزب، لكني أدركت في وقتٍ لاحق أن المهمة كانت ستكون أصعب بكثير لو أنني فعلت العكس.

اغتنمتُ فرصة إجازتي للتفكير في البند الرابع، وبدأ هذا التفكير يأخذ منحى متصلباً. عرفت حينئذ أن هذا سوف يكون الخطوة الضرورية الأولى. بدأت فور عودتي بالتشاور مع الرجال المقربين مني والأكبر سناً. أما زملائي فإما كانوا يشاركونني في الرأي ذاته، وإما كان سهلاً عليّ إقناعهم. كانت آنجي متحمّسةً بالطبع مثل بيتر. أما فيليب فقد كان يميل للفكرة واعتبر أنها أمر عظيم الأهمية، لكن سينتج عنه عواقب وخيمة إذا سارت الأمور في مسارها غير الصحيح. لكن فريقي الذي كان يشاركني في رؤيتي للحزب كان من المستبعد أن يقف عائقاً أمام الفكرة.

تحدثتُ مع غوردون فنصحني بأن أضمّ بريسكوت إلى هذه الحملة. كانت نصيحة في مكانها، فعلى الرغم من أنه كان لا يحب الالتزام كعادته، إلا أنه لم يكن ضدّ الفكرة. شعرت بالتشاؤم قليلاً لأنه تفادى الإجابة عن سؤالٍ مباشر عما إذا كان يعتقد أن هذه الفكرة صائبة. لكن اتضح لي أنه لا يعارضها.

حزمتُ أمري لجهة تغيير الأمين العام للحزب لاري ويتي. يمتلك هذا المنصب أهميةً حاسمةً في أي صراع ينشب داخل الحزب. كنت أحبّ لاري، لكن سياساتنا كانت متعارضة. فكّرت حينئذ في أن طوم سوير هو الخيار المثالي لهذا المنصب. كان رجلاً نقابياً ذكياً، مخلصاً، ومجدداً، كما أنه يمتلك النفوذ والسلطة لمساعدتي على إنجاز الأمور التي أريد إنجازها. كان علينا اجتياز هذه العقبة بسرعة لأننا لا نستطيع إبقاء أي أثقالٍ معنا تعيقنا أثناء قفزتنا.

كان موقف جون بريسكوت حاسماً بالفعل كما قال لي غوردون. أدركتُ أنه ينبغي لي أن أقارب هذا الموضوع بعنايةٍ كبيرة. قابلته في منزلي الذي يمثّل بيئة

لطيفة ومبهجة وحميمة. لم يُفاجأ بالدرجة التي توقعتها. كان بمثل الدهاء والتفهم في أمورٍ كهذه كما هو على الدوام. عرف أنني فكّرت ملياً في هذا الموضوع بحيث يصعب حملي على التراجع عنه، وأن رغبتي في تغيير الحزب، ودفعه ليس للحكم فقط، بل إلى ذهنية مختلفة، كانت حقيقية بحيث لا يمكنني التخلي عنها.

كانت حجته الأساسية منذ البداية هي أنه سوف يناقش المسألة في مجالس مغلقة، وقال إنني إذا كنت مصمّماً فسيساندني، أو أنه سوف يمضي معي إذا شعر بدافعٍ قويّ لذلك، لكنه لن يبقى معي كي يحبط الأمر من الداخل. لم يتعلق الأمر، بالطبع، بعهدٍ بتقديم دعمٍ غير مشروط، بل بوعدٍ يقضي بالتعامل مع الموضوع باستقامة. كان الوعد مهماً، وهو التزمه فيما بعد.

أوضح لي جون أنه على الرغم من اعتقاده أن المشروع برمّته كان بعيداً عن الصواب، إلا أنه كان مستعداً للتفكير فيه والحكم عليه. أمطرني جون بأسئلةٍ كثيرة: كيف، ومتى، وما هو البديل، ومن سيقوم بصوغ هذا البديل، وكيف سيتمّ التصديق عليه. تمكنت من الإجابة عن بعض هذه الأسئلة. دفعته إلى النقطة التي قبِل فيها، على الأقل، بأن مناقشةً تدور حول ما يمثله الحزب قد أصبحت ضرورية، وإلى اعتبار أن البند الرابع يوفّر هذه الوسيلة. أما هو فقد كان يفضّل تأخير هذا الموضوع من أجل معرفة تقبّل الجمهور لهذا الموضوع. كنا متقدمين على المحافظين في ذلك الوقت، لكني كنت أعرف تماماً في أعماقي أن هذه كانت هي اللحظة المناسبة للتحرّك، ولهذا السبب بالذات. تعيّن علينا أن نبرهن أننا، حتى مع هذا التقدم في استطلاعات الرأي، سنأخذ هذه المخاطرة في الاعتبار لأن هذا هو الأمر الصائب، وأن نبرهن عن طريقها أننا نعرف أن تقدّمنا كان مشروطاً. أعرف أن الناس كانوا يقولون إننا نحب مظهر [إطلالة] هذا الرجل، ونحب الاتجاه الذي يريد حمل حزب العمال على سلوكه، لكن يبقى عليه الآن أن يبرهن على كل ذلك. كنت أعرف أن أي ميلٍ للتساهل أو الحذر كان من شأنه إذابة جليد التفوق تحت أشعة شمس التمحيص المفرط.

عندما حان أخيراً موعد مؤتمر الحزب في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٩٤، كان الرأي العام لا يزال في مصلحتنا بقوة، لكني كنت متأكداً أن شكوكاً هامة كانت كامنةً تحت السطح. وعندما يعرّف الحزب عن ذاته بطريقة معينة لا

تتوافق مع مزاج الناس، فإن ذلك التعريف يميل إلى البقاء في أذهان الناس، كما تبقى رائحةُ العفن في منزلٍ قديم. يمكن للمرء استخدام معطر الأجواء في منزلٍ كهذا، ويمكنه أن يفتح نوافذ قليلة، كما يمكنه أن يُفرح الناس قليلاً بأن يخبرهم عن كيفية سير الأمور نحو الأفضل، لكن الأمر الوحيد المناسب في النهاية هو أن يقول: «إن هذا المكان تفوح منه رائحة العفونة، وسنحاول تنظيفه، أي إننا سنبقي على البناء، لكننا سوف نحدّث كل شيء آخر».

لاحظت وجود ثلاثة أجنحة في حزب العمال: حزب العمال التقليدي الذي لا حظّ له بالفوز إطلاقاً، وحزب العمال المحدّث، الذي يمتلك فرصة الفوز والاحتفاظ به وهذا هو طموحي منذ البداية، وحزب العمّال العادي، الذي قد يفوز مرة واحدة ولكن بسبب ردة فعلٍ على حكومة محافظين لا تحظى بالشعبية. لا يستطيع آخر جناح أن يفوز بشروطه وأن يمتلك دعماً واضحاً، وعميقاً، وواسعاً بما يكفي للاحتفاظ بالفوز خلال الأوقات العصيبة التي سيمرّ بها في الحكم. إن مثَلي الذي أحبّ أن أستشهد به في الكتاب المقدّس هو مثل الزارع: إن الفرق بين حزب العمال العادي وحزب العمال المحدَّث هو الفرق ما بين البذرة التي تبرعمت من دون جذور حقيقية، والبذرة التي أثمرت ثلاثين، وستين، أو مئة ضعف.

إذا أردنا الاستمرار في الاحتفاظ بالفوز فسيتعيّن علينا تكوين مجموعة من الأفكار، والمواقف، والسياسات التي تتصف بالصلابة، والاستمرارية، والقوة، وسنضطرّ كذلك إلى بناء حاجز يمتلك ما يكفي من المنعة لردّ الأمواج العاتية، ويكون قادراً على تجميع الأصدقاء حوله ودفع الأعداء عنه. أعرف أن إنجاز ذلك سيعني مواجهة المواقف القديمة للحزب، ليس من وقتٍ إلى آخر بل في كل يوم، وفي كل لحظة، وفي كل مناسبة تستغلها هذه المواقف القديمة كي تطلّ برأسها. إن التراجع أمام هذه المواقف القديمة لن يكون أمراً مهماً لها فقط، بل سيشكل علامة على أن ذلك المنزل القديم سيبقى على حاله، ومن دون تغيير.

حاولت أن أنظر إلى حزب العمال كما ينظر أي مواطن عادي وغير سياسي إلى الحزب. إنّ لي أصدقاء كثراً من خارج عالم السياسة ممن يظنون أن المحافظين قد تعبوا ويجب أن يستريحوا. ماذا يفكر هؤلاء فينا؟ كانوا يفكرون فينا كحزبٍ للفقراء،

والمسحوقين، ولرجال النقابات، وللمتهمين والمحرومين. اعتقدوا أننا متحررون مما يتعلق بالقانون والنظام ومتساهلون في مواضيع الدفاع. هنا تكمن المشكلة: إن كل تلك المشاعر قيّمة ومناسبة في مواضعها، وهي كذلك لأنها سبب وجودي في صفوف حزب العمال، لكنها قيّمة في مواضعها فقط. أما من حيث كونها تعريفات سائدة وكاملة للمكان الذي يقف فيه حزب العمال، والفئات التي يمثّلها فليست كافيةً كي تشكل تحالفاً عميقاً بما يكفي، أو شعبياً بما يكفي. يعني هذا التعريف أننا كنا حزب المعارضة والاحتجاج، وليس حزب الحكم.

يُضاف إلى ذلك أن تلك كانت ألطف الطرق لوصف هذه المواقف. أما الواقع فهو عندما لا تكون هذه المشاعر في مواضعها تتسبب بنتائج عكسية بالنسبة إلى البلاد، وذلك لأنها تضع مصلحة النقابات فوق مصلحة الشعب، وتتسبب برفض التغيير حيث يكون ذلك ضرورياً، وتتسبب بضعفٍ فيما يتعلق بالقانون والنظام والدفاع، وهي كلها مواقف قد تكون مبدئية، لكن قد تكون ساذجةً كذلك.

لقي الحزب في ظل قيادة نيل كينوك وجون سميث امتداداً، وعمقاً، وأصبح أكثر شعبية، لكني شعرت شخصياً، والأهم من ذلك شعر الجمهور، وكأن ذلك كان تسويةً بيننا وبين ماضينا.

كنا نتحدث بطريقة مستبشرة، لكن ساد الجو صبغة من التردد حيال هذه الأمور، وبعض الحنين إلى الأيام القديمة التي تنوء بسوء أحوالها. ساد بيننا نوع من الحذر عند التحدث عن كيفية سير الأمور، وهو الحذر الذي أشار إلى وجود شك، أو افتقاد الإيمان الكامل بشأن طريقة سير الأمور في المستقبل.

أردت أن أكون واثقاً، وأن أكون في محور الإيمان، وبحماسة، وأن أتمتع بوضوح كامل كفيل بوضع ماضينا وراءنا، لكن ليس بمعنى عدم الإبقاء على هيكلية معتقداتنا التقليدية، بما فيها مرتكزاتها الأساسية، أي التزام العدالة الاجتماعية، ولكن بمعنى أننا نحتاج إلى إيجاد طرقٍ جديدة لتطوير هذه الأسس وسط العالم الحديث. صمّمت منذ البداية على أن أكون مهندس شيء ثوري، وتغييري، وحتمي. أبقيت خطتي بشأن البند الرابع سرية. بدأت بالمشاورات مع أشخاص مهمين آخرين في يوم العطلة الذي سبق جلسة افتتاح مؤتمر الحزب.

عبّر جاك سترو الذي كتب كرّاساً عن الموضوع عن سروره، وكذلك فعل نيل كينوك. أما روبين كوك فاعتبر الأمر ضرباً من الجنون لأنه قد يتسبب بانقسام الحزب، كما حذّر بأن الأمر قد يعني نهايتي [سياسياً]. رفعت مارغريت بيكيت حاجبها تعجباً. أما دونالد ديوار فقال بطريقته المحببة: «لا بدّ أن يكون الأمر مثيراً للاهتمام». وعبّر جورج روبرتسون عن دعمه للفكرة، وهو صاحب الآراء السديدة على الدوام. كانت الآراء إجمالاً متشابكةً وبعضها اتسم بالتردد. تحدثت مع غوردون مراتٍ عديدة، لكني حرصت على عدم الإفصاح عن طريقة إعلان الأمر. كنت أخشى وجود عامل الشك بيننا وهو الذي يفرض ظلاله علينا.

أردت في ختام حديثي أمام المؤتمر أن يتمّ الأمر بالطريقة الصحيحة. كان الموضوع حسّاساً إلى درجة أننا قررنا عدم التلفظ به بصورةٍ صريحة، أي هكذا: «يجب أن نتخلى عن البند الرابع». لم نفعل ذلك لأننا لم نجرؤ على قول هذا التصريح خارج القاعة، لكن إعلانه داخل القاعة ذاتها كان من شأنه توليد ردة فعلٍ عكسية قد تؤدي إلى إفساد الأمر برمّته. كنت أوشك على القول إننا نحتاج إلى تقريرٍ أيّ من أهدافنا وقيمنا يناسب العالم الحديث بالفعل، فلا يلبث الجدال أن يبدأ (أخذ هذا الأمر في الاعتبار رأي جون بريسكوت بشأن ضرورة قيام نقاش مناسب)، وكنا سننتظر بعد ذلك وصول الدعم. كانت تلك آلية خلصتُ إليها بنتيجة مشاوراتي التي دلّت على حاجتنا إلى آلية كهذه.

حدث نقاش ناشط في وقت متأخر من السبت، ودار حول الشعار المناسب، وحول استخدام عبارة «حزب العمال الجديد». اخترع ألاستر عبارة «حزب عمالٍ جديد لبريطانيا جديدة». قال: يجدر بنا تعليق هذا الشعار في القاعة ليكون اللافتة الرئيسة للمؤتمر. يتبيّن لي، عندما أفكّر في الأمر، أنه كان يجدر بنا أن نفعل ذلك، لكن أتذكر أن خلافاً حاداً قد نشب في ذلك الوقت. ساد حديث في إحدى المراحل عن تسوية تقول: «حزب عمال جديد»، بدلاً من القول: «حزب العمال الجديد»، أي من دون إدخال أل التعريف على كلمة جديد. لم يكن ذلك أمراً سخيفاً كما قد يتبادر إلى الأذهان. إن القول: «حزب العمال الجديد»، كان يماثل إعادة تسمية الحزب. حذّرني بعض أصدقائي المقربين من أن ذلك قد يولّد ردة فعل عكسية وخطيرة. شعر بيتر بالقلق كذلك. قررت أخيراً المضيّ بالأمر. حدثت ردة فعلٍ بكل

تأكيد، لكننا تمكّنا من استيعابها، لكن تأثيرها كان كبيراً وهي إشارة أكّدت أن هذا لن يكون مجرد إصلاحٍ ثانوي، بل سيكون تحديثاً بالجملة.

وصلت إلى ختام حديثي فتكلمت عن الحاجة إلى إعادة رسم أهداف الحزب وقيمه في الدستور (لاحظ جورج روبرتسون أن القاعة بقيت صامتة لفترة إلا أن أصوات البنسات المتساقطة كسرت أسوار الصمت). اتضح لي عند ذلك أننا نخاطر بحدوث مواجهة كبيرة داخل الحزب، لكن الفكرة ترسخت بأن هذه القيادة كانت مختلفةً بالفعل. لقد كانت الفكرة بليغةً بالفعل.

إن ما حدث في اليوم التالي أكّد لنا صعوبةَ هذا المشروع. أصدر الحزب في اليوم التالي، وبناءً على إصرار النقابات، قراراً ثبّت فيه البند الرابع. ساعدنا هذا القرار، للمفارقة، لأنه أكد أن هذه المواجهة حقيقية وليست مواجهةً مزيفةً تجري أمام عدسات المصوّرين. كانت مواجهة حقيقية تجري مع خصوم حقيقيين وتحمل صعوباتها معها. يعني ذلك، وبكلمات أخرى أن علينا علينا أن نفوز وإلا فستكون هذه نهايتنا.

أما من جهتي، فقد كنت في منتهى الوضوح: إذا رُفض هذا التغيير فسوف أنسحب. أوضحت أن مع اقترابنا من القرن الواحد والعشرين، وبعد مضيّ خمس سنوات على سقوط جدار برلين، وحتى مع احتضان الصين الشيوعية لمبدأ اقتصاد «السوق الاشتراكية»، وإذا أصرّ حزب العمال البريطاني على أنه يؤمن بامتلاك الدولة «لوسا لإنتاج، والتوزيع، والتبادل»، فإن ذلك يعني أننا لم نكن جادين. سيؤكّد هذا الموقف أسوأ مخاوف جماهيرنا.

أسرع الخصوم، بطبيعة الحال، إلى طرح هذا السؤال: لماذا هذا الصراع الداخلي؟ وضع هذا السؤال المعارضة في مستوى تكتيكي ومبدئي. أما ردّي على ذلك السؤال فكان على النحو الآتي: حدثت المواجهة لأنكم تعارضون التغيير فقط. إما أن تقولوا بأنكم توافقون فعلاً على الدستور الحالي، وإما اقبلوا التغيير.

استغرق النقاش مدة ستة أشهر. انضمّ جون بريسكوت إلينا أخيراً بشكلٍ كامل. ساعدنا انضمامه إلى موقفنا كثيراً على تهدئة الجناح التقليدي في الحزب. أما المؤتمر الاسكتلندي، الذي كان من الممكن أن يكون صعباً في بعض الأحيان،

فقد أصدر قراراً يدعم التغيير، وكان ذلك بالفعل أول انتصارٍ كبير لنا داخل الحزب. شجّع القرار الناخبين المتردّدين الآخرين على أن يحذوا حذوه. وإذا استطعنا ضمان الفوز في معقل الحزب الرئيسي، أي في اسكتلندا حيث الفكر التقليدي هو السائد، وحيث توقعنا ملاقاة بعض المقاومة لتفكير «طبقةٍ وسطى» كهذا، فذلك يعني أنه يمكننا الفوز في معظم الأماكن الأخرى، حتى عند النقابات. حاول الخصوم حشد المؤيدين لهم لكن محاولتهم هذه أعيقت بالدعم الساحق للتغيير بين الناس الذين لم يتابعوا التفاصيل، لكن الأمر تعلّق، وكما توقعت، بما إذا كان حزب العمال القديم قد تغيّر أم لا.

أما الصياغة الفعلية للبيان فكانت نتيجة تعاون غير اعتيادي بيني وبين ديري، وبيتر هايمان، وآخرين قدموا لنا تعليقاتهم واقتراحاتهم. أما المسودة الأصلية فقد كتبتُها قبل وقتٍ قصير من انعقاد المؤتمر الاسكتلندي، وكنت لوحدي في مدينة إنفرنيس داخل المنزل العائلي لمايري ستيوارت، وهو صديق قديم لي. أما اللمسات النهائية للبيان فقد وُضعت في منزلنا الكائن في أيلنغتون. كنت وقتئذ جالساً في غرفة النوم مع بيتر هايمان، وذلك عندما كانت ابنتنا كاثرين تقيم حفلة عيد ميلاد. كنت أتسلّل أثناء مشاركتي في لعبة «تمرير الرزمة»، كي أعيد كتابة الديمقراطية الاشتراكية البريطانية.

كانت صياغةُ الكلمات مهمةً للحزب وللجمهور، إذ كان على الكلمات أن توحي بالإيمان [الاقتناع] العميق. أما بالنسبة إلى الناس فلا يمكن أن تكون مجرد تفاهة لا معنى لها. تعيّن على هذه الكلمات أن تمثّل نقلةً واضحة نحو العالم الحديث.

أبقينا في البداية على عبارة «الاشتراكية الديمقراطية»، لكن الكلمات التي أتت بعدها كانت تصريحاً واضحاً بالقيم عبّر عن رفضه أي ربط ما بين تلك القيم والدولة بوصفها اللاعب الاقتصادي الرئيس:

إن حزب العمال هو حزب اشتراكي ديمقراطي. يؤمن الحزب أن بقوة جهودنا المشتركة يمكننا تحقيق قدر أكبر من الإنجازت من تلك التي يمكننا تحقيقها بمفردنا، وذلك كي نكوّن لكل واحد منا الوسائل التي تكفل تحقيق إمكانياتنا الحقيقية، وتعطينا جميعاً مجتمعاً تكون فيه السلطة، والثروة، والفرص، في أيدي

كثرةٍ وليس في أيدي قلة من الناس، وحيث تعكس الحقوق التي نتمتع بها الواجبات الملقاة على عواتقنا، وحيث نعيش معاً بكل حرية وبروح التضامن، والاحتمال، والاحترام.

تعود الناس استخدام طريقة تخاطرية غريبة لإنجاز الأمور، وهم اختاروا نتائج قيادتي: كانت النتيجة الفضلى هي أنني أتحكم في حزبٍ يتوافق معي، أما النتيجة الأسوأ فهي أنني لا أتحكم في حزبٍ لا يتفق معي في الرأي، لذلك فالنتيجة المقبولة كانت أن الحزب كان مستعدّاً للتماشي معي. اتفقنا في النهاية على موقع وسط بين الأفضل والمقبول. كنا مجموعةً صغيرةً متعاونةً من «المتآمرين»، وعلىً الرغم من ذلك استطعنا اجتذاب أعداد كبيرة من الناس إلينا. مال جيل جديد من الداعمين الشبان إلى إحداث التغيير. إنهم اليوم المؤمنون الحقيقيون بمستقبل الحزب، وأمله الوحيد.

هيأت المعركة من أجل البند الرابع المسرح، بطريقة أو بأخرى، لأسلوب ومحتوى القيادة في السنوات التي سبقت العام ١٩٩٧. لم نكن نمتلك هيكلية سياسات كاملة. كنا أقلّ استعداداً للحكم مما كان يجب، وذلك لبقائنا ثماني عشرة سنة في المعارضة، مع العلم أن من الخطير جداً صوغ سياسة دقيقة أثناء وجود الحزب في المعارضة بحيث تكون متناسقة مع التجارب والخبرات التي تترافق مع الحكم. كيف كان بإمكاننا التغلّب على تلك العقبات الكثيرة، والانحرافات، والأشخاص الخونة، مع بقاء الميادين المجهولة غير معروفة. وضعنا بوصلتنا، في المقابل، في اتجاهٍ ثابت، لذلك كان موقفنا ونهجنا واضحين تماماً بالنسبة إلى مقاربة التحديات. إن حزب العمال الجديد ليس مجرد شعار، بل كان حالةً ذهنية. خدمتنا هذه الحالة جيداً عندما خضعنا لاختبارات في السنتين التاليتين، الأمر الذي سمح لنا بتطوير سياسة صريحة تماماً واتخاذ قرارات صعبة.

كانت الاختبارات تبرز أحياناً مع بروز القضايا السياسية. تحتّم علينا في شهر كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٥ رفض أي اقتراح يرمي إلى فرض ضرائب على المدارس الخاصة. كان موضوع المدارس في الواقع قضيةً مثيرةً للجدال المستمرّ في تلك الأيام المبكرة التي حاولت فيها إبعاد الحزب عن انحيازاته السابقة (على الرغم من أنني أعتقد أنهم يعتبرونها معتقدات). شاءت سخرية الأقدار أن تشتدّ سخونة

هذه القضية في العام ١٩٩٦، مع هاريت هارمان، التي انسحبت فيما بعد من عداد المناصرين لي.

مرّت بي لحظة صعبة عندما قرّرتُ أن أرسل أولادي إلى أوراتوري، وهي مدرسة كاثوليكية تابعة للدولة، كانت تتلقى هبات. تناقشت أنا وألاستر حول هذا الموضوع، وهو الذي عارض هذه الخطوة، وعارضتها على نحو خاص شريكته فيونا التي كانت مناصرةً للمدارس التي تستقبل الطلاب من المستويات كافة. صمّمت حينئذ على أن لا أخذل الأولاد، واعتبرت أن تعليمهم أمر هام جداً. كانت هناك أمور أخرى يمكنهم الاستغناء عنها، لكن إرسالهم إلى مدرسة سيئة، أو مدرسة رسمية عادية، في الوقت الذي تتيح لنا القوانين التي تحكم القبول في المدارس الكاثوليكية إرسالهم إلى مدرسة جيدة المستوى، كان سيُعتبر بالفعل أمراً في منتهى السوء وعديم المسؤولية. هذا ما قلته إلى ألاستر: أمسكتَ أنت وفيونا بمدارس الأولاد الثانوية وغيرتماها، لكني لا أمتلك هذا الخيار. قيل كذلك، في معرض انتقادنا الغريب، بأنه كان يجدر بنا اختيار إحدى المدارس الثانوية لأولادنا من تلك الموجودة في أيلنغتون، مع العلم أنهم التحقوا هناك بمدرسة ابتدائية، لأننا نسكن في تلك المنطقة. لم أرغب أن أبدو وكأنني أخفي أمراً ما، لذلك لم أتمكّن من الإشارة إلى الحقيقة، إذ مع قدوم الانتخابات سيبرز احتمال انتقالنا إلى وستمنستر. يمكنني أن أقول، إذا كنت أكثر صراحة، إن مستوى مدارس أيلنغتون في ذلك الوقت كان يدفعنا إلى تجنّبها.

تغيّرت الأمور كثيراً بالنسبة إلى أهمّية حالتنا عندما أقدمت هاريت، بعد أن أرسلت أحد أولادها إلى مدرسة أوراتوري، على إرسال ولدها الآخر إلى مدرسة ابتدائية. كان ذلك أمراً مهماً بالفعل. اشتمل برنامج حزب العمال منذ الستينيات على محاولة إلغاء الاختيار الأكاديمي، وإدخال التعليم غير المميز، الذي لا يقوم على الاختيار. كانت المدارس الابتدائية مكروهةً في أوساط الحزب عموماً. جاء قرار هاريت بمثابة صدمة حقيقية لي.

أراد ألاستر أن يبعث إليها برسالة تدين قرارها. ذُهل بروس غروكو، وهو أحد المستشارين عندي، كما أنه أكثر المقربين مني، وأعزّهم على قلبي، واعتبر أن ذلك أمرٌ لا يُمكن الدفاع عنه. برزت شيري لوحدها في موقف التأييد، وذلك لأنها كانت تعطي أولوية للعائلة دوماً. حدث اضطراب في الحزب مع تسرّب هذه الأخبار، وذلك

لأن هاريت هي، وقبل كل شيء، عضو في وزارة الظل. أما مايجور فقد استغلّ الفرصة كي يهاجمني في اجتماعات استجواب رئيس الوزراء، وذلك بعد أن عثر على شيء يمكنه وضع سكّينه فيه.

تمسك ألاستر بموقفه جرياً على عادته، وهو الموقف الذي عبّر عنه بكل جرأة ووضوح. كان رأيي واضحاً جداً: كان ذلك خيارها بصفتها والدة. شعرت أنني أقف مع الأقلية في هذا الموقف، لكن لم يتمكن أحد من فهم السبب الذي دفعني إلى الدفاع عنها بهذه الدرجة من الحيوية.

لم أكن، بكل صراحة، متأكداً من سبب هذا بدوري، لكن بعد أن لعقت جروحي بشأن جلسات استجواب رئيس الوزراء، وتأملت ما حدث هناك، أدركت سبب قوة حدسي: على الرغم من أن حزب العمال سيتفهّم السبب الذي قد يدفع بهاريت إلى الاستقالة، إلا أن الأشخاص العاديين لن يتمكنوا من ذلك. بدا الأمر على هذا النحو: قررت امرأة سياسية أن ترسل ولدها إلى مدرسة ابتدائية. إنها تعتقد أنها تعطيه أفضل فرصة لتعليم جيد. يحاول حزبها إجبارها على الاستقالة. ماذا يُمكن أن يفكّر المرء؟ ربما يفكّر في أن هذا الوضع يتميّز ببعض التطرف، وأنه ليس في منتهى الظرافة، أو أنه مقلق بعض الشيء. رحت أتساءل عما إذا كان هذا الوضع يبقيني قلقاً بعض الشيء بخصوص أعضاء حزب العمال أولئك. لكن قبل أن نتمكن من تحديد موقعنا أقدمنا على إضفاء الاضطراب على رأي عام صائبٍ ومعتدل.

تعمقت في الأمر، وتوجّهت نحو الحزبيين من أعضاء البرلمان في اليوم الذي تلا جلسة استجواب رئيس الوزراء يوم الثلاثاء، ودافعت عنها بحماسة. تعلمت، بالإضافة إلى ذلك، درساً عظيماً: مرّت هذه الأزمة. أجل، بدت هذه الأزمة بشعة لبعض الوقت، وكما يحصل دائماً تحت قبة وستمنستر، فكل شيء يبدو ضخماً بصورة استثنائية، لكن العالم ظلّ يدور، في واقع الأمر، وتغيّرت اهتمامات وسائل الإعلام.

تابعنا عملية تطوير توجيه سياسة حزبنا عبر سلسلة من القضايا. عقدنا في شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٥ أول اجتماع داخلي من سلسلة المناقشات حول مسألة استقلال بنك إنكلترا. وقفت بحزم إلى جانب اتخاذ هذه الخطوة. كانت كذلك جزءاً من تحليل أشمل لقطاع الأعمال، والنقابات، والخدمات العامة، والتقديمات

الاجتماعية، حتى وإن كان هذا التحليل هو أقصى ما يمكننا فعله من أجل تحديد اتجاهٍ ما، وهو الاتجاه الذي يجب أن يكون واضحاً.

تعلق الأمر جزئياً بالمواقف، وبالسياسات في جزء آخر، وفي جزء ثالث بإعادة رسم رابطٍ مختلفٍ بين الحزب والشعب. كان الموقف واضحاً: لا تنازلات في المسائل الأساسية، كما أن تكوين حزب العمال الجديد هو حقيقة لا جدال فيها من البيئة السياسية. أما في السياسات، فالأمر لا يتعلّق بتحديد التفاصيل الدقيقة بل بالمبادئ التوجيهية للمواقف السياسية. أما بالنسبة إلى الرابط بين الحزب والشعب فحمل الحزب على التصرف مثل الناس العاديين، وحمل الشعب على الإحساس بهذا التصرف، كان من شأنه إقناع الناس بأن أعضاء حزب العمال هم إلى جانبهم.

تبدو هذه الأمور كلها هذه الأيام واضحةً على نحو يدعو إلى الضحك، لكنها لم تكن كذلك في تلك الأيام. كنا قد انفصلنا عن الناس العاديين. بقي حزب العمال لعقودٍ عديدة، حتى قبل الثمانية عشر عاماً التي أمضاها في المعارضة، أشبه بمذهب منه بحزب. أما إذا أراد المرء أن يتقدم فيه فسيتعيّن عليه أن يضغط على الأزرار المناسبة. استمرّ الأمر على هذا المنوال بحيث أصبح طبيعياً بالنسبة إلى أعضاء الحزب. تعيّن، حتى على شخصٍ مثلي، أن أتعلم كيفية القيام بذلك. لم أتعلم بشكل جيد، لكن يمكنني القول إنه من دون أن يقوم الأمر بجزء من هذا العمل فلن يصل إلى أي مكان.

أُسِّس الحزب الاشتراكي الديمقراطي لأسباب تتعلق غالباً بالسياسة، لكن الأمر اشتمل على تكوين ملتقى ثقافي يجمع أعضاءه مع حزب العمال التقليدي. أتذكر دوماً أنني شاهدتُ على شاشة التلفزيون في العام ١٩٨١ إعلان «لايم هاوس» الذي أطلقته «عصابة الأربعة» التي تألفت من روي جينكنز، شيرلي وليامز، دافيد أوين، وبيل روجرز. كان الإعلان الحقيقي مهماً بالطبع، لكن الأمر الذي أذهلني كان صورة الاجتماع. رأيت زجاجة من النبيذ على الطاولة. ربما يعتقد المرء أن هذا الأمر لا يحمل كل هذه الأهمية، لكنني أتذكر أنني صدمت لأنهم سمحوا لأنفسهم أن تؤخذ صورتهم مع زجاجة من النبيذ الأحمر. شعرت بالصدمة مجدداً بسبب رد فعلي الذي تميّز بالصدمة. ألا أحتفظ بزجاجة من النبيذ فوق طاولتي؟ ألا يفعل عدد كبير من الناس الأمر ذاته؟ لكني أصدقك القول أن أعضاء حزب العمال كانوا سيشعرون

بالصدمة لرؤية صورة كهذه. لكن الأمر كان سيتغيّر لو أنهم رأوا زجاجةً من الجعة بدلاً من زجاجة النبيذ.

لاحظت وجود فاصل ثقافي، بمعنى ما، إلى جانب وجود فاصلٍ سياسي بين الحزب والشعب. يخرج الشبان العاديون في ليالي السبت كي يشربوا ويشاركوا في الحفلات. لكن الشبان المنتمين إلى حزب العمال فيكتفون بالجلوس كي يناقشوا، وبجدية تامة، مظالم حكومة المحافظين والانحدار الحتمي للرأسمالية على المدى الطويل. أردت أن يعيد شبابنا الارتباط تماماً مع بقية الشبان على المستوى الثقافي. أردت كذلك أن نتبنى المزايا الحسنة لحزب العمال كما كان في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، أي أن نتبنى مواقف تقدمية مناسبة، مثل تحقيق المساواة للنساء، والشاذين، والسود، والآسيويين، وأن نعيدهم إلى الحالة الطبيعية، أي إلى الحالة السائدة في المجتمع، وأن نخرجهم من الحدود الضيقة التي تفرضها عليهم الاستقامة السياسية. يعني ذلك أنه ينبغي السماح للمرأة بأن تكون قادرةً على أن تكون امرأة وأن تكون سياسية مع ذلك، أي لن يتعين عليها أن تتصرف، أو أن تبدو، مثل رجل. يترافق هذا الإحساس بذواتنا كأفراد مع روحية سياسية مهمة جداً.

كانت المشكلةُ الرئيسةُ لحزب العمال في فترة ما بعد الحرب أنه فقد الاتصال بهدفه الأساسي. كان ذلك الهدف دائماً، وفي جوهره، هو الفرد. إن دولة ونقابات وحركات اجتماعية، ومساومات مشتركة، تتمتع بقوة أكبر هي كلها وسائل لغاية أكبر: مساعدة الفرد على الحصول على الفرص، والسماح له، أو لها، بتخطي العقبات التي تفرضها، وعن غير حق، عوامل مثل الفقر، والتعليم غير الكافي، واعتلال الصحة، والسكن غير المناسب، والتقديمات الاجتماعية غير الكافية. يتعلق الأمر كله بالفرص وليس بشكلٍ عام، بل بشكلٍ خاص: أي لأجلك أنت كفرد. يترافق ذلك مع أمرٍ عميق في الطبيعة الإنسانية: الرغبةً في أن نكون أحراراً إلى أقصى درجة ممكنة.

أما المشكلة بالنسبة إلى الأحزاب الاشتراكية جميعها في الستينيات من القرن الماضي فكانت تحرّر أول جيل من الذين تلقوا المساعدة بهذه الطريقة. وهكذا فهذا الجيل لم يرغب في الحصول على مزيد من المساعدات من الدولة نظراً إلى توافر الفرص أمامه. أراد ذلك الجيل أن يختار، وأن يكون حراً في كسب المزيد من المال، وإنفاق ذلك المال. خرق هؤلاء القاعدة الطبقية المتجانسة. بدأ ذلك الجيل

كذلك بالنفور من الطفيليين الذين يدفعون لهم. أرادوا قبل كل شيء علاقة مختلفة مع الدولة: سواء علاقة شراكة، أو بصفتهم مواطنين، وليس بصفتهم مستفيدين أو زبائن. أما القطاع الخاص الذي يندفع بقوة السوق، فقد تغيّر بصورة أسرع تحت هذه الضغوط الاجتماعية. وجد القطاع الخاص نفسه عالقاً، وهذا هو السبب الذي ساعد مارغريت ثاتشر وريغان في أواخر السبعينيات على الضغط من أجل إجراء تغييرات جذرية.

أما بالنسبة إلي فكان حزب العمال الجديد يعني فهم هذا التحوّل الاجتماعي. لم يتعلق الأمر بتاتاً بتغيير القيم الأساسية أو أهداف السياسة التقدمية، بل بتخليص هذه الأهداف من أثقال العقائد السياسية والثقافية التي لم تساهم في جعل هذه الأهداف غامضة فقط، بل هزمتها.

يُضاف إلى ذلك أن الأمر لا يتعلق «بتقبّل» تطور فقط، بل بالابتهاج بهذا التطور، والاعتراف بأن هذا التطور لم يكن واقعاً مؤسفاً بحيث نضطر إلى تعلّم كيفية الاعتراف به كي نحقق التقدم، لأن هذا التطور كان التقدم في ذاته.

ربما يبدو كل هذا الحديث بعيداً جداً عن البند الرابع، والتغيّر في سياسة الحزب وبياناته، لكنه في الواقع جزء أساسي من هذا التوجه. أردت أن يكون أعضاء حزب العمال متفائلين ومتعاطفين في الوقت ذاته، وأن لا يشعروا بالذنب بشأن الطموح، ومن دون الشعور بالقلق بشأن التعاطف. كنا بشراً عاديين، لذلك يجب أن نكون مدفوعين ومسحورين بفرصة كوننا وكلاء التغيير السياسي. يتعين علينا السعي لتحقيق السعادة والاكتفاء في المهن التي نختارها، وفي حياتنا الشخصية، وفي استمتاعنا بالفن والثقافة.

أعلم، مجدداً، أن ذلك يبدو غريباً بعض الشيء، لكن في أواخر الثمانينيات وجدت فرقة من مغني الروك تحمل اسم «ريد ويدج»، وكان من أبرز نجومها بول ويلر، وبيلي براغ، اللذان شاركا في حملتنا الانتخابية. كان ذلك أمراً بالغ الأهمية. تعرفت لاحقاً إلى بيلي براغ وأُعجبت به فعلاً، وأتذكر أنني قلت بعد إحدى الحفلات: «يتعيّن علينا الوصول إلى أشخاص يصغون إلى دوران دوران ومادونا (وهو تعليق سرى مثل النار في الهشيم). شعرت بأنه يتوجب علينا، في الفنّ والثقافة، أن نمثّل

الاتجاهات الحديثة والتجريبية كافةً وصولاً إلى الفنّ الشعبي الأساسي الذي يُقبل ناخبونا على مشاهدته، أو الاستماع إليه.

بدأت السياسة بالنسبة إليّ، بمعنى ما، مع إعادة الارتباط الإنساني بين الحزب والناس. أدرك ألاستر في أواخر العام ١٩٩٦ هذا التوجه بشكل تام، وأقنعني بالظهور في برنامج دي أوكونور. لم يكن ظهور السياسيين في برامج كهذه بالأمر العادي. شعرت بالتوتّر الشديد، إذ كان يتعيّن عليّ تحضير وقائع معينة، وأن أحضّر نفسي ذهنياً. يختلف هذا البرنامج كثيراً عن جلسات استجواب رئيس الوزراء، أو إلقاء خطاب في مؤتمرات الحزب. لم أضطر في ذلك الوقت إلى أن أبرهن عن أهليتي للحكم بالنسبة إلى السياسات الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو الخارجية. تعيّن عليّ أن أبرهن أنني إنسان عادي، وأنني أستطيع أن أتكلم بطريقة عادية عن الأمور التي يحبّها الناس أو يتحدثون عنها. كان ذلك البرنامج يشكل مخاطرة بالنسبة إليّ كما خشيت أن يندم ألاستر على فكرته، لكني نجحت. أما الأمر الذي أدهشني، فهو أنه منذ ذلك الحين بدأ الأشخاص الذين لا يكترثون للسياسة يشعرون بميلٍ إلى الاستماع إليّ.

يعني ذلك أننا عدنا إلى التواصل مع الناس، وأن ذلك الانقطاع الثقافي المخيف الذي ساد السبعينيات والثمانينيات قد بدأ بالزوال. أظهر الناس تركيزاً واستعداداً للإصغاء. إن إعادة التواصل هذه كانت مجرد بداية، وبداية حاسمة جداً في ذاتها. لكن القادة السياسيين يخطئون بالتفكير أحياناً على هذا النحو: هذا يكفي، ولقد نجحت، وها هم يحبونني. أعتقد أن ذلك هو نوعٌ من أنواع إساءة تقدير الناس. كان كل ذلك مجرد أساسٍ فقط، وليس أكثر من ذلك.

يريد الناس الحصول على أجوبة، فإذا كان المرء في المعارضة فإنهم لا يتوقعون أن يمتلك جميع الأجوبة (أو الحلول). إنهم لا يطلبون الحصول على كم كبير من التفاصيل، لأنهم لا يريدون سوى معرفة مواقفك بشأن الإنفاق العام، والضرائب، والقوانين والنظام، وبشأن السياسة الدفاعية، والمواقف بشأن أوروبا، والخدمات العامة. هناك أمران حيويان بالنسبة إلى المعارضة: المحافظة على البساطة، والمحافظة على التناسق. لا أعني بعبارة المحافظة على البساطة الظاهر فقط، بل أعني الوضوح أيضاً.

هل أنت، على سبيل المثال، إلى جانب النهج المتشدد بالنسبة إلى القوانين والأنظمة أم لا؟ هل تدعم الحرب في أفغانستان بالكامل أم لا؟ هل أنت إلى جانب الإصلاح في نظام الخدمات الاجتماعية، أم تفضّل بقاء الأمور على حالها؟ وهل تفضّل تخفيض الضرائب، وإذا كان الأمر كذلك، لمصلحة مَن؟ هل تفضل أن يكون حجم الدولة كبيراً، أم صغيراً، أم نوعاً مختلفاً من الدولة؟

لا يثق السياسيون بفظاظة مواقف بسيطة كهذه، وهم على حق بمعنى ما، لأن المرء يصبح مقيّداً ما إن يحدد هذه المواقف، في حين يفضّل السياسيون، بفطرتهم، إبقاء الخيارات كلها مفتوحةً أمامهم. أما الكأس المقدّسة هنا فهي أن تحمل الجميع على الوقوف إلى جانبك، لكني لا أخفي أنني سعيت في هذا الاتجاه بحيوية كبيرة وحققت، في بعض الأحيان، نجاحات أكثر من معظم السياسيين الآخرين.

يتعيّن عليك أن تكون قادراً على الإجابة عن تلك الأسئلة ببساطة وبوضوح. ربما تدخل المؤهلات والمخارج هذا الموضوع، لكن الإجابات يجب أن تظل مفهومة، لأنها تحدد طبيعتك. تدخل هذه الإجابات شخصيتك السياسية، وليس طبيعتك فقط. يتطلب هذا الأمر التفكير العميق، والتحليل المفصّل، والحيوية الفكرية. إنني أعتبر السياسة عملاً فكرياً إلى درجة أكبر مما يعتبرها الناس. ربما تفكر على هذا النحو: حسناً، إذا كان الأمر يتطلب البساطة فذلك يعني عدم الحاجة إلى تفاصيل كثيرة. إن هذا الافتراض خاطئ تماماً، لأن البساطة ليست وليدة التحليل السطحي للأمور. إنها بسيطة لأنها، وبالتحديد، نتاجُ التمحيص العميق.

تعيّن علينا في أيام المعارضة الطويلة، أي عندما اضطررت أنا وغوردون ومجموعة أخرى من المفكرين السياسيين، أن نملأ هذه الأيام، والأسابيع، والأشهر بشيء جديد، أو حتى مسلٍّ قليلاً. تعمقنا في الأمور ، وأشبعناها بحثاً، كما أكّدناها وأعدنا التأكيد بغية التوصلِ إلى مبادئ الحكم في كل مجالٍ من المجالات. توصّلنا إلى قناعة بشأن الحاجة إلى زيادة الاستثمار في الخدمات العامة. حسناً، لكن كيف نتمكن من تغطية هذا الاستثمار؟ هل نفعل ذلك عن طريق التوسّع؟ أو عن طريق زيادة الضرائب؟ هل يقف الحزب ضد تخفيض الضرائب، أم هو إلى جانب تخفيض بعضها؟ وما هو تأثير ذلك الإنفاق؟ وهل نعطي الأولوية للاستثمار، أم إلى تخفيض الضرائب؟ أم أن باستطاعتنا القيام بالأمرين معاً، أو أن من الأفضل أن نقوم بإعادة

توزيعها؟ وإذا اخترنا إعادة التوزيع، فأي نوع منه؟ هل نختار أن نفعل ذلك بوتيرة سريعة، أم نختار طرقاً أخرى أكثر سرية؟

لا أستطيع أن أقول كم من المرات أعدنا دراسة هذه القضايا مرة بعد أخرى إلى أن تمكّنا من تحديد وجهتنا بحلول العام ١٩٩٤، وأصبحنا أكثر انشغالاً، لكن في ظل توتر العلاقة. تمكّنا من تحديد وجهة سيرنا، فالنمو هو المفتاح، واخترنا الاستثمار، وليس تخفيض الضرائب، وآثرنا إعادة التوزيع، لكن حرصنا على عدم المس بضريبة الدخل. فضّلنا إبقاء الطبقة الوسطى على حالها، لكننا ركزنا على الأكثر فقراً عندما يسمح النمو وبعض إعادة التوزيع بذلك، وهكذا نستطيع مع الوقت إقامة توازن بين تخفيض الضرائب والإنفاق.

انطبق الأمر ذاته على الخدمات الاجتماعية [أو الرفاه الاجتماعي]، فخلال العامين ١٩٩٥ و١٩٩٦ قمنا باستعراض برنامج الوظائف. خرجنا بنتيجة الأمر ببرنامج «العقد الجديد» بالنسبة إلى العاطلين عن العمل. كان غوردون هو صاحب هذه التسمية، وهو الذي استعارها بدوره من برامج فرانكلين. دي. روزفلت التي أعلنها في الثلاثينيات. كان يحبّ أموراً كهذه على الدوام. اخترنا فرض ضريبة جديدة على المرافق المخصخصة كوسيلة لدفع أثمانها (كانت هذه المرافق تعمل على نحو احتكاري لذلك كانت تجني أرباحاً عالية جداً). ناصر غوردون فرض ضرائب جديدة، لكني كنت متردّداً في هذا الخصوص، وخشيت إغضاب قطاع رجال الأعمال. أما في مطلع كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٧، فخضت جدالاً معه حول هذا الموضوع. يعود ذلك إلى أن مستشاره إد بالز قد بالغ في الحديث عنه. توصّلنا في نهاية الأمر إلى تسوية كانت أقل كثيراً مما كان يريده، لكنها شكّلت مع ذلك مبلغاً جزلاً.

جاءت اللحظةُ الحاسمة مع البرنامج ذاته، وكنت أقف مع غوردون في الجهة ذاتها. أصررنا، بالإضافة إلى إتاحة فرص التوظيف للعاطلين عن العمل على تحميل المسؤولية لهؤلاء العاطلين في التقاط هذه الفرص. يمثل هذا نموذجاً حديثاً، وليس قديماً، من الرفاه الاجتماعي. كانت هذه النقطة موضع جدال واسع بين عدد كبير من أعضاء الحزب. أعرب زعماء النقابات وغيرهم (بمن فيهم روبين كوك) عن عدم الرضا الشديد عن هذا البرنامج، واتهمونا بأننا ندخل نوعاً جديداً من مفاهيم العمل

(العمل مقابل الحصول على تقديمات)، وذلك على الرغم من أن تعليقات روبين بقيت في حكومة الظل، وكانت موجّهةً نحو غوردون (الذي كان يكنّ له خصومة قديمة بدأت منذ تاريخ يعود إلى السياسة المتعلقة بإسكتلندا في السبعينيات من القرن الماضي). بقينا على مواقفنا، وتأكدنا من خفوت الأصوات المعارضة.

بقيت نقطة هامة: إن كل قرار، سواء أكان بفرض ضريبة جديدة من أجل الاستفادة منها في المرافق العامة، أم من أجل استخدامها في نوع جديد من برامج التوظيف، لا بدّ أن يكون وليد مجموعةٍ من المواقف المدروسة بإحكام حول الضرائب، وقطاع الأعمال، والخدمات الاجتماعية. كان منهج تفكيرنا موجّهاً بعناية بحيث إنه لا تكون مواقفنا، عند وصولنا إلى رسم سياسة الحزب واضحةً فقط، بل متناسقة كذلك. لم يناقض موقفنا بالنسبة إلى الخدمات الاجتماعية موقف رجال الأعمال. كان يُمكن لذلك أن يحصل، إذ كان بإمكاننا أن نرفع الضرائب العامة على الشركات، وأن نموّل نوعاً جديداً من أنواع برامج التوظيف، لكن ذلك كان سيتنافى مع رؤية قطاع الأعمال. وكان بإمكاننا أن نفرض ضريبةً جديدةً على المرافق، وأن نُتبع ذلك ببرنامج توظيف تقليدي على الطراز القديم، خصوصاً وأن الأمر يتعلق بالشراكة القائمة بين الدولة والفرد، وليس بتوزيع المكافآت. اخترنا بعناية، بدلاً من ذلك، أن تكون سياستنا متوازنة ومتوافقة مع الموقف العام لحزب العمال الجديد ورسالته. لقي البرنامج بهذه الطريقة قبولاً واسعاً لدى الناس. استاء عالم الأعمال القائم على المنافسة من الأرباح المفاجئة الناتجة عن الخصخصة، بينما أراد الناس إجراءات على صعيد البطالة، واعتقدوا أن للعاطلين عن العمل واجباً لمساعدة أنفسهم.

كنت متحمّساً لفكرة وجوب أن تكون هذه الحكومة العمالية مختلفة، وأن تكون قادرة على الحكم لفترة طويلة، أي مثلما كانت تفعل عادة حكومات المحافظين. تعيّن علينا، من أجل تحقيق هذا الهدف، أن لا نسمح بتقديم التنازلات في الأمور الأساسية. لا أقصد هنا، وبكل تأكيد، إلى القول بأننا لا نريد إجراء تسويات، وذلك لأننا فعلنا ذلك. قدّمت في ذلك العام نظاماً للسكك الحديد يجعلها مملوكةً من قِبل المساهمين. لم يسبق لي أن آمنت من قبل بهذا النوع من الخصخصة التي ينادي بها المحافظون، وكنت أشعر بأن ذلك سوف يؤدّي بنا إلى نظام معقدٍ جداً ولربما غير تنافسي، لكن من الجهة الأخرى لم أكن مستعداً لهدر الأموال في إعادة تأميم هذا

القطاع. قدمنا تنازلات كذلك في القطاع الصحي، وفي المدارس، وكانت هذه التنازلات في بعض الأحيان أكبر مما أردت. لكن عندما يتعلق الأمر بالقضايا التي تُعتبر أساسية لحزب العمال الجديد، أي الأسباب الداعية لتأسيسه، وجوهره، وروح سياسته، لا يعود هناك من مجالٍ لتقديم أي تسويات. كان الأمر يُعرض بالنسبة إلى ما لا يجدر بنا عمله أكثر من الأمور التي يجدر بنا عملها. كان هذا الوضع طبيعياً بالنسبة إلى حزب معارض، وعلى أي حال كوّن لنا هذا الوضع المناخ السياسي المناسب للأمور التي صمّمت على المضي فيها قُدُماً إذا أصبحت رئيساً للوزراء، وبعد أن أتولى المسؤولية.

كانت هناك بعض الأمور المحسومة سلفاً: لا عودة إلى قوانين النقابات القديمة، ولا إعادة تأميم للمرافق المخصخصة، ولا رفع للحد الأعلى للضرائب، ولا التزام سياسة عدم الانحياز، ولا إلغاء للمدارس الابتدائية. برزت كذلك مؤشّرات معينة وواضحة بالنسبة إلى سياستنا في المستقبل: خط متشدد للسلوكيات المناقضة للمجتمع، والاستثمار والإصلاح في الخدمات العامة، وتأييد الاتحاد الأوروبي، وتأييد الولايات المتحدة، وجمع الفرص والمسؤولية في موضوع التقديمات الاجتماعية، وتشجيع المشاريع الصغيرة والمتوسطة، والتكافؤ بين الشركات والعمل (بحيث يُمكن للموظفين الحصول على حقوق بشكل فردي، وليس كمكاسب جماعية).

كنت أميل للمواجهة في كل مرحلة من هذه المراحل (كما أن القرارات أتت سريعة وعنيفة جداً) وإلى الانسحاب في حال الفشل. تعيّن على الحزب أن يعلم أنني لا أراوغ. وإذا كان أعضاء الحزب لا يريدون حزب العمال الجديد، فسيمكنهم الإتيان بشخص آخر بدلاً مني. وتعيّن على البلاد أن تعلم أنني إذا كنت سأتولى منصب رئيس الوزراء، فسوف أكون من الحزب، لكني مستقل عنه.

كان ذلك في بعض الأحيان عرضةً لانتقاد صامتٍ من غوردون براون كذلك، وبدا أنني أستفزّ الحزب عن عمد. لكنني أؤكّد أنني لم أفعل، ولست مستعداً لتغيير مواقفي. كنت سأتكلم اللغة ذاتها أمام الحزب والبلاد. إن موقفي هذا كان من شأنه تشجيع الأشخاص المتعقلين والتحديثيين في الحزب كي يتقدموا ويتميزوا. يتمتع قادة الأحزاب بتأثير متبادل مع الناشطين من أنصارهم، كما تنشط عملية تفاعلٍ متبادل، تعطي بدورها قوة كبرى للزعيم.

كانت الخطابات التي ألقيتها في تلك الفترة مختلفة، بالتأكيد، بمضمونها عن تلك الخطابات التي ألقيتها في مطلع القرن الواحد والعشرين، لكن النبرة بقيت هي ذاتها. تغيّر فهمنا لمعنى التحديث مع اكتسابنا لخبرات جديدة في الحكم، لكن الرغبة والإرادة في التحديث لم تتراجعا قط. أما النقطة الأخرى التي أريد أن أشدد عليها فهي أن هذه الإرادة هي وليدة الإيمان. كان اعتقادي راسخاً أن سياسات القرن العشرين قد شارفت نهايتها، ليس من حيث زمانها فقط، بل من حيث مضمونها كذلك. أما التمايزات القديمة بين اليسار واليمين فسوف تبقى، لكنها بحاجة إلى بعض التعديل، والحصر، والتعريف.

كان الوضع على النحو الآتي: في المعتقد الأساسي، انتشال قيَم حزب العمل من التقاليد والمعتقدات القديمة، وإعادة ربط الحزب مع العالم الحديث، ووجود مجموعة من التوجّهات السياسية الفكرية النابعة من تلك القيم بعد إعادة تطبيقها على ضوء الحداثة، وأخيراً وجود مجموعة من المواقف السياسية، أو القرارات التي تتبنى التوجهات السابقة والمعتقد الأساسي. أما الالتزام فبقي كما هو، لكن تغيّرت وسائل تنفيذه. إن الإجراءات التي تتخذها الدولة والمجتمع هي وسائل لترفيع الفرد، وليس لإخضاعه. إن هدف هذه الإجراءات هو تمكين الأفراد من تحقيق إمكانياتهم وطموحاتهم السياسية، وهكذا يكون دورنا في المساعدة على تحقيق هذه الأمور وليس التحكم فيها، لأن هدفنا ليس تقييد ذلك الطموح، أو تلك الأهداف، بل إتاحة الفرصة أمام الجميع، «للكثيرين وليس للقليلين» بحسب البند الرابع بصيغته الجديدة.

كانت كل خطوة، وكل إعلان، وكل مقابلة مكرسة لتلك الهيكلية المتماسكة. إن التماسك في ذاته هو مكوّن ضروري. وإذا أخذنا كمثالٍ حزب المحافظين كما هو اليوم نرى أنهم أرادوا توجهاً تحديثياً. يمكنني القول، إلى حدٍ ما، إنهم اتبعوا دليل حزب العمال الجديد. غيّر الحزب آراءه بالنسبة إلى الشاذين جنسياً، وكذلك بالنسبة إلى الإنفاق على الخدمات العامة، وبالنسبة إلى أهمية المجتمع. تخلّص المحافظون كذلك من الخطاب الثاتشري القديم، لكن لم تتمكن بذرة التجديد من التجذّر. وهكذا ما إن ظنوا أنهم فرغوا من العملية حتى استرخوا. خرج، وعلى نحوٍ مفاجئ، أولئك المشكّكون في الاتحاد الأوروبي بعد أن استرخى الحزب في مواقفه، كما أن المحافظين لم يحقّقوا النتيجة التي توقعوها في انتخابات العام ٢٠١٠. استبعد

في هذا الوقت المشكّكون في الاتحاد الأوروبي نتيجة الجهود التي بذلتها قيادة حزب المحافظين. لماذا كان التشكيك في الاتحاد الأوروبي خطأً بالنسبة إلى حزب المحافظين الذي يحاول التحديث؟ يُمكن للمرء أن يفكر للوهلة الأولى على النحو الآتي: كلا، لا بأس، لأن استطلاعات الرأي ما زالت، بعد كل شيء، تظهر أن ذلك كان موقف الشعب البريطاني. لكنها كانت غلطة لأنها كسرت على الفور تماسك إرادة التحديث. تُعتبر أوروبا حقيقة واقعة بالنسبة إلى الأشخاص الذين تراوح أعمارهم بين ٢٥ و٤٠ عاماً، لذلك فهي حقيقة ينبغي للمرء أن يتعايش معها، وذلك بغضّ النظر عما إذا كانت تعجبه الفكرة أم لا. ما إن يبدأ المناهضون الشرسون لفكرة التعاون مع أوروبا بالحديث عن هذا الموضوع بحماسة يمقتها الناس بصورة غريزية، حتى تبدأ علامة الاستفهام في الارتفاع عن عودة الحزب إلى نسخته القديمة. وإذا أضفنا إلى ذلك أي ترنح في الاقتصاد يبدأ عدم التماسك بإثارة القلق عند الناخبين الذين يحتاج الحزب إلى طمأنتهم. يمكننا القول، والحالة هذه، إن الخطوة الأخيرة نحو التحديث كانت تتعلق أقل بقرارٍ كان يُمكن أن ينتهي مع تحقيق فوزٍ كاسح في الانتخابات، وتتعلق أكثر بانتخابات تكون نتيجتها غير حاسمة. أما بعد أن قالوا ذلك الكلام فالفرصة قد انفتحت أمامهم لإنجاحه، ومن أجل استغلال فترة الحكم في تحقيق الأمور التي عجزوا عنها عندما كانوا في المعارضة.

انشغلت في الفترة بين عامَي ١٩٩٥ و١٩٩٧، حتى بعد الانتهاء من البند الرابع، في حركة مستمرة من التطمينات. زادت حركتي هذه مع تصاعد أرقام تفوقنا في استطلاعات الرأي. قال لي أعضاء في حكومة الظل غير مرة: ما بالك، هذا يكفي، إننا متفوقون بأشواط عديدة. كان يزيد قلقي كثيراً عندما يقولون لي ذلك، وكان يزداد تصميمي على عدم التوقف، ولا للحظة واحدة، عن زخم التحديث. أما إذا بدوت مفرطاً في القلق، فالسبب يعود إلى أنني كنت كذلك فعلاً. كان إعادة الارتباط مع الناس، وتغيير سياستنا، أمرين في منتهى الأهمية، لكن كان الناس، فوق كل ذلك، يحتاجون إلى معرفة أنني في الوقت الذي أتعرض لأشدّ الضغوط، أبقى على التزامي بالتحديث. سيقول خصومنا: من الذكاء أن يجول المرء ويوسع من علاقاته العامة. مرت الأيام، وبقيت العناصر الرجعية في الحزب على تشكّكها، لكني سأظهر لها خطأها عن طريق كثرة الخطوات التحديثية التي سأتخذها.

ظهرت حساسيات إضافية أخرى في شهر حزيران/يونيو من العام ١٩٩٥ عندما قبلت دعوة وجهها إلي محرر جريدة التايمز آنذاك، بيتر ستوثارد, الذي دعاني إلى إلقاء كلمة في مؤتمر مؤسسة ريوبيرت مردوخ الإخبارية الذي كان سيعقد في جزيرة هايمان في الشهر التالي. يبدو الأمر جلياً مجدداً: إن أقوى مالك صحف في البلاد، من كانت صحفه تظهر معارضةً لاذعةً تجاه حزب العمال، قد دعاني إلى عرينه. ألم تكن لتذهبَ أنت لو كنتَ مكاني؟

أبقينا الدعوة ورغبتي في قبولها طيّ الكتمان، لكن بروس غروكو المسكين عبّر عن مخاوفه، وهو الذي كان، ولا يزال، رجلاً رائعاً، وهو مخلص حقاً، ومحترم، وعمالي حتى أعمق أعماقه. أعتقد أنه أفضل من في حزب العمال التقليدي، وكان مو ماولام قد نصحني، عن جدارة، كي أعينه مساعداً شخصياً لي. كان خياراً عظيماً لهذا المنصب. خلف بروس رجلين عظيمين بدورهما، وهما دافيد هانسون، وكيث هيل. كان دافيد رجلاً عظيماً في مجال العلاقات العامة، ورجلاً يحترمه حتى أولئك الذين يختلفون بشدة في آرائهم معي، كما كان سياسياً بارعاً في ذاته. أما كيث فكان ذكياً، ومحبوباً، وعاملاً صلباً بالفعل، ويجيد إخفاء صلابته وراء قناع من الذكاء، لكن صلابته تظهر فور احتياجك إليها. كانت إحدى طرائف كيث العظيمة، التي اعتبرتها مسلّيةً أكثر بعد تركي منصبي، هي عندما يأتي كي يقلّني عند الساعة ١١:٥٧ بالضبط بعد حضور جلسة استجواب رئيس الوزراء. كان يفتح الباب ويقول، وكأنه منادٍ في إحدى القرى: «يا رئيس الوزراء. إن أمةً تدين لك بالامتنان تنتظرك». كانت إحدى مساهماته العظيمة الأخرى هي أنني كنت أعلم، على الدوام، تفكير أعضاء الحزب من خلال رأي بروس. كان يُدهش كثيراً عندما يرى أعضاء الحزب المتردّدين، وكان متعوداً الجلوس هناك بينما كنت أشرح أحدث تغيير في عقيدة الحزب وشعائره. كانت عيناه تجولان وهو يهزّ رأسه، وأحياناً كان يضحك ويقول: لا. ما هذا، لا بدّ أنك تمزح هذه المرة.

أما إذا كنت قد أخبرته في إحدى هذه المناسبات أن لدي صديقاً يُدعى فاوست، وأنه أبرم اتفاقاً عظيماً مع أحدهم ويدعى الشيطان، فلن يتسبب الأمر بفوضى أقل. أعرف كذلك أن نيل كينوك كان سيكره الأمر، وأنه سيشعر بأنني خذلته، إلا أنني أتفهم الأمر. كانت جريدة صن قاسية معه إلى أقصى الحدود، ولذلك وُضعت تلك

الصحيفة نفسها في أسوأ المواقع بالنسبة إلى ناشطي الحزب. كان الناس يشعرون بالرعب. قلت لألاستر، في المقابل، إن عدم ذهابي سيشجّعهم على المضيّ في مهاجمتنا إلى أبعد الحدود، ونحن نعرف ما هي أبعد الحدود عندهم، وهي سيئة بالفعل. إما أن ينغمس المرء في هذا الأمر، وإما أن يمتنع. أما نحن فقد فضّلنا أن ننغمس.

سمحت لي الرحلة الطويلة بتدبيج الخطاب بعناية، وهو الخطاب الذي كان يجب أن لا يُظهر الضعف. اشتمل الخطاب على جزء مناصر للاتحاد الأوروبي، وعلى التزاماتٍ بشأن محاربة الفقر وتحسين البيئة. كما اشتمل على بنودٍ من حزب العمال الجديد من جهة المبدأ، وليس فيما يتعلق بالانتخابات فقط. أما بول كيتينغ، وكان رئيساً لوزراء أستراليا في ذلك الوقت، فقد ذهب معنا وأسعدنا برفقته، كما كان مصدراً لنصائح مهمة قدّمها لي على طريقته الفريدة والفذّة. (تعود أن يقول لي: «لا تتطرق أبداً إلى مواضيع الدخل، وضريبة الدخل يا صديقي. ابتعد عن هذه المواضيع بأي طريقة كانت، لكن إذا فعلت ذلك فسوف يطعنوك بشدة») كان يعتبر أن ريوبرت رجل نذل، لكنه من ذلك النوع الذي يُمكن للمرء أن يتعامل معه.

كنت أظنّ أن ريوبرت رجلٌ غامض، لكن كلما تعرفتُ إليه أكثر، تعمق اعتقادي هذا. أما في النهاية فقد كوّنت احتراماً حذراً تجاهه، حتى إعجاباً به، لكنني أعلم مدى علامات الاستغراب التي سترتسم نتيجة كتابتي لهذه الأسطر. كان رجلاً صلباً من دون شك، وكان ينتمي إلى جناح اليمين. إنني لا أقاسمه مواقفه حيال أوروبا، والسياسة الاجتماعية، أو قضايا أخرى مثل حقوق الشاذين، ولا أعجب منها، لكن بقيت لي نقطتان تجمعانني معه: كان غير ملتزم، وشجاعاً جداً. أما ميزة عدم الالتزام فقد كانت ضرورية لفهمه. بقي الرجل قوياً جداً، وفي مراحل أساسية معينة أخرى، ضد المؤسسة establishment. كان معجباً بالسيدة ثاتشر، لكن ليس بالضرورة بحزب المحافظين بكل توابعه، وبيئته، وميزاته. أعطاني ذلك شيئاً كي أعمل عليه.

كنا قد طرنا جواً إلى سيدني بعد جلسة استجواب رئيس مجلس الوزراء، وأمضيت الليل في كيريبيلي هاوس، وهو مقرّ رئيس الوزراء الذي يقع قرب المرفأ. سافرنا يوم الأحد جواً مع بول إلى جزيرة هايمان، وألقيت الخطاب في اليوم التالي، ثم غادرت بعد مرور ساعة كي أعود جواً. وصلنا إلى لندن في الوقت المناسب كي أشارك

في صباح يوم الثلاثاء في حديث مع كريس سميث، وهو وزير التراث في حكومة الظل، حول الثورة التكنولوجية، وشاركت في ذلك المساء في جلسة استجواب رئيس الوزراء.

لقي الخطاب الذي ألقيته في جزيرة هايمان استقبالاً حسناً. أمكنني أن أرى الرهبة (وبعض الخوف) في وجوه كبار المسؤولين تجاه ريوبرت. قدّمني الرجل بعبارات متوقّدة (بعد أن أثنى عليّ، سراً على ما أعتقد، لأنني امتلكت الجرأة الكافية التي مكّنتني من الحضور). أجمع هؤلاء، وشعرت معهم، على أننا قد نتمكن من كسب دعم جريدة صن.

كان الحزب خائفاً قليلاً ومتحمّساً بعض الشيء للحيوية التي تميزت بها كل تلك الأمور. كنا نتحرك في تلك الأيام بوتيرةٍ معينة، بحيث بالكاد تمكّنوا من امتلاك الفرصة للصحو من صدمة للنظام إثر أخرى. حبسوا أنفاسهم، لكن على الرغم من أن بعض النقد كان قاسياً، إلا أن معظم أعضاء الحزب أعجبوا لأننا صعقنا، وشوّشنا، المحافظين، وكنا أكثر دهاءً منهم. سيطر علينا الشعور بأننا كنا في الجهة الخاسرة والجهة التي تتلقى الضربات، لذلك أحبوا فكرة الزهو قليلاً بقوتنا.

وضعت في تلك الفترة تقريباً أي في منتصف سنة ١٩٩٥، نموذجاً جديداً لمنهج حزب العمال يتيح له تحديد سياساته، وذلك عن طريق كتابة سلسلة من المقالات. وإذا أردت أن أتذكر تلك الفترة فإن ما يثير اهتمامي هو أن المنطلقات الفلسفية، على الرغم من تغيُّر السياسات الحقيقية للحزب كثيراً مع تجربة الحكم، بقيت كما هي. كتبت مقالةً في شهر حزيران/يونيو في جريدة ذي تايمز:

الواقع هو أن الناخبين يعتبرون أن حزب العمال هو الحزب العملي الذي يتمتّع بالشعبية. تغيّر الحزب بعد هذه السنين كلها، وتبنينا التغييرات. لم نعمد إلى دفن ماضينا، لكن الحزب تبنى رسالة للمستقبل. إن البند الرابع الجديد هو أوضح مثال على ذلك التغيير، لكنه ليس الوحيد. أقدمنا كذلك على تغيير طريقة رسمنا لسياساتنا. إننا لم نضع سياستنا المتعلقة بالتعليم التي أطلقناها الأسبوع الماضي من أجل إرضاء الاتحاد الوطني للمعلمين، بل وضعناها من أجل تقليص مخاوف الآباء. أما السياسة الصحية التي وضعناها، والتي أطلقناها البارحة، فقد استفادت من خبرة الهيئات

المتخصصة العاملة في الهيئة الصحية القومية، لكن مصلحة المريض كانت هي أكثر ما نفكر فيه.

كنا نعمل باستمرار على مستويين. يتعلق أولهما بعبقرية ألاستر، وبيتر، والفريق السياسي، وهي العبقرية التي تظهر في الحملات الانتخابية. كانوا يعملون، بالطبع، على شرح قضية حزب العمال الجديد، لكنهم كانوا يهاجمون المحافظين بكل قسوة، ويستغلون انقساماتهم، ويبرزون نقاط ضعفهم، كما كانوا يستخدمون مزيجاً مدمّراً من النقد، والسخرية، والتفاهات. كان الأمر مسلياً، وفعالاً، ويقدّم على درجة من المهنية. نجحت هذه السياسة خلال الانتخابات الفرعية التي أخذنا نفوز بها بانتظام على المحافظين، حتى في أكثر الأماكن صعوبة. شكل هذا الفريق ماكينة انتخابية لا تقهر، وكان في ذلك مثل فريق مانشستر يونايتد عندما يكون في أوج أدائه: كان التفرج عليهم متعةً كبيرةً، ومثيراً لأعصاب الخصوم، ولا يمكن إيقافهم. ترافق ذلك مع انتباهٍ شديد إلى حاجة الحزب إلى مواقف سياسية تكون معتدلة، وذات مصداقية، ومتماسكة، وذلك كي لا تؤدي نقاط تمايزنا عن المحافظين إلى إضعافنا بحيث تتعزز رسالة الحزب الأساسية – تغيّر حزب العمال بصورة جذرية، ولم يحدث ذلك بسبب الحسابات الانتخابية.

كتبتُ شخصياً معظم المقالات التي تتحدث عن مواقف حزبنا، وهي التي استوحيت فيها المناقشات المسهبة التي سبق أن أجريتها مع دافيد ميليباند، ومايكل باربر، وجوناثان وغيرهم. قررت كذلك أن أتبنى التغييرات التي أجرتها مارغريت ثاتشر، الأمر الذي تسبب بلغطٍ كبير داخل الحزب. أدركت أن مصداقية مشروع حزب العمال الجديد برمته كانت تعتمد على تقبّل أن قدراً كبيراً مما أرادت أن تفعله في الثمانينيات كان حتمياً، ولم يكن نتيجة العقائد بل نتيجة التغيّر الاجتماعي والاقتصادي. أما طريقة تنفيذها لهذه التغييرات فغالباً ما كانت عقائدية، وإن كان ذلك غير ضروري في بعض الأحيان، لكن ذلك لم يغيّر حقيقة أساسية، وهي أن بريطانيا كانت تحتاج إلى إصلاحات في قطاع الصناعة والاقتصاد في فترة حكم ثاتشر. أثار هذا الكلام على الفور انتباه كثيرين من الذين كانوا يساندون المحافظين في تلك الفترة، ولم يحدث ذلك لأنهم كانوا محافظين بالفطرة، أو نتيجة العاطفة، لكن لأن حزب العمال بدا قديم الطراز، وبعيداً جداً عن التواصل مع طموحات الفرد.

بدت سياستنا الاقتصادية شمولية على نحو يائس، كما كانت سياستنا الاجتماعية وليدة استقامتنا السياسية.

شرحت في مقالةٍ أخرى نُشرت في صحيفة ذي تايمز في شهر تموز/يوليو من العام ١٩٩٥، السبب الذي يدفع بحزب العمال لأن يكون حزب النظام الاجتماعي، والأمن داخل البلاد، وأن يكون حزباً منفتحاً على العولمة والتجارة الحرة خارجها:

تمرّ الطريقة الوحيدة التي تكفل إعادة بناء النظام الاجتماعي والاستقرار عبر قيَم قوية يتقاسمها المجتمع ككل، وتكون مغروسة في نفوس الأفراد والعائلات. لا أقصد أن يكون ذلك دعوةً إلى الاستبداد، أو محاولة لفرض أخلاقيات شخصية رجعية. إنها تتعلق، في واقع الأمر، بالعدالة والمساواة. يستطيع الأقوياء وذوو النفوذ أن يحموا أنفسهم. أما أولئك الذين خسروا الكثير عن طريق غياب القوانين فهم ضعفاء ومعرّضون لشتى أنواع المظالم. إن أوائل ضحايا التفكك الاجتماعي هم الفقراء وغير القادرين على المنافسة. هذا هو السبب الذي يحتّم على اليسار أن يعالج المسألة بكل جدية...

يتعين أن يكون يساريو الاعتدال من نخبة شخصيات القرن الواحد والعشرين. يتعرض المحافظون لخطر أن يصبحوا قوميين منعزلين وضيقي الأفق. أعتقد أن لا مكان في عالم متغيرٍ لتفكيرٍ كهذا. لا أقول إن هذا النوع من التفكير لا يحظى بالشعبية، لأن هذا هو الواقع بالفعل، لكنني لا أعتبر ذلك سياسةً جدية...

ستتمتع حكومة حزب العمال التي آمل أن أترأسها بعينٍ على الخارج، والشؤون الدولية، وستلتزم التجارة الحرة والمنفتحة، ولن تتبنى سياساتٍ عفا عليها الزمن ولا السياسات القومية الضيّقة.

إن من مهمة يسار الوسط الحيوي والمنتعش أن يتجاوب مع هذا العالم المتغيّر، وأن يساهم في تشكيله. وإذا تمكّن هذا اليسار من تجاوز معوقات ماضيه، ومن التعلم من تاريخٍ لا يعيش فيه، فسيكون مؤهلاً جداً للقرن الجديد، فكرياً وفلسفياً. سيمضي حزب العمال الجديد في التغيّر كي يكون قادراً على ذلك بالتحديد.

كان أكثر ما يقلقني هو أن يستعيد المحافظون بعض ذكائهم السياسي، وأن يغيروا قيادتهم، ويحصلوا على حيوية جديدة. لا يعني هذا أن جون مايجور كان سيئاً.

كان يحاول، وببساطة، أن يجمع حزباً منقسماً بعمق حول قضايا أوروبا، كما حاول تغطية الشقاقات بشكل يُخفي الانقسامات، وذلك بدلاً من أن يلجأ إلى الجراحة ويصلحها. أقدم جون مايجور على خطوة كان يُمكن أن يُكتب لها النجاح في العام ١٩٩٥، وذلك عندما قرر إجراء انتخابات على صعيد القيادة، وهكذا أجبر خصومه على الظهور إلى العلن. كان ذلك تكتيكاً بارعاً، لكنه أقلقني كثيراً. تقدم جون ريدوود إلى الواجهة مستفيداً من صحافة المحافظين المعادية. وضعت صحيفة مايل عنواناً لها: «ريدوود مقابل ريدوود».

ارتكب مايجور، لحسن حظي، الخطأ ذاته الذي ارتكبه حزب العمال في الثمانينيات، وذلك عندما دعا إلى وحدة الحزب بدلاً من تمديد فترة ولايته. نستنتج من ذلك أن التكتيك الذي تميّز بالجرأة لم يكن مصحوباً باستراتيجية جريئة. هُزم ريدوود، لكن ليس بسبب قضية. أما مايكل هيسيلتين، الذي كان بإمكانه أن يتزعم المحافظين فقد بقي مهمّشاً.

إنه لأمر غريب أن يكون الولاء للزعيم بحسب جاذبية شخصيته، لذلك يتعيّن على المرء أن يكون حذراً من هذا الأمر. ويتحتم على المرء خصوصاً أن يحدّد الأمور المهمة من تلك غير المهمة، وما يجب أن يكون وما يجب أن لا يكون. لاحظت بعد أن أصبحت رئيساً للوزراء، وبالتحديد في الأيام الصعبة عندما كنت أتعرض لهجمات روتينية من قِبل أنصار غوردون، أن أنصاري كانوا يشتكون أحياناً من عدم ولاء أنصاره للحزب. كنت أقول لهم دائماً إن لهم كامل الحق في توجيه التحدي إلى شخصي، واقتراح بديل مني، والقول إنه يجب عليّ أن أستقيل. لكن ما لا يحق لهم هو إعاقة عملي. يعني ذلك بكلمات أخرى أن المرء إذا وصل إلى قناعة تقول إن الزعيم لا يأخذ الحزب في اتجاه خاطئ مبدئياً، أو إنه لا ينوي ذلك، فعند ذلك لا يكون من عدم الولاء في شيء قول كل شيء بصراحة وتوجيه التحدي لرئيس الحزب. وإذا كان النقد محقاً فعند ذلك ينطلق التحدي من الولاء نحو القضية الكبرى، أي الحزب ذاته وغايته. هذا السبب هو الذي منع قيام أي مشكلة مع أنصار غوردون بسبب رغبتهم في تنحيتي، وطالما كان ذلك في سبيل غاية غير مجرد تنحيتي كي يقوم غوردون بالعمل الذي أقوم به أنا. كان الأمر على هذا النحو بالنسبة إلى بعض أولئك المعادين لفكرة حزب العمال الجديد. أما الأمر الذي كان غير مقبولٍ على الدوام فهو الانكفاء،

ورفض التحدي العلني أو تشويه السمعة، وهذا ما أسميه أنا عدم الولاء لأنه يُضعف الحزب، ولا يغيّره، ولا يعيد توجيهه.

تعودت القول لأجل ذلك: لا أكترث لما يسمى عدم الولاء، لكن ما يهمّني هو أنهم يريدون أن يعودوا بحزب العمال إلى الطرق التي كانت تجعله يخسر الانتخابات. كان يُمكن لمايجور أن يستخدم هذه المنافسة من أجل تأكيد زعامته. كانت المواجهة، بدلاً من ذلك، فوضوية، الأمر الذي عزّز تردُّد المحافظين في تقرير الاتجاه الأساس لحزبهم.

نشرنا في شهر كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٦ وثيقة «الحزب في السلطة»، وهو أمر يبدو إجراءً بريئاً من إجراءات إدارة الحزب، لكنه أنتج في النهاية تغييراً مهماً جداً في طريقة تطوير سياسة الحزب. سبق لي أن قرأت وثائق أصدرتها الحكومات العمالية السابقة، ولاحظت أن العلاقة بين الحزب والحكومة كانت عاملاً ضاراً. عندما كان الحزب يُدعى لممارسة السلطة الحقيقية، كان يظهر على الفور توتّر خطر بين نشطاء الحزب والوزراء. كان الفريقان يخرجان بانقسامات حادة نتيجة هذا الوضع. أراد الحزب «الاشتراكية» الحقيقية المحببة لدى النشطاء، بينما كانت الحكومة تركز على الشعب. كان الجميع يتحركون بسرعة ملحوظة لتأسيس ثقافات سياسية متباينة. أما النتيجة فكانت خيبة أمل الحزب من الحكومة، وهو الأمر الذي كان ينتقل بسرعة إلى الشعب.

أما أسوأ النتائج لهذ الوضع فكان أن هذا الإحباط كان يُترجم بسهولة في البنى الحزبية، وعلى الخصوص في اللجنة التنفيذية القومية لمؤتمر الحزب، التي أصبحت تعادل المراقب الأخلاقي للحكومة، لذلك حاولت الإبقاء على النزاهة والحدود الضيقة. تحول مؤتمر الحزب إلى نقطة محورية للخلاف، وإلى ميدان خصب لمواجهة القرارات التي عادة ما كانت تطلب إلى الحكومة أن تفعل أمراً يعتبر انتحارياً بالنسبة إلى الانتخابات. غيّرت وثيقة «الحزب في السلطة» بفاعلية تلك القواعد بغية ضمان عدم اتخاذ القرارات الروتينية بمجرد وضعها على جدول الأعمال، بل إن هذه يجب أن تكون وليدة عملية مدروسة تتطلب نقاشاً مطولاً وجدالاً معمقاً يدور في مجموعات رسم السياسات، وهكذا تم تقييد سلطة اللجنة التنفيذية القومية بصورة كبيرة. تعيّن علينا حمل النقابات على تأييدنا في سعينا نحو التغيير. كان طوم سوير قيّماً جداً في

هذا المجال لأنه كان نقابياً سابقاً. تقبّل الحزب، وإن مع بعض التردد والمعارضة، هذه التغييرات في مؤتمر العام ١٩٩٦. كانت هذه التغييرات حيوية لنا عندما زادت الأمور صعوبة بعد أن تولينا السلطة.

لا يعني هذا الكلام أننا كنا محصّنين ضد النقد المعتاد والشائعات في الحزب. عمدت في عدة مرات في العام ١٩٩٦ إلى استشارة حكومة الظل كي أتجنّب لجان التوصيات والتسريبات، ومن أجل إيقاف الصدامات الداخلية والتركيز على مواجهة المحافظين. كنت أحاول، في الوقت ذاته، تجنّب الهجمات من اليساريين الذين اتهمونا بالتنازل عن مبادئنا في سعينا نحو السلطة. قررت أن أعترف بكل اتهامات التخلي عن المبادئ والابتعاد عنها قبل وصولنا إلى السلطة. لاحظت أن اليسار قد أحسن تنظيم حملته، وعلى الخصوص ميله إلى الاعتقاد أن الحكم يعني تبني سياسات اليمين، بينما تكون اهتمامات الناس في مكان آخر، كما أن هذه الحملة قد لاقت الاهتمام اللازم بها. توجّهت كذلك برسالة إلى جناحي الحزب والبلاد قلت فيها: لا تنخدعوا أبداً، إننا حزب العمال الجديد، وسنحكم بوصفنا حزب العمال الجديد، وهذه ليست خُدعةً ما. إنه التزام حقيقي، وهو وليد اقتناع. أعلم أن هذا لن يقضي على اتهامات التنكر لمبادئنا، لكنه سوف يحدّ قليلاً من حدّة الهجمات ضدنا ومن قوتها.

تعود روي جينكنز أن يصفني على أنني شخص يحمل إناءً كبيراً وقيماً في غرفة واسعة ذات أرضية زلقة جداً. لم أستطع، ولو للحظة واحدة، أن أسترخي، وأن لا أركّز على حمولتي القيّمة [في الإناء] أو أدع عقلي يلهو عن المهمة الأساسية التي هي بين أيدينا. بذلنا قدراً كبيراً من العناية والجهد من أجل تنظيم المؤتمرات. وأعلنت في العام ١٩٩٤ تغييراً في البند الرابع. أما في العام ١٩٩٥ فقد أعلنا صفقةً مع بريتيش تيليكوم من أجل تحسين المهارات، ويُعتبر هذا ارتباطاً هاماً مع مرفقٍ كبير خضع للخصخصة، الأمر الذي يبعث برسالة واضحة أننا سوف نُحسن معاملتنا مع قطاع الأعمال. حاولت في ذلك الخطاب أن أعبّر عن رغبتي في بدء البلاد سعيها نحو التحديث، وفي التطلع خارجاً وإلى الأمام، كما صغت عبارة «بريطانيا، ذلك البلد الفتيّ»، وهي عبارة سخر منها بعضهم، لكنها عبّرت عن حماستي كي تكتسب

بعض التفاؤل الفتي لبلد يشعر بثقة بمستقبله وطاقاته، ولا يكتفي بتأمل ماضيه وسط مشاعر الحنين.

قلت في العام ١٩٩٦ إن أولوياتنا الثلاث للحكم سوف تكون «التعليم، التعليم، التعليم» (وهو السطر الواحد والوحيد في نوعه الذي أعطاني إياه جوناثان). إن الهدف من وراء التركيز على التعليم هو السعي وراء التعليم في ذاته، لكنه أفاد كذلك في التركيز على طبيعة رؤيتنا لدور الدولة: تعزيز إمكانيات الناس، وليس التحكّم في حياة الناس أو في التجارة. أما في دليل «بريطانيا الجديدة» الذي أصدرناه في العام ١٩٩٦، فقد قدّمنا بوصلةً واضحةً في كل مجالٍ من مجالات سياسة الحكومة. ووضعنا سياسات كي تكون نماذج عن توجهاتنا، لكننا حرصنا على عدم الإفراط في إعطاء الوعود، أو إعطاء تفاصيل كثيرة.

كان غوردون في هذا المجال حليفاً لا يُستغنى عنه. دفعه حذره الطبيعي إلى عدم الموافقة على ترك أي شيء رهناً للظروف، كما أنه أدرك مدى الإغراء الذي يمثله حزب العمال الجديد. صمّم غوردون على أن يُنظر إليه على أنه حذرٌ اقتصادياً، ومناصرٌ لقطاع التجارة والأعمال، لكنه التزم حدوداً معينة على الرغم من أنه كان إلى يساري [سياسياً]، وأعطى مصداقية لمواقفنا المتعلقة بالاقتصاد. وضعت كذلك في العام ١٩٩٥، ماي ليكتور [محاضرتي] بشأن قطاعَي المصارف والمال، وفيها عرضت، بالتعاون الوثيق معه، نهجنا بخصوص الاقتصاد، وشدّدت على التزامنا بالاستقرار. تلقيت مساعدةً من العاملين في لندن [سيتي] الذين أعرف أنهم سوف يتفهمون أن الغاية الأساسية كانت تجسيد الإدراك المتعقل والثابت. نجح الأمر في طمأنة الناس.

كنت أتعلّم في هذه الأثناء التعاطي مع الشهرة. تحولت، وعلى نحوٍ مفاجئ، إلى واحدٍ من أكثر الوجوه المعروفة في البلاد. لمست كذلك اهتماماً كبيراً بحزب العمال الجديد من الخارج. تحدثت وسائل الإعلام عنا كثيراً بوصفنا عائدين إلى السلطة، وهكذا تحوّلنا إلى «الموضة السائدة».

بقي عندي في حياتي الخاصة، على الرغم من كل ذلك، رابط مع الواقع في حياتي اليومية. لم تواكبي وقتئذ مرافقة أمنية. قمتُ بإيصال الأولاد إلى المدرسة في

معظم الأيام، وتمكّنت من الاستمرار في الخروج وتناول الطعام، ورؤية أصدقائي، وأن أكون لوحدي مع عائلتي. كنت مشغولاً بكل تأكيد، وكانت المسؤولية الملقاة على عاتقي كبيرة، لكنني حملتها بيسر. بدوت شاباً على نحو غير معقول، وبدأ الناس يوقفونني في الشارع كي يتحدثوا معي. أتذكر ذلك كله وأعتبر تلك الأيام مباركة، مع أنني لم أنظر إليها كذلك حينذاك.

تكيّفت شيري والأولاد على نحو رائع، لكن من السهل على المرء أن ينسى كم تغيّرت حياتهم. وبدأ زملاء أولادي ينظرون إليهم بطريقة مختلفة. استمروا، لحسن الحظ، في الذهاب إلى المدرسة ذاتها، كما تابعنا، كعائلة واحدة، الذهاب إلى الكنيسة ذاتها، وهي سان جان دارك في هايبيري القريبة من ملعب آرسنال في ذلك الوقت. كانت الوجوه لا تزال مألوفة، وعلى الرغم من أن الناس بدأوا ينظرون إلينا على نحو مختلف، إلا أن العائلات التي كانت مقربةً منا ظلّت كذلك. أضفت هذه العائلات جواً طبيعياً على حياتنا، كما أن أصدقاءنا فضّلوا أن يظلوا بعيدين عن السياسة، الأمر الذي أشاع جواً من الارتياح بيننا وأبعدنا عن ضغوط العمل.

قررت شيري تعديل صورتها. خفضت وزنها، وحسّنت مظهرها، وبدأت تنظر إلى نفسها على أنها شخصية معروفة جداً كما هو الواقع. قدّمت لها كارول كابلين مساعدةً عظيمةً في هذا المجال، كما فعلت الشيء ذاته معي عندما أصبحت اللياقة البدنية أمراً يتجاوز المظاهر. قدمت كارول مساعدة عظيمة إلى شيري، وجعلتها تبدو مرتاحة عندما انتقلت فجأة من عالم (مهنة المحاماة) إلى آخر (الصحافة الشعبية).

هوجمت كارول من قِبل وسائل الإعلام بعد فترة عندما أقامت علاقة مع بيتر فوستر، وهو رجل مخادع. خصّصت الصحف لها صفحاتٍ كثيرة، اشتملت على قصص مختلقة كلياً، وما لبثت بعد ذلك أن أصبحت موضوعاً دائماً لها، وخصوصاً خرافة استحمام شيري وكارول معاً.

دُهش العاملون في مكتبي بهذا الوضع، لكنهم كانوا مستائين عموماً من كارول. أما ألاستر فلم يتمكن، على الخصوص، من فهم دورها الذي انتقده بشدّة. قال، مع بعض الحق، إن السياسة لا مكان لها بالنسبة إلى شخصية غريبة ولاسياسية مثل كارول، لكن ذلك كان، على الصعيد الشخصي، سبب اعتباري أنها مفرحة جداً.

كان آلاستر مقتنعاً أنها ستتمكّن من إقناع الناس بها. لكن لم تتمكن من ذلك. غير أنها ظلت محترمة على الرغم من كل محاولات النيل من سمعتها. وبعكس كل الصور المشينة والخبيثة التي اختلقت عنها، فقد كانت لطيفة، ومحترمة، ومجدّة في عملها، وفوق كل شيء لامعة في كل ما تفعله. أما علاقتها مع فوستر فكانت غلطةً كبيرة، لكنها لم تكن فاسدةً، أو ناتجةً عن دوافع سيئة، بل كانت نتيجة رفضها الشديد للمساومة مع آراء الناس بالآخرين من الناس. كان الناس على حق في هذه النقطة، بينما كانت هي على خطأ، لكن ذلك الرفض في التماشي مع الناس قد جعلها مبتكرة ومبدعة في عملها، كما جعل منها صديقة طيبة، وإنسانة مؤتمنة على أسرار شيري.

عندما نشرت جريدة صن قصة تورّط كارول مع شيري في العام ١٩٩٤، كان من الأفضل أن نعترف بكارول، وأن نكون صريحين وداعمين لها. لكننا، بدلاً من ذلك ولأسبابٍ مفهومة بالنظر إلى قلقنا بشأن مركزنا وخوفنا من إثارة جدل كبير، عمدنا إلى تخبئتها في منزلٍ آمن. زاد هذا التصرف، وبطبيعة الحال، من الغموض الذي يصاحب أخبارها.

كانت المشكلة، كما تعودت أن أقول للناس المقربين مني، هي أن معرفة الناس بي كانت أشبه بالإصابة بعدوى. تحوّل أصدقائي بسرعة إلى أهداف، كما عمدت الصحف المعادية إلى محاولة استهداف أناسٍ مقربين مني عندما كانت تفشل في استهدافي. أما الواقع فهو أنه يسهل كثيراً رسمٌ صورة غريبة لأي شخص، أو السخرية منه، إذا ما حاولت وسيلة إعلامية التجسّس على حياته بقسوة.

كان المزيد من هذه الأمور بانتظارنا فيما بعد، وفي تلك السنين التي سبقت تحقيق فوزنا في الانتخابات كنا نعمل بجدّ، لكن كانت الظروف تعاكسنا. كنا مستعدين جيداً كأحسن ما يكون، لكن ضمن معوقات المعارضة وحدودها. توصّلت مع ذلك إلى اقتناع حازم بأن تلك المعوقات والحدود تشكل أضراراً كبيرة لنا. كانت تنقصنا أمور كثيرة تتعلق بما هو مطلوب منا عندما يصل الحزب إلى الحكم بعد تلك الفترة الطويلة التي أمضاها في المعارضة. لا يتعلق الأمر بفهم آلية الحكم، لأن أهم ما فيه هو معرفة تعقيدات رسم السياسات، والإدارة المالية، وتحديد الأولويات. ولا شك في أن معرفة تركيبة اللجان، والمسارات الحكومية الأساسية والفرعية، هي أمور مهمة لكن الأهمّ هو معرفة كيفية التركيز في التفاصيل الأساسية المتعلقة بالتحضير لتنفيذ

سياسة ما، الأمر الذي قد يبدو سهلاً إدخاله في البيان الحكومي، لكن عندما يُنظر إلى الأمر على ضوء الواقع اليومي فقد يظهر مدى صعوبته الشديدة. تميل الأحزاب إلى امتلاك معلومات غير كافية عن طبيعة تعامل اللجان المختلفة مع الأموال العامة.

كنا واضحين وحازمين تماماً فيما يتعلق بتوجيه سياسة الحكومة، لكن كانت تنقصنا التفاصيل، وعلى الرغم من كل ذلك كنا ممتازين جداً كماكينة انتخابية. كنا ماهرين في هذا الشأن، لذلك عندما دعا جون مايجور إلى إجراء انتخابات كنا جاهزين ومترقّبين. لم نعرف ماذا يخبئ المستقبل لنا بعد فوزنا في أقلام الاقتراع، كما أننا تمكنا من تكوين زخم دائم استعداداً له.

الفصل الرابع
شهر العسل

تعاني أي حكومة جديدة افتقاد الخبرة في الحكم. لكن هذه السمة بالذات تُعتبر حسنةً في الوقت ذاته. إن براءة الحكومة الجديدة، وعدم نضجها، وغياب الاستهتار الناتج عن قضاء فترة طويلة في وحول الحكم الفاسدة، تعطي هذه الحكومة القدرةَ على تحقيق أشياء ممكنة التحقيق. لم أفقد قط شعوري بالتفاؤل منذ البداية حتى النهاية، لكن لا يُمكن للمرء أن يتجاهل ذلك الشعور بالحيوية والانطلاق والجرأة التي تترافق مع انتخاب فريقٍ جديد، ولاسيما بعد فترة ثمانية عشر عاماً من حكم الحزب الواحد.

عندما أتذكر ما فعلناه في بداية تلك الأيام الهادئة أستطيع القول إنها كانت في منتهى الأهمية. لم تكن أعمالنا تلك وليدة الجهل، وبغضّ النظر عما قاله الناس، فإنني لم أفقد الدافع للحذر من الرضا [السلبي] عن الذات، أو لكي أعترف أن السيّد الحقيقي هو الشعب. كان شعوري هذا وليد رغبتي المطلقة والحقيقية في دفع البلاد إلى الأمام. فكرنا في أمورٍ مستحيلة [أو غير معقولة]، وفعلنا ما لا يُفعل، أما الأمور التقليدية فقد أصبحت مجرد عوائق ينبغي التخلص منها، وكل ما هو تقليدي بات موضةً قديمة.

أقلقني كثيراً أحد أوائل القرارات التي اتخذتها، لكني فكرت في نفسي، فليكن

ما يكون، لأنني سأتخذ هذا القرار. كانت جلسات استجواب رئيس الوزراء محدّدةً بجلستين في الأسبوع، عند الساعة الواحدة والربع من يومَي الثلاثاء والخميس، ولمدة ربع ساعة. كان ذهني ينشغل في صباحات تلك الأيام بالتفكير في المناورات والفرص والمصائد التي قد تحملها اللقاءات التالية، وذلك حتى ولو كان برنامجي يشتمل على مناسبة أخرى. كانت هذه اللقاءات تنتهي عند الساعة ٣:٣٠ من بعد الظهر، وكانت تراودني تساؤلات عن كيفية سير اللقاء، ومن كانت له اليد العليا في النقاشات، وماذا كانت أمزجة النواب غير المشاركين في الحكومة. أنبأني الجانب العقلاني مني بأن الأمر ينتهي، وعادة ما كان يُنسى، في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة، لكن الجانب العقلاني كان غائباً عن كل اجتماعات استجواب رئيس الوزراء. كانت هذه الاجتماعات خزاناً لكل ما هو غير عقلاني في العاطفة، والفكر، والسياسة. كنت أتخيّل ما يعنيه الأمر أن يكون المرء رئيساً للوزراء، حتى عندما كنت زعيم المعارضة وأطرح تلك الأسئلة اللعينة، وكان ذلك هو ما يسيطر على أفكاري.

فكّرت في شيء كان في منتهى الوضوح بالنسبة إليّ مع أنه قد يبدو عادياً جداً: إن أحد الأمور الأساسية للقيام بوظيفة رئيس الوزراء، أو الرئيس، هو تنظيم الوقت. يتمتع هذا الأمر بأهمية بالغة. أيمكنك أن تريني رئيساً غير فعّال، كي أريك جدولاً غير منظّم بالمرة. لا يتعلق بعدد ساعات العمل. أعرف أن هناك رؤساء يعملون وقتاً مبالغاً فيه، أي ثماني عشرة ساعة في اليوم ولفترات طويلة. يتعلق الأمر بما إذا كان الوقت يُستخدم بالطريقة المناسبة.

يتعيّن أن يعتمد برنامج العمل على القرارات التي تحدد الحكم، وعلى الوقت المحدّد لاتخاذها. يتعيّن كذلك أن يكون الروتين الرسمي الضروري محدداً بالنسبة إلى القرارات الحيوية ما دام ذلك ممكناً. كان من الأمور الأولية التي أقدمت عليها آنجي عند وصولي إلى الرقم ١٠ [مقر رئاسة الوزراء] وقف الغداءات الرسمية. أعتقد أنني لم أقِم أكثر من ثلاثين من هذه الغداءات، بما في ذلك مآدب الغداء الرسمية الإلزامية، طوال فترة إقامتي في داوننغ ستريت. لم تكن مآدب الغداء الرسمية ضروريةً في معظم الأوقات. يعتبر المضيف هذه المآدب على أنها مجرد روتين، وأنا أقول إن الضيوف يعتبرونها كذلك. يتناول المرء الطعام في وقتٍ متأخر، وعادة ما يكون الطعام إما دسماً جداً وإما محضّراً على نحو سيئ. أعتقد أن ليس هناك من

أمر أكثر تعذيباً في السياسة من إلقاء خطاب بعد تناول العشاء. أما إذا كان الخطاب يتعلّق بالعمل فمن الأفضل أن تلقيه في اجتماع قبل خمس وأربعين دقيقة من تناول العشاء. ستتمكن بعد ذلك من الخروج مع عائلتك، ويستطيع ضيوفك الخروج مع أصدقائهم أو مرافقيهم المقربين، وهكذا يتمكنون من الاسترخاء، ويشعر الجميع بسعادة ما عدا البروتوكول. إن وجود بروتوكول راضٍ هو علامة شبه أكيدة لحكومة تُدار بطريقة سيئة.

إن إيجاد الوقت لأي رئيس هو مهمة شبه مقدّسة. إن الشخص الذي يتولى هذه المهمة هو أحد أهم أعضاء فريق العمل، وهم الذين يتعين عليهم أن يكونوا صارمين تماماً في قول كلمة لا. ويتوجب على الرئيس أن يكون هو من يُظهر اللطف. أما إذا التقيت شخصاً ما وطلب منك موعداً كي يلتقيك فإنك سوف توافق بكل تأكيد. وماذا يمكنك أن تقول؟ أيمكنك أن تقول لذلك الشخص: «أنت ممل جداً، ولست مهماً على الإطلاق، وليس لديك أي شيء مهم كي تقوله»؟ بالطبع لن تتصرف على هذه الشاكلة. سيتعيّن عليك أن تقول نعم. لكن مهمة منظم البرنامج أن يقول لا. سيقول ذلك الشخص: «لا، لقد وافق على لقائي». سترد عليه بكلمة لا. وسيقول حينئذ: «لكنه قال إنه يريد أن يراني». كلا. «لكنه قال لي إنه سوف يتصل بي شخصياً لتحديد موعد اجتماع». كلا. «لكن...» لا.

وضعت عبارة في مكتبي بشكل ساخر وصارم، وهي «SO» وهي اختصار لكلمتين معناهما «تصرف غير مقبول «sackable offence»». تنطبق هذه العبارة على تحديد موعد اجتماع مع أشخاص لا يُفترض بهم أبداً عبور عتبة المكتب. وتنطبق كذلك حتى ولو وافقت على الاجتماع بذلك الشخص. أخجل أن أقول إنها تنطبق كذلك حتى ولو عبّرتُ أمام ذلك الشخص عن خيبة أملي العميقة لأن هيئة مكتبي قد تحدت رغبتي ولم تحدّد موعداً للاجتماع.

أعرف أحد قدامى رجال حزب العمال المحترمين الذي تعود أن يراني من أجل إعطائي «نصائح قيّمة». كان رجلاً محبباً بالفعل. عبّرت، بطبيعة الحال، عن رغبتي الشديدة في رؤيته. كانت كايت، مساعدتي الشخصية، التي كانت إنسانة معارضة [تجيد قول كلمة لا] بشكل فعال. غابت كايت لسبب أو لآخر، ولهذا السبب كلّفت امرأة أخرى كي تحرس المدخل موقتاً. جاء ذلك الشخص كي يراني. مضت نحو

ثلاثين دقيقة على إعطائه نصائحه الضرورية. شعرت بالضجر، وما لبثت الحارسة الموقتة أن أدخلت رأسها من خلال المدخل وقالت: «انتهى الوقت».

قلت: «آه، حقاً. يا للأسف. كنت أستمتع بالحديث فعلاً».

قالت: «حسناً، في هذه الحالة يمكنني أن أترككما لنصف ساعة أخرى لأن برنامجك قد تغيّر».

تُعتبر الأسئلة الموجهة إلى رئيس مجلس الوزراء ذات جاذبية وأهمية كبيرتين. استنتجت من مشاهدة جون مايجور أن المجهود الجسدي والفكري الذي يستلزمه تحضير كل جلسة التي تعقد مرتين في الأسبوع، وتستغرق خمس عشرة دقيقة، يستغرق النهار برمّته، أي الصباح والقسم الأول من المساء. أما الاجتماعات، في حال عُقدت، فلم تكن تستلزم التركيز الكامل، لأن الوقت المتأخر من المساء وأوقات الصباح الأولى كانت تمضي في التفكير في ما حدث. كانت جلستا استجواب رئيس الوزراء تساويان يومين كاملين، وهو وقت كبير.

وضعتُ خطةً قبل الانتخابات، وتحدثت في البيان الوزاري، ولربما على نحو مراوغ عن هذا الأمر، وعن «جعل جلسات استجواب رئيس مجلس الوزراء أكثر فاعلية». تقضي الخطة بتحويل الجلستين إلى جلسة واحدة تستغرق ثلاثين دقيقة. ربما لا يُعتبر هذا تغييراً كبيراً، لكني أقول لك هذا كان ثورةً في مجال توفير الوقت. أعرب، ولحسن حظي، بادي آشداون وهو رئيس الديمقراطيين الأحرار عن تأييده لي، وللإصلاح، وهكذا شعرت بالارتياح وأعلنت القرار الذي طبّق على وجه السرعة. أعتقد أن هذا الأمر ما كان ليتحقق لو أُخضع للنقاش، لكني كنت محظوظاً لأننا كنا حكومة جديدة وكذلك كان المحافظون في حالة تراجع.

عندما أصبح روبين كوك رئيساً للعموم في وقتٍ لاحق أقدم على تحويل جلسة النصف ساعة إلى ظهيرة يوم الأربعاء. كانت التحضيرات تبدأ في الليلة السابقة حتى تكون صبيحة الأربعاء حرة، وهكذا أصبحت الجلسة فترةً من الاستيعاب الكامل مع أنها كانت محدودة المدة. كان هذا الكابوس ينتهي عند ١٢:٣٠ من بعد الظهر. كان ذهني يتحرر في منتصف وقت الظهيرة، هذا إذا سار كل شيء على ما يرام، وهكذا

يبقى يوم الخميس خالياً من أسباب القلق كافة. ربما يُعتبر ذلك إصلاحاً طفيفاً، لكنه كان حيوياً بالنسبة إلى حسن سير عمل رئيس الوزراء.

اشتمل الأمر على بعض السلبيات، لأن مدة خمس عشرة دقيقة قد تبدو وقتاً قصيراً جداً، لكن هذا الوقت لا يبدو قصيراً جداً عندما تقف أمام جمهورٍ غاضب يحتشد أمام الصندوق الأحمر [الذي يحتوي على الوثائق الرسمية للحكومة البريطانية]، وخصوصاً إذا كان المخرج صعباً، بينما تُطرح «قضية اليوم» التي تتمحور حولها الأسئلة.

كانت جلسات استجواب رئيس مجلس الوزراء متعبةً للأعصاب، ومحرجة، ومثيرة للتوتر، ومقلقة، ومثيرة للهلع، وتجربة تستنزف كل ما لدى المرء من جرأة، ومن دون شك، في حياة رئيس الوزراء. لا بدّ من أنك تتذكر ذلك المشهد من فيلم رجل الماراثون حيث يشرع الطبيب النازي الشرّير، الذي يلعب دوره لورنس أوليفييه، في حفر أسنان دوستين هوفمان. كنت على استعداد لمقايضة ثلاثين دقيقة من أسئلة استجواب رئيس الوزراء بثلاثين دقيقة من الحفر، وذلك بحلول الساعة ١١:٤٥ من صباحات أيام الأربعاء.

دعنا الآن نستعرض بعض الأساطير. عندما أصف هذه التجربة للأميركيين، الذين يبدو أنهم يحبون مشاهدتها، مثل اليابانيين، وذلك لسبب لا أعرفه، يقولون أحياناً: «أوه، لكنك تبدو وكأنك تستمتع بها كثيراً». أقول لئن بدا وكأنني أستمتع بها فذلك هو مجرد تمثيل متقن. إنني أكرهها. ربما يقول بعض الناس أحياناً: «ظهرتَ مسترخياً جداً في جلسة الاستجواب هذا اليوم». أما الحقيقة فهي أنني لم أكن مسترخياً ولا للحظةٍ واحدة، ولم أشعر إلا بزيادة تدفق الأدرينالين في دمي.

أخشى القول إن هذه الجلسات هي طريقة عظيمة لمواجهة رئيس الوزراء بالمسؤولية. تفترض هذه النظرية أن أولئك الذين يطرحون الأسئلة مهتمّون أكثر بمعرفة الإجابات عنها. لكن الحقيقة هي أن الأمر برمّته ليس أكثر من مبارزة كبيرة، أي إنه نوع حديث من المبارزة غير الجسدية. تشتمل الأسلحة المستخدمة في هذه المبارزة على كلمات، لكني أقسم إنها تُحدث الضرر بدرجةٍ مدمّرة. يُوضع رئيس الوزراء خلال الثلاثين دقيقة هذه في منطقة الخطر. إن عدم التمكن من توقع الأسئلة هو أمر مرعب جداً. يعمد نواب حزبك، بكل تأكيد، إلى إعلامك بالسؤال، لكن

بالنسبة إلى الآخرين تعتبر الجلسة رياضة مطاردة دموية يكون رئيس الوزراء فيها هو الطريدة. أما إذا سار كل شيء على ما يرام فإنك تشعر بالراحة، أما إذا كان الأمر على العكس من ذلك فإنك لا تشعر بالحزن فقط بل بالإهانة. لا أعتقد أن هناك مكاناً يُشعر المرء بالبلادة التامة أكثر من مجلس عموم حاشد.

لا يتمكن المرء من معرفة ماذا سيحدث. أظن أحياناً أنني أعرف موضوع اليوم، ولذلك أقوم بتحضير عدة إجابات عنه، وأعتقد أن الظهيرة ستكون مقبولة. كنت أجد نفسي مترنّحاً بعد دقائق قليلة بسبب ارتكابي غلطة تخرق القواعد الاجتماعية، أو حماقة تكتيكية تجعل المكان يضجّ بالصراخ الغاضب، أو ما هو أسوأ من ذلك، بالاستياء. يستغلّ الآخرون لحظات كهذه فيشعرون برغبة في الاستمرار بدفع الموضوع إلى أعماقٍ أخرى. تتحول ردودك في هذه الحالة إلى إجابات طويلة وتصبح أكثر تعقيداً، بينما تشعر بميلٍ إلى الصراخ، فيصطبغ وجهك باللون الأحمر، وهكذا تتقلص حججك وتصبح أبسط بكثير. تتطلع ذات اليمين وذات الشمال، وتتمنّى أن يعطيك نوابك بعض الدعم، وما تلبث أن ترى نظرة الحرج في وجوههم. ما إن تجلس حتى يبدأ بعض الموالين المتشددين بالهتاف الذي ما يلبث أن يتلاشى في تمتمات معتذرة. أما في مكان قريب في الردهة، وعلى مسافة طول سيفين، أي عندما كان النواب يحملون السيوف، فإنك تشاهد وجوه النواب المعارضين الشامتة وقد أظهرت كل ملامح الغبطة والامتنان.

تعودت الأمر فيما بعد، ولم يعد عندي مشكلة مع معظم هذه الجلسات، لكن الرهبة لم تختفِ ولو للحظة واحدة. إنني أشعر، حتى هذه الأيام وأينما كنت في هذا العالم، بقشعريرة عندما تعلن عقارب الساعة ١١:٥٧ صباحاً في أيام الأربعاء، وأشعر بما يشبه الوخز في رقبتي، وبتسارع في نبضات قلبي. كانت تلك هي اللحظة التي يأخذونني فيها من غرفة رئيس الوزراء في مجلس العموم إلى القاعة ذاتها. تعودت أن أسمّي هذا الوضع بالمسير من الزنزانة إلى ساحة الإعدام.

كنت أصل إلى مجلس العموم عند حوالى ١١:٣٠ صباحاً، وذلك بعد تمضية الصباح برمّته في مكتبي في داوننغ ستريت في تفحص الأوراق، وفي تقرير التكتيكات والاستراتيجيات. كنت أتخذ القرارات في آخر نصف ساعة، وأتلقى

الإجابات، كما كنت أتلقى آخر المعلومات بشأن حدثٍ طارئ. أما أسوأ ما في الأمر فقد كان الأحداث التي تطرأ عند العاشرة أو حتى الحادية عشرة صباحاً. وكانت المعلومات تتعلق عادة بإحصاءات من نوعٍ أو آخر، أو بشيء غير مناسب قاله أحد الوزراء. يُمكن أن يتم الاستشهاد بسطرٍ مّا، أو تُعطى حقيقة ما، مع أن الحقائق الكاملة قد لا تُعرف. إن الخطأ الذي يرتكبه رئيس الوزراء في تلك المصيدة ليس مجرد خطأ، إنه خداع مقصود سرعان ما تُثار حوله ضجة كبيرة.

امتلكت في النهاية «كارزما» أفضل بكثير عن طريق هذه الجلسات. تحولت إلى رجلٍ أكثر جرأة وأدركت أن في النهاية يتحتمّ عليّ مواجهة الشياطين. لم تنفع الصلواتُ في الليلة التي تسبق الجلسات، وانتعال الحذاء المناسب (استمررت في انتعال الحذاء المتين ذاته لمدة عشر سنين، وهو من ماركة تشرش)، ولا مجرد التمني أن تمرّ الجلسة بسلام. قررت أن أحلّل الوضع، وأن أحاول كيفية الانتهاء منه بأفضل ما يمكن.

أتذكر عندما كنت طالباً في المدرسة ممارستي هواية الملاكمة، التي كانت إلزاميةً في المدرسة. كنت أكره هذه الهواية، ولم أتمكّن من معرفة الغاية منها، من فهم إغرائها. خفت كثيراً في الجولات الأولى. لم أرغب في إصابة خصمي، كما لم أرغب أن يصيبني هو. كان كل ما أتمناه هو أن تنتهي الجولة. قررت بعد مرور وقتٍ ما أن ألاكمَ بالطريقة الصحيحة، وأن أثبت في مكاني وأواجه. فعلتُ ذلك بدافع الخوف، لكن مع التصميم اللازم. قررت إما أن أرفض الملاكمة وإما أن لا ألاكم بالمرة، وهو ليس بالأمر السيئ، لكن أن لا أفعل ذلك بجبانة. لم أحب الملاكمة قط، لكني أحسستُ بأنني أحترم نفسي أكثر.

طورت بمرور الزمن نمطاً للتعامل مع جلسات الاستجواب هذه. بدأ الأمر مع التصميم على أن أكون أكثر جرأة، وأن أثبت في موقعي وأواجه بوعي. يُمكن للخوف، بوصفه حافزاً، وإذا كان بالنِسب الصحيحة، أن يبقيك واقفاً في مكانك. أما إذا كان ذلك الخوف هو من النوع الذي يدفعك إلى الهلع فهو سيئ برمّته. لم أتمكن في البداية من النوم على نحو سليم في الليالي التي تسبق الجلسة، أو حتى أن آكل أي شيء في الصباح. كان أول أمرٍ أدركته هو أن يكون المرء في لياقته الصحية المناسبة بالإضافة إلى حالته الذهنية السليمة، وهكذا غيّرت الروتين الذي أتبعه. كنت

أتناول حبة ميلاتونين في الليلة التي تسبق الجلسة من أجل التمتع بست ساعات من النوم. وحرصت على تناول الفطور المناسب وذلك قبل بدء هذه الجلسة المحنة، كما كنت أتناول موزة كي أمنح نفسي بعض الطاقة. بدا الأمر سخيفاً، لكني لاحظت أن مستويات طاقتي، وبالتالي حيويتي الذهنية، كانت تنخفض بعد مضي عشر دقائق. لكن الأمر أعطى نتيجة هامة لأنني كنت عند الساعة ١٢:٢٨ لا أزال منتبهاً للمخاطر، ومستعداً لردّ الهجمات.

ثانياً، واجهت طبيعة الخوف. يبدو الخوف بمظهر المغفل، ولهذا يسهل التغلب عليه. أما طريقة مواجهته فلا تقتصر على إتقان الحقائق، بل إتقان استراتيجية الجدال. إن الحقائق المناسبة التي تمحص بالطريقة الصحيحة هي ضرورية جداً بطبيعة الحال. ما إن قطعت شوطاً في هذه الجلسات حتى توافر لديّ فريق ذو مواهب عظيمة، وكان هذا الفريق في البداية برئاسة كلير سومنر التي تتمتع بحيوية فائقة، ثم ترأسته بعد ذلك كايت غروس التي تتمتع بموهبة رائعة في التنظيم وهي سيدة المناسبات. أما مستشارتي الخاصة الأساسية فكانت كاثرين ريمر، التي كانت رئيسة لامعة للأبحاث، وكانت تتمتع بقدرة ممتازة على الإلمام بالتفاصيل (قدّمت خدمات قيّمة أثناء التحقيق في قضية هوتون). كان آخر رئيس للفريق هو نيكولا هوارد، ذلك السيد الرائع المسؤول عن ملف جلسات رئيس مجلس الوزراء. أعطاني الفريق بأسره الثقة بأن الأساس الواقعي للجواب هو الأمر الصحيح. إن المكوّن الأخير للفوز ليس الحقائق في ذاتها، بل كيفية استخدامها. يمكننا النظر إلى الحقائق على أنها الحصان، والدروع والرمح، أما المهارة فهي في استخدامها بالفاعلية القصوى، أي تخمين خط الهجوم، وفي وضع طريقة المراوغة، ثم رسم خطة الهجوم المضاد.

أما في اليوم السيئ، أي عندما لا تكون هناك قضية رابحة، وهذا ما حدث معنا مرات قليلة، فأفضل ما يفعله المرء هو المواجهة من أجل التقليل من آثارها، لكن في يوم حسن أو عادي فيتعيّن على المرء أن يعمل من أجل الفوز. يعطي الفوز الثقة لمناصريك، ويرفع من معنوياتهم، ويجعلهم يفكّرون في مستقبل لامع. يتعزّز موقفك في هذه الحالة. أما الخسارة فلا تقتصر على أنها غير مشرفة لكن من شأنها إيذاء معنوياتك. أما إدارة جلسات استجواب رئيس مجلس الوزراء بطريقة سيئة فتضع رئيس مجلس الوزراء في دائرة الخطر.

تعودت في الليلة السابقة على الجلسة أن أدرس الملفّ الذي يحتوي على كل الإجابات المحتملة كافة عن الأسئلة كلها التي يُحتمل طرحها. أما المجالات ذات الوقائع المعقّدة بالفعل فقد كانت تُدرس من دون الاكتراث للضغوط الشديدة التي يجلبها معه صباح الأربعاء. كنت أنتهي من تلخيص مجالات الاستجواب الأكثر احتمالاً عند حلول الساعة الثامنة صباحاً، وأجلس بعد ذلك مع كراسة أوراق كي أحدّد خطوط النقاش. يحدث في بعض الأحيان أن تنطلق أفضل العبارات خلال جلسة الاستجواب، لكن هذه الأمور كانت نادرة الحدوث أثناء ولايتي. ولا يستطيع أحد أن يتكلم ببراعة أكبر كما يفعل عندما تُشحذ بلاغته، وتهذّب، وتُنشأ، وتفكك، ويُعاد إنشاؤها في الخصوصية التي توفّرها قاعة الانتظار.

تعلمت بهذه الطريقة، وبمرور الزمن، كيفية التخلص من موقف الدفاع والتحوّل نحو الهجوم. سمح لي هذا الأمر بتحليل الحجّة التي كنت أعدها عن طريق عرض الحقائق، وكنت أتساءل هل هي قابلة للصمود والإقناع، وكيف سيتقبلها نواب الحزب وكذلك أنا؟

اكتشفت كذلك قوة المرح، والضوء، والظلال. كان جون سميث هو أول شخص أراه يستخدم المرح بدرجة رائعة من الفاعلية في المجلس، وكذلك في هجومه الكاسح على جون مايجور خلال مناقشة قضية آلية أسعار الصرف. كان غوردون رائعاً بدوره في أوائل أيامه في استخدام ذكائه في الهجوم على سياسة المحافظين الاقتصادية، وذلك عندما مثّل جون في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي. استخدم حينئذ بعض النقاط ضد نيجيل لاوسون وفريق خزانة المحافظين، التي كان من شأنها إثارة استحسان حزبنا. يمكننا أن نكون، وكثيراً ما كنا، ضعفاء في الجدال، لكن من المدهش كيف يمكن للمرء أن يغطي نقاط ضعفه بالتوقيت المناسب للسخرية، وسرعة البديهة الحكيمة. كنت أميل لأكون أكثر صراحةً مثلما هو المحامي الذي يدافع عن قضية، إذ إنني كنت أمتلك حساً بالمرح، لكني احتجت إلى الثقة باستخدامه.

تعلمتُ كيفية إرباك خصمي إلى حدّ قهره تماماً. أما إذا أظهر خصمك الغضب فعليك أن تُظهر الاعتدال. وإذا ما اختار الذهاب إلى الذروة فعليك التحدث بصوت التعقل. إذا أهانك الخصم، فالأفضل أن لا تنظر إليه نظرة استياء، لكن نظرة إشفاق.

أنظر مباشرةً إليه عندما تتعرض للهجوم، وتفحص وجهه، وثبت نظراتك في عينيه بدلاً من أن تتطلع من حولك بقلق.

أدركتُ في النهاية أنني إذا تصرفتُ على نحو سيئ فسيتعيّن عليّ أن أنصرف. يسهل قول ذلك لكن يصعب تطبيقه. أما عندما أنتهي من إحدى هذه الجلسات على نحو سيئ فإن العودة من قاعة الجلسة تكون سيئة مثل الوصول إليها. كنا نخصّص بضع دقائق بعد الجلسة من أجل معالجة أي قضايا هامة. كان الفريق المسكين يجد صعوبةً على الدوام عندما أخطئ في إدارة الجلسة. كانت خيبة الأمل ترتسم على وجوههم حتى ولو حاولوا السيطرة عليها. كان جوناثان باول في العادة هو الوحيد الذي ينطق بالحقيقة. كان يقول بمرح: «نشكر الله إذ لا مزيد هذا الأسبوع من هذه الجلسات» هذا في وقت كان الآخرون يتمتمون بالقول إنها كانت متعادلة بالفعل، أو إنها كانت ممتازة.

تحولت الجلستان الأسبوعيتان إلى جلسة واحدة في مطلع شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٧. لم أندم قط على ذلك القرار، وأعتقد أن رؤساء الوزراء الذين سيأتون من بعدي سيشكرونني على هذا الإجراء!

أما القرار التالي فكان ذا طبيعة مختلفة تماماً. شعرت أنا وغوردون قبل أشهرٍ قليلة من الانتخابات بميلٍ إلى تحويل صلاحية السياسة المالية، وعلى الخصوص تحديد نسب الفائدة، إلى مصرف إنكلترا. أما ما يدعى «استقلالية» المصرف فقد أثار جدالاً أكاديمياً، واقتصادياً، وسياسياً لعدة عقودٍ من الزمن.

لم أشكك قط في صوابية هذا القرار. سبق لي أن اقتنعت منذ وقتٍ طويل أن السياسيين إذا استمروا في تحديد أسعار الفائدة فسوف يربكون الاقتصاد والسياسة، وسوف يخلطون بين الآجال الطويلة وتلك القصيرة، وبين ما هو مناسب وما هو أنسب. شهدت هذه اللعبة التي لعبتها الحكومات عندما كانت تقيس بعناية حركات نسب الفوائد بحسب الدورات الانتخابية. كان الجميع يعرفون ما يحدث وأسبابه. كانت النتيجة أن دفعت البلاد ضريبةً سياسيةً نتيجة نسبة الفائدة. أما المقارنة بالمصارف الأوروبية المستقلة، وخصوصاً المصرف الألماني، والاحتياط الاتحادي الأميركي، فكانت مفيدة وبليغة.

أما القضية، كما كنت أقول مشكّكاً في نواب الحزب والخبراء الجديين الذين عارضوا هذه الفكرة، فلم تكن ما إذا كان حاكم المصرف شخصاً أكثر ذكاء من وزير الخزانة. ربما يكون، أو قد لا يكون، شخصاً أكثر ذكاء. لكن عملية اتخاذ القرارات في المصرف تتطلب موضوعية كبيرة. تحدثت عن هذا الموضوع مراراً مع روي جينكنز. كان غافين دافيس يعمل في ذلك الوقت في مصرف غولدمان ساكس، ومع شخص آخر تعودت استشارته في المواضيع الاقتصادية، وكان الرجلان مقتنعين ومقنعين بفوائد هذه الخطوة. عرفت نيجيل لاوسون، وهو وزير خزانة أعجبَ به بالفعل، وقال إنه مع هذا القرار. شكّلت هذه المواقف ردوداً سريعة رائعة على أولئك الذين يشككون في أهلية الحكومة العمالية المقبلة لإدارة اقتصاد البلاد. امتلكنا أسباباً جوهرية تدفعنا إلى تقديم السياسات بعيدة المدى على السياسات قصيرة المدى، وعلى الرغم من ذلك كانت هناك أسباب سياسية وجيهة تدعونا إلى اتخاذ هذا القرار.

وصل غوردون إلى الاستنتاج ذاته، وهكذا وافق عليه فور اقتراحي له. لكن تناقشت وإياه حول الوقت المناسب لإعلانه، فبينما فضّلت أنا القيام بهذه الخطوة قبل الانتخابات من أجل تعزيز مصداقيتنا في تنظيم الاقتصاد، شعر هو بأن هذه الخطوة هامة جداً بالنسبة إلى حركة الأسواق، ولذلك يجب أن نتخذها بعد الانتخابات مباشرة، وهو اقتراح وافقت عليه في نهاية الأمر.

أعلن غوردون القرار في ٦ أيار/مايو. سارت الأمور على ما يرام، كما عبّر التجار والأسواق عن إعجابهم به. أما المحافظون فقد عارضوه، لكنهم لم يكونوا في موقع إثارة مشكلة بشأنه، وكان الأمر سينطبق علينا إذا ما انعكست الأدوار. كانت تلك لحظة هامة بالنسبة إلي، لأنها لم تحدد فقط نهجنا تجاه السياسة الاقتصادية، لكنها أوضحت أن نهجنا تجاه الحكم لن يكون وليد عقائد اليسار واليمين التقليدية. جذبت هذه الخطوة الناس نحو مجال الوسط الذكي والصارم، وأوضحت تصميمنا منذ البداية على حماية الفرص الاقتصادية للبلاد وتعزيزها.

سمحتُ لغوردون بصوغ الإعلان، ومنحته بالفعل كل عبارات الثناء والأهلية كي يكون الشخصية الاقتصادية في الحكومة. فعلت ذلك بداية لأنني اعتقدت أنه يستحقّ هذا، وتالياً لأن هذه الخطوة كانت مناسبةً كي نظهر أن الأمر ليس من صنع رجلٍ واحد، وثالثاً، لأنني لو لم أفعل ذلك لكان الأمر قد تسبب بتوتر كبير.

أدى القرار إلى نتائج مؤسفة وطويلة الأمد. إنني رجل ذو أخطاء عديدة، لكنني أمتلك ميزة حسنة تتمثل في أنني لا أمانع في وجود رجالٍ كبار من حولي. أحببت في فترة ولايتي ألاستر، وجوناثان، وآنجي، وسالي، وبيتر، ودافيد ميليباند وآخرين، وذلك لأنني كنت أثق بأنهم سيعطونني ما يفكرون فيه حقيقة. لا أقصد القول إنهم لم يُظهروا لي الاحترام (على الرغم من أن جو الإلفة الذي ينشأ أثناء فترة المعارضة لا يكون مناسباً بالضرورة في أجواء الحكم)، لكني أقصد أنهم عبّروا عن آرائهم. كنت أرحب دائماً بآرائهم التي كنت أستمدّ منها نصائح قيّمة حتى الثقة.

وهكذا عندما سمحت لغوردون متعمداً وعن قصد كي يظهر على أنه الشخصية الكبيرة، وعلى أنه ثاني أقوى شخصية في الحكومة، فعلت ذلك من دون أي خوف من أن تطغى صورته على صورتي، أو من أن يكون أذكى مني. أقول الآن إن فكرة قيامه بخداعي كانت بعيدة الاحتمال. ساد جو أقل من التفاؤل في المكتب. قلق ألاستر على وجه الخصوص بشأن الصورة التي كانت تتشكل لدى الرأي العام وهي أنني «الرئيس» بينما غوردون هو «المدير التنفيذي» أو «رئيس الوزراء»، وقال لي بكل حماسة، إن ذلك قد يُترجم على أنه الشخص الذي يقوم بالتملق، والرجل المجدّ والجدي الذي يدير البلاد. كنت مسترخياً في ذلك الوقت ومطمئناً لموقفي إلى درجة أن هذه الفكرة لم تقلقني بتاتاً، وهكذا استبعدت التحذيرات.

لكن الواقع هو أنني كنت الشخص الذي حرّكت هذا الأمر كما حدث في قضية استقلالية مصرف إنكلترا، والهيكلية العامة للاقتصاد، بالإضافة إلى أشياء أخرى. كانت مذكّراتي المرسلة إلى المكتب خلال هذه الأشهر الأولى حافلةً بإشاراتٍ إلى السياسة الاقتصادية: تنسيق بيان الإنفاق الشامل مع أولويات الحكومة، وشرح ما نزمع عمله من أجل خلق اقتصاد أكثر قابلية للمنافسة، وشدّ الحزام إذا ما تبيّن لي وجود انحراف عن الخط الذي يدعم التجارة، ويدعم التطلعات (وشددت على فكرة فرض ضرائب جديدة على المحترفين، أو فرض ضرائب على المنازل الإضافية، على سبيل المثال). كان من المعتاد إطلاق salvo على المستويات الصغرى من أجل إبقاء الخزانة ضمن الحدود. وعلى الرغم من ذلك شاعت هذه الفكرة، التي أصبحت فيما بعد ضارة ومدمّرة، وهي التي أوحت أنني نأيت بنفسي عن مجال السياسة

الاقتصادية. أما الواقع فهو أن غوردون قد أنشأ القطار، والسكة التي يمشي عليها، ومحطة الوصول، وكل ذلك ضمن الخطوط التي رسمتها أنا، أو تلك التي كنت أرتاح إليها. أعطيَ سائق القطار بعد ذلك الحرية في إدارة هذه الخدمة. لم أتأخر كثيراً بعد ذلك عن التخلي عن التحكم في السياسة الاقتصادية.

جرت نقاشات حامية كثيرة خلال السنوات الثلاث التي كنت فيها زعيماً، وهي النقاشات التي كانت كافيةً بالنسبة إليّ كي أفهم أن هناك فروقاً هامة في نهجينا. لكن هذا الفرق لم يتحول من فرقٍ ملحوظٍ إلى فرقٍ أساسي إلا في السنوات التالية. لم يكن عندي أي شك أننا ننظر إلى السياسة من زاويتين مختلفتين بصورة أساسية، لكنهما تتقاطعان لأسباب تتعلق بالسياسة مثلما تتعلق بالإيمان. تحولنا في نهاية الأمر إلى شخصين مختلفين فيما يتعلق بالمواقف من الاقتصاد، وكنا نمتلك خلفيتين مختلفتين جداً. ربما يكون من الأفضل أن أقول إننا امتلكنا حدسين مختلفين اقتصادياً، ومالياً، وتجارياً.

إنني أفهم الطموح بصورةٍ أساسية. أحب الأشخاص الذين يريدون النجاح، وأنا معجب بالذين يحققونه فعلاً. أما عندما كنت في سلك المحاماة، وبعد سبع سنوات من العمل كمحامٍ متفرغ، فقد استفدت منها شخصياً بطرقٍ متعددة. مارست الكثير من الأعمال التجّارية والصناعية وتعرفت جيداً إلى الرجال المستعدّين للمخاطرة، أي أولئك الذين لا يتسكّعون، والذين يتمتعون بالحيوية الكافية. إنني أكره المباهاة، لكني أحب الطموح، وهذا هو السبب الذي يجعلني أحب أميركا. إنني أعجب كثيراً بمفهوم أن ينطلق المرء من لا شيء كي يجعل من نفسه شيئاً موقّراً.

لهذا الموقف جانبه السلبي. انتشرت أخبار أنني انبهرت بمجتمع الأثرياء، وهي أخبار مضخّمة جداً على الدوام (معظم أصدقائي لا ينتمون أبداً إلى هذا النوع)، إلا أنني كنت في بعض الأحيان أقلل من أهمّية القسوة واللاأخلاقية اللتين تترافقان مع جني مبالغ كبيرة من المال. لا أريد أن يسيء القارئ فهمي: هناك رجال أعمالٍ كثيرون يمكنهم أن يكونوا مبدعين بحيث يكون المال نتيجة نجاحهم، أكثر مما هو نتيجة دوافعهم. لكن هناك آخرون لا يكترثون أبداً لهذا الأمر. كنت في بعض الأحيان لا أفهم الفرق بين الحالين كما يجب.

أقول مع ذلك إنني لا أستاء من النجاح، وعلى وجه الإجمال كان ذلك أمراً حسناً بالنسبة إلى السياسي التقدمي. تبنيت أنا شخصياً هذا المفهوم بدوري. هل أريد بيتاً رائعاً؟ أجل. هل أفضّل فنادق النجوم الخمس على فنادق النجمتين؟ أجل. هل أعتقد أن الحياة تشتمل على أشياء أكثر من هذه؟ أجل. لكني لم أفكر قط أن الاستمتاع بالأشياء الجميلة في الحياة يؤدّي إلى عدم الاكتراث لمحنة أولئك الذين لا يتمكنون من ذلك. إن الأمر على عكس ذلك بالنسبة إلي: إن ما أريده لنفسي أريده للآخرين كذلك. لكن لم أشعر قط بأنه من الخطأ أن أرغب فيه.

أشعر بالارتياح الشديد عندما أكون برفقة رجال أعمال لا يهابون المخاطر. كان غوردون رجلاً مختلفاً عن هؤلاء، فهو يقوم بتحليل العمل التجاري أو المهني الناجح، ثم يناقش تعقيدات اتباع سياسة معينة بالنسبة إلى سياسة أخرى من أجل ترويجها، لكنه لا يعيشها أبداً. أعتبر نفسي رجل خدمات عامة، ولو كان لي أن أختار مهنة أخرى لكنت اخترتُ تأسيس شركة وكسب المال. كان جزء من عقلي يقول: ألن يكون ذلك رائعاً؟ لكني أعرف الآن أنني لو أردت ذلك بالفعل لكنت فعلته. إنني، وقبل كل شيء، رجل خدمات عامة في الصميم. أما غوردون فهو رجل خدمات عامة لو اختار مساراً آخر لحياته لكان رجلاً أكبر بكثير. لا أريد أن يُفهم من ذلك أنه لا يُفلح في التجارة، لأنه مع كل ذكائه وتصميمه كان سينجح في أي شيء يقوم به، لكن التجارة لا تشكل حافزاً له، أو حتى مثار اهتمامه.

وهكذا لم تكن الضريبة المقبولة من الشعب هي نفسها فقط. يُمكن للمرء أن يتبنى قضية دفع الأثرياء لضريبة أكبر في الحدين، أي التأمين الوطني وغير ذلك، وكنت مرتاحاً لأنهم فعلوا ذلك، لكني أردت المحافظة على ما فعلته ثاتشر وهاو، ولاوسون في الماضي بالنسبة إلى نسب الضرائب التنافسية. أردت أن يشعر الأثرياء بالاطمئنان وأنهم مرحّبٌ بهم في المملكة المتحدة بحيث يأتون باستثمارات جديدة، وبحيث يقدمون فرص عمل جديدة ويتمكنون من توزيع ثرواتهم. لم يكن هؤلاء يشكلون أولوية عندي، وهنا أعني أنني لا أعطي أولوية للبحث عنهم، كما أن التضييق عليهم ليس من أولوياتي كذلك. كنت مرتاحاً لترك الأمور وشأنها.

أعلم أننا إذا اتبعنا مفهوم الضريبة المقبولة، فإن ذلك سوف يُنظر إليه على أنه

إشارة، وأنه إعلان بديهي، أو كمؤشّر له تأثيراته التي تفوق زخمه الطبيعي. وعندما اقترح غوردون هذا الأمر قبل الانتخابات التي أظهرت نتائج استطلاعات الرأي أن ما يراوح بين ٧٠ و٨٠ بالمئة يناصرونه، عمدت إلى تجميده. اعتبرته خطأً أحمر تماماً. تراجع غوردون عن هذه الفكرة مع الوقت.

أريد أن أكون منصفاً هنا، وأقول إنه تبنى نظرةً متطرفةً بشأن الضرائب على أرباح بيع الأصول، الأمر الذي ساعد كثيراً الشركات المساهمة الخاصة. خفض غوردون النسبة إلى ١٥ بالمئة فيما يتعلق بالذين يمتلكون أسهماً لفترة دنيا ثابتة، وذلك بحيث يدفع المساهمون والمستثمرون في الشركات الذين يبيعون قسماً من أسهمهم، أقل بكثير من ضريبة الدخل. اعتقدت مع ذلك أن هذه الخطوة قد اتخذت كإشارة سياسية إلى الذين ظننت أنهم ضد الشركات، وكذلك هي نتيجة لنصائح مستشاريه، أكثر مما كانت إجراءً جاء نتيجة اقتناعٍ راسخ.

ومهما يكن من أمر، فإن غوردون في ذلك البيان الأول حول مصرف إنكلترا وموازنته الأولى، كان يتصرف بوضوح من ضمن سياسة حزب العمال الجديد. لكن تزكيته الظاهرة للمفهوم الذي يوحي أنني تركت المجال الاقتصادي أدت إلى زرع بذور الاضطراب الذي كان حصاده مؤذياً. أعتقد أن من صلب طبيعة السياسة أن تكون كل العناصر التي تسبب السقوط في النهاية موجودة منذ البداية، وإن كانت بصورةٍ مخففة. لكن مرور الوقت لا يفعل شيئاً غير تقوية هذه العناصر وتكبيرها. أحسست، حتى في تلك الأيام المبكرة من تسلّمي زعامة الحزب، بوجود معركة غير محسومة منذ لحظة المكالمة الهاتفية التي تلت وفاة جون، أي عندما لم أوافق على هذا التسلم على الفور. لكن إذا كانت هذه المعركة قابلة للحسم فتلك مسألة أخرى.

إن وجود شخصية كبيرة، وعلى الرغم من كل ذلك، ومجرد ظهور شخص مستعدّ لتحمل المسؤولية ومتلهف عليها، ولا ينكر أحد طاقته، وفكره، ووزنه السياسي، أعطى دفعاً كبيراً للحكومة. أما لو حدثت مواجهة فكانت ستحدث بين شخصيتين قويتين، لكن التوتّرات التي قد تحدث كانت ستحمل وجهها الإيجابي. لاحظت أثناء احتضاني الحماسي للطبقة الوسطى وانقسامها بين الجمهوريين والملكيين بحسب ما جرى عليه التقليد في حزب العمال، وجود إمكانية قيام تحالف مميز وفعّال. بدا الوضع هكذا في تلك الأشهر التي تلت الأول من أيار/مايو من العام ١٩٩٧، وهكذا كان.

كانت لي نظرة تفاؤلية على نحو غريب إلى قوة العقلانية، وإلى القدرة على الإقناع إذا كانت المناقشة مقنعة. قادتني هذه النظرة في بعض الأحيان إلى الاعتقاد أن الهدف السياسي إذا كان محقاً يصبح ممكن التحقيق. لكن يبدو أن السياسة لا تعمل على هذا المنوال، لأنني أعتقد بوجود أهدافٍ يتمنى المرء تحقيقها، تحمل في طياتها قيمةً كبيرةً إلا أنها بعيدة جداً عن التحقق.

أما تجربتي مع الديمقراطيين الليبراليين في تلك الأيام المبكرة من وجودي في السلطة فكانت مثالاً ذا مغزى. أردتُ منذ البداية أن أضمّهم إلى موقعنا، وكنت أعتبر روي جنكنز بمثابة ناصح، وكبرت بالفعل على حبي له، واعتبرته رجلاً محترماً، وجريئاً، وعقلانياً كبيراً، وذكياً. أعجبت كذلك ببادي آشدون واحترمته كثيراً، وأعتقد أن الديمقراطيين الليبراليين يضمّون من بين صفوفهم رجالاً أصغر سناً يمكن اعتبارهم من ضمن حزب العمال الجديد. فهمت حينئذ سبب تأسيس الحزب الديمقراطي الاشتراكي، وسبب فشله، وأن سبب هذا الفشل لم يكن فشلاً للأفكار، لكنه كان فشلاً في التنظيم والسياسات المتبعة.

كان يُنظر إلى الليبراليين بوصفهم فريقاً متنوعاً يضمّ الجديين منهم بشكلٍ غامض، وأولئك الذين هم أقل جدّية، وأولئك الذين هم غير جديّين بالمرة. كانتْ لي عندئذ النظرة المنحازة المعتادة إلى الأشخاص الملتحين، الذين ينتعلون صنادل ويرتدون قمصاناً ملوّنة بشكلٍ مريع، وهم الذين تصل أقصى طموحاتهم إلى أن يكونوا أعضاء في المجالس المحلية، وكذلك تجاه النساء اللواتي يرتدين ملابس فضفاضة، واللواتي يظهرن بمظهرٍ غريب ويتحدثن عن أهمّية التثقيف الجنسي.

حصلت عملية الإدماج بين حزب الأحرار والحزب الديمقراطي الاشتراكي، فكانت النتيجة أن حزب الديمقراطيين الأحرار الجديد قد أعاد تشكيل فئتين متشابكتين معاً في محاور تلك العملية السياسية، وذلك على أساس أنهما يتلاءمان في هذه المحاور، بينما بيّنت الوقائع أن هذا غير صحيح. شابه الحزب أجنحة اليسار واليمين الموجودة في معظم الأحزاب، لكن الشبه كان أكثر بحسب قول ريك عن لويس في فيلم كازبلانكا [الدار البيضاء].

أدى هذا الأمر إلى ميل الناشطين نحو الغرابة. إنني أعتبر نفسي الآن من

النشطاء، والمؤكد أنني كنت أكثر نشاطاً فيما مضى من أيام شبابي، لذلك عليّ انتقاء عباراتي بحذرٍ في هذا المجال. يحمل النشاط السياسي معه صبغةً من الغرابة على الدوام. أعرف أن ذلك يُعتبر نوعاً من الاعتراف المريع المترافق مع التعصب والتصور المسبق، لكن يستطيع أي شخصٍ سبق له أن سبح في محيط حزبٍ سياسي، وكان من بين أعضائه أن يعرف طبيعة تلك البيئة الغريبة.

كان الديمقراطيون الأحرار كذلك عرضة للانتهازية على العموم. أعترف أن السياسيين قاطبةً يضطرون إلى أن يكونوا انتهازيين بين وقتٍ وآخر – لأن انتهاز الفرص هو جوهر السياسة – لكني لاحظت أن الديمقراطيين الأحرار قد أتقنوا هذا الأمر في بعض حملاتهم المحلية، بل إنهم ارتقوا به إلى مستوى صيغة علمية، أو فنية. وعلى الرغم من تأكيدهم الرسمي والصادق في معظمه على معتقدهم في المساواة العرقية والجنسية، إلا أنهم خاضوا حملات شرسة تستهدف السمات الشخصية لخصومهم.

على الرغم من كونهم خليطاً من الأشخاص إلا أن قيادتهم كانت سليمة، كما كان من بينهم عدة أشخاص بارزين في مراكزهم وكانوا متوافقين سياسياً، بشكلٍ أو بآخر، مع حزب العمال الجديد. سبق لنا أن أخذنا حزب العمال إلى النقطة التي اعترف فيها أن كثيراً مما كان يقوله حزب الديمقراطيين الاشتراكيين القديم كان صحيحاً. وكان عدد من أعضاء ذلك الحزب قد انضمّ، أو أعاد الانضمام، إلى حزب العمال. أعترف هنا أنني كنت أقرب في نظرتي السياسية إلى بعض هؤلاء مما كنت إلى أقسام من جناح اليسار القديم من حزبي. كان من اللباقة بمكان محاولة جذبهم إلى صفوف الحزب. أيمكننا أن نتقدم خطوةً إضافيةً ونضمّهم إلى الحكومة؟ أعرف أن الجناح التقليدي في حزب العمال، وجون بريسكوت على وجه الخصوص، سيغضبان لهذه الفكرة، لكن كانت هذه لحظة من زمنٍ معين، وكان من الممكن أن لا تعود أبداً. لكني كنت متأكداً من استعدادي للمحاولة. كنا نتناول أنا وشيري، وبادي وزوجته جاين، العشاءات بصورة منتظمة، وذلك قبل الانتخابات. أحببنا بعضنا بعضاً ووثقنا بعضنا ببعض. لاحظت أن بادي يمتلك ميزة القيادة الحقيقية، وهو لا يخاف، مثلي أنا، من تقبّل حزبه.

عمدتُ، وسط قلق ألاستر وبروس، في خطابي الذي ألقيته في مؤتمر الحزب الذي عُقد في وقتٍ لاحقٍ من تلك السنة إلى تجاوز ما هو متوقع والإشادة بلويد جورج، وكينس، وبيفريدج، وكذلك بآتلي، وبيفن، وكاير هاردي. أعتقد، جزئياً عن حدس عزّزه روي جنكنز، أن القرن العشرين كان قرن المحافظين بالتحديد لأن الأشخاص الطيبين والموهوبين الذين كان يجب أن يعملوا معاً كانوا في أحزاب مختلفة، ويواجهون بعضهم بعضاً.

توافق توحيد جناحي الديمقراطيين الاشتراكيين التقدميين مع فهمي للتاريخ. استندت في هذا كذلك إلى نظرتي العامة إلى السياسة، كما أنني توصّلت إلى استنتاج قبل وقتٍ طويل يفيد أن النظام الحزبي، وعلى الرغم من كونه ضرورياً، كان لاعقلانياً وغير منتج في آنٍ واحد. يستتبع هذا النظام إما تضخيم الفروق وإما إيجادها. ويمنع هذا النظام الأشخاص الأذكياء من التعاون من أجل تحقيق غايات معقولة. أما المشاكل المعقدة التي تتطلب حلولاً مدروسة فتتحول إلى معارك حول الشعارات.

دفعني الاستماع إلى خطباء حزب المحافظين أثناء النقاشات التي جرت في مجلس العموم في الثمانينيات من القرن الماضي، إلى الاستنتاج أنني لو كنت مراقباً موضوعياً فسأعتبر أن ما يقولونه كان معقولاً. تعودت منذ زمن طويل أن أجلس مع المحافظين من أجل التحادث، وتبادل وجهات النظر معهم. لم تدفعني هذه الجلسات إلى أن أصبح محافظاً، أو تقليص التزامي بحزبي السياسي، لكنها أوضحت لي مدى حماقة المعارضة لأجل المعارضة وعقمها.

أدركت، فوق كل شيء أن معركة حيازة التفوق السياسي بين الحكم وقطاع الأعمال، وبين الدولة والسوق، كانت مفهوماً موروثاً من القرن العشرين. اتضح لي أن عمل الدولة على نحو صحيح هو أمرٌ ضروريّ لتمكين الحكومة من تحقيق ما تستطيع تحقيقه لوحدها، مثلما هو الحال مع القطاع الخاص التنافسي الذي يوفّر ثروة الأمة. يتمكّن كل قطاع، ومن ضمن مجاله الصحيح، من تحقيق ازدهار الدولة. استنتجت بناءً على ذلك كله أن القيم والغايات يمكنها الاختلاف والتقاطع، ومن ضمنها السياسة والعقائد الحقيقية، لكن مسألة ماهية الوسائل المستخدمة لتحقيق تلك الغايات كانت مسألةً عمليةً بوضوح: إن ما يهمّ هو النجاح. أما بالنسبة إلى القيم

والغايات فذلك أمر صعب. ينطبق الأمر بالتأكيد على ما كان يهمّ الديمقراطيين الأحرار في ذلك الوقت، أي ملاحظة أين تقع النقطة المهمة في الفروق الأساسية. نبعت، انطلاقاً من ذلك، أهمّية اتخاذ القرار في محاولة ضمّ الآخرين إلى الحزب.

تكلمت مع بادي في الساعات المحمومة التي تبعت الانتخابات. اتفقت معه على أن من السابق لأوانه ضمّ هؤلاء الأشخاص إلى الحكومة (وذلك على الرغم من موقفنا المتساهل تجاه أحزابنا، لأننا كنا متوتّرين بشأن ردود أفعالهم في الفترة التي أعقبت الانتخابات)، وعلى نحو مختلف عما حصل في العام ٢٠١٠ فزت بأكثرية كبيرة. لكننا اتفقنا أن نبدأ عملية التعاون مع لجنة رسمية يكون من مهامها محاولة رسم برنامج متفقٍ عليه للإصلاح الدستوري.

تردد بادي في المشاركة في هذه اللجنة، أقلّه حتى بداية المشاورات التي عقدتها. خشيت عندئذ أن لا تتم هذه الخطوة.

لقيت مخاوفي ما يبرّرها جدياً في الأحداث عندما قرر الديمقراطيون الأحرار معارضة إصلاحاتنا للخدمات الاجتماعية استناداً إلى ما كان أساساً مرتكزات حزب العمال القديم، وذلك على الرغم من محاولتهم تجميلها. قالوا إننا يمكن أن نتفق على الأمور السهلة، أما إذا لم تكن الأمور السهلة هي التي نتفق عليها، فستكون الأمور التي لا تؤثر في حياة الناخبين مباشرة، لكنهم يريدون الابتعاد عن التغييرات المؤلمة، لكن الضرورية، في المدارس، والمستشفيات، وشؤون التقاعد، والرفاه الاجتماعي، وهي الأمور التي تمس حياة الناخبين مباشرة. يعني ذلك أن المسألة كانت بالنسبة إليّ على النحو الآتي: هل هذا التعاون حقيقي؟ أخشى أن أقول إنه لم يكن كذلك في النهاية، وذلك ليس بسبب غياب النيات الطيبة، أو الإيمان الحقيقي من جانب بادي، وذلك لأنه كان صريحاً جداً في هذا الشأن منذ البداية، لكن بسبب فقدانهم لما كنت أعتبره غياب النسيج الضروري للحكم. بدا الديمقراطيون الأحرار في سياق هذا التحليل الأخير أكثر سعادةً بوصفهم نقاداً «نزيهين» يحثون، ويستكشفون، لكنهم غير مستعدّين لحمل راية مسؤولية الخيارات الصعبة، وتحمّل المسارات الخشنة. لكن من المثير للاهتمام معرفة ما إذا كان التحالف الذي تم التوصل إليه بعد انتخابات العام ٢٠١٠ سيصمد أم لا. ربما يصمد هذا التحالف بما أن رغبة الديمقراطيين الأحرار في إدخال إصلاحات على النظام الانتخابي هي

رغبة جوهرية بالنسبة إليهم. لكن إذا لم يتحقق ذلك فأشك كثيراً في أن يتمكن هذا التحالف من الصمود طويلاً. ربما، مع ذلك، أكون مخطئاً...

أريد العودة الآن إلى العام ١٩٩٧، أي حين كان التحالف إجراءً طوعياً تماماً بين طرفين موافقين. اعتقدت حينئذ أن فرصتهم المتاحة أمامهم للنقد، وبالتالي تبني المخارج السهلة، كانت مغرية جداً. لكن المشكلة كانت في أنهم تعوّدوا المشاركة في اللجان، أو الظهور في البرامج التلفزيونية، بينما يومئ الناس بالموافقة لأنهم يقولون ما يحب الناس سماعه، أي الأمور التي أخشى أنها لا تغيّر شيئاً في واقع الأمر، لكنها تفتح أمامهم فرص الانتهازية التي قد تكون رائعة.

أتذكّر جيداً أنني، عندما كنت وزير الداخلية في حكومة الظل في العام ١٩٩٣، وكان كين كلارك هو وزير الداخلية، كنت معجباً بكين، وهو سياسي صريح ومناسب. أعتقد أن المحافظين ارتكبوا حماقةً كبيرةً لأنهم لم يجعلوه رئيس الحزب، وذلك على الرغم من أنني ممتن لهم لأنهم لم يفعلوا ذلك. اقترح كين مجموعةً واسعةً من الإصلاحات في جهاز الشرطة. كان بعضها حسناً (مثل قانون الانضباط). كما كان معظم الإصلاحات مبرّراً، لكني متأكد أن الشرطة كرهتها بالفعل. عقد اتحاد الشرطة، الذي هو إلى الآن أكثر الاتحادات انضباطاً، تجمعاً ضد هذه الإصلاحات في ميدان ويمبلي، وهو الاجتماع الذي كان رائعاً لسببين. الأول، بسبب الانضباط الشامل لرجال الشرطة. جلست لجنة الاتحاد على المنصة أمام الجمهور. شارك ١٠,٠٠٠ من رجال الشرطة في هذا الاجتماع، الذي كان مشهداً مخيفاً ولا يزال. اصطف الحشد صفوفاً أمام اللجنة. صفقت اللجنة، وكذلك فعلت الحشود لكنهم فعلوا ذلك عندما جلسوا على أيديهم. لم يصفق أحد. كان الأمر رهيباً.

كان الأمر المدهش التالي هو أداء المتحدث باسم الديمقراطيين الأحرار، روبرت ماكلينان، وهو الذي كان المتحدث في شؤون القانون والنظام. كشفت هذه القصة عن وجود مشكلة عندهم. أصبح وضع الديمقراطيين الأحرار ضعيفاً وتحررياً، كما كان لديهم أقل عدد من الأولويات التي يمكن أن يتصوّرها المرء. عمد الديمقراطيون الأحرار إلى أخذ الحريات المدنية إلى حد أن تكون أسوأ عقوبة هي محادثة مرحة،

وبحيث يكون أهمّ شيء هو التشدد إزاء قسوة الشرطة، وهي الأمور التي تبعد ملايين الأميال عن قلب الشرطي العادي وعقله.

نهضت وتحدثت. شعرت، في واقع الأمر، بنوع من الخجل، لأنني شعرت بأن بعض هذه الإصلاحات بدا معقولاً، لكنني أظهرتُ غضباً مدوّياً إزاء مظالم الأمر برمته. قوبل خطابي بالتصفيق كما ينبغي.

حان بعد ذلك دور روبرت. أحبّ أن أتحدث قليلاً عنه. تعود جون سميث أن يصف خطاباته في مجلس العموم كوحدة تفريق الحشود التي تتألف من رجلٍ واحد. أما وصف بوب على أنه متحدثٌ مملّ فهو بمثابة فشلٍ في وصف الطبيعة الحقيقية لهذه التجربة. أما إذا أراد المرء أن يستمع إليه في المجلس بوصفه الرئيس التالي لهذا المجلس، وهو الأمر الذي يضطره إلى الاستماع إليه، فعند ذلك سيفوّت خطابه الافتتاحي لأنه يكون في حالة من الشرود. أريد أن أقول، بالمناسبة، إنه كان ذكياً ومحترماً بشكلٍ واضح، لكن ذلك لا يزيد من تقرب الناس إليه.

توقّعت أن أشاهد أمراً طريفاً عندما راقبت نهوض بوب لإلقاء خطابه أمام ١٠,٠٠٠ شرطي. توقّعت أن لا يرحبوا بالشعور بالملل الشديد لاضطرارهم إلى الاستماع إلى أحد الليبراليين. لا يمكنني إلا أن أصف حديثه إلا كواحد من أكثر الخطابات إثارةً من بين تلك التي سمعتها. عرف الرجل ما يريدون سماعه، كما أنه قرأ بياناتهم التي تصف عدم الإنصاف الشديد الذي تتصف به الإصلاحات المقترحة. حدّق إلى الرجال العشرة آلاف الغاضبين والمنتظرين وهو يشنّ هجومه على الحكومة ليس بشراسة فقط، بل بما بدا على أنه غضب حقيقي مستمرّ وثابت. وعندما انتهى من رسم صورة لبلادٍ رجال الشرطة فيها مقيدون، ومستضعفون، بينما المجرمون يسرحون ضاحكين في أنحاء البلاد، وكل ذلك بسبب خطة متعمدة وشرّيرة من وزارة الداخلية ولجنة المالية. وقف رجال الشرطة العشرة آلاف بمن فيهم المتزنون والمتنورون، وضربوا الأرض بأقدامهم، وصاحوا طالبين سماع المزيد من بوب الذي يعتبرونه أفضل صديق لرجال الشرطة.

أعتقد أن ذلك كله يعطينا صورةً عن المشاكل التي يعانيها الديمقراطيون الأحرار، فهم عندما يقومون بدور الناقد، في الأوقات الحرجة، يشعرون بسرورٍ أكبر من ذلك

الذي يشعرون به عندما يكونون فاعلين. زاد اقتناعي بمرور الوقت بأننا نحتاج إلى حلولٍ أكثر جذرية بالنسبة إلى شؤون الرفاه الاجتماعي والخدمات العامة، هذا إذا لم نقل بالنسبة إلى قضايا القانون والنظام التي مال فيها الديمقراطيون الأحرار، بصورة طبيعية ومريحة، نحو موقفٍ معارض. يعني ذلك أن حلم دفعهم نحو إعادة توحيد الديمقراطية الاشتراكية قد تلاشى. كان بادي زعيماً ملتزماً بالفعل فكرة توحيد القوى الديمقراطية. كان تشارلز كينيدي رجلاً في منتهى اللطف، لكنه لم يحمل الالتزام ذاته. كان العراق نقطة جدالٍ كبيرة، وهي المسألة التي أضافت دفعاً كبيراً إلى عملية جذب منتسبين جدد إلى الديمقراطيين الأحرار وإلى حملاتهم الانتخابية بحيث إن علاقتنا معهم قد ساءت تماماً. كان الأمر مؤسفاً، لكن لعله كان حتمياً. اعتقدت بدايةً أن قوة الموقف العقلاني في ذاتها هي التي ستفوز في نهاية الأمر، هذا ما نوقش بعقلانية. لكن المرء يتعلم بمرور الوقت أن الوضع ليس هكذا، وذلك لأن التغيير يستتبع المعارضة، ويسهل دعم المعارضة أكثر بكثير من دعم التغيير.

حدثت مسألة تذكّر بهذا الوضع في وقت مبكر، وذلك مع إجراء التغييرات في مساعدات الإسكان التي اقترحناها في صيف العام ١٩٩٧. كانت هذه التغييرات مبرّرة تماماً من أجل وقف إساءة استغلال هذا النظام، لكننا واجهنا، وللمرة الأولى، معارضةً ضد الحاجة إلى اتخاذ قرار صعب كحكومة. جاء ردّ فعل نواب الحزب فورياً وكبيراً (مع انضمام الديمقراطيين الأحرار إليهم). كان حجم الغالبية كفيلاً بمعالجة هذه المسألة، لكن مرّت لحظات صعبة. عمدنا بعد ذلك إلى اقتراح اقتطاعات كبيرة في موازنة الخدمات الاجتماعية، لأن التكاليف قد زادت كثيراً حتى وصلت إلى المليارات. كنا ما زلنا نعالج آثار الركود الاقتصادي، الذي بدأ في مطلع التسعينيات، في الموازنات العامة. قدّمت الحكومة التزاماً، والتزاماً صعباً، التزمه غوردون بعناد وصوابية، وهو يقضي بالإبقاء على مجاميع الإنفاق للحكومة السابقة على مدى السنتين الأوليين من حكمنا على حالها، لكن أردنا مع ذلك زيادة موازنات الصحة والتعليم، وهكذا حرصنا على البحث بكل الطرق كي نقلّص تكاليف الرفاه الاجتماعي. اتضح لدينا أن من غير المفيد للناس الاعتماد على المساعدات الحكومية لمدى الحياة. يتعيّن عليهم أن يعملوا ما داموا قادرين على ذلك.

أما بالنسبة إلى مساعدات الإسكان، فإن مساعدات الإعاقة قد أصبحت عرضة لإساءة الاستخدام الممنهج. ارتفعت في الثمانينيات البطالة طويلة الأمد، فرأت الحكومة أن من الأنسب لها السماح بتحويل أعداد كبيرة من الناس، وعلى الخصوص أولئك الذين كانوا يعملون في صناعات التعدين القديمة، إلى سجلات غير القادرين على العمل. وتسمح هذه الطريقة باعتبارهم من المرضى، أي من غير العاطلين عن العمل، وهكذا تتقلّص أرقام البطالة. كنا نعرف جميعاً أشخاصاً في دوائرنا الانتخابية من الذين أمضوا سنوات عديدة معتمدين على برنامج المساعدات الحكومية، في حين أننا نستطيع القول إن عجزهم عن العمل كان مبالغاً فيه قليلاً.

دفعت التغييرات المقترحة الناس إلى التجمع في داوننغ ستريت وتقييد أنفسهم بسياجه. جرى انتقاء هولاء المحتجين لكونهم مقيدين بمقاعدهم المتحركة، وكأن الأشخاص المسجلين كافة في سجلات العجز عن العمل كانوا مقيدين بمقاعد كهذه. بدا الأمر وكأن كل المقيدين جميعاً بهذه المقاعد كانوا عاجزين عن العمل. إنني أشكّ في كلتا الحالين. لم تكن هذه النقطة المهمة، لأنهم، وبطبيعة الحال حصلوا على تعاطفٍ شديد.

اقتربت العطلة الصيفية مع نهاية شهر تموز/يوليو، فأعلن دافيد بلنكيت قانون الأقساط المدعومة، وهكذا بدأت المسيرة الطويلة والبطيئة نحو الإصلاح الجامعي. تصاعدت مجدداً صرخات الغضب والتخلي عن المبادئ.

كان الأمر قابلاً للاحتواء بطبيعة الحال، لكنه كان نذيراً هاماً.

كنا حكومةً محبوبةً من الشعب، وكنت لا أزال أحتفظ بنسب دعم عالية، لكن حتى في ذلك الحين برزت علامات واضحة على قدوم العواصف والمتاعب التي حدثت فيما بعد.

كنت لا أزال في ذلك الوقت في مرحلة تعلم مهنة رئيس الوزراء، ومهنة اتخاذ القرارت، ومهنة أخذ المسؤولية على عاتقي، وكثيراً ما كنت أراجع الأمور كي أرى كيفية سيرها. تمكنت من رؤية النهاية حتى مع كوني أعيش في البداية، ولاحظت إيقاع كل الأمور. لم يكن الفرق بين البداية والنهاية، ببساطة، في طبيعة الأحداث ذاتها ما عدا الأزمات الكبيرة مثل الحروب. يعني ذلك أن أزمة ما، فضيحةً ما على

سبيل المثال، يمكن أن تحدث في البداية، وعندئذ يكون الجميع في حالة من الترقب إزاء الحكومة الجديدة، لذلك يُمكن تجاوز هذه الأزمة بسرعةٍ وبسهولة. لكن إذا حدثت هذه الأزمة فيما بعد فقد تكون مميتة. يعتمد الأمر هنا على موقع الأزمة في سياق الأحداث أكثر مما يعتمد على طبيعتها. إن العدائية، وعمق الانتقاد الموجّه إلى الحكومة، وحجم الهجوم، هي عوامل لا تتزايد نسبياً مع قرارات الزعامة، لكنها تتزايد مع تقلص حداثة الحكومة مع الزمن، وتناقص جاذبيتها، ومع أصالتها، وبالتالي مع تناقص قدرتها على الإقناع.

امتلكت في البداية، أي في تلك الشهور الأولى، ولربما خلال أول فترة لي في الحكم، رصيداً سياسياً أردت الاحتفاظ به. كنت أجازف به في بعض الأحيان لكن من ضمن حدودٍ صارمة، وذلك على أمل تعويضه بسرعة في أقصر وقتٍ ممكن. أسرفت بالإنفاق من هذا الرصيد في قضية كوسوفو، التي كانت من القرارت المصيرية الأولى التي اتخذتها. لكن بالنسبة إلى القضايا المحلية فقد حاولت إدخال الإصلاحات بما يتوافق مع الرأي العام، وليس ضده.

سارت الأمور بهدوء لبعض الوقت، ولم أكن في مزاج مناسب يسمح لي بتشويشها. أجرينا تغييرات، وخصوصاً في مسألة اللامركزية، وكان ذلك أمراً تاريخياً. كانت بعض ثمار هذه السياسة سريعةً بالظهور، وبعضها الآخر حظي بالشعبية، مثل مسألة الحد الأدنى للأجور.

أما في مجال الخدمات العامة فقد استخدمنا جميعاً اللغة المناسبة، وامتلكنا النيات الصحيحة، لكننا فضّلنا أن تكون الطريقة هي التغيير من الوسط. أما أصول التغييرات اللاحقة، والأكثر ثورية، فقد توضّحت لدينا في تلك الأشهر الأولى، لكن الوصفات السياسية كانت، على الرغم من ذلك، ضعيفةً جداً. كان الإيمان بقدرة الحكومة ذاتها على إحداث التغيير على الأرض مبالغاً فيه بعض الشيء، وربما كذلك لأن تحليلنا قد قلّل من أهمّية جاذبية المشاكل بالنسبة إلى الناس، وبالتالي قلّل من الحاجة إلى الإصلاح الذي هو من النوع الأساسي والبنيوي.

كان حدسنا، على العموم، صحيحاً. لكننا كنا نفتقد مزايا المعرفة، والخبرة، والفهم العميق، والتشبث، وهي كلها أمور تأتي مع الوقت. امتلكنا مع ذلك الثقة

السياسية بنا، حتى بعض الزهو كذلك، وهي الأمور التي انبثقت من شعبيتنا في أنحاء البلاد، وليس من أهليتنا للتغيير كما تدعو الحاجة.

كان إيقاع الأحداث ملحاً جداً، لكني شعرت به للمرة الأولى. أدركت، بطبيعة الحال، في اللحظة ذاتها التي أصبحت فيها زعيماً لحزب العمال، أن المرء لا ينتهي كما يبدأ. فهمت تماماً أن مهنة السياسة هي مهنة خشنة، وأن آراء الجمهور قد تنقلب بين وقتٍ وآخر، كما أن الانشقاقات والثغرات لا تلبث أن تظهر سريعاً جداً، حتى في صرح التقدم السياسي الذي أُسِّس بعناية. أقول هنا إن صرحنا السياسي قد أُسِّس بعناية كبيرة. لكن أن يفكر المرء في هذا الأمر هو شيء وأن يعايشه هو شيء آخر. إن معايشة هذا الواقع مباشرة قد أربكتني، لكنها جعلتني أشعر بالارتياح في الوقت ذاته.

لا أحد يصدق أي سياسي أبداً عندما يقول هذا الكلام، لكني لم أعمل قطّ بشكل يائس كي أكون رئيس وزراء، أو لكي أبقى رئيساً للوزراء. إنها الحقيقة بعينها. لا أقصد أنني افتقدت الطموح، لأنني أمتلك القدر الكبير منه، لكني افتقدت الجرأة. عرفت أن هذا العمل سيكون قاسياً وبشعاً، كما أنه قد ينتهي مع ذرف الدموع.

أمضيتُ فترةً من التأمل في المستقبل أثناء الإجازة التي أمضيتها في العام ١٩٩٧، في ذلك المنزل الذي يقع في آرياج، وهي منطقة جميلة لم تأخذ حقها من الاهتمام، وهو المنزل الذي تعودنا الإقامة فيه، والذي شيّد في القرن الثاني عشر. فكرت في ذلك الوقت في التخلي عن مسؤولياتي، وفي الاكتفاء بسلامة سمعتي ومعنوياتي بعد أن أتولى فترتين في رئاسة الوزارة. كنت سأسلّم غوردون المسؤولية ليتسلّم هذه المهمة الملأى بالمتاعب، كي أكون حراً مجدداً، ومتحرراً من القلق، ومن مسؤولية العيش المستمر فوق حد السكين حيث يؤدّي أصغر خطأ إلى أفدح العواقب. فكرت في ذلك الحين كيف أن من المناسب لي أن أغادر منصبي بعد أن جاوزتُ الخمسين بقليل، محتفظاً بمحبة شعبي لي، وبكوني وجهاً ودوداً في بلادٍ ودية. سأستمرّ، بالطبع، في قيادة البلاد ضمن أفضل قدراتي. عزمتُ كذلك على عدم تجنّب القرارات الصعبة. صلّيت في ذلك الحين كي لا تكون تلك القرارات من النوع الخاسر، الذي قد ينتهي بالفشل والإذلال. أردت الانسحاب قبل أن يتوقف شعبي عن الإصغاء إليّ وعن محبتي، وقبل أن يبدأ بكراهيتي. كان ذلك بمثابة أملي.

أحسستُ، مع ذلك بإيقاع الأعباء، وأحسستُ بطبيعتها المستمرّة، وبترددداتها التي لا تنفك عن التصاعد، وكذلك شعرت بتأثيراتها في البلاد من حولي.

كنا بدأنا بعملية أخذ القرارات التي لا تلبث أن تُنقص من رصيد النيات الطيبة تجاهنا. كان من المدهش جداً أن نلاحظ أن حتى أكثر التغيرات بساطةً، أو تلك التي تبدو أنها تحظى بإجماع، يمكن أن تتسبب بردود فعلٍ شرسة تتعدى الحدود على نحو غير متوقع. وصل الأمر إلى حد أن مسألة امتحاناتٍ معرفة القراءة والكتابة والحساب التي أدخلها دافيد بلنكيت، وهي الامتحانات الضرورية لرفع المستوى المنخفض للأولاد البالغين الحادية عشرة من العمر، من نحو ٥٠ بالمئة المطلوبة للنجاح، بحسب النظام الذي ورثناه، قد تسبّبت بصرخات احتجاج عنيفة. لم أُدهش شخصياً، لكني لاحظت في هذه الأثناء مزاجاً مخيفاً بين نواب الحزب في البرلمان يدلّ على أننا لم نكن جاهزين تماماً لأعباء الحكم. بدا لي أننا استمتعنا كثيراً بالهدوء الذي توفّره حياة المعارضة حيث كان بإمكاننا أن نأخذ جرعةً من شراب رصيد الديمقراطيين الأحرار والاكتفاء بالإيماء، وهم الذين يتعيّن عليهم الآن العودة إلى دوائرهم الانتخابية والاستماع إلى ناخبيهم. لا يُعتبر الأمر صعباً في الواقع، لكن التغيير يبقى بمثابة الصدمة. تحدثت في أحد اجتماعات نواب حزب العمال التي كنت أعقدها بصورة منتظمة، والتي كانت تُعقد في قاعة اللجان الكبيرة في مجلس العموم، والتي كانت مخصّصةً لسماع أقوال رئيس الحزب، عن مدى سهولة الحياة عندما كنا في المعارضة. كان النواب حينئذ يعودون إلى منازلهم ويلقون اللوم كله على الحكومة، لكن المشكلة هي أن بعضهم ما زال يقوم بالأمر ذاته. إنني أستغرب كيف أن كل من يعارضون الحكومة يُعتَبرون من أصحاب المبادئ، بينما كل من يواليها يُعتبر من المتملقين، وذلك عندما تصعب معارضة الحكومة، إلا إذا كان المرء يهدف إلى الوصول إلى مركزٍ سياسي أرفع.

أدركت حينئذ أن النهج ذاته الذي كنت أعتبره ضرورياً في المعارضة كان ضرورياً، بحرفيته، هذا إذا لم يكن أشدّ أهمية، عندما يصل المرء إلى سُدّة الحكم. يعني ذلك وجود تفاعلٍ مستمرّ بين الأطراف السياسية كافة. كان ذلك أكثر صعوبةً بكثير لأن برنامج عملي امتلأ، فجأة، بالاجتماعات والواجبات المهمة.

تعلمت درساً آخر في هذه الأثناء. يتعيّن على المرء أن يلتقي الزعماء الأجانب

سواء منهم الذين تحتاج، أو تريد، رؤيتهم، وأولئك الذين لا تريد رؤيتهم. هناك مراسم وبروتوكولات ومعظمها من النوع الذي لا يُمكن تجنبه، وهناك اجتماعات قمة، واجتماعات حلف شمال الأطلسي، والاتحاد الأوروبي، ومجموعة الدول الثماني. كانت اجتماعات القمة مرهقةً، كما أنها لم تكن مثمرة إلا في أحيانٍ قليلة. برزت أمامنا كذلك مسألة إعادة هونغ كونغ إلى الصين.

تعودت السفر بسهولة، لكن رحلة هونغ كونغ، التي استغرقت يوماً ونصف اليوم، كانت متعبة. أتاحت لي هذه الرحلة أول تجربة حقيقية لي مع القيادة الصينية. كانت تلك فرصة غريبة بالفعل. كنت متعلّقاً جداً بهونغ كونغ، التي زرتها مراراً لأن شقيقة زوجتي كاتي كانت صينية من هونغ كونغ. كانت كاتي مفيدة جداً لي في موضوع عودة تلك المستعمرة إلى السيادة الصينية، كما أنها كانت محبة لإنكلترا، وهي التي تلقت تربية كاثوليكية، كما أنها عاشت فترة طويلة في المملكة المتحدة. لكن عندما سألتها إذا ما كانت حزينة لعودة تلك المدينة إلى الصين سارعت إلى القول: «لا، ولأنني صينية أقول من الطبيعي أن تكون جزءاً من الصين». تعوّد البريطانيون تجاوز الاعتراف بواقع أن السكان المحليين في عدة أنحاء من العالم يعتبروننا إمبرياليين [مستعمرين] جيدين، إلا أنهم لا يريدوننا أن نستمرّ في استعمارنا. إنهم يفضّلون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم حتى ولو كان ذلك يعني ارتكابهم للأخطاء، وذلك بغضّ النظر عن مدى تعاطفنا معهم.

شعرت في احتفالات التسليم، على الرغم من ذلك كله، بالأسى الذي لم يكن ناتجاً عن الأسف بل عن الحنين إلى الامبراطورية البريطانية القديمة. عبرت في وقت لاحق من تلك الليلة الميناء إلى جهة الكاولوون بواسطة قارب جرّ تحت أمطارٍ غزيرة، وذلك من أجل الاجتماع بقادةٍ صينيين. كانت الأضواء مطفأة في مكانٍ رسونا، لكن رصيف الرسو التابع للفندق كان مضاءً بمصابيح صينية كانت تصدر أصواتاً، وتتمايل وسط الرياح والمياه المائجة. توجّهت إلى الطابق العلوي وأنا أشعر بأن مظهري هو مظهر ابن ثلاثين عاماً (بدت عليّ مظاهر التقدم في السن بسرعة مع تسلّمي لمهامي)، وذلك كي ألتقي جيانغ زيمين، والقادة الصينيين الكبار المجتمعين. بادرني زيمين بحديث مفصّل عن شكسبير ينمّ عن معرفة كبيرة به كانت أكبر مما أتذكره عنه، ورحنا نتبادل الدعابات، وكأن ذلك شيئاً طبيعياً. شرح لي بعد

ذلك بأن هذه هي بداية جديدة في العلاقات البريطانية – الصينية، وأنه يجدر بنا أن نضع الماضي وراءنا. لم أكن أمتلك في ذلك الوقت غير فكرة بسيطة وموجزة عن طبيعة ذلك الماضي. ظننت أن ذلك كان جزءاً من المجاملات المتبادلة فقط. لكنه كان جدياً بشأن ما قاله، وكذلك كان بقية القادة. أحرزت العلاقات مع الصين بالفعل تقدماً كبيراً منذ ذلك اليوم.

كانت الفضائح الشخصية جزءاً حتمياً من إيقاع الحكم كذلك. أقول إنها حتمية لأن هذه الفضائح لا بدّ أن تترافق مع كل حكومة. سبق لنا وأن ارتكبنا خطأً كبيراً عندما تركنا الانطباع أننا سوف نكون أفضل من المحافظين، ليس في مجال الحكم فقط، بل في المجال الأخلاقي أيضاً، وأننا سوف نكون أكثر استقامة. أريد أن أشدّد هنا على أنني لم أقل قط إننا سوف نكون أكثر استقامة من المستقيمين، لكنني قلت إننا نتوقع أن نكون مستقيمين أكثر من المستقيمين. فعلت ذلك كي أشدّد على وجود المخاطر. أسفت بعد ذلك لكل ما ثار حول ما يُسمّى الفساد. كانت تلك مناورة موجهة لوسائل الإعلام، وسبق لنا أن استخدمناها عندما كنا في المعارضة. كانت الأهداف سهلة، لكن العواقب بعيدة المدى كانت كارثية. أدركت أننا كنا نتعامل مع شريك فاوست [الشيطان في مسرحية غوته]، لكن مع وجوده داخل اللعبة كان تسجيل الأهداف أمراً سهلاً جداً. أريد، للإنصاف، أن أقول إنني لم أتمكن من تصوّر أننا سنقوم ببعض الأمور التي أقدم عليها المحافظون.

لكنني فشلت في إدراك أننا سوف ندخل لعبة الحكم بدورنا كذلك، وأنهم في الوقت الذي يُحتمل أن يكونوا مختلفين سيثيرون الاستياء ذاته. يُضاف إلى ذلك أنني لم أدرك في ذلك الوقت جميع العواقب المترتبة على زيادة مقدار الشفافية التي كنا نخطط لها كي تكون جزءاً من إصلاحاتنا الهادفة إلى «تنظيف العمل السياسي». عزمنا، وللمرة الأولى، على نشر تفاصيل التبرّعات التي تتلقاها الأحزاب السياسية. لم ألحظ في ذلك الوقت حقيقة أن تبرعات كبار الأثرياء كانت شيئاً مقبولاً عندما كنا في المعارضة بوصفها علامة على الاحترام، لكن كان يُنظر إلى هذه التبرعات التي نتلقاها ونحن في الحكم على أنها محاولة لشراء النفوذ. كان قانون حرية المعلومات يُناقَش في اللجان الوزارية في ذلك الوقت. مثّلت هذه الخطوة عرضاً استثنائياً من

الحكومة للانفتاح [عرض شؤونها كافة] على البرلمان ورقابته عليها. كانت عواقب هذه الخطوة ثورية، لأن السلطة التي وضعتها تحت رحمة وسائل الإعلام القاسية كانت هائلة جداً. فعلنا ذلك بحرصٍ شديد، لكن من دون تبصّر. إن السياسيين هم من الناس، ولهذا تحدث الفضائح. لا أعتقد أن قصصاً كهذه تمتلك نهاية سعيدة، بل المؤكّد أنْ لا نهاية سعيدة لها. أما المفارقة هنا فهي أننا بدلاً من تحسين سمعتنا قمنا بتلويثها أكثر. شهدت الأشهر الأخيرة من العام ١٩٩٧ فضيحتين من هذا النوع. كانت إحداهما شخصية، أما الأخرى فكانت مالية.

أبلغني ألاستر قبل مغادرتي مباشرة لتمضية إجازة في الأول من آب/أغسطس أن صحيفة أخبار العالم قد نشرت مقالة حول روبين كوك وغاينر، التي كانت مساعدته لفترة طويلة. لم يكن مستغرباً في الأيام الماضية أن يحتفظ السياسيون بعشيقات، وأحباب، وعلاقات غرامية، لكن لم يكن من المناسب الكتابة عن هذا الموضوع لأنه يخالف بشدّة التقاليد السائدة في هذا الزمن. ففي حين كثُرت الكتابة عن الجنس هذه الأيام، وتعوّد الناس التحدث عن الجنس، حتى عن العلاقات الجنسية، بصراحة أكبر، إلا أنهم يتوقّعون من السياسيين التزام التقاليد السائدة، وفعل ذلك في سياق تكون فيه التجاوزات أقلّ عرضةً للمناقشات العلنية. كان القادة في الماضي من أمثال كِنيدي، ولويد جورج، وآخرين كذلك، يعيشون حياة لا يمكن أن يتصورها المرء أبداً هذه الأيام، وذلك وعلى الرغم من أننا نعيش الآن في أوقات أكثر تحرراً من الناحية الجنسية. إنني أميل إلى النظر إلى هذه الأمور بعينٍ واقعية (وهكذا حرصت على تجنب استغلال أي فضيحة جنسية للمحافظين قبل وصولنا إلى الحكم)، لكني كنت مدركاً أن العالم بأسره ينظر إلى الأمر بطريقة مختلفة.

لم أكترث كثيراً في البداية عندما انكشفت قضية روبين، لكن ألاستر اعتبر أنها قد تشكّل مشكلةً حقيقية. تعيّن علينا أن نحدّد موقفاً منها، وهذا هو وجه الصعوبة. كان روبين متزوجاً مارغريت، كما كان مرتبطاً بعلاقةٍ مع غاينر. كان من الممكن في الأيام الماضية أن تستمرّ الحال هكذا وبهدوء، لكنّ السؤال الذي يُطرح اليوم هو: مَن سيختار؟ تعيّن على ألاستر، وروبين بتلر، وأنا أن نتخذ قراراً ونحن جالسون في مكتبي الصغير في صبيحة يوم الجمعة، وهو اليوم الذي كنت سأغادر فيه كي أبدأ إجازتي.

هاتف ألاستر كوك في المطار حيث كان على وشك المغادرة مع مارغريت لقضاء إجازة. كانت محادثةً صعبة كما يُمكن للمرء أن يتخيّل. ما العمل؟ أبلغت روبين عندما تحدثت إليه أخيراً: يتعيّن عليك أن تختار. أما إذا لم تتخذ هذا القرار فسنخاطر بأن يفلت الأمر من أيدينا، بحيث يتسبب لنا بفضيحة كبيرة. أبلغته أنني يصعب عليّ أن أفهم كيف أن بإمكانه الحفاظ على العلاقتين في الوقت ذاته.

ربما كنت مخطئاً، ولربما يعتقد القارئ أنني أتدخّل في شؤون غيري من دون سبب، لكنني عجزت عن تصور حلٍّ يناسب المشكلة الأساسية: هل ستستمرّ العلاقة بعد أن علمنا بها، أم أنها سوف تتوقّف؟

كانت المهلة ستنتهي يوم الأحد، كما أن الأمر يتعلق بالخبر الرئيس الذي ستختاره أخبار العالم. كان كل ذلك يحدث للحياة الخاصة لشخص، وتعيّن علينا أن نجلس هناك في محاولة منا إعطاء أفضل نصيحة تكون في مصلحة ليس روبين فقط، بل في مصلحة الحكومة بأسرها. وإذا جاء الخبر الرئيس للصحيفة على النحو الآتي «وزير الخارجية يترك زوجته من أجل امرأة أخرى» فسيحمل القليل من الإثارة، أما إذا كان على النحو الآتي «وزير الخارجية يخوض صراعاً غرامياً – من سينتصر؟» فالخبر سيستمر لأسابيع.

اضطررنا لأن نكون صريحين مع روبين على الرغم من أن الأمر بدا بشعاً. قلنا له إن من الضروري أن يتحدث مع مارغريت، وأن يختار، وأنه مضطرّ أن يفعل هذا قبل ظهور عناوين عدد الأحد، أي عصر اليوم التالي.

أدركت بعد ذلك أن مارغريت منزعجة جداً وشعرت بأن ألاستر وأنا نضغط على روبين كي يتركها، لكن الأمر لم يكن كذلك في الواقع. كان روبين يحب غاينر في واقع الأمر، وهي التي كرست نفسها له. اتخذ قراره، لكنه أعلنه في اليوم التالي. تعاملت وسائل الإعلام بتعاطفٍ نسبي مع هذه القضية، وذلك بسبب طريقة معالجة ألاستر لها، ولهذا فقد تحوّل التركيز بسرعة إلى مواضيع أخرى.

أتاح لي منصبي كرئيس وزراء معرفة أسرارٍ ومعلومات عن طريق معرفتي اتهاماتٍ كثيرة. أريد أن أثبت هنا أمراً قد يكون مريعاً، وقد لا يكون: يشبه السياسيون، في واقع الأمر الأشخاص الآخرين كافة. يتمتع بعضهم بزيجاتٍ عن حب، وبعضهم

الآخر يعيش زواج مصلحة، وينغمس بعضهم بعلاقاتٍ غرامية، وبعضهم مستقيمون، وبعضهم الآخر شاذون.

يتساهل الناس، إلى حدّ ما، مع الأخطاء الجنسية. إن لبّ هذه القضية ليس العلاقات الجنسية غير الشرعية، لكن التعقيدات المترافقة معها. تنشأ المشاكل عادة عندما تتمكن وسائل الإعلام من اكتشاف إساءة استخدام «المصالح العامة»، أو عند التنقيب عن هذه الإساءات، أو حتى اختلاقها وصولاً إلى إثبات فضيحة. شكّل هذا الأمر هفوةً أمنية، وهكذا تعرضت المعلومات الحكومية للخطر، كما أنه كذب بشأنها، واستُخدِمت الموارد الحكومية في سياق هذه الفضيحة. يُمكن أن يتحول هذا الأمر إلى قضيةٍ محرجة جداً، لكن فضيحة جنسية بسيطة وغير معقدة، إذا كان هناك من وجود لهذا الأمر، يُمكن أن يتساهل معها الرأي العام.

أما الفضيحة المالية فهي أمر مختلف. يتمتع المال بفاعلية وخطورة أكبر من الجنس. عانينا فضيحةً كهذه أيضاً قبل انتهاء السنة الأولى من ولايتنا، وتعلّمنا في سياقها درساً كبيراً.

تبرع بيرني إكسلستون، وهو رئيس الفورمولا واحد، بمبلغ مليون جنيه استرليني لحزب العمال. سبق للرجل أن تبرع بالمال لمصلحة حزب المحافظين، وكان ذلك في وقتٍ لم تكن فيه القوانين التي تنص على التصريح بالتبرعات قد دخلت حيّز التنفيذ. حضر بيرني كي يلتقينا لمناقشة مسألة مهنية تتعلق بالفورمولا واحد. كان الاتحاد الأوروبي يسعى إلى منع إعلانات التبغ في هذه الرياضة. أراد بيرني منحه بعض الوقت قبل تطبيق ذلك القرار.

أقول، إنصافاً للحقيقة، إن الرجل لم يربط قط بين هديته والسياسة، وهو لذلك تصرّف بطريقة صحيحة طوال هذه الفترة. تسلّمنا هديته قبل الاجتماع، وبقي الباب مفتوحاً بطبيعة الحال لتلقي المزيد من هذه التبرّعات. كنت سألاحظ ضخامة هذا الرقم على أي حال، علماً أن صناعة الفورمولا واحد توظف عشرات آلاف من الناس، وكنت سأتخذ القرار بتطبيق هذا القرار على مراحل مقسمة على عدة سنين.

تبيّن لي فيما بعد أنني أخطأت في هذه المسألة، أي في عدم وضع نظام من أنظمة الخدمات المدنية موضع التنفيذ، وذلك للتأكد ليس من مراعاة الصلاحية

فقط، بل للتأكد من تطبيقها. لم نجهد كثيراً في تطبيق هذا النظام كما ينبغي، ولربما كان لنا عذرنا في ذلك. (وكذلك كان الحال مع بيرني، الذي لم يكن له العذر في ذلك، لأنه لم يربط قط بين تبرّعاته وعدم تطبيق القانون ولو حتى ضمنياً).

أدركت في ذلك الحين أن المرء ما إن يتولى الحكم حتى يتغير تطبيق القوانين التي تتعلق بالأموال وبطريقة مختلفة جداً. ربما يعتبر القارئ أن لا مشكلة في ذلك، لكن المشكلة الأساسية، التي تزايدت بمرور السنين، هي أن الأحزاب جميعاً تحتاج إلى تمويل. إن الأموال التي يُمكن للحزب جمعها من الأعضاء العاديين تصل إلى سقفٍ معين، لكن المتبرعين الكبار، كما كان يُطلق عليهم، يتمتعون بأهمّية كبيرة. سبقنا المحافظون في الإنفاق، حتى في العام ١٩٩٧. أنفق المحافظون في العام ١٩٩٢ أموالاً أكثر منا بنسبة خمسة إلى واحد، هذا في حين أن تسعين في المئة من أموالنا كانت تأتي من النقابات. تدلّني تجربتي على أن النقابات هي الوحيدة من بين الممولين الذين يربطون، بوضوح وباستمرار، بين المال والسياسة. صمّمت حينئذ على تحرير حزبنا من هذه التبعية، لكن ما إن تولينا الحكم حتى اعتبر الجميع أن لا وجود لتبرعٍ كبير ينبثق عن نية صافية.

ستبقى طبيعة دوافع التبرع منوعة أو متداخلة بطبيعة الحال. والناس يتبرعون للأعمال الخيرية لأسباب متنوعة ومتداخلة. أقول، لكي لا يُساء فهمي، إن الرغبة في فعل الخير قد تكون أهمّ هذه الأسباب. لكن التبرّعَ للأحزاب السياسية، أقله في المملكة المتحدة، لا يُعتبر للوهلة الأولى أنه يهدف إلى مساندة سياسات معينة، بل لشراء النفوذ. يبدو الأمر معقداً بالفعل، وهو كان مؤشراً قوياً على الأشياء التي ستحدث في المستقبل.

تعلّمت من هذه الحادثة درساً وجدت أنه صعب التطبيق حتى بعد أن تعلمته. تمثّل جزء من المشكلة في أن الفضيحة تتسلل ببطء وتفاجئ المرء. إنها تجتذب عدداً كبيراً من وسائل الإعلام وتدفعها إلى حبكها وتطويرها. يحاول المرء في هذه الأثناء أن يبحث عن الحقائق، وأن يستنبط خط مواجهتها، وأن يفكر في الجهة التي يجب أن يدعمها بطريقة شرعية. تعتمد مهن الناس، وحياتهم، على قراراتٍ تؤخذ في لحظةٍ واحدة، وكثيراً ما تكون هذه القرارات مستندة إلى معلوماتٍ مغلوطة. تتعرض قدرة المرء على اتخاذ القرارات وحواسه إلى ضغوطٍ كثيرة عندما تثور العواصف،

بحيث تكون عرضةً لأمواج انكشافاتٍ جديدة، حتى يخيّل إليه أنه لن يصل أبداً إلى شاطئ الأمان.

صدّقوني. تعتبر الفضيحة كابوساً حقيقياً في عالم السياسة. يُمكن للرأي العام أن يستنتج أن السياسيين هذه الأيام هم أسوأ من سياسيي الأيام الماضية. لكن هذا الرأي هو مجرد تفاهة، لأن الفرق هو أن الرقابة صارت أكبر، كما أن الشفافية المتوقعة أصبحت تمتلك طبيعة مختلفة تماماً. أما الهستيريا المرافقة للمناقشة العلنية للموضوع فهي أعلى بدرجاتٍ كبيرة، كما أن سرعة انتقالها هي سرعة طائرة نفاثة مقارنةً بسرعة جرّار زراعي. بقي الناس كما هم، لكن المجال صار أبعد بكثير مما كان عليه قبل عشرين عاماً.

شارفت الأشهر الأولى من تولينا الحكم نهايتها. أما أهمّ إنجازاتنا التي نفتخر بها في تلك الفترة فكانت التغييرات الضخمة التي بدأنا بتطبيقها ليس في مجال السياسة فقط، بل في مجال الثقافة كذلك. أطلقنا في هذه الفترة برنامجاً تشريعياً طموحاً يتضمّن تعديلات هامة في الدستور، واقتراحاً يتعلق بالحد الأدنى للأجور، واقتراحاً يتعلق باستقلالية بنك إنكلترا، مما يكرس تحولاً كبيراً في طريقة حكم البلاد.

بدأت الغيوم بالتلبد حتى في هذه المرحلة. فقدنا صورة براءتنا بالنسبة إلى الفضائح. شهدنا وقتئذ النُذُر الأولى للصراعات المستقبلية على السلطة. لكنها كانت بداية طيبة في الإجمال. كنا حكومةً جديدةً لم تتعرض للاختبار بعد، ومع ذلك لم نسقط. وقفنا على أقدامنا وتولينا الحكم. كنا راضين، وهكذا كانت البلاد.

الفصل الخامس

الأميرة دايانا

عدت من إجازتي الصيفية نشطاً ويقظاً. سارت الأشهر الأولى منذ دخولي ١٠ داوننغ ستريت على ما يرام، وهو الأمر الذي كان متوقّعاً. شهدنا عدة بدايات خاطئة، وفاتتنا فرصٌ عديدة، واتخذنا بعض القرارات غير المناسبة، لكنّ المزاج العام كان مرتاحاً جداً إلى حد أن الحكومة بدت وكأنها تعيش في نعيم. يتميّز الرأي العام بالغرابة، لأنه عندما يحتضنك يستنتج المرء أن هذا الاحتضان عميق ويتمتع بجذور ثابتة إلى حد أن يتساءل عن كيفية تبدّل هذا الرأي. يُمكن أن يتغيّر هذا المزاج بالتأكيد، وهو يتغيّر بالفعل، لكن في هذه الأثناء يشعر المرء بأنه مدفوع بهذا المزاج بسهولة، أو بأنه يتراجع إلى الخلف من دون رحمة. يجري الأمر وكأن المشاعر، سواء أكانت طيبة أم سيئة، ستدوم إلى الأبد.

إن قدرة وسائل الإعلام على صوغ هذا المزاج هي قدرة حاسمة. وعندما يكون هذا المزاج لطيفاً فهو يكون لطيفاً بالفعل: فالأخطاء هي مجرد غرائب فاتنة، والأغلاط طريفة، أما العملية المؤلمة لاتخاذ القرارات فهي، ببساطة، انعكاس لإحساس عميقٍ بالمسؤولية لوضع الأمور في مسارها الصحيح. أما عندما يكون المزاج العام قاسياً فالأمر يشبه مواجهة رياح عكسية هوجاء، فيتم تضخيم كل هفوة، وتُستحضر التجاوزات القديمة وتُسرد بحيوية متجددة، أما العملية المؤلمة لاتخاذ

القرارات فتتحول إلى مجرد انعدام للأهلية. يفعل المرء الأمور ذاتها، وبالطريقة نفسها، لكن طريقة تقييمها تتغيّر تماماً.

إن مفاهيم مثل حزب العمال الجديد، وبريطانيا الجديدة ليست مجرد زهو فقط، بل تترافق، على العكس من ذلك، مع شيء حقيقي في مزاج البلاد. كنا، في واقع الأمر، نلامس سطح مواضيع متعددة من السياسات المتعلقة بالخدمات العامة، والرفاه الاجتماعي والتقاعد، لكن الأمور لم تسر كما بدت في تلك الأشهر القليلة الأولى.

كانت حكومة المحافظين مثيرةً للجدل بسبب سياساتها، لكن يُمكن للمرء أن يعتبر ذلك شيئاً طبيعياً في السياسة. إن النهج المتحرر الجديد تجاه الشركات الصناعية، وتجاه المواجهة مع النقابات، والأزمات الخارجية، قد ترك آثاره. يمكننا القول، ولأسبابٍ عديدة، إن البرنامج الذي حكم المحافظون بموجبه كان عرفاً شائعاً في العالم كله. اتبعت تلك الحكومة سياسة محافظة تماماً، الأمر الذي صار في حكم القديم. انتقدت الحكومة، على سبيل المثال، اليساريين في حزب العمال في لندن لأنهم كانوا يؤيدون حقوق الشاذين جنسياً. نجح الأمر بالنسبة إلى الحكومة في الثمانينيات، لكن الأمر انعكس عليها سلباً في التسعينيات. كان ما تميز به المحافظون من جمود، وأبهة، وعبادتهم للتقاليد يعود إلى عصر مضى. كان جون مايجور، وبطرقٍ عديدة، مختلفاً عن هذا كله، وكان قادراً بالفعل على إخراجهم من ذلك الجمود، لكن تمثلت مشكلته في أنه لم يتسلم زمام الأمور البتة.

سقطت الأسباب التي تدعو إلى البقاء مع المحافظين في اللحظة التي بدأ فيها حزب العمال بتكسير السلاسل التي تقيّده بماضيه، أي عندما بدأ يتصرف بطريقةٍ حديثة فيما يتعلق بالاقتصاد، وبدأ يتصرف بعقلانية بالنسبة إلى قضايا مثل الدفاع والجريمة. دَفَعنا مزاج الحداثة عندنا إلى أن نصبح أقل تبجيلاً، وأكثر تحرراً تجاه القضايا الاجتماعية، وأن نكون أقل اهتماماً بالطبقية، وأن نميل أكثر إلى نظام الكفاءة والجدارة. لم يشكل كوني تعلمت في مدرسة خاصة، وكون جون مايجور تعلم في مدرسة حكومية، أي أهمية في هذا المجال. أعرف أنني قدت الحزب بعقلية واحدة، أما هو فقد كان مقيداً بالحزب.

امتد هذا التغيّر بالمشاعر عميقاً في ركائز الحياة العامة. وقد شمل العائلة المالكة

بطبيعة الحال، وهي التي امتلكت رمزها الخاص: الأميرة دايانا. كانت أيقونةً في ذاتها، وربما كانت أشهر شخصية في العالم، وأكثر شخصية التُقطت لها الصور. مثّلت الأميرة جوهر حقيبةٍ برمّتها، وأمسكتها في راحة يدها. وصل الأمر إلى حد أنها وضعت تعريفاً لتلك الحقيبة.

كان ذلك مربكاً بالنسبة إلى العائلة المالكة ككيان، أو كمؤسسة، إذا أردت. طغت شخصيتها وتألقت أكثر من الآخرين فيما يتعلق بجاذبيتها، وقدرتها على التواصل مع الناس، وفي جرأتها على اعتناق كل جديد، وكانت مجلبة للنقد أكثر مما كانت سنداً. لا أريد القول هنا إنها لم تتوافق بالمرة مع الأسرة المالكة ومع تقاليدها المتوارثة كافة، لأنها تمكنت من ذلك، لكن طريقتها في تحويل التقاليد إلى نهج حديث كانت جريئة إلى حد أنها نضحت بالفرادة، ولذلك شكل ذلك النهج خطراً. وطئت الأميرة في ذلك الوقت أماكن محظورة ومسيّجة بعناية، وهدمت مجموعات من تقاليد الآداب الملكية بطريقة رافضة كانت حماقةً تامةً بمستوى معين، وعبقريةً تامةً بمستوى آخر. راقبت الأسرة المالكة هذه الأمور كلها بمزيج من العجز والرعب. كانت أذكى، بطبيعة الحال، من أن تقدم دعمها لأي حزب سياسي. لاحظت تناغماً تاماً بمرور الوقت بين المزاج الذي طورته بنفسها، وذلك الذي كنا نمثله. إن ما تبناه حزب العمال على نحو جزئي تبنته كلياً.

تمكّنت من التعرف إليها بما يكفي قبل انتخابات العام ١٩٩٧. دعاني زميلي في حزب العمل، اللورد ميشكون إلى مأدبة عشاء كي ألتقيها. وكانت صديقتي ماغي راي تعرف أولئك الذين يعرفونها، ولذلك دعاها للغداء هي الأخرى. بقينا على اتصالٍ بعد ذلك، وكنت ألتقيها بين حين وآخر.

كانت فاتنةً على نحو استثنائي. تضخّمت الهالة المحيطة بها بفعل مزجها الهائل بين سلوكيات أميرة من العائلة المالكة، والحياة العادية التي كانت تظهرها. كانت أميرة وتبدو مرتاحة تماماً، وإنسانية، وفوق ذلك كله كانت مستعدةً للتعامل مع الآخرين على أساس متساوٍ. لم تكن من النوع الذي يقدم تنازلات، وكانت تضحك بطريقة طبيعية، وتتحدث مع الآخرين بطريقة عادية، وكانت تقدم عبارات الإطراء بطريقة عادية كذلك. كان سحرها الكبير هو قدرتها على التعامل مع أي مجموعة من الناس في أي مكان.

كانت تمتلك، بالتأكيد، ذكاءً عاطفياً قوياً، لكنها كانت مقتدرةً كذلك في مجال الفهم التحليلي. تحادثت معها ذات مرة عن فائدة الصور وقوتها، وعن كيفية الاستفادة منها على النحو الأمثل. بيّنت لي هذه المحادثة أنها تمتلك عقلاً لا يتصف بالقدرة على الحدس فقط، لكن بقدرة فعلية على المجادلة والإثبات. فكرت دايانا في الأمر ملياً. كانت تتصل هاتفياً بين وقتٍ وآخر كي تخبرني عن سبب كون صورة ما مقدسة، أو لكي تخبرني عن الأمور التي كان يُمكن أن تؤدى بطريقة أفضل، كما كانت تمتلك، ومن دون أن تدخل في سياسة الحزب، إدراكاً تاماً للأمور التي كنا نحاول إنجازها وسبب ذلك. كنت أداوم على إبلاغ ألاستر أنها إذا مارست السياسة ذات مرة فعلى السياسيين أن يحترسوا، بمن فيهم كلينتون.

يمكننا القول إنها كانت قوية الإرادة كذلك، وإنها كانت تتصرف بطريقتها هي. شعرتُ بأنها تستطيع أن تختلف معك في الرأي، أو أن تتفق معك. كانت تدرك تماماً مدى قوة حضورها وسحر هذا الحضور، وكثيراً ما كانت تستغلّ قدرتها هذه في أعمال الخير. لمست كذلك بعض الخشونة في عواطفها. يعني ذلك أن الغضب، أو الاستياء حينما يجتمعان مع تلك القوة فذلك يعني الخطر. أُعجبت بها بالفعل، وبالطبع كنت معجباً كبيراً بأميرة جميلة مثلي مثل أي رجلٍ آخر، لكني كنت حذراً في الوقت ذاته.

كنا، على أي حال، منشغلين بتغيير صورة بريطانيا، وكانت هي تجسّد صورة العائلة المالكة، أو لربما بكلمات أكثر دقة، إن تباينها مع الأسرة المالكة قد أوضح مدى ضآلة التغيّر الذي طرأ على العائلة. إن الشخص الواعي، الذي يفكر على المدى البعيد في شؤون العائلة المالكة، وفي مستقبلها كملكة، كان سيشعر بالقلق العميق حيال هذا الوضع. تعرف الملكة، فوق كل شيء، أهمية أن تمثل العائلة المالكة التاريخ، والتقاليد، والواجبات. كانت تعرف كذلك ضرورة أن تتطور العائلة المالكة مع الشعب، وأن عهدها غير المكتوب وغير المعلن مع الشعب، كان مبنياً على علاقة تسمح بالتطور، ولذلك يتعيّن على هذه العائلة أن تكون مستقرة، ومنظمة بعناية، ومنضبطة. عبر هذا النيزك غير المتوقع تلك البيئة المنضبطة على نحو مفاجئ، الأمر الذي خلّف عواقب غير متوقعة. امتلكت الأسرة المالكة سبباً وجيهاً للقلق بسبب ذلك.

توجّهت إلى سيدجفيلد وذلك بعد الإجازة وقبل زيارتي الأولى إلى بالمورال

حيث يُعقد الاجتماع الأسبوعي لرئيس الوزراء مع العائلة المالكة، وهو تقليد يعود إلى عهد غلادستون والملكة فيكتوريا. كان أمراً عظيم الأهمية أن أعود إلى بالمورال بصفتي رئيساً للوزراء. كنت فخوراً بالعائلة المالكة، وكانت فخورةً بي. استمر ذلك الشعور عموماً حتى النهاية، وعلى الرغم من أنني منذ أن أصبحت زعيماً للمعارضة لم أتردد إلى العائلة بالانتظام الذي تعودته سابقاً، لكنها كانت ترحب بي كلما زرتها. كنت أتوجّه بعد الزيارة إلى اجتماع اللجنة العامة لفرع الحزب المحلي كي أعطي تقريري، ثم كنت أمضي نحو ساعة أو ساعتين بالحديث وتبادل الآراء، والإجابة عن الأسئلة التي كنت أتلقاها من أشخاص كنت أعرف بعضهم منذ العام ١٩٨٣، وهم الأشخاص الذين تابعوا صعودي السياسي. كنت أتحدث بصراحة تامة في تلك القاعة. كنت أعتبر أن التحدث مع أشخاص أثق بهم ثقةً تامة امتياز لي، وكل ذلك تحت العين اليقظة لجون بيرتون. شعروا بدورهم أن تمكنهم من التواصل معي هو امتياز لهم، وشعروا كذلك بأنهم جزء من تاريخ في طريقه إلى التشكل.

كنت أزور حانة دون كاو في سيدجفيلد فيلاج، أو نادي العمال في القرية. كان الناس وديين هناك، لكنهم كانوا يحترمون انسحابي بعد كأس أو كأسين كي أرتاح. كنا نادراً ما نناقش الأمور السياسية إلا إذا اجتمعت حول مائدة العشاء مع جون وليلي بيرتون، وفيل ويلسون (الذي خلفني فيما بعد في مقعد سيدجفيلد النيابي)، وبيتر بروكس وزوجته، وكانوا جميعاً لطفاء ومحترمين. يُضاف إليهم بول تريبيت، وهو رجل خشن ومتصلّب، لكنه محبوب، ورجل ذكيّ جداً عمل نادلاً في نادي الرجال العاملين، وهو الذي أصبح صديقاً عزيزاً لي. كنا نتحادث، ونستعرض شؤون ناخبينا. كنت أستمزج آراءهم فيما يتعلق بالقضايا الراهنة، وتبيّن لي أنهم يمتلكون حدساً عظيماً للمواقف التي يتخذها الرأي العام. امتلكت الشعور ذاته على الدوام، وذلك بفضله. مثّل هؤلاء شريحةً هامةً من الشعب البريطاني. كانوا يقرأون جريدة الغارديان، لكن من دون أن يتبنوا آراءها بالضرورة. لم يكونوا من أنصار صحيفة «لندن»، كما أنهم لم يكونوا من قراء الدايلي مايل النموذجيين، لكنهم كانوا على درجة عالية من الوعي السياسي، ويعرفون أناساً كثيرين من خارج عالم السياسة.

كانوا كذلك مثالاً هاماً على أن التصنيفات القديمة للناس لم تعد مناسبة بعد الآن. تطابقت سياستي مع ذلك تماماً، لكن كان من الصعوبة بمكان أن نحمل فئات

المعلقين السياسيين على ملاحظتها. كانت سيدجفيلد دائرة «الطبقة العاملة الشمالية» إلا إذا تعمقنا قليلاً تحت السطح، وعندئذ لا يعود هذا التعريف مناسباً. أجل، يمكن للمرء أن يتوجه إلى أي قرية من قرى التعدين، مثل تريمدونز، وفيشبيرن، وفيري هيل، وشيلتون، وغيرها، ليجد نمطاً معيناً بعد البحث، لكن الأمر لم يعد كذلك. تحولت المنازل القديمة إلى ملكيات خاصة تحتوي على غرفتَي نوم أو ثلاث. لا يمكننا أن نصف السكان هناك على أنهم «طبقة وسطى»، أو «طبقة عاملة»، بالمعنى الذي قصده آندي كاب. يشرب السكان هناك الجعة، ويترددون إلى المطاعم كذلك، كما أنهم يمضون إجازة، أو إجازتين، أو حتى ثلاث إجازات في السنة، وهم لا يمضون هذه الإجازات في بينيدورم لوحدها.

كانت هذه بريطانيا مختلفة، وهي مكان شعرت فيه بأنني في منزلي. ظهرت مقالة من مقالات الدايلي مايل المعتادة، تحدثت عن مدى تصنّعي وخداعي لأنني قلت إنني أحب السمك ورقائق البطاطا، لكن عندما أكون في لندن، وفي منزلي في أيلنغتون، فمن المعروف أنني أتناول المعكرونة (يا للإثارة المتعمدة في هذا الكلام). أعتقد، ببساطة، أن المرء لا يمكنه أن يحب هذه الأصناف معاً، لأنها علامات على مجتمعَين مختلفين غير متوافقين. كان سكان بريطانيا في أواخر التسعينيات يأكلون أنواعاً متعددة من الأطعمة، كما كانوا يحتضنون تجارب ثقافية مختلفة ويستمتعون بها. كانت تلك سمة «أعلى الشمال»، مثلما كانت سمة «أسفل الجنوب». بدأ العالم بالانفتاح في ذلك الحين، كما أن أصدقائي المقربين في سيدجفيلد كانوا رمزاً لذلك التغيّر. كنت مرتاحاً هناك وأتمكّن من التصرف على سجيّتي لأنهم كانوا هناك، وهكذا كنا مرتاحين جميعاً.

تغيّرت الأمور في منزلي في المنطقة، كما تغيّر كل شيء في حياتنا. تمتعت المنطقة بحراسة الشرطة طوال ساعات النوم، لكنها لم تكن مشددة مثلما أصبحت فيما بعد، لكن الشرطة كانت موجودة على الدوام. تغيرت الطرقات كي تحدّ من الوصول إلى القرى، لكنها بقيت تماثل ذلك الجزء من حياتنا الذي بقي ثابتاً ولم يتغيّر. كانت الأجواء مألوفة تماماً وهادئة.

تركزت أفكاري في مساء الثلاثين من آب/أغسطس من العام ١٩٩٧، على ذلك

القلق الدائم بشأن تعاوننا لوضع برنامج يجعل من التغييرات تتناسب مع بلاغة التعبير عنها. شعرت بالقلق لإمكانية أن لا يلاحظ الناس التغييرات الكبيرة بالسرعة الكافية، وعندئذ سيبدأ التهكم والتشكيك فيها. أدركت أننا نمتلك المبادرة السياسية، وأن المحافظين كانوا منعزلين وغير منضبطين، لكني كنت أعلم كذلك أن سيطرة وسائل إعلامنا كانت هشّة، وتستند في حالاتٍ كثيرة إلى المصلحة وليس إلى القناعة. كان ذلك ينطبق على جناحَي حزبنا. كنتُ أعلم أنهم ما إن يقرروا الهجوم علينا حتى يبدأوا بالتركيز على أسلوب سياستنا إذا لم يجدوا ما يركزون عليه في مضمونها، وذلك في سعي منهم لتحويل نقاط قوتنا إلى نقاط ضعف، وتحويل نجاحنا السياسي ذاته إلى نوع من أنواع الخديعة. كانت وسائل الإعلام اليمينية ستفهم في مرحلة من المراحل أننا لسنا بالفعل نوعاً من الثاتشرية المعتدلة، كما أن وسائل الإعلام اليسارية ستدرك أن حزب العمال الجديد كان جدياً، وغير مستعدّ للانحناء أمام المطالب المعتادة لليسار.

ربما كنت كذلك منشغلاً بمرافقة الأولاد إلى أسرّة نومهم، وهي كانت مهمتي في العادة، وتهدئتهم (وهو الأمر الذي لم يكن سهلاً بالنسبة إلى ثلاثة أولاد تراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة، والحادية عشرة، والتاسعة)، وكنت أحضر لهم المشروبات، وأقرأ لهم القصص، وكنت آمل أن يمنحونا فترة هدوء كافية كي نتناول وجباتنا معاً.

توجّهت إلى سريري في تلك الليلة قرابة الحادية عشرة والنصف. حدث شيء في منتهى الغرابة. يصعب عليّ عادة إيقاظ شيري بعد أن تستسلم للنوم، لكني استيقظتُ ورأيت رجل شرطة يقف إلى جانب السرير، وهو أمر شكّل لي مفاجأةً تامة. جهدت كي أستيقظ تماماً، وأخبرني خلال ذلك أنه حاول قرع الجرس، لكن يبدو أنني لم أسمعه. أبلغني الشرطي أن الأميرة دايانا قد أصيبت بجروح خطرة نتيجة حادث سيارة، وأنه يجدر بي أن أتصل بالسير مايكل جاي، وهو السفيرالبريطاني في باريس.

استيقظت تماماً في هذا الوقت، واستيقظت شيري بدورها. شرحت لها الوضع، وأسرعت إلى الطابق السفلي حيث وصلتني داوننغ ستريت هاتفياً مع مايكل. اتضح لنا منذ البداية أن من غير المحتمل أن تنجو الأميرة من هذا الحادث، ووصف لي مايكل جروحها. أبلغني أن صديقها دودي الفايد والسائق قد قُتلا على الفور، أما الحارس الشخصي فما زال حياً لكنه غائب عن الوعي.

اتصلت مع ألاستر هاتفياً. قال لي إنه سمع بالخبر من متابعة جميع وسائل الإعلام. شعر كلانا بصدمة كبيرة، وعجزت عن تصديق ما حدث. امتلكت الأميرة تأثيراً كبيراً في حياة الناس، وشغلت حيّزاً مهماً من الحياة العامة للبلاد، لذلك كان من الصعب علينا أن نفكّر أنها ميتة مع كل الحيوية الواضحة، والمتدفقة، والراسخة التي كانت تميّزها.

تلقيت اتصالاً ثانياً عند الرابعة فجراً وأُبلغت أنها توفّيت. أثنى مايكل كثيراً على طريقة تعامل الفرنسيين مع هذه القضية. قال لي إن وزير الداخلية جان بيير شوفينمان، ووزير الصحة برنار كوشنير، والرئيس شيراك قد أظهروا الكثير من الحساسية، والتعاون، والاحترام تجاه هذه القضية. تتالت الاتصالات الهاتفية منذ ذلك الوقت. حاولنا من خلال هذه الاتصالات وضع تصور لكيفية التعامل مع هذه المسألة.

أعرف أن كلامي هذا قد يحمل بعض القسوة، لكني شعرت بحزنٍ حقيقي. كنت معجباً بها وشعرت بأسفٍ بالغ تجاه الولدين، لكني كنت أعرف أن هذه القضية ستصبح مناسبة قومية وعالمية كبرى، الأمر الذي لم يحدث من قبل. كان خروج بريطانيا بعد هذه القضية أمراً بالغ الأهمية بالنسبة إلى البلاد داخلياً وخارجياً. كنت أنا رئيس الوزراء، ولذلك تعيّن عليّ وضع تصورٍ لما ينبغي عمله. توجب عليّ تنظيم ما كان سيتحوّل إلى موجةٍ عارمةٍ من الشعور بالحزن والخسارة، وبطريقة لائقة تعبّر في الوقت ذاته عن العاطفة والحب (ليس في هذه الكلمة أي مبالغة)، اللذين يكنهما لها الشعب.

لو كانت الملكة هي التي توفّيت لكان الأمر بسيطاً بمفهوم ما: كان الشعب سيعبّر عن قدرٍ كبير من الاحترام والثناء، لكن هذا الشعور برمّته كانَ تقليدياً على الرغم من أنه شعورٍ عميق بالفعل.

شعرت، بالإضافة إلى الحزن، بشيء آخر نتج عن آخر لقاءٍ لي مع دايانا. لم يكن الأمر سهلاً إلى هذه الدرجة. أرادت الأميرة القدوم إلى شيكرز (منزل رئيس الوزراء الريفي)، واقترحت موعداً لذلك في حزيران/يونيو الأمر الذي قبلته. شعر ألاستر، على الرغم من إعجابه بها، و١٠ داوننغ، بأن من غير المناسب لي أن ألتقيها قبل لقائي الأمير تشارلز، وبأن الأمر معرض لإساءة الفهم. وافقت، بتردد، على هذا التحليل،

وأعدنا تحديد الموعد ليكون في تموز/يوليو. خمّنت الأميرة، بفطنتها المعتادة، أن تغيير الموعد كان مقصوداً، ولذلك شعرتْ بالانزعاج الشديد تجاه المسألة.

أتت في الموعد المحدّد مع الأمير وليام. كان الطقس يومئذ رائعاً، وبدا المنزل الريفي جميلاً. شعر الموظفون بالحماسة الشديدة لقدومها، وكانت لطيفة وودودة مع الجميع. تحدّثنا عما يُمكن أن تفعله للبلاد ولكن بطريقة رسمية. لم تكن هذه الأمور واضحةً حينئذ على الرغم من حماستها لعمل شيء ما. كانت سنداً عظيماً من دون شك، كما شعرتُ بأن من المناسب أن تُعطى الفرصة للتركيز على أمورٍ أخرى غير حياتها الخاصة. شعرت كذلك بأن من الممكن أن أكون أقلّ تمسكاً بالشكليات في هذه الأيام، وبأن دودي الفايد كان مشكلةً كبيرة. لم تكن أسباب قولي هذا هي الأسباب نفسها التي تجعل الكثيرين ينفرون منه مثل جنسيته، ودينه، أو خلفيته، وهي الأسباب التي لا أهتمّ بها مطلقاً. لم يسبق لي أن التقيته شخصياً، لذلك لم أمتلك مبرّراً كي أشعر بالانزعاج منه. كان كل ما أعرفه هو أنه ابن صالح، وأنه شاب لطيف، وهذا هو رأيي الشخصي به. أريد أن أكون صريحاً هنا وأقول إنني لا أستطيع تحديد ما هو العيب فيه، لكني شعرت بعدم الارتياح تجاهه، كما أنني كنت أعرف بعض أصدقائها المقربين، وهم أشخاص أحبوهما بالفعل، وهم من الذين يكنون الشعور ذاته.

أحضرنا الأولاد في ذلك اليوم الرائع إلى المنزل الريفي، ورجال الشرطة، وفرقة حماية، والموظفين. لعبنا كرة القدم معاً في الفسحة العشبية الخلفية حيث كانت تُقام مباريات رائعة بكرة المضرب في الثلاثينيات من القرن الماضي. كان ملعباً رائعاً لكرة المضرب، وكنا نتسلى كثيراً. توجه الجميع، بمن فيهم الأمير وليام، للمشاركة في اللعب ما عداي أنا ودايانا. فكرت في أن المسكين كان يتساءل عن السبب الذي دفع بوالدته لإحضاره، لذلك لم يكن يرغب في المشاركة في لعبة كرة القدم، لكنه شارك في اللعب بروحٍ رياضي.

تنزّهت برفقة دايانا في المكان. وبّختني بلطف، لكن بوضوح، على إلغاء الموعد في حزيران/يونيو. إنني أتساءل كيف كنت سأتعامل معها هذه الأيام. فتحت معها، وبصراحة، موضوع علاقتها مع دودي الفايد. لم تُظهر ارتياحاً لفتح هذا الموضوع، وشعرتُ بأنها تجهد كثيراً لكبح مشاعرها. لكنها لم ترفض التحدث عن الموضوع، وهكذا مضينا بالحديث عنه وعما يُمكن أن تفعل. كانت المحادثة غير مريحة في

بعض المراحل، لكنها كانت ودّيةً ودافئةً في نهاية المطاف. بذلت أقصى جهدي كي أُظهر أنني سأكون صديقاً حقيقياً لها، ولهذا يمكنها أن تنظر إلى صراحتي معها في هذا السياق. شاركت بعد ذلك في لعبة كرة القدم بينما اكتفت هي بالمشاهدة والضحك مع الموظفين، كما التقطت صوراً معهم، وأظهرت طيبةً كبيرةً تجاههم. كانت تلك آخر مرة رأيتها فيها.

فكرت بعمقٍ في موتها، وماذا عساي أن أقول، وشعرت بإحساسٍ بالواجب بالإضافة إلى شعوري بالحزن. شعرتُ بأنني مدينٌ لها بأن أتذكر بعض الأشياء عن طبيعتها. كنت أنا وإياها نعرف كيف نخطط، ونفهم مشاعر الآخرين بسرعة، ونتمكن من التعامل معها، لكني كنت أعرف عندما تتواصل مع المعاقين أو المرضى بطريقة يعجز عنها الجميع وكل الذين هم في مركزها، أنها تفعل ذلك بصدقٍ وإخلاص. كانت تعرف تأثير هذا الصدق بالطبع، وما كان يُمكن لهذا التأثير أن يكتسب هذه القوة لو لم تكن مشاعرها صادقة. جلست في مكتبي في تريمدون، بينما كانت أنوار الفجر الأولى تتسلل من خلال النوافذ، وفكرت كيف أنها كانت تحبّ أن أتحدث عنها.

كانت تنتظرنا هناك مجموعة كبيرة من الإجراءات والأمور التنظيمية. تعيّن علينا الردّ على عددٍ كبير من المكالمات الهاتفية وإجراء عددٍ آخر منها، وذلك لترتيب كيفية عودة الجثمان، وكيفية تنظيم المأتم، وتنظيم أعمال الحكومة (هل سيستمرّ الاستفتاء في اسكتلندا أم لا، مثلاً). تعيّن علينا التركيز على كل شيء بدءاً بالأمور الهامة إلى أقلّها أهمّية، لأن الأشياء العادية قد تكتسب أهميةً على نحو مفاجئ ومن دون إنذار.

تركز اهتمامي في معظم هذه الأوقات على الأمور التي سأتحدث عنها. كان روبين كوك قد عاد تواً من رحلةٍ إلى الفليبين، وكان قد قال شيئاً أزعج ألاستر. أبلغته أن لا يقلق، لأن ما سأقوله أنا هو المهم. اتفقنا على أن تكون كلمتي قبل القداس الذي سيجري في قرية تريمدون عند العاشرة والنصف صباحاً.

أصدر القصر، بطبيعة الحال، بياناً لكن الملكة لم تُظهر رغبةً في إلقاء كلمة. اتصلت بها قبل مغادرتي الكنيسة بقليل وأعربتُ لها عن تعازيّ الحارة. ردّت بكلامٍ فيه شيء من الفلسفة، وأعربت عن قلقها بشأن الأولاد، لكن ردّها كان مهنياً وعملياً

كذلك. أدركت الملكة فداحة المصاب، لكنها فعلت ذلك بطريقتها الخاصة. لم تسمح لأحد أن يستغلها في هذه المناسبة، وهكذا تصرفت كما يتصرف الملوك في ذلك المعنى.

توصّلت عند هذه النقطة إلى ما أردت قوله. دوّنتُ الخطوطَ العريضة لكلمتي على ظهر مظروف، وناقشتها مع ألاستر. تكلمت حتى ذلك الوقت مع الآخرين من المقرّبين، لكني كنت أحتاج إلى نصيحته ورأيه في تلك اللحظة. كانت آراؤه في مثل هذه الحالات واضحة، ونموذجية وصريحة. إن آخر شيء احتجت إليه في ذلك الوقت هو شخص غامض، ومتردد، أو متملق.

تبدو عبارة «أميرة الشعب» الآن عبارةً آتية من عصر آخر، كما تبدو ساذجة، ومبالغاً فيها وإلى ما هنالك. لكنها بدت في ذلك الوقت طبيعيةً جداً. فكّرت على نحو خاص أنها كانت ستوافق على هذه العبارة. كانت تنظر إلى نفسها هكذا، ويجب أن يتذكّرها الناس هكذا. أردت كذلك أن أفهم طريقة مقاربتها لحياة الناس، وهي فعلت ذلك بطريقة دلت على أن حياتها لم تكن هادئةً أو سهلة. بدا لي أن عدم تحدثها عن مشاكلها كان أمراً ينضح بعدم صراحتها عند حديثها عن نفسها، وهو أمرٌ يقوّض ما تعنيه للآخرين. كان الناس يحبونها هكذا بالضبط، أي بوصفها أميرة ومع ذلك معرضة لحدوث المشاكل، ولمتاعب الحياة بمباهجها وسقطاتها، مع احتفاظها بقدرتها على شفاء جروحهم، وذلك لأنها كانت تعرف ماذا يعني أن يكون المرء مجروحاً.

قدنا السيارة للأميال القليلة التي تفصلنا عن الميدان الأخضر في تريمدون حيث توجد الكنيسة القديمة. إنها كنيسة جميلة تمتلك حول مذبحها أحد آخر الأقواس النورماندية القليلة التي صمدت عبر الزمن. تحيط بالكنيسة حديقة جميلة، والمقبرة التي تعودت ليلي بيرتون وأصدقاؤها ارتيادها. سبقتني شيري والأولاد إلى داخل الكنيسة. رتب ألاستر وجود مجموعة من الصحفيين في الكنيسة. خرجت من السيارة وصعدت ثم تكلمت. بدا وقوفي في هذه القرية التابعة لمقاطعة ديرهام غريباً بعض الشيء. وقفت فوق فسحة العشب الصغيرة التي توجد أمام تلك الكنيسة، وتحدثت بكلمات كنت أعرف أنها ستنتشر في البلاد والعالم. كانت هذه الكلمات ستشكّل جزءاً مهماً من الفكرة التي يمتلكها الناس عني. بقي الناس يتحدثون معي عن هذه الكلمات. يُمكن للمرء أن يفكر في الخطابات العظيمة التي تستغرق أياماً، حتى

عدة أسابيع لتحضيرها، وفكّرت في الأحداث بالغة الأهمية التي تؤثّر في تاريخنا المعاصر، الذي ألعب دوراً فيه، وفي المعارك السياسية، والأزمات، وأوقات الانتشاء، وأوقات اليأس، ومع ذلك فتلك الكلمات القليلة التي دوّنتها على ظاهر المغلف قد حظيت بتغطية كبيرة تماثل الخطابات الأخرى التي ألقيتها. أما الأمر الأساسي هنا فهو وجوب عدم التفكير في ذلك كله، وعدم التفكير في مدى أهمّيتها، وهكذا ينبغي للمرء أن يطرد كل تلك الشياطين الداخلية التي توحي له أن كل شيء يُمكن أن يسوء. يتعيّن على المرء أن يخرج ويتكلم.

ينطبق ما سبق على كل شيء ما عدا هذه الحالة، وأعلم أن كلامي هذا قد يبدو مصطنعاً. توقّفت لبرهة قبل أن أبدأ بحديثي مباشرة، وفكّرت فيها، وذكرت نفسي بأن أهمّ أمرٍ هو أن أتكلم بالنيابة عنها. هذا ما قلته في هذه المناسبة:

«يماثل شعوري اليوم شعور أي شخص آخر في البلاد، أي الشعور بالصدمة الشديدة. إننا نتجه بأفكارنا وصلواتنا نحوَ عائلة الأميرة دايانا، وعلى الخصوص ولديها. إن قلوبنا معهم. إن أمّتنا اليوم في بريطانيا هي في حالة صدمة، وحداد، وحزنٍ مؤلم بالنسبة إلينا.

كانت إنسانةً رائعةً ودافئةً، وعلى الرغم من أنها تلقت في حياتها مآسي محزنة إلا أنها لامست حياة كثيرين من البريطانيين هنا، وفي أنحاء أخرى من العالم، بفرحٍ واطمئنان. كم من المرات سنتذكرها، وعلى الصُعُد كافة عندما كانت تواسي المرضى والمحتضرين، والأطفال، والمحتاجين بمجرد نظرةٍ أو إيماءة تعبّر عن أشياء أكثر بكثير من الكلمات. كانت تكشف لنا جميعاً عن عمق تعاطفها، وعمق إنسانيتها. كيف لنا أن نعرف كم قست عليها الظروف بين وقتٍ وآخر؟ لا يسعنا إلا أن نخمّن فقط. امتلك الناس في كل مكان، وليس هنا في بريطانيا فقط، الإيمان بالأميرة دايانا وأحبوها، كما اعتبروها واحدةً من الشعب. كانت أميرة الشعب، وهكذا ستبقى على الدوام، وهكذا ستبقى في قلوبنا وفي ذكرياتنا إلى الأبد».

استخدمت عبارة «امتلكوا الإيمان بالأميرة دايانا» لسبب محدّد جداً. فعلت ذلك لأن المخادعين قد نشطوا قبل بعض الوقت من موتها، وعلى الخصوص حديثاً، بسبب علاقتها مع دودي. كانت بعض وسائل الإعلام (وخصوصاً صحيفة مايل)



إلى اليسار: أنا ووالدتي مع والدي الذي يُمسك شقيقي الأكبر بيل، أواسط الخمسينيات من القرن الماضي.

إلى الأسفل: والدي في طريقه إلى العمل. مضى بتشجيع من شخص يعمل في أحواض غوفان لبناء السفن ليصبح جامعياً، ومحامياً، ومن حزب المحافظين.





إلى اليمين: سعدتُ على الدوام بأشعة الشمس. عشنا في أستراليا حتى بلوغي الخامسة من عمري.



إلى اليمين: تظهرني الصورة وأنا في مدرستي، فيتيس، في ربيع العام ١٩٧١ مع صديقيّ أماندا ماكينزي ستيوارت وكريس كاتو.







فوق وإلى اليمين: غادرت الشمال في العام ١٩٧٢ وعشت في لندن لمدة سنة. روّجت لفرق الروك مع آلان كولينيت.



فوق: مرشح حزب العمال للانتخابات الفرعية في بايكونسفيلد، أيار/مايو ١٩٨٢



فوق: شيري وأنا في يوم زفافنا في كنيسة كلية سانت جون، أوكسفورد، ٢٩ آذار/مارس ١٩٨٠.



إلى اليسار: حصل لي والد شيري على دعوة لزيارة ويستمنستر للمرة الأولى. التقطت الصورة مع شيري فوق شرفة مجلسَي البرلمان، ١٩٨٤.

إلى اليسار: مايكل فوت، زعيم حزب العمال، أتى ليدعم حملتي في بايكونسفيلد.





فوق: دعمني سكان تريمدون وهي منطقتنا الانتخابية بكل إخلاص خلال خمس وعشرين سنة بوصفي نائباً عن سيدجفيلد التي فزت فيها في حزيران/يونيو من العام ١٩٨٣.

إلى الأسفل: مع زملائي في حكومة الظل في صورة التُقطت قبل أشهرٍ قليلة من الهزيمة الساحقة في الانتخابات العامة في ١٩٩٢. يظهر من اليسار غوردون براون، وجون سميث، ونيل كينوك، ومارغريت بيكيت، وأنا.



فوق: إحدى اللحظات السعيدة والعديدة مع شيري وإيوان، ونيكي، والطفلة... في منزلنا في أيلنغتون، ١٩٨٨.





فوق: الاسترخاء مع الصديقين مارك بالي وبيتر طومبسون الذي التقيته في أوكسفورد. إن بيتر هو الشخص الأكثر تأثيراً في حياتي.



إلى اليسار: ديري إيرفين، أستاذي القديم الذي علّمني أشياء كثيرة في سنواتي الأولى. عيّنته فيما بعد وزيراً للعدلية في إنكلترا وويلز.



فوق: استمرت علاقتي مع أقدم صديق لي في السياسة، جيوف غالوب، منذ أيام المدرسة.



إلى اليمين: أثناء واحد من أكثر الأيام التي شعرت فيها بالحزن، مع غوردون خلال جنازة جون سميث في إدنبرا، ٢٠ أيار/مايو ١٩٩٤.



إلى اليسار: عند إعلاننا أن غوردون براون لن يترشح لزعامة حزب العمال في ١ حزيران/يونيو ١٩٩٤.



فوق: مع جون بريسكوت ومارغريت بيكيت، المرشَّحين الآخرين لزعامة حزب العمال.



أعلى اليمين: أجرينا في ذلك الصيف تعديلاً في إجازتنا كي ينضم إلينا آلاستير كامبل. من اليسار: نيل كينوك، وأنا، آلاستير، غلينيس كينوك، مع كاثرين، وأولاد آلاستير كالوم وغريس، في آب/أغسطس ١٩٩٤.



إلى اليمين: أثناء وضع صياغة جديدة للفقرة الرابعة في آذار/مارس من العام ١٩٩٥ مع جون الذي أصبح الآن نائب رئيس حزب العمال.



فوق: جون بريسكوت، غوردون براون وأنا، أثناء إطلاق برنامج حزب العمال إلى جانب فريق حكومة الظل الذي ضم جاك سترو إلى أقصى اليسار، وروبن كوك في الصف الثاني، الثالث إلى اليمين. لندن، ٣ نيسان/أبريل ١٩٩٧.







فوق: أثناء مراجعة التغطية الانتخابية مع الفريق الذي يضم آلاستير كامبل ودافيد ميليباند، في آخر يوم أحد قبل يوم الانتخاب في ٢٧ نيسان/أبريل ١٩٩٧.

أعلى اليمين: مشاهدة نتائج ليلة الانتخابات مع جون بيرتون، وهو وكيلي في منطقتي الانتخابية، في نادي حزب العمال في تريمدون، سيدجفيلد، ١ أيار/مايو ١٩٩٧.

إلى اليمين: التوجه إلى مركز الاقتراع في سيدجفيلد في ١ أيار/مايو ١٩٩٧. كانت حشود المصورين تلاحقنا.

إلى اليمين: أفراد العائلة والأصدقاء ينتظرون نتائج سيدجفيلد. كاترين تمسك يد والدي، والدة شيري في الصف الأمامي إلى أقصى اليمين، ووالدها الثالث من اليمين في الصف الثاني، ١ أيار/مايو ١٩٩٧.

إلى الأسفل: نيل كينوك، جون بريسكوت، وبيتر مندلسون بين الزملاء والأنصار عند بدء الاحتفال بالفوز في قاعة الاحتفالات الملكية.









فوق: عند انبلاج الفجر في ٢ أيار/مايو ١٩٩٧، وكنت قد كتبت خطاب الفوز في ساوث بانك. أمكنني رؤية الجماهير المبتهجة والمحتشدة على طول الرصيف.

إلى اليمين: رئيس الوزراء الجديد أثناء الاحتفال مع شيري، ٢ أيار/مايو ١٩٩٧. لم يكن ذلك فوزاً عادياً، بل نصراً ساحقاً.





فوق، الصورة الداخلية: اللحظة التي تغيرت فيها حياتنا. كاترين تلوّح من نافذة منزلنا القديم بينما أتوجه أنا وشيري إلى القصر.

فوق: مشيت في داونغ ستريت للمرة الأولى، وشعرت بأن الحماسة تسري مثل شحنة كهربائية بين الحشود.

تحت: وصلت أنا وشيري بعد أن نمنا لفترة ساعة إلى قصر باكنغهام صباح ٢ أيار/مايو ١٩٩٧. احتشد المناصرون على جوانب الشوارع.

إلى اليمين: وقفت فوق درج ١٠ داونغ ستريت بصفتي رئيساً للوزراء. كنا الأسرة الأصغر سناً التي عاشت هناك منذ خمسينيات القرن التاسع عشر





تفكّر في إمكانية مهاجمتها أم لا. أعلم أنها أرادت ذلك، وسبق لي أن حذّرتها عندما التقينا في شيكرز (منزل رئيس الوزراء الريفي). لقد كانوا متوتّرين بشأن هذا الموضوع، لأنهم لم يكونوا متأكدين من ردّ فعل الناس. أرضى هؤلاء أنفسهم بنشر مواضيع مليئة بالنقد وقابلة للتوسع، وبتلميحاتٍ صغيرة هنا وهناك، وبعض الهجمات الصريحة في بعض الأحيان، لكن لم تتطور هذه قط إلى حملةٍ منظّمة. أما سبب إحجامهم، فكان عمق الدعم وقوته الذي وقف بوجه هذه الهجمات، ولأن الناس احتفظوا بإيمانهم العميق بالأميرة. لم يكن الشعب مستعداً للتضحية بها. إنني أعلم جيداً أنها تحبّ أن يُعترف بأولئك الناس. هل كان هذا الدعم سيستمرّ في المستقبل فيما لو تزوجتْ ثانية، وعندما تتقدم في السن، وإذا ما أصبحت شخصيةً أكثر إثارة للجدل، وأكثر شهرة؟ يصعب عليّ تحديد الجواب، لكن قسماً كبيراً من الشعب كان سيتمسك بمحبته لها. يعرف الشعب أخطاءها جيداً، إلا أن حبه لها لم ينقص بسبب هذه الأخطاء.

كان المزاج العام في البلاد كما توقعناه بالضبط: فيضاً هائلاً من الحزن، لكنه حزن مشوب بالغضب لغيابها. تركز الغضب في البداية على المصوّرين الصحفيين الذين كانوا يلاحقونها. ربما يصعب على المرء أن يوحي ما يعنيه الأمر أن يكون شخصية عامة، وأن يشعر بأنه ملاحَق. لا يشعر معظم الناس بالأسف على المشاهير، ومعظمهم اختار هذا الطريق عمداً، وذلك لأسبابٍ مفهومة. يعيش معظم المشاهير أسلوب حياة ينم عن الغنى. ويُقال أن الناس ينظّرون إلى الناحية الإيجابية للأمر ويتجاهلون الناحية السلبية. لكن ذلك ثمن قليل يُدفع مقابل الشهرة، أليس كذلك؟

إلا أن الأمر تعدى الثمن القليل في حالة دايانا، التي كانت ملاحقةً بالفعل. كانت الأميرة سلعةً ثمينة، ومنجمَ ذهب يتم استغلاله باستمرار. كان التعدين في هذا المنجم عميقاً ويائساً وجارياً بصورة مستمرة. يعود ذلك إلى أن المكاسب كانت هائلة. كان العاملون في وسائل الإعلام يقولون، بالطبع، إنها كانت سعيدة بسبب ملاحقة وسائل الإعلام لها، لكن هذه كانت حجة أضعف مما تبدو في الظاهر. أما الواقع فهو لا خيار للمرء عندما ينصبّ اهتمام وسائل الإعلام عليه إلا أن يتعامل معها، وأن يحاول تعديل صورته لديها، وأن يحاول منع تثبيت الصورة المخالفة التي تكون غير منصفة في أذهان الناس. يعني ذلك بكلماتٍ أخرى أن ذلك عمل

إرادي صرف، بينما نرى أنه في حالاتٍ أخرى، مثل ما هي الحال مع دايانا، لا يمتلك المرء أي خيار. إما أن يحاول إطعام الوحش، وإما أن يفترسه الوحش. عمدت الأميرة في بعض الحالات إلى إطعام الوحش أكثر من الضروري، لكن ذلك لا يلغي الواقع الأساسي وهو أنها كانت عرضةً لنوعٍ من أنواع المضايقة غير الإنسانية المستمرة، التي تتدخل في شؤونها، والتي كانتْ مرعبة، ومبالغاً فيها، وخاطئةً في بعض الأحيان.

حضرت العائلة المالكة قداساً في صباح ذلك الأحد في كنيسة كارثي في بالمورال كالمعتاد. لم تُذكر دايانا في ذلك القداس. عرفت في ذلك الوقت أن الملكة كانت ستعتبر أن الواجب يقضي باتباع الروتين العادي في القداس. لم يكن هناك شخصٌ من بين مرافقيها لكي يقول لها إن من الأنسب أن تُذكر الفاجعة. إن ما أريد قوله هنا هو أن الملكة هي شخصية حقيقية وليست شخصية مصطنعة. أقصد أنه لا وجود للتصنّع في طريقة مقاربتها للأمور. أعرف كذلك أن مهمّتها الأساسية هي حماية الأولاد، وحمايتهم كأمراء قبل كل شيء. لا جدال في مسألة عدم ذهاب الأميرين إلى الكنيسة في ذلك اليوم بعد ساعاتٍ قليلة من موت والدتهما. لكن حضورهما كان من ضمن واجباتهما كأميرين. بدا هذا التصرف بالنسبة إلى قسم من الشعب أمراً غير مسؤول على نحو واضح.

أعرف أن العواطف يمكن أن تترجح جيئةً وذهاباً. أعرف كذلك بوجود ذلك الشعور الكامن والدائم من المودة تجاه الملكة. لكن هذه هي حالة فريدة. ازدادت الحشود بمرور الأيام. أما سجلات التعازي الثلاثة في قصر سانت جايمس فقد أصبحت أربعة، وسرعان ما أصبحت خمسة عشر، إلى أن انتهت إلى ثلاثة وأربعين. بدا أن ذلك السيل العارم من الحزن قد تحوّل إلى حركة عظيمة تهدف إلى التغيير. كانت تلك لحظة من الوفاق الوطني الهائل، وهذا ما شكل نوعاً من التهديد للأسرة المالكة. لكني لم أمتلك فكرةً في ذلك الوقت عما يمكن أن يحدث لو أن الأمور بقيت تسير كما كانت. رب شيء كاد يحدث، لكن لم أكن لأتأكد من أي شيء وسط العاصفة المقلقة وغير المتوقعة.

أما سبب رفض تنكيس الأعلام في قصر وندسور وبرج لندن فيعود إلى أن دايانا لم تعد فرداً من أفراد الأسرة المالكة من الناحية العملية، إذ جُرّدت من لقب صاحبة

السمو الملكي. لم يرفرف العلم الموجود في قصر باكنغهام لأن العادة جرت أن لا يرفرف فوقه سوى علم الملكة الشخصي، وهذا لا يحصل إلا عندما تكون موجودةً في القصر. كانت الملكة تقيم في بالمورال في ذلك الوقت لأنها لم تحضر إلى لندن في شهر أيلول/سبتمبر. كان ذلك كله يجري تماماً بحسب التقاليد والأصول. لكن ذلك كان يخالف مشاعر الناس الذين لا يكترثون لما تنصّ عليه الأصول. إنهم يكرهون هذه الأعراف في واقع الأمر، لأنهم يعتقدون أنها هي التي تسببت، جزئياً، بسلسلةٍ من الأحداث التي أدّت إلى موت دايانا. أصّر الناس، بسبب العلاقة بين الحاكم والمحكوم، على أن تعترف الملكة بأنها تحكم بموافقةٍ منهم، لذلك يجب أن تنحني أمام إصرارهم.

أخذ غضب الناس بالتحوّل نحو الأسرة الحاكمة في وقتٍ لم يهدأ فيه غضبهم تجاه الصحافة التي أدركت الوضع، وفهمت أن من الأفضل تحويل هذا الغضب إلى هدفٍ آخر. أقول، للإنصاف، إن الصحافة، مثلما كانت الحال مع الآخرين، فهمت مشاعر الناس الصادقة، وحاولت فهم الحدود التي يمكن أن يصل إليها هذا الغضب.

وُجد معسكران داخل قصر باكنغهام، أحدهما كان تقليدياً جداً، فلم يكن ينظر إلى دايانا على أنها سند للعائلة المالكة، بل على أنها خطر عليها. اعتقد هؤلاء أن الانحناء أمام الصحافة، وضغط الرأي العام، يعني السقوط التدريجي والمتسارع نحو ملكية تستند إلى الشعب، وهو الأمر الذي سيؤدّي في النهاية إلى نظام ملكي لا يؤدي رسالته، الأمر الذي يعني بدوره خسارة سبب وجود هذا النظام. كان ذلك الاتجاه صلباً على نحو يثير الإعجاب، لكنه بدا منعزلاً يائساً. ربما يكون هذا المعسكر قد تفهم الحزن الذي يشعر به الشعب، لكنه عجز عن فهم دوافع غضبه.

أما المعسكر الثاني داخل القصر فقد كان ممثلاً إلى حدّ ما بأشخاص مثل روبرت فيلوز، وهو المساعد الخاص للملكة وزوج شقيقة دايانا، ورجل بالغ الحساسية. لا أعرف حقيقة مشاعره تجاه دايانا، لكني أعتقد أنه كان ينظر إلى الناحيتين الإيجابية والسلبية للأميرة، أي إنه كان يحب الناحية الإيجابية، ويهزّ كتفيه أمام الناحية الأخرى. لكنه كان رجلاً مهنياً ويتميّز، كما يتوقع المرء من أفراد الطبقة العليا المهذبين، بالفطنة والذكاء أكثر مما يُظهر. أما مساعده روبين جانفرين، الذي خلفه في منصبه

فيما بعد، فقد كان مسؤولاً في وزارة الخارجية، وكان رجلاً لامعاً بدوره ومطلعاً على الاتجاه الذي تسير نحوه الأحداث.

اقترح عليّ القصر أن أستقبل الجثمان عند وصوله من باريس. وقفتُ مع مجموعة من كبار المسؤولين في مدرج مطار نورثولت التابع للقوات الجوية الملكية، لكني أدركت بوضوح التباين ما بين المعسكرين. سبق لي أن قررت في ذهني أن هذه هي اللحظة المناسبة لوحدة البلاد. اعتبرت كذلك أن لا بدّ من وجود محبة تجاه الأميرة دايانا، والاحترام تجاه الملكة، وأن على هذه المناسبة أن تجسّد عظمة هذه البلاد ومدى فخرها بهذه الأميرة، وأن علينا أن نُظهر أننا قادرون على إضفاء شيء رائع على ذكراها على نحو يثير إعجاب العالم إلى الأبد. اعتبرت، لهذا السبب، أن مهمتي هي حماية النظام الملكي، وتحويل الغضب قبل أن يتحول إلى غيظٍ جامح، وأن أعمل على انتهاء هذه المسألة بطريقة إيجابية وموحّدة للبلاد، وذلك بدلاً من أن تكون مصدراً للتوتر، والانقسام، والمرارة.

اتجهت مشاعري نحو الملكة ذاتها، التي كانت تعاني وضعاً بالغ الصعوبة إلى حد الحرج. كانت من ناحية قلقة بشأن تأثير دايانا في الملكية كمؤسسة، ومن ناحية أخرى كانت تأسى على الوالدة وأحفادها الذين تحبهم كثيراً، لكنها لم ترغب في التظاهر بأنها تنظر إلى دايانا بطريقة أكثر تناقضاً مما يتقبله الناس، ومن هنا كان تردّدها يعود إلى إطاعة التقاليد والأصول بصورة أقل، وإن كان من المؤكد أن إطاعة التقاليد هي جزء من السبب، وبصورة أكثر إلى رغبتها المخلصة في أن تكون صادقةً مع مشاعرها الحقيقية. إن قيامي شخصياً بملء الفراغ كان من شأنه أن يزعجها قليلاً، وأعتقد جازماً أن بعض أولئك الذين من حولها قد شعروا بالسخط تجاه هذا الأمر. جسّد موقفهم هذا استياءهم مني وممن أمثّل عموماً.

إنني لا أجيد لعب دور كبار المسؤولين في المؤسسة [الإدارة الحاكمة]. ربما هذا هو سبب اختياري الانتماء إلى حزب العمال، وسيكون هذا هو السبب على الدوام. لا يعني ذلك أنني أهتمّ بهم بشكلٍ خاص، لكنني حرصت في الأيام التي تلت وفاة دايانا على الدفاع ليس عن الملكة فقط، بل عن البلاط أيضاً. يتعيّن عليّ القول إنني وجدتهم مهذبين، بل رائعين، كما أنهم أشخاص مستعدون للمساعدة. أريد أن أضيف هنا أموراً تتعلق بي أكثر مما تتعلق بهم. شعرت دائماً بأنهم يفضّلون

القادة السياسيين من النوعين: إما الذين ينتمون إليهم أو على الأقل يشاطرونهم الرأي عموماً، وإما المنتمين «الأصليين» لحزب العمال، أي الذين تعودوا القراءة عنهم، والذين يتكلمون بلكنة، والذين يوافقونهم في الرأي بما يجب أن يكون عليه الناس. أما الأشخاص من أمثالي فكانوا حديثي النعمة، ووصوليين، ومربِكين قليلاً ولهذا فهم محل شبهة. أدركت كذلك في تلك الأيام أنني، إذا تبيّن بوضوح، أحاول قولبة الأمور، فسيتعين عليّ توقع حدوث ردة فعلٍ سلبية كبيرة، أما إذا تعثرت فلا يمكنني توقع الحصول على مساعدة.

كان وقوفي على أرض مطار نورثولت منتظراً وصول الطائرة أمراً غريباً، وكذلك كان انتظار إخراج النعش، بينما تجمّع مئات الصحفيين وراء السياج، كما أن الأحاديث التي تبودلت كانت غريبة بعض الشيء. يتعيّن على المرء أن يكون في منتهى الحذر في مناسباتٍ كهذه. يقف المرء ويتحدث مع الآخرين في حين تكون الأجواء حزينة. يلقي عليك أحدهم بالتحية فتشعر بميلٍ طبيعي للابتسام. يلتقط أحدهم صورة، وتتصرف بطريقة غير لائقة قبل أن تكتشفَ ذلك، وكأن العبوس هو الأمر اللائق الوحيد في مناسباتٍ كهذه. لم تكن دايانا مخطئة بشأن الصور. كنت أقول لشيري، ولنفسي كذلك، على الدوام لا ينبغي للمرء أن يبتسم ابتسامة عريضة، أو أن يضحك، أثناء خروجه من السيارة بعد حضوره قداساً لراحة نفس أحد المتوفين في كنيسة، أو في مناسبة مهيبة مثلها. يتعيّن على المرء أن يكون حذراً على الدوام.

أما بالنسبة إلى الأمير تشارلز فقد كان الأمر فظيعاً بالفعل. كان هو وكاميلا هدفاً لاهتمام وشائعات عميقين. ماذا يمكنه أن يفعل؟ فإذا ظهر وكأنه مصدوم فسيقال أنه يتظاهرً بذلك. وإذا ظهر هادئاً فسيقال أنه بارد. كان وضعه في منتهى الصعوبة لأن كل حركة من حركاته ستفسر، أو سيساء تفسيرها، كما أن الجماهير كانت مستعدة للانقضاض عليه عند أول هفوة.

أنقذته علاقته مع ولديه من هذا الموقف الصعب على نحو استثنائي. لم يسبق لي حتى ذلك الوقت أن رأيتهم معاً، لكني كلما تعرفت إليهم أكثر أدركت أن العلاقة كانت وثيقةً ومتعاطفةً بين الجهتين [الأمير وولديه]. لا يُمكن القول إن هذا الوضع مستغرب لأنه كان علاقةً بين والدٍ وولديه. افترض عدد كبير من الناس في ذلك الوقت أن التوتر بين الزوج والزوجة قد ينتقل إلى الوالد وولديه. لكن الوضع لم يكن

كذلك على أيّ حال. اتضح هذا الواقع أكثر فأكثر بمرور الأيام الأمر الذي خفّف الضغوط كثيراً على الأمير تشارلز.

سبق لي أن عرفت الأمير جيداً قبل أن أتولى منصبي. اهتمّ الأمير كثيراً بالتعرّف إلى كبار أعضاء الحزب الحاكم في البلاد. كان الأمير شخصيةً مثيرةً مزجت بين التقليدي والمتطرف (كان في أحد المستويات يمثّل مبادئ حزب العمال الجديد، لكنه في مستوى آخر لم يكن كذلك بالمرة)، وبين وضعه الأميري وعدم الاستقرار. عاش حياة حبّبت به الناس، لكن لا يمكن للمرء أن يصفه على أنه من النوع اللاهي، وبالتأكيد لم يكن كذلك على طريقة دايانا، لكنه كان حساساً جداً تجاه النقد ومتوتراً جراء ردة فعل الناس بشأنه.

لم أتمكن من تخيّله جالساً في قاعة الطعام التي تقع في الطابق السفلي من منزل ماغي راي ذي الشرفات الكثيرة الذي يقع في هاكني، أي مثل ما كانت دايانا تفعل، منشغلاً بالمرح مع باقي الزبائن، وبمناداة الجميع بأسمائهم الأولى، وهكذا ينزلق إلى مستوى التخلص من الشكليات بدرجة أو بأخرى. أما من الناحية الأخرى فقد امتلك الأمير ميزةً هامة جداً بالنسبة إليّ وهي التسامي: إنه ملتزم بعمق وإخلاص. لم يكتفِ الأمير بالاسترخاء منتظراً مجيئ وقت تتويجه ملكاً. إنه يهتمّ فعلاً بالقضايا التي يأخذها على عاتقه، لكن هناك ما هو أكثر من ذلك، وهو أنه يتوحّد معها ويفكر فيها بعمق. يمكن للمرء أن يتعرف إليه بطريقته المرحة التي يتميّز بها. إنه لا يتصف بدرجة التعالي ذاتها التي يتصف بها كثير من رؤساء الدول الموقتين والصغار. ربما يقلّل من أهمية مدى فهم الناس له والارتياح إليه، وهو الأمر الذي زاد هذه الأيام أكثر من الماضي. كان يمكن للناس أن يبتسموا بتكلف عند رؤيته وهو يحتضن جذع شجرة، أو وهو يتحدث إلى الزهور، وأن يفكروا عندما يرفض اللعب بحسب قواعدهم أن الأمر غريب وغير طبيعي (أي مثل ما حدث في تلك اللحظة الاستثنائية بعد وقت قليل من خطبته لدايانا، عندما سأله أحدهم ما إذا كان يحبها. قال حينئذ، «أجل»، مهما كانت تعنيه كلمة حب). يعرف الناس كذلك أنه يقوم بعمل جيد، ويؤمن بواجباته والتزاماته تجاههم. إن كل ذلك ليس بالأمر القليل.

طُلب إلي عندما شارفت ولايتي الثانية الانتهاء تقديم نصيحة بشأن ما إذا كان الأمير يتمكن من الزواج من كاميلا، أو يجب عليه أن يتزوجها. كانت آثار فاجعة

دايانا عميقة ودائمة. أعتقد أن من الإنصاف القول إن مصادر القصر أصبحت عصبية، ولأسباب مفهومة، إزاء كل شيء يتعلق بهذا الموضوع. قلت على الفور لا بأس في ذلك. كانا متحابين، فلمَ لا يتزوجان؟ أم هل يجدر بنا القول إن من الأفضل أن لا يتزوجا، وكأن الزواج نوع من الإهانة؟ كان الأمر مناسباً على وجه العموم. كانت الصحافة تميل في الماضي، وهي لا تزال كذلك إلى هذه الأيام، إلى تشويه سمعة كاميلا وملاحقتها، لكن الناس حاولوا فهم بواطن تلك العلاقة. فهم الناس أنها إنسانة غير معقّدة، ومتواضعة، وتحبه فوق كل شيء. هل كانت دايانا؟ كلا. هل تتظاهر أنها كذلك؟ كلا. إذاً، فليمضوا قدماً في هذه القضية. أدركنا في تلك الأوقات أن الأمراء هم مختلفون ومتشابهون في الوقت ذاته، كما أصبحنا أكثر تعاطفاً معهم. تحوّل في هذه الأثناء الغضب الناتج عن موت دايانا، وبطريقة ما، إلى النقطة التي تتمحور حولها الأمور. شعر الناس بأن الأسرة المالكة أصبحت أكثر انفتاحاً على الرأي العام، لكنهم لمسوا نقاط الضعف الإنسانية لديهم، وكذلك نقاط القوة، عند ممثليها البارزين . تقبّل الناس الأمرين بصورةٍ متساوية. أدركت الأسرة المالكة أن بإمكانها أن تنفتح على الناس وأن تبقى ملكيةً في الوقت ذاته.

بدا الأمر محفوفاً بالمخاطر في تلك الأيام. بقيت الملكة في قصر بالمورال في حين أصبحت لندنٍ عاصمة للحزن في العالم، وهكذا اتسعت الفجوة بين الأسرة المالكة ورعاياها. أُدخل في هذه الأثناء اسما ألاستر وآنجي لكي ينضما إلى اللجنة التي كلّفها القصر تنظيم مراسم الجنازة، ومن أجل الإمساك بالوضع ومنع تفاعلاته. قدّم كلاهما منفعةً كبيرة للنخبة الحاكمة، وتحمّلا جسامة هذه المهمة. تعامل ألاستر كذلك مع الصحافة بينما كان مطّلعاً على الاتهامات باستغلالهما، وبصراحة في أزماتٍ كهذه يصعب تحديد الفروق ما بينهما. أردت أن تنضمّ آنجي إلى هذه اللجنة لأنني أعرف أن ألاستر إذ يتبنّى وجهة نظر الصحافة الشعبية بالنسبة إلى ما يجدر عمله، ستعبّر هي عن وجهة النظر الصحيحة التي تتميز بها منطقة إنكلترا الوسطى. أعرف أن بوجودهما سيستقيم الميزان. كان بعض أفراد البلاط متشكّكين في مثل هذا «التداخل»، لكن معظمهم اعتبر أن هذه الخطوة عملية، كما أن روبرت فيلوز بالتحديد أصرّ عليها.

كان موضوع مراسم الجنازة التي ستُجرى يوم السبت التالي هو الموضوع الرئيس

للأحاديث. كان من المفترض أن تكون جنازة مهيبة، ومختلفة، وجنازة تليق بدايانا. جرت مناقشات لا نهاية لها حول أعداد كل فئة من فئات الناس التي ستُدعى لحضور الجنازة، وطريقة تنظيم القداس، ودور أسرة دايانا. كان شقيقها تشارلز سبنسر شخصيةً قويةً جداً وواثقاً بنفسه، وهو الذي شعر بالغضب الشديد إزاء المعاملة التي لقيتها شقيقته، وعلى الخصوص من قِبل وسائل الإعلام ولربما من قِبل الأسرة المالكة. اكتسب كل قرار حساسية بالغة بحسناته وسيئاته المتعددة، كما أن كل قرار قد أُشبع درساً مرة بعد أخرى. جرت كذلك مناقشة كبيرة بشأن ما إذا كان الولدان سيمشيان خلف الموكب مع الأمير تشارلز، كما ساد القلق بشأن ردات فعل الناس المحتملة التي قد تكون متعارضة إزاءه وإزاء الأميرين.

أما الأهمّ من ذلك كله فكان ذلك الضغط الآخذ بالتزايد على الملكة. زرتها يوم الأربعاء ذاك وقدّمت لها دعمي بقوة، وطلبت أن تتفهم أن الأولوية هي للولدين الآن، وهكذا ينبغي أن يكون عليه الأمر. ولكوني الشخص الذي يتكلم هو الذي سلّط الأضواء على أن الملكة لا تتحدث. ولو لم أتكلم أنا يوم الأحد، وخلال الأسبوع الذي تبعه، لما كان أي شخص في موقع المسؤولية تكلم في هذه المناسبة. كان الأمر سيبدو غريباً لو امتنع المسؤولون جميعاً عن الكلام في حين أن الحادثة كانت هي الخبر الوحيد في جميع وسائل الإعلام في أنحاء العالم كافة. كان ألاستر وآنجي يعملان طوال الوقت على هذه المسألة، وفي هذه الأثناء تعيّن عليّ الاهتمام بالقضايا الحكومية. انشغلنا في ذلك الوقت بتحريك مسألة إيرلندا الشمالية للتوصل إلى وقفٍ لإطلاق النار مع الجيش الجمهوري الإيرلندي. استغرقت المسألة وقتاً طويلاً، كما كنت أستعد لإلقاء خطاب أمام مؤتمر النقابات العمالية في الأسبوع التالي. كنت أحضّر كذلك لمؤتمر قمة كبير حول شؤون التعليم في داوننغ ستريت كان مقرراً يوم الخميس. واظبت، بطبيعة الحال، على تلقي المكالمات في هذه الأثناء من رؤساء العالم الذين اتصلوا للتعبير عن مشاعر عزائهم.

قررت عصر يوم الأربعاء التحدث هاتفياً مع الأمير تشارلز. تمثّل جزء من مشكلتي مع الملكة في عدم وجود نقطة تواصل سهلة فيما بيننا بالنسبة إلى العمر، أو وجهة النظر، أو التعارف. احترمتها كثيراً، وكنت أحسّ ببعض الرهبة إزاءها، لكني لم أكن أعرفها بصفتي رئيساً للوزراء، ولم أعرف كيف يجب عليها أن تقبل نصائحي

[استشاراتي] المباشرة التي شعرت أن من واجبي أن أسديها إليها. فهمت تماماً طريقتها في النظر إلى الأمر برمّته. تعاطفت معها، لكن لا يتطلب الأمر أن يكون المرء عبقرياً في السياسة كي يفهم أن القضية برمّتها كانت مدّاً ينبغي تحويل اتجاهه. لا يمكن إرجاع هذا المدّ إلى الوراء، ولا يُمكن مقاومته، أو حتى تجاهله. لم أثق آنذاك بقدرتي على الذهاب إليها شخصياً كي أقول لها ما أشعر به بالصراحة التي أرغب فيها. وهكذا توجّهت إلى تشارلز.

اتصلت به من إحدى غرف داوننغ ستريت فأدركت على الفور أن الاتصال به كان أمراً صائباً. بدا لي أنه يشاطرني الآراء ذاتها. قال لي إن على الملكة أن تلقي كلمة، كما على الأسرة المالكة أن تكون حاضرةً بوضوح. لا يمكن للأمير وولديه أن يكونوا في مكان غير ظاهر، مهما كان الأمر صعباً عليه شخصياً. تعيّن عليهم الحضور إلى لندن لمشاهدة الحشود الهائلة والمتدفقة. شعرت بارتياح كبير. وافق الأمير على نقل رسالتي إلى الملكة. تأكد لنا في اليوم التالي، أي الخَميس، أن الملكة سوف تلقي خطاباً مذاعاً بنفسها. تمكن ألاستر، بلطفٍ، من توجيه الصحفيين إلى ذلك الاتجاه. بدأ التوتر بالتبدد على الفور تقريباً، وما لبثت الحشود أن تراجعت نحوها.

اتصلت بالملكة بناءً على طلبها يوم الخميس وقت الغداء، وتحدثنا بشأن ما يُمكن أن يحصل في اليوم التالي وكيفية إدارة الأمور. ركّزت الملكة بشدّة على هذه القضية بعد أن اقتنعت بها تماماً. لم يكن الأمر سهلاً، لكنه كان مؤكداً. أما في اليوم التالي فإن الملكة وتشارلز والولدين قاموا بزيارة الواجهة الأمامية لقصر باكنغهام الذي تحوّل إلى مزار. أجرينا نقاشاتٍ أخيرة حول الكلمات التي سترد في خطاب الملكة، لكن سرعان ما تبيّن لي من لغة خطابها ونبرته أنها ما إن تقرر التحرك حتى تمضي بمهارة كبيرة. كان الخطاب المذاع نموذجياً ويقترب من حدّ الكمال. تمكنت كذلك من أن تكون ملكةً وجدّةً في الوقت ذاته.

تحدثت مع الأمير تشارلز مجدداً، وناقشنا ترتيبات الجنازة لمرة أخيرة. طلب إلي القصر إلقاء عظة. كانت تلك الكلمة مؤشراً جيداً على محورية الدور الذي لعبتُه خلال الأسبوع، لكني أدركت أنها سوف تثير ردود فعل كثيرة. كنا نسير فوق حبلٍ مشدود في واقع الأمر، وهو الحبل الذي تزايدت رقّته ورهافته نتيجة أحداث اليوم، والذي يفصل ما بين ترتيب الأمور كي تجري على ما يرام، أو الانسحاب منها أو

استغلال المناسبة. جرى ذلك كله في تلك الأيام الهادئة، لكن لا يدري غير الله ماذا كان سيحدث لو أن دايانا ماتت بعد عدة أعوام...

سارت الجنازة بحسب أفضل توقعاتنا، بل الأصح هو أنها كانت جنازةً استثنائية. قام إلتون جون بتأدية أغنية «شمعة في مهب الريح»، وأدّاها بطريقة رائعة جداً تناسبت مع جو كاتدرائية ويستمنستر آبي. شنّ تشارلز سبنسر هجوماً قوياً على الصحافة (قلت لألاستر: انتبه لما أقوله، سينتظرون فرصةً للانتقام، وإذا ما أتت هذه الفرصة فإنهم سيستغلونها بكل شراسة). تضمّنت كلمته ما يشبه التأنيب للأسرة المالكة، لكنّ حديثه كان قوياً وكانت له أصداء كثيرة.

أقمت مأدبة غداء لمجموعةٍ كبيرة من الملوك، والملكات، ورؤساء الدول، وكبار الوجهاء في العالم. حضرت هيلاري كلينتون ممثلةً الولايات المتحدة، وسررت بلقائها كالعادة. كانت جسامة المناسبة كبيرة جداً. تعودت في مناسبات كهذه أن أعزل نفسي عن المشاغل الأخرى كلها وأركز على ما يجب عمله. كنت أشعر بالسرور عند انتهاء هذه الأعمال.

قرأت فروست في اليوم التالي، وهو الأمر الذي سار على ما يرام، ثم توجّهت إلى بالمورال لقضاء الإجازة الأسبوعية التقليدية، لكنها هذه المرة كانت زيارة استثنائية.

شُيّد قصر بالمورال في الأربعينيات من القرن التاسع عشر على يد الأمير آلبرت، الذي شيده لزوجته الملكة. يقع القصر ما بين قريتَي بالاتر وبرايمار. وهو يُعتبر آيةً في الروعة، أما الأراضي المحيطة به فمذهلة جداً، وعلى الرغم من أن طقس شهر أيلول/ سبتمبر عادة ما يكون مريعاً هناك، إلا أنه كثيراً ما يكون جميلاً جداً. يمكنني القول ما من مكان في العالم في يوم مشمس يفوق ذلك المكان في اسكتلندا أكثر الأمكنة جمالاً في العالم. أما القصر ذاته فهو نموذج عن الطراز الفيكتوري. لا توجد غرف أو قاعات كبيرة فيه، لذلك فالغرف هي ذات حجم متوسط، وما زالت بعض الحمّامات فيه تستخدم أنظمة المياه القديمة، ويُقال إن معظمها غير متناسق بعضه مع بعض.

يجدر بي القول إنني وجدت تجربة زيارة القصر وتمضية عطلة نهاية الأسبوع فيه أمراً مثيراً، ومزيجاً من السوريالية والفظاعة الخالصة. كان طراز القصر بالإجمال متناسقاً بالطبع، ولا يعني ذلك أن الأسرة المالكة ليست مضيافة جداً. لم أتعمد من

قبل قضاء إجازات في «بيوتٍ ريفية»، أو في «منازل فخمة» كما كنت أشعر إزاء الفكرة بشيء من الهلع.

كانت الجدران مزيّنةً بلوحات لاندسير التي تمثل الأيائل، ومناظر الصيد، وبالطبع بلوحات السيد براون التي رسمها للملكة فيكتوريا. ظهر الخدم في هذه اللوحات، وكانوا في الواقع شباناً في منتهى اللطف، لكنهم من الخدم. سألني الخادم عندما وصلت لأول مرة صبيحة ذلك الأحد – أجل، ثمة خادم تحت تصرف الضيف – إذا كان يستطيع طيّ ملابسي، وكيّ ملابسي الداخلية وكل هذه الأمور. أربكني هذا السؤال إلى درجة أنه عندما سألني بعد ذلك إذا كان يستطيع «رسم الحمام» لم أتمكن من فهم ما يقصده تماماً. اعتقدت لبرهة أنه أراد أن يرسم ذلك المكان بالفعل. كان استخدام غرفة الحمّام التي تقع في الجانب الآخر من الممرّ عملاً من أعمال الشجاعة التي تتضمّن فتح باب غرفة النوم، والتطلع يمنة ويسرة ثم الانطلاق بأقصى سرعة.

حُدّد في ذلك القصر روتين لكل شيء. كان هناك وقت مخصّص لشرب الشاي، وكانت الملكة تصبّ الشاي بمصفاة مناسبة، كما أن وعاء الشاي المعدني كان يغلي باستمرار بحيث يُمكن ملء الإناء مرة بعد أخرى. كان طعام الفطور يماثل ذلك الذي تعوده ترولوب، أو ربما الأفضل منه والتر سكوت. وكان البيض، ولحم الخنزير، والنقانق، والكلى، والبندورة [الطماطم]، والأرز مع السمك، والسمك المدخن، كلها تُحفظ في طبقٍ ساخن. كان الفطور غنياً جداً، وكذلك الغداء، ومثله العشاء. أما إذا أفرط المرء في تناول هذه الأطباق كلها فسينتهي أمره في غضون أسبوع واحد، لكن أفراد العائلة المالكة لم يفعلوا ذلك البتة. لاحظتُ دائماً أنهم يتناولون القليل من الطعام.

أما الأمر المبهج هناك فكان الشراب القوي الذي يقدّم قبل العشاء. أما لو كانت المناسبة عادية، أو لو كانت الملكة لا تتناول المشروبات أبداً، أو هي على شيء من التزمّت، فلا أظن أنني كنت بقيت طوال فترة عطلة نهاية الأسبوع. لكن ذلك الشراب، الذي لم أتأكد قط من طبيعته، كان هو الذي أحتاج إليه بالضبط. كان هو الشراب الذي أطلبه، ويماثل وقود صاروخ. خفّت، مع تناول هذا الشراب، الأعباء، وأحسست بشيء من السرور. عادت إليّ شجاعتي، كما بدا تواصلي مع أفراد العائلة

المالكة طبيعياً تماماً. كانت أولى الزيارتين السنويتين لي، مع كل ذلك، ثقيلة بالنسبة إليّ على المستويات كافة.

أما في إجازة نهاية الأسبوع التالية التي قضيتها في العام ١٩٩٨، فصادفت ذكرى وفاة دايانا. أقيم قداس لراحة نفسها في كارثي حيث اجتمع أفراد العائلة المالكة كافة، وتلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها هذه العائلة تجتمع بكامل أفرادها. إن التقاءهم إفرادياً يُمكن أن يكون مثيراً للتوتر بعض الشيء، لكن لقائي إياهم مجتمعين أنا وشيري أمر يثير الارتياح. اقترحت شيري أن نصطحب معنا إيوان، ونيكي، وكاثرين، الأمر الذي أثار موجة ضحك هستيرية عندي، ورفضت ذلك رفضاً قاطعاً. أما إيوان فكان عبقرياً في إثارة التوتر عند الآخرين، أي كما يفعل عندما يُمطر شيري بأسئلته التي لا تنتهي عن المساواة بين الرجل والمرأة، وهو طعم كانت تعلق فيه على الدوام. كان مجرد التفكير في ما يمكن أن يقوله للملكة أمراً يثير عندي الهلع دعك مما يقوله للملكة الأم، التي كانت حاضرةً على الدوام.

توجّهنا بعد ذلك نحو حفلة الشواء التقليدية التي يحضّرها الأمير فيليب بنفسه، والتي كانت تجري في أحد الأكواخ الموجودة في حدائق القصر. كانت هذه الحفلة بدورها تخضع للأعراف والتقاليد. يقوم أفراد العائلة المالكة بتحضير الطعام بأنفسهم ويقدّمونه للضيوف، كما يقومون بغسل الأطباق، وتنظيف المكان. يُمكن للقارئ أن يظنّ أنني أمزح، لكن لا مزاح في ذلك أبداً. إنهم يرتدون قفازاتهم ويبدأون بالعمل في حوض غسل الأطباق، بينما يجلس الضيوف بعد انتهائهم من تناول الطعام، وحيث تسأل الملكة الضيوف إذا ما انتهوا من تناول طعامهم، ثم تقوم بجمع الأطباق وتتوجه إلى حوض غسلها.

تحدثت كذلك مع الأمير وليام، الذي كان، بالإضافة إلى حزنه على والدته، يشعر بالغضب. أدرك الأمير بعقلانيته أسباب تنظيم الأسبوع الذي فصل ما بين موت دايانا وجنازتها على ذلك النحو، لكنه كان يعيش صراعاً حاداً ما بين مركزه الرسمي وعاطفته الشخصية. أدرك الآن، هذا إذا لم يدرك قبل الآن، معنى أن يكون المرء أميراً أو ملكاً. بدا الثمن الذي يُدفع مقابل الإحساس بالواجب كبيراً جداً، وهو البقاء ضمن سجن التقاليد المتوارثة.

دُعيت إلى لقاء الملكة في غرفة الضيوف خلال زيارتي الأولى التي قمت بها في العام ١٩٩٧، وكان ذلك في اليوم الذي تلا جنازة دايانا. كانت الغرفة على الحال ذاتها التي تركتها الملكة فيكتوريا بالضبط. كنت أتهيأ للجلوس على مقعدٍ وثير عندما سمعت صرخةً من أحد الخدم الرسميين، ورأيت حاجبين ملكيين مرفوعَين هلعاً جعلاني أتوقّف عن محاولة الجلوس. شرحوا لي أن هذا الكرسي هو كرسي الملكة فيكتوريا، ولم يجلس فيه أحد منذ ذلك اليوم.

كنا نحن الاثنين فقط، لكن بعد كل ما حدث يُمكن للمرء أن يتوقع أن تمتلئ الصحف بعناوين مثل «بلير يُبلغ الملكة»، وغير ذلك. لم يكن الأمر يسيراً على أشخاص يتمتّعون بالحساسية مهما كانت مراكزهم عالية، وبالتأكيد كانت الملكة حسّاسةً جداً ومركزها عالياً جداً. كانت إحدى نقاط الشعور الدائمة بالحرج في قصر بالمورال أثناء تقديم الشراب الذي يسبق الغداء، هي صحف نهار الأحد الملقاة فوق الطاولة الموجودة في غرفة استقبال الضيوف. كانت الصحف، الظاهرة التي لا يتحدث عنها أحد، تتضمّن عنواناً صارخاً واحداً عني أو عنها على الأقل، أو عن كلينا في بعض الأحيان. كانت الصحافة تجهد بمرور الوقت في التسبب بالمتاعب من دون مراعاة لأي أصول حول كيفية فعل ذلك. كانت تظهر بعض المقالات بالتزامن مع إجازات نهاية الأسبوع، وهي تتحدث عن إهانتي لجلالة الملكة، أو غيابي عن مباريات «هاي لاند»، التي تجري نهارات السبت، والتي يُدعى إليها رئيس الوزراء (وهذا ما حدث)، أو الذهاب إلى المباريات حيث ضبطت إحدى الكاميرات شيري وهي تتثاءب...

أريد أن أكرّر هنا أنني بالكاد كنت أعرف الملكة في ذلك الوقت. أما لو حدث ذلك بعد عدة أعوام لكنت، وبصراحة، ارتحت للأمر. أما في هذه المناسبة بالذات، فقد شعرت بالتوتر لأن تلك المناسبات كانت جديدة، ولأن علاقتي مع الملكة كانت في بدايتها. شعرت الملكة بالتوتر كذلك. ربما تحدثت بحساسية أقل مما كان يجب عن الحاجة إلى تعلّم الدروس. قلقت فيما بعد خشية أن تظنّ أنني ألقي محاضرةً عليها، أو أنني رجلٌ مغرور. أعتقد أنها اتخذتْ في عدة مراحل من محادثتنا موقفاً محدّداً يوحي بالكبرياء، لكنها في النهاية قالت هي بنفسها بضرورة تعلّم الدروس.

لاحظتُ بنفسي حكمتها في عملها وفي تفكيرها، وفي الحكم على الأمور، وفي التأقلم.

كانت تلك نهاية سوريالية لأسبوعٍ سوريالي، تميّز بمأسويته، وإثارته. إنه أسبوع لا يُنسى.

أما بالنسبة إليّ فقد خرجت بتقدير من الرأي العام. أظهر استطلاع للرأي أن ٩٣ بالمئة من الناس تؤيدني. امتلكت، على الأقل، الحدس الذي أنبأني بأن هذه النسبة غير حقيقية، كما أدركت أن مأساة الأميرة دايانا، وعلى الرغم من أنها كانت مزلزلةً على الصعيد العام، إلا أن اختبار الإنجازات الذي خضعتُ له كرئيس للوزراء، والذي خضعتْ له الحكومة، كان أمراً مختلفاً.

الفصل السادس
السلام في إيرلندا الشمالية

تعوّد تشرشل أن لا يترك أي مشكلة تمرّ من دون أن يتقدم نحوها بكل حماسة، وأحياناً بكل مخاطرة، بحثاً عن حلّ لها، إلا أنه تجنّب مسألة إيرلندا الشمالية. كتب تشرشل في العام ١٩٢٢، وببساطة لبقة، مقالاً حدّد فيه رؤية المؤسسة السياسية البريطانية تجاه إيرلندا. جاء في المقال «تغيّرت خريطة أوروبا برمّتها... لكن مع تراجع الطوفان وانحسار المياه فإننا نرى أبراج فيرمانا غ وتايرون الكئيبة وهي تتراءى مرة أخرى. إن صدقية جدالاتهما هي إحدى الممارسات القليلة التي بقيت من دون تغيير في خلال الكارثة التي اجتاحت العالم».

مرّت قرون من الأحقاد التي امتزج فيها الدِّين بمسألة الأراضي المتنازع عليها امتزاجاً سيئاً، أعقبته محاولة فاشلة لتطبيق اللامركزية في القرن التاسع عشر، ثم تبعها تقسيم البلاد ما بين شمالٍ وجنوب في عشرينيات القرن الماضي. قامت بعد ذلك حركة الحقوق المدنية في الستينيات من القرن الماضي، وهي التي أشعلت فتيل نزاع دام استمر عقوداً من الزمن. جرت عدة محاولات للتوصّل إلى السلام بإصرارٍ متناقضٍ في بعض الأحيان، لكن هذه المحاولات لم تصل إلا إلى نتيجة ثابتة وحازمة: الفشل المتكرر. يُمكن للمرء، بطريقةٍ ما، أن يغفر لتشرشل انهزاميته غير المعتادة، وغير المأثورة عنه.

أظهر جون بريسكوت سخريةً بالغةً عندما أبلغته قبيل انتخابات العام ١٩٩٧، أنني مصمّم على محاولة فرض السلام في إيرلندا الشمالية. فشلت محاولة جون مايجور لدفع عملية السلام، وما لبثت أن أسفرت عن أعمالٍ إرهابية متجددة، لكنه حدسَ، وعن حق، بإمكانية وجود فرصة للسلام. أطلق الرجل مفاوضات سرية مع الجيش الجمهوري الإيرلندي، كما بدأ بتحديد العناصر التي يمكن أن تكون جزءاً من اتفاقٍ ما. استدعى مايجور السيناتور جورج ميتشل، وهو رجل شديد الفطنة وسياسيّ قدير، من الولايات المتحدة للمساعدة على جمع الأفرقاء إلى طاولة مفاوضات مبكرة، وعلى وقفٍ لإطلاق النار. لم تستمر الهدنة طويلاً، لكن بدا واضحاً أن شيئاً ما كان يتحرك في الخفاء بين صفوف الحركة الجمهورية.

حان وقت إحلال السلام، وكان أحد أهمّ الجوانب الاستثنائية في هذه المأساة برمّتها هو أن يفكّر الجميع بجدية في إمكانية ظهور رابح في الصراع، وأن الجيش الجمهوري الإيرلندي كان يؤمن بفكرة تقويض أمة فخورة مثل بريطانيا انطلاقاً من إيرلندا الشمالية، التي تعتقد غالبية الشعب فيها أنها من مواطني المملكة المتحدة، وأن الحكومة البريطانية تعتقد بإمكانية احتواء القومية الإيرلندية من دون إحداث تغيير نموذجي في معاملة الإيرلنديين الكاثوليك، وأن الاتحاديين اعتقدوا ذات مرة أنهم في جزيرة تؤيد الأكثرية فيها إيرلندا متحدة، وحيث ينادي الكاثوليك بالقومية، قادرون أن يرفضوا مقاسمتهم السلطة.

إن ما حدث خلال تلك الأوضاع هو في جوهره ما يحدث في نزاعاتٍ لا حصر لها: يستبعد اللاعقلانيون كل عقلانية، وذلك عندما يلجأون إلى اللاعقلانية. يحدث ذلك بطريقة بسيطة: فهناك الذين لا يكرهون، أي الذين يريدون السلام، والمستعدون لتشجيع فكرة «سامح وتناس» (أو على الأقل «إنسَ») وهم الذين تتناقص أعدادهم مع ظهورهم بمظهر اللاواقعية، وحتى اللاوطنية، بالنسبة إلى أعداد كبيرة من مواطنيهم. إن المجموعة التي تبدأ وكأنها أقلية غير عقلانية لا تلبث أن تلتهم العقلانيين في مصائدها وأوهامها.

يتسبب الإرهاب بالفوضى وينشر الموت، لكنه يتسبب كذلك بالحقد على الجناة بين الفئة المستهدفة. إن هذه هي طبيعةُ الحياة الإنسانية، لأن الفئة المستهدفة لا تعتبر أن الفئة الجانية جانية فقط، بل تحمّلها المسؤولية أيضاً، وهكذا تصبح

الفئة الجانية هي المستهدفة والضحية، وهكذا تستمرّ هذه الحلقة الفظيعة. تتدخل «السلطات» بعد ذلك، وغالباً ما يكون هذا التدخل دموياً كذلك. وما إن يشعر الجنود ورجال الشرطة بقوة الإرهاب حتى يصبحوا ضحايا مباشرين، ويتحولوا بعد ذلك جناةً بدورهم. ينسى الناس أحياناً أن الجنود البريطانيين قد أُرسلوا إلى إيرلندا الشمالية في الستينيات من القرن الماضي ليس من أجل مهاجمة القوميين، بل من أجل حمايتهم.

استحكم الحقد وازداد شراسةً بمرور القرون، كما تم الاحتفال بالانتصارات القديمة وأُعطيت أهمية حديثة، كما تم تذكر الأعمال الوحشية التي قامت بها جهة من الجهات بوصفها أحداثاً حاسمة في تحديد شخصيتها في الحاضر وفي المستقبل. أتذكر في إحدى الجلسات المطولة التي عقدناها في داوننغ ستريت كيف أن دافيد تريمبل، وكان عندئذ زعيم حزب اتحاديي آلستر، قد انتظر في قاعة الحكومة. شاهدت جيري آدامز وهو زعيم الشين فين في المكان. أنهيت اجتماعي معه وخرجت إلى قاعة اجتماعات الحكومة فشاهدت دافيد وهو يقلّب صفحات أحد الكتب الموجودة على الرفوف. كان ذلك الكتاب هو سيرة كروميل الذاتية، وبدا أنه استمتع بالكتاب رغم أنف جيري. يعتبر البريطانيون كروميل شخصية تاريخية هامة، أما بالنسبة إلى الإيرلنديين فهو مجرد رجل متعصب وسفّاح. أتذكر كذلك أنني عقدت اجتماعاً مع جيري ومارتن ماك غينيس في شيكرز (مقر رئيس الوزراء الريفي). سبق لابنة كروميل أن تزوجت مالك شيكرز، لذلك فإن المكان مليء بتذكارات عن كروميل. جلت مع مارتن في أنحاء المنزل إلى أن وصلنا أخيراً إلى قناع موت كروميل. قلت له: «أترى، لقد مات فعلاً»؟.

أجابني: «لا أريد المراهنة على ذلك».

كُتب الكثير عن هذا النزاع، ولا يقتصر الأمر، ببساطة، على الخلاف السياسي الناشب بين الاتحاديين والقوميين، ولا على النزاع الديني، لأنهم لا يتكلمون اللغة باللهجة ذاتها، وهم يتبنون مواقف مختلفة، كما أنهم ذوو طبيعة مختلفة. هناك، بطبيعة الحال، انقسام بين البروتستانت والكاثوليك، إلا أن هذا الانقسام يترافق بدوره مع انقسام ثقافي ومضامين دينية، لكن الخلافات العقائدية كلها قد دخلت منذ وقتٍ طويل متاهات النزاعات القبلية. إن رجال آلستر (وكلهم ذكوريون) لا

يحبون كثرة الكلام، وهم ثابتون في مواقفهم، وحازمون في كلامهم لكنهم مهذبون، ويحتفظون بروح الدعابة الخاصة بهم، كما يمتلكون ميلاً إلى عدم الوثوق، وأحياناً لأسباب وجيهة، بالعالم. كان الإيرلنديون اجتماعيين، ومتحمّسين، يستخدمون كلماتٍ مبهرجة، كما يحبون التحدث في العموميات بدلاً من التفاصيل، وهم يفعلون ذلك بحسّ مرهف ليس تجاه وضعهم كضحايا، بل لأن العالم الأوسع أصبح أكثر تناغماً معهم مما هو مع مضطهديهم.

رأيت في إحدى زياراتي إلى إيرلندا الشمالية حدثاً هاماً يدل على كيفية تعزيز ثقافة المعارضة. دعت الشين فين بعض الفلسطينيين لزيارة المدينة. شاهدت بعد أن حطّت طائرتي لقضاء الليل هناك العلم الفلسطيني مرفرفاً حول الطرقات التي يسيطر عليها الجمهوريون، والتي تؤدي إلى بلفاست، وذلك ترحيباً بضيوفهم. ركبت السيارة في اليوم التالي لمغادرة المدينة، فرأيت أعلام الإسرائيليين البيضاء والزرقاء ترفرف فوق مواقع الاتحاديين. تساءلت عن كيفية حصولهم على هذه الأعلام، وكيف رفعوها بين ليلة وضحاها، لكني لم أصل إلى جوابٍ مرضٍ، ولعلي لن أصل إليه أبداً، لكن ما أعرفه هو أنه ما إن ارتفعت أعلام الفلسطينيين حتى أظهر الاتحاديون تضامنهم الكامل مع إسرائيل.

تجري إيرلندا في دمي كذلك، لأن والدتي كانت من دونغال. كانت عائلتها تعيش في الجنوب، وهي عائلة من المزارعين البروتستانت المتعصّبين. كان والدها معلّماً عظيماً في أحد محافل أورانج. أعطت جدتي لوالدتي مثالاً استثنائياً عن الطبيعة الدائمة للطائفية. كانت امرأة لطيفة جداً، لكنها متعصبة جداً لزمانها وشعبها، حين أن التعصب في تلك الأيام كان، ويا للأسف، أمراً مقبولاً. أصيبت جدّتي في الأيام الأخيرة من حياتها بمرض ألزهايمر. زرتها ذات يوم في سرير مرضها، وكانت تمر حينئذ بفترة مدهشة من الوعي التام. كنت بدأت في ذلك الوقت بمواعدة شيري. لم تعرف جدتي بهذا الأمر بالطبع، كما أنها عجزت عن التعرف إليّ تماماً. مسدتُ يدها فما كان منها إلا أن أمسكت يدي، وفتحت عينيها إلى أقصى حدّ ممكن ثم قالت: «مهما فعلتَ يا بني إياك أن تتزوج كاثوليكية». كان كل شيء قد محيَ من ذهنها، وكل ما تبقى هو ذلك الكره الطائفي.

تعودنا الذهاب إلى إيرلندا كل سنة لتمضية إجازاتنا، ولزيارة أقارب والدتي.

أحببت تلك الإجازات كثيراً. كنا ننزل عادةً في فندق ساند هاوس الذي يقع في منتجع روزناولاف قرب باليشانون. تعلّمتُ السباحة في ذلك الشاطئ الواقع في المحيط الأطلسي بمياهه الباردة جداً. كنت في الحادية عشرة من عمري عندما بدأت بملاحقة الفتيات هناك، وهناك تعلمت عزف أولى نغماتي على الغيتار، كما تذوقت أول جرعة من جعة غينيس.

كان أقربائي هناك، في حقيقة الأمر، على شيء من الغرابة. كانت هناك الخالة مابيل التي لا تمتلك غير سنّ واحدة. لا أدري لماذا أربط صورتها مع فيلم غلاسيير مينتس الذي أنتجته شركة فوكس، والمؤكد أن سبب ذلك لا يعلمه إلا الله. كانت هناك ليزي، وهي والدة خالتي الأكثر غرابة التي تعيش في منزل يقع أعلى التلة، وهي على شيء من البخل. لم تكن حريصةً على المال فقط، بل كانت بخيلةً أصلية، وبدا لي أنها ثرية أكثر مما يتصوّره المرء، لكنها خبأت مالها في مكانٍ ما. أمضينا شطراً كبيراً من أوقاتنا في محاولة منا للفصل بينها وبين ثروتها الهائلة. كانت فرص النجاح في هذا الأمر بعيدةً جداً أثناء حياتها، لكن العائلة امتلكت آمالاً عالية، وإرادة، والكثير من العزم. كانت الجدة ليزي تتلقى زيارات منتظمة بحثاً عن إشارات تدل على موتها الوشيك.

أتذكر ذات مرة عندما اصطحبتني والدتي مع شقيقي لرؤيتها، وهي التي أعربت في وقتٍ سابق عن رغبتها في رؤية «الأولاد»، الأمر الذي اعتبرته والدتي مؤشّراً حسناً. لم أكن قد التقيتها من قبل، لكن شهرتها كانت كبيرةً جداً. غمرني شعور بالإثارة لأنني كنت سألتقي بخيلةً حية. دخلنا المنزل بعد أن حذّرتنا والدتي أنا وشقيقي بالقول: «إسمعا الآن، تفوح بعض الرائحة من منزل الخالة ليزي». توقفت قليلاً قبل أن تكمل: «في الواقع، تفوح رائحة كثيرة. لا أريدكما أن تعلّقا بشيء. هناك أمرٌ آخر». ثم أردفت: «ستقدم لنا الخالة ليزي الشاي. أريدكما، إذا قدمت لكما البسكويت، أن تأكلا. تناولاه». قالت مكررة.

قلت لها: «حسناً يا أماه، إنني أحبّ الكعك».

سدّدت نظرة نحوي، وقالت: «همم».

لم أتمكن إلى هذا اليوم، أعني بصدقٍ إلى هذا اليوم، من نسيان الرائحة الكريهة،

ولا البسكويت. كانت الرائحة كريهةً جداً، وحادة، ومقيتة بحيث تجتاح الحواس وتوضح تماماً معنى كلمة عفونة. أعتقد أن البسكويت الذي قدمته لنا هو من بقايا حفلة الشاي السخية التي أقامتها الجدة ليزي، أو لربما من الحفلة التي سبقتها. تسبب مزيج الرائحة الكريهة والبسكويت بإحساسي بالتقيؤ في كل مرة أجلس هناك. أبلغت الجدة ليزي والدتي بأن صحتي ليست على ما يرام. أشعر بالغثيان حتى وأنا أكتب هذه الكلمات.

غادرنا المنزل في وقتٍ أبكر مما كنا ننوي، وذلك لأن والدتي شعرت بالقلق نظراً لاحتمال أن أتقيأ بالفعل. قلت لها: «من المؤكد أنها لن تعطي مالها لأحد إذا كانت بخيلة». أدركت والدتي بعد أن توفّيت الجدة ليزي من دون أن تترك لنا أي شيء، أن رأيي كان فوق مستوى عمري.

لم تكن إيرلندا تجري في دمي فقط ، بل كانت جزءاً من فترة صباي كذلك، كما كان لدينا أصدقاء هناك كنا نلتقيهم كل سنة. توقفنا في العام ١٩٦٩ عن رؤيتهم فجأة. قررت والدتي أن الأمر ليس آمناً. بدأت المشاكل في ذلك العام.

بقيتُ على تواصل مع الأصدقاء عبر الرسائل التي علمت بواسطتها كيف أن المرارة قد تسللت إلى المشاعر العامة. كانوا من البروتستانت بالطبع، كما أنهم وصفوا لي بمرارة متزايدة العلاقات الآخذة بالتدهور تدريجاً مع جيرانهم الكاثوليك، وكذلك نظرتهم إليهم. تمكنت مع ذلك من تكوين فهمٍ مباشرٍ لطبيعة النزاع.

بقيت بريطانيا، ولسنوات عديدة، تستيقظ في صباحات عديدة على أخبار آخر الهجمات الإرهابية، أو حوادث القتل الطائفية، أو على أخبار موت أحد الجنود، أو تفككٍ أكبر للتفاعل الاجتماعي بين الاتحاديين والقوميين. تحول إيان بايسلي، الذي كانت جدتي تقدره كثيراً، إلى اسم معروفٍ لدى العائلات كافة. مضت السبعينيات، وطوت معها الثمانينيات والتسعينيات. طوت هذه السنوات معها المحاولات الفاشلة للتوصل إلى سلام لكنها انطبعت في ضمير البلاد. أما سمعة اللاعبين الأساسيين الذين كنت أحاول التوصل إلى اتفاق معهم فقد تلاشت على سندان الصراعات الطائفية التي كثرت في تلك الفترة: جيري آدامز، ومارتن ماك غينيس، وجون هيوم، ودافيد تريمبل، وجون تايلور، وبيتر روبنسون، وبايسلي ذاته بطبيعة الحال. كان

هؤلاء جزءاً من كل، وأثروا كثيراً في الأحداث، كما شاركوا في صنع تاريخ البلاد وأسطورتها.

نسينا في بعض الأوقات قساوة الأحداث: العذاب، والتشويه، والانحرافات، ومدى ضخامة الحقد الخالص. فكرت كثيراً في المضربين عن الطعام، وخصوصاً في بوبي ساندس الذي قتل نفسه جوعاً. فكرت في الألم، وفي الرعب الذي لا يُحتمل، وفكرت في الجرأة العمياء التي يتطلبها تدمير الذات، وهو الأمر الذي لا يحصل في لحظة واحدة بل خلال أيام وأسابيع من العذاب. يأتي الناس بأفعال فيما بينهم ولأنفسهم، لا يسعنا إلا أن ننظر إليها بعين الدهشة. ظلّت هذه الأعمال البربرية المتأصلة في النفوس تسيطر على إيرلندا الشمالية لعقودٍ طويلة.

ما السبب، بحقّ السماء، الذي يجعلني أعتقد أن هذه القضية قابلة للتسوية؟ تعود جوناثان بويل النظر إلى المسألة بحسب ما أسماه، وأعتقد أنه كان يمزح، عقدة المسيح الخاصة بي. يعني ذلك أنني أعتقد أن بإمكاني فعل ما يعجز عنه الآخرون. لكن الواقع كان في جانب آخر، أو أقلّه في جانبٍ آخر، لكن برز سبب آخر: اعتقدت أنه ليس في مصلحة أحد أن يستمرّ هذا الصراع، ليس في إيرلندا الشمالية فقط بل، والأهمّ من ذلك، في خارجها كذلك. اعتقدت أن الأمر برمّته قد أصبح موضةً قديمة، وبعيداً جداً عن إيقاع الزمن الذي تعيش فيه جزيرة إيرلندا.

ربما يتساءل المرء عما أقصده بعبارة «لم يعد من مصلحة أحد تحمل هذا النزاع». متى سينتهي هذا النزاع؟ لم يكن الأمر كذلك بتاتاً بالنسبة إلى الناس الذين يعيشون داخل إيرلندا الشمالية لأن الصراع كان يتغذى بالتعصّب الأعمى، وبالآلام التي تسبّبها المآسي. أما بالنسبة إلى العالم الخارجي فإن إيرلندا الشمالية كانت منطقة نزاع حيث تعود الناس التعبير عن روابطهم العاطفية من دون الاضطرار إلى تحمّل العواقب، أي ما يماثل ما يجري بالنسبة إلى القضية الفلسطينية. لا أعني بهذا الكلام أنهم يريدون تطويل النزاع، لكنهم ينظرون إليه من زاوية واحدة فقط. كانت تلك نقطة تجمع هامة. يذكّر هذا الوضع المجتمعات التي هي من أصول إيرلندية بجذورها. إنهم لا يعتّقدون بقابلية هذا الصراع للحل، لذلك لم يبذلوا جهداً للتوصل إلى سلام.

شكّلت أقسام من الجالية الإيرلندية – الأميركية مثالاً هاماً. تعيش الجالية على

بعد آلاف الأميال من المناطق التي تسودها الفوضى التي ما كانوا ليتحملوها ولو للحظةٍ واحدة، وكثيراً ما كانوا يفكرون في التاريخ والفولكلور الإيرلنديين، وفي عدم المساواة التي يتصف بها البريطانيون، وفي قضية أقربائهم وأنسبائهم، ولذلك قاموا بجمع الأموال بكل طيبة خاطر، وهي الأموال التي استُخدمت لقتل الجنود والمدنيين البريطانيين الأبرياء.

بذل غلادستون، وآسكويث، وبعد ذلك لويد جورج محاولات جريئة من أجل حلّ القضية عن طريق تطبيق اللامركزية في إطار المملكة المتحدة ـ الأمر الذي كان قابلاً للتطبيق، بكل تأكيد، في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لكنه لم يطبّق قط – إلا أنها لقيت الفشل مراراً بسبب الانتهازية أحياناً والتعصب الذي لا ينتهي، والاستفزازات التي قام بها الاتحاديون وأعضاء البرلمان من المحافظين. وصل الأمر بشخصيات عظيمة مثل أف. إي. سميث إلى حد استغلال النزاع من أجل شل حكومة المملكة المتحدة التي لم يكونوا يحبونها. أما بالنسبة إلى جمهورية إيرلندا فالقضية كانت دافعاً للتوحيد، وهي التي أعطت البرهان والهدف لدولة ناشئة خلال عملية بناء نفسها. كانت إيرلندا في الحرب العالمية الثانية دولةً محايدةً، حتى أنها كانت معاديةً للبريطانيين قليلاً، وذلك على الرغم من أن كثيرين من الرجال الإيرلنديين الشجعان والعظماء قد تطوعوا لمحاربة النازيين.

لكن الأزمان كانت آخذةً بالتغيّر بينما كان العالم الحديث يتشكل من حولنا. تصادمت المواقف القديمة مع الوقائع الجديدة التي تميزت بحيوية نشطة. بدأ رجال دولة من أميركيين أمثال تيدي كينيدي بتخيّل إيرلندا وهي تتمتع بسلام. أما أعضاء الكونغرس الجمهوريون الذين كانوا يقدّرون مارغريت ثاتشر كثيراً وامتدحوا صداقتها مع الرئيس ريغان، فاعتقدوا أن من المستغرب قليلاً أن يساندوا أشخاصاً انهمكوا بقتلها بكل نشاط. أما الحكومات البريطانية على اختلاف مشاربها فإن هدر الموارد والجنود اللذين تتطلبهما إيرلندا الشمالية قد جعلا من إمكانية السلام أمراً مغرياً جداً بالنسبة إليها.

أما الأهمّ من ذلك كله فهو أن الإيرلنديين قد تغيّروا، كما تغيّرت معهم المواقف تجاههم. يصعب على المرء أن يفهم الآن كيف ينظر كثير من البريطانيين والاتحاديين إلى الإيرلنديين. كانوا هدفاً للنكات التي تدور جميعها حول غباوتهم، كما أن اللقب

الذي التصق بهم بكل تعالٍ فكان «الإيرلنديين البسطاء» الذين يشتغلون في قطاع البناء كعمال، لكن لا يمكنهم العمل في المصارف. إنني أخجل من القول إنه كان يُنظر إليهم كما كان ينظر بعض البيض في جنوب إفريقيا إلى السود في حقبة التمييز العنصري، أي بوصفهم أدنى مستوى بطبيعتهم. يبدو الأمر فظيعاً هذه الأيام، لكنه كان صحيحاً في وقتٍ من الأوقات. كانت السياسات المتخذة إزاءهم تعتمد على تاريخ علاقتهم مع بريطانيا.

بدأ الإيرلنديون في الثمانينيات من القرن الماضي عملية تغيير ذاتي. استمرت العملية بعد ذلك مع آلبرت راينولدز، وبيرتي آهيرن، الذي كان وزير الإصلاح المالي. انضم الإيرلنديون إلى الاتحاد الأوروبي، واستفادوا كثيراً من برنامج التنمية السخي، وهو البرنامج الذي استخدموه بذكاء فائق، وهكذا دخلت البلاد عصر الحداثة. تحولت دبلن إلى مدينة أوروبية آخذةٍ بالازدهار، وازدهر الاقتصاد، كما تحوّل U2 إلى إحدى أكبر الفرق الغنائية في العالم، وأصبح بوب غيلدوف بطلاً، بينما صار روي كاين أفضل لاعب كرة قدم في زمانه. أصابت التجارة الإيرلندية، والفن الإيرلندي، والثقافة الإيرلندية، وباختصار كل ما هو إيرلندي، نجاحاً متزايداً.

تحولت النظرة الدونية، في غضون سنوات قليلة، من الجنوب القديم المتخلف إلى الشمال. كان الجنوب ينطلق في طريق المستقبل الواعد، بينما كان شعب شمالي إيرلندا عالقاً بالجدال حول المسائل الأساسية التي تفصل ما بين البروتستانت والكاثوليك. فعلوا ذلك بطريقة أعاقت سبل التقدم أمامهم وسط غموض مسائل لا قيمة لها.

كان ذلك هو العامل الذي أعتقد أنه أعطانا فرصةً للسلام. اعتبرت الجمهورية [الإيرلندية] أن القضية لم تعد نزاعاً ينبغي التشبث به كرمزٍ توحيدي للهوية الإيرلندية، بل كان تذكِرة مؤلمةً وغير مرحبٍ بها لماضي إيرلندا. تمكّن الاتحاديون، على مدى عقودٍ من الزمن، من الإشارة إلى تخلف الاقتصاد الإيرلندي وإلى فروقهم الثقافية والدينية على أنها تقريب ما بين مستحيلين، لكن هذه العناصر إما أنها تتلاشى، وإما أنها تُعكس.

عمدت إلى وضع استراتيجية قبل أن أتولى مسؤولياتي الرسمية. إن أول الأمور

التي أقدمت عليها بعد أن تسلمت رئاسة حزب العمال كان تغيير سياساتنا ومواقفنا بشأن إيرلندا الشمالية. بقيت سياسة حزب العمال لسنوات عديدة هي محاولة التفاوض للتوصل إلى اتفاق سلام بين الاتحاديين والقوميين، على أساس أننا نؤمن بإيرلندا متحدة، بحيث يلعب حزبنا دوراً في إقناع الأطراف المعنية. لا يتطلب الأمر عبقريةً سياسيةً لإدراك أن مثل هذا الموقف يدعم وجهة نظر الاتحاديين، وهكذا فإن تبني هذا الموقف يعطل أي محاولة للتفاوض بشأن اتفاق على ذلك الأساس.

كنت أدرك أنني لن أتمكن من إحداث تغيير في السياسات عن طريق آلية تحديد السياسات المعتادة في الحزب، وبالتحديد في ذلك الوقت. ظهرتُ في برنامج توداي ذات صباح بعد أن توليت زعامة الحزب. أعلنت وقتئذ أننا من الآن فصاعداً سوف نتبنى سياسةً جديدة: الحياد في مسألة إيرلندا متحدة، أو المملكة المتحدة. عمدت كذلك إلى إبدال كيفن ماكنمارا، وهو رجل محبوب بالفعل لكنه يتبنى السياسة القديمة، بمو ماولام، الذي كان يشغل مركزاً متواضعاً بعد جون سميث في إيرلندا الشمالية.

تبنيت بعد ذلك موقفاً مشتركاً بين الحزبين مع جون مايجور، وساندت مواقفه الساعية إلى التوصل إلى سلام. كانت الاتفاقات التي تجري بين الحزبين نادرةً جداً في تلك الأيام، ويعود سبب ذلك إلى التحركات الحادة نحو اليمين واليسار في حزبَي العمال والمحافظين، وكذلك لأن هذه الاتفاقات كانت تُعتبر سياسة سيئة. دعم جون سميث بحذر، على الرغم من ذلك، مايجور في مسألة التفاوض سرياً مع الجيش الجمهوري الإيرلندي.

قررت أن أجعل من ذلك عرضاً تاماً ليس للتغيّر في السياسة تجاه إيرلندا الشمالية فقط، بل للتغيّر في نهج الوجود في المعارضة. اعتقد الناس، كما توقّعت تماماً، أن تلك هي سياسة ناضجة لأن أحداً لم يكن يعتقد أن إيرلندا الشمالية يجب أن تكون في بؤرة جمع النقاط للحزبين. تمسكنا بهذا النهج طوال الفترة التي انتهت بانتخابات العام ١٩٩٧. أقمت علاقات مع دافيد تريمبل والاتحاديين، كما بعثت برسائل تظهر اهتمامي بالشين فين، والتقيت بيرتي آهيرن، الذي كان زعيماً للمعارضة كذلك، وظهر التوافق فيما بيننا على الفور، أي إن التناغم سرى كالنار في الهشيم. كان طاوسيش جون بيرتون رجلاً عظيماً، لكنه كان من النوع الخاسر.

أطلق نصرنا الذي أحرزناه في الأول من أيار/مايو في العام ١٩٩٧ طاقةً جديدةً بيننا في كل مكان. وأعطت التحديات التي أتعبت الحكومة التي سبق لها أن فقدت الكثير من معنوياتها، دفعاً وطاقة جديدين وأبرزت فريقاً حيوياً وواثقاً بنفسه يتمكن من الانطلاق. فكرت مراراً بأن مثل هذه الجرأة يمكن أن تجد أفضل فرصة لها للتحليق في أول اندفاعة من الحماسة عندما يلاقي لحظة تغيير عظيمة.

علّمتني الأسابيع القليلة الأولى الكثير عن طبيعة هذا التحدي وتعقيداته. كنت في أول مؤتمر قمة أوروبية لي عندما بلغتني أخبار تفيد أن الجيش الجمهوري الإيرلندي قد قتل اثنين من ضباط الشرطة، وذلك عندما كانا خارج نطاق مهامهما الرسمية. قُتل الشرطيان أثناء سيرهما في الشارع وبعد إطلاق الرصاص عليهما في الرأس. انتهت حياة شخصين وغرقت أسرتان في الحداد. شعرت بالصدمة، وكنت قد بعثت برسائل تحذير إلى قيادة الشين فين قبل الانتخابات. لم تكن هذه بدايةً تبشّر بالخير.

قررتُ كذلك أن يعالج أول خطابٍ هام لي كرئيس للوزراء قضية إيرلندا الشمالية والسلام فيها. فكّرت كثيراً في الكلمات التي يجدر بي قولها، وذلك قبل فترةٍ من بدء الانتخابات، كما تحدثت عن الأمر مع دافيد تريمبل. انضمّ إلينا الديبلوماسي جون هولمز الذي عمل مع جون مايجور، وما لبث أن أصبح جزءاً أساسياً من فريقنا، وذلك بعد أن أصبحنا داخل داوننغ ستريت، كما أصبح جوناثان بويل مشاركاً أساسياً في جهود الحكومة منذ انطلاقتها.

لم أتمكن قط من تحديد السبب الذي يجعل من جوناثان لاعباً مهماً في هذه القضية، لكنه كان كذلك. يُمكن للمرء أن يبالغ في ظروفٍ كهذه، ويقول: «لولا هذا وذاك لما كان حدث هذا الأمر»، لكن في مثل هذا الوضع كانت تلك الحقيقة الناصعة، لأن لولاه لما كان تحقق السلام. استخدم الرجل كل موهبة يمتلكها، ولا شكّ أنه يمتلك الكثير منها، في تحقيق أفضل النتائج التي تؤدّي إلى اتفاقية سلام. كان الرجل مجتهداً، وذكياً، ومتبصّراً، ومثابراً، ومبدعاً، وكان فوق ذلك كله رجلاً موثوقاً به من الفريقين، مثل ما كان الآخرون. تمكّن الرجل من إقامة صداقةٍ حقيقية مع آدامز. احترمه الاتحاديون، كما لقي تعاوناً من مكتب شؤون إيرلندا الشمالية، وهو التعاون الذي لم ينظر إليه الأفرقاء بعين الرضا، والذي كان موضع عدد كبير من الشكاوى، لكن ذلك التعاون أدى مهمّةً عظيمةً في ظروفٍ بدت مستحيلة. أما هدوؤه

الدائم فقد كان عامل تلطيفٍ عظيم لتقلبات مزاجي التي كانت تنتج عن مسألة إيرلندا الشمالية.

قلت إن هدوءه كان دائماً، لكن هذا الهدوء تفجر بطريقة لم أشهدها من قبل بشكلٍ هائل أثناء اجتماع عقدته في درمكري. كان سكان درمكري خلاصة العقلانيين من غير العقلانيين. تفّوق هؤلاء تفوقاً كبيراً على كل الجماعات التي تعتمد التفكير غير المنطقي نهجاً لها. غير أن رجلاً واحداً اسمه برندين ماك كوينايث كان يمثل سكان كارفاجي رود... لكني أريد قبل ذلك أن أقدم شرحاً مختصراً عن درمكري.

كانت مسيراتُ الاتحاديين تخترق عادةً مناطق الكاثوليكيين حتى الجمهوريين، وهو الأمر الذي لم يكن يُعجب، بطبيعة الحال، القوميين والجمهوريين. أراد هؤلاء، ولسببٍ منطقي، منع هذه المسيرات بطريقة أو بأخرى. كانت المسيرات تتسبب بأعمالٍ العنف، وإن بدا ذلك غير منطقي بالمرة. كانت درمكري أخطر المناطق حساسية في هذا الشأن. كان جزء من طريق المسيرة السنوية يمر لمئات الياردات عبر طريق كارفاجي، التي تقع في منطقة يسيطر عليها الجمهوريون بإحكام. تعين على لجنة المسيرات تقرير ما إذا كانت ستسمح بهذه الاستعراضات أم لا، ثم كان على رجال الشرطة المساكين حفظ النظام أثناءها.

كان الأمر برمّته بمثابة كابوسٍ حقيقي، لأن اللجنة إذا منعت هذه المسيرات فذلك كان يدفع بعشرات الآلاف من الاتحاديين للنزول إلى الشوارع. أما السماح بها فكان يتسبب بقيام أعمال شغب في مناطق الجمهوريين. كان حل هذه القضية جزءاً من عملية السلام. كان برندن ماك كوينايث هذا يتزعم السكان هناك، وهو الذي تميّز بلاعقلانية كبيرة بحيث أثار اهتمامي في نهاية الأمر، كما أثار استياء جوناثان. اتخذ الرجل اللامنطق كي يكون نوعاً من أنواع الفن. كان لا يتنازل عن شيء، وأعني لا شيء مطلقاً. إنني لا أتحدث هنا عن جوهر الاجتماعات فقط، بل عن أمكنة عقدها، ومَن سوف يُسمح له بحضورها، ومن لا يُسمح له، ومتى تبدأ، ومتى تنتهي، وما هي غاية هذه الاجتماعات، ومَن سيتكلم في أوّلها، ومن سيتكلم في آخرها، ومَن هم الأشخاص الذين سيتكلمون بين بدايتها ونهايتها.

تكونت عندي قناعةٌ كبيرة أن أهمّ شيء ينبغي الاهتمام به عند عقد اجتماع ما

مع أحد الأشخاص هو تهيئة البيئة المناسبة، والتشديد قليلاً على المشاعر الإنسانية، وتبادل بعض الملاحظات اللطيفة، وفوق ذلك كله بدء الاجتماع بقول شيء لا يكون موضع جدال بالمرة بحيث يستحيل الخلاف حوله، وأن تحمل الشخص الآخر على الإيماء بالموافقة. إن تلك الإيماءات هي التي تقيم نوعاً من الوئام، وهي إشارة صغيرة ومبكرة تدل على عدم ضياع كل شيء. يمكنني القول في هذا المجال: «أعرف كم هي مشاعرك قوية تجاه هذه القضية». هناك المشاعر القوية بطبيعة الحال، ولذلك تنشأ النزاعات، لكن إيماءات الموافقة تظل موجودة.

كان برندن ماك كوينايث من النوع الذي لا يومئ أبداً. أما إذا قلت له: «أعرف كم هي مشاعرك قوية تجاه هذه القضية»، فكان يسارع إلى القول: «إن مشاعري تجاه هذه المسألة ليست بأقوى مما هي تجاه المسائل الأخرى». كنت أردّ عليه، «أجل بالطبع. أنا آسف. أنت تمتلك بالتأكيد مشاعر قوية». كان يرد عليّ بالقول: «ومن أنت حتى تعرف طبيعة مشاعري؟». كنت أقول له إن هدف الاجتماع مع الرجال البرتقاليين والسكان هناك كان حل النزاع بطريقة مرضية للجميع بحيث ينبثق السلام. أما الرد فكان الرفض القاطع لكل ذلك، وأما الهدف فكان إرسال منظمة الاورانج Orange Order، واستفزازاتها العدائية للسكان العاديين في طريق كارفاجي إلى مزبلة التاريخ، أو ما يشبه ذلك. كنت أقول له في النهاية: «ماذا بشأن...» تمرّ فترة صمت بعد ذلك لأسمعه يقول بعدها: «كلا» وذلك قبل أن يتيح لي فرصة شرح اقتراحي. وإذا قلت للقارئ إن برندن ماك كوينايث هذا لا يمثّل لا عقلانيته على نحو صارخ (مع أنه يستأهل الميدالية الذهبية) فلعله يدرك مدى اللاعقلانية التي يتميز بها الأشخاص الذين يمثلهم.

فقد جوناثان هدوءه المعتاد، لغرابة الأمر، مع منظمة أورانج. كنا نعقد أحد هذه الاجتماعات المطولة، التي كانت تدور في حلقة مفرغة، وغير المثمرة التي كنا نعقدها في كل مرة تحدث فيها تلك المسيرات من أجل تقرير كيفية تنظيمها والطرقات التي ستسلكها، وكان ممثلو منظمة الأورانج [المنظمة البروتستانتية الإيرلندية] يبرهنون عن وجهات نظرهم بطريقة تُعتبر مهذبة. عرض أحدهم ملاحظة صبيانية حول تورطي أنا. تنبهت على الفور إلى قرقعةٍ إلى يميني، ثم رأيت جوناثان وهو يهبّ واقفاً، ثم ما لبث أن رمى نفسه فوق الطاولة. تلوّن وجهه باللون الأحمر نتيجة الغضب، وصرخ

قائلاً: «كيف تجرؤ على التحدث إلى رئيس وزراء بريطانيا بهذه الطريقة؟ كيف تجرؤ؟»

لبثنا صامتين من فرط الدهشة مما حدث. لكن جوناثان لم يسكت وطفق يكيل الكلمات مردّداً إياها في بعض الأحيان، لكنه عبّر عن وجهة نظره بكل وضوح. صُدم الشاب الذي كان يمثل منظمة الأورانج، وهذا كان حالي أنا. لم يسبق لي أن شاهدته على هذه الحال من قبل. تبادلت وإياه بعض العبارات بعد ذلك من قبيل «كان يجب عليك أن تتناول حبوبك المهدّئة هذا الصباح»، لكنني أؤكد أنني لم أره على هذه الحال منذ ذلك الحين. أعتقد أن أحداً لا يتصرف بطريقة طبيعية في موضوع إيرلندا الشمالية. دفعنا هذا الحادث إلى التفكير ملياً في طبيعة مهمّتنا، وبدا لنا أننا سنضطرّ إلى استيعاب قدرٍ كبير من الإهانات. لا يعني الأمر الصراخ أو الاحتجاج، لكني أقصد إساءة فهم دوافعنا باستمرار أو تشويهها، وإساء فهم الكلمات التي نتلفظ بها أو إساءة تفسيرها، أما محاولاتنا التي بذلناها لدفع الأمور في مسارٍ حسن فكان يُنظر إليها على أنها محاولات لتعزيز مصالحنا الخاصة، أو حتى للإساءة.

واجهتني في هذا السياق مشكلة ثقة بشكلٍ مستمرّ، وعلى الخصوص مع الاتحاديين، وكذلك مع الجانب الآخر في بعضٍ الأحيان. نتجت هذه المشكلة بالضرورة عن المسار المراوغ الذي ينبغي رسمه من بين المسارات المتعرجة التي تأخذها سياساتنا إزاء إيرلندا الشمالية، وكذلك تلك التي تتميز بها الاتفاقات من كل الأنواع: الجانبية، والسرية، والعلنية. لكن الأمر يتعلق أكثر مع تلك النظرة العامة القائلة بأن الناس يستصعبون قبول قادة سياسيين مستعدّين للمساعدة على الحل. وهكذا فبالنسبة إلى إيرلندا الشمالية فقد يظنّ القارئ أن تدخلنا لا يحمل أي مصالح ذاتية لنا، لأن النزاع يدور حول ما يجري في إيرلندا الشمالية (ليس هناك مقترعون لمصلحة حزب العمال) والأمر لا يتعلق بقضية تحدث من ضمن سياسات المملكة المتحدة (يدل الواقع على أن المرء كلما حاول حلها خفت حدّتها) وتتميز بصعوبتها البالغة وباستهلاكها وقتاً كثيراً من غير انتظام. أما بالنسبة إلى المصلحة السياسية المحض فالمخاطر تتزايد إذا فشلنا، وتنخفض إذا نجحنا.

إن إيمان الحكومة العميق خلال ذلك المسار الطويل كان محل تساؤل بغضّ النظر عن صوابية حكمها. قررت في النهاية أن الناس يتحركون على مستويين اثنين

قياساً على القيادة السياسية. إنهم يضعون كل آمالهم، وتوقعاتهم على الحكومة عندما تتسلم الحكم، كما يلقون بإحباطاتهم على القائد. إن الزعيم هو النقطة المحورية، وهو يصبح لذلك النقطة المحورية للنقد. لا يقاس القائد في هذه المرحلة بمقياس منطقي مقبول، بل يقاس بالنسبة إلى الكمال. يقصر المرء عند ذلك بطبيعة الحال.

يمتلك الناس، على الرغم من ذلك، وعلى مستوى آخر نظرة أكثر نضجاً، وهكذا يحصل المرء على تقدير تجاهه إذا بذل ما يكفي من الجهد. أقول مع ذلك إن جزءاً ضرورياً من القيام بالمهمة يتطلب قدرةً كبيرةً على استيعاب الإهانة.

برزت سمةٌ أخرى أفادتني كثيراً في موضوع إيرلندا الشمالية. إنني لست، بالفعل، من الذين يُظهرون الكبرياء والتعالي، ولا أجيد إحاطةَ نفسي بكل البهرجة التي تحيط بموقع المسؤولية. وضعت جهدي كله في تحفيز الناس وإقناعهم، وليس في إخافتهم. ربما أفرطتُ أحياناً في هذا المنحى، ولعل قدراً معيناً من التعالي، والتحكم، وحتى الترهيب، يفيدني أكثر، لكن هذا هو الواقع، وهذه هي طبيعتي. نجح الأمر في مسألة إيرلندا الشمالية. يُمكن للناس هناك أن يوجّهوا إهانات من دون استفزازٍ كثير، لكن إذا واجهتهم فلا يُمكنك توقع العواقب الناتجة، وهكذا لم أكن أواجههم عموماً.

حاولتُ خلال الأشهر الأولى بعد تسلّمي مسؤولياتي أن أقوم بصوغ استراتيجيتنا. ألقيت خطاباً في معرض آلستر الزراعي الملكي في ١٦ أيار/مايو. قصدت في ذلك الخطاب استمالة الاتحاديين. كان المكان معبراً في ذاته، لأنه كان في قلب منطقة الاتحاديين. استفدت حينئذ من نصيحة دافيد تريمبل، وأوضحت أنني أقدّر الاتحاديين. قلت بعد ذلك إنني أشك في رؤية إيرلندا موحّدة في حياة الموجودين جميعاً في المكان، وهو المقطع الذي أسفر عن استحسان الحاضرين. كان بعض الحاضرين في العشرينيات من أعمارهم، لذلك كان تصريحي هذا تأييداً صريحاً للاتحاديين. كان ذلك أغرب مكانٍ لإلقاء خطابٍ هام، أي في خيمة تسرح خارجها الثيران المعلوفة التي يدفعها مزارعون أصحاء يراقبون تقرير مستقبل بلادهم.

وعلى الرغم من جريمة قتل رجلَي الشرطة (بعث الجيش الجمهوري الإيرلندي برسائل تفيد أنه لم يصرّح بها)، فقد أعطينا هذا الجيش مهلة خمسة أسابيع لتجديد

وقف إطلاق النار الذي تعثّر خلال الأشهر الثمانية عشر الماضية. فعلوا ذلك في ١٩ تموز/يوليو من العام ١٩٩٧.

وافقت الحكومتان البريطانية والإيرلندية بعد أسابيع قليلة على إقامة اللجنة الدولية المستقلة حول نزع السلاح IICD. كانت قضية نزع السلاح إحدى القضايا المؤسفة جداً التي ورثناها من الادارة السابقة، وهي التي تحولت إلى كره وسلاسل قيّدت حركتنا لسنواتٍ تالية. وافق جون مايجور، تحت ضغوط من الاتحاديين على أن الشرط المسبق للسلام واقتسام السلطة هو أن لا يكتفي الجيش الجمهوري الإيرلندي بالموافقة على تبني السلام، بل ينبغي له الموافقة على نزع سلاحه. كان هذا الطلب منطقياً على مستوى معيّن بطبيعة الحال، لأنه إذا أراد السلام فلا يحتاج إلى السلاح، لكن على مستوى آخر كان الطلب يعني ضمناً استسلام الجيش الجمهوري الإيرلندي، أي إن عليه أن لا يتبنى السلام فقط بل أن يعتذر عن لجوئه إلى الحرب، وهو الأمر الذي أربك إدارته الداخلية إرباكاً كبيراً. حاول جيري آدامز، ومارتن ماك غينيس، اصطحاب مناصريهما. انتشرت في الأجواء مجموعةٌ واسعة من آراء الجمهوريين، كما كانت الحال في ظروفٍ كهذه. كان هناك المتشددون الحقيقيون، وهم الذين سيحافظون على تشددهم. أما الأمر الهام فكان عدم السماح لهم بالبقاء في وسط الطريق. وقد دفعتهم إلى ذلك فكرة إجبار الجيش الجمهوري الإيرلندي على تدمير أسلحته. لكن نقضنا للالتزام الذي قدّمه جون مايجور كان أمراً مستحيلاً، لذلك كان علينا تدبر الأمر. أعطتنا IICD بعض الوقت والمجال.

بذل جورج ميتشيل جهداً كبيراً في وضع أسس اللاعنف وتحديد المواقف المشتركة، أي التزام جميع الأفرقاء في الحكومة الوسائل السلمية، ويتضمّن ذلك الأمور العامة مع وضع هيكلية لمفاوضات أوسع في المستقبل. ترأس ميتشيل بعض المحادثات قبل تولينا الحكم. قالت مصادر الشين فين على الفور إنها ستلتزم مبادئ ميتشيل، لكن الجيش الجمهوري الإيرلندي رفض إعطاء الالتزام ذاته. لم يُقدم الجيش على طمأنة الاتحاديين، لكننا احتفظنا بالعناصر الثلاثة في المفاوضات التي طُرحت عندما كان جون مايجور رئيساً للوزراء: كيفية حكم إيرلندا الشمالية بحسب نظام تقاسم السلطة، والعلاقات بين المملكة المتحدة وإيرلندا الشمالية (الشرق ـ الغرب)، والعلاقات بين الجمهورية الإيرلندية وإيرلندا الشمالية (الشمال – الجنوب).

بدأت المحادثات في شهر أيلول/سبتمبر بغياب دافيد تريمبل. فجّر المنشقون قنبلةً في اليوم التالي. أما في اليوم الثالث فقد انضمت أحزاب الاتحاديين، ما عدا حزب DUP، وهو حزب بايسلي، إلى المفاوضات.

جرت مفاوضات أخرى في الشهر التالي، ثم مضيت في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر كي أعقد اجتماعي الأول مع جيري آدامز ومارتن ماك غينيس. لم يسبق لأي رئيس وزراء بريطاني حتى ذلك الحين أن التقى أياً منهما. كانت تلك لحظة عظيمة. أما المسألة الحاسمة في ذلك الوقت فكانت ما إذا كان يجدر بي أن أصافحهما (لم يفعل أي زعيم اتحادي ذلك حتى العام ٢٠٠٧). قررت أن أفعل ذلك بصورةٍ طبيعية. تقدم الرجلان وتصافحنا.

أجبت عندما سئلت عن الموضوع في وقت لاحق أنني عاملتهما مثلما أعامل بقية البشر، لكنني لقيت تعاطفاً من الاتحاديين في وقتٍ لاحق من اليوم ذاته. تلقيتُ دعوةً من بيتر روبنسون وهو نائب زعيم DUP، لزيارة مركز تسوّق يقع وسط منطقته. لم أكن متأكداً ما إذا كان يخطط لشيء ما أم لا، لكنني افترضت أنه لم يفكر في شيء كهذا.

كان المكان مزدحماً بالنساء المسنات المحترمات وهن يتسوقن. تحولت السيدات فجأةً، وكأنهن استفقن من حلم مزعج، واندفعن في موجة احتجاجية، وأخذن بالصراخ والشتم، ونعتنني بالخائن، ورحن يلوحن بالقفازات المطاطية، لكن عناصر RUC أقدمت على ما اعتبرته أنا غيرةً مبالغاً فيها إلى تحويل الأمر إلى حادثة أمنية رئيسة، وحملوني إلى غرفة خاصة ضماناً لأمني.

لم أفهم، للمفارقة، ما يعنيه التلويح بالقفازات المطاطية، وظننت أنهن أنهين تواً غسل الأطباق أو شيئاً من هذا القبيل. أخبرت جوناثان بالأمر فانفجر ضاحكاً، وقال: «كلا. فعلن ذلك لأنك كان لم تلبس قفازات مطاطية عندما صافحتَ جيري آدامز».

تميزت الأشهر القليلة التالية بكونها أشبه بالسير عبر طريق وسط الأدغال الكثيفة خلال محاولتنا الوصول إلى المرتفعات، حيث نتمكن من رؤية بصيص نور يؤدي بنا إلى اتفاق عن طريق المفاوضات. اعترضت طريقنا أحداث غير مساعدة، لكنها كانت موقتة لحسن الحظ. جددت إحدى مجموعات الموالين loyalist وقف إطلاق

النار. كان ذلك مؤشراً حسناً. خرقت مجموعة أخرى من الموالين اتفاق وقف إطلاق النار، واستُبعدت من المفاوضات لأجل ذلك. كان ذلك مؤشراً سيئاً. حدثت في شهر شباط/فبراير من العام ١٩٩٨ أزمة حقيقية عندما قتل الجيش الجمهوري الإيرلندي شخصين في ديري. استُبعدت الشين فين من المفاوضات لمدة سبعة عشر يوماً. وعمدت بعد ذلك مجموعة من الجمهوريين المنشقين وتدعى جيش التحرير الوطني الإيرلندي إلى قتل بيلي رايت، وهو زعيم قوة المتطوعين الموالين. حدث ذلك داخل سجن مايز. كان ذلك تطوراً خطيراً آخر.

لم أتوقف في هذا الوقت عن الاتصال هاتفياً بدافيد تريمبل، وزعماء الاتحاديين، في محاولة حازمة مني لإبقائهم في المفاوضات، بينما اعتبروا، عن حق، أن أعمال العنف العشوائية التي كانت تنطلق بين حين وآخر أمر لا يتسق مع مبادئ ميتشيل.

عمدت، وبضغط من الإيرلنديين، إلى تهدئة خواطر القوميين فأمرت بفتح تحقيق في عمليات إطلاق النار التي حدثت في ذلك الأحد الدامي من العام ١٩٧٢، أي عندما فتح الجنود البريطانيون النار على المحتجين في شوارع بلفاست، مما أسفر عن مقتل عدد من الأشخاص. ادّعى الاتحاديون أن هؤلاء كانوا محتجين سلميين. اعتُبر التحقيق الذي كان برئاسة اللورد ويدجري، وبعده اللورد كبير القضاة في ذلك الوقت، على أنه مجرد تمويه. وافقنا، لهذا السبب، على فتح تحقيق جديد. أدى الأمر إلى تهدئة الخواطر في ذلك الوقت. تبيّن لنا بعد ذلك أن الأمر سيستغرق اثني عشر عاماً، وبكلفة وصلت إلى نحو ٢٠٠ مليون جنيه استرليني. اعتبرت، حتى إغلاق التحقيق في العام ٢٠١٠، أن هذه القضية هي مثال نموذجي يدفعنا إلى عدم فتح أي تحقيق في أي شيء إلا إذا كان من المستحيل عدم فتح تحقيق، أو في ظروفٍ استثنائية بالفعل. أعرف أن من النادر أن تصل هذه التحقيقات إلى غايتها. نُشر التقرير، فتبين لي أن نظريتي هذه خاطئة تماماً. كان الأمر يستأهل هذا الجهد كله، لأن التقرير كان رواية مفصلة وعادلة لما حدث.

وصلنا بطريقة أو بأخرى إلى مطلع شهر نيسان/أبريل، وذلك عندما قررنا أن نحاول التوصل إلى اتفاقية بشأن العناصر الثلاثة التي كانت أساساً للمحادثات التي بدأها جون مايجور. حددنا تاريخاً للاجتماع. أما الأمر المدهش في اتفاقية الجمعة العظيمة فقد كان طريقة التوصل إليها التي كانت عن طريق المصادفة أكثر مما هي

عن طريق التخطيط. كان من المفترض أن أمكث يوماً واحداً من أجل المصادقة على الاتفاقية التي توصّلنا إليها لأن التفاصيل كانت ستترك للرسميين. أسفر الأمر عن بقائي أربعة أيام وليالٍ، كما أنني انشغلت في وضع تفاصيل إحدى أكثر مفاوضات السلام روعة التي أُجريت، وكادت الاتفاقية تتعثر في مراحل حرجة في تلك الأيام، لكن في نهاية الأمر تمكنا وبجهدٍ شديد من إنجاز هذه الاتفاقية. أستطيع أن أقول، وبصدق، إنني لم أتدخل بشيء كهذا. دخلت هذه الاتفاقية التاريخ.

ولمناسبة الحديث عن التاريخ أريد التحدث عن لحظة ممتعة عند وصولي. قال لي دافيد تريمبل عبر الهاتف، وفي الليلة التي سبقت وصولي، على الرغم من أن قدراً كبيراً من العمل المفصّل قد أنجزه الرسميون، لكن لم يتم التوصل بالفعل إلى اتفاق حول أي نقطة. بدا الأمر وكأنه يصعب التوصل إلى اتفاق حول أي شيء. قررت بعد ذلك أن أكون عملياً، وبارعاً، ومن دون أن أستخدم الكثير من البلاغة، عندما أخاطب الصحافة خارج هيلزبورو، وهو منزل فخم كان يُعتبر امتيازاً لسكرتير الدولة البريطاني لشؤون إيرلندا الشمالية. بدأت بمخاطبة الصحافة بلهفة متظاهراً بنفاد صبري للبدء بالعمل، ومتجنباً الكلمات الرنانة والمصطنعة: «لا أعتقد أن اليوم هو يوم الإنجازات الكبيرة». خطرت في ذهني عبارة لا يعلم إلا الله من أين أتت، لكني قلتها فجأة: «لكني أشعر أن يد التاريخ تربّت أكتافنا». يُمكن للمرء أن يقول إن ذلك هو إنجاز كبير. لاحظت بطرف عيني جوناثان وألاستر وقد أصيبا بصدمة. قررت أن لا أقول المزيد، وعدت بسرعة إلى المبنى قبل أن أنتقل إلى مكان المفاوضات في مباني كاستل في ستورمونت.

كانت ستورمونت مقرّ حكومة إيرلندا الشمالية في السنوات التي تلت التقسيم إلى حين انهيار هذا النظام برمّته. تُعتبر هذه المباني نموذجاً للمباني الاستثنائية التي كانت خير دليل على أهمّية بريطانيا بالنسبة إلى بقية دول العالم. شُيّدت هذه المباني في مطلع القرن العشرين، وهي صروح بارزة مع أراضٍ تناسبها في الروعة، وهي قوية ومدهشة وفخمة. قرّر أحد المهووسين أن مباني القلعة (كاستل بلدنغ)، وهي المباني الملحقة والمتواضعة، يجب أن تكون حيث اجتمعنا. أعتقد أن لا بد أن يُحاسب الشخص الذي صمّمها، وذلك لأنها لا تشتمل على مرافق تقريباً، كما أنها كانت بشعة، وضيّقة. أما الأسوأ من ذلك كله فهو خلوّها من الحيوية. إنني رجل

حساس تجاه البيئة التي تحيط بي، كما أحب التصميمات الجميلة، وأستمدّ طاقةً من الجمال، وعلى الخصوص جمال الهندسة، وأحب العمل في بيئة تسرّ العين وتنعش الروح. كانت كاستل بلدنغ على النقيض من توقعاتي.

تبيّن لي، وبغضّ النظر عن ذلك المبنى المقيت أننا أسأنا تقدير استعداد الاتحاديين للتوصل إلى اتفاق. كان دافيد تريمبل يتعرض لضغطٍ متواصل من إيان بايسلي الذي كان يرابط خارج مباني كاستل ليطعن بالأمر برمّته بوصفه خيانة بشعة.

تنبهت في المساء الذي سبق الاجتماع لضرورة التحدث مع جون آلدردايس، وهو زعيم حزب التحالف الذي يضمّ في صفوفه عناصر من طوائف متعددة. كان جون، ومنذ البداية، زعيماً عقلانياً لحزب عقلاني تماماً، الأمر الذي يعني أنهم افتقدوا أي أمل بالفوز. احتفظ الحزب مع ذلك ببعض النفوذ بين الحين والحين في أوساط المعتدلين، وكان جون على الخصوص من ذلك الطراز الرفيع من السياسيين الذين يعرفون مجتمع الاتحاديين جيداً. أخبرني بصراحةٍ أن الأمر لا يُعتبر انطلاقة جيدة بالنسبة إلى دافيد تريمبل.

صعدت إلى الغرفة التي تقع في الطابق الخامس حيث سأمكث في غرفتي الصغيرة (أو زنزانتي) في الأيام القليلة التالية. خرجتُ إلى الممرّ كي أشاهد جورج ميتشيل الذي كان في مزاج مرح، وإن كان أظهر بعض القلق عندما أخبرني أنه يعتقد أن التوصل إلى اتفاق أمرٌ غير مَمكن.

اتخذت قراري عندئذ بأن أتولى زمامَ المفاوضات بالكامل. تحدثت مجدداً مع دافيد تريمبل الذي فضّل ترك الأمور إلى ما بعد عطلة عيد الفصح. بدأت باستعراض تفاصيل الأمور التي يريدها، وذلك بعد أن اطّلعت في الليلة السابقة على تعقيدات العناصر المختلفة للمفاوضات. شعرت أنني عدت إلى مهنتي بالمحاماة، وأنني أدرس مطالعة قضية لليوم التالي. كنت محظوظاً لأنني تمكنت من استيعاب قدر كبير من المعلومات، الأمر الذي يدلّ على التمرين الهائل الذي توفره مهنة المحاماة.

شاعت أسطورة حولي مفادها أنني أفضّل الخطوط العريضة على التفاصيل. لكن مهمة رئيس الوزراء تجعل من المستحيل عليه، في واقع الأمر، أن يتجاهل تفاصيل أي شيء. يُضاف إلى ذلك أن الإفراط في التفاصيل يتسبب في حدوث مشكلة.

لكن في بعض الأحيان، وفي لحظات الأزمات أو المفاوضات مثل تلك التي هي بين أيدينا، أو مثل ما حصل في بعض المعاهدات الأوروبية التي قصمت الظهر، أو في اتفاقيات البدجيت، تكون التفاصيل ذات أهمية قصوى. إنني أُغرق نفسي في التفاصيل في أوقاتٍ كهذه.

فعلت ذلك وبالاهتمام ذاته. أحضر دافيد الصفحات التي تحتوي على التعديلات، وبالطبع، فإن التحسّن في النص عند أحد الأطراف يعتبره الطرف الآخر خسارة. وعدتُ دافيد أنني سأقدم له كل ما يريده، لكن من دون أن أمتلك أي أساسٍ متين لهذا الوعد.

التقيت بعد ذلك بيرتي الذي وصل تواً. كان بيرتي أحد الزعماء السياسيين المفضّلين عندي، وهو الذي أصبح صديقاً حقيقياً لي بمرور الزمن. أظهر الرجل خلال العملية برمّتها بطولة، وذكاءً، ودهاءً بالمعنى الأفضل، وقوة، وكان فوق كل شيء متحرراً من قيود التاريخ. لا أريد القول هنا إنه لا يعرف التاريخ، بل على العكس من ذلك فهو يعرف أن عائلته قد حاربت البريطانيين، وأنها كانت جزءاً من ثورة الفصح، وأنها كانت ذات ميول للجمهوريين قلباً وقالباً، لكنه امتلك تلك الميزة الأساسية التي تميّز السياسيين العظماء. أعني أنه كان تلميذاً للتاريخ، وليس سجيناً له.

أما والدته التي كان مقرباً منها كثيراً، فقد توفّيت تواً، وسهر على جثمانها في الليلة السابقة. كان حضوره أمراً يثير الامتنان. أكد لي الرجل أن ذلك الجزء المتعلق بالشمال – الجنوب، أي الجزء المتعلق بكل إيرلندا كان عزيزاً على قلوب مؤيديه، ولذلك كان من الضروري إعادة صوغه. لم يكن ذلك ما أراده، لكنه أظهر هنا صلابته وشخصيته.

كان من اليسير على الرجل في ٧ نيسان/أبريل ١٩٩٨، وفي مراتٍ عديدة في السنوات التالية، المقارنة بين مفهوم الماضي التقليدي لبلاده والرؤية الحية والناشئة لمستقبلها. اختار الرجل تكراراً أن يضع المستقبل أولاً. كان دعمه وإبداعه سنداً أساسياً لنا في المضي قدماً بحثاً عن السلام. كان موظفوه مقتدرين بالفعل، ويأخذون مواقفهم منه. شكّل حضوري وحضوره، وكذلك شخصيتي وشخصيته رمزاً، بطريقة ما، للحقائق الجديدة والحديثة التي كانت تجرف المواقف القديمة في طريقها. جسّد

كلانا، بمعنى ما، الفرصة لتجاوز تاريخنا، سواء البريطاني أو الإيرلندي، والمضي قدماً. لم يترك الرجل عندي أي شك أن إعادة تكوين تحالف الشمال – الجنوب سيكون ضربةً للقوميين.

كانت مهمتي التالية هي لقاء دافيد تريمبل وفريقه كله. لمستُ في ذلك اللقاء ظاهرةً غريبةً تتعلق بالفروق بين الجانبين. عندما يقابل المرء الجمهوريين يلمس الوحدة في أبهى حللها. إنهم يتبنون خطاً معيناً، ويعملون له، ويتمسّكون به. أما إذا تبيّن لهم أن هذا الخط قد تعرّض للتعديل في سياق الاجتماع، فيعتبرون ذلك نوعاً من الخدعة، وذلك لأن على التعديل أن يعدّ سلفاً بحيث يتناسب مع خطّهم الذي يحافظون عليه. كان جيري آدامز هو القائد، وهكذا لا يُقدم أي عضوٍ من أعضاء الوفد على رفع حاجبيه أثناء إدلائه بملاحظاته دعك من التلفظ بكلماتٍ المعارضة. كانوا يدعون بعد ذلك إيان بايسلي لقيادة جوقة حماسية تغني «داني بوي». كان UUP على النقيض من ذلك يعتمدون أكثر الطرق إثارةً للقلق في إدارة الاجتماعات. ربما يعتقد المرء أنهم أشخاص مرحون ولطفاء، ثم لا يلبث أحدهم، وعادةً ليس الزعيم، أن يدلي بتعليق كئيب أو متشائم. كان الآخرون لا يضيعون وقتاً في اللحاق به. أما الأمر الأكثر إثارة للقلق فهو أن هذه الظاهرة كان يُمكن أن تحدث عند البحث في أبسط القضايا. أما بالنسبة إلى دعم قائدهم فلا يعتبرون ذلك من ضمن مهامهم أبداً. كانوا لا يكتفون برفع حواجبهم بل كانت أبدانهم تقشعر سخرية ودهشة بينما كان قائدهم يمضي بالكلام، وكأنهم يريدون أن يوحوا أن كل ما يقوله هو نوع من الخداع ولن يأخذ طريقه إلى التحقيق.

امتلك هؤلاء كذلك ميلاً دفيناً وقوياً مكّنهم من التفكير بأنهم خُدعوا. لم يكن ذلك من دون مبرّر على الدوام، ولكنه ليس أهمّ ما في الموضوع. كانت هذه هي طبيعتهم. كان دافيد تريمبل يتراجع بعد ذلك ويشرح أن هذه هي نتيجة منطقية حسبما يعتقد، لكن لا تلبث أن تنهمر على مسامعه اعتراضات لا حصر لها، ومطالب، ونقاط إضافية، وتعديلات، وطلبات للتوضيح إلى ما هنالك. كنت بعد ذلك أفكر في دافيد كلما اعتبرت أن قيادة حزب العمال صعبة، وإذ ذاك كنت أشعر براحةٍ كبيرة وبالامتنان.

قدّمت تنازلاتٍ كثيرة إلى دافيد، ظاناً أن الأمور سوف تجري بسهولة معه ومع بقية

زملائه من أعضاء الوفد. تخلّصتُ بسرعة من هذا المفهوم المغرق في التفاؤل. طرح كين ماك غينيس، وهو رجل ضخم، وصحيح الجسم، ومتحمّس، ويوحي بالاحترام بالفعل، قدراً كبيراً من التغييرات. شعرت بالارتباك قليلاً وحاولت استيعابها. أثار بعد ذلك ريغ إيمبي، وهو نائب دافيد نوعاً من الفوضى في المكان عندما قال: «لماذا لا نلغي هذا الأمر برمّته كي نبدأ من جديد؟». دبت الفوضى على الفور، لكني سارعت إلى إرسال جوناثان إلى الخارج كي يتحدث إلى كين عن الأمن، وتظاهرت بأن ريغ لم يقُل ما قاله (وهو الأمر الذي كان صعباً، لأنه كرّره غير مرة). كنت أنثر التنازلات من حولي بسهولة لأنني أدركت وجود خطر انسحابهم من المفاوضات. إن تأجيل ما لم يُرد طرف ما فعله اليوم إلى الغد هو أمر خدم الاتحاديين لعقودٍ عديدة، إن لم يكن لقرون. عرفت أن التأجيل سيكون مميتاً.

سيطر عليّ إحساس بوجوب إنهاء الأمر اليوم وإلا فإنه لن ينتهي. أقول، للحقيقة، إنني كنت على استعداد للمراهنة على أنه لن ينتهي أبداً. كان جون في منتهى التفاؤل مع ذلك، وقال إن بإمكاننا إنجاز الاتفاق. اضطرّ بيرتي للعودة إلى البلاد كي يحضر جنازة والدته. قرّر عند عودته إلى طاولة المفاوضات الموافقة على التعديلات بشأن الشمال – الجنوب. كانت تلك خطوة كبيرة، لكنه قبلها ببساطة، وهكذا تمكنا من إحراز تقدم.

تمكنا بعد ذلك من جمع الإيرلنديين والاتحاديين UUP في غرفة واحدة، أي في مكتبي، وذلك للتفاوض مباشرة. أفرح قرار بيرتي قلوب الاتحاديين. قررنا، بسرعة، أن الطرفين سيتمكنان من التوصل إلى نصّ متفقٍ عليه.

توجّهتُ أنا وجوناثان للاستراحة والنوم لعدة ساعات بعد أن التقينا الأحزاب الأخرى (يتعيّن التقاؤها كلها بغضّ النظر عما إذا كانت تستطيع تقديم أي شيء أم لا، وإلا لكانت توقفت المفاوضات بعد الانسحاب منها). عندما عدنا إلى المفاوضات لاحظنا أن الإيرلنديين والاتحاديين UUP لم يتحدثوا إلا عن هذه القضية، ولم يتوصّلوا إلى أي اتفاق. تبع ذلك عمل دؤوب، وقررت أن أترك للاتحاديين فرصة وضع نص بينما يقوم الإيرلنديون بتعديله. حصلنا عند الظهيرة على ما ظننته نصاً متفقاً عليه، وهو النص الذي يعالج أصعب القضايا.

كانت تلك فكرة تتصف بشيء من الحماقة. قلت إن الجمهوريين أظهروا انضباطاً عسكرياً في عرض قضيتهم ودعم زعيمهم. هذا صحيح، لكنهم لم يكونوا الحزب الوحيد من الجانب الإيرلندي. كان هناك الحكومة الإيرلندية، وحزب العمال والاشتراكيين الديموقراطيين SDLP، وهو الحزب القومي المعتدل، وهما اللذان سيتورطان فيما بعد في نقاشات حامية فيما بينهما، وكذلك الحال مع الاتحاديين. اعتبر حزب العمال والاشتراكيين الديموقراطيين أنه عادة ما يتم تجاهله لأنه كان منشغلاً جداً مع الشين فين. كان شعار الحزب على الدوام : «لو كنا نمتلك أسلحةً لكنتم عاملتمونا بطريقة أكثر جدية». تضمنت هذه العبارة بعض الحقيقة. كان همنا الأكبر، بكل بساطة، هو إنهاء العنف، لكنهم لم يكونوا هم مصدر العنف. تمثلت مشكلتهم الحقيقية في قرارهم عدم المشاركة في الحكومة مع الاتحاديين إلا إذا جلس الشين فين إلى طاولة المفاوضات بدورهم. كان موقفهم هذا مفهوماً، لأنه سبق للشين فين أن أفسدوا الأمور عندما ادّعوا أن حزب العمال والاشتراكيين الديموقراطيين قد خان القضية. يمكننا القول إنهم عانوا المشكلة ذاتها التي عاناها UUP مع DUP.

كان ذلك يعني أنهم تخلوا عن ورقتهم الرابحة، وهم الذين سبق لهم أن هاجموني لأنني «سلّمت الشين فين حق النقض»، لكن الحقيقة هي أنهم هم الذين فعلوا ذلك، لأن من دون الشين فين لا يمكن أن تقوم قائمة لأي حكومة يشترك فيها حزب العمال والديموقراطيين الاشتراكيين. لكن النقطة الأساسية كانت كما يلي: «كانوا يحاولون إعاقة الشين فين على الدوام، وكلما تمكنوا من ذلك». أبلغ بيرتي الجانب الإيرلندي، أي جميع أطياف وجهات النظر الإيرلندية، التنازلات التي قدّمها لكنها قوبلت بالرفض.

تعرضت المفاوضات، نتيجة لذلك، للانهيار. سارع بيرتي مجدداً لإنقاذ الموقف. شرحت له أننا لا نستطيع العودة إلى UUP بالنص القديم. أجابني أنهم سوف ينسحبون، لكنه وافق، وإن بتردد، على أنهم سوف يتفاوضون على أساس المسودة التي قدّمها UUP ويواجهون الآخرين كافة.

قدّم الاتحاديون تنازلات تتعلق بموافقتهم على درس مقترحات حزب العمال والديموقراطيين الاشتراكيين. حدث ذلك مرة واحدة فيما يتعلق بالمادة الأولى (أي

حكم إيرلندا الشمالية). كان ذلك هو الإنجاز الكبير الذي قدّمه دافيد تريمبل بشكلٍ حاسم، وذلك عندما وافقوا على إيجاد نظام يضمن التقاسم الحقيقي للسلطة عن طريق التصويت في المجلس، وفي المجلس التنفيذي. حافظ الاتحاديون حتى ذلك الحين على القول بوجوب التصويت بحسب الأغلبية، أي إنهم تجاهلوا، عملياً، أن هذا النظام قد يعني سيطرة الأغلبية، أعني في إيرلندا الشمالية. أما المطلوب، بدلاً من ذلك النظام، فهو مساندة كاملة من مكونات المجتمع كافة كي تتحرك الأمور، كما يتعيّن تقاسم المقاعد الحكومية بصورة عادلة.

استعادت المفاوضات سيرها، وتمكّنا من التنفس بارتياح. تبيّن لنا أننا تسرعنا في ذلك مجدداً. استاء الشين فين من طريقة توصّل حزب العمال والديموقراطيين الاشتراكيين إلى اتفاقية مع UUP. وشعر الشين فين بأنهم استُبعدوا، فأصدروا بياناً صحفياً يفيد بعدم التوصل إلى اتفاق.

أريد أن أقول شيئاً عند هذه النقطة بشأن العالم خارج مركز المفاوضات الذي كنا فيه. كنا في شرنقةٍ مقفلةٍ في واقع الأمر، كما شعرنا بأننا في مكانٍ ما في الفضاء الخارجي. مضت الساعات، وبعد ذلك الدقائق، فأحسست أن هناك خارج مباني كاستل يتجمع جيش، أو حشد من الناس، أو من مراسلي وسائل الإعلام في العالم كافة. كانت المفاوضات أول خبر في نشرات الأخبار على مدى ٢٤ ساعة. جاء المراسلون في مجموعاتٍ كبيرة، وكانوا يريدون قول الكثير، لكن لم يكن في جعبتهم أي شيء ليقولوه، هذا إذا فهم القارئ ما أقصده.

لم أتمكن من فهم مضمون هذا الكلام فعلياً إلا بعد انتهاء هذه المناسبة، وكان ذلك أمراً حسناً، لأنني لو فكرت فيه ملياً لكنت تخوفت من المخاطرة السياسية التي كنا نقدم عليها. مرّ الوقت وتزايدت الرهانات مع توضيح بأنني أضع مسؤولياتي كلها كرئيس للوزراء في سبيل التوصل إلى اتفاق. لكن الفشل لن يكون سيئاً فقط، بل قد يكون خطراً كذلك بالنسبة إلى الجهتين، أي الاتحاديين والقوميين عندما يشتعل شارعاهما بالمعنى الحرفي للكلمة.

بذل ألاستر وجون هولمز وباقي أعضاء الفريق أقصى الجهود في هذه المفاوضات. حاول ألاستر، ببراعة تامة، إرضاء وحش الصحافة، لكن من دون أن

يكون في ما يعطيه من معلومات زبد كثير، وهو الذي أدرك أن مجرد كلمة واحدة تُقال في غير محلها يُمكن أن تثير أحد الأحزاب، أو يُمكن أن تُشعر حزباً آخر بالإهانة. كان جون الفاصل المثالي بيني وبين جوناثان، وكان يعمل على التفاصيل، ويقدّم الأفكار، وكان مبدعاً ببراعة، وهو الذي ترك لنا الاهتمام بالأمور السياسية. أما مو مولام فكانت تصافح بحرارة وتهتمّ بالناس، لكنها نأت بنفسها قليلاً عن المفاوضات.

أبلغ ممثلو الشين فين حشود مراسلي وسائل الإعلام المنتظرين بعدم حصول أي اتفاقية، وما لبثت الهستيريا أن عمّت المكان. كانت النتيجة أن أسرعنا نحوهم في محاولة منا لإرجاعهم، وهي النتيجة التي أرادها جيري ومارتن. كانوا سلبيين، لكن مارتن قال بكل صراحة إنه لا ينصحنا بذلك. اقترحت عند ذلك أن يذهبوا ويعودوا مع تعديلاتهم. أعرف أن الاتحاديين سيغضبون كثيراً إذا اعتقدوا أننا نطلب إلى الشين فين تقديم أفكارٍ تتعلق بوثيقتهم، لكني لم أتمكن من التفكير في خيارٍ آخر. تعيّن علينا إبقاء الجميع داخل اللعبة. كانت الأرجوحة في حال عدم توازن دائم، وذلك بسبب شعور هذه الجهة أو تلك أنها تعرضت للخداع، أو أنها استُغلّت، أو تم التخلي عنها.

اكتشفت في هذه المرحلة جزءاً آخر من العقلية الغريبة التي تترافق مع الأمر برمّته: كانت لعبة يبلغ حاصلها صفراً بالنسبة إليهم جميعاً، ولا أقصد بالنسبة إلى تفاصيل المفاوضات فقط. كانت الأمور تجري على هذا النحو: «اقترحوا أنتم ونحن نعارض. إذا أعجبكم هذا الأمر فسوف نمقته نحن، وغير ذلك». كان التجوال حول المبنى كافياً لملاحظة تعابير الفريق الآخر. وإذا بدا أحد الأفرقاء سعيداً فسيبحث الفريق الآخر عن سبب للحزن. وإذا كان فريق ما يشعر بإحباطٍ ما فإن الفريق الآخر سيشعر بالفرح. كان الأمر لا يصدّق، كما مرّت معنا لحظات حاسمة تمكنّا فيها من إقناع ممثلي أحد الأحزاب بالرجوع إلى طاولة المفاوضات، لكن كنت أشعر بالرعب لإمكانية خروجهم من الغرفة، مع سرورٍ ظاهرٍ على وجوههم، من أمام الذين ينتظرون دورهم لدخول الاجتماع التالي.

شعرنا بالارتياح لأمر واحد: وجدنا أمامنا عدداً كبيراً من المواد المتنوعة في الاتفاق. يُمكن أن يُقال أن من شأن ذلك تعقيد الأمور على أحد المستويات، لكنه

يعطينا، على مستوى آخر، أبعاداً كثيرة لتحريكها. ربما يشعر الاتحاديون بعدم الرضا عن التنازل عن طريقة عمل المجلس التنفيذي، لكن كان يُمكن إقناعهم عن طريق إعطائهم الكثير في مجالس الشمال – الجنوب. امتلكنا ورقةً أخرى بأيدينا على الدوام.

عادت الشين فين مع أربعين صفحةً من التغييرات المفصلة. شعرت بالهلع عندما تسلّمت هذه الوثيقة. سبق لي أن كنت محامياً لذلك أعرف أن أربعين صفحة تعني قدراً كبيراً من التفاوض. افترضت أنه ينبغي لنا أخذ كل هذه التعديلات بكل جدية، ولا حاجة بي إلى القول إنها تسببت بالقشعريرة عند الاتحاديين، مما كان سيدفع بهم إلى توحيد وفدهم. تمكّنت مو في هذه المرحلة من لعب دورٍ هام في المفاوضات. كان مفهوم مو في التفاوض مع الشين فين مفهوماً ذكياً. تمكنتْ من الاستماع إليهم، وتسلمت وثيقتهم، ثم تجاهلت الغالبية العظمى من النقاط، واكتفت بالتركيز على أمرٍ أو أمرين يُمكن أن يكونا مهمّين، ووضعت البقية جانباً. بدا الأمر غريباً جداً بالنسبةً إليّ، لكنه نجح في النهاية.

أما النقطة التي اعتبرتها مهمةً، وعن حق، فكانت قضية رجال الجيش الجمهوري الإيرلندي القابعين وراء قضبان السجون بسبب قيامهم بأعمال إرهابية متنوعة، وأعمال قتلٍ أخرى. أخذت مو خطوة متقدمة واستثنائية في هذا المجال. سبق لها أن اعتقدتْ أن هذه المسألة لن تؤثّر كثيراً في الاتحاديين، حيث سبق أن أُطلق بعض السجناء في السبعينيات، وهكذا توقع الناس حدوث شيء ما في هذا المجال. عرضت مو على الشين فين إطلاق جميع السجناء خلال عامٍ واحد، وهكذا عادوا إلى طاولة المفاوضات.

بدأت بعد ذلك في إعادة التفكير في الأمر. بدا لي، بالحدس الفطري الذي أمتلكه، أنه من غير المحتمل أن لا تعترض مصادر الاتحاديين على عودة «القتلة من جيش التحرير الإيرلندي» إلى الشوارع. سألتُ ألاستر فقال لي إنه يعتبر الفكرة مريعةً بالنسبة إلى الشعب البريطاني دعك من سكان إيرلندا الشمالية من الاتحاديين. سألت بعد ذلك جون ستيل، وهو مسؤول NIO كبير وبالغ الحساسية، فأبدى رأيه بلغة الموظفين الحكوميين، التي بدأت بفهمها تواً، فأخبرني أن الأمر برمّته هو لاعقلاني بالمرة. (أعتقد أنه قال إن الأمر لن يكون «مساعداً بشكلٍ مروع»).

شعرتُ بأنني في ورطة. وافقتُ مع جيري على إطلاق سراح السجناء. عدت ثانية إليه من أجل إعادة التفاوض، الأمر الذي لا يُعتبر تكتيكاً ناجحاً. أقدمت في النهاية على شيء يختصّ بي، بينما فعل هو شيئاً يختص به: طمأنته بيني وبينه أننا سوف نفعل ذلك خلال سنة واحدة إذا سمحت لنا الظروف، لكن علنياً ورسمياً سنقول إن ذلك سوف يستغرق سنتين. وافق معي على ذلك، والأهمّ من ذلك هو أنه لم يطلب إلي قط إصدار وعد، وكذلك لم يستخدم هذا علناً بغية إحراجي.

كان الوضع على النحو الآتي: الحكومة الإيرلندية راضية، وUUP راضون، وكذلك كان حزب العمال والديموقراطيين الاشتراكيين. عاد الشين فين إلى طاولة المفاوضات، وهكذا توصلنا إلى اتفاق. اتصلت بالرئيس كلينتون وطلبت إليه التحدث مع جيري آدامز من أجل إلزامهم بالاتفاق، وهذا ما فعله. كان كلينتون سنداً مساعداً لنا طوال المفاوضات، وكثيراً ما كان يسهر طوال الليل، ويتصل هاتفياً بأي شخص يكون من الضروري الاتصال به ليقول له ما يجب أن يقال، وأكثر من ذلك. كان يشارك بقوة في لعبة المفاوضات، وكثيراً ما كان يستخدم براعته الجاهزة للوصول إلى جوهر السياسة.

مرّت الساعات في مراجعة التفاصيل مجدداً وفي ملء الثغرات، وفي تحديد الأخطاء الإدارية، وعملنا على ما يجدر بنا قوله، وعلى تحديد الأشخاص الذين نتوجه إليهم بكلامنا. كان من السذاجة، بطبيعة الحال، أن نعتقد أننا توصلنا إلى اتفاق. استمررنا في العمل طوال الليل، وهكذا مرّت علينا ثمانٍ وأربعون ساعة تقريباً من دون نوم. اختلّ توازن اللعبة مجدداً في الساعات الأولى من عطلة الجمعة العظيمة، أي في ١٠ نيسان/أبريل ١٩٩٨. كان الإيرلنديون لا يزالون قلقين بشأن كيفية تقبّل ذلك الجزء من الاتفاق المتعلق بالشمال – الجنوب، فأقدموا على إضافة بندٍ إلى تلك المادة. نصّت الإضافة الجديدة على تكوين هيئتين جديدتين في إطار الشمال- الجنوب (مما يشير إلى أن إيرلندا سوف تتصرف على أساس أنها موحدة) وذلك في مجالات حماية التجارة، واللغة الإيرلندية.

ربما يعتقد المرء أن التعاون في هاتين المسألتين هو مسألة مثيرة للجدل. أقدم الاتحاديون على المطالبة بوقف المفاوضات. تبيّن لنا وجود لغة غامضة تدعى أولان وهي التي تساوي اللغة الإيرلندية عند الاتحاديين. لم أعد أُفاجأ بأي شيء في هذه

المرحلة. كان بإمكانهم أن يقترحوا المشاركة في مجلس في المرّيخ، وكنت على استعداد لأن أبدأ بطرح الخيارات.

بدا التعب على الجميع، لكنهم حافظوا على عنادهم. عقدت اجتماعاً صعباً مع بيرتي ودافيد تريمبل، لكن بيرتي لم يُظهر ارتياحاً إزاء أهمية لغة الأولان كما فعلت أنا، لكنه اقترح أن يقوم دافيد بالتحدث قليلاً بهذه «اللغة الهامة» كما أسماها، بحيث يمكننا سماع أصواتها. أظهر دافيد استياءه إزاء هذه الفكرة على اعتبار أن هذه اللهجة هي من اختراع الاتحاديين، ثم شرح بجدية وبتفصيل الجذور الاسكتلندية للغة الأولان، وكل الحساسية التي تظهر عندما يتحدث مالك الأراضي [الإقطاعي] مع ساذجٍ قروي.

تسببت هذه الحادثة بإرباك وفد دافيد تريمبل كثيراً، وظهرت تعديلات جديدة. لمّح ألاستر في هذا الوقت إلى مراسلي وسائل الإعلام الذين قلقوا كثيراً، إلى أننا توصّلنا إلى اتفاق، وهو اعتقد ذلك بكل نية حسنة. أخبرته بالمأزق الذي وصلنا إليه، فما كان منه إلا أن عبّر عن أفكاره بطريقة كانت مأثورةً عن ألاستر فقط، إلى حدّ أنني ظننت أنه سيُسارع إلى إبلاغ وسائل الإعلام العالمية أننا، وعلى النقيض مما أخبرهم بها سابقاً، فشلنا في التوصل إلى اتفاق، وكل ذلك بسبب لهجة في آلستر ذات أصول اسكتلندية تدعى أولان، وهكذا ستستمرّ الحرب في إيرلندا الشمالية. إنني أستبعد أن يعمد الرجل إلى إطلاق تصريح كهذا، لكني استنفدتُ طاقاتي كلها في هذا المجال، كما أن المكالمات الهاتفية التي أجراها بيل كلينتون لم تسفر عن نتيجة. أظهر جوناثان عبقريته مجدّداً عند هذه النقطة، فعالج النقاط التي تقلق الاتحاديين واحدة واحدة، وهدّأ من روع أعضاء وفدهم، وحاول إعادتهم إلى اتزانهم.

قسمنا هذه النقاط إلى مسألتين، واحدة واقعية والأخرى تتجاوز الواقع، لكن اتضح لنا أنه يصعب تمييز الفاصل بين المسألتين. أما المسألة التي تتجاوز الواقع فكانت رغبة الاتحاديين في إغلاق مكانٍ يدعى ماري فيلد. شعرنا بارتباكٍ في بادئ الأمر، لأننا اعتقدنا أن الاتحاديين كانوا يقولون بضرورة إغلاق «موراي فيلد». صُدمت حين ظننت أن ذلك يعني إزالة مركز أدنبرة للعبة الركبي الاسكتلندية، وهو المركز الذي زرته مراراً في سنوات مراهقتي. كان ذلك دليلاً على مدى عزلتنا الكلية في قاعة المفاوضات، وهي العزلة التي وصلت إلى حدّ عدم سؤالي عن السبب الذي

يدفع بالاتحاديين إلى الرغبة في إزالة ملعب للعبة الركبي، كما أنني لم أكن مستعداً لطرح هذا السؤال.

استعدت هدوئي بعد مرور دقائق قليلة عندما علمت أن ماري فيلد هو، في واقع الأمر، اسم الإدارة التي تأسست بحسب نص الاتفاقية البريطانية- الإيرلندية في أيام حكومة السيدة ثاتشر، وهي الاتفاقية التي لم تلقَ القبول اللازم. لم تقم هذه الإدارة بأي شيء، وكانت ستختفي بطبيعة الحال بعد التوصل إلى الاتفاقية التي نعمل عليها. كانت ماري فيلد مجرد مكتب، لذلك كانت القضية رمزية برمّتها. تبيّن لنا بعد ذلك أنهم لا يريدون إغلاق تلك الإدارة فقط، لأن ذلك كان سيحدث على أيّ حال، لكنهم يريدون إغلاق المبنى ذاته. قلت لهم: «حسناً، سوف نستخدم البناء من أجل غاية أخرى».

قالوا لي: «كلا. إننا نريد إغلاق ماري فيلد. نريد إغلاقه بالمرة، بحيث لا يُستخدم بعد الآن لأي شيء».

بدا الأمر حينئذ وكأن المبنى أصبح تجسيداً للنزاع، وهو الأمر الذي أفترض أنه صحيح بمعنى معيّن. لم أكترث للأمر في تلك المرحلة، لكني كنت على استعداد لقيادة رافعة وتهديم المبنى بنفسي لو أظهروا استعداداً لتوقيع الاتفاقية.

اعترضت إدارة شؤون إيرلندا الشمالية، وقالت لنا: «لماذا يريدون إغلاق المبنى؟ ألا نستطيع استخدامه لأغراض الأرشيف؟»

قلت: «أيها الزملاء، أرجوكم، لا تسألوا عن السبب. سيكون مبنى ماري فيلد شيئاً من الماضي من الآن فصاعداً. انتهى الأمر. اعتبروه جزءاً من التاريخ. أريدكم أن تسوّوه بالأرض». لم أعرف ماذا حصل للمبنى بعد ذلك. أعتقد أن الجميع نسي أمره.

أما القضية الخطيرة فكانت تلك التي شعرت إزاءها بتعاطفٍ شديد مع دافيد. قلق هو وباقي الاتحاديين من احتمال نكث الحركة الإيرلندية عهودها، واحتمال عدم نزع سلاحها، فكيف سيُستبعدون من الحكومة؟ يستطيع الاتحاديون، بطبيعة الحال، الانسحاب من الحكومة، لكنهم شعروا، وعن حق، أن إسقاط الاتفاق لا يليق بهم.

أما بالنسبة إلى الشين فين فأي حديث عن الاستبعاد كان غير مقبولٍ بالمرة. رفض الشين فين، وبصراحة تامة، اقتراحاً كهذا من قبل. أما إعادة فتح هذا الموضوع من جديد فقد تعني خسارة الأمر برمّته. شرحت هذا أمام دافيد. أظهر الرجل اهتماماً بالغاً، وما لبث أن طلب عقد جلسة مغلقة مع وفده.

جلست كي أبحث الأمر مع جوناثان. كنا على بعد بوصات قليلة من النجاح، لكنني اعتقدت أن الأمر لن ينجح. لم يتمكن دافيد من تحريك المفاوضات، ولم يكن يعلم إلا الله ماذا يدور في الغرفة التي اجتمع فيها الوفد، لكني راهنتُ على إيجابية النتيجة بمثل ما أراهن على أن جدّتي ليزي تحب التبرع للأعمال الخيرية. قلت: «يتعيّن علينا أن نفعل شيئاً ما. جلت في الغرفة جيئة وذهاباً، وخطرت فكرة في ذهني بأن نبعث له برسالة، ويجب أن تكون رسالة جانبية. تضمّنت الرسالة أن الشين فين إذا لم تسلم أسلحتها في غضون ستة أشهر من انعقاد المجلس، فإننا سنؤيد تغيير البنود الواردة في الاتفاق بطريقة تسمح بالاستبعاد. كان الأمر نموذجاً عن الفروق الدقيقة التي تتضمنها المفاوضات: لم نقل إننا سنقوم بالاستبعاد، بل قلنا إننا سوف ندعم تغيير بنود الاتفاق بحيث يسمح بالاستبعاد.

وضعنا مسوّدة الرسالة بسرعة. كنت أنا أملي بينما جوناثان ينقر على حاسوبه المحمول، كما أن جوناثان وجون ستيل قدما التعليقات. وقّعت الرسالة وأرسلت جوناثان على وجه السرعة إلى الغرفة التي يجتمع فيها الوفد. لم يتمكّن من الدخول في البداية. لكن تمكّن من إدخال الرسالة أخيراً إلى الغرفة المزدحمة. بدا وكأنه يحمل رسالة من الحاكم يوقف فيها عملية الإعدام قبل الضغط على الزر. قرأ جون تايلور، وهو مساعد آخر لدافيد تريمبل، ويُمكنه تقديم مساعدة كبيرة للمفاوضات، كما يمكنه إعاقتها إذا أراد. رفع رأسه وقال: «لا مانع عندي».

جلستُ لمدة ساعة إضافية وسط القلق والهلع (وليس أقل الأسباب أنني كنت أخشى عدم إبلاغي الأحزاب الأخرى بشأن الرسالة الجانبية) بينما أبدى كل عضو من أعضاء الوفد رأيه. اتصل بي دافيد في غرفتي، وقال لي: «سنعمل بموجب هذه الرسالة».

وهكذا حصلنا على اتفاق.

مرّت الساعتان التاليتان وسط جوّ من عدم الوضوح، وتجاوزنا حالة الإجهاد إلى حدّ الشعور بالانتشاء. أعلن جورج ميتشيل الاتفاق بنفسه. أدليت أنا وبيرتي بتصريحين بدورنا. ساد المكان جو من الحبور. شعرت بأنني تحررت أخيراً من الرعب الذي مثّلته كاستل بلدنغز.

كنت قد فقدتُ كل إحساس بالزمن. وما إن صعدت إلى سيارتي، وقال لي فريق المرافقة الأمنية أننا سوف نصلُ إلى المطار في غضون عشرين دقيقة، حتى شعرت بأنني أنطلق نحو إسبانيا. ظننت في البداية، كما ظنّ الجميع من حولي، أن هذه سوف تكون جولة مفاوضات سريعة لذلك أجريت الحجوزات الضرورية لرحلة إلى إسبانيا التي تلقيت دعوةً لزيارتها من رئيس وزرائها خوسيه ماريا أزنار، وهو رجل كنت أعرفه بصورة سطحية في ذلك الوقت. دعاني أزنار لزيارة إسبانيا مع عائلتي لقضاء عدة أيام برفقته. كنت أعرف أنه مفاوضٌ صلب وقوي، وزعيم ناجح لحزبه، لكني لم أكن أعرف الكثير عن الأمور الأخرى. كنت وإياه من عائلات سياسية مختلفة، وكان هو زعيم بارتيدو بوبيولر، أي الحزب الإسباني المحافظ، لذلك اعتقدت أن التعرف إليه أمرٌ مفيد لي. كنت أعرف الكثير عن صلابته لأننا كنا معاً في مفاوضات معاهدة أمستردام في نهاية شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٧، وذلك بعد أسابيع قليلة من وصولي إلى السلطة، وبعد أن مرت سنة كاملة على فترة ولايته الأولى.

واجهتُ في أمستردام كل أنواع المطالب المعقّدة التي كان بعضها محقاً، وبعضها موروثاً من الحكومة السابقة، لكني فاوضت بصلابة بدوري. كانت تلك أول مفاوضات دولية أشترك فيها، ولم أرغب في تخريب أي شيء. امتلك خوسيه ماريا نقطةً رئيسةً عالقة: أراد أن تعكس الاتفاقية وضع إسبانيا الخاص بوصفها متلقية للمساعدات الأوروبية، وبوصفها دولة «كبيرة» إلى جانب الدول «الكبيرة» الأخرى، وليس بوصفها دولة «صغيرة». كانت تلك مشكلة حقيقية بالنسبة إلى «الكبار»، وعلى الخصوص بالنسبة إلى الألمان الذين كانوا تحت قيادة هيلموت كول.

حاول الهولنديون استخدام تكتيك قديم، وذلك بتشجيع من الحكومة الألمانية، وهو تكتيك إبقاء المطالب الإسبانية عالقةً حتى نهاية المفاوضات. كانت الفكرة تقضي بإرضاء كل الأفرقاء الآخرين، ثم الالتفات بعد ذلك إلى المعارضين المتبقين، الذين يتراجعون ويستسلمون بسبب الحرج. «تحتاج أوروبا إليكم. كيف يمكنكم

إفساد استقرار أوروبا في لحظةٍ كهذه؟ هل نسيتم التاريخ؟ أتريدون أن تكونوا مسؤولين عن فشل أوروبا؟» وغير ذلك من أقوال. كان ذلك جزءاً من تفاهة قديمة، لكنها كانت فعالة في عدد كبير من الحالات.

لم تسر الأمور هكذا مع أزنار. انتظروا حتى رضي الجميع، بمن فيهم أنا، ثم عرضوا عليه حلاً وسطاً. لم يكن هذا الحل سيئاً، لكنه لم يكن جيداً كذلك. رفض أزنار العرض وقال إنه عرض شروطه. قالوا له إننا نريد معرفة موقفك الأخير. قال لهم إن ما عرضته هو موقفي الأخير. قال لهم بعد ذلك: «إنني ذاهب إلى الغرفة المجاورة كي أدخن سيجاراً». وهذا ما فعله على الفور.

حاولوا معه الأمور الأخرى كافة. دخل ويم كوك وأعلن معارضته بكل وضوح بطريقة بروتستانتية هولندية ملطّفة. أما جاك شيراك فقد حاول عرض موقفه بطريقة فرنسية تحمل شيئاً من التعالي. نهض هيلموت كول أخيراً، ومشى بثقله الضخم نحو الغرفة المجاورة، لكنه بدا مثل شاحنة ضخمة تبحث عن قنفذ. عاد الرجل حائراً. بدا واضحاً أن القنفذ رفض، وبكل صراحة، أن يُسحق. نظر كول نحوي، وقال بشيء من الحدّة: «إنك جديد على السلطة مثله هو. أدخل أنت وحاوِل معه».

توجّهت إلى حيث كان يجلس خوسيه ماريا وحده مع المترجم وسيجاره الذي كان ينفث دخانه بعيداً، وكأنه لا يأبه لشيء في هذا العالم. استغنينا عن المترجم وتحدثنا بالفرنسية. أسمعته كلاماً عن مدى أهمّيته، وكيف أن هذه المفاوضات عالقة في الميزان، وكيف أنه يستطيع وحده إنقاذ الموقف. أنهيتُ حديثي بعد ذلك بالقول إن الجميع سوف يشعرون بخيبة الأمل، وعلى الخصوص هيلموت، إذا لم يقدم تنازلات من جانبه. قال لي وهو يبتسم ابتسامةً عريضة: «أعرف ذلك. إنني حزين جداً. أيمكنك أن تبلغهم رسالة مني؟ أبلِغهم أنني سألتُ عن الشروط التي تجعل من المعاهدة مقبولةً من إسبانيا، وأنني قلت هذا منذ البداية. لم يسألوني مجدداً إلى الآن، لكنهم لو فعلوا لكنت أبلغتهم أن هذه هي الشروط التي تقبلها إسبانيا. أنظر». قال لي وهو يتناول شيئاً من جيبه: «أمتلك المزيد من هذا السيجار كي أدخنه». حصل أزنار في النهاية على موافقة على شروطه.

كان من المفترض أن أمضي أنا وعائلتي أياماً قليلة معه قبل عيد الفصح. كانت

تلك هي ثقتي بالنسبة إلى مفاوضات إيرلندا. أعرف أن الفكرة تتصف بالجنون، بحيث أنني قررت إرسال شيري والأولاد ووالدة زوجتي قبلي أنا، وذلك بعد أن أبلغتهم أنني سوف ألحق بهم بعد وقت قصير.

كانت تلك ميزة حقيقية تتعلق بأزنار. وصلت عائلتي يوم الأربعاء، أي قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من وصولي. أحاط أزنار عائلتي بكل مظاهر اللطف والصداقة. أعتقد أن معظم رؤساء الوزراء لا يرحّبون كثيراً باستضافة عائلة رئيس وزراء آخر لم يسبق لهم أن التقوه بتاتاً، ناهيك عن الأولاد الصغار الذين يحتاجون إلى الانتباه، لكنه تولى المهمة بكل طيبة خاطر، وهذا ما شكّل أساساً لصداقة شخصية دامت طويلاً، كما أعطت ثمارها في وقتٍ لاحق.

تمكّنت من الصعود إلى الطائرة، بطريقةٍ ما، في مطار آلدرغروف في بلفاست التابع لسلاح الجو الملكي. تلقيتُ مكالمة تهنئة من الملكة. أعتقد أنني لم أستوعب حتى هذه اللحظة جسامة هذا الإنجاز. أعتقد أنها لا تفعل هذا الشيء على الدوام، وهي لا تفعل ذلك في الواقع. استسلمت للنوم بعد ذلك طوال الرحلة.

تمكنت من الصعود إلى السرير إلى جانب شيري في الساعات الأولى من الصباح. استيقظت شيري، وهنأتني بدورها. نمت مجدّداً حتى منتصف الصباح. توجهت بعد نهوضي بحثاً عن مضيفي الذي وجدته وهو يتحدث، بشكل مقلق بعض الشيء، مع والدة زوجتي. قالت لي: «أوه. ما كان عليك أن تزعج نفسك، لأننا رتّبنا كل شيء».

قلت: «رتبتما ماذا؟»

قالت: «جبل طارق، بالطبع».

حسناً، أعتقد أن بإمكانها القيام بهذه المهمة بأفضل ما يكون، أي مثل أي شخص آخر.

أمضينا عدة أيام مع آل أزنار، وتوجهنا بعد ذلك لتمضية بعض الوقت مع صديقي ديري، كارين وباكوً بينا، وهو عازف غيتار الفلامينغو، ويقيمان في قرطبة. أحببت قرطبة كثيراً، وهي مكان جميل. أما أفضل جزء من الجولة فكان في مزكيتا، لكن

المدينة بأسرها كانت ساحرة. يمتلك باكو منزلاً قديماً رائعاً في وسط المدينة، وهو منزل يمتلك الباحة التقليدية، ويمتلك شيئاً غير تقليدي كذلك، وهو برميل من النبيذ يتربع على أعلى الدرج المؤدّي إلى الشرفة، وذلك بغية إطفاء ظمأ أي ضيفٍ عابر. أمضينا أسبوعاً من الاسترخاء الرائع. علّمني باكو شيئاً من العزف على غيتار تقليدي، كما زرنا حاناتٍ إسبانية تقدم المقبلات ومستودعات النبيذ، وهكذا أمضينا وقتاً ممتعاً.

أما وقع اتفاقية الجمعة العظيمة، كما سمّاها الجميع (ما عدا الاتحاديين الذين أصروا على تسميتها اتفاقية بلفاست)، فقد تردّد في أنحاء العالم كافة. كان الناس يوقفونني في الشارع لتهنئتي. كانت تلك إحدى المرات القليلة في وظيفتي التي أستطيع أن أقول، وبصدق، إنني شعرت فيها بالرضا، وبالارتياح، وبالفخر. لم تُتح لي بعد ذلك فرصٌ كثيرة كهذه!

أما في البلاد فقد ترسخ هذا الواقع الجديد. يمكنني القول إن اتفاقية الجمعة العظيمة كانت إنجازاً عظيماً. لم يكن بإمكاننا تحقيق أي شيء لولاها. لكنها لم تكن النهاية، بل كانت البداية فقط. كانت الاتفاقية مؤشراً، بطبيعة الحال، على نجاح عملية السلام إذا سارت الأمور على ما يرام. تعيّن أن يبدأ تطبيق الاتفاقية على الفور، وهكذا يصبح التطبيق أشبه شيء بالصناعة الثقيلة إذا ما أطلقنا وصف الفن، نظرياً على الأقل، على الاتفاقية.

كان التحدي الأول هو إجراء استفتاء الشمال والجنوب لتصديق الاتفاقية، ثم إجراء انتخابات في المجلس التشريعي Assembly من أجل إطلاق الإجراءات الهادفة إلى الحصول على مجلس تنفيذي ناجح. دعم معظم السكان في إيرلندا الشمالية، والحق يُقال، الاتفاقية، كفكرة على الأقل. لم يعرفوا، مع ذلك، تفاصيلها أي إنهم، في غمرة تحمّسهم لها، لم يفكروا في نتائجها الحقيقية، لكنهم لم يتأخروا كثيراً عن إدراكها.

حدث تطور هام عندما وافقت UUP رسمياً على المعاهدة، لكن الشين فين لم تفعل ذلك البتة. كان يُمكن للمرء أن يتوقع أن تكون UUP أكثر تفاؤلاً، لكنها لم تكن كذلك، حيث ما إن تم التوقيع على الاتفاقية (حمل دافيد تريمبل، لحسن الحظ، زعيم حزبه على المصادقة عليها بسرعة)، حتى انفجرت الاضطرابات التي تسبب بها

الاتحاديون، والتي لم تكن مختبئةً تحت السطح كثيراً. تضخّمت هذه الشكوك كثيراً، وكأنها ماثلت بما حدث لاحقاً مع تلسكوب هابل من الناحية السياسية.

أعطى الاتفاق حول السجناء سلطةً للمملكة المتحدة على نقل سجناء الجيش الجمهوري الإيرلندي إلى الجنوب. قررت مو، ولربما أخطأت في ذلك، نقل أفراد «شارع بالكومب الأربعة» من إنكلترا إلى إيرلندا، وكانت العصابة سيئة السمعة هذه هي التي نفذت أعمال اغتيال وهجمات إرهابية لمصلحة الجيش الجمهوري الإيرلندي في السبعينيات. تسلّمت الحكومة الإيرلندية السجناء، وسارعت إلى إطلاقهم بشروط، ومن دون أن تبلغنا بذلك، وذلك كي يتمكنوا من حضور مؤتمر الشين فين في دبلن. تلقى السجناء تصفيقاً حاراً لمدة عشر دقائق، وتم عرض المشهد على شاشة التلفاز في أوقات ذروة المشاهدة، بينما تفرج الاتحاديون على المشهد برعبٍ تام.

يمكننا القول إن ذلك القرار كاد يدمّر قطار التسوية أثناء مغادرته المحطة. وضعت هذه الحادثة قطار التسوية فوق سكة واحدة طوال الحملات التي رافقت الاستفتاء، والانتخابات التي تبعتها لاختيار أعضاء المجلس Assembly. حدث ذلك كله في غضون عشرة أسابيع بعد توقيع اتفاقية الجمعة العظيمة.

قمت أنا وجون مايجور بزيارة من أجل تهدئة الأمور. ثم قمت بزيارات أخرى بعد ذلك مع وليام هايغ، وكتبت التزاماتٍ بخط يدي قلت فيها إنني لن أسمح بمنح أي مقعد في الحكومة إلى أولئك الذين قاموا بأعمال عنف، وبأشياء أخرى مماثلة. أصدر بيل كلينتون بيان دعم صدر عن اجتماع مجموعة الثماني في بيرمنغهام، وهو الاجتماع الذي ترأسته كذلك.

كنت قلقاً في ذلك الوقت. حصلنا على مساندة غالبية الاتحاديين للاتفاقية في الاستفتاء (٥٥ بالمئة مقابل ٤٥ بالمئة). فاز دافيد في انتخابات المجلس التشريعي على DUP، وحل حزب العمال والديمقراطيين الاشتراكيين في المرتبة الثانية بين الأحزاب. تعلّمنا درساً في هذه الفترة، وهو أن الدرب لا يزال طويلاً أمامنا. امتلكنا الخريطة، لكن نهاية الرحلة كانت على بُعد أميالٍ منا.

استغرق الأمر تسع سنواتٍ أخرى كي نجمع عناصر الاتفاقية بحيث تكون حلاً

نهائياً ناجحاً. كانت كل سنة من هذه السنوات مشحونةً بالأحداث، وأوشكنا في مراتٍ عديدة على إعلان فشلنا. لم نستطع الالتزام بالمهل المحدّدة، أما المفاوضات حول التفاصيل الصغيرة فقد استمرت، لكننا مضينا في مسعانا.

لم تجرَ بعد ذلك مفاوضات بمثل شمولية المفاوضات التي جرت في كاستل بلدنغز، لكن جرت سلسلة مستمرّة من الاجتماعات التي كانت تجري على مدى يوم، أو يومين، أو ثلاثة أيام، والتي حاولنا عادةً أن نعقدها في أمكنةٍ مريحة. أتذكر هذه الأماكن جيداً، وهي التي كانت منازل فخمة: هيلزبورو، ويستون بارك، قلعة ليدس، وسان أندروز. كان الأفرقاء المجتمعون يتظاهرون بالتردُّد في مغادرة هذه البيئات الطبيعية لعقد نقاشات من أجل دفع العملية قدماً، لكني حدستُ بأنهم ربما يشعرون بمثل شعوري أنا: إذا تعيّن علينا مكابدة مشقة في النقاش مرة بعد أخرى، فمن الأفضل أن يجري ذلك وسط بيئة جميلة. أفادت هذه الطريقة كذلك في تحرير المشاركين في المفاوضات، وبطريقة غريبة، لأننا إذا عقدنا هذه الاجتماعات في بلفاست، أو في داوننغ ستريت فالمشاركون سوف يتمسكون بمواقفهم الثابتة، لكن الأمكنة الجديدة تتمكن، بشكلٍ من الأشكال، من توليد مواقف جديدة، أو على الأقل هذا ما يحصل في بعض الأحيان. كان ذلك على أي حال تبريري الذي استخدمته للربط بين عملية السلام في إيرلندا الشمالية، وصفحات من كتاب حياة الريف.

يمكنني أن أمضي بسرد الأحداث بحسب ترتيبها الزمني، وأن أتحدّث عن كل الخطوات الصعبة التي اجتزناها ما بين شهر حزيران/يونيو من العام ١٩٩٨، وشهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٧، لكن يُمكن للقارئ أن يرتاح لأنني لن أفعل ذلك. سأختصر بالقول إن الأمر استغرق خمسة عشر شهراً أخرى أو نحو ذلك، حتى بعد انتخابات المجلس التشريعي في حزيران/يونيو من العام ١٩٩٨، من أجل جمع المجلس التنفيذي وبدء عمله. تم اختيار المجلس التنفيذي بحسب معادلة التصويت الراقي، وهي المعادلة التي اكتسبت اسمها من الرياضي البلجيكي دي هوندت (الذي يُمكن أن يُضاف اسمه إلى قائمة مشاهير البلجيكيين التي تدعو إلى الفخر). لا أريد بذل المستحيل كي أقدّم المزيد من الشرح. سأكتفي بالقول إن ذلك يعني أن مارتن ماك غينيس، وعضواً آخر من الشين فين، وهو بايربر دي برون، قد أصبحا وزيرين مسؤولَين عن التعليم والصحة على التوالي، وهو حدثٌ تاريخي في ذاته.

كان سبب التأخير في إنشاء المجلس التنفيذي هو الجدال الذي لا ينتهي حول نزع السلاح. لا أريد أن أنسى الخلاف القديم حول حفظ الأمن، إذ كان ينبغي تغيير RUC إلى نظام مقبول من كل أجزاء المقاطعة في إيرلندا الشمالية الجديدة، لكن هذه العملية تأجلت في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٠، ثم أعيد تحريكها في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٠. استمرّت الحال هكذا حتى شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢ حيث تم تعليقها مجدداً بسبب موضوع نزع سلاح الجيش الجمهوري الإيرلندي ومجموعة من القضايا الأخرى. بقيت الأمور على هذا المنوال حتى شهر أيار/مايو ٢٠٠٧. تمكّن حزب DUP بقيادة إيان بايسلي في هذه الأثناء من تجاوز حزب دافيد تريمبل بوصفه أكبر حزب للاتحاديين، كما تمكن الشين فين من تجاوز حزب العمال والاشتراكيين الديموقراطيين. استغرق الأمر نحو ثلاث سنوات ونصف السنة من المفاوضات، وذلك قبل قدوم ذلك اليوم التاريخي الذي جلس فيه إيان بايسلي ومارتن ماك غينيس في المجلس الوزاري معاً، وهكذا تمكنا من القول إن عملية السلام قد أثمرت على الرغم من عدم انتهائها.

حلت خطوات التراجع محل خطوات التقدم بسرعة في فترات النكسات، كما أن إعلاناً جديداً كان يتلو ما سبقه، ويتبعه إعلان توضيحي، كما أن الاتهامات التي تطالنا كانت وفيرةً (اتفقت الأطراف جميعاً على الأقل على مسألة غدر الحكومة البريطانية). تعودنا نمطاً معيناً مما يشبه القاطرة الأفعوانية لمشاعرنا، وهكذا تعايش الأمل إلى جانب اليأس فينا يومياً تقريباً.

أخذت اتفاقية الجمعة العظيمة منحى مختلفاً برمته في خلال التفاوض، كما أن الوثيقة قد أصبحت أكثر إيجازاً مما اعتقدناه في البداية. أعتقد أنني لو لم أكن رئيس وزراء جديداً (نسبياً)، ولو لم أنتهِ، سواء بالمصادفة أو بالحظ الحسن (على الرغم من أن ذلك بدا في البداية وكأنه سوء حظ)، بتولي مسؤولية المفاوضات، والمضي بعد ذلك إلى نقطة اللاعودة بحثاً عن حلّ، ومن دون أن نعرف ذلك تقريباً، أقول لو لم يحدث ذلك كله لما كنا توصّلنا إلى اتفاق.

يختلف كل نزاع عن النزاعات الأخرى بطبيعة الحال، كما يمتلك مكوّناته الخاصة به، وتقاليده المعارِضة، وتاريخه المشترك، وأبعاده المتنوعة التي تتطلب

الحل. يعني ذلك أنه يصعب استخلاص دروس في طريقة حل النزاعات، لكني استنتجت في النهاية وجود مبادئ جوهرية تمتلك تطبيقاتٍ عملية. أريد الآن أن أصف ما أعتبره المبادئ المركزية لهذا الحل، وأتحدّث عن الأحداث الرئيسة التي تميزت بها سنوات الوصول إلى تفسير هذه الاتفاقية، وذلك بدلاً من وصف كل مناسبةٍ من المناسبات التي حفلت بها السنوات التسع التي مرت على تطبيقها.

١. يتعيّن وجود هيكلية مستندة إلى مبادئ متفق عليها في قلب الحل الذي يوضع لأي نزاع. إن أحد الأمور التي أحاول القيام بها دائماً في السياسة هو العودة إلى المبادئ الأولى: ما هي الأمور التي عالجتها بالفعل؟ وما هي الأمور التي نحاول تحقيقها؟ وما هو جوهر القضية؟

أما في إيرلندا الشمالية فقد واجهنا خلافٌ أساسيّ جعل من حلّ النزاع صعباً جداً: أرادت إحدى الجهات الوصول إلى إيرلندا موحّدة، بينما أرادت الجهة الأخرى البقاء في المملكة المتحدة. يقول لي الناس أحياناً: لا يُمكن أن تكون إيرلندا الشمالية، بالتأكيد، بمثل صعوبة قضية الشرق الأوسط. أما في الواقع فإنني أرى أنها أصعب من هذه الناحية. هناك اتفاق في عملية السلام المتعلقة بالشرق الأوسط بالنسبة إلى النتيجة النهائية، أي حل الدولتين. أما في إيرلندا الشمالية فهناك جدال واسع، ويصعب الوصول إلى حلّ له في واقع الأمر، ويتعلق بمسألة بقاء إيرلندا الشمالية في إطار المملكة المتحدة، أو انضمامها إلى الجنوب لتصبح جزءاً من دولة إيرلندا. لم نتمكن من حل هذه المسألة، ولذلك كان علينا البحث عن المبادئ التي ستسمح لنا بتحقيق السلام، وترك القضية مفتوحة للمستقبل.

بدا لي أن المبدأ الأول هو، بالفعل، ما يُسمّى مبدأ التنازل. وإذا أرادت غالبية الناس في إيرلندا الشمالية الاتحاد مع الجنوب فإن هذا الاتحاد سوف يتحقق، لكن إيرلندا الشمالية ستبقى حتى ذلك الحين جزءاً من المملكة المتحدة. كان ذلك هو المبدأ الذي لم يتمكن الجمهوريون من قبوله على مرّ التاريخ وجادلوا بأن تقسيم إيرلندا لا قيمة له من الناحية الدستورية، وبأن الجزيرة ككل يجب أن تُعامَل كمنطقة انتخابية واحدة. يعني ذلك، وبكل وضوح، أن السلام هو أمر مستحيل. كان علينا، والحالة هذه، حملهم على قبول مبدأ التنازل، إما بشكلٍ صريحٍ وإما بشكلٍ ضمني.

كانت المسألة على النحو الآتي: على أيّ أسس، وعلى أيّ مبادئ، سيقبل الجمهوريون هذا الأمر؟ كان حل هذه المسألة الذي عزّز فرص التوصل إلى اتفاقية الجمعة العظيمة هو السلام في مقابل تقاسم السلطة والمساواة، أي إن الحرب التي يشنها الجيش الجمهوري الإيرلندي ستنتهي في حال وجدت حكومة في إيرلندا الشمالية تمثل كل مكونات المجتمع تمثيلاً حقيقياً، وإذا ما حصلت مساواة في معاملة البروتستانت والكاثوليك على السواء. نشأت الحاجة، انطلاقاً من هنا، إلى إصلاح نظامَي الشرطة والمحاكم، ومن هنا برزت ضرورة الاعتراف باللغة الإيرلندية. تعيّن على الذين يريدون إيرلندا موحدة تقبّل التقسيم، وعلى الأقل إلى أن يصبحوا غالبية، لكنهم سيتلقون في المقابل معاملة عادلة تتسم بالمساواة، وبالاعتراف بتطلعاتهم نحو إيرلندا موحدة. نشأت من هنا فكرة تكوين هيئات الشمال – الجنوب.

ما إن تم الاتفاق على المبادئ الجوهرية حتى أصبحت الأمور الأخرى كلها آليةً معقدة بحيث يصعب تحقيقها، وكثيراً ما كانت تتعطل، لكنها تأسّست على مفهوم صحيح، وقبول من الأطراف المعنية كافة.

يصعب، إن لم يكن من المستحيل، تحقيق تقدم في حل النزاع من دون هيكلية مبادئ كهذه. كانت تلك نقطة مرجعية ثابتة، وتشتمل على التوجيه، كما تقيّدت الأطراف المعنية بها. وما إن تقبل الأطراف المعنية هذه الهيكلية حتى لا يعود بوسعها الضغط للحصول على أمورٍ لا تتوافق معها، أو إذا فعلت ذلك فإن عدم التوافق مع تلك النقطة سيكون ضد وجهة نظرها. وإذا وجد برنامج للأمن الداخلي بحيث يستند إلى مبدأ المساواة في المعاملة، فكيف يمكن قبول جيش شبه عسكري يتحرك إلى جانب قوات الشرطة؟ والواقع هو ما إن تتم الموافقة على مبدأ السلام مقابل تقاسم السلطة ، حتى يتلاشى السبب الجوهري وراء وجود الجيش الجمهوري الإيرلندي، الذي تأسس من أجل إنشاء إيرلندا موحّدة من دون موافقة الغالبية التي يمثلها الاتحاديون. وما لم يتم قبول مبدأ المساواة في المعاملة بوصفه أساس الحكم، فكيف يمكن للاتحاديين الاستمرار في معارضتهم لأعضاء الشين فين الموجودين في الوزارة، هذا إذا سلّمنا جدلاً أنهم ملتزمون السلام؟

يعني ذلك أن إنشاء المبادئ الجوهرية هو الذي يصوغ العملية ويجعل التسوية ممكنة.

٢. أما من أجل المضي نحو الحل فالأمر يحتاج إلى التحكم والتركيز، وذلك بشكلٍ مستمر، ومن دون كلال، وبإصرار يوماً بعد يوم، ويوماً بعد يوم. أما أكبر مشكلة تواجهُ عملية السلام في الشرق الأوسط فهي أن أحداً لا يتحكم في العملية لفترة كافية، أو بما يكفي من الحزم. كانت تلك العملية تجري على نحو متقطع، وهذا يعني أنها لن تنجح. أما لو تم التمسك بها فسوف تلقى الحل.

وبالعودة إلى قضية إيرلندا الشمالية فقد حصلنا على اتفاقية مفصلة جداً تغطي مجموعة من القضايا، وهكذا تم إنشاء هيئاتٍ جديدة، وكذلك تكونت مجموعات فرعية، وتم التوصل إلى مجموعة من الترتيبات المترابطة القابلة للتنفيذ في المستقبل. كان كلٌ من هذه المكونات يحتاج إلى مفاوضات إضافية، ويحتاج إلى تفصيلات دقيقة، كما أنها تحتاج كلها إلى تحكمٍ مستمر.

أما بالنسبة إلى قضية الأمن الداخلي، على سبيل المثال، فقد اعترضنا عدد كبير من المسائل غير المحلولة. طلبنا إلى كريس باتين، وهو وزير سابق من إيرلندا الشمالية، والرئيس السابق لحزب المحافظين، أن يترأس لجنة تبحث في طريقة تحقيق العملية. قام الرجل بمهمة رائعة، كما شكّل تقريره حجر زاوية في عملية إصلاح نظام الشرطة. أؤكد هنا أن كل جزء من التقرير قد تعرض، أثناء محاولتنا إبقاء اللعبة في حالة توازن، للتمحيص والتحسين مرة بعد أخرى، وهذا تسبب له بانزعاجٍ قابلٍ للتبرير.

كانت قضية نزع السلاح تمثّل مشكلةً مستمرةً لنا، لكننا كنا نعتبر، ولأسبابٍ مفهومة، أن هذه هي مسألة حساسة بالنسبة إلى الجيش الجمهوري الإيرلندي. فهم الاتحاديون، وعلى أحد المستويات، أن هذه هي قضية رمزية أكثر منها حقيقية. إننا نعرف، في واقع الأمر أن جيش التحرير الإيرلندي إذا أقدم على تدمير أسلحته فسيظل بإمكانهم شراء أسلحة جديدة. يعني ذلك بكلماتٍ أخرى أن السلام لا يعتمد، في نهاية الأمر، على تدمير الأسلحة، بل على تغيير العقلية التي تقف وراءه.

أجرينا نقاشات مطولة من ذلك النوع الموجود في قاموس روجيه [Roget's Thesaurus] حول هذا الموضوع. وافق الجيش الجمهوري الإيرلندي في نهاية الأمر على «إخراج الأسلحة من نطاق الاستخدام» بدلاً من تدميرها. لكن كيف نتأكد من تنفيذ هذه الخطوة؟ ابتكرنا طريقة يتولى بواسطتها اثنان من المسؤولين الدوليين،

وهما مارتي أهتيساري، الرئيس السابق لدولة فنلندا، وسيريل رامافوسا، وهو معلّم بارز في حزب المؤتمر الأفريقي، مهمة التأكد من وضع الأسلحة «خارج نطاق الاستخدام». تجشّم المسؤولان مشقة التنقل في أنحاء الريف الإيرلندي لتفحص مستودعات الأسلحة، وقد قاما بذلك بكل طيبة خاطر. كان سيريل رجلاً ذكياً وصريحاً، وكنت أعتقد بأهليته للترشح لرئاسة حزب المؤتمر. أما مارتي فكان عملةً نادرة في السياسة وفي الحياة كذلك، أي إنه كان رجلاً متواضعاً إلى أقصى حدود قدراته (كان رجلاً متواضعاً جداً).

لكن كيف نتأكد أن تلك الأسلحة التي تفحّصها الرجلان هي الأسلحة كلها؟ أعرف جنرالاً كندياً يُدعى جون دي كاستيلاين، صودف أنه درس في المدرسة ذاتها التي درست فيها في أدنبرة، وهي التي كان يشرف عليها IICD. عُلّقت أعمال المجلس التنفيذي في هذا الوقت، وكان دافيد تريمبل يحاول إعادته إلى العمل، لكنه كان يحتاج إلى تقدم حقيقي في مسألة نزع السلاح. كان الجيش الجمهوري الإيرلندي لا يزال متردّداً كثيراً في هذه الفترة، واستمر في تنفيذ ما نسبته ٩٠ ٪ مما هو مطلوب عمله، وهو الأمر الذي يساوي نسبة صفر بالمئة في هذا السياق.

ذهبنا إلى هيلزبورو بعد مفاوضات مطولة، بينما استُدعي جون كي يحضر إحدى عمليات «نزع السلاح» التي قام بها الجيش الجمهوري الإيرلندي. كان من المفترض بنا انتظار الأخبار التي تفيد أن هذه الخطوة قد نُفّذت بالفعل، أي مثل ما كان يحصل في الأيام الماضية عندما كان الناس يتجمعون كي يسمعوا أخبار إتمام زواج الملك. اختفى جون، فعلياً، عن مجال اتصالنا به. منع الجيش الجمهوري الإيرلندي عنه الاتصالات كافة، لكنه سمح له بمراقبة عملية نزع السلاح، ومن دون السماح له بوصفها على الإطلاق، وبأي طريقةٍ كانت. ذكّرني هذا الأمر بذلك المنادي الذي لم يكن بمستطاعه أن يقول من هي شريكة الملك في قضاء الليل، أو متى حدث ذلك بالضبط، أو في أي غرفة كانا فيها، أو وصف أي شيء عن ثياب النوم، أو مقدار بهجتهما معاً، أي إنه لم يكن قادراً على إعطاء شيء يتمتع بمصداقية عما حدث. كان انتظار الحشود للأخبار، في حالتنا هذه، حافلاً بالشكوك التي وصلت إلى حدّ عدم الثقة الخالصة.

ظهر جون المسكين آخر الأمر ليقدم تقريره. اتضح لنا على الفور أن الرجل يشعر بأن الجيش الجمهوري الإيرلندي قد ألزمه، وهو رجل النزاهة والشرف، الحفاظ على سرية الأمر. قررنا مع ذلك اصطحابه لعقد مؤتمر صحفي كانت أهمّيته التاريخية الوحيدة هي أن حضوره إلزامي بالنسبة إلى طلاب المؤتمرات الصحفية.

أعطى جون الحاضرين تصريحاً جريئاً يوحي أن الأمر قد حدث فعلاً، لكنه صمّم على عدم إضافة أي شيء آخر. تلقى جون السؤال: «ما هي الأسلحة التي نُزعت؟» فأجاب: «حسناً، لم تكن دبابة». كان ذلك أشبه بحالة المنادي الذي سأله الناس عن هوية الفتاة التي تزوجها الملك، فقال «حسناً، لم تكن أتاناً».

أخشى القول إن هذا كان كافياً بالنسبة إلى دافيد تريمبل، كما ألوم نفسي على ذلك. قالت سيلفيا هيرمون، وهي من نوابه، وامرأة بارعة ومحترمة وذكية، إنها لا تستطيع أن تدعم تجديد عمل المجلس التنفيذي على هذا الأساس.

كان من المفيد أن يكون جون رجلاً صبوراً، لأنه احتاج إلى قدرٍ كبير منه. تعرّض الرجل لإساءة المعاملة والسخرية، والإهانة، ومحاولات التأثير فيه، لكنه تحمل ذلك كله في سبيل السلام. يسجّل له أنه تمسك بالسلام، وكانت سمعته بوصفه رجلاً مستقيماً جزءاً قيّماً من العملية برمّتها. أما الأمر المهم هنا فهو تمسكه على الدوام، في كل مرحلة من مراحل هذا الجدال، الذي كان وفيراً، بالحفاظ على العملية.

٣. يمكن للأمور الصغيرة أن تكون أموراً كبيرة أثناء عملية حلّ النزاع. لا يتعلق الأمر هنا بالحفاظ على عملية السلام فقط، بل يتطلب ترك رأيكَ في ما يتعلق بما هو مهم للأمور التي يعتبرها الفريق الآخر مهمة، وعدم التظاهر بالصلابة بشأن إيجاد أمور قد تعتبرها دون المقبول عندك. أما مستوى الأمور المقبولة فيشمل كل شيء هام بالنسبة إلى الأفرقاء الذين تعمل لمصلحتهم، وكما يحدّدونها هم.

يقول لي الناس أحياناً خلال أدائي دوري الجديد في الشرق الأوسط: ألا تجد أن من المهين الجدال حول المكان الذي يجب أن يوضع فيه أحد الحواجز، أو ما إذا كان يجب إعطاء الإذن لإقامة طريق بطول مئتي ياردة في مكان بعيد مثل فلسطين؟ كنت أقول لهم: كلا، إذا كان الأمر مهماً بالنسبة إليهم، فلا بد أن يكون مهماً بالنسبة إلي.

كنت أعرف في الماضي الأمكنة الدقيقة التي توجد فيها أبراج المراقبة التي

يستخدمها الجيش البريطاني في أرماغ الجنوبية، كما أمكنني أن أصف تصميم كل واحد منها. كان الجيش الجمهوري الإيرلندي يعتبر هذه المنطقة الحدودية منطقته هو، حيث يعيش كثير من نشطائه الأساسيين. كانت أبراج المراقبة مصدراً دائماً للاحتكاك، الأمر الذي يدلّ على أن الجيش البريطاني ما زال يطاردهم. يعتبر جيشنا، بطبيعة الحال، أن الأبراج هي نقاط مراقبة حيوية وعلى الخصوص بالنسبة إلى المنشقّين الجمهوريين القادمين من الجنوب من أجل تنفيذ عملياتٍ إرهابية. يُمكن للجيش أن يعدّد المحاولات الإرهابية التي أُحبطت، والأشخاص الذين أُنقذت حياتهم. كان الأمر، لهذا السبب، دقيقاً جداً، وهكذا تعيّن إزالة الأبراج قطعةً قطعةً، بحيث يتم التركيز على كل خطوة.

تُعتبر الرموز أموراً هامة جداً بالنسبة إلى طرفَي نزاع ما، وهذا ما يوجب التعامل معها بعناية. أما في إيرلندا الشمالية فكل جوانب النظام الجديد لفرض الأمن، بدءاً بشارة القبعة حتى عملية التجنيد الدقيقة، هي كلها جزئيات كان لا بدّ من معالجتها.

يمكن الاتفاق عادةً على أمورٍ بسيطة كهذه. وهكذا تعيّن على الطرفين المشاركين في المفاوضات المتعلقة بإيرلندا الشمالية أن يتنازلا عن شيء ما، إلا أن ذلك كان يؤدي إلى انزعاج طرف من طرف آخر. ويجد الطرفان نفسيهما في نزاع كهذا في حالٍ من الشكوى الدائمة إما بينهما، وإما من الوسيط. ويعتقد الطرفان أنهما لا يقدّمان سوى التنازلات، وأن كل واحد منهما هو الذي يريد تحقيق السلام فقط، وأنه هو الذي يتصرف بنية سليمة. كنت أجري محادثات متماثلة بانتظام في اجتماعات متتابعة مع الجانبين، وكان كل جانب يؤمن أنه هو الذي حرّك الأمور، بينما لم يقدم الطرف الآخر أي شيء.

أتذكّر ذات مرة أنني تحدّثت إلى مجموعة من الاتحاديين بعد وقت قصير من التوصل إلى اتفاقية الجمعة العظيمة. قال لي أحدهم، بطريقة لطيفة ومخلصة: «قل لي ماذا حصلنا من هذه الاتفاقية»؟. قلت له: «حصلنا على الاتحاد. إنه شيء عظيم جداً، ألا تظن ذلك؟» يعني ذلك بكلماتٍ أخرى أن أساس الاتفاق حافظ على مبدأ التنازل، أي إن الاتحاد سوف يبقى طالما أرادت الغالبية ذلك. هذا هو السبب الجوهري لبقاء روح الاتحاد. لم ينظر الرجل إلى الأمور بهذه الطريقة. لم يلاحظ

الرجل سوى سلسلة من التنازلات من أجل حمل «رجال العنف» على التوقف عن أعمال ما كان يجدر بهم أن يبدأوا بها على أي حال.

نستنتج من ذلك كله أن الأمور البسيطة هي أمور هامة، لأنها تبدو كبيرة جداً في عقول الأطراف الأساسية، الأمر الذي لا نتمكن من فهمه على الدوام.

٤. كن مبتكراً. يمكنك أن تستخدم الأمور الكبيرة أو الصغيرة، سواء بمفردها أو مجتمعة، وإذا قتضى الأمر يمكنك أن تبتكر أموراً إضافيةً كي تزيل العوائق من أمام تحقيق تقدم. بدا جوناثان مبتكراً لامعاً في هذه النقطة بالذات. بدت المآزق في بعض الأوقات غير قابلة للحل. وضعنا عندما وصلنا إلى النهاية مهلةً قصوى لإعادة تشكيل المجلس التنفيذي وهي ٢٦ آذار/مارس من العام ٢٠٠٧. حُدّدت مهلٌ كثيرة وانقضت بحيث أصبحت مثل العملات هابطة القيمة، لكن هذه العملات هي أفضل من عدم وجود عملة على الإطلاق. كان الأفرقاء يرفضون هذه المهل على الدوام، لكني اعتبرت دائماً أنها تخدم غايةً ما، لكن الجانب الإيرلندي بدأ يتصرف هذه المرة بتناغم تام، وهكذا لم يتراجع هذه المرة عن المهلة المحددة. استغرق الأمر ثلاث سنوات أو أكثر من ذلك ونحن نحاول إقناع إيان بايسلي بالموافقة على الاتفاقية، وكانت هذه هي الفرصة الأخيرة أمامه للموافقة عليها. تعيّن عليه أن يختار إما الاتفاقية وإما الحرب. حددنا تاريخ ٢٦ آذار/مارس كي يكون التاريخ الحاسم. قال لي إيان بايسلي إنه لا يستطيع إقناع حزبه بتاريخ شهر آذار، وقال لا بد من نقله إلى شهر أيار/مايو. أبدى الإيرلنديون شكاً في الأمر، بينما أبدى الشين فين غضباً شديداً، وبدا لنا أن كل شيء يترنّح على شفير هاوية.

فكرت بعد ذلك أن من الجنون إفساد كل شيء من أجل شهرين فقط. قدّم لنا جوناثان عند ذلك فكرة إعطاء DUP مهلة الشهرين، لكن بعد أن نطلب إليهم في المقابل الموافقة على عقد اجتماع وجهاً لوجه بين إيان بايسلي وجيري آدامز اللذين لم يسبق لهما أن التقيا من قبل. قُدّمنا لهما العرض، فما كان من DUP إلا أن قبِل العرض، وتبعه جيري آدامز في الموافقة.

اضطررنا عندئذ، وبعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد، إلى التفاوض ليس على ترتيب إيقاع الاجتماع الحقيقي فقط، بل على الأثاث الذي يجب وضعه في قاعة

الاجتماعات. وصل الأمر إلى حدّ تقرير شكل الطاولة. أراد DUP أن يكون جانبا الطاولة متقابلين، وذلك من أجل إظهار أنهما ما زالا خصمين. في حين أراد الشين فين أن يجلس كل واحد إلى جانب الآخر من أجل إظهار أنهم شركاء، وأنهم أصبحوا متساوين الآن. أعطانا روبرت هانيغان، وهو مسؤول شاب وعظيم تولى زمام الأمور بوصفه الشخصية الرئيسة التي تمثل ١٠ داوننغ ستريت، فكرته العبقرية النهائية. اقترح أن تكون الطاولة على شكل معيّن، مما يسمح لهم بالجلوس متقابلين وبعضهم إلى جانب بعض في الوقت ذاته، وهكذا تمت الاتفاقية.

لا يمكن للمرء أن يفكر في كل شيء حتى وهو يقدّم فكرة عبقرية، لكن يجب أن يحذر المرء الإقدام على أي شيء ينقض الثقة.

أريد أن أقول، للمناسبة، إن الثقة متعدّدة الأوجه بطبيعتها كمفهوم سياسي، وهكذا في أحد أوجهها، لا أحد يثق بالسياسيين، كما أن السياسيين مضطّرون بين وقتٍ وآخر إلى إخفاء الحقيقة الكاملة، وإلى تحويرها، حتى تشويشها، وذلك بحسب ما تتطلبه مصالح الهدف الاستراتيجي الأكبر. يلعب مكان رسم هذا الخط دوراً حاسماً، كما أن الأمر لا يمكننا تصنيفه في خانة العلوم. (لا أريد هنا أن يشعر القارئ بالإهانة، لأننا جميعاً نتخذ هذه القرارات كل يوم في حياتنا العملية والشخصية). أؤكد هنا أننا لو لم نتصرف مع بعض الذكاء في هذا المجال لكان الأمر أصبح في خانة المستحيلات.

لكن الناس يفهمون الأمور جيداً، ويستطيعون التمييز بين السياسيين الذين لا يثقون بهم على المستوى الشخصي، أي معظمهم تقريباً، وبين الذين لا يثقون بهم على مستوى أوسع. يتعلق هذا المستوى من الثقة بما إذا كان الجمهور يصدق أن القائد السياسي يعمل ما بوسعه لمصلحته مع ما يصاحب ذلك من أخطاء أو تنازلات، وسواء فعل ذلك بطريقة ميكيافيلية أو غير ذلك. هذا هو مستوى الثقة الذي يهم.

سمعت عن مثالٍ مهمّ عن هذا المستوى ذات مرة من نيلسون مانديلا، أو ماديبا كما يُدعى كذلك (وهو الاسم المعروف به في قبيلته) من بين الآخرين كافة. يُعتبر هذا المثال دراسة رائعة، لكن لا يعني ذلك أنه قديس، بمعنى أنه ليس كذلك، أو ربما هو قديس بالفعل، لكن ليس بمعنى أنه غير مستعد للذهاب إلى أقصى أطراف الأرض إذا دعت المناسبة. أراهن أن غاندي كان كذلك.

أحببتُ ماديبا كثيراً، ويعود ذلك جزئياً إلى أنني عاملته بوصفه قائداً سياسياً، وليس بوصفه قدّيساً. عرف الرجل تحديداً كيف كان الناس يستغلونه، بمن فيهم أنا، وذلك من أجل تعزيز مصداقيتهم في مراحل معينة، وهو كان مستعداً كلياً للتعاون معهم، لكن بشرط أن يحبهم. أما أكثر ما يُدهش في هذا الرجل فهو فطانته، ومهارته، إنه ذكيّ بالمعنى الذي تعطيه الكلمة الفرنسية habile، أي إنه حاذق وقادر تماماً على تحوير الوضع بحيث يناسب هدفه الأسمى.

كنا نناقش مدى تغيّره وكيفية إصلاحه لحزب المؤتمر الإفريقي بحيث تحوّل من حركة ثورية إلى حزب حاكم، وهي مهمة ليست سهلةً أبداً. سبق لأعضاء الحزب أن ارتكبوا، بطبيعة الحال، أعمال عنفٍ معينة كان نظام التمييز العنصري يسمّيها أعمالاً إرهابية، لكن حزب المؤتمر الإفريقي كان يعتبرها وسائل شرعية للوصول إلى الحرية. قرّر ماديبا أن على أعضاء الحزب التخلي عن طريق العنف، وأدرك كذلك أنه إذا قارب الموضوع من زاوية المبادئ، فسوف يلقى معارضة مريرة، كما أنه سوف يتسبب بانقسام الحركة، ولربما تسبب بانشقاقها. تدبر الرجل سبباً من أجل تعليق نشاطاتها، فأبلغ كوادر حزب المؤتمر الإفريقي أنه ملتزم مثلهم تماماً، لكن يتعيّن عليهم تعليق أعمال العنف لفترة ما لأسبابٍ تكتيكية، لكن فيما بعد ستنفتح الخيارات كلها أمامهم، وتصبح أكثر قابلية للتحقّق. ما إن علّقت الحركة أنشطتها حتى عُلّقت إلى الأبد بطبيعة الحال.

إن مناورات تكتيكية كهذه كانت هي أساس عملية السلام في إيرلندا الشمالية. برزت أمامنا مجدداً، وفي اللحظات الأخيرة التي تبعت المفاوضات التي جرت حول إعلان سانت أندروز في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٦، مسألة طبيعة القَسَم الذي سوف يقسمه أولئك الذين يتولون مسؤولياتهم في المجلسين التشريعي والتنفيذي اللذين أعيد تأسيسهما. قلّبنا الأمور على أوجهها كافة في سعينا للوصول إلى صيغة مقبولة. أرادت DUP التوصل إلى التزام شديد الوضوح بالنسبة إلى القَسَم الذي سيؤديه رجال الشرطة. لم تعجب كلمات القَسَم الشين فين، ولم ترغب في الموافقة حتى اتضاح وجود المجلس التنفيذي، وهكذا واجهنا مسألة التوقيت وكذلك مشكلة الصياغة.

وافقوا في نهاية الأمر على التوقيت، وعلى الصياغة تقريباً، لكن الأمر بدأ بالانهيار في غضون الأسابيع التالية. وافق جيري آدامز على الدعوة إلى آرد فايس (اجتماع لمجلس الشين فين) للمصادقة، لكن بشرط أن يصرّح إيان بايسلي بوضوح، ومقدماً، أن موافقةً كهذه ستسمح بإنعاش المؤسسات. عُكست الأدوار لمرةٍ وحيدة، وها هو جيري آدامز يطالب بالوضوح، وإيان بايسلي يصرّح بأشياء غامضة. فكرت بعد ذلك أنني سوف أقوم بإعادة تفسير الأمور الغامضة كي أعطي جيري الثقة التي يحتاج إليها.

أمضيت إجازة عيد الميلاد في ميامي. كانت الشمس مشرقة، لكن كان ذلك أفضل ما حصلت عليه من الإجازة. تعيّن عليّ، بسبب اختلاف التوقيت أن أبدأ مكالماتي الهاتفية في الخامسة صباحاً. كانت أسرة بايسلي تخرج كثيراً من المنزل لزيارة الأصدقاء، وهكذا لم أتمكن من محادثتهم عبر الهاتف. جازفت كثيراً، وأحياناً بتهور، في إبلاغ كل طرف ما وافق عليه الطرف الآخر، وأخشى أن أقول إنني تجاوزت الحقيقة في نقاطٍ حرجة، لكني كنت أخشى انهيار الأمر برمّته بسبب صياغة كلمات قَسَم تولي المسؤولية. استفدنا كثيراً من الإبداع الذي جاء من الجوانب كلها كي نجتاز هذه العقبة.

أريد أن أشدّد هنا على ضرورة أن يكون المرء فطِناً، ومرناً، ومبتكراً. إنني أفكّر كثيراً في قضايا مثل المستوطنات، والقدس، أو اللاجئين في عملية السلام في الشرق الأوسط. أعتقد أن في كل حالة من هذه الحالات تبرز الحاجة إلى بعض الابتكار، لكن الأمر يحتاج إلى الابتكار والإبداع، والقدر الكبير منهما.

٥. لا يُمكن حل النزاعات بين الأفرقاء إذا تُرك الأمر بيدهم. يعني ذلك لو كان بإمكانهم حل القضية لكانوا فعلوا ذلك، ولهذا فإنهم يحتاجون إلى مساعدة من الخارج.

تُعتبر هذه المساعدة من الطرف الثالث حيويةً بطرقٍ متعدّدة. يُمكن لهذه المساعدة إنتاج قدرٍ أكبر من الإبداع الضروري للعملية، أي كما بيّنا أعلاه. يساعد هذا التدخل على أن يطمئن كل فريق الفريق الآخر بنياته الحسنة. أما بالنسبة إلى

الشرق الأوسط فإنك إذا تحدثت مع أي مواطنٍ إسرائيلي فسيقول لك، بطبيعة الحال، إنه يريد السلام.

أتذكر أنني قلت لرئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، وهو رجل يحمل مسؤولية شاقة، أن عليه أن يفهم أن الفلسطينيين لا يؤمنون بأن إسرائيل جادة في مسألة إنشاء دولة فلسطينية. قلت له: «يعتقدون أنكم لا تريدون سوى ابتلاعهم».

أجابني: «هذا ليس صحيحاً. سأقص عليك حكاية. يمتلك أحد الرجال كلباً ضخماً. يدخل الرجل إلى حانة ويقول: «من يمتلك كلب «الشيهواهوا» الصغير في الخارج؟» يجيبه أحدهم: «أنا» يقول الرجل: «إذاً ساعدني، لأن كلب الشيهواهوا يقتل كلبي الضخم». يرد عليه مالك الكلب الصغير: «لكن ذلك غير معقول، إذ كيف يُمكن للكلب الصغير أن يقتل كلباً كبيراً؟» يقول له الآخر: «لأنه عالق في بلعومه».

لكنك إذا سألت مواطناً إسرائيلياً عما إذا كان الفلسطينيون يريدون السلام فسيقول لك: «كلا. لا تتحدث إلينا عن المستوطنات والاحتلال، لأننا خرجنا من غزة وسحبنا مستوطنينا معنا، لكن كل ما حصلنا عليه هو حماس والصواريخ». يمكن للمرء أن يحصل على حديثٍ مماثل، إذا ما تحدث مع مواطن فلسطيني عن الإسرائيليين.

أريد أن أشدّد هنا على أن الجهة الخارجية لا تكتفي بالمساعدة على المفاوضة والتوسط فقط، وذلك لأنها تلعب دور العازل، والمبعوث، والأهم من ذلك كله دور المقنع بالنيات الطيبة في جو يسوده الشك عادة. يساعد الطرف الخارجي كذلك على تحديد القضايا، وعلى تحريك الأمور. مثّلت إيرلندا الشمالية نموذجاً مصوراً لهذه الفرضية. هناك في الواقع مرحلتان مميزتان لعملية السلام: بدأت الأولى مع عقد اتفاقية الجمعة العظيمة، واستمرّت حتى تعليق أعمال المجلسين التشريعي والتنفيذي في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢، الأمر الذي حدث بسبب فشل الجيش الجمهوري الإيرلندي في نزع سلاحه. أما المرحلة الثانية فبدأت مع سقوط دافيد تريمبل في العام ٢٠٠٣ حتى شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٧. أما الفترة الفاصلة التي استمرت نحو سنة من الزمن فكانت بمثابة استراحة، على الرغم من حدوث أمورٍ كثيرةٍ في خلالها.

كانت المرحلة الأولى فترةً يمكننا أن نطلق عليها اسم الغموض الخلاق، وهي

الفترة التي تحرك خلالها الناس ببطء، وبحذر بعيدين عن مواقفهم الأصلية، وأحياناً لم يكونوا يفعلون ذلك. لم يفكر أحد بجدية أن الجيش الجمهوري الإيرلندي سينحل في اليوم الذي يلي اتفاقية الجمعة العظيمة، وذلك لأنهم كانوا يريدون الانتظار حتى ينفذ الاتحاديون نصيبهم من الصفقة، وهكذا سيحتفظ الجيش الجمهوري الإيرلندي حتى ذلك الحين بإمكانية استخدام القوة.

تعيّن علينا في المقابل أن نتظاهر بأن هذه ليست إلا فترة انتقالية منظمة ومضبوطة. حدثت في تلك الفترة أمور تدل على المراوغة، وقيلت أمور، وجرت تصرفات، لا تحمل سوى القدر القليل من المضمون الفكري، أو الثبات السياسي ما عدا تمكننا من اجتياز كل مجموعة من هذه العقبات.

كان ذلك صحيحاً خصوصاً بالنسبة إلى علاقاتنا مع الجمهوريين. امتلك هؤلاء تاريخهم، حتى ما يشبه العقيدة التي يتمسكون بهما بوصفهم حركة ثورية. تعيّن عليهم تكريم موتاهم ومسجونيهم، كما تعيّن عليهم كذلك التناغم مع لغة اتفاقية سلام لم يكونوا متأكدين من إمكانية تطبيقها. ظهرت سلسلة من الخطوات الناقصة، مثل ما كان الحال بالنسبة إلى مسألة نزع السلاح، وكانت كلها مغلفة بلغة الجمهوريين الغامضة بعض الشيء، وهي اللغة التي حاولوا بواسطتها إقناع الاتحاديين، وذلك من دون إرباك سياساتهم الداخلية الخاصة بهم.

يُضاف إلى ذلك أنهم مثلما كانوا تنظيماً شبه عسكري يحارب البريطانيين، كانوا كذلك يقومون بدور شبيه بدور الشرطة في مناطق الجمهوريين. أتذكر ذات يوم أنني قلت لأحد مواطنيّ في سيدجفيلد كيف أن الجيش الجمهوري الإيرلندي سيواجه تجار المخدرات ويضرب المغتصبين. لاحظت أن الرجل قد ارتاح للجمهوريين لأول مرة في حياته. أعرف، بطبيعة الحال أن هذه الأمور لن تحدث بين ليلة وضحاها، لكن هذه كلها أمور لا يحتملها القانون الذي حملته اتفاقية الجمعة العظيمة.

أفادنا هذا الغموض الإيجابي حول كل هذه الأمور. توقفت العمليات الإرهابية، وتوقفت القنابل، ولم يمت أي جندي بريطاني في هذه الفترة، كما لم يتم اغتيال أي رجل شرطة. لكنني لا أستطيع الزعم أن هذا يماثل القول إن العمليات الطبيعية التي تستتبع القانون والنظام هي السائدة في إيرلندا الشمالية هذه الأيام. ظهر هذا الأمر

جلياً في جريمة اغتيال روبرت ماكارتني في كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٥. كان الرجل يدافع عن صديق له تعرّض للضرب في حانة على أيدي أشخاص تابعين للجيش الجمهوري الإيرلندي. قام هؤلاء بعد ذلك بجرّ ماكارتني إلى الخارج، وطعنه حتى الموت.

كانت جريمة القتل هذه نقطة التحول الأخيرة. رفضت عائلته، والجمهوريون جميعاً، محاولات إسكاتهم، كما أن شقيقاته وخطيبته وأصدقاءه جميعهم جهدوا كثيراً من أجل تقديم الجناة إلى العدالة. لم تستوعب قيادة الجيش الجمهوري الإيرلندي مغزى هذه الحادثة تماماً، فأصدرت بياناً سألت فيه ما إذا كان إطلاق النار على المعتدين سيفيد في شيء، لكن هذه الحادثة أبرزت إلى الواجهة ضرورة اتخاذ الجيش الجمهوري الإيرلندي قراره منذ تعليق أعمال المجلسين التشريعي والتنفيذي في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢.

سأورد الآن مثالاً آخر على المساعدة التي يستطيع الطرف الثالث تقديمها. توجهت إلى بلفاست بعد تعليق أعمال المجلسين في العام ٢٠٠٢، وذلك من أجل إلقاء أهم حديث لي في إيرلندا الشمالية منذ شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٧. عُرف هذا الخطاب على أنه حديث «أعمال تكميلية». جاء في هذا الخطاب: «إن الغموض الإيجابي كان صديقنا في المرحلة الأولى لأنه سمح لنا بتحريك القافلة، وساعدنا كذلك على اجتياز العوائق المتنوعة التي واجهتنا في المراحل الأولى. لكن هذا الغموض لم يعد صديقنا بعد الآن لأنه يعيق أعمالنا، فإذا لم يتضح للجميع أن العنف في مختلف أشكاله سيتم التخلي عنه إلى الأبد، وفي هذه الحال سيتقاسم الأفرقاء السلطة، فإننا لن نتمكن من تحقيق المزيد من التقدم. يتعيّن الآن أن تحل «الإجراءات التكميلية» مكان «الغموض الإيجابي» وذلك كي نبرهن على نحو لا يدع مجالاً للشك أن الماضي أصبح خلفنا.

كان ذلك خطاباً صيغَ بكل عناية، وكان قوياً كذلك لأنه كان واضحاً وغير منمق. بدأت الإشارة تكراراً إلى جيري آدامز ومارتن ماك غينيس منذ ذلك الخطاب بالقول إن الجيش الجمهوري الإيرلندي لم يعد يفيد في أي شيء غير تعزيز الاتحاديين الرافضين، وهو الآن يعيق الأمور التي قال إنه يريدها، وبالتحديد تقاسم السلطة.

ينطبق الأمر ذاته هذه الأيام، بطبيعة الحال، على الجناح العسكري لحماس. إنه أفضل صديق للإسرائيليين الذين ينادون بدولة واحدة. إن تمسكه بالعنف لا يقدم تبريراً للمفاوضات، لكنه يبرر استبعادهم عنها.

إن تحديد هذه الأمور كلها، وتعريفها بطريقة مقنعة واستخدام ذلك التعريف لتحريك العملية قُدُماً، هي أمور تأتي من طرفٍ ثالث بطريقة أسهل مما تأتي من أي من اللاعبين الأساسيين.

٦. يتعيّن أن يدرك المرء أن عملية حل أي نزاع هي بالنسبة إلى الطرفين بمثابة الرحلة، أو عملية، وليست حدثاً. يُمكن لكل طرف أن يأخذ وقته كي يترك الماضي وراءه. إن النزاع ليس مجرد خلافٍ يتصف بالعنف. إنه يمتلك تاريخاً ويكوّن ثقافته الخاصة به، وتقاليده، وطقوسه، ومعتقداته. يمتلك النزاع عقلاً وروحاً، وكذلك جسداً، كما يتصف بالدوام وبالعمق.

إن تغيير ذلك كله هو التزام يتصف بالطموح الشديد وبالتأمل العميق. يُمكن للناس أن يتغيروا، لكنهم لا يغيرون طرقهم. يتوجب تغيير هذه الطرق بحيث يتمكن التغيير من إحراز تقدم. لاحظت في المرة الأولى التي قابلت فيها جيري آدامز ومارتن ماك غينيس أنهما ليسا مجرد شخصين متردّدين أو متشكّكين، بل يتصرفان وكأنهما جالسان مع عدو لهما. لم يشأ مارتن في الاجتماعات الكثيرة التي عقدناها أن يفاوض، بل اكتفى بشرح أهداف، وآلام، وغضب، وتوقعات الجهة التي يمثلها. استغرق الرجل وقتاً طويلاً قبل أن يعتبرني شريكه بل صديقه. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إليه، فكيف سيكون الحال بالنسبة إلى متطوع عادي في الجيش الجمهوري الإيرلندي، وهو الذي قد يكون تعرض لإهانة من أحد الجنود، أو من ضابط أمن RUC، ربما تكون أسرته قد عانت بما يكفي، أو ولد ونشأ مع الاعتقاد أن ذلك كله هو نتيجة الظلم الذي أُنزل عمداً من قِبل أناسٍ أشرار.

يندر أن يرى الجانبان الألم الذي يقاسيه الجانب الآخر. أعرف أن أكثر الإسرائيليين تقدمية من الذين أعرفهم لا يفهمون إلا نادراً الإهانة التي تلحق برجلٍ فلسطيني متوسط العمر عندما يفتشه جندي إسرائيلي شاب عند حاجز ما أمام أسرته (يمكننا أن نفترض أن ذلك التفتيش لا يتم بكثير من التهذيب). لا يُلام الفلسطينيون

إذا ما حزنوا على آخر من سقط لهم من ضحايا نتيجة غارة إسرائيلية، لكن هؤلاء الفلسطينيين سيجدون صعوبةً في التعاطف مع والد صبي إسرائيلي قُتل في هجوم انتحاري.

تبرز أمامنا بعد ذلك المواقف التي تبدو بالنسبة إلينا غريبة، وحتى طريفة، لكنها تبدو للطرف الآخر ذات دلالة كبيرة. أتذكر أن أحد رجال منظمة الأورانج البارزين قبل الانتخابات التي جرت في العام ١٩٩٧ وهو يقول إنني غير مؤهل لتولي منصب رئيس الوزراء، وذلك لأن زوجتي رسمت لوحةً توحي أن ولاءها يتجه إلى روما. دُهشت عندما سمعت بالخبر لأول مرة، لأنني حسبت أن روما هي مركز الحكومة الإيطالية وليس الفاتيكان، وتساءلت عما يُمكن أن تقوله شيري إلى رومانو برودي الذي كان رئيس الوزراء الإيطالي.

إن المفهوم القائل بوجود لحظة واحدة من الزمن لتحقيق السلام هو مفهوم خاطئ. يتعيّن على السلام أن ينضج، وأن يمدّ جذوره كي يحلّ محل جذور النزاع، وأن يسمح عبر الزمن بتشكل مواقف متنوعة يمكنها فرض تأثيرها.

كنت أحاول أحياناً أن أصف هذا المفهوم بالمثال التالي: يشبه الأمر سيارة تبتعد مسرعةً عن مكان حادثٍ وقع في الطريق. لا يختفي منظر السيارات المحطمة على الفور، لكنه يبدو أكثر شحوباً بمرور الزمن. يواظب السائق على التطلع في المرآة الخلفية، حتى ولو أن عينيه تجهدان لرؤية الطريق من أمامه. يشعر ركاب السيارة بالصدمة، لأن ذكريات ما حدث تتنافس في أدمغتهم للحصول على مجالٍ لها مع الأمل بتحسن الأوضاع في المستقبل. لا يوجد طريقة فورية لإزالة الألم لأنه يستمر بعيداً وعميقاً، ولا يتلاشى إلا تدريجاً قبل أن يختفي تماماً.

إن ما يوحيه ذلك المثال بالنسبة إلى عملية السلام هو أنه يجب عليك أن تعمل من أجل إقناع الطرفين أن خطوات الطرف الآخر أثناء تلك الرحلة ليست وليدة غياب النية الطيبة، أو تغيير الرأي بالنسبة إلى السلام، لكنها نتيجة طبيعية للتجربة التي مرّ بها. إنها سمة حتمية من سمات حل النزاع.

٧. سيتعمد أولئك الذين يؤمنون أن الصراع يجب أن يستمرّ إعاقة طريق السلام. يتعيّن على الوسيط أن يكون مستعداً لإعاقةٍ كهذه، لا أن يتشاءم منها. ينسى الناس

أحياناً أن أسوأ الهجمات الإرهابية في تاريخ الاضطرابات هي تلك التي حدثت بعد اتفاقية الجمعة العظيمة وليس قبلها. كانت آخر الهجمات الإرهابية لحسن الحظ.

انفجرت قنبلة كبيرة يوم السبت في ١٥ آب/أغسطس ١٩٩٨، عند الساعة ٣:١٠ من بعد الظهر، وذلك في سوق مدينة أوماغ. قُتل تسعة وعشرون شخصاً في هذا الحادث، كما أصيب عدد كبير آخر من الناس بجروح خطرة، كما أن عدداً آخر من الناس ما زالوا يحملون آثار هذا الهجوم لما تبقى لهم من العمر. كانت هناك امرأة حبلى بتوأمين من بين الذين ماتوا، كما ماتت والدة المرأة وشقيقتها في ذلك الهجوم. مات كذلك أربعة فتيان إسبانيين مع مرافقهم، وهم الذيم كانوا يقومون برحلة في إطار برنامج لتبادل الزيارات. كانت مجموعة منشقة تطلق على نفسها اسم الجيش الإيرلندي الحقيقي هي التي وضعت القنبلة، وهي مجموعة تشكلت احتجاجاً على انخراط الشين فين في عملية السلام. كان عدد القتلى من الكاثوليك أكبر من عددهم من البروتستانت. أعطى الإرهابيون إنذاراً لكن ليس عن المكان الصحيح، فما كان من قوات الشرطة إلا أن دفعت الناس، من دون قصد بالطبع، إلى مكان القنبلة.

كنت أُمضي في ذلك الوقت إجازةً في قرية صغيرة تدعى ميرادو وتقع في جنوب غربي فرنسا. كنا ننزل مع صديقينا ماغي وآلان، وهو الذي كان مساعداً لنواب حزب العمال، أما هي فكانت صديقة قديمة سبق أن منحتني أنا وشيري فترة إقامة في منزلها الكائن في ستوك نيوينغتون عندما كنا نبحث عن أول منزلٍ لنا بعد زواجنا.

علمت بالخبر قرابة الساعة ٣:٣٠ بعد الظهر. اتضحت لي وحشيةُ الهجوم عند الساعة الخامسة من بعد الظهر. ألقيت عندئذ تصريحاً صحفياً مقتضباً فوق درجات كنيسة القرية، وكنت أرتدي وقتئذ بذلةً استعرتها من أحد المرافقين الأمنيين. كانت مشاعري مزيجاً من الصدمة والقلق نتيجة الآثار التي تركها الهجوم.

وصلت في صباح اليوم التالي إلى إيرلندا الشمالية وزرت الجرحى. لا أستطيع أن أتذكر هذه الزيارة من دون أن تسيل دموعي، حتى إلى هذا اليوم. التقيت فتاة فقدت بصرها، لكنها صمّمت مع ذلك على أن تعيش حياتها على أكمل وجه، وهو الأمر الذي برهنت عليه فيما بعد. التقيتَ كذلك والد المرأة الحامل بالتوأمين. أما

لو أظهرت عائلات الضحايا الغضب، أو أفرغت مشاعرها نحوي وقالت لي: «لو لم تبدأ هذه العملية، لكانوا على قيد الحياة الآن»، وأنا أعرف أن بعضهم قد تلفظ بها، لكنت حافظت على هدوئي، لكن ما جعلني أتأثر كثيراً كان محافظتهم على هدوء أعصابهم، وحزنهم العميق الذي لا نهاية له تجاه أحبائهم الذين لن يروهم بعد الآن، ولن يعانقوهم، أو يتحدثوا إليهم ثانية.

تعيّن عليّ التفكير سياسياً، حتى في تلك اللحظة من المأساة الإنسانية البالغة التي تسبب بها تفكيرٌ شرير إلى أبعد الحدود. كان أحد الخيارات التي واجهتنا هو: إما أن نرفع أيدينا رعباً ونقول: «لن يحقق هؤلاء الأشخاص السلام أبداً»، وإما أن نستخدم الرعب سبباً للمضي قدماً ونقول: «يريد هؤلاء الأشخاص إيقاف عملية السلام، لكن ردّنا هو أن ندفعها قدماً وبوتيرة أسرع».

اختار جميع المشاركين الرئيسيين المسار الثاني في هذه المناسبة، وهو أمرٌ يُشكرون عليه (وحدث بمساعدة من الرئيس كلينتون). تحوّل الحادث الذي كان يُمكن أن يشكّل انتكاسة إلى نقطة تحولٍ إيجابية. لم يستعد الجيش الجمهوري الإيرلندي الحقيقي دوره قط. أما جيري آدامز ومارتن ماك غينيس فقد أدانا الهجمات بكل صراحة. واجه دافيد تريمبل المناسبة على النحو اللائق، والأهم من ذلك كله هو أن الشعب قد فعل ذلك. قال لي أحد المحزونين، وهو الذي فقد زوجته: «لا تيأس. تابع مهمتك. أريدك أن تحوّل ذكرى زوجتي إلى سلام دائم في إيرلندا الشمالية، وهكذا لا يشعر أحد بما أشعر به هذا اليوم».

يناقض هذا الموقف ذلك الموجود في الشرق الأوسط، حيث يحدث العكس عادة، ويا للأسف، عند حدوث هجماتٍ إرهابية. تأتي ردود الفعل بطريقة تعزل القائمين بعملية السلام مثلما تعزل الإرهابيين. يُنظر إلى الهجمات التي يشنّها الإرهابيون كدليل على عقم محاولة صنع السلام مع الذين هم من خارج تنظيمهم. أما المشكلة فتكمن في وضع مفاتيح عملية السلام في أيدي الإرهابيين في وقت أخذ هذا المسار، وهكذا يصبح هدفهم هو إعاقة هذه العملية. هذا هو المنطق الغريب والفاسد وراء الإرهاب. ما إن يسلّم المرء أن ممارسة العنف تؤدي بالفعل إلى امتلاك مفاتيح عملية السلام، حتى يتولى الإرهابيون زمام الأمور. نستنتج من ذلك كله أن مفاتيح عملية السلام يجب أن تكون في أيدي صانعي السلام.

إن الإرهاب هو أوضح مثال على المتطرفين الذين يحاولون إعاقة التقدم في عملية السلام، لكن الضغط الذي يهدف إلى إعاقة عملية السلام يأتي كذلك من عناصر محترمين جداً وديموقراطيين يوجدون في الجانبين، وهم الذين يتهمون الفريق الذي ينتمون إليه بالتخلي عن المبادئ. كان دافيد تريمبل هدفاً لهجماتٍ مستمرة من أولئك الذين في DUP، ومن جهاتٍ أخرى، وكلهم يعتبرون أي تنازلٍ بمثابة خيانة، كما يعتبرون العملية برمّتها خيانةً لمجتمعهم. يبدو ذلك غير منطقي وغير مقنع بالمرة بالنسبة إلى أولئك الذين هم خارج العملية، لكن الأمر ليس هكذا بالنسبة إلى الذين هم داخلها. أعتقد أن دافيد قد اعتبر أن وجهة النظر التي تبنيتها لا تساعده إلا قليلاً. أما أنا فقد تبنيت وجهة النظر التي لم يعتبرها إيجابية قط، وهكذا فضّل أن يقاسم الاتحاديين نزعتهم ويتعاطف معهم، وهي النزعة التي ترى في كل شيء خططاً ومؤامرات ضدهم. تعيّن على الرجل أن يلعب دوراً صعباً بصورةٍ استثنائية، وهو الدور الذي لعبه كما لعبت دوري أنا، وأدّاه بشجاعة أدت إلى منحه، عن جدارة، جائزة نوبل للسلام.

٨. يلعب القادة دوراً مهماً. تستدعي أيّ عملية سلام مخاطرة سياسية، حتى أنها تتطلب نوعاً من أنواع المغامرة السياسية، وبالتأكيد تتطلب الشجاعة السياسية، حتى أنها تتطلب أحياناً الجرأة الشخصية. كما أن نوعية القيادة هي عنصر هام أيضاً، وشرط ضروري لعملية السلام.

أما النقطة الهامة هنا فهي: إن أسهل شيء على أفرقاء النزاع هو التمسك بشدة بالمواقف المعلنة. يكوّن النزاع من حوله عقيدة، وحتى نوعاً من أنواع العقيدة الدينية، الأمر الذي يعكس الطبيعة الطائفية للنزاع. وهكذا يُنظر إلى الأمور من خلال موشورٍ تكونه تلك العقيدة الطائفية. يستتبع التمسك بهذا الموشور السير على طريق مألوفٍ، وهو الطريق الذي قد لا يؤدي إلى أي مكان، وقد تزول معالمه التي تكوّن معرفةً فوريةً به، بحيث يشعر أتباع القادة أنهم مرتاحون جداً له.

وعلى النقيض من ذلك، ومثلما فعل موسى وأتباعه من الإسرائيليين عندما ساروا في اتجاهٍ جديد عليهم، ولم يكونوا واثقين بمقصدهم، الذي كانت العوائق التي تحيط به مخيفة وغير مألوفة بالنسبة إليهم. أما عندما أقدم بعض الأتباع، على الأقل

إلى اتهام قائدهم بالخيانة فإن الأمر لم يكن هيّناً. تطلب الأمر تلك النوعية التي تحفز أفضل القيادات السياسية: الرغبة في عمل الخير.

كنا محظوظين من حيث نوعية القيادات التي جلسنا معها. كان دور دافيد تريمبل فعالاً جداً. بدأ الرجل بلعب دوره عندما بدا الأمر مستحيلاً، وواظب على هذا الدور عندما بدا صعباً جداً، كما دفع ثمناً سياسياً باهظاً (على الرغم من تأكدي أن مكانه في التاريخ محفوظ بالكامل).

لعب إيان بايسلي دوراً غير متوقع بالمرة، وهو الذي بقي لسنواتٍ عديدة عائقاً، ومعارضاً، ومناقضاً للعملية من بين كل الاتحاديين الذين كانوا يسعون إلى التوصل إلى اتفاق، لكنه تولى العملية بنفسه وأكمل العملية.

كان إيان بايسلي شخصيةً سياسيةً غريبة بكل تأكيد، وهو نتاج سلسلة من الظروف السياسية الفريدة السائدة في إيرلندا الشمالية. إنه رجل مسيحي أصيل وملتزم، يخاف الله بالفعل، وهو كذلك رجل اتحادي متحمس. يتصف الرجل بالذكاء، والفطنة، وبالدهاء في بعض الأحيان، كما يمتلك فهماً عظيماً للاستراتيجية والتكتيك، ويمكنه أن يلاحظ الفرق بين الأمرين.

أما السؤال الذي لم يلقَ جواباً بعد فهو: هل هو الذي تغيّر أم أن الظروف هي التي تغيّرت؟ كان الرجل سيقول إن الظروف هي التي تغيرت، وإنه كان مستعداً دوماً للسلام إذا تخلى الجيش الجمهوري الإيرلندي عن العنف. أعتقد أن أمرين حدثا لتغييره. الأمر الأول هو مرضه الطويل الذي أنهكه، وهو المرض الذي قال إنه سيتمكن من الشفاء منه (على الرغم من أن كثيرين كانوا يتمنون خلاف ذلك)، وهو الذي امتلك إحساساً بنهايته الوشيكة، سواء السياسية والشخصية، لذلك أراد أن يترك وراءه شيئاً أكثر شمولية وبقاءً من مجرد «عدم الاستسلام». مرت لحظة مؤثرة بالفعل خلال سير المحادثات في سانت أندروز التي جرت في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٦، وذلك عندما اكتشفنا أنه كان يحتفل هو وزوجته بالذكرى الخمسين لزواجهما. أقمنا في نهاية الاجتماع حفلةً صغيرة، وهنأه جميع الحاضرين بمن فيهم جيري آدامز، ثم قدّم له بيرتي قطعةً من الخشب مأخوذة من موقع معركة بوين. أعطى الرجل إجابة لطيفة ومهذبة (كان إيان قادراً تماماً، حتى عندما يتلقى تهنئة، على أن

لا يكون لطيفاً ولا مهذباً). أحسست أن هذا الرجل كان ينظر إلى أعماق روحه كي يمتلك شعوراً رقيقاً. لا أقول إنه قد نضج بالضبط، لكن آفاقه اتسعت على نحو ما.

أما التغيّر الآخر فكان أن إيان جسّد ذلك السياسي الذي يُبقي سمعه مشرعاً للناس. سمع إيان في أواخر العام ٢٠٠٦ ومطلع العام ٢٠٠٧، الناس عندما أبلغوه أن الوقت قد حان للسلام، وأن الوقت قد حان بالنسبة إليه على الخصوص كي يصنع السلام. كان إيان خلال تلك الاجتماعات هو الشخص الذي يضغط من أجل السلام، وهو الذي كان مستعداً للبحث عن حلول خلاقة، وإيان هو الذي حرص على الدوام على ترك الأبواب مفتوحة. كنت أجتمع وإياه بمفردنا في مقر داوننغ ستريت. كان جوناثان يعبّر عن سروره البالغ عندما كنت أحدثه عن هذه اللقاءات التي تعاملت مع القضية من منظار روحاني أكثر مما هو دنيوي. هذا صحيح: كلانا كان مولعاً بالإيمان الديني كما كنا شخصَين متدينين. أعطاني الرجل كتاب صلاة صغيراً من أجل ليو.

سألني ذات مرة عندما اقتربت نهايته ما إذا كنت أعتقد أن الله يريده أن يصل إلى اتفاق يتوج عملية السلام. أردت أن أقول له نعم، لكنني ترددت على الرغم من أنني كنت متأكداً أن الله يريد السلام، إلا أنني كنت أعرف أنه ليس مفاوضاً. ظننت أن من الخطأ أن أقول له نعم، وهكذا قلت له إنني لا أستطيع الإجابة عن ذلك السؤال، وإنه هو الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يسمح لله أن يهديه، وإنني آمل أن يفعل ذلك.

أعتقد أن الناس لم يتمكنوا قط من فهمي عندما كنت أقول إنني أحبه كثيراً. لكني أحببته بالفعل، وأعتقد أن تقدير جدتي الكبير له قد أثّر فيّ.

أما من ناحية القوميين فكان هناك عدد من القادة المقتدرين الذين أحببتهم. كان جون هيوم، ولا يزال، شخصية سياسية عظيمة وعملاقاً حقيقياً. امتلك الرجل رؤية وخيالاً وبعد نظر حينما يكون الآخرون رازحين في حالة من الغموض. كان سايموس مالون ومارك ديركين زعيمين معتدلين ومنطقيين من حزب العمال والديموقراطيين الاشتراكيين، وهما شعرا أن هاتين الميزتين تُحسبان ضدهما، وهكذا كانا في موقفٍ صعبٍ على الدوام. كانت المشكلة هي وجوب إخراج الشين فين من حالة الجمود، وهكذا استلزم الأمر تخصيص المزيد من الوقت والطاقة لها. سبب هذا الأمر استياءً عميقاً، لكنه كان أمراً مؤسفاً وحتمياً مترافقاً مع عملية السلام. كان سايموس ومارك، مع

ذلك، شخصيتين هامتين عن جدارة. كان الرجلان في بعض الأحيان سيدي التعليقات، ومتحدثَين من الدرجة الأولى، ولا أعلم ما إذا كان حزب العمال والديموقراطيين الاشتراكيين يمتلك مركز تدريب خاصاً بهذا الموضوع، وهكذا كانا مؤهلين خارج إطار سياسة إيرلندا الشمالية ليكونا لاعبَين أساسيين في أي حزبٍ سياسي.

تحدثت عن بيرتي ومساهماته، لكن كان هناك جيري ومارتن. كانا شخصين استثنائيين. كوّنت إعجاباً شديداً تجاههما بمرور الزمن، ولعل إعجابي بهما فاق الحدّ المطلوب في حقيقة الأمر. كان يمكن للواحد منهما أن يصبح قائداً سياسياً كبيراً في أي مجال. إنهما لا يكتفيان بفهم الأمور، لكنهما كانا سيدي التمييز ما بين الاستراتيجية والتكتيك. كانا يعرفان أهدافهما وكانا مصمّمين على حمل أتباعهما، أو على الأقل الغالبية العظمى منهم، على السير وراءهما.

كتب الكثير عن المجلس العسكري الموقت وعن عضويته، وكذلك عن علاقته مع الجيش الجمهوري الإيرلندي. اعتقد الكثيرون، ومن ضمنهم قسم كبير من الاستخبارات البريطانية أن الشين فين والجيش الجمهوري الإيرلندي كانا شيئاً واحداً. وعندما كان جيري ومارتن يقولان إنهما سوف يتحدثان إلى الجيش الجمهوري الإيرلندي بشأن أمرٍ ما كانت تشيع دعابة تقول إنهما يستطيعان النظر إلى المرآة، ويسألانها.

أما أنا فاعتقدت على الدوام أن العلاقة كانت أكثر تعقيداً من ذلك. لم تكن فكرة أنهما يستطيعان إعطاء الأوامر للجيش الجمهوري الإيرلندي فكرةً صائبةً بالنسبة إلي. لم يكن يعتريني شك أن الفروق في مناسباتٍ كثيرة كانت ما بين الشين فين والجيش الجمهوري الإيرلندي فروقاً مصطنعة، وهي فروق استخدمت لأسباب تكتيكية. أعرف أن كليهما ذكي ومراوغ في بعض الأحيان، لكن هذه كانت حالي كذلك. أنبأني حدسي أنهما في ظروفٍ محددة يمكنهما أن يكونا مقنعين عندما يتفاوضان مع الآخرين، أي من دون أن يعطيا الأوامر. بدأت أنظر إلى العلاقة التي تربط ما بين الشين فين والجيش الجمهوري الإيرلندي على أنها تماثل قليلاً العلاقة ما بين قيادة حزب العمال، والهيئة التنفيذية لحزب العمال. أجل، أعرف أن القيادة قوية، لكن تنفذ ما تريد في العادة، من دون قدرٍ كبير من الإقناع والمفاوضة إلا ما ندر.

كان جيري ومارتن يخشيان الانقسام على الدوام، وذلك كما حدث سابقاً مع الجمهوريين، الأمر الذي أسفر عن عواقب كارثية. كان ذلك يعني دفع أنصارهما خطوة خطوة، وتوجيههم، ومداهنتهم، من دون أن يكونوا صريحين تماماً، وعلى الدوام، بشأن الوجهة النهائية التي سيصلان إليها. كانت تلك مهمةً صعبةً، لكنهما قاما بها بمهارة كبيرة.

فهم الرجلان في النهاية أن وجود الجيش الجمهوري الإيرلندي لم يعد الطريقة المناسبة للوصول إلى تسوية عادلة، لكنه عائق أمام هذه التسوية. تطلب الأمر شجاعةً سياسيةً حقيقيةً من أجل تطبيق هذه الرؤية، وسواء أحببتهما أم لا، وبغضّ النظر عن شدة اعتراضك على أفعالهما السابقة، فهما يمتلكان قدراً كبيراً من الشجاعة.

كان هناك كذلك قادة الأحزاب السياسية الصغيرة، الذين كانوا يشكلون جزءاً فريداً من الصراع، كما كانوا يشكلون إلهاماً عندما لا يكون لهم دور في النزاع، مثل دافيد إيرفين من الحزب الاتحادي التقدمي، وزعماء التحالف، وتحالف النساء، ذلك التجمع الرائع الذي تعودت لقاءه فقط كي أذكّر نفسي بأن إيرلندا الشمالية تشتمل على أناسٍ عاديين.

كان هناك روني فلاناغان وهوغ أرد، وهما قائدا الشرطة اللذان تعاملت معهما، واللذان سمح لهما المركز الذي شغلاه كرئيس لشرطة إيرلندا الشمالية أن يلعبا دوراً بالغ الأهمية. لعبا ذلك الدور ليس بالطريقة السياسية العلنية، لكن بحسّ سياسيّ عميق.

أتذكر كذلك أنني، في هذه المناسبة على الأقل، قمت باختيار الأشخاص المناسبين. قام وزراء الدولة والوزراء الآخرون بمهماتهم خير قيام. كانوا مختلفين جداً، وهم أشخاص مثل: مو مولام، وبيتر مندلسون، وجون ريد، وبول مورفي، وبيت هاين، وهم كلهم كانوا أشخاصاً غير عاديين عن جدارة، لكنهم كانوا موهوبين بالفعل، كما تمكن كل واحد منهم من المشاركة في مساهمة مهمة، بل حاسمة.

لعب المسؤولون، سواء أولئك الذين كانوا في مراكزهم، أو أولئك الذي عُيّنوا فيما بعد، أدواراً مهمة. تطلبت كل خطوة عملية قراراً معقّداً وحساً سياسياً حاداً. لا يمكننا هنا أن نعتبر أن القيادة عند الأطراف السياسية هي ما يهمنا، وذلك لأن الظروف الخارجية لا بد أن تكون ملائمة.

٩. يتعيّن على الظروف الخارجية أن تتضافر في سبيل السلام وليس ضده. سبق لي أن تحدثت عن الظروف التي تغيرت في جنوب إيرلندا، وكيف ساعدت على تكوين بيئة مناسبة للتقدم. إن تغيّراً كهذا هو أمر ضروري تقريباً في النزاعات كافة. يُلاحظ أن من النادر أن تقتصر المشاعر التي تثيرها هذه النزاعات على منطقة النزاع فقط. يمكننا اتخاذ كشمير، وسريلانكا، وكوسوفو كأمثلة، لأننا في هذه الحالات كلها نجد أن اللاعبين الخارجيين قد عثروا على دورٍ يلعبونه فيها، سواء للخير أو للشر.

أما المثال التقليدي لهذا الوضع فهو النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني. شملت تأثيرات هذا النزاع المنطقة بأسرها، حتى العالم. إن اللاعبين الخارجيين، وعلى الخصوص في العالم العربي يلعبون دوراً حيوياً جداً. يلاحظ في هذا الصدد تغير محتمل في مواقفهم تجاه السلام، لأن القضية الفلسطينية استُغلّت طوال سنوات وكثيراً ما أسيئ استخدامها، لكن الدول العربية، مثل إسرائيل، باتت الآن تخشى إيران ونفوذها في المنطقة.

لم تعد الدول العربية راغبةً في استغلال النزاع، وهذا ما فعله ولي العهد (آنذاك) عبد الله في مبادرته التي قدمها العام ٢٠٠٢، بل راغبة في تسويته. قدمت المبادرة فرصةً عظيمةً لإسرائيل. يمكننا القول كذلك إن العالم الذي أنهكه الإرهاب الدولي وتهديداته بات الآن يحتاج إلى حل النزاع. إن الظروف الموضوعية مؤاتية هذه الأيام. هذا هو السبب الذي يجعل من التمسك بإمكانية تحقيق السلام والدفع باتجاهها أمراً في منتهى الصوابية. يتطلب الأمر بعض المثابرة، وهو ما يوصلنا إلى البند التالي.

١٠. لا تستسلم. إن الأمر بسيط لكنه ضروري. يتعيّن على الإنسان أن لا يتوقف عن العمل في سبيل السلام، وأن لا يستسلم أمام العوائق. لا يتعلق الأمر هنا بالتحكم في النزاع، بل برفض تقبّل الهزيمة. تعودنا القول في إيرلندا الشمالية ما يأتي: إن كنت لا تستطيع أن تحلها فيمكنك أن تديرها إلى أن تتمكن من حلّها، لكن إياك أن تبتعد وتتركها من دون اهتمام. لا يمكن لعملية السلام أن تقف من دون حراك أبداً لأنها إما أن تتراجع وإما أن تتقدم. يتعيّن على المرء أن يؤمن أن الحل ممكن حتى

ولو كان الآخرون لا يعتقدون ذلك، وحتى عندما يقف المنطق ضدك، وحتى لو كان المعنيون مباشرة بذلك الصراع – أي الأفرقاء أنفسهم – قد تخلوا عن الأمل. تذكر هذا: من الأفضل لك أن تحاول وتفشل من أن لا تحاول أبداً.

عرضت أعلاه مبادئي العشرة، التي طبقناها تقريباً في مسألة إيرلندا الشمالية. بدت القضية ميؤوساً منها مراراً كثيرة، لكن كانت تحدث، ولحسن الحظ، أمور تضيئ لنا الأمل.

جاء اليوم التاريخي في ٨ أيار/مايو من العام ٢٠٠٧، أي بعد مضي تسعة أعوام على اتفاقية الجمعة العظيمة، وذلك حينما توجّهت إلى ستورمونت كي أشهد إعادة العمل بالحكومة التنفيذية لإيرلندا الشمالية. كان إيان بايسلي هو الوزير الأول، بينما كان مارتن ماك غينيس نائبه.

رأيت أشياء في ذلك اليوم كان من الممكن أن تدفع الناس إلى الضحك، ولو برزانة، لو توقعها المرء قبل عشر سنين. اشتملت هذه الأمور على الاجتماع الذي عقدته مع بيرتي، وبيتر هاين، وإيان بايسلي، ومارتن ماك غينيس، والأخيران تبادلا النكات، بينما جلسنا نحن الثلاثة مشدوهين قليلاً ومتسائلين عما إذا كنا في حلم. حصل اللقاء فوق شرفة، وبين أعداء الأمس الألداء الذين راحوا يتبادلون المجاملات، وكأن ما جرى في العقود الماضية لم يجرِ بتاتاً، وها هم الأشخاص الذين أرادوا أن يقتلوا بعضهم بعضاً في الماضي يرغبون الآن في العمل معاً. إنه أمرٌ رائع، ومؤثر، ومُرضٍ.

اعترضنا احتجاج آخر عند مداخل ستورمونت. كانت الاحتجاجات تنتظرنا كلما دخلنا إيرلندا الشمالية. وهي من جميع الأنواع: الكبيرة، والصغيرة، والهادئة، والعنيفة. كان بعضها يأتي من جهة الاتحاديين، وبعضها الآخر من جانب الجمهوريين. أظهرت هذه الاحتجاجات كلها مدى اختلاف السياسة في إيرلندا الشمالية عن أي مكانٍ آخر. واجهنا في ذلك اليوم احتجاجاً لا يتعلق بإيرلندا الشمالية، بل بالعراق. شعرت عندما رأيت هذا التجمع الاحتجاجي بأننا عدنا إلى بقية العالم.

الفصل السابع

«إننا نحكم بالنثر»

قال حاكم نيويورك ماريو كومو ذات مرة: «يخوض المرء حملته الانتخابية بالشِعْر، لكنه يحكم بالنثر». انتابني في صيف العام ١٩٩٨، أي بعد أن مرّت عليّ فترة تزيد على العام قليلاً في الحكم، شعور مقلق.

وصلت إلى السلطة وأنا أعتقد أن حزب العمال هو أسوأ أعدائها. تأملت في القرن الذي مضى على تأسيس الحزب، فرأيت حزباً كان المعارض الموالي لجلالة الملكة. كانت الفترات التي أمضاها الحزب في الحكم فترات متقطعة، كما أن نفسية الحزب لم تعد نفسية الحزب الذي يتخذ القرارات، لكن الحزب الذي يعترض.

مررنا مع ذلك بمرحلةٍ مثيرةٍ من التغيّر. تمكّن الحزب من تقبّل أمورٍ لم يكن بالإمكان تصوّرها حتى قبل عقدٍ واحد فقط. كنت أعتقد دائماً أنني إذا دفعت الحزب قُدُماً وجعلته يتقدم بخطى حثيثة ودائمة فسيلتزم قيادته. لم يكن ذلك نتاج ثمانية عشر عاماً قضاها الحزب في المعارضة، بل بسبب كوادره التي آمنت بحزب العمال الجديد وفهمته بحدسها وبعواطفها، وكذلك بفكرها. لكن عدد هؤلاء كان قليلاً وكذلك كان تأثيرهم، وهم الذين كانوا ما زالوا يتلمسون طريقهم كما كنت أنا بطريقة ما.

أما قادة حزب العمال، وعلى الخصوص الجيل الأقدم، لا أعني كله بل معظمه، فكانوا يريدون تحديث حزب العمال انطلاقاً من الطرق التي كانت متبعة في

الأربعينيات من القرن الماضي، لكنهم توقّفوا في الستينيات. كان روي هاترسلي نموذجاً عن هذه المجموعة: إنها تقف بصلابة ضد جناح اليسار [التروتسكيين] في الحزب، وهم الذين وقفوا إلى جانب القطاع العام مع علمهم بأن حزب العمال يحبّ أن يدافع بطريقةٍ عقلانية. يعني ذلك أن عليه الابتعاد عن التطرف والعودة إلى مواقفه الأصلية. كانت هذه هي العقلية التي تبتعد عن التفاهات الضارة التي صاحبت الاضطرابات التي شهدها حزب العمال في الثمانينيات من القرن الماضي، بقي أمامنا مع ذلك طريق طويل قياساً على الطريقة التي تغيّر بها العالم. كان من الضروري الابتعاد عن التطرف، لكن ذلك لم يكن كافياً كذلك.

أما بالنسبة إلى الجيل الأقدم، أي اليمين القديم وكذلك بالنسبة إلى اليسار القديم، فيكفي حزب العمال أنه انتشلنا من ظلمة المعارضة، لكنهم لم يؤمنوا بذلك. اعتقدوا، في واقع الأمر، أن حزب العمال الجديد يفتقر إلى المعتقدات، كما اقتنعوا بما تورده آراء صحافة حزب المحافظين التقليدية القائلة إن الحزب ما هو إلا تركيبة تسويقية وأداة للعلاقات العامة، أي إنه رأس من دون قلب. اقتنع هؤلاء بأن صيغة رابحة قد اكتُشفت وهي كانت صيغةً ذكيةً، لكنها لم تكن صادقة.

أردتُ مراوغةَ الحزب، لذلك تعيّن علي إنشاء تحالف بيني وبين الناس. كان هذا التحالف صلباً وثابتاً بالتأكيد في الفترة ما بين ١٩٩٤ و١٩٩٧، أي في تلك المرحلة المبكرة من عمر الحكومة. لم يكن لدى الحزب سوى خيار ضئيل غير قبول هذا التحالف. كانت أيّ إشارة تدلّ على عدم الانضباط تثير ذكرى السنوات التي أمضاها الحزب في المعارضة. كنا في ذلك الوقت في طريق الصعود، فلماذا نعود إلى الهبوط بحقّ السماء؟ كانت تلك حُجّةً بسيطة، وأولية، ومقبولة تماماً لدى الناخبين، وهي تسمح لنا بإبقاء الحزب ضمن هذا الخط، وكان ذلك يعني أنه يمكنني الاعتماد على الفروع ، علماً أن الشطر الأكبر من الرأي العام كان لا يزال إلى جانبي.

شكّل ذلك مخاطرةً كبيرة. أدركت كذلك أن الفرع سوف ينمو بمرور الوقت في الطول وفي النحافة، أما الجذع فسيتعرض للاهتزاز وسيتعرض لاختبار قوته.

كان أحد عناصر قلقي يتمثّل في أن الجماهير تعمد إلى مساندة الزعيم الذي يتخذ قراراتٍ جريئة عندما يكون الحزب في المعارضة، لأن هذه القرارات تكون من وحي

حزب الزعيم، ويكون الجمهور متفرجاً. أما عندما يكون الحزب في الحكم فالقرارات تكون متخذةً من وحي الناس المشاركين وتكون حياتهم على المحكّ.

سبق لي أن درست تاريخ الحزب بتمعن، واستنتجت أن الحزب إذا أراد الفوز فسيتعيّن عليه الالتفاف حول نفسه، كما يتعيّن على الزعيم أن يكون أكثر من مجرد رئيس الحزب. استنتجت كذلك ضرورة تقبّل الخطر الذي تواجهه الأحزاب التقدمية كافة، وذلك حين يتحول التحالف من تحالف بين رئيس الحزب والناس ليصبح تحالفاً بين الحزب والناس ضد رئيس الحزب.

يُمكن أن يسأل المرء لماذا يُعتبر ذلك خطراً. ما من شيء يمنع الحزب من التخلص من زعيمه ليجد زعيماً جديداً آخر يتوافق أكثر مع ما يريده الناس ويمضي معه لفوزٍ في الانتخابات. إن الخطر عندما يكون الحزب والناس مشتركين في معارضة ضد رئيس الحزب، ويُمكن أن تكون معارضتهما نتيجة أسباب مختلفة. أما بالنسبة إلى الأحزاب التقدمية، فإن الجماهير يُمكن أن تشعر بالإحباط لأسبابٍ متنوعة، وفي حالتنا فإن الأمر تعلّق بالتقدم الذي لم يكن بالسرعة الكافية بالنسبة إلى الخدمات العامة، وبالنسبة إلى كلفة الوقود، والضرائب، والجريمة والهجرة، حتى قضايا يمين الوسط، لكن الحزب التقدمي يُمكن أن يشعر بخيبة الأمل لأنه قد يعتبر أن قيادته غير حازمة بصورة كافية بالمعنى الذي يستلزمه اليسار التقليدي: أي إنفاق القليل وفرض ضرائب قليلة، والتضحية بالمراكز العالية والأدوار المهمة، وعمل الكثير من أجل الطبقة الوسطى، والقليل من أجل الفقراء. يقنع الحزب نفسه، على الرغم من ذلك كله، بأن سخط الجماهير يُثبت صحّة سخطه. لا تكون النتيجة هنا فوزاً في الانتخابات بل كارثة.

أتذكر في مطلع الثمانينيات، وفي سياق محاولاتي الفاشلة العديدة للحصول على ترشيح نفسي لمقعدٍ نيابي، أن أحدهم سألني غن سبب خسارة حزب العمال في انتخابات العام ١٩٧٩. كانت النقطة الأساسية في سؤاله أن حزبنا قد مال كثيراً نحو اليمين، وأننا قمنا بخيانة طبقتنا، وأننا قد نسينا كل شيء عن جذورنا اليسارية، وغير ذلك من أمور. كنت أحاول يائساً السيطرة على نفسي وأنا أدرك أن من الجنون مناقضة هذه الفرضية بحسب المصطلحات الحزبية. أدركت كذلك أن هذه الفرضية تتسم بالجنون بحسب المصطلحات الشائعة بين الناس. تلفظت بكلماتٍ لإصلاح

الموقف لكنها تتسم بالجبن. فتح شخص آخر الموضوع ذاته، وما لبث أن لحقه شخص ثالث. تضايقت كثيراً عندئذ وقلت بحدّة: «إذا كانت الجماهير تعتقد أننا لسنا يساريين ما يكفي، فلماذا يصوّتون للمحافظين بحق السماء. هل هم أغبياء؟ أيعتقدون أن المحافظين بقيادة مارغريت ثاتشر سيكونون أكثر يسارية من حزب العمال بقيادة جيم كالاهان؟ أتريدون أن تقولوا لي بالفعل إن الناس أغبياء إلى هذه الدرجة؟». كانوا يقولون ذلك بالفعل.

شعرت بوجود شيء غير سليم في طريقة حكمنا، وذلك عندما أنهينا أول مراجعة للإنفاق العام في أواسط العام ١٩٩٨، وهي الموازنة التي وضعت حداً للقيود الذاتية التي فُرضت على الإنفاق العام للسنوات الثلاث الأولى بعد العام ١٩٩٧. كانت الصياغة والتحليل الفكري على ما يرام: الاستثمار زائد الإصلاح والمساعدة من دون إ نسبة إلى الرفاه الاجتماعي، ومكافأة الأعمال الجيدة، والتخلص من الأعمال السيئة في مجال التعليم، وتقليص قوائم الانتظار في وزارة الصحة العامة. لكن ما لفت نظري وجود ثغرة بين نوعية الصياغة ونوعية الإصلاحات في ذاتها.

تضمّ قوائمُ الانتظار في وزارة الصحة [الخدمات الصحية الوطنية] ١/٣ مليون شخص ينتظرون دورهم للدخول إما إلى المستشفيات وإما إلى عيادات الأطباء. لم تتوافر في ذلك الوقت المعايير الدنيا المطلوبة لاستشارة الطبيب. يتحول الانتظار بعد ذلك إلى قوائم العيادات الخارجية للأطباء الاختصاصيين، ويُمكن أن يستغرق ذلك أشهراً عديدة. لا يُمكن للمرء أن يضع اسمه على قائمة انتظار دخول المستشفيات إلا بعد وجوده على لائحة العيادات الخارجية، وعادة لا تكون فترة الستة أشهر المطلوبة ستة أشهر على الإطلاق، لأنها يُمكن أن تمتدّ حتى اثني عشر أو ثمانية عشر شهراً، أو حتى أكثر.

كانت وزارة الصحة NHS [أو الخدمات الصحية الوطنية] عظيمةً بل بطولية بالنسبة إلى التعامل مع الحالات الطارئة، أو مع المصابين بأمراضٍ مزمنة، لكنها كانت غير متوازنة كهيئة تقديم خدمات. كانت جيدة عندما تكون جيدة، ومروعة حينما تكون مروعة. كانت موازنتها قليلة بالتأكيد، لكن المال لم يكن مشكلتها الوحيدة، وهكذا لم يكن ضخّ المزيد من المال هو الحل الكامل.

لم يختلف الأمر كثيراً في هذا الوقت. بدأنا بتقليص فئات الأطفال الرضّع. لم يكن ذلك ما سبق أن وعدنا به، لكن هذا ما أعطيناه. عمدنا إلى ضخّ مالٍ إضافي لمصلحة المباني المدرسية. لكن الواقع هو أنه ما زال لدينا ما نسبته ٤٠ بالمئة من الأولاد الذين يبلغون الحادية عشرة من أعمارهم من الذين يتركون المدرسة من دون أن يتمكّنوا من القراءة والكتابة على نحو صحيح. أما الاستراتيجية التي وضعها دافيد بلَنكيت لتحسين مستوى القراءة والكتابة والحساب فبدأت بالترسخ شيئاً فشيئاً، وبدأت بإحداث فرق. كنا نعلم التحدّي الحقيقي الذي ينتظرنا في المدارس الثانوية حيث كانت تتمكن ثلاثون من هذه المدارس فقط من إيصال ما يزيد على ٧٠ بالمئة من طلابها إلى شهادة الثانوية العامة GCSE. كنت أعلم في أعماقي أنني لن أرسل أولادي إلى المدارس الثانوية في داخل المدينة. كانت درجة الانتظام متفاوتةً، وأحياناً مريعة. كان الأساتذة محبطين عادة في هذه المدارس، ولم يكن ذلك أمراً مستغرباً. افتقدت المدارس الموجودة داخل المدينة، في العادة، الرياضة المنظمة، وأحياناً لم يكن هناك سوى القليل منها.

أما في مجال المساعدات الاجتماعية فحاولنا انتشال الناس من مفهوم الصدقات. برز لدينا مفهوم جديد للاستقرار في الاقتصاد الشامل على المدى الطويل، وذلك مع وجود اقتصاد البلاد في وضع مقبول، وبعد استقلال مصرف إنكلترا. هبطت معدلات البطالة بطبيعة الحال. اعتَبرنا أن ذلك علامة على نجاح سياستنا المتشددة التي اعتمدناها حيال الخدمات الاجتماعية. شعرت مجدّداً بأن بلاغةَ خطابنا متقدمة جداً على الإجراءات الحقيقية التي نتخذها على الأرض.

أقلقتني مسألةٌ أخرى في تلك الأيام، وهي حالة الهدوء النسبي الذي كان سائداً في صيف العام ١٩٩٨، وهو الزمن الذي كنت أعود إليه بين وقتٍ وآخر بقلق ونفاد صبر. تعلقت المسألة بنوعية تحليلنا الاجتماعي. أمكنني أن أرى أن المجتمع يتشقّق إلى عناصر تتحدى نظرية يسار الوسط التقليدية، وكان من المؤكد وجود طبقة وسطى، كانت آخذةً بالتنامي. اشتملت هذه الطبقة على المحامين، ومدراء المصارف، والمسؤولين التنفيذيين في الإدارات الوسطى في الشركات. اجتذبت هذه الطبقة كذلك العمال ذوي المهارات العالية، والتقنيين، ومحلّلي برامج الكمبيوتر الجدد، وموظفي الصناعات الإبداعية في المراكز الوسطى.

بدا الحديث عن «طبقة عاملة» حديثاً غريباً. كان صحيحاً، لكنه غير مفهوم. اشتملت العبارة على أولئك الذين يتقاضون الحدّ الأدنى للأجور، وعلى العمال العاديين أو الموقّتين، وعلى العاملين في حقل التنظيف الذين يتقاضون أجراً منخفضاً، وعلى العمال اليدويين. استُخدمت هذه العبارة كذلك لوصف أولئك الذين هم في أسفل الهرم، أو «الطبقة غير العاملة»، إذا أردت، وهي العبارة التي قمنا بصوغها للحكومة، و«المنبوذين اجتماعياً».

بدأت مع الوقت بإدراك أن المرء لا يمكنه، ولا يجب عليه، أن يضع هاتين الفئتين معاً. أما اللفظة التي يستخدمها جناحُ اليمين «المسحوقون» فكانت لفظة بشعة لكنها صحيحة. لا يعاني هؤلاء الناس في أسفل الهرم حياة عمل بائسة، بل حياةً بائسة، ونقطة على السطر. يتسبب هؤلاء بالمشاكل في مدارسهم، هذا إذا التحقوا بالمدارس، وعادة ما يكون أهالي هؤلاء منفصلين، أو يلجأون إلى العنف، أو غير أكفاء.

تظهر نتيجة هذا الوضع في مجالات الجريمة والسلوك الشاذ. سبق لي أن قلت إنني توليت السلطة في وقت قريب من وقوع جريمة قتل جايمس بلغر في العام ١٩٩٣. توصّلت عند ذلك إلى استنتاج سهل، لكنه خاطئ، يقول إن مجتمعنا قد تفتت. لم يحدث ذلك في مجتمعنا برمّته، بل جزئياً فقط. توصّلت بعد ذلك إلى الاستنتاج الصحيح، لكن ذلك حدث فقط في أواخر فترة تولي مسؤوليتي: فبدلاً من التركيز على السياسة الاجتماعية العامة بشأن هذه الطبقة من الناس بات الأمر يحتاج إلى إجراءات محدّدة وهادفة. تمكّنت في صيف العام ١٩٩٨ من فهم عوارض هذا التفتت بكلّ وضوح: في المدارس، وفي الشوارع، وفي أرقام إحصائيات القانون والنظام.

لم يكن ذلك كل ما في الأمر. أتينا إلى السلطة مع نظرة تقليدية بعض الشيء، لكنها مرضية عن الهجرة واللجوء السياسي. تأثر وزير الداخلية جاك سترو كثيراً بمنطقته بلاك بيرن، التي يقطنها عدد كبير من المسلمين، وهي المنطقة التي كانت فيها المشاكل حية وحقيقية. كان جاك حساساً، في المقابل، وغير متساهلٍ أبداً بالنسبة إلى مخالفي القانون. لم نكن مستعدّين تماماً لذلك التضخم الكبير في عدد طالبي اللجوء السياسي ما بين العامين ١٩٩٨ و١٩٩٩. تزايدت أعداد الطلبات في السنوات الثلاث الأولى من تولينا الحكم حتى ثلاثة، أو أربعة، أضعاف. كنت أعتبر أننا نمتلك هيكليةً ضيقةً جداً، لكننا أصدرنا عدداً قليلاً من إشارات الرضا، الأمر

الذي تضافر مع اقتصاد نام، ومع لغة إنكليزية منتشرة، ليتسبب كل ذلك بتدفق سيلٍ من الطلبات. يُضاف إلىً ذلك أعداد المهاجرين المتزايد في أنحاء العالم كافة. لم نكن الدولة الوحيدة التي تعاني هذه المشكلة، لكننا كنا الدولة الوحيدة تقريباً التي تمتلك مجموعةً من الإحصاءات التي كانت دقيقة تقريباً، وهكذا اكتسبنا، بسرعة، لقب عاصمة اللجوء في أوروبا. قفز عدد الطلبات التي كنا ندرسها سنوياً من ٣٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠. كان تراكم الطلبات مخيفاً أكثر فأكثر، لأن النظام كان عاجزاً تماماً عن النظر في الطلبات كلها.

ورثت بريطانيا، مثل غيرها من الدول الأوروبية النظام الذي جاء بعد الحرب، وبعد الهولوكوست، والتعاطف مع اللجوء. تسبّبت القصص المؤلمة عن اللاجئين الهاربين من هتلر والنازيين، والذين رُفضوا بنوعٍ محق من الاشمئزاز. كان يُفترض أن الشخص الذي طلب اللجوء هو شخص مطاردٌ ويجب أن يُسمح له بالدخول، لا أن يُطرد خارجاً. كانت تلك مشاعر مفهومة تماماً بعد هذه الفترة من الرعب.

كانت تلك نظرة غير واقعية تماماً، ويا للأسف، في أواخر القرن العشرين. كانت الفرضية خاطئةً بوضوح. لم تكن معظم طلبات اللجوء سليمة، لكن رفضها كان مستحيلاً على الرغم من ذلك. إن تضافر المحاكم بحدسها الواسع، والمعاهدة الأوروبية بشأن حقوق الإنسان بموقفها المطلق تجاه إمكانية إعادة أي شخص إلى مجتمع غير آمن، بالإضافة إلى اتفاقية الأمم المتحدة الخاصة باللاجئين بسياقها الذي يُتركز على ألمانيا في الثلاثينيات من القرن الماضي، كل ذلك كان يعني عملياً ما إن يدخل أي شخص بريطانيا ويطلب اللجوء حتى يصبح من المستحيل إرجاعه.

اعتبر الكثيرون أن محاولة إرجاع هؤلاء هي من قبيل المستحيل. تسببت أولى محاولات تضييق القانون التي جرت في العام ١٩٩٨ بردة فعلٍ هستيرية، وتعيّن علينا إيجاد تسويات لتطبيق التعديلات.

لكنّ الواقع كان بالمرصاد لأن نظام اللجوء كان هشّاً، وعاجزاً، وطافياً فوق بحرٍ هائج، ولذلك فهو يتطلب عملاً أكثر صلابة. إنّ آليةَ الخدمة المدنية [الوظائف الحكومية] التي كانت مسؤولةً عن إصلاح النظام لم تكن ميالة للإجراءات الحاسمة التي يحتاج إليها النظام.

وجدنا ثغرةً هنا، وهي التي تمركزت بين ما كنا نعتبره مشكلة الخدمة المدنية، وبين المشكلة التي تبيّن لنا وجودها. تتضمّن معتقداتُ حزب العمال أن الخدمة الاجتماعية تتألف من محافظين سريين، وهم مثل الأفاعي الزاحفة بين عشب الحكم، والقابعة بانتظار مسؤول ساذج من حزب العمال، تُشنق سياساته الحاسمة قبل تنفيذها. تبقى الخدمة الاجتماعية وسط هذا الوهم كله، وهو وهمٌ بالفعل، مجموعة من عقائديي النظام [الدولة]، وما النظام هنا إلا حزب المحافظين، حزب الحكم الحقيقي، ومخزن الكسالى الآتين من المستعمرات البريطانية القديمة، والأرستقراطيون، وصائدو الثعالب. يستعدّ كبار المسؤولين في الخدمة المدنية دوماً للهجوم، وللتعطيل، وللتحرك ضمن هذا السيناريو ضد التحرك التقدمي الذي تريد أخذه حكومة حزب العمال ودفع الخطط الشرّيرة لجناح اليمين.

يا الله، لم تقتصر الحقيقة على أنهم كانوا مستعدين للهجوم، والعرقلة، أو التحرك. كانت مشكلتهم، كما سبق لي أن أشرت في البداية، هي الجمود. كانت لديهم نزعة للاستسلام، سواء للمصالح الخاصة، أو للأمر الواقع، أو لأكثر الطرق أمناً للقيام بالأمور، وهي التي كانت كلها تعني شيئاً واحداً: عدم القيام بأي شيء.

لم يكونوا، وعلى عكس ما أشيع، عبيداً للجناح اليميني في النظام، بل كانوا، وإلى حدّ كبير، عبيداً للجناح اليساري في النظام. أقول، لمزيد من الدقة، كانوا عبيداً لما مضى من زمن، وطريقة، ونظام كان نتاجاً آخر لمئة سنة من التاريخ.

كان السير همفري، الشخصية التي تظهر في المسلسل التلفزيوني نعم، يا رئيس الوزراء رمزاً ساخراً وشخصيةً خياليةً بالطبع، لكنه كان أقرب الشخصيات إلى الواقع، وذلك لأنه كان يؤمن بالإدارة، وبإبقاء الأمور قائمةً كما هي، وهو لا يفعل ذلك بسبب الأهمية بل بسبب الأمر الواقع الذي يعرف جيداً أنه متمكن من فهمه، والواقع الذي يغامر إذا ابتعد عنه، أما المخاطرة فيجب تجنّبها على الدوام.

تمتلك الخدمةُ المدنيةُ اليوم، مثلما كانت في الماضي نقاط قوة عظيمة، وهي كانت، وما زالت، غير منحازة. أقول كذلك إنها تدار بطريقة جيدة، وهي تمثل آلية رهيبة. أما في أوقات الأزمات فهي ممتازة، وموظفوها أذكياء، وهم يعملون بجدّ ومخلصون للخدمة العامة. كانت تعمل بطريقةٍ قديمةٍ مع أنها كانت تواجه تحدّيات

كبيرة، لكنها تمتلك أفكاراً بسيطة. كانت تتوسّع بالقطارة بينما تتطلب الأنظمة قفزات نوعية.

لم تعتبر الإدارة أن حزب العمال الجديد كان مغرقاً في اليسارية، بل على العكس من ذلك اعتقدت أننا يمينيون في بعض الأحيان، لكني أظن أنها ظنت أننا نريد تهديم القديم، وأننا نفعل ذلك باستهتار، بينما الواقع هو أنها حارسة المراكز العالية، وحارسة الهيكل والحكمة الموروثة.

تبنت الإدارة المدنية، بالإضافة إلى السلطة القضائية، فكرة أن حزب العمال الجديد، بالإضافة إلى انشغالي بمعالجة السلوك الإجرامي، والتفكك العائلي، واللجوء، وغير ذلك من أمور، كان انشغالاً تولّد من رغبتنا الشديدة في التوصّل إلى المستويات السكانية المناسبة التي تسمح لنا بالوصول إلى السلطة والاحتفاظ بها. لم ينظروا إلى الأمر على أساس أنه وليد رغبة صادقة في تحسين مستوى الحياة في عالم لم تعد تفلح فيه الطرق القديمة.

وهكذا بدأت في العام ١٩٩٨ العمل مع السير ريتشارد ويلسون، الأمين العام الجديد للحكومة، على المراحل الأولى لإصلاح نظام الخدمة المدنية. أقول، للإنصاف، إنه عمل عليها بتمعن. لكني أريد أن أقول، في نوع من أنواع النقد الذاتي لي وليس له، أو للخدمة المدنية، إن هذه الإصلاحات كانت مثل كثير من الإصلاحات الأخرى، أي إنها تحدثت اللغة المناسبة، لكنها نأت بنفسها عن الإجراءات الحاسمة الفعلية.

كان هذا هو الذي يقف وراء قلقي. بدأت أقلق لأن مواجهتي للحزب بالحاجة إلى التغيير هي الجزء السهل، مما يعني أن مواجهة المصالح غير السياسية، والرأي العام، هي الجزء الصعب، لكنه الجزء الضروريّ في العملية.

كنت أتعلم بسرعة، وكان ما أتعلمه مدهشاً، لكنه كان رهيباً كذلك. كانت المشاكل عميقة، ومنهجية. تناولت خلال إجازة العام ١٩٩٨، البيان الذي أصدرته الحكومة في العام ١٩٩٧ وأعدت قراءة وعوده المتعلقة بالخدمات الاجتماعية والجريمة. ضحكت كثيراً لتواضع هذه الوعود. لم يكن التحدي هو تنفيذ هذه الوعود، بل كان: إذاً ماذا؟ وماذا بشأن زيادة أعداد الذين وضعت أسماؤهم على قوائم انتظار وزارة

الصحة التي تناهز ١٠٠،٠٠٠، أي لم يحدث أي نقصٍ في الأعداد، لكن النقص كان في أعداد الذين تلقوا العلاج Infant class sizes to be under thirty، لكن ليس في أحجام الفئات كلها، بل عند الذين هم في الخامسة، أو السادسة، أو السابعة من العمر. شملت الإصلاحات تقليص فترة محاكمة منتهكي القانون من الأحداث إلى النصف، ولا أعني المنتهكين جميعاً، بل الأحداث، وجاء التقليص من المستويات التاريخية العالية. هل هذا هو حزب العمال الجديد، وبريطانيا الجديدة؟ كان الأمر مضحكاً.

كان يجب الخوض في العمق، لأن البدء بتغيير الأنظمة كان مهمة سياسية وعملية مختلفة تماماً. ربما كان الناس بالكاد يلاحظون تعديل النظام، وعند تغيير النظام تبرز المصالح من كل حدبٍ وصوب وهكذا يستمرّ النظام.

إنني أفكر وأنا أكتب هذه الكلمات، وأشعر بنوع من القلق بوجود شيء مفقود في طيات الأحاديث والاجتماعات، وبأن بُعداً ما قد ومض قليلاً على الرغم من فهمه، لكنه بعدٌ مهمّ وحاسم. أعرفُ الآن، بطبيعة الحال، ما كان وجه الخطأ فيها كلها، لكن معرفتي هذه كانت من خلال سحابة.

ظهر هذا الأمر في الخطاب الذي ألقيته في مؤتمر في العام ١٩٩٨. سبق لنا أن عقدنا جلسةً حكوميةً في شيكرز قبل أسبوعين. قدّم لنا فيليب غولد العرض المعتاد، وتحدث عن العجز التام لحزب المحافظين. بدأ القلق يساورنا في تلك الأوقات بشأن تحقيق وعودنا. أتذكر أنني تحدثت إليهم عن شخص كتب إليّ في شهر أيار/ مايو من العام ١٩٩٨ رسالة شكوى: «مضى عليكم الآن عدة سنوات في السلطة...» بدا نفاد الصبر جلياً في مقدمة تلك الرسالة، لكن النقطة المهمة هي أن هذا الشعور قد امتد إليّ كذلك.

جلت بنظري في أنحاء الغرفة بينما كان فيليب يُسهب في الحديث عن المحافظين. كنا في الصالة الكبرى الموجودة في الطابق العلوي، وهي التي صُمّمت لتكون غرفة انتظار، وجدرانها مكسوة بالخشب الهولندي الذي يعود إلى القرن السابع عشر، كما أنها مزوّدة بطاولة طعام رائعة وكبيرة مصنوعة من خشب الماهوغوني، وذلك على الرغم من أن الغرفة لم تستخدم قط لتناول الطعام. توجد فوق مقعد رئيس الوزراء

الكبير لوحة تمثل والبول، وهي المعلقة في الموقع المماثل في قاعة مجلس الوزراء في داوننغ ستريت. كان والبول أول رئيس للوزراء، وهو الذي بقي في منصبه لأطول فترة (أقل بقليل من واحد وعشرين عاماً)، شغل الرجل منصبه بناء على رغبة من التاج (الملك)، وكثيراً ما تعرّض للنقد والنفور، لكنه كان فعالاً جدّاً في منصبه. ذكّرني شبح البسمة في رسمه بجون سميث. كان الرجل عطوفاً إلا في حال تعرضه للخداع، لأنه يصبح خطراً في تلك الحال.

فكّرت في تاريخ تلك الغرفة، وفكّرت في تشامبرلين الذي أحب الاعتناء شخصياً بحديقة الأزهار في شيكرز، والذي ما زالت مذكّراته الشخصية في أمكنتها على الرفوف. تعرّض تشامبرلين لنقد التاريخ، وهكذا أصبحت المقارنة بتشامبرلين أسوأ إهانة في السياسة البريطانية. ماذا فعل هذا الرجل؟ في عالم ما زال يعاني كارثةً كبرى [الحرب العالمية الأولى]، وحرباً مات فيها الملايين بمن فيهم عدد من أقربائه وأصدقائه المقرّبين. حزن الرجل، وسعى وسط حزنه كي يمنع قيام حرب أخرى. لم يكن ذلك طموحاً سيئاً، طموحاً نبيلاً في الواقع.

تناولت ذات يوم، وكنت أجول بين المكتبات [خزائن الكتب] أحد دفاتر مذكّراته عن أحد الرفوف، وبدأت بقراءة ما كتبه عن أحد أشهر اجتماعاته التي عقدها مع هتلر قرب ميونيخ، وداخل منزل في برشتسغادن التي تقع في أعالي جبال بافاريا. وصف تشامبرلين كيف أن هتلر اصطحبه إلى أعلى الشاليه، وذلك بعد أن رحّب به. كانت هناك غرفة خالية من كل شيء ما عدا ثلاثة مقاعد خشبية بسيطة: واحد لكل منهما وثالث للمترجم. روى تشامبرلين كيف أن هتلر تنقل بحديثه ما بين المنطق – الشكوى من معاهدة فرساي ومظالمها – والصخب الغاضب الذي وصل إلى حدّ الصراخ بشأن التشيكيين، والبولنديين، واليهود، وأعداء ألمانيا. خرج تشامبرلين مع اقتناع تام أنه اجتمع مع رجلٍ مجنون، يمتلك قدرة حقيقية على فعل الشر. هذا ما أدهشني. تعلّمنا من الكتب أنّ تشامبرلين وقع ضحية خدعة، أو أنه رجل أحمق وقع ضحية سحر هتلر. لكن ذلك لم يحصل، لأنه كان واعياً تماماً لشرور ذلك الرجل.

حاولت أن أتخيّل أنني هو، وأن أفكّر مثله. كان يعرف أن الرجل شرّير، لكنه لم يتمكّن من تقدير المدى الذي يمكن أن تصل إليه نزعةُ الشرّ عند ذلك الرجل. شعرت بحافزٍ غامض يدفعني إلى التفكير في مدى الضرر الذي يُمكن أن يُنزله. يُمكن

للمرء، بدلاً من محاولة إثارته، أن يحتويه. ستعود ألمانيا إلى المنطق، وسيمضي الزمان، وهذا ما سيفعله، إذا حالفنا الحظ، السيد هتلر.

لا يعود اجتماع ميونيخ، إذا نظرنا إليه بهذه الطريقة، نتيجة قائد تعرّض للخداع، بل نتيجة قائد كان يبحث عن خطوة تكتيكية كي يؤجل، أو يُرجع الزمان إلى الوراء، على أمل أن تتغيّر الظروف. كان ذلك الاجتماع، وفوق كل شيء، نتيجة قائد ذي رغبة عظيمة وعارمة في تجنّب إراقة الدماء، والاضطرار إلى تحمل المعاناة التي تجلبها الحرب.

ربما كان الارتياح بعد اجتماع ميونيخ عظيماً جداً، سمح الرجل لخطوته هذه، بكل فخر، أن تبدو استراتيجية وليست تكتيكية. كان ذلك أمراً سهلاً. تجمعت الحشود على الطرقات للترحيب بتشامبرلين كبطل في طريقه من المطار بعد توقيعه اتفاقية ميونيخ، وهي الاتفاقية المشؤومة التي لوثت مكانه في التاريخ، مع أنه لم يدرك ذلك إلا قليلاً. وصل تلك الليلة إلى داوننغ ستريت، وفي حقبة ما قبل وصول البوابات الأمنية بوقتٍ طويل، وكان الناس يتمكنون من الدخول والخروج كما يشاؤون، احتشد الناس خارج نافذة ١٠ داوننغ ستريت، وراحوا يهتفون باسمه، ويصفّقون له، إلى أن اضطرّ للخروج في الساعات الباكرة من الصباح كي يتحدث إليهم، ويطلب إليهم التفرق.

كان تشامبرلين رجلاً شريفاً ذا دوافع طيبة. إذاً ماذا كانت المشكلة؟ لم يكن الخطأ في تحديد المسألة الأساسية. هنا تكمن صعوبة القيادة: يتعيّن عليك أولاً أن تتمكن من تحديد المسألة الأساسية. يبدو ذلك أمراً غير معقول، لكنه واضح بالتأكيد، لكن إذا حلّل المرء الوضع قليلاً فلا يبدو كذلك.

ربما يعتقد المرء أن المشكلة هي على هذا النحو: أيقدر أحد على احتواء هتلر؟ هذا هو ما اعتقده تشامبرلين بعد أن فكّر في الأمر بعقلانية، وتوصّل إلى نتيجة أنه يستطيع ذلك. كان يجب أن يكون تشامبرلين على حق. سبق لهتلر أن ضمّ النمسا وتشيكوسلوفاكيا. كان الرجل أعلى سلطة في ألمانيا. لماذا لم يقنع بهذه السلطة؟ كم كان من الحمق من جانبه أن يقطع الخطّ الأحمر كي يجعل الحرب أمراً لا مفرّ منه؟

لم تكن تلك هي المسألة الأساسية، لأنها كانت على النحو الآتي: هل تشكل الفاشية قوةً فائقة جداً ومتجذّرة جداً إلى حد وجوب اقتلاعها وتدميرها؟ إذا عرضنا المعطيات على هذا النحو، تصبح المواجهة حتميةً بالفعل. كانت المسألة المهمة هي متى وكيف.

يمكننا القول، بكلمات أخرى، إن تشامبرلين اختار مساراً ضيقاً ووجهة نظرٍ مجتزأة: كان هتلر زعيماً، وألمانيا دولة، والعام ١٩٣٨ لحظة في هذا الزمن. أيمكن احتواؤه؟

كان هتلر، في واقع الأمر، نتاج وصاحب عقيدة فرضت سيطرتها على دولٍ عديدة. بلغت الفاشية في العام ١٩٣٨ ذروتها وتحولت إلى قوة لا تعتزم التحرك بحسب قوانين المنطق التي يفكر فيها تشامبرلين، بل بحسب غرائز العقيدة. أساء الرجل فهم المسألة وهكذا استجاب لها بطريقةٍ خاطئة.

ألم يكن الأمر سهلاً بحقّ السماء. تمكّن تشرشل، في المقابل، من تحديد المسألة الصحيحة واستجاب لها بطريقة صحيحة ومناسبة. كان وضع تشرشل على النحو الآتي: الرجل مكروه من جهاتٍ عديدة، وكان غير موثوقٍ به بحيث أن الملك لم يرغب في ضمّه إلى حكومة بالدوين، كما كان متّهماً بارتكاب أخطاء عديدة في الدردنيل خلال الحرب العالمية الأولى، وفي مسألة سياسة قاعدة الذهب في العشرينيات من القرن الماضي، وكاد أن لا يُعيَّن رئيساً للوزراء في العام ١٩٤٠، ولم يعيّن رئيساً للوزراء إلا عندما رفض هاليفاكس المنصب.

جلس تشرشل هنا في شيكرز إلى الطاولة ذاتها مراراً كي يذيع خطاباته. أحب شيكرز، وطرد الطاهي لأنه لم يحضّر الحساء بالطريقة الصحيحة، كما حوّل لونغ غاليري إلى قاعة سينما، وكان متعوداً أن يبقى في سريره حتى وقت الظهيرة وهو يملي أوامره على مساعده. كان يبدأ بتناول عشائه عند نحو العاشرة مساءً، قبل أن تأتي كميات كبيرة من الشمبانيا والبراندي ويُنهي عمله عند الساعة الثانية فجراً. أعتقد أنه أحبّ أيام إجازاته!

ها أنا هنا في هذا المكان أتطلع إلى زملائي الجالسين حول هذه الطاولة الشهيرة الطافحة بالذكريات، وهي التي تختزن كلمات واجتماعات كثيرة. لم أفكر في الحرب

حينئذ، لكنني فكرت في الانزعاج الذي شعرت به وأنا أتساءل عما إذا كنت أطرح الأسئلة الأساسية الصحيحة. أعرف أنه يتعيّن على الحزب أن يُقاد بقوة، وأن يرتكز في الوسط بكل صلابة. لم أركّز عند بداية حديثي على الاستطلاعات، أو على المحافظين، لكن تركز حديثي برمّته تقريباً على الحاجة الملحة إلى التحديث، وعلى الخصوص على عجزنا عن تخصيص أموال أكثر للخدمات العامة.

كان سببُ القلق الذي شعرت به على النحو الآتي: ربما لا يكون فشل الحزب في تبني الحداثة هو المشكلة الرئيسة، أو على الأقل ليس المشكلة الوحيدة. وربما لم تقبله البلاد بالفعل. لماذا لا أتوجّه إلى الجماهير بدلاً من التوجّه إلى الحزب، أي إلى حلفائي، الجذع القوي الذي يحمل الغصن الذي أقف عليه؟ لم أكن أنوي قط تأجيل هذه الفكرة.

كنا نركب موجةً عاليةً، كما أن البلاد، وعلى الرغم من نفاد صبرها، أبقت على دعمها لنا. لم يظهر المحافظون في أي مكان على الخريطة، وكنا متفوقين سياسياً. لماذا المخاطرة بذلك كله؟ إذاً، أجل، يجب أن نمضي في عملية الإصلاح، لكن ليس إلى عمق، أو مدى، يكتسح الناس، أو يشتتهم، أو يُفقدهم توازنهم. كنا ما زلنا نتعلم في واقع الأمر. نشرنا في شهر آذار/مارس من العام ١٩٩٨ الورقة الخضراء لإصلاح الخدمات الاجتماعية، وبدأنا بفرض الضرائب على القروض، كما أطلقنا برنامج البداية الأكيدة Sure Start للأطفال، وأدخلنا مشروع الحدّ الأدنى، واستراتيجية معرفة القراءة والكتابة والحساب، وكذلك مناطق التحرك الثقافي في داخل المدينة. لاحت في الأفق كذلك عودةُ الحياة إلى برامج الخدمات الصحية، بالإضافة إلى أول تشريع للسلوك الإجرامي. كان هناك تحرك كبير من جانبنا، ورأينا تأثيراً واضحاً لهذا التحرك.

شعرتُ بعدم القلق مجدّداً إزاء كل قضية من هذه القضايا. حصلنا الآن على شذرات سياسة إصلاحية محترمة تتجاوز الالتزامات المحدّدة جداً التي قدّمناها في بيان العام ١٩٩٧، لكن هذا ما كانت عليه بالفعل، مجرد شذرات بالفعل. كانت ساعات تحسين معرفة القراءة والكتابة والحساب مجرد خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى المدارس الابتدائية [التعليم الأساسي] ، لكن ماذا بشأن المعارف العامة

comprehensiveness المتراجعة، وعلى الخصوص في المدن، وهي التي كانت كعب أخيل [نقطة الضعف] في نظام المدارس الحكومية؟ وماذا بشأن سلطات التعليم المحلي العاجزة؟ وكذلك مهنة التعليم؟ والقروض الضريبية، والإجراءات المختلفة الواردة في الورقة الخضراء لإصلاح نظام التقديمات الاجتماعية، بما في ذلك برنامج تقاعد أصحاب الحصص الذي يأتي بالإضافة إلى نظام تقاعد الدولة المطبّق حالياً، وهو البرنامج الذي سيفيد الموظفين مقابل كلفةٍ خفيفة على أرباب العمل. وماذا بشأن حوافز الخدمات – مقابل العمل، ومناطق التوظيف الجديدة التي تتيح الحصول على مساعدة إضافية للعاطلين عن العمل، وكذلك الهيئة المشتركة لخدمات التوظيف ووكالة المساعدات. كانت هذه الأمور كلها جيدة جداً، لكن ماذا بشأن ١/٧ مليون نسمة المسجلين على لوائح العاجزين، من المتقاعدين عن العمل لمدى الحياة من دون أن يحصلوا إلا على مبلغ ضئيل يمكّنهم من التفتيش عن وظائف جديدة؟ تحدثنا عن التقليص المثير في أعداد العاطلين عن العمل، لكن هذا التقليص أخفى الزيادة الهائلة في أعداد المسجلين في لوائح العاجزين عن العمل، وهي الأعداد التي تصاعدت أيام حكم المحافظين واستمرت بالتزايد أيام حكومتنا. تحدثنا كذلك عن الورقة الخضراء المقترحة التي تحاول إدخال تغييرات في هذا المجال الهام.

كان التوجيه المتعلق بالخدمات الصحية مفهوماً برسم المستقبل، وكذلك الاستراتيجيات المحددة لمواجهة السرطان والحالات المزمنة الأخرى، بالإضافة إلى توظيف المزيد من الأطباء والممرضات، الأمر الذي يحدث فروقاً كبيرة في مجال الخدمات الصحية، لكنها كلها كانت حلولاً جزئية لمشاكل مزمنة ومنتشرة، وهي المتمثلة في أرقام لوائح الانتظار المتصاعدة، وأوقات الانتظار الطويلة، والإجراءات المطبقة التي أصبحت قديمة، والخيارات القليلة المتاحة أمام المرضى داخل نظام الخدمات الصحية. كان وضع الخدمات الصحية سيئاً إلى درجة أن كابوس «الضغوط الشتوية» السنوي دفعنا إلى إمساك أنفاسنا على أمل أن لا ينهار نظام الخدمات الصحية كلياً خلال الأشهر القليلة الأولى بعد العام ١٩٩٧. بدا كذلك أن النظام القضائي الجنائي مستعصياً على أي إصلاح يتعدى تعزيز حقوق مخالفي القوانين، بالإضافة إلى الإجراءات البيروقراطية التي تُثقل الشرطة والمحاكم.

أردنا ردمَ الثغرة الموجودة بين الإصلاح والتطلعات، لذلك أطلقنا بالإضافة إلى هذه الإصلاحات الجزئية حُزمةً من الأهداف المتعلقة بالأداء، وذلك من أجل تخفيض أوقات انتظار دخول المستشفيات إلى أدنى حدّ ممكن، ورفع معدلات معرفة القراءة والكتابة والحساب في المدارس الابتدائية، وفي شهادة الثانوية العامة. أدخلنا كذلك وكالات وهيئات قومية جديدة تهدف إلى دفع هذه الإصلاحات قدماً، مثل هيكليات التوظيف القومية، والمعهد القومي للتفوق السريري في الخدمات الصحية، والاستراتيجيات القومية لمعرفة القراءة والكتابة والحساب، والكلية القومية الجديدة لإدارة [قيادة] المدارس مع مؤهّلات القيادة الإجبارية بالنسبة إلى كبار الأساتذة، وذلك من أجل رفع مستوى قطاع التعليم. كانت هذه الخطوات ضروريةً من أجل تحسين المحاسبة في حال زيادة التمويل، ومن أجل حثّ الإدارات ووكالاتها التابعة لها على بذل جهود أكبر. كان علينا المضي أكثر كي ننشر، كما سأفصل لاحقاً، «خطة الخدمات الصحية» الكاملة في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٠، التي تتضمن مرونة أكبر بالنسبة إلى التوظيف، ولامركزية أكبر، وكذلك تقليص أوقات الانتظار لكونها من الأولويات الملحة. كان من المفترض تحقيق هذه الأهداف إلى جانب إحداث التغيير المهم في طرق الإنفاق المعتمدة في الخدمات الصحية، وتغيير أوضاع الخدمات الصحية التي ستدخل حيّز التنفيذ بفضل نشرة الإنفاق العام الجديدة.

لكننا دفعنا حصان التغيير بقوة أكبر وحصلنا على تحسيناتٍ جزئية فقط، لكن اتضح لنا بمرور الوقت أن هذا هو كل ما نستطيع عمله لدفع التحسينات من نقطة المركز حتى الأهداف والإصلاحات الجزئية التي تبدأ من القمة إلى القاعدة، مع زيادة التمويل. زاد اقتناعي مع بمرور الزمن بأن الأنظمة المركزية في ذاتها، والحدّ من قدرة المدراء المباشرين، وإنكار حق المستفيد في الاختيار المرافق لهذه الأنظمة، هي كلّها جزء أساسي من المشكلة. تساءلت ـ كما تساءلت بعض الوجوه الجديدة والراديكالية في فريق عملي المتعلق بوضع السياسات، على الرغم من أن ذلك كان لا يزال بدعةً في الحزب، وكذلك بين معظم وزرائي – عما إذا كنا على حق في إلغاء التعاقد الجماعي مع الأطباء في مجال الخدمات الصحية، وكذلك في المدارس التي تعتمد موازناتها على المنح، وذلك بدلاً من تكييف مفاهيم الإدارة المحلية هذه من

أجل نشر مفهوم الإدارة اللامركزية بين أنظمة الصحة والتعليم التابعة للدولة، لكن مع استبعاد ظاهرة اللاإنصاف الكامنة في الإصلاحات التي أدخلها المحافظون، وورثناها منهم.

أجريتُ الأحاديث مع مقدّمي الخدمات من المتطوعين ومن القطاع الخاص الذين كانوا على استعداد تام للعمل في مجال تقديم الخدمات الاجتماعية لكنهم يُمنعون من ذلك. شعرتُ عندئذ بانزعاج متزايد جراء القيود الموضوعة أمام مقدّمي الخدمات الجيّدين الذين يعملون في مجّال الخدمات الصحية والتعليمية والخدمات العامة الأخرى. بدا لي أن ذلك هو قضية نموذجية تدلّ على الثغرة الموجودة ما بين الوسائل والغايات، وهي الثغرة التي أثقلت اليسار على مدى جيلٍ كامل، وهي المهمّة الجديدة التي أخذ حزب العمال الجديد على عاتقه بأن يتغلبَ عليها. إذا أردنا أن تكون الخدمات العامة منصفة، وحرة عند نقطة الاستخدام، فلا يجب أبداً أن تقدم على أساسٍ احتكاري داخل القطاع العام، وأن تتحكم فيها البيروقراطية الوطنية والمحلية بطريقة متصلبة، وهي التي عادةً ما تكون مقاومة للتجديد والاستقلالية الذاتية الأصيلة.

وباختصار، كان شعارنا «الاستثمار والإصلاح معاً»، وهو المبدأ الذي يشدد، بلاغياً، على الفروق الكبيرة في النظرة إلى الخدمات العامة بين حزب العمال الجديد وحزب العمال القديم (الاستثمار من دون إصلاح)، وبين حزب العمال الجديد والمحافظين الثاتشريين (الإصلاح من دون استثمار). لكن أين هي درجة الإصلاح التي تتساوى مع درجة الاستثمار الآتي؟

قلقت كذلك بالنسبة إلى الخدمات الاجتماعية والقانون والنظام، وذلك لأننا نمتلك شعاراً جيداً «الحقوق والمسؤوليات معاً»، لكننا لم نمتلك دفعاً سياسياً شاملاً لتثبيته. لم يتعلق الأمر بنظام المساعدات الاجتماعية. كانت هناك نقطة أخرى أثارت قلقي وهي السلوك الإجرامي. أما ما عملنا على تغييره بحزم فكان مجالس الهيئات council estate التي عملت على تقليص السيل المستمرّ من الجرائم ذات المستوى المنخفض، التي أوقعت المآسي في حياة عدد كبير من الأشخاص، وعملت كذلك على كسر قبضة البطالة المتوارثة من جيلٍ إلى جيل. عمدنا إلى زيادة عدد ضباط الشرطة، وأدخلنا تحديثاتٍ على نظام الشّرطة، كما مضينا قدماً في إدخال ضباط

مساعدين في الأحياء من أجل المساعدة على القيام بأعمال الشرطة بطريقة أكثر تركيزاً، لكنها كلها كانت حلولاً جزئية، لأن الشرطة تحتاج إلى أدوات آنيةٍ أفضل تساعدهم على القيام بوظائفهم. تشمل هذه الأدوات المصادقة على إجراءات معينة، الأمر الذي يعني إحداث تغيير في النظام القضائي الجنائي. تعيّن علينا التحرك من المبدأ إلى تحديد السياسات، لكننا فعلنا ذلك بصعوبة وعلى نحو متقطع.

بدأت بالتفكير في طريقة أكثر منهجية بشأن حزب العمال الجديد وعلاقته مع دولة الرفاه الاجتماعي التي ورثناها والتزمنا المحافظة عليها وتحسينها. إن دولة الرفاه الاجتماعي والخدمات الاجتماعية كما نعرفهما، تكوّنا بعد الأحداث العنيفة التي جرت خلال الحرب العالمية الثانية، لكن أصولهما ترسّخت مع الموازنات الأولى التي وضعها لويد جورج، وفي اقتصادات الكينزية الرائدة، وذلك بالإضافة إلى الرؤية والالتفات إلى التفاصيل التي أدخلها بيفيريدج. إنها الدولة المستعدّة لتقديم الخدمات.

عزّزت الرأسمالية الثورة الصناعية. فيما تمكّنت دواليب الرأسمالية الحرة، وغير المقيدة، والوحشية من الدوران فوق جماهير الناس، وتمكنت من امتصاص أعمالهم وأرباحهم. أدت الرأسمالية كذلك إلى جمعهم معاً، وسمحت لهم برؤية كيف أنهم تعبوا وتعرقوا، ليس كأفراد ولكن كماكينة واحدة، وهم لم يفعلوا ذلك لأجل مصلحتهم، بل لمصلحة أصحاب الرساميل.

نشأت النقابات، والجمعيات التعاونية، والروح الجماعي العظيم، وإرادة مواجهة دواليب الرأسمالية الطاحنة، من نضالات مشتركة كهذه. يعتبر بعض الناس أن هذه المواجهات أتت من أجل إلغاء الرأسمالية، بينما اعتبر بعضهم الآخر أنها جاءت بغية جعلها أكثر إنصافاً.

نشأت من رحم هذا الصراع الفكرة القائلة لكي تغيّر المجتمع فإنك تحتاج إلى منظمة سياسية، وإلى الديموقراطية. تشكّل الجماهير الغالبية، ولذلك عليها أن تسيّر قوانين البلاد. يتعيّن على الذين يمتلكون الكثير أن يتخلوا عن جزء من ممتلكاتهم لمصلحة الذين يمتلكون القليل جداً. ويتعيّن على الذين يحصلون على أرباح نتيجة تشغيل رساميلهم أن يتنازلوا عن قسم منها لمصلحة العمال الذين كسبوها لهم.

جاء مفهوم الدولة من هذه الفكرة، لكن ليس بمعنى السلطة المطلقة، بل بمعنى التعبير السياسي والاجتماعي عن هذه الإرادة الجماعية، وبمعنى الدولة غير الوارد في عبارة «الشؤون العليا للدولة»، لكن بمعنى الدولة التي تعطي المساعدات، والتي تعيل الذين لا يستطيعون إعالة أنفسهم.

وهكذا كبرت الدولة، أولاً في حقل التقاعد والتأمينات الوطنية، وبعد ذلك في حقل التعليم، وأخيراً في حقل الخدمات الصحية التي برزت بعد الحرب. أقدمت الدولة أيضاً على وضع تشريعات في مجالات الصحة، وأنظمة السلامة، والتعدين، وحماية الأطفال، وتشريعات نهاية الخدمة والفصل الجائر من العمل في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. تقوم الدولة هنا بالحماية [حماية العمال] وتشمل سلطاتها تشريع الرأسمال وتقييده وترويضه.

حدث أمران بمرور الوقت كانت لهما عواقب سياسية كبيرة على السياسات التقدمية، ليس في المملكة المتحدة فقط بل في كل مكان من العالم حدثت فيه عملية التغيير. الأمر الأول كان إقدام الدولة على تحسين أوضاع الناس، وهكذا اتسعت الهوّة ما بين أولئك الذي يريدون إذلال الرأسمالية وأولئك الذين يريدون إلغاءها. أدى هذا الوضع إلى وضع حزب العمال على الرفّ لمدة تقارب الخمسين عاماً أو نحو ذلك، وأعني بذلك أن انقساماته لم تكن حول الوسائل فقط بل حول الغايات أيضاً، الأمر الذي كوّن تنافراً قاتلاً أصابه في الصميم. أما الأمر الثاني فكان أن الدولة كبرت، بالنسبة إلى أهداف الإصلاح الأهم، لكن نجاحها أصبح مشكلتها في سياق هذه العملية. برزت، على نحوٍ مفاجئ، مصالح الدولة المكتسبة إلى جانب مصالح الرأسمال المكتسبة. يدير الناس البيروقراطيات، وهم لهم مصالحهم الخاصة. تفرض السوق إحداث التغيير، لكن القطاع العام يفتقر إلى عاملٍ ضاغط مماثل. يتنامى القطاع العام عندما يُترك لوسائله الخاصة. تستطيع الحكومة تغيير القطاع العام، لكن الحكومات تستخدم القطاع العام، وتعتمد عليه، كما أنها جزء منه.

يُضاف إلى ذلك، وجزئياً كنتيجة لما حقّقته الدولة، ومع انتشار الرفاهية، ما يراه المنتفعون من وجود الدولة أنهم هم مموّلوها عن طريق الضرائب التي يدفعونها.

قبل التطور التام لسلطة الدولة التامة، أي في الثلاثينيات من القرن الماضي، وعندما كانت جماهير الناس لا تزال «كتلة الناس»، كان من السهل تحديد الطريق الوسط في السياسة. تمثّل هذا الطريق في القطاع العام الذي يمتلك الأصول [الموجودات] ويصدر القوانين التي تشرّع بإنصاف، ويعمل جنباً إلى جنب مع قطاع خاصّ خاضع للضوابط المناسبة. كان كتاب هارولد ماكميلان الذي حمل عنوانَ الطريق الوسط، والذي صدر في العام ١٩٣٦، استثنائياً بالنسبة إلى الزمن الذي صدر فيه. عالج الكتاب، وبدقة بالغة، الموقع الذي يجب أن تكون فيه السياسات الديموقراطية الاشتراكية، لكن هذه السياسات لم تجد طريقها للتنفيذ إلا في الستينيات من القرن الماضي.

كانت هذه هي النقطة الأساسية. تمكّنا في الستينيات من تحقيق ما كان يجب أن يحدث في الثلاثينيات. كان كتاب أنطوني كروسلاند الذي حمل عنوان مستقبل الاشتراكية دراسة رائعة في جذب حزب العمال إلى واقع الحياة الذي كان سائداً في الخمسينيات. لكننا لم نستوعب الوضع ونهضمه جيداً إلا في أواخر الثمانينيات.

ومهما تكن العواقب الكبيرة للإصلاحات الثاتشرية على القطاع الخاص التي أُدخلت في الثمانينيات، فقد ورثنا قطاعاً عاماً لم يخضع للإصلاح غالباً، كما أننا افتقدنا الميل إلى إصلاحه بصورة طبيعية. بقيت الدولة كما كانت منذ العام ١٩٤٥. ولو افترضنا أن كليمنت آتلي قد عاد إلى الحياة في العام ١٩٩٨ وتفحص بريطانيا الحديثة، لكان دُهش من أشياء كثيرة، لكنه كان سيحيّي، مثله مثل وايتهال، دولة الرفاه الاجتماعي وكأنها صديق قديم له.

برز تعقيد سياسي آخر سبق أن تنبهت له جيداً، وهو ما يتعلق مباشرة بموضوع الإصلاح والقلق الذي شعرت به. سبق أن أوردت آنفاً أن معظم الناس هذه الأيام هم إما مستفيدون وإما ممولون لدولة الرفاه الاجتماعي والخدمات الاجتماعية. يعني ذلك، ويا للأسف، أنهم يريدون الحصول على المزيد من هذه الخدمات، كما يريدون دفع أموالٍ أقل مقابلها. أقول، ويا للأسف مجدداً إنه يحق لهم الشعور بهاتين العاطفتين المتناقضتين في الظاهر.

يجعل هذا الوضع الناس فريسةً سهلةً لأولئك الذين هم داخل نظام الخدمات

الذين يخبرونهم بأن التغيير سوف يُضرّ بمصالحهم. كنت أدهش دائماً عندما تصدر نتائج الاستفتاءات التي تُظهر التقدير والثقة اللذين تتمتع بهما آراء الأطباء عند الخدمات الصحية الوطنية، وكذلك كم هي ضئيلة آراء السياسيين (هاجمتنا نقابة الأطباء البريطانيين في العام ١٩٩٨ للمرة الأولى) وذلك عندما اتضح أن أولئك الذين يديرون هذه الخدمات يمتلكون مصالح يخدمونها بالإضافة إلى خدمة مصلحة الجمهور، بينما بالنسبة إلى معظم السياسيين ليس من سبب آخر لوجودهم غير مصلحة الناس.

كنت أعرف ذلك كله. أريد أن أكون صادقاً وأقول إنني تردّدت في بسط شكوكي الخاصة بشأن الجذرية الحقيقية لما كنا نحاول فعله. إن ما كنا نفعله حتى ذلك الحين هو أن نبلي بلاءً حسناً على الأرض سياسياً.

بدأنا بإعادة نظام الخدمات الصحية الوطنية. نُقلت سلطة التكليف في هذه الأثناء إلى صناديق العناية الأولية primary care trusts التي يديرها أطباء. يعمد هؤلاء إلى تجميد الميزانيات والتفاوض مع إدارات المستشفيات. لكن الواقع هو أن قسماً كبيراً من عملية التكليف commission قد حُدّد مسبقاً في ضمان قبول الحالات الطارئة، والعمليات، ومواعيد الاستشارات وغير ذلك. لم يتوافر للإدارة أي مقدم خدمات آخر يمكن اللجوء إليه. مارس أطباء الصحة احتكاراً مماثلاً، وهكذا كانت المنافسة، حتى في الحالات اليائسة، أمراً ممنوعاً تماماً. يعني ذلك أن بإمكان التفاوض أن يجري بين الأفرقاء بصورة إفرادية، لكن ليس بإمكانهم أن يفعلوا الشيء الكثير إذا كانوا غير راضين.

أقدمنا، بطبيعة الحال، على زيادة الاستثمار، وتعاقدنا مع موظفين إضافيين، وغير ذلك من أمور، لكنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يلاحظون ما يجري داخل أكبر مؤسسة كبيرة تُعتبر أكبر رب عملٍ، بمفرده، في أوروبا.

سبق لنا أن التزمنا إزالة ما يُسمّى السوق الداخلية للأطباء المتعاقدين مباشرةً مع المستشفيات وكذلك الأطباء العاديين، وهي السوق التي أثارت خلافات كثيرة. كانت تلك تجربتنا مع سوق محدودة. أعجب بعض أطباء الصحة بالمشروع، بينما لم يعجب به القسم الآخر. مهد الأمر لنشوء نظام من مستويين. امتلكت المدارس

الابتدائية نظاماً كهذا. لكن المشكلة مع هذا النقد أن النظام الذي بقي من دون إصلاح امتلك غير مستوى. كانت الطبقة الوسطى تتمكّن على الدوام من إيجاد طريقة لتحريك النظام، أو على الأقل الاستجابة له بطريقةٍ أو بأخرى. نستنتج من هذا أن المدارس الجيدة، سواء الثانوية أو غيرها، ستكون في الأحياء المناسبة.

طوال تلك الفترة، وتقريباً ما بين آذار/أغسطس من العام ١٩٩٨ وكانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٩، أجرينا عملية إعادة تفحص ضخمة للسياسات المتبعة، وهكذا تتابعت الأوراق الخضراء والبيضاء، ودارت دواليبُ السياسة، وزاد عمل الخدمة المدنية. أجريت نقاشات مع خبراء تحديد السياسات، ومع هيئات استشارية، ومع وحدة تتبع ١٠ داوننغ ستريت يرأسها دافيد ميليباند. كان حدسي المتنامي يوحي أن نهجنا ليس سليماً. لا أريد أن أقول إن نهجنا خاطئ أو إنه من دون تأثير، لأنه ليس كذلك، لكنه كان غير تام في أفضل الأحوال، أي إنه كان يفتقد بعداً لم يكن ثانوياً بل هو بعدٌ جوهري.

أما الأمر الاستثنائي فكان عدم وجود هيئة خارجية، أو مؤسسة، أو مركز للتعليم يمكنه توفير ذلك البعد، لكن ربما مع استثناءٍ محتمل، وهو دراسة الإصلاحات الاقتصادية التي أعدّها ريتشارد لايارد لنا في معهد لندن للاقتصاد. تعودت أن أتفحص آخر الدراسات المقدّمة لنا من المراكز الأكاديمية والعلمية المعتبرة، لكني لم أجد أي دراسة تحتوي على أي مساعدة عملية حقيقية. كانت المشكلة هي أن هذه المراكز أرادت أساساً مناقشة العقيدة التي تقف وراء قضايا الإصلاح. ركزت هذه الدراسة، وبطريقة غريبة، على السياسة، لكن تلك لم تكن المساعدة التي أحتاج إليها. أردت أن أعرف الحلّ العملي. اعتبرت أن تقاضي مبالغ لقاء الخدمات الصحية، أو عدم تقاضي المال، هو مسألة سياسية أو عقائدية، لكن أسرع طريقة لتقليص قوائم الانتظار ليست كذلك.

حاولنا الوصول إلى حلول «إن المهم هو ما ينجح». أدركنا أن نظام الخدمات الاجتماعية والخدمات العامة كان نظاماً معقداً جداً، أما «ما ينجح؟» فكان المسألة التي كنت أعود للإشارة إليها من دون تقديم قدرٍ كبير من المساعدة sustenance الفكرية. وهكذا تابعنا السير بمنهجنا الذي اخترناه – أي الوسط – لكننا ابتعدنا عن الإصلاح المنظّم والعميق. أما النتيجة فكانت أننا عجزنا عن تحقيق التغيير الذاتي

في النظام، أو الاستمرار الذاتي، ولم نحصل إلا على التغيير المستمرّ الذي ينطلق من المركز.

تغيّر الخطاب، على الرغم من ذلك كله، في مؤتمر الحزب الذي عُقد في العام ١٩٩٨. أطلق الخطاب مساراً ثالثاً. لم يكن اليسار القديم ولا يمين الثاتشرية. امتلكنا ما يكفي من الزخم كي نُثبت أن الأمور تتغيّر. أقول، للإنصاف، إن المغزى الأساسي كان التحدي المستمر، أقلّه بالنسبة إلى الحزب. كان الخطاب قوياً بالنسبة إلى التكليف devolution داخل البلاد، والشراكة خارجها مع أوروبا وأميركا. اشتمل الخطاب على المواضيع المناسبة، كما ضغط على الأزرار الصحيحة، وأحدث ردود الفعل المناسبة.

جلستُ بعد ذلك مع أسرتي السياسية المقربة، أي جوناثان، وبيتر، وألاستر، وآنجي، وسالي، وبيتر هايمن. أدركت أننا ما زلنا في أول رحلتنا، وعرفت أن أمامنا لا تزال كمية هائلة من المعلومات وذرى عالية كي نتسلقها، وهكذا تمازجت عندي المشاعر، ونفاد الصبر، والإحباط، والزهو والفخر بسبب الإنجازات التي حققناها ونجاحاتنا السياسية. شعرت، بطبيعة الحال بوميض من التقدير الناتج عن كون البلاغة والواقع ليسا على خطّ واحد.

تمثّل جزءٌ آخر من المشكلة في تزايد فقدان الرغبة في الجدل بشأن تحديد السياسة. كان المحافظون عاجزين عن المشاركة، وكانوا ما زالوا في حالة لعق جروحهم. لم يكن هناك ما يُقلق في مسألة معارضة حكومة دأبت في الحكم من المركز، مما صعّب الأمر عليهم كثيراً ما عدا مسألة أوروبا.

تعوّدت وسائل الإعلام أسلوباً طوّرته بمرور الزمن، وهو عدم اهتمامها بالتحدث عن سياسة الحكومة في غياب المناظرات المهمة، أو قضية تجتذب اهتمام الرأي العام. لقد انشغلت، على سبيل المثال، كثيراً بقضية علاقة هاريت هارمان وفرانك فيلد أكثر من انشغالها بالجدال الدائر حول قضية التقاعد. كانت هاريت وزيرة الدولة لشؤون الضمان الاجتماعي، وكان فرانك وزير إصلاح الشؤون الاجتماعية. أعترف أن هذه القضية جذبت الاهتمام كثيراً. لم تكن هاريت بالفعل خبيرةً في شؤون سياسة الحكومة، على الرغم من أن هذا الملفّ يتطلب خبرة كبيرة. لم يتمتع فرانك

بالحنكة بالفعل من الناحية السياسية، على الرغم من أن منصبه يتطلب قدراً كبيراً من الحنكة السياسية.

لم يكن الجمع بين الاثنين أمراً موفقاً بالمرة، لأن النتيجة كانت غلطةً من نوع «وكالة مواعدة من جهنم». كان فرانك مقنعاً جداً بالإجمال، لكني لا أعتبره قادراً على التركيز على السياسة العملية للحكومة. أما هاريت فكانت مستميتة في دعم سياسة الحكومة، لكنها لم تدرك تماماً أن مهمتها تقضي باستنباط هذه السياسة.

تعوّد فرانك أن يعزل نفسه في مكتبه من أجل «التفكير في غير المعقول»، لكن لم تكن المشكلة في أن أفكاره كانت غير معقولة بقدر ما كانت غير مفهومة. كانت هاريت تقلق وتغضب، وكان كلاهما في اللجنة الوزارية معارضاً للآخر، وهو أمر كان أكثر من مقلق. كانت النتيجة أننا حاولنا رسم سياسة انطلاقاً من ١٠ داوننغ، لكن ذلك كان أمراً صعباً. أودّ أن أشير إلى أن مجال هذه السياسة كان صعباً جداً. جاءت النتائج، لهذا السبب، أقلّ من مرضية.

أعفيت هاريت من منصبها خلال التغيير الوزاري الذي أجريته في شهر تموز/يوليو، فتقبلت ذلك برحابة صدر تسجَّل في خانة إيجابياتها. كما رفضت تعيين فرانك وزيراً للدولة، الأمر الذي دفعه إلى الاستقالة. كان الأمر محرجاً، لأنني على الرغم من احترامي لفرانك وإعجابي به، وهو ذو روح أصيل وحر، شعرت بالارتياح. أعرف أن بعض الناس يُخلقون لتولي المناصب، وبعضهم الآخر لا يفتقدون هذه الميزة. لم يُخلق الرجل، وبكل بساطة، لتولي المناصب.

بدأنا بعد مؤتمر الحزب بالإعداد بكل جدية لخطاب الملكة. لم أكن راضياً تماماً، لأسباب موضوعية، عن حزمة إصلاح الشؤون الاجتماعية، لكنها كانت في صلب الخطاب. كانت الأسابيع التي سبقت الخطاب ـ والحزمة جاءت في وقتٍ متأخرٍ من السنة وبالتحديد في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر، وقد تأخرت بسبب ما بقي من مواضيع من الجلسة النيابية السابقة – درساً مباشراً لنا عن قدرة الأحداث، أو الأخبار المثيرة، على خطف برنامجٍ ما وتحويله من مسألة خطيرة إلى مسألة عادية.

قاطعنا جوناثان بوويل وألاستر كامبل، في صباح ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر، وعلى نحوٍ مفاجئ بينما كنا في سلسلة الاجتماعات المعتادة، وذلك لاصطحابي إلى قاعة

الطعام في داوننغ ستريت. كانت المشاكل ترافقهما عندما يجتمعان. إن ما أخبراني به جعل عينيّ تتسعان أكثر فأكثر حتى أصبحت أشبه شخصاً ذا حنجرة متضخّمة. كان ما أخبراني به حادثاً روتينياً حزيناً، يثير الضحك، والعبوس، والتثاؤب في وقتٍ واحد.

تعرّض رون دافيس، وهو وزير الدولة لشؤون ويلز، للسلب من قِبل أحد الشبان السود في منطقة كالفام كومون. دُهشت للحادثة، لكننا طلبنا إلى رون الحضور إلى ١٠ داوننغ.

بدأ بالقول: «يسهل عليّ كثيراً أن أشرح ما حدث. كنت أمضي عطلة نهاية الأسبوع في ويلز. قدت سيارتي إلى لندن. قررت أن أتنزه قليلاً عند حوالى منتصف الليل فتوجهت إلى كالفام كومون». تطلع الحاضرون بنظراتٍ ملأى بالدهشة. «دخلت إلى حانة راستا، وبدأت بالحديث مع أحد الشبان كما تفعلون أنتم». رفع الحاضرون حواجبهم أكثر. «قال لي: لماذا لا نتناول طبقاً من الكاري؟ قلت له: موافق، ثم ركبت في سيارته». بدأت أفواه الحاضرين بالانفتاح. «ثم التقينا عدداً من زملائه، وسرعان ما هجموا عليّ وسلبوا ما معي. يُمكن أن يحدث ذلك مع أي شخص».

خيّم السكون على المكان، ثم قلنا جميعاً وكأننا نتحدث بصوتٍ واحد: «مهلاً. لا بد أنك تمزح يا رون».

أعرف أن الأمر سخيف برمّته، بحيث بدا عرضاً مضحكاً، لكنه تعلّق بحياة شخص وحياته المهنية التي كانت على وشك الاختفاء. هذا هو الأمر الأكثر قساوة في الحياة السياسية. إنه بالتأكيد أمرٌ يتصف بالغباوة. ساعدت على صوغ بلاغ رون، وهكذا وصفت الأمر على أنه «لحظة جنون»، لكني كنت أعلم كم من الصعب إنقاذ حياته المهنية. لم تكن المشكلة ما إذا كان الأمر يتعلق بالجنس أم لا، بل بإساءة حكمه على الأمور. شعرت بالأسى الشديد تجاهه. عرفت الرجل منذ أن دخلنا المجلس النيابي معاً في العام ١٩٨٣. كان مراوغاً موهوباً، على الرغم من أن الكثيرين شعروا بأن موهبته كانت تتعدى مراوغته، لكني أعرف أن أحداً لا يستحقّ ما أصاب هذا الرجل.

سارت استقالته كما سارت الاستقالات الأخرى التي تعاملت معها كلها. يتفهم

أصحاب هذه الاستقالات الأمر في البداية وينصاعون لها، لكنهم ما إن يستوعبوا جسامةَ الموضوع حتى يقوموا بالتمرد، ويُظهروا الاستياء في نهاية الأمر. سار رون بحسب ذلك النهج بالضبط. أما المضايقات التي أصابته فقد تمثلت في الضغوط الهائلة التي لحقت به وبعائلته. كانت استقالة رون أمراً حتمياً.

تزايد استيائي بمرور الزمن إزاء كيفية فرض الاستقالات، كما أن أموراً كثيرة كانت تعتمد على ظروف الكشف عن الحادثة.

دُهشت كثيراً بعد عدة أيام من استقالة رون عندما ضبطت صحيفة أخبار العالم نيك براون ـ الذي نقلناه خلال التغيير الوزاري، الذي حدث في شهر تموز، من منصب المسؤول عن الانضباط كي يصبح وزيراً للزراعة – مع أحد الفتيان. صُدمت كثيراً، ببراءة، عندما أخبرني ألاستر أن نيك كان شاذاً، لأنني لم أكن متأكداً من ذلك. ها إننا تلقينا فضيحتين تتعلقان بوزيرين شاذَّين في أسبوع واحد. حدث ذلك وأنا ملتزم، التزاماً كاملاً، المساواة بين الشاذّين والأسوياء. ظهرَ كريس سميث علناً، وبكل شجاعة، بوصفه أول وزير شاذ في الحكومة. سبق للناس أن عرفوا عن شذوذ بيتر مندلسون. شعرت بالقلق لأن عيون الرأي العام تفتحت على كل شيء.

أريد هنا أن أكون منصفاً لصحيفة أخبار العالم. حضر مراسلون بالقصة يوم الخميس، أي قبل صدور عدد الصحيفة نهار الأحد. تمكن ألاستر، بحنكته من إقناعهم بنشر الخبر باعتبار أن نيك هو الشاذ. أما النتيجة فكانت تحوّل الخبر من فضيحة قذرة إلى اعترافٍ صادق، وهكذا تم إنقاذ نيك.

غضب الرجل كثيراً بسبب نقله من منصبه كمسؤول الانضباط، وكنت أعلم أنه يعمل باستمرار، بطريقة أو بأخرى، لمصلحة غوردون وضدي أنا، وأعتقد أنه كان يفعل هذا منذ البداية. لكنه أُنقذ بسبب الاعتراف، وذلك ليس لأنه لم يكن مسؤولاً عن الانضباط، بل لأننا بذلنا جهداً كبيراً في سبيل إنقاذه. تبرز هنا أهمية تمسك المرء برباطة جأشه عندما يكون زعيماً. ربما يعتقد المرء أنه سيكون ممتناً. لكن ذلك لم يحدث قط. اعتقد الرجل أنه تعرّض للإساءة، وأنني أتقصد النيل منه. حدث ذلك في الوقت الذي كنت أستطيع النيل منه، والتخلص منه نهائياً بسبب تلك الحادثة. لم نفعل ذلك لأن هذه ليست طبيعتنا. أعتقد أن من المستغرب أن نوصَف بأننا نمتلك

هذه الآلة شديدة القسوة [الحكم]، هذا في حين أننا نعاني آلاماً كثيرة، والكثير منها في بعض الأحيان واقعي.

جرت قبل عيد الميلاد في العام ١٩٩٨ استقالة مدوّية، وهي الاستقالة التي أسفت على حدوثها وشعرت بمرارةٍ إزاءها في ذلك الوقت، وبطريقة ما زلت ألوم نفسي بسببها إلى هذا اليوم. أما عندما أعيد قراءة ما كتبه ألاستر في يومياته بخصوص هذه المسألة، وأستذكر ما ضجّت به وسائل الإعلام من تفاصيل دقيقة أشعر بمدى صعوبة تحمّل نتائجها.

أما أهمّ ما في الأمر فهو أن بيتر مندلسون قد حصل على قرض من جيوفري روبنسون، وهو وزير المالية، وذلك من أجل شراء منزلٍ له. كان المبلغ كبيراً، وعلى الخصوص في تلك الأيام: ٣٧٣,٠٠٠ جنيه إسترليني. كان بيتر وزير دولة لشؤون الصناعة، وكانت الوزارة تدقق في تعاملات جيوفري المالية، وهو التحقيق الذي بدأ استجابة لشكوى قدّمها المحافظون. بدأ التحقيق بعد تقديم القرض. لم يصرّح بيتر عن القرض لمساعِدته الدائمة، حيث كان يجدر به أن يفعل ذلك. لكن، برأيي الشخصي، لا يعني عدم تصريحه بالمبلغ أنه رجل غشّاش. لكن الواقع هو أنه لا علاقة لبيتر بالتحقيق حول جيوفري، كما أنه لا علاقة للاثنين بهذا التحقيق. أما لو كان هو الذي كشف الأمر لكان من الممكن معالجته، وذلك على الرغم من أن وسائل الإعلام قد حققت بأوجه الموضوع كافة، وليس بوجهٍ واحدٍ منه.

سألت، جرياً على عادتي عند بروز «الفضائح» في ذلك الوقت، وزير العدل ديري إيرفين، وتشارلي فالكونر، الذي شغل حتى إلى وقتٍ قصير منصب ممثل الحكومة لدى المحكمة العليا، والرجلان من أصحاب الخبرات في مسائل كهذه. فاعتبر الرجلان أن الأمر صعب جداً.

وضعت الموضوع جانباً ليومين، لكني كنت منشغلاً في ذلك الوقت، على أي حال، بالاقتراح الأميركي بشن عملٍ عسكري ضد العراق. نشرت صحيفة الغارديان هذا الخبر، وما لبثت الصحف الأخرى أن حذت حذوها. كانت تلك فوضى عارمة، واتصل بي عدد من الوزراء ليقولوا لي إن الأمر ميؤوس منه. أقدم جاك كاننغهام الطيب الذي نقلناه من وزارة الزراعة ليصبح وزيراً في مكتب الحكومة، على تبرير

الوضع، لكنه أدرك مدى صعوبة الأمر. لكن الأمر الذي يدعو للارتياح هو أن البرلمان لم يكن منعقداً.

شعرت بحلول ٢٣ كانون الأول/ديسمبر بأنني لم أعد أستطيع تحمّل الأمر. توجّهت بمفردي إلى بيتر، الذي قَبِل قراري بطيبة خاطر استثنائية. طردتُ جيوفري من منصبه كذلك، وأخبرت غوردون أنه يتعيّن على تشارلي ويلان، وهو المتحدث باسمه، أن يرحل بدوره.

تجاوزت مشاعري في ذلك الوقت الغضب، وكانت أقرب إلى الحزن الحقيقي وإلى الإحساس بالكارثة. أما واقع الأمر فإنني لم أكن أعلم ما إذا كان مساعدو براون هم الذين سرّبوا الخبر، ولا يوجد عندي أي طريقة لمعرفة الأمر، لكن كل ما أعرفه هو أن شخصين قد عقدا اتفاقية القرض، وكنت متأكداً أن بيتر لم يُخبر أحداً حتى أنا. يُضاف إلى ذلك أن الغارديان هي التي تسلّمت الخبر، وليس صحيفة مايل، أو أخبار العالم. يزيد هذا من احتمالات أن يكون مصدر التسريب أحد أعضاء الحزب، مثل تشارلي ويلان، وذلك لأن الغارديان هي التي كانت تهتمّ بشؤون الحزب في ذلك الوقت، أي إنها كادت أن تكون صحيفة الحزب.

كنت متأكداً من شيء واحد: بغضّ النظر عن الشخص الذي سرّب الخبر فهو فعل ذلك متعمداً وبدافع من الحقد الخالص. لم يكن هذا خبراً عادياً، بل كان اغتيالاً سياسياً، وكانت غايته تدمير بيتر، لكنهم فعلوا ذلك بقصد إلحاق الضرر بي، والضرر الشديد، ومن دون أي اعتبار لتأثير هذا الخبر في وضع الحكومة.

جلست في شيكرز يوم عيد الميلاد ذاك، ورحت أفكر في الوضع. كان بيتر وزيراً من الطراز اللامع، وهو يتميز بنشاط حقيقي وصاحب رؤية، وكان موظفو وزارته يحبّونه (أصدقكم القول أن هذا هو أمر نادر جداً). كان جزءاً هاماً من الحكومة، وجزءاً هاماً من حزب العمال الجديد. كان الأمر بمثابة النهاية لحياته المهنية. أعطى أحدهم الخبر إلى صحيفة الغارديان مع علمه بكل هذا. إنني أتساءل عن طبيعة عقلية ذلك الشخص. هل هو شخص حازم، أو حاقد، أم أنه قريب جداً من الأشرار. أرعبني الأمر بسبب ما يُمكن أن يعنيه. يعتقد الناس على الدوام أن السياسيين يتصرفون بعضهم مع بعض مثل ما يتصرف جيفري آرشر، أو مايكل دوبس في إحدى روايات

المطار، لكن خبرتي تدلني على أنهم لا يفعلون ذلك. يشتمل عالم السياسة على المنافسة، والاغتياب، ومحاولات الإضعاف، وعلى القليل الذي يُمكن أن نصفه على أنه شرير. هذا هو واقع الأمر.

أدركت، بمعنى ما، أن طرد تشارلي ويلان أمرٌ يخلو من العدل، وذلك لأنني لم أكن متأكداً، بالفعل، من مسؤوليته، وإذا أردت أن أكون أكثر إنصافاً فسأقول إن الرجل أنكر مسؤوليته. أدركت كذلك أنني لو لم أطرده من منصبه، لتعلّمنا درساً فظيعاً على المدى الطويل، ولربما يحمل معه عواقب وخيمة. ترك الرجل منصبه بعد شيء من الجدال.

كنت متأكداً في ذلك الوقت أن على بيتر تقديم استقالته، لكني أصبحت الآن أقل وثوقاً أن ذلك كان ضرورياً. أما المشكلة فكانت أن من المستحيل تقدير ما يُمكن أن يحدث وسط هيجان وسائل الإعلام إلا إذا جرّبه المرء بنفسه.

عندما تقرّر وسائل الإعلام إسقاط أحد المسؤولين فإنها تبدأ بنشر خبر عنه. ربما تكون القصة صحيحة، لكنها تتعرض للتشويه. إذا لقي الأمر معارضة فإن الصحفيين يعمدون إلى زيادة الضغط إلى أن يصل الهيجان إلى ما يعادل الصراخ عندهم. أما إذا استمرت المعارضة فإنهم يعمدون إلى القول: حسناً، سوف نستمر بنشر هذه القصة حتى استقالة ذلك الشخص. لا تعود المشكلة عند ذلك في القصة ذاتها، بل تتحوّل إلى تلويث سمعة برنامج الحكومة. لا يتمكّن أي شخص من النجاة في هذه الحالة.

إن انتظار حدوث هذا الأمر هو صعب بالفعل، وأنا أؤكد لكم ذلك. أما في أواخر أيام رئاستي للوزراء فقد خلعت جانب الحذر وتسلّحت بالجرأة (عندما تصاعدت النداءات المطالبة باستقالة تيسا جويل وجون بريسكوت)، لكن الأمر يتعلق بصراع مروّع على السلطة، وكان من الطبيعي أن أقلق بصفتي رئيساً للوزراء، وزعيماً للحزب، جراءَ الآثار الجانبية لهذه النداءات، وأحسست بمسؤولية من جانبي كي أتجنبها.

إنني أتمنى لو كنت واجهت الموقف بطريقة أخرى. كان ذلك امتحاناً مبكراً للقوة مع وسائل الإعلام، فتراجعت. أقول، للإنصاف إنني شعرت بأن بيتر قد تصرف بغباوة، وهو أخطأ بعدم إبلاغ مساعِدته الدائمة بالأمر، كما حدث في استقالته التالية في العام ٢٠٠١، وذلك لأنه لا يُحسن معالجة الأمور. لكن أتعلمون شيئاً؟ إن ذلك

ليس النقطة الرئيسة في الموضوع، وكذلك لا تتعلق هذه النقطة بالصداقة أو الولاء، بل بالبلاد. أعتقد أن السياسة تترافق مع مخزون محدودٍ من الموهبة. إنها موهبة خاصة، وأعتقد أن بيتر كان ولا يزال مميزاً جداً، وذا موهبة يجب أن يُحافظ عليها كي تفيد فيما بعد. طلب بيتر نصيحتي فيما إذا كان يجدر به أن يعود للانضمام إلى الحكومة عندما كان غوردون رئيساً للوزراء، فأجبته بالإيجاب من دون تردّد. كان غيابه عن حكومتي بمثابة خسارة كبيرة، كما أن وجوده في أي حكومة هو كسب كبير. إن الأمر هو بهذه البساطة. لا يتعلم المرء إدارة السياسات فقط عندما يكون في الحكم.

توجّهت إلى سيشيل في عطلة يوم ٢٦ من كانون الأول/ديسمبر. اتصل بي ألاستر، صديقي العزيز، ليقول لي إن الصحافة في حالة هيجان. أخبرني بأنني تعرضت لنقد شديد، لكنني كنت جالساً تحت أشعة الشمس، أو على متن زورق صيد، أو كنت أسترخي فوق الرمال، أو ألعب كرة القدم مع فريق الحماية الذي يرافقني وبعض السكان المحليين. جُنّ جنون الرجل عندما علم بذلك. أحسّ بأنه يتحمل وطأة الهجوم بمفرده بينما كنت أكتفي بالعوم، لكني أعتقد أنه لم يفهمني قط، أو لم يفهم طبيعة إجازاتي. والواقع هو أنني أتخمت، وكنت أحتاج إلى القليل من أشعة الشمس، وإلى بيئة أبعد ما تكون عن ويستمنستر، ووايتهال، وداوننغ ستريت، وفليت ستريت. حاول ألاستر الاتصال بي عدة مرات من أجل ترتيب قضية ويلان، لكنه ترك الأمر بعد أن أصيب بخيبة أمل. قلت له إن على ويلان أن يرحل، وإن التفاصيل لا تهمني أبداً، لأن المهمّ هو أن يرحل.

لم يكن سيل الاستقالات، مع ذلك، هو الذي أتعبني فقط. كان العراق محطّ اهتمام العالم في شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٨. اجتمعت في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر مع وزير الدفاع جورج روبرتسون، وروبين كوك، ورئيس هيئة الدفاع الجنرال السير تشارلز غوثري. طرد صدّام في ذلك الوقت مفتّشي الأسلحة، الذين كتبوا تقريراً قاسياً يحوي إدانةً له في القضايا العالقة، والمتعلقة بأسلحة الدمار الشامل، وعن طموحات صدّام إلى تطوير البرنامج الخاص بها. كان الرئيس كلينتون يفكّر في احتمال توجيه ضربةٍ عسكرية. عرض تشارلز الخيارات المتاحة أمامنا بهدوء، وتحدّث عن الضحايا المحتملين في حال اشتراكنا في هذه

الحملة. كان الرجل، كعادته، صريحاً، وواضحاً، وقوياً. عرضتُ هذه الخيارات على الوزراء في اليوم التالي. حذّرنا جورج أن ذلك هو أخطر تطور بالنسبة إلى صدّام منذ حرب الخليج.

اجتمعنا مجدّداً صباح السبت في الرابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، وقرّرنا أن تبدأ الغارات الجوية عند الرابعة فجراً. بلغتنا فجأةً أنباء تفيد أن كلينتون قرّر أن يتريث لأن صدّام بعث برسالة جديدة قال فيها إنه سيستقبل المفتشين مجدداً. حصلنا على الرسالة بعد ذلك. كانت الرسالة مليئة بالثغرات، وبالكلام التافه المأثور عن صدّام. بقيتُ على مدى الثماني عشرة ساعة التالية، التي انتهت عند الرابعة والنصف من فجر السبت، على اتصال مستمر مع بيل. تأجلت الضربة العسكرية، الأمر الذي أراح روبين كثيراً، وهو الذي سبق له أن عبّر عن قلقه تجاه الأمر. صممت على إبقاء تحالفنا مع الولايات المتحدة سليماً وفاعلاً في تلك اللحظة الحاسمة.

عاد المفتشون، لكن كان من الواضح أن صدّام كان يتلاعب بهذه القضية. ظهر تقرير المفتشين أخيراً في منتصف شهر كانون الأول/ديسمبر وهو التقرير الذي حمل إدانة مجدداً. قرر بيل هذه المرة أن علينا أن نتحرك، وأن نبدأ بأربعة أيام من الضربات الجوية التي تتضمنها عملية ثعلب الصحراء. كان ذلك وقتاً يستنزف الأعصاب، كما أحرزت العملية نجاحاً محدوداً. ساد الشعور العام بأن صدّام قد تمكّن من النفاذ بما فعله مجدداً.

الفصل الثامن

كوسوفو

يكمن سر التحوّل من المعارضة إلى الحكم في الطبيعة الصعبة لاتخاذ القرارات. يستطيع المرء عندما يكون في المعارضة، وإذا كان يتمتع بما يكفي من المرونة، أن يقنّع المتناقضات، وأن يُخفي الخيارات، وأن يشوّش الفروق، وأن يضع عباءة الإجماع الغامضة على القرارات المتناقضة، والشائكة، وغير المستساغة، وهكذا يبدو الأمر سهلاً. أما عندما يكون المرء في الحكم فالمسالك كلها تكون متعرجة ومليئة بالأشواك، لأنه منذ اللحظة التي يبدأ فيها بالتحرك بحسب خياراته، تبدأ الأشواك بالوخز.

أما تنبهي إلى السياسة المحلية فقد فرضت نفسها بمرور الوقت، وأعتقد أنني كوّنت آرائي بالنسبة إلى الإصلاحات الداخلية في فترة ولايتي الأخيرة. أما يقظتي بالنسبة إلى السياسة الخارجية فكانت، في المقابل، سريعةً ومفاجئةً. حدث ذلك بالنسبة إليّ مع قضية كوسوفو.

إن تصنيفَ السياسة ما بين خارجية ومحلية هو تصنيفٌ خاطئ بعض الشيء. إن الأزمة الخارجية يُمكن أن تحمل معها عواقب محلية خطيرة، ولطالما كان الأمر كذلك. هناك أمران هذه الأيام يجعلان من التمييز بينهما أمراً أكثر تضليلاً: الأول، أصبح العالم أكثر اندماجاً، وهكذا تسير الأمور الداخلية مع الأمور الخارجية. الأمر الثاني،

مع تطور وسائل الإعلام العالمية فإن الأزمات الخارجية عادة ما تُعرض على شاشات التلفزيون مصورةً وقت حدوثها، ما يجعل منها تحدّيات داخلية بسرعة. يُمكن لها أن تحدث وتؤثّر في الأحداث الدخلية للبلاد، أي كما هو الأمر مع الاقتصاد العالمي أو الهجرة، ولكن أيضاً بسبب تعاطف الناس ومشاعرهم إزاء ما يُعرض أمامهم. وعندما تهاجم إسرائيل غزّة، على سبيل المثال، فإن طبيعة الحرب الحيوية وما يرافقها من معاناة تُعرض على الفور داخل منازلنا التي توجد في أقصى أجزاء بريطانيا. شغلتنا أحداث العالم هذه الأيام، لكن بالمقارنة بما كان يحصل قبل عقود قليلة من الزمن، فإننا سنحتاج إلى حملة ميدلوثية Midlothian من أجل إثارة انتباهه.

لا يعبّر حتى هذا الوصف بما يكفي عن مدى أهمّية ما يحدث. لا يقتصر الأمر على تأثر الناس بما يرون، وذلك لأنهم يهتمون بما يحصل للآخرين. تكون مشاعر الناس صادقةً في هذه الحالة. إنهم يشهدون على الظلم، كما يتوقعون من حكومتهم المساعدة على رفع هذا الظلم. إن الناس الذين يهتمون أكثر بما يحصل داخل حدود بلادهم لا يبقون غير مكترثين للمآسي التي تحصل خارجها.

أما أثر هذه الأمور كلها، وما يبرز هذه الأيام أكثر من أي وقتٍ مضى، فهو أن العالم أصبح أكثر ترابطاً، ليس اقتصادياً فقط، أو من حيث المصلحة، بل عاطفياً كذلك، أي بالقلوب كما بالعقول. أما عندما نتحدث عن عالم تعتمد دوله بعضها على بعض فإننا نعني أننا مترابطون، وأن التحديات والحلول تصبح مشتركة، وأن المشاكل التي تظهر في جزءٍ ما من العالم يُمكن أن تثير ردود فعلٍ في جزءٍ آخر منه. يعني ذلك أيضاً أن مشاعرنا قد ارتقت إلى مستوى إنساني أكثر اتصالاً وعبوراً للحدود القومية من ذي قبل. تحوّل الحيّز الذي نعيش فيه إلى حيزٍ مشترك يمتلك الكثير من السمات المشتركة. إن أموراً مثل السفر، ووسائل الإعلام، والإنترنت، ووسائل الاتصالات الحديثة هي كلها أمور تجذبنا في اتجاهٍ واحد: إننا نعيش معاً. يعجبني هذا الوضع من ناحيتي، لأنني مرتاح، لا، بل أكثر من ذلك لأنني أشعر بالحماسة بسبب عالم آخذٍ بالانفتاح، يسمح لنا أن نختبر ونتعلم المزيد بعضنا من بعض. أقول مع ذلك إنني مضطر لقبول هذا الوضع كأمرٍ واقع، حتى ولو استأت منه، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالسياسة الحديثة.

تتداخل السياسة الخارجية والسياسة الداخلية وتتشابك في هذا السياق، لكننا

نتظاهر بعدم حصول ذلك. حصلت على معلومات لا بأس بها عن التاريخ بعد قراءاتي الكثيرة قبل أن أصبح رئيساً للوزراء، لكني كنت أعرف القليل عن القضايا الخارجية المعاصرة. خضت حملة انتخابات العام ١٩٩٧ على أساس السياسة المحلية برمّتها. أما لو أخبرني أحدهم في ذلك الصباح المشرق من شهر أيار/مايو عندما دخلت داوننغ ستريت، بأنني سوف أُلزم بريطانيا خوض غمار أربع حروب، لكنت شعرت بالحيرة والهلع.

لكن، هذه هي طبيعة الأمور. لا يمكنني أن أتذكر أي رئيس أميركي جديد خاض غمار حملة انتخابية تستند إلى السياسة الخارجية كي يصل إلى البيت الأبيض، ولا أعرف رئيساً لم ينهِ فترة رئاسته من دون أن ينشغل بهموم هذه السياسة. أما السمة المشتركة بين الاستراتيجيات السياسية كافة فهي أن تأسيس حملة انتخابية ما على السياسة الخارجية، أو الانغماس الشديد فيها، هو بمثابة الكارثة، أو بداية النهاية. (تأكدت فيما بعد أن هذا صحيح إلى حدٍ بعيد). يعود السبب إلى أن الجمهور يعتقد أن هذه السياسة هي مهمة وبعيدة جداً في الوقت ذاته عن اهتماماته اليومية.

يفهم الجمهور، على مستوى معيّن، الحاجة إلى الصورة العالمية الشاملة. أما على مستوى آخر فهو يعتبر أن هذه السياسة ما هي إلا جولات متتابعة من القمم الرئاسية، والحفلات، ومن المجاملات السياسية. تبدو السياسة الدولية بعيدة جداً. يقول الناس: «وما شأننا بها؟» أما ما يبدأ القائد بإدراكه فهو أن هذا الشعور وإن كان مفهوماً، إلا أنه خاطئ في الوقت ذاته. إن طبيعة تداخل هذه السياسة هي التي تجعلها كذلك. تجمع العولمة الناس معاً، لذلك فإنهم يواجهون التحديات معاً، وكذلك يتعيّن عليهم التوصل معاً إلى الحلول، إلى حدّ ما على أي حال. وهكذا من غير المستبعد أن يحمل أيّ تحدٍ يحصل في إحدى القارات، إذا كان خطيراً بما يكفي، تحدياً لقارةٍ أخرى. إن عبارة «المجتمع العالمي» هي شعار، لكنها صحيحة. إنها الطريقة التي نعيش فيها هذه الأيام.

ثمة عاقبة أخرى لهذا التفاعل بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية، فلا بد أن تُعالج السياسة الخارجية بطريقة مختلفة. تتطلب التحديات الدولية حلولاً دولية. وتتطلب الحلول الدولية تحالفات دولية. ولا يُمكن إنشاء التحالفات الدولية على أساس من المصالح القومية الضيقة، إذ لا بد أن تُنشأ على أساس القيم الدولية المشتركة.

أريد أن أطرح هنا، كمثال، قضية التغيّر المناخي، الذي يُعتبر تحدياً عالمياً. إن حلّ هذا التحدي هو في اتفاقية عالمية تتطلب تعاون الدول المتقدمة واتفاقها مع الدول النامية: الصين والهند، وأميركا وأوروبا. تكمن المصالح القومية لهذه الدول في هذا العقد الجماعي، ولا فرصة لهذا العقد بالنجاح إلا إذا كان عادلاً مع سائر الدول التي هي في مختلف مراحل النمو. توضح عملية التحليل المنطقي هذه أن المصلحة القومية تعتمد على اتفاق دولي يعتمد بدوره على مفهوم مشترك من العدل والإنصاف.

نستنتج من هذا كله أن نظرة السياسة الخارجية التي تستند إلى التحليل الضيّق للمصلحة القومية، وإلى عدم الاكتراث إلا لما يتعلق بهذه المصلحة، أصبحت نظرةً خاطئةً ولا تتماشى مع روح العصر. إنني أوافق غلادستون على أن نظرة كهذه هي لاأخلاقية كذلك، لكن حتى ولو لم أكن أوافقه في هذا الرأي فإنني متأكد أنها لا تنجح في هذه الفترة المبكرة من القرن الواحد والعشرين.

كثر الجدال حول السياسة الخارجية، بطبيعة الحال، وأصبح النقاش الأكثر أهمية أثناء الفترة التي أمضيتها كرئيس للوزراء. أخشى القول إنني أصبحت في نهاية الأمر من ضمن أقلية صغيرة حين أسفر هذا التفكير عن تحركٍ عسكري، لكنه لقي قبولاً واسعاً، نظرياً على الأقل، عندما تعلّق الأمر بالاقتصاد، والبيئة، وبقضايا أخرى. أدى هذا الأمر كذلك إلى إرباك اليسار واليمين إرباكاً كبيراً إلى أن انتهينا في هذا الموقف الغريب الذي يعتبر أن وقوف المرء مع عملية فرض الديموقراطية التحررية هو وجهة نظر تنتمي إلى «المحافظين الجدد»، بينما يكون عدم التدخل في قضايا دولة أخرى وجهة نظر تقدمية. لكنني سأفصّل أكثر في ما بعد.

عندما برزت قضية كوسوفو في أواخر العام ١٩٩٨، وانفجر الوضع هناك في الأشهر الأولى من العام ١٩٩٩، شعرت على الفور بالأشواك الحادة للسياسة الخارجية وعملية اتخاذ القرارات.

كانت المشاكل الناجمة عن تفكك يوغوسلافيا، وبعد انهيار جدار برلين، ما زالت تتردد في الأجواء. ولم تكن جروح البوسنة قد التأمت تماماً. بقيت صربيا، على وجه الخصوص، تحت قبضة ديكتاتورية سلوبودان ميلوسيفيتش. تزايدت التوترات

الدينية، والعرقية، والقومية في تلك المنطقة. بقيت كوسوفو ـ وهي منطقة صغيرة تقارب مساحة يوركشاير أو كونيكتيكت، ويسكنها نحو مليون نسمة غالبيتهم من الكوسوفيين المسلمين الألبان ـ جزءاً من صربيا، وهي دولة مسيحية أرثوذكسية. كانت العلاقة بين حكام صربيا والرعايا الكوسوفيين مريعة جداً.

أسفر النزاع في البوسنة عن تقسيم يوغوسلافيا السابقة إلى عددٍ من الدول، وذلك بحسب اتفاقية دايتون التي عُقدت في أواخر العام ١٩٩٥، وهي الاتفاقية التي عُقدت بفضل جهود وعبقرية الديبلوماسي الأميركي ريتشارد هولبروك. استغرق الغرب عامين كي يتدخل أخيراً، أي بعد أن لقي ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ شخص مصرعهم، وهكذا أتاح التدخل نوعاً من أنواع السلام.

أرسل إليّ بادي أشدون رسالة في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٨، وذلك بعد زيارة قام بها إلى المنطقة. أبلغني أن الأمور تتحسن بالإجمال، لكن بالنسبة إلى كوسوفو فالأمور آخذة بالتدهور. بدأت ميليشيا جيش التحرير الكوسوفي بإعادة تسليحها في مقابل التحضيرات العسكرية للجيش الصربي، التي بدا أنها أشبه ما تكون بالتمهيد لاجتياح. تعززت المخاوف التي أعرب عنها بادي بمعلومات تلقيناها من رجال استخباراتنا مع نهاية العام ١٩٩٨. أعطانا رجال الاستخبارات دليلاً قوياً على أن ميلوسيفيتش على وشك إعطاء الأمر بشنّ هجوم صربي واسع. شهدت الأشهر السابقة نزوح مئات آلاف المدنيين، بالإضافة إلى مقتَل نحو ٢,٠٠٠ شخص.

توصّلت الأطراف المعنية إلى اتفاقية موقّتة في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٩٨، وهكذا تمكن بعض المدنيين من العودة إلى منازلهم بضمانة المجتمع الدولي الذي أكد أن لا مخاطرة في عودتهم. لكن عمليات التهجير والقتل استمرّت منذ ذلك الحين.

كان ذلك عملية تطهيرٍ عرقي. يُضاف إلى ذلك أن هذه العملية حدثت في جوار أوروبا مباشرة. بدأ المجتمع الدولي بالتحرك في أول شهرين من العام ١٩٩٩. عُقد مؤتمر في رامبولييه في فرنسا في محاولة للتوصل إلى اتفاق. كثرت القرارات، وصدرت تصريحات عديدة، كما صدرت بيانات يومية حول الطبيعة غير المقبولة لما

يفعله ميلوسيفيتش، لكن عمليات القتل والتطهير العرقي استمرت مع ذلك. أُعدم في ١٥ كانون الثاني/يناير خمسة وأربعون مدنياً في قرية راغاك، وهي قرية صغيرة في كوسوفو. تتالت الإدانات بعد ذلك، وتزايدت أعمال التطهير العرقي، وأخذت أعداد الموتى بالتصاعد حتى وصلت إلى الآلاف.

جاء التحرك العسكري أخيراً في شهر آذار/مارس، وكان على شاكلة ضرباتٍ جوية قام بها حلف الناتو ضد قوات ميلوسيفيتش. استمر الأمر هكذا حتى حزيران/يونيو من العام ١٩٩٩، وذلك عندما تراجع ميلوسيفيتش تحت وطأة قيام الولايات المتحدة وبريطانيا، على الأقل، بهجوم بري. نفذت قواته انسحاباً فوضوياً، وهي الهزيمة التي أدت إلى تلاشي سلطته تدريجاً حتى خلعه عن السلطة كلياً. عاد إثر ذلك نحو ٧٥٠,٠٠٠ لاجئ إلى ديارهم.

علّمني نزاع كوسوفو أموراً كثيرة عن الحكم، والزعامة، وعن نفسي. إنني أدهش كثيراً الآن عندما أعيد قراءة النصوص التي كتبتها، وأفكر في تطورات الأوضاع. أدت هذه القضية كذلك إلى تغيير موقفي كلياً من السياسة الخارجية.

تبرز هنا أمور كثيرة. أولاً، ليس هناك من شك في أن رد الفعل الأولي للمجتمع الدولي هو أن يتحرك، لكن يفعل ذلك ضمن حدود ضيقة، وهو يحاول جاهداً التوصل إلى اتفاق، وعملياً أي اتفاقٍ كان، حتى ولو أدى إلى إبعاد القضية عن مسبباتها الأساسية. أدركت وجود رغبة في تهدئة الأمور وليس في التوصل إلى حل.

الأمر الثاني، هو أنني ناصرتُ بقوة اللجوء إلى حلّ عسكري منذ البداية. إنني ألاحظ عندما أتذكر ما حدث أنني كنت أدعم منذ البداية، وبلا هوادة، الحل الشامل وليس التهدئة، وهو الأمر الذي أثار قلق عدد كبير من حلفائنا، وذعر قسم كبير من أركان نظامنا.

الأمر الثالث، ظهرت بجلاء في سياق هذه القضية، وإن بألم، نقاط قوة أوروبا ونقاط ضعفها: القارة لامعة في تصريحات النيات الرنانة، التي سرعان ما تتبخر في الهواء عندما يصل الأمر إلى التنفيذ. أقنعتني هذه القضية برمّتها بالحاجة إلى قيادة أوروبية قوية، وبالحاجة إلى استراتيجية دفاعية مناسبة.

يُضاف إلى ذلك أنني وضعت معظم جهودي الهائلة في علاقتي الشخصية مع بيل كلينتون. يُظهر ذلك الشيء الكثير عنه، كما أقدّر له كثيراً تحمله للضغوط كلها بالطريقة التي استخدمتها. يُظهر ذلك الشيء الكثير عن أميركا وعن جهوزيتها في اللحظة الأخيرة للاعتراف بضرورات الوضع، والتحرك بحسب تلك الضرورات.

كانت كوسوفو قضيةً صعبةً بالنسبة إلى الرأي العام الأميركي. يصعب كثيراً شرح المصلحة الأميركية المباشرة في هذه القضية، إذ إن الأمر يختلف عن الوضع في النزاعات التالية التي حدثت في أفغانستان، والعراق. لم يشعر الجمهور الأميركي، أو السياسيون الأميركيون، بشهية حقيقية للتحرك دعك من عملٍ عسكري كبير يتعلق بتحريك القوات البرية. كانت وجهة نظر الولايات المتحدة تتمحور حول أن تلك القضية هي، بشكلٍ أو بآخر، مشكلة أوروبا وعلى حدودها، إذ تبعد آلاف الأميال عن أميركا، وهكذا يتعيّن على الأوروبيين أن يشحذوا إراداتهم لمعالجتها.

تبيّن لي، بسرعة، من خلال المناقشات التي أجريتها مع الرسميين، ومع أركان الجيش عندنا، أن لا فرصة أبداً لأن تجد هذه القضية حلاً لها عن طريق الدبلوماسية لوحدها، وأن القوة العسكرية سوف تكون ضرورية. لم يشعر ميلوسيفيتش، ومن دون أن يكون ذلك مفاجئاً لي، بوجود إرادةٍ عند الغرب لتحركٍ قوي، بل شعر بدلاً من ذلك بأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء، وذلك بعد أن فشلنا في التدخل في البوسنة، وبعد كارثة سراييفو. حصلت، نتيجة لذلك كله، على اقتناع بأن من دون التهديد، على الأقل، بالتحرك العسكري، الذي يجب أن يكون هائلاً، سيكون احتمال إيقاف مشاهد الوحشية والقمع ضئيلاً جداً. مضت النصيحة بالإيحاء أن الرجل حتى مع هذا التهديد سيمتحن تصميمنا كي يعرف ما إذا كنا سوف نقرن القول بالفعل.

بدأت منذ مطلع شهر كانون الثاني/يناير بمحاولة حشد إجماع للتحرك. كانت استراتيجيتي تتركز أساساً على إطلاق مجموعة من التصريحات القوية، وعلى إبقاء المفاوضات الدبلوماسية مستمرة، لكن مع توضيح أننا في حال فشل هذه المفاوضات سوف نبادر إلى التحرك على الفور.

لماذا كنت متحمّساً للتحرك؟ اعتبرت أن هذه القضية هي قضية أخلاقية أساساً. ساعدني هذا الأمر على تحديد وجهة نظري من التدخل الخارجي والعسكري.

اعتبرت كذلك أن هذه هي قضية مصلحة قومية متنورة، لأنني اعتقدت أننا إذا تركنا القضية لتتفاعل، أو إذا سمحنا لعمليات التطهير العرقي أن تحدث من دون محاسبة، فسوف تنتشر في نهاية الأمر إلى أجزاء أخرى من أوروبا.

كان دافعي الأساسي، مع ذلك، هو الغضب مما يحدث. رأينا مدنيين عاديين يهجّرون من منازلهم ويتحولون إلى لاجئين، ويُقتلون، ويُغتصبون، ويُضربون بكل وحشية، وأحياناً مع سادية، ورأينا عائلات بأسرها وهي تُهان أو تتعرض للإبادة. يالله، ألم نتعلم شيئاً من تاريخ أوروبا؟ شكّل الأمر صدمة لي، لكن الأدهى من ذلك كان موقف بعض الأطراف الذين اعترفوا بأن الأمر يشكل صدمة، لكنهم تساءلوا عما إذا كان يجدر بهم التدخل.

زرتُ في وقتٍ لاحق مخيمات اللاجئين في مقدونيا، وسمعت قصصاً عن البؤس تقطّع نياط القلوب. شعرت عند ذلك بالفخر لما فعلناه لأن هؤلاء اللاجئين سوف يعودون إلى ديارهم، لكنهم سيحملون شعوراً بالعتب لأننا كدنا نتخلى عنهم.

إننا نستذكر كل هذه الأمور الآن، وسيقول معظم الناس: حسناً، بالطبع لم نكن لنستطيع أن نتخلى عنهم، مع أننا كدنا نفعل ذلك، ليس لأن القادة السياسيين الذين ترددوا كانوا أشخاصاً سيّئين أو ضعفاء، أو لأن مشاعرهم لم تكن كمشاعري بشأن المعاناة والقسوة، لكن عندما كنا نفكر في ما كان يُمكن أن نفعله في مطلع العام ١٩٩٩، لا أجد الأمر سهلاً أبداً. كانت كوسوفو جزءاً من صربيا، وهي دولة لديها جيش قوي بسمعته. إن البدء بالحروب أمرٌ سهلٌ نسبياً، لكن إنهاءها هو الجزء الصعب. يموت الأبرياء، وتتطور عواقب غير مقصودة، كما تزداد الأوضاع السيئة سوءاً. إن هذا الشك، وغياب الوضوح حتى تفرض الحقائق نفسها، وعادة ما يأتي ذلك متأخراً جداً، هو ما يجعل من القيادة أمراً صعباً.

تعلمت من خلال قضية كوسوفو ـ سواء عن حق أو عن غير حق، نظراً إلى ما حدث في العراق – أن وسط هذه الظروف المضطربة، فالطريقة الوحيدة لتلمس الاتجاه الصحيح هي طرح بعض الأسئلة الأخلاقية: هل يُمكن السماح لهذه الأمور بالحدوث؟ هل يجدر السماح لهذا النظام أن يستمرّ في الحكم؟ وهل يُسمح لهؤلاء الناس بالاستمرار في التعرض للمظالم؟

إذا كانت الإجابات «لا»، فإن ذلك لا يعني أن يشرع المرء في الحل العسكري، كما من الأفضل تجربة البدائل كلها. لكن يجب على المسؤول أن يسأل ما إذا كان تحركٌ كهذا ممكناً وعملياً. تعود الناس أن يقولوا لي: إذا تمكنتَ من التخلص من العصابات في سيراليون، وميلوسيفيتش، ومن طالبان، ومن صدّام، فلماذا لا تستطيع التخلص من موغابي؟ أما جوابي لهم فكان على النحو الآتي: كنت أحب ذلك، لكن الأمر ليس عملياً (لأن في هذه الحال، ولأسباب لم أفهمها بالمرة، استمرت الدول الإفريقية المجاورة في دعمه، ولذلك كانت ستعارض أي تحرّك بقوة).

إن طرح سؤالٍ أخلاقي والإجابة عنه لا يؤدي بالضرورة إلى الحل العسكري، لكن ذلك يؤسّس لهيكلية يمكن أن تؤدي إلى ذلك الحل. تترافق هذه الهيكلية مع نقطة بداية مختلفة تماماً عن نقطة بداية السياسة الخارجية التقليدية، وهي: هل هذه هي مصالح بلادنا؟

لكن حجتي، الأكثر شمولية بطبيعة الحال، التي تستند إلى نظرية التداخل العالمي [تداخل مصالح الدول بعضها ببعض] هي أن هذا السؤال الأخلاقي يشكّل جزءاً من المصلحة القومية، لكن من الناحية التاريخية فإن الشكوك تحيط بمثل هذه النظرة الشمولية. كانت هذه تُعتبر، بشكلٍ مبرر، على أنها تؤدي إلى الحماسة، وإلى معايير ذاتية وغير موضوعية للحكم على الأمور، وإلى العاطفة التي تؤدي إلى المنطق بدلاً من أن تتفق معه. إنني أتعاطف بعض الشيء مع هذه النظرة. أما النظرة المعاكسة لوجهة نظري فلا تُعتبر وليدةَ العجز الأخلاقي، لكنها وليدة التحفظ الطبيعي المحض. إنني لا أرى ضرورة دحض، أو كراهية، القيود الأخلاقية لمثل هذه النظرة، بل أريد أن أقول إن عدم التدخل يترافق مع عواقب غير متوقعة. يُمكن أن يبدو عدم التدخل في البوسنة في مطلع التسعينيات قراراً حكيماً في ذلك الوقت، لكن الأمر يتغيّر عندما نفكر فيه الآن. أدى عدم التدخل، بطبيعة الحال، بميلوسيفيتش إلى الاعتقاد أنه يستطيع تنفيذ عملية كوسوفو من دون أن يحاسبه أحد.

تحولت عمليات التطهير العرقي خلال العامين ١٩٩١ و١٩٩٢ إلى سياسة نظّمها ميلوسوفيتش ونفذها الجيش الوطني اليوغوسلافي بكل وحشية. قُتل ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ مواطن بوسني من أصل ٤ ملايين مواطن، كما جُرح عدد مماثل. انتشرت كذلك حوادث الاغتصاب والسلب بأعدادٍ خيالية في هذه البلاد المتقدمة نسبياً،

وفي أواخر القرن العشرين. وقفت الأمم المتحدة عاجزةً عن فعل أي شيء. انسحبت قواتُ الأمم المتحدة من سراييفو فور بدء القتال تاركةً المدنيين لمصيرهم فقُتل ١٢,٠٠٠ شخص. وقُتل ألوف غيرهم في كرواتيا كما تشرّد عدة مئات ألوف عبر المنطقة. جاء السلام، لكن ميلوسيفيتش بقي سليماً، أي إن السلام فرض الهدوء، لكنه لم يحل المشكلة. بدأت في مطلع العام ١٩٩٩ بمحاولة لإيجاد حلّ ما، فأدركت أن التردد هو ذاته الذي رافق موقفنا في مطلع التسعينيات.

عملت مع مجموعتين: الأميركيين والأوروبيين. أعني بالأوروبيين جاك شيراك على الخصوص، وغيرهارد شرودر، ومع رئيس الوزراء الإيطالي ماسيمو داليما، الذي تدخل بصورة شخصية بالنظر إلى قرب إيطاليا من موقع القتال. حاولت التشديد على خطورة الوضع، وركزت على أن عدم حلّ هذه القضية سيؤدّي إلى مشاكل إضافية. كانوا مستعدين في وقتٍ مبكر للالتزام بتعابير الاستياء الضرورية والشاجبة لما يحصل والمطالبة بوقفها، لكنهم أصروا على أن أي تهديدٍ عسكري يجب أن يستبعد، بكل وضوح، كلياً استخدام القوات البرية.

كان ذلك، بطبيعة الحال، تكتيكاً تفاوضياً يائساً تماماً مع ميلوسيفيتش. دلّ الأمر منذ البداية على وجود حدود لجديّة نياتنا، وعلى أنه يستطيع تحمل الضربات الجوية، ويصمد أمامها. يُدهشني أن يلاحظ الناس، وباستمرار، أهمية أن يحمل أي تهديد في القضايا الدولية ما يكفي من المصداقية. إن غياب المصداقية يزيد، في واقع الأمر، من احتمالات المواجهة. إن الطرف الذي يتلقى التهديد لا يصدقه، وهكذا يستمرّ في أفعاله، وفي هذه الحال يصبح الخيار الذي يحاول المرء أن يتفاداه (أي الذهاب إلى الحرب أم لا) هو الخيار الوحيد الذي يُجبر على اتخاذه. تأكدت من هذا الواقع مرةً بعد مرة، وها نحن الآن على عتبة أن نشهد الأمر ذاته بالنسبة إلى إيران. إن مساندة طلبٍ مصحوبٍ بتهديد ذي مصداقية هو أمرٌ يحظى بفرصٍ جيدة للتنفيذ. أما إذا ظهر نوعٌ من التردّد بشأن المدى الذي يُمكن أن تذهب إليه دولة ما في تلبية الطلب الدولي، فإن المواجهة تصبح حتميةً تقريباً.

كنت معزولاً، أوروبياً، منذ البداية. أريد أن أكون منصفاً هنا وأقول إن غيرهارد امتلك أموراً مقلقة حقيقية داخلية، وبالتحديد ألمانية، بشأن المشاركة في عملٍ عسكري، وذلك لأسباب واضحة. كانت ألمانيا مقيدةً بدستورها وبسياستها في

مسألة المصادقة على استخدام أي قوات ألمانية. زاد شرويدر اقتناعاً، بمرور الوقت، بضرورة عدم استخدام قوات برية، سواء ألمانية أو من أي بلد آخر، وتحت أي ظروف. كانت تلك أول نقطة خلاف حقيقية في علاقتي معه. فهمت مشكلته، لكنه كان رجلاً ذكياً، وكان يستطيع أن يفهم مشكلتنا: إذ بدا واضحاً أن القوات البرية فقط هي التي ستتمكن من القيام بالمهمة، فإما أن نستخدم هذه القوات، وإما أن لا نقوم بالمهمة. عاد مئات ألوف اللاجئين إلى كوسوفو في صيف وخريف العام ١٩٩٨، وذلك بناءً على تأكيداتنا أننا لن نسمح أبداً بتجدّد أعمال التطهير العرقي.

بدأنا المحادثات التمهيدية العائدة إلى هجوم حلف الناتو، فتوضّح لدينا أمرٌ آخر: حتى إذا اعتمدنا على الضربات الجوية لوحدها، فإن ٨٥ بالمئة من الوسائل المستخدمة ستكون أميركية. أما الحقيقة فمن دون الولايات المتحدة لا يُمكننا عمل أي شيء، وفي هذا دليلٌ كافٍ على عجز أوروبا الكامل.

بدأت بالتحادث مع بيل كلينتون بشأن احتمال تحركٍ عسكري، ليس عن طريق الجو فقط، بل مع استخدام القوات البرية إذا اقتضى الأمر. تعززت علاقتي معه كثيراً في هذا الوقت. كنا شريكي الروح في السياسة، وتقاسمنا معاً الرؤية ذاتها إزاء ضعف السياسة التقدمية. كنا مجدّدين مثاليين، كما كنا نتبع الأسلوب غير الرسمي، وشبابيين في نظرتنا إلى الأمور، وهادئين على مستوى معيّن، لكننا استندنا في العمق إلى أساسٍ متين كالصخر.

كان كلينتون أكثر السياسيين مهابةً من بين الذين تعاملت معهم على الإطلاق. أما خبرته وقدرته الاستثنائيتان في ميدان السياسة بالذات فقد حجبتا حقيقة كونه مفكراً لامعاً يمتلك برنامجاً، وفلسفة سياسية صافية وعميقة. أما الأسطورة التي عاناها فكانت أسطورة الانتخابات. لاحظت وجود تشابهاتٍ في هذا السياق مع مأزق حزب العمال الجديد.

أما فلسفة الطريق الثالث التي اعتمدناها فلم تكن انشقاقاً ناجحاً بين اليمين واليسار، كما لم تكن القاسم المشترك في كسب الشعبية. كانت تلك الفلسفة محاولةً حقيقيةً ومتماسكةً، وناجحةً بالفعل من أجل إعادة تعريف السياسة التقدمية: أي تحرير هذه السياسة من العقائد التي أصبحت قديمة، وتطبيق قيَمها مجدداً في عالمٍ جديد،

وإدخال إصلاحاتٍ على دور الحكومة والدولة، ومن أجل إنشاء علاقة حديثة بين مسؤوليات المواطن ومسؤوليات المجتمع، أي إصلاح نظام التقديمات الاجتماعية وليس التخلي عنه، وطرح الفرص والمسؤوليات على أنها أساس المجتمع القوي. كانت تلك الفلسفة طريقاً للتحرك إلى ما يتجاوز الدولة الصغيرة، ومبدأ «لا دور للمجتمع» الذي يعتمده الجمهوريون، ويتعدى مبدأ الدولة الكبيرة التي لا تشجّع على الاستثمار، وهي القاعدة التي يعتمدها الديموقراطيون التقليديون. تعيّن علينا أن نكون مدراء ناجحين للاقتصاد، والأشخاص الذين يفهمون الجريمة، وأن نكون أصحاب تطلعاتٍ نتعاطف معها.

نأى كلينتون بنفسه تماماً عن سياسة الائتلافات المتنوعة التي كان يفضّلها أقسام من اليسار في ذلك الوقت. أما خطابه الشهير ضد النشطاء من السود الذين كانوا يبشّرون بالعنف ضد البيض، وهو الخطاب الذي أبلغهم فيه بصراحة بأنه لن يقبل أبداً هذا العنف، فقد حوّل بلحظةٍ واحدة صورة الديموقراطيين بوصفهم رهناء لتطرف الأقلية.

تمكّن الجناح اليميني مع الوقت، وببراعة تامة من تكوين أسطورة مفادها أن الناس صوتوا له لمجرد كونه سياسياً بارعاً، وبطبيعة الحال انضمّ قسم كبير من اليسار إلى هذه الجوقة. لكن الحقيقة هي أن الناس صوتوا له لأنهم كانوا أذكياء. إنهم لا يحبّون السياسيين المراوغين، ولذلك اقتنعوا ببرنامج حديث وناجح ومدروس، وهو برنامج يستند إلى فلسفة بدت أكثر توافقاً مع روحية أواخر القرن العشرين من تلك المقدمة حتى ذلك الوقت.

لكن حتى بالنسبة إلى شخصيّتَينا فإننا كنا أقل اختلافاً مما يعتقده الناس، أما بصفتي إنساناً متميزاً فكنت ألجأ إلى المعلّم. كان يمتلك المزايا كلها، لأن ذكاءه كان محجوباً عادةً وراء سلوكه، لكنه يمتلك قدرةً هائلةً على التحليل، كما كان مهتماً بعمق بالجدال السياسي - ولربما إلى درجة مبالغٍ فيها أحياناً - كما كان يبحث دائماً عن أفكارٍ جديدة.

كان سريعَ البديهة، وهكذا كان يتألق في جلسات استجواب رئيس الوزراء. عندما زرته في المكتب البيضوي في العام ١٩٩٦، أي قبل وقتٍ قصير من بدء حملتي

الانتخابية، ومن حملة إعادة انتخابه، جلسنا هناك، وتملّكني شعور بالرهبة الشديدة، وتمنيت أن لا يكون الاجتماع قصيراً جداً. فكرت في عناوين الصحف، وما إذا كانت ستتضمن «بلير يُستقبل ببرودة»، أو «بلير يلقى ترحيباً حاراً»، لكني تمنيت أن أتجنب الكارثة في كلتا الحالين. تذكرت أن نيل كينوك، الذي زار واشنطن مراراً أثناء رئاسة رونالد ريغان بصفته زعيم حزب العمال، قد أساء كثيراً سواء من حيث مضمون الاجتماع (قال ريغان بصراحة إن سياسة نزع السلاح النووي من جانب واحد هي سياسة تتسم بالجنون)، أم من حيث كون ريغان ظن أن دينيس هيلي، الذي كان يرافق نيل بصفته وزير خارجية حكومة الظل، هو السفير البريطاني. شعرت بإثارة لكوني هناك، وشعرت كذلك بنوع من الارتياح عندما انتهى الاجتماع. أظهر كلينتون أقصى درجات اللطف والترحيب اللذين خيّما على الاجتماع.

لم يقصد الرئيس عقد مؤتمر صحفي كامل، وهو الأمر غير المناسب مع زعيم معارضة في بلدٍ آخر، لكنه كان يرتجل كلمات قليلة في المكتب البيضوي بينما يتوافد الصحفيون من أجل التقاط الصور. جلسنا هناك أمام كاميرات التصوير. سأل أحدهم (وكان بيتر ريدل من جريدة ذي تايمز على ما أظن) كلينتون ما إذا كان يعتقد أنه يجلس مع رئيس الحكومة البريطانية المقبل. كان ذلك سؤالاً محيّراً، فإذا كانت الإجابة: «هذا السؤال ليس لي»، فستبدو باردة بعض الشيء. أما إذا قال: «أجل» فإن ذلك أمر غير وارد من الناحية الدبلوماسية. لكن بيل أجاب بسرعة البرق: «حسناً، إنني أتمنى أن يكون هو الذي يجلس مع الرئيس المقبل للولايات المتحدة».

تمتع الرجل كذلك بمرونة مميزة. يُدهَش المرء كثيراً عندما يفكّر في ما مرّ به بيل أثناء محاولة تنحيته. كان أمراً يفوق طاقة أي شخص على التحمّل. لكن كيف أمكنه ذلك، وكيف أمكنه البقاء خلال تلك المحنة؟ لقد فعل ذلك، وترك منصبه بنسبة شعبية تفوق ٦٠ بالمئة.

تمكّن من ذلك، وقبل أي شيء آخر، عن طريق رفضه أن يخيّم الأمر على رئاسته، حتى مع سيطرة هذه القضية على وسائل الإعلام. هنا لعبت المرونة دوراً حاسماً في نجاحه وبقائه. قال لي إنه كان يستيقظ كل يوم مع تصميم على الاستمرار في الحكم. كانوا يتحدثون عن مونيكا لوينسكي، أما هو فكان يطلق خطة للعناية الصحية. كانوا يسهبون في الحديث عن استحالة احتفاظه بمنصبه، لكنه كان يظل هناك من أجل

التخطيط لبرنامج تقديمات اجتماعية جديد. كان يمضي ليفعل كل ما بوسعه من أجل الشعب بغضّ النظر عما فعلوه ضده. كان ينهض ويمضي قُدُماً بما يفكر فيه.

أما السبب الآخر فقد تحدثت عنه فيما سبق، وهو أن الجماهير كانت تتبنى نظرة أكثر اعتدالاً وإنسانية إلى الحياة الجنسية للسياسيين مما تفعله الصحافة الهستيرية التي تحيط بهم. كان الناس يتفهمون، ويتعاطفون، وإلى حدّ ما يتساهلون معها. لا يعني ذلك أنهم يوافقون عليها، لكن عدم رضاهم كان معتدلاً. كانت حدة خيبة أملهم تقلّ بسبب معرفتهم أنهم يخطئون بدورهم ويقعون في الشرور، وهم يحتاجون إلى المسامحة كذلك. يعتقد بعض الناس أن قادتهم يجب أن يكونوا خارج دائرة الملامة في هذا السياق، لكن بعضهم الآخر يعتقد بوجود معايير أكثر أهمية للحكم عليهم، وهي معايير تماثل: هل يقومون بواجباتهم تجاه الأمة على أكمل وجه؟

فهمَ الناس أن عبارة بيل «لا يقول الصدق»، على أنها محاولة منه لعدم إحراج عائلته. صعّد الذين يلاحقونه من لهجتهم، لكنهم وجدوا أنفسهم معه في النهاية في الموقف ذاته. كنت مقتنعاً كذلك بأن سلوكه يرجع جزئياً إلى اهتمامه العميق بشعبه وفضوله تجاهه. عبّر الرجل عن هذا الاهتمام بالصداقة مع الرجال، أما بالنسبة إلى النساء فيُحتمل وجود عنصر الجنس في علاقته معهن. أما من هذه الناحية فإنني أشك في كونه يختلف عن بقية الذكور من السكان.

كان الرجل هادئ الأعصاب أمام التجارب على نحو غير معقول. شاءت المصادفات أن أكون إلى جانبه عندما نُشرت أجزاء مهمة من مشكلته. كانت المرة الأولى في شهر شباط/فبراير من العام ١٩٩٨، عندما انكشف الجزء الأهمّ عن مونيكا لوينسكي. كنت في البيت الأبيض في ذلك الوقت، وعلى وشك عقد مؤتمر صحفي. وقفنا في قاعة الحفلات منتظرين من وراء ستارة كي نبدأ المؤتمر، وتحدثنا قليلاً. شعرت ببعض التوتر، لكني لم أفكر للحظة في عمل أي شيء غير تقديم دعمي الكامل له، وهو الذي كان رجلاً عظيماً، ورئيساً ناجحاً، وكان صديقاً لي قبل كل شيء. أقول، للمناسبة، إنني مخلص جداً للأصدقاء.

كانت تلك إحدى اللحظات السياسية التي تتسم بغموض شديد. كان موضوع المؤتمر الصحفي متفقاً عليه سلفاً، وكان هذه المرة، صدّقوا أو لا تصدقوا، صدّام

حسين وأسلحة الدمار الشامل. كان صدّام يعيق عمل المراقبين مجدداً، كما أن المجتمع الدولي كان يتهيأ للعمل. اعتقدنا في ذلك الحين أن الضربةَ الجويةَ هي احتمال واقعي. كان ذلك موضوعاً مهماً وضاغطاً يتعلّق بالحياة أو الموت. لكن الصحافة أرادت أن تغرز أسنانها في موضوع آخر: مونيكا. اتضح هنا أي الموضوعين أكثر إثارة للاهتمام.

قال لنا رام إيمانويل، وكان أحد كبار مستشاري بيل في ذلك الوقت، وذلك قبل توجّهنا إلى المنصة بوقتٍ قليل: «لا تفسدا الأمر». لم نفعل ذلك بطبيعة الحال. حافظ بيل على رزانته، كما قدمت له مساندتي. كان الأمر انتصاراً بالإجمال.

التقينا في وقتٍ لاحق، وفي مناسبة أخرى، أي في مؤتمر سياسات الطريق الثالث التقدمية، حيث كان من المفترض أن نتحدث أنا وبيل بالإضافة إلى رئيس بلغاريا (وهو رجلٌ محبوب يدعى بيتر ستويانوف) ورومانو برودي (أي مجموعة غريبة من الرؤساء). انكشف جزءٌ آخر من القصة في ذلك الوقت، وتحديداً أشرطة مقابلة ستار). كان ذلك خبراً مدوياً، كما أن الضغوط تزايدت على كلينتون وأصبحت الهجمات شرسة تماماً. اشتمّ خصومه نهايته فاندفعوا نحوها.

تبيّن لنا أن الأشرطة كانت أقلّ إثارةً مما أمل بعض الناس، أو مما خشيه بعضهم الآخر، لكن الغموض زاد عن المرة السابقة. دخلنا مكان المؤتمر، وما لبث بيل وهيلاري أن اصطحباني إلى مكتب صغير حيث تحدثنا. شهدت هناك تصميم هيلاري العنيد، وهدوء أعصابها، وقوتها. وإذا ما تساءلتُ يوماً عن أهمية الدور الذي لعبته في صعود بيل، فقد حصلت على الجواب حينئذ. شعرتْ بالغضب وبأنها تعرضت للأذى بمقادير متساوية وكبيرة، وكان ذلك واضحاً جداً، لكنها كانت مصمّمةً على عدم السماح أبداً للأمر بتدمير ما شيّداه معاً. أما إذا كان لشخصٍ أن يغضب منه، فإنها الأجدر في ذلك وليس أي شخص آخر.

سألني كثيرون عن العلاقة التي تربط بينهما. يفترض الناس، بمن فيهم بعض الرؤساء، أن زواجهما لم يكن مرتّباً فقط، بل كان شراكةً سياسية، وأن هذه الشراكة هي التي أبقتهما معاً على الرغم من كل شيء. كنت أقول لهؤلاء: أتعرفون ما هو رأيي بالأمر؟ أعتقد أنهما متحابان. هذه هي المفاجأة الحقيقية. أجل، إنها شراكة سياسية،

وأجل، إنها مدعومة بطموحاتٍ متبادلة، لكن، وبعد كل شيء يكون الطموح هو المظلة التي يستظلّ تحتها الحبّ الحقيقي، وليس الحب هو ما يستظل تحته الطموح.

حرت في ما أقول عندما جلسنا نحن الثلاثة معاً. شرحت هيلاري بهدوء، لكن بقوة ما يلي: لن يتسبب الأمر بدفعه إلى الاستقالة. سيبقى، ويجابه، ويفوز. تحدثنا عن الأمر لفترة من الوقت، ثم توجّهنا إلى المؤتمر. كان بيل، بطبيعة الحال، لبقاً، ومثيراً للانتباه، ومسترخياً. جلستُ هناك فاغر الفم في بعض الأحيان نتيجة إعجابي بهذه الثقة الشديدة بالنفس.

ذهبت وإياه في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم للاجتماع مع طلاب في مدرسة مونتغومري بلير الثانوية التي تقع خارج واشنطن. كان من المفترض أن نلقي كلماتٍ عن موضوع السياسة التعليمية. رأينا آلاف الطلاب في قاعة الرياضة. بدا المشهد أشبه بمهرجان، وترددت الصيحات، وقَرْع الأقدام على الأرض، والغناء. ألقينا بنصوص الكلمات جانباً، ومضينا في الحفل مع الحشد، وكأننا من نجوم الغناء المشهورين. لقي بيل استقبالاً رائعاً، الأمر الذي رفع معنوياته كثيراً.

كانت كوسوفو في ذلك الوقت، أي في أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٨، تلقي بظلالها على العالم. وصلنا إلى مطلع العام ١٩٩٩، وكنت انتهيت في ذلك الوقت من وضع تصورٍ لما نحتاج إليه كي ننجح، وأدركت أن كل شيء يعتمد على علاقتي معه. وأنني إذا ما تمكّنت من إقناعه فسوف نحظى بفرصةٍ للنجاح. أما إذا فشلت في ذلك، فمعنى ذلك أن الأوروبيين هم أعجز من أن يتحركوا بمفردهم. يعني ذلك أننا سوف نكرّر غلطة البوسنة، بدل من أن نتعلّم منها.

تحدثت مع بيل بانتظام خلال شهرَي كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير. كان الهجوم الدبلوماسي ما زال ناشطاً، وكذلك كان هجوم ميلوسيفيتش ضد مسلمي كوسوفو. لم تكن الأنباء المحزنة المتسربة عن المجازر استثنائية، وعلى الخصوص تلك التي حدثت في راغاك. كان الأمر مريعاً: مجموعات من المدنيين تُدفن في الأرض لا لسبب إلا لأنها تنتمي إلى دينٍ آخر. جاء زعيم الكوسوفيين، إبراهيم روغوفا، كي يلتقيني. كان رجلاً نحيفاً، وعليلاً، وكان يعاني سرطان الحنجرة. توسّل الرجل طالباً المساعدة. قال لي: «إنهم يقتلوننا». أعطاني هدية، وكانت عبارة عن

قطعة صغيرة من الكريستال الكوسوفي ذات اللون الأرجواني والأبيض. شرح بالقول: «ليس لديّ إلا القليل كي أهديه». احتفظت بالهدية فوق مكتبي في داوننغ ستريت.

اتفقت مع بيل على التحرك العسكري من خلال حلف الناتو، وعلى أن يكون ذلك على شاكلة سلسلة من الضربات الجوية. صدرت تصريحات واضحة في البداية، وعلى الرغم من شكوكي الشديدة، تفيد بعدم استخدام القوات البرية. لكن من دون ذلك التصريح لم يكن من الممكن البدء بالتحرك العسكري، لذلك ظننت أن الأمر يستأهل الموافقة عليه، وهكذا أمكننا أن نكشف لاحقاً عن الأمر.

بدأت التحضيرات على الفور. تسارعت في أواخر شهر آذار/مارس، وعلى نحوٍ مفاجئ عمليات التهجير، والتطهير العرقي، وقَتلِ مسلمي كوسوفو. كان ميلوسيفيتش يحشد لحملات شديدة التنظيم سلفاً. تعيّن علينا أن نتحرك. بدأت الغارات الجوية التي ساهمت فيها الطائرات البريطانية. ألقيت بياناً في مجلس العموم، كما حصلنا على دعم واسع من الحزبين. قدّم لنا بادي دعمه القوي، وهو الذي كان على وشك الاستقالة من زعامة حزب الديموقراطيين الليبراليين، لكنه كان لا يزال رئيساً للحزب في ذلك الوقت. أرسل إلي رسالة حذّرني فيها بالقول إن استخدام القوات البرية قد يكون ضرورياً.

بدأت أولى حملاتي العسكرية الشاملة. قدّمت لنا كوسوفو مثالاً صارخاً وواضحاً، ولا مفر منه، على محدودية الضربات الجوية الصرف التي توجّه ضد خصم عنيد لا يكترث كثيراً لخسارة الأرواح. سارت هذه الحملة بحسب نمطٍ مشابه لحملاتٍ أخرى، أي إن هذه الضربات تتمكن من إلحاق أضرارٍ حقيقية بالعدو، كما أن عنفها ظاهر بوضوح، وهي تتمكن من إضعاف البنية التحتية له، كما تُضعف الروح المعنوي للجنود، وكذلك الأمر بالنسبة إلى السكان المدنيين. يعني ذلك أن بإمكان الضربات أن تردع، وتكبح، وتعيق، لكن ما لا تتمكن هذه الضربات من فعله هو إزاحة احتلال أرضٍ من قِبل عدوٍ مستعدٍ لتحمل خسائر هائلة والانتظار.

كانت الأهداف كثيرةً في البداية. لكننا تمكنا من إصابتها بسرعة مستفيدين من التكنولوجيا والأسلحة الحديثة. برز أمامنا سؤال هام: ماذا الآن؟ كانت الأهداف متداخلةً مع المناطق المدنية. تزايدت عبارة «الأضرار الجانبية» في البروز، وهي

عبارة فظيعة حاولت استبعادها، يُضاف إلى ذلك أن أهدافاً كثيرة كانت تُصاب عن طريق الخطأ. (لم تكن هذه الأهداف مدنيةً فقط، إذ أصبنا، في حادثٍ فظيع، السفارة الصينية في بلغراد). أصيب العدو بأضرارٍ فادحة لكنه لم يُهزم. تزايدت مشاعر الإحباط، كما تعزّز الشعور بعدم الإنصاف، وعلى الخصوص بين الدول الغربية، بالنسبة إلى حملةٍ جويةٍ صرف. بدت عبارة «الطائرات مقابل الجنود» عبارةً خالية من الإنصاف تماماً. كان الوضع برمّته يلقي بثقله على القادة السياسيين. يُمكن للمعتدي أن يحمل لواء الضحية إذا لم يحترس المرء.

أما الأسوأ من ذلك في هذه الحالة، فهو ما تبيّن لحلف شمال الأطلسي ذاته، بعد مرور عدة أيام، من وجود قيود معينة على متابعة هذه الحملة. وتبيّن لنا أن الحلف يتّبع طريقة اللجان في المصادقة على قصف الأهداف، وهي طريقة معقدة يائسة ومضحكة في الوقت ذاته، وهي التي عادة ما كانت تؤخّر عملية اتخاذ القرارات. كان ويز كلارك، القائد الأعلى للقوات المتحالفة في أوروبا، وهو المسؤول عن عمليات الناتو العسكرية، رجلاً طيباً، ومتحمساً، وملتزماً لكننا كنا نفتقد البنية التحتية المطلوبة لوسائل الإعلام والاتصالات، وهي البنية التي تتطلبها حملة كهذه، والتي تحتل عناوين الأخبار الرئيسة في أنحاء العالم. كان خافيير سولانا، الأمين العام لحلف الأطلسي، رجلاً من الطراز الأول كذلك، لكنه كان رازحاً وسط آراءٍ متضاربة (كي لا أقول أنانيات متضاربة) لرؤسائه السياسيين.

أختصر بالقول إن مئات آلاف اللاجئين كانوا يتدفقون عبر الحدود بحثاً عن أوطانٍ جديدة لهم في الدول المجاورة، ومقدونيا على الخصوص. توصّلت إلى اقتناع فحواه أن هذا يكفي، ولا يمكن السماح باستمرار هذا الوضع إلى ما لا نهاية، لأنه كان سيشكّل كارثةً إنسانية.

اتخذت عند ذلك قراراً واضحاً. لم يمضِ عليّ في السلطة حينذاك أكثر من ثمانية عشر شهراً، لكني بدأت أفكر في اضطراري للاستقالة. تحدثت مع ألاستر وجوناثان، ثم دعوت إلى اجتماع مغلق لفريق العمل الخاص بي. قلت لهم: إنني مستعدّ لخسارة منصبي بسبب هذا، كما أنني مستعدّ للمخاطرة بكل شيء من أجل تحقيق أهدافنا. إننا مستعدون لتثبيت وجودنا هناك، وسأراهن على زعامتي وعلى

كل شيء كي ننتصر. إن ردود الفعل على ذلك الجنون الوحشي الذي لا يُغتفر كانت هزيلةً جداً إلى الآن. سنحاول الآن الإمساك بالوضع، كما سأستخدم نفوذي كله لدى الرئيس كلينتون كي يسمح بإدراج استخدام القوات البرية في برنامج عملياتنا.

كان الفريق رائعاً في لحظاتٍ كهذه. اعتقد بعضهم أن من المستغرب قليلاً أن تسير حكومة تلتزم تغيير الخدمات العامة في بريطانيا، وخفض نسبة البطالة، في خط المغامرة العسكرية في البلقان، لكنهم وافقوا جميعاً على خطتي، وسمحوا لها بأن ترى النور.

اتصلت أولاً بحلف الناتو، وتحدثت مع ويز وخافيير. دُهشت كثيراً لأنهما رحّبا بالمساعدة بدلاً من رفضها. توجهنا إلى حلف شمال الأطلسي، واصطحبت ألاستر معي بناءً على طلبهما، وليس طلبي أنا. أتذكر أنني رأيت ويز في مكتبه. رنّ هاتفه الخلوي فجأة. كان صحفياً يسأل عن أخبار الحملة. تحدث الرجل معه لبعض الوقت ثم عاد لمتابعة الحديث معنا. سألته: «كم من المرات يحدث هذا؟» أجابني: «أوه، طوال الوقت». كان الرجل يقوم بالجانب العسكري من وظيفته على أكمل وجه، لكنه كان مستاءً جداً من فقدان التماسك والالتزام السياسيين. حذّرني الرجل، وإن بطريقة لطيفة وودّية على ما أعتقد أن القادة السياسيين لا يفكرون جميعاً بالطريقة التي أفكر بها أنا. بقي ألاستر كي يستخدم خبرته من أجل تنظيم بنية اتصالات تحتية مناسبة. أبلغه ويز بضرورة أن ينتبه لوضعي. كانت تلك إشارة طيبة من ويز لأنني وحيد في موقفي.

تحدثت بعد ذلك مع الجنرالات، ولا سيما ذلك الضابط الألماني المحترم والمسؤول عن الحملة الجوية. أجمع الجنرالات، بمن فيهم ريوبرت سميث الذي يتمتع بكفاءة عالية، على القول لي: لا يمكنك أن تربح هذه المعركة عن طريق الحملة الجوية فقط.

توجّه بادي إلى البلقان مجدداً، ثم عاد مقتنعاً أننا لن نربح. قال لي بعد مرور ثلاثين يوماً أن علينا أن نمنع ميلوسيفيتش من اتخاذ أي خطوة ضد الكوسوفيين. أخذت أعداد اللاجئين بالازدياد، فيما عدد الأهداف أخذ بالتقلص. بعث إليّ رئيس وزراء مقدونيا رسالةً عن طريق بادي: «يرتعب السكان هنا لأنهم يعتقدون أن حلف

الناتو يمتلك خطةً لكنهم لا يعلمون بها. أما أنا فأشعر برعبٍ آخر لأنني أعلم أن الناتو لا يمتلك خطةً كهذه».

تحدثتُ مرةً أخرى مع الرئيس كلينتون، ثم أتبعت حديثي برسالةٍ شخصية. قدّمت له في هذه الرسالة خططاً من أجل تحسين التنسيق فيما بيننا، وتغيير طريقة الاستهداف، وتغيير طريقة عمل وسائل الإعلام.

بعثت له بعد أسبوع برسالةٍ أخرى، وزرت في هذه الأثناء أحد مخيّمات اللاجئين. لا تحمل زيارات كهذه مضموناً مهماً، لكن هذه الزيارة أتاحت لي التحدث بسلطةٍ أكبر. ذكرت له في تلك الرسالة ما دار في مكالمتنا الهاتفية الليلة الماضية، التي أثرت فيها موضوع القوات البرية. لم أُفاجأ عندما تحدث بيل عن الاعتراضات كافة، حتى عن التخطيط لأمرٍ كهذا، إذ لا بد أن تتسرّب الأنباء عن هذا التخطيط في نهاية الأمر. شدّدت في هذه الرسالة على الحاجة إلى البدء بالأمور اللوجستية قبل قدوم الشتاء، نظراً إلى أن الحملة البرية تتطلب أشهراً لتنفيذها.

استعرضتُ الوضع بعد ذلك، والتقيتُ قادةَ الجيش، ورئيس هيئة الدفاع تشارلز غوثري، وهو شخصٌ أعجبت به حقاً، واحترمته، واعتمدت عليه. كانت وجهة نظره تماثل وجهة نظري تقريباً، لكني قلت له إننا إذا احتجنا إلى هجوم بريّ فسيتعيّن علينا أن نكون مستعدّين لتقديم ٥٠,٠٠٠ جندي بريطاني، في حين تقدّم الولايات المتحدة ما بين ١٠٠,٠٠٠ و١٥٠,٠٠٠ جندي. أدركت أن عدداً قليلاً من الدول الأوروبية سينضمّ إلى الحملة، وهكذا سنعتمد على الأميركيين. ستقول لنا هذه الدول، وبكثيرٍ من المنطق: حسناً، إذا كنتم متحمّسين، فماذا ستقدمون؟ رفع تشارلز حاجبه مع الآخرين. كانت مخاطرة هائلة. بدأ غوردون بالتساؤل عن التكاليف بدوره، وكان محقاً في ذلك.

استمرت الضربات الجوية، لكن اتضح لنا بمرور كل يوم مدى سخافة استبعاد القوات البرية. أعرف، بطبيعة الحال، أن أعداد الجنود المشاركين في المعركة تشكل صدمةً للجميع. أدركت أن روعة القيادة تكمن هنا، أي إن هذه هي القرارات التي تحدّد شخصية المرء، وهي التي تميّز القادة بعضهم من بعض، وهي السمات المتعلقة بالقيادة العليا.

يجري الأمر على النحو الآتي: تجد أمامك هدفاً استراتيجياً. دعنا نفترض الآن أنك عزمتَ على تحقيق هذا الهدف، لكنك تلاقي عقبة في تحقيقه. تبدو لك كلفة إزالة هذه العقبة عالية جداً. ويُمكن لأي شخص لا يجلس في كرسي القيادة أن يناقش الأمر. يقول أحدهم إن الكلفة عالية، بينما يقول آخر إن الهدف في منتهى الأهمية، ويقول ثالث إن السلبيات والإيجابيات كبيرة جداً. يتعيّن على القائد هنا أن يقرّر ما إذا كان تحقيق الهدف يبرر الكلفة. يُضاف إلى ذلك أن الحاضرين غير متأكدين بالضبط من الرقم الذي ستصل إليه الكلفة، أو الثمن الحقيقي للعجز الناجم عن تحقيق الهدف. يتعيّن تقدير هاتين الكلفتين بناءً على حسابات غير دقيقة. يُمكن لأولئك الذين لا يجلسون في مقعد القيادة الإشارة إلى الكلفة أو الثمن، لكنهم لا يتمكنون من تحديد الكفة الراجحة. ربما تكون مسؤولية المشاركين في النقاش حساسةً جداً، لكنها ليست مطلقة. تقع هذه المسؤولية برمّتها على عاتق القائد.

أريد أن أقول في هذا السياق إن عدم اتخاذ قرار هو قرار في ذاته، كما أن اللاتحرك هو تحرك. إن ترك الأمور والمبادرة للتحرك يتركان آثارهما على السواء.

إذاً، مضينا هكذا نحو حرب برية في البلقان. هل هذا جنون؟ لكن إذا كان البديل هو انتصار ميلوسيفيتش، فماذا سيكون ثمن السلام في المنطقة إذاً؟ وماذا سيكون الثمن بالنسبة إلى مصداقية حلف الناتو؟ وما هو ثمن ردع الحُكّام المستبدّين؟

كان قراري، بغضّ النظر عن ارتفاع الكلفة، أن ثمن السماح لميلوسيفيتش بالانتصار كان عالياً بحيث لا يُمكن تقبّله. نستنتج من ذلك كله أن الطريقة الوحيدة لتجنب دفع ذلك الثمن هي الحملة البرية لذا يتوجب علينا أن نمضي بها.

بقي بعد هذا كله، وعلى الرغم من كل شيء، وجهة نظر الأقلية...

مرّ شهر نيسان/أبريل وجاء شهر أيار/مايو، وهكذا تضاعف قلقي. كان التشدّد أكبر في القيادة المركزية لحلف شمال الأطلسي. امتلكنا، على الأقل، قضيةً جديةً نرغب في عرضها، لكن الوقائع بقيت على حالها: بقي ميلوسيفيتش هناك، ولم تظهر أي إشارة تدل على استعداده للانسحاب. استمرت المساعي الدبلوماسية مع ذلك، لكن لم يكن من الواضح أنها ستؤدّي إلى أي حلّ مقبول، أقله أن يكون مقبولاً بالنسبة إليّ. ترسخ لدي الاعتقاد في ذلك الوقت أن شيئاً لن يفيد غير هزيمته الساحقة.

لكن حماسة حلفائنا الأوروبيين للهجوم البري لم تكن قد تبرعمت بعد، بل على العكس من ذلك بقيت معارضةً هجوماً كهذا حازمةً كما في السابق. كتبت رسالتين في ١٨ و١٩ من شهر أيار/مايو، واحدة إلى الرئيس كلينتون، والثانية إلى زملائي من كبار زعماء أوروبا.

أعربت مجدداً في رسالتي إلى بيل عن موافقتي على حاجتنا إلى التحضير لهجوم بري. دعيت كذلك لتجهيز قوة تضم نحو ١٥٠,٠٠٠ جندي بحيث يكون نصفٌ هذا العدد من أوروبا، ويكون النصف [من هؤلاء] بريطانيين. كان اقتراحاً جريئاً جداً، ذلك لأنني لم أمتلك سبباً يدعوني إلى الاعتقاد أن أوروبا سوف تساهم بتقديم جنود عدا الجنود البريطانيين، لكني أراهن أن الولايات المتحدة إذا التزمت فإن الأوروبيين سوف يخجلون بما يكفي لتقديم دعمهم، وعلى الخصوص إذا قدم البريطانيون العدد الأكبر منهم.

حاولتُ كذلك تعديل الاقتراح الذي قدّمه ماسيمو داليما الذي يقضي بوقف الغارات الجوية لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، وذلك لمعرفة ما إذا كان ميلوسيفيتش على استعداد لعقد اتفاق. كنت قلقاً بالفعل لأننا إذا اكتفينا بهذا الاقتراح كما هو، فسيمنح ذلك ميلوسيفيتش ما يريده بالضبط. وهكذا اقترحت أن يترافق التوقف عن شنّ الغارات مع قرارٍ صادرٍ عن مجلس الأمن في الأمم المتحدة (جاءتنا إشارات تدل على احتمال أن تدعم روسيا قراراً كهذا إذا توقفت الغارات) يعطي ميلوسيفيتش إنذاراً نهائياً، فإما أن يقبله وإما أن يرفضه. سيجتمع مجلس الأمن في حال رفضه القرار على الفور ويبحث في إمكانية شنّ هجوم بري.

اعتذرتُ في رسالتي التي وجّهتها إلى بيل عن الاستمرار في الضغط في مسألة القوات البرية، لكن الرسالة أكدت ضرورة مواجهة هذه القضية. تمكّن ميلوسيفيتش حتى الآن من استيعاب العقوبة، لكن التهديف أخذ يزداد صعوبةً مع الأيام. أصيبت قافلة مدنية في إحدى الغارات، مما تسبب بانتقادات أكبر لحملتنا. تمكنت عندئذ من تحديد الوضع الذي نتجه إليه. أردت أن نتجنب احتمال التوصل إلى تسوية غامضة مهما يكن الثمن.

عرضتُ الوضع بكل وضوح أمام الأوروبيين: هل نقول إن أهم شيء هو «ممنوع

أن يخسر الناتو»، أو إن أهمّ شيء هو «ممنوع على الناتو استخدام القوات البرية»؟ إذا كان الخيار الأول هو الأهمّ فكيف يمكننا أن نستبعد استخدام القوات البرية عندما يُجمع العسكر على أننا لا نضمن النصر بواسطة الغارات الجوية لوحدها؟

دعمتُ الرسالتين بمكالماتٍ هاتفية. بدأت المكالمة مع بيل بصعوبة بالفعل. أوحت سلسلةٌ من التقارير الصحفية أنني أضغط على الولايات المتحدة كي تلتزم [بهجوم بري] وأنني أدفعه إلى التصلّب. أشار بيل إلى ما فعلته مع الصحافة (كان الجميعُ يعتقدون أن ألاستر يتفرد بصوغ الأخبار في كل مكان). لاحظت أنه غاضب جداً، فأنكرت الأمر بشدّة (وبصدق). سارت المكالمة بصعوبة لبعض الوقت، إلا أنه سرعان ما تناسى الأمر فعدنا إلى مناقشة موضوعنا. شعرتُ، للمرة الأولى، بأنه يناور من جهته باتجاه العملية البرية. كانت تلك خطوة عظيمة إلى الأمام. أدركت كذلك مدى صعوبة الأمر بالنسبة إليه. لم يضغط عليه أحد عملياً في ذلك الاتجاه، كما أنه كان يعرف جيداً أن الجمهوريين ينتظرون الفرصة للانقضاض عليه سواء بسبب الضعف أو بسبب التهور.

كان من الجيّد أن تكون علاقتنا قويةً ما يكفي لتتجاوز ما يُسمّى «متلازمة الإنهاء» التي توجد لدى الأوساط السياسية والمبعوثين السياسيين. كانت تلك ظاهرة صادفتني مرة، وهي التي كانت تتبعها أضرار لا مبرر لها.

يُعتبر السياسيون، عموماً، مزيجاً غريباً من الصلابة والمرونة. إنهم يحتاجون إلى الصلابة كي يستمرّوا، وذلك لأنهم لا ينفكون عن تلقي السهام باستمرارٍ تقريباً. أما على مستوى آخر فإن شعورهم الطبيعي بعدم الأمان عادة ما يجعلهم شديدي الحساسية بالنسبة إلى نظرة الناس إليهم، وبالنسبة إلى الاحترام الذي يتلقونه من زملائهم، وبالنسبة إلى الذين يريدون إيذاءهم، وبالنسبة إلى الذين يدعمهم. يسهل نسيان هذا الوضع بصورة لا تُصدّق. يُمكن أن تُنسب إلى رئيسٍ ما أشياء تُكتب وتُقال عن زعيم آخر من دون أن يكون على علم بها، وهكذا تسوء العلاقة بلحظةٍ واحدةٍ من لحظات الزمن. إنني أقول دائماً يجبُ على القائد السياسي أن يتجنب تأليبَ الأعداء عليه عمداً إلا عند الضرورة القصوى، وذلك لأن المرء يحصل على أعداء من دون قصد.

تلعب متلازمة الإنهاء دوراً كبيراً في هذه العملية. يمتلك القادة فِرَقاً من حولهم. يدين أفراد الفريق بمراكزهم إلى القائد. يمكننا القول إنهم موالون في الغالب، وكثيراً ما يغالون في ولائهم. إنهم يحترسون دائماً من الأخطاء ويتفحّصون صفحات الجرائد. يعرف أفراد الفريق النقاط الخفية التي يخشاها قائدهم وعدم الشعور بالأمان عنده، وهكذا فإنهم يمهرون في استغلالها.

لديّ فريق عظيم، كما أعتبر نفسي محظوظاً بالفعل لأن آنجي وجوناثان، على الخصوص، كانا على استعداد لعدم اعتبار أن أي نقد أو تحرك يوجه نحوي بمثابة المؤامرة. لكنني أعجز عن إحصاء المرات التي اضطررت فيها أن أقول: أنتما لا تعرفان من نشر ذلك الخبر، وأنا لا أعرف، لكن ما هو أهم من ذلك هو أننا لن نعرف أبداً، لذلك توقفا عن القلق بشأن ذلك كله. يعني ذلك أنني تعرضتُ لـ»متلازمة الإنهاء» مرات أقل مما تعرض لها معظم الآخرين، لكني لاحظت أنها تستمرّ في ملاحقة القادة الآخرين، وعلى الخصوص أعضاء الحكومة. كانت هذه المتلازمة أكثر ما تظهر عند إجراء تغييرات بين الوزراء وخلالها، وذلك حينما تكثر الإشاعات. كان كل اسم يظهر في الصحف يترافق مع الافتراض أن ماكينة داوننغ ستريت هي التي وضعته هناك.

أما أغرب مثالٍ على ذلك فقد حدث في العام ٢٠٠٤، وقد طال آندرو سميث، وزير الدولة لشؤون العمل والتقاعد في ذلك الوقت. كان آندرو وزيراً قديراً، ورجلاً رائعاً، وكان يعمل بجدٍ وفاعلية على الرغم من عدم أهليته لمناصب حكومية عليا. بدأت الصحافة بالقول إنني كنتُ على وشك أن أطرده. ربما يكون مساعدو غوردون هم الذين وضعوا هذه الفكرة في أذهان الصحفيين، أو في ذهنه هو (أترون، أنا الذي كنت ضحية لتلك المتلازمة، لأنني لم أعلم بها بالفعل).

كان الرجل مقتنعاً أنه على وشك أن يُعفى من منصبه. حضر لمقابلتي وقال إنه سوف يستقيل قبل أن يضطرّ إلى ذلك. كان التغيير الوزاري على وشك الحدوث في الأيام القليلة التالية، كما كنت قد انتهيت من وضع الخطوط العريضة لهذا التغيير. لم أرغب في صرفه في حقيقة الأمر، كما أنني لم أفكر في هذا الأمر بتاتاً، وأبلغته بذلك. بدا وكأنه لم يصدّق ما أقوله وقال لي إنه يفضّل الرحيل بدلاً من أن يقاسي معاناة الإعفاء من منصبه، وهكذا قدّم الرجل استقالته.

يتعيّن على المرء أن يكون حذراً بقوة من تعرضه للأذى من قبل الذين يحبون الثرثرة والمؤامرات، والأمور التي تحدث من وراء الكواليس، أو حتى من قِبل الموظفين ذوي النيات الحسنة الذين يؤمنون بقوة أنك تعرضتَ للإساءة. إن الرهاب هو أسوأ وضع يُمكن أن يعانيه أي قائد أو رئيس.

كانت أصوات كثيرة تهمس في أذني بيل بأن ماكينة بلير الشهيرة كانت تحاول دفعه إلى تغيير مواقفه والتأثير فيه، لكنه، ولحسن الحظ لم يدع هذه الماكينة تزعجه لمدة طويلة. تحرك في الاتجاه الصحيح عندما اقترب موعد اتخاذ القرار المهم، وقد فعل ذلك بجرأة كبيرة.

بدا جلياً على مدى الأسبوعين التاليين أن التصميم الأميركي لإنهاء المسألة قد زاد صلابة. كان كلينتون يقترب من اتخاذ القرار للبدء بالتحضير لخيار القوات البرية ولتنفيذه إذا اقتضى الأمر، وعلى الأقل في ذهنه، لكن ما يُدهش هو سرعة توصيل أمورٍ كهذه، وكأن ذلك يحصل بطريقة طبيعية من خلال النظام، وهكذا بدأت التقارير الصحفية التي تتحدث عن هذا الموضوع بالتسرب.

تحدثنا مجدداً في ٢٧ أيار/مايو، ثم أتبعت حديثي برسالة شخصية. لم يكن مقتنعاً تماماً، لكن كنا في المسار ذاته. ألمحتُ له أن النصر الذي نُحرزه ضد ميلوسيفيتش يُمكن أن يكون دافعاً لنا كي نقدم مستقبلاً جديداً تماماً لدول البلقان داخل أوروبا.

أرسل إليّ دافيد ميليباند في ١٠ حزيران/يونيو رسالةً مهمةً من فلوريدا، حيث كان هناك في الوقت ذاته مع الرئيس. ذكر لي دافيد أنه يعتقد أن كلينتون قد حزم أمره وأن القضية تقتصر الآن على كيفية إقناع الشعب الأميركي.

بدأ ميلوسيفيتش بالانهيار مع تصاعد عزيمتنا، وهكذا كنا نقترب من النهاية. وبينما اجتمع القادة الأوروبيون في ٣٠ حزيران/يونيو كان المفاوضون المكلفون من قِبل الأمم المتحدة والذين كانوا بقيادة الرئيس الفنلندي آتيساري يتوجّهون إلى بلغراد. كان ميلوسيفيتش يستعدّ للإذعان. حدثت على مدى الأيام التالية بعض التطورات، وكان بعضها إيجابياً وبعضها الآخر سلبياً، لكنها تلاشت في نهاية الأمر. تم التوصّل في ١٠ حزيران/يونيو إلى الاتفاقية التي تنصّ على الانسحاب الكامل، وغير المشروط للقوات الصربية من كوسوفو.

تضمّنت الاتفاقية ملحقاً استثنائياً برز على هذا النحو: كان على القوات الصربية أن تنسحب، ومن ثمّ تدخل قوات الناتو مطار بريشتينا. استيقظنا في نهار الجمعة في ١١ حزيران/يونيو على أخبار وجود تأخير، ثم قيل لنا فجأة إن القوات الروسية تريد احتلال المطار. كان الروس، بطبيعة الحال، ضد التحرك العسكري منذ البداية، الأمر الذي شكّل أحد الأسباب التي منعت التوصل إلى قرار من مجلس الأمن. كان من الواضح أنهم مقربون جداً من الصربيين. لكن إذا احتلوا المطار الرئيس فسيحول ذلك كل شيء إلى فوضى.

طلبت الطائرات الروسية حيّزاً جوياً للطيران عبر هنغاريا للوصول إلى المطار. كانت الدبابات الروسية في طريقها من البوسنة. قرّر ويز كلارك عند هذه النقطة أن علينا أن نسبق الروس إلى المطار. أراد ويز أن يأمر الجنرال البريطاني مايك جاكسون، وهو قائد قوات الناتو on-the-ground بالقتال من أجل السيطرة على المطار إذا كان ذلك ضرورياً. كان ويز القائد المشرف على مايك لهذه الغايات. كان الأمر صعباً جداً لهذا السبب. هل يعني ذلك فعلاً أننا نريد من القوات البريطانية أن تحارب الروس؟ لا أظنّ ذلك.

كان ويز محقاً جداً في غضبه الجامح على الروس. كان ما فعلوه خرقاً تاماً للتفاهم الذي سبق التوصل إليه. كان الوضع متفجّراً ومهدّداً للسلام.

خرجت من أحد الاجتماعات كي أردّ على مكالمات محمومة تتمحور حول النظام. اعتبر تشارلز غوثري أن علينا أن نكون حذرين جداً. اتصلت هاتفياً بمايك جاكسون، وذلك خلافاً لكل تراتبيات القيادة. كان الرجل، لحسن الحظ مواطناً متعقلاً وصلباً، وشجاعاً. لم يكن متهوراً، إلا أنه كان في موقفٍ صعب كذلك: كان ويز قائده الأعلى. أوضح لي مايك أن الأمر العسكري هو أمر. ماذا يجدر به أن يفعل؟ لم تكن القوات الأميركية قد وصلت بعد، ولم يكن في المكان غير البريطانيين. هل يجدر بهم أن يحاربوا أم لا؟ لكن كان من الواضح أن مايك يعتبر أن قتال الروس أمرٌ يخلو من المنطق قليلاً. نصحته بالتظاهر فقط، وبتجاهل الأمر، وبضرورة أن يبقى هادئاً. بدا مرتاحاً لما قلته له.

قال الروس، بعد عدة أيام من الأخذ والرد إن الأمر برمّته كان خطأ، وإن المسألة

قد حُلّت. تساءلت تكراراً بعد ذلك عما كان يُمكن أن يحدث لو أنني أبلغت مايك بتجاهل أمر القتال. كان الأمر سيكون فظيعاً حقاً.

بدا التعامل مع الروس غريباً جداً في هذا الوقت. كان يلتسين رجلاً يتمتع بجرأة كبيرة، وهو الذي قدّم الكثير لبلاده عندما تحدى الانقلاب ضد القوى الديموقراطية، ذلك الذي حدث إثر التغييرات التي أدخلها غورباتشيف في روسيا. تحول الرجل في الوقت الذي تعرفت فيه إليه إلى رجل متقلّب بعض الشيء. أتذكر أنني التقيته في مؤتمر قمة دولي بعد وقت قصير من أزمة كوسوفو. تبادلنا هناك بعض الكلمات القاسية حول تلك الأزمة، لكن كل شيء كان قد انتهى في ذلك الوقت وهكذا عبر القاعة للترحيب بي على طريقة معانقته التي اشتُهر بها. كنت سعيداً لأنه عانقني، ذلك لأن هذا دلّ على أن سوء التفاهم أصبح شيئاً من الماضي وهكذا سنتمكّن من التعامل بشكل ودي. كانت الثواني العشر الأولى وديةً على نحو رائع، لكن الثواني العشر التالية كانت غير مريحةً بعض الشيء, إذ تسببت بمشاكل تنفسية لي. أطلق الرجل سراحي بعد نحو دقيقة، ثم مضى مترنّحاً بحثاً عن شراب. أعتقد أنني عرفت الشيء الكثير عنه.

تمكّنت من معرفة فلاديمير بوتين على نحو أفضل بكثير مما عرفت بوريس يلتسين. بدأت علاقتي معه بشكل جيد بالفعل، على الرغم من أنها أخذت تبرد مع الوقت نتيجة قضية العراق، وكذلك نتيجة للعلاقات الآخذة بالتدهور بين روسيا والولايات المتحدة، لكنني لم أنسَ قط الدفء الذي ميّزها في البداية، كما أنني لم أكفّ البتة عن محاولة فهم العوامل التي أدت به إلى أن يكون كما كان عليه، أو كما أصبح عليه الآن.

لكني فهمتُ شيئاً واحداً بشكل تام: عندما كانت روسيا هي الاتحاد السوفياتي، وعلى الرغم من اعتناقها لنظام الحكم والاقتصاد الخاطئين إلا أنها كانت، قوةً [عظمى] تُعامل بكل احترام ، وحتى بشيء من الخوف. أدركت كذلك كيف أنه قد حرّر روسيا من الشيوعية مع سياسة الغلاسنوست والبيروسترويكا (الانفتاح والإصلاح) وسقوط جدار برلين، لكن جعلها تخسر مركزها في العالم. لم يكن يلتسين، على الرغم من كل نقاط قوته، بذلك الشخص القادر على استعادة ذلك المركز. لكن بوتين كان قادراً على ذلك، كان وطنياً على نحو مثالي.

احتفظتُ معه، لحسن الحظ، بروابط عميقة. كان أصدقاؤنا من آل ستورزي، الذين تعودنا زيارة منزلهم في توسكانيا، من الروس من جهة إيرينا. كانوا أسرةً رائعةً، وهو الأستاذ الذي كان أحد أسلافه على علاقة مع مكيافيلي. أما الزوجة فكانت امرأةً تتمتع بإرادةٍ قوية وبحضورٍ يبعث على السرور. رُزق الزوجان ابنتين موهوبتين، كلٌ منهما تتكلم خمس لغات. كانت عائلة إيرينا قد هربت خلال الثورة واستقرت في فرنسا حيث نشأت هناك مع شقيقها فلاديمير، لكنهما تابعا الاهتمام بروسيا. كان أناتولي شوبشاك، رئيس بلدية سان بطرسبيرغ في ذلك الوقت، صديقاً حميماً لفلاديمير، وكان في الوقت ذاته مشرفاً على بوتين. التقيت شوبشاك في فيلا آل ستروزي في العام ١٩٩٦، كما التقيته مرةً أخرى قبل وفاته المفاجئة في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٠ (لأسباب طبيعية كما يُعتقد).

أعطاني هذا نقطة اتصالٍ مع بوتين، الذي كان رئيساً للوزراء في عهد يلتسين قبل أن يرشّح نفسه لمنصب الرئاسة. قاد بوتين الحرب في الشيشان بحماسةٍ بالغة، وبوحشية بحسب قول بعضهم، عندما كان رئيساً للوزراء. كنت، وعلى الرغم من تفهمي للنقد، متعاطفاً مع حقيقة أن تلك كانت حرباً انفصالية شرسة ضد التطرف الإسلامي في صميمه. هكذا فهمت وجهة النظر الروسية جيداً.

التقيته قبل وقتٍ قصير من توليه الرئاسة في العام ٢٠٠٠، في الوقت الذي أظهر تجاهه الآخرون، بمن فيهم جاك شيراك، بعض البرودة. تغيّر ذلك كله مع الوقت، بطبيعة الحال، فأصبحت علاقتهم معه متينة في حين انحسرت علاقتي معه. أراد بوتين في ذلك الوقت أن يتجه بروسيا نحو أوروبا. كان اجتماعي الأول معه في سانت بطرسبيرغ، وهي أكثر مدينة روسية ذات نكهة أوروبية. كان الرجل معجباً بأميركا وقد أراد بناء علاقةٍ قوية معها. كنا متقاربين في السن، وبدا لي أننا نتقاسم الرؤية ذاتها.

التقينا في مسرح ماريينسكي لحضور حفلة أوبرا بقيادة فاليري جيرجييف. اختار بوتين الأوبرا بكل عناية: الحرب والسلام لبروكوفييف، وهي الأوبرا التي كُتبت كي ترفع من معنويات القوميين الروس، والتي تُظهر نابوليون وكأنه هتلر. كانت تلك مناسبة استثنائية حضرتها نخبة الشعب الروسي. حدث شيء هناك واظبت على تذكير نفسي به في السنوات التالية. مشيت أنا وفلاديمير عبر الممرات الجميلة في

ذلك المبنى المهيب الذي يعود بناؤه إلى القرن التاسع عشر. لكن لو حضرتُ مناسبة مماثلة في المملكة المتحدة لكنت انشغلت في إلقاء التحية على الحاضرين، وفي مصافحة الأيدي، وفي تبادل الأحاديث مع الآخرين. لاحظتُ وأنا أسير إلى جانب فلاديمير أن الناس يتراجعون عند اقترابه، ليس بدافع الخوف أو أي شيء آخر، لكن بدافع الرهبة والتوقير. عدت بذهني إلى زمن القياصرة، وفكرت في نفسي: همم، إن سياستهم تختلف عن سياستنا كلياً بالفعل.

تكونت عند فلاديمير لاحقاً فكرة أن الأميركيين لم يعطوه المركز الذي يستحقه. أما الأسوأ من ذلك فهو اعتباره أنهم يحيطونه «بديموقراطيات» غربية بدعمٍ من الغرب، وهي دول ستكون معاديةً للمصالح الروسية.

حاولتُ عبثاً إقناعه بأننا ندعم بالفعل تلك البلدان في سعيها نحو الديموقراطية، وذلك ليس لأننا نعتبرها حصوناً استراتيجية من أجل إضعاف روسيا أو محاصرتها، لكن لأننا نؤمن، وبصدق، بأن تلك الدول إذا أرادت الحصول على الحرية ذاتها التي نتمتع بها نحن، فسيتعين علينا السماح بذلك وتشجيعها. اقترحت كذلك (وحصلت على موافقة الناتو) صوغ ترتيب جديد للتعاون مع روسيا، الأمر الذي أعطاها تأثيراً أكبر بكثير في عمليات اتخاذ القرارات في حلف الناتو.

في ذلك الوقت، فشلت جهودي التي بذلتها في حلّ قضايا كثيرة: العراق، والدفاع الصاروخي القومي، لأنهم رأوا فيها، بشكلٍ مبرر، تهديداً موجّهاً ضدّهم. أما نقطة الضعف في هذا المشروع، وبحسب رأيهم، فكانت الجهود الأميركية الهادفة إلى إنشاء شراكة مناسبة، والأهم من ذلك، الاعتقاد الغربي أن روسيا بدأت تحت قيادة بوتين بإظهار نزعات غير ديموقراطية تعود إلى زمن القياصرة والكي. جي. بي [الاستخبارات الروسية]. تضافرت هذه العوامل كلها كي تضعه في موضع يعتقد أن الأفضل بالنسبة إلى روسيا أن تكون «مستقلة» (وهو الأمر الصعب) وكذلك اتباع سياسة خارجية ذات اتجاه قومي مفرط.

لم أفقد مع ذلك شعوري الأولي تجاهه، أو الاعتقاد لو أن الظروف ساعدت أو تضافرت بطريقة مختلفة، لكانت العلاقة قد تطورت على نحو أفضل. هذه هي السياسة.

هناك سبب آخر وراء الصعوبة التي شابت علاقتي مع فلاديمير، وهو أنه كان يعتبر نهجي تجاه التدخل في السياسة الخارجية غريباً في أفضل الأحوال، وخطيراً في أسوأ الأحوال. كان فلاديمير يؤمن أن القوى العظمى يجب أن تسعى وراء مصالحها بطريقة منصفة وصلبة كي تحقق هذه المصالح، لكن الحديث عن القضايا الأخلاقية كان خطأً كبيراً. إنها تسبب عدم التوازن عندما يكون التوازن هو الأساس. أثار ذلك نقاشاً حول ما هو صواب وما هو خطأ، وهو النقاش الذي وقف عائقاً في طريق ممارسة النفوذ السياسي الضروري.

أخشى، على الرغم من ذلك كله، القول إن كوسوفو لم تُضعف شهيتي للتدخل حينما أعتقد أن من الضروري حل مشكلة تحتاج إلى الحل، وحينما تستدعي الضرورات الأخلاقية ذلك بشدة.

ظهر أمامنا تحدّ إضافي في سيراليون، وذلك في مطلع العام ٢٠٠٠. لم تحظَ هذه القضية إلا باهتمام قليل خلال فترة رئاستي للوزراء التي امتدت عشر سنين، لكنها من بين الأمور التيّ أفتخر بها كثيراً. أما الشيء الأهمّ فهو الدرس الذي يمكننا، ويجب، أن نتعلم منه.

تُعتبر قصة سيراليون التي آمل أن تكون فصولها التالية أكثر إشراقاً، مثالاً لما حدث لإفريقيا. تمتلك كلية فوراه باي في فريتاون روابط وثيقة مع جامعة ديرهام، التي كان والدي يدرّس فيها. كانت هذه الجامعة فيما مضى إحدى أرقى الجامعات في إفريقيا، وكان مستوى التعليم فيها يناهز مستوى معظم الجامعات الأوروبية. تعود والدي التدريس في فريتاون في الستينيات، وكانت سيراليون في ذلك الوقت متحرّرةً من الحكم الاستعماري، وكانت تمتلك بنية حكم قوية، وناتجاً محلياً قومياً للفرد يقارب ذلك الموجود في البرتغال.

مرّت البلاد منذ ذلك الحين حتى أواخر التسعينيات في مسارٍ تنازلي كان مأسوياً مثلما كان حتمياً تماماً. بدا لنا عندما تسلمنا الحكم أن الحكومة المنتخبة ديمقراطياً وكأنها على وشك السقوط على أيدي مجموعة من رجال العصابات، والمجانين، والساديين، الذين كانوا يُعرفون باسم الجبهة الثورية المتحدة RUF. تعرضت ثروات

البلاد الطبيعية الوفيرة، والألماس على الخصوص، للنهب المنظم، وهكذا علق الناس بين فكّي كمّاشة.

أصرّت الحكومة على أن مستقبل البلاد يجب أن تقرره الانتخابات النيابية، لكن مناصريها تعرضوا عند ذاك لملاحقات وحشية تذكّر بما كان يحدث في القرون الوسطى. عمدت إلى قيادة سيارتي من قرية إلى قرية عند زيارتي للبلاد بعد عودة السلام إليها. لاحظت أن واحداً من بين كل ثلاثة، أو أربعة أشخاص، يفتقد جزءاً من ذراعه اليمنى. كان رد فعل الجبهة الثورية المتحدة على مطالبة الحكومة بالانتخابات هو، فعلياً، قطع الأيدي التي تصوّت.

جرت قبل تدخلنا الجولة المعتادة للمفاوضات، والاتفاقيات، والبيانات، ومحاولات إيجاد قاسم مشترك بين الفئات المتصارعة التي لا تتفق على شيء فيما بينها. استمرّت هذه المرحلة الدبلوماسية لمدة عامين، وأُرسلت قوة تابعة للأمم المتحدة، لكنها أُعطيت، كالعادة، صلاحياتٍ محدودة سواء سياسياً أو لوجستياً.

أما بريطانيا، وهي الدولة الاستعمارية السابقة فقد كانت لها مصلحة خاصة بهذه القضية. ساهمنا بتوفير بعض المراقبين والمستشارين العسكريين لهذه القوة، لكن تبيّن لنا أن الوضع آخذٌ بالتدهور. تتالت اتفاقيات وقف إطلاق النار التي كانت تُخرق باستمرار. ساء الوضع كثيراً، وعلى نحو مفاجئ في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٠، أي عندما تخلت الجبهة الثورية المتحدة عن آخر وقفٍ لإطلاق النار ومضت في أعمال العنف.

حضر الرئيس أحمد تيجان كاباه، وهو رجل لطيف ويبعث على الاحترام، كي يقابلني ويطلب المساعدة. تعيّن عليّ اتخاذ قرار بسيط عندما هدّدت الجبهة الثورية المتحدة بالاستيلاء على البلاد بأسرها: هل نترك الأمر لقوات الأمم المتحدة التي برهنت عن عجزها التام عن احتواء الجبهة الثورية المتحدة، أم نقرّر أن نتحرك بأنفسنا؟

كان تشارلز غوثري رجلاً صريحاً يخلو من الغموض. قال لي: إننا نمتلك هناك قوة تتألف من نحو ألف رجلٍ أو أكثر. يمكننا إرسال المزيد، كما يمكننا إرسال بارجةٍ حربية كبيرة. إذا كنتم تريدوننا أن نتخلص من الجبهة الثورية المتحدة فدعونا نقم بهذه المهمة. صدرت التعليمات على الفور.

كان البريطانيون يدافعون عن مطار لونغي، لكنهم تلقوا أوامر تقضي بتوسيع مهامهم. تمكّن الجنود من احتواء الجبهة الثورية المتحدة. أعطى تحرّك الجنود دفعاً للأمم المتحدة لتعزيز قوتها. أُلقي القبض على قائد الجبهة الثورية المتحدة فوداي سنكوح. تعزز في الأشهر التالية وجود القوات الدولية، كما انهارت قوات الثوار. طُبّق بعد ذلك برنامج شامل لنزع الأسلحة، كما تم استيعاب مقاتلي الجبهة الثورية المتحدة السابقين في المجتمع السيراليوني تدريجاً. تمكنا بهذه الطريقة من إنقاذ الديمقراطية في البلاد.

زاد اقتناعي بعد تلك التجربة بضرورة وجود قوة دائمة وجيدة التجهيز لإفريقيا، ويفضّل أن تكون إفريقية بطبيعتها، وبحيث تكون مهمتها التدخل في البلاد التي تمرّ في الوضع الذي مرّت فيه سيراليون. إن المشكلة التي تعانيها معظم مناطق إفريقيا هي النزاعات. يمكن للمرء أن يرسل كميات كبيرة من المساعدات، لكن إذا لم يعالج الأسباب الجذرية، أي النزاعات حول الموارد والأراضي، والحكومات العاجزة أو الفاسدة، فإن المساعدات لا تعدو كونها علاجاً وقتياً بحيث لا تلبث الجروح أن تنفتح من جديد، وفي أي وقت. دعوت على الدوام إلى إنشاء قوةٍ كهذه، كما أن كوفي أنان دعم هذه المساعي بقوة، وهكذا وافقت الأمم المتحدة عليها في النهاية. تساعد مساعدات التنمية على إراحة ضمائرنا، لكن من دون معالجة هذه الثغرات المحدقة، فإنها لن تفلح في إنقاذ البلدان التي تحتاج إلى إنقاذ.

سنحت لي الفرصة أثناء أزمة كوسوفو لإلقاء خطاب أمام نادي شيكاغو الاقتصادي. وضعت في ذلك الخطاب ما أسميته «ميثاق المجتمع الدولي»، وهو عنوان فضفاض بعض الشيء لفكرةٍ شديدة البساطة فعلاً: يُمكن تبرير التدخل لإسقاط نظام استبدادي دكتاتوري على أساس طبيعة ذلك النظام، وليس على أساس الخطر المباشر الذي يمثّله على مصالحنا. كان ذلك رفضاً صريحاً لنظرة المصالح القومية الضيّقة، كما رسمَ سياسة التدخل في سياق تأثير العولمة.

مثّل هذا المبدأ قطيعة مع الماضي بحيث كنت حريصاً على وضع قيودٍ على المبدأ، وذلك لعدم اعتباره مفرطاً في الخيالية [الكيخوتية]. تعرض المبدأ، على الرغم من هذا، لانتقاداتٍ متوقّعة بسبب جعله السياسة الخارجية قضيةً أخلاقية. أما الأمر

المثير للاهتمام فهو أن بعض الجمهوريين اليمينيين جعلوا من هذا الموضوع قضيةً كبيرة، ورأوا أنه يُفسد النظرة المناسبة والمتعقلة بالشيء الوحيد المهم: المصلحة القومية الأميركية. كان رأيي، بطبيعة الحال، هو أن هذه المصلحة يجب إعادة تعريفها على نحو أكثر اتساعاً في هذه الحقبة الجديدة.

أقدمتُ على وضع خمسة اعتبارات رئيسة عند النظر في إمكانية التدخل.

أولاً، هل نحن متأكدون من قضيّتنا؟ لطالما كانت الحرب أداةً غير مثالية لمعالجة آلام البشر، لكن القوةَ المسلّحة تصبح في بعض الأحيان الوسيلة الوحيدة للتعاطي مع الحكّام المستبدين. ثانياً، هل استنفدنا الخيارات الدبلوماسية كافة؟ يتعيّن علينا، وعلى الدوام، إعطاء السلام فرصة، أي كما فعلنا في قضية كوسوفو. ثالثاً، أيمكننا الالتزام بعمليات عسكرية على نحو متعقل وحذِر، وذلك على أساس التقييم العملي للوضع؟ رابعاً، هل نحن جاهزون على المدى البعيد؟ تكلمنا في الماضي كثيراً عن استراتيجيات المخارج. لكن عندما نقدّم التزاماً فإننا لا نستطيع الانسحاب بكل بساطة فور انتهاء القتال، وذلك لأن إبقاء قوات تتألف من عددٍ ضئيل من الجنود هو أفضل من العودة إلى تنفيذ عمليات تستلزم أعداداً كبيرة من الجنود. أخيراً، أنمتلك مصالح قومية في هذه القضية؟

أستطيعُ القول إن تطبيقَ هذه القواعد على العراق قد أظهر كم كانت قضيةً متوازنة، وهي توضح سبب عدم اعتباري الذين يختلفون معها على أنهم أغبياء، أو يعانون من الضعفاء الذين يسهل إقناعهم.

لكن هذا المبدأ في ذاته لا يقتصر على كونه جدالاً بشأن السياسة الخارجية، لكن يُمكن اعتباره رأياً مألوفاً فوق رقعة السياسة: ما هي أفضل الطرق المؤدّية إلى تحقيق التغيير، لكن مع افتراض أن التغيير ضروريّ أو مرغوب فيه بقوة. يمكن للتغيير أن يحدث عن طريق التطور، ويُمكن له أن يحدث عن طريق الثورة. يصدق ذلك على طريقة سير بلدٍ ما نحو الحرية. تُعتبر روسيا في العام ١٩١٧ مثالاً بارزاً على ذلك. كان يُمكن للتغيير أن يحدث عن طريق كيرنسكي، وعن طريق التقدم الاجتماعي خطوة خطوة، لكنه حدث في واقع الأمر عن طريق الثورة البلشفية. يصدق ذلك على عددٍ كبيرٍ من مجالات السياسة العادية. يُمكن تغيير الخدمات العامة أو الاقتصاد عن

طريق الإصلاح التدريجي، كما يمكن لهما أن يتغيرا فجأة، أي كما حدث مع الثورة التي أحدثتها ثاتشر في حقل الصناعة في الثمانينيات.

أريد التشديد هنا على هذه النقطة: إذا كان نظام ما معطلاً أو مقصّراً فإنه يحتاج إلى إصلاح، سواء أكان هذا الإصلاح تدريجياً أو فجائياً.

تشتمل بعض الأنظمة المستبدة والدكتاتورية على عملية تطور تسير بكل وضوح في الاتجاه الصحيح. ربما تكون الإصلاحات بطيئة، لكنها تسير في مسارٍ معيّن وهي مفيدة، أو على الأقل غير خطرة.

تكمن، في حالات أخرى، طبيعة النظام في القمع الذي يمارسه، وهكذا يكون النظام مختاراً بسبب طبيعته. لا توجد إمكانية لتغيير ذلك النظام سواء عن طريق التطور، أو عن طريق فرض إرادته، وذلك لأن تلك الإرادة موجّهة نحو القمع. لا توجد أي فرصة لتغيير ذلك النظام، ولفترة طويلة من الوقت، عن طريق إرادة الشعب، الذي يفتقد بسبب القمع الذي يُمارس عليه، الوسائل التي تمكنه من قمع ذلك النظام، بل على عكس ذلك ستتعمق الطبيعة المؤذية لذلك النظام.

لا يعني أن الحلّ على الدوام يكمنُ في التدخل، حتى مع أنظمة كهذه. ربما لا تشكّل هذه الأنظمة أي خطر خارجي، أو حتى يُمكن في بعض الأحيان حلّها بالطرق الدبلوماسية. يحدث في بعض الأحيان أن لا يكون التدخل عملياً من الناحية السياسية، أي كما هي الحال مع موغابي.

أما إذا حصل خطر كهذا فإن التدخل يكون عملياً في تلك الحالة، وعندئذ يتعيّن اتخاذ قرار. وإذا كان التغيير لن يأتي عن طريق التطور الطبيعي، فهل يتعيّن إحداثه عن طريق الثورة؟ هل يجدر بأولئك الذين يمتلكون القوة العسكرية التي تسمح لهم بالتدخل، التفكير في التدخل؟

تمثل المخاطر أمامنا على الدوام. سبق لي أن قلت إن موقفاً كهذا يُمكن أن يؤدي إلى مخاطرات متسرعة، وإلى عواقب أسوأ من تلك الآثار التي يخلفها القمع. هذا هو المثال الذي يقدمه بعض الناس عن العراق، وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً. لكن عدم التدخل له عواقبه كذلك، وهو ما سبق لي أن تحدثت عنه سابقاً كذلك. لاحظت في كل حملة عسكرية شاركت فيها وجود حالات عديدة من عدم التدخل قبل حدوث

التدخل الحقيقي. أقدم ميلوسيفيتش في العام ١٩٨٩ على إلغاء الاستقلال الذاتي الذي كانت تتمتع به كوسوفو، وهكذا استمرّت حالة التوتر والمعاناة لمدة عقدٍ من الزمن. كانت البوسنة مثالاً نموذجياً على فلسفة عدم التدخل، وكذلك على عواقبها. أما في سيراليون فإن حالة عدم التدخل، أو التدخل الخجول، فرضت نفسها لسنواتٍ عديدة، وذلك من خلال جملة من التسويات التي أجريت على عجل. يعني ذلك أن عملية التطور قد فشلت في إحداث التغيير. أما الأمر الوحيد الذي كان له حظ النجاح فهو حل المشكلة، وليس تهدئتها. أما في جزء آخر من إفريقيا، وفي دولة رواندا الصغيرة، فقد نجح مناصرو عدم التدخل في كبح الذين اعتبروا المجازر بمثابة نداء لحمل السلاح.

لا يُمكن لأحد أن يقول إن مشاكل البلقان قد حُلّت تماماً الآن، كما بقيت سيراليون فقيرة، وهي الحال مع معظم دول إفريقيا. أما دول البلقان، التي ظلّت لمدة قرنٍ من الزمان، أو أكثر من ذلك، مثالاً على عدم الاستقرار، فقد أصبحت تمتلك هذه الأيام فرصةً على الأقل لمستقبلٍ أفضل، كما أن كرواتيا بدأت بمفاوضات الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، بينما تُعتبر سلوفينيا عضواً كاملاً فيه. أما سيراليون فهي اليوم دولة ديمقراطية تغيرت فيها الحكومة من دون إراقة دماء. تسير ليبيريا الآن في درب الآلام الصعبة نحو المستقبل، أما رئيسها السابق الذي كان يدعم الجبهة الثورية المتحدة فينتظر المحاكمة.

إذا انطلقت الثورة من خلال التدخل، وعندما يستند التدخل إلى الرغبة في فرض الحرية والديمقراطية فإن الصراع سوف يبقى صعباً، والانتكاسات ستكون وفيرة. أما أولئك الذين يصيحون بأن الحال ستكون أفضل لو تُركت دولة ما لوحدها فإنهم سوف يشهدون صحة وجهة نظرهم بصورةٍ منتظمة، لكني أشك كثيراً في أن التاريخ سوف يصدر الحكم ذاته. إن شوكةَ القمع يُمكن أن تنكسر بعد حدوث ثورة حتى ولو تحقق ذلك عبر آلام الحرب. أما التطور السليم، ومهما كان ضعيفاً، فيُمكن أن يبدأ.

يُعتبر هذا جدالاً مثيراً للاهتمام. عُقد اجتماع خاص في نيويورك للأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. أدى هذا الاجتماع الذي عُقد في شهر أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٠ إلى تبني تقرير الإبراهيمي، الذي أدى إلى إنشاء قوة دائمة تابعة للأمم المتحدة من أجل حفظ السلام في إفريقيا. كانت

هذه القوة نتيجةً مباشرةً للنجاح الذي حقّقه تدخلنا في سيراليون. أدى الاجتماع كذلك إلى تبني الأمم المتحدة في العام ٢٠٠٥ لمبدأ «مسؤولية الحماية»، وهي الفكرة القائلة إن على الدول واجباً في حماية مواطنيها من المذابح الجماعية، وإن على المجتمع الدولي واجب التدخل إذا عجزت إحدى الدول عن القيام بهذه المسؤولية.

لكن الأمر لم يرق الشعب البريطاني بمثل ما فتنني أنا (بالإضافة إلى آخرين).

شعرنا طوال العام ١٩٩٩، وعلى الخصوص بشأن قضية كوسوفو، بأن الحكومة أخذت تخسر الدعم. كان تركيز الحكومة، وتركيزي أنا، في مكانٍ آخر. كان أمامنا الكثير لنفعله في الداخل، وليس أقله في ميدان الصحة، والتعليم، والجريمة. عملت الحكومة على هذه الصُعُد بالفعل، لكن الصحف أكثر ما حملت عناوين الدبابات، والقنابل، والطائرات.

لم تكن الأمور كلها في وضع سيئ. ربحنا في الانتخابات النيابية الاسكتلندية لأول مرة في القرن العشرين، وهي المرة الأولى التي تقدمت فيها الحكومة في انتخابات محلية. لا أعرف إن كان بإمكاني أن أصف تلك الانتخابات بلفظة «محلية»، لأن الأمر برمّته كان أشبه بثورة.

جرت محاولات عديدة لتغيير السلطة في اسكتلندا، وإيرلندا، وويلز منذ إنشاء المملكة المتحدة، لكنها فشلت مرة إثر مرة. إن هذا الالتزام ذاته بالتغيير، وعلى وجه التقريب، هو الذي خيّم على حزب الأحرار، وكاد أن يقضي عليه تقريباً في أواخر القرن التاسع عشر، وكذلك في أواخر السبعينيات. كان موضوع اللامركزية devolution (من بين أمور أخرى)، هو الذي حرّر آخر حكومة عمالية. حدث ذلك عندما خيّم ما سُمّي المسألة اللوثية الغربية West Lothian على الجدال، وهكذا هُزمت التشريعات المتعلقة بالتغيير.

اكتسبت المسألة اللوثية الغربية اسمها هذا من منطقة constituency عضو البرلمان العمالي تام داليل، وذلك لأنه هو الذي أثارها. كانت المسألة بسيطةً جداً في ذاتها: إذا كانت اللامركزية تسمح بالحفاظ على سيطرة البرلمان الاسكتلندي على مسائل معينة مثل الصحة أو التعليم، وبحيث لا يعود لأعضاء البرلمان الإنكليز أي تأثيرٍ فيها،

فهل يبقى من الصحيح، أو من المنطقي، أن يحتفظ النواب الاسكتلنديون بالتصويت على قضايا الصحة أو التعليم الإنكليزيين؟ كان سؤالاً منطقياً تماماً، كما أنه مثال مهمّ على مشكلة سياسية لا تجد حلاً منطقياً لها.

أما الحل الذي قدمته، على الرغم من كونه غير منطقي، فيقول إن ترتيبات اللامركزية ليست غير منصفة كما تبدو. أما الواقع فهو أن النواب الإنكليز يسيطرون على برلمان ويستمنستر، وهو البرلمان الذي يقرّ الموازنة ويشرّع القوانين. يتمكن النواب الإنكليز على الدوام، على سبيل المثال، من تجاوز أصوات النواب الاسكتلنديين عند تقرير موازنتهم. أما من الناحية الدستورية، ونظرياً على الأقل، فإن برلمان ويستمنستر يستطيع إلغاء السلطات التي يمنحها. وعلى الرغم من أن المسألة اللوثية الغربية مسألة محقة إلا أن الترتيبات التي تسبّبت بها كانت، وفي سياق التوازن ما بين إنكلترا واسكتلندا، مبررة (أو على الأقل يمكن تبريرها). يعني ذلك أنها كانت الحل المناسب!

لم أكن قط مناصراً متحمّساً لفكرة اللامركزية، وذلك لكونها لعبةً خطرة، ولا يمكن للمرء أبداً أن يتأكد من أين تبدأ المشاعر القومية، وأين تبدأ المشاعر الانفصالية. دعمتُ المملكة المتحدة، ولم أثق بالقومية كمفهوم، كما تفحصت كتب التاريخ، وتساءلت ما إذا كنا نستطيع الاستفادة منا. ومثلما تضطر الدولة إلى جمع قواها مع الدول الأخرى في المنظمات متعددة الجنسيات من أجل مواجهة التحديات الدولية، وكذلك تتعرض الدولة لضغوط هائلة من أجل توزيع السلطات [اللامركزية] في المناطق التي يشعر فيها الناس بروابط أقوى.

لم نشأ أن تشعر اسكتلندا بأن الخيار المطروح هو ما بين استمرار الأمر الواقع على حاله وبين الانفصال، وكان ذلك جزءاً مركزياً من برنامجنا تجاه اسكتلندا. كان الاسكتلنديون حسّاسين جداً بشأن الأمر برمّته.

فكرت دائماً في غرابة هذا الأمر: وُلدتُ في اسكتلندا، ونشأ والداي، وعشنا هناك، كما التحقت بمدرسةٍ هناك، ومع ذلك، وبطريقة ما، جعلوني (لاحظ كلمة جعلوني) أشعر وكأنني غريب.

يتعيّن على المرء هناك استخدام اللغة بكل عناية، وكانوا يتميزون بحساسية هائلة

خشية أن يتحوّل البرلمان الاسكتلندي إلى نوع من المجلس المحلي (لم يحدث ذلك قط). تمتلك وسائل الإعلام الاسكتلندية شهادة دكتوراه فلسفة في نسبة سائر الأمور إليها. يمكن لهذه الوسائل تسليط الضوء على إهانة لا تلاحظها العين المجردة (لأنها لم تكن موجودة في الأساس). أجريت مقابلة ذات مرة حول ضرورة أن يمتلك البرلمان سلطات لرفع الضرائب. قلت في تلك المقابلة: «إذا كان مجلس الرعية يستطيع اتخاذ قراراتٍ كهذه، فلماذا لا يستطيع البرلمان الاسكتلندي ذلك؟ وهي العبارة التي أدت إلى ظهور العنوان الرئيس «بلير يقارن البرلمان بمجلس الرعية». كان ذلك العنوان إساءة تفسير حتى بمعاييرهم. أما المضحك في الأمر فهو أنني أحببتهم. كانوا أناساً يصعب التعامل معهم، لكن الأمر يشكل تسلية.

أما أفضل مثالٍ على شغفهم المزمن بعبارة المؤامرة الإنكليزية (أو هيمنة «لندن» كما سمّيت فيما بعد) فكان بيان اقتراح إجراء الاستفتاء الذي يتعلق بوجوب إيجاد برلمان اسكتلندي أم لا في العام ١٩٩٧. أدركت أثناء درس قانون اللامركزية في ويستمنستر، أنّ الطريقةَ الوحيدة لتجنب الوقوع في المصيدة التي وقعت فيها الحكومات السابقة هي نفي إمكانية مجلس اللوردات تعطيل القوانين. لم يكن مجلس اللوردات عندهم يتعاطف معنا في ذلك الوقت، وذلك لأنه كان عُرضةً للإصلاح بدوره فيما يتعلق باستبعاد زملائهم الذين يحتلون مناصبهم بالوراثة. كان المحافظون (من غير المنضمّين إلى حزب المحافظين) ومن أعضاء حزب المحافظين يسيطرون على مجلس اللوردات في ذلك الوقت، وكانوا لا يحبذون فكرة اللامركزية لأنها تمثّل تغييراً دستورياً. عرفت أنهم سوف ينتهزون أيّ فرصة لعرقلة أي إجراء إلا إذا مرّ بالطرق الدستورية، أو إذا لم يستطيعوا إعاقته بالوسائل السياسية المناسبة. أعطت المسألة اللوثية الغربية الأسس القانونية التي يتمسّكون بها.

اقترحت عندما كنتُ زعيماً للمعارضة، وعلى الرغم من شكوك جورج روبرتسون الذي كان في ذلك الحين وزير الدولة الظل لشؤون اسكتلندا، مناورة إجراء استفتاء، لا بعد صدور القانون ولا قبله، وذلك لكي يتمكّن الشعب من اتخاذ قرار حول المبدأ أولاً. كانت الاستراتيجية واضحة: تطبيق اللامركزية بعد مئة سنة من الانتظار. كان التكتيك واضحاً كذلك: تشجيع الناس على قول نعم، وهكذا لا يعود بوسع اللوردات أن يقولوا لا.

تسبّبت المناورة بصرخات مشوشة من الغضب صدرت عن مجموعة من القوميين والحزبيين، الذين اقتنعوا بأن هذا الاقتراح يُقصد منه إفساد الأمر برمّته. وصل الأمر بهم إلى حدّ وصف هذا الاقتراح بأنه غير ديمقراطي. أجريت عدداً كبيراً من الأحاديث والمقابلات حيث كانت توجّه إليّ أسئلة مثل: أليس إجراء الاستفتاء مجرد طريقة لحرمان اسكتلندا ما تستحقه من برلمان مناسب؟ كنت أجيب بالقول: «آه، لكن الاسكتلنديين هم الذين يصوتون. آه، لكنهم كانوا يقولون، لكن، لنفرض أنهم صوّتوا بـ«لا». كنت أرد عليهم بالقول: حسناً، سأفترض في تلك الحالة أنهم لا يريدون ذلك». هكذا كان يجري الحديث. يا للأمر المدهش!

أما في حال صوتوا بـ«نعم» فسيتمكّن مجلس اللوردات من الاعتراض على شكليات التشريع، أي إنهم لا يتمكنون من مهاجمة جوهره، وهكذا تتحقّق اللامركزية. أعتقد أنه كان تصرفاً صائباً، كما آمل أنه كان كذلك.

حضر شوان وودوارد، عضو البرلمان من حزب المحافظين، كي يراني في مطلع شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٩. كان الرجل نجم الحملة الانتخابية للمحافظين في العام ١٩٩٢. كان الرجل ذكياً، ولبقاً، وكان من الواضح أنه انضمّ إلى حزب المحافظين لأن حزب العمال كان مجنوناً جداً في الثمانينيات، وكان متحرّراً اقتصادياً واجتماعياً. كره الرجل انحياز حزب المحافظين بشأن حقوق الشاذين على الخصوص، كما كان غاضباً منهم بشأن المسائل المتعلقة بأوروبا، وعلى الخصوص بشأن موقفهم تجاه العالم الحديث، ولذلك أراد الانشقاق عنهم.

تحدث الرجل مع شيري أولاً، ثم تحدثت معه. اعتبرته صادقاً في كلامه. كان ذلك انقلاباً عظيماً، لكنني اعتبرت كذلك أنه سوف يشكّل إضافة عظيمة لفريقنا. أدركت أن حصوله على مقعد نيابي سيكون أمراً صعباً (على الرغم من أننا نجحنا في ذلك في النهاية). يُمكن للمرء أن يعتبر الانشقاق نوعاً من الانتهازية، وربما يكون كذلك نوعاً من الشجاعة. أما أنا فقد اعتبرت عمله نوعاً من الشجاعة. تعامل ألاستر مع الأمر بذكاء، كعادته، فأعلن الأمر قبل عيد الميلاد.

أدى الأمر إلى تشديد قبضتنا على الوسط، كما عبّر، بطريقة تعجز عنها الخطابات، عن سياسة الباب المفتوح تجاه الأشخاص الذين يعتقدون أن على البلاد أن تتحوّل

عن الثاتشرية، لكن من دون أن تعود إلى سياسات حزب العمال القديم. كان هؤلاء رجالاً ناجحين، أو أرادوا أن يكونوا ناجحين، وكانوا يحبذون فكرة اقتصاد السوق التنافسية، وكانوا متحررين ومتعاطفين من الناحية الاجتماعية. كانت تلك فكرة لم تلقَ إلا ترحيباً قليلاً من قِبلِ وسائل الإعلام التي كانت تفكّر بعقلية اليسار/ اليمين التقليدية، لكنها لاقت قبولاً في أنحاء البلاد.

أدركتُ جيداً في الوقت ذاته أن هؤلاء الناس في حين يرحّبون بهذه الرؤية، والصياغة، والتوجه، إلا أنهم سيحتاجون إلى معرفة المسار الذي سيتبع بالسرعة الضرورية، والغاية التي سيصل إليها. استلزم الأمر أن نكون أكثر حسماً بنهجنا، وذلك إذا أردنا أن يحصل ذلك. كنا ناجحين سياسياً، وناجحين جداً. وُجدت السياسة كي تخدم هدفاً معيناً، لكن الإحباط الذي شعرت به في داخلي ومن حولي كان بدأ يتفاقم.

الفصل التاسع
قوى المحافظة

أشار خطاب «قوى المحافظة» الذي ألقيته في مؤتمر الحزب الذي عُقد في أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٩، إلى شحذٍ لقوى التحليل وصلابة الروح. كانت رغبتي هي أن أكون ذلك القائد الذي يتحدى على الدوام. أما بالنسبة إلى العالم الخارجي فلم يتغيّر الكثير. عرفت أنني كنت أتغيّر في أعماقي.

ما إن بدأنا مساعينا لتغيير الخدمات العامة، والخدمات الاجتماعية، والقوانين والأنظمة، حتى أدركنا وجود مصالح للمحافظين (من دون أن يكونوا من حزب المحافظين بالضرورة) تعارض التغيير داخل مرافق الخدمات. كانت تلك مصالح خاصة كبيرة وشرسة جداً في الدفاع عن نفسها بحجة الدفاع عن المصلحة العامة.

بدأت أفكر في التغيير والتطوير، وكيفية تحقيقهما. لاحظت نمطاً معيناً يسيطر عليه التفكير التقليدي، الذي إذا أُطلقت يده فسيتسبب بردةٍ رجعية خطرة. لاحظتُ كذلك كيف أن التغيير ما إن يتحقق ويتجذر مع الزمن حتى يصبح، بدوره، أمراً تقليدياً. طبقت هذه الملاحظة ليس على الإصلاحات فقط، بل على حقوق الإنسان، وعلى حقوق المرأة، وعلى إلحاق الهزيمة بالعنصرية والتمييز العنصري، وكذلك على اليسار وعلى اليمين. كانت تلك حجة جيدة وحاسمة، لكنها امتلكت لمسة السنة صفر، أي كأنني كنت أقول لم يحدث أي شيء قبل نشوء حزب العمال الجديد.

كانت هذه الحجة قويةً، وأسيء تفسيرها قليلاً، لكن في السياسة يتضاعف القليل سريعاً.

كان أحد الأمور شديدة الوضوح التي فاجأتني كثيراً، من دون مبرر، حول الفروق بين المعارضة والحكم هو الفجوة بين الالتزام والتنفيذ. تعيّن علينا أخذ قرار، وإعلانه، كما شعرنا أن النتائج سوف تتضح بسرعة، حتى ولو تطلب ظهور المدى الكامل لهذه العواقب بعض الوقت.

انتهت فترة العامين من القيود التي فُرضت على الإنفاق، وهي الفترة التي ورثناها من المحافظين. بدأنا في موازنة العام ١٩٩٩ بالتخفيف من القيود. أعلنت الحكومة في سياق سياسة الاستقراض العام لشهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩٩، حدوداً عالية في هذا الإنفاق، لكن بدا أن الأمر يشبه فتح صنبور [حنفية] مياه من دون أن يتساقط منها سوى قطراتٍ قليلة. أعلنت الحكومة سنة ١٩٩٩ أنها «سنة الخلاص»، وهي العبارة التي عادت إلى ملازمتنا فيما بعد. حدث بعض التقدم في واقع الأمر، لكنه تقدم طفيف جداً، ليس لأن الأموال لم تكن قد بدأت بالتدفق بعد، لكن كذلك بسبب ما أشار إليه خطاب «قوى المحافظة»، أي بسبب وجود مشكلة بنيوية يعجز المال لوحده عن حلّها. أدركت أننا نحاول إصلاح الأمور، بدلاً من تغييرها، في مجالاتٍ كثيرة مثل المدارس والجامعات، وفي الخدمات الصحية، والقوانين، والقضاء الجنائي. مضت سنة ١٩٩٩، وجاءت سنة ٢٠٠٠ فبدأت بالنظر بكيفية دفع مسألة الإصلاح برمّتها قدماً على نحو أسرع.

واجهتنا أولاً، وعلى الرغم من كل شيء، مسألة الألفية. سأتذكر دخولنا القرن الحادي والعشرين لسببين: مشروع القبة Dome، ومشكلة سنة ٢٠٠٠ (Y2K). ما كان يجدر للأولى أن تحدث لكنها حدثت، أما الأخرى فكان يجب أن تحدث لكنها لم تحدث.

فكرت في الوقت، والمجهود، والتحضيرات المحمومة لمشكلة Y2K، أو أي تسمية أخرى في الجدال الكثير الذي دار بشأنها. إنني لا أستطيع التفكير في مسألة استغرقت وقتاً كبيراً من دون نتيجة أكثر من هذه المشكلة. أما الأمر الإيجابي الوحيد بشأنها فهو أن العالم كله كان مقتنعاً بها. ربما يتذكر الجميع أن الحواسيب لم يكن

من المفترض أن تتمكن من معالجة الانتقال الرقمي إلى سنة ٢٠٠٠. بدأ الناس بلعن الكبرياء التي أدت بالجنس البشري إلى الاعتقاد أن الحاسوب هو أداة معصومة من الخطأ. تتالت التوقعات بحدوث كارثة، فعُقدت اجتماعات لحل الأزمة، كما استعد الناس في مختلف أنحاء العالم لمواجهة الكارثة التي لم تحدث قط. عقدتُ اجتماعات مع مارغريت بيكيت من أجل بحث هذه المسألة. اتفقنا في نهاية هذه الاجتماعات أننا لا نمتلك أيّ فكرة عما يتحدث عنه الخبراء. حاول دافيد ميليباند أن يشرح المسألة ذات مرة، إلا أنني أعترف بكل صراحة أنني فشلت في تكوين فكرة عما يتحدث عنه، لذلك لم أطلب إليه مجدّداً شرح المشكلة.

لم يكن دافيد قد استفاق تماماً من نتائج اجتماع عقدته بصفتي زعيماً للمعارضة مع بيل غايتس، الذي كان يومئذ في ذروة نجاحه بصفته أعظم خبير في المعلوماتية، تمكّن من تغيير الزمن الذي نعيش فيه. كان دافيد ذكياً ومطّلعاً على التكنولوجيا. أما أنا فلم أكن خبيراً في أمورٍ كهذه إلى درجة الخشية التامة منها. حاول الرجل إعطائي بعض المعلومات قبل الاجتماع، وذلك بسبب خشيته أن أتصرف بطريقة لا تتناسب مع روحية حزب العمال الجديد الذي تبنى شعار «إننا نتبنى أحدث ما توصّلت إليه الثورة التكنولوجية».

لم أخيّب آماله، فقد حصلت على المصطلحات المطلوبة كافة، لكنها كانت مشوشة بعض الشيء في ذهني. سألت بيل عن جهاز حاسوبه، أوعن شيء يشبه ذلك، الأمر الذي أثار رعب دافيد، والشبان الوسيمين في المكتب. أثار هذا السؤال ذعر الموظفين الممزوج بالقهقهات، بالإضافة إلى شهقة مستغربةٍ من بيل. سبق لي أن سمعت عن الحاسب الأساسي mainframe من مكانٍ أو آخر، وهكذا ظننت أنني سوف أدهِش الحاضرين بمعرفتي هذه. لقد تمكنت من إثارة دهشتهم بالفعل.

جاءت أزمة الألفية Y2K على أي حال من دون أن يلاحظها أحد في النهاية. أما الأمر الإيجابي الوحيد في المسألة فكان عدم موافقتي على إنفاق مالٍ كثيرٍ عليها. إنه لأمر غريب بشأن اتخاذ القرارات عندما يكون المرء رئيساً للوزراء: تتعلق بعض هذه القرارات بالقيام ببعض الأمور، بينما يتعلق بعضها الآخر، وبالقدر نفسه من الأهمية بعدم القيام بها. ربما يستلزم الأمر اتخاذ قرارت كثيرة وبسرعة، وأحياناً لا يعتبرها المرء قراراتٍ بالمرة، مثل تلك الأمور التي تستلزم كلمة «لا».

قلنا «نعم» ، ولحسن الحظ بالنسبة إلى الاستمرار في مشروع «القبة» Dome. لم أعتبر أن هذا القرار كان مخيفاً بالنسبة إلى القرارات السيئة. تمثّل جزء من المشكلة، من دون أن يكون ذلك عذراً، في كوننا ورثنا ذلك القرار. تراكم مبلغ ١٠٠ مليون جنيه استرليني عند تسلمنا الحكم، وهكذا كانت تكاليف الإلغاء جسيمة.

لم تكن الفكرة الأساسية سيئة بتاتاً. كانت الفكرة التي جاء بها مايكل هازلتاين ضخمةً وجريئةً وقوية، أي مثل عددٍ كبير من أفكاره الأخرى. كانت الفكرة مماثلة لفكرة الأمير ألبرت بالنسبة إلى معرض قصر الكريستال، ومعرض لندن الذي يذكره جون بريسكوت المتعلق بسنة التتويج. كان المشروع يقضي بإقامة معرض بريطاني كبير وإنشائه فوق منطقة مستنقعات مستصلحة قرب مصنع لإنتاج الغاز في غرينيتش. كانت المشكلة هي عدم اتضاح الأشياء التي سيضمّها المعرض اتضاحاً كاملاً، كما أن الموضوع المستقبلي الذي أردناه كان مقبولاً على العموم، لكن التفاصيل كانت غامضةً بعض الشيء. ترجّح موضوع المعرض ما بين الأكشاك المتعددة، وتكنولوجيا المستقبل، واللعب، والعلوم، والتسلية. كان المعرض نوعاً من تشكيلة تتضمن المهن كافة المعروفة من دون التخصص بمهنة واحدة.

يتبيّن لنا مما تقدم أن الأمر لم يكن مخيفاً، لكنه لم يكن تلك الفكرة اللامعة. عمل فريق مشروع Dome الذي كان برئاسة جيني بايج على نحو جنوني، وهكذا جاء المشروع برمّته مثل المعجزة على مستوى معيّن، وبالنظر إلى مستوى الطموح الذي رافقه. زار المعرض ستة ملايين شخص، كما استمتع به عدد كبير من الناس. اتخذنا جميعاً موقفاً دفاعياً بشأنه، وذلك إلى أن تسلمنا المسؤولية أنا وبيتر مندلسون وتشارلي فالكونر على الخصوص. استمررنا في موقفنا المدافع عن المشروع، واعتبرته عملاً عبقرياً حتى مع وجود معارضة كبيرة له.

كانت أبسط نقاط المعارضة أنه ليس بالمشروع الذي يناسب الحكومة فعلاً في هذه الأيام وفي هذا العصر، كما أنه لا يتناسب مع روحية الألفية. أعرف أننا لم نكن لنبدأ بالمشروع لو لم نرثه من الحكومة السابقة. أبلغنا دافيد ميليباند، الذي كان محرر جريدة صن وقتئذ، أن مشروع مستشفى جديد كان سيمثل أولوية حكومية أفضل بكثير.

أعتقد أن من الإنصاف القول إن غوردون كان ضدّ هذا المشروع منذ البداية، لكنني اعتبرت أن الألم الناتج عن إلغاء المشروع سيكون عظيماً جداً، مع أنه كان يستأهل الانطلاق به. كانت الآراء في الحكومة التي أعطت الضوء الأخضر للمشروع منقسمةً بالتساوي. استخدم جون بريسكوت نفوذه في ذلك اليوم، أما أنا فتعيّن عليّ المغادرة باكراً. حضر جون إلى مقعد رئاسة الوزراء بكل حماسة، ثم طرح المشروع بقوة. يعود ذلك جزئياً إلى أنه كان يعلم أنني أردته، وغالباً بسبب اعتقاده أن الفكرة تمتلك جاذبيتها. كان ذلك هو رأيي أيضاً، لكن الفكرة تفتقد المنطق.

كان مشروع Dome رائعاً جداً في ذاته، وهو الذي صمّمه ريتشارد روجرز. إننا نتطلع إليه، بطبيعة الحال كمعلم من معالم المدينة يسهل تمييزه على الفور، كما أنه حسّن من منظر جنوب شرقيّ لندن. يُضاف إلى ذلك أننا تمكّنا من استصلاح الأرض، وشيّدنا آلاف المنازل، وشيّدنا مركزاً صحياً ومدرسة. تُعتبر Dome إحدى أفضل أمكنة التسلية لموسيقى الروك والبوب في البلاد، ولربما في أوروبا بأسرها.

ربما يُعتبر المشروع، عند التفكير فيه ملياً، خطأً، لكن مهاجمة المشروع برمّته لم تكن مبررة قط، ومع ذلك يُمكن تفسيرها. لا أستطيع أبداً نسيان ليلة ٣١ كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٩. لم أكن متحمساً قط بشأن الأيام «العظيمة»، والمناسبات التذكارية. أعلم أنني لست جديراً بي أن أكون كذلك، لكن هذه طبيعتي. لم أكن «أفهم» حفلات عيد الميلاد إلا أنها إعطاء الهدايا وتسلمها. أما أعياد الميلاد المجيدة فكانت وقتاً رائعاً للأسرة بأسرها، لكنني كنت أشعر بالراحة بعد انتهائها.

كنت أعمل في مكتبي ليلة ٣١ من كانون الأول/ديسمبر. أعترف بأن مشكلة الألفية هي أمرٌ في منتهى الأهمية، لكن كنت أشعر في تلك الليلة كما هي عادتي في مناسبات رأس السنة، بأنني أستطيع الإخلاد إلى النوم، وبكل سرور، في وقتٍ مبكر كي أرتاح، وذلك كي أستيقظ في اليوم التالي بكل نشاط، ثم أتأمل بهدوء حقيقة أن سنة أخرى قد انقضت.

أعتقد أن القارئ قد فهم ما أقصده: لا تنسجم هذه الأمور مع طبيعتي. انتظرت قدوم المساء الذي يشهد بزوغ فجر الألفية الجديدة بكل التهيّب الذي يرافق المرء

عند زيارته لطبيب الأسنان. تبيّن لي بعد ذلك أن هذه المناسبة كانت أقل إيلاماً، وأهدأ، وأقل إجهاداً مما توقعنا.

تعيّن عليّ قبل كل شيء أن أتوجه كي أدير دولاب الألفية الذي ترافق مع عرض ضخم للألعاب النارية، ودولاباً دواراً ضخماً يستعصي على الوصف. غادرنا داوننغ ستريت سيراً على الأقدام. تملكني شعور متزايد وغامض مليئ بالرهبة. كانت شيري في أوقاتٍ كهذه بطولية ومثالية: كانت متحمسة، أو هي تظاهرت بأنها متحمسة، للمشروع برمّته.

شققنا طريقنا بين الحشود في وايت هول، وسرنا نحو حاجز المياه Embankment. كان الناس وديين تجاهنا ويحتفلون بابتهاج، وهكذا تحسّن مزاجي موقتاً. وصلنا بطريقةٍ ما إلى نقطة قريبةٍ من جسر هنغرفورد حيث التقيت بوب آيلنغ، المدير التنفيذي لشركة الخطوط الجوية البريطانية، الذي كان ينتظرني كي أبدأ الاحتفال. تولى بوب مهمة تنفيذ احتفالات الألفية، وهو أبلى بلاءً حسناً وسط ضغوط شديدة.

قلت وسط الضوضاء: «ماذا سيحدث إذا ضغطتُ الزرّ يا بوب؟»

قال: «حسناً، لن يحدث الكثير لأنه ليس جاهزاً بالفعل بعد». احتفظ الرجل بهدوئه، الأمر الذي أعجبني كثيراً لأنني شعرت ببعض التوتر. حوّل بوب انتباهه نحو الألعاب النارية. «إن ما سيحدث عندما تضغط الزر هو أنهم سيهبطون نحو التايمز».

فكّرت في نفسي، حسناً فليكن ذلك. صعدت نحو المنصة الصغيرة ورأيت الحشود المبتهجة. أعتقد أنني ألقيت خطاباً قصيراً – أشدّد هنا على كلمة قصير – لكن من دون أن يحمل مضموناً عميقاً ومحدداً، ثم ضغطتُ الزر.

ظهرت على الفور بعض الألعاب النارية المتقطعة، لكنها أضعفت، لسوء الحظ، احتفالاتنا كلها بالألفية لأنها لم تنطلق بالطريقة التي خطّطنا لها. سبق لي، في واقع الأمر، أن شهدت ألعاباً نارية أكثر حيوية في هايبوري فيلدس في آيلنغتون لمناسبة الإحتفال بليلة المشاعل [إحياء ذكرى حريق لندن].

لم يكن دولاب الألفية جاهزاً للعمل بعد بطبيعة الحال. قال بوب بابتهاج: «لا أعتقد أن هذا هو أمر هام لهذه الليلة».

قلت بحدة وقد عاودتني الرهبة: «إنه هام مادمنا سمّيناه دولاب الألفية».

لم نمتلك وقتاً للعبوس لأن حفلة the Dome Party مع الملكة كانت بانتظارنا.

كان من المفترض أن نصل إلى هناك بواسطة النفق الجديد لطريق اليوبيل. كان النفق في ذاته جزءاً من خطط التطوير لمناسبة الاحتفالات، كما افتتحت محطات جديدة هناك. أقول مجدداً إنها فكرة عظيمة، وأقول مجدداً مع اقتراب السنة الجديدة عاد الشعور بالقلق المستمرّ. واجهتنا بعض النزاعات مع المتعهدين، والنقابات، وبعض النزاعات السياسية. كانت المشكلة هي أن الجميع عرفوا أننا في موقفٍ محرج، وذلك لأننا لا نتمكن من تأخير المهل المعطاة، وأننا من دون هذا النفق الجديد لن نتمكن من إيصال الناس نزولاً إلى the Dome. أبقينا على المواعيد كما هي، كما توعدت بمعاقبة الموظفين العاملين لدي كافة، وبتحميل المسؤولية للوزراء. لم تعجبني قط مظاهر المرح الصادرة عن إدارة مترو أنفاق لندن الموجهة إلى رئيس الوزراء. كان إنهاء المشروع التزاماً ضخماً، كما أن جون بريسكوت تمكن من اجتراح ما يشبه العجائب الصغيرة عن طريق تأنيب الناس.

لكن ليلة الألفية كانت الليلة الأولى لإنجاز وصلة مترو الأنفاق هذه. حانت اللحظة الأولى التي تحطم الأعصاب عندما صعدنا إلى عربة القطار: هل ستعمل؟ وهل ستنفتح الأبواب؟ أم هل ستظل مقفلة؟

انفتحت الأبواب على أي حال، وهكذا سمحت لنا بالدخول وبالخروج، وتمكنا من الوصول إلى the Dome التي كانت ملأى بالناس إلا أنها لم تكن هادئة. لم نلاحظ وجود أعدادٍ كبيرة من الناس، مع أن العدد لم يكن قليلاً. لم تكن الجموع مستعدة للاحتفال مع أنها كانت متجمعة. سألت دليلنا الموظف في the Dome: أين الجميع؟»

«أعتقد أن القطار الذي يصل من محطة ستراتفورد قد تعطل، وهكذا فالمحطة مغلقة عملياً».

أحسست أن القاعة تميد بي. قلت له: «ماذا؟». كانت محطة ستراتفورد حيوية لنقل الناس إلى the Dome. أصيبت المحطة بعطلٍ كهربائي مؤسف. فكرت في الناس المنتظرين هناك فزاد شعوري بالقلق الشديد. قلت: «أريد أن أرى تشارلي».

تولى تشارلي فالكونر مهامه بصفته الوزير المسؤول عند استقالة بيتر مندلسون. تلقى تشارلي قدراً أكبر مما يُمكن أن يتصوره المرء هذه الأيام بسبب Dome. كان رجلاً رائعاً بكل المعايير. كنت أراه في كل مرة يتلقى فيها نقداً شديداً، كان يأتي مع تعليقات حادة بشأن وزنه، ونظراته، وشخصيته وطريقة حديثه. كنت أقول له: «كيف حالك يا تشارلي؟» كنت أسأله بكل صدق. فيجيبني على الدوام أنه يحب وظيفته، وأنه ممتّن لي بسبب الفرصة التي منحته إياها، وكل ذلك من دون أيّ منة أو تهكّم. اعتبرت الأمر رهيباً لأن أداءه فيما يتعلق بـ Dome كان إنجازاً رائعاً من إنكار الذات.

وجدته في قاعة استقبال الشخصيات في الطابق العلوي. قلت له: «تشارلي. ماذا يجري في ستراتفورد بحقّ السماء؟» شرح لي سبب الأعطال. قلت له: «أوه، يا الله، كم عدد المنتظرين هناك يا تشارلي؟»

«أخشى أن أقول إنهم يعدّون بالآلاف. آسف».

تطلعت نحوه بأسفٍ شديد: «وماذا، بحق السماء، سنقول للصحافة عندما تكتشف الأمر؟»

«همم، أخشى أن يكتشفوا ذلك سلفاً لأن المحررين ينتظرون هناك».

أخشى أن أقول إنني أمسكتُ بتلابيبه عند هذه النقطة، مع أنني أقدّر تشارلي كثيراً.

«ماذا؟ ماذا؟ وماذا تفعل وسائل الإعلام هناك بحقّ السماء؟ إنك لم تفعل ذلك. لا، من فضلك، من فضلك. يا الله، أرجوك قل لي إنك لم توجه دعوةً للصحافة كي تأتي إلى هنا عن طريق قطار الأنفاق مثلما يأتي بقية الناس».

«حسناً. ظننت أن الأمر سيبدو أكثر ديمقراطيةً بهذه الطريقة».

«ديمقراطية؟ أي مجنون اقترح هذه الفكرة بحق السماء. إنهم يكتبون عن الناس، لكنهم لا يريدون أن يُعامَلوا مثلهم».

قال تشارلي بعد أن أحسّ بأنه مضطرّ إلى الدفاع عن وجهة نظره: «حسناً، ماذا تريدنا أن نفعل. هل نرسل إليهم سيارة ليموزين؟»

صرخت به: «أجل يا تشارلي. أرسل مع السيارة أحد المرافقين الذي يختارونه،

بالإضافة إلى كمية من شراب [الشمبانيا] بقدر ما يستطيعون شربه، أو، على الأقل، فليصعدوا معنا في قطار الأنفاق».

إنني أخجل من القول إنني صرخت، وصحت في وجهه لمدة أطول قليلاً، هذا في الوقت الذي أخذ الأعضاء الأكثر تعقلاً من حزبنا بالتفكير في ما يجدر بنا فعله. سمعنا آخر الآمر أنهم في طريقهم إلينا، ربما لا يتمكنون من الوصول قبل منتصف الليل. أتذكر أنني قلت له: «من فضلك قل لي هل من بأس إذا لم يتمكنوا من الوصول إلى هنا قبل منتصف الليل يا تشارلي، وإلا فسوف أضربك حالاً حتى الموت». تمكّن بعضهم في نهاية الأمر من الوصول، بينما لم يتمكن بعضهم الآخر من ذلك. لكن تغطية وسائل الإعلام تبنت موقف المعارضة منذ تلك اللحظة.

تملّكتني في هذا الوقت موجةٌ جديدةٌ من القلق. تمكنا من إقناع الملكة والأمير فيليب بالنزول إلى Dome لمشاهدة العروض المسلية. لا أعلم بالضبط ماذا فكّر الأمير فيليب بالنسبة إلى الموضوع، لكني أتصور أن من غير اللائق أن يُطيع. أظنّ أن جلالة الملكة كانت ستستخدم ألفاظاً أخرى، مع أنها كانت تراودها المشاعر ذاتها. تعيّن علينا جميعاً، على الرغم من ذلك، أن نُظهر البشاشة، الأمر الذي فعلته الملكة كأحسن ما يكون. جلسنا جميعاً، وبدأنا بمشاهدة البرنامج.

شاهدنا عرضاً بهلوانياً قبل منتصف الليل. كان عرضاً مدهشاً. وقف العارضون في أعلى مكان في Dome وقدموا لنا إنجازاتهم الرائعة، وطاروا وسط الهواء. لبس المشاركون ملابس مزركشة الألوان، وتمكنوا بالفعل من إدهاشنا بمناظرهم وأفعالهم.

صدمتني فكرة مريعة، وتمكّنتْ من تجميد الدم في عروقي. كان العارضون يقومون بألعابهم البهلوانية فوق المكان الذي تجلس فيه الملكة بالضبط. قال الأمير فيليب وقد تحسّن مزاجه قليلاً: «حسناً. يا للروعة». «أتعلمون أنهم يفعلون ذلك من دون احتياطات أمان؟» أقسم إنني كنت أعرف ماذا سيحصل. أحسست مثل إحدى شخصيات أفلام الحاسة السادسة، التي تتمكن من رؤية المستقبل: كان أحد العارضين الواقفين على ارتفاع ستين قدماً على وشك السقوط ومتشقلباً فوق الملكة. أمكنني رؤية هذا المشهد برمّته. تخيّلت عناوين الصحف: «أحد البهلوانيين يتسبب بمصرع الملكة في Dome». «إفساد احتفالات الألفية في بريطانيا». «بلير يعترف

بأن الأمور لم تسر بحسب الخطة المقرّرة». يضمن هذا الأمر الشهرة لاحتفالات الألفية في بريطانيا بالفعل، وهكذا سيذكرني التاريخ إلى الأبد.

لم أكن أمزح وقتئذ. صحيح أنني أمزح بشأنها الآن، لكني عند الساعة ١١:٣٠ مساءً كنت مقتنعاً تماماً بذلك في ليلة رأس السنة الجديدة في العام ١٩٩٩. لم أشعر بعد ذلك بارتياح يفوق ذلك الذي شعرت به عندما انتهى البرنامج.

جاء الدور بعد ذلك على أداء تلك الأغنية المريعة: «أولد لانغ ساين». تعيّن عليّ اتخاذ قرارٍ آخر، هل يجدر بي أن أضع ذراعي فوق ذراع الملكة أم لا. تطلع كلانا إلى الآخر. أدركت يائساً أنه من السخافة أن نفعل ذلك، لكن عدم فعل ذلك أمرٌ يدلّ على شيء من التخلّف. اتخذت قراري ومددت ذراعي. أبقت الملكة الخيارات مفتوحة، فأبقت على ذراعٍ واحدة ممدودة. لكن ما أهمية ذلك بعد أن بقيتْ على قيد الحياة، وهذا هو أهمّ مَا في الأمر.

مرّ ما تبقى من الأمسية مع بعض الغموض. وصلنا إلى المنزل أخيراً عند نحو الثانية فجراً. قالت لي شيري عندما استلقينا فوق السرير: «أعتقد أن الأمسية كانت مسلية».

أجبتها: «عزيزتي، هناك أمرٌ واحد أريد أن أشكر الله عليه هذه الليلة، وهو أن احتفالاً كهذا لا يأتي إلا مرة كل ألف سنة».

عدت في الصباح التالي إلى أعمالي اليومية المعتادة. مضى علينا في الحكم إلى الآن سنتان ونصف السنة. إنني أعتبر هذه الفترة من عمل الحكومة مثل رمشة عين. أما بالنسبة إلى تفكير الجماهير فهو أقرب إلى الأبدية. كان خطاب «قوى المحافظة» نتيجة خيبة أملي، بمعنى ما، لعدم القدرة على التوفيق بين منطقتين زمنيتين. كانت بعض الانتقادات التي صدرت من المعلّقين والجماهير غير منصفة من دون شك، لكن صدّقت بعضها، وجوهرها في واقع الأمر، وعلى الخصوص ذلك الذي يقول إن التغيير كان بطيئاً جداً وليس حازماً بدرجة كافية. جاء خطابي على ذلك الأساس.

كنت في ذلك الوقت لا أزال في مرحلة تعلّم تعقيدات العمل في المؤسسات العامة، ومدى تعدد الضغوط التي تخضع لها، ومدى اتساع مطالبها وكذلك التوقعات

المتعلقة بما يُمكن عمله في تلك الفترة من الزمن. ربما تكون الألفية لحظة استثنائية في الزمن، لكن أزمة الخدمات الصحية القومية، أو «أزمة الشتاء»، التي حدثت بين سنتَي ١٩٩٩ و٢٠٠٠، ترافقت مع توقّعات رتيبة بالموت والضرائب. توقع الناس بعد مرور عامين ونصف العام على وجودنا في الحكم أن تتحسن هذه الخدمات.

يصعب عليّ الآن التطلع إلى الوراء كي أدرك أن تلك الأزمة كانت تبدو حتمية. كانت هذه المرة جرثومة الإنفلونزا. تسبّبت الإنفلونزا بمآسٍ كثيرة على الصعيد الفردي. تركزت الأزمة حول سيدة تدعى مافيس سكيتون، التي توفيت بسبب عدم تلقيها العلاج المناسب. غضبت أسرتها بطبيعة الحال، لكن صعُب على وحدات العناية الفائقة في المستشفيات معالجة الحالات كلها. انتشرت في ذلك الوقت أنباءٌ عن رفض المستشفيات قبول بعض المرضى، بينما تلقى بعض الأشخاص علاجاتهم في العربات، وانتظر آخرون عدة ساعات في A&E.

اضطرّ بعض المرضى بعيداً جداً عن الحالات الروتينية ووباء الإنفلونزا، إلى الانتظار فترة طويلةً جداً لإجراء عمليات قلب، لكن بعضهم مات قبل إجرائها. تلقيت رسالةً من امرأة سبق لزوجها أن عمل مصوّراً لمجلة نورثرن إيكو، وأعتقد أنني عملت معه. قالت لي إن زوجها مات في ظروفٍ كهذه. شعرت بفظاعة الأمر، وبالمسؤولية، ولعل أسوأ ما شعرت به هو الشكّ المزعج في أن كل ما نحتاج إليه هو الوقت، أو أن أمراً أكثر جدية بكثير يتعلق بطريقة تقديم الخدمات. أعتقد أننا نحتاج إلى تغيير طريقة تقديم الخدمات، الأمر الذي لم نكن مؤهلين للقيام به. إذا أردتُ أن أكون صريحاً فيمكنني القول إنني لم أكن متأكداً من طبيعة الحل. هذا كل ما قصدته عن التعلّم.

تولّد عندي قلق متزايد بشأن أمور الصحة والتعليم، مما يشير إلى أن الاتجاه العام للإصلاحات التي أدخلها المحافظون على نحو سيئ، وشُرحت بطريقة سيئة، لا يشير إلى كونها «محافظة» بالضرورة، وذلك لأنها تتعلق بالعالم الحديث [المعاصر]. تعلقت هذه الإصلاحات كلها بمحاولة إدخال أنظمة تربط بين المال الذي يُنفَق والأداء، وكذلك بمكان وجود المستفيد من الخدمة في مقعد القيادة. تسببت هذه الإصلاحات بخلافات، وحتى بتفاصيل خاطئة تتعلق بالسياسات المتبعة، لكن النهج

العام لهذه الاصلاحات وُلد من رحم الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية ذاتها التي عزّزت دعم الخصخصة وتخفيض الضرائب.

تمكّنت من ملاحظة اتجاهٍ كان على وشك تفكيك البُنى المركزية الضخمة، وعلى وشك التركيز على الميول المتنامية للزبائن، وكذلك على وشك إنهاء الحدود الفاصلة بين المهن. بدا لي أن هذا الاتجاه يتعلق بكيفية تصرف الناس، وليس بكيفية تصرّف الحكومات. بدا لي، وليس بصورة غير طبيعية، أن التحوّل الدقيق في طريقة تنظيم القطاع الخاص وإدارته قد وجد أصداءه في التحديات التي تواجه القطاع العام.

أما بالنسبة إلى سياسة الحكومة تجاه الجريمة والخدمات العامة، فإنني أتصور أن المحافظين لم يفكروا فيها ملياً، وأنهم لم يبدأوا في التفكير بشكلٍ حازم إلا في نهاية ولايتهم. كان الأمر مختلفاً جداً في قضايا الخدمات الصحية والمدارس، وذلك بسبب وجود عناصر تغيير وضعوها هم، تحتاج إلى تفحّصها والتعلم منها، وليس إلغاءها.

أما المشكلة فتمثلت في عدم وجود شهية كافية لدى حزب العمال في تفكيرٍ كهذا. كان الأمر غريباً بالفعل. سبق لي أن عيّنت فرانك دوبسون على رأس الخدمات الصحية. أشار هذا الأمر في ذاته إلى قلة معرفتي بهذه الأمور عند تسلّمي منصبي. أما الحقيقة فهي أن فرانك كان ينتمي بصدق، وصراحة، إلى حزب العمال القديم. كان الرجل واحداً من أشخاص كثُر من الذين يعتقدون أن حزب العمال الجديد ما هو إلا مطية ذكية للفوز. لم يفهم فرانك هذا الأمر كثيراً، لكنه لم يتفق مع القدر الذي فهمه.

كان المدراء في الإدارة والخدمات الصحية، وعلى الرغم من كونهم مخلصين وموظفين حكوميين رائعين، يعتقدون عن ثقة بوجود عدم توافق بين مفاهيم القطاع الخاص مثل الاختيار، وبين مبدأ الإنصاف الأساسي الذي تتصف به إدارة الخدمات الصحية كمؤسسة. كانت هذه مشكلة قديمة تتمثل في تحوّل السياسة المتبعة إلى مبدأ. يعني ذلك أن السياسة التي وُضعت للعام ١٩٤٨، والتي كانت مناسبةً في زمانها، قد أصبحت المبدأ الفارغ الذي يُتّبع في سائر الأوقات.

كنت أُجيل بذهني كل هذه الأفكار خلال العام ١٩٩٩، كما بدأت بأحاديث مع شركائي السياسيين المقرّبين والأعزاء على قلبي. واجهتني مشكلتان: الأولى هي





فوق: المباشرة بالعمل مع الفريق. من اليمين إلى اليسار، غوردون براون، شارلي ويلان، بيتر مندلسون، وآلاستر كامبل، داوننغ ستريت، ١٠ تموز/يوليو ١٩٩٧.



من أعلى اليمين باتجاه عقارب الساعة: أفراد فريق العمل المقربون. يتمكن بيتر مندلسون من معرفة كيف سيفكر الناس في الغد. تتمتع آنجي هنتر بحدس سياسي فطري. جوناثان باول، الموظف الفعال في الحكومة. سالي مورغان التي تتناغم مع الحزب بشكلٍ ممتاز. فيليب غولد، كبير مستطلعي الآراء الذي يلعب دوراً أساسياً في رسم استراتيجيتنا.











فوق: مع بيل كلينتون في الهواء الطلق وسط حديقة داوننغ ستريت في نهاية شهر أيار/مايو ١٩٩٧.

أعلى اليسار: مع بيل وهيلاري كلينتون وشيري فوق جسر البرج، وفي اليوم ذاته.

إلى اليسار: آل كلينتون يلتقون أفراد الأسرة في داوننغ ستريت.







فوق، وإلى اليسار: تجمعني مع بيل رابطة طبيعية بوصفنا تقدميين في نهج الطريق الثالث.



إلى اليمين: مع بيل كلينتون وهيلموت كول في الوسط، على المسرح الدولي في قمة الدول الثماني التي عُقدت في دنفر، كولورادو.



إلى اليمين: الأمير تشارلز وأنا حول كريس باتون، آخر حاكم في هونغ كونغ في حفل التسليم إلى الصين في ١ تموز/ يوليو ١٩٩٧.



إلى اليمين: بين الرؤساء في قمة الناتو في تموز من العام ١٩٩٧. هيلموت كول يشرح لي رأيه في مسألة، بينما يتطلع (من اليسار إلى اليمين)، جاك شيراك، جان كلود جنكر، والتر نوير ورومانو برودي.







أعلى اليسار: الأميرة ديانا تتحدث مع كاترين خلال زيارتها إلى شيكرز في ٦ تموز/يوليو ١٩٩٧.

أعلى اليمين: خطر في ذهني توجيه خطاب إلى الأمة حول مصرع ديانا، وذلك في باحة كنيسة تريمدون، ٣١ آب/أغسطس ١٩٩٧.

إلى اليمين: مع الأمير تشارلز وجهاً لوجه في مدرج قاعدة نورثولت لسلاح الطيران الملكي التي تقع في شمال غرب لندن، وذلك لحظة وصول جثمان ديانا من فرنسا.

فوق: الأمير تشارلز، الأمير هاري، إيرل سبنسر، الأمير وليام، والأمير فيليب وراء النعش الذي حمله جنود الكتيبة الأولى في حرس ويلز في ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧.







فوق: كانت جلسات استجواب رئيس الوزراء أكثر التجارب إثارة للأعصاب، وإثارة للرعب، وأكثرها استنزافاً للجرأة من بين تجاربي التي عشتها كرئيس للوزراء. في مواجهة قادة حزب المحافظين بقيادة جون مايجور أثناء مناقشة قضية اللامركزية الإدارية في ٦ حزيران/يونيو ١٩٩٧.

إلى اليمين: جاك سترو ينظر أثناء مناقشة جرت في العام ١٩٩٨.

إلى الأسفل: قادة حزب المحافظين الأربعة الآخرون الذين واجهتهم، وهم من اليسار: وليام هايغ، إيان دونكان سميث، مايكل هوارد، ودافيد كاميرون.















أعلى اليسار: توصلت بعد عدة أيام من المفاوضات التي جرت في ستورمونت في إيرلندا الشمالية، إلى اتفاقية الجمعة العظيمة في ١٠ نيسان/أبريل ١٩٩٨. مو ماولام وبول مورفي ينظران. أما الشخصيات الرئيسة الأخرى التي لعبت دوراً في المفاوضات فهي: أعلى اليمين بحسب عقارب الساعة: إيان بايسلي، سيموس مالون وجون هيوم، ومارتن ماك غينيس وجيري آدامز، وجوناثان بويل وبيرتي آهيرن.









ن اليسار: الترويج للتصويت بنعم في
لاستفتاء الذي أجري حول اتفاقية السلام مع
فيد تريمبل، وجون هيوم، مقاطعة آنتريم،
٢٣ أيار/مايو ١٩٩٨.



إلى اليمين: نفّذت هجمات بعد مرور
ثلاثة أشهر في أوماغ وتسببت بقتل
تسعة وعشرين شخصاً وجرح عدد
آخر. سارع بيل كلينتون إلى زيارة
مكان الحادث في هذا الوقت الأليم،
٥ أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٨.





فوق وإلى اليمين: مع نيلسون مانديلا أثناء انعقاد المجلس
الأوروبي في كارديف، حزيران/يونيو من العام ١٩٩٨



من اليمين: أثناء زيارتي التي قمت بها مع شيري إلى عائلة من لاجئي كوسوفو، مقدونيا، ٣ أيار/مايو ١٩٩٩.

الأسفل: حديث مع الصحفيين بعد زيارة قمت بها إلى الحدود الفاصلة ما بين يوغوسلافيا ومقدونيا، ٣ أيار/مايو ١٩٩٩.





فوق: مع الجنرال السير تشارلز غوثري إلى اليسار، والجنرال مايك جاكسون، إلى اليمين، وذلك في الزيارة ذاتها إلى مركز قيادة الجيش البريطاني في سكوبيا، مقدونيا.





لى اليسار: ليلة الاحتفال بالألفية الجديدة في إمبانكمنت في لندن – لم تكن الألعاب النارية بحسب ما خطّط لها تماماً.

لى اليمين: إنشاد «أولد لانغ سينغ» مع الملكة والأمير فيليب في الدوم، ١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠.

فرانك دوبسون، أما الثانية فكانت الأموال. أدركت وقتئذ أن قلة الاستثمار في مجال الخدمات الصحية كانت واضحةً جداً، لكن المحافظين لم يفهموا هذه النقطة، أو لعلهم لم يرغبوا في فهمها. أما عند مقارنة إنفاقنا بإنفاق أي دولةٍ مشابهة أخرى، فإن الفرق يبدو جلياً. لم تكن الأموال كافية، لكنها كانت ضرورية.

كانت أزمةُ الشتاء تجسيداً فورياً للمشكلة، لكن جوهرها كان مفهوماً: تكمن المشكلة الحقيقية في الخدمات ذاتها، أي في تمويلها وكيفية إدارتها.

عقدت سلسلةً من الحلقات الدراسية مع خبراء الصحة الذين جمعهم من أجلي روبرت هيل (وهو مستشاري الخاص والرائع في شؤون الصحة، ومؤلف دليل الخدمات الصحية). كان الرجل مدهشاً. كان أشخاص من داخل الخدمات الصحية من الذين يؤيدون مبادئ الإنصاف المتبعة في دائرة الخدمات الصحية، لكنهم كانوا منزعجين قليلاً من طريقة إدارة الخدمات، ومن قِدَم هذه الطريقة، ومن عدم كفاءة بعض أنظمتها، الأمر الذي أدّى إلى نتائج غير منصفة بالفعل.

أجريت محادثة، أو عدة أحاديث، مع غوردون حول تمويل دائرة الخدمات الصحية، لكنه أصرّ، كما توقعت تماماً، على رفض القيام بأي شيء ضخم تجاهها. صودف أنني لم أوجّه أي انتقادات إلى كلامه هذا. كانت مهمّته بوصفه وزيراً مخولاً، عدم الإسراف في ما يتعلق بالتمويل، ومواجهة النفعيين.

كان عليّ إيجاد الأموال، وذلك كي نتمكن من تطبيق الإصلاحات، لكن من أجل التمكن من تطبيقها تعيّن عليّ جمع فريق من كبار الخبراء من الذين يؤمنون بها.

نفذت أول الإصلاحات بطريقة غير تقليدية. كنت على وشك إجراء مقابلتي السنوية مع برنامج فروست لمناسبة رأس السنة.

كان دافيد فروست، ولا يزال، أفضل مقدّم برامج مقابلات على شاشة التلفزيون، وهو أفضل بكثير من أولئك الذين يستهزئون به لأنه لا يستهزئ بالآخرين بما فيه الكفاية. لم يكن الرجل وقحاً أو مؤذياً، لكنه ذو موهبة استثنائية في إثارة دهشة الشخص الذي يجري المقابلة معه، وفي توجيه حديثه معه، وفي جذبه نحو عدم التركيز، وفي نصب الفخاخ له بحيث يقوده من خلال حديثه إلى العناوين الرئيسة للصحف. قال لي ألاستر مراتٍ كثيرة: «لماذا قلتَ ذلك بحق السماء؟» قال لي ذلك

بعد أول مواجهةٍ لي مع فروست. أجبته: «وماذا قلت؟» كان يشرح لي، ثم أجيبه بعد ذلك: «أوه».

امتلك دافيد بدوره مفهوماً ثورياً في ذهنه، يوحي أن الجمهور يريد أن يسمع إجابات الشخص الذي تُجرى معه المقابلة أكثر مما يريد سماع الشخص الذي يطرح الأسئلة. تمكّن بهذه الوسيلة من حمل الناس على قول أكثر مما ينوون قوله حول مجموعة واسعة من المواضيع. كانت المقابلة تنتهي عادة بأربع أو خمس مقالات إخبارية. استطاع دافيد بإصرارٍ، لكن من دون إلحاح شديد، أن يصعّب على ضيوف مقابلته، على الأقل من الناحية النفسية، الإجابة بطريقة صريحة.

لم يكن هناك من داعٍ للقلق، على أي حال، بشأن ما يُمكن أن أقوله من غير قصد. تعمدت أن أقول الأمور التي أقصدها، كما اعتزمت إظهار التزام الحكومة رفع سقف إنفاق دائرة الخدمات الصحية إلى مستوى يقترب من معدّل الاتحاد الأوروبي. أعتقد أن هناك طرقاً كثيرة من أجل احتساب ذلك المعدل، كما أن هناك أعداداً كبيرة من رجال الإحصاء والمحاسبين الذين توصّلوا إلى هذا المعدل، كما توصلوا إلى استنتاجات اختلفت من شخص إلى آخر، لكن النقطة الأساسية كانت واضحةً جداً، وهكذا فالإشارة التي يدل عليها هذا الالتزام ستترافق مع تأثيرها الخاص بها.

عملت مع روبرت هيل يوم السبت بشأن التقلبات المحتملة. تحدثت ثانيةً مع غوردون، الذي زاد إصراراً على موقفه. اقتنعت بأن هذا القرار يجب أن يؤخذ على الفور، وذلك كجزء من استراتيجية شاملة.

أدركت حينئذ كذلك أننا نمتلك فرصةً لتطبيق الإصلاحات. حلّ آلان ميلبيرن في أواخر العام ١٩٩٩ مكان فرانك في الدائرة. كان آلان وزير دولة، لمع في منصبه، وكان متعاطفاً جداً مع توجّه التغيير. استقال فرانك كي يركّز على انتخابات رئاسة بلدية لندن.

أعترف عند هذه النقطة بأنني لم أحاول ثني فرانك عن الاستقالة. يعود ذلك جزئياً إلى أنني اعتبرت أن من شأن ذلك تحرير دائرة الصحة. تركتنا الاستقالة مع مشكلة كبيرة بالنسبة إلى السباق نحو رئاسة البلدية. أما الحقيقة فهي أن فرانك امتلك فرصة لإلحاق الهزيمة بكين ليفينغستون في السباق نحو مقعد رئاسة البلدية، وهي

فرصة تساوي تلك التي يمتلكها حصان ستيبتو وسون في الفوز بالسباق الوطني الكبير. أما في وقتٍ لاحق، أي عندما حاولت رفع معنويات فريقي في سباق الانتخابات، فقد قلت بشجاعة إنني أعتقد أن فرانك قد يفوز فيها. قالت آنجي رداً على كلامي: «إذا كنت تعتقد أن فرانك دوبسون يمكنه أن يهزم كين ليفينغستون في لندن، فإنني أفضّل استدعاء طبيب».

أجرى معي فروست مقابلة وسط ذلك الاضطراب الشديد الذي خيّم على لندن. كنت أعرف ماذا أريد، وتمكّنت من وضع من أريد في مركز المسؤولية.

جرت المقابلة، ولم أكن بحاجة إلى انتزاع أي اعترافٍ مني، وذلك لأنني أكدته بالكامل، وعلانيةً، وبسرعة. كان ذلك أحد الأمثلة القليلة التي أتذكرها عن المشاركة في برنامج وأنا أمتلك خبراً في ذهني، والذي يسجّل الخبر ذاته في المقابلة.

مرّت أيام قليلة مع غوردون، لكنه يستطيع توقع حتمية الأمر، وعلى أيّ حال فإن السياسة قد جعلت من المستحيل معارضتها. كانت تلك ضربة استباقية صريحة، لكنها كانت استباقية ضرورية ومبرّرة. سمحت لي هذه الضربة بالمضي في الجزء الآخر من الخطة: العمل مع آلان من أجل وضع اقتراح جدي للإصلاح.

تحدثنا عن الموضوع، واتفقنا على العمل معاً في الأشهر المقبلة من أجل رسم خطة مناسبة وكاملة للتغيير في دائرة الخدمات الصحية. اتفقنا بعد أخذٍ وردٍ على أن تكون الخطة عشرية. كان هدفنا تغيير طريقة إدارة دائرة الخدمات الصحية بصورة جذرية: أي تفكيك الهيكلية وإدخال علاقة جديدة مع القطاع الخاص، وكذلك إدخال مفاهيم الاختيار والمنافسة، وإعادة التفاوض في العقود الأساسية مع الاختصاصيين من ممرضات وأطباء ومدراء.

أما أهمّ نقطة في هذا الشأن فكانت ضرورة اتخاذ قرار بشأن ما كان يدور في ذهني منذ بعض الوقت. تسلّمنا السلطة في العام ١٩٩٧، وقلنا إن المهم هو «المعايير وليس الهيكليات». قلنا هذا بالنسبة إلى التعليم، لكنه ينطبق كذلك بالتساوي على الصحة، وأجزاء أخرى من نظام الخدمات العامة.

يعني ذلك، وبكلمات أخرى، أننا كنا نقول: يجب أن ننسى كل شيء عن الإصلاحات المعقّدة والهيكليات الدستورية، وذلك لأن المهم هو ما ينجح. كنا

نعني بذلك النتائج. كانت عبارة خطابية بليغة، كما كانت سياسة إيجابية ومفيدة. بدأتُ عندما بدأت التجربة في صقل تفكيرنا، وللأسف، في إدراك أنها كانت سياسة لا قيمة لها. كان الأمر الهام هو أن الهيكليات هي التي تُنشئ المعايير، أي إن طريقة تصوّر الخدمة هي التي تؤثّر في النتائج.

أقصد أن أقول إن ذلك لا يصحّ إلا إذا آمن المرء بأن التغيير الذي يدار مركزياً هو الذي ينجح أكثر. يكتسب هذا التغيير في التفكير عواقب سياسية وخدماتية عميقة. كانت إعادة تعريف طبيعة الدولة جزءاً مهماً من الفكرة الكامنة وراء إنشاء حزب العمال الجديد.

إنني أعتبر نفسي تحررياً إلا فيما يتعلّق بالقانون والنظام. هذا هو أحد الأسباب الذي جعلني أكسر القاعدة من أجل الثناء على لويد جورج، وكينز، وبيفيريدج، وهو ما يفسر شعوري بالاحترام والإعجاب تجاه تفكير روي جينكنز.

لم أتمكن قط من فهم أن تكون أي فكرة [مفهوم] حديثة عن الدولة غير مساعِدة، ومصدر الصلاحيات، بدلاً من أن تكون أبوية، ومصدر الإعانات، وتنظيم مصالح المواطنين الذين يُفترض أنهم عاجزون عن اتخاذ قراراتهم بأنفسهم، وذلك في عالم يسعى فيه الأفراد إلى الحصول على تحكم وسيطرةٍ أكبر بكثير على حياتهم. تعيّن عند ذلك ترجمة ذلك الحدس، وذلك الإحساس العميق إلى إجراءات عملية تطبقها مؤسسات الدولة. كان الأمر بهذه السهولة بالفعل، أي التوافق بين السياسة المتبعة والفلسفة.

تمكنا من حلّ قضية التمويل منذ مطلع سنة ٢٠٠٠ وما بعد، وعلى الأقل بشكلٍ عام، فبدأت أنا وآلان مع فريق مقرّب من المستشارين بالعمل على ما سيصبح فيما بعد الخطة العشرية لدائرة الخدمات الصحية.

عملنا في هذا الوقت ذاته في مجالات سياسات أخرى في السياق ذاته. تولى آندرو أدونيس منصب مستشاري الخاص لشؤون التعليم. لا أتذكر بالضبط كيفية انضمامه إلينا. كان الرجل أكاديمياً في أكسفورد وعضواً في الحزب الديمقراطي الاشتراكي. التزم آندرو كتابة سيرة حياة روي جينكنز (لكن ضغوط عمله منعته من

إتمامها) كما عمل صحفياً في صحيفتَي الفايننشال تايمز والأوبزرفر. كان قدومه عن طريق المصادفة، أما عمله فكان مثمراً جداً. كان الرجل محترماً جداً، ومفكراً من الدرجة الأولى، ولم يكن يخشى التفكير من دون قيود العقيدة. أريد أن أقول إنه فهم روح «حزب العمال الجديد».

ترافق الأمر، بطبيعة الحال، مع بعض الاستياء منه بسبب ماضي حزب الديمقراطيين الاشتراكيين. واجهنا الوضع ذاته مع ديريك سكوت الذي كان مستشاري في شؤون التقاعد وسياسات الاقتصاد الشامل. كان ديريك متصلّباً وقاسياً في آرائه، وهو لذلك أضاف بعداً جديداً إلى فريق العمل. امتلك الرجل، مع ذلك، المهارات الدبلوماسية التي كان يتميز بها ديرتي هاري. كانت اجتماعاته مع وزير الخزانة تتحول إلى مجالات مواجهة، وسرعان ما يتفجر غضبه بسرعة أكبر من معدلات سرعة تفجر الألعاب النارية، لكن من الغريب أنني أحببت وجوده معنا.

أما آندرو فكان، في المقابل، رجلاً رائعاً على الدوام إلى درجة أن المتصلبين من الذين يكرهون الحزب الديمقراطي الاشتراكي وجدوا صعوبة في كراهيته، أي مثلما حاول عدد قليل منهم أن يفعل.

كان دافيد بلانكيت يمرّ، مثلي، بمرحلة من إعادة النظر بالمفاهيم والهيكليات المتوارثة، الأمر الذي شجّعنا آندرو عليه كثيراً، كما أن دافيد قد أحاطه بفريق قوي كذلك، وهو الفريق الذي ضمّ أشخاصاً مثل مايكل باربر، ومايكل بيشارد المساعد الدائم للدائرة، وهو الذي كان أحد أفضل أعضاء الفريق. بدأنا كذلك بإعادة التفكير في أسلوبنا من خلال إصلاح المدارس والجامعات، مع الإبقاء على طريقة عملنا ذاتها كما هي في أمور الصحة.

كانت مسألة القضاء الجرمي قضيةً شائكةً مختلفةً كلياً. كانت المشكلة كبيرة ولا تزال كذلك. قادتني هذه المسألة بمرور الوقت إلى إعادة النظر كلياً بطبيعة، وغاية، وتركيبة، وثقافة، وأعراف، وممارسات، وسمات – سمّها ما شئت ـ النظام برمّته. كان النظام، ولا يزال، لا يعمل كما يجب. سأتحدث أكثر عن هذا الموضوع فيما بعد.

يكفي أن أقول، وكما ورد في إحدى مذكراتي الطويلة لسنة ٢٠٠٠، إننا احتجنا

لأن نبحث أكثر، وأن نكون أكثر حزماً، وأكثر ابتكاراً في نهجنا إزاء الخدمات العامة، ودولة الرفاه، في مرحلة ما بعد الحرب.

عملنا بجدية فائقة خلال النصف الأول من السنة، وعلى الخصوص بشأن موضوع الخدمات الصحية. أرسلت بياناً إلى مجلس النواب حول موضوع تحديث الخدمات الصحية، الأمر الذي مهّد الطريق للخطة التي جاءت لاحقاً في شهر تموز/يوليو.

سار في هذا الوقت السباق من أجل الفوز بمنصب رئيس البلدية بحسب ما كان متوقعاً. كانت هناك مرحلتان: الأولى هي الفوز بترشيح حزب العمال للمنصب، أما الثانية فكانت السباق من أجل الفوز بالمنصب ذاته.

أما بالنسبة إلى المرحلة الأولى فقد ركّزنا جهودنا على تسمية فرانك دوبسون. كنا نمتلك ماكنة انتخابية هائلة في ذلك الوقت قامت بمهمتها خير قيام. كان الشعور أن يكون كين من بين الكبار شعوراً قوياً على نحو لا يصدّق، وبالطبع يحمل معه بعض الحمق. إنني لا أستثني نفسي من هذا الأمر، كما أنني لم أمتلك تجاهه شعوراً عميقاً كما فعل جون وغوردون. أُعجبت بأسلوب كين، وبغرابته، الأمر الذي جعله يقف بتمايز عن الآخرين، كما أُعجبت بقدرته على التواصل معهم. بالغت كذلك قليلاً بشأن أخطار سياسته. لم أفعل ذلك عمداً، بل بسبب عادتي التي كنت أتبعها عند وصف سياسة خصومي. لا ينبغي أن يكون الأمر على هذه الحال، لأن المخاطر موجودة دائماً في السياسة بحيث أنك عندما تختلف مع أحدهم تعمد إلى تضخيم نقاط الخلاف معه، وهكذا يظهر الظلان الرماديان على أنهما أبيض وأسود. أما الخطأ في السياسة المتبعة فيبدو وكأنه كارثة.

كان فوز كين بترشيح حزب العمال مشكلة لسببٍ بسيط: كان الرجل يعارض كلياً الشراكة بين القطاعين العام والخاص، وهي السياسة التي وضعها جون بريسكوت وغوردون بالنسبة إلى مترو الأنفاق. كان قطاع النقل في لندن هو الذي يحدد، بطرقٍ متعددة، المواصفات المطلوبة للمشروع، وبذلك يصبح من الصعب العثور على مرشحٍ من حزب العمال يكرس نفسه لوقف العمل بسياسة حزب العمال في قطاع النقل.

دعمت تلك السياسة، لكني، لغرابة الأمر، شعرت بثقةٍ أقل بشأن طبيعتها التحديثية. فكّرت كذلك في بوب كايلي، الشخص الذي أراد كين تسليمه إدارة قطار

الأنفاق، وذلك بعد نجاحه في عمله في إدارة النقل في نيويورك، الأمر الذي كان بمثابة توصية تزكية للمنصب.

حمل جون كراهية حزب العمال الشمالي لحزب العمال في لندن، وهو لم يثق بكين، أو بأحد الوصوليين النيويوركيين. لم يكن جون معجباً به، ولا نيل كينوك الذي عبّر عن أفكاره بكل قوة وبطريقته المميزة. سبق لي أن قلت، على أي حال، إنني لم أحاول ثني فرانك عن الاستقالة كي يترشح للمنصب، وهكذا لم يكن كين مرشح قيادة الحزب.

تعلمت مع الوقت أن أتعامل مع الأمر بهدوء، كما أدركت مدى حماقة، أو الأحرى عبثية، فرض خط القيادة في مواقف يُقصد منها إيكال السلطة إلى آخرين. كانت هذه النظرة، في حقيقة الأمر، من بقايا أيام عدم الانضباط التي سادت أيام حزب العمال القديم. كانت هناك خشية من الابتعاد عن الخط بحيث فقدنا، وبسهولة، إحساسنا بمنظور الحزب للأمور. وهكذا قررت في النهاية أن فوز كين المستقل بالإجمال قد يكون أقل الخيارات سوءاً، علماً أن فوز فرانك كان مستبعداً.

بقي لدينا خوض انتخابات الحزب. فاز فرانك بترشيح الحزب، وهو تمكن من ذلك بسبب أصوات النقابات. لم يمكنا اعتبار ذلك فوزاً عظيماً لحزب العمال. رأيت كين في شيكرز قبل ظهور النتيجة مباشرة وطلبت إليه التزام الولاء في حال فوز فرانك. قدّم لي الرجل هذا الالتزام، لكنه فعل ذلك من دون حماسة. لم أفاجأ عندما أعلنَ بعد ظهور النتيجة أنه سيترشح للمنصب مستقلاً. لم أتمكّن من لومه في حقيقة الأمر. أثار اهتمامي أن بعض أعضاء حزب العمال المؤيدين لي، والذين يميلون قليلاً إلى اليسار، قد أخبروني أنهم سوف يعطون أصواتهم إلى كين مهما كان الأمر. أضاف هؤلاء أنني أخطأت في معارضته، وذلك لأن كين إذا لم يترشح فإن فرانك لن يفوز بمنصب رئيس البلدية بحسب قولهم. لم يفز فرانك، ولعلهم كانوا على حق.

أجريت آخر محاولة لتغيير رهاناتي في اللحظة الأخيرة، أي قبل انطلاق الانتخابات الأولية داخل حزب العمال.

سرت بعض الهمسات التي أفادت أن مو ماولام تفكر في دخول السباق. كان ذلك أمراً مختلفاً تماماً لأن ترشيحها كان سيمنح فرصةً حقيقية للفوز. سألتها ما إذا

كانت جادةً في ترشيحها. أجابتني بأنها جادة في ذلك، واستوعبتُ الفكرة أخيراً. دعوت فرانك وزوجته جانيت لزيارة داوننغ ستريت، كما تناولنا الشراب معهما في الشقة. كان ألاستر وشيري حاضرين. شرحت أنني أعتقد أن من الصعب على فرانك تحقيق الفوز، واستعرضت معه إمكانية انسحابه. جاء جوابه حازماً بأنه لا يستطيع ذلك. لا يمكنني القول إنني فوجئت، كما أنه شعر بأنني تخليت عنه بمجرد أنني فتحت هذا الموضوع، ولعله على حق في ذلك.

لم تكن مو مستعدّة في نهاية الأمر للضغط في هذا الاتجاه، خصوصاً وأن علاقتي معها لم تعد كما كانت في الماضي.

تكمن إحدى المشاكل في السياسة في أن المرء عندما يكون زعيماً، وأتصور أن الأمر ينطبق على كل مؤسسة، سيتعيّن عليه اتخاذ قراراتٍ شخصية قد تكون مثيرةً للجدل. هناك عدد محدد من الوظائف العليا التي يتنافس فيها مرشّحون وطامحون أكثر من العدد الذي يُراد تعيينه.

أما التعديلات في الوظائف فهي صعبةٌ بما يكفي، كما أن إعفاء الناس من وظائفهم عمل فظيع، لكن كذلك هي الحال مع العجز عن منح الترقية بحسب ما يتوقعه الشخص لنفسه. هناك ثغرة عميقة في العادة بين تقديره لقدراته وبين تقديراتك كمسؤول.

أبلت مو بلاءً حسناً في إيرلندا الشمالية، الأمر الذي تطلبه الوضع، لكن عندما تسلّمت مسؤولياتي في أواخر العام ١٩٩٩، وفكّرت في إمكانية إجراء تغيير هناك (نوقش الأمر كثيراً في الصحافة كالعادة، لكن ذلك لم يكن مساعِداً على شيء، كما كان من غير المساعد القول إن ذلك كان جزءاً من إحدى خطط داوننغ ستريت، وهو أمر يتنافى تماماً مع الواقع، لأنني لم أكن لأفعل ذلك مع مو البتة). ناقشتُ الأمر مع مو وجهاً لوجه على شرفة ١٠ داوننغ ستريت.

لم تعارض مو إمكانية نقلها من منصبها على الرغم من انزعاجها من مناقشة الموضوع في وسائل الإعلام، وهو أمر كان مفهوماً. أدهشتني بعد ذلك حين قالت (وهي المعروفة بصراحتها الشديدة): إنني أتمتع بأكبر شعبية بين أعضاء الحكومة. لم يكن روبين كوك محبوباً كما أن سمعته قد ساءت قليلاً، لذلك يجب أن تجعلني

وزيرة الخارجية. كان ذلك عرضاً لم أتهيأ له جيداً، وأخشى القول إنني أظهرت أن هذه الفكرة غير واردةٍ على الإطلاق.

يكمن هنا لبُّ المشكلة، إذ في اللحظة التي تنفتح فيها الهوة بين إحساس المسؤول الظاهر بقدراته وبين تقدير رئيس الوزراء [أو القائد] لقدرته لا تعود العلاقة أبداً إلى مستواها الأول.

كانت مو من بين أوائل الداعمين لي، وهي تمتلك حساً سياسياً حقيقياً. كان وجودها حولي مصدر سرورٍ كبير لي. تعاملت مو مع مرضها بكل رزانة، وكانت بالفعل أكثر أعضاء الحكومة شعبية.

شكّلت طريقتها الفريدة لما لا يسعني إلا أن أسميه «طريقة مو»، صدمةً ثقافية حقيقية في إيرلندا الشمالية. لا يسعني كذلك أن أنسى تلك اللحظة في مفاوضات السلام عندما دخلت غرفتي التي كانت مزدحمة برجالٍ إيرلنديين متشدّدين، ونزعت شعرها المستعار ورمته على الطاولة بقوة، ثم وضعت قدميها على الطاولة، ثم تجشأت بصوتٍ عالٍ، وأعلنت رأيها: «حسناً، ليس هذا مدعاة للضحك، أليس كذلك؟» مضت بعد ذلك كي تخبرني عن الأمور الكثيرة التي كانت تفضّل أن تفعلها في تلك اللحظة، بدءاً بمعاشرة جنسية نشطة. غيّرت بكلمتها هذه، وفي غضون لحظاتٍ قليلة قواعد السلوك الثابتة كلها التي كان يتبعها وزراء الخارجية السابقون. توقّفت قليلاً كي أفكّر في ما يتسببه هذا السلوك إذا ما ظهر أمام وزراء الخارجية الذين يتمتعون بحساسيات مرهفة، أو في مؤتمرات القمة الدولية المعقدة. لم أكن متأكداً أن وزارة الخارجية، أي ذلك المبنى الضخم المشبع بروحية بالمرستون، وغراي، وهاليفاكس، وحتى بيتر كارينغتون، كانت ستتحمل طريقة مو هذه، لذلك لن تجد هذه الطريقة مكاناً لها.

لاحظتُ، بالمناسبة، أن الجميع يريدون الحصول على منصب وزير الخارجية. لا يقتصر الأمر ببساطة على أن منصب وزارة الخارجية هو أحد «أعظم مناصب الدولة»، بل إن المرء يمضي وقته مع أناسٍ يظهرون اللطف واللياقة معه، ويناقشون القضايا العالمية الراهنة، ويجولون في العالم من أجل إظهار النيات الطيبة، ولكي يعربوا عن آرائهم أمام الذين يُظهرون حرصهم على سماعها. أما عندما يكون المرء

وزيراً للخارجية فإنه لا يستسيغ سماع الآراء الخشنة الصادرة عن الذين يكدحون كثيراً ويزعجون المسؤولين بآرائهم بالنسبة إلى أسعار الوقود، أو الذين يشتكون بسبب رفض الحكومة – سيئة النية – إنفاق المال على هذه الخدمة أو تلك، أو حول تفاصيل خطط الطرق. تحول كبرياء المرء في هذه الحال بينه وبين الانزعاج الذي تسببه هذه الأمور العارضة. يمتلك وزير الخارجية العالم ليكون مسرحه، كما أن لغته هي المصالح الاستراتيجية وهي اللغة التي تُعتبر مهيبة ونادرة للناس العاديين. كما يمكن لمواقف وزير الخارجية أن تكون محسوبة ومتوازنة بطريقة لا تتوافق تماماً مع المشهد الداخلي الخشن والمتعثر. يمكن للمرء أن يتحدث حتى عن أشياء وأماكن في مجلس العموم، وهو أقرب ما يكون إلى الناحية القاسية من حياة الناس، وأن يتلفظ بأسماء تجعل عضو البرلمان العادي يومئ نتيجة عدم فهمه لها.

إذاً يسعى كثيرون وراء هذا المنصب. يكمن أحد أسباب تقديري الكبير نحو جاك كننغهام، وهو مثال عظيم للرجل الجدي من بين سياسيي حزب العمال في الثمانينيات والتسعينيات، في اختيار جون سميث له لمنصب وزير الخارجية في حكومة الظل. أقدمتُ على نقله كي أفسح في المجال أمام روبين كوك، الذي لم يكن الشخص المفضّل عند جاك. أخذ الرجل القرار، لكنه لم يُظهِر أي شيء يدل على استيائه إذا كان قد استاء بالفعل، وهكذا سارت الأمور. أعتقد أن هؤلاء الأشخاص نادرون بالفعل.

أعتقد أننا ابتعدنا عن الموضوع. كانت انتخابات رئاسة البلدية تتجه نحو الفوضى، وهذا ما حدث بالفعل. مضى كين بترشيحه مستقلاً، وتغلّب على فرانك فأصبح رئيس البلدية. كنت حريصاً مع ذلك على عدم المبالغة في مهاجمة كين أثناء الحملة الانتخابية فأبقيت على خطوط الاتصالات مفتوحة بيننا. بقينا بعد الانتخابات على علاقةٍ جيدة بكل سهولة، والفضل في ذلك يرجع إليه كلياً.

نشبت في هذه الأشهر اضطرابات جديدة في إيرلندا الشمالية، كما خُطفت طائرة في ستانستيد (وهي الطائرة التي خطفتها، للمفارقة، جماعة من الأفغان المنشقين عن طالبان)، كما حدثت مشاغبات في يوم عيد العمال قامت بها جماعة من الفوضويين الذين شوّهوا مقبرة شهداء الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى

أعمال التخريب العادية. انشغلت طوال هذه الفترة بمسألة إصلاح الخدمات العامة، وهو الموضوع الذي بقي ساخناً.

كان من الصعب فعلاً الكشف عن تعقيدات القضايا المطروحة وإعادة صوغها. كنت في هذه المرحلة لا أزال أتلمس طريقي، كما عقدت اجتماعاتٍ لا نهاية لها مع المستشارين والخبراء وأولئك الذين داخل حقل الخدمات. كنت أحاول أن أفهم كيفية تنظيم الإصلاح وصوغه، والأهمّ من ذلك كيفية تنفيذ هذا الإصلاح على الأرض في الظروف الحقيقية، ومع الأشخاص الحقيقيين.

اكتشفتُ أن الأمر مخيّب للآمال. أردت في بعض المراحل التخلي عن كل شيء والاكتفاء بتمضية الأيام في الخطوط الأمامية كي أتعلم طبيعة إدارة الخدمة، وما هي ضغوطها الحقيقية، وما يُمكن فعله من خلال المعايير التقليدية، وكيف يُمكن لهذه المعايير أن تتغير.

واجهتُ في هذا المجال كذلك أصعب شيء في إحداث تغييرات في أي مؤسسة. تمثّل ذلك في ما أسميته «سحب المعطيات». أما ما أعنيه بذلك فهو كالآتي: يتصرف المرء عادة، وفي أي مؤسسة ضمن حدود من الفكر والممارسة. تحولت هذه الأمور إلى «معطيات». وهكذا يمكننا القول في مجال الخدمات الصحية أن الجرّاح هو الذي يجري العملية الجراحية، وأن طبيب الصحة هو الطبيب الذي لا يمكنه أن يلمس مشرط الجرّاح. يُفترض كذلك أن الممرض د[أو الممرضة] لا يقوم بوصف وصفات طبية معقدة [أو أنه لم يكن كذلك حينئذ]. ويُفترض كذلك أن عدد الأسرّة كلما زاد في المستشفى باتت الخدمة أفضل، وكذلك يقوم المريض بالدفع في مستشفيات القطاع الخاص بينما لا يدفع في مستشفيات القطاع العام.

ينطبق المبدأ ذاته على المدارس حيث تجري الدراسة بحسب منهاج وطني ورسمي. وينطبق كذلك على مجال الخدمة المدنية [أي موظفي الدولة] حيث يجري العمل بحسب مسارٍ مهني محدد. ينطبق الأمر ذاته على المحاكم حيث تطبق إجراءات محاكمات تكاد تكون مقدسة.

إن تحدي هذه «المعطيات» الموجودة التي يعمل كل نظام بحسبها هو أمرٌ صعب. وُضعت هذه المعطيات لسبب محدد، ولسبب وجيه تاريخياً على الأقل، كما

أن تغييرها أمر أصعب. وثمة شبكة كاملة من العادات، والممارسات، والمصالح حول هذه المعطيات، ومع ذلك يجب تغيير هذه المعطيات إذا أرادت مؤسسة ما أن تحقق تقدماً.

بدأنا، لأجل ذلك، إعادة درس المبادئ الأساسية التي كانت تعمل تلك المؤسسات بموجبها، ومحاولة قيسها ليس على أساس المعطيات، بل على أساس الواقع المعاصر، وهكذا تنفتح الإمكانيات والاحتمالات على التغيير، وهي المعايير التي يجب أن نسعى إليها إذا ما تحرّرنا من القيود السياسية كلها واكتفينا بتطبيق تفكيرنا الحُرّ.

تعودت استدعاء الخبراء كي أسألهم إذا ما كانت أيديهم مطلقة تماماً، ويقدرون على فعل ما يشاؤون، وبالطريقة التي يريدونها، فماذا سيفعلون؟ توافقت الصورة التي بدأت بتكوينها مع حدسي، لكن اتضح لي أن الخدمات سوف تحتاج إلى تغييرٍ جذري.

هكذا ولدت الخطة العشرية الخاصة بالخدمات الصحية العامة. لم أعتقد قط أنها سوف تستغرق عشر سنوات، وكان هذا هو موقف آلان كذلك، لكننا كنا واعين الحاجة إلى وضع هيكلية تسمح بوضع الخدمات الصحية العامة في مسارٍ مختلف كلياً. ربما تكون الوتيرة أسرع أو أبطأ، لكن اتجاه التغيير لا رجوع عنه، وعلى الأقل إذا امتلكنا فرصة إظهار ما يمكن للإصلاح أن يفعل.

تحتّم علينا المضيّ بأقصى قدر ممكن من الحذر. كانت هناك معارضة حزبية، وكثيراً ما كان جون بريسكوت قاسياً، كما عبّرت وزارة الخزانة عن تشككها على الرغم من أنها لم تفرض عوائق كبيرة. أعربت النقابات عن حذرها (بحق) وعن تشككها، كما أن الاختصاصات داخل الخدمات كانت تحت سيطرة التقليديين.

برز أمامنا تحدّ آخر. يُمكن أن يتقبل الناس وجود مجالات فشل واضحة وجلية في الخدمات العامة. ومن الإنصاف القول: لم يكن من الصعب إقناع الناس بأننا سوف نحتاج إلى تغيير طريقة تعاملنا مع ضغوط الشتاء في الخدمات العامة. ولم يكن من الصعب إقناع الناس بأن من الضروري عمل شيء مع المدارس المتعثرة، وأعني المدارس التي تشبه لعبة كرة السلة في معدلاتها: أي تلك التي يحصل ما نسبته ١٠

بالمئة، ١٥ بالمئة، ٢٠ بالمئة من طلابها على شهادة الثانوية العامة، لكن ذلك هو أبعد ما يكون عن المستوى الذي أردته.

إنني أتبنى عادةً رؤية الطبقة الوسطى بالنسبة إلى الخدمات العامة، لكن المرء لا يستطيع أن يفهم أي شيء حاولت عمله من أجل إصلاحها من دون أن يفهم ذلك. أرسلتُ أولادي إلى مدارس رسمية، كانت جيدة، لكني أردتها أن تكون في حالٍ أفضل. كانت هذه المدارس نادرةً في ذلك الوقت. لم يقتصر الأمر على قدرة المدارس على الحصول على نسبة ١٠٪، و١٥٪، أو ٢٠٪ من طلابها على المستوى الصحيح في امتحانات الثانوية العامة الذي كنت أسعى للوصول إليه، لكنها تمكنت من الوصول إلى نسبة ٥٠٪ أو ٦٠٪.

لم يكن هدفنا النهائي تقليص فترة انتظار دخول المرضى المستشفيات من ثمانية عشر شهراً إلى ستة أشهر، وذلك لأنني أعتقد أن فترة ستة أشهر غير مقبولة بالمرة. أعرف بأنني لن أتحمل أن ينتظر الأشخاص الذين أحبهم هذه الفترة الطويلة قبل دخولهم المستشفى. لماذا يتعيّن عليّ أي شخص آخر أن ينتظر هذه المدة؟ ولماذا يكون تغيير هذا النظام حلماً مستحيلاً؟

امتلكنا لهذا السبب طموحاً أكبر بكثير للتغيير. أما المشكلة فهي أن عدداً كبيراً من الناس، بمن فيهم الأشخاص الذين يريدون أن يخدموا، اعتبروا أن الخدمة بهذا المستوى المتواضع هي أمر مقبول.

أريد أن أقول على أي حال إن الناس على الرغم من أنهم كانوا مستعدين لقبول مستوى أقل مما يستحقونه، إلا أن مجموعة كبيرة من مناصري حزب العمال الجديد صوتت لنا، لا لشيئ إلا لأنها تشترك معنا في ذهنية الطبقة الوسطى. لا يعني ذلك أن «الطبقة العاملة» تريد الحصول على مستوى أقل مما تطمح إليه الطبقة الوسطى، لكن مجرد أن أضع هذه العبارة بين هلالين فذلك أمر له دلالته، وهو لا يقتصر عليّ وحدي. إن الطبقة العاملة الطموح تريد التحول إلى الطبقة الوسطى.

يُعيدنا هذا الحديث إلى الأمر ذاته. يمتلك معظم الناس طموحاتٍ تخصهم وتخص أفراد عائلاتهم، وهم لا يشعرون بالذنب لأجل ذلك، كما أنهم ليسوا مضطرين للشعور بالذنب. أعتقد أن عليهم أن لا يشعروا بالحسد أو بالغيرة إزاء طموحات

الآخرين أو إنجازاتهم، بل من الأفضل لهم أن يشعروا بواجب مساعدة الأشخاص الذين هم أقل حظاً أو نجاحاً منهم.

أما المشكلة التي واجهتنا فهي أن الحزبيين على الرغم من أنهم كانوا على استعداد لتقبّل الإصلاحات الحاسمة في حال الفشل المزمن، إلا أن غالبيتهم لا تتقبل الحسم في حال ضعف الأداء. اضطررنا لهذا السبب إلى خوض معركة من أجل تغيير الهيكليات، ومن أجل تغيير «المعطيات، أو المسلّمات». كان علينا كذلك خوض معركة من أجل تغيير المواقف، ومن أجل التشجيع على التفوق لكن ليس على حساب المساواة، بل بوصفه هدفاً شرعياً في ذاته.

ربما ما زلنا كذلك في مرحلة التعلّم عن طريق التجريب. إن خطة الخدمات الصحية العامة لا تزال تحمل في صياغتها دلائل عدم النضج السياسي والفكري، لكنها تظل نقلةً نوعيةً عن الحالة التي كنا عليها.

برز أمامي قبل ذلك برنامج لإصلاح القوانين والنظام. سبق لنا أن بدأنا العمل في أول تشريع يشمل السلوك الجرمي [اللااجتماعي] قبل سنتين. أما بالنسبة إليّ فقد وضعت، قبل سنتين، هذا البرنامج في إطار برنامج شامل يطال النظام القضائي الجرمي الذي أثبت فشله وقِدَمه برمّته. كان الهدف هو البدء بالنظر إلى القضاء الجرمي كالنظر إلى الخدمات العامة. أعرف أن ذلك يبدو غريباً بعض الشيء، لكن القضية تبدو على النحو الآتي: يركّز نظام القضاء الجزائي، ولا يزال، على التفاعل بين الادعاء والدفاع، وذلك لأن النظام يطال القضايا المقدسة، عن حق، لحرية الإنسان. أما في البحث المناقض التالي فإن النظام محكوم بأولوية تنفيذ العدالة أكثر من اهتمامه بتحديد ما إذا كان شخص ما مذنباً أم بريئاً.

يتعين، بطبيعة الحال، أن تكون هذه النقطة جوهرية، وهي كذلك بالفعل، لكن التركيز بقوة شديدة على هذا الجانب يعني تهميش مجالات قانونية برمّتها، وهي تطال اهتمامات المجتمع والأفراد. إن مسألة كيفية أداء النظام بوصفه خدمة هي أحد هذه الاهتمامات. أما الشهود، والضحايا، وكل الأشخاص من غير هيئة المحكمة فيتعيّن عليهم أن يكونوا ضمن إطار التفاعل بين الادعاء والدفاع. تتعرض قضايا كثيرة للإلغاء، وأحياناً يغيب المتهمون عن المحاكمة، كما أن أوامر المحكمة لا تنفذ

في بعض الأحيان. يُضاف إلى ذلك أن رجال الشرطة لا يجدون متسعاً من الوقت لمعالجة المخالفات البسيطة. يكمن وراء هذه الأمور كلها شخص، أو ضحية، من دون أن يلاحظه أحد إلى أن يظهر في المحكمة، وذلك لا يحصل في معظم الأحيان من دون المرور بإجراءات مؤلمة وطويلة تزيد من المعاناة والأضرار الجسيمة التي سبق أن تعرض لها الضحايا.

يجري ذلك كله وسط بيئة تكاثرت فيها الجرائم عما كانت عليه في منتصف القرن العشرين. يمكن للناس الاستفاضة إلى ما لانهاية في شرح الأسباب، لكن يمكننا تلخيص هذه الأسباب على النحو الآتي: لا يناسب هذا النظام واقع الحياة الحديثة. إنه أشبه بحصانٍ في عصر السيارات. إنه وسيلة رائعة لكنه لا يستطيع نقلك مسافة بعيدة، وبالسرعة الكافية.

انشغلت كثيراً بالسلوك الجرمي، وأحسست، شخصياً، بأنني لا أستطيع تحمله. أذكر أنني سكنت في ستافوردايل رود، وهو الحي القريب من محطة قطار الأنفاق في آيلنغتون. كنت أمرّ بالمحطة عندما أخرج لتناول العشاء. رأيتُ ذات مرة شخصاً في نهاية الشارع وهو يبول أمام أحد الجدران. توقفت، وما لبث ذلك الشخص أن قال لي: «إلى ماذا تنظر؟» قلت له: «ما كان يجب عليك أن تفعل هذا». تناول ذلك الشخص سكيناً كبيراً من معطفه، وما لبثت أن مضيت في طريقي.

كرهتُ ذلك كله. كرهت حقيقة أنه فعل ما فعله. كرهت أكثر أنني لم أمنعه. كرهت كذلك الخيار الذي برز أمامي: إما منعه والمخاطرة بحياتي لأن أحداً قد بال في الشارع، وهو أمرٌ لا يستأهل الاستشهاد من أجله، وإما أن أمضي في طريقي.

تظهر مشاهد كهذه في كل يوم، وفي كل مدننا، وبلداتنا، وضواحينا، وقرانا، وضيَعنا. تتكرر المشاهد ذاتها في معظم المدن الأوروبية، أما في الولايات المتحدة فالوضع أسوأ بكثير. يمتعض الناس بقوة، وعن حق، من هذه التصرفات، وذلك لأنها تؤذي حساسياتهم التي يحترمونها كثيراً. يتحدث الناس في أنحاء البلاد كافة عن هذه المواضيع، كما تعودت الإصغاء إليهم برغبة صادقة في عمل شيء ما.

شعرت بأننا قد ابتعدنا كثيراً، كمجتمع، عن طريق الصواب، لذلك علينا تصويب مسارنا. لا أفكر في المسألة على أنها مسألة حنين، بل شعرت بأنها تحدّ مهمّ أمام

العالم المعاصر، ولهذا علينا تحديث أنظمتنا بحيث تتمكن من مواجهة هذا التحدي. سبق لي أن كتبت عدة مذكرات شخصية وخاصة عن إصلاح نظام القضاء الجرمي. تفهّم جاك سترو الأمر، لكنني أخشى عدم تفهم ديري ذلك. تظاهر الرجل بأنه تفهم الأمر مسايرةً لي، لكنه تبنى موقفاً يقول إن الأمر كله لا يعدو كونه نوعاً من أنواع إلهاء الناس، أي كما يفعل معظم المحامين، والقضاة، والأشخاص النافذين.

برزت أمامنا مشكلةٌ إضافيةٌ تولدت من كوننا حكومة عمالية. سلطت صحيفة مايل سمومها علينا. أما الأسوأ من ذلك كله فهو أن أشخاصاً مثل محرّرها بول داكر، وهو من المحافظين المتعصبين، بلغت بهم جاذبية المعارضة حد أنهم حتى ولو توافقوا مع ما يُقال إلا أنهم يعارضونه بسبب هوية الشخص الذي يقول هذه الأشياء.

فضّل قسم كبير من اليمين أن يتبنى موقف الحقوق المدنية على نحو غير معقول بالمرة، وأن يشتكي في الوقت ذاته بالقول إنه ينبغي لنا أن نكون أكثر تشدداً في موضوع الجريمة. لا أقصد القول إن تقييم الحقوق المدنية برمّتها كان مجرد هراء – لم أتفق مع التقييم، لكنني احترمته – بل أعني أن مناصري القانون والنظام من جناح اليمين قد اكتشفوا فجأة أن كل ما كان يفعله القانون في الماضي هو الحفاظ على حقوق المشتبه فيهم. شكّل ذلك بداية الحلف غير المقدس الذي برهن عن قوته بعد قضية العراق، وهو يشبه التحالف القائم بين صحيفتَي الدايلي مايل والغارديان، الذي يمتلك نقطة مشتركة وحيدة وهي كراهيتي، والذي وجد في الإصلاحات أموراً كثيرةً لا تعجبه، وإن أرادا ذلك، وهو ما حصل فعلاً. أخذ التحالف الداعم لحزب العمال الجديد يضعف مع الزمن، وذلك بفعل تحالفٍ معارض كان وليد قناعة من جهة، ووليد مصلحة من جهةٍ أخرى. لكن وجود هذا التحالف جعل من إسماع آرائنا نوعاً من التحدي.

عندما بدأتُ بترتيب أفكاري حول مسألة إصلاح القضاء الجنائي، فعلت ذلك بما لا يمكنني وصفه إلا نجاحاً معقداً.

قررتُ في البداية درس المسألة الفلسفية التي تُعنى بطبيعة مجتمعنا، وكيف أنه تغيّر، وكيف أنه بإمكاننا استعادة الإحساس بالقيَم التي فُقدت إذا كنا مستعدين

للتفكير من جديد. قررت زيارة تجمّع المنظمة النسائية الذي يُعقد مرة كل ثلاث سنوات في ويمبلي، وسماع الآراء الاجتماعية عن الرئيسات الطيّبات لتلك المؤسسة، وهو أمر أسفت عليه فيما بعد.

لا أتذكر ما كنت أفكر فيه بالضبط عندما باشرت بهذا المشروع على نحو متسرع. كل ما فكّرت فيه هو ما إذا كانت ولادة ليو لها علاقة بالأمر.

كان أحد الأسباب التي جعلتني رجلاً منشغلاً في ذلك الوقت عن خطاب «قوى المحافظة»، وعدم استيعابه وإعادة استيعابه بطريقة عادية، هو الصدمة الكبيرة التي تلقيتها من شيري عندما أخبرتني بأنها حامل.

قوبل هذا الخبر عند إعلانه بعد أسابيع قليلة بمزيج من الدهشة من قبيل، «أيعني هذا أن رئيس الوزراء يمارس الجنس؟ وهل يقوم بذلك مع زوجته؟» والتهكم من قبيل «نصحه ألاستير بذلك كجزء من تكتيك الإلهاء». أما أولادنا فقد عبّروا عن بعض الاستياء.

كانت الولادة ذاتها غريبةً بعض الشيء. وقفت في أحد الممرات مع رجالي. أصغيت وانتظرت بينما كانت شيري تصرخ وتئنّ بين وقتٍ وآخر. دخلت غرفتها وخرجت مراراً، ثم بقيت معها أثناء ولادة الطفل. كانت القابلات رائعات، وعلى درجة عالية من الفهم، وواقعيات، وذكيات. أما شيري فكانت مدهشة. كنت أخشى عليها في بعض الأوقات لأنها استمرت في العمل حتى اللحظة الأخيرة. حدثت ولادتها في الوقت الصحيح وبحسب ما هو متوقع، وخرجت من المستشفى في الليلة ذاتها. كانت في الخامسة والأربعين. كان الأمر رائعاً برمّته.

شكّل الأمر حدثاً عالمياً. خرجت في اليوم التالي من داوننغ ستريت كي أدلي بكلماتٍ قليلة تصف مشاعري كوالدٍ فخور. ارتكبت غلطةً في ذلك الوقت عندما أمسكتُ بكوب الشاي الذي يحمل رسم أولادي الثلاثة، الأمر الذي اعتُبر غير مناسب. أعتقد أن هذا صحيح، لكني شعرت بالفخر فعلاً لمرةٍ واحدة.

عدت بعد ذلك لالتقاط الصورة الرسمية لطفلي ليو، وذلك بعد أن قررت أن أطلب إلى أحد المصوّرين التقاطها، وبيع الصور تمهيداً لإعطاء ريعها للجمعيات الخيرية.

طلبنا إلى ماري، وهي ابنة بول مكارتني أن تقوم بهذا العمل. قامت ماري بعملٍ رائع وكانت الصور جميلة جداً. كان ذلك أشبه بمعجزة صغيرة لأن أولادنا الآخرين، الذين أصبحوا في سنّ المراهقة في هذا الوقت، تصرفوا بطريقة سيئة خلال عملية التصوير. أفترض أن ماري قد اعتبرت أن من الأفضل إعطاءهم بعض المهدئات.

كان من المفترض أن آخذ إجازة أبوية، جرياً على العادة المستحدثة. كان ذلك بمثابة نعمة. لا يقتصر الأمر على أنني استمتعت بالاهتمام بالطفل ليو فقط (أعترف أن الاهتمام بإطعام الأطفال، وبنومهم، وبالأمور الأخرى لم يكن من الأمور المسلية بالنسبة إليّ، على الرغم من أنني كنت أقوم بها على الدوام). أخذت فرصة أسبوعين للاسترخاء والابتعاد عن جلسات استجواب رئيس الوزراء، ومن أجل التفكير في الخطاب الذي سألقيه أمام المنظمة النسائية. قيل لي أن هذه المنظمة تضمّ مجموعة مهذبة ولطيفة على العموم، وهكذا قررت أن أنثر درر حكمتي أمام هذه المنظمة.

أسرعت في صباح السابع من حزيران/يونيو، وقبل جلسة استجواب رئيس الحكومة (لا أذكر ما كنت أفكر فيه)، وتوجّهت نحو ويمبلي. أذكر أنني راجعت الخطاب في غرفة انتظار صغيرة. أحسست بشعور غامض أن من الأنسب قليلاً لو كان حديثي على شاكلة محاضرة أمام مجموعةٍ من الأساتذة. قلت في نفسي بعد ذلك إن أكثر ما يزعجني هو أنه خطاب رائع جداً، وجيد التحضير، ومتين الحجّة، وهو فوق ذلك كله جدير بالتعليق أو بالنقد.

أخذت بالتفكير في سبب غياب آداب السلوك عند أشخاص كثيرين، وهو أمرٌ لا يمكن اعتباره تافهاً. إنه ظاهرة تخفي انحداراً في مستوى آدابٍ السلوك، وقد ظهرت بطرقٍ أكثر خطورة. تحدثت عن الآباء الذين يقفون مع أولادهم بدلاً من الوقوف مع أساتذتهم الذين يقومون بتأديبهم. تحدثت كذلك عن المجاملات الأساسية المهملة عادة وعن الثقافة التي تعزّزها هذه المجاملات. شرحت كذلك أن علينا أن نحاول عكس اتجاه هذه الظاهرة. لا أقول يمكننا أن نُرجع عقارب الساعة إلى الوراء، بل يمكننا الاعتراف بأن العالم قد تغيّر وأنه يتطلب نظاماً مختلفاً من أجل تعزيز السلوك الحسن في غياب ضغوط التقاليد والضغوط الأسرية.

ظننت أن المنظمة النسائية قد تفهم المنطق من وراء ذلك كله. أعتقد لو أن عدد

الحاضرات كان أقل من اللواتي حضرن بالفعل لكان من المحتمل أن يتفهمن ذلك المنطق.

تقدمت من المنصّة، وتطلعت إلى الحاضرين الذين بلغ عددهم ١٠,٠٠٠ شخص. بدأت بالخطاب، لكن شعوري بالقلق تزايد أكثر فأكثر. إنني حساس جداً تجاه ردة فعل الجمهور، لأن مركزي يفرض عليّ ذلك. أدركت أن حديثي لم يؤثر قط في الحضور.

تابعتُ حديثي لمدة عشر دقائق، وفجأة سمعت صرخات كثيرة وبعض التصفيق البطيئ. بدأت الحاضرات بالتململ. وأقول بصراحة ليس بوسع المرء أن يفعل الكثير في وضعٍ كهذا. توقفت تماماً عن إلقاء الخطاب.

تطلعت نحو قيادات المنظمة النسائية اللواتي كن جالسات فوق المنصة. لم يشجعن على هذا التصرف، لكنهن تدخلن قليلاً في آخر الأمر، وقلن شيئاً يماثل: «إننا نأسف لاضطراركن إلى سماع هذا كله، لكن أتستطعن، من فضلكن، أن تسمحن له بالاستمرار قليلاً في لغوه هذا. إننا نأسف إذا كان ذلك مصدر إزعاج لكنّ».

أسفر هذا الكلام عن تهدئة الحاضرات، لكن ليس قبل بعض التذمر والصيحات المتفرقة. كان من الواضح جداً أنني كنت أخشى في تلك اللحظة أن أضطرّ إلى الانسحاب. لم يساهم احتلال المنصة من قبل قيادات من مستوى اللجنة الثورية الفرنسية مع وجود مدام ديفارج في تهدئة الوضع. صمّمت على تخفيف الخسائر ما أمكنني ذلك، وعلى الإدلاء ببعض الملاحظات الارتجالية والتافهة، والخروج من المكان في أسرع وقت ممكن. هذا ما حصل على الفور. أقول للإنصاف إن قيادة المنظمة حاولت إنقاذ الموقف قليلاً فشكرتني على حضوري، وحاولت التخفيف من أهمية ما حصل. ابتسمت قليلاً وتظاهرت بأنني تلقيت الأمر بروح رياضية على الرغم من الأفكار غير الودية التي سيطرت على ذهني.

دخلت المقعد الخلفي للسيارة التي أقلّتني إلى مبنى البرلمان وجلسة استجواب رئيس الوزراء (لم تكن مواجهة وليام هايغ بعد تلك التجربة بالأمر المفرح). هززتُ رأسي وأبلغت أنجي: «يا لها من كارثة!».

إن ما يميّز أنجي هو ذلك التفاؤل الهائل والراسخ الذي يرافقها. كانت تشعر

بالحيوية عندما يشعر الآخرون بالتشاؤم، وكانت ترى الخطوط الساطعة في السماء قبل أن ترى الغيوم الدكناء. كانت تمتلك قوة حياة إيجابية بإمكانها أن تهزم حقولاً كاملة من السلبية، وتحيط الأجواء المحيطة بها بحزمٍ من الضوء، والبهجة، والأمل وسط الظلمات.

لم تغيّر من طبيعتها في هذه المناسبة. قالت لي: «أعتقد أن المناسبة سارت على ما يرام لولا تلك المقاطعة».

أجبتها: «تبدين مقنعةً يا عزيزتي».

تمكّنت من المرح والقهقهة حول تلك المناسبة في وقتٍ لاحق من ذلك المساء، وذلك بعد ضغط شديد من شيري، حيث تناولنا الشراب بعد مضي يوم مليئ بالأخبار غير المشجعة والسرور الشديد الذي انتشر بين خصومي. قالت لي إن الأمر كله لا يعدو كونه خطاباً عن هبوط مستوى الأخلاق.

لم يلق الخطاب التالي الذي ألقيته حول قراري عرض إصلاحات القضاء الجرمي حظاً أفضل، وذلك على الرغم من تأثيراته التي وصلت إلى حدود بعيدة، وكانت مرضيةً في نهاية الأمر.

ناقشتُ مع كبار المسؤولين في الشرطة قضايا الجريمة والفوضى، وعرضت معهم طرق اختصار العمليات الطبيعية والمطولة في إثبات الذنب في المخالفات الجرمية الصغيرة.

برزت المشكلة عندما جلست مع رجال الشرطة الميدانيين، الأمر الذي كنت أقوم به بانتظام، لاحظت أمراً يتكرر مرة بعد مرة. طرحت عليهم هذا السؤال: عندما يُعثر على أحدهم ثملاً وفي حالة من الفوضى، أو عندما يسبب اضطراباً في الشارع، أو حين يهاجم شخصاً آخر بشكلٍ طفيف، وبحيث لا يتطلب حكماً شديداً، فماذا تفعلون؟ كان الجواب الذي يأتينّي في معظم الأحيان هو: لا شيء، لأن الأمر لا يستأهل.

أذكر أن أحد رجال الشرطة في كنت قال لي ذات مرة: «دعني أخبرك ماذا يحدث في العالم الحقيقي». أخذ الرجل يعدّد أمامي كيف أن أوراقاً كثيرة جداً تستهلك من أجل تهمٍ طفيفة جداً، هذا بالإضافة إلى سلسلة من الاجتماعات والاستشارات مع

المدّعين العامين والشهود. أما الأدهى من ذلك فهو أن المخالفين المنتظمين الذين يعرفون طريقة عمل النظام يعرفون كيفية تحويره، وهكذا كانوا يتصرفون من دون أي خوفٍ من العواقب.

أقنعتني هذه المحادثة، ومحادثات مشابهة أخرى، بأن موقف النظرية القانونية مهما يكن فإن تطبيق العملية القضائية الكاملة على المخالفات البسيطة يعني، من الناحية العملية، استحالة تنفيذها. تزايد اقتناعي التام مع الزمن بالتحليل القائل بعدم التسامح الكامل، وهو التحليل الذي يقول إنك إذا سامحت الناس على المخالفات الصغيرة فإنهم سوف يرتكبون المخالفات الكبيرة. يسمح المسؤول أحياناً بتكوين ثقافة التسامح التام إزاء عدم احترام القوانين، وتحمّل الأمور التي لا تُحتمل. وعلى الرغم من إمكاننا وصف هذه المخالفات كلها بالطفيفة، إلا أن هذا الوصف يبقى نسبياً. إنني لم أتشاجر قط مع ذلك الشخص الذي بال في الشارع الذي أسكنه، لكنني لم أنسَ الحادث بتاتاً.

يُشير الواقع، ومهما كان رأي النصوص القانونية، إلى أن المخالفات الخفيفة إذا بقيت من دون عقاب، فإن سمعة النظام برمّته تسوء كثيراً. كانت تلك حجّة رددتها مرات كثيرة طوال السنين. لم أتمكن من تغليب هذا الرأي، وعلى الأقل ليس بالطريقة التي تمكنت فيها من تغليب حجتي بشأن حرية الاختيار في أمور الصحة، أو في أمور التعليم في الأكاديميات، أو بالنسبة إلى أقساط التعليم في الجامعات. أعتقد أن الحكومة مضطرة في وقتٍ ما إلى إعادة تعلم الدرس. إن الاستهانة بالقانون والنظام في حين يتم قبول «مسلمات» النظام القضائي الحالي تشبه ركوب عربة الدكتور دوليتل، والتساؤل عن سبب عدم التحرك إلى أي مكان.

تمكّنا بعد بعض الجدال من تركيز الأنظار على فكرة إعطاء الشرطة سلطة فرض الغرامات الفورية، وإعطاء «إنذارات العقوبة الثابتة» كما عُرفت فيما بعد. خضنا كذلك معركةً شرسةً حولها في اللجنة الوزارية المختصة. أرادت وزارةُ الداخلية تحجيم الفكرة، أما الشرطة فكانت متحمسة لها، كما اقتنعت بأن هذه الفكرة سوف تعطي قوات الشرطة أداةً إضافيةً لتطبيق القانون. نلاحظ الآن أن مئات الآلاف من هذه الغرامات والإنذارات تصدر عن رجال الشرطة، وهكذا أصبحت مقبولة بوصفها جزءاً من النظام، وذلك على الرغم من أنني أرى أن استخدامها ما زال ممكناً على

نحو أوسع، وأن بالإمكان كذلك زيادة قيمة الغرامة الواحدة بصورة ملحوظة. تحولت هذه الغرامات الفورية إلى أمر واقع لكن تبقى ضرورة تطويرها.

قررتُ إعلان هذا الأمر من مكان غريب وغير مناسب للموضوع مثل المنظمة النسائية.

تعوّد بيتي طومبسون، وهو صديقي من أيام أوكسفورد، التغني، وعن حق، بمزايا هانز كونغ، وهو كاهن كاثوليكي موقّر تحول إلى أستاذٍ في جامعة توبينجن في ألمانيا. كان هانز باحثاً بارزاً ومؤلفاً اختلف مع الفاتيكان بسبب آرائه حول العصمة البابوية، ولهذا كان يُعتبر راديكالياً. كتب هانز كتباً مثل «حول كون المرء مسيحياً» وتُعتبر كلها أعمالاً عظيمة تمكنت من الوصول إلى غير الكاثوليكيين. سبق الرجل زمانه كذلك بسنين عديدة في حقل الأمور المشتركة بين الأديان. اختلفت مع الرجل حول موضوع العراق، كما اختلفت مع كثيرين غيره، لكنه كان كريماً ولطيفاً على الدوام.

دعاني هانز، بتشجيع من بيتي، لإلقاء محاضرة في توبينجن. تُعتبر المدينة مدينةً قديمة جميلة، وهي إحدى المدن القليلة التي نجت من قصف الحلفاء [في الحرب العالمية الثانية]. قدّم جون بيرتون أحد عروضه هناك مع فرقته الفولكلورية. لم ألاحظ هناك أي لوحة، على الرغم من أنني أفترض أن بعض الأرقام القياسية تم كسرها في الحانات المحلية.

عالج الخطابُ مجدداً طبيعة تغيير المجتمع وقواعده ونظامه. ضمّنتُ الخطاب مقطعاً حول مخالفي النظام والغرامات الفورية، وذلك من أجل الاستهلاك المحلي في بريطانيا. أشار ألاستير، وعن حق، إلى أننا إذا لم نفعل ذلك فستكون نتيجة توجهنا إلى أوروبا صفراً بالنسبة إلى الناخبين البريطانيين.

سمحت له، وعن خطأ كما تبيّن لي فيما بعد، بكتابة المقطع المتعلق بالغرامات. كان المقطع قطعة مختصرة عظيمة من تلك المأثورة عن ألاستير. أما ما عدا ذلك، وكما يحدث مع هذا النوع من الكتابات، فقد ذهب المقطع بعيداً جداً، وأوحى أننا سوف نسير بالمخالف نحو أقرب ماكينات النقد، والاكتفاء بالمراقبة أثناء إجبارنا إياهم على سحب أموالهم من أجل دفع الغرامة، أي إن ذلك يحصل مباشرة وفي مكان المخالفة. كان المقطع بليغاً، لكنه لم يكن عملياً.

قال لي بثقة بينما كنا نجلس في مقاعد طائرة سلاح الجوّ الملكي التي عادت بنا إلى البلاد: «يجب أن نشاهد كيفية عرض الخطاب في نشرات الأخبار. سيلقى اهتماماً كبيراً». كان، ومن دون شك، مصيباً كعادته في توقعه هذا.

كان ذلك، ويا للأسف، مثالاً نموذجياً على الخطأ الصغير الذي يعطّل قضية كبيرة أخذت جدالاً كبيراً. تحققت فكرة الغرامات الفورية، لكنها تكاد تضيع بسبب عجزنا، للأسف الكبير، عن الدفاع عنها لأنها تذكر «بعدالة ماكينات النقد».

لم يكن ذلك مهماً في النهاية، لأن الأهمّ من ذلك بكثير هو زرع بذور التنمية، وهي الهيكلية الجديدة لتشريعات السلوكيات الجرمية.

لم تسر عملية تقديم الإصلاحات التي أردتها علناً على ما يرام. لكن البعد الفلسفي قد أفسده ما جرى في المنظمة النسائية، أما البعد السياسي فقد علق في قاعات توبينجن التي ترجع إلى القرون الوسطى. جاء الآن دور البعد الشخصي.

إن أحد الأخطار الكامنة التي تواجه أي رئيس وزراء هو أن يكون أولاده في سنّ المراهقة. إنه أمرٌ يُخشى وقوعه. أنعم عليّ الله بأولاد رائعين، ومتفهمين عموماً، ولا يُظهرون تمرّدهم إلا بهدوء. إنني حين أتذكر ما كنت عليه عندما كنت في مثل سنّهم، أرتعش لفكرة كوني مراهقاً منقولاً إلى داوننغ ستريت.

أتذكر والدي في الماضي عندما استقبلني في محطة قطارات ديرهام في طريق عودتي إلى المنزل، وذلك بعد أن أنهيت سنتي الأولى في أكسفورد. كان شعري غير المغسول يقارب شعر روبونزيل في الطول، ولم أكن أمتلك عندئذ حذاءً جديداً ولا قميصاً. كان بنطالي الجينز ممزقاً بحسب الموضة في ذلك الوقت. أما الأسوأ من ذلك كله فهو أنني كنت أرتدي معطفاً طويلاً من دون أكمام، وهو المعطف المصنوع من الستائر التي رمتها والدتي. كان أصدقاء والدي جميعاً في المحطة، كما أن أولادهم بدوا وكأنهم نماذج الاحترام عندما وقفوا إلى جانبي.

رأى والدي الستائر القديمة فجفل قليلاً. كانت الستائر ماثلة بوضوح، لكني شعرت بنوعٍ من الإشفاق عليه.

قلت له: «أبي، لديّ أخبار طيبة. إنني لا أتعاطى المخدّرات».

تطلع في عينيّ مباشرة وقال: «يا بني، الأخبار السيئة هي أنك تبدو في هذه الحال من دون تعاطي المخدرات. إنك تعاني مشكلة حقيقية».

إنني أعتبر أولادي رائعين قياساً على بقية الأولاد. لكن هذه هي النقطة الهامة: يمضي الأولاد في طريقهم.

كان إيوان في السادسة عشرة من عمره عندما خضع لامتحانات الثانوية العامة. أريد أن أكون صريحاً هنا وأقول، إذا لم يكن لديه مانع، إن النتائج لم تشجع كثيراً على الاحتفال، لكنه قرر الخروج والاحتفال مع صديقه جايمس، وهو رجل لطيف أصبح فيما بعد مرشحاً عن حزب العمال في العام ٢٠١٠.

كنت متوجّهاً إلى غرفة نومي عند الساعة ١١:٣٠ من ليلة السادس من شهر تموز/ يوليو. فكرت في إلقاء نظرة على إيوان الذي افترضت أنه عاد إلى غرفته في هذا الوقت. كان افتراضي خاطئاً، لأنه لم يكن في غرفته، ولا حتى في أي مكانٍ في المنزل.

كانت شيري خارج البلاد مع والدتها وليو لتمضية عطلة في البرتغال.

أين كان إيوان بحقّ السماء؟ لم أكن أعرف سوى أنه كان برفقة جايمس. اتصلت هاتفياً بوالدة جايمس، وحصلت منها على رقم هاتف جايمس. اتصلت به بعد ذلك. لم أفهم منه الكثير، لكني فهمت أنه رأى إيوان آخر مرة سائراً في اتجاه باحة ليشستر.

شعرت بالهلع. كان هذا أحد التحديات غير الاعتيادية القليلة التي يواجهها المرء عندما يكون رئيساً للوزراء. أردت الخروج للبحث عنه، الأمر الذي يفعله الآباء عادة. يشعر الإنسان برغبة في الخروج بسرعة والبدء بعملية البحث. لكن عمليةَ خروجي ليلاً نحو باحة ليشستر والسير فيها في منتصف الليل لم تكن بالأمر اليسير. تحدثت إلى رجل الشرطة الذي يحرس مدخل داوننغ ستريت، وشرحت له ما حدث، ثم أوكلت الأمر إليه. أعلن أمامي بلهجة جندي مطيع أنه سوف يخرج كي يبحث عن إيوان.

قضيتُ الساعات القليلة التالية في حالةٍ من اليأس. نسيت موقتاً ووسط قلقي

العميق أن برنامجاً ضخماً ينتظرني في اليوم التالي. كان من المفترض بي النزول إلى برايتون، حيث كنت سأزور في البداية مؤتمر كنائس السود في بريطانيا، كما كنت سأظهر وحدي في برنامج وقت السؤال، حيث سيكون التركيز، ومن المؤكد أنك ستصيب في تخمينك، على القانون والنظام والسلوك الجرمي.

تمكن ذلك الشرطي الرائع في دوانينغ ستريت من معرفة مكانه بطريقة ما. جاء إليّ الشرطي عند الواحدة والنصف فجراً مع إيوان الذي كان في حالةٍ يرثى لها، وذلك بعد أن أُلقي القبض عليه بسبب تناول الشراب في مكانٍ عام، ولأنه دون السنّ الذي يسمح له بتناول الكحول. أما ظروف توقيت هذا الحادث فلم تكن مناسبة البتة.

لم أتمكّن من النوم في تلك الليلة. أصرّ إيوان عند الثانية والنصف فجراً على القدوم إلى غرفة نومي. كان يبدأ بالاعتذار ثم يتقيأ بعد ذلك. شعرت بالحب تجاهه، لكني أسفت لحالته، إلا أنني كنت أفضّل نقله إلى غرفة احتجازٍ تابعة للشرطة.

جاء الصباح أخيراً. تسربت الأخبار في وقت إعادة إيوان إلى مدخل داوننغ ستريت. تخدم مراكز الشرطة غاياتٍ رائعة وضرورية، إلا أنها ليست بالأمكنة المناسبة لحفظ الأسرار. تحدثت مع ألاستير حول كيفية التعامل مع الصحافة في هذا الشأن، لكنه اعتبر أن الأمر برمّته في منتهى الطرافة، وحدّثني عن برنامج وقت السؤال، وربطه من غير تعمد مع مسألة الغرامات الفورية عند ماكينات النقد. أخشى أنني لم أركّز على الموضوع في ذلك الوقت. إنني أتمكّن عادة من العمل وإن كنت لم أنل إلا قسطاً بسيطاً من النوم، لكن الأمر يتغيّر إذا لم أنم قط. وصلت بطريقة ما إلى برايتون، لكني أعتقد أنني استخدمتُ القطار. حملت معي الخطاب الذي حضّرته جيداً. توجّهت من هناك إلى مكان عقد مؤتمر كنائس السود.

لم أعرف وقتئذ ما يجدر بي أن أتوقع. لم أكن أعرف الكثير عنهم في ذلك الحين لكنني عرفت الكثير فيما بعد. لم أدرك، على الخصوص، أوجه الشبه التي تربطهم مع كنائس السود الأميركية من حيث حيويتهم، واستعدادهم للإبداع، ومشاركتهم، وغناؤهم ورقصهم.

لقيت ترحيباً مدوّياً عند دخولي. كانوا يعلمون بما حدث مع إيوان بطبيعة الحال. كانت تلك أخباراً مهمة بالنسبة إليهم، وأعتذر عن القول إن الخبر كان بمثابة مادة

دسمة لهم. ها هو ابن رئيس الوزراء يسقط من عالم النعيم كي يسلّم نفسه إلى شيطان الكحول، وها هو يحيد عن جادة الصواب، وها هو رئيس الوزراء موجود بينهم. حسناً، يمكن للمرء أن يتخيّل ذلك المشهد.

بدا الأمر وكأنه مؤتمر للتائبين المتدينين. كان الحاضرون ينثرون بركاتهم، ويصلّون وينادون باسم الرب. دفعهم الرجل المسؤول عنهم، وهو شخص ملهم ومحبب، إلى أن يشبكوا أيديهم كي يصلّوا لأجلي، ولأسرتي، ولإيوان. شعرت في إحدى اللحظات برغبة كي أقول لهم: «حسناً، كان ثملاً، ولم يكن يجدر به أن يثمل، لكن ما تفعلونه هو شيء مبالغ فيه قليلاً. إنكم تجعلون الأمر يبدو وكأنه مجرم حقيقي، أو شيء من هذا القبيل».

لم أقل لهم ذلك بطبيعة الحال، لكنني لو فعلت لما كان ذلك قد أثّر فيهم في شيء.

أنعشني ما فعلوه بكل تأكيد. ألقيتُ خطابي ودخلت أجواء ما كانوا يفعلونه، وأعترف بأنني أعطيتهم بقدر ما حصلت عليه، وجلت بحيوية في أنحاء المنصة من دون خجل، وكأنني أحد المبشّرين الإنجيليين الذين يظهرون على شاشة التلفزيون. صرخت وصحت وكأنني في حفلة.

شعرت بأنني أحارب بحماسة باسم الربّ في وقت دخولي استديو برنامج وقت السؤال. تلقيت السؤال الأول، وكان سؤالاً خبيثاً عما إذا كانت تصرفات ولدي تناقض ادعائي أنني مهتمّ بتطبيق القانون والنظام. انفجرتُ في وجهه، لفظياً على أي حال، وتابعت الحديث بالنبرة ذاتها. سألني ألاستير بعد ذلك: «ماذا دسّوا لك في كوب الشاي الذي تناولته في ذلك الحفل الديني؟ لربما يجدر بنا إرسالك إليهم كل أسبوع، لكن لربما لا بعد التفكير ملياً».

توقفنا في أحد المطاعم [المقاهي] الصغيرة في طريق عودتنا، الأمر الذي أثار سرور المواطنين الحاضرين. عبّر الجميع عن دعمهم لإيوان، كما أصغيت بدوري إلى قصة كل زبون وهو يروي لي السنوات التي أضاعها من شبابه. أعتقد أن البريطانيين هم شعب محترم في لحظاتٍ كهذه.

ما إن انتهينا من هذه الأمور المقلقة حتى عدت أنا وآلان للتركيز على خطة الخدمات الصحية العامة. عقدنا سلسلةً طويلةً من الاجتماعات للبحث في هذا

الموضوع، بحيث كنا نعقد عدة اجتماعات في الأسبوع الواحد من أجل تفحص الخطة، وإعادة تفحصها مرة بعد أخرى.

أدركتُ على الفور أنني إذا أردت إقناع حزب متشكك ومتوتر بهذه الخطة فسوف يتعيّن عليّ تحلية حبة الإصلاحات قليلاً. تتمكن الأحزاب التقدمية من تناول حبة الدواء فتشعر بتحسن بعد تناولها، وهكذا يتحسن أداؤها، لكن ملعقةً من السكر تساعد على ابتلاع هذه الحبة. امتلكنا عدة عوامل إيجابية نستطيع التصرف فيها: الأموال الإضافية، والمزيد من الموظفين، الأمر الذي يعني زيادة استفادة دائرة الخدمات الصحية من المستشارين في أولى سنوات عملهم، ويعني ذلك مساعدة أكبر لمرضى السرطان والقلب، ويعني ذلك نهاية للغرف المختلطة بين الجنسين في المستشفيات، وزيادة في الأسرّة المتوافرة من بعض الأنواع.

فتحنا، في مقابل ذلك، أنواع العقود كلها أمام الاختصاصيين من أجل إعادة التفاوض بشأنها، وهكذا شققنا طريقاً جديداً مع القطاع الخاص، وتمكنا من تغيير طريقة عمل الخدمة كي نجعلها أكثر وديةً بكثير بالنسبة إلى المستفيد. أما في الجوهر فقد أعدنا صوغ الخدمات الصحية العامة كي نُدخل في صميمها مفاهيم عمل القرن الواحد والعشرين.

إنني أتمكّن الآن، وبعد التفكير في الخطة ملياً، من تحديد القيود كلها التي رافقتها. تُعتبر الخطة الآن أقل من جريئة، بالإضافة إلى الأخطاء التي رافقت تطبيقها بالتأكيد. أعرف الآن أننا دفعنا مبالغ لعقود المستشارين وأطباء الصحة العامة أكثر مما ينبغي (أصبح هذا الموضوع موضوع جدال مع وزارة الخزانة فيما بعد) لكني اعتبرت أن الخطة ذات قيمة كبيرة على المدى البعيد. وضعنا قاطرة الإصلاح فوق السكة التي توصل النظام إلى التغيير الجذري. أريد القول إن عقود أطباء الصحة كانت سخية، لكن عندما أخضعنا العقود الجديدة للتشريعات عمدنا إلى إدخال حقّ المنافسة إلى امتيازات أطباء الصحة المحليين. أُعطي العاملون في حقل التمريض سلطاتٍ أكبر، كما تلاشت الحدودُ الفاصلة بين الأطباء القدامى والجدد.

فتحت الخطة الباب أمام القطاع الخاص، كما أدخلت إليها فكرة إنشاء مستشفيات حكومية الوقت. عبّرت جميع المصطلحات الجديدة، مثل المواعيد

المحجوزة سلفاً، والضمانات الدنيا للخدمة، وحرية التجديد والابتكار، عن ثقافة التغيير القادمة، وهو التغيير الذي يحمل توجُّه معاملة الخدمات الصحية العامة وكأنها شركة لها زبائن مثلما هي خدمة لديها مرضى.

كانت هذه العملية بالنسبة إلي غنيةً ومفيدة. بدأت معها بتحديد مراجعي المناسبة عند التفكير في الإصلاح، وبتفصيل المفاهيم بوضوح أكبر، كما اكتسبت ثقة أكبر بالنسبة إلى اتجاه التغيير. توقّفت عن التفكير في الأمر بوصفه مغامرة مترافقة مع حجج تجريبية مشكوك فيها. بدأت بإدراك أن الخطة هي مهمة واضحة لا تكمن نقاطُ التحدي فيها بما إذا كانت على صواب أم لا، بل في كيفية تطبيقها.

أذكر منذ ذلك الوقت أنني تخلّيتُ عن الأفكار التي سيطرت على سياسة حزب العمال الجديد حتى ذلك الوقت، وهو المفهوم الذي يوحي أن القطاعين العام والخاص يتجهان في مسارين مختلفين، وبحسب مبادئ مختلفة. تمكّن حزب العمال الجديد من تخليص الحزب من عدائيته تجاه القطاع الخاص، لكننا في هذا الوقت ابتعدنا عن طبيعة حزب العمال الجديد التي سادت التسعينيات، واعتمدنا سياسة أكثر توافقاً مع عقلية القرن الواحد والعشرين.

أما الواقع فهو أن عملية التمييز الكاملة بين القطاعين العام والخاص مشوبة بالغموض الذي يحيط بجميع النقاط ما عدا واحدة: هناك خدمة تدفع مقابلها، وأخرى تحصل عليها مجاناً. إن هذه هي نقطة في منتهى الأهمية، وذلك لأنها تعطي تعريفاً للخدمات العامة. لكن ذلك لا يعرّف كيفية إدارة الخدمات العامة، وكيفية عملها وتنظيمها. يعني ذلك أن هذه النقطة هي هامة جداً، لكن فيما يتعلق بالنقاط الأخرى، فإن القواعد ذاتها تنطبق على القطاعين العام والخاص على السواء، وهي نقاط هامة جداً.

يتعيّن النظر إلى خدمةٍ عامة، حتى تلك التي تماثل الخدمات الصحية العامة، على أنها شركة عند إبرام عقود البناء، وأجهزة المعلوماتية والاتصالات، والتكنولوجيا. يتعيّن خفض التكاليف عندما يكون ذلك ممكناً، أي وكأنها شركة. ينطبق الأمر ذاته على ما يتعلّق بتوظيف الناس أو صرفهم من الخدمة، وكذلك على ما يتطلبه التجديد مما يحتّم عليها التصرف كشركة.

بدأت بالتفكير في طرق، وفي كل الطرق التي تساعدني على الحصول على أفكار تصلح للشركات من أجل إدخالها في إجراءات الخدمات الصحية العامة. انتقل القطاع الخاص من الإنتاج الكبير والمنتجات النموذجية الثابتة إلى المنتجات التي تُصنع حسب الطلب، وفي مهلة زمنية محدّدة، الأمر الذي يُمكن تطبيقه على الخدمات العامة. يُمكن للناس تغيير الشركة التي يتعاملون معها إذا وجدوا شركةً أخرى تقدم خدمة أفضل، وهكذا يتمكن زبائن إحدى الخدمات العامة أن يفعلوا الأمر ذاته. نعرف كذلك أن الخدمات التي يقدمها القطاع العام محكومة بالمخاطر والتجديد، وهكذا نستطيع تحرير الخط الأمامي للخدمات العامة كي يتمكن من القيام بالأمر ذاته.

سيطر عليّ في بعض الأحيان إحساس بعدم التسامح مع الرأي القائل إن كل هذا الحديث يُعتبر خيانةً لأخلاقيات الخدمات العامة. بدا لي من الواضح تماماً أن بقاء الأمور على ما هي عليه مع تسببها بانخفاض مستوى الخدمة هو الخيانة الفعلية لتلك الأخلاقيات. يعني ذلك أن ضعف مستوى الخدمة ناتج عن الهيكلية الخطأ، وهذا يعني ضرورة تغيير الهيكلية. لاحظت، على أي حال، أن معظم اللغة المستخدمة في الدفاع عن «خدماتنا العامة» كانت مجرد دعاية رجعية تهدف إلى إلباس المصالح الخاصة ثوب المصلحة العامة.

بذلنا عنايةً خاصةً بكيفية تقديم هذه الخطة التي كان من المقرر إطلاقها في نهاية شهر تموز/يوليو، أي قبل بداية العطلة الصيفية. أحببتُ على الدوام إعلان بضعة أمورٍ كبيرة قبل بداية العطلة الصيفية الطويلة.

يُمكن أن تمتدّ هذه العطلة حتى ثلاثة أشهر. حاول روبين كوك، إبان حماسته للإصلاح عندما كان رئيساً لمجلس العموم، أن يقصّر هذه العطلة، وهو اقتراح أفرح وسائل الإعلام، لكن أعضاء البرلمان اشتكوا منه. أما أنا شخصياً فلطالما أحببتُ العطلة الصيفية الطويلة. تعطي هذه العطلة الجميع فرصة للتأمل، والاستراحة، وتقليب الأمور من جميع الجوانب، والاستعداد لموسم مؤتمر الحزب. تعجّ الحياة بالحركة في فترة انعقاد البرلمان. تتغيّر كثيراً، بطبيعة الحال، بيئة وسائل الإعلام التي يعمل

الوزراء وسطها، وسط انشغالاتهم الكثيرة مع هذه الوسائل، كما أن وتيرة السياسة الحديثة أصبحت سريعة، ولهذا فإن عطلة طويلة تساعد بالفعل.

يتعيّن أن يمضي أعضاء البرلمان في إجازاتهم مزوّدين استراتيجيات واضحة. هذا هو السبب الذي يجعل من نهاية شهر تموز/يوليو وقتاً مزدحماً بالمشاغل، وأنا أريد أن أملأه بقدر ما أستطيع من الأعمال.

برزت أمامنا مجموعةٌ كبيرةٌ من الأمور الأخرى قبل وصولنا إلى خطة إصلاح الخدمات الصحية. قدّمنا تقريرنا الوزاري السنوي كحكومة إلى البرلمان. كان ذلك التقرير أحد أبرز ابتكاراتنا. كانت الفكرة معقولة تماماً: استعراض ما وعدت الحكومة بالقيام به، وما أنجزته خلال تلك السنة. إنه أمرٌ يشبه خطاب حال الاتحاد.

أوقفنا الأمر بعد التقرير الذي قدّمناه عن العام ٢٠٠٠ والذي قدمته إلى البرلمان في شهر تموز/يوليو. كان تقريراً متسرعاً بعض الشيء. أوردنا في هذا التقرير البنود التي أنجزناها، وعددنا بعض الأمور التي لم ننجزها. ضم التقرير ما سُمّي بالإنجاز الكبير، وهو الذي أدخلناه في القائمة ثم أشرنا إلى أنه أُنجز. كان ذلك تشييد ملعب رياضي جديد في شيفيلد. لكنّ المشكلةَ كانت في عدم تشييد الملعب. وجّه إليّ وليام هايغ لوماً لاذعاً، بينما نهض بيتر بروك، وهو من كبار المحافظين الرائعين وسألني عن الهدف من وراء وضع صورة في صفحة كذا وكذا. تبيّن لي أنها صورة لعلبة حبوب منع الحمل. كان سؤالاً تصعب الإجابة عنه. أعتقد على أي حال أن بعض الأفكار تنجح، بينما يفشل بعضها الآخر. تبيّن لنا أن هذه الفكرة غير ناجحة.

قررت أن التنازل ودعوة الناس للمجيئ من أجل كيل الضربات للحكومة هو أمرٌ لا يساعد على التقدم البشري كثيراً، وبالتأكيد لا يساعد حكومة صاحبة الجلالة. سبّب لنا التخلي عن هذه الفكرة إحراجاً إضافياً، لكنني كنت سعيداً جداً بتحمّل هذا الإحراج من أجل التخلص من إحراجٍ كبيرٍ يتكرر كل عام.

قدمت في ٢٧ تموز/يوليو من العام ٢٠٠٠ خطة إصلاح الخدمات الصحية العامة. سار الأمر على ما يرام. احتوت الخطة على ما يرضي النواب من غير الوزراء باعتبارها وثيقة من وثائق حزب العمال. قمنا كذلك بوضع مرتكزات حزب العمال الجديد.

قمت، في الوقت ذاته تقريباً، أنا وآندرو أدونيس بصوغ فكرة الأكاديمية بالنسبة

إلى المدارس. كانت الخطة في مراحلها الأولية، لكن الفكرة تبرعمت في هذا الوقت. استندت الفكرة جزئياً إلى سياسة المحافظين القديمة التي تقضي باستقلالية الكليات التقنية [المهنية]، لكنهم أنشأوا عشرة من هذه المعاهد فقط قبل أن يتخلوا عن هذه السياسة. توافقت الفكرة تماماً، على أي حال، مع تفكيرنا في مكانٍ آخر: إعطاء المدارس الاستقلالية وتحريرها من أنظمة السلطات المحلية التي تمارس عليها السيطرة المباشرة، وفتح المجال أمامها للابتكار بما في ذلك الطريقة التي تتبعها في التوظيف.

بدأت خطةُ إصلاح الخدمات العامة والخدمات الاجتماعية بالتبلور تدريجاً، وهي الخطة التي وضعناها لفترة ولايتنا الثانية. كنت في مزاجٍ جيد ومعقول بعد انتهاء الإجازة، ولم أعد أتحسّس طريقي لأنني وجدته.

ظهرت في سمائنا سحابة وما لبثت أن بدأت بالامتداد تاركةً تحتها ظلالاً عميقة من الظلمات. كان غوردون يدير الاقتصاد بكل قوته ومهارته، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، لأن ذلك أعطى الحكومة الثقل والوزن. لاحظت بروز نمطٍ مقلق كان أكثر من مجرد إنذار تقليدي لوزارة الخزانة. بدا لنا جلياً أن خطّ الإصلاح لم يحظَ بالمشاركة، ولا بالموافقة، ولا بكثير من الإعجاب. لاحظت كذلك أن عبارة «إدخال روح السوق» إلى الخدمات العامة بدأت تجد مكاناً لها في المناقشات الدائرة فيما بيننا، وعلى الخصوص عندما يكون إد بالز، وهو مستشار غوردون، مشاركاً في هذه النقاشات، وعندما لا تُستخدم هذه العبارة في معرض الثناء.

لم تتمكن هذه السحابة، مع ذلك، من حجب الشمس، أو السماء، في تلك المرحلة، لكنها أزعجتني قليلاً. أردت إصدار بيانٍ حاسم، وهو ما أراده كذلك، لكن هل لفظة «حاسم» تعني الأمر ذاته بالنسبة إلى كلٍ واحد منا؟ وماذا سيقول عن فترة الولاية الثانية والتغيير؟ لم تفصلنا في ذلك الوقت عن الانتخابات سوى فترة تقلّ عن السنة الواحدة قبل تجديد فترة بقائنا لمدة أربع سنوات أخرى، وهي فترة كافية للحكومة التي أؤمن بأنها تتمكّن من الفوز مجدداً.

ما إن وصلت إلى توسكانيا، وإلى آرياج في فرنسا بعد ذلك حتى شعرت بأننا في حال تسمح لنا بالفوز لولاية ثانية، وأنه بإمكاننا تحقيق فوز قوي. بدا ليو الصغير على

أنه نعمة تامة. كان رائعاً، وسعيداً، ومصدر سعادة للآخرين ولنفسه. أعتقد أنه كان من الغريب أن ننجب ولداً مرة أخرى، وكان ذلك أشد غرابة في داوننغ ستريت. كان ليو، منذ البداية، يُحمل من غرفة إلى غرفة، ومن غرفة الاتصالات إلى وحدة السياسة الخارجية. كان كتلةً من البراءة في دوامة أنشطة الحكومة المتعَبة.

تساءلتُ في حديقة ستروزي بالازو الجميلة والمهيبة في توسكانيا عما ستحمله معها الأشهر المتبقية. تنوعت توقعاتي كثيراً، لكنها لم تصل قط في أي لحظة إلى حدود الفيضانات، والاحتجاجات على أسعار الوقود، وأمراض الأقدام والأفواه. وهذا ما حصل بالفعل.

الفصل العاشر

إدارة الأزمات

غادرت البلاد لقضاء إجازتي في نهاية شهر تموز/يوليو بعد تركيزٍ شديد على إصلاح الخدمات العامة. عدت في نهاية شهر آب/أغسطس فلاحظت، بطبيعة الحال، أن تركيز الرأي العام قد تغيّر إلى فكرة أن الانتخابات يمكن إجراؤها في شهر أيار/ مايو من العام ٢٠٠١. كانت هذه هي الفترة التي تسبق الانتخابات. وما إن تدخل البلاد في فترة ما قبل الانتخابات حتى يبدأ كل شيء بالتمحور حولها، ويتغيّر تركيز الرأي العام، وتبدأ العقول بالتفكير سياسياً، كما أن التحليلات وتمحيص التحليلات التي لا تنتهي تتلاشى كي تحل محلها استطلاعات الرأي، وأخذ عينات من آراء الناخبين، وتوقّعات الرأي العام. يظهر على نحوٍ مفاجئ الحزبيون بعد سنوات طويلة من الغياب عن مشاغل الحكومة، في قاعات الكرملين [السلطة] بلهجة جديدة تدل على الوعي بأهمية الذات، وهكذا تبدأ عجلات ماكينة الانتخابات بالدوران.

انحصر تركيز غالبية أعضاء الحزب بالنسبة إلى الحملة القادمة في طموح بسيط واحد: أن نكون أول حكومة عمالية تفوز بولايتين متواليتين. أما بالنسبة إليّ فإن الأمر يتعلق بالفوز بولاية ثانية من أجل التمكّن من تحقيق مزيد من الإصلاحات الضرورية. أما الجدال بشأن التوجّه فقد حُسم منذ وقتٍ طويل. برهنت الفترة الأولى أننا أهل للحكم، لكن الفترة الثانية فيجب أن تتمحور حول الأهداف التي تبرّر

وجودنا في الحكم: تجاوُز الطرق البريطانية المتوارثة منذ القدم، وهي الطرق التي تأسست، برأيي، على رؤيةٍ للبلاد لم تعد هذه الأيام ممكنة أو حتى مرغوبة، أو قادرة على تأهيلنا لتحديات المستقبل. أما حماستي الشديدة، والمهووسة في بعض الأحيان، للتحديث فقد كانت تخطئ أحياناً في توجّهاتها ، لكني كنت متأكداً أن اندفاعي الأساسي كان صحيحاً: إننا نحتاج إلى تحديث كامل فكرة دولة الرفاه والخدمات العامة التي سادت منذ العام ١٩٤٥، وكذلك أنظمة القوانين والنظام العام والهجرة التي أصبحت قديمة، وكذلك رؤيتنا إلى دورنا في هذا العالم. يتعيّن علينا استغلال فرصة حلول القرن الواحد والعشرين من أجل تجديد أنفسنا كدولة. فعلت ثاتشر الشيء الصائب عندما حرّرت التجارة والصناعة، لكن في غمرة تشكّكها في الاتحاد الأوروبي شعرتُ بأنها ألزمت البلاد رؤية لم تعد تتوافق مع المكان الذي يجب أن نكون فيه، والذي يليق بنا في سنة الألفية هذه.

لم أتمكن من إيجاد الحلول المناسبة كلها لسياستنا، لكني تمكّنت من تحديد نقاط الضعف الأساسية التي ميزت أولى فترات حكمنا: الرؤية الخاطئة التي تقول إن رفع مستوى المعايير والأداء يمكن أن يُفصل عن الإصلاح البنيوي. كان ذلك صحيحاً عموماً، ولاسيما في حقل الخدمات العامة. تعيّن علينا قبل كل شيء تحويل السلطة عن التكتلات المهيمنة، والنقابات والاتحادات، ووضعها بين أيدي الناس، والمستهلكين، والأهالي، والمرضى، والمستفيدين من الخدمات.

عدت مستريحاً بعد إجازة طويلة ورائعة، لكني شعرت بالقلق. تعيّن عليّ تأطير الحجة السياسية الملائمة التي تساعدنا على الفوز، كما توجّب عليّ صوغ البيان الذي يشدد على إعطائنا التفويض اللازم من أجل تنفيذ التغيير الضروري. أعتقد أننا تمكنا من تجميع رصيدنا السياسي في فترة ولايتنا الأولى، ولهذا كان من واجبنا إبرازه من أجل تحقيق الفوز مجدداً وبغالبية كبيرة. أدركت أن الوقت لن يطول قبل أن أضطرّ إلى السحب من ذلك الرصيد. أعرف الآن، بأنني إذا كنت متشككاً في البداية، فإن فترة الولاية الثانية سوف تكون أصعب بكثير، وستحمل معها تحديات أكبر، كما ستحظى بشعبية أقلّ مما حظيت به فترة ولايتنا الأولى.

وكأنني كنت بحاجة إلى إدراكٍ أعمق لهذا الواقع. تتالت الأزمات منذ لحظة

عودتي حتى مرور تسعة أشهر على فوزنا في الانتخابات. كانت هذه مزيجاً غريباً من أزمات بعضها من صنع الإنسان وبعضها الآخر من صنع الله.

واجهتُ في غضون ساعاتٍ من عودتي أحد القرارات الاستثنائية الحساسة والصعبة التي كان يُمكن أن تبرز في أي وقت، والتي عادةً ما تأتي على دفعات. أدى الجنود البريطانيون في سيراليون عملاً رائعاً ونجحوا في عملية إعادة تثبيت سيطرة الحكومة المنتخبة ديمقراطياً، لكن مجموعة من الجنود الذين ينتمون إلى الكتيبة الملكية الإيرلندية تعرضت للخطف على يد الجبهة الثورية المتحدة. تلقينا في ذلك الوقت معلومات استخبارية عن مكان وجود الجنود. طلب تشارلز غوتري مقابلتي بإلحاح في مكان إقامتي في داوننغ ستريت. أبلغني بأنه يستطيع تنظيم عملية إنقاذ تقوم بها القوات البريطانية الخاصة.

تمتع تشارلز، كعادته، بجرأة تجعله يوصي بطريقة التحرك بدلاً من أن يكتفي، ببساطة، بترك القرار في يدي أنا. حذّرني مع ذلك من إمكانية سقوط ضحايا. كان أعضاء الجبهة الثورية المتحدة جماعة تتصف بالجنون، لكنها مسلّحة تسليحاً جيداً. حملت عملية الإنقاذ مخاطرة بالنسبة إلى الرهائن، وكذلك بالنسبة إلى قوة الإنقاذ. أما البديل من العملية فكان محاولة التفاوض والأمل أن نتمكّن من إقناعهم بتلك الوسيلة. ربما نتمكن كذلك من إغرائهم بالمال، لكني اتفقت مع تشارلز، بسرعة، على أن ذلك سيكون مؤشراً مأسوياً يشجع على تكرار عملية الخطف.

مكثنا لحظات وكلانا يحدّق إلى الآخر. أعتقد أن المناسب كان الدعوة إلى عملٍ أكبر، وأن نطلب تفاصيل أكبر، وخططاً ورسوماً، إلى ما هنالك من أمور أخرى تقوم بها قيادة القوات الخاصة في هيرفورد. لكني أدركت أن القرار مع هذه الأمور كلها ومع تفحصها لن يتغير.

طرحت سؤالاً بدا وكأنه من دون داعٍ: «هل رجالك مستعدون؟»

قال باستهجان: «إن رجالي مستعدّون دائماً كما تعلم».

«حسناً. دعنا نقم بالعمل».

عاد جميعُ الرهائن سالمين، لكن مع خسارة أحد جنود القوات الخاصة. اتصل

بي تشارلز في منزلي وأخبرني بذلك بنفسه. رحت أجول في منزلي وأنا أتخيل من عسى هذا الجندي أن يكون، وكيف يبدو، وماذا قال عندما بدأ بهذه العملية، وكيف كانت أعصابه، والأدرينالين الذي سرى في عروقه، وعندما أدرك أن لحظات قليلة قد تفصله عن الموت. فكرت في الحياة التي ضاعت، وفي الأسرة التي ستغرق في الحداد. ألم يكن بإمكاننا أن نتفاوض، وهكذا كان يُمكن الحفاظ على حياته؟

بدأت بالقول: «إنني آسف فعلاً يا تشارلز. أما المشكلة فهي أننا إذا لم نتحرك...»

قاطعني تشارلز: «لستَ مضطراً لقول هذا. إنني لا أشك في كونه القرار الصائب بالنظر إلى النتائج. أعرف أن خسارتنا لذلك الجندي أمر مؤسف، لكنهم محترفون ويعرفون المخاطر التي ترافق عملهم. إنهم يقومون بذلك لأنهم يريدون القيام به، ولأنهم يؤمنون به. ستشعر القيادة في هيرفورد بكثير من الحزن، لكنها ستشعر بفخرٍ كبيرٍ كذلك».

كانت الانتخابات تلوح في الأفق، فتقرر أن أقوم بجولة إقليمية من أجل «إعادة التواصل مع الناس». أعتقد أن أمراً مريباً يترافق مع عبارة «التواصل مع الناس». يتعيّن على المرء في عالم السياسة الحديث أن يتظاهر بأنه يحيا الحياة التي يعيشها المواطن العادي، هذا في الوقت الذي لا يستطيع فيه هذا السياسي أن يتسوق في المتاجر، وأن يملأ بنفسه سيارته بالوقود، أو أن يتوجه إلى حانة كي يتناول بضع زجاجاتٍ من الجعة، والسهر وتبادل الأحاديث مع الحاضرين. لكن الجميع يتظاهرون هذه الأيام بأن رئيس الوزراء يستطيع، بل يجب عليه أن يقوم بكل ذلك. أما إذا لم يفعل فمعنى ذلك أنه، أو أنها «خارج السمع»، وهو أسوأ نقدٍ يمكن أن يوجّه إلى مسؤول.

لا أستطيع تعداد المقاهي، والمطاعم الصغيرة التي تقدم الأسماك والمأكولات الخفيفة، ومراكز التسوق الكبيرة التي أحب أن أذهب إليها وأنا أضع النقود في يدي (أجل، يجب أن يمتلك رئيس الوزراء نقوداً حقيقية تخشخش في جيبه) كي أشتري شيئاً. إنني أفعل ذلك كله كي أثبت أنني «شخصٌ عادي». إن أحد الأسباب الوجيهة التي تجعل هذا الأمر سخيفاً تماماً هو أن رجال التحري المسلحين يسبقونني قبل

ذهابي إلى أحد هذه الأماكن، ويتم استجواب صاحب المتجر سياسياً وأمنياً، كما يوجد نحو عشرين من المصورين مع مساعديهم، هذا بالإضافة إلى بعض المحتجين العشوائيين، وبعض غريبي الأطوار من المارة، وكثيراً ما يكون هؤلاء من الرجال العاديين والمستغربين من الجمهور، كما كانت عادة تحلّق فوق رؤوسنا حوّامة تابعة للشرطة. تختلف هذه الأمور كلها قليلاً عن الطريقة التي يتعوّدها الشخص العادي عندما يشتري قهوته أو أسطواناته المدمجة. لكن لا بد من القيام بهذه الأمور كلها، أما موظفو المكتب، وألاستير على الخصوص، فكانوا يُظهرون القلق والتوتر إذا ما حاولت أن أقول إن الأمر كله في منتهى السخافة.

أما المدهش في الأمر فكان ذهابي أنا وغوردون لشراء البوظة [الآيس كريم] ، وذلك في طريقنا إلى متنزهٍ وحديقة ألعاب أثناء حملة انتخابات العام ٢٠٠٥. لكن حديثي مع كايت غارفي كان يسير على النحو الآتي عندما تقول لي: «إذهب، واشترِ بوظة من تلك العربة هناك، واحدة لك وواحدة لغوردون، وذلك كي نُظهر أننا نتعاون، وأننا طبيعيون».

كنت أقول: «لا. إن الأمر في منتهى السخافة. لا أحبّ بوظة السيد ويبي إلا إذا كانت مع رقاق الشوكولا، وهل يبدو لكِ غوردون وكأنه شارٍ عادي للبوظة؟ هيا. إن ذلك سخيف جداً. إننا رجلان يرتديان بذلتين، أحدهما رئيس الوزراء والآخر وزير الخزانة. ما هو العادي في ذلك؟»

قالت بنبرة تحذير: «إفعل هذا فحسب، لكن لا تضع رقاق الشوكولا فوق البوظة لأنها ستُظهرك وكأنك جشع». (تجاهلت هذه النصيحة).

أعطتنا زيارات كهذه قدراً مناسباً من التسلية. التقيت ذلك اليوم، وأثناء تجوالي في المتنزه، امرأة تنتمي إلى الطبقة العاملة، وجدة تصطحب طفلاً في عربة أطفال. قالت المرأة المسنة وهي تتفحصني وكأنها تتفحص قطعةً من اللحم: «إنك في حالة أفضل مما تبدو في التلفزيون».

قلت مزهواً: «أهلاً وسهلاً بك يمكنك أن تعودي مجدداً».

أجابت: «لقد عدت تواً». روت كايت القصة بمرح أمام غوردون الذي شعر بنوعٍ من الإحراج.

اضطررت قبل سلسلة المقابلات التي كنت أجريها عند اقتراب موعد الانتخابات إلى درس قائمة أسعار الحوائج اليومية مثل ليتر الحليب، وباوند الزبدة، وقطعة من لحم الضأن. أما سعر الخبز فكثيراً ما تسبب بنقاشات مطولة تشمل نوع الرغيف، وما إذا كان من الخبز الأبيض أو من الخبز الأسمر، أو إذا لم يكن من الطحين الأسمر، أو إذا كان صحياً تماماً. كنت أقوم بذلك كله إيماناً مني أنني إذا عرفت هذه الحقائق كلها فسيعني ذلك أنني أستطيع التوجه إلى المتجر القريب من داوننغ ستريت (وهو متجر موجود بالفعل) من أجل شراء البقالة، وهو أمر لم يحصل بالفعل. لكن الناس يمتلكون إيماناً عظيماً بأهمية هذه الجولات من أجل «التواصل» مع الناس، ومن ذا يستطيع القول إنهم على خطأ.

سايرت مع ذلك هذه الأمور كلها، لكني واظبت على التشكيك في هذه الفرضية. إن الناس ليسوا أغبياء، وهم يعرفون أن رئيس الوزراء لا يقصد المتاجر كما يفعلون هم. إنهم لا يريدون أن يعرفوا أنه يعيش مثلهم في الواقع، لكنهم يريدون أن يعرفوا أنه قادر على ذلك. أما الأهم من ذلك كله فهو أنهم يريدون التأكد أنه يشعر مثلهم، وأن يلمسوا ذلك.

لا يعتمد ذلك كله على التربية، أو على الطبقة، أو على خلفية الشخص. يمكنك أن تكون من إيتون القديمة وتتمكن مع ذلك من التماشي مع الناس، كما يمكنك أن تكون من تريمدون كوليري ولا تستطيع التعامل معهم. يتعلق الأمر بالمزاج، والشخصية، وموقفك من الآخرين. يعني ذلك أن المهم هو أن يكون المرء صادقاً مع نفسه. أما إذا لم تكن شخصاً عادياً بطبعك، ولا تسهل مشاركتك في شرب الجعة، وكنت مرشحاً لمنصبٍ ما، فإنك ستقع في مشكلة. كنت أتحدث عن جورج بوش أمام الناس وأنصحهم بعدم الاستهانة بجاذبيته بوصفه شخصاً عادياً. يمكن للمرء أن يختلف معه، لكنه إذا كان ناخباً فهو لن يعتقد أبداً أنه لن يكون مرتاحاً إذا التقاه شخصياً في إحدى المناسبات الاجتماعية، ولن يعتبر ذلك أمراً غير مناسب بالمرة. إنه رجل لطيف ويسهل التعامل معه.

يمكن للمرء أن يتجاوز افتقاد هذا التصرف الطبيعي شريطة ألاّ يتظاهر المرء بالتصرف على غير ما هو عليه. يستمتع بعض السياسيين، وأنا منهم، بالحديث عن مختلف الأمور، وبالتقاء الناس. إنني أشعر بفضولٍ شديدٍ تجاههم. (كانت أعظم قوة

سياسية عند كلينتون هي قدرته اللامتناهية على الاندهاش حتى بأقل الناس إدهاشاً، وذلك لأنه كان مستعداً على الدوام للتعلّم منهم). لكن السياسيين ليسوا هكذا جميعاً. أما إذا لم يكن المرء كذلك فلن يكون مضطراً للقلق بهذا الشأن. يُمكن للأشخاص الجديين، حتى القساة منهم، أن يفوزوا شريطة أن تكون هذه المزايا أصيلة.

دأبتُ في الشكوى دائماً بشأن القيام بهذه الجولات المحلية وذلك بسبب هذه الأفكار المسبقة عن العلاقات العامة، بالإضافة إلى اضطراري للابتعاد عن ١٠ داوننغ ستريت، وعن متابعة الأمور السياسية. لكن على الرغم من اللاواقعية والغموض اللذين يرافقان هذه الجولات، إلا أنني كنت أتعلم شيئاً من هذا الابتعاد، وعلى الخصوص عندما أتحدث مع الناشطين من رجال الحملة الانتخابية الموجودين على الأرض ومع الشركات. كانوا مفيدين، ليس لأنهم يمثلون عيّنات من آراء الناس، لكن كوسيلة لمعرفة ما إذا كان ما أخبروني به في داوننغ ستريت يماثل الحقائق الموجودة على الأرض. لاحظت أنها لا تتطابق في أحيان كثيرة.

وردتنا في مطلع شهر أيلول/سبتمبر أخبار تفيد عن احتجاجات جرت في فرنسا في موضوع زيادة أسعار الوقود. حدث ذلك قبل مغادرتنا للقيام بجولتنا في الشمال. كانت أسعار النفط تتصاعد باستمرار إلى ما فوق الثلاثين دولاراً للبرميل الواحد، وهو أعلى سعر يسجّل في غضون عشر سنوات. بدأت الأسعار ترتفع في محطات الوقود بحدّة.

بقيت الضريبةُ المفروضةُ على الوقود مادةً دسمةً للنقاش لسنواتٍ عديدة. فرضت الحكومة السابقة، وفي مسعى منها لتنظيم الأموال العامة، ما أسمته «السلم المتحرك لضريبة [رسم] الوقود»، وهو الأمر الذي يعني أن الرسم يتصاعد بنسبة مئوية محدّدة فوق نسبة التضخّم. أُعطي هذا التدبير تبريراً بيئياً – أول ضريبة خضراء [بيئة] – لكن لم يأخذ أحد هذا التبرير على محمل الجد. غير أن هذا التدبير ساعد على إعادة التحكم في شروط الاستدانة. بقي سعر النفط الخام منخفضاً، لكن أصبح من الممكن رفع قيمة الرسم بفاعلية على الرغم من السعر المنخفض لتلك السلعة. ناسب هذا التدبير الحكومة كثيراً، لكن اختلف الأمر بعد أن بدأ سعر النفط بالارتفاع بسرعة، وبعد أن رفع معه سعر الوقود الذي يُباع في المحطات.

يحب الفرنسيون أن يحتجوا على أي شيء، وهم لا يحتاجون إلى أعذارٍ كبيرة للنزول إلى الشوارع، لكن الناس في بريطانيا لم يتعودوا القيام بذلك. تصاعد، على نحوٍ مفاجئ، الغضب على ارتفاع أسعار الوقود، كما تركّز الاهتمام على كون ضريبة الوقود في بريطانيا هي الأعلى في أوروبا. امتدت في الثامن من أيلول/سبتمبر تظاهرات الاحتجاج من فرنسا، وهي التظاهرات التي كنا نراقبها بنوعٍ من عدم الاكتراث، حتى وصلت إلى المملكة المتحدة.

كان المحتجون على ارتفاع أسعار الوقود مجموعةً متنوعة ضمّت المزارعين، ومتعهدي النقل، وأصحاب المهن الحرة، ومعارضي الحكومة. لم يكن هؤلاء من الذين يشتركون في تظاهرات احتجاج في العادة، والذين يعرفهم اليسار تمام المعرفة. يعني ذلك أنهم الجماعة التي كان يصفها الماركسيون بالبرجوازيين الصغار، لكن ذلك لا يعني أنهم صغار، أو أن هناك أي شيء صغير يتعلق بهم. امتلك هؤلاء سبباً وجيهاً للشكوى، لكني أعتقد أنهم كانوا معارضين أشداء لحزب العمال.

كان المحتجون أذكياء بما يسمح لهم باستهداف نقطة الضعف في صناعة الطاقة، أي الاقتصاد، وبالتالي الحكومة. يأتي النفط إلى البلاد، ثم يكرّر في مصافي التكرير الضخمة القليلة، وذلك قبل نقله إلى محطات الوقود بواسطة الشاحنات. يعني ذلك أن من دون مصافي التكرير لن يجري ذلك السائل في شرايين المحطات. لا تمتلك محطات الوقود قدرات تخزين كبيرة، لذلك فهي تحتاج إلى ملء خزاناتها كل ثمانٍ وأربعين ساعة أو نحو ذلك. يقوم نظام التوزيع يوماً بعد يوم بنقل الوقود من خزانات المصافي إلى المحطات وبالتالي إلى الزبائن، سواء أكانوا مزارعين، أو أصحاب شركات، أو من المواطنين الآخرين.

تكمن المشكلةُ بأنني لم أعرف ذلك كله في الوقت المناسب. يبدو أن كل الآخرين الذين هم في مراكز المسؤولية لم يعرفوا بها بدورهم. لم نستوعب جسامة الاحتجاجات التي حدثت في مصفاتَي بنسفيلد وستانلو.

مضينا في جولتنا، وفي الجولة المعتادة على المدارس والمستشفيات، وفي «التواصل مع الناس العاديين». توقفنا لتناول الغداء في فندق ريفي صغير يقع خارج هال مباشرة، وهو المكان الذي كنا فيه على موعد للتحدث في مناسبةٍ حزبية،

وكنا سنذهب لتناول العشاء بمناسبة الاحتفال بمرور ثلاثين سنة على انتخاب جون بريسكوت نائباً في البرلمان عن هَال. تناولنا العشاء على مهل لأننا امتلكنا متسعاً من الوقت. كانت في المكان مجموعة من رجال وسائل الإعلام العالميين، لذلك أمضيت معهم بعض الوقت في مناقشة الانتخابات الرئاسية الأميركية. أتذكر أنني أجريت نقاشاً مثيراً حول الإرهاب وإمكانية تطوره إلى تهديدٍ عالمي.

استخدم المحتجون على أسعار الوقود تكتيك الاحتجاج القديم الذي كانت تستخدمه النقابات، وهو التكتيك الذي حظرته السيدة ثاتشر. أوقف المتظاهرون الشاحنات الخارجة من المصافي. أبلغتني آنجي هنتر أن الاحتجاجات آخذة بالانتشار. كما أبلغتنا شركة شل أن بعض الاحتجاجات قد تحوّلت إلى أعمال عنف، لذلك أرادت أن يقوم رجال الشرطة بمرافقة سائقيها. بدأت في هذا الوقت بالإحساس بأولى أمارات القلق. يعني ذلك أنني تأخرت نحو ثمانٍ وأربعين ساعة.

تحولت الاحتجاجات إلى شراسة عند وصولنا إلى هال، وكان المحتجون يصولون ويجولون في المكان. اندفع، فجأة، رجال وسائل الإعلام والمحتجون مثل عاصفةٍ شديدة من الرعد. ربما يعتقد المرء أن استخدام تكتيك آرثر سكارجيل في الحصار والتخويف من أجل إعاقة الحركة في البلاد كان سيثير عاصفة إدانة من وسائل الإعلام. أما لو كان سكارجيل موجوداً لكان من الممكن أن يحدث ذلك، لكن بما أن الأمر يتعلق بسعر الوقود، وهو الأمر العزيز على قلوب قراء الصحف، بالإضافة إلى أن الاحتجاجات موجّهة ضد حكومة عمالية، فإن العكس هو ما حدث، وهكذا أصبح المحتجون، بسرعة، أبطال الشارع الذين يحاربون من أجل حقوق الناس العاديين ضد حكومة غير مكترثة.

إن أحد أصعب الأمور في وقتٍ كهذا هو الاستمرار وتنفيذ كل ما هو موجود على جدول أعمالك. يجري هذا عندما يكون المسؤول يائساً للتوقف عن كل شيء والتوجه إلى زاوية هادئة للتفكير. جلست في غرفة انتظار قرب الغرفة الرئيسة في قاعة مدينة هال، وشعرت بقلقٍ حقيقي. أدركت أنني قد أضعت على نفسي فرصة تحقيق إنجازٍ كبير. كان يجدر بي أن أعرف ذلك من قبل، وكان يجدر بي معرفة أن زيادة كلفة ملء خزان السيارة بالنسبة إلى السائق العادي كانت كبيرة، ولا يُستهان بها

(كانت جاكي، وهي حاضنة أطفالي تشتكي من الأمر منذ أسابيع). كان يجدر بي ملاحظة مدى الهشاشة الكلية للنظام أمام الاحتجاج، وكذلك جاذبية الاحتجاجات بالنسبة إلى وسائل الإعلام. إن اكتفائي بالتقدم عشرين نقطة في الاستطلاعات قد أدى إلى فتح ثغرة كبيرة في دفاعاتنا.

عجّ المطعمُ الصيني بالمحتجين، وهو المكان الذي كان من المفترض أن يستضيف حفل العشاء التكريمي لجون بريسكوت. نصحتني الشرطة بإلغاء الحفل فقبلت بكل امتنان. أردت الحصول على وقتٍ للتفكير.

خرجنا من أحد الأبواب الجانبية لقاعة المدينة، وذلك بعد أن قامت الحشود بملاحقتنا، ثم وصلنا إلى الفندق الذي ننزل فيه. حاولت أن أفهم مدى خطورة الموقف من ١٠ داوننغ. كان ألاستير في وضع تأهبٍ كامل، لكن بقية الفريق بدا مشلولاً بالكامل وعلى نحو يثير الريبة، أي إنهم استجابوا لما يجري بشكلٍ لا يثير الارتياح.

يتعيّن على المسؤول أن يعرف الوقت المناسب لتفويض الآخرين القيام بالمهمات، ومتى يتعيّن عليه معالجة الأمر بنفسه. إن تولي المسؤولية من دون الحصول على تفويض يؤدّي إلى الفوضى، وفي هذه الحالة لا يُمكن إنجاز أي شيء لأن الناس يتساءلون عما يريد منهم المسؤول القيام به، هذا في حين يكون منشغلاً بالتركيز على أمورٍ أخرى بحيث يصعب عليه إعطاء التعليمات المناسبة. أما عند الأزمات فيتعيّن على المسؤول أن ينسى أمر تفويض المسؤوليات، لأنها اللحظة المناسبة التي وُجد لأجلها في موقعه. يأتي عندئذ دور تحديد المشكلة، وقولبتها، وأخذ القرار بشأنها، ثم البدء بحلّها.

وصلنا إلى المحطة باكراً جداً بعد أن قضيت ليلة قلقة تمنيت فيها لو أنني عدت إلى لندن في الليلة السابقة. فوجئ المسافرون كثيراً عندما دخلت عربة القطار، وقالت لي إحدى السيدات: «لا تتراجع أمامهم، لأنهم من المحافظين كما تعلم. واجههم». كان ذلك أحد الآراء، وبطبيعة الحال هناك آراء أخرى.

تمكّنت من صوغ استراتيجية أثناء وجودي في القطار. يتعيّن علينا إخماد الاحتجاجات وإعادة فتح المصافي. إنه أمرٌ مؤكد، لكن يتعيّن علينا كذلك التأكد من إدخال مسألة أسعار الوقود في التقرير التمهيدي للموازنة. يعني ذلك أن يتمسك

المسؤول بطريقة الحكم الصحيحة، لكن من دون أن يرتكب حماقة رفض الإصغاء إلى الآخرين. يقدم الأشخاص غير العقلانيين مطالب محقة في بعض الأحيان.

سأبدأ بالأمور المهمة. بلغت الأزمة ذروتها في هذا الوقت، وكانت وسائل الإعلام تعربد بشأنها. أما التهافت على شراء الوقود فكان الشغل الشاغل للناس كل يوم. صعُب علينا عندئذ أن نتجاهل مشاهد طوابير السيارات، وباحات محطات الوقود التي إما تعجّ بالسيارات، وإما مقفلة. كانت الفوضى تعمّ البلاد على نحو لا يُمكن تجاهله، كما أن وسائل الإعلام لم تكن على استعداد لتجاهل الأمر. صبّت هذه الوسائل جام غضبها على الحكومة، بينما وقفت إلى جانب المحتجين. تعرضت الحكومة للتقريع بسبب عدم قيامها بأي شيء لحل الأزمة التي كانت وسائل الإعلام تنفخ في نارها كثيراً.

شعرت بغضب شديد إزاء ما يجري، وأحسست أن حكومة محافظة ما كانت لتُعامل بهذه الطريقة. أدركت بعد أن أفضيت بشيء من أفكاري إلى جوناثان، وآنجي، وألاستير، أن الغضب ـ أو حتى ما هو أسوأ منه، الإشفاق على الذات – كان أمراً غير مناسبٍ بالمرة. إننا وسط الأزمة، ولذلك يتعيّن علينا الخروج منها.

استدعيت الوزراء. كان جاك سترو عملياً وشديد التركيز كعادته. أما غوردون فقال يجب أن لا يُنظر إلى الأمر وكأنه مسألة ضريبية (جرت مناقشات استثنائية على مدى الأيام التالية وقلت له إن الأمر، للأسف، هو مسألة ضريبية، وما من شيء يمكنه تغيير ذلك). أما ستيفن بايرز، وهو وزير الصناعة، فقد بقي هادئاً.

لم يقدم أيّ من الوزراء فكرةً للحل. توقفت إمدادات الوقود عملياً، وعمّ الشلل أنحاء البلاد. استدعيت مسؤولي شركات النفط والشرطة. قمنا كذلك بتعبئة الجيش، لكن الجيش لم يكن يمتلك سوى عدد قليل من الصهاريج القديمة، الأمر الذي لا يفي بحاجة البلاد. بدا الوضع يائساً.

يعرف المرء في أوقاتٍ كهذه معنى عبارة «هذا يكفي». كان ممثلو شركات النفط مهذبين جداً، لكنهم اعتبروا أن المشكلة لا تخصّهم. بدا أن ضباط الشرطة قد فهموا الأمر بطرقٍ متعارضة. قال لي أحد الضباط إنهم يفعلون ما بوسعهم للتأكد من بقاء الاحتجاجات سلمية، وبقاء خطّ المفاوضات مفتوحاً مع المحتجّين. فهمت

طبيعة المشكلة وأنا أتطلع إليه: كانوا جميعاً رجالاً عقلانيين، وهم أرادوا أن يكونوا عقلانيين جداً.

استغرقت في التفكير، واستعنت بالله. شعرت بأن قلبي بدأ بالتوثب، وبالغضب يتحجر في حنجرتي، وبالتصلب في فكّي. كنت على وشك الانفجار عندما قررت أن أهدأ فجأة، لأن ذلك أليَق برئيس الوزراء.

تطلعت إلى ضابط الشرطة، وقلت له: «أخبرني، ماذا ستفعل لإيقاف تظاهرات الاحتجاج؟»

قال لي وقد ضيّق عينيه قليلاً: «إيقاف تظاهرات الاحتجاج؟ أتعني أنك تريدنا أن نمنع قيام هذه التظاهرات؟»

قلت بكل هدوء: «أجل. أريد من شركات البترول أن تأمر سائقيها بالمرور من خلال الحشود، وأن تصرفهم من العمل إذا لم يتمكنوا من ذلك لأسباب غير خوفهم على سلامتهم الشخصية. أريد أن يتدخل الجيش، وأن يقود العسكريون شاحناتكم إذا لزم الأمر. أما إذا تعرضوا للعنف من المتظاهرين فإنني أريد من رجال الشرطة أن يتعاملوا معهم بكل حزم، وإن لم يستطيعوا فدعوا الجيش يتعامل معهم. إنهم يحسنون القيام بمهماتٍ كهذه».

شعر ضباط الشرطة بالارتياح. بدا أنهم فهموا الوضع، ولم يعودوا بحاجة للظهور بمظهر رجال شرطة الحي الودودين، وسيتمكنون من مطاردة المتظاهرين بشدّة. كان الجيش مستعداً للقيام بمهماته كالعادة. بدا بعض الارتباك على ممثلي شركات البترول، لكني أدليت ببعض الملاحظات الغامضة عن قلق الناس بشأن أرباحهم المفرطة الناتجة عن ارتفاع أسعار النفط، ولذلك فهموا أن عليهم أن يتحركوا بدلاً من الاكتفاء بردود الفعل.

وضعت قائمةً ملخّصةً لنقاط التحرك، ورتبت اجتماعاً برئاستي للجنة الأزمات الطارئة الحكومية في اليوم التالي، ثم أنهيت الاجتماع وأنا أشعر براحة نتيجة تحديدنا للأزمة، وبداية تحركنا لوضع الأمور في نصابها.

عقدتُ بعد ذلك مؤتمراً صحفياً. إن أهمّ شيء في حالاتٍ كهذه هو أن تُظهر

أنك تُمسك بزمام الأمور، وأنك تسيطر عليها، وذلك بغضّ النظر عن الهلع الذي يعتمل في داخلك. أبليت بلاءً حسناً في ذلك المؤتمر، وذلك على الرغم من قولي، ولربما عن حمق، بأننا سوف نعيد الأمور إلى نصابها في غضون أربع وعشرين ساعة. اخترت كلماتي بعناية، ويعود الفضل في ذلك إلى فترة تدريبي المَفيدة أثناء ممارستي للمحاماة. لكنني أعتبر أن من الحماقة التلفظ بهذه الكلمات، لأن الكلمات الدقيقة لا تُعتبر تواصلاً واضحاً. فُهم الأمر وكأنني أقول إن كل شيء سوف يعود إلى طبيعته في غضون أربع وعشرين ساعة. لكن ذلك مستحيل بطبيعة الحال. سار المؤتمر بشكل جيد ما عدا ذلك، وأعطى الفائدة المرجوة.

تعيّن علينا تالياً كسب بعض الروح المعنوي على حساب المحتجين. قال آلان ميلبيرن إن علينا التركيز على تأثير ما يجري في الخدمات الصحية العامة، كما أن ألاستير وافقه على ذلك. كانت التجهيزات الضرورية التي يحتاجون إليها تتناقص. أما المحتجون على أسعار الوقود، وسط هذه الحالة الشاذة، فقد سمحوا بمرور الصهاريج في الحالات الطارئة، التي يقررونها بأنفسهم. كانوا يتفاوضون مع المستشفيات، ويقررون بنتيجة هذه المفاوضات ما إذا كانوا سيسمحون للوقود بالمرور أم لا. كان الأمر لا يُحتمل، لكنه أعطانا فرصةً للاستفادة من نقاط ضعفهم، وفي الحصيلة مَن هم حتى يقرّروا الحياة والموت للناس؟

قررنا في النهاية إرسال ممرضين إلى تجمعات المحتجين لمناقشتهم. أدلى آلان ببيان شديد اللهجة بعد أن شعرنا بأن الدعم المقدم للمحتجين قد بدأ بالتناقص. كان ذلك أول نجاح للعلاقات العامة. أظهر لنا هذا المؤتمر المساعدة القيّمة لعمل الفريق الناجح في ميدان السياسة. لا يُنظر إلى الأمر في العادة كلعبةٍ من ألعاب الفرق، لكن هذا الوصف صحيح في أوقات الأزمات على الخصوص. شارك الجميع في هذا العمل، فبدلاً من الشعور بالقلق، أو ما هو أسوأ، أي الجلوس من دون حراك والشكوى، حاول أشخاص مثل ألاستير التفكير في طرقٍ لحل الأزمة.

حاول المحافظون بدورهم إفساد الأمر. تحدثت عن وليام هايغ في مكانٍ آخر من الكتاب، لكن أشكّ في أن هايغ كان سيكرر الآن الخطأ الذي سبق أن ارتكبه في الماضي. أقدم الرجل عملياً على دعم الاحتجاجات. لم يقدم دعماً تاماً، لكنه كان دعماً بطريقة أو بأخرى. تطرق الفرصة أبواب زعيم المعارضة، لكن في بعض

الأحيان من الأفضل على المرء أن يدع هذه الفرصة تفوت. تبدأ الجماهير تحركاتها بمزاج معين، لكن ذلك المزاج لا يلبث أن يتغيّر، وهكذا يجد المرء نفسه متروكاً إذا حاولَ استغلال الوضع من دون كثير عناية.

غضب الشعب بسبب سعر الوقود، ولذلك دعم قضية المحتجين بأعداد كبيرة. لكنّ شلّ حركة البلاد لم يكن بالفكرة العظيمة، وهذا ما أدركه الشعب. لم تتأخر العواقب بالظهور، وعرف كثيرون في أعماقهم أن ذلك كان تحركاً خالياً من المسؤولية. بدأت فكرة «هذا يكفي» بالتبلور في وعي البلاد بعد مرور أربعة أيام على الشلل التام. عدنا إلى الوضع الطبيعي، ولكن بثباتٍ وبطء.

سبق لي أن أدليت بملاحظات قاسية عن النقابات عبر السنين، لكني أراني مضطراً للقول إنها تصرفت تصرفاً رائعاً في هذه الأزمة. عبرت النقابات، وبلهجة قاسية، عن إدانتها للمحتجين، كما شددت على أن النقابات التي تقوم بالأعمال ذاتها تُعتبر، وكأنها تتحرك على نحو غير مشروع. بدأت، لأول مرة على ما أذكر، بالثناء على جون إدموندس من الاتحاد البريطاني العام، وبيل موريس من اتحاد النقل والعمال، كما كنت ممتناً بالفعل لمؤتمر النقابات المهنية.

طلبت إلى جيم كالاهان الحضور وتقديم الدعم لنا، فسارع إلى التصريح في برنامج توداي (اليوم) دعماً للحكومة ولي شخصياً (على الرغم من رفضه إجراء مقابلة مع المحطة خوفاً من أن يُطلب إليه عقد مقارنات بين هذه الأزمة، والأمور التي جرت في السبعينيات). استيقظ اتحاد الصناعة البريطانية أخيراً ووقف إلى جانب المنطق.

استمرت الأزمة سيئة في الفترة ما بين ١٣ و١٦ أيلول/سبتمبر، لكنها بدأت بالتحسن يومياً. شكلت لجنة مع شركات البترول من أجل وضع خطط لتجنب احتجاجات كهذه في المستقبل. فتحتْ في ١٧ أيلول/سبتمبر ما تزيد نسبته على ٦٠٪ من محطات الوقود. توقف الهلع كلياً في عمليات شراء الوقود.

انتهت الأزمة لكنّ ضررها على الحكومة كان كبيراً جداً. يتعيّن على المرء أن يترك الأمر لوسائل الإعلام، وذلك لأن الأمور عندما تسوء تضع وسائل الإعلام اللوم كله على الحكومة نظراً لعدم تحركها بالسرعة الكافية، ولعدم اتخاذها إجراءات

إضافية كفيلة بعدم انتشار الاحتجاجات. كان الأمر غريباً حتى هزلياً بعض الشيء. تعرضنا لانتقادات غير خجولة لأننا لم نعبر فوق النيران التي كانوا يساعدون على إيقادها من تحتنا. أعتقد أخيراً أنني أدركت أمرين. الأول، لا جدوى من الشعور بالغضب إزاء وسائل الإعلام لأن هذه هي طبيعتها، أما الشعور بالغضب فليس إلا تبديداً للطاقة (إنها نصيحة جيدة جداً، لكن من الصعب التمسك بها كما تبيّن لنا لاحقاً). الأمر الثاني، هو أن الحياة تختلف دائماً بالنسبة إلى زعيم من حزب العمال مقارنة بزعيم من حزب المحافظين. تسير الأمور على ما يرام إذا ما أدرك المرء ذلك، لكن الحياة مختلفة، وعلى المرء أن يدرك ذلك.

أسفرت عواقب التظاهرات الاحتجاجية على أسعار الوقود عن ذهابنا إلى مؤتمر الحزب الذي عُقد في نهاية شهر أيلول/سبتمبر بمزاج يميل إلى السوداوية قليلاً. أظهر أحد استطلاعات الرأي الذي أجري في هذا الوقت أننا متأخّرون عن المحافظين بثماني نقاط.

تتحول استطلاعات الرأي إلى كوابيس تامة في بعض الأحيان. ربما يقول الزعماء إنهم لا يكترثون لها، لكني أؤكد أنهم جميعاً يهتمّون بها. أما المشكلة مع هذه الاستطلاعات فهي أنها يُمكن أن تكون ذات دلالة هامة على الرأي العام (إنها حقيقية، لكنها سطحية وهكذا يُمكن أن تصبح موقتة). أو أنها يُمكن أن تشير إلى اتجاهٍ ما (يحمل أهمية دائمة). لا يُمكن للمرء أن يتأكد أبداً من هذه الاستطلاعات.

تحمل الاستطلاعات أهميةً معينة لأن مناصري المسؤول ووسائل الإعلام بغضّ النظر عن أي شيء آخر، يتدخلان بها. تساعد هذه الاستطلاعات على تكوين مزاج معين، ويقوم هذا المزاج بدوره بالتأثير في الاستطلاعات. يُدهَش المرء عند مراقبتِه أي انتخابات أميركية عندما يلاحظ مدى التأثير الذي تمتلكه استطلاعات الرأي في تهيئة بيئة الانتخابات. إن وسائل الإعلام، وفي الواقع جميعنا إلى حدٍ ما، لا نثق بحدسنا. ربما نخمّن أن نتيجة الاستطلاع هي «س»، لكن الاستطلاع يُظهر نتيجة «و». نميل بعد ذلك إلى اعتبار أن «و» هي النتيجة الصحيحة.

لا يقتصر الأمر على أن هذه النتيجة مربكة فقط، لأنها تؤدي إلى تقليل الميل إلى مناقشة قضية ما. أدركت بعد ذلك أن إحدى نقاط الضعف في استطلاعات

الرأي هي أنها لا تقيس درجة استعداد الناس للإقناع. يمكن للاستطلاع أن يُبرز نتيجة «و»، لكن يُمكن دفع الجمهور كي يقتنع بنتيجة «س».

قلّ اهتمامي باستطلاعات الرأي هذه بمرور الزمن (الأمر الذي تزامن مع كونها أصبحت أقل ودّية تجاهنا!)، لكنني كنت أنظر إليها على الدوام نظرة قلق. هناك كذلك فيليب غولد ومجموعات عيّنات الرأي التي يحشدها. قدّم لنا فيليب دعماً مدهشاً، وكان داعماً معنوياً حاسماً في بعض الأوقات كما كان واضع استراتيجيات سياسية، تعوّدت السخرية من التطابق الغريب بين أفكاره وآراء تلك المجموعات. يعتمد الكثير في هذه الاستطلاعات على الأفراد. يؤكد أصحاب الاستطلاعات، ويُقسمون، على الدوام إن هذه المجموعات تُنتقى على أساس «علمي» جداً. أما الواقع فهو أن هذه المجموعات تتأثر بمزاجها السائد في يوم الاستطلاع، وتتأثر بأي حدثٍ قريب، وبما ترى أنهم يعتقدونه، ويتأثرون فوق كل شيء بأقوى صوت من بين المجموعة، يتحدث بكل ثقة ويتمكن هكذا من التأثير في الديناميكيات التي تجري بين أي مجموعة منتقاة من الغرباء الذين يجلسون معاً في غرفة واحدة للمرة الأولى. أردت منذ وقتٍ طويل حضور أحد هذه الاجتماعات سراً، وذلك كي أهبّ واقفاً في النهاية، وأواجه الحاضرين بكل تلك الافتراءات السيئة التي يتلفظون بها ضدي!

وصلت الرغبة السياسية الشديدة في معرفة التيارات السائدة والدقيقة إلى حدّ التركيز كثيراً على هذه الاستطلاعات واعتبارها مقدسة. يُمكن للمرء أن يدرك مدى شعور الكهنة، في المعابد القديمة وفي زمن الوثنية، أثناء محاولتهم قراءة أحشاء الحيوانات. أراهن أنهم كانوا يشبهون فيليب وإحدى مجموعاته، كما أن النتائج التي توصلوا إليها لم تكن بعيدة جداً عما كانوا يعتقدونه على أي حال. نستنتج من ذلك كله أن مجموعات الآراء، والاستطلاعات يجب أن تُعامل بحذرٍ شديد، لكن الأمور لا تسير هكذا في الواقع.

بدت النقاط الثماني التي يتقدمنا بها المحافظون موقتة حقاً، لكنها كانت إشارة إلى أننا تلقينا ضربة. قررت أننا مضطرون إلى حل ما اعتبرته مشكلةً أساسيةً كامنة. اعتقد الناس أننا حكومة قوية، لكن المحافظين كانوا فارغين، ولم تكن هناك معارضة حقيقية. أما بالنسبة إلينا فكان الأمر مختلفاً بسبب التعاطي مع المشاغل السياسية اليومية، وذلك لأننا كنا تحت ضغوطٍ هائلة في سائر الأوقات. كانت وسائل الإعلام

تشجع الناس، وهم الذين أمكنهم رؤية إشارات الكبرياء والغرور. كان ذلك جزءاً من السبب الذي دفعهم للوقوف إلى جانب المحتجين بهذه السرعة. إنهم لا يريدوننا أن نخسر المعركة في حقيقة الأمر، لكنهم لم يعارضوا أن نتلقى صدمةً خفيفة.

دخلنا جدالاً مؤسفاً مع المتقاعدين البريطانيين. إن إحدى أكبر الأساطير السائدة عن الوجود البشري هي أن الناس مع تقدمهم في السن في بريطانيا يصبحون لطفاء، وتزيد معاناتهم، ويصبحون أكثر استرخاء، وأكثر برودة، بالنسبة إلى كيفية معاملة العالم لهم. لكن تجربتي معهم كانت مختلفة تماماً.

ما من شيء يفوق في السرعة رجلاً متقاعداً يشعر بأنه تعرّض للإساءة، أو بدقةٍ أكبر، عندما يظنّ أنه تعرّض للإساءة. أتذكّر، بوضوح، أنني زرت في ذلك الوقت مجمعاً سكنياً من أجل افتتاح دار جديدة للمسنين. سرت في الممر، وصافحت عدداً قليلاً من الأشخاص اللطفاء. رأيت بطرف عيني امرأة متقاعدة تحمل بطاقة كبيرة كُتب عليها: «بلير، أنت...» صعُب عليّ تصديق الأمر، وشعرت بالصدمة فعلاً. بدت مثل جدة نموذجية، وكدت أن أتوقف كي أناقشها بما كُتب على البطاقة، لكنني غيّرت رأيي لحسن الحظ.

إن والدة زوجتي، بالمناسبة، هي والدة رائعة لشيري وهي تقدم للأسرة مساعدة قيّمة. تعوّدت هذه السيدة أن تُعلمني بآراء المتقاعدين، وهي أفضل من يعرف كيفية مناصرة قضية ما. كنت أفكر على الدوام في المبالغ الكبيرة التي تُنفق على وكالات «اللوبي» المكلفة وهي التي تدفع الكثير كي تفسح في المجال لوزير أن يُسمع صوته، وها هي تلك السيدة في داوننغ ستريت تبرز مواهبها في فن الإقناع الموجّه. لكن الموضوع كان واحداً: معاملة الحكومة المعيبة للمسنين.

أما ما يُدهش في الأمر، الذي يدفع بالمرء للتوتر فهو عدم وجود تطابق، أو وجود القليل منه، بين الهبات التي يتلقونها ومستوى شكواهم. أما عندما بدأنا بإغداق المال عليهم بعد عدة سنوات من وجودنا في الحكم، فكنا ننسى إحدى فئات الأعمار، أو إحدى المجموعات، وهكذا كانت بقية المتقاعدين تتضامن بكل زهو مع الفئة التي نسيناها بكل قسوة.

إنني أبالغ قليلاً كي أثبت وجهة نظري. كان هناك قسم من الناس ممتنين

فعلاً للإجراءات التي أدخلناها، وهي التي مثّلت أكبر زيادة في مداخيل المواطنين المسنّين، والأفقر حالاً، والأضعف من بين المتقاعدين. كانت هذه الإجراءات في ذاتها ردّاً سريعاً لذلك المفهوم السخيف من بعض فئات اليسار، والقائل بأننا تخلينا عن ناخبينا «التقليديين». أقدمنا على أمورٍ لم تفكّر فيها أي حكومة محافظة من قبل، دعك من تنفيذها. أنجزنا هذه الأمور من أجل دوافعنا الطيبة، وذلك على الرغم مما كنت أقوله من أن الامتنان لا يرافق السخاء على الدوام.

ارتكبنا بعض الأخطاء في صيف العام ١٩٩٩، كما قمنا بتطبيق القواعد المعتادة في زيادة قيمة التقاعد الأساسية على نحو يتوافق مع نسبة التضخم التي كانت منخفضة. ماذا كانت النتيجة؟ زيادة ٧٥ جنيهاً. كنا لا نزال في فترة العامين التي فرضنا فيها قيوداً على حدود الإنفاق. كانت تلك هي القواعد، أما نحن فقمنا بتطبيقها.

لم نُدهش كثيراً من عدم حماسة المتقاعدين. أقدمت والدة زوجتي على تخطيط هذه المسألة لكن كان من الواضح أننا نعاني أزمةً خطيرةً. حاولنا حلّ هذه المشكلة في الموازنة، وذلك عن طريق زيادة المبلغ، لكن الضرر كان قد وقع.

قررت في مؤتمر الحزب الذي عقد في العام ٢٠٠٠، الاعتذار وتحمّل قسم من اللوم. تلقينا بعض النقد من غوردون وألاستير دارلنغ اللذين شعرا بأن من الخطر جداً الاعتراف بأننا على خطأ، لكني اعتبرت أن الأمر يستأهل الاعتذار. كنا على خطأ على أي حال!

عالج ما تبقى من الخطاب تعزيز الحزب عن طريق ضخّ بعض الاعتزاز بما فعلناه، وتقوية هذه الخطوات بتحديد ما تبقى علينا فعله، وكذلك إعطاء أعضاء الحزب بعض الأفكار فيما يمكننا أن نخسره تحت حكم المحافظين.

سار الخطاب على نحوٍ جيد، لكنني تعلمت درساً آخر في هذا السياق. إنني أجيد الخطابات الطويلة. يستلزم الخطاب الطويل جهداً جسدياً، وليس جهداً فكرياً أو بلاغياً فقط. إنني أتعرق عند إلقاء خطابٍ ما. كنا في أحد أجنحة الفندق، وقبل إلقاء الخطاب، نفكر في ما يمكننا أن نرتدي من ملابس. اخترت قميصاً وربطة عنق متناسبين. كان القميص أزرق، للأسف، وعندما أنهيت حديثي ظهر العرق

عليه. جاءت عناوين الصحف في اليوم التالي على هذا النحو «بلير يتعرق من فرط الضغوط». بدأت منذ ذلك الحين بارتداء قميص أبيض عندما ألقي خطاباً طويلاً!

بقي الجو ملبداً حتى بعد انتهاء المؤتمر. لم يبرز أمامنا أي شيء خاطئ بالتحديد، وكذلك لم يكن أي شيء يسير على الطريق الصحيح. شكّلت وسائل الإعلام معضلةً حقيقيةً لنا. كان ألاستير يتحدث عن المضيّ قدماً بالإصلاحات، وكذلك كان الحال مع آنجي. كان ذلك أمراً مثيراً للقلق.

كانت المشكلة مع حزب العمال الجديد، منذ البداية، هي أنه ظهر نتيجة عمل مجموعةٍ شديدة الترابط. انضمت آخرِ الأمر مجموعة من شبان الجيل الجديد الموهوبين إلى الحزب، وهم الذين تمكّنوا من الوصول إلى مراكز القيادة وتوسيع قاعدة الحزب. كان كبار السياسيين من حولي لاعبين ماهرين وأقوياء، لكن كان من الواضح أن جون بريسكوت لم يشعر بميلٍ نحو حزب العمال الجديد. أما تحديد هذا الأمر فقد كان أصعب مع غوردون. كان يؤيد سياسات حزب العمال الجديد في مستوى معيّن، لكن التوتّر بدأ بالظهور على السطح، وهو التوتّر الناشئ عن الرغبة في المضي قدماً بالإصلاحات بطريقة أكثر حزماً. أعتقد أنه كان أكثر انشغالاً بمسألة خلافتي في رئاسة الحزب، بحيث كان يخشى طرح أي مسألة صعبة قد تعيق هذه المسألة. وقف دافيد بلانكيت بكل قوة وراء دفع الإصلاحات قُدُماً، لكن آخرين من أمثال جون ريد وتشارلز كلارك بقوا على مواقفهم. أما روبين كوك فقد تماشى مع هذه السياسة. يعود ذلك جزئياً إلى العلاقات الفظيعة التي سادت بينه وبين غوردون في ذلك الوقت، لكن لا يمكن للمرء الاعتماد عليه في حال توتر الأمور. عبّر جاك سترو عن دعمه، لكن ليس بالقوة التي يمكن للمرء دفعها إلى الخطوط الأمامية.

استنتجتُ من ذلك كله أن الأمر برمّته يقع على عاتقي أنا، وأن عليّ أن أضغط في ذلك الاتجاه أكثر فأكثر، لكن لم أكن قد وصلت إلى مرحلة النضج التام بعد، أو إلى مرحلة الصلابة. ربما من الصعب قول هذا، لكنني شعرت بأن أمامي الكثير كي أتعلمه بشأن تطوير القوة الداخلية عندي. لم أشعر بما يكفي من الشجاعة في ذلك الوقت. أدركت كذلك أنني إذا اضطر الأمر سأتدخل بقوة أكبر، لكنني أحسست بتوتر كامن تحت السطح هو أكبر مما تُظهره ملامحي. ربما الأمر ذاته يصدق دائماً على

من هم في مواقع المسؤولية، لكني أحسست، وبمستوى معيّن، بأنني أكثر حاجةً إلى التعاطف.

قدّمت لي شيري مساعدةً كبيرةً بطبيعة الحال، لكنها لم تكن توجد في أمكنة عملي، لذلك كان الأشخاص الموجودين من حولي يشكلون أهمّية حقيقية لي. شكّل هؤلاء الأشخاص فريقاً موهوباً ورائعاً من حولي. أحسست بالشعور ذاته الذي يشعر به مدير فريق كرة القدم عندما يدرك أن لديه فريقاً رائعاً ومتوازناً، ويمتلك عناصر الإبداع والالتزام كافة. أعتقد أنْ لا حاجة بي للقول إن ذلك المدير لا يرغب في خسارة أحد نجومه.

تعلمت بمرور الوقت أن أتخلص من هذا القيد، وهو قيدٌ بالفعل لأن مدير الفريق يعلم بوجود لاعبين عظماء في مكانٍ آخر. يُعتبر التغيير مفيداً لأنه يقدم تحدياً للطرق القديمة، إلا أنني كنت في مرحلة التطور في ذلك الوقت، واعتقدت أن الاستغناء غير ممكن عن فريقي القديم.

لم أشعر بالضغوط التي كان يتعرض لها ألاستير إلا في وقتٍ لاحق، ولم أنتقل إلا لاحقاً إلى موقع يتطلب مهارات تختلف عن تلك التي يمتلكها. كان التواصل فيما بيننا لا يزال تاماً في تلك المرحلة. إن التواصل أمرٌ مهمّ على الدوام بطبيعة الحال، لكن في تلك الأيام المبكرة كان يمرّ في مرحلة صعبة. أقدمت في وقتٍ لاحق على وضع سياسة لهذا الأمر، وما لبث التواصل أن اتخذ منحى أقل تواصلاً، وإن كان لا يزال في منتهى الأهمية.

بدأ ألاستير يشعر بالإرهاق وبالعصبية، كما بدأت وسائل الإعلام بمهاجمته بعد أن شعر بكره تجاهها، لذلك لم يكن تعاطيه معها سليماً. تعوّدت إعلان ألمي والإجهاد اللذين أشعر بهما أمام آلاستير وآنجي، وأعتقد أنني كنت أفعل ذلك بطريقة أنانية تعبر عن احتياجي إليهما. كانا يخففان العبء عني على الدوام، لكنهما بذلك كانا يُثقلان على نفسيهما، ولا شك أن العبء كان ثقيلاً.

حاولت في الأشهر الأخيرة من العام ٢٠٠٠ إقناعهما بالبقاء. حاولت ذلك بأكثر مما ينبغي، وبدرجة تبعد قليلاً عن الحكمة. لكن، هذه هي الحياة: عِش وتعلّم.

كنا لا نزال في مرحلة الضغط من أجل وضع النقاط الأساسية لسياستنا في

مجالها الصحيح من أجل تنفيذ برنامج الإصلاح. عملت على نحو مباشر من أجل صوغ توجه الإصلاح البنيوي في المدارس، وفي الخدمات الصحية العامة، وفي القضاء الجرمي، والخدمات الاجتماعية، وفي الخدمة المدنية. شعرت بإحباط كبير نظراً لافتقادي المعرفة المفصّلة العائدة إلى أنظمة كل مجالٍ من تلك المجالات، لذلك كنت أحاول دائماً توسيع معرفتي بها. يستحيل، بطبيعة الحال، على أي رئيس وزراء الإلمام بجوهر الأنظمة كلها، أو أن يمتلك مهارةً مثاليةً في أي نظام منها. يُستثنى من ذلك فورات الحركة التي تترافق عادة مع نشوب أزمات. عمدت على الرغم من كل ذلك إلى التقاء مجموعات من الخبراء العاملين في الخطوط الأمامية، وهم الذين يفهمون قضية التغيير، وأرادوا أن يتزعموها. حسّن هؤلاء من مجال فهمي كثيراً بحيث تمكّنت من السيطرة على التعقيدات المترافقة مع الانطلاق في أي عملية تغيير. تأكدت في هذا الوقت من قدرتنا على الانطلاق، وبكل ثقة، في ولاية ثانية تترافق مع حزم فعلي. حصلت في هذه الأثناء على بوصلة ثابتة في كل مجالٍ من المجالات. تزايّدت كذلك ثقتي بشأن الحجج التي كنت أقدّمها في نقاشاتنا، كما تزايدت ثقتي بأننا نسير في الاتجاه الصحيح. أما المشكلة الوحيدة فكانت عدم اتضاح مقدار الدعم الذي كنت سأتلقاه في تحقيق الأهداف المرجوة.

كانت الأحداث في هذه الأثناء تصطدم ببرنامجي، وكانت تدفعها في هذا الاتجاه أو ذاك. حدثت فيضانات عديدة في أنحاء عديدة من البلاد. كانت تلك كارثة طبيعية، لكنها استدعت مقادير كبيرة من الوقت والتركيز. قمت في هذه الأثناء بزيارات عديدة من أجل رفع معنويات السكان والتأكد من القيام بكل ما تستلزمه الأمور. تُعتبر الأضرار الناجمة عن الفيضانات كبيرةً جداً إلى حدّ لا يصدق، وقد تصل قيمتها إلى مليارات الجنيهات. يحدث ذلك كله بسرعة وسهولة مدهشتين. لاحظت عند زيارتي مناطق الفيضانات في يورك أن الجميع أظهروا تحملهم لهذه الكارثة، لكن كان من الواضح أن شهوراً طويلة سوف تمضي قبل عودة الأمور إلى طبيعتها. تصاعدت احتمالات حدوث فيضانات بسبب التغيّر المناخي، لذلك اضطرت شركات التأمين والحكومة والشركات، حتى مدن وقرى بأسرها، إلى إعادة النظر بسياساتها. التزمنا في النهاية استثماراً مقداره مليار جنيه من أجل إنشاء دفاعات وقاية من أخطار الفيضانات.

واجهتنا بعد ذلك كارثة قطار هاتفيلد في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر. حدث ذلك بعد خروج قطار سريع يعمل داخل المدينة عن السكة الواقعة بين لندن وشمال – شرق، وهو الخطّ الذي كنت أستخدمه بانتظام. مات أربعة أشخاص في الحادث، فكان ذلك صدمةً عظيمةً، خصوصاً وأنه وقع بعد مرور نحو سنة على وقوع حادث لادبروك غروف، الذي قُتِل فيه واحد وثلاثون شخصاً.

أدى هذان الحادثان إلى مراجعة أساسية لحالة سكك الحديد، وهكذا فُتحت مجدداً النقاشات الدائرة حول الخصخصة، كما كان من المؤلم التفكير في ما يجدر عمله. كان سببَ الحادث تشققٌ غير ملحوظ في إحدى السكك. كان ذلك أمراً خطيراً لأنه يعني احتمال وجود تشققات أخرى. عقدنا عدة اجتماعات مع مسؤولي السكك الحديدية في ١٠ داوننغ. كانت لهجة جون بريسكوت الذي كان مسؤولاً عن قطاع النقل قاسية جداً معهم. ربما كان على حق في أن يكون هكذا، لكني قلقت على الفور بشأن مشكلة أخرى مختلفة كلياً.

عمدت شركات سكة الحديد، بتشجيع من وزارة النقل بطبيعة الحال، إلى تطبيق سياسة تجنب المخاطر، الأمر الذي جعل من سير القطارات كلها بطيئاً. أدركت أن الجمهور ما إن تتلاشى الصدمة الناتجة عن الحادث حتى يعود، بتأثير من الطبيعة البشرية، إلى الوضع العادي، أي إنهم سوف يطالبون بأن تسير القطارات في مواعيدها مجدداً، الأمر الذي كان مستبعداً.

تبادلتُ مع الوزارة حواراً صامتاً على مدى السنة التالية. كنت حريصاً على العودة إلى الجدول العادي، واعتبرت أنهم يفرطون في الحذر. أبدت الوزارة رفضها الشديد، واعتبرت أنني أريد المخاطرة. عقدت اجتماعات كثيرة مع جون بريسكوت تميزت بفورات الغضب، وبالضرب بقبضة يدي على الطاولة، وبالنقاشات التي تميزت بالتهذيب على درجات مختلفة معه.

استمرّت الأحداث الكثيرة والسريعة في السيطرة على الأشهر التالية من العام ٢٠٠٠. سقط ميلوسيفيتش في شهر تشرين الأول/أكتوبر، وكانت تلك لحظة عظيمة امتلأت فيها شوارع بلغراد بالمشاعر والآمال، ثم مات دونالد ديوار الوزير المفوض لشؤون اسكتلندا. كان الرجل زميلاً ممتازاً لي على الرغم من أننا لم نكن صديقين

مقربين البتة، وكنت أشعر برابطةٍ قوية تشدني إليه، فقد وثقت به كثيراً، كما أنه تميّز بنزاهة حقيقية. تمكّنت من التعرف إلى أولاده جيداً بفضل ديري وزوجته أليسون (التي كانت متزوجةً دونالد في وقتٍ سابق). زرت دونالد في شقته الواقعة في نيوتاون في إدنبرا، قبل أسابيع قليلة من وفاته، وذلك عندما كان في فترة نقاهة من مرضٍ سابق أسفر عن مؤشّرات تدل على وجود نزف في الدماغ. لم يسبق لي أن زرتُ منزله من قبل على الرغم من معرفتي به منذ سنوات. دُهشت من رؤية مجموعته الكبيرة والقيّمة من لوحات وصور الفنانين الانطباعيين الاسكتلنديين. قلت له: «لم أكن أعلم بوجود أشياء كهذه».

أجابني بطريقته المميزة: «لأنني لم أخبرك بها قط».

أما من الناحية السياسية فلطالما شعرت على الدوام بأن دونالد يميل في أعماقه إلى حزب العمال الجديد، كما يمتلك تفكيراً سليماً، بالإضافة إلى روحه الطيب، ونفاد صبرٍ بالنسبة إلى العقائد، وبصيرة كبيرة بالطبيعة الإنسانية. كانت خسارته لا تعوض بالنسبة إلى اسكتلندا. كان الرجل شخصية أبوية، ورائد اللامركزية الاسكتلندية، وكان، بكل وضوح، صاحب مركزٍ كبير. أما جنازته فكانت حزينة جداً. شعرت، لغرابة الأمر، عندئذ بأنني غريب. كانت الجنازة اسكتلندية الطابع، كما هيمن غوردون براون على هذه المناسبة فألقى فيها كلمةً مؤثّرة، وهكذا برز في أفضل حالاته.

خصّصتُ أوقاتاً كثيرة للشؤون الأوروبية. برزت أمامنا القمة الأوروبية المزمع عقدها في نيس في مطلع شهر كانون الأول/ديسمبر، وكان من المقرر أن نضع في ذلك الاجتماع قوانين تصويت جديدة للاتحاد الأوروبي، تشكل تفاعلاً معقداً من المصالح الشخصية والقومية التي تهدف إلى خدمة المصلحة الأوروبية المشتركة. دعوت جاك شيراك إلى تناول العشاء معي في أحد المطاعم في منطقتي، وذلك لمناقشة هذه الأمور كلها. قال لي إن الطعام رائع، كما أن مرافقيه قد عبّروا عن رضاهم بابتسامات جعلتني أشعر بارتياح. أما في الخارج فكان صيادو الثعالب يحتجون.

أما قصة صيد الثعالب فهذه هي. إن أغرب الأمور في السياسة هي سهولة

الوقوع، من دون قصد، في مواقف تشتمل على تناقضاتٍ لا تصدّق. أسفرت قضية صيد الثعالب عن أحد الإجراءات التشريعية المحلية التي تأسفت عليها كثيراً إلى جانب قانون حرية المعلومات. كانتا قضيتين تحملان دوافع تقدمية كبيرة (على الأقل بالنسبة إلى بعض الناس). شكلت كل قضية منهما تشنجاً سياسياً كبيراً، لكن لا يعلم الهدف منها إلا الله.

تسببت قضية صيد الثعالب بأكبر قدرٍ من الأسف. أما هذه القضية في ذاتها فقد عبرت حدود وجهات النظر بطريقة غريبة، وتعرجت في منطقة إنكلترا الوسطى، ومرت عبر مناطق الطبقة العاملة والأرستوقراطيين المحافظين على عاداتهم القديمة. لكن المشكلة في الأمر هي عدم القدرة على معرفة رد فعل الناس على هذه القضية. يوجد كذلك المحافظون المتشددون الذين كانوا يعتبرون حظر الصيد خيالاً سياسياً كبيراً، وكذلك هناك أعضاء حزب العمال المتصلّبون الذين يفضّلون التضحية بأذرعهم اليمنى على أن يضعوا صليباً في صندوق المحافظين، الذين يفضلون التخلص مني بسبب اقتراح الحظر.

فضّل بعض الناس أن يعتبر الأمر قضية طبقية، وهي كانت كذلك بالفعل بالنسبة إلى بعض الناس. أتذكّر أن إحدى المساعِدات في غرف حديقة داوننغ ستريت أتت لمقابلتي في شيكرز، وذلك عندما كنت أعمل في مكتبي. قالت لي والدموع تنهمر من عينيها: لا بد من إنصاف الثعلب الصغير المسكين. تعودت عقد اجتماعات مع المستشارين الذين يعملون معي، أو مع مسؤولي الانضباط. كنت أكتفي بالجلوس هناك وأقول: لكن الناس لا يمتلكون هذه المشاعر القوية تجاه هذا الأمر. إنه مستحيل. حسناً. إنهم يمتلكون هذه المشاعر، وهم يعبّرون عنها أمامي. كانوا على حق. قال لي جيرالد هوفمان، وهو رجلٌ حساس، ومتعقل، ومخلص: إذا لم تُقدم على هذا، فإنني لن أدعم الحكومة مجدداً. لم يقصد ذلك بطبيعة الحال، لكنه تمنى ذلك. كانت المشاعر التي أثارتها هذه القضية غريزية. سيطر عليّ شعور بأنني لو اقترحت حلّ مشكلة المتقاعدين عن طريق فرض الموت الرحيم الإجباري على واحدٍ من كل خمسة سجناء، لكنت لاقيت متاعب أقل من جرّائها.

تعلمت درساً سياسياً قيّماً. إذا أردتَ أن تنجح في السياسة فعليك أن «تشعر» بهذا النجاح. يأتي الإدراك الشعوري من الفطرة. لكنني «أشعر» به عموماً، وهكذا

الحال مع معظم القضايا التي «أحسّ» بها. لكن ذلك لم يحدث قط في هذه القضية بالذات التي لم «أشعر» بها على الحالين. لم أشعر كيف أن هذا الأمر هو جزء من حياتهم. لم أشعر كذلك كيف أن أولئك الذين يريدون فرض حظر على الصيد يعتبرون أن هذه المسألة تتعلق بالقسوة أساساً. ماذا كانت النتيجة؟ كارثة.

لم يكن عندي أي معلومات عن هذه الهواية. ظننت أن من الغريب قليلاً أن يبتهج أحدٌ بصيد ثعلب، لكن بعد أن قرأت كتاب Trollope فهمت أن هذه الرياضة هي جزء من تاريخنا. أما ما لم أفهمه، لكني فهمته فيما بعد، هو أنها جزء كبير من حاضر مناطقنا الريفية.

أعترف بأنني ارتكبت خطأً قاتلاً لأنني لم أقفل القضية منذ البداية، بل سمحت لها بالانتشار. تصاعدت التوقعات كثيراً، كما أنني أعطيت، عن حمق، الانطباع في إحدى المقابلات التلفزيونية بأن صيد الثعالب سوف يُحظر بالفعل. كان بالإمكان اعتماد صيغة التصويت بطبيعة الحال، أي إما التصويت بحظر الصيد ـ وكان بإمكاني القول إنني أريد هذا الحظر ـ أو حتى كان بإمكاني توقيع التماس، وإما أي شيء من هذا القبيل. كررت «موقفي» على أي حال، وذلك بدلاً من إعادة التفكير فيه. حددت موقفي في اللحظة التي قلت فيها هذا الكلام، وهكذا وقعت في الفخ. شعرت في نهاية الأمر وكأنني ثعلبٌ مسكين.

كانت المشكلة كما قلت سابقاً أنني لم أشعر بشيء تجاه هذه القضية، لكن فيليب غولد قال لي إن المسألة الآن هي قضية ثقة. أما سالي، وهيلاري آرمسترونغ، وآن تايلور، أي كبار الضباط الذين يتخذون شعار «سنحتل العالم إذا كان ذلك ضرورياً، وسنلحق الهزيمة بالدول كافة»، فقد أبلغوني: «إذا فشلت في هذا الأمر فسوف تواجه أزمة زعامة». قلت لهم: «لا أصدق ذلك»، وكررت كلامي أمامهم. أجابوني: «من الأفضل أن تبدأ بالتصديق».

لا يمكنكم تصديق ما أقدمت عليه من مناورات من أجل تفادي هذه القضية البائسة. أجرينا استفتاءات محلية، وفرضنا حظراً جزئياً، وفرضنا غرامات مدنية، وغرامات جرمية، وغير ذلك من إجراءات.

كان المحتجون من المحافظين في غالبيتهم، أي إنهم كانوا يمتلكون شيئاً للاحتجاج عليه في النهاية، وهو الأمر الذي فعلوه. لحق المتظاهرون بي، ونفخوا في أبواقهم، ودقّوا بصنوجهم، وصرخوا، وغنّوا، وصاحوا، وهتفوا. كان ذلك مشهداً بريطانياً نموذجياً. إنني أذكر عندما زارنا جورج بوش وملأ المتظاهرون المكان، أنه سألني حينئذ عما يحدث. شرحت له ما يجري. أجابني جورج: «ولماذا تفعلون ذلك كله يا رجل؟» أصاب الرجل صميم المسألة كعادته دائماً.

بدأت بجمع المعلومات عن مسألة صيد الثعالب، وبدأت، للأسف، بطرح هذا السؤال على نفسي: «ولماذا فعلت ذلك؟» أي ما كان يجب أن أفعله قبل أن أبدأ بهذا الالتزام. كان قلقي يزداد مع زيادة المعلومات التي أجمعها. بدأت بإدراك أن الأمر لا يتعلق بزمرة صغيرة من غريبي الأطوار الذين يستمتعون بإنزال الأذى، بل إن المسألة تتعلق بتقليدٍ له جذوره في التاريخ وبالمجتمع الواسع وبالحقوق الاجتماعية، وهو تقليد يُعتبر ضرورياً لطريقة حياة. كان هذا التقليد أكثر رسوخاً مما ظننت، لكنه كان أقل نخبوية، كما يمتلك أنواع التفرعات كافة ما بين مجموعات من الناس بعيدة كل البعد عن عالم النخبة.

لا أريد أن أقول إن كل هذا يعني أنني أردت أخذ الأمر على عاتقي، أو حتى أنني أعجبت به على نحو خاص. كان شعار «صوّتوا لحزب العمال، وإلا سيفوز الثعلب» شعاراً رائجاً جداً خلال جولات انتخابية عديدة. لكن حظر الصيد بهذه الطريقة ليس من طبيعتي أبداً. إن صيد الثعالب هو أمر يهم قسماً كبيراً من الناس، وصحيح أنهم أقلية، لكنهم يمتلكون الحق للدفاع عن طريقة حياتهم.

زرنا جزيرة إلبا الجميلة في سياق إقامتنا الصيفية في منزل آل ستروزي. توجّهنا لتناول الغداء مع بعض أصدقائهم، وصودف هناك وجود امرأة كانت صديقةً لأحد الصيادين الذي يقطن قرب أكسفورد، على ما أعتقد. تحدثت معي المرأة بهدوء بدلاً من توبيخي. حاولت المرأة شرح ما فعله الصيادون وإقناعي بأن وظائفهم تعتمد على الصيد، كما شرحت لي الأثر الاجتماعي الناتج عن السماح بالصيد، وكذلك النتائج الاجتماعية المترتبة على حظره. فعلت المرأة ذلك بطريقة أقنعتني تماماً.

صممت منذ تلك اللحظة أن أتخلى عن هذه القضية. لكن كيف؟ كنا مجبرين

على السماح للبرلمان بمناقشة القضية، ولم يكن هناك من شك في نتيجة النقاش: سيفرض البرلمان الحظر. توصّلنا في النهاية إلى تسوية بريطانية رائعة. فُرض الحظر بطريقة لا يعود معها حظراً إذ اتُخذت خطوات معينة تهدف إلى تجنب القسوة عند قتل الثعلب. نستنتج إذاً أن الحظر فُرض ولم يُفرض في الوقت ذاته. كان ذلك أفضل ما يمكنني عمله على أي حال، لكني لم أعتبر ذلك عملاً سياسياً يستدعي الزهو. أعتقد أنني أسمع القارئ وهو يقول لا يمكنني أن أفعل ذلك.

كانت هازيل بليرز في وزارة الداخلية عندما بدأ تطبيق القانون في العام ٢٠٠٤. اتصلت بي هاتفياً وقالت: «تسألني مديرية الشرطة ما إذا كنتَ تريد تنفيذ القانون بشدة، وأن ننفذ بعض الملاحقات الصارمة». قالت لي بعد أن أجبتها: «ظننت أنك ستقول هذا».

ذكّرتني هذه الحادثة بأنني فزت على الأمير تشارلز عندما تراهنا على هذه المسألة. اعتقد الأمير أن الحظر كان سخيفاً، ثم أثار الموضوع معي بطريقة مترافقة مع بعض الألم. شرحت له الصعوبات السياسية المترافقة مع القضية. لم أتأكد قط أنه فهمها تماماً، وهو أمر ليس بالمدهش مطلقاً، وذلك لأنني اعترفت بأنني لم أفهمها بدوري حتى وقتٍ متأخّرٍ جداً. كان الرهان أن الصيد سيستمرّ بعد أن أترك منصبي. سألني: «لكن كيف سيحدث ذلك إذا فرضتَ الحظر؟»

أجبته: «لا أعرف، لكني سأعثر على طريقة أخرى كي أعرف».

كان الأمير تشارلز يعرف مجتمع المزارعين حق المعرفة، لذلك شعر بأننا لم نفهم المسألة تماماً، وهو الأمر الذي يحمل شيئاً من الحقيقة. يمتلك مزارعونا مجموعةً من التحديات التي تُعتبر بريطانية على نحو فريدٍ ومميز: كانوا يعانون كارثة الأمراض التي تصيب الماشية BSE. عجزنا في ذلك الوقت عن تصدير لحوم الماشية إلا في ظروفٍ محددة، كما انخفضت أسعار المزارع، وارتفعت أسعار الوقود، كما أن الفيضانات أصابتهم بأضرار فادحة، لكن الأيام كانت تخبئ ما هو أسوأ.

عقدنا اجتماعات منتظمة في الأشهر الأخيرة من العام ٢٠٠٠، وذلك من أجل التحضير لانتخابات صيف العام ٢٠٠١. قضينا يوماً في شيكرز، وهناك قلت بحزم إن الخطر كان الاستكانة، لأن مواجهة حقيقية تنتظرنا، لذلك يجب علينا أن نهيّئ

أنفسنا لهذه اللعبة. عدنا إلى مركز الصدارة في استطلاعات الرأي، لكني تعمدت أن أقول ذلك لفيليب بقصد التقليل من أهمية تقدمنا من أجل التركيز على الصعوبات. كنا نعاني من عجزاً يبلغ نحو ٢٠ بالمئة من جهة الصواب/ الخطأ، لكن على الرغم من أن المحافظين بدوا وكأنهم عاجزون عن تحقيق اختراق، إلا أنني وضعت تصوراً لما يُمكن أن يفعلوه إذا تمكنوا من حشد أصواتٍ وطنية معادية لفكرة الاتحاد الأوروبي، وضد المهاجرين، وإذا ما قرنوا ذلك كله بالسخرية واللامبالاة تجاهنا.

قلت إن علينا مواجهة خيارات كبيرة بشأن المستقبل. شدّدت كذلك على الحاجة إلى الإصلاح وكذلك إلى الاستثمار، وإلى أن نضع في صلب دعوتنا عرضاً لزيادة الثروة الشخصية، وذلك عن طريق اقتصاد قويّ وخدمات عامة محسّنة.

كان بيتر وغوردون يعانيان كثيراً بشأن اليورو، لكن بيتر تحدث، وإن بتسرّع، مع وسائل الإعلام عن موقفنا في حال تطبيق العملة الموحّدة. بالغ غوردون، كعادته، في ردّ فعله لكني بدأت بالقلق بشأن عدد الزملاء الذين يحقدون على بيتر، وبشأن الحقد الخالص الذي يكنّه غوردون براون تجاهه. كان بيتر في ذلك الوقت حليفي المقرّب، ولذلك أصبح بطبيعة الحال هدفاً لأنصار غوردون.

أُجبر بيتر على الاستقالة للمرة الثانية في وقت مبكر من العام ٢٠٠١. كان هذا الأمر مألوفاً عند انكشاف ما يسمى الفضائح، أي عندما تنهال السياط الساخنة على سائر المعنيين، ويُشطب الضحايا قبل أن يتمكن أي شخص من أخذ فرصة للانتظار حتى إثبات الأمر أو نقضه. تأسفت على هذه الاستقالة فيما بعد أكثر مما فعلت بعد الاستقالة الأولى. نشرت صحيفة الأوبزرفر مقالة متوسطة الحجم حول بيتر. تحدثت المقالة عن كيفية جمع بيتر للمال من أجل مشروع Dome من الأشقاء هندوجا، وهم رجال أعمال هنود يقومون بأعمال الخير، ثم قيامه بتأمين جواز سفر لأحدهم. تحولت المقالة، بفضل طريقة عرض الخبر، إلى قضية بعيدة عن الاتهام في ذاته. يعطينا ذلك درساً حقيقياً في مثل هذه الأمور.

لم يكن الأمر يشكّل أي مشكلة لو أن بيتر اكتفى بإمرار طلب جواز السفر، أو حتى لو أنه طلب التعجيل في إنجازه شريطة التأكد من تطبيق الإجراءات المطلوبة. أما الواقع فهو أنه لم يكن هناك أي أمر يمنع منح أس. بي. هندوجا جواز سفر، وذلك

لأنه حائز الشروط المطلوبة، ويُضاف إلى ذلك أن مسألة تمكنه من إعالة نفسه هي مسألة غير واردة بالمرة لأنه رجل ثري.

أما ما يحدث في هذه الظروف فهو الآتي: أنا منشغلٌ كالعادة، وألاستير كذلك، وكذلك هي الحال مع بيتر (وذلك بسبب انشغاله بمقالة أكبر بكثير نُشرت في صحيفة صنداي تايمز تحدثت عن بيتر وغوردون). كانت هذه المقالة ذات مستوى متوسط، لكن إذا لم يكن المرء حذراً – وبالتأكيد لم نكن كذلك – فإن الحقائق ستغيب قليلاً، وسيجد نفسه في وسط إعصارٍ مدمّر.

قال بيتر إن مساعدته الشخصية، وليس هو نفسه، هي من مرّر الطلب، وهو أمر كرره ألاستير أمام وسائل الإعلام. ذكرت بعض المعلومات كذلك أن بيتر قد تحدث عن الأمر أمام مايك أوبريان، وزير الداخلية.

يبدو الأمر غريباً عندما يفكر فيه المرء. تمكّنت وسائل الإعلام من تحويل تصريح خاطئ إلى فضيحةٍ كاملة. وقف بيتر لوحده بسبب وقوف جماعة غوردون براون ضده، وهكذا لم يلقَ دعماً من أحدٍ غيري. بدا الأمر غريباً تماماً، وذلك بالنظر إلى ما آل إليه موقع بيتر في حزب العمال أثناء رئاسة غوردون براون، لكنه كان معزولاً سياسياً في ذلك الوقت إلى أقصى حدّ ممكن.

جاء يوم الأربعاء وهو يوم اللقاء مع رئيس الوزراء، وهو بمثابة كابوس بالنسبة إليّ. قال لي ألاستير إنه غير قابل للإلغاء. كان رأي جاك سترو متوافقاً مع هذا الرأي، كما كان قلقاً بشأن استدعاء بيتر، وهو أمر كان من الحتمي أن ينتشر. استدعيت بيتر قبل جلسة اللقاء مع رئيس الوزراء وأبلغته بضرورة تقديمه لاستقالته. قال لي إنه يشعر بأن ألاستير هو الذي يضغط عليّ بهذا الاتجاه. لم يكن الأمر كذلك لأنه قراري أنا. وافقت على تشكيل لجنة تحقيق بشأن هذه القضية برئاسة المحامي السابق لوزارة الخزانة السير أنطوني هاموند. برّأ التقرير، الذي صدر بعد خمسة أسابيع، بيتر من ارتكابه أي خطأ. كان الأمر مؤسفاً على الرغم من أنه شكّل خاتمة جيدة لحادثة مؤسفة.

دافع بيتر بشجاعةٍ عن مقعده وتمكن من الفوز به في الانتخابات، ثم تمكن من العودة إلى المشهد السياسي مستخدماً عبقريته المعتادة، لكنني افتقدته كثيراً في

الحكومة في الفترة ما بين عامَي ٢٠٠١ و٢٠٠٥، وذلك لأنه كان سيشكل قوةً داعمةً لي.

بدأتْ حُمّى الانتخابات تتشكل في مطبخ وستمنستر. وضعتُ هيكلية الحملة الانتخابية في مذكرة، وحددت الخطوط الأساسية، وكذلك الرؤية المستقبلية لأساسيات خوضنا تلك الحملة. لم تكن تلك حملةً سهلة، وخصوصاً مع الاضطرار إلى التوفيق بين الشخصيات والنفسيات المتعارضة، كما سمحت للجميع بالاعتقاد أنهم يديرون تلك الحملة، لكن مع التأكد أنني أديرها لوحدي.

وضعنا نصب أعيننا الانتخابات التي كان من المقرر إجراؤها في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠١، لكن حدثت واقعة تسببت بإرباك كل الخطط الموضوعة سلفاً. كنت في كندا في ذلك الوقت وأتهيأ لإلقاء خطاب أمام البرلمان، وكذلك للقاء صديقي جان شريتيان رئيس الوزراء الكندي. كانَ الرجل حكيماً جداً، ومناوراً جيداً، ورجلاً مجرّباً، وعظيماً في مجال العلاقات الدولية حيث يُعتمد عليه في الكلام المنطقي والمُقنع. كان الرجل حازماً يُعتمد عليه، مثل معظم الكنديين في العادة، وموثوقاً به من دون أن يكون ملحاً. كان رجلاً طيباً بالإجمال، وناشطاً سياسياً صلباً لا يُستهان به.

أُبلغنا أثناء وجودنا هناك بأن وزارة الزراعة أُبلغت عن وجود حالة مرض يصيب الماشية في مسلخ يقع في إيسيكس. تبلغت هذه المعلومة، لكن ردة فعلي الأولى كانت على النحو الآتي: هل هو أمرٌ خطير؟ كان الجواب بالإيجاب. فرضت المفوضية الأوروبية بعد مرور يومين على اكتشاف الحالة حظراً تاماً على تصدير أصناف اللحوم، والحليب، والماشية البريطانية. تساءلت على الفور: ألم يكن ذلك رداً مبالغاً فيه؟ قيل لي، لا، ليس متسرّعاً. حسناً، إن الأمر خطير إذاً. وصف جان شريتيان الأمر على الفور بأنه أزمة. قال لي: «انتبه لهذا الأمر يا طوني، وانتبه جيداً. سيشكل الأمر أزمةً خطيرة». بادرنا على الفور إلى وضع قيود على انتقال أنواع الماشية كافة. سألت أثناء وجودي في كندا ما إذا كنا نستطيع رفع الحظر في غضون أسبوع من الزمن، لكني لم أحصل على إجابة واضحة.

بقيتُ في الخارج طوال الأيام القليلة التالية، منشغلاً بكلّ ما يجري في بريطانيا،

وحاولت ضبط الأمور. بدا أن نيك براون، وزير الزراعة، يقوم بعمل جيد، وهكذا كانت الوزارة، ولمرة واحدة على الأقل، على علم تام بخطورة المسألة.

ظهرت حالات أخرى بعد انكشاف الحالة الأُولى، وكانت هذه المرة في الطرف الآخر من البلاد، أي في تاين وير. مرّت بعد ذلك فترة ثلاثة أشهر في تلك المنطقة التي ظهر فيها أوسع انتشار لمرض الماشية عرفته أوروبا، وأحد أسوأ الأوبئة في تاريخ العالم.

يؤثّر هذا المرض في كل الحيوانات من ذوات الحوافر، لكنه لا يقتلها بالضرورة، كما لا يجعل من لحوم الحيوانات المصابة غير صالحة للأكل. تمتلك بعض البلدان، مثل الأرجنتين، مساحات واسعة سبق أن انتشر فيها ذلك المرض منذ عقود. لكن ذلك لا يؤثر، بطبيعة الحال، في سوق التصدير، كما أن المستهلك العادي لا يسارع إلى شراء اللحوم المصابة بالتحديد. لم ينتقل ذلك المرض البتة إلى البشر، على الرغم من وجود مخاوف من إمكانية حدوث هذا الأمر. لا يُعتبر هذا المرض، على مستوى معيّن، خطيراً فيما يتعلق بالحياة والموت، وحتى بالنسبة إلى الحيوان المصاب، لكن تأثيراته العملية في صناعة الماشية مدمّرة جداً، هذا إذا لم تكن مميتة لهذه الصناعة. يعني ذلك أن تأثير المرض مميت.

إن ما حدث هو أن اللحوم المصابة تمكنت، بطريقةٍ ما، لعلها غير شرعية، من التسرب إلى البلاد، فأدت إلى تلويث إحدى المزارع. ينقل المزارعون الماشية في أنحاء البلاد بأسرها، وبما أن فترة حضانة المرض قد تصل إلى عشرة أيام، لذلك لم يكتشف المرض، وبالتالي لم تتوقف حركة نقل الماشية، إلا بعد مرور عدة أيام على انتشار المرض. أما نتيجة ذلك، وكما أدركنا بسرعة، فهي أننا لم نكن نمتلك أدنى فكرة عن عدد الحيوانات المصابة، أو عن أماكن وجودها.

يُضاف إلى ذلك أن هذا المرض ينتقل عن طريق الهواء، كما يمكن أن ينتقل في كعوب الأحذية. إن الطرق الضيقة، والطرقات المخصّصة للمشي، وكل العناصر الأخرى للسياحة الريفية كانت كلها مصادر محتملة لانتشار ذلك المرض. اضطررنا في غضون أيام إلى إغلاق مناطق الريف البريطاني كافة. أما الطريقة الوحيدة للتعامل مع المرض فكانت نحر قطعان الماشية المصابة كلها. نشأ جدال كبير دار حول ما

إذا كان يجدر بنا اللجوء إلى التلقيح، وهو جدال سيطر على المناقشات العامة أثناء الأزمة. أما الحقيقة المجردة فهي أن متطلبات الاتحاد الأوروبي كانت تستدعي قتل الماشية حتى الملقحة منها، وعلى أي حال لم يكن بإمكاننا التأكد أن التلقيح سيعطي فاعلية عند الخراف، علماً أن هذه الأخيرة يُمكن أن تنقل المرض إلى قطعان الأبقار.

كان من الضروري نقل الماشية بعيداً تمهيداً لذبحها، لكن ليس إلى المسالخ، وهكذا بدأت محارق الماشية النافقة بالظهور. وجدت إحدى هذه المحارق قرب خط طيران هيثرو، أي إنها كانت على مرأى من المسافرين الذين كانوا يأملون تمضية بضعة أيام في ريف بريطانيا الخلاب. تنقلت صور محارق الماشية في أنحاء العالم كافة. انتشرت الشائعات التي أوحت بالكشف عما سمّي حالات بشرية للمرض (بغضّ النظر عن إثبات بطلان هذه الأخبار فيما بعد). افترض الناس بعد إقدامِنا على إقفال المواقع السياحية الريفية أننا فعلنا ذلك خوفاً من انتقال المرض إلى الناس. يُعتبر الأميركيون سياحاً رائعين، لكنهم سياح ميؤوس منهم في حالاتٍ كهذه. توقف تدفق السياح الأميركيين بصورة كلية تقريباً، وذلك على افتراض أنهم إذا قدِموا إلى بريطانيا فسيعودون برأسين.

عدت إلى البلاد من جولتي عبر الأطلسي لأجد البلاد في حالة أزمة. ظننت حينئذ أن الوزارة ونيك يسيطران على هذه الأزمة. لاحظت وجود نوع من الغيرة من جهتهما، الأمر الذي دفع بهما إلى التمسك بإدارتهما للأمر. كانت الوزارة مستعدةً لطلب الاستشارة، لكني أحسست بأن نيك شعر بأنه يتعرض لضغوط من جانبي، لذلك لم يرغب في التخلي عن تحكّمه في الأزمة. حذّرني جوناثان عندما أخبرني كيف أن مركز توزيع الاتصالات في ١٠ داوننغ قد حوّل له، عن طريق المصادفة، مكالمةً جرت بين غوردون ونيك. نصح غوردون نيك في هذه المكالمة أن لا يُذعن إلى تدخّلي «على الطريقة الرئاسية» وهو التدخل الذي لم يكن مساعداً كثيراً.

تزايدت حالاتُ الإصابة، وبدأت الوقائع المرة للإقفال في التأثير في الوظائف، ومصادر رزق الناس، وفي طلبات التصدير، والشركات، ومواقع الجذب السياحية، والفنادق، والأنزال، أي على البنية التحتية للريف البريطاني. سيطر عليّ عندئذ

شعور بالقلق الشديد والغثيان، والرعب. انتظرت أياماً قليلة أخرى عقدت خلالها اجتماعات عادية، وقدمت خلالها عدة استفسارات، كما جرت نقاشات وأصدرت تعليمات، لكنني لم أقتنع البتة بفاعلية ما نقوم به في حل المشكلة.

كان بن جيل رئيس الاتحاد الوطني للمزارعين. تصرف بن ومساعده ريتشارد ماكدونالد كمواطنَين عاقلين ومتفهمين. مثّل الرجلان قطاعاً يشهد تبخر ماضيه، وحاضره، ومستقبله في الهواء. حمل هذا الأمر معه الألم، والهلع، والحزن الحقيقي. كان بن وريتشارد صريحين: كان الحل الوحيد هو ذبح الماشية المصابة، ولم يكن هناك من مفر غير القيام بهذا العمل بسرعة.

كان التحدي هو طريقة التنفيذ. يمكننا أن نخصّص مبالغ في هذا السبيل، لكن أين؟ ذهبتُ باكراً إلى شيكرز في نهاية الأسبوع. يساعدني ذلك المكان، ودائماً، على إراحة أعصابي. قرأت الصحف كلها، وتحدثت مع عددٍ قليل من الناس. كان جيم سكودامور، وهو رئيس الخدم، رجلاً طيباً، لكنه كان متأثراً جداً بالأزمة. أعتقد أننا تأثرنا جميعاً. حصلت على أوسع ما يمكن من الملخصات، ثم جلست واستغرقت في التفكير.

يتعيّن على المرء أحياناً، حين يكون وسط أزمة، أن يُظهر حركته كي يرفع من معنويات الآخرين، لكن الآلية الصحيحة هي العمل بفاعلية. تكون الآلية في بعض الأحيان غير موجودة، أو حتى غير كافية، وهكذا ينبغي للمرء أن يفكر أولاً، وأن لا تكون حركته غير مفيدة، أو ما هو أسوأ من ذلك، مضرّة.

كان التحدي الأساسي لوجستياً، واحتجنا إلى عددٍ كبيرٍ من الأطباء البيطريين من أجل الكشف على الماشية المشتبه في إصابتها. يبقى بعد ذلك تنفيذ عملية الذبح، ثم التخلص من جثث الماشية المذبوحة. يتعيّن علينا بعد ذلك إنشاء نظام للتعويض يكون معقولاً وسريعاً، وكذلك إنشاء نظام من المساعدات الاجتماعية للمزارعين الذين يعانون صعوبات. يبقى في النهاية وضع خطة لإعادة فتح الريف، ووضع استراتيجية لإغراء السياح بالتخلص من خوفهم من المجيئ. أدركنا أن علينا فعل كل ذلك خلال بحثنا عن الماشية المصابة، وذلك للتأكد من عدم تسرعنا في فتح الريف أمام السياحة، أو في إعلان النصر باكراً جداً. أما من الناحية الأخرى فإن إعادة الثقة

إلى جماعات الريفيين الذين أصيبوا بأضرار وشعروا بأنهم جُرحوا، هو أمرٌ لا يمكن تأخيره حتى للحظةٍ واحدة.

قررتُ عند عودتي إلى داوننغ ستريت نهار الأحد الإمساك بزمام الأمور، وجمعت مستشاريّ المقرّبين. أريد أن أضيف هنا أن الحظّ خدمني عندما دعوت ريتشارد ولسون، وهو سكرتير الحكومة، والسير دافيد كينغ، كبير مستشارينا العلميين، إلى الانضمام إلى حلقتنا. أما إذا قال أحدهم إن العلماء ليسوا إلا خبراء غير عمليين فإنني أحيله على دافيد. أخبرني الرجل أشياء بدت سخيفة في البداية، لكن تبيّن لي بمرور الأسابيع أنها ذات قيمة لا تقدّر بثمن في إطار القضاء على المرض. استخدم دافيد الرسوم البيانية كي يوضح لنا كيفية انتشار المرض، وكيف يمكننا أن نحتويه إذا ما اتخذنا إجراءات العزل المناسبة، وكيف يمكننا القضاء على هذا المرض مع الوقت.

أعرب المسؤولون عن تشكّككهم، وكذلك فعلت أنا. تساءلت عن كيفية تمكّنه من استخلاص هذه التوقعات بهذه الطريقة، ومع وجود عدد كبير من المعطيات التي نجهلها. لكني اتبعت نصيحته نظراً لعدم وجود بدائل أخرى. صدّقوني إذا قلت إن المرض بلغ ذروته، وبدأ بالتقلص، ثم اختفى بدقةٍ غير طبيعية وغريبة. كان ذلك أمراً مدهشاً على الرغم من أن ذلك لم يحدث من دون أن أغمس نفسي في التفاصيل كلها. تمكنت من معرفة التفاصيل كلها عن ذلك المرض عندما أصبح تحت سيطرتنا، أي كيف بدأ، وكيف انتشر، وطرق احتوائه، وسلبيات الذبح والتلقيح وحسناتهما، وتأثيره في البشر، وطرق عمل المزارع والمسالخ، وعدد الحيوانات التي تُذبح عادة في الأسبوع الواحد، والعدد الذي نأكله منها كل سنة (وهو، بالمناسبة، عدد كبير).

تعلمت أشياء أكثر مما تعلمته سابقاً عن إدارة الأزمات، والعجز التام للأنظمة العادية إزاء التعامل مع التحديات غير العادية. أعرف أن الشعب ظنّ أننا أسأنا معالجة هذه الأزمة، وأن أحداً لم يشكرنا على ما قمنا به، إلا أنني عندما أعود إلى الصحف التي صدرت في ذلك الوقت أذكّر نفسي بالهلع الخالص الذي ترافق مع عمق الأزمة ومداها، فأزداد اقتناعاً بأن تغلُّبنا عليها كان معجزةً كاملة.

الفصل الحادي عشر
نصر لحزب العمال الجديد

كانت انتخابات العام ٢٠٠١ مسألةً غريبة ومفكّكة، أما نتيجتها فكانت بعيدة عن الشك تمام البعد. أسفرت هذه الانتخابات عن فوزٍ ساحقٍ جديد لنا. سار عمل ماكينتنا السياسية التي نظمناها بإحكام بكل سهولة، أو هذا ما بدا لنا على الأقل. أحرزنا هذا النصر على بدعة هيث روبنسون التي كانت حزب المحافظين، ولعل سبب اعتباري هذه الانتخابات غريبة ومفككة يرجع إلى هذه الأسباب بالذات.

تعلمت أمرين من هذه الحملة الانتخابية. الأمر الأول هو أن وسائل الإعلام لا تكترث ببساطة، وعلى نحو متزايد، لسياسة الحزب على الإطلاق إلا إذا ترافقت مع مناظرةٍ هامة. أما الأمر الثاني فهو أن من الصعب أن تلقى قصة طوني بلير وطوني براون نهاية سعيدة، وعلى الأقل في فترة وجودي كرئيس للوزراء.

كانت أزمة مرض الماشية في مراحلها النهائية. لم نتمكّن من قهر ذلك المرض تماماً أو استئصاله، لكنه كان آخذاً بالتلاشي. أحكمنا سيطرتنا على المرض، وهكذا لم يعد يخيّم على الانتخابات. أما قرار تأجيل الانتخابات شهراً واحداً فقد كان صائباً. تأكدنا كذلك أن الناخبين يريدون إعطاء فرصة ثانية للحكومة كي تُثبت جدارتها.

تمكنت من صوغ البيان الحكومي للعام ٢٠٠١ بعناية تامة وبتأنّ كبير. ذكرت

في ذلك البيان أننا أخطأنا، معذورين، بسبب الحذر، لكن حان الآن وقت المواجهة بكل شجاعة. أدركت في ذلك الحين أن الخطر لا يكمن في برنامج سرّي ما يخبئه النظام ذاته، لكن الخطر كان في الخمول والقصور الذاتي. أما نحن فقد رأينا ما يكفي، وجرّبنا ما يكفي كي نتعلم كيفية القيام بمهام الحكم بصورة أفضل وأكثر حزماً.

أوضحتُ في ذلك البيان أن إصلاح قطاع الخدمات العامة يحتاج إلى تغيير بنيوي أساسي، بما في ذلك إنشاء علاقة أوثق بكثير مع القطاع الخاص. زادت قناعتي أن برنامج القانون والنظام العام كان أسير نظام قانون جرمي وقضاء جرمي لا يتناسبان، بكل بساطة مع طبيعة مجتمع القرن الواحد والعشرين، ومع أنواع الجرائم والمجرمين. أردت أن نركّز أكثر على العلم، والتكنولوجيا، والشركات الصغيرة التي تتعاون لتؤلف جزءاً من سياسة المشاريع والسياسات الكبرى. استنتجت كذلك أن علينا التركيز في مجال الخدمات الاجتماعية بشكلٍ أكثر دقة على ظاهرة العزل الاجتماعي، وعلى خطر انعزال العائلات خارج إطار الاتجاه الاجتماعي السائد. أما بالنسبة إلى اليورو فحافظت على التزامي فكرة التجربة الاقتصادية للتقارب، لكني أردت توضيح الجانب السياسي من هذه الفكرة. أما إذا نجحت فكرة توافق الاقتصادات فسأكون جاهزاً للمخاطرة بكل شيء في استفتاء على الانضمام إلى العملة الموحّدة.

سُررت جداً بهذا البيان، لكن الاستثناء الوحيد كان النقطة المتعلقة بالإصلاح الجامعي، وأقساط التعليم حيث نأيت بنفسي عن تقديم التزام واضح بهذا الخصوص. يعود السبب إلى وجود فروق مهمة بين السياسات المتبعة داخلَ الحزب، ووزارة الخزانة بطبيعة الحال. لكن البيان، إجمالاً، عرض موقف حزب العمال الجديد بكل وضوح.

بدأت الحملة الانتخابية بانطلاقة غريبة، ولم تتخلّص من الغرابة حتى انتهائها. قررنا أن لا نُطلق الحملة بحسب مفهوم «الرجال الذين يرتدون البذلات ويجلسون فوق منصات المؤتمرات» القديم والممل، لكن بحسب مفهوم الرجال الذين يجلسون في المدارس من أجل التشديد على التعليم في المرحلة الثانوية. توجّهت إلى سان

سافيور، ومدرسة كنيسة سان أولاف الإنجليكانية في ساوث وارك في جنوب لندن، والتقيت بعض الطلاب، كما زرت صفاً أو صفين، ثم عقدنا اجتماعاً. رتّل الطلاب بعض التراتيل لأنهم في مدرسة دينية، ثم نهضتُ كي ألقي كلمة. كانت تلك إحدى اللحظات الرائعة، وكنت إزاء واجهة من الزجاج الملوّن، وكنا نصلّي ونغنّي. خاطبت بعد ذلك حشد الطالبات المراهقات، وكن جميعاً دون سن الاقتراع بطبيعة الحال. تحدثت عن عدم إمكانية عودتنا إلى الفترات المتوالية من الازدهار والركود الاقتصاديين التي ميّزت سنوات حكم المحافظين. شعرت بعد أن بدأت بالخطاب برغبةٍ لا تقاوَم في الضحك نظراً لغرابة الموقف، لكني تمكّنت من المتابعة وسط اهتمام الطالبات، ومع شعوري بالحرج. أنهيت الخطاب بأسرع ما أمكنني ذلك، ثم خرجت من المكان.

كان الأمر غير لائقٍ بطبيعة الحال، كما سمعت بعض صيحات الغضب المتعالية. كانت آنجي وكايت رائعتين في تنظيم هذه الأمور، وكانتا متألقتين عموماً. لكن ماكينتنا الانتخابية تمكّنت من التغطية على الأمر. تعاملت المدرسة مع الأمر بطريقة جيدة على الرغم من أن المدير تلقى تأنيباً لأنه سمح بهذا الاجتماع.

وقعنا، جزئياً، ضحايا أسطورتنا التي نسجناها حولنا. افترض الجميع أنها كانت ضربة معلم. حسناً، لا بدّ أنها ضربة معلم، أليس كذلك؟ إننا سلاطين الابتكار، وغير ذلك من التفاهات.

أما المسألة الأهم هنا فهي: لماذا اعتقدنا أن من الضروري إطلاق الحملة الانتخابية بأسلوب جديد؟ يفترض الناس أن السياسيين يبحثون دائماً عن طرقٍ أفضل كي يظهروا، لأنهم يفضّلون مظاهر النصر على جوهره. أما الحقيقة فهي أن السياسيين يستجيبون للظروف ولا يكوّنونها.

أصدقكم القول إن السياسيين يكونون في أسعد حالاتهم عندما يتحدّثون عن سياساتهم. إنهم يحبون التحدث عن هذا الموضوع، وأنا أحبه بدوري. يمكنني التحدث لساعات حول حسنات وسلبيات الإصلاح في قطاعي التعليم والصحة. استمتعت كذلك بتحليل نظام القضاء الجرمي، وبالنقاش الدائر حول الحريات المدنية، وفاعلية القوانين والأنظمة. تدور إحدى الأساطير الكبيرة حول السياسيين

الذين تستضيفهم برامجُ المقابلات السياسية الذين ينبغي لهم تعلّم السياسة، أما الحقيقة فهي أنهم أقرب إلى مهووسي السياسة الذين يجدر بهم أن يتعلموا كيف يصبحون ضيوف برامج المقابلات السياسية.

زاد توجّه وسائل الإعلام لأن تكون أكثر جهوزية للأخبار المثيرة، والفضائح، والتأثير، ولهذا يتعيّن على السياسيين البحث عن وسائل واستراتيجيات جديدة تمكّنهم من إثارة اهتمام الناس بهم. توصّلت خلال حملة انتخابات العام ٢٠٠١ إلى استنتاج مؤسف يوحي أن أقصى ما أستطيع أن آمله هو إقحام سياسة معينة وسط كلام تسويقيٍ مبهرج. لكن لم تسنح لنا فرصة عرض سياسة معينة وسط هذه المعمعة كلها.

عندما تكون الحكومة جديدة وفي أول أشهرها، وما إن تظهر أولى إشارات سياستها التي تتعارض مع سياسة الحكومة السابقة بشكلٍ حاد، حتى يصبح بالإمكان دفع سياستها إلى الواجهة، ويصبح بالإمكان التحدث عنها أمام الناس. يمرّ الوقت ويصبح برنامج الحكومة مألوفاً، حتى ولو كانت السياسات الفعلية جديدة، فإن الاهتمام يتلاشى ليحل محله موقف «سبق لنا أن سمعنا من قبل عن هذا كله».

أريد هنا أن أُنصف وسائل الإعلام إذ كان من الصعب عليها العمل في ظروف لم ينشغل فيها المحافظون بالفعل إلا في المسائل المتعلقة بأوروبا. كان الوضع يبعث على التشاؤم حتى في ظل هذا الواقع، أي كما حصل في المدرسة عندما تعرّضنا للانتقاد بعد محاولتنا عرض السياسة الجديدة، وذلك بحجّة إننا مهتّمون بالتغيير لمجرد التغيير. كنا متأكدين أننا لن نصل إلى أي نتيجة إذا ما أطلقنا الحملة الانتخابية بالطريقة التقليدية.

أظهرت استطلاعات الرأي خلال الحملة الانتخابية تقدّمنا على خصومنا بما يراوح ما بين عشر نقاط وعشرين نقطة مع تذبذب هذه النسبة قليلاً، لذلك حاولنا إطلاق سياستنا برمّتها، لكننا اكتشفنا أن الأمر يُظهر علامات البلاهة الدائمة. كنت في غرفة الفندق الذي أنزل فيه خلال عقد مهرجان انتخابي في كرويدون عندما تلقيت مكالمةً هاتفية من بيل كلينتون. استغربت كيف تمكن الرجل من معرفة مزاجي من على بعد آلاف الأميال.

قال لي: «أردت أن أطمئن إليك عبر الهاتف».

أجبته: «أنا في أحسن حال».

قال لي: «لا، إنني أعرف ما تشعر به». شرح لي بعد ذلك كيف أنه خلال حملته الانتخابية ضد بوب دول في العام ١٩٩٦ كان فوزه مؤكّداً منذ البداية. قال لي إن ذلك أثار جنون وسائل الإعلام، بينما اعتقد الناس أن الأمر لا يعدو كونه ملهاة. أدرك بيل أنني سأكون قلقاً في لحظة كهذه، وخشي أن تثور الجماهير على هذا الوضع.

قلت له: «حسناً، أنت على حقّ، لكن ما هو الحل؟»

قال لي إن الحل يكمن في خوض الحملة وكأنها كسر عظم، وأن تُظهر للناس كم أنت بحاجةٍ إلى هذا الفوز، وكم أنت مستعدّ لخوض معركة النصر، وأن تُظهر كم أنت ممتن لكل صوت ستحصل عليه. «أظهِر كم أنت حريص على الحصول على تفويضٍ منهم بالحكم، وكن أكثر حرصاً على الفوز كلما زادت نقاطك في استطلاعاتِ الرأي».

كانت تلك نصيحةً عظيمةً أخذتُ بها. لم أعد أكترث منذ تلك اللحظة لسوء وضع المحافظين، وهكذا خضتُ المعركة وكأن حياتي تعتمد على كل صوتٍ أناله. لم يغيّر ذلك من مزاج وسائل الإعلام، لكن الله وحده يعلم إذا ما كان لذلك تأثير في نتيجة التصويت، لكن من المؤكّد أنه أعطاني إحساساً بالحيوية، كما أعطى الحزب إحساساً بإلحاح الوضع.

كانت حملة المحافظين سيئةً بالفعل، وحرتُ في أمر وليام هايغ. كان الرجل مناقشاً من الطراز الأول، كما أن له تفكيراً سليماً من الدرجة الأولى. حاز الرجل سماتٍ عظيمة كثيرة فيه ومن حوله. اعتبرت كذلك أنه يمتلك شخصية قائد فذّ. يُمكن للرجل أن يكون، في ظروفٍ أخرى وفي زمنٍ آخر، زعيماً عظيماً، حتى رئيس وزراء.

تساءلت وأنا أصغي إليه ما إذا كان من الممكن للمرء أن يحب الكلمات كثيراً. وصلت قدرته على حسن استخدام الكلمات والفكاهة، إلى حدّ تمكّنه من حبك أوهام وقصص تُظهر ذكاءه، ومن الإسهاب في الحديث عن موضوعٍ معين، والإيجاز في الهدف من حبكِ هذه القصص. أما نتيجة ذلك كله فكانت قلة المرات التي تمكن فيها من إلحاق الهزيمة بخصمه أثناء مناقشاته، وإن تمكن من إحراجه.

كان الرجل عظيماً ولا يمكنني الاستهانة به، لكنه أسّس مع قيادة المحافظين العليا حملته على مسألة أوروبا. اعتمد المحافظون على استطلاعات الرأي الصحيحة، وعلى وسائل الإعلام في اتباع استراتيجية كهذه، لأن هذه الاستطلاعات أظهرت أن سياسة المحافظين مفضّلةٌ لدى الجمهور أكثر من سياستنا. كانت صحافة امبراطورية مردوخ، مايل وتلغراف معادية جداً لفكرة الاتحاد مع أوروبا، ولذلك كانت تساند موقف المحافظين بقوة. أما المشكلة فكانت أن كبار المحافظين من أمثال كين كلارك كانوا ضد استراتيجية كهذه، لذلك برز خطر انقسام الحزب بقوة حول هذه المسألة. إذ بينما يمكن للمرء أن يحتمل فكرة الابتعاد عن أوروبا، إلا أن قسماً من الناس كانوا يريدون تبني موقفٍ يدفع الموضوع إلى أبعد من حدود الاحترام، أي كما هي الحال دائماً مع قضايا كهذه. أعطى موقف القيادة هؤلاء الإذن في الذهاب أبعد من هذا، وهنا أصبح موقف الجمهور من أوروبا أكثر صعوبة للتوقع قياساً على الاستطلاعات. صحيح أن الجمهور يؤيد سياسة المحافظين في هذه المسألة، لكن ذلك لن يؤثّر أبداً في نتيجة الانتخابات. لم تمثّل هذه المسألة أولوية عند الناس، وهكذا أدى تركيز المحافظين عليها إلى إكسابهم صورة غير متوازنة وغريبة، وهي سرعان ما تحولت إلى فكرة شاعت بين الجمهور توحي أنهم ليسوا مستعدّين للحكم. ما إن انتشرت هذه الفكرة حتى حُسمت نتيجة الانتخابات.

اتضح لنا أن أهمّ شيء لدينا هو تجنب ارتكاب غلطة كبيرة. أدركت وسائل الإعلام هذا الأمر بدورها فحاولت التفكير في كيفية دفعنا إلى ارتكاب غلطةٍ كهذه. أنهينا في هذه المرحلة صوغ رسالتنا العملية: فعلنا الكثير، وما زال أمامنا الكثير، وهناك الكثير يُمكن أن نخسره. كان الأمر بمثل هذه السهولة، لأن أحداً لا يمكنه إنكار قوة الاقتصاد، وحقيقة أن الأموال قد بدأت بالتدفق إلى المدارس والمستشفيات (على الرغم من أن التزامنا تقييد الإنفاق لأول سنتين من حكمنا قد قيّدنا قليلاً). كانت تلك ولايتنا الأولى، لذلك كان من المؤكد وجوب إعطائنا الفرصة لإتمام ما بدأناه. تذكّر المحافظون جيداً عبارة «يُمكن أن نخسر الكثير» ورددوها.

أردت، بطبيعة الحال، تنظيم حملة أعظم مستوى تتمكّن من تحريك البلاد إلى ما هو أبعد من خيارات الماضي، وبمعنى ما أبعد من الثاتشرية. كتبتُ في إحدى

المذكّرات أثناء إجراء الانتخابات أوجه الخطأ في الثاتشرية، وذلك بعد أن خصّصت وقتاً طويلاً في طمأنة الناس إلى الأمور التي يجب المحافظة عليها في سياستها.

وقفت السيدة ثاتشر إلى جانب التاريخ تماماً بالنسبة إلى إدراك أن الناس مع ازدياد الثروة يريدون الحصول على إنفاق هذه الثروات كما يشاؤون، ولذلك تراهم لا يريدون دولة قوية تقف في طريق تلك الحرية، وتخنق الناس عن طريق توحيدهم، وعن طريق فرض الكآبة والخمول في دولة الاحتكارات. كان من الواضح أن المنافسة تؤدّي إلى زيادة المعايير، وأن الضرائب العالية هي أمر يثير الإحباط. أما أي شيء آخر فكان يناقض الطبيعة البشرية.

أما النقطة التي أخطأتْ فيها ومشت فيها ضد مسار التاريخ فكان موقفها تجاه أوروبا، ورفضها قبول حقيقة أن غالبية الناس ستظل مضطرة إلى الاعتماد على الخدمات العامة، وعلى سلطة الحكومة من أجل الحصول على الفرص التي يحتاجون إليها. يتعيّن على السلطة أن تتغيّر، كما يجب إصلاح الخدمات العامة، لكن ثاتشر ذهبت بعيداً جداً في اعتبار أن كل شيء في خيارات الفرد يمكن اختصاره. كانت بذلك المعنى من المحافظين التقليديين جداً، لكنها أفرطت في نفاد الصبر، أي مثلما كان والدي، تجاه أي شخص فشل في تحقيق النجاح. نجحت هي، إذاً لماذا لا ينجحون هم؟ يمكننا القول من هذا المنطلق إنها على الرغم من فهمها لأحد جوانب الطبيعة الإنسانية إلا أنها بدت وكأنها تجاهلت جانباً آخر.

كانت نتيجة ذلك كله أنها تبنت رؤيةً لبريطانيا كانت صحيحة وضرورية في أحد جوانبها، أي إعادة اكتساب روح المغامرة والطموح عندنا، لكنها عجزتْ تماماً في جانب آخر عن أخذ المركز المتغيّر لبريطانيا في العالم في الاعتبار، مهما كانت روح المغامرة عندنا، وذلك نتيجة عوامل مثل عدد السكان، والحجم، والجغرافيا، وهي سمحت للناس بالوقوف لوحدهم كي يعبروا إلى بيئةٍ تخلو كثيراً من التعاطف تجاه أولئك الذين كانوا أقل حظاً في هذه الحياة. كانت السيدة ثاتشر غير مكترثة للرأسمال الاجتماعي.

أما أنا فاعتبرت أن دورنا يكمن في دفع بريطانيا قدماً في مرحلة التحديث، وفي إنشاء خدمات اجتماعية، ودولة الرفاه الاجتماعي، التي تجمع بين الاستثمار

والإصلاح كي تجعل هذه الخدمات شخصية، ومتجاوبة، ورائدة، وتستند، فيما يتعلق بجانب الرفاه الاجتماعي، إلى المسؤوليات مثل ما تستند إلى الحقوق والمكتسبات التي أحرزها الناس. لم أمتلك أدنى شك في ذهني في أن غالبية الناس تتفق مع هذا الموقف، حيث يتمكن الناس الذين يتمتعون بعقلانية وحساسية من الالتقاء، وحيث يمكننا تحديد برنامج يعتمد عقيدة السياسة الوسط: الطموح الشخصي مع التعاطف الاجتماعي.

أما بالنسبة إلى مركز بريطانيا في العالم، فبدا لي من الواضح أننا مضطرون إلى استخدام القوة عبر تحالفاتنا. إن لنا أفضل حليفين: أوروبا وأميركا، إذاً ماذا يمنعنا من إبقائهما قويين والاستفادة منهما. حازت هذه النقطة حظاً أقل للانتشار والشعبية، لكن قوتها كانت واضحة. ربما يكون الداعمون لهذه النقطة أقل من حيث العدد، لكنهم كانوا جيّدين من حيث النوعية. أعتقد أن مدراء الشركات قد فهموا هذه النقطة جيداً.

أما المشكلة فهي كما تبيّن لنا أن من المستحيل كلياً تقديم تغطية لهذه الفكرة السامية. قررت إلقاء سلسلة من الأحاديث حول مستقبل بريطانيا، وهو الموضوع الذي يتمحور حوله مختلف أقسام برنامجنا، علاوة على تحفيز المناقشات حول سياساتنا وإعطائها حيوية. كانت الأحاديث شاملة، ومتينة الحجة، هذا إذا كان يُسمح لي قول ذلك عن أحاديثي. كتبت معظم هذه الأحاديث بنفسي، وذلك بمساعدة من ماثيو تايلور، كبير المستشارين الاستراتيجيين، وآندرو أدونيس ودافيد ميليباند. لكن اتضح لنا في غضون أيام من بداية الحملة أنها، بغضّ النظر عن النتيجة، لم تتضمن توصيفاً دقيقاً لخيارات سياسة البلاد المستقبلية!

أما اليوم الذي نشرنا فيه بياننا الرسمي، أي في ١٦ أيار/مايو من العام ٢٠٠١، فقد كان مثالاً هزلياً واضحاً على هذه النقطة. وإذا كان لنا أن نحكم على الانتخابات على أساس نجاح انطلاقتنا في يوم الانتخاب فإن النتيجة الحاسمة أنها ستكون معاكسة، لأنني لا أعتقد بإمكانية حصول حوادث أكثر، أو أخطاء، أو حوادث مؤسفة كالتي حدثت في يوم واحد من الانتخابات.

اخترنا عقد مؤتمر صحفي كبير وجدّي لإطلاق بياننا الانتخابي، كما تقرّر أن

يتقدم الوزراء كي يتحدثوا عن برنامج البرلمان المقبل. قررت إعطاء الأمر أهمية حقيقية عن طريق إظهار تصميمنا على إدخال القطاع الخاص في إدارة الخدمات العامة. بقي هناك ميلٌ كبير لدى كبار السياسيين والمستشارين من أجل اعتبار ذلك جزءاً من خطة – اعتبروها غير ضرورية – من أجل استرضاء وسائل الإعلام اليمينية. شرحت لهؤلاء أنني مقتنع فعلاً بهذه الخطة، وهو ما زاد الأمر سوءاً على ما أعتقد. أعتقد عند استعراضنا لأنظمة الخدمات العامة في الدول الأخرى أن من البديهي ملاحظة نجاح بعض الدروس الجوهرية. تنجح في تلك البلدان أنظمة العناية الصحية التي تعتمد أنظمة مختلطة من القطاعين العام والخاص، أو على الأقل تلك التي تتطلب بعض الالتزام الفردي. أما الأنظمة غير المختلطة فهي إما في الطريق إلى التغيير، وإما إلى الفشل. أعتقد أن من الصحيح القول إن فشل النظام الأميركي [في مجال التقديمات الاجتماعية] يعود إلى أعداد الفقراء الكبيرة، أما بالنسبة إلى الذين شملتهم تلك التقديمات، فإن مستوى العناية ومدى استجابتها (بالإضافة إلى الأمور الأخرى مثل الطعام، والبيئة، والقدرة على تغيير المواعيد وغير ذلك) فقد كان أعلى بكثير من المستوى الموجود عند الخدمات التي تديرها الدولة لوحدها، وإن كان كثيرون تجاهلوا هذه الحقيقة المقلقة. أؤكد أن من الممكن إدماج المساواة بالفاعلية.

كانت المدارس ذات الامتياز الخاص قد بدأت تواً في الولايات المتحدة، كما أن نتائج إصلاح نظام التعليم في السويد قد بدأت بالظهور، وهكذا تجمّع لدينا قدرٌ كبير من الدليل التجريبي من جميع أنحاء العالم التي تفيد عن التغييرات المقترحة، ومن يقترحها، وإلى أي مدى من النجاح.

شكّلت هذه الأفكار كلها كابوساً بالنسبة إلى مصالح جماعات كثيرة كانت مصمّمةً على إبقاء الوضع على ما هو عليه، وعلى إنفاق المزيد من الأموال، لكني أدركت أن أي مراقب عاقل وموضوعي سيرغب في معرفة أننا منفتحون على الأفكار الجديدة بغضّ النظر عن المقتضيات التي تفرضها تقاليد الحزب.

يعني ذلك أن إطلاق الحملة يوم ١٦ أيار/مايو شكّل لحظة أكبر بكثير مما بدت عليه. برزت قضايا مقلقة وراء الكواليس كانت تثار حول مَن تكلم، وبأيّ موضوع، مع ملاحظة استياء الناس من إصراري على الهيمنة على الأحاديث، لكن كل ما أردته هو التأكد أن رغبتنا في الحصول على ولاية ثانية حازمة هي رغبة صريحة وواضحة.

دخل بعض الوزراء، مثل دافيد بلنكيت وباتريشيا هيويت، كلياً هذه الروحية، وهما أدركا، مثلي أنا، أن الولاية الثانية ستكون بلا معنى إلا إذا اقتحمنا ميادين جديدة، الأمر الذي يعني مخاطرات أكثر شمولية.

رغبنا، كعهدنا دائماً، أن تكون الحملة منظمة تنظيماً جيداً، وتحت إدارة سليمة، لذلك أعطينا كل وزير فترة دقيقتين للكلام قبل العودة إلى الكواليس، ولولا ذلك لكان الأمر طال كثيراً. مرّ الحفل من دون أيّ حادثٍ يُذكر، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى ما تبقى من أنشطة ذلك اليوم.

كان من المقرّر أن أزور مستشفى الملكة إليزابيت في بيرمنغهام حيث كنت سأفتتح مركز العناية القلبية الجديد، الذي كان من المنتظر أن يصبح (وقد أصبح اليوم بالفعل) واحداً من أكثر المراكز تقدماً في أوروبا. التقيت في المدخل جيزيلا ستيوارت، وهي من النواب الممتازين في المنطقة. كانت جيزيلا فريدة من حيث كونها ألمانية، وهي تتحدث بلكنة ألمانية ملحوظة بعض الشيء، كما فازت بمقعد نيابي في ميدلاندس، الأمر الذي يُثبت أن الناس هناك ليسوا متعصبين كما يُظنّ. كانت امرأة ذكية تمتلك سمات حزب العمال الجديد. ما إن دخلنا المستشفى حتى تقدّمت مني سيدة تدعى شارون ستورر، وهي التي نالت شهرة بسبب ما فعلته، ثم بدأت بمهاجمتي بسبب المعاملة التي يلقاها زوجها المريض بالسرطان في المستشفى. جرت نقاشات عديدة بطبيعة الحال عما إذا كانت معاملة المريض سيئة أم لا، وذلك مع اعتراض موظفي المستشفى بصوتٍ عالٍ، لكن اعتراضاتهم خبت قليلاً لأن رئيس الوزراء يتعرض لهجوم كلامي من شخصٍ يقول الحقيقة عن الخدمات الصحية العامة ويكشف كم أنها مريعة.

كانت وسائل الإعلام مستاءة كثيراً، بطبيعة الحال، بسبب هذه الحملة الانتخابية التي كانت نتائجها معروفةً سلفاً، وهكذا كانت هذه الحادثة بمثابة المنّ والسلوى اللذين هطلا عليها من السماء. تحولت المرأة إلى نجمة بين ليلة وضحاها، كما ابتهج كثيرون لأن ماكينة حزب العمال البارعة قد صادفت شخصاً حقيقياً. نشرت بعض الصحف، وخصوصاً صحيفة مايل التي تبنتها، أخباراً مفادها أننا لا نلتقي في حملتنا أشخاصاً «حقيقيين»، وأن كل شيء مخطط سلفاً. لكن في الواقع لم يسبق لي أن

عرفت حملة انتخابية غير مخططة سلفاً (أما مسألة تخطيطها جيداً أم لا فهي أمرٌ آخر). كنا نلتقي أشخاصاً كثراً بطبيعة الحال.

لاحظنا أمراً آخر: لا يُعتبر الشخص «حقيقياً» إلا إذا صرخ في وجه رجل سياسة، أو حدث شجار، أو برز الغضب، ويفضّل أن يكون مترافقاً مع بعض القسوة. إن الشجار يُكسب الأخبار الإثارة. أما واقع الأمر فهو أن معظم الناس «الحقيقيين»، أعني «الحقيقيين» حقاً، لا يتصرفون بتلك الطريقة أبداً. إن معظم البريطانيين مهذبون، وهم يصغون إلى الآخرين. ربما لا يوافقونك في الرأي، لكنهم يختلفون معك بطريقة معقولة. يلتقي المرء أشخاصاً كثيرين منهم، لكنهم ليسوا «حقيقيين» لأنهم لا ينفجرون غضباً بسهولة.

برزت في الأجواء ظاهرة في منتهى الأهمية: التركيز على الاحتجاج. دعنا نفترض أن أحد السياسيين حضر اجتماعاً فيه ألف شخص. يسرع أحد الحاضرين إلى الصراخ بشيء ما. ربما يكون الأشخاص الـ ٩٩٩ الآخرون مؤيدين له، أو على الأقل معقولين في معارضتهم، لكن صاحب ذلك الصوت المقاطع الوحيد هو الذي يُقدّم على أنه ممثل الآخرين، غير أنه لا يكون كذلك في معظم الأحيان. يبتعد معظم الناس عن إثارة شجار، وهكذا يمكننا القول إن ذلك المحتج الوحيد هو الشواذ، وليس النموذج.

أتذكر الآن زيارة قمت بها إلى الخليل في فلسطين، وذلك بعد أن تركت منصبي. دخلت الحرم الإبراهيمي حيث قتل باروخ غولدشتاين، المستوطن اليهودي من نيويورك، مصلّين مسلمين في العام ١٩٩٤. سمعت صوتاً واحداً يصرخ نحوي، تبيّن أنه عضو في حزب التحرير، وهي جماعة إسلامية محظورة في عدة بلدانٍ، ولا تعبّر عن وجهة نظر معظم الفلسطينيين. شكّلت هذه الحادثة الخبر الوحيد عن زيارتي. أجرت الصحف مقابلات مع ذلك المحتج، ونوقشت آراؤه وحُلّلت، في حين تم تجاهل الأصوات الأخرى، وهكذا فإن أحداً لا ينظر إلى عمق الأشياء.

إنه تطور أساسي في تقديم التقارير عن السياسة الحديثة، وكلما أدرك الناس هذه الظاهرة بشكلٍ أكبر زادت محاولاتهم لإثارة الشغب. تحولت هذه الظاهرة إلى النموذج المثاليّ الذي تُصاغ الأخبار على شاكلته. يمكنك أن ترمي شيئاً، وأن

تقاطع، وتواجه، وأن تقتحم منصة، ولا تلبث أن تصبح الأبرز في الأخبار. يبدو السياسي مذهولاً أو مهاناً، ولا يمكنه الرد (مع استثناء سوف أتحدث عنه لاحقاً) وهكذا يبرز منتصر واحد. هذا هو السبب الذي يشجع أناساً أكثر فأكثر على القيام به. لا تؤدي هذه الأعمال إلى تعزيز جدالٍ ما، أو تعبر عن وجهة نظرٍ بالضرورة. إن أي حجة تقدّم بحدة هي تصادمٌ في الآراء، وليست تبادلاً للآراء. لا يشكل هذا فرقاً، لأن الأخبار هكذا!

كانت هذه هي الأخبار التي أبرزتها وسائل الإعلام بدلاً من بيان حملتنا. أما أنا فكدت أدخل مركز العناية القلبية، وذلك بعد أن أدركت أن يوم إطلاق الحملة العظيم قد أصبح طيّ النسيان.

كانت الأمور في بداية حماوتها. سمعت بعد تدشين سريع للحملة الأخبار بأن جاك سترو قد تلقى تصفيقاً بارداً وبطيئاً في مؤتمر اتحاد رجّال الشرطة. أخبرني جاك بعد ذلك، للإنصاف، بأنه يتلقى هذه الأمور بهدوء كبير، وبأن الأمر الممتع هو أن رد فعل الحضور بدا بعيداً كل البعد عن فحوى حديثه. قرّر جاك، بما يتمتع به من ذكاء، أن يقدّم حديثاً متشدداً عن القانون والنظام، الذي يُعتبر روتيناً وسط الحملة الانتخابية، لكن الحاضرين لم يتقبلوه. كان يُمكن لجاك أن يضاعف رواتبهم، وعندئذ كانوا سيصفقون له بحماسة. (حسناً، أو كانوا سيتوقفون عن التصفيق).

ربما اعتقد المرء أن البلاد تقوم بثورة على هذه الحكومة، وأنها على وشك الانتخاب بغالبية ساحقة مجدداً. كان جزء من المشكلة التي تبرز عندما تكون المعارضة ضعيفة هو أن الجمهور يشعر، لغرابة الأمر، بأنه بعيد عن العملية الانتخابية. كان ذلك هو شعور عدد كبير من أنصار حزب العمال أيام حكومة ثاتشر، وكان ذلك هو السبب الذي دفع بحزب العمال بعد العام ١٩٩٢ إلى البدء بالتفكير في إصلاح قانون الانتخابات. سبق هذا خسارتنا لأربعة انتخاباتٍ على التوالي. لا بدّ أن سبب ذلك يرجع إلى خللٍ في النظام، أليس كذلك؟ لكن السبب الحقيقي، بطبيعة الحال، هو أن الخلل يكمن فينا نحن. لم يكن إحساسنا بالعزلة، لهذا السبب، مبرراً. لكن الأمر كان أسوأ من ذلك في الواقع، لأنه غير ديمقراطي بشكلٍ كبير. لم يكن يجدر بنا النسيان أننا الجهة الخاسرة، ويتعيّن علينا محاولة العودة إلى الحكم، أو تغيير قواعد اللعبة.

تلقى الحكومة الاشتراكية معاملة تختلف عن الحكومة المحافظة: يعتقد المحافظون أنهم يجب أن يكونوا في الحكم، أما إذا لم يكونوا فلا بد من وجود ظلم يلحق بهم. كانت المحاولات التي تنظمها بعض الجماعات (مثل بعض أعضاء حزب العمال المنظمين) لتنظيم إضرابات عندما كان حزب العمال خارج السلطة، وذلك في محاولة لقلب الوضع بطريقة ديمقراطية، لكن كان يُنظر إلى هذه المحاولات، وعن حق، على أنها خطأ بغضّ النظر عن مدى التعاطف الذي يشعر به الناس تجاه عمال المناجم. لكن عندما تسلّمنا السلطة كان ينظر إلى حركة المعارضة هذه، بانتظام، على أنها احتجاج مبرّر تماماً يقوم به الأشخاص الذين حُرموا من التعبير عن آرائهم بطريقةٍ شرعية.

نشأت لهذا السبب ثغرة غريبة بين الرأي العام، كما تعبّر عنه الاستطلاعات (أو نتائجها في واقع الأمر)، والرأي العام الذي يرزح على ما يبدو تحت ضغوط الحكومة، وهي الجهة التي يجب اتخاذ إجراءات قاسية بحقها نظراً لغياب الخيارات الأخرى، وذلك لأن النظام الديمقراطي لا يعمل، لسببٍ أو لآخر، كما ينبغي. كان ذلك يعني في الفترة الأخيرة التي بقيت لي في منصبي أن أولئك الذين قاموا بتسريب وثائق حكومية، على سبيل المثال، كانوا يُعاملون على أنهم أبطال الشعب بدلاً من أن يُدانوا بسبب إساءة الأمانة.

أُعطيت التفاعلات بين الحاكمين والمحكومين في ذلك الوقت حجماً كبيراً وحيوياً ومؤثّراً تعدّى أقصى طموحات وسائل الإعلام. عقد جون بريسكوت اجتماعاً في إطار الحملة الانتخابية في رايل الواقعة في شمال ويلز. كانت في ذلك الاجتماع مجموعة متنوعة من المحتجين خارج مكان الاجتماع وذلك من أجل الاستهزاء به أثناء دخوله. أقدم أحد الأشخاص وهو يسرّح شعره الطويل وفق ما كان شائعاً في السبعينيات، على رمي بيضة نحوه أثناء دخوله. استدار جون وعاجله بلكمة حادة من يساره. يُمكن للمرء أن يتصوّر ما حدث بعد ذلك. لم يعد بيان إطلاق حملتنا الانتخابية الذي يعرض تفاصيل سياستنا هاماً، حتى ولو هلّلنا له بالرقص. كنت منشغلاً في ذلك الوقت ببرنامج تلفزيوني مع الناخبين. قدّم جوناثان ديمبلبي ذلك البرنامج. أخفى ألاستير عني قبل البرنامج ما حدث مع جون، كما أن البرنامج قد

سُجّل بعد وقوع الحادث وقبل أن ينفتح المجال للتساؤل عنه. صعدت إلى سيارتي بعد ذلك مع شعورٍ بالارتياح، لأنني خرجت من الأستديو بحالة سليمة، وهنا قال ألاستير بسرور: «همم، هناك المزيد من الأخبار. أقدم جون بريسكوت على توجيه لكمةٍ إلى أحد الناخبين».

لم أسمع ما قاله جيداً، فقلت له: «هل أصاب أحدهم جون بسوء؟ هذا مريع!»

قال لي: «كلا، جون هو الذي ضرب أحد الأشخاص».

لا بد أن القارئ قرأ في الكتب تعبير «وتدلى فكّه». حسناً حدث هذا الشيء، معي أنا.

بدأت عند ذلك بفترة من التفكير العميق، والتحليل، والتأمل الذاتي، والتفكير في الماضي، وبعض الهلع مما يجدر بنا عمله. كنت أعرف أن اثنتي عشرة ساعة تفصلنا عن المؤتمر الصحفي الذي سيُعقد في الصباح التالي، وكان علينا تحديد موقفنا في ذلك الوقت. هاجم نائب رئيس الوزراء أحد أفراد الشعب. كان الأمر محيراً وخطيراً حتى ولو كان ذلك الشخص هو من بادره برمي البيضة عليه. كان الأمر، على مستوى آخر، محيّراً وطريفاً في الوقت ذاته.

تمكّن الجانب الهزلي من الفوز في ذلك الوقت، لكني أؤكد للقارئ أن الأمر لم يكن واضحاً في ذلك الوقت. إن كيفية رجحان ذلك الجانب الهزلي تقدم لنا تفسيراً مهماً لأهمية الغريزة في السياسة، وكذلك تعطينا إحساساً بالتناسب، حتى ولو كان كل شيء من حولك يفتقد ذلك التناسب.

أما أنا شخصياً فقد شعرت بأن الأمر مضحك على نحو استثنائي. كان الشعر الطويل مضحكاً، وكذلك كانت اللكمة اليسارية. ينطبق الأمر ذاته على تعابير وجهَي الرجلين. لكن لا بد من أخذ وجهة النظر الأخرى في الاعتبار، الأمر الذي عبّرت عنه بعض الأصوات النسائية بصوتٍ عالٍ: لا يمكنك أن تسمح لنائب رئيس الوزراء أن يفعل هذا. كان أمراً منافياً لاحترام الذات، وكان عرضاً ذكورياً خالصاً. سيشعر الناس بالاشمئزاز، وبالصدمة، وبالخجل، وغير ذلك من أمور.

وقفت نساء الجنوب إلى جانب هذا الموقف بقوة. أخذت آنجي، لدهشتي،

الموقف ذاته، لكني تساءلت لاحقاً عما إذا كان ذلك يرجع إلى أنها ناقشت الأمر مع آدم سميث الذي يعمل في محطة سكاي نيوز (الذي تزوجته لاحقاً)، والذي تبنى موقف الاستياء الشديد من ذلك الحادث. كان حدس آنجي ممتازاً في العادة. لكن موقف سالي، وهي الواثقة بموقفها عادة، كان متردداً. أخذ ألاستير الموقف ذاته، على الرغم من أن ذلك قد يكون بتأثير من فيونا. لكن معظم الناس وموظفي حزب العمال من رجالٍ ونساء وقفوا مع جون بقوة.

قرّرت أن تقديم اعتذارٍ على الأقل قد يكون مناسباً، وذلك لنزع فتيل هذه المشكلة، الأمر الذي يشكل انحناءةً باتجاه الجنوبيين اللطفاء. اتصلت بجون هاتفياً، وبدأت الحديث معه عن أمور لطيفة، وقلت له إنني آسف كثيراً لما حدث، وإن من المريع له أن يُقدم على ما فعل، وإن ذلك لا بد أنه شكّل صدمة بالنسبة إليه. أضفت أن ذلك ليس من المستغرب، في واقع الأمر، بالنظر إلى ظروف الحادث. مرّت نحو خمس دقائق على هذا الحديث قبل أن يقاطعني جون. قال لي: «أعرفك جيداً. أعرف كذلك ما الذي يجول في ذهنك. تريدني أن أعتذر».

بدأت بالقول: «حسناً...»

«آه حسناً. تأكد أنني لن أفعل ذلك. يمكنك أن تنسى الموضوع».

أظهرتُ بعض التصلب بعد ذلك، بل أصررت على موقفي. أبدى جون بعض الليونة، وذلك جرياً على عادته عندما يعرف أني في منتهى الجدية. اتفقنا بعد ذلك على صيغة نصّ معيّن، وهكذا انتهت المكالمة.

توجّهت إلى المنزل، لكني شعرت بالانزعاج. كانت الأخبار هستيرية بطبيعة الحال. تمسّك المحافظون بهذه الحادثة، وبدا الأحرار أكثر تحرراً، أي أكثر ذكاءً. لكني عجزت عن إقناع نفسي تماماً بوجوب إدانة ما حدث.

توجهت إلى المنزل حيث كانت شيري تنتظرني. قلت لها: «يا لفظاعة هذا اليوم! يا إلهي، بماذا كان جون يفكر؟ يقول الناس إن الأمر فظيع». قلت ذلك كي أختبر ردة فعلها. إنها مستشارة الملكة، وتحررية تعيش في لندن.

قالت لي بلهجة استهجان: «أوه لا تكن سخيفاً. ولماذا لا يضربه؟ هاجمه

الشخص الآخر أولاً». أترى أيها القارئ إنها نموذج المرآة الآتية من ليفربول. «حسناً، ماذا كنت فعلتَ أنت لو كنتَ مكانه؟ هل كنتَ ابتسمت، وطلبتَ إليه أن يكرّر فعلته؟ نال الرجل ما يستحقه. إن جون رجلٌ فعلاً».

اتصلت هاتفياً بجون بيرتون. أخذ هو وبقية الرجال موقفاً مماثلاً بالضبط. قال لي جون: «أعتقد أن الأمر رائع». قدّرت كثيراً رأي جون هذا، وذلك لأنني أعرف قادةً دوليين ممن يمتلكون حكمة أقل من حكمته هو. يُضاف إلى ذلك أنه أخبرني بأن النساء في الشمال يتخذن الموقف ذاته. قال لي كذلك إن الأخبار عندما وصلت إلى نادي حزب العمال في تريمدون أخذ الحاضرون بالهتاف لما فعله جون بريسكوت بذلك الرجل.

حُسم الأمر في النهاية على هذا النحو، لكن بقيت مسألة كيفية معالجتها في المؤتمر الصحفي، أي عندما تكون وسائل الإعلام جاهزةً لاستغلال الحادثة. توصّلت أخيراً إلى الموقف الأساسي: لن نقدّم أي اعتذار، ولن تحدث استقالات. عبّر بعض أفراد الفريق عن قلقهم، لكنني استعدت سيطرتي على الموقف. أما كيفية التعبير عن موقفي الأساسي هذا فكانت أشدّ صعوبة. لكن المشكلة هي أن المرء لا يستطيع أن يدافع عن قيام نائب رئيس الوزراء بضرب أحد الناخبين. قرّرنا، على الرغم من ذلك كله، عدم إدانة الحادثة.

جلسنا في الغرفة حائرين قليلاً، وكنا نحضّر للمؤتمر الصحفي. كان دافيد بلنكيت موجوداً، لكنه وقف بقوة إلى جانب مدرسة جون بيرتون الفكرية. مرّت الدقائق، وبالمناسبة تحولت الحادثة إلى خبرٍ عالمي، لذلك رحنا نبحث عن الصيغ المحتملة لطريقة معالجة الأمر.

قلت أخيراً قبل حلول موعد المؤتمر بنحو دقيقة من الزمن: «الحقيقة هي أن جون هو جون بالفعل. لا نستطيع قول المزيد». كان ذلك هو النهج الذي يتبعه إيريك كانتونا: قل شيئاً غامضاً بحيث يتناوله الناس بطريقة مرتبكة. هذا هو السبب الذي دفعني إلى قول ما قلته.

قالوا لي: «ماذا تعني بكلمة «جون هو جون»؟»

هززت كتفي على نحو مقصود: «أعني أن جون هو جون».

تلاشت تلك الفضيحة الكبيرة بهذه الطريقة. بدأت نظرية شيري/ جون بيرتون بالانتشار في هذا الوقت. أُعجب الناس، وعلى الأقل كثيرون منهم، بهذه النظرية. يا لروعة أن يتحول السياسي إلى إنسان. أحاط الناخبون بي بمن فيهم نسوة مسنّات كثيرات في سيدجفيلد على نحو منتظم، وراحوا يرددون ملاحظة شيري أمامي. قالوا لي: «حسناً، ماذا كنت لتفعل أنت لو كنت مكانه؟ نعتقد أنك كنتَ ستمتنع عن ضربه، أليس كذلك يا رجل؟» أعتقد أنهم لم يقولوا ذلك على سبيل المديح.

انتهت عملية إطلاق حملتنا الانتخابية ـ وهي التي بدأت ببيانٍ مفعم بوصفات سياسات جدّية تصلح لمستقبل البلاد ـ بشعرٍ طويل، وبيضة، ولكمةٍ تمكنت من إغراق سياسات الحزب في لجة بحر السياسة.

تعوّد جون بريسكوت تقديم كل ما هو فريد إلى حزب العمال والحكومة. يُمكن للرجل أن يكون مثيراً للجنون، ويُمكن له أن يكون خطراً، وحتى سخيفاً، وكذلك يُمكن أن يكون عظيماً. لكن لا يُمكن للمرء أبداً أن ينعته بالرجل الممل، أو بالهادئ، أو بالروتيني، أو بالرجل الذي يسهل نسيانه.

وصفه نيل كينوك ذات مرة أنه الشخص الذي يظنّ أن الآخرين ينتقصون قدره، وهي ملاحظة صحيحة، خصوصاً وأنه يحتفظ بقدرٍ من التوازن، أما نيل فإن بإمكانه أن يكون أكثر إثارة للمشاكل.

ماذا قدّم جون للحزب؟ قدّم الكثير في واقع الأمر. عندما توفّي جون سميث وثارت قضية مَن سيكون نائب الرئيس، وذلك بعد تبيّن أنني سوف أفوز بالرئاسة، كانت الترجيحات تميل إلى مارغريت بيكيت. كانت مارغريت جزءاً من الفريق الاقتصادي في الفترة التي سبقت العام ١٩٩٢. كانت امرأة قديرة ويُعتمد عليها من دون شك، لكن لا يمكنني وصف جون على هذه الشاكلة، لكنه قدّم لنا الموثوقية، وميلاً نحو الجناح التقليدي للحزب، وعلى الخصوص داخل الحركة النقابية، كما أنه امتلك شيئاً آخر قدّرته كثيراً: إنها ميزةٌ ثابتة فيه، وهي أنه يُمكن للمرء أن يعتمد عليه. لا يعني ذلك بالضرورة أنه يُمكن الاعتماد عليه بالنسبة إلى بنود السياسة المحدّدة، أو على نحو أكثر عمومية فيما يتعلق بسياسة حزب العمال الجديد، لكن فيما يتعلق

بمثال صيد النمور فقد أبدى حماسةً شديدةً، لكن أيمكن للمرء أن يخاطر بدخول الغابة مع هذا الشخص؟ لم أكن واثقاً جداً بمارغريت إلى هذه الدرجة. أُعجبت بها واحترمتها، لكن إذا ما اشتدّت الأمور فإنني لم أكن متأكداً أنها مستعدّة للمواجهة والدفاع عني، إلا أنني أعتقد، في المقابل أنني مستعد للمواجهة والدفاع. لم يسبق لي أن حدّدت موقفاً بالنسبة إلى موضوع نيابة الرئاسة. أعرف أن عدداً من أصدقائي قد منحوا أصواتهم إلى مارغريت، لكن عدم زيارتي لها قد بعث بإشارة تفيد أنني أفضّل جون، الذي اختاره الحزب على أي حال. كان أعضاء الحزب يريدون المزج بين الين واليانغ، أي إذا كنت أنا الين فمن المؤكد أنه يانغ كلياً.

إن الفرق بيننا شاسعٌ جداً، فأنا درست في مدرسة خاصة، ودرست المحاماة في أكسفورد، أما هو فكان مضيفاً في إحدى البواخر، وناشطاً في الحركة النقابية، كما أنه كان فخوراً بجذوره التي تعود إلى الطبقة العاملة. كان الرجل واحداً من أروع الشخصيات التي التقيتها وقد تمكن من الوصول إلى مناصب عالية. أما هذه الأيام فإن جون لن يكون هو جون نفسه بطبيعة الحال. إنه يشبه دينيس سكينر كثيراً. يُعتبر دينيس رجلاً رائعاً بالفعل، ويمتلك عقلاً من الدرجة الأولى، وذكاءً شديداً، وحدساً عظيماً فيما يتعلق بالناس. نشأ الرجل وسط نظام تعليمي أدى إلى فشل عددٍ كبير من الأشخاص الأذكياء جداً، بصورة منتظمة، أو تخلفوا بسبب وجود ثغرات في النظام المتبع، وآراء الأهالي والمجتمعات الضيقة. لكن هؤلاء أصبحوا، ولحسن الحظ، مجموعة آخذة بالأفول. فشل جون في النجاح في امتحانات نهاية المرحلة الابتدائية، ولا بد أن ذلك قد أثّر فيه تأثيراً حمله معه فيما بعد. كان ذكياً جداً بطبيعته ويحب بجدّ كبير ومذهل. هذا هو سبب اعتقادي أن من غير المفيد تأسيس النظام الدراسي على نتائج اختبار في عمرٍ كهذا.

ولّت تلك الأيام على أي حال، واستعدّ جون لتولي وظيفة في مجال الصناعة أو في القطاع الخاص كمدير، ولربما ما كان ليقترب أبداً من النقابات. شكّل الرجل بدلاً من ذلك حلقةً رئيسة مع جزءٍ من جذور حزب العمال التي بدأت بالتقلص، لكنه تمكّن مع ذلك من التوغل في أماكن بعيدة في الغابة السياسية.

تمكّن جون، وعلى الرغم من فشله في امتحانات نهاية المرحلة الابتدائية من

الانتساب إلى كلية روسكين في أكسفورد (وهكذا كانت الحال مع دينيس سكينر)، وكان مهتماً بالأمور الفكرية وأكثر اقتداراً مما يُظهر. أعجبت كذلك بهذا الشطر الأخير من شخصيته. كان يبدأ من موقع العدائية المتأصل فيه كي يصل إلى أي سياسة من سياسات حزب العمال الجديد، لكنه كان مستعداً للإصغاء إذا ما نوقشت المسألة على النحو الصحيح. كان مستعداً للاقتناع إذا ما رأى فائدة ما في الاقتراح المطروح. لا يعني ذلك أنه كان يساير دائماً لأنه لم يكن يفعل هذا في الغالب، لكن من الإنصاف القول إن بعض المحيطين به وجدوا فيه عبئاً لأنه كان يناصر وجهة نظر المعارضة فيما يتعلق بالسعي نحو الإصلاح.

ساءت علاقته كثيراً مع غوردون في نهاية الأمر. ساند غوردون مارغريت بقوة، ووضع ماكينته الانتخابية للعمل لمصلحتها. يعني ذلك أن علاقته مع غوردون لم تكن جيدة منذ البدء، لكني تمكنت مع الوقت من حثّ غوردون على تحسين علاقته مع جون. كنت أقول له: «لا تقلّل من تقدير ذلك الرجل، ولا تجعله عدوك إذا كنت ترغب في أن تكون رئيساً للحزب. إنه لا يتمكن من جعل أحدهم رئيساً، لكنه يستطيع منع ذلك الشخص من أن يصبح كذلك».

عمل غوردون بنصيحتي، وأعتقد أنه عمل بها أكثر من اللزوم. لا أريد القول إن جون لم يكن مخلصاً شخصياً، لأنه لم يكن كذلك، لكن غوردون تمكّن من تثبيت موقعه على أساس الإصلاح بطريقة جعلها أكثر قبولاً من قِبَل جون، وهو الأمر الذي أخلّ بتوازن القوى المحيطة بي.

اقتنع جون بفكرة تبادل رئاسة الحزب بيني وبين غوردون، واعتبر أن غوردون يقف إلى يساري قليلاً، لكنه ليس أقلّ جاذبيةً لذلك السبب (ولربما يجعله ذلك أكثر جاذبية). اقتنع الرجل لهذا السبب بفكرة أن تغيير القيادة هو أمرٌ منصف وصائب، وذلك لأن غوردون هو، ببساطة، نسخة مختلفة قليلاً عن حزب العمال الجديد. دعم جون على الخصوص الرأي القائل إن الخدمات العامة والخدمات الاجتماعية قد ذهبتا بعيداً في إصلاحات «السوق»، بينما رأيت أنا أن الإصلاحات لم تسِر بعيداً بما يكفي.

برزت نتيجتان من هذا الوضع: إدخال مزودي الخدمات الصحية الجدد نظام

الخدمات الاجتماعية، لكن ضمن شروط أكثر صرامة. لم أتمكن في هذا المجال من الاعتماد على دعم نائب رئيس الحكومة، ولا حتى وزير المالية. اقترب جون في النهاية من الاقتناع، لكنه أسهب في الحديث عن فشل نظام المدارس الحكومية الشاملة [مختلف المستويات من القدرات] التقليدي في هال، وهي منطقته الانتخابية. كان الأمر شاقاً واستغرق ساعات عديدة مضنية من الاجتماعات، والمناقشات، والجدالات.

أما النتيجة الثانية فهي أن جون في النهاية، أي في الفترة ما بين العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، أعرب عن حماسته لفكرة مغادرتي منصبي. يعود ذلك من جانب إلى مشاكله الخاصة مع وسائل الإعلام التي وقفت ضده بشراسة، ومن جانب آخر لأنه لم يعتقد أن تبادلي وغوردون المنصب سيؤثّر في الناخبين في شيء. قرّرت في ذلك الوقت أن عليّ الرحيل على أيّ حال، لكنه لم يكن واثقاً بصدقيتي في هذه المسألة بحيث أشاطر الناس الفكرة السائدة بأن أحداً لا يتخلى عن ١٠ داوننغ طوعاً. أخبرني أنه في ربيع العام ٢٠٠٧ سيستقيل من منصب نائب رئيس الحكومة إذا لم أرحل. لم يكن يقصد أن يكون ذلك مظهراً من مظاهر عدم الولاء، لكني، لسخرية الأمر، لم يكن هذا رأيي. كان كل ما في الأمر أنه اعتقد، وبصدق، أن من مصلحة الحزب أن يصبح غوردون رئيساً.

أريد أن أشدّد هنا على أنني احتجت إلى دعمه في مراتٍ كثيرة طوال سنوات، كما أنه قدّم لي هذه المساعدة بجرأة عظيمة. كان يدرك أن دوره، إلى حدّ ما، هو كبح سياسات حزب العمال الجديد. وكان يعرف، لكل هذا أن مصداقيته تعتمد على قدرته على استخراج التغييرات مني. أدرك كذلك أنه كان يضحّي في كل مرة يقف فيها معي بشيء من تلك المصداقية، لكنه كان يقف معي على الرغم من ذلك.

أما بالنسبة إلى البند الرابع فقد انتقل من موقع الشك إلى موقع المناصرة الإيجابية، لأنه في النهاية كان مقتنعاً بأن الأمر محق. ما إن يقتنع جون بأحد بنود التغيير حتى يصبح من أشدّ مناصري هذا التغيير. رأيته بعد ١١ أيلول/سبتمبر، وفي الواقع في أي لحظة من لحظات أزمات السياسة الخارجية، وهو يقف إلى جانبي مئة بالمئة، ويعطيني دعماً حاسماً في لحظات كان أي خبر عن الشقاق بيننا أمراً مدمراً.

أريد أن أقول، في حصيلة الأمر، وبالنظر إلى الضغوط الرهيبة والتوترات التي تحدث في العلاقات بين القيادات العليا للحزب، إنني كنت محظوظاً لكونه عمل نائباً لي.

أما بالنسبة إلى أدائه كوزير فإنه يجنح في بعض الأوقات إلى الحماسة الشديدة بشأن سلطة الحكومة، وكان يتدخل بسرعةٍ كبيرة، كما يُدخل قدراً كبيراً من البيروقراطية في كعكة السياسة، لكن يُمكنه، في الوقت ذاته، أن يكون مبتكراً وخيالياً. أعاد جون صناعة الشحن إلى المملكة المتحدة عن طريق إقناع وزير الخزانة [المالية] بتغيير قواعد وضع الأعلام لسفن الدول الأخرى. قاد جون المفاوضات في كيوتو، وساعد المملكة المتحدة على أن تصبح الدولة الوحيدة في العالم التي تطبق الأهداف التي وضعتها معاهدة كيوتو، كما لعب دوراً حيوياً في شؤون الإسكان، وترأس لجنة وضع سياسات الإسكان، وذلك من أجل تسريع مقترحات الورقة البيضاء التي تهدف إلى تحسين نظام التخطيط فيه. تمكنت الحكومة في السنوات التي تولى فيها منصبه من تأمين منازل لمليوني مواطن إضافي. مثّل جون المملكة المتحدة دولياً، وترأس اللجنة الموقّتة للعلاقات مع الصين، وكان رائداً في عقد عدد كبير من الاتفاقيات بين وزاراتنا ووزارات الدول الأخرى المتعلقة بالتجارة والاستثمار، وبمجالات أخرى. أما الموظفون الحكوميون الذين كانوا يعملون تحت إدارته فقد تعودوا طريقته في الحكم، وسرعان ما لاحظوا ما تحت ذلك السطح الخشن، وأحبوه لذلك واحترموه.

أما عيوبه فقد كانت على الطرف المحبب الآخر من ذلك الطيف، على الرغم من أن بعض النسوة اللواتي أعرفهن كن سيختلفن معي في هذا التقييم. كان جون من الطراز القديم، ولا يحسن التعامل مع سيدات الطبقة الوسطى، وعلى الرغم من سلامة موقفه من مسألة حقوق الشاذين، وهي السياسة التي استمدّها من الرأس أكثر من القلب، هذا إن كان القارئ يعرف ما أقصده. كان يشعر بالذعر التام عندما يكون أمام شبان أذكياء ومفكرين ومهذّبين. كانت حاله مع هؤلاء مثل حال الخنزير الذي يفتش عن الكمأ. استطاع جون أن يلاحظ وجود الغرور، والتعالي، والصلف على بعد ألف خطوة، وما إن يلاحظ وجودها حتى يندفع نحوها بحيوية تثير الدهشة. تعود جون استفزاز عدد كبير من المستشارين الشبان الذين تعوّدوا بيئة المناقشات الجامعية

المعمقة، والتبادل الهادئ للآراء، من مكامنهم ويقطّع آراءهم إرباً إرباً، وهو يفعل ذلك كله بحماسة شديدة. أما الأمر الذي كان يثير قلقهم أكثر فهو عدم معرفتهم ما فعلوه كي يتسببوا بردة فعله هذه.

أعترف بأنني كنت أستمتع بهذه المناقشات كلها، ولئن لم يكن يجدر بي فعل هذا. أتذكر أن جون منذ أواخر الثمانينيات، ومنذ أن بدأ نجمي بالسطوع، وحصلت على ترقية بتعييني وزير ظل، كان هكذا معي أنا. كنت أنا وبيتر بالنسبة إليه ما سمّاه «مجموعة الوسيمين»، وكانت تلك إهانة كبيرة تمثّل أقصى ما يمكنه إلحاقه بنا.

أفترض أن ما جعلنا قادرين، وعلى الأقل بالنسبة إليّ، على احتمال هذا، حتى قبوله، هو أن هذا الوصف كان شفافاً جداً. يُمكن لجون أن يكون مراوغاً جداً، لكن القول إنه يعبّر عن مشاعره بصراحة هو استهانة كبيرة به، لأنه كان يضع خريطة الجسد فوق الطاولة. كان يجلس في اجتماعات مجلس الوزراء مثل بركان يستعدّ للتفجّر في أي لحظة. أما السبب المباشر لهذا التفجر فعادة ما كان التدخل النسائي. كانت باتريشيا هيويت هي التي تتكفل بتحريكه. كانت وزيرةً جيدةً في الواقع، وكان أداؤها ممتازاً في وزارة الصحة، كما تمكنت من أخذ قراراتٍ صعبة بالفعل، وبتصميم عميق، أما في اجتماعات مجلس الوزراء فكانت تتبنى وجهة نظر النساء. كان جون يدلي بملاحظة قاسية عندما يكون بمزاج معتكر. كنت أعيدها إلى الاجتماع من أجل الاستمتاع برؤيته وهو ينفجر ثانيةً. أما هي فكانت تُظهره بطريقة تخلو من الحساسية: «والآن يا جون، كانت تلك التي أبرزتها تواً نقطة جيدة جداً. إن من الممتع دائماً الإصغاء إليك».

كان جون يجعلني أضحك بعمق، بحيث كان الوضع يماثل عبارة «وكيف تحلّ مشكلة مثل ماريا؟» التي ترد في فيلم صوت الموسيقى، وذلك على الرغم من أن التشابه بين جون بريسكوت وجولي آندروز يتوقف عند ذلك الحدّ. كان الضحك عليه، أو معه، ممتعاً على السواء، كما كنت أخبره على الدوام أن مواجهاته مع اللغة الإنكليزية هي جزء من جاذبيته، لكنه كان يقلق بشأنها إلى حدّ الشعور بالحرج بسببها. أما عندما يصل الأمر إلى المثول في جلسات استجواب الحكومة فكان يسيطر عليه رعبٌ حقيقي. كان التهديد بعقد اجتماع في الخارج يوم الأربعاء هو الطريقة الوحيدة التي أتقنها لترويعه، وعندئذ كان يرتجف رعباً بسبب المواجهة

القادمة، لكنه كان ينهض ويستعدّ لها بحماسة أحبّها مجلس النواب. أما المشكلة الحقيقية التي كانت تحدث فهي عندما يلتقي مسؤولين أجانب. كان الأمر يتطلب وجود مترجمين، وهم الذين كانوا يجدون صعوبة كبيرة في فهم حديثه، وذلك إلى حدّ اضطرار هؤلاء المترجمين إلى استشارة الأطباء بعد اجتماعات كهذه.

كان يعرفني حقّ المعرفة، وكان يعرف على الخصوص المرات التي كنت أحاول فيها الإيقاع به ليقول شيئاً ما، أو مراوغته، أو عندما كنت أتراجع قليلاً بقصد إعادة التقدم ثانية. كان حسّاساً جداً بالنسبة إلى عدم أخذ مواقفه بالجدية الكافية. كان يأتي مندفعاً ومتحمّساً لحضور اجتماع بكل حيوية. طوّرتُ طريقةً بمرور الأيام حول كيفية التعاطي مع مواقف كهذه: من الأفضل أن ندعه يتكلم من دون مقاطعة أو رد، أي أمن الأفضل استيعاب الموقف وترك الغضب يتلاشى بصورةٍ طبيعية.

ربما تكون أكثر سمة مقلقة لديه هي عادته في البدء بحديث من الوسط، أي من دون أن يضع للمشكلة المطروحة مقدمة، أو سياقاً، أو تفسيراً. أتذكر إحدى المرات عندما بدا لي أن من الضروري إدخال الليبراليين الديمقراطيين في الحكومة. تحدثت الصحف كثيراً عن هذا الموضوع. ارتعب جون بريسكوت كثيراً من ذلك، وقد مرت بضعة أيام حظي فيها هذا الموضوع بتغطية كبيرة من الصحف، على الرغم من أنني نسيت الموضوع، لكن جون بقي يفكر فيه.

كنت أعمل في مكتب اجتماعات الحكومة، وكان ذهني مشغولاً ببعض المسائل السياسية. دخل جون مندفعاً كعادته. بدأ بالقول: «أين هو مينزي هذا؟» لم تكن تلك بداية جيدة. بدأ بعد ذلك بالتفتيش تحت طاولة الاجتماعات. «هيا، قل لي أين هو؟» لم أمتلك أدنى فكرة عما يتحدث. راح جون يجول في الغرفة. بدأت بعد ذلك بفهم ما يجري: كان مينزي هو الاسم المناسب لعضوٍ بارزٍ من الليبراليين الديمقراطيين نعرفه جميعاً باسم مينغ كامبل. كان جون يفكّر في التقارير الصحفية التي تحدثت عن إدخال الليبراليين الديمقراطيين إلى الحكومة، ولسبب ما اعتقد أن أحدهم هو مينغ، من دون أن يعرف أنه يدعى مينغ، أو لربما اعتقد أن «مينغ» هو لقب حمله من إحدى المدارس الخاصة، ولذلك كان يشك أنه هو الشخص الذي انضمّ إلى الحكومة، ولذلك أراد أن يضع حداً للأمر.

بدأت بالاحتجاج، لكن عبثاً، بأن مينغ لن ينضمّ إلى الحكومة، كما أنه لا يختبئ تحت طاولة اجتماعات الحكومة. مرّت عدة دقائق تبادلنا فيها حديثاً عادياً واستعد جون للمغادرة. ما إن وصل إلى الباب حتى استدار نحوي وقال: «إذاً، هل تعدني بأنه لن ينضمّ إلى الحكومة؟»

قلت له: «نعم».

أجابني: «حسناً، ليكن بعلمك أنني لن أقبل الأمر».

كان جون متشككاً جداً في الطبقة الأرستقراطية بطبيعة الحال، وكذلك بالعائلة المالكة، لكنه كان يعاملهما، مع ذلك، بكل احترام ولياقة. أما هما فقد كانا يشعران ببعض التوتر وبعض الاندهاش إزاءه. كان جون يتراسل بصورةٍ منتظمة هو والأمير تشارلز حول بعض القضايا، وكان جون يشغل بعض المسؤوليات التي تتعلق بأمورٍ ريفية، لكن بعض الغموض كان يحيط بعلاقتهما. كان جون معارضاً كبيراً للصيد، ولم تكن هناك من طريقة تغيّر وجهة نظره بأي حالٍ من الأحوال.

ذهبت للقاء الأمير تشارلز بعد وقتٍ قصير من اجتماعهما الأول. قال لي: «اجتمعت حديثاً مع السيد بريسكوت».

قلت: «آه، وكيف سار الاجتماع؟»

أجاب الأمير تشارلز بلهجة تحمل شيئاً من القلق: «كان الاجتماع مرضياً، ما عدا...»

قلت كي أحثّه على متابعة كلامه ومتوقعاً سماع أمرٍ هام: «نعم؟»

قال لي بعد أن تلفت حوله كي يتأكد أن أحداً لا يزعجنا: «حسناً، هل فعل ذلك الشيء معك أنت ذات مرة؟»

قلت له: «أي شيء تقصد؟»

قال لي: «حسناً، عندما يجلس قبالتك، هل يمدّ رجليه ويباعد بينهما بحيث يكون وسطه يشير نحوك بشكلٍ تهديدي، ثم يضع فنجان الشاي وصحنه على بطنه.

هذا أمر غريبٌ جداً، ولم يسبق لي أن رأيت شخصاً يفعل هذا. ماذا تعتقد أنه يقصد بذلك؟»

قلت له: «لا أعتقد أن الأمر يعني أي شيء في الواقع».

قال لي: «همم. ألا تعتقد أن ذلك إشارة ما على العدائية، أو على عدائية تجاه طبقة معينة، أو أي شيء من هذا القبيل؟»

قلت له: «كلا. إنه يفعل ذلك أمامي كثيراً».

أجابني، مع أنه بدا غير مقتنع بكلامي: «أجل، لكن...»

قاطعته بالقول: «أتعني أنه يريد الإيحاء بشيء ضدكم، أي الطبقة الراقية، وضدي أنا، أي الطبقة الوسطى، بشيء يتعلق بالطبقة العاملة؟»

قال لي: «حسناً، ربما يكون الأمر كذلك».

قلت له: «لا. أعتقد أنه يحب أن يشرب كوب الشاي بتلك الطريقة».

قال لي مندهشاً ومن دون كثير اقتناع: «نعم، لعلك على حقّ، لكن لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا».

هذا هو جون على حقيقته. إنه إنسان فريدٌ في نوعه، وهو الذي كان يثير لي المتاعب في بعض الأحيان، لكنه كان سنداً لي غالباً. كان أصيلاً لا يتزلف، وبعد التحليل النهائي صادقاً. لا يمكنني أن أقول شيئاً أفضل من ذلك في مهنتي.

كان علينا أن نمضي بالأمر في اليوم الذي تلا كلمة جون فتوجّهت إلى مانشستر. كان علينا القيام بسلسلة الجولات المعتادة كي نلتقط الصور التقليدية: لم تكن هذه الزيارات قليلة جداً بحيث توفر نوعاً من التنوع، ولم تكن كثيرة جداً بحيث تشكل مخاطرات إضافية لا لزوم لها.

بعد الأحداث التي رافقت إعلان بياننا السياسي، لم يكن من المدهش أن نرغب في استعادة سيطرتنا على الوضع، بل كان ذلك محبطاً. كانت المشكلة هي في الإيقاع. أرادت وسائل الإعلام حدثاً ما، والحدث كان تلك الهفوة. أردنا التركيز على الوثائق والسياسات، والتركيز على اعتقادنا أننا أقوياء، وأن المحافظين

ضعفاء. كانت المشكلة في عدم التقاء الحملتين مطلقاً، إذ كانتا تسيران في خطّين متوازيين.

كنت أتصل هاتفياً مع بيتر مندلسون كي أبقيه على اطلاع على مجريات الحملة، ولكي أحصل على نصيحته. كان بيتر يواجه في هارتلبول، وهو أظهر بذلك صلابته وثباته في هذا المجال. اعتبرت أن من الأفضل له أن ينسحب، لكنه كان مصمّماً على عدم الانسحاب، وكان على حقٍ في ذلك. أما إذا كانوا يريدون سحبه، فهو لم يكن مستعداً للقيام بذلك من دون مواجهة. تساءلت في وقتٍ لاحق عن الفرق الذي يفصل بيننا. أعتقد أنه فرق شاسع جداً ما بين السعي إلى الاحتفاظ بمنصب رئيس وزراء، والسعي للاحتفاظ بمقعدٍ نيابي.

كنت في تلك المرحلة، أي في شهر حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١، واضحاً جداً مع ذاتي: كنت مستعداً لمواجهة الانتخابات الثالثة، لكنني كنت أقلّ وضوحاً بالنسبة إلى دوافعي. كنت أميل في ذلك الوقت إلى الاعتقاد أن ذلك يرجع إلى قدرتي على الانسحاب، كما أنني لم أكن مهووساً جداً كي أظل رئيساً للوزراء، وعلى الخصوص بوجود منطقتي، بالإضافة إلى مهمة أخرى لي تتعلق بالدِّين. لكن تولد عندي شك في أن ذلك يرجع جزئياً إلى الجبن، وجزئياً إلى رغبتي في التحرر من الأعباء، ومن الألم الذي يترافق مع مسؤوليات الحكم وأثقاله التي تصل أحياناً إلى حدّ يصعب احتماله. هل أرغب في ترك المنصب لأسبابٍ غير أنانية، أم لأسبابٍ هي في حقيقتها أنانية تماماً؟ وهل كنت أمازح نفسي في رغبتي في الاحتفاظ بالسلطة؟ وهل كنت أمازح نفسي بشأن ترك منصبي؟ أم هل كنت خائفاً من تمديد بقائي في المنصب وتقديم خدماتي، أم على الأصح كنت خائفاً من المرارة والضغينة اللتين تترافقان مع معركة البقاء؟

كان يُمكن لبيتر مندلسون اختيار الطريق الأسهل بعد استقالته الثانية. كان بإمكانه الدخول مباشرة في مجلس اللوردات مع احتفاظه في الوقت نفسه بمنصبه كمفوضٍ للاتحاد الأوروبي. لكنه اختار الثبات في موقعه، وذلك كي يثبت أنه لا يمتلك شيئاً يدعو إلى الخجل، وأن منتقديه الذين كانوا يميلون إلى التركيز على أنه بغيض، سيكتشفون كم كانوا على خطأ، وذلك انطلاقاً من منطقته.

كانت الانتخابات صعبة بالنسبة إليه، ونصحته بالبقاء بعيداً عن الأضواء في البلاد، وذلك كي يتمكن من التركيز على القضايا المحلية، وأن يكافح من أجل حق هارتلبول في انتخاب نوابها، وأن لا تسمح لوسائل الإعلام تقرير هذه المسألة عنها. عمل بنصيحتي بكل ثقة، وهو فعل ذلك بمهارةٍ سياسية وبطريقةٍ عملية. وقفت وسائل الإعلام اللندنية موقف المضايقة بتغطيتها، وكانت سلبية على الدوام، كما كانت متهكّمة ومزعجة، وبطبيعة الحال سخرت وسائل الإعلام هذه من فكرة قدرة بيتر على التماشي مع «أفراد الطبقة العاملة في هارتلبول الشمالية». أغرقت أفكار شائعة كهذه في البساطة على نحو يثير السخرية، لكن سكان هارتلبول الذين يتمتعون بالحساسية قرروا أن بيتر قد فعل ما في وسعه من أجل وضع منطقتهم على الخريطة، لذلك قدّموا له الدعم على الرغم من كونه من خارج المنطقة. تقلصت في النهاية الأغلبية التي كان يتمتع بها قليلاً. لكن مشكلة بيتر، وبمعنى ما، قد انعكست على المشكلة الأوسع التي تعانيها الحملة.

تمكنا، بطبيعة الحال من تشديد قبضتنا على الوضع، كما حدثت أمور كثيرة واختفت. شارك معنا عدد كبير من المشاهير. أضفى هذا الأمر بعض المتعة على الحملة. ضمت لائحة مناصرينا أسماء مثل أليكس فيرغسون، وبعض أفراد كورونايشين ستريت، وريتشارد ويلسون، ومايكل كاشمان، وذلك بالإضافة إلى نجوم East-Enders من أمثال كولينز. سررت كثيراً عندما ظهر السير جون ميلز بيننا وقدّمني في المهرجانات. بقي الرجل بصحة جيدة على الرغم من بلوغه التسعين من العمر، وبقي بلياقة بدنية جيدة، وكان ثاقب النظر، وواضحاً جداً في كلامه. لم يكن من حزب العمال بطبيعته، لكنه كان مناصراً لي.

أما شارلوت تشرش فقد غنّت لنا في أحد المهرجانات، وكذلك فعلت ليزلي غاريت، لكن ميك هاكنال كان قوياً في دعمه لنا.

لست متأكداً حتى هذه الأيام من مدى تأثير المشاهير في المهرجانات. إنني لا أُغفل تأثير هذا الحضور كما يفعل بعض الناس. أعتقد أن عند محاولتنا إثارة الحماسة لدى الناس، وهو الأمر الذي ينطبق أكثر على حزبٍ تقدمي، فإنه بإمكان المشاهير تعزيز غاية الحزب حتى تقويتها كثيراً. إنهم يضيفون بعض الفتنة والحماسة على ما يمكن أن يكون حدثاً كئيباً. أما ما لا يمكنهم عمله، بطبيعة الحال، فهو تقديمهم

كبدائل عن السياسيين. أما إذا حاولوا ذلك، فإنهم سرعان ما يفقدون إنتاجيتهم على الفور. لكنهم إذا بدأوا بإلقاء المحاضرات على الناس حول سبب انتخابهم، أو كيفية انتخابهم فإن الأمر يتحول إلى كارثة تقريباً. يشعر الجمهور عندئذ بأنهم يتخطون حدودهم ويريدون الحلول مكان السياسيين الذين يؤيدونهم. لا يستطيع المشاهير تقرير نتيجة الانتخابات، لكنهم يقدمون فائدة كبيرة إذا أُحسن استخدامهم. كنا نحتاج، وبكل صراحة، إلى هذه المساعدة نظراً إلى الصعوبات التي لاقيناها في إطلاق الحملة.

تنقلت كثيراً بين الدوائر المتذبذبة: دارتفورت، غرايفسيند، باسيلدون، لوبورو، وايماوث، وفوريست أوف دينز، وذلك سعياً مني للحصول على مقاعد لم نتمكن من الفوز بها على مدى عقود وقد أردنا الاستحواذ عليها. أردنا كذلك تأكيد وجودنا في المناطق العمالية الصرف في المدن الداخلية، وفي المقاطعات الشمالية، وكذلك في الأحياء الصناعية. فعلنا ذلك كله من أجل مواجهة الحجة القائلة إننا مع اكتسابنا الناخبين الجدد، فسنفقد اهتمامنا، بطريقةٍ ما، بمناطقنا التقليدية. تحولت المؤتمرات الصحفية إلى اجتماعات، ما لبثت أن تحولت بدورها إلى احتفالات، وإلى مهرجاناتٍ بعد ذلك. توالت المقابلات بعد ذلك، لكن الإحباط بدأ يخيّم عليّ، وكذلك القلق.

سارت الحملة بشكلٍ رائع على مستوى معيّن، وأظهرت استطلاعات الرأي تقدمنا الواضح. أما بالنسبة إليّ لكمة بريسكوت فقد مضينا بنجاح، ولربما بسببها. وعلى الرغم من الحملات التي استهدفتنا، وبعضها كان حملات مسعورة، إلا أنها لم تؤثر في شيء في ذلك المشهد المريح والرزين الذي سيقودنا إلى إحراز النصر. بدا واضحاً أن المحافظين لا يمتلكون وصفة سحرية تمكنهم من تحقيق اختراق، وهكذا بدأوا بالتفرق يمنة ويسرة. بدأ جناحهم اليميني بقول أشياء سخيفة، أي مثلما فعل وزير الظل للصحة عندهم، وليام فوكس، وهو رجل ذكي بالفعل، عندما تخلى عن حذره، وقال: «إننا لا نسمع من حزب العمال الفقر، والفقر، والفقر، وغير ذلك. إن ذلك هو أمر ممل بالنسبة إلى المحافظين». إنه تصريح يحمل شيئاً من الحقيقة في طياته، لكنه يفتقد الحكمة. أما أوليفر لوتون الذي كان في ذلك الوقت وزير ظل للخزانة فقد تعدى المحاذير كلها عندما قال إن المحافظين يريدون تخفيض الإنفاق بمبلغ يصل إلى ٢٠ مليار جنيه استرليني.

هذا وجهٌ من أوجه السخافة في السياسة الحديثة. إذا تعدت المبالغ المالية رقماً معيناً تفقد معناها تماماً بالنسبة إلى شطر كبير من الناس. إن عبارة «سوف ننفق ٥٠٠,٠٠٠ جنيه في إنشاء مراحيض جديدة في المدارس» تبدو كبيرة على مستوى معين. لكن إذا قلنا مليار جنيه، فإن الرقم يبدو ضخماً جداً، بينما يبدو مبلغ ٢٠ مليار جنيه مبلغاً خيالياً لا يستطيع كثيرون تخيّله، وهكذا يضيع عندهم كل إحساسٍ بالنسبية. تقترب معظم توقعات وزارة المالية للناتج القومي المحلي، أو للمداخيل، من هذا الرقم، وهكذا لا يهتمّ بها أحد، لكنها إذا وُضعت في العناوين الرئيسة للصحف تصبح ثورية. حيّرني كثيراً إقدام المحافظين على التفكير في تحديد الأمور التي يخططون لها، إذ كان من الواضح جداً (وهكذا كان الحال على الدوام، وهو الأمر الذي يجعل من الحمق إقدام المعارضة على دخول هذه اللعبة) أن هذه الأرقام قابلة للتعديل في حال انتخاب حكومة جديدة.

تشير تصريحات كهذه إلى الفطرة، وإلى الاتجاه، وإلى النية المبيتة. أما بالنسبة إلى حزب المحافظين الذي استُبعد عن السلطة لأنه قلّل من الاستثمارات في الخدمات العامة، فكانت تلك خطوة حمقاء لا يرتكبها إلا الأذكياء جداً. أقدم حزب العمال على الهجوم إثر ذلك، فكانت النتيجة أن السيد لوتون، السيئ الحظ، أمضى الأيام التالية مختفياً عن الأنظار. لم يكن المحافظون واثقين بأنهم جديرون بتأييد التصريح أو شرحه، أو التخلي عنه، لذلك أقدموا على هذه الأمور الثلاثة على التوالي. أعطتني هذه الحادثة شيئاً أستند إليه، كما شغلت وسائل الإعلام لبضعة أيام على الأقل، وهكذا حصلنا على فترة استراحة. استدعى التصريح ظهور انتقادات أخرى من داخل حزب المحافظين. أما المعارضون للاتحاد الأوروبي فقد مضوا في معارضتهم لهذا التصريح، لكن المناصرين له وقفوا معه. أما وجهة نظر الجمهور فكانت كالآتي: إنهم ليسوا جاهزين للحكم، أليس كذلك؟

أحسستُ، حتى في غمرة استغلالي لفرصة إلحاق الهزيمة بحزب المحافظين مجدّداً وإبقائهم في الحضيض، بقرب نهايتي السياسية. عرفت أن الحملة كانت ناجحة، وكذلك وقفت وسائل الإعلام إلى جانبنا، كما أن صحيفة ذي تايمز قد دعمتنا للمرة الأولى، لكنني تأملت في ما تحت السطح بالفعل، فشعرت بإحساسٍ

عميق بالعزلة. أما صحف اليسار مثل الغارديان، فقد كانت تحثّ الناخبين على إعادة انتخابنا، لكنها فعلتْ ذلك على أساس خشيتها من المحافظين، كما حذّرت الحكومة، وأنا شخصياً، بأن أي إصلاح للخدمات الاجتماعية سوف يلقى معارضة قوية. أما صحيفة ميرور فقد حذت حذوها، لكن صحف اليمين مثل صن ونيوز أوف ذي ورلد فقد تبنّت موقف أننا نستفيد من فائدة الشك، لكنها كانت متحمّسةً في موقفها ضد أوروبا، وضد فكرة أننا لم نسر بالإصلاح إلى الحد الضروري.

أما النقطة المهمة هنا فهي هذه: لم يقتنع أحد بأفكارنا كافة، ما عدا الشعب بطبيعة الحال، وقد اقتنع قسم كبير منه. كان هؤلاء من المؤمنين بحزب العمال الجديد، لكن عددهم أكبر مما ظننا. كان هؤلاء هم الذين ضمنوا لنا الفوز في انتخابات العام ٢٠٠٥، أي إنهم كانوا «بيضة القبان»، وكانوا الدم الجديد في نهجنا السياسي: الإبقاء على نسب الضرائب الشخصية كما هي (أو حتى تخفيضها) لكن مع زيادة الاستثمار، واتباع سياسة تشجيع الشركات، والوقوف مع الإنصاف في أماكن العمل (بعيداً عن النقابات)، والإصلاح الذي يترافق مع الإنفاق على الخدمات العامة، واتباع نهج متشدد بالنسبة إلى المسؤولية في تطبيق القانون والنظام والخدمات العامة، والوقوف بقوة مع الولايات المتحدة، ولعب دورٍ في أوروبا. كانوا يعرفون أن السيدة ثاتشر كانت على حقّ في إبقاء بريطانيا في حالةٍ تنافسية، لكنهم أرادوا، في المقابل، مجتمعاً متعاطفاً. كان هؤلاء متحرّرين بشأن الحياة الخاصة للناس، ومتشدّدين إزاء الجريمة، كما لم يكن لديهم أي مشكلة بشأن بريطانيا الحديثة التي أرادوها، لكنهم كرهوا مواقف إنكلترا الصغرى ولم يثقوا بها.

حاز حزب العمال الجديد كتلةً انتخابيةً كبيرة، لكن ذلك لم ينعكس في وسائل الإعلام، كما أن هذه الكتلة كانت لا تزال جديدةً ضمن حزب العمال. كان حولي في القيادة أشخاص أظهروا قدراً قليلاً من الحماسة لسبب أو لآخر. أما الذين ساندوا هذا النهج من أمثال جون ريد، ودافيد بلنكيت، وتيسا جويل، وتشارلز كلارك، وآلان ميلبورن، وهيلاري آرمسترونغ، وجون هوتون، فقد كانوا في طريق صعودهم، لكن كان عليهم قطع شوطٍ أكبر. أما الأشخاص من أمثال بيتر فقد تعرّضوا لهجمةٍ شديدة. أما إذا تذكرنا واقع الحال في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠١، فإننا نلاحظ أن أحداً

من أنصار التحديث لم يكن يشغل أي منصبٍ مهم، مثل نائب رئيس الوزراء، ووزير المالية، ووزير الخارجية، ووزير الداخلية.

تحولت في هذا الوقت إلى التشدّد أكثر للتغيير الحاسم. كنت واضحاً جداً بأننا نمتلك حجّةً قوية وصحيحة في هذه المجالات كافة، وبإمكانها أن تكتسح البلاد. أما الصعوبة فكانت هذه: لم أتمكن من جعل هذه الحجّة مسموعة. لا أعني أنني لم أقدّم هذه الحجة، لأنني فعلت ذلك بصوتٍ عالٍ وواضح، لكن لم يتم الإصغاء إليه. لم تلق هذه الحجة صدىً كافياً بين خطباء حزب العمال الآخرين، كما أنها لاقت صدى ضئيلاً بين وسائل الإعلام. كانت نتيجة ذلك أن حملة انتخابية وولاية ثانية يعنيان أشياء مختلفة لأشخاص مختلفين. أما أنا فكنت واثقاً جداً بأن البيان الانتخابي وفوزنا بولاية ثانية كانا شيئاً واحداً بالنسبة إلى حزب العمال الجديد، لكن غياب النقاشات الجدية بشأن سياسة الحزب كان يؤشّر إلى عدم جدوى الوضع على هذه الحال. أما لو سألنا الناس العاديين عن هذا الأمر لأتت أجوبتهم على النحو الآتي: لقد أبليتم بلاءً حسناً، لكن لم يحن الوقت بعد للأمور الأخرى، تابعوا هكذا. كانت تلك انتخابات خضناها ببساطة، بينما كنت أحاول خوضها بلمسة شاعرية.

لكن ما الفرق في زمنٍ معين وعلى مستوى معين؟ أحرزنا الفوز، على نحو رائع، لكن هذا الفوز أعطى دفعاً لبروز إرباكٍ خطير داخل صفوف الحزب الذي كان قسم منه يؤمن بأن حزب العمال الجديد ليس هو سبب هذا الفوز في الحقيقة، بل كان الاقتصاد المتعاطف مع المجتمع، وبعض الأموال الإضافية، والأوضاع الصعبة التي يمرّ بها حزب المحافظين. كنت متأكداً جداً أن حزب العمال الجديد هو الطريق الوحيد إلى النصر، وأن موقفنا الوسطي الحازم والجوهري سيبقى وينجح، حتى بدون التركيز على الحسم في سياساتنا. لكن ذلك لم يكن واضحاً بالنسبة إلى الحزب، أو إلى وسائل الإعلام.

كان عدد المشاركين في التصويت منخفضاً، كما انتشرت إشاعة أن المنتصر الحقيقي كان عدم الاكتراث. تعرّضنا لتلميحات هامسة بهذا الشأن. كانت نسبة الناخبين تعتمد، بطبيعة الحال، على ما ستسفر عنه الانتخابات من نتيجة. أما نسبة الناخبين في العام ١٩٩٢ فكانت أعلى مما هي عليه في العام ١٩٩٧، أما نسبتهم في

العام ٢٠٠٥ فكانت أعلى من نسبتهم في العام ٢٠٠١. يعني ذلك أنها دليل لا يُعتمد عليه بالنسبة إلى مشاعر الناس تجاه الحكومة.

شارفت الحملة نهايتها، وعملت بجدّ على الرغم من أن الدلائل تشير إلى أننا سوف نفوز إلا أن قدراً ضئيلاً من القلق سيطر عليّ حيال ذلك الفوز، وهو ما جعلني أدرك أن طريق الإصلاح في الولاية الثانية سوف يكون وعراً في الواقع.

كانت حالي في ليلة الانتخابات على عكس ما كانت عليه في العام ١٩٩٧ أي عندما كان الجميع مبتهجين ما عداي أنا. ابتهجت قليلاً هذه المرة، بينما شعر الآخرون بشيءٍ من القلق. كان ثاني أكبر فوزٍ يحققه حزب في تاريخ بريطانيا السياسي. كان تحقيقنا لفوزين ساحقين متواليين أمراً مثيراً. (اتصل بي جورج بوش ليقول: «كيف تمكّنت من تحقيق هذا يا رجل؟»». اتضح لنا مع ورود النتائج أن فوزنا سوف يكون ساحقاً، وهكذا سمحت لنفسي هذه المرة ببعض الشراب، وبعض الاحتفال بالمناسبة. كان عليّ في الوقت ذاته اتخاذ بعض القرارات.

تعلّق أحد القرارات بالأمور الداخلية لمكتبي. أصرّت آنجي على ترك منصبها لأن جون براون، رئيس بريتيش بتروليوم عرض عليها وظيفة في الشركة. اعتبرت أن تركها منصبها المحوري في قلب ١٠ داوننغ هو عمل جنوني، حتى ولو فعلت ذلك من أجل العمل في شركة بحجم بريتيش بتروليوم، ومن أجل شخص يمتلك سمعة جون ومواهبه. صعُب عليّ، في حقيقة الأمر، أن أصدّق ما فعلته، لذلك أمضيت وقتاً لا بأس به في محاولة مني لإقناعها بتغيير رأيها، وذلك قبل الانتخابات وأثناءها.

اقتنعت في نهاية الأمر ووافقت على البقاء، لكن ذلك كان غلطةً بالنسبة إليها. ندمت بعد ذلك على تغيير رأيها، وهكذا تركت منصبها في نهاية تلك السنة، وإن لم تفعل ذلك قبل أن ترافقني أثناء مواجهتي لتحديات ١١ أيلول/سبتمبر.

كان تركها لمنصبها مؤلماً جداً بالنسبة إليّ. كانت آنجي إحدى أقدم صديقاتي، وكنت أثق بها كلياً. إن وظيفة رئيس الوزراء هي وظيفة تترافق مع الشعور بالوحدة، وبالنظر إلى أن عزلتي السياسية كانت حادةً لأسباب سبق لي أن أتيت على ذكرها، لذلك فإن وجود شخص مثلها يتمتع بكل ثقتي هو أمرٌ يُعتبر نعمةً من الله. تمكنت

آنجي من تصبح عاملةً بارزة، وكانت جذّابة، وحيوية، وتنشر أجواء السعادة والرضا بينما تخفي وراءها صلابة شديدة وقدرة على الالتزام. كانت صوتاً صلباً لإنكلترا الوسطى، كما لم تتقيد بأفكار عقائدية متحجرة، وكانت الهدوء مجسداً في أوقات الأزمات.

تعلمت درساً مهماً: لا تحاول إبقاء شخصٍ قرّر التفكير في الرحيل، أو يريد الرحيل.

أعطيت آنجي منصباً جديداً مع صلاحيات في صباح يوم ٨ حزيران/يونيو، وكذلك نقلت سالي إلى مجلس اللوردات، وجعلتها وزيرة. تقبلت سالي منصبها الجديد بكل امتنان وهي التي استفادت كثيراً من تجربتها هذه، وهكذا عندما تولت مسؤولية الشؤون الحكومية والعلاقات السياسية بعد أشهر قليلة تحولت إلى مديرة سياسية استثنائية، وقدمت أعمالاً لا تقدر بثمن خلال ولايتنا الثانية. لم يطل الأمر حتى افتقدتها كثيراً، وشعرت أنني أحتاج كذلك إلى مهاراتها التي تتناغم مع مهارات الحزب أكثر من آنجي.

أدركتُ أن قدراً كبيراً من الإصلاحات يجب أن ينطلق من ١٠ داوننغ وعبرها، وأن علينا تقوية الحكومة في المركز كثيراً، ولذلك أجريت تغييرات مهمة. إنها سمة تميز السياسة الحديثة، وإذ لا يتحقق شيء إلا إذا تم دفعه من القمة. لكن ما إن تتحدد هيكليات العمل حتى تعرف مختلف الوزارات اتجاهها، والأمور التي يتعيّن عليها القيام بها، لكن الأمر يصبح مشكوكاً فيه إلا إذا أقدم الوزراء المعنيّون على تبني رؤية الحكومة بالتغييرات، وحتى في هذه الحالة فإنهم يحتاجون إلى سلطة مركز الحكومة كي تساندهم.

وصل نفاد صبري مع المدى الذي وصلت إليه الإصلاحات والطموحات من ورائها إلى أقصاه. كنت مصمّماً على تحقيق هذه الإصلاحات مهما كلّف الأمر. أردت أن أكون قادراً على حلّ المسائل العويصة لتفاصيل سياسات الحكومة، الأمر الذي أضاف عمقاً إلى المسار العام للتغيير. أردت أن أعرف مسار التغيير، وكيفية إدخاله إلى الإدارات. أدركت كذلك أن تعقيدات قضايا السياسة الخارجية تستدعي إيجاد نظام خدمة مختلف تماماً. تكاثرت مؤتمرات القمة، وهذا يعني أن

مجال قرارات السياسة الخارجية وعواقبها قد فرض على الرؤساء، وليس على وزراء الخارجية، تولي أدوار أكبر في نهاية الأمر.

لم يلقَ هذا الوضع ترحيباً من التقليديين، كما جرت أحاديث كثيرة عن حصر المسؤوليات الحكومية بأيدٍ قليلة، وأراد بعضهم الترؤس، وسعى بعضهم الآخر برغبة مغرورة حتى مهووسة لحيازة السلطة. كان ذلك ضرباً من الحماقة بطبيعة الحال. لكن الواقع هو أن المرء لا يستطيع القيام بمهمةٍ معينة إلا مع وجود إجراءات وآليات واضحة تسمح بتنفيذ البرنامج. كانت تنتظرنا قضايا كثيرة في السياسة الخارجية في عالم أصبح أكثر تداخلاً، الأمر الذي أكسب قرارات السياسة الخارجية والمتعددة الأطراف أهمّيةً متزايدة. أما في مجال السياسة المحلية فإن تغيير أنظمة الخدمات العامة كان يعني الاهتمام بتفاصيل أداء الإدارة بطريقة أكثر دقة بكثير. اقتربت أدوار رؤساء الوزراء كثيراً من أدوار مجالس الإدارة، أو رؤساء الشركات الكبيرة. يتعيّن على رؤساء الحكومات وضع توجّه لسياسة الدولة، وكذلك التأكد من تطبيقها، كما ينبغي لهم الحصول على معطيات، ووضع حساب للعواقب.

جرت أحاديث فارغة كثيرة حول الأهداف، ولعلها مبالغ فيها، في القطاع العام. كانت بعض الانتقادات مبرّرة. وكانت الأهداف عديدة جداً، وكثيراً ما كانت الأهداف تتعارض، وهو أمرٌ يستدعي العجز في بعض الأحيان، كما أن تطبيقها في أحيان أخرى يكون صارماً جداً. يعني ذلك أنها كلها كانت ذات قيمة.

تعودت أن أقول للوزراء والموظفين الحكوميين إذا كان ذلك صحيحاً فيمكنهم أن يختصروها إلى الأمور الضرورية، وحلّ المشاكل كافة، ثم وضع تصور معقول لكيفية تحقيق هذه الأهداف. لكن لا يمكن للمرء أن يتصوّر، حتى للحظة واحدة، أنه يمكنه في مجالات الحياة الأخرى إنفاق هذه المبالغ الكبيرة من المال من دون توقّع نتيجة ملموسة. كانت لدينا معطيات كثيرة، لكني كنت أعرف أن التركيز على النتائج سيتزايد مع زيادة المبالغ التي ننفقها وذلك أمرٌ صائب.

أقدمنا على تأسيس وحدة التنفيذ Delivery Unit برئاسة مايكل باربر، الذي كان مستشار دافيد بلنكيت في وزارة الثقافة. كانت فكرة وحدة التنفيذ من بنات أفكار مايكل. كانت الفكرة ابتكاراً لقي مقاومةً شديدةً في البداية، لكن تبيّن لنا أنها فكرة

لا تقدّر بثمن، وبرهنت أنها تستأهل الوقت المخصّص لها مرة بعد أخرى. كانت تلك وحدة صغيرة نسبياً ويعمل فيها موظفون حكوميون، بالإضافة إلى أشخاص آخرين كانوا يعملون في ماكينزي، وباين، وشركات أخرى من القطاع الخاص، وكانت مهمتها تتبع مسار تحقيق أولويات الحكومة. كانت اللجنة تركز، مثل اللايزر، على قضية ما، وتضع خطةً لحل المشكلة التي تعانيها هذه القضية مع الوزارة المختصة، ومتابعة مسائل الأداء والإدارة إلى أن تصل إلى الحل. كانت اللجنة تحصل على معطيات من الدرجة الأولى يمكنها أن تستخدمها من أجل تقييم سير العمل، الأمر الذي كنت أتابعه شخصياً مع الوزير، ومع كبار موظفيهم وكذلك مع الموظفين الذين يعملون معي. كانت الوحدة تقدم تقرير التقدّم، وتقترح المصادقة على أي إجراء ضروري.

أقدمنا على تقليص أعداد طلبات اللجوء السياسي غير المبرّرة بهذه الطريقة، كما تحسّنت مستويات معرفة القراءة والكتابة والحساب في المدارس، كما طبقنا هذه القواعد على قوائم الانتظار في دائرة الخدمات الصحية، وعلى جرائم الشوارع ومجموعة أخرى من الأمور. كانت تلك الوحدة أشبه ما يكون بشركة خاصة مستقلة، أو مؤسسة اجتماعية تعمل في قلب الحكومة. كانت الوحدة تسلّط الأضواء على مجالات جديدة تحتاج إلى إصلاح، وذلك إذ تبيّن لنا أن التحديات كانت منهجية، وتحتاج إلى تغيير شامل في طريقة عمل الخدمات الاجتماعية، وذلك بدلاً من الاكتفاء بإعلانٍ يوحى به من الإدارة المركزية أو البيروقراطية.

أنشأنا كذلك وحدة الاستراتيجية التي يكون من مهامها النظر بعيداً في طريقة تطور السياسة، وكذلك في التحديات الجديدة والأفكار الجديدة الكفيلة بمعالجة هذه التحديات. كانت هذه الوحدة ناجحة جداً بدورها. سمحت لنا هذه الوحدة بالحصول على نظرة متوسّطة المدى، أو حتى بعيدة المدى إلى قضايا محددة طارئة قد لا تكون ضاغطة. كانت وحدة السياسات تعالج المسائل اليومية، وتركّز على إدارة الوزارات من أجل التوصل إلى سياسات معينة وتطبيقها، وذلك بحسب روح البيان الانتخابي، أو بحسب خطط الوزارات، في حين أن وحدة الاستراتيجية كانت تحاول صوغ برنامج يناسب السياسة التالية. كانت مهمّات الوحدتين تتطابق بطبيعة الحال، لكن في مجالاتٍ مثل التقاعد، وخدمات العمل، والصحّة العامة والتعليم

العالي، كانت وحدة الاستراتيجية منشغلةً على الدوام في إدخال القضايا في البرنامج [روزنامة العمل]، وهي القضايا التي قد لا تكون مهمة اليوم، لكنها قد تشكل أزمات في المستقبل إذا لم يتم الاستعداد لمواجهتها.

يُضاف إلى ذلك أنني عمدتُ إلى تقوية فريق السياسة الخارجية. ألّفنا وحدة من أربعة أو خمسة أشخاص يكون أحدهم مسؤولاً رفيعاً عن أوروبا، وآخر يكون مسؤولاً عما تبقى من السياسات الخارجية، أما الباقون فللمساعدة، وذلك بدلاً من وجود شخص واحد مسكين يغطي مسائل السياسة الخارجية كافة لرئيس الوزراء، الأمر الذي يعني العمل أربع عشرة ساعة في اليوم الواحد. تمكّنت هذه الوحدة من تقديم مساعدة كبيرة إلى داوننغ ستريت في تحمل العبء المتزايد من تحديات السياسة الخارجية.

أردت الوصول أكثر إلى آليات الحكومة، وكنت متحمّساً بالفعل بشأن السلوك الجرمي، والجرائم الصغيرة وبالمعاناة التي تُنزلها بالناس. آمنتُ كذلك بأننا بحاجة إلى نهج جديد كلياً بشأن الجريمة المنظمة. أثبت هذا المجال أنه مثير للإحباط بصورة كُلية. وضعت خطة من أجل إعادة تنظيم طريقة عمل النظام القضائي الجرمي برمّتها: تقليص الجريمة والخوف من الجريمة وتكاليفها الاجتماعية والاقتصادية، وتسريع عملية النظر في القضايا من خلال النظام، وفرض العدالة بإنصاف وفاعلية، وترويج الثقة بحكم القانون، وبالنظام.

أما القرار الذي لم أتخذه فهو نقل غوردون. يعتقد بعض الناس عندما يرجعون بذاكرتهم إلى تلك الأيام أنها كانت اللحظة المناسبة سياسياً لنقله، وأنها كانت فرصةً ضاعت مني بالفعل. إنني، في المقابل، لا أتفق مع هذا الرأي. كان غوردون من الوزراء البارزين، وكان شخصيةً كبيرة، وشخصيةً بارزة بكل المقاييس. تمتع غوردون بدعم قويّ من وسائل الإعلام والحزب. أما لو نقلته في ذلك الوقت لكان ذلك اعتُبر دلالةً على نية سيئة من جانبي، وكان سيسجّل من ضمن سلبياتي، أو كان سيُعتبر خطوة تنمّ عن الشعور بالغيرة، أو أنها نابعة من مصلحة شخصية، بدلاً من أن تكون خالية من هذه المصلحة. أتساءل الآن عن الشخص الذي كان من الممكن أن أضعه مكانه؟ لم يكن بوسع أحد غير روبين كوك، أو جاك سترو، أن يشغل منصبه. لا

أعتقد، في واقع الأمر، أن أياً منهما كان سيقوم بعملٍ يماثل ما يقوم به، ولربما يكون الرجلان أكثر استعداداً للتعاون، لكنهما لا يماثلانه في الصلابة. بقيت لهذا السبب مشكلة غوردون، التي تجمع بين الرائع والمستحيل.

أعتقد أنه ظن أنني سوف أنقله من منصبه، لهذا بادر عندما حاولت أن أقول له إن الولاية الثانية يجب أن تكون مختلفةً عن ولايتنا الأولى، ولذا أريد منك أن تتعاون، إلى القول إنه يعرف أنني أنوي التخلّص منه. هكذا، أدت محاولتي إعادة التوازن إلى السفينة إلى إفقادها ذلك التوازن.

تمكّنت من نقل روبين من منصبه كوزير للخارجية وأحللت جاك سترو مكانه. أبلى روبين بلاءً حسناً في عمله، لكن فترة أربع سنوات على وجوده في الوزارة كانت تُعتبر فترةً طويلة. لم تكن هذه الخطوة موفقة سياسياً بالضرورة، وهكذا أصبح منذ ذلك الوقت يشكّل خطراً محتملاً. عانيت المشكلة ذاتها مع جاك في العام ٢٠٠٥. لكن المشكلة كانت في عدم استعداد أيّ كان لترك منصبه في وزارة الخارجية. سبق لي أن قلت إن ذلك المنصب بالذات، ومن بين المناصب كافة، كان بالنسبة إلى من يشغله وكأنه ملكه إلى النهاية، أو على الأقل حتى نهاية عمر الحكومة، وهما يعتقدان أنهما قاما بوظيفتهما خير قيام، ولذلك ألا يجب إعلاء هذه المسألة فوق متاهات السياسات الحزبية؟

كان النواب الذين ينتمون إلى حزب العمال في حالة عدائية أثناء انعقاد المؤتمر الأول لنواب الحزب. صعُب عليّ تصديق هذا الأمر بعد أن أحرزنا ثاني أكبر انتصارٍ ساحقٍ لنا على التوالي، إذاً ماذا بقي لهم من مجالٍ للشكوى؟ ظهر أخيراً إلى السطح التوتر الذي شعرت به خلال الحملة الانتخابية: ظنوا أنهم فازوا على أساسٍ معيّن، بينما اعتقدت أنا أننا فزنا على أساسٍ آخر.

تغيّر العالم قبل أن يُتاح لأيّ منا وقتٌ كبير كي يشكو من الآخر، وذلك في فترة تقل عن الأسابيع التسعة التي مضت على فوزنا، كما تغيّر معه مصير زعامتي السياسية، هذا بالإضافة إلى أمور أخرى أكثر أهمية.

الفصل الثاني عشر

١١/ ٩: «جنباً إلى جنب»

يدهشني سرعة استيعاب الصدمة، ورجوع الإيقاع الطبيعي إلى الروح البشري بالسرعة ذاتها. تحدث الكوارث على الدوام، وتترنح الحواس إزاء ما يدور من حولها. تتمكن مخيلتنا، في لحظة ينطبق عليها ذلك التعريف الأمثل، من التقاط الأهمية الكاملة للحدث. لا تتلاشى من ذاكرتنا الذكرى ذاتها بمرور الزمن، لكن ضوءها الملتمع يخبو ويفقد قوته، وينصرف انتباهنا إلى أمورٍ أخرى. إننا نستمر في تذكر الحدث، لكن ليس كما شعرنا به في لحظة حدوثه. يُستبدل بعد ذلك التأثير العاطفي بمشاعر تبدو أكثر عقلانية لأنها أكثر هدوءاً، لكنها، للمفارقة، يُمكن أن تكون أقل عقلانية، وذلك لأن ذلك الهدوء لم يكن نتيجة تحليلٍ مختلف، بل نتيجة مرور الوقت.

هكذا كان يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. قُتل في ذلك اليوم، وفي غضون أقل من ساعتين، نحو ٣,٠٠٠ شخص في أسوأ هجوم إرهابي عرفه العالم. قُتل معظم الضحايا في الهجوم على البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمي اللذين يزيّنان أفق سماء نيويورك. كان البرجان مكان عملٍ لقوة عاملة متنوعة مثلما هي الحال في أي مكانٍ آخر في العالم، وهي تنتمي إلى جميع الدول، والأجناس، والأديان. لم يكن مركز التجارة العالمي رمزاً للقوة الأميركية فقط، بل صرحاً يمثل بكل وضوح ظاهرةَ العولمة الحديثة.

قتل الانفجار الذي نتج عن صدم الطائرتين للبرجين مئات من الأشخاص على الفور، لكن معظم الضحايا ماتوا نتيجة جحيم الحرائق الذي تبعه، ونتيجة المجزرة التي نتجت عن انهيار المبنيين. قفز عدد من الضحايا من المبنيين بعد أن حاصرتهم النيران وسط شعورهم بالرعب والهلع، أو لربما لأنهم فضلوا الموت هكذا على أن يبقوا وسط النار. كان عدد من الذين لقوا حتفهم من عمال الإنقاذ الذين بقيت بطولاتهم في ذلك اليوم، وعن حق، شهادةً خالدةً على التضحية البعيدة عن الأنانية.

لم يكن البرجان التوأمان الهدفَ الوحيدَ في ذلك اليوم. أُجبرت رحلة أمريكان آيرلاينز الرقم ٧٧ على التوجه إلى البنتاغون، التي كان على متنها أربعة وستون راكباً في طريقهم من واشنطن إلى سان فرنسيسكو. قُتل ما مجموعه ١٨٩ شخصاً. أما رحلة يونايتد آيرلاينز الرقم ٩٣، التي كانت متجهة من نيويورك إلى سان فرنسيسكو وتقلّ على متنها أربعة وأربعين راكباً، فقد تعرضت للخطف، وربما كان هدفها البيت الأبيض. سقطت هذه الطائرة في مقاطعة سومرست، بنسلفانيا. بدا أن المسافرين قد عرفوا الهدف من خطف الطائرة فأقدموا على مهاجمة قمرة القيادة. أنقذ الركاب أرواح عدد كبير من الأشخاص الآخرين عندما ضحوا بأرواح بعضهم.

كانت تلك حادثة لا مثيل لها، وهي يُنظر إليها على هذا الأساس. تشابهت عناوين الصحف البريطانية التي صدرت في اليوم التالي مع أمثالها في بقية أنحاء العالم، فظهرت على هذا النحو «الحرب». أما الحادثة الأقرب إليها فكانت بيرل هاربور. برز في ذلك اليوم مفهوم أن العالم، وليس أميركا فقط، يواجه شرّاً مميتاً أقدم بالفعل على إعلان الحرب علينا جميعاً، وهو المفهوم الذي تبنّته مشاعر الجماهير. كانت تلك هي المشاعر الوحيدة السائدة. قُتل الألوف نتيجة عملٍ إرهابي، فهل هناك من نعتٍ آخر؟

كانت وجهات النظر صريحةً وواضحةً، كما تنافست بعضها مع بعض في تصميمها، وذلك ليس في الغرب فقط، بل في كل مكان آخر. كانت الإدانة شبه شاملة في العالم العربي، باستثناء صدّام حسين الذي حرص على أن يبثّ التلفزيون العراقي الحكومي أغنيةً حزبيةً ورد فيها «فلتسقط أميركا». وصف صدّام الهجمات على أنها «ثمار الجرائم الأميركية ضد الإنسانية». أما ياسر عرفات فقد أدان الهجمات نيابةً عن الفلسطينيين، على الرغم من أن التلفزيون الفلسطيني عرض صوراً

لبعض الفلسطينيين المبتهجين وهم يحتفلون، وهو أمرٌ مؤسف بالنسبة إلى القضية الفلسطينية على الخصوص.

كانت الكلمات الأكثر شيوعاً في ذلك اليوم هي «الحرب»، «الشرّ»، «التعاطف»، «التضامن»، وبالطبع «التغيير». أما الأهمّ من ذلك كله فهو المفهوم القائل إن العالم قد تغيّر. وهل يُمكن لهذا العالم أن لا يتغيّر؟

لم يكن من الصعب كثيراً فهم سبب إطلاق هذا الوصف. حدثت المحاولة الأولى لمهاجمة مركز التجارة العالمي في العام ١٩٩٣، لكنها أُحبطت. كان التخطيط دقيقاً هذه المرة على نحو واضح. انتظر العدو حتى انتهاء تحضير الوسائل اللازمة كافة، وكذلك إلى حين مجيئ الفرصة المناسبة.

لم يكن المقصود من هجوم إرهابي على هذا المستوى أن يحدث أضراراً محدودة، بل صُمّم كي يُسفر عن أكبر عدد ممكن من الضحايا، كما تم تنفيذه كمهمةٍ انتحارية. يعني ذلك أن الهجوم يخفي نيةً، وغايةً، ومدى يتعدى أي شيء واجهناه من قبل. كان ذلك إرهاباً لا حدود له، ومن دون رحمة، ومن دون أي اعتبار للحياة البشرية، وذلك لأنه كان مدفوعاً بقضية تتجاوز أي قضية إنسانية. استُوحي الهجوم من إيمانٍ بالله، ومن عقيدةٍ فاسدة، وهي عقيدة مضلّلة وشيطانية على وجه التأكيد، لكنها نابعة، مع ذلك، من دافعٍ معين.

كان الهجوم إعلان حربٍ بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وكان المقصود منه أن ننجرّ إلى مواجهة. أخذت هذه الأعمال التي تتصف بالتطرف بالازدياد، كما أخذت بالترابط، بشكلٍ متزايد، مع نزاعات بدت غير مترابطة بعضها ببعض، على الرغم من أن الترابط أخذ يتضح شيئاً فشيئاً. برزت النزاعات المختلفة في أماكن مثل كشمير، الشيشان، الجزائر، اليمن، فلسطين، لبنان، وكانت ذات جذور مختلفة، لكن الهجمات التي كانت تنفذ كأعمالٍ إرهابية أخذت بالتزايد، كما أن الرابط العقائدي الذي جمعها مع عنصرٍ متطرف يُظهر الإيمان بالإسلام أخذ بالظهور أكثر فأكثر. لم تكن الصورة الشاملة واضحةً تماماً في أجزائها كافة حتى ١١ أيلول/سبتمبر. أما بعد هذا التاريخ فكان وضوح الصورة تاماً، وحيوياً، وحاسماً.

أعود الآن بذاكرتي إلى تلك الأيام بعد أن مرّ عليها نحو عقدٍ من الزمن، وها

نحن ما زلنا في حالة حرب، وما زلنا نكافح العواقب الفظيعة التي تنتج عن الحرب، لكنني بالكاد أتمكّن من تذكر كيفية وصولنا إلى هذا الوضع. لكن في ذلك الصباح النيويوركي الساطع، الذي لم تعبر صفحة سمائه الزرقاء أي سحابة، كنا نعرف ماذا يحدث ولأي سبب.

كنا نعرف أننا لم نفعل شيئاً، بحسب علمنا، يستوجب عنفاً كهذا. أعرف أن أعمالاً إرهابية قد نفذت ضدنا في السابق: لوكربي، يو. أس. أس. كول، تفجير السفارة الأميركية في تنزانيا. حاولنا أن ننتقم، لكننا فعلنا ذلك على مستوى محدّد. كانت تلك كوارث شخصية، لكنها لم تصل إلى حد الحرب. كانت تلك الأعمال هي الثمن الذي دفعته أميركا لكونها أميركا. كانت هناك نزاعات أخرى اعتبرنا أنها ليست من شأننا بتاتاً، أو على الأقل كانت من شأن رجال سلكنا الدبلوماسي، من دون أن تكون من شأن شعبنا.

يعني ذلك أن الذين نفّذوا أعمالاً كهذه كانوا أشراراً، لكنهم لم يُفلحوا في تغيير نظرتنا إلى العالم. فاز جورج بوش بمنصب الرئاسة بعد أكثر الدورات الانتخابية التي أثارت جدالاً في تاريخ الولايات المتحدة، لكن المعركة التي دارت بينه وبين آل غور ركّزت على نحو أساسي على السياسة المحلية. كانت أولوياته في أول لقاءٍ جمعني معه، بعد مؤتمر كامب دافيد، الذي عُقد في شهر شباط/فبراير من السنة ذاتها، تتركز على التعليم، والخدمات الاجتماعية، وتقليص حجم الحكومة الكبيرة.

لم يظهر في الأجواء ما يشير إلى ١١ أيلول/سبتمبر، فلا تصعيد، ولا محاولات تهدئة، ولا توقعات، أو حتى حتميات. كان هناك هجوم فقط، وكان من الواضح أنه خُطّط له خلال الرئاسة السابقة، بشراسة وعواقب لا يصدقان. كان الهجوم عبارةً عن مجزرة جماعية للأبرياء.

كنا في خضمّ حرب لا يسعنا إنكارها. لكن كيف نتعامل معها؟ ومَن كان العدو؟ هل هو شخص؟ أم مجموعة؟ أم حركة؟ أم دولة؟

كنت في برايتون في ذلك اليوم أمام مؤتمر النقابات الذي يُعقد كل عامين. كان ذلك، وبكل صراحة، عملاً فظيعاً بالنسبة إلى الطرفين، وذلك لأنني سوف أوضح في مكانٍ آخر كيف أنني شعرت بالإحباط نظراً إلى عجز تلك النقابات عن

تحديث نفسها. شعرت النقابات بالإحباط عندما أظهرتُ لها كيفية القيام بعملها. لا يعني ذلك أن النقابات لم تسرع إلى إبلاغي كيفية القيام بعملي. كانت تلك نصيحة مؤكدة، وكذلك تضمن خسارة الانتخابات. تجاهلت النقابات نصيحتي، كما تجاهلت نصيحتها بدوري. اتبعنا بذلك النهج ذاته إلى حدّ معيّن.

أما الأمر المهم بشأن برايتون فهو طقسها الدافئ، وقربها من لندن أكثر من بلاكبول، بالإضافة إلى احتفاظها بسحر السنوات السابقة الرائع. يُمكن أن تكون بلاكبول مدينةً عظيمةً بميزتها الفريدة، لكن هذه الميزة تحتاج إلى متابعة. كانت برايتون هي التي شارك فيها نيل كينوك في حفلة تصوير فوق شاطئ مليئ بالحصى عندما أصبح رئيساً لحزب العمال في العام ١٩٨٣. فقدَ نيل توازنه وسقط في البحر في ذلك الوقت. يُمكن للمرء أن يتخيّل سرور رجال الصحافة المتجمعين. أعتقد أن المشهد قد عُرِض آلاف المرات، وهو الذي كان عثرة ذات دلالة إلى حدّ ما، لكنها غير منصفة بطبيعة الحال، إلا أنني أعرف أن أموراً كهذه هي غير منصفة أبداً. يتعيّن على المرء أن ينتبه كثيراً عندما يظهر إلى العلن. أما الحيلة هنا فهي أن يبدو المرء طبيعياً بينما يتحكم تماماً في مشاعره ودوافعه الطبيعية، وأن يكون على حذر. أنصحك أن لا تُسقط القناع، وأن لا تعتقد أن هذه هي اللحظة المناسبة للبدء بمغامرةٍ جديدة في ميدان التواصل، وأن لا تُظهر مشاعرك الفياضة من أي نوعٍ كان، وأن تفعل ذلك كله بكل الهدوء والسهولة اللذين تستخدمهما عند تحدثك معَ أصدقائك القدامى، هذا في الوقت الذي تعرف فيه أنك تتحدث مع أشخاصٍ تعرفت إليهم حديثاً.

بدأت بالتفكير ذات مرة أن ما من لحظة مرت عليّ تمكنت فيها من إظهار جرأتي بشكلٍ كامل. ينتابك القلق من إمكانية أن يدخل شخص ما عليك حتى وإن كنتَ جالساً في غرفة معيشتك كي يلتقط لك صوراً، ولكي يستجوبك ويدفعك إلى تبرير ذاتك. بدأت في ذلك الوقت بالتركيز أكثر فأكثر على الكيفية التي يراني الآخرون بها. استمرّ ذلك إلى أن بدأت بإعادة التركيز على كيفية نظري إلى نفسي. أدركتُ في ذلك الوقت أنني أصبحت ما يماثل الملكية العامة، لكني كنت حراً تماماً بنفسي. تعلمت كذلك عدم السماح لآراء الآخرين، حتى ولو كانت آراء سائدة، بتحديد رؤيتي لذاتي، وتحديد الأمور التي يجب أن أقوم بها، أو تلك التي يجب أن لا أقوم بها.

عُقد مؤتمر النقابات بين مطلع أيلول وأواسطه، كما عُقد مؤتمر الحزب بعد أسابيع قليلة. أسفر المؤتمران عن جعل شهر أيلول/سبتمبر شهراً يثير التوتّر قليلاً. أعطى المؤتمر العام للنقابات فكرةً عن مدى مسؤولية حزب العمال عما يتعلق بالرضا الذي يحسّ به الشعب، أو حتى بعدم الرضا، أو بأي شيء آخر. إن المشكلة التي تظهر في مؤتمر النقابات تُنبئ بالمشاكل التي قد تظهر في مؤتمرات الحزب. لم يكن مؤتمر النقابات العام الذي عُقد في العام ٢٠٠١ استثناء عن هذه القاعدة. إن فوزنا فوزاً ساحقاً بولاية ثانية على التوالي، كان مناسبة للابتهاج على العموم. قال لي ألاستير بوجهٍ رزين بعد أن استقللنا القطار: «أعتقد أنهم يريدون أن يهنئوك على الفوز».

حاولت أن أكون أكثر ابتهاجاً: «أتعتقد ذلك؟»

أجابني: «لا تكن سخيفاً».

كان مزاجي، وبكل تأكيد، عند وصولي إلى وقت العشاء، مزيجاً من العرق والحموضة، لكن كمية العرق كانت قليلة. توجهت مباشرةً إلى غراند أوتيل. كان لدي ساعة ونصف الساعة قبل التوجه إلى مركز المؤتمرات الذي شُيّد على الشاطئ على بُعد نحو مئة ياردة. دخلت غرفة النوم، بينما تجمّع الفريق في غرفة مجاورةٍ في الجناح. تقدم غودريك سميث، نائب ألاستير القدير، من الغرفة وتحدث معه خارجها، وذلك بعد الساعة الثانية إلا ربعاً بقليل، أو حوالى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة بالتوقيت الشرقي المعياري. عاد ألاستير وأدار جهاز التلفزيون، وقال: «من الأفضل أن تروا هذا». أعرف أنه كان يكره أن يقاطعه أحد قبل إلقائه خطاباً، لذلك قررت أن ألقي نظرة. كان التلفزيون يعرض صور مركز التجارة العالمي الذي ظهر وكأن شخصاً ما قد أحدث فيه ثغرةً كبيرة بينما كانت ألسنة النيران والدخان تتصاعد منها. صدمت طائرة أخرى هذا المبنى بعد مرور ما يزيد قليلاً على خمس عشرة دقيقة. التقطت كاميرات التصوير هذا المشهد أثناء حدوثه. لم يكن ذلك مجرد حادث، بل كان هجوماً مدبراً.

سيطرت عليّ في تلك اللحظات حالةٌ من الهدوء المخيف على الرغم من شعوري بالهلع الشديد لرؤية مشاهد الدمار هذه. أدركت أن هذه ليست حادثةً عاديةً، بل هي حادثة من شأنها تغيير العالم. شكّلت هذه الحادثة صدمةً على مستوى معيّن، وكانت

على ما يبدو عملاً طائشاً من أعمال الشرّ. أما في مستوى آخر فإن هذه الحادثة جعلتني أفهم التطورات التي حدثت في العالم في السنوات الماضية، وهي التي بدت وكأنها أعمال إرهابية معزولة، وأفهم النزاعات التي تضمّ عناصر التطرف ذاتها، وتُظهر ميلاً متنامياً للعقائد الدينية التي كانت تهدد بالانفجار على الدوام، وها هي انفجرت الآن.

بدا لنا، وفي فترة قصيرة جداً، أن عدد الضحايا سوف يصل إلى الآلاف. حاولت تنظيم أفكاري. كان ذلك أسوأ هجوم إرهابي في تاريخ البشرية. لم تكن أميركا لوحدها هي الهدف، لكن كل الذين يشاطرونها القيَم ذاتها. تعيّن علينا أن نقف معاً، كما توجّب علينا فهم المدى الذي يُمكن أن تصل إليه التحديات كي نستطيع مواجهتها، وهكذا لا يمكننا أن نتوقف حتى إنجاز هذه المهمة. أما إذا لم نوقف هذه الظاهرة، ولم نستطع مجابهة التحديات التي تفرضها فإن ذلك قد يهدّد أساسيات الحياة التي نحياها. لم نجد أمامنا مساراً آخر، ولا خياراً آخر، ولا طريقاً بديلاً. كانت هذه هي الحرب التي يجب أن نخوضها وأن نربحها. لكن هذا الحرب لا تشبه أي حرب أخرى أبداً. لم تكن هذه معركةً من أجل كسب مساحات من الأرض، وليست معركةً بين دول، بل كانت معركة من أجل الأفكار وحولها، ومن أجل قيَمٍ من شأنها التأثير كثيراً في القرن الواحد والعشرين.

خطرت في ذهني هذه الأفكار كلها في الدقائق الأربعين التي فصلتْ بين الهجوم الأول ووقوفي أمام الجمهور كي أقول لهم إنني لن ألقي خطابي، لكني سأعود إلى لندن على الفور. كانت كلماتي هذه واضحةً جداً. أبقيت على ذلك الوضوح في كلامي حتى هذه الأيام، وبالطريقة نفسها، وهذا يعني أن الوضوح الذي يرافق كلماتي هو الآن كما كان في تلك الأيام.

لاحظتُ على الفور أن الحرب على الرغم من أنها الحرب، لكن كان علينا أن نصفها ونواجهها بطريقةٍ مختلفة. كانت تلك معركة عقائدية، بالمعنى الأوسع، تجري بين أعراف وطرق حياة التعصب الديني، وبين أعراف وطرق حياة أنظمة الحكم الموجودة في الغرب، على الأقل، وهي تلك التي تتضمّنها عقيدة الحرية، والمساواة، والديمقراطية. كانت معركةً بينها وبين التحديث، وصراعاً ليس بين الحضارات بقدر ما هو بين قوى العولمة وعواقبها.

كانت التكنولوجيا الحديثة التي فرضت وجودها في أنحاء العالم كافة، أي الإنترنت، وأجهزة الحواسيب، والسياحة الجماعية، والاتصالات، تقتحم حدود العالم، وتجمع الناس معاً، وتمزج ما بين الثقافات، والأعراق، والعقائد في بوتقة التفاعل البشري الواحد. صاحبت ذلك كله ردة فعل أخذت في الغرب شكل القومية الفتاكة، والمشاعر المضادة للهجرة التي ثارت بسبب شعور الناس بأن هويتهم التقليدية أخذت تضعف، وبأن قبضتهم على العالم من حولهم أخذت بالتلاشي اقتصادياً وثقافياً.

أما داخل العالم الإسلامي فقد نشطت قوى أخرى أكثر عمقاً. أعرب كثيرون عن عدم ثقتهم بالعولمة، كما قلقوا من الطريقة التي بدأت بها هذه العولمة بتغيير مجتمعاتهم، وقلقوا بشأن استسلامهم لها. كان كثيرون يكرهون الحضارة [الثقافة] الغربية، وإصرارها المتسرّع على المواقف المتحررة، وعلى الحريات الجنسية، ويكرهون فرديّتها التي تتحوّل أحياناً إلى السعي نحو اللذة. كان من شأن ذلك كله أن يتسبب بردة فعل مصاحبةٍ لها. لكن ما عمّق الأمور، وحوّل ردة الفعل هذه إلى قوة متطرفة وعاتية هي أمور من سمات الإسلام. ظلّ الإسلام على مدى عدة قرونٍ الحركة الدينية الوحيدة المهيمنة على منطقة الشرق الأوسط حتى ما هو أبعد منها، كما تمكنت هذه الحركة من تثبيت سيطرتها السياسية فتقدمت العالم في مجال العلوم، والفن، والثقافة.

تحوّلت المسيحية بعد مرور مئات السنين على موت المسيح، وبعد أن قام بنشرها أولئك الذين تعرضوا للعذاب والملاحقة من قِبل الامبراطورية الرومانية، تحولت إلى الدِّين الرسمي للامبراطورية، كما تحولت إلى الدّين المقبول، أو المفروض، على بلدانٍ نعرفها اليوم على أنها إسلامية، مثل مصر، وفلسطين، ولبنان، وسوريا، والعراق. لا تزال هناك جيوب مسيحية في كل بلدٍ من هذه البلدان هذه الأيام، وذلك على الرغم من أنها اليوم أقل مما كانت عليه. تتحدر هذه الأقليات من المجتمعات المسيحية التي سبقت الإسلام.

ابتليت المسيحية في القرن السابع بالانقسامات، والانقسامات الدينية، وبصراعات حول ما هو بدعة، وما هو غير ذلك. عمد المسيحيون الذين تعرضوا للقتل والملاحقة إلى ملاحقة، ليس غير المسيحيين فقط، بل المسيحيين الذين

كانوا يخالفونهم في عقيدتهم. كانت تلك صورة كئيبة بالنسبة إلى دينٍ يعتمد على التعاطف والمحبة.

انطلق الإسلام فتمكن في غضون عشرين سنة أو نحو ذلك من التجذر، وهو الدّين الذي أسّسه النبي محمد، وحوّله إلى نظام حكم شمل ما نعرفه هذه الأيام بالمملكة العربية السعودية وما يتعداها. كانت هذه محاولة، وإن جزئية، لإعادة الأديان الإبراهيمية إلى أصولها وتطويرها إلى طريقة منظمة، وعقلانية، وأخلاقية من أجل تقدم العالم. تلقى النبيّ رسالته التي بعثها إليه الله من الملاك جبريل، وهكذا يكون القرآن النصّ المباشر لكلمة الله.

كان الإسلام، بداية، بديلاً مقابلاً مرحّباً به للدولة المسيحية. كان المسلمون يُظهرون الرأفة في المواقع التي كانت الجيوش المسيحية تنفذ فيها المجازر بصورة روتينية. كما أظهروا التسامح في الأماكن التي كانت تتعرض فيها الأديان الأخرى للقمع بالقوة. وبينما كان الكهنة والأساقفة يحيون حياة الفسق والرذيلة، كان أتباع الإسلام يبدون أتباعاً حقيقيين للإيمان والتسليم إلى الله.

توسّع الإسلام إلى ما يتعدى حدود مكّة والمدينة، وكان الناس ينظرون إليه بوصفه ديناً محرراً، ويصدق هذا على بعض المجتمعات المسيحية، مثل النسطوريين في العراق. زاد الإسلام قوةً بمرور الوقت لكنه مال أكثر نحو الدكتاتورية. كان غير المؤمنين يتلقون خياراً: إما الدخول في الإسلام وإما دفع الجزية، التي كانت باهظةً جداً في بعض الأحيان. يمكننا القول، وبكل إنصاف، إن الإسلام كان الخزّان الأعظم للفكر المتحضّر، وذلك في الفترة التي امتدت حتى الحروب الصليبية وخلالها، وحتى بداية عصر النهضة الأوروبية.

إن تاريخ الإسلام بجذوره، ونهضته، ومحنته الحاضرة هي كلها عناصر ضرورية لفهم أهمية أحداث ١١ أيلول/سبتمبر. أعترف بأنني هنا بالذات ارتكبتُ غلطة: أسأت فهم عمق التحدي. كنت أجهل الطبيعة واسعة الانتشار لهذه الظاهرة. بدأت، منذ ١١ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠١، الأمور التي لقيت قبولاً أوسع بالظهور: قامت مجموعة صغيرة من المتعصّبين بتنفيذ هذا العمل، وهي لذلك لا تمثل الإسلام الذي يُمكن، ويجب، سحقه.

أما لو كنت أعلم أننا سنظل نقاتل في أفغانستان بعد مرور عقدٍ من الزمان لكنت شعرت بالقلق والرعب.

يُخيل إليّ أنني كنت سآخذ القرار ذاته، سواء هناك أم في العراق. أما لو حاولنا تفادي المواجهة لكانت تلك غلطةً فظيعة، وعملاً من أعمال الجبن السياسي. إن ما أعرفه اليوم لا يجعلني أقل التزاماً بالقتال الذي بدأناه منذ يوم الحادثة ذاتها. لكن، وعلى النقيض من ذلك، اتضح عندي أكثر أن المعركة يجب أن تُخاض بالوسائل الممكنة كافة، ويجب أن تُخاض حتى تحقيق النصر.

إن ما اتضح هذه الأيام هو مدى التحدي، وهو المدى الذي اختلف على مستويين عما فكرنا فيه في البداية. أما المستوى الأول فهو وجود طيفٍ واحد، وليس عدة أطياف، في عقلية الإسلام الحديث. أما في الطرف الأبعد من الطيف فهناك المتطرفون الذين يناصرون الإرهاب من أجل تعزيز هدفهم الذي يقضي بإنشاء دولة إسلامية، وإعادة إحياء الخلافة التي تأسّست في الأعوام التي تلت وفاة النبي. صحيح أن عدد هؤلاء ما زال قليلاً، لكن الذين يتعاطفون معهم هم أكثر بكثير مما نظنّ، والصحيح كذلك أن كثيرين لا يوافقون على الإرهاب، إلا أنهم يفهمون سبب حدوثه.

إننا نجد في هذا الطيف ذاته أولئك الذين يدينون الإرهاب، لكنهم يفعلون ذلك بطريقة غريبة بحيث إننا نقتنع ببعض رؤيتهم إلى عالمهم. يتفق هؤلاء مع المتطرفين في أن الولايات المتحدة تعادي الإسلام، وهم يعتبرون أن غزو أفغانستان والعراق هو غزو لدولتين مسلمتين، لأنهما دولتان مسلمتان. ينظر هؤلاء كذلك إلى إسرائيل على أنها رمز التعصب الغربي المعادي للإسلام. تحتل هذه الفئة من الناس، على نحو مقلق، مساحةً واسعةً من وسط الطيف.

يبرز أمامنا، بطبيعة الحال، عدد كبير، ولربما يكون الأكثرية، من الذين يدينون الإرهابيين ونظرتهم إلى العالم.

أما النقطة الثانية فهي وجود فئة لم تشق طريقها بثقة بعد بالنسبة إلى صوغ رؤية صالحة وحديثة للإسلام. يعني ذلك، بكلماتٍ أخرى، من الصحيح أنهم يعتبرون أن الإرهاب نقيض الإسلام، وهم لذلك يريدون التحالف مع الدول الغربية ضد هذا

الإرهاب، لكن ذلك لم يُترجم بعد إلى نظرية جديدة عن الإسلام تكون متوافقة مع تاريخه، وتكون قادرةً على تقديم رؤية مستقبلية متكاملة له. يعني ذلك أن دولاً في العالم العربي، والعالم الإسلامي، عادة ما تقدم إلى شعوبها خياراً مشوشاً ومحطّماً للذات في نهاية الأمر. يراوح الخيار بين حكم نخبةٍ تمتلك فكرة صائبة لكنها تتردد، أو تخشى تقديمها، وحركة شعبية تمتلك فكرة صائبة مع حرصها الشديد على إعلانها.

وإذا جمعنا المعطيات السابقة كلها، فإنني أخشى أن أقول إن هذه المعركة ليست بين مجموعةٍ صغيرة من المتطرفين لا تمثّل الإسلام، وبيننا. أو على الأقل ليست تلك هي الصورة برمّتها، لأنها هي كذلك صراع عقائدي أصولي يواجه العقل، والقلب، وروح الإسلام.

إننا مشاركون بالضرورة في ذلك الصراع، وذلك لأننا تعرضنا لهجوم، وكذلك لأن أولئك الذين يجب أن يقودوا الإسلام هم بحاجة إلى دعمنا.

يمكننا النظر إلى هذا الصراع، في التحليل الأخير، على أنه يجب أن نفوز به من الداخل. إن صراعاتٍ كهذه لا تستمرّ فترةً انتخابيةً واحدة، بل تستمرّ جيلاً برمّته.

أما إذا رجعنا إلى اللحظة التي تبعت ذلك العمل الإرهابي الكارثي الذي أذهل العالم، وصدمه، وأرعبه، فإن القضية تتوضح أكثر: أعلن رجالٌ مجانين الحرب، فتعيّن علينا القضاء عليهم، وعلى جذورهم نهائياً. لم يشك أحد في ذلك. أعني لم يشك فيه، أو في التحرك الذي تبعه، أحد سوى عدد قليل جداً من الناس.

لكن لا أريد أن يتوهّم أحد أبداً، وبالمناسبة لقد عمت تلك الفترة بعد ذلك الأوهام، أن هناك طريقتين لمعالجة هذه الظاهرة. تتلخص إحدى هذه الطريقتين في إدارتها، أي في ترك الطالبان في السلطة، لكن مع إحاطتهم بالعقوبات والتحالفات، ويعني ذلك اتباع سياسة القوة الناعمة بشكلٍ كامل. وقف كثيرون مع هذا الرأي في واقع الأمر (مع أن عدد الذين تبنوا هذا الرأيَ كان قليلاً جداً في ١٢ أيلول/سبتمبر)، كما أنني لم أستبعده كلياً. كان ذلك البديل الحقيقي لما حدث بالفعل. كانت الفكرة هي العمل على إحداث إصلاح تدريجي، وظهور إسلام جديد بمرور الوقت. يعني ذلك أننا رفضنا الانجرار إلى الحرب على الرغم من استفزازنا.

أما الطريقة الأخرى، وهي الطريقة التي اخترناها، فكانت مواجهة الإرهاب

عسكرياً. ما زلت على قناعتي أن ذلك كان هو الخيار الصحيح، لكن الأكلاف، والنتائج، والعواقب، كانت أكثر بكثير مما توقعه أحدنا، ومن ضمنهم أنا بالتأكيد، في ذلك اليوم.

لا يتطلب كسب الصراع بهذه الطريقة مجرد استراتيجية عسكرية من أجل إلحاق الهزيمة بعدو يحاربنا. بل يتطلب هيكلية جغرافية جديدة بالكامل، ويتطلب بناء دول، كما يتطلب تدخلات متنوعة في عمق شؤون الدول الأخرى. ويتطلب الأمر، فوق ذلك كله استعداداً للنظر إلى المعركة على أنها معركة وجود ومتابعتها إلى النهاية، وأن نأخذ الوقت اللازم، وأن نكون على استعداد لإنفاق أموالٍ طائلة، وأن نتهيأ لسفك الدماء، وأن نعتقد أن عدم القيام بذلك من شأنه تأجيل وقت العقاب، وهكذا يكون هدر الوقت، والأموال، أكبر بكثير. لكن مَن منا يعرف الخيار الصحيح؟ لا أحد. سنعرف ذلك فيما بعد. كانت معرفتنا محدودة في ١١ أيلول/سبتمبر في العام ٢٠٠١، وما زالت محدودة هذه الأيام. كانت الطريقة الوحيدة أمامنا في ظروف كهذه، وفي حالات فهم كهذه، هي اتّباع غريزتنا ومعتقداتنا. لم يكن بإمكاننا فعل المزيد. كان ذلك هو ما فعلته في تلك الأيام التي تلت تلك الكارثة.

ينظر الناس إلى هذا الوضع عبر تلك السنوات التي استمر فيها القتال، ويتساءلون: ماذا حدث وأفسد الأمر؟ يتجاهل هذا السؤال إمكانية أن لا يكون التساؤل الصحيح هو «ما الذي حدث وأفسد الأمر»، وذلك لأنّ طبيعة الصراع تعني أنه سوف يتحول ويتغير ويتطور على مدى فترة زمنية طويلة. فكرنا في ذلك الوقت أن المعادلة بسيطة نسبياً: القضاء على طالبان، وإجراء انتخابات تحت إشراف الأمم المتحدة، وتقديم المليارات من أجل تنمية البلاد، وستكون النتيجة هي تطوير البلاد بكل تأكيد. أعتقد، بل أؤكد، أن الناس سيختارون التقدم إذا سُمح لهم القيام بما يريدون، وذلك من دون وجود عدوّ يستخدم الإرهاب من أجل إثارة الاضطرابات وزعزعة الأوضاع، ومن دون وجود الإقطاعيين وأمراء الحرب الذي تسببوا بفشل الدولة. فعل الناس ذلك عند كل فرصةٍ أتيحت لهم، وهم خرجوا للإدلاء بأصواتهم عند كل انتخابات، وعبّروا عما يريدونه وعما لا يريدونه. عجزت إرادة الشعب عن فرض النظام حتى مع دعمنا، وحتى مع تحركات قواتنا والمساعدات التي نعطيهم إياها، كما لم يتمكنوا من التغلب على إرادة الفوضى التي تعاكسهم.

يبقى الاستنتاج، مع ذلك كله، هو عدم الاستسلام. أما القول إننا لو لم نُقحم أنفسنا في الأمر لكانت أمور الناس أحسن حالاً، فهو يحمل قدراً أقل من الصحة. يظهر الاستنتاج الصحيح أن الحرب وحشية وطويلة، وهذا السبب، بالتحديد، هو الذي يزيد من أهمية كسبها.

أما المثال الذي نرى من خلاله هذه الأمور كلها هذه الأيام، فهو عدم قدرتنا على رؤية نهاية النفق، لكننا نخسر في هذه الأثناء جنوداً شجعاناً في منتهى الالتزام، وذلك في حربٍ لا تزال نتائجها غير مؤكّدة. يبرز هذا الموقف في أيّ حربٍ جدية، ويفرض نفسه في مرحلة ما، وهو هل يجدر الانسحاب أم المضي قُدُماً. لا يُقتل الجنود لأن القضية التي يحاربون من أجلها أقلّ عدلاً، وليس بالضرورة لأن العمل على إتمامها لم يكن بالطريقة الصحيحة، بل هم يُقتلون لأن العدوّ يحاربنا، ولأن المخاطر واضحة بالنسبة إليهم لأنه إذا بقي حياً فسوف نشعر بالإحباط، أو إذا ابتدعنا اتفاقاً معيباً يفرض علينا مبادلة المبادئ الأساسية التي نحارب من أجلها بالهدوء، فسيعاود الأعداء الظهور مجدداً بأقوى مما كانوا عليه، وسيجلبون عقيدتهم معهم.

إن ذلك كله يجعل من الأهمية بمكان أن نتذكر لماذا حدثت الحرب في أفغانستان. حدثت لأن إرهابيين تؤويهم حركة طالبان، وتلقوا تدريباتهم في أفغانستان أظهروا في ذلك اليوم المشؤوم استعدادهم لقتل أناسٍ أبرياء على نحو لا سابق له، وذلك بغية إبعادنا عن التحالف مع ذلك القسم من المسلمين الذين يريدون التعايش السلمي، وإرغامنا على ترك العالم لأيديولوجية التطرف الديني بحيث يحكمه أحد المتعصبين، أو أحد الدكتاتوريين. إننا لم نلاحقهم، بل هم الذين لاحقونا. كان الوضع مختلفاً لو لم تحصل أحداث ١١ أيلول/سبتمبر.

لم نكن متأكدين من الموقع الذي ستسدّد إليه الضربة الثانية بعد الحادثة مباشرة. وضعنا خطة طوارئ استمرّت بعض الوقت، وذلك تحسّباً لفقدان الاتصال بين برج المراقبة وأي طائرة تطير فوق مدينة لندن، أو أي مدينة رئيسة أخرى. حدثت، أساساً، مجموعة من الإنذارات وتصاعدت إلى درجة طلب الإذن مني بإسقاط بعض الطائرات. كانت الطائرات المقاتلة متأهبةً للتحليق في الجو وإطلاق النار على تلك الطائرات إذا تسلّمت الأمر بذلك. حدث ذلك مرة واحدة. إنني أتذكر هذا الحادث بقوة بطبيعة الحال. كنت في شيكرز آنذاك أثناء عطلة نهاية الأسبوع عندما

استُدعيت على عجلٍ إلى الهاتف. فُقِد الاتصال مع إحدى طائرات الركاب لبعض الوقت، بينما كانت تحلق فوق لندن. أبقيت على اتصالٍ مع أحد كبار القادة في سلاح الجو للتنسيق معه لتنفيذ قراري. كانت النفاثة المقاتلة تحلّق في الجو. تحدثنا لدقائق عديدة تميزت بالقلق الشديد، وحاولنا يائسين أن نخمّن ما إذا كان تحليق الطائرة يشكل تهديداً، أم أنه مجرد عطل طرأ على أجهزة الطائرة. حانت المهلة النهائية، فقررت التراجع. لم تمضِ لحظات قليلة حتى استعادت الطائرة اتصالها مع برج المراقبة. لم يكن الأمر في حقيقته غير عطل تقني. احتجت إلى فترة من الوقت كي أشكر الله على مرور هذه الحادثة بسلام!

تركتُ منصةَ الخطابة في مؤتمر النقابات، وللمناسبة فقد تلقيت ترحيباً فيه هو الأفضل من بين كل تلك التي استمتعت بها. كنت أرتّب في ذهني الاجتماعات الطارئة التي ستُتخذ فيها القرارات الوشيكة المتعلقة بأمن بريطانيا. رتبت كذلك إجراء مكالمات هاتفية مع أبرز قادة العالم بمن فيهم الرئيس بوش بطبيعة الحال. تلقيت كذلك اتصالات من كبار الوزراء، وأمين عام الحكومة بينما كنت في طريق عودتي إلى بريطانيا.

كانت تلك رحلة غريبة جلسنا فيها في عربة القطار الذي سار بنا من خلال ريف سوسكس الهادئ والجميل، ما شكّل تناقضاً كبيراً مع التركيز المحموم على محادثات بشأن عالم انقلبت فيه موازين أمنه رأساً على عقب. كنت هادئاً نسبياً كما سبق لي القول، وكنت أعرف ما سيتعيّن عليّ القيام به.

عدت إلى داوننغ ستريت، وأسرعنا إلى عقد جلساتٍ طارئة عديدة مع الوزراء والمسؤولين قمنا خلالها باستعراض الخطوات التي يتعيّن علينا اتخاذها. عُلّقت الرحلات فوق لندن، بينما وُضعت قواتُ الشّرطة والخدمات الأمنية في أقصى درجات التأهب [اللون الأحمر]. أقدمنا كذلك على تكليف رجال الاستخبارات محاولة الكشف عن أي خطط إرهابية محتملة. كانت أنحاء وايتهال كافة تعجّ بالحركة والنشاط. تكون آليات العمل في أوج نشاطها في لحظاتٍ كهذه بحيث تغطي المجالات كافة، وتنشغل بوضع برنامج زمنيٍ لاتخاذ القرارات، كما تترابط أجزاء الأنظمة كي تشكّل نظاماً واحداً، ومتماسكاً، وشبه آلي. كان الأمر مدهشاً

تماماً، كما سررتُ تماماً بالعمل الثابت الذي أبداه ريتشارد ولسون وزملاؤه من موظّفي الخدمة المدنية.

تحدثت كذلك مع بوتين، وشرويدر، وشيراك، وبرلسكوني، وتحدثت في اليوم التالي مع الرئيس بوش. لاحظتُ أن الإحساس التام بالتضامن كان مطلقاً. وقف الجميع مع الولايات المتحدة بشكلٍ تام. لكن يصعب أن نتصور هذه الأيام كم كان الناس خائفين في ذلك الوقت. كنّا نعرف أن هناك هجماتٍ أخرى على وشك أن تنفذ في وقتٍ قريب. كنا على استعداد في أي لحظة لأن نسمع عن وقوع أعمال وحشية جديدة.

اعتبرت أن دوري هو حشدُ أقصى مستوى ممكن من الدعم. كنت أعرف أن احتمال التراجع سوف يتزايد بمجرد انقضاء التأثير المباشر للحادثة. أدركت كذلك أن أهمّ شيء هو تجميع أكبر قدر ممكن من التحالفات الداعمة للتحرك الذي نزمع القيام به. حددت موقفنا كدولة مساء يوم ١١ أيلول/سبتمبر، وذلك من خلال بثّ إذاعي من داوننغ ستريت:

«إن هذا الإرهاب الجماعي هو الشرّ الجديد في عالمنا. إن الأشخاص الذين نفذوا هذه الهجمات لا يقيمون وزناً لقدسية الحياة الإنسانية أو لقيمتها. يتعيّن علينا نحن، أي ديمقراطيات العالم، أن نتحد من أجل إلحاق الهزيمة بهذا الشرّ ومحوه. إنها ليست معركة بين الولايات المتحدة الأميركية والإرهاب، لكنها معركة بين العالم الحرّ والديمقراطي وبين الإرهاب. أقول، لذلك كله، إننا هنا في بريطانيا نقف كتفاً لكتف مع أصدقائنا الأميركيين في ساعة الكارثة هذه. إننا لن نرتاح، مثلهم، حتى يختفي هذا الشرّ من العالم».

كانت عبارة «كتفاً لكتف» حاسمةً بما يكفي. أقدمتُ على صوغ الكلمات بعناية تامة. كنت أدرك أن هذه العبارة تعني التزاماً ضخماً لا بدّ أن يُترجم، ليس بالكلمات لكن بالأفعال. كنت أعرف أن الطريق الذي سنمشيه كتفاً لكتف سوف يكون وعراً. عجزت مع ذلك عن تحديد مدى وعورته، لكني أعتقد وأتوقع أنني لو علمت حينئذ لما كانت الكلمات قد تغيّرت.

أقدمتُ على تبني هذه الرؤية لأسباب تتعلق بالمبادئ وبالمصلحة القومية في

الوقت ذاته (وبالمناسبة، لا أرى تعارضاً بين الأمرين) . كنت متأكداً من حيث المبدأ أن علينا النظر إلى هذه الأعمال الوحشية ليس على أنها هجوم على الولايات المتحدة في ذاتها، لكن بوصفها هجوماً علينا كذلك لأن الولايات المتحدة كانت قائدةَ العالم الحرّ. إن إلحاق الهزيمة بهذا التهديد هو أمر يخدم مصلحتنا القومية. أما إذا أردنا أن نلعب دوراً رئيساً في مسار أي حرب، فسيتعيّن علينا أن نكون هناك منذ البداية، وأن يكون تقديمنا للدعم واضحاً وصريحاً. آمنتُ بالتحالف مع أميركا، كما اعتقدت أن استمرار هذا التحالف وتقويته لا بد أن يكون هدفاً جوهرياً للسياسة البريطانية. يُضاف إلى ذلك أنني أدركت أن التحالفات الأساسية تبرز في أوقات التحديات وليس في أوقات الرخاء.

عملت خلال الأيام القليلة التالية على حشد الدعم، واستضفتُ سيلفيو برلسكوني الذي كان صريحاً كعادته في التزامه مع الولايات المتحدة. زرت فرنسا وألمانيا اللتين كانتا متفقتين معنا، وذلك على الرغم من ملاحظتي التي ترافقت مع بعض القلق أن جاك شيراك على الخصوص نصح بتوخي الحذر في أي رد فعل قد نقوم به. استُدعي البرلمان للانعقاد حيث ألقيت خطاباً أمامه. اتفقت الآراء كلّها، وآراء المعارضة على الخصوص، على وجوب تقديم الدعم.

سافرت في يوم ٢٠ أيلول/سبتمبر إلى الولايات المتحدة. ترسخ كثيراً في ذلك الوقت موقعي بوصفي زعيماً دولياً يقوم، وبكل قوة، بالتحدث عن الحاجة إلى تحرك استراتيجي شامل. كان همّي طوال هذه الفترة هو جعل أميركا تشعر وكأنها محتضنة ومدعومة، وأن يد الدعم الحقيقية قد امتدت نحو شعبها. كان الخوف عظيماً، وإن كان الإحساس بالغضب والاستياء فوق كل شيء. أما كيفية توجيهه فلم تكن معتمدة على كيفية تحدُّث قادة أميركا إلى شعبهم، لكنها تعتمد على كيفية تعبير العالم الخارجي عن تعاطفه، وعن جهوزيته لتحمّل قسم من المسؤولية.

كانت النقطة الحاسمة التالية، بطبيعة الحال، هي أن عدداً كبيراً من البريطانيين قد خسروا أرواحهم. اجتمعت مع عدد من أسر الضحايا. تحمل لقاءات كهذه صعوبةً كبيرةً في عقدها. يتعيّن على المرء أن يحافظ على مهابة المنصب، لكنه يحسّ بالحزن بعمق، ولا يسعه في بعض الأحيان إلا التعبير عنه بالدموع. كانت إحدى النساء اللواتي قابلتهن حاملاً. سافر زوجها إلى أميركا لعقد اجتماعٍ في مركز التجارة

العالمي. أعرف أن هذا الرجل لن يلتقي الابن أبداً. حزن آخرون لفقدان ابنهم الوحيد الذي كانوا يحبونه إلى درجة التقديس. صُدمت عند تفكيري في الطبيعة العشوائية القبيحة للإرهاب. يموت المرء لا لسببٍ إلا لكونه هناك. ليس هناك سبب آخر، ولا تفسير آخر، بل مجرد مصادفة.

هبطت طائرتي في نيويورك فتوجّهنا على الفور إلى كنيسة سانت توماس التي تقع في الجادة الخامسة. كان رودي جيولياني، رئيس البلدية، موجوداً هناك. أُعجبت به على الفور. كان الرجل تحت ضغوطٍ كبيرة، لكنه لم يظهر وكأنه يتحمل العبء فقط، بل بدا وكأنه يتقدم إلى الأمام وهو يعطي إحساساً قوياً بمسؤولية القيادة. تسلّمت رسالةً من الملكة، أرادت أن تُقرأ على الملأ. قرأتها بنفسي بسرعة. كانت رسالة الملكة قويةً وواضحة. اقتبست كلمات من الرواية التي كتبها ثورنتون وايلدر التي تحمل عنوان جسر سان لوي راي، وهي الرواية التي تتحدث عن نحو خمسة أشخاص ماتوا عندما انهار الجسر الذي كانوا يعبرونه فوق وادٍ عميق وضيّق:

لكن سرعان ما سنموت، وستترك الأرض الذكريات كلها التي بقيت من هؤلاء الخمسة، أما نحن فسوف يحبنا الآخرون لفترة ما ثم ينسوننا. لكن الحب يكفي، لأن كل نبضات الحبّ تلك تعود إلى الحب الذي صنعها، وحتى الذكرى ليست ضروريةً للحب. هناك أرض للأحياء، وأرض للموتى، والحب هو الجسر الذي يصل ما بينهما، وهو الباقي الوحيد، والمعنى الوحيد.

ما إن خرجنا من الكنيسة حتى هاجمتنا مجموعة كبيرة من المصوّرين والصحفيين. تحدثت بكلماتٍ قليلة كنت قد فكرت فيها في الطريق من المطار:

«لا يمكنني إلا أن أتخيّل مشاعر الناس في نيويورك على مدى الأيام التسعة الماضية... عانى جيل والدي قصف المدن البريطانية في الحرب العالمية الثانية. أدرك ذلك الجيل معنى تحمّل معاناة هذه المأساة والهجوم الكبيرين. وقف بلد واحد، وشعب واحد، معنا في ذلك الوقت. كان ذلك البلد هو أميركا، وذلك الشعب كان الشعب الأميركي. وكما وقفتم معنا في تلك الأيام فإننا نقف معكم الآن جنباً إلى جنب. إن خسارتكم هي خسارتنا، وصراعكم هو صراعنا».

أحسست أن رودي الذي كان واقفاً إلى جانبي قد شعر بالارتياح أثناء حديثي،

كما رأيت على وجوه الناس الذين مررنا من أمامهم رغبةً عميقة وصادقة في معرفة أن لهم أصدقاء في أوقات المحنة هذه، وفي معرفة ما إذا كانت أمريكا تقف لوحدها، أو مع آخرين إلى جانبها، وما إذا كان العالم يعني الكلمات التي قيلت، وما إذا كان سيُتبعها بأفعال. أردت التأكيد للمجتمعين أن هذا هو الواقع فعلاً، وأن بريطانيا، على الأقل، لن تتلكأ، وأنها تعني ما تقول، وأننا سوف نكون في المقدمة، وليس في المؤخرة.

وصلنا آخر الأمر إلى واشنطن، لكننا تأخرنا ساعةً عن الاجتماع المقرر مع الرئيس بوش، وذلك قبل إلقائه خطاباً أمام مجلسَي الكونغرس في تلك الليلة. قدت السيارة نحو المدخل الخلفي للبيت الأبيض، وهو المدخل الذي سبق لي أن استخدمته في مناسباتٍ كثيرة، حيث يقف جنود البحرية على جانبَي المدخل بملابسهم المتألقة، وفي حالة تأهب. تساءلت حينئذ عن مكان وجود جورج. سبق أن تحدثت أنا وجورج هاتفياً عدة مرات، أي إننا بدأنا بتبادل الأفكار معاً. استعاد جورج روعه بعد الصدمة الأولى وبطريقة رائعة، وخصوصاً بعد وقوف الشعب الأميركي بأسره وراءه.

توجّهت إلى المكتب البيضوي، فوجدته هناك وهو يضع اللمسات الأخيرة على خطابه. أجرينا ترتيبات تنصّ على جلوسي في الردهة كي أسمع الخطاب إلى جانب لورا، زوجة جورج. كان جورج هادئاً بصورةٍ لا تصدّق حتى إلى درجة تفوق الطبيعة. تناولنا العشاء معاً. قلت له لو تعيّن عليّ إلقاء خطاب مشابه لكنت انعزلت بنفسي، ووضعت مسودة إثر مسودة، كما كنت انزعجت لو اضطررتُ لاستضافة أحد وأنا أعدّ خطاباً ما. عرضتُ عليه أن أنسحب لكنه قال لا، وبكل ثقة. أرادني أن أبقى ونتحدث، وهذا ما فعلناه إلى أن حان وقت مغادرته. أدركت، فجأةً، أمرين بشأنه (كنت في ذلك الوقت لا أعرفه كما بت أعرفه في مرحلةٍ لاحقة): الأول هو أنه يرحّب بكل صدق بالصداقة التي أظهرتها أنا وبريطانيا. إنه لم يرحّب بها فحسب، بل وجد فيها مصدراً للقوة. الأمر الثاني، هو أنه كان هادئاً مع نفسه، وهو يعرف أنه صاحب مهمةٍ معينة بوصفه رئيساً. إنه لم يسعَ وراء المتاعب، بل إن المتاعب هي التي سعت وراءه. لم يتوقع جورج حدوث هذه المتاعب، ولم يبحث عنها، بل هي التي بحثت عنه. لكنه كان هادئاً. تغيّر العالم، لكن بوصفه رئيس أقوى دولةٍ في العالم كان مسؤولاً عن إضفاء معنى لهذا التغيّر، وعن التعامل مع هذا التغيّر.

ما إن دخلنا المصعد حتى بدأ كعادته بتبادل الدعابات مع جورج هانيه، كبير المساعدين في البيت الأبيض. سألته ما إذا كان متوتراً. أجابني: «لا، ليس في الحقيقة. سألقي كلمة هنا، وهي تحمل رسالة واضحة». ذهلتُ لهذا، وتطلعت نحوه بعناية، لكن، أجل، بدا مستريحاً تماماً بالفعل.

كانت تلك هي المرة الأولى التي شهدتُ فيها خطاباً موجّهاً للكونغرس. (ألقيت خطاباً أمام الكونغرس بدوري في العام ٢٠٠٣). كان ذلك أمراً استثنائياً، وهو أمرٌ لا يمكن أن يحدث إلا في الولايات المتحدة بكل ذلك النشاط والثقة. كان يمكن للمرء أن يستشعر كيف يلتقي النواب أثناء إلقاء الرئيس لكلمته حول محبة البلاد، والاعتزاز، والوطنية، والإيمان بالذات. كان هذا الروح يفوح من كل الأخشاب الفاخرة، وقطع النحاس، والحجار التي تزيّن القاعة المدهشة الغنية بتاريخها، والمفعمة بالثقة بمستقبلها. انتقاني جورج في تلك القاعة إلى جانب لورا، انحنيتُ قليلاً إلى الأمام بكل سرور.

تطلعت إلى الأسفل نحو الشخصيات المجتمعة. كانوا صريحين، ومصمّمين، وواثقين بأنفسهم. بدأت بالتفكير في ما ينتظرنا في مستقبل الأيام. افترضتُ أن بإمكاننا إزاحة طالبان عن الحكم. فكّرت في أن ذلك يُمكن أن يتحقّق بمناورةٍ تكتيكية، أي عن طريق عرض خيارٍ عليهم: إما تسليم بن لادن والإرهابيين، وإما إزاحتهم عن السلطة. وماذا سيحدث بعد ذلك؟ كنت أعرف أموراً قليلةً عن أفغانستان، لكنني كنت أعرف أنها دولة تعرّضت للاجتياح عبر القرون، وللاحتلال، وللنهب، لكن بدا أن تلك البلاد تمكّنت دائماً من استيعاب من يجتاحها قبل أن تلفظهم.

جلست قبل عدة أشهرٍ في لونغ غاليري في شيكرز، وكنت محاطاً بلوحات ساكني هذا المنزل السابقين، وكذلك لوحة كروموبل التذكارية بما في ذلك سيوفه التي استخدمها في معركة نايسبي. سبق لي أن تصفّحت ثلاثة كتب من المذكّرات اليومية. كتب هذه اليوميات الفيلد مارشال روبرتس، وهو ضابط ما لبث أن أصبح قائد الجيش البريطاني، وذلك في الفترة ما بين منتصف القرن التاسع عشر وأواخره، وهي الفترة التي شهدت العصيان الهندي. استمتعت كثيراً بقراءة المذكرات، التي تعطي فكرةً رائعةً ومباشرة عن حياة ضابط في الجيش، كما روت أحداث العصيان بصورة مباشرة، وكيفية انتشاره، وكيفية إخماده، الأمر الذي أعطى إحساساً حيوياً

عن دور الامبراطورية البريطانية. وصفت المذكّرات معارك حيدر آباد وبيشاور، وبعد ذلك المعارك في هندوكوش، وفي قندهار، وهلمند ولاشكار جاه، وهي كلها أسماء أصبحت مألوفة هذه الأيام.

صورت هذه المذكّرات كذلك روح الجندي البريطاني. بدأ التمرد بالانتشار مع انتشار شائعة كاذبة تحدثت عن قيام الجنود المسلمين بتزييت بنادقهم بشحوم الخنازير. أُبعد الجنود البريطانيون، وتم اجتياح المدن في ذلك العصيان.

تلقى الجنود المحليون تدريباً جيداً وتسليحاً جيداً من قِبل الأشخاص أنفسهم الذين راحوا يسعون إلى قتلهم، ومحاربتهم بشراسة. بقيت القوى متوازنة لفترةٍ ما. أما النواب، أي أمراء الهند، فقد أجروا حساباتهم بالنسبة إلى الجهة التي تميل إليها كفّة الميزان، لذلك انضمّ بعضهم إلى التمرد بينما فضّل بعضهم تقديم الطعام إلى الحكام.

روى روبرتس قصةً رائعةً تحدثت عن مشاجرة كبيرة حدثت بين الجنود عشية إعدادهم لمهاجمة قلعةٍ يتحصّن فيها المتمردون. دارت المشاجرة العنيفة حول مَن منهم سيحظى بشرف التوجه أولاً إلى الثغرة التي ستحدثها المدفعية في سور المدينة. كان الموت المحتّم ينتظر أول شخص يتوجه إلى ذلك المكان، لكن المنافسة على القيام بذلك العمل وصلت إلى حدّ خطير. حُسمت المنافسة آخر الأمر لمصلحة سكوتس هايلاندرز. ذهبوا جميعاً إلى هناك، ولقوا حتفهم كما هو متوقع. لكن الفخر الذي خيّم على الكتيبة أضفى قيمةً كبيرةً على مسعاهم.

بدت أفغانستان في هذه اليوميات مختلفة تماماً: بدت أشدّ كآبة، وأكثر وحشية، وأبعد ما تكون عن أن تُحكم. اكتشف الروس بعد مرور مئة سنة أن البلاد تمتلك طريقتها الخاصة بها.

قدّمت الالتزام من جانبنا، لكنني فعلت ذلك مع علمي أن الحرب هي شأن لا يمكن توقعه، وعلى الخصوص في أفغانستان. فكّرت، جزئياً نتيجة لذلك، أن من الضروريّ أن تكون المعركة التي نوشك على خوضها ليست مجرد معركةٍ يُقصد منها العقاب. إنها معركة تحرير. أدرك جيداً أن مسببات المعركة هي الهجوم على البرجين التوأمين، لكن ما إن تبدأ المعارك حتى لا يمكن اعتبارها مجرد انتقام،

وثأر، وتعويض الضرر الذي أُنزل بنا. كان لا بدّ أن تأخذ هذه المعارك بعداً، وغاية، ومضموناً أبعد بكثير. كان هذا الصراع مرتبطاً بعقيدة، وهذا ما يجعله يتعدى حدود أفغانستان – أدخلت هذه العقيدة إلى أفغانستان في واقع الأمر – لذلك كان لا بدّ لطموحاتنا أن تكون أكبر بكثير. أضاف ذلك كله ثقلاً إلى المسألة برمّتها ومسؤولية كبيرة لتحقيقها.

سافرنا جواً ليلة ٢٠ أيلول/سبتمبر إلى بروكسل للمشاركة في اجتماع طارئ للمجلس الأوروبي في اليوم التالي. تعمدت الذهاب إلى الولايات المتحّدة قبل انعقاد المجلس، وذلك كي أتكلم بشكلٍ صريح عما شهدته في نيويورك وواشنطن. وقفت أوروبا بقوة وراء الولايات المتحّدة فيً ذلك الاجتماع، لكن عندما وصلنا إلى تقرير طبيعة التحرك بلغ الأمر حدّ الارتباك. سارت أعمال المجلس جيداً في نهاية الأمر وخرج ببيانٍ مرضٍ وحّد الشعوب الأوروبية في إدانة الهجمات والحاجة إلى تحركٍ ما. ستظل ذكرى هذه الأحداث تحتل أولويةً قصوى في عقول السياسيين والجماهير على السواء. احتلت هذه الأحداث صدارةَ الأخبار وبقيت كذلك لأسابيع عديدة مع ورود تفاصيل إضافية. توضحت مع هذه الأخبار القصص الإنسانية عن الكوارث والتضحية، والمعاناة والبطولة، أما عواقب هذه الأحداث فقد لقيت الاستيعاب والتحليل اللازمين.

كانت تلك العواقب كبيرةً جداً. أراد الإرهابيون قتل عددٍ أكبر من الناسٍ لو تمكنوا من ذلك، أي إنهم كانوا سيبتهجون أكثر لو كان عدد القتلى ٣٠,٠٠٠ بدلاً من ٣,٠٠٠. أما قادة العالم فكانوا يتساءلون ويقلقون بشأن مكان وقوع الضربة التالية. لم يفكروا فقط في ما حدث، بل استمروا في التفكير وبإلحاح وتوتر في ما يمكن أن يحدث.

بدأت في تلك الأيام الأولى، حتى قبل أن تبدأ الحرب، وقبل أن يدخل العراق برنامجنا [روزنامتنا] بوقتٍ طويل، بعض الأفكار بالتبلور، وما لبثت أن تحولت إلى قرارات. سبق لي أن تحدثت عن إحدى هذه الأفكار: لا يمكن أن تكون هذه معركة على أسسٍ عقائدية قليلة الأهمية، بل يجب خوضها على أسسٍ عقائدية بالغة الأهمية، أي قيمًنا مقابل قيمهم. لم يقتصر الهدف، بكل بساطة، على إزالة طالبان من السلطة، بل شمل استبدالها بنظام ديمقراطي، وبإعادة بناء البلاد. لم تكن هذه

قضية تفكير في المثاليات فقط، وذلك لأنها كانت تتعلق كذلك بفهم سبب تحوّل أفغانستان إلى دولة فاشلة، وسبب تحوّلها إلى بيئة تشجّع الإرهاب، وسبب انحدارها إلى هذا المزيج الفظيع والقاسي من الفوضى والاستبداد. شرعنا بدءاً من هذه النقطة في مشروع بناء البلاد سواء أحببنا ذلك أم لا.

ثانياً، إن فكرة امتلاك مجموعةٍ كهذه [طالبان]، أو دولةٍ تتعاطف معها أو تتشارك معها بالرؤية ذاتها، لأسلحةٍ نووية، أو كيميائية، أو بيولوجية، أي ما يسمّى بثالوث أسلحة الدمار الشامل، هي فكرة مريعة. أما لو كانت طالبان قد امتلكت هذه الأسلحة في السابق لكان هناك قدر قليل من الشك في أنها ستستخدمها في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. أُرسلت في الأيام التي تلت الهجوم مغلفات تحتوي على الأنثراكس إلى كبار المسؤولين في الكونغرس، والبيت الأبيض، وبعض المسؤولين الآخرين، كما امتلأت الصحف بأخبارٍ تثير الذعر من إمكانية شنّ نوعٍ من أنواع الهجوم الكيميائي. اتضح لي أن موقفنا تجاه المتاجرة بأسلحةٍ كهذه، ونقلها، وتطويرها يجب أن يكون من نوعٍ مختلفٍ كلياً. يتعيّن علينا أن نبعث بإشارة جديدة، وأن نشكّل حالة طوارئ جديدة، بغية توضيح أن إمكانيةً كهذه تشكّل تهديداً مباشراً لمجتمعنا.

كان ذلك واضحاً، ولم يكن الشرق الأوسط استثناءً قط. كانت قضية صدّام وإعاقته عمليات تفتيش الأسلحة التي استمرّت عشر سنوات لم تصل بعد إلى مرحلة التهديد المباشر بالنسبة إلينا، لكن منذ ذلك الحين بدأنا بأخذها في الاعتبار. لم نتخذ قراراً حتى ذلك الوقت يتعلق بكيفية التعامل معه، أو بتأديبه، أو بإزالته عن السلطة، لكن هذه الأمور اتضحت أكثر بعد التحليل العميق.

ثالثاً، كيف أمكن تخطيط هجوم كهذا، وتطويره، والإشراف عليه، وتنفيذه من دون علم أحدٍ به؟ وإذا كان من الممكن التخطيط لخطة كهذه في الولايات المتحدة الأميركية، ففي أي مكان آخر يمكن التخطيط لخططٍ مشابهة؟ بدا لي، انطلاقاً من هذه النقطة، أن التوازن في الحريات المدنية بين حماية حقوق المشتبه فيهم، وحماية حقوق المواطن، قد تغيّر كثيراً. يتعيّن علينا أن نكون حريصين، بطبيعة الحال، كما أنني كنت مدركاً، بصفتي محامياً، مخاطر المسّ بطريقة حياتنا باسم حماية هذه الطريقة، لكن بما أن ١١ أيلول/سبتمبر قد برهن عن قدرات الإرهاب وغاياته، لذلك فإن الحكومات في أنحاء العالم كافة، وعلى الخصوص تلك المتحالفة منها مع

الولايات المتحدة، قد أحسّت بالحاجة إلى اتخاذ إجراءاتٍ أمنية جديدة، ولربما اتّباع نهجٍ جديدٍ إزاءها.

اتخذت تلك القرارات كلها بدعم وفهم لطبيعة العالم الذي نعيش فيه، لذلك كان لا بد أن تترك هذه القرارات آثاراً عميقة في مستقبل البلاد والحكومة. لكن كان هناك ما هو أخطر من ذلك: شعرنا بأننا تلقينا التحذير.

شعرت بالتعب بعد أن عدت إلى شيكرز في وقتٍ متأخر من يوم الجمعة ٢١ أيلول/سبتمبر، لكني مع ذلك كنت أشعر بالاندفاع . أما لو كان بإمكاني معرفة المستقبل، لكنت شعرتُ كذلك بالقلق العميق.

أمضيتُ الأسابيع التالية منشغلاً بعملية محمومة، لكنها جيدة التنظيم، تبتغي تنسيق عملية عسكرية تهدف إلى إزاحة طالبان عن الحكم، وتتضمن خطةً لإعادة إعمار أفغانستان.

صمّم جورج، على الرغم من الضغوطات كافة، على عدم التسرع. لفتتني الملاحظة التي أبداها: «لا أريد إطلاق صاروخ كلّفنا عشرة ملايين دولار كي يصيب خيمةً بقيمة عشرة دولارات، وذلك لمجرد الإبهار». وافق على وضع مهلة نهائية لطالبان، وذلك كي يلمس الشعب أننا عرضنا مخرجاً للوضع، هذا إذا أرادوا الاستفادة منه. كان واضحاً منذ البداية أنهم لن يقبلوه.

داومتُ على الكتابة إليه بانتظام، وكنت أثير معه بعض القضايا في محاولةٍ مني لدفع نظامه ونظامي للتحرك: المساعدات الإنسانية، والتحالفات السياسية بما في ذلك على الخصوص كيفية تعاوننا مع تحالف الشمال (وهو تحالف معادٍ لطالبان) لكن من دون السماح لهم بحكم البلاد، والتنمية الاقتصادية، والمصالحة بعد عملية عسكرية يؤمل أن تكون ناجحة. سافرت، علاوةً على ذلك كله، إلى الشرق الأوسط، وباكستان، وروسيا، وذلك في محاولة مني للتأكد من استمرار الدعم الذي تقدمه لنا تلك الدول. عمدت كذلك إلى كتابة مذكرات شخصية خصوصاً إلى موظفي مكتبي، وإلى كبار المسؤولين، وحدّدت فيها حاجتنا إلى تنسيق أفضل بين كل أقسام نظامنا ونظام الأميركيين.

قدّمت لنا الأمم المتحدة، بتوجيهٍ من كوفي عنان، مساعدةً قيّمة، وهكذا قررت

منذ البداية أن هذه المنظمة الدولية يجب أن تساعدنا على تحمّل العبء السياسي. وجدت الأمم المتحدة، ولحسن الحظ، في الأخضر الإبراهيمي محاوراً عقلانياً مع الأفغان، وهو رجل خبير وذكي.

سارت الاجتماعات التي عقدتها في الخارج على ما يرام. زرت الرئيس بوتين، وكان تحالفنا قوياً. جلستُ وإياه في غرفة انتظارٍ صغيرة في الكرملين. وجدت على الدوام صعوبةً في تحديد هوية موسكو الثقافية. كانت سان بطرسبورغ أوروبية على نحو واضح، لكن وضع موسكو كان فريداً، ولا يمكن تحديده ضمن سياقٍ أوسع، حتى أنه غير مفهوم، على الرغم من أنه رائع بطريقة مخيفة.

كان بوتين متحمّساً للمساعدة، وهو الذي يعرف عواقب التطرف [الديني] من خلال الشيشان. لاحظ بوتين رابطاً مشتركاً بين ميادين الصراع كافة. تصوّر بوتين في ذلك الوقت إمكانيةً لقيام النهضة في روسيا، واحتمال إعادة ظهور القوة الروسية على نحو ينسجم مع الولايات المتحدة، وحتى يتعزز هذا الظهور بالتحالف معها. إنني أشعر بالأسف لأننا لم نتوصل معاً إلى وضع استراتيجية مناسبة تسمح له بتحقيق طموحاته معنا، وذلك على نقيض ما حدث في نهاية الأمر عندما جرت محاولة لوضع هذا التصور بعيداً عنا. ربما كان ذلك أملاً موغلاً في التفاؤل. كانت علاقة بوتين الشخصية مع جورج على ما يرام، لكن فلاديمير كان يعتقد أن الاميركيين يعاملونه، وكذلك روسيا، بقدرٍ غير كافٍ من الاحترام أو الأهمية، ولذلك فإنه بمرور الوقت قرر تقديم روسيا في المجتمع الدولي على أنها الدولة التي تقف على قدم المساواة مع أميركا. وجد بوتين في العراق المكان المناسب للعب هذا الدور، وتمكّن من أن يلعبه بما عُرف عنه من حيوية. كان يجدر بنا أن نبذل جهوداً أكبر معه، أما الأميركيون على الخصوص فحاولوا التقليل من قيمته، ولم تكن تلك بالفكرة الحسنة بتاتاً.

جلسنا، على الرغم من ذلك كله، في أواخر العام ٢٠٠١ كي نخطّط ما يُمكننا عمله كي نتأكد أن الدول التي كانت تابعة سابقاً للاتحاد السوفياتي، والتي تحيط بأفغانستان، ستكون داعمةً لنا، أو ستقوم بما هو مطلوب منها في أي تحركٍ مستقبلي آتٍ. اقترحَ في إحدى اللحظات أن نسافر معاً في تلك الليلة إلى طاجكستان، وذلك من أجل الضغط على رئيسها شخصياً، وهي بادرة قدّرتها له، لكنها قوبلت برفض الفريق الذي ينظّم أسفاري.

كان الرئيس الباكستاني مشرّف في وضع صعب: سبق لحكومته أن عملت مع حكومة طالبان، كما أن حدود البلدين كانت سهلة الاختراق، بالإضافة إلى الروابط القبلية والسياسية القوية بينهما، لكنه كان متحالفاً معنا ومع الولايات المتحدة بطبيعة الحال.

سافرنا يوم ٥ تشرين الأول/أكتوبر على متن طائرة تابعة لسلاح الجو الملكي ومجهزة بقذائف مضادة للصواريخ. اعتقدت أن الأمر مبالغ فيه قليلاً إلى لحظة بداية هبوطنا في مدرج المطار. هبطت الطائرة بمسارات حلزونية حادة وبمناورات حذرة. اندفع طاقم الطائرة بالتصفيق بعد سماعهم أزيز إطارات الطائرة عند ملامستها المدرج. كان من الواضح أنهم شعروا بالارتياح أخيراً. انطلقنا من المطار إلى إسلام آباد، فرأيت الطرقات والشوارع المقفلة، لكني رأيت حشوداً كبيرة من الناس تقف حول حواجز. كان الرجال يرتدون أردية بيضاء، بينما كانت النساء غير المحجبات في العادة يحدقن إلينا من دون إظهار لا العدائية ولا الصداقة.

سرت مع المرافقين نحو مكتب مشرّف في القصر الرئاسي. بقي الحارس الشخصي يحوّم حول الباب طوال وقت الاجتماع، وكان يقترب منا ويقف خلف كل واحد منا عند دخول الخدم الذين حملوا لنا الشاي أو المرطبات. كان مشرّف واضحاً جداً بالنسبة إلى إدانة طالبان، وفي عرضه تقديم المساعدة والدعم. كان يعرف أن الهجوم [على البرجين] قد غيّر كل شيء. أخبرني أمراً فكرت فيه كثيراً في السنوات التالية: اقترف الجنرال ضياء الحق في السبعينيات الخطأ المميت عندما ربط القومية الباكستانية مع الإسلام المؤمن [المتشدد]، وهو فعل ذلك عن طريق لعب دور القائد الديني، والسياسي، والعسكري، كما كان يُظهر تلك العلامة التي تظهر على جبهته نتيجة كثرة سجوده أثناء تأديته الصلوات. شرح لي مشرّف أن الربط بين الأمرين [السياسي والديني] قد عزّز التطرف في البلاد، وركّز الأضواء على كشمير، وجعل المصالحة مع الهند أكثر صعوبة.

قلت له: «أعتقد، بالتأكيد، أن التحدّي الاقتصادي هو أكبر التحدّيات التي تواجهها باكستان».

قال: «بالطبع، لكن السياسة الباكستانية تتمحور هذه الأيام حول الأسلحة النووية وكشمير».

سألته وأنا أتوقع جواباً يتعلق بالمساعدات أو الهند: «وبماذا يمكننا المساعدة؟»

ردّ عليّ فوراً: «يمكنكم حلّ قضية فلسطين، وهذا سوف يساعد كثيراً».

خرجت مسروراً من استعداده لتقديم المساعدة، لكنني شعرت ببعض القلق لأنه شعر أن النجاح النهائي للعملية هو على المِحكّ.

رافقني فريقُ العمل برمّته خلال هذه الزيارات كلها. استفدت كذلك من المساعدة الهائلة التي قدّمها لي السير دافيد مانِنغ، الذي أصبح كبير مستشاري الشؤون الخارجية العاملين في مكتبي، والذي كان موجوداً في الولايات المتحدة عند وقوع هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. عززت في هذا الوقت مركز داوننغ ستريت، كما انضمّ إلى الفريق ستيفن وال القدير، بوصفه مستشاراً للشؤون الأوروبية. كان الرجلان مثالَين لكبار الموظفين الحكوميين. كان دافيد هادئاً، وبإمكانه الصمود أمام الضغوط، وكان خلاقاً كذلك وجاهزاً على الدوام لتقديم استراتيجية تصلح للخروج من مأزق. كان دافيد خلال هذه الأشهر الرجل الأبرز في الفريق، وقدّم أموراً لا تقدّر بثمن. أما ستيفن فكان في أعلى درجات المهنية والبراعة بطبيعة الحال، لكنه كان يُخفي في أعماقه قدراً كبيراً من المشاعر القوية، والآراء، والمفاهيم التي كان يتمنى أن آخذها في الاعتبار وأن أنفذها. كانت بعض أفكاره قابلةً للتطبيق بينما بعضها الآخر لم يكن كذلك. لكن لا يمكنني القول إنه كان غامضاً بتاتاً، وهذا ما أحببته فيه.

بدأت الحملة في هذه الأثناء، أي في ٧ تشرين الأول/أكتوبر. كان معظمها غارات، لكن الأهداف على الأرض كانت محدودة. كان تحالفُ الشمال يتقدم بدوره في هذا الوقت. تمكنا من تحديد أربعة أهداف أساسية: حرمان تنظيم القاعدة من قاعدته الأفغانية، وحرمانه من الحصول على قاعدة بديلة خارج أفغانستان، ومهاجمته دولياً، ودعم جهود الدول الأخرى ضده.

انشغلت المملكة المتحدة منذ بدء الهجمات في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠١، جنباً إلى جنب مع قوات التحالف التي تقودها الولايات المتحدة باسم عملية الحرية الصامدة Operation Enduring Freedom. أطلقت غواصات البحرية

الملكية صواريخ توماهوك ضد شبكات طالبان والقاعدة، أما طائرات سلاح الجو الملكي فقد قامت بعمليات الاستطلاع، وعمليات تزويد الوقود في الجو، وذلك دعماً للطائرات الأميركية المهاجمة. كما أن الولايات المتحدة نفذت مهمّات جوية من دييغو غارسيا، وهي جزء من المناطق البريطانية في المحيط الهندي، وذلك بإذن من الحكومة البريطانية.

ظهر الجنود البريطانيون لأول مرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠١، وذلك عندما شارك جنود من القوات الخاصة ٤٠ التابعة للبحرية الملكية في عملية إحكام السيطرة على مدارج مطار باغرام. انتشر بعد ذلك بوقتٍ قصير نحو ١,٧٠٠ من المحاربين الأشدّاء التابعين للقوات الخاصة ٤٥ تحت اسم Task Force JACANA. كانت مهمّة هؤلاء المحاربين حرمان الإرهابيين من البنية التحتية، وطرد حركة القاعدة من شرق أفغانستان. تمكنت القوة الخاصة Task Force JACANA من تدمير عددٍ من المخابئ والكهوف، كما قدّمت القوة كذلك المساعدات الإنسانية في المناطق التي كانت تهيمن عليها طالبان والقاعدة في السابق. انسحبت هذه القوة في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٢.

أما المساندة الأمنية الدولية ISAF، وهي الهيئة التي أنشئت من أجل مساعدة السلطات الأفغانية الموقتة على إنشاء منطقة آمنة في كابول والمناطق المحيطة بها والحفاظ عليها، فقد أنشئت في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠١، وذلك نتيجة مفاوضات ترأسها البريطانيون، وأجازها قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، الذي يحمل الرقم ١٣٨٦، بالإضافة إلى القرارات المتتابعة الأخرى (التي كان آخرها القرار ١٧٧٦ الذي صدر في العام ٢٠٠٧). قاد اللواء جون ماكول أول مهمة لقوات ISAF، التي شاركت فيها ست عشرة دولة. ساهمت المملكة المتحدة بمركز الفرقة وبكتيبة جنود، بالإضافة إلى تقديمها مركز القيادة، ومعظم القوة المساعدة لـ ISAF. وصلت مساهمتنا في البداية إلى ٢,١٠٠ جندي لكنها تقلّصت لاحقاً إلى نحو ٣٠٠ جندي، وذلك بعد نقل قيادة ISAF إلى تركيا في صيف العام ٢٠٠٢.

انهارت طالبان في نهاية العام ٢٠٠١، وتفرقت بقايا ذلك التنظيم بين قبائل البشتون، والمناطق القبلية الباكستانية. كان من الأهمية بمكان التأكد من عدم رجوع أفغانستان إلى البيئة الخارجة على كل سلطة شرعية، وهي البيئة التي يتعزز فيها

تدريبُ الإرهابيين والتحضيرات لعملياتهم. بقيت القوات الدولية إذاً من أجل ضمان الأمن والاستقرار، ومن أجل محاربة عناصر الطالبان والقاعدة، وكذلك من أجل دعم تطوير القوات الأمنية الأفغانية.

كانت قواتُ التحالف لا تزال متماسكة في ذلك الوقت، وكان ثقل الرأي العام الدولي إلى جانبنا، وكانت الأهداف واضحة. يمكنني الآن أن أحدّد الهدف على ضوء ما حدث تالياً، وهو أمر يحمل أهمية كبيرة. كان تحليلنا للوضع يقول إن أفغانستان كانت دولة فاشلة، ثم استولت طالبان على الحكم، وكنتيجة لذلك ازدهر التطرف تحت حماية طالبان. كانت تجارة المخدّرات عاملاً آخر ساهم في نشوء الاضطرابات. تحولت أفغانستان إلى المصدر الذي يأتي منه ٩٠ بالمئة من مجمل الهيروبين الذي يجد طريقه إلى شوارع أوروبا.

يقول الناس الآن، وبعد مرور عدة سنوات: لكن المهمة ليست واضحة، أو أنها تعرضت للتشويش. لا أقول إن المهمة غير واضحة، كما أنها لم تكن كذلك. أعتقد أن ذلك كان واضحاً بالنسبة إلينا في ذلك الوقت مثلما هو الوضع الآن. ليس هناك تمييز دقيق بين الحملة التي تهدف إلى استئصال القاعدة، أو الحملة التي تهدف إلى منع طالبان من استعادة سيطرتها على البلاد، أو بناء الديمقراطية، أو ضمان وجود اقتصاد سليم، وليس اقتصاد مخدّرات. لا مجال لوجود كلمة «أو» في هذه العبارات. إذا سمحنا لطالبان بإعادة الظهور على مسرح الأحداث، وإذا فشلنا في بناء إدارة، فإننا سوف نرى الدولة الفاشلة ذاتها مع العواقب ذاتها. يتبيّن لنا أن المشكلة ليست في أننا حاولنا القيام بأمور أكثر من اللازم، لكن المشكلة هي أن تحقيق هذه كلها الأمور يتطلب انشغالاً تاماً ومستمراً، وهو انشغال يجب أن يكون مدعوماً بموارد كثيرة، وعلى امتداد فترة كبيرة من الوقت.

كان المدى الكبير للتحديات لا يزال واضحاً حتى العام ٢٠٠٤ ضمناً، لكن الأمور بدت بطيئة على الرغم من ذلك. سأتحدث لاحقاً عن القرارات التي اتخذناها في العام ٢٠٠٦، وهو الوقت الذي بدا فيه أن التقدم الذي نحرزه قد توقف. لكن بالمقارنة بـ ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ ـ أي عند تشكيل الحكومة الموقتة، حتى إجراء الانتخابات الرئاسية في العام ٢٠٠٤، وذلك عندما بلغت نسبة المقترعين ٧٠ بالمئة، كما اقترع عدد كبير من النساء ـ حتى الانتخابات المحلية التي جرت

في خريف العام ٢٠٠٥، فإن أفغانستان تبدو، بشكلٍ كبير، على طريق أن تصبح دولة أفضل، وذلك على الرغم من كثرة الانحرافات، والتراجعات، والنكسات المستمرّة.

إنني لا أقول، وبكل تأكيد للمناسبة، إننا قمنا بكل الأمور بالطريقة الصحيحة، أو لم يكن بوسعنا القيام بأمور كثيرة بطريقة فضلى. أعتقد أن هذه هي الحال دائماً في ظروفٍ كهذه. أعتقد فوق كل شيء، وبكل تأكيد، أنني أسأت تقدير مدى عمق الفشل في الدولة الأفغانية، وكذلك قدرة طالبان على غرس عناصرها في المجتمعات المحلية، وعلى الخصوص تلك الموجودة في الجنوب، وفي قدرتها على الاعتماد على تعزيزات عبر الحدود الممتدة على المرتفعات الجبلية بعيداً عن قبضة القانون والسلطات الشرعية. سمح لهم هذا التغلغل باستمرار أعمال العنف التي يقومون بها، وبتنظيم قواهم، وبتنظيم الأعمال الشرّيرة التي تستهدف إعادة فرض سيطرتهم على أجزاء من البلاد، أو على الأقل عرقلة الأمور التي كنا نقوم بها.

كان تطرفهم يعني، بالنسبة إليهم، أن الغايةَ تبرّر الوسيلة. كانوا مستعدّين للقتل، والترهيب، والتعذيب من دون ندم أو تعذيب ضمير. لم يكن القرويون متأكدين من هويّة السادة الذين يتعيّن عليهم إطاعتهم، لذلك تذبذبوا بين دعم الحلفاء وإطاعة المتشدّدين الدينيين المحليين. في هذه الأثناء كافحت الحكومة المركزية في كابول برئاسة حميد كرزاي من أجل بسط سلطتها.

مع انتهاء العام ٢٠٠١، انتشرت الأخبار، على نحو متردد في البداية، وبسرور بعد ذلك، أي الأخبار التي تحدثت عن أن ما كان في البداية جهداً دولياً جباراً قد بدأ بالتحوّل شيئاً فشيئاً إلى جهود الولايات المتحدة وأقرب حلفائها. لم نتلق ضربةً أخرى تشبه ما حدث في ١١ أيلول/سبتمبر، كما أن قصص الهجمات الكيميائية قد بدأت بالتلاشي. بدأ كذلك إدراك العالم وجود خطر يحتاج إلى مواجهته يتلاشى تدريجاً، وبدأ هذا الإدراك يفقد شكله وسيطرته في وقت بدا فيه أن الحياة قد عادت إلى مجراها الطبيعي. بدأت بعض الآراء بالظهور، متردّدةً في البداية وما لبثت أن اكتسبت رسوخاً أكبر بعد ذلك. تسبب ذلك بتأثيرات ضارة جداً بإرادة الاستمرار.

كان أول الآراء التي ظهرت هو أن صور مهمات الغارات الجوية التي قام بها

الحلفاء قد فعلت فعلها بمرور الوقت، وهكذا بدأ الدعم الإسلامي للحملة بالتراخي. أراد أعداؤنا، وبكل قوة، إظهار ما يجري وكأنه حرب على دولةٍ إسلامية، وهي الفكرة التي بدأت بالترسّخ شيئاً فشيئاً. أما ما هو أهمّ من ذلك فهو أن الأمر كان يُنظر إليه منذ البداية على أنه قضية تخصّ العالم الغربي. لكن الواقع هو أن القوات التركية قد اشتركت معنا، واشترك غيرها في وقتٍ لاحق، لكن الرأي العربي والإسلامي كان يقول إن الحملة تجري من أجل أميركا، وليس من أجل محاربة الإرهاب. أما تلك العناصر المتجذّرة في الإسلام، الذي تراه على أنه ضحية، فقد أعادت تأكيد ذاتها، وشكّكت في دوافعنا، واستخدمت ضدنا لغة يؤسف لاستخدامها. عمد جورج وسيلفيو على السواء إلى استخدام كلمة حملة [صليبية] crusade [التي تعني حملة، وتعني كذلك حرباً دينية]. كان من الواضح أنهما استخدما الكلمة بمعناها العام، أي كما يشير المرء إلى حملة ضد المخدّرات أو الجريمة، وهي كلمة مستخدمة في أحاديثنا السياسية. تعرّض معنى الكلمة للتحوير بغية الإيحاء أنهما استخدماها في إشارةٍ إلى الحرب الصليبية التي جرت في الماضي البعيد. أعتقد أن عدداً كبيراً من الحكومات العربية والإسلامية ليس من المستغرب عدم ملاحظته أن قضية الديمقراطية هي إحدى القضايا التي يجب عليه أن يناضل من أجلها.

بدأت القوة الأخلاقية التي رافقت إطلاق الحملة بالتبدّد في الدوائر الغربية كذلك. كما بدأت أفغانستان بالابتعاد عن نشرات الأخبار، لذلك بدا أثر تلاشي القوة الأخلاقية ضئيلاً من الناحية العملية، لكن ذلك يعني لنا، مرةً بعد أخرى، أن التركيز الفائق الذي نحتاج إليه يكون غائباً إلا من جانبَي الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. كان من الواضح أننا لا نستطيع القيام بكل شيء وحدنا. كان الأوروبيون معنا، لكن ضمن حدود معينة يحدّدها الرأي العام، الذي كان مستعداً لدعم مهمتنا عموماً، لكنه كان متردّداً بعمق بشأن تقديم جنود وتحمّل خسائر بشرية.

أقول، وبكل ثقة، كان يمكننا القيام ببعض الأمور بطريقة أفضل وعلى نحو مختلف، لكن السبب الرئيس للبطء في تحقيق تقدم هو أن عدوّنا بدأ بالإحساس بحدود قدرتنا على التحمّل، أو قدرتنا على استيعاب حربٍ طويلة. بدأ العدو، سواء في العراق أو أفغانستان، بإدراك أننا غير جاهزين لحربٍ قد تعني تحمّلنا خسائر

كبيرة، وأنه إذا أظهر جهوزيته للاستمرار يوماً بعد يوم في مناطق يعرفها جيداً ومع رجالٍ شهدوا أعمال عنفٍ وقمعٍ كثيرة عبر عقودٍ من الزمن، فسيمكنهم الفوز بهذه الحرب ليس بتفوق قوتهم، أو بمواردهم الواسعة، أو بجهدهم الأقوى، بل بإصرارهم ومثابرتهم.

إنني أفكر في اللحظات التي أشعر فيها ببعض التشاؤم من ذلك المثل الذي يسأل فيه يسوع: «من منكم إذا أراد بناء برج لا يجلس إلى نفسه أولاً، ويحسب التكاليف كي يعرف ما إذا كان يمتلك ما يكفي من المال كي يُتّم بناء البرج؟» توقّعنا مسيرةً طويلة وثابتة، وحسبنا حساباً لصعوبات جمّة ستعترض طريقنا. لكننا لم نحسب حساب مدى القبضة الشديدة التي يُحكمها التطرف على مخيّلة المتمسكين به وإرادتهم وطريقة حياتهم.

فرضت حقيقة أخرى نفسها علينا، وهي أن عدداً من غير المتطرفين الدينيين يحسّون أن هناك ما يبرر لأعدائنا شنّ حربٍ علينا، وأن هذه هي معركة بين الغرب وشعب أفغانستان. إن هذه الفرضية هي فرضيةٌ خاطئة كلياً، وذلك لأن شعب أفغانستان أظهر من خلال الانتخابات ما يريده. حاولت إثبات خطأ هذه الفرضية عن طريق صوغ استراتيجية أوسع تستند إلى القيَم التي تتطلب القوة الناعمة، والقوة الصّلبة على السواء.

وضعتُ في الخطاب الذي ألقيته أمام مؤتمر الحزب في العام ٢٠٠١ الأمور التي اعتبرت أنها يمكن، ويجب، أن تكون من الأولويات. عقدت مقارنةً تاريخيةً بهزيمة الشيوعية الثورية. لعبت القوة العسكرية دورها بطبيعة الحال، لكن لو فهم الاتحاد السوفياتي أن قوته سوف تجابه بقوتنا، لكان من الممكن أن ينتصر بغضّ النظر عما هو صواب، لكن الاتحاد السوفياتي تلقى الهزيمة في النهاية بسبب قوة فكرة [أو مفهوم] واحدة: الحرية الإنساني. بدأ الناس ينظرون بمرور الوقت إلى الأنظمة السوفياتية الشيوعية بحسب ما هي عليه، أي على أنها دكتاتوريات. أما الاقتصادات الشيوعية فكانت كارثية. حرمت المجتمعات الشيوعية شعوبها من كل ما يشكل حوافز ويُغني الروح الإنسانية. كانت أخطاؤنا نحن كثيرة في هذا الوقت، لكن إصرارنا على خوض المعركة كان محقاً.

اختفت مع إطلالة القرن الواحد والعشرين تلك المعارك التي كانت تستهدف تحقيق التفوق السياسي العقائدي. يصدق ذلك حتى على الصين، حيث الشيوعية ذات المزايا الصينية، إذ نلاحظ أن النظام أصبح متوازناً بين السوق والدولة. كان سقوط جدار برلين دلالةً فعليةً على حقبةٍ جديدة، هذا إذا استثنينا كوريا الشمالية.

إننا نواجه الآن معركةً جديدةً لأنها تدور حول الثقافة والدِّين أكثر من السياسة في ذاتها. بقي الطريق إلى النصر، برأيي أنا، هو ذاته: المواجهة عسكرياً، لكن مع إدراكنا أن طريقة إلحاق الهزيمة بفكرة [أو مفهوم] سيئة هي بتعزيز فكرةٍ أفضل. اعتبرت أن علينا تقديم استراتيجية شاملة لتغيير العالمً، وهكذا نقدّم القيَم التي نعتقد، في أفضل الأحوال، بصوابيتها ونتحرك على أساسها.

ترتكب الأمم الغربية أخطاء عديدة، لكن سبق أن قلت مراراً إن هناك اختباراً بسيطاً لدولةٍ ما: هل يحاول الناس الدخول في هذه الأخطاء، أم أنهم يحاولون الخروج منها؟ كانت مشكلتنا، عموماً، هي المهاجرين القادمين إلى البلاد، وليست الهجرة المعاكسة. كان الناس هم أصحاب القرار في الحصيلة النهائية، وليس السياسيين. وقفنا كذلك مع العدالة، وهكذا وضعت تصوّراً يقضي، إلى جانب المعركة الأوسع، بوجوب إظهار تصميمنا على تحقيق السلام في الشرق الأوسط، وعلى إظهار اهتمامنا بإفريقيا، باعتبار ذلك «وصمة عارٍ في ضمير العالم»، هذا بالإضافة إلى التزامنا البيئة. كان علينا، بالإجمال، أن نُثبت أن ما نريده لأنفسنا هو ما نريده للجميع.

كانت الفرضية الأساسية لحديثي هي ميزة التكامل العالمي الحاسمة.

دفعت أحداث ١١ أيلول/سبتمبر حكومات العالم وشعوبه في اتجاه التأمل، والتفكير، والتغيير. يظهر أمامنا بعدٌ جديد في سياق هذه العملية، ووسط هذا الكلام كله عن الحرب والتحرك. وهناك نزعة للتجمّع. إن قوة المجتمع community تفرض وجودها. إننا ندرك نقاط ضعف حدودنا بوجه تحديات العالم الجديدة.

يندر أن تبقى النزاعات هذه الأيام داخل حدود البلاد التي تحدث فيها. نلاحظ كذلك أن الهزّة التي تحدث في إحدى الأسواق الاقتصادية تتردّد في أسواق العالم الأخرى، كما أن الثقة قد أصبحت شاملةً هذه الأيام، إما أن تكون هذه الأيام وإما أن لا تكون. إن التهديد الماثل أمامنا اليوم هو الفوضى، لأننا إذا أردنا تأمين العمل

للناس، وإدخال التوازن إلى الحياة العائلية، وتسديد قيمة الرهون، وتقدم المهن، والاستمرار بتقديم معاشات التقاعد، فإن ذلك يحتاج كله إلى النظام والاستقرار، لكن إذا لم يستتب النظام والاستقرار في أمكنةٍ أخرى فمن غير المحتمل أن يستتبا هنا. كان اعتقادي منذ زمنٍ طويل أن التكامل [الاعتماد المتبادل] هو الذي يحدّد شكل العالم الجديد الذي نعيش فيه.

حددت كذلك الحاجة إلى تحرك منسقٍ بالنسبة إلى مجموعة من القضايا الدولية، كما وصفت تحديات العولمة. مضيت بعد ذلك بالقول:

القضية الآن ليست كيفية وقف العولمة، بل هي كيفية استخدام قوة المجتمع ومزجها مع العدالة. أما إذا عملت العولمة لمصلحة قلةٍ من الناس، فمصيرها سوف يكون الفشل. لكن إذا اتبعنا المبادئ التي خدمتنا جيداً في البلاد، فإن السلطة، والثروة، والفرص، يجب أن تكون في أيدي الكثرة، وليس القلة. وإذا استرشدنا بذلك الضوء من الاقتصاد العالمي، فعندئذ سوف تكون هذه المبادئ قوةً في سبيل الخير، وحركةً عالميةً يمكن أن تفخر بقيادة العالم. إن البديل من العولمة هو العزلة.

أخذت دول العالم، بعد أن واجهها هذا الواقع، تنزع إلى التجمّع بصورةٍ غريزية. قررت جميع دول شمال أميركا وجنوبها، عندما اجتمعت في كويبك، إنشاء منطقة تجارة حرة كبيرة يمكنها منافسة أوروبا. أما آسيا فلديها منظمة ASEAN. إن لدينا في أوروبا أكبر التجمعات المتكاملة على الإطلاق، وهي التي تضمّ الآن خمس عشرة دولة بالإضافة إلى اثنتي عشرة دولة تتفاوض للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وهناك عدة دولٍ أخرى تريد الانضمام. يُضاف إلى ذلك هذه العلاقة الناشئة القائمة بين روسيا وأوروبا.

أما الهند والصين، اللتان تضمّ كل واحدة منهما عدد سكان يفوق ثلاثة أضعاف سكان دول الاتحاد الأوروبي مجتمعة، وإذا ما تطور اقتصاد كل دولةٍ منهما بما يكفي، وهو أمر مؤكد، فماذا سيمنعهما من إعادة ترتيب جيوسياسة العالم، وفي زماننا هذا؟

أما عندما نسعى إلى محاسبة الذين ارتكبوا تلك الأعمال الوحشية في ١١ أيلول/ سبتمبر، فليس لأننا نحب سفك الدماء، بل حباً بالعدالة. إننا لا نتحرك ضد الإسلام،

لأن المؤمنين الحقيقيين بالإسلام هم أشقاؤنا وشقيقاتنا في هذا الصراع. لم يعد بن لادن مطيعاً للتعاليم الصحيحة للقرآن بأكثر مما كان الصليبيون الذين قاموا بأعمال النهب والقتل، في القرن الثاني عشر، يمثّلون تعاليم الإنجيل.

حان الوقت الآن أمام الغرب كي يعالج مشكلة جهله بالإسلام. إن اليهود، والمسلمين، والمسيحيين، هم جميعاً أبناء إبراهيم. حانت الآن لحظة التقريب بين الأديان كي تفهم أن قيَمنا المشتركة، وتراثنا المشترك، هما مصدر الوحدة والقوة.

ضمّنت الخطاب كذلك دفاعاً قوياً عن أميركا، ليس كدولة فقط بل بوصفها مفهوماً أيضاً:

لأميركا أخطاؤها كمجتمع، وذلك حالنا نحنِ كذلك، لكني أفكّر كيف أن الاتحاد الأميركي قد وُلد نتيجة هزيمة العبودية. إنني أفكر في دستورها، وفي الحقوق الثابتة التي أعطتها لكل مواطن، وهما اللذان ما زالا نموذجين لكل مواطنٍ في هذا العالم. إنني أفكر في رجلٍ أسود وُلد في أحضان الفقر، وأصبح فيما بعد رئيس هيئة أركان القوات المسلحة، وهو يتولى الآن منصب وزير خارجية الولايات المتحدة، أعني كولن باول. كما أتساءل بصراحة عما إذا كان شيئ كهذا يُمكن أن يحدث هنا. أفكّر كذلك في تمثال الحرية، وفي ذلك العدد من اللاجئين، والمهاجرين والفقراء الذين مروا من تحت شعلته وفكروا في أن هذا العالم الجديد يُمكن أن يكون لأولادهم إن لم يكن لهم. إنني أفكّر في بلاد لا يضطرّ الناس الناجحون فيها إلى الإجابة عن أسئلة تتعلق بلهجاتهم، أو طبقتهم، أو بداياتهم، بل تجدهم يمتلكون الإعجاب بما قدّموه، والنجاح الذي أحرزوه. إنني أفكّر في النيويوركيين الذين التقيتهم وهم ما زالوا مصدومين، لكنهم لم يفقدوا تصميمهم، وفي رجال الإطفاء والشرطة المحزونين لفقدان زملائهم، لكنهم أبقوا رؤوسهم شامخة.

إنني أفكر في هذا كله وأتأمل: أجل، لأميركا أخطاؤها، لكنها بلد حرّ، وديمقراطي، وهي البلد المتحالف معنا، إلا أنها في بعض ردود الفعل تجاه أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر أظهرت حقداً أميركياً يُلحق العار بمن يشعر به.

أعتقد أن هذا الصراع هو صراع من أجل الحرية، لكني أريد أن أجعله صراعاً من

أجل العدالة كذلك. لا أقصد تلك العدالة التي تعاقب المذنبين فقط، بل تلك التي تقدم قيَم الديمقراطية والحرية ذاتها لشعوب العالم.

أريد أن أوضح أن القيَم هي: الحرية، ليس بمعناها الضيق الذي يعني التحرر الشخصي فقط، بل بمعناها الأوسع الذي يعني أن يحصل كل فردٍ على الحرية الاقتصادية والاجتماعية كي يطور إمكانياته إلى الحدّ الأقصى. هذا هو ما يعنيه المجتمعُ الذي يتأسس على القيم المتساوية للجميع. إن الجائعين، والبائسين، والمحرومين، والأميين، وأولئك الذين يعيشون في أجواء الفاقة والبؤس من صحارى شمال إفريقيا إلى أحياء غزّة الفقيرة، حتى سلاسل جبال أفغانستان: إنهم جزء من قضيتنا كذلك.

إن هذه هي لحظة هامة يتعيّن علينا أن نغتنمها. اهتزّ النظام العالمي برمّته، وتناثرت أجزاؤه هباءً، لكنها سرعان ما ستعود إلى الاستقرار ثانية. لكن دعونا نعد ترتيب العالم من حولنا قبل أن تعود هذه الأجزاء إلى الاستقرار.

يمتلك الجنس البشري هذه الأيام العلوم والتكنولوجيا التي تمكنه من تدمير نفسه، أو لمنح الازدهار للجميع. لا يستطيع العلم، مع ذلك، أن يقوم بالخيار نيابةً عنا، لكن القوة الأخلاقية [المعنوية] لعالم يتحرك كمجتمع واحد يستطيع ذلك. «بقوة مسعانا المشترك نستطيع أن نحقق قدراً أكثر بكثير مما نستطيع تحقيقه لوحدنا». [اقتباس من البند الرابع الجديد].

أما بالنسبة إلى الأشخاص الذين فقدوا أرواحهم في ١١ أيلول/سبتمبر، وأولئك الذين يشعرون بالحزن عليهم، فقد حان الوقت بالنسبة إليهم لأن يمتلكوا القوة لبناء ذلك المجتمع. ليكن ذلك تذكاراً لهم.

اجتذب هذا الخطاب الترحيب والاستهجان، أي كما هو الحال مع كل الخطابات الحالمة بالمستقبل. كتبتُ هذا الخطاب بنفسي ومن دون تردّد تقريباً، لكنني فعلت ذلك من دون العذاب المعتاد الذي يترافق عادة مع كتابة خطاباتٍ كهذه، أما كتابة التصحيحات فقد كانت قليلة جداً. جلست في مكتبي في شيكرز الذي يطلّ على حديقة الورود. كان أول ألوان الخريف قد بدأ بالظهور فيها. بدأت بالكتابة بعد ذلك. أتذكر أنني تناولت من المكتب محبرةً فضيةً وذهبيةً كانت عبارة عن هديةٍ قُدّمت

إلى تشامبرلين في العام ١٩٣٧. تحتوي المحبرة على كتابة لاتينية ترجمتُها كما يأتي: «أن نقف على الطرق القديمة، وأن نرى ما هو الطريق الصحيح والمناسب، وأن نمشي بحسب ذلك». شعرت بأننا على عتبة قرارٍ هام يتعلق بمستقبل العالم. كتبت بكل سهولة لأنني كتبت ما فكرت فيه.

كان الخطاب، عندما نتذكر تلك الأيام، مثالياً على نحو استثنائي، لكنه كان استراتيجياً كذلك. استند الخطاب إلى قرار واحد هام جداً، لكنه قابل للجدال.

سبق لي أن وضعت في الخطاب الذي ألقيته في شيكاغو في شهر نيسان/أبريل من العام ١٩٩٩، مبدأ وضعَ التدخل – والتدخل العسكري إذا كان ذلك ضرورياً – في صميم إنشاء مجتمع دولي أكثر عدلاً. توسّعت كذلك في مفهوم المصلحة القومية، وجادلت أن مصلحتَنا القومية في عالم متداخل تدخل في الحسبان في كل مرة يوجد فيها الظلم أو الخطر. وهكذا وصلت إلى هذا التحدي الجديد حاملاً معي دافعاً طبيعياً قوياً يسمح بتبني نهجٍ يتميز بالجرأة، ويجعلني جاهزاً للتدخل بدلاً من تجاهل الأمر.

برز أمامنا أساساً رأيان حول كيفية توجيه السياسة الخارجية. يقدّم هذان الرأيان عادة بوصفهما خياراً بين المثالية والواقعية، لكن ذلك أمرٌ يخلو من الإنصاف بالنسبة إلى طريقتَي التفكير. يعتقد المثاليون أن السياسة الخارجية التي تكون مدفوعةً بمبدأ معين هي الوحيدة التي لها حظ النجاح، وذلك لأنها الوحيدة التي تغيّر وتُقنع. أما الواقعيون فيعتقدون أن بواسطة الواقعية السياسية يمكننا إنقاذ الأرواح وتوفير الأموال، وهو الأمر الذي يستأهل التحقيق. يبدو النهجان، ببساطة، طريقتي تحليلٍ مختلفتين لما هو فعّال.

كانت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر عملاً فظيعاً ومرعباً، لذلك تمكّنت من نثر صورة العالم في الأجواء. لكن يمكن تقبّل هذا الحدث فقط بوصفه الحدث الذي غيّر نظرتنا إلى العالم بصورة أساسية. كان الناس مستعدين تماماً في تلك اللحظة للتدخل بحزم كي تستقرّ أجزاء الصورة بترتيبها وتنسيقها المناسبَين.

بدأ الناس يتساءلون بمرور الوقت ما إذا كانت عواقب هذا الحدث مبالغاً فيها. يمضي هذا الرأي بالقول إن ذلك لربما كان حدثاً لمرةٍ واحدة، ولذلك يجدر بنا

معالجة الوضع، ولربما تغييره بمرور الزمن، لكن أليس الأهمّ من ذلك كله هو تهدئة الأمور؟ أصبحت المهمة أكثر صعوبة، كما توضّحت أكثر إرادة العدو بالاستمرار في القتال، وهذا ما أضفى على هذه الحجّة جاذبيةً متزايدة: ربما يكون هذا التطرف [الديني] قابلاً للاستئصال. ربما نتمكن من الخروج من هذا الوضع إذا ما فرضنا ضغوطاً كبيرة على إسرائيل وفلسطين، على سبيل المثال. يُحتمل أننا إذا ما قلّلنا من طموحاتنا واكتفينا بإدارة شؤون العالم، واعترفنا بأن الثقافات [الحضارات] المختلفة تمتلك مناهجها المختلفة، نستطيع التعايش معاً بصورة أفضل. مضى أصحاب هذه الحجّة بالقول إن القضية ليست «الحرب على الإرهاب» بالفعل، وإن هذا التعبير يُظهر التوتر وهو غير مساعدٍ بالمرة. إن هذه الحرب لا شأن لها بالإسلام، أو بالدِّين، في حقيقة الأمر. ربما لا تكون الصراعات التي تبدو مترابطةً هي كذلك بالفعل، بل قد تكون نزاعات محلية. تمضي هذه الحجّة بالقول إن إدخال الديمقراطية إلى هذه الدول يعني فرض الأفكار الغربية على الشعوب غير الغربية، وهي صيغة من صيغ الاستعمار الثقافي، ووليدة الجهل.

أما ردّ الناس، وأنا منهم، فكان بأننا تلقينا إنذاراً ويجب علينا العمل بموجبه. لا يُمكن للمرء تصنيف تنظيم القاعدة فرعاً بسيطاً من تفرعات عقيدة متشددة غريبة. تنبهت في وقتٍ لاحق بعد أن درست الموضوع بعمقٍ أكبر، إلى أهمّية الثورة الإيرانية. صحيح أن إيران كانت في العام ٢٠٠١ معاديةً لطالبان وصدّام، ولتنظيم القاعدة تبعاً لذلك. لكن أعمال العنف كانت مرتكزة على الانقسام الشيعي/ السني، ولم تكن وليدة وجهة نظر أي منهما تجاه العالم. تمحور الصراع حول من سيقود حركة رجعية داخل الإسلام، وليس حول من سيُنشئ حركة تقدمية.

تأملت في حادثة الهجوم على مكّة في أواخر العام ١٩٧٩ من قِبل متطرفين من السنّة نتيجة قلقهم من احتمال قيام المسلمين الشيعة بتنظيم مسيرة. أُحبط هذا الهجوم بحزم شديد، وهو الهجوم الذي مكّن آل سعود من تقييم قوّتهم. ازداد ميل السلطات منذ ذلك الحين إلى السماح للقوى الدينية بقولبة المجتمع السعودي.

اعتبرت كذلك أن الردّ على تهديد لا يكون بالتسبب بتهديد آخر. فكّرت كيف أننا دعمنا في أفغانستان القوى التي أصبحت فيما بعد تنظيم طالبان، بغية إيقاف

الروس عند حدّهم، وذلك تحت عنوان معالجة الوضع. تذكرت كيف قمنا بتسليح صدّام كي يكون كابحاً بوجه إيران، وكيف كانت عواقب «الواقعية» في كل حالة من هاتين الحالتين هي، ببساطة، إنشاء مصدر جديد لعدم الاستقرار قد يكون أسوأ من سابقيه.

أدركت، فوق ذلك كله، أن ١١ أيلول/سبتمبر قد أظهر بطلان تحليلاتنا السابقة كافة، أو على الأقل أوجب إعادة تفحصها. لا يمكننا بعد الآن الافتراض أن البلدان التي يتفشى فيها هذا الفيروس ليست من شأننا أبداً. لاحظت أنني ثوري إذا ما تعيّن علينا الاختيار بين سياسة إدارة الوضع، وسياسة الثورة. يعني ذلك أنني لم أعد أعتبر أن هذا الوضع يمكن أن يُدار بأمان، أي إنه يجب أن يوضع في طريق التغيير الجذري.

كانت ذكرى تمضية أيام سعيدة قليلة برفقة العائلة، والطفل ليو، تحت شمس شرم الشيخ في مصر، لا تزال حيةً عندما زرت مطار باغرام في أفغانستان. نزلت من طائرة النقل C130. رأيت سجّادةً حمراء قد بُسطت على أرض المطار. تلقينا تحذيراً بعدم السير بعيداً عن السجّادة لأن مناطق واسعة من أرض المطار لا تزال ملغومة.

حيّاني كرزاي بعد نزولي من سلّم الطائرة، وتطلعت إلى حرس الشرف الذين جُمعوا على وجه السرعة. لاحظت أن أزياءهم الرسمية قد أعطيت لهم، أو استُعيرت، أو سُرقت مما بدا وكأنه جيوش العالم. كان الرجال نحيلي القامات، أما المكان فكان كتلةً من المباني المحترقة، ومن الحُفر.

استعرضت أنا وكرزاي حرس الشرف بينما كان المصورون وطواقم التصوير أمامنا، وهم يحاولون التقاط الصور، فاصطدموا مع رجال الأمن الأفغان الذين أزاحوهم عن السجّادة. كان المصورون يعودون ثانية، فبدا المشهد وكأنه مأخوذ من فيلم ضاحك، خصوصاً وأننا تعودنا عدسات التصوير المصوّبة نحونا، وكل ذلك وسط هذا الاستعراض الذي يجري أمامنا.

قال حميد: «أريدك أن تلتقي أعضاء حكومتي». مشينا إلى مبنى تعرض للقصف يقع إلى جانب المدرج. دخلنا المبنى، وجلسنا على مقاعد موقتة، وعلى مقاعد بلاستيكية معدّة للاستخدام في الحدائق. تقدم مني رجل وعرّف بنفسه، على ما أظن، على أنه وزير الفنون والثقافة، ثم جلس ساكناً. نظر إليّ الرجل بعين واحدة

فقط بسبب فقدانه عينه الأخرى. لم تفارق عينه وجهي للحظة واحدة، كما أنها لم ترمش قط.

تحدث الوزراء عن آمالهم ومخاوفهم، وكان حميد يعلم تماماً ماذا يقول وكيفية قوله. ساهمت لغته الإنكليزية الممتازة، واتزانه، وثقته، في رفع معنوياتي. خرجت متشجعاً بتعابيره البطولية التي توحي بالتصميم الشديد، لكني شعرت بالقلق بعد أن أوحت النظرات القليلة التي ألقيتها على المنطقة بحقيقة وضع البلاد.

أعرف أن مهمتنا ستستغرق وقتاً. لكني لا أعرف إلى متى، ولم أتمكن من تحديد مدى صعوبتها.

الفصل الثالث عشر

العراق: العدّ العكسي لبدء الحرب

شعرتُ بالقلق الشديد الذي هو مزيج من الغضب والحزن، وأنا أفكر في كيفية الإجابة عن السؤال الذي وجّهته إليّ لجنةُ تحقيق شيلكوت الخاصة بحرب العراق في شهر كانون الثاني/يناير ٢٠١٠، وكان على النحو الآتي: «هل تنتابك مشاعر الندم؟» لم يكن ذلك سؤالاً يمكن أن يُطرح على المرء، أو أن يجيب عنه بمجرد تأملٍ روحي هادئ، ولا بالأمر الذي يُمكن قياسه، أو التفكير فيه، أو شرحه بشمولية، ووضوحٍ عميق، أو حتى بأمانة مريحة.

كان ذلك سؤالاً تستوجب الإجابة عنه وضعها في العناوين الرئيسة. أعرف النتيجة إذا كانت إجابتي «نعم»: «بلير يعتذر عن الحرب»، «أخيراً قال إنه آسف». تعيّن عليّ اختيار جواب بديل، لكني أعرف أن النتيجة هي ذاتها. سيبتهج أولئك الذين عارضوا الحرب، أما أولئك الذين دعموها فسيشعرون بالإحباط وسيتصوّرون أن دعمهم، وتضحياتهم في بعض الأحيان، قد ذهبا هباءً. أما إذا كانت الإجابة «لا»، فإنني سأبدو كإنسان قاسي القلب لا يكترث لمعاناة الآخرين، أو ما هو أسوأ من ذلك سأبدو كرجلٍ يقاوم بعناد، لكن ليس بسبب قوته، بل لأنه لا يُحسن القيام بأي شيء آخر.

قلتُ، لتلك الأسباب كلها، إنني أتحمّل المسؤولية، وقلتُ إن القرار كان قراري، وهكذا تجنبت العناوين التي كان من شأنها تحوير مشاعري. كان ذلك جواباً ناقصاً.

كان سبب الغضب الذي شعرت به هو أنني وُضعت في مكان ما في تحقيق كان من المفترض فيه البحث عن الدروس المستقاة، لكنه تحوّل أخيراً إلى محاكمة لأخذ القرار وحتى للنيات الحسنة. جرى ذلك كله أمام بعض عائلات الذين سقطوا في الحرب، وهم الذين أردت الاقتراب منهم، لكني أعلم أنني إذا فعلت ذلك فسوف تُساء معانقتي لهم، وسوف تفسّر على غير حقيقتها. لكن الغضب الذي شعرت به كان أنانياً، وضئيلاً – نسبياً على أيّ حال – وموقتاً.

بقي الشعور بالألم، لكن الجزء الأكبر منه لم يكن أنانياً، لكن بعضاً منه كان كذلك بالتأكيد. هل افترضوا فعلاً أنني لا أكترث، وأنني لا أتأسف على الذين ماتوا بكل ذرّة من كياني؟ لا أعني الجنود البريطانيين فقط، بل أولئك الجنود من الجنسيات الأخرى، وأحزن أكثر ما أحزن على الأميركيين بالطبع، لكني أتألم كذلك لأجل اليابانيين، والهولنديين، والدانماركيين، والإستونيين، والإسبان، والإيطاليين، والذين هم من جنسيات دول التحالف الأخرى. أتألم كذلك لأجل العراقيين أنفسهم، وليس فقط أولئك الذين سقطوا ضحايا على أيدي قواتنا في الحرب، بل أولئك الذين سقطوا على أيدي الآخرين، وهم الذين عجزنا عن حمايتهم. ولا أنسى الدبلوماسيين، من أمثال سيرجيو فييرا دي ميلو الرائع، الذين قدّموا أرواحهم في سبيل قضية لم يناصروها أساساً، هذا بالإضافة إلى الضحايا العشوائيين الذين سقطوا نتيجة تقلّبات هذه الحرب من أمثال كين بيغلي، والحراس الأمنيين الشخصيين الذين أُخِذوا رهائن مع بيتر مور.

إن عدم اكترث المرء لذلك كله هو أمرٌ غير إنساني، وغريب من الناحة العاطفية، لكن الألم الذي أحسست به لم يكن ناتجاً عن ذلك الاتهام.

نتج ذلك الألم كله عن الإحساس بذلك الحزن الذي يستعصي على الوصف التقليدي، أو عن تلك الوخزة من التعاطف التي يشعر بها المرء عند سماعه أخباراً كارثية. تعجز الدموع، على الرغم من كثرتها، عن إيفاء ذلك الشعور حقه. إنني أشعر بأسفٍ كبير تجاه هؤلاء جميعاً، وآسف للأرواح التي أُزهقت بغير أوانها، وآسف

للعائلات التي زاد من حزنها على أحبائها ذلك الجدال الدائر حول السبب الذي ماتوا من أجله، وآسف للاختيار غير المنصف الذي تسبب بخسارتها. إنها على حق في أن تتساءل: لماذا يجب أن يكون الابن الضحية، أو الزوج، أو القريب، في ذلك المكان وفي ذلك الزمان، وفي تلك الرحلة، أو تلك المهمة، أو ذلك الموعد؟

ربما شاء القدر أن يكون قراري سبب موت كل ضحية، لكن ثمة عناصر حظٍ غريبة تجتمع كلها كي تشكل الظرف الذي سبب خسارة كل حياة.

ينبع الألم كذلك من ضرورة التحرك الملحة، وضرورة الالتزام، وعلى المرء ألا يكتفي بالشعور، بل عليه أيضاً أن يسارع إلى التحرك.

تخطيت الآن مرحلةَ التعبير عن التعاطف. لذا أشعر بأن كلمات العزاء والتعاطف غير كافية بالمرة. مات الضحايا، أما أنا، أي الشخص الذي اتخذ القرار في صنع الظروف التي أدت إلى موتهم، فما زلت حياً.

استخدمت كلمة «مسؤولية» هنا، على الرغم من أنها غير كاملة، بعد تمحيص شديد.

إنني لا أستطيع إبداء أسفي على اتخاذ قرار الحرب، وذلك للسبب الذي سأذكره. يمكنني القول، مع ذلك، إنني لم أتمكن قط من توقع الكابوس الذي نتج عن الحرب، وهو جزء من تلك المسؤولية. لكن مفهوم «المسؤولية» لا يشير إلى عبءٍ مضى، بل يشير إلى عبءٍ مستمرّ. يمكن أن يبدو الأسف [الندم] مرتبطاً بالماضي، لكن المسؤولية تمتلك صيغتها الحاضرة والمستقبلية.

تركتُ منصبي، وانشغلت بلعب دورٍ مختلفٍ كلياً، لكني ما زلت منشغلاً في ذلك الصراع ذاته الذي تسبب بكل تلك الأحداث التي سأصفها. إنني أنطق بالصدق عندما أقول إنني أفكر في العراق وأفغانستان، وما يجري فيهما، وفي الضحايا التي تسقط فيهما كل يوم من حياتي، لكن هناك أكثر من ذلك، لأنني أستخدم ذلك التفكير من أجل إعادة الالتزام بمفهوم غاية في قضية أكبر، وهي مهمة لم تنتهِ بعد. أعرف أن الذين ماتوا لا يمكنني إعادتهم إلى الحياة مهما أبديتُ من تعابير الأسف، لكنني أستطيع تخصيص قسم كبيرٍ من حياتي التي بقيت لي من أجل ذلك الصراع الأوسع، وفي محاولة إكسابهِ معنىً، وغاية، وعزماً، ومن أجل إبقاء مسؤوليتي على

حالها ونشاطها، وذلك بقدرٍ صغير أو كبير. لا أستطيع أن أقول إنني آسف بالكلمات، لكني لا أستطيع إلا أن آملَ إحياء شيء من كارثة الموت وذلك في حركة الحياة، حياتي أنا التي لا تزال مستمرّة.

أريد أن أوضح شيئاً قبل أن أبدأ: أعرف أن كثيرين من الذين سيقرأون هذه الكلمات لم يوافقوا على صوابية القرار، وربما فعلوا ذلك بقوة، وربما لا يريد القارئ المجادلة الآن في هذا الموضوع. إنني آسف بشأن ذلك بدوري، لكن دعونا الآن نعد إلى البدايات، وسأحاول أن أشرح ما كان يدور في ذهني.

تكمن المشكلة في مناقشة موضوع العراق في أن الناس، عموماً، قد توقفوا عن سماع بعضهم بعضاً. ربما تكون نسبة غير الملتزمين بين الناس أعلى مما كنا نظنّ. علّمتني تجربتي أن «الشعب [الناس]» يتقبل على نحو فطري التعقيدات التي ترافق عملية اتخاذ القرارات مقارنة بالآخرين، أي اللاعبين السياسيين ، والمعلّقين، والمتزلّفين، والمتحمسين في النطاق الضيّق والأناني للسياسة. يعني ذلك أن الناس يتبنون آراءها بطريقة فطرية [عفوية]، ولهذا فإنهم مستعدون لتغيير هذه الآراء بين وقتٍ وآخر. يفهم الشعب كذلك أن القيادة هي مهمّة صعبة، كما يتبنى طريقة تفكير تختلف عن السياسيين، وهي في الوقت ذاته طريقة سطحية على نحو مذهل، لكنها أوسع في بعض المراحل. لا يفكر الناس في العراق كثيراً في هذه الأيام، لكنهم إذا فكروا فإنهم يبقون منفتحين للإقناع على نحو معقول.

لا ينطبق ذلك على من لهم مشاعر قوية، ومن أبدوا اهتماماً قوياً منذ البداية. حسم هؤلاء مواقفهم، كما أن الآراء السائدة، وبالتأكيد بين التقدميين، قد أصبحت أصلب من الغرانيت، وهي آراء سلبية. كان غلطة. كان ذلك القرار، من بين كل القرارات التي اتخذتها، هو القرار الذي اختلف معي بشأنه حتى أقرب الأصدقاء، وفي الواقع لم يعتبر كثيرون من الناس أنهم يختلفون معه فقط، بل وجدوا من الصعوبة بمكان أن يفهموه. لم يكتف صديقي السياسي الأقرب، جيوف غالوب، برأي مختلف عني، بل كان يقول: «لا أستطيع أن أفهم لماذا فعلتَ ذلك يا طوني». أعرف أن عدداً كبيراً من المناصرين سيعترفون بأنني فعلت ذلك لدوافع صحيحة، لكنهم ما زالوا يعتبرون هذا القرار «وصمة»، ولولاه لكان سجلي رائعاً. لكن غير المناصرين يعتبرونه، بطبيعة الحال، الدليل الأخير على الخبث.

إنني أفهم تماماً السبب الذي يدفع الناس إلى تبنّي هذا الموقف. كانت الغاية المعلنة للنزاع هي تطبيق قرارات الأمم المتحدة على برنامج أسلحة الدمار الشامل، لكن تبين لنا بعد احتلال البلاد أن لا وجود لأسلحة الدمار الشامل. كنا نعتقد بوجود برنامج نشط لأسلحة الدمار الشامل، لكن تبيّن لنا أنه غير موجود. تميزت الفترة التي أعقبت إطاحة صدّام عن الحكم في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٣، بأنها دموية، وتدميرية، وفوضوية. أما لو تمكّنا من العثور على أسلحة دمار شامل لكان الوضع مختلفاً، ولو تمكنا من إنهاء الصراع في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٣، ولو كانت الفترة التي أعقبته تشبه الحال في كوسوفو، لكان الجدال أكثر أكاديمية وأبعدَ عن الحياة اليومية. بدا أن أسباب الحرب في إحدى الحالتين قد تفككت، بينما بقي واقع الحالة الثانية وعواقب ذلك الواقع حيين في أذهاننا.

كان ذلك أحد الأسباب، وهو سبب مفهوم تماماً بالنسبة إلى الآراء السائدة بين الناس، لكنْ هناك سبب آخر. تعمل السياسات هذه الأيام بحسب نماذج الآراء التي تتشكل بين الناس، ثم تأخذ بالتصلّب بسرعة وهذا ما يجعلها غير قابلة للتبديل تقريباً. يمتلك الناس وقتاً قصيراً للتأمل والتفكير، لكنهم يحكمون على القضايا المطروحة بسرعة، كما أنهم لا يهتمون كثيراً بالعناصر التي يبنون آراءهم عليها، وهكذا تُطلَق الأحكام بسرعة وبقسوة، الأمر الذي لا يحدث عند المناقشة العلنية لقضيةٍ ما. ما إن تُبنى هذه الأحكام [المتسرعة] حتى تُكتب المقالات التي تميل إلى تعزيز هذه الأحكام. أما الآراء المعاكسة فتلقى التجاهل إلى أن يصل الأمر في النهاية إلى اعتبار أن تحدي هذه الأحكام مضلّل تقريباً. إن التوازن هو مفهوم غريب في عالم اليوم، ويتطلب آراء أكيدة، بحيث يتم التوصل إليها بسرعة.

تُعتبر مهمتي، لكل تلك الأسباب، متواضعةً في هذا السياق: عدم إقناع القارئ بصوابية القضية، بل إقناعه بأن قضية كهذه هي قضية مفهومة، وهي قضية تتطلب انفتاحاً ذهنياً. فكرت كثيراً في الماضي ما إذا كنت على خطأ، لكني أطلب إلى القارئ أن يفكّر معي الآن فيما إذا كنت على صواب.

تبيّن لنا أن المعلومات الاستخبارية التي جمعناها عن صدّام وأسلحة الدمار الشامل، غير صحيحة. لقد قيل، كما قلت، إن هذا الأمر يُعتبر لغزاً. لماذا عمد صدّام إلى إبعاد المفتشين لوقتٍ طويل على الرغم من أنه لا يمتلك شيئاً كي يخفيه؟ ولماذا

أعاق عملهم بعد أن سمح لهم بالدخول؟ ولماذا جلب الرجل الحرب على بلاده كي يحمي أسطورة؟ هل الأمر ينطوي على تناقض بحسب ما عبّر عنه مفتش الأمم المتحدة السابق، تشارلز دويلفر، على هذا النحو: ظنّ [صدّام] أن الولايات المتحدة وحلفاءها يخادعون، وذلك عندما هدّدنا باستخدام القوة في حين أننا كنا جديين، وكنا نعتقد بالفعل بأنه يمتلك أسلحة الدمار الشامل في حين أنه كان يخادع فقط؟

عندما راجعتُ الحقائق كلها مجدّداً من أجل لجنة تحقيق شيلكوت، عمدت إلى إعادة قراءة التقرير النهائي الذي أصدرته لجنة التفتيش في العراق في سنة ٢٠٠٤. توافر لدي هذه المرة وقت أطول للتأمل في مضمونه. أصدر الفريق الأميركي/الإنكليزي الذي كان برئاسة دافيد كاي في البداية وتشارلز دويلفر فيما بعد، هذا التقرير بغية تحديد حقيقة صدّام، وأسلحة الدمار الشامل. نُشر ذلك التقرير على مرحلتين. تم ذلك أثناء المرحلة الأولى خلال رئاسة دافيد كاي للفريق، وخلُص التقرير إلى القول إن صدّام حسين لم يمتلك برنامجاً نشطاً لأسلحة الدمار الشامل في العام ٢٠٠٣. احتلت هذه النتيجة العناوين الرئيسة للأخبار، كما أدت، على نحو متوقع، إلى نشوء وجهة نظر تقول إن ذلك يعني أن المعلومات الاستخبارية كانت خاطئة على نحو واضح، وأن صدّام كان يطبق قرارات الأمم المتحدة، ولهذا فالحرب غير مبرّرة. تم تجاهل التحذيرات التي أدخلها الدكتور كاي، بما في ذلك تأكيده أن صدّام يشكل خطراً أكبر مما نعتقد، وهي ملاحظة اعتُبرت في ذلك الوقت غامضةً تماماً، وذلك بالنظر إلى ما قدّمه من نتائج في البداية.

لم يُنشر التقرير الثاني الذي قدّمه تشارلز دويلفر حتى شهر أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٤. لقي هذا التقرير اهتماماً أقل، على الرغم من كونه تحليلاً كاملاً. لم أتمكّن من استيعاب محتويات التقرير تماماً بسبب ضغوط التحديات في موضوع العراق في ذلك الوقت. يُضاف إلى ذلك أن عدة سنوات مضت قبل أن ينشر تشارلز دويلفر كتابه الذي تحدث فيه بالتفصيل عن تجميع مواد التقرير. درست التقرير والكتاب دراسةً معمّقةً من أجل الإجابة عن أسئلة لجنة تحقيق شيلكوت. وجدت إثر ذلك شرحاً لما كان غامضاً في البداية.

تمكّن فريق التفتيش الدولي في العراق، الذي كان برئاسة دويلفر، من إجراء مقابلات مع شخصيات بارزة في النظام، ومع كبار المقربين من صدّام. تمكّن

أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، جورج بيرو، وفي سياق عملية استثنائية استغرقت عدة أشهر، من إجراء مقابلات مع صدّام نفسه. كشف الفريق عن أشرطة تسجيلات المقابلات التي عقدها صدّام مع أحد كبار المسؤولين، وهي الاجتماعات التي ناقشا فيها برنامج أسلحة الدمار الشامل. ظهرت القصة الحقيقية بهذه الطريقة، وهي قصة جديرة بالقراءة.

شعر نظام صدّام بعد فرض العقوبات بأنه مقيّد جداً. زادت القيود صرامةً بعد بثّ التصريحات التي أدلى بها صهر صدّام حسين إذاعياً في العام ١٩٩٦، وقال فيها إن صدّام ما زال مهتماً بتطوير أسلحة الدمار الشامل. (استُدعي هذا الصهر لاحقاً إلى العراق وقُتل).

اتخذ صدّام قراراً تكتيكياً. سعت سياسة صدام بدءاً من منتصف التسعينيات إلى رفع العقوبات بأي ثمن. أُوقفت كل أنشطة برنامج أسلحة الدمار الشامل في إطار هذه السياسة، كما تمّ التخلّص من المواد التي لم يدمّرها المفتشون في العام ١٩٩١. كان صدّام يعلم أنه لم يعد قادراً على المخاطرة بإنتاج أسلحة الدمار الشامل، والاستمرار في إخفائها.

احتفظ صدّام مع ذلك بإيمانه الكامل بالأهمّية الاستراتيجية لأسلحة الدمار الشامل بالنسبة إلى نظامه، وبقاء ذلك النظام. اعتبر صدّام أن استخدام الأسلحة الكيميائية كان أمراً ضرورياً في رد الجنود الإيرانيين الذين ألقوا بأنفسهم، نتيجة حماستهم الدينية، على شاكلة موجات ضد القوات العراقية خلال الحرب الإيرانية العراقية. ظن صدّام أن استخدام تلك الأسلحة هو الذي يعوض عن التفوق العددي للقوات الإيرانية. لم يُسفر استخدام الغازات الكيميائية السامة ضد الأكراد عن توجيه ضربة عسكرية لهم فقط، بل سدّد لهم صدمةً نفسيةً تمنعهم من تحدي صدّام في المستقبل. لعبت هذه الأسلحة، لهذه الأسباب كلها دوراً محورياً في قمع الانشقاقات الداخلية. علم صدّام أن إيران قد حصلت على قدرات إنتاج الأسلحة النووية، كما كان يعرف أن إسرائيل تمتلك فعلاً هذه القدرات. اعتبر صدام أن امتلاك قدراتٍ نووية كهذه سوف يخدم هدفه الأساسي: أن يصبح القوة الأبرز في العالم العربي.

أقدم صدّام بالفعل على إخفاء أو إزالة أي أثر يدل على وجود برنامج نشطٍ

للأسلحة النووية والكيميائية، أو البيولوجية. اكتشف فريق التفتيش مع ذلك أن ذلك كله كان قراراً تكتيكياً فقط يُقصد منه تعليق البرنامج، وليس قراراً استراتيجياً بالتخلي عنه.

خلُص تقرير المفتشين الدوليين إلى هذه النتيجة:

أراد صدّام إعادة إحياء قدرات العراق لصناعة أسلحة الدمار الشامل، وهي الأسلحة التي دُمّرت أساساً في العام ١٩٩١، وذلك بعد رفع العقوبات واستقرار الاقتصاد العراقي، لكنه أراد أن يفعل ذلك بمزيج من القدرات تختلف عن تلك التي كانت موجودةً سابقاً. تطلع صدّام إلى تطويرٍ قدراتٍ نووية، بطريقة تدريجية، ومن دون الأخذ في الاعتبار الضغط الدولي، والمخاطر الاقتصادية المترافقة مع هذه العملية، لكنه أراد التركيز على الصواريخ الباليستية وقدرات الحرب الكيميائية التكتيكية.

وافق تقرير بتلر الذي صدر في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٤، على هذا الاستنتاج المتعلّق بالأسلحة النووية، على الرغم من كتابته قبل نشر التقرير الكامل للمفتشين الدوليين الذي صدر في أيلول من العام ٢٠٠٤. خلُص تقرير بتلر إلى هذه النتيجة:

نتيجة لما ورد في Review، وأخذاً في الإعتبار الدليل الذي عثر عليه فريق المفتشين الدوليين، ونتيجة لاستجوابات الموظفين العراقيين، فقد توصّلنا إلى استنتاج أن النظام العراقي امتلك النية الاستراتيجية قبل الحرب لإعادة إحياء مساعيه الهادفة إلى تنشيط برامج الحصول على الأسلحة الممنوعة، بما في ذلك برنامج الأسلحة النووية إذا كان ذلك ممكناً، وذلك عند تخفيف أنظمة التفتيش التي تعتمدها الأمم المتحدة، أو رفعها».

سعى صدّام وراء هذا الطموح الاستراتيجي، فعمد إلى إبقاء العلماء والتقنيين اللازمين لإعادة إحياء برنامج كهذا. عمد كذلك إلى استيراد السلع ذات الاستخدام المزدوج، وذلك في مخالفة صريحة للعقوبات، وأبقى على المختبرات التي لم يصرّح عنها للأمم المتحدة، وهي المختبرات التي يُمكن إعادة تشغيلها لأهداف أسلحة الدمار الشامل. كانت هذه الأنشطة كلها تموّل بتلاعبٍ غير قانوني ببرنامج

النفط مقابل الغذاء، الذي سمح باستخدام بعض مداخيل النفط من أجل شراء الطعام والغذاء للشعب العراقي.

أفاد كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات العراقية من الذين أجريت المقابلات معهم بوجود مجموعة من المختبرات السرية، وذلك في الفترة ما بين ١٩٩١-٢٠٠٣، من أجل إجراء أبحاث واختبار المواد الكيميائية والسامة كافة. مضى هؤلاء إلى القول:

«لا يمتلك فريقُ المفتشين الدوليين أي دليل يُثبت أن علماء إدارة قسم الجريمة M١٦ في وكالة الاستخبارات العراقية كانوا ينتجون الأسلحة الكيميائية، أو الأسلحة البيولوجية في هذه المختبرات. أشارت المصادر مع ذلك إلى أن M١٦ كانت تخطّط لإنتاج عدة مواد للأسلحة الكيميائية، بما في ذلك خردل الكبريت، وخردل النتروجين، والسارين.

إن وجود هذه المختبرات وعملها وغايتها لم يُكشف عنها إلى الأمم المتحدة.

تضمّن برنامج وكالة الاستخبارات المركزية استخدام البشر لأهداف الاختبارات».

كُشفت هذه المعلومات كلها من خلال المقابلات التي أجراها فريق التفتيش الدولي، وهي النقطة المحورية في عمليات التفتيش التي أجراها هانز بليكس ما بين شهري تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢ وآذار/مارس من العام ٢٠٠٣. لم يكن ذلك كله دليلاً يدعم المعلومات الاستخبارية عن وجود برنامج نشط لأسلحة الدمار الشامل، وهي المعلومات التي استندنا إليها. إذاً كانت الحقائق الواقعية مختلفةً عن تلك التي اعتبرناها صحيحةً في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٣. لكن الحقائق الواقعية تقدم أوضح أساس ممكن يصلح للتقييم، وهي الحقائق التي تشير إلى أنه يمثل تهديداً بالفعل، وعلى الخصوص تلك التهمة بخرق قرارات الأمم المتحدة التي كانت صحيحةً تماماً.

ولا بد أن الخطر سيكون واضحاً جداً لو تراجعنا في العام ٢٠٠٣. أما فريق التفتيش التابع للأمم المتحدة الذي ترأسه بليكس فلم يكن قادراً على الحصول على هذه المقابلات. كان يُمكن للفريق أن يستنتج (خاطئاً) أن صدّام قد تخلى عن طموحاته المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل، وأن العقوبات يجب أن ترفع، وإذ ذاك

سيكون من الصعوبة بمكان إعادة الضغوط التي أزيلت سابقاً على النظام. كان صدام سيمتلك النية، والمعرفة، وكانت قوته الشرائية ستتزايد كثيراً كذلك مع تزايد أسعار النفط.

يمكن للمرء الآن أن يختلف مع أجزاء كثيرة من هذه الفرضية. ربما قرر أنه لم يعد بحاجة إلى أسلحة الدمار الشامل بعد كل شيء، وأنه لو حاول تطويرها لكان هناك احتمال كبير أن يتحرك المجتمع الدولي. لكن ذلك كله، على أي حال، كان سيستغرق وقتاً. لكن إذا قرأ المرء تقرير المفتشين الدوليين فسيرى صورةً لنظام لا يخضع لأي قيود سوى تلك المفروضة من الخارج. أما طبيعة النظام فهي قاتمة تماماً. نجد هنا نقطةً صغيرة: توصيف التجارب التي أجراها هذا النظام على البشر لأغراض الأبحاث المتعلقة بالأسلحة البيولوجية – مع أنها استُخدمت لأغراض الاغتيال، وليس من أجل أسلحة الدمار الشامل– كان هذا التوصيف مهماً جداً.

لا أقصد هنا إقناع أحدٍ بأننا كنا على حقّ في إزاحته عن السلطة، لكني أريد فقط من أولئك الذين يتمسكون بالآراء السائدة أن يتوقفوا ويتأملوا على الأقل. لا أزعم أن هذه هي فرضية غير قابلة للنقض، وأننا لو لم نتحرك في العام ٢٠٠٣ لكان ظهر صدّام بصورةٍ أقوى، وسيكون منافساً لإيران بالنسبة إلى أسلحة الدمار الشامل وفي دعمه للإرهاب في المنطقة – يمكننا هنا عرض فرضية مناقضة – لكنها بالتأكيد محتملة مثلما هي الفرضية البديلة، وعلى الخصوص ما يتعلق منها بأنه كان سيتقدم في السن وسيكون مطمئناً، ومن ثم سيكتنفه النسيان، وهكذا لن يشكل أي تهديد ريثما يخلفه ولداه اللذان يعدّهما ليأتيا من بعده، وربما سيكونان أصلح منه.

يصدق الأمر ذاته بالنسبة إلى المسألة الأخلاقية التي تناقض ما فعلناه، وهي التي تستند أساساً إلى فترة الفوضى والموت التي أعقبت إزالة صدّام عن الحكم. لا أعتقد أن الرأي الأخلاقي يُمكن أن يستند إلى الرياضيات، أو يجب أن يستند إليها: هنا عدد الذين قتلهم صدّام، وهنا عدد الذين ماتوا بعد سقوطه. إن هذه الحسابات هي غير عادلة بالضرورة. قيل الكثير على الرغم من ذلك كله عن عدد العراقيين الذين قتلوا بعد شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٣، الأمر الذي يستأهل إطلاق مناقشة حول أفضل دليلٍ موجود بين يدينا، وليس أسوأ دليل.

أما بالنسبة إلى السؤال «هل العراق الآن في حالةٍ أفضل مما كان عليه في عهد صدام؟» فإنني أمتلك بالفعل جواباً منطقياً واحداً فقط: بالطبع. إن أفضل تقدير لأعداد الأشخاص الذين ماتوا في عهد صدّام هو على النحو الآتي:

• حرب إيران – العراق، ١٩٨٠-١٩٨٨: ١/١ مليون شخص من البلدين (أنطوني كوردسمان، دروس الحرب الحديثة، الجزء الثاني، الصفحة ٣).

• حملة الأنفال ضد الأكراد، ١٩٨٨: نحو ١٠٠,٠٠٠ من الضحايا الأكراد، وعدد كبير من الجرحى والمهجرين (هيومان رايتس ووتش، «الإبادة الجماعية في العراق»، ٢٠٠٣).

• غزو الكويت ١٩٩١/ حرب الخليج: ٧٥,٠٠٠ ضحية (ميلتون لايتنبيرغ، «قتلى الحروب والنزاعات في القرن العشرين»، جامعة كورنيل، برنامج دراسات السلام).

• حملات القمع ضد الشيعة ١٩٩١: ٥٠,٠٠٠ قتيل (لايتنبيرغ).

• ضحايا آخرون للقتل السياسي عبر السنين: ١٠٠,٠٠٠ (هيومان رايتس ووتش، «جرائم الحكومة العراقية والعدالة»، كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢).

لكن ذلك كله يضيئ على جزء واحد من القصة. مع تسلّم صدّام السلطة في العام ١٩٧٩، كان العراق أغنى من البرتغال، أو من ماليزيا. أما في العام ٢٠٠٣، فقد كان ٦٠ بالمئة من السكان يعتمدون على المساعدات في تلقي غذائهم. كان الملايين لا يتلقون غذاءً كافياً، وملايين آخرون منفيين من البلاد. أما أهمّ الأرقام الإحصائية على الإطلاق فهي التي تحدثنا عن طبيعة عراق صدّام. كانت أعداد الأطفال الذين يموتون وهم دون الخامسة تصل إلى ١٣٠ من بين كل ١٠٠٠ طفل، وهو رقم أعلى من الرقم الذي سجلته الكونغو. أما في العام ٢٠٠٧، ونتيجة لحملات التلقيح، وبرامج التغذية الصحيحة التي أدخلتها قوات التحالف والحكومة العراقية بعد ذلك، فقد انخفض هذا الرقم إلى ما يزيد قليلاً على ٤٠ بين كل ألف طفل. يعني هذا الفرق إنقاذ أرواح ما بين نحو ٥٠,٠٠٠ و٦٠,٠٠٠ طفل في كل سنة.

أريد قبل أن يعمد أي شخص إلى القول، «آه، لكن كانت هناك عقوبات»، أن يتذكر أن صدّام كان حراً في شراء أي كمية من الأغذية والدواء التي يريدها. لكنه

فضّل أن لا يفعل، وذلك كي يبرّر قوله، غير المحق، أن الغرب هو الذي يتسبب بموت الأطفال العراقيين. أما في المناطق الكردية، فعلى الرغم من صدّام، والعقوبات التي تشملها هي أيضاً، فإن نسبة وفيات الأطفال فيها كانت نصف النسبة الموجودة في وسط العراق وجنوبه.

عانى ثلث أطفال العراق، ممن يعيشون في وسط العراق وجنوبه نقص التغذية المزمن، وذلك بحلول العام ٢٠٠٣. كان من الممكن، وبسهولة، إنقاذ أرواح الأطفال الذين ماتوا نتيجة أوبئة الإسهال والأمراض التنفسية. أما في خضمّ الحرب التي تلت، أي ما ين العامين ٢٠٠٥ و٢٠٠٧ فإن نسبة نقص التغذية بين السكان تقلّصت إلى ما دون الربع مما كانت عليه في حقبة صدّام.

كان ثمة وفيات [في حقبة صدّام] لم نرها البتة، وهي المجزرة التي لم نشهدها، والحزن الذي لم يظهر على شاشاتنا التلفزيونية. لكنها كانت حقيقية في كل جزء منها، أي كما هي الحال مع الخسائر في الأرواح بعد إزالة صدّام عن الحكم.

كيف كانت خسائر الأرواح تلك؟ لقد لاحظنا التمسك بما سُمّي الحقائق، وسرعان ما أصبحت غير قابلة للنقاش. نسمع تكراراً أن ٥٠٠,٠٠٠ أو ٦٠٠,٠٠٠ شخص قد قُتلوا ما بين العامين ٢٠٠٣ و٢٠٠٩. ما أن أُعلنت هذه الأرقام حتى ظهرت في الملخصات، وجرى تكرارها.

تعود جذور هذا الرقم إلى تقرير لانسيت الذي نُشر في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٤، وهو التقرير الذي ادّعى بأنه تحليل علمي للقتلى في العراق. احتل الرقم الذي أعطاه التقرير – ٦٠٠,٠٠٠ – عناوين الأخبار وأصبح الأبرز فيها، وجرى ترديده على أساس أنه حقيقة قائمة. برز، بعد مرور بعض الوقت، تشكيك في المنهجية التي استند إليها التقرير، كما اتُهمت أرقامه على نحو واسع بعدم الدقة والتضليل، كما أن نشرات أخرى شككت في التقييم الذي خرج به التقرير، لكن هذه النشرات الأخرى لم تلقَ أي نصيب من الاهتمام.

أما الصليب الأحمر الدولي الذي أجرى تمحيصاً مفصّلاً للأدلة كافة، فقد استنتج أن تعداد القتلى في العراق، وكميات معطيات الثروة الآتية من أحوال معيشة العراقيين وأبحاث صحة الأسرة، هي التقديرات الأقرب إلى الدقة. أما مؤسسة بروكينغز، التي

جمعت أرقامها الخاصة بها، فقد توصّلت إلى رؤية مشابهة لأرقام تعداد القتلى في العراق (وهي بالمناسبة منظمة ضد الحرب). أما الرقم التي توصلت إليه المؤسستان فقد راوح ما بين ما يزيد بقليل على ١٠٠,٠٠٠ و١١٢,٠٠٠.

يعني ذلك أن الرقم ١١٢,٠٠٠ هو الرقم الأقصى، لكنه يبعد كثيراً عن الرقم نصف مليون. يُضاف إلى ذلك الكشف على أن أغلبية هؤلاء – حوالى ٧٠,٠٠٠ – قد قُتلوا ليس على يد قوات التحالف، بل جراء الصراعات الطائفية التي جرت ما بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٧ وهي الصراعات التي افتعلها تنظيم القاعدة والميليشيات المدعومة من إيران.

أقول مجدداً إنني لم أورد هذا كي أبرهن على أن إزالة صدّام كانت أمراً أفضل للعراق من إبقائه، لكني أقصد رؤية واقع العراق تحت ظلّ صدام، وكيف أصبح الوضع بالفعل بعد ذهابه. أما كيف هو الوضع الآن فذلك سنتحدث عنه لاحقاً.

أريد أن أقول إن القضية ليست «لو كنا نعرف وقتئذ ما نعرفه الآن». لكن استناداً إلى ما نعرفه الآن، فإنني ما زلت أعتقد أن ترك صدّام في السلطة كان مخاطرةً أكبر لأمننا من إزالته، الأمر الذي كان من شأنه أن يشكّل تهديداً، وذلك بالنظر إلى حقيقة أن صدّام وأولاده هم الذين سيحكمون العراق، وسيكونون أسوأ بكثير، نظرياً على الأقل. لا يعني ذلك استبعاد قوة الرأي المنتقد القائل إننا عجزنا عن استشراف طبيعة المرحلة اللاحقة بعد التخلص من صدّام. شكّل التخطيط للفترة اللاحقة نقطة جدالٍ ساخنة سوف أتحدّث عنها لاحقاً. لكنّ الحقيقة هي أننا لم نحسب حساباً لدور القاعدة أو إيران. أما ما إذا كان يتوجب علينا أن نحسب هذا الحساب فذلك مسألة أخرى.

أجد نفسي عاجزاً، مرةً أخرى، عن إرضاء رغبة بعض أصدقائي الذين يريدون مني أن أقول: كانت تلك غلطة، لكنها ترافقت مع النية الطيبة. أما الأصدقاء الذين يعارضون الحرب فقد يعتقدون أنني أُظهر شيئاً من المكابرة، أما الآخرون الأقل وداً فقد يظنون أنني أراوغ في هذه النقطة. يمكنني أن أقول للطرفين: كونا منفتحين.

يتعيّن عليّ قبول حقيقة ما حدث في إزالة صدّام عن السلطة، لكن في الوقت عينه يتوجب على الذين يتبنون رأياً مخالفاً أن يقبلوا أن واقعاً آخر كان سيفرض

نفسه على البلاد لو بقي هو وأولاده على رأس السلطة في العراق. أريد من القارئ أن يتفحص سجل السنوات الخمس والعشرين من حكمه، وأن يقول لي ما إذا كان يتوقع أن تكون السنوات الخمس، أو العشر، أو الخمس عشرة، أو العشرون التالية، سنوات أفضل.

أعتقد أنني قفزتُ كثيراً إلى الأمام، لذلك دعونا الآن نعد إلى الفترة ما بين ٢٠٠١- ٢٠٠٣، وذلك كي نبدأ من البداية. هناك طريقتان لوصف ما حدث: الأولى هي العودة إلى العملية النفسية التي ترافق عملية اتخاذ القرارات، أما الأخرى فهي العودة إلى تأريخ الأحداث. سأبدأ بطبيعة عملية اتخاذ القرار.

دعونا نمهد لذلك أولاً باستبعاد ذلك القسم من القصة المتعلق بنظرية المؤامرة. لم تكن هناك «كذبة كبيرة» فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل. يمكننا أن نتفحص المعلومات الاستخبارية التي تسلّمتها من مختلف المواقع الإلكترونية الحكومية. انتشرت تقارير اللجنة الاستخبارية المشتركة JIC طوال عدة سنواتٍ، وكلها افترضت وجود برنامج كيميائي وبيولوجي ناشط. وكذلك كان في المجتمع الاستخباري الدولي الذين شككوا في مدى ضخامة البرنامج، لكن لم يشكك أحد منهم جدياً في وجوده. أما القرار الذي أقرته الأمم المتحدة بالإجماع، وحمل الرقم ١٤٤١ في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢، فقد أثبت القناعة ذاتها.

أما سبب ذلك فهو بسيط جداً. أقدمت إسرائيل في العام ١٩٨١ على قصف منشآت أبحاث الأسلحة النووية في تويثا الواقعة قرب بغداد، وذلك بعد أن توافر لديها دليل قوي على أن هذه المنشآت هي جزء من برنامج نشط ومتسارع يهدف إلى حيازة قدرات الأسلحة النووية. أما البرنامج الكيميائي والبيولوجي فقد استمر بدوره. تعرضت القرى الكردية إلى عدة هجمات بالأسلحة الكيميائية أدت إلى قتل ١٠٠,٠٠٠ شخص أو ما يزيد، وذلك في إطار سياسة التعريب في العام ١٩٨٨، وهي السياسة التي هدفت إلى طرد الأكراد من مناطق تقع إلى شمال بغداد، وكان من ضمنها الهجوم على حلبجة الذي قُتل خلاله عدة آلاف من الأشخاص في يوم واحد.

شهد شهر آذار/مارس من العام ١٩٩٠ شنق أحد مراسلي صحيفة الأوبزرفر، وهو فرزاد بازوف، وذلك بتهمة التجسس على منشآت عسكرية. أُرسل إلى العراق فريق

تفتيش عن الأسلحة، وذلك من ضمن اتفاق وقف إطلاق النار الذي أعقب حرب الخليج التي شبّت على إثر الغزو العراقي للكويت. كانت مهمة فريق التفتيش تحديد مواقع الذخائر الكيميائية والبيولوجية التي يمتلكها العراقيون وتدميرها. قيل وقتها إن القلق حيال استخدام هذه الأسلحة ضد السكان العراقيين داخل البلاد كان أقل، بل تركز القلق على احتمال استخدامهم صواريخ سكود، وهي الصواريخ التي أُطلقت على إسرائيل أثناء حرب الخليج، وهكذا تزايد احتمال استخدام هذه الصواريخ في معارك إقليمية أوسع.

عمد مفتشو الأسلحة إلى تسجيل المواد التي وجدوها، إضافة إلى المواد التي لم يجدوها أيضاً. أورد المفتشون في أحد التقارير الذي كثُرت الاقتباسات منه في وقتٍ لاحق، والذي صدر في شهر كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٩، أن كميات كبيرة من أسلحة الدمار الشامل قد فُقدت.

ظهرت العقبات منذ البداية. تجمّع ما لا يقل عن سبعة عشر قراراً منفصلاً تتعلّق بالرفض العراقي التعاون مع المفتشين الدوليين وعند حلول شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٣، أي عندما بدأت المعارك، غادر فريق التفتيش العراق في إشارة احتجاجية. سبق لي أن قلت في صفحاتٍ سابقة إنني أجزت أنا والرئيس كلينتون القيام بغارة جوية على بغداد في شهر كانون الأول من العام ١٩٩٨، لضرب منشآت برنامج العراق. تركت الضربةُ آثارها، لكن لم نستطع التأكد من مدى فاعليتها. ساد الافتراض في ذلك الوقت أن البرنامج قد استمر.

إنني لا أكتب هذا الكلمات تبريراً للحرب التي نشبت في العام ٢٠٠٣، لكن كي نستعيد ما سبق أن أودعناه مستودع الذكريات، مما يُعطي فكرةً عن حقيقة وضع العراق تحت حكم صدّام. كانت حكومته، على الصعيد الداخلي، مصدراً لوحشية مروعة وقمع هائل، أما على الصعيد الخارجي فقد كانت مصدراً لعدم الاستقرار والنزاعات. يُمكننا إيجاد لمحات عن هذا الوضع في التقارير التي صدرت منذ العام ١٩٩٩.

إن وضع حقوق الإنسان في العراق آخذٌ بالسوء، ويستمرّ قمع الحقوق المدنية والسياسية من دون توقف. يخالف الوضع القائم من الخرق المنهجي لحقوق الإنسان

عدداً كبير من التزامات العراق الدولية... كما يبقى تهديداً للسلم والأمن في المنطقة. (التقرير الموقت الذي أعده ماكس دير ستويل، المقرر الخاص للأمم المتحدة بشأن العراق بين ١٩٩١ و١٩٩٩، وهو التقرير الذي رفعه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩).

حدثت خروق لحقوق الإنسان في العراق على نحو منهجي... في حين انتهزت الحكومة العراقية كل فرصةٍ أمامها لإظهار معاناة السكان نتيجة نظام العقوبات... إلا أنها فرضت تعتيماً كاملاً على الأعمال الوحشية التي ترتكبها قواها الأمنية (تقرير منظمة العفو الدولية، ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩٩٩).

أما النقطة المهمة هنا فهي أن ذلك كله لا يبرر شنّ الحرب، لكنه ينقض بشدة الفكرة القائلة إن بوش قد أشار إلى خريطة العالم، وقرر الذهاب إلى العراق. يصحّ القول إن ما حدث في حرب الخليج الأولى، أي عندما اتُّخذ القرار بعدم إكمال الزحف إلى بغداد بعد طرد العراقيين من الكويت، قد أثّر في تفكير الولايات المتحدة. فعلت الولايات المتحدة ذلك لسبب وجيهٍ جداً: بعد اتفاق وقف إطلاق النار في شهر آذار/مارس من العام ١٩٩١، انشغل صدام في مزيد من أعمال القمع لشعبه، وهي الأعمال التي أدت إلى مقتل آلاف السكان، وإلى تشديد قبضته على البلاد.

حاول المجتمع الدولي عن طريق برنامج النفط مقابل الغذاء تخفيف المعاناة عن الشعب. كان برنامج كهذا ضرورياً لأن العقوبات بقيت على حالها، وذلك بسبب استمرار عقوبات أسلحة الدمار الشامل والأمور الأخرى التي تسبّب بها صدّام. لكن ذلك لم ينجح بالفعل، لأن صدّام وأولاده وشركاءه كانوا يقتطعون الأموال على الدوام. كانت النتيجة كما سبق لي أن قلت، هي أن الأغذية والأدوية لم يُقدَّر لهما دخول البلاد.

أبرزت قضيةُ النفط اتهاماً آخر: كانت الحرب من أجل النفط. يُعتبر هذا تفسيراً بعيداً عن الصواب، لكنه اكتسب صدقيةً كبيرة، كما أن عدداً كبيراً من الناس لا يزال يؤمن به. أما الواقع فهو إذا كان النفط هو كل ما يهمّنا، لكان باستطاعتنا عقد اتفاق مع صدّام في خلال لحظة واحدة من الزمن. كان الرجل مستعدّاً ليعطينا الكثير مقابل رفع العقوبات، وإلغاء تهديد فرق التفتيش. أنشأنا بعد حرب العام ٢٠٠٣، وفي إطار

قرار الأمم المتحدة، هيكلية تحت إدارة الأمم المتحدة تهدف إلى التأكد أن الأموال الآتية من إنتاج النفط تذهب إلى العراقيين. أما اليوم، ولأول مرة منذ عقود، فإن هذه الأموال تُستخدم من أجل إعادة إنشاء البنى التحتية، والمدارس، والمستشفيات في العراق، وهذا هو أحد الأسباب التي أدّت إلى ارتفاع الناتج الإجمالي المحلي للفرد في عراق ٢٠١٠ إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه في عراق ٢٠٠٣.

ربما يكون من المستحسن أن نتوقف عند هذه النقطة عند اتهام خطير جداً، وهو أن العقوبات كانت تكبل صدّام، وكانت ستظل كذلك، وهذا من شأنه إزالة التهديد الذي يمثّله [أي إنها كانت كافية]. تمضي هذه الحجة بالقول إن الحرب كانت، لهذا السبب، غير ضرورية.

أما الواقع فهو أن هيكلية العقوبات المفروضة قد بدأت بالتفكك بحلول العام ٢٠٠١. بدأت، لهذا السبب، النقاشات في مجلس الأمن الدولي في منتصف العام ٢٠٠١، من أجل استبدال سياسة العقوبات. نجح صدّام في خداع الناس بالقول إن العقوبات هي المسؤولة عن المحنة المروعة التي يعيشها شعبه. وتمكّن من خرق نظام العقوبات ونجح في أخذ مليارات الدولارات من مداخيل النفط بطريقة غير شرعية.

تركّزت النقاشات على ما يسمى «العقوبات الذكية»، التي قُصد منها أن تكون أكثر دقة. أما الحجّة القائلة بأن هذه العقوبات الذكية كان بإمكانها إعاقة صدّام فهي لا تصمد أمام التمحيص الشديد. تعتمد العقوبات الذكية أساساً، وكما رُسمت في البداية، على تغيير الدول المحيطة بالعراق لسياستها، ومنع التسرب غير المشروع للسلع والخدمات، الأمر الذي كان عاملاً أساسياً في إفشال هيكلية العقوبات الأولى. تضمّنت المسودة الأولى لهذه العقوبات الذكية الجديدة، ومن أجل هذه الغاية، منعاً قوياً لمثل هذه التجارة، بالإضافة إلى عقوبات أساسية أخرى فُرضت على صدّام.

إنني أشك كثيراً في إمكانية نجاح العقوبات حتى مع تطبيق هذه القواعد الجديدة. لكن لم يكن هناك مخرج من دونها. تقدمت المناقشات، فعارضت دول عديدة فرض بنود أقسى، وهذا ما أدى إلى استبعادها. ألغيت، على الخصوص، البنود المتعلقة بالدول المحيطة. أورد كينيث بولاك في كتابه الذي أصدره عن هذا

الموضوع، العاصفة المخيفة: قضية اجتياح العراق، أن هذا قد أدّى إلى تحييد أثر هذه السياسة. قال إن هناك سبعة شروط مسبقة كي تنجح العقوبات، واستنتج أن أحداً منها لم يتحقق.

أقدمنا على الحرب للأسباب التي أعلناها، سواء أكانت صحيحةً أم لا، ومن أجل المنطق الذي يقف وراء هذه الأسباب. إذاً، ماذا كانت تلك الأسباب؟

لم تكن حرب العراق لتحدث لولا ١١ أيلول/سبتمبر. يعتبر بعض الناس أحياناً أن هذا يعني أنني أقول إن العراق قد شكّل الخطر ذاته مثل أفغانستان، عن طريق وجود رابط بينه وبين القاعدة. إنني لا أقول ذلك. صحيحٌ أن بعض الناس في الإدارة الأميركية يعتقدون بوجود رابط كهذا، لكن من الصحيح أيضاً وجود معلومات قوية عن سماح صدّام لبعض عناصر القاعدة بالدخول إلى العراق في منتصف العام ٢٠٠٢ (وهذا ما أدى إلى نتائج خطيرة فيما بعد)، الأمر الذي يعني أنه مستعدّ لدعم الإرهاب، أي كما فعل عندما دفع أموالاً لأسر الفلسطينيين الذين نفذوا هجمات انتحارية. لكن تقييم التهديد لم يعتمد على رعاية صدام الفعلية للإرهاب، أو للجماعات الإرهابية.

(علاوة على ذلك، ثمة معلومة جانبية مثيرة للاهتمام. تبيّن بعد ذلك أن الزرقاوي، وهو مساعد بن لادن، قد وصل إلى العراق في أيار/مايو من العام ٢٠٠٢، وعقد اجتماعات مع كبار المسؤولين العراقيين، وأسّس له وجوداً هناك في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢. لم تُسحب، بالمناسبة، هذه المعلومة. ربما كان علينا إيلاء هذه المعلومة انتباهاً أكبر لأهميتها، لكننا لم نكن متحمّسين من أجل تقديم اتهام زائف بشأن القاعدة وصدّام، وهكذا قلّلنا من أهمّية هذه المعلومة، وعلى الأقل من الجانب البريطاني).

أما الرابط بين العراق و١١ أيلول/سبتمبر فقد نشأ بهذه الطريقة. سبق لي أن كتبت بأن الصدمة الحقيقية للهجوم الذي قُتل فيه ٣,٠٠٠ شخص – وهو أسوأ هجوم إرهابي في تاريخ العالم – هي إظهاره لعقلية القاعدة بالنسبة إلى إنزال دمارٍ غيرٍ محدود. يعني ذلك أن عدد الضحايا لو كان ٣٠,٠٠٠ أو ٣٠٠,٠٠٠ لكان ذلك أفضل بالنسبة إليهم. لم يكن هذا هجوماً إرهابياً موجّهاً يُقصد منه تحقيق هدفٍ سياسي

محدد قابل للتحقق. كان الهجوم بمثابة إعلان حرب كاملة سعياً وراء تحقيق هدفٍ بدافعٍ ديني. يمكننا القول، بناءً على ذلك كله، إنه كان هجوماً من نوعٍ يختلف عن أي شَيء واجهه العالم من قبل.

ثارت في الوقت ذاته قضية أسلحة الدمار الشامل. يبدو أن التاريخ قد أعيدت كتابته على نحو يُظهر أسوأ سيناريو ممكن. بدا أن قضية أسلحة الدمار الشامل لم تكن سوى اختراع مناسب قُصد منه تبرير قرار مأخوذ سلفاً. لكنّ الحقيقة هي أن قضية انتشار أسلحة الدمار الشامل – ليس الأسلحة النووية فقط، ولكن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية كذلك – كانت مصدراً لقلقٍ متزايد حتى قبل أحداث ١١ أيلول/سبتمبر.

افتقدت مختلف الاتفاقيات والمعاهدات المعتمدة، على نحو مريب، صفة الإلزام. كانت أنشطة أ. ك. خان، العالِم الباكستاني الذي أوصل الباكستان إلى وضعها النووي الحالي، موضع نقاشات، وجدالات، وقلقٍ واسع في عالم الوكالات الاستخبارية، جرت من وراء الكواليس. قيل وقتئذ إن خبرة ذلك العالِم كانت معروضةً للبيع، وكنا متأكدين جداً أن بلاداً مثل ليبيا، تمتلك برامج كيميائية، أو بيولوجية، أو نووية ناشطة.

كان التفكير بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر يجري على هذا النحو: إذا تمكّنت هذه الجماعات الإرهابية من الحصول على أسلحة الدمار الشامل، فهل تُقدم على استخدامها؟ كان الجواب نعم، وذلك استناداً إلى الدليل الذي قدمته لنا أحداث ١١ أيلول/سبتمبر. إذاً كيف سنتمكن من إيقاف هذه التجارة؟ وكيف يمكننا إرسال إشارات حيوية وواضحة إلى الدول النامية، أو التي تحقق قدراً من النمو، كي توقف أنشطتها في هذا المجال؟ وكيف نُثبت على نحو واضح أن التحدي المستمرّ للمجتمع الدولي لم يعد مقبولاً بعد الآن؟

برز في هذا السياق تمايز لا يُمكن اعتباره مساعداً ولا معقولاً. يتساءل الناس، وعلى الخصوص بالنسبة إلى العراق: أتريدون تغيير النظام، أم إزالة أسلحة الدمار الشامل؟ كان الجواب الحقيقي هو أن السؤال يتضمّن سؤالين منفصلين بمعنى من المعاني، إلا أنهما مترابطان بمعنى آخر. أما لو كانت إيران، على سبيل المثال، دولةً ديمقراطيةً حسنةَ الإدارة، وتحتفظ بعلاقات حسنة مع العالم، وكانت تحاول الحصول

على قدرات نووية، لكان موقفنا مختلفاً كثيراً. كنا سنقلق في تلك الحالة، ونعارض تلك الجهود، لكن سياق المخاطر والتهديد كان سيتغير كثيراً. أريد أن أقول لو أن إيران دولة ديمقراطية، فلربما لن تسعى للحصول على هذه القدرات. يعني ذلك أن تقييم الخطر يعتمد، جزئياً، على تقييم النظام. يعني ذلك، بمعنى أكثر شمولية، أن طبيعة نظام صدّام تفترض وجود أسلحة الدمار الشامل، وتفرض ضرورة تقييم المخاطر.

يمكننا العثور على مثالٍ على هذا التفكير المعقد في التصريحات المستمرة أن سياسة الولايات المتحدة بينما تستدعي تغيير النظام، كانت سياسة المملكة المتحدة تتعلق أكثر بأسلحة الدمار الشامل. يمكننا القول، استناداً إلى ذلك كله، أننا كنا على جهتين متباينتين من النقاش لكن المملكة المتحدة مالت في النهاية إلى تبنّي موقف الولايات المتحدة.

أعتقد أن من المفيد في هذا المجال قراءة قانون تحرير العراق لسنة ١٩٩٨ الذي أصدره الرئيس كلينتون. تغيّرت في تلك السنة سياسة الولايات المتحدة لتتبنى تغيير النظام – وهو أمر واضح في القانون – وذلك بسبب قضية أسلحة الدمار الشامل، وخرق صدّام لقرارات الأمم المتحدة. لم يكن الأمر يتعلق بمسألة أخلاقية ضد صدّام، بل بأسلحة الدمار الشامل تحديداً، وبرز نتيجة تحدّيه إرادة المجتمع الدولي.

أقول، واستناداً إلى ذلك كله، إنني مع تردّد أصداء ١١ أيلول في جميع أنحاء العالم، بدأت، بوصفي قائداً، بالتفكير في المخاطر المستقبلية المحدّدة، وفي إمكانية حصول الإرهابيين على أسلحة الدمار الشامل، لذلك احتل هذا الأمر صدارة أفكاري.

أعرف أن القارئ قد يقول، لأسباب متعددة، إن تنظيم القاعدة، وأنظمة مثل نظام صدّام حسين يقفان على طرفَي نقيض. كانت القاعدة تستهدف الحكومات حتى تلك التي في العالم العربي. أما الحكومات، ولا سيما الدكتاتورية منها، فهي تكره، أساساً، أولئك الذين يعملون من خارج دوائر نفوذها. يقلق أولئك الذين يحكمون من خلال نظام مفروض بقبضة حديدية من التطرف. إن ذلك كله صحيح، وسيظل صحيحاً.

كان تفكيري يتجه إلى منحى أعمق من هذا. لقد اقتنعت أن في مكانٍ ما تحت

السطح يتشكل حلفٌ ما بين دول الشرّ والجماعات الإرهابية. برز أمام هذه الدول والجماعات عدوٌّ مشترك: الغرب وحلفاؤه في العالم العربي والإسلامي. اشترك الطرفان في الخوف من الثقافة [الحضارة] الغربية، والمواقف، والفكر الغربي، وهكذا فإن هذه الفكرة هي تهديد جدي، ومبرر، بالنسبة إليهم. كان هناك سببٌ وراء كون صدّام هو الوحيد الذي عبّر عن معارضته لمبادرة السلام السعودية من بين القادة العرب كافة، وهي المبادرة التي أطلقها، بجرأة كبيرة، ولي العهد [آنذاك] الأمير عبد الله في العام ٢٠٠٢. يشكل السلام بين إسرائيل وفلسطين تهديداً للمتطرفين من جميع المشارب، كما هي الحال هذه الأيام. يعني السلام التعايش، لكن التعايش بالنسبة إلى جماعات مثل القاعدة هو بمثابة كفر. أما بالنسبة إلى أنظمة مثل نظام صدّام حسين فقد كان تهديداً. لا يُمكن اعتبار منطقة هادئة تسير في طريق التغيير، منطقة سهلة بالنسبة إلى أمثاله هو وأولاده.

لقي هذا التبنّي المشترك للعدو دعماً من مجموعة مواقف مشتركة: عدم اكتراث للحياة البشرية، وتبرير عمليات القتل الجماعي بغية تحقيق غايات يمقتها معظم الناس، واستعداد كبير لإقحام الدِّين والتاريخ الإسلاميين من أجل تحقيق هذه الغايات.

أيرغب شخص مثل صدّام أن تكون القاعدة قويةً داخل العراق؟ بالتأكيد لا. أيرغب في استخدام القاعدة خارج العراق؟ يُحتمل ذلك كثيراً. هل هناك مخاطر حقيقية من انتشار أسلحة الدمار الشامل، ليس من العراق فقط لكن من مناطق أخرى، بحيث تتسرب إلى الجماعات الإرهابية التي لن تتورّع عن استخدامها؟ إنني أعتقد ذلك بالتأكيد.

إنني ما زلت على هذا الرأي في الواقع. كم من المرات سمعت الناس يقولون إن الحكومة الإيرانية، لكونها شيعية، لن تعقد حلفاً مع جماعات سنّية في الشرق الأوسط؟ لكن الحكومة ستفعل ذلك عندما ترى غايةً تكتيكية، لأنها تتقاسم وتلك الجماعات مصلحةً في عدم الاستقرار، وفي ابتعادٍ حماسي عن القيَم «الغربية»، التي تريان، عن حق، أنها تشكل تهديداً على المدى الطويل لاستمرار سيطرتهما على السلطة.

شعرت كذلك أن الشرق الأوسط يجب يُنظر إليه على أنه منطقة تتشابك فيها المشاكل كثيراً، ويبرز فيها تحدّ أساسي بسيط جداً: تحتاج المنطقة، بإلحاح، إلى التحديث. كانت المنطقة خليطاً مقلقاً من العوامل السامة: رؤية غير منطقية للمستقبل، ورؤية للإسلام كانت غير كافية في أفضل الأحوال، وخطرة في أسوأ الأحوال، وهي تُحكم من قبل أنظمة يُمكن أن تتحالف مع الغرب لكنها تعاني ضغوطاً داخلية قوية. لدى قادة هذه الدولة نيات حسنة في غالب الأحيان، لكنهم يترأسون أنظمة لا يمكن دعمها أساساً. إذاً، يمكن أن ينفتح القادة على الغرب، لكن مجتمعاتهم قد لا تفعل. ربما تتفق الآراء في ذلك العالم، وفي عالمنا، على الحاجة إلى استئصال الإرهاب، لكن الأحاديث التي تدور في شوارعهم ستمثّل التطرف.

يُمكن أن نأخذ الموقف تجاه إسرائيل كمثال. يريد القادة الوصول إلى السلام أساساً، مع أنهم ينتقدون الحكومات الإسرائيلية كثيراً، وأحياناً لأسباب وجيهة. إن ما استُخدم على أنه صيحة حرب أصبح الآن أمراً مثيراً للقلق، بل أصبح أكثر من ذلك مصدراً للسخط داخلياً. أراد القادة ذات مرة استخدام هذه القضية، لكنهم يريدون حلّها الآن، لكن من دون إعلان، ومن دون برنامج محدد. كان يُنظر إلى إيران في ذلك الوقت على أنها تشكّل تهديداً أقل (وهي النقطة التي استخدموها ضد حرب العراق، وسأتحدث عن هذا الموضوع لاحقاً مع تفاصيل أكبر) لكن ظهر قلق متزايد، حتى في ذلك الوقت، بشأن النفوذ والنيات الإيرانيين. ربما يشعر القادة بالكراهية تجاه إسرائيل، لكنهم لم يخشوها قط. مثّلت إيران نوعاً آخر من القلق بالنسبة إليهم.

إذا ألقينا نظرةً سريعةً على الصحافة العربية المحلية فإننا سنلاحظ أن إسرائيل مكروهة، على صعيد الشارع، بين المعلّقين الصحافيين. أصبحت كراهية إسرائيل وسيلةً لتجنّب سماع مطالب التغيير في الداخل، وذلك عن طريق تركيز الجهود، وتعليقات السياسيين على قضية خارجية، وعلى الظلم الحاصل، ليس على الفلسطينيين فقط ولكن على المسلمين في كل مكان في العالم أيضاً، وهو ما يشكل دليلاً قاطعاً ومستمراً على أن الغرب يعادي المصالح الإسلامية، والإسلام ذاته.

سبق لي أن تحدثت عن أخطر التركيبات التي تعرفها السياسة، وهي عندما يُواجه الناس خياراً بين حكومة غير ديمقراطية تمتلك فكرة صحيحة، وحركة شعبية تتبنى فكرةً خاطئة. كان هذا الخيار ماثلاً بكثرة في المنطقة وما يتعداها. أما بالنسبة إلى

صدّام فالوضع على عكس ذلك تقريباً، أي إن نفوذه داخل المنطقة كان ساماً ورجعياً في الوقت ذاته بالنسبة إلى دولٍ مثل دول الخليج التي تريد يائسة قيادة شعبها في الطريق إلى المستقبل.

تطلعت إلى المنطقة، فشعرت بأن فرص التغيّر الثابت ليست جيدة، وستكون أسوأ، بالتأكيد، إذا ما بقي صدّام في السلطة. لم يسبق لي أن فهمت تماماً ما تعنيه مقولة المحافظين الجدد. إنني أدهش عندما يقول الناس: إنها تعني فرض الديمقراطية والحرية، وهو تعريف اعتبرته غريباً مثلما هو توصيف كلمة «محافظين». لكني أعتقد، في واقع الأمر، أن هذا التعبير يعني، بعد تحليله، وجهة النظر أن التطور مستحيل، وأن المنطقة تحتاج إلى إعادة ترتيب أساسية.

اشتهر خطاب حال الاتحاد الذي ألقاه جورج بوش في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٢، بملاحظة «محور الشر» التي وردت فيه، وهو المحور الذي يربط بين إيران، والعراق، وسوريا، وكوريا الشمالية. أشارت هذه الملاحظة إلى أن أميركا صمّمت على تغيير العالم، وليس على قيادته فقط، وبالقوة إذا تطلب الأمر، كما كانت الحال مع أفغانستان.

إنني أرى مشكلتين في طريقة عرض الطرح من قِبل الذين يناصرونه. المشكلة الأولى (وهي نقد أقل لجورج، الذي يبدي حذراً تجاه هذه العبارة على الدوام) هي تغليفها بلغةٍ حزبية – المحافظون الجدد – الأمر الذي يسبب مشاكل واضحة بالنسبة إلى الذين يعتبرون أنفسهم من الجناح التقدمي، أي مثلي أنا. المشكلة الثانية، وكما سبق لي أن قلت في الخطاب الذي ألقيته أمام مؤتمر الحزب في أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠١ (لكنه بدا فيما بعد وكأنه تصريح مهمل)، أنني أعتقد أن حلّ القضية الفلسطينية ذو أهمية استراتيجية أساسية من أجل حلّ هذا الصراع الأوسع. لم يتسبب ذلك بنشوء التطرف، لكن حلّ القضية سوف يغيّر خطوط المواجهة كثيراً بحيث يهزم هذا التطرف.

لكن مع ترك هذه المشاكل جانباً توصّلت إلى الاستنتاج ذاته من وجهة نظرٍ تقدمية، توصّل إليها جورج من وجهة نظر محافظة. تحتاج المنطقة إلى تغيير أساسي، ولا بدّ أن يكون تغييراً من نوع آخر. قمنا في الثمانينيات بتسليح صدّام، أي مثلما

سلّحنا المجاهدين في أفغانستان، وذلك من أجل ردع إيران من جهة وردع الاتحاد السوفياتي من جهةٍ ثانية. كانت تلك خطوة تكتيكية سرعان ما تحولت إلى غلطة استراتيجية. أردنا هذه المرة جلب الديمقراطية والحرية، وأردنا تسليم السلطة إلى الشعب، كما أردنا مساعدة الشعب على بناء مستقبل أفضل. لم نعتزم فرض مجموعة جديدة من الحكّام، لكننا أردنا إعطاء فرصة لكي يكونوا قادة، أي كما هي حالنا مع شعوبنا.

لكن ألم نُظهر إمكان تحقيق مثالية كهذه بالفعل؟ كانوا يحضّرون في أفغانستان لأول انتخابات عندهم، وذلك بعد أن بدا وكأن طالبان قد اختفت عن الساحة. تمكّنت في فترة ولايتي الأولى من قلب ميلوسيفيتش، وغيّرنا وجه البلقان. أما في سيراليون فقد تمكّنا من إنقاذ الديمقراطية وحمايتها بعد حروب الألماس. استخدمنا هنا قوة أميركا العسكرية، كي لا أقول قوة بريطانيا والدول الأخرى. لا يُمكن لصدّام أن يقاوم: إنه سيخسر، أو سيترك منصبه طوعاً، وذلك لأنه يعرف أن البديل هو إقصاؤه الإجباري.

تعيّن علينا لذلك كله أن نبعث برسالةٍ حول تحدي إرادة المجتمع الدولي، إلى العراق. وإذا كان هناك نظام يتميز بطبيعة مقيتة مع ميلٍ واضح للصراع فهو نظام صدّام. وإذا كان هناك شعب يحتاج إلى تحرير فهو الشعب العراقي.

لم تسر الأمور على هذا النحو. يعود ذلك إلى أن جذور هذا الصراع عميقة جداً، وبالتحديد لأنها معركة حياة أو موت أساسية بين المجدّدين والرجعيين، وبالتحديد لأن ما كان على المحكّ، ولا يزال، ليس أقل من مصير الإسلام برمّته، وطبيعة عقيدته، وتاريخه، ونظرته إلى موقعه في القرن الحادي والعشرين، ولهذه الأسباب كلها بالتحديد لم تكن القوى المعادية للتحديث، وبالتالي المعادية لنا، مستعدةً بأي طريقة من الطرائق، للتخلي عن مواقعها بسهولة. ستقوم هذه القوى بالقتال وكأن بقاءها يتوقّف على نتيجة هذه المعركة، وهذا ما فعلته وما زالت تفعله حتى الآن. يتعيّن علينا أن نسمح لقوى الديمقراطية بالتجذّر بدورها، وأن نسمح للتنمية التي يمولها الغرب بمساعدة الناس على الازدهار، وأن نحمل الناس في قلب العالم العربي على رؤية منافع النهج الحديث تجاه العمل، واللهو، والحياة. أما مفهوم الغرب بوصفه عدواً، وكافراً، فسوف يتهاوى بعد أن يتضح مدى تفاهة هذا المفهوم.

إنهم سيحاربون مستخدمين السلاح الوحيد الذي يكاد يكون مستحيلاً على أي حكومة، حتى ولو كانت عريقة في الحكم: الإرهاب. يدلّنا الواقع على أن أعمال العنف بين الجماعات السنّية، وعلى الرغم من بعض أعمال الإرهاب الواضحة التي قامت بها، كانت مقلقة لكن يمكن السيطرة عليها. إن الهجمات التي قادتها القاعدة أغرقت البلاد بالإرهاب وكادت أن تفتتها، وذلك بالإرهاب الذي لم يميّز بين الناس في الأسواق، وفي المراكز التجارية، حتى في المساجد، وهي الهجمات التي تسببت بمقتل أعداد كبيرة من المدنيين العاديين، ونشرت الخوف والرعب بين الناس. تُوّجت هذه الأعمال بهجمات مركزة على أماكن العبادة الشيعية على وجه الخصوص، واستهدفت السكان الشيعة، وهي الأعمال التي قُصد منها نشر لهب الحرب الطائفية، وهذا ما حصل بالفعل.

كان يُمكن إلحاق الهزيمة بالمسؤولين عن هذه الأعمال لو كانوا لوحدهم. لكن ما أضفى عليها قوةً هائلةً هو اجتماع الإرهاب مع النفوذ الإيراني المتزايد بين المجموعات الشيعية المتطرفة، وأخيراً مع القاعدة، وهو التنظيم الذي أدى استخدامه للإرهاب، وللأجهزة المتفجرة البديلة [اليدوية] ضد القوات البريطانية، والأميركية، والقوات الأخرى، إلى تلاشي الدعم للمشروع برمّته. بدأنا بقتال صدّام، لكننا انتهينا بقتال القوى الرجعية ذاتها التي نحاربها في كل مكان في المنطقة وما بعدها، حتى في شوارعنا نحن.

أريد أن أقول، بكلمات أخرى، لو تُركت البلاد وشأنها لكنا تدبرنا الأمر. لكن ما جعل مهمتنا أصعب، وتتجه نحو المستحيل أحياناً، هي الأعمال الناتجة عن المؤثّرات الخارجية، والمصمّمة على نشر الفوضى والدمار. يعرف تنظيم القاعدة، وتعرف إيران، الأمور التي هي على المحكّ في العراق. لا تريد هاتان القوتان رؤية البلاد مستقرة من دون قتال، وما إن تضعف عزيمتنا حتى تقوى عزيمتهما. لكن توازن العزائم لانتزاع النصر قد عاد لمصلحة قوى الديمقراطية والتحديث بفضل رئيس الوزراء نوري المالكي (وبصراحة من غير توقع) الذي أظهر ميزات القيادة، وتزامن ذلك مع قرار بوش بالهجوم.

كانت المهمة صعبة، وأصعب مما توقّعه أي شخص. كانت المشكلة، على الرغم من ذلك كله، في المفهوم القائل إن ما حدث بعد [إزاحة صدّام عن الحكم]

«يبرهن» أن إزاحة صدّام عن الحكم كان خطأ، هي أن هذا المفهوم يتضمن قبول أمرٍ يتعيّن أن نكتشف أنه غير مقبول بعد التفكير فيه ملياً. قمنا بإزالة صدّام، وأعطينا الشعب فرصةَ المشاركة في عملية ديمقراطية برعاية الأمم المتحدة، وكمية كبيرة من المال من أجل إعادة بناء بلدهم. يريد الشعب انتهاز تلك الفرصة كما أظهر رغبة في المشاركة في الانتخابات. لكن إزاحة صدام عن الحكم أتاحت الفرصة أمام الإرهابيين والقوى المعادية للديمقراطية لإثارة القلاقل في البلاد. تسبب ذلك بحرب دامية. تمضي تلك الفرضية بالقول إن من الأفضل لو تُرك صدّام في موقعه. يُتيح هذا للعراقيين، على نحو يماثل قليلاً ما هو متاح أمام الأفغان، خياراً: إما الدكتاتور الفظ الذي يحكمهم، وإما تركُ الإرهابيين يتغلغلون في بلادهم كي يبسطوا دكتاتوريتهم الخاصة بهم. يتعيّن على الشعب أن يختار، في هذه الحالة، بين طاغية علماني أو طاغية ديني.

قال لي أحد العراقيين خلال زيارة قمت بها إلى بغداد قبل وقتٍ قصير من مغادرتي لمنصبي: «إذاً أنتم [يعني النقاد الغربيين] تقولون: يمكننا الإبقاء على صدام أو أن نحكم بواسطة الإرهابيين، لكن ألا يمكننا الحصول على ما حصلتم عليه؟ بالتأكيد يجب علينا إلحاق الهزيمة بصدام، لكن علينا الآن إلحاق الهزيمة بالإرهاب. لكن ينبغي أن نحصل على خيارٍ أفضل لمستقبلنا».

لكن المشكلة هي أن العدو الذي نقاتله في العراق وفي أفغانستان قد اكتشف سمةً مهمة جداً في الشخصية الغربية: إننا نريد أن تكون معاركنا قصيرةً وناجحة. أما إذا تحول الصراع إلى معركة دموية، وطويلة، وغير مؤكّدة، فإن إرادتنا تضعف عند ذلك. إن خسارة الجنود، خصوصاً، تُضعف من معنوياتنا، وتُحبطنا. لكن بدلاً من إثارة مشاعر الغضب، والتصميم، وحتى الانتقام، فإنها تثير فينا إحساساً بالألم لكون المعركة لم تكن تستأهل هذه التضحية، أو لأنها هائلة، وعظيمة، ومثقلة بالأحزان. أما في عصر وسائل الإعلام الذي نعيش فيه هذه الأيام، فالصراع يجري على الهواء، وفي الحياة الحقيقية، ولم تكن الحرب يوماً تجري في الحياة الحقيقية [أمام وسائل الإعلام]، ومن أولها إلى آخرها. وللمفارقة، فإن آخر الأشخاص الذين تهبط معنوياتهم هم المحاربون أنفسهم، أي الجنود الذين انضموا إلى الجيش بصفتهم متطوعين يريدون جيشاً جاهزاً للقتال. لكن الناس يرهقون قبلهم بكثير، ويشعرون

بالتعب عاطفياً، وبالتوتر نفسياً. كانت نتيجة ذلك في العراق أن العزيمة قد وهنت على نحو خطير، ولم تُستعد إلا بالهجوم المضاد، وبتصميم العراقيين على تجنّب الوقوع في الهاوية.

حدث صراعان في العراق في حقيقة الأمر: صراع قصير نسبياً لإزاحة صدّام عن الحكم، وصراع طويل يهدف إلى التخلص من عواقب الاضطرابات المريعة التي يسببها الإرهاب. سقط العدد الأكبر من الضحايا، سواء من المدنيين المسلمين الأبرياء، أو من الجنود الأميركيين، والبريطانيين، وبقية الحلفاء في هذا الصراع الثاني. لكن إذا تراجعنا أمام هذا الإرهاب الذي يسببه الخارج ويوجّهه فستكون النتيجة نكسةً للصراع الأوسع.

سادت تلك الحجة بشراسة في ذلك الوقت، وهي تسود بشراسة هذه الأيام. لكن التاريخ هو الذي سيكون الحكم النهائي كما هي الحال على الدوام. أما في اللحظة الراهنة فإنني لا أتوقع أن يوافقني الآخرون في الرأي. إنني أسعى، فقط، إلى تفهّم أن هذه الحجج سواء المؤيدة أو المناقضة كانت وستظل أكثر توازناً مما توحيه الآراء السائدة.

لم يكن هذا الصراع مثل السويس، أي عندما وقفت بريطانيا وفرنسا في العام ١٩٥٦ ضد رغبات أميركا وسعت إلى قلب ناصر، لكنها فشلت. لم يكن الصراع مثل فييتنام، الذي كان معركة خيضت ضد اجتياح حقيقي (على الرغم من أن هذا الاجتياح لم يكن مدعوماً في البلاد على نحو كامل) حيث ربح الثوار.

ثمة أمرٌ منسي في خضمّ كل هذا الجدال الحتمي الذي دار حول العراق، وهو تأثيره في الأنظمة الأخرى أثناء التحرك العسكري. بدأت ليبيا في مطلع العام ٢٠٠٣ بمفاوضاتها التي تهدف إلى التخلص من برامجها النووية والكيميائية، وعمدت في النهاية إلى تسليمها وتدميرها. أما إيران في تشرين الأول/أكتوبر في العام ٢٠٠٣، فقد صُدمت بدايةً بالتحرك الأميركي، ثم عادت إلى مائدة المفاوضات الدائرة حول برنامجها النووي، وذلك لأول مرة منذ شهر آب/أغسطس ٢٠٠٢. عادت كوريا الشمالية إلى المحادثات السداسية، وذلك نزولاً عند طلب الرئيس بوش. كانت الأنشطة التي نفذها أ. ك. خان موضع تحركات صارمة من قِبل الحكومة الباكستانية

التي أقدمت على إنهائها في آخر الأمر. تدخّل منتجو ومروّجو الأسلحة الكيميائية بسرعة، وكانت العواقب العكسية للمواقف الأميركية المتشددة بالفعل معروفة جيداً، لكنها ترافقت مع تأثيرات هامة ومفيدة. تعرّف الناس إلى بوش الصارم بما فيه الكفاية كي يقوم بأي شيء، وهكذا أخذوا علماً بذلك. استنتجت من الأحاديث الخاصة التي أجريتها مع رؤساء في العالم العربي أن مواقفهم، بغضّ النظر عن موقف الشعب، هي الاستحسان الصامت لصورة أميركا التي يبدو أنها لا تتحمل حماقةً من أي شخص. لكن مع استمرار الصراع وتغيّر مزاج الشارع عندهم، تغيّر موقف الاستحسان هذا، لكنهم لم يرغبوا قط في إضعاف الرئيس الأميركي. كانوا يعرفون الدول المجاورة لهم جيداً، ولهذا كان بعض الخوف مما قد تفعله أميركا أمراً ليس بالسيئ بتاتاً.

تميّز التسلسل الزمني للأحداث حتى شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٣ بالتصعيد المستمرّ الذي أدى إلى الصراع. تغيّرت عقلية الولايات المتحدة كثيراً بعد ١١ أيلول/سبتمبر بشكلٍ حازم وأساسي. أعلن المتطرفون داخل الإسلام، واستناداً إلى تحريفٍ لحقيقته، الحرب عَلى الولايات المتحدة. اتخذت الإدارة الأميركية، وبشكلٍ أكبر من أولئك الذين هم خارجها، أي مثلي أنا، موقفاً واضحاً: هو تبني رؤية جديدة للعالم. إن الدول التي آوت الإرهابيين، أو ساعدتهم، أصبحت دولاً عدوة محتملة، أي إن وضعها أصبح مشابهاً للدول التي تمتلك برامج إنتاج أسلحة الدمار الشامل. كان احتمال التقاء الفريقين معاً – أي الإرهابيين، وما يسمى دول «الشر» التي تطور الأسلحة النووية، أو الكيميائية، أو البيولوجية – كبيراً جداً، أي إنه كان مخاطرةً كبيرةً عند التفكير فيه. أما الخطوة التي لم تحظَ باهتمام كبير، فهي التي قامت بها دول مجموعة الثماني في العام ٢٠٠٢، التي وافقت بموجبها الدول الأساسية على تقديم مليارات الدولارات من أجل حماية مواقع أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها دول الاتحاد السوفياتي السابق أو إزالتها. وافقت كل دولة على تبني تشريعات شاملة مضادة للإرهاب، وهي قامت بذلك فعلاً، كما شدّدت القوانين التي تكافح عمليات تبييض الأموال، وهي العمليات التي قد تكون مرتبطةً بتجارة الإرهاب أو أسلحة الدمار الشامل، كما ضغطت على أي مجموعات متطرفة قد تنزع نحو الأعمال الإرهابية.

عالج اجتماعي الأول مع جورج الذي جرى في كامب دافيد في شباط/فبراير من العام ٢٠٠١، موضوع العراق في سياق تلك العقوبات الجديدة التي سبق لي أن تحدثت عنها، لكن لم يكن هناك أي إحساس كبير بإلحاح المسألة. كان جورج مصمّماً على تكوين قاعدة يمينية قوية داخل الوِلايات المتحدة، وهي قاعدة القوة القادرة على مساندته خلال ولايتين رئاسيتين، وهي التي تركّزت خصوصاً على التعليم، وعلى الإصلاحات الضريبية. سارت الأمور بيننا على ما يرام، لكن مع شيء من الحذر. أعتقد أن شيري تمكنت من عقد رابطة صداقة مع لورا بوش على نحو أفضل مما جرى عليه الأمر بيني وبين جورج في البداية. نالت لورا إعجابي على الفور، ولاحظت أنها متواضعة، وغير مغرورة، لكنها تمتلك تحت السطح قوةً حقيقية. لم يكن من السهل بالنسبة إليها الانتقال بسهولة إلى عائلة قوية كهذه، ولا بد أن باربرا هي والدة زوج [حماة] قوية جداً (مع أنها أكثر ودية مما تُظهره علناً في بعض الأحيان). أما لورا فتمتلك ذلك الإيمان الداخلي والهادئ في نفسها الذي أعطاها تلك الدرع المتينة والصلبة التي مكنتها من مواجهة الصعوبات التي برزت فيما بعد.

يتمتع جورج بروح دعابة عظيم، وبنفسية متواضعة، وبإمكانية النقد الذاتي بطريقة جذابة، لكن الواقع أنه بقي من المحافظين، وأنا من التقدميين. لم نتفق على كثير من المواضيع الاجتماعية، بينما كنا على طرفَي نقيض في موضوع التغيّر المناخي.

لم تكن تلك زيارتي الأولى إلى كامب دافيد، إذ سبق لي أن ذهبت إلى هناك برفقة بيل. بدا لي الأمر غريباً بعض الشيء. جلست مع بيل في آخر مرة تحت أشعة شمس شباط/فبراير من العام ١٩٩٨، وتجادلنا في كيفية تخلّص يسار الوسط من عدم كفايته المزمنة الناتجة عن الفترات القصيرة التي يتولى فيها السلطة، وذلك أثناء تولي الحكومات المحافظة السلطة لفترات أطول. كانت تلك هي نوع الأحاديث الفكرية والموضوعية المثيرة التي يحبها بيل، والتي كنت أضيف إليها تحليلاتي الخاصة، وكنت أفاجأ وأتشجع بالنقاط التي تجمعنا معاً بحسب ما تبيّن لي فيما بعد.

لم يكن جورج هكذا على الإطلاق. ولم يكن ذلك ناتجاً عن عدم ذكائه، لأنه كان ذكياً جداً. كانت أسخف الصور الكاريكاتورية عن جورج هي أنه غبيّ وأحمق وجد طريقه إلى الرئاسة مصادفة. إن أحداً لا يشقّ طريقه إلى تلك الوظيفة مصادفة،

كما أن تاريخ الحملات الرئاسية الأميركية مليئ «بالجثث» السياسية لأولئك الذين يُفترض أنهم لامعون، لكنهم فشلوا مع ذلك إذ لا يكفي أن يكون الشخص لامعاً. لا يستطيع أي شخص لا يمتلك ميزة الذكاء أن يتحمل محنة الحملة الانتخابية التي تستغرق تسعة أشهر، وهي الفترة التي تلي أعواماً شاقة من جمع الأموال. يشبه هذا الأمر ما يجري في ميدان السياسة البريطانية، لكن لسبب مختلف: جلسات استجواب رئيس مجلس الوزراء. لا يستطيع أي رجل أحمق أن يتحمل جلسةً واحدةً منها. وإذا أراد المرء الاستمرار ورفع رأسه لفترة من الوقت – دعنا نفترض لمدة سنة في مركز زعيم المعارضة – فعليه أن يكون ذكياً، وأن يتخطى عتبةً فكريةً أساسيةً معينة، وإلا فإنه سيُمزّق وهو حي.

لكن شرط النجاح في السياسة الأميركية، أو في السياسة البريطانية، هو أن يكون أكثر من مجرد رجلٍ ذكي. يجب على المرء أن يكون قادراً على التواصل، وعلى صوغ ذلك التواصل بلغةٍ بسيطة. إن بساطة اللغة هي التي تدفع الناس إلى تجاوز القوة الفكرية التي يستخدمها المتحدث. كان ريغان وثاتشر ذكيين. لكن بساطة التعبير بالذات تلامس شيئاً آخر: البساطة التي هي وليدة طبيعة قادرة على اتخاذ قرار. يُمكن لتلك البساطة أن تكون مندفعة، أو يمكنها أن تتجاهل تعقيدات الموضوع المطروح، كما يمكنها بطبيعة الحال أن تؤدي إلى اتخاذ قرار خاطئ في بعض الأحيان. لكن الأمر ليس وليد الحماقة. يُمكن للمرء أن يُكسب قراره وتحرّكه وضوحاً في الظروف التي تستدعي وضوحاً كهذا بحيث يكون قوياً ومفيداً. أعرف قادة يعانون التفكير كثيراً في كلامهم، وذلك بحيث يكون أخذ الخيارات المتاحة في الاعتبار غايةً في ذاتها، وبديلاً لوضوح القرار الذي يتخذونه. إن التفكير قبل التحرك أمر حسنٌ بطبيعة الحال، لكن يجب أن يستغرق فترةً محدّدة كي يحلّ التحرك مكانه. يصدق هذا في ذاته، لكنه يصدق أيضاً عندما يقود المرء بلداً، أو حتى شركة، لأن عدم التحرك هو تحرك له عواقبه. إن عدم التحرك هو قرار بالإبقاء على الأمر الواقع. والإبقاء على الأمر الواقع يترافق مع نتيجةٍ بدوره، وعادة مع حركيته الخاصة به. إذا ترافقت إزالة صدّام عن السلطة مع نتيجة هائلة، لكن العجز عن إزالته من السلطة لم يكن ليحصل من دون عواقب. يمكننا المجادلة في طبيعة نتيجة كهذه، ومدى شموليتها، لكن النتيجة قد حدثت بالفعل.

يتحلى جورج ببساطة عظيمة في كيفية رؤيته للعالم. أدت هذه الرؤية، سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، إلى قيادة حازمة. يمكن للمرء أن لا يتفق مع قراراته بقوة، لكن القرارات المعاكسة تترافق مع مشاكل بدورها.

جلسنا فوق شرفة خارج المبنى الرئيس في كامب دافيد تحت أشعة شباط، وتبادلنا الحديث على أساس معرفة واحدنا للآخر. اتضح لي على الفور أنه بعيد جداً عن بيل كلينتون، لكنه يماثله في الصلابة والوضوح، كما أنه يعرف ما يريده بالضبط.

كانت زيارتي إلى كامب دافيد بمثابة استراحة مناسبة لي أثناء التحضيرات لانتخابات العام ٢٠٠١، التي تم تأجيلها قليلاً بسبب الداء الذي يصيب الماشية. مررت كذلك بفترة عصيبة بعد الاحتجاجات ضد الرسوم على الوقود. كنت متقدماً بعشر نقاط على الأقل في استطلاعات الرأي، ولهذا شعرت بالثقة. شعرت بأن جورج يتعامل معي وكأنه يتوقع أن يتعامل معي بعد سنة من الآن، وهذا ما دفعنا إلى رغبة في إنشاء جو ودّي فيما بيننا.

شُيّد منتجع كامب دافيد فوق مرتفعات غابة تقع حول محمية جبل كاتوكتين، كما يمتدّ على مساحة ١٤٠ أكراً من الأرض. إنه مجموعة من الأكواخ الخشبية التي شُيّدت على الطراز الأميركي بطريقة متينة. يحتوي المبنى الرئيس على المكان الذي يتناول فيه الرئيس طعامه، وسينما (أتصدقون أننا شاهدنا فيها فيلم اللقاء مع الأهالي)، بالإضافة إلى غرف مطالعة وتسلية. يعني ذلك أن المبنى مجهز برمّته، وهو يوحي بجو المزرعة، لكن سرعان ما يتم تحويله إلى مسرح يعجّ بالحركة. أحببت ذلك المكان لأنه يحفل بأماكن كثيرة للنزهة، وبطرقات أقيمت بين الأشجار. حرص المسؤولون على إبعاد وسائل الإعلام إلا عند عقد مؤتمرات صحفية. يضمّ المكان نادياً رياضياً، ومكاناً للصلاة، كما أن الطعام جيد. كان ذلك مكاناً رائعاً للاستراحة والتخطيط، كما أنه لا يبعد عن حديقة البيت الأبيض سوى مسافة طيران قصيرة بواسطة طائرة هليكوبتر، وهكذا تتضح لنا جاذبية المكان.

أما الأشهر التي أعقبت تلك الزيارة، فقد أسفرت عن إبراز أخبار انتقائي للملابس العادية، التي لم تكن موفّقةً كالعادة، وكذلك ملاحظة جورج حيال استخدامنا نوع معجون الأسنان ذاته، لكنني أعتقد أنني فكرت في العراق أكثر مما فعل هو.

استُهدف صدّام بتحركات عسكرية ودبلوماسية بين وقت وآخر منذ تلك الغارة التي نفّذت على بغداد في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٨، لكن هذه التحركات لم تلقَ نجاحاً كبيراً. دارت نقاشات مطولة بعد إعادة انتخابي في حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١، بين الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وروسيا، وذلك حول موضوع نظام العقوبات الجديدة التي تهدف إلى إقناع صدّام بالسماح لمفتشي الأمم المتحدة بالعودة إلى العراق. تولد لدينا قلق مستمرّ بشأن المصالح التجارية الروسية. ناقشت مع فلاديمير موضوع العقوبات في قمة الدول الثماني التي عُقدت في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠١ في جنوا. مازحني فلاديمير بالقول إنه يؤيد هذه العقوبات، لكن شريطة تعويضه عن مبلغ ٨ مليارات دولار يدين به العراق لروسيا.

وضعت الولايات المتحدة خططاً لتكرار غارة العام ١٩٩٨ في حال رفض صدّام الإذعان، كان سياق التحرك ثابتاً في عدم فرض ضغوط دبلوماسية ملحة، لكن لعلّي كنت المناصر الأشدّ لتحركٍ قويّ، وذلك على الرغم من أنني لم أفكر في إزاحة صدّام بالقوة عن السلطة.

كتبت رسالة إلى الرئيس الإيراني خاتمي في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠١، وشكرته على دعمه لمسودة القرار المتعلق بالعراق. قيل لي قبل بعض الوقت إن خاتمي يقدم فرصةً واقعيةً لإعادة إحياء علاقتنا مع إيران ووضعها في إطارها الطبيعي. شكّكت في الأمر على الرغم من استعدادي للمحاولة.

أبلَغَنا القادة العسكريون الأميركيون والبريطانيون الذين يطيرون فوق مناطق حظر الطيران في شهر آب/أغسطس من العام ٢٠٠١ أن التهديدات ضد طائرات التحالف قد ازدادت على نحو كبير، وهكذا نشطت طائرات أف- ١٦ فوق البصرة، لكن هذه التطورات لم تصل إلى عناوين الصحف.

تغيّر ذلك كله مع الهجوم على نيويورك، وواشنطن في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. سبق لي أن أوضحت أن طبيعة التهديد الأمني قد تغيّرت فجأة: أي من مستوى منخفضٍ جداً إلى مستوى عالي الأهمية، ومن مستوى يمكننا التعامل معه في الوقت المناسب، إلى مستوى ملحٍ جداً، وداهم، وضاغطٍ، ومسيطر.

تغيّر الموقف الأميركي بلمحة بصر. كان صدّام ذكرى غير مرحب بها لمعارك من الماضي، وعدواً مهزوماً لكنه تُرك في مكانه وسط سخط كثيرين. لم يُنظر إليه على أنه تهديد، لكن الأمر لم يقتصر الآن على أن التهديد المباشر قد ازداد، بل أصبح مشمولاً في الإيمان الأميركي بأن صدمة الهجوم كانت من الجدية في عواقبها، بحيث يتطلب الأمر إعادة تشكيل العالم. تحولت الحكومات التي كانت مكروهةً ذات مرة، مع أنها كانت مقبولة على مضض، إلى دول عدوة محتملة بين ليلة وضحاها، ويتعيّن مواجهتها كي تغيّر مواقفها، أو تُجبَر على تغيير حكوماتها.

أما الأهمّ من ذلك كله فقد كان بروز إحساسٍ بوجود حالة طوارئ. لكن الفشل في التحرك هذه المرة سيكون تحركاً في ذاته، وستكون العواقب عكسيةً على نحو كبير. برز الخوف من حكم التاريخ في تلك اللحظة ليس من التحرك، بل من عدم التحرك. أما تغيير العالم فقد كان تحدّياً صعباً في ذاته، وهكذا فإن عدم تحقيق ذلك الهدف، إذا علقنا في مرحلة عدم اتخاذ قرار، يُعتبر مخاطرةً أكبر إلى حدٍّ كبير.

كانت المشكلة الداهمة هي كيفية التعامل مع بن لادن، والقاعدة، وطالبان. لكن كان من الواضح أن الولايات المتحدة كانت منشغلة بقضايا أوسع تتعلق بأسلحة الدمار الشامل. أصدر الرئيس بوش في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠١، تحذيراً قويّ اللهجة إلى الحكومات التي تطور أسلحة الدمار الشامل، وإلى العراق على الخصوص، كي تسمح بعودة المفتشين مجدداً. أقدمت مجموعة من الحزبَين من أعضاء مجلس الشيوخ في مطلع شهر كانون الأول/ديسمبر بتذكير جورج، عن طريق رسالة شديدة اللهجة، بضرورة إزاحة صدّام عن الحكم، وبأن سياسة الولايات المتحدة هي تغيير النظام.

بدأ صدام تحت الضغط في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٢، بعملية إعادة فتح المفاوضات مع الأمم المتحدة حول موضوع مفتشي الأسلحة. لكن التزامه قرارات الأمم المتحدة كان ضئيلاً جداً، الأمر الذي يُظهره الجدول التالي الذي أعد من أجل مناقشات نواب حزب العمال، التي جرت في اجتماع وزاري في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٢.

جدول الأمور التي يتعيّن على العراق تنفيذها بموجب قرارات مجلس الأمن الدولي، وسجل التزام النظام بها.

المطلوب	هل يلتزم العراق بها؟
قرار مجلس الأمن ٦٦١ – ٦ آب ١٩٩٠	
يجب على العراق الالتزام بتنفيذ القرار ٦٦٠	
(الانسحاب من الكويت) أقدم تحالف يضم ٣٧ دولة على طرد العراق	
الحظر التجاري على العراق، ما عدا الوقود والدواء	كلا
قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٦٨٦ – ٢ آذار ١٩٩١	
إعادة العراق لكل ما سرقه من الممتلكات الكويتية	كلا
قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٦٨٧– ٣ نيسان ١٩٩١	
احترام العراق للحدود المتفق عليها في العام ١٩٦٣	أجل
قبول العراق تدمير، وإزالة، أو إبطال أسلحة الدمار	كلا
إعلان العراق عناصر برنامج الدمار الشامل	كلا
تعاون العراق مع فرق تفتيش UNMOVIC وAEA ا	كلا
قبول العراق كل المسؤولية كلها عن الأضرار المباشرة لغزو الكويت	كلا
تعاون العراق بالنسبة إلى الكويتيين المفقودين، والمفقودين	
الآخرين منذ غزو العراق للكويت	كلا
عدم الالتزام بدعم الإرهاب الدولي أو القيام بالإرهاب	كلا
قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٦٨٨– ٥ نيسان ١٩٩١	
توقف العراق عن قمع مواطنيه المدنيين	كلا
سماح العراق بدخول هيئات الإغاثة الدولية	كلا

تعاون العراق مع الأمين العام للأمم المتحدة بشأن حاجات
المدنيين العراقيين أجل

قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٧٠٧- ١٥ آب ١٩٩١

التزام العراق الإعلان الكامل، والتام، والنهائي عن برنامج
أسلحة الدمار الشامل كلا

إعطاء العراق UNMOVIC وIAEA دخولاً غير مشروط وغير محدود كلا

توقّف العراق عن إخفاء أو نقل أسلحة الدمار الشامل كلا

استجابة العراق الكاملة لأسئلة وطلبات UNMOVIC وIAEA كلا

سماح العراق لرحلات UNMOVIC وIAEA من دون اعتراضها كلا

تخفيض جميع أنشطة العراق النووية إلى النصف باستثناء
استخدامه المشروع للنظائر كلا

تزويد العراق UNMOVIC وIAEA أي دعم لوجستي ضروري كلا

قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٧١٥- ١١ تشرين الأول ١٩٩١

تعاون العراق مع عمليات مراقبة UNMOVIC وIAEA كلا

فرض العراق لقوانين جزائية لضمان تطبيق الإجراءات
المضادة لأسلحة الدمار الشامل في العراق كلا

قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٩٤٩- ١٥ تشرين الأول ١٩٩٤

امتناع العراق عن استخدام القوة بغية تهديد جيرانه أو
عمليات الأمم المتحدة كلا

عدم تعزيز العراق قدراته العسكرية في جنوب العراق كلا

قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ١٠٥١- ٢٧ آذار ١٩٩٦

إبلاغ العراق UNMOVIC وIAEA عن شحنات

مواد أسلحة الدمار الشامل ذات الاستخدام المزدوج كلا

قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ١٢٨٤- ١٧ كانون الأول ١٩٩٩

إلزام العراق التعاون مع UNMOVIC كلا

إلزام العراق التعاون مع اللجنة ثلاثية الأطراف كلا

إلزام العراق التعاون مع برنامج النفط مقابل الغذاء كلا

- UNMOVIC : لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتدقيق والتفتيش
- IAEA: الوكالة الدولية للطاقة الذرية

تنتشر، بطبيعة الحال، نظريات المؤامرة في هذه المنطقة، الأمر الذي كان سائداً منذ زمنٍ طويل، لذلك افترض كثيرون أن الولايات المتحدة قد اتخذت قراراً يقضي بإزالة صدّام حسين عن الحكم بالقوة العسكرية في أواخر العام ٢٠٠١، وهكذا أصبحت الحرب حتمية منذ ذلك الوقت. لكن الحرب لم تكن حتمية، كما أن الأمر لا يتعلق بكيفية عمل السياسة، أو حتى بكيفية عمل البشر. يتخذ البشر في النهاية قرارات سياسية.

إن ما حدث، كما سبق أن قلت، هو أن موقف الولايات المتحدة تجاه المخاطر قد انقلب رأساً على عقب. وُضع العراق الآن في برنامج العمل [الروزنامة]. كان هناك ميل لتصديق أن صدّام كان فاسداً، كما كان من المؤكّد أنه ماضٍ في برنامجه المتعلق بأسلحة الدمار الشامل. ساد الاعتقاد أن العالم سيكون أفضلَ حالاً إذا كان صدّام خارج السلطة. كان ذلك كله مؤكّداً، لكنه كان بعيداً جدّاً عن اتخاذ قرار. أعتقد لو أن صدّام امتلك من الفهم كي يفعل في العراق ما فعله القذافي في ليبيا، بدلاً من تلك العملية المؤلمة وغير النزيهة بشكلٍ مفضوح التي قام بها، لو فعل ذلك لكانت القضية قد وجدت حلاً لها. ولو أقدم صدّام على فتح أبوابه، وأدان هجمات ١١ أيلول/سبتمبر بدلاً من دعمها، ولو أوضح أنه فهم أن قواعد اللعبة قد تغيّرت على نحو أساسي، إذاً لكان وجد عقولاً منفتحة في الجهة الأخرى من بابه المفتوح. ربما لو فعل ذلك لما كان صدّام.

أما النقطة الهامة هنا فهي: بدأ قرار مواجهة صدّام في ذهن الولايات المتحدة منذ ١١ أيلول/سبتمبر، لكن كان يُمكن لهذه المواجهة، نظرياً، أن تبقى وتنجح بوصفها إجراءً دبلوماسياً.

إنني أعرف ذلك، لأنني كنت أتحدث مع جورج طوال هذه المدة. ربما اعتبر أن التحرك العسكري ضروريّ في مرحلةٍ من المراحل، لكن بنهاية العام ٢٠٠٢ اتضح الأمر لديه أكثر فأكثر. لكن في أواخر العام ٢٠٠٢ ومطلع العام ٢٠٠٣، كان من الممكن أن نتجنب الصراع. يقول الناس، بطبيعة الحال، إن التخطيط العسكري كان جارياً على قدم وساق، وإن الدبلوماسية لم تكن سوى استعراض. كان هذا التخطيط حتمياً وصحيحاً، ليس لأن الحرب حتمية، بل لأنها كانت خياراً، وخياراً يجب أن يخطّط له جيداً.

كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بخطورة الوضع عند زيارتي إلى كراوفورد، مزرعة جورج في تكساس، وكان ذلك في نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٢. تقع المزرعة وسط منطقة مترامية الأطراف، وتبلغ مساحتها ١,٦٠٠ أكر، وتضمّ منزلاً وبيتاً للضيوف، ومباني خارجية متعددة. لم أذهب وحيداً إلى هناك، بل مع جدّتي وليو. كان الأمر غريباً. كانت شيري تفضّل أن أصطحب العائلة معي في أسفاري، لكني أفضل، بصراحة، أن أكون وحيداً وغير مقيدٍ عندما أعمل، وذلك كي أتمكن من التركيز كلياً على القضية التي تشغلني من دون أن أقلق بشأن شعور ليو بالسأم، أو بشكوى ما من جدتي، أو التأكد من وجود الجميع معاً! يعني ذلك أنني لم أكن في أفضل حال في هذه المناسبات التي يختلط فيها العمل مع الاجتماعيات، الأمر الذي يفرض بعض التوتر والقلق.

رحب جورج ولورا بنا ترحيباً شديداً يفوق ما تفرضه أصول الضيافة العادية. كان الطقس بارداً على نحو لا يصدق، الأمر الذي خيّب آمالي. سبق لي أن افترضت أن أيام تكساس مشمسة معظم أيام السنة (أعرف أن هذا خطأ) ولهذا كنت أتطلع إلى هذه الزيارة بعد انقضاء الشتاء في بريطانيا، كما أن من النادر بالنسبة إلي أن أتغاضى عن قضاء إجازة نهاية الأسبوع في المنزل. إنني أفضّل أن تكون الإجازات خالية من المهمات الرسمية إلا إذا دعت الضرورة القصوى لذلك. كانت هذه الإجازة استثناءً،

ولذلك فكّرت أن أفضل طريقة أمامي لمعرفة ما يدور في ذهن جورج هي أن أقضي الإجازة خارج واشنطن، أو حتى في كامب دافيد.

سبق لي أن قررت في ذهني أن إزاحة صدّام عن السلطة ستسدي خدمةً كبيرةً إلى العالم، وعلى الخصوص إلى الشعب العراقي. كنت أعرف أن تغيير الأنظمة ليس من سياستنا، ومع ذلك تطلعت إلى ذلك التغيير بحماسة، وليس باستياء. سبق لي أن حدّدت في خطابي الذي ألقيته في شيكاغو في العام ١٩٩٩، المبدأ الجديد المتعلق بـ«لمسؤولية الحماية»، يعني ذلك أن الحكومات لا يمكن أن تكون حرةً تماماً في قهر مواطنيها وتعذيبهم. وضعت هذا المبدأ موضع التنفيذ في كوسوفو، وفي سيراليون.

توصّلتُ بعد ذلك، بسبب الصعوبات التي تترافق مع تحركٍ كهذا، ولأن الحرب يجب أن تكون الملاذ الأخير وليس الأول، إلى اقتناع أكيد مفاده أنه يمكننا أن نفعل ذلك على أساس عدم تطبيق قرارات الأمم المتحدة. يعني ذلك أننا غير قادرين على إزاحة صدّام على أساس أنه طاغية فقط [بل بسبب رفضه تطبيق قرارات الأمم المتحدة].

برزت أمامنا مع الوقت أسطورة أخرى، تستند إلى الملاحظات التي قدّمها السفير البريطاني في الولايات المتحدة في ذلك الحين السير كريستوفر ماير. اتهمني كريستوفر أنني تعهدت «بالدم» عندما كنت في كراوفورد أنني سوف أدعم أميركا، وأنني وقّعت على تغيير النظام، وذكرت ذلك صراحةً في الخطاب الذي ألقيته في تكساس أمام جورج بوش الأب، وذلك بعد قضاء يومٍ في كراوفورد.

لم يكن كريستوفر، في واقع الأمر، موجوداً عند اجتماعي مع آل بوش، حتى أنه لم يكن موجوداً في المبنى ذاته. إنني لم أقدم تعهداً كهذا، لكني شددت في الواقع على دور الأمم المتحدة، كما أن خطابي في تكساس كان متوافقاً تماماً مع تصريحاتي العلنية الأخرى.

لكن ما إن تُعلن الأسطورة حتى تصبح حقيقةً واقعة.

كنت، على الرغم من ذلك كله، واضحاً بشأن أمرين. الأول هو ضرورة حمل صدّام على الانصياع لقرارات الأمم المتحدة، وإقناعه بأن سنوات عدم تعاونه مع

هذه القرارات وإعاقته إياها قد وصلت إلى خاتمتها. الأمر الثاني هو أن على بريطانيا أن تظل، كبلد، واقفة «جنباً إلى جنب» مع أميركا. إن هذه ليست بالسياسة الفجة، أو المتسرعة، كما تبدو لأول وهلة. لا يعني ذلك أننا ضحّينا بمصالحنا لأجل مصالحهم، أو أننا قمنا ببيع سياستنا الخارجية. يعني ذلك أن التحالف القائم بين بلدينا كان مصلحةً استراتيجيةً حيوية، لكنني أعتبرها منفعةً استراتيجية حيوية لبريطانيا كذلك.

يعني ذلك أننا رأينا في الهجمات على الولايات المتحدة وكأنها هجوم علينا، وهذا كان رأيي بالفعل. يقدّم ذلك حجةً للموقف الذي يعتبر أن البلدين يخوضان الحرب بالفعل، ومعاً، أي إن للبلدين مصلحةً مشتركةً في نتيجة ناجحة لهذه الحرب. اعتبره عندئذ، ولا أزال حتى الآن، أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تخسر هذه المعركة، وأن مهمتنا كبلد حليف سبق له أن واجه تهديداً مشتركاً توجب علينا أن نكون معها في ساعة ضيقها. أعرف أن ذلك قد يُعتبر تبريراً سخيفاً، أو حتى كما اعتبر بعضهم خداعاً للذات بالنظر إلى تأثيرنا في عملية اتخاذ القرار في أميركا. كنت متأكداً أن الولايات المتحدة سوف تُقدم في النهاية على اتخاذ قراراتها بحسب ما تمليه عليها مصلحتها. لكنني كنت أدرك في الوقت نفسه أن بريطانيا وأوروبا في هذا العالم الجديد الذي يتشكل من حولنا، ستواجهان، من دون أميركا، مستقبلاً يتميز بقدرٍ أكبر من القلق. برهنت الهزيمة التي انتهت إليها الشيوعية، ولنكن صريحين بالقول إن ذلك لم يكن ليحدث من دون أميركا، على أن تحالفنا معها هو في منتهى الأهمية. أظهرت لي تجربتي عندما احتجت إلى بيل كلينتون كي يتحرك في كوسوفو، الأمر الذي لربما أنقذ البلقان، أننا نمتلك أسباباً حديثة، وليس أسباباً تاريخية فقط، تجعلنا بحاجة إلى أميركا. إذاً، هل كان بإمكاننا أن نرفض مساعدتها فعلاً عندما تحتاج إلينا؟ أو حتى ما هو أسوأ من ذلك، أن نأمل أن تنجح لكن من دون مساعدتنا؟ فكرت كثيراً في هذا الأمر فشعرت بأهمية هذا التحالف، ليس على نحو مفروض، بل قاطع، وأنه نداء الواجب، ونداء من أجل التحرك، ونداء كي نكون إلى جانبها وليس بعيداً عنها عندما تشعر بالخطر.

بعثنا برسالة قوية خلال مؤتمر صحفي عقدناه في مكتبة مدرسة كراوفورد أمام الأعلام الأميركية والبريطانية. كان جوهرها على النحو التالي: «إما أن يغيّر النظام موقفه من عمليات تفتيش أسلحة الدمار الشامل، وإما أن يواجه احتمال تغييره».

كان حديثنا أكثر دقةً خلف الأبواب المغلقة. تشاركنا في التحليل ذاته فيما يتعلق بطبيعة حكومة صدّام، ومن حيث خطره على الأمن، وبالنسبة إلى مشكلة المنطقة الأكثر شمولية. كانت مشكلتي في ذلك الوقت، وحتى بعد ذلك، هي تحديد مشكلة صدّام في السياق الأوسع للشرق الأوسط كمنطقةٍ في طور التغيّر. لاحظت عندئذ، وإن على نحو أوضح مما عليه الحال هذه الأيام، وجود قضايا مختلفة تقع أساساً ضمن الصورة الواحدة. دفعني هذا الأمر إلى تخصيص الجزء الأكبر من حديثي مع جورج لموضوع عملية السلام بين إسرائيل وفلسطين. اعتبرتُ أن هذا العامل الضروري من القوة الناعمة يعطي توازناً للقوة الصلبة الضرورية لإزاحة صدّام عن الحكم.

سقطت هذه العملية في حالة من الفوضى. مرّت فترة رهيبة من الأحداث بعد انتفاضة العام ٢٠٠٠، وهي الفترة التي نفّذ فيها الفلسطينيون هجماتٍ إرهابية، بينما رد الإسرائيليون بعملياتٍ انتقامية أدت إلى تشديد قبضة الاحتلال كثيراً. اقتربت العملية كثيراً من تحقيق اختراق (أو هكذا بدا الأمر) مع نهاية عهد كلينتون، لكنها وصلت بعد ذلك إلى حالةٍ يائسة. اعتبرت أن إصلاح هذه العملية، ووضع قاطرتها على السكة مجدداً، هو أمرٌ ضروري جداً لإعادة تكوين الظروف التي تسمح بأخذ إجراءات أقسى وأصعب من دون أن تلقى مقاومةً في الشارع العربي، والسخط في العالم الإسلامي. أخذت شهية التحرك بالتلاشي بعد مرور ستة أشهرٍ فقط على مجزرة ١١ أيلول/سبتمبر، كما وصلت الحماسة لأي نوعٍ من أنواع المواجهة العسكرية إلى حدّها الأدنى في أسوأ الأحوال.

عقدت اجتماعاً مع كبار ضباط الجيش في شيكرز، وذلك قبل أيام قليلة من مغادرتي إلى كراوفورد. لم يكن القصد من هذا الاجتماع التحضير لكراوفورد، بل طرح الأسئلة الأساسية حول الأمور التي قد تستتبع التحرك العسكري. دارت مناقشات حول ما إذا كان هدفنا سوف يتركز على أسلحة الدمار الشامل، أو على تغيير النظام. شدّدت في هذا الاجتماع على أن الأمرين مترابطان، وأن من الصعوبة بمكان في هذه المرحلة القول إن طبيعة تهديد أسلحة الدمار الشامل الخاصة بالعراق قد تغيّرت كثيراً في السنوات القليلة الماضية. إن الذي تغيّر، في حقيقة الأمر، هو تقييم المخاطر.

قدّم لنا السير مايك لويس، رئيس هيئة الدفاع، الذي عمل في سلاح الغواصات،

والرئيس السابق للبحرية، والسير أنطوني بيجوت، وهو جنرال درس الخيارات العسكرية المتاحة، عرضاً يتعلق بالموضوع. حذّر الرجلان من أن المعركة قد تصبح دموية، وأن إزاحة صدّام قد تستغرق وقتاً طويلاً. مضت الولايات المتحدة في التخطيط للمواجهة، لكن كان من الصعب معرفة إلى أين ستصل بهذا التخطيط. كنا نحتاج إلى معرفة المدى الذي وصلت إليه في هذا التخطيط لكي نكون جزءاً منه. شكّل هذا الأمر مأزقاً كما كان الحال كذلك دائماً: إذا أراد المرء أن يكون جزءاً من التخطيط، أي كما يجب أن يكون، وعلى الأقل في المبدأ، فسيتوجب عليه أن يكون جزءاً من التحرك. بدأنا بالمشاركة، إلى حدٍ لا بأس فيه، في التخطيط حتى في هذه المراحل المبكرة من تفكير الإدارة الأميركية.

لا يعني ذلك الكلام كله أن الحرب كانت مؤكّدة. لم تكن كذلك، لكن كان من المؤكد أن القلق الشديد هو جزء ثابت من الأحاديث التي دارت بيني وبين جورج خلال هذه الأشهر، التي استمرت لربما نحو شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وذلك لأننا كنا نخطط لما هو ممكن، الأمر الذي يعني أنه محتم في أذهان وسائل الإعلام. تمكّنا في أثناء ذلك من استيعاب المفاهيم الأساسية: يتعيّن على صدّام الانصياع لقرارات الأمم المتحدة، والسماح للمفتشين بالعودة. لا يمكن لنا هذه المرة أن نسمح له بالعبث معنا، ولا بد أن يكون الانصياع كاملاً. أما إذا رفض ذلك، فإننا سوف نكون في موقع يسمح لنا بإزاحته. سارت الدبلوماسية في مسارٍ موازٍ، لكن المسارين التقيا في بعض النقاط.

جعل هذا الأمر من السياسات المحلية أمراً غير مريح. يقرأ الناس التقارير بطبيعة الحال، وهم افترضوا أن كل شيء قد تقرر سلفاً، وأننا نحدد مواقفنا على هذا الأساس. أما إذا قلنا إننا لم نتفق على شن الحرب فسيسألوننا ما إذا كنا نخطط لها، وذلك يعني أن الاتفاق قد تم على شنّ الحرب. كانت فكرة إعلان حالة طوارئ أمراً دقيقاً جداً. أريد أن أقول، للإنصاف، إن أصواتاً كثيرة تصاعدت من أنحاء كثيرة من الإدارة الأميركية، أوحت بوجوب سير سياستنا في اتجاهٍ واحد.

عدنا جواً من كراوفورد، لكن بعد أن حملنا معنا بعض الأفكار الجدية التي يتوجب علينا استعراضها جدياً. أدليت بتصريح عن عملية السلام في الشرق الأوسط،

وذلك بعد أن تعهد جورج أمامي بإعادة تحريكها. كان علينا تسوية Budget [الموازنة]، الأمر الذي عقدت من أجله عدة اجتماعات مع غوردون، وكانت مرضية بالإجمال. اتفقنا آخر الأمر على سياسة تقضي برفع ضريبة التأمين الوطني، وذلك من أجل تغطية نفقات الخدمات الصحية الوطنية.

ساءت أخيراً علاقتنا مع الصحافة في هذا الوقت تقريباً، وحدث ذلك لأول مرة منذ أن تولينا المسؤولية بشكلٍ فعلي. كان إحباط جناح اليمين إزاء حالة حزب المحافظين قد وصل إلى درجة التهجمات الشخصية واللاذعة التي استهدفتني، واستهدفت كذلك أي وزيرٍ بدا لهم مع شيء من الضعف في مواقفه، وكذلك أولئك الذين يعملون معي عن قرب.

شهدنا في هذا الوقت كذلك جنازةَ الملكة الأم وما رافقها من أحداث استثنائية. توفيت الملكة الأم عن عمر كاملٍ وصل إلى ١٠١ سنة. شعرت الأمة عموماً بالحزن لوفاتها، وهي التي كانت شخصيةً بريطانية قوية خلال عقودٍ من الزمن، وكانت محبوبة كثيراً، كما أن الناس يتذكرونها لصبرها وصلابتها على الشدائد أثناء الحرب، وذلك عندما أصرّت على البقاء في لندن خلال تعرضها للقصف الجوي خلال الحرب العالمية الثانية.

تترافق الترتيبات لمناسبة وطنية كبيرة كهذه مع تعقيدات كثيرة. إذ قضت هذه الترتيبات أن تبقى في قاعة وستمنستر لمدة أسبوع، قبل بدء مراسم الجنازة الفعلية. أبقت كلير سومنر، وهي موظفة حكومية وشابة محببة ومقتدرة ونزيهة، على اتصالها مع بلاك رود، وهو جنرال متقاعد، حول الترتيبات التي يفرضها البروتوكول. ثار، لسببٍ ما أجهله، جدلٌ حول ما فعلته، أو بسبب موقفي، أو أي شيء مماثل (لم أتمكن من تذكّر التفاصيل بسبب تفاهة ما حدث)، وهو حدث عولج من دون أي مشكلة. هذا ما اعتقدته كلير، وهكذا وافقت على أن تفعل ما أراده بلاك رود، لكني لم أعلم بهذه القضية إلا لاحقاً.

نشرت صحف التلغراف، وسبكتاتور، ومايل أون صنداي، مقالات عن تدخلي أنا وآلاستير (الذي لم يعلم أي شيء عن القضية بدوره) في مسألة جنازة الملكة الأم، الأمر الذي تسبب بالذعر والضيق، لما يظهره هذا التدخل من عدم الاحترام، إلى ما

هنالك. كان ذلك كله مجرد تفاهةٍ تامة. أخذت ذلك بصورة جدية، ويا لحماقة الأمر، مرة واحدة، وقررت رفعه إلى لجنة الشكاوى الصحفية. كانت تلك آخر مرة أرتكب فيها تلك الغلطة. أقول للإنصاف، إن الشخص المسؤول والدائم كان عقلانياً تماماً، لكن لجنة الشكاوى الصحفية، بطبيعة الحال، كانت مؤلفة من محررين صحافيين. أبلغونا بعد ذلك بأن المصدر الذي سرّب الخبر كان قريباً جداً من بلاك رود. شعرت لجنة الشكاوى الصحفية بأنها لا تستطيع أن تتخذ قراراً بشأن هذه القضية التي تركت وراءها مذاقاً مريراً.

قرر ستيف بايرز الذي كان وزيراً جيداً الاستقالة. تحمل الرجل هجماتٍ متلاحقة استمرّت عدة أسابيع، واتُّهم بالكذب، والغشّ، وبأنه وغد، وبأشياء أخرى، وذلك بسبب رفضه طرد مساعده الصحفي جو مور (الذي بعث برسالة بالبريد الإلكتروني حول ١١ أيلول قال فيها إن الوقت مناسب «لدفن» الأخبار السيئة)، وبسبب قضايا متنوعة أخرى لها علاقة بالسكك الحديد. لم يكن هناك أي تبرير إطلاقاً لتقديمه الاستقالة، لكن يمكنني القول إنه تحمّل ما يكفي. يتعيّن على المرء أن يكون سوبرمان [أقوى من الطبيعة الإنسانية]، أو لربما ما دون الطبيعة الإنسانية، كي يتمكن من تحمّل هذه الأمور كافة علماً أن أفراد الأسرة والأصدقاء سوف يُظهرون نوعاً من التعاطف [أو الشفقة] بينما يمضي الخصوم بالشماتة. يمكنني القول إنه تلقى ضربةً مميتة. أعطاني التغيير الوزاري فرصةً لإدخال دافيد ميليباند الوزارة، وذلك بعد أقل من سنةٍ واحدة من انتخابه نائباً في البرلمان.

عقدنا اجتماعاً حكومياً في شهر حزيران/يونيو، لكن جون بريسكوت شنّ هجوماً قاسياً على بيتر مندلسون وعلى آخرين اعتبر أنهم يخلّون بالتوازن بين حزب العمال الجديد وحزب العمال القديم. قدّمت رداً قاسياً قلت فيه إننا نمرّ بأوقاتٍ صعبة، لكن هذه هي طبيعة عمل الحكومات. أظنّ أنني أضفت في ذلك الوقت أننا لا نستطيع أن «ننهار» في كل مرة نمرّ فيها بفترةٍ صعبة.

أعتقد أن القارئ قد أخذ فكرة تامة عن صورة الوضع: كان مزيجاً من الأمور التاريخية، والموقتة، والسطحية. جرى ذلك كله على خلفية عامة مما يجري في العراق من أمور ملحة، ووسط انشغالنا بكيفية الردّ عليها.

يتعيّن على المرء أن يفكّر في ما جرى لعدة أسباب، لكن إحدى الدراسات المهمة تحدّثت عن كون هذه الحرب أول حرب تخاض على أساس الحقبة الجديدة التي تتميز بالشفافية والتغطية الإعلامية على مدى الساعة. ظهرت مقالات يومية تقريباً، بدا أنها حرفت النقاشات في هذا الاتجاه أو ذاك، الأمر الذي يحوّل الشائعات إلى حقائق، وذلك بالنظر إلى أنماط التغطية الصحفية التي ظهرت حديثاً. لم نكن متأكدين في بعض الأحيان ما إذا كنا نحن الذين نضع برنامج الأحداث، أم أن الأحداث هي التي تحركنا. تلقيت اتصالاً هاتفياً من جورج عندما كنت أمضي إجازةً في فرنسا في شهر آب/أغسطس من العام ٢٠٠٢. بدا لي أنه محبطٌ، مثلي أنا، لكون الجميع يفترضون أننا اتخذنا قرارنا، وأن طريقنا نحو الحرب كان حتمياً.

لم أُفاجأ، بطريقة ما، لأنهم يشعرون بهذه الطريقة، لكن مايك بويس أوضح لنا أثناء اجتماع عُقد قبل وقتٍ قصير من هذه الإجازة، أي في أواخر شهر تموز/يوليو، وبطريقة لا تدع مجالاً للشك، أنه يعتقد أن الولايات المتحدة قد اتخذت قرارها في هذه الشأن، هذه إذا لم يغيّر صدّام رأيه. أما جيوف هوون الذي كان في ذلك الوقت وزيراً للدفاع، فقد تحدث عن الخيارات. تحدّث أساساً عن بدايةٍ متأنية، أي حشدٍ بطيئ للقوات، أو عن بداية سريعة تعني تحركاً سريعاً. تحدث كذلك عن الأمكنة التي ستتحرك إليها القوات. كانت الأفضليات في ذلك الوقت أن تبدأ قواتنا هجومها من الشمال. هذا هو سبب استحالة قراءة تقارير الاجتماعات التي عُقدت في ذلك الوقت من دون افتراض أن القرار قد اتُّخذ مسبقاً.

يكمن هنا الفرق بين الشخص الذي يتخذ القرار النهائي وأي شخص آخر. يُمكن لأي شخص أن يجادل ويفترض، لكن شخصاً واحداً فقط هو الذي يقرر. أدركت في تلك اللحظة أن جورج بوش لم يتخذ قراره بعد. اعتبرت أن جورج قد أنهى وضع هيكلية تصوّره للتحرك المطلوب، وهي الهيكلية التي يبرز مفهومها الأساسي على أنه يتعيّن على صدّام أن يُذعن بالكامل [لقرارات الأمم المتحدة] وأن ينزع سلاحه، لكنه لم يتخذ بعد موقفاً نهائياً حيال طريقة إجباره على ذلك.

أرسلت في أواخر شهر تموز/يوليو مذكرةً شخصيةً وسريةً أخرى إلى جورج شرحت له فيها خيار استخدام الأمم المتحدة. شددت مجدداً في هذه المذكرة على عملية السلام في الشرق الأوسط. توجّه دافيد ماننغ، مستشاري للشؤون الخارجية،

إلى واشنطن، وتحدّث ملياً مع كوندوليزا رايس، وذلك قبل أن يتحدث مباشرة مع الرئيس. أتبعت مذكرتي بمكالمة هاتفية أخرى.

كان الجدال الدائر داخل الإدارة حول الأمم المتحدة حاداً جداً. اتفقت مع جورج على أن نلتقي بعد العطلة الصيفية.

فكرت مع المقربين من فريقي في أوجه التحدي الأخرى. أما إذا اخترنا الحرب، فكيف سنقوم بها بأقل قدرٍ ممكن من سفك الدماء؟ كانت تلك مسألة تخصّ العسكر، وكيفية تمكننا من تكبير التحالف إذا ما قررنا شنّ الحرب فعلاً؟ كانت تلك مسألة تخصّ الأمم المتحدة. وكيف نستطيع القيام بهذه الحرب من دون إثارة العواصف في الشرق الأوسط؟ كانت تلك مسألة تخص العرب.

عدت من إجازتي وعقدت مؤتمراً صحفياً في سيدجفيلد. أستغرب كيف أنني أشعر بالاسترخاء هناك، وعلى الدوام حتى في أشدّ الفترات صعوبة. كانت آرائي واضحةً تماماً. شدّدت على أنني سأكون صارماً جداً: يتعيّن علينا مواجهة صدّام، ونحن على صواب في القيام بذلك، ويتعيّن علينا أن نبعث برسالة صريحة وواضحة إلى العالم بشأن أسلحة الدمار الشامل.

اتخذنا قراراً حاسماً في ذلك الوقت. أراد الناس، وعن حق، أن يروا دليلاً ضد صدّام وأسلحة دماره الشامل. أما هذا الدليل فكان من ضمن المعلومات الاستخبارية. لم يسبق لنا أن تعودنا كشف المعلومات الاستخبارية، وذلك لأسباب معروفة. قرّرنا أن علينا القيام بها [الحرب]. أسفت مراراً بعد ذلك على اتخاذ هذا القرار. تحوّل «الملف» كما كان يُسمّى، إلى هدفٍ لأقسى الاتهامات والإدانة. اضطررنا، في واقع الأمر إلى فعل ذلك لأننا لم نتمكّن من رؤية أية طريقة أخرى لرفضه، وذلك بالنظر إلى الضجيج الذي أعطي له. كانت الطبيعة غير المسبوقة ذاتها لهذا الأمر جزءاً من المشكلة. كان خصوم التحرك ضد صدّام، وأنصاره على السواء، يحثوننا على كشف ما نمتلكه من معلوماتٍ استخبارية أمام الجمهور.

يبقى أمامنا إظهار أمرين بشأن الملّف. الأمر الأول، وبعكس الرأي السائد، هو اعتباره في ذلك الوقت – أي في ٢٢ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢، مملاً ولا يحتوي على أي شيء جديد. أما الادعاء سيئ السمعة الذي استغرق خمساً وأربعين دقيقة،

فقد استغلته بعض وسائل الإعلام في ذلك اليوم لكنها لم تأتِ على ذكره فيما بعد، حتى لم أذكره في أي وقتٍ آخر بعدئذ، بما في ذلك أثناء النقاشات البرلمانية الحادة التي جرت في ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٣، والتي أجازت التحرك العسكري. يُذكر أن اثنين من بين ٤٠,٠٠٠ من الأسئلة البرلمانية المكتوبة التي قدّمت منذ الفترة الممتدة بين أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، ونهاية أيار/مايو ٢٠٠٣، سألا عن مسألة الخمس والأربعين دقيقة من محطة بي. بي. سي عندما أذاعت الخبر. يُضاف إلى ذلك أن أي سؤالٍ من ٥,٠٠٠ سؤالٍ شفهي لم يتطرق إلى هذه المسألة، كما أن أحداً لم يناقشها أثناء كامل فترة المناقشات التي جرت في ١٨ آذار/مارس من العام ٢٠٠٣. نستنتج من ذلك أن الفكرة القائلة إننا توجّهنا إلى الحرب بسبب ذلك الادعاء هي فكرة خيالية بالفعل.

أما الأمر الثاني الذي أودّ الإشارة إليه، فهو أنه كان من الأفضل لنا بكثيرٍ أن نكتفي بنشر تقارير JIC، أي التقارير الاستخبارية التي تستند إلى مواد غير مؤكدة. ناقشنا هذا الأمر كثيراً، لكن وكالة الاستخبارات شعرت، وهي معذورة في ذلك، بأن ذلك سيكون خرقاً كبيراً للتقاليد. لكن لو قمنا بنشر هذه التقارير لكنا تجنبنا قدراً كبيراً من الأسف، بالإضافة إلى اتهامات غير صحيحة بالكذب، وبتزييف المعلومات الاستخبارية. لكن قد يكون الحال غير ذلك...

يمكنني القول إن من الأفضل حسم بعض هذه الخرافات على ضوء المزاعم المختلفة المتعلقة بالملف، الذي كان هو ذاته من صنع JIC. أقدمت وكالة الاستخبارات، وعن حقّ، على حماية هوية كاتب تلك التقارير. تبيّن لاحقاً وجود ملخص دقيق لمواد التقارير، وذلك بحسب ما توصّلت إليه لجان الاستقصاء الأربع. يمكنني القول إننا لم نكتب، لا أنا ولا ألاستير، أي قسم من تلك التقارير، لكن اكتفيت بكتابة المقدمة فقط.

قيل، وعن حقّ كذلك، أن تقرير JIC في آذار/مارس ٢٠٠٢ المتعلّق بالعراق قد حذّر بأن المعلومات الاستخبارية عن العراق كانت «متقطعة» و«متفرقة». لكن المقطع الذي تعرّض للحذف فهو الذي جاء فيه: «لكن من الواضح أن العراق يستمرّ في اتّباع سياسة امتلاك أسلحة الدمار الشامل، ووسائل استخدامها». تلقينا، بطبيعة الحال، معلومات استخبارية إضافية بنهاية شهر أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢. عالج التقرير النهائي هذا الأمر، وكان أشدّ حزماً بكثير. برزت أمامنا في ذلك الوقت أدلة

أكبر، كما تلقينا قبل وقت قصير من قضية الملف معلومات استخبارية بشأن صنع منشآت الإنتاج المتنقلة. أدت بنا هذه المعلومات إلى وصف برنامج صدّام حسين على أنه «متزايد».

أعتقد أن من الأفضل لنا معالجة قضية أخرى عند هذه المرحلة. تجمّعت لدينا أدلة سلّمناها إلى لجنة تحقيق شيلكوت. تقول الأدلة: قبل وقتٍ قصير من اندلاع الحرب تلقينا معلومات تفيد أن صدّام قد لا يكون قادراً على تجميع أسلحة الدمار الشامل بالسرعة التي يريدها. عرضت وسائل الإعلام هذا الخبر في سياق لجنة الاستقصاء على أنه يعني، في واقع الأمر، تنبيهاً لي أن التحذير كان أقلّ مما كان مفترضاً. لكن المعلومات الاستخبارية اشتملت في الواقع على أن صدّام قد اتخذ إجراءات تهدف إلى إخفاء برنامجه، بما في ذلك تفكيك بعض الأجهزة وتخزينها. أوحت المعلومات الاستخبارية في واقع الأمر أن صدّام لم يوقف برنامجه بل كان يُخفيه عن المفتشين. قيل لي، وبالتحديد، أن هذه المعلومات تؤكّد برنامجه لتطوير أسلحة الدمار الشامل. لم يكن التحذير الذي اشتملت عليه المعلومات الاستخبارية يهدف إلى حثّنا على الكفّ عن جهودنا، بل أكّد الحاجة إلى الاستمرار فيها.

كان من المؤكّد بعد جولة الاستقصاء الخامسة أن ثمة دعوات ستبرز لإجراء المزيد منها. أما الحقيقة فهي أننا اعتقدنا، ومن دون أي شك أبداً أن صدّام يمتلك برنامجاً نشطاً لتطوير أسلحة الدمار الشامل. فعلنا ذلك لأسباب قوية تتعلق بماضيه، كما أننا لم نضمر أي نيةٍ للخداع. إن أي نية في هذا الاتجاه كانت ستبدو سخيفةً في واقع الأمر، وذلك لأن الحقيقة ستظهر فور الانتهاء من إزاحة صدّام عن السلطة. يوضح تقرير ISG، وكما أشرت سابقاً، سبب وقوعنا في الخطأ، وكذلك الأمور التي بقيت صحيحة.

عدنا إلى كامب دافيد في السابع من شهر أيلول/سبتمبر، أي قبل نشر الملف. لم يكن لذلك الاجتماع سوى غايةٍ واحدة هي إقناع جورج بسلوك طريق الأمم المتحدة، أي أن يوافق قبل القيام بأي تحرك, على إصدار قرار من الأمم المتحدة، وإعطاء صدّام فرصةً أخيرة.

لم يكن إقناعه بذلك بالأمر السهل. كان سياق الولايات المتحدة معاكساً لسياقنا

من الناحية السياسية، كما أن الأمم المتحدة لم تلعب دورها كما يجب. ترافق الاجتماع مع بعض التوتر، على الرغم من جو الودّ الشخصي الحقيقي الذي نشأ بيننا في ذلك الوقت. نلت موافقته بعد أخذٍ وردٍ، ولم يكن ذلك من أجل خاطري أنا، لكني أعتقد أنه اقتنع في النهاية بأن الأمر سوف يكون أسهل بكثير لو تمكنا من جمع تحالفٍ مؤيد لنا. قلت له إنني أخشى بالفعل عواقب تحركٍ أميركي أحادي الجانب، أو عواقب تحرك أميركي بريطاني. كتبت له مذكّرةً قبل عقد الاجتماع، وذكرت فيها الأمور التي تقلقني. قلت في هذه الرسالة إن عدم إمكانية توقع العواقب يعني أن فكرة إنشاء تحالف كانت فكرة حكيمة. يتعيّن علينا أولاً التوصل إلى السلام حتى لو ذهبنا إلى الحرب في آخر الأمر. إن هذه المنطقة ليست كوسوفو، أو حتى أفغانستان، بل سوف تكون أشدّ بكثير.

يمكننا القول مع ذلك في تلك المرحلة إن سلبيات المخاطرة بالتحرّك العسكري تمحورت حول مدى سهولة أو صعوبة إزاحة صدام، وأي عواقب جانبية أخرى. برزت بطبيعة الحال المسألة السنّية – الشيعية، لكنها لم تكن قط في تلك المرحلة، أو حتى إزاحة صدّام في واقع الأمر، الخطر الماثل الآخر: التدخل الخارجي من قِبل القاعدة وإيران. كان رأي القادة العسكريين ورؤساء الاستخبارات عندنا أننا على الرغم من تقديم صدّام الدعم للجماعات الإرهابية، لا نمتلك سوى دليل ضئيل يربطه بالقاعدة. افترضنا كذلك أن إيران لن تمانع نسبياً بالتحرك العسكري بعد الحرب العراقية – الإيرانية التي خلّفت وراءها مليون ضحية. حظيت مسألة الأقلية السنية، التي تحولت فجأة من حاكمة إلى محكومة، بنقاشاتٍ كثيرة. لكن المسألة الرئيسة كانت في قدرة صدّام على تحمل اجتياح عسكري، وحول مدى الدعم الذي قد يحصل عليه. تعلّقت المسألة كثيراً بالمناقشات الدائرة حول التخطيط لمرحلة ما بعد إزاحة صدّام.

ما إن أعلن جورج أنه يفضّل اتباع طريق الأمم المتحدة حتى ساد الزيارة جوّ من الارتياح. شارك ديك تشيني في قسم من الاجتماعات، لكنه أعلن صراحةً أنه لا يؤيد سلوك طريق الأمم المتحدة. كان الرجل متشدّداً بعناد.

كان ديك جزءاً من نظرية المؤامرة إلى حدّ أنه يستحيل إجراء أي نقاش حولها. إن أولئك الذين هم في جناح اليسار كانوا هدفاً سهلاً للكراهية. يميل الأشخاص الذين

هم في خطّ الوسط إلى مهاجمته بدورهم. أما إذا أردت معرفة مناصريه الطبيعيين فسيتعين عليك الذهاب إلى أقصى اليمين.

كان انطباعي الشخصي عنه يختلف عن رؤية معظم الناس. اعتبرت أنه يمتلك حدساً مركزياً واحداً يُمكن أن يؤخذ بجدية على الأقل. اعتبر أساساً أن الولايات المتحدة منشغلة بالحرب فعلاً، وأن هذه الحرب هي مع الإرهابيين والدول الشريرة التي تساندهم، وأن هذه الحرب تستند إلى عقيدة إرشادية تمثّل تهديداً مباشراً لأميركا، وأن ذلك كله يعني أن الطريقة الوحيدة لهزم الإرهابيين هي مواجهتهم بأكبر قدرٍ ممكن من القوة الأميركية التي تهدف إلى هدم عقيدتهم، والسماح للديمقراطية بالانتشار بدلاً منها. كان الرجل يفضّل مواجهة الجميع: العراق، سوريا، وإيران مع سائر الجهات التي تتبع هذه الدول بطبيعة الحال، مثل حزب الله، وحماس وغيرهما. يعني ذلك أنه كان يعتقد بضرورة تجديد العالم، والقيام بذلك بعد ١١ أيلول/سبتمبر بالقوة، وبأسرع وقتٍ ممكن. هذا هو السبب الذي دفعه إلى المناداة باستخدام أقصى قدر من القوة. لم يرغب الرجل في سماع كلمات «إذا»، و«لكن»، و«لربما»، بل أراد أن نوضح لصدّام أننا ذاهبون في إثره، وهكذا يتعيّن عليه أن يتغيّر، أو أن يتخلى عن السلطة.

أدى هذا الموقف، بطبيعة الحال، إلى إثارة سخط الناس ورفضهم. لكن سيتبين لنا مما سبق وكتبته أنني لم أعتبر أن ما يجري كان نوعاً من الخيال كما أوحت الآراء السائدة. كان ذلك صراعاً واحداً، لأن عدونا يتسلح بعقيدة، وهذه العقيدة تمثل تهديداً لنا. أما الحلّ النهائي فقد كان انتشار الديمقراطية والحرية. يمكننا كذلك أن نستخلص من هذا كله، ولكن بلغةٍ مختلفة، موقفاً تقدمياً، وعلى الخصوص عندما يتعلق الأمر بإزاحة شخصٍ مثل صدّام عن السلطة.

أما مشكلتي مع الطريقة التي عرضها، وأراد أن ينفذها، فهي أنها غير مكتملة. ولأن الحرب تستند إلى عقيدةٍ بشكلٍ أو بآخر، فإن المعركة يجب أن تبدأ وأن نفوز بها على مستوى الأفكار بطريقةٍ لا تكون جذابةً بالنسبة إلينا، بل بالنسبة إلى الذين وقعوا، أو قد يقعون، فريسة تلك العقيدة. يعني ذلك بكلماتٍ أخرى أن الأمر لا يتعلّق باستراتيجية القوة المتشددة لوحدها، بل يتعيّن على هذه الاستراتيجية أن تشتمل على ما هو أكثر من القوة العسكرية. يتوجب على هذه الاستراتيجية أن تشمل

شعوب منطقة الشرق الأوسط، والعالم الإسلامي، وأن تبني التحالفات داخل ذلك العالم. إن ذلك ليس كلاماً سخيفاً عن المسالمة، لكنه جزء حاسم من الفوز. هذا هو السبب الذي جعلني أعتبر أن التقدم في سبيل إنشاء دولة فلسطينية هو أمر في منتهى الأهمية. إن هذه القضية هي أبعد ما تكون عن مسألة جانبية، وذلك لأنها المسرح الرئيس الذي يدور فوقه الصراع.

يمكننا القول استناداً إلى ذلك إن علينا إظهار قوة أفكارنا البديلة عن طريق أفعالنا، عندما يأتي الأمر إلى مسألة حقوق الإنسان، وقضايا السجناء، وإن الحقيقة مهما احتوت تلك البدائل على قيودٍ معينة، تبقى وسط عالم الاتصالات الحديثة، وفي عصر المعلومات اللذين يحوّلان ميدان المناقشات العامة أولوية قصوى دون أن يعني ذلك تنازلاً ينمّ عن الضعف.

تبقى هناك أمور كثيرة تقال حول مفاهيمه، لكن الطرق التي يتبناها، والرسائل التي يبعثها، تعود إلى عالم الثمانينيات، وليس إلى مطلع القرن الواحد والعشرين.

حصلنا مع نهاية شهر أيلول/سبتمبر على التزام واضح بإصدار قرار جديد من الأمم المتحدة. ساعد هذا الأمر كثيراً على تهدئة مخاوف بيتر سميث، كبير القضاة في بريطانيا، بشأن شرعية تحركنا من دون قرار كهذا.

تميّز خطابي في مؤتمر الحزب في تلك السنة بسهولة مفاجئة. تحدثت فيه عن العراق والسياسة الخارجية، لكني خصّصت معظمه من أجل الحثّ على الإصلاح. إننا ماضون الآن في تنفيذ الخطط التي وضعناها للصحة، والتعليم، ومحاربة الجريمة، كما أنني شعرت أخيراً بأنني أكثر ثقة بالقضايا التي يدافعون عنها، وأكثر ارتياحاً مع الوزراء الذين يواجهونها.

ظهر بيل كلينتون، وهو الصديق القوي، في المؤتمر وذلك كي ينثر قليلاً من مشاعره الودية، ولكي يذكّر الحاضرين أنني تقدّمي، وأنني أعرف أميركياً واحداً على الأقل غير جورج. وصل الأمر إلى حد أنه توجّه إلى مطعم ماكدونالد بلاكبول كي يُحضر بعض شطائر البرغر والبطاطا المقلية، الأمر الذي أثار سرور الحاضرين ودهشتهم وارتباكهم، وذكّرني بأشخاص يتناولون عشاءهم في وقتٍ متأخر. يمتلك بيل قدرة لامتناهية على بسط جوّ من الوئام بينه وبين الأشخاص العاديين، وهو يحب

هذا، ويستفيد منه، ويستمدّ الحيوية من هذا الجوّ. يمكنني أن أفعل ذلك، لكن مع بعض الخجل، لكني لا أكون متأكداً ما إذا كنت أتطفل، أو أنني أفرض نفسي على الغرباء. أما بيل فكان يحبّ القيام بذلك والخروج إلى الهواء الطلق، وجعل الأمر يبدو وكأنه يتناول وجبة ماكدونالد في بلاكبول في كل ليلة ثلاثاء بشكلٍ طبيعي. كان كيفن سبايسي حاضراً كذلك، وهو رجل مرحٌ بالفعل وقد ظهر مع بيلٍ في تلك الليلة الشمالية Northern night، وقدّم وصلة تقليد رائعة عنه. اشترك في التمثيل بول رودجرز، وهو المغني الرئيس في فرقة فري آند باد. أُخذت للمناسبة مجموعة من الصور وسط دهشة الناشطين في الحفل لهذا المشهد.

كنت أعرف دائماً أن حتى الأشخاص الذين لا يحبونني (وهم قليلون جداً) أو الذين لا يتفقون معي (وهم نسبة كبيرة)، يعترفون بأهميتي، وبأنني محامٍ كبير، وزعيم عالمي، ولست زعيماً قومياً فقط. لا يعود ذلك إلى أنني فعلت شيئاً مُحدداً، بل إلى أن البريطانيين، بالمناسبة، وبغضّ النظر عما يقولونه، يحبون أن يقف رؤساء حكوماتهم بشموخ عالمياً. أعتقد أن معظم الرؤساء الأجانب لا يلتفتون أبداً إذا جالوا في غيلدفورد هاي ستريت. أما الرئيس الأميركي فيفعل ذلك، لكن الآخرين لا يفعلون ذلك أبداً، إلا ساركوزي الذي بدأ يتلفت فيما بعد. أما شيراك فهو لم يفعل ذلك البتة. يريد البريطانيون أن يتأكدوا أن السكان في تولوز يتعرفون إليّ. يتعيّن على قادتنا أن يبرزوا، وأن يتركوا أثراً وراءهم، وأن يكونوا مؤثّرين. أما مشكلتنا فهي أن حجم بريطانيا النسبي وثقلها قد تغيّرا بمرور الوقت ومع تغيّر العالم. لا يعني ذلك أن الأمر لم يعد مرغوباً فيه، لكنه أصبح أصعب قليلاً.

أشدّد مجدّداً على أن ذلك ليس هو السبب الذي دفعني إلى التحرك في أفغانستان والعراق، أو إلى عمل أي شيء آخر، لكني أقول إن تحالف بريطانيا مع الولايات المتحدة قد أعطاها موقعاً كبيراً. أما أولئك الذين ظنوا أن تقاربنا مع الولايات المتحدة يمثّل مشكلة لنا في أنحاء العالم كافة، فإنهم مخطئون كثيراً.

أقول إن ذلك التقارب، على العكس من ذلك، قد أعطانا نفوذاً أكبر. ولا أعتقد أن هناك تفاهة أكبر من تلك التي تفترض أن تحالفنا مع الولايات المتحدة قد أفقَدنا نفوذنا في العالم. إن عكس ذلك هو الصحيح. يصدق هذا حتى على وضعنا في الشرق الأوسط، لكنه يصدق أكثر بالنسبة إلى الصين والهند. أتذكر أنني كنت ذات

مرة أناقش أموراً سياسية صرفاً تتعلق بالعراق مع روبين كوك. قال لي: «سيكون كارثة من الناحية الانتخابية». أتذكر ولسون وفييتنام؟ لم يقف الرجل مع الولايات المتحدة». قلت له إنني أعلم ذلك، لكن ذكّرني مجدداً بنتيجة انتخابات العام ١٩٧٠ فقط. لا أريد هنا أن أعلّق على القرار، بل أريد التشديد على الناحية السياسية الصرف المتعلقة به.

تلقينا في تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢ دليلاً على استمرار تهديد الإرهاب، وذلك عند تفجير الملهى الليلي في بالي، وهو التفجير الذي خلّف ما يزيد على ٢٠٠ قتيل، كان من بينهم عدد كبير من السياح، ومعظمهم من الأستراليين. كانت تلك هزةً بشعةً أبعدَتنا عن أي شعورٍ بالارتياح، لكنها ما لبثت أن أتبعت بالهجوم على الرهائن الذين احتُجزوا في مسرح في موسكو، وقد مات خلاله ما يزيد على مئة شخص. لم يمضِ وقتٌ طويل على امتداد الخشية إلينا في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٣، وذلك عندما أُبلِغنا عن هجوم محتمل على مطار هيثرو. عقدنا اجتماع الطوارئ المعتاد في هذه الحالات. تضمّنت الخيارات التي استعرضناها إمكانية إقفال المطار، لكنني خشيت أن تكون العواقب وخيمةً على قطاعَي السياحة والصناعة البريطانيين. قررت بدلاً من ذلك تكثيف الوجود الأمني حول المطار كعاملٍ رادع، واشتمل ذلك على وجود عرباتٍ مدرّعة، ودوريات كثيفة التسليح. نجح الأمر، لكن الصحافة اتهمتنا بتلفيق الأمر برمّته ليكون عذراً من أجل تصعيد «الحرب على الإرهاب».

نوقش قرار الأمم المتحدة بحسب الأصول، وتم إقراره في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢، ولم يمض وقت طويل قبل أن يُسمح لفريق التفتيش عن الأسلحة الذي كان برئاسة هانز بليكس بالعودة إلى العراق. كان هانز رجلاً فضولياً، وعلى درجة عالية من الذكاء والمقدرة. أُعجبت به، لكن مشكلته كانت أنه شعر بثقل السياسة على عمليات التفتيش. كان ذلك أمراً طبيعياً جداً، لكن الواقع هو أنه كان يريد القيام بمهمته فقط، لذلك كان يعتبر أن إذعان صدّام لقرارات الأمم المتحدة هو أمر حسن. أما إذا لم يُذعن فلا بأس. كانت تلك هي رؤيته للأمر، لكن رؤيتنا كانت تقدير العواقب. قال بداية إن صدّام لا يطبّق القرارات، لكنه عندما رأى عواقب عدم الإذعان غيّر موقفه، وقال إن صدّام قد يُذعن لقرارات الأمم المتحدة. لم يكن واضحاً

عما أعتقده حقيقة. هل صدّام على وشك مهاجمة بريطانيا، أو الولايات المتحدة؟ كلا. هل يمثل بأسلحة دماره الشامل تهديداً أكبر من تهديد إيران، أو كوريا الشمالية، أو ليبيا؟ ليس ذلك متوقعاً، على الرغم من أنه الرئيس الوحيد الذي هو على استعداد لاستخدامها. وإذا تركنا هذه الفرضيات جانباً في الوقت الحاضر، ومع انتهاء عملية التفتيش بالطريقة نفسها التي انتهت إليها آخر مرة، فهل سيعمد إلى تهديد الاستقرار في المنطقة؟ إن هذا محتملٌ جداً. وهل سيُطلق مواد تحتوي على أسلحة دمار شامل، أم سيقدم مساعدات للإرهابيين؟ أجل، يمكنني أن أتخيّله يفعل ذلك. هل من الأفضل لشعبه أن يتخلص منه؟ بالتأكيد. هل يمكننا تحقيق ذلك من دون الدخول في حربٍ دموية طويلة؟ لا يُمكن للمرء أن يتأكد من هذه المسألة. هل أحتاج إلى مزيد من الوقت؟ أجل، لكن ذلك ليس بسبب إيماني بأن طبيعة نظامه سوف تتغير في يوم من الأيام، بل لأنني أريد تفحّص الطرق الأخرى كلها لتحقيق هذا الهدف. هل سيساعد عراق جديد على بناء شرق أوسط جديد؟ أعتقد أن هذا هو أمرٌ محتمل.

هل إذا انسحبنا الآن، سنضطرّ إلى مواجهته في وقتٍ لاحق؟ كانت إجابتي عن هذه السؤال واضحةً في ذهني: أجل، لا يستطيع هذا الرجل، ولم يستطع في الماضي، إلا أن يكون مصدراً لعدم الاستقرار. سيعود الرجل إلى حيَله القديمة، وعلى الخصوص إذا ما شعر بأنه قويّ الآن.

إذاً، هل نشترك في العملية أم ننسحب؟ استنتجت أن من الأفضل لنا أن نشترك في العملية، وإذا كنا نريد أن نشترك فيها، فالأفضل أن نشترك كلياً وليس جزئياً. بقيت على اعتقادي بإمكانية تجنّب الحرب، كما فكرت في البدائل الأخرى المتاحة أمامنا، سواء الدبلوماسية منها، أم من خلال انقلابٍ من نوع ما (سرت أحاديث بين القادة العرب بهذا الخصوص)، يكون طريقاً لتجنّب القتال. صمّمت، على الأقل، على محاولة إقناع الأميركيين بتوفير وقتٍ أكبر. قلت لهم، مع ذلك، إنني سوف أكون معهم، وإذا تعذّر تجنّب الصراع، فسأشارك بكامل قدراتي وليس بنصفها.

أما لو أخبرني أحدهم بأننا لن نجد أسلحة دمار شامل بعد إزاحة صدّام عن السلطة، وبأن الفترة اللاحقة لإزاحته ستمتدّ إلى ست سنوات من الصراع مع قوى الإرهاب الذي ابتليَ به الشعب العراقي كثيراً، فهل قراري سيكون مختلفاً؟ إنني أطرح هذا السؤال على نفسي كل يوم. وماذا عن الدماء الكثيرة التي تُسفك، والأرواح

الكثيرة التي تُزهق أو تتأثر بالإرهاب. أعرف أن عراقاً جديداً ينشأ الآن، ويمكنني القول إنني أرى علامات تدل على الأمل على الأقل. لكن بأيّ ثمن يحدث هذا؟

أفكّر بعد ذلك في الأمور التي ستحدث إذا تركناه في السلطة، فأتذكر القصص التي أخبرني بها بعض العراقيين عن طبيعة الحياة تحت حكم صدّام حسين. أخبروني عن عمليات القتل، والتعذيب، وعن الخوف أكثر من أي شيء آخر. أذكر أن أحدهم أخبرني: «لا يمكن للمرء أن يثق بأحد غير أفراد عائلته المقرّبين. لا يمكننا الوثوق بأحد». مرّت أسوأ أيام ٢٠٠٦ على البصرة عندما بدت أنها تغلي برجال الميليشيا. أذكر أنني سألت شخصاً من مواطني تلك المدينة عما إذا كانت الأوضاع سوف تكون أفضل لو لم يحدث كل ذلك. قال لي: «هل أنت جاد بما تقول؟ سيستغرق الأمر بعض الوقت. كان العراق بلداً مفكّكاً، ووضعه أصبح أصعب منذ بعض الوقت. هذا صحيح، لكن لا، لأنه لا فكرة لديكم عن طبيعة الحياة التي كانت سائدة تحت حكمه، كما أن مستقبلنا، على الأقل، أصبح بين أيدينا».

لم أتمكن في ذلك الوقت من استشراف المستقبل، لكن كان كل ما أمكنني القيام به هو شقّ طريقي من خلال الحاضر. تظاهر مليون شخص ضد الحرب في شوارع لندن في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٣. لم يسبق أن شهدت شوارع لندن تظاهرة أكبر منها، الأمر الذي ذكّرني بعزلتي، وبمسؤولية القرار الذي أوشك على اتخاذه.

الفصل الرابع عشر

القرار

ربما كانت فترة التحضير للتحرك العسكري الذي بدأ في ١٩ آذار/مارس، أصعب فترةٍ في خلال السنوات العشر التي أمضيتها كرئيس للوزراء. عاد المفتشون إلى العراق فتابعوا إصدار تقاريرهم، لكن هذه التقارير كانت غير جازمة. أما تقرير بليكس الذي صدر في ٢٧ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٣، فكان أول تقرير رسمي يصدره المفتشون. قال بليكس أثناء اجتماع لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في ٩ كانون الثاني/يناير، إن قضايا كثيرة بقيت من دون حل في الإعلان العراقي الذي صدر في كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٢، كما أن المعلومات التي سعى المفتشون للحصول عليها لم تصل بعد.

أوضح المفتشون في تصريح ٢٧ كانون الثاني/يناير، أن العراق قد فتح أبوابه نوعاً ما، لكن قرار الأمم المتحدّة الذي صدر في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢ قد دعا إلى أن يكون تعاون صدام حسين «فورياً، وغير مشروطٍ، وفعالاً». يُعتبر هذا التصريح مهماً لأنه يوفّر السياق الضروري لفهم القرارات التي اتخذتها أنا أو الآخرون. جاء كلام بليكس على النحو التالي:

تطلّب القرار رقم ٦٧٨ (١٩٩١)، مثله مثل القرارات التالية التي سأشير إليها لاحقاً، التعاون من قِبَل العراق، لكن هذا التعاون لم يحدث، أو أنه كان مترافقاً مع

التذمر. أما العراق فهو بخلاف جنوب إفريقيا التي قرّرت إزالة أسلحتها النووية، ورحّبت بعمليات التفتيش بوصفها وسيلة من أجل خلق جوّ من الثقة حول نزعها للسلاح، لا يبدو أنه توصّل إلى قناعة صادقة بضرورة التعاون – حتى هذا اليوم – بشأن مسألة نزعه لسلاحه التي طُلبت منه، والتي ينبغي له تنفيذها كي يكسب ثقة العالم وللعيش بسلام.

مضى بليكس ليصف، بالتفصيل، استنتاجاته الحالية لأوضاع مختلف البرامج. إن هذا المقطع يستأهل القراءة لأنه يفسّر صعوبة محاولة التعامل مع نظامٍ يشبه نظام صدّام.

الأسلحة الكيميائية

إن غاز الأعصاب السام في أكس VX هو أكثر الغازات ضرراً من تلك التي تم تطويرها حتى الآن.

أعلن العراق إنتاجه غاز في. أكس بكميات تجريبية، أي بأطنان قليلة، وإن بنوعية رديئة، كما أن ذلك المنتَج ليس مستقراً. قيل، نتيجة لذلك، إن هذا الغاز لم يتحوّل إلى سلاح البتة. أعلن العراق أن الكميات القليلة من الغاز التي بقيت بعد حرب الخليج قد أُتلفت في صيف العام ١٩٩١.

جمعت UNMOVIC معلومات تتناقض مع هذه الرواية، وذلك لأن بعض الدلائل قد تجمعت بأن العراق قد عمل على حل مشكلة النقاء والاستقرار، وقد حقق نجاحاً في هذا المضمار أكثر مما أُعلِن. أشارت إحدى الوثائق التي قدّمها إلى أن نقاوة الغاز، وعلى الأقل على صعيد إنتاج هذه المادة في المختبرات، كانت أعلى مما أُعلن سابقاً.

توافرت لدينا كذلك دلائل تشير إلى أن هذا الغاز قد تحوّل إلى سلاح. يُضاف إلى ذلك وجود بعض الأسئلة التي بقيت من دون إجابة والتي تتعلق بمصير المواد الكيميائية التي تسبق ظهور غاز في أكس، وهي المواد التي أعلن العراق أنها ضاعت خلال القصف الذي جرى أثناء حرب الخليج، أو أنه قد دمّرها من جانب واحد.

أريد أن أتحوّل الآن إلى ما يُدعى «وثيقة سلاح الطيران» وهو الموضوع الذي سبق لي أن ناقشته مع المجلس من قبل. وجد أحد مفتشي اليونسكوم هذه الوثيقة في خزنةٍ وُجدت في مركز قيادة سلاح الجوّ العراقي في العام ١٩٩٨، وهي الوثيقة التي نقلها حراسٌ عراقيون. تعرض هذه الوثيقة استهلاك القنابل، بما فيها القنابل الكيميائية، خلال الحرب العراقية الإيرانية. ولعل ما شجعني هو تقديم العراق هذه الوثيقة إلى لجنة UNMOVIC.

تُشير هذه الوثيقة إلى أن سلاح الجو العراقي قد أسقط ١٣,٠٠٠ قنبلة كيميائية في الفترة ما بين العامين ١٩٨٣ و١٩٨٨، هذا في وقتٍ صرح العراق عن استهلاكه ١٩,٥٠٠ قنبلة خلال هذه الفترة. يعني ذلك وجود فارقٍ يبلغ ٦,٥٠٠ قنبلة. إن كمية الغازات الموجودة في هذه القنابل تصل إلى نحو ١,٠٠٠ طن. يمكننا، في غياب الدليل على العكس، أن نفترض أن هذه الكميات غير مصرّحٍ عنها.

أُعلن في هذا الوقت اكتشاف عدد من الرؤوس الحربية الصاروخية الكيميائية من عيار ١٢٢ مم، مخزونة في مستودعٍ للتخزين يبعد ١٧٠ كم من جنوب – غرب بغداد. كان ذلك مستودعاً جديداً نسبياً، وهذا يعني أن الصواريخ قد نُقلت في السنوات القليلة الماضية، أي عندما كان من غير المفترض امتلاك العراق ذخائر كهذه.

لا تزال التحقيقات حول هذه القذائف الصاروخية مستمرةً حتى الآن. أعلن العراق أن هذه الصواريخ قد تم تجاهلها في العام ١٩٩١، وهي من أصل كمية تبلغ ٢,٠٠٠ قذيفة صاروخية سبق تخزينها خلال حرب الخليج. ربما تكون الحال كذلك، وربما تكون هذه مجرّد قمة جبل الجليد الغاطس تحت سطح المياه. إن اكتشاف عدد قليل من هذه الصواريخ لا يحلّ المشكلة بل يشير إلى مسألة عدة آلافٍ من الصواريخ الكيميائية لم يبلّغ عنها.

أظهر اكتشاف هذه الصواريخ أن العراق بحاجة إلى بذل مجهودٍ أكبر يضمن دقة الرقم الذي يعلنه حالياً. أعلن العراق خلال مناقشاتي التي أجريتها منذ وقتٍ قريب في بغداد، أنه سيبذل جهوداً جديدة في هذا الخصوص، وأنه شكّل لجنة تحقيقات. أُبلغ منذ ذلك الوقت عن كشف المفتشين عن أربعة صواريخ كيميائية جديدة في مستودع يقع في التاجي.

يمكنني أن أذكر، إضافة إلى ذلك، أن المفتشين قد وجدوا في موقعٍ آخر كمية مختبرية من الثيودي غلوكول، وهي مادة تظهر قبل إنتاج غاز الخردل.

الأسلحة البيولوجية

تحدثت عن موضوع الأنثراكس في المجلس وذلك في مناسباتٍ سابقة، وها أنا سأعود إليها نظراً لأهمّيتها.

أعلن العراق أنه أنتج نحو ٨,٥٠٠ لتر من هذه المادة البيولوجية الحربية، كما أعلن، من جهة واحدة، تدميرها في صيف العام ١٩٩١. قدّم العراق أدلةً قليلةً عن هذا الإنتاج، لكنه لم يقدّم أدلة مقنعة عن تدميرها.

إننا نمتلك الآن دلائل قوية على أن العراق قد أنتج كميةً من الأنثراكس هي أكبر مما سبق أن أعلنه، وأن العراق استبقى بعض هذه الكميات على الأقل بعد التاريخ المعلن لتدميرها. ربما، والحالة هذه، تكون بعض الكميات لا تزال موجودة حتى الآن. يعني ذلك أنه إما أن يتم العثور عليها بحيث يتم تدميرها تحت إشراف لجنة UNMOVIC، وإما أن يقدّم دليل مقنع من أجل إظهار أنها دُمّرت بالفعل في العام ١٩٩١.

سبق لي أن أبلغت المجلس [مجلس الأمن] في ١٩ كانون الأول/ديسمبر من العام الماضي أن العراق لم يكشف عن كميات هامة، أي إنه كشف عن نحو ٦٥٠ كلغ من وسائط نمو البكتيريا، وهي الكمية التي أُعلن استيرادها نتيجة إذعان العراق للجنة أموريم في شباط/فبراير من العام ١٩٩٩. أعاد العراق، في إطار تصريحه الذي أصدره في ٧ كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٢، تقديم وثيقة لجنة أموريم، لكن الجدول الذي أظهر استيراد هذه الوسائط بالذات لم يرد في هذه الوثيقة. بدا أن غياب هذا الجدول هو أمرٌ مقصود لأن صفحات هذه الوثيقة التي أُعيد تسليمها قد رقّمت من جديد.

أعلن وزير الخارجية العراقي في رسالته إلى رئيس المجلس المؤرخة بتاريخ ٢٤ كانون الثاني/يناير أن «الكميات المستوردة كلها من «وسائط نمو البكتيريا» قد تم التصريح عنها». لا يمكننا اعتبار هذه الوثيقة بمثابة دليل، كما لاحظت أن كمية الوسائط المعنية لا بدّ أنها تكفي من أجل إنتاج نحو ٥,٠٠٠ لتر من الأنثراكس المركّز على سبيل المثال.

القذائف الصاروخية

سأتحوّل الآن إلى موضوع القذائف الصاروخية، لكن تبقى أمامنا أسئلة هامة مثل ما إذا كان العراق قد استبقى صواريخ من نوع سكود بعد حرب الخليج. أعلن العراق تدميره عدداً من صواريخ سكود عندما جعل منها أهدافاً أثناء تطوير نظامه الدفاعي المضاد للصواريخ الباليستية، وذلك في الثمانينيات. لم يقدّم العراق مع ذلك أي معلومات تقنية بشأن ذلك البرنامج، كما أنه لم يقدم معطيات حول تدمير القذائف الصاروخية.

حدثت جملة من التطورات في موضوع الصواريخ أثناء السنوات الأربع الماضية، وهي التطورات التي قدّمها العراق على أنها أنشطة غير ممنوعة. إننا نحاول تكوين فهمٍ واضح عن هذه الأنشطة عن طريق المناقشات الميدانية في المواقع.

برز أمامنا مشروعان بالتحديد، كانا ثمرة تطوير صاروخ يعمل بالوقود السائل يُدعى الصمود ٢، وصاروخ يعمل بالوقود الصلب يُدعى الفتحَ. أجرى العراق تجارب على هذين الصاروخين لمدى يزيد كثيراً عن المدى المسموح به، أي ١٥٠ كلم. اختُبر صاروخ الصمود ٢ لمدى يصل أقصاه إلى ١٨٣ كلم، بينما تم اختبار صاروخ الفتح لمدى يصل إلى ١٦١ كلم. تسلمت القوات العراقية بعض الصواريخ من النوعين على الرغم من الإعلان أن هذه الصواريخ لا تزال في مرحلة التطوير.

أقدم العراقيون على زيادة قطر صاروخ الصمود عن النسخة الأولى إلى القطر الحالي الذي يبلغ ٧٦٠ مم. أجرى العراقيون هذا التعديل على الرغم من الرسالة التي بعثها الرئيس التنفيذي لليونسكوم في العام ١٩٩٤، والتي يطلب فيها إلى العراق تحديد قطر الصاروخ إلى أقل من ٦٠٠ مم. يُضاف إلى ذلك أن رسالة المدير التنفيذي لليونسكوم إلى العراق في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩٧ منعت العراق من استخدام محركات من صواريخ سطح – جو من أجل استخدامها في الصواريخ البالستية.

تلقينا معلومات عن هذين البرنامجين أثناء اجتماعنا الأخير في بغداد. أُبلغنا أن المدى النهائي للنظامين سيكون أقل من المدى الأقصى المسموح به، أي ١٥٠ كلم.

يمثّل الصاروخان نموذجين ظاهرين للأنظمة الممنوعة. إن المدى التجريبي الذي يتعدى ١٥٠ كلم هو مدى هام جداً، لكن يتعيّن علينا أخذ بعض الاعتبارات التقنية في الاعتبار، وذلك قبل الوصول إلى نتيجة حاسمة في هذه القضية. أما في الوقت الحاضر فقد طلبنا إلى العراق التوقف عن إجراء اختبارات الطيران لهذين النوعين من الصواريخ.

يُضاف إلى ذلك أن العراق قد جدّد بنيته التحتية لإنتاج القذائف الصاروخية. يُذكر هنا على وجه الخصوص أن العراق أعاد إنشاء عدد من حجرات الصهر، التي أُتلفت سابقاً تحت إشراف اليونسكوم. استُخدمت هذه الحجرات في إنتاج الصواريخ التي تعمل بالوقود الصلب. وهي تتمكن، بغضّ النظر عن الهدف من إنشائها، من إنتاج محركات صواريخ قادرة على الوصول إلى مدى يفوق كثيراً ١٥٠ كلم.

ثمة أمرٌ آخر يمكننا ربطه بهذه الصواريخ، وبتطوراتها، وهو مسألة استيراد عدد من السلع على الرغم من الحظر التجاري المفروض، كانت لا تزال مستمرة أثناء السنوات القليلة الماضية، حتى شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٢. إن أهمّ سلعة من بين هذه السلع هي استيراد ٣٨٠ محركاً للصواريخ التي يُمكن استخدامها في صواريخ الصمود ٢.

أعلن العراق كذلك منذ وقتٍ قريب استيراد مواد كيميائية تُستخدم في أجهزة الدفع، وكذلك أجهزة اختبارات وأنظمة تحكم وتوجيه. تُستخدم هذه السلع لغاياتٍ ممنوعة، لكننا لا نزال في مرحلة تحديد هذه الاستخدامات. لكن يتضح لنا تماماً أنها أُدخلت بطريقة غير شرعية، أي إن العراق أو شركة ما في العراق قد تمكن، أو تمكنت، من التحايل على الحظر التجاري الذي فرضته عدة قرارات للأمم المتحدة.

عثرت أحدث جولة تفتيش لمنزلٍ خاص تعود ملكيته إلى أحد العلماء على ٣,٠٠٠ صفحة من الوثائق. تتعلق معظم هذه الوثائق بتخصيب اليورانيوم عن طريق اللايزر، الأمر الذي يدعم القلق الذي تولّد لدينا منذ وقتٍ طويل حيال توزيع الوثائق على منازل الأفراد العاديين. نقض الجانب العراقي هذا التحليل، وادّعى أن العاملين في فِرَق الأبحاث قد يجلبون معهم بعض الأوراق من أمكنة عملهم. أما من جهتنا فإننا مجبرون على الاعتقاد أن هذه الحالة ليست معزولة، وأن وضع الوثائق في أمكنة

كهذه هو أمرٌ مقصود يهدف إلى جعل عملية العثور عليها صعباً، وإلى إخفاء الوثائق عن طريق وضعها في المنازل الخاصة.

ستكون أيّ علامة إضافية تدل على إخفاء هذه الوثائق خطيرة. أما الجانب العراقي فقد ألزم نفسه أثناء آخر جولة محادثات لنا بتشجيع الأشخاص على قبول حقّ الوصول إلى المواقع الخاصة، ولا يُمكن لنا السماح بوجود ملاذات آمنة للسلع، والأنشطة، أو الوثائق الممنوعة. إننا سنعتبر رفض حق الوصول إلى أي موقع قضية خطيرة جداً.

إيجاد الأشخاص الذين يتمكنون من إعطائنا معلومات موثوقة: لائحة الموظفين

عندما يدّعي العراق عدم وجود أدلة ملموسة على شاكلة وثائق، فيتعيّن عليه، على الأقل، إيجاد الأفراد، والمهندسين، والعلماء، والمدراء من أجل الإدلاء بشهاداتهم عن تجاربهم. تُنقَل برامج الأسلحة الكبيرة وتُدار بواسطة أشخاص معيّنين. أما المقابلات مع الأفراد الذين قد يكون عملوا سابقاً في برامج كهذه فقد تسلّط الضوء على نقاط كثيرة غير مفهومة في معرفتنا وفهمنا للأمور. يُمكن أن تكون المقابلات مفيدة كذلك للتأكد أن هؤلاء الأفراد يعملون في القطاعات السلمية. كانت هذه هي الأسباب التي دفعت بلجنة UNMOVIC (لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتدقيق والتفتيش) إلى طلب لائحة بأسماء هؤلاء الأشخاص، وذلك تطبيقاً للقرار الرقم ١٤٤١.

قدّم الجانب العراقي نحو ٤٠٠ اسم لأشخاص يعملون في برامج الأسلحة البيولوجية والكيميائية، وكذلك في برامج الصواريخ. يمكننا مقارنة هذه اللائحة بما يزيد على ٣,٥٠٠ اسم لأشخاص ارتبطوا ببرامج سابقة للأسلحة، وهم الأشخاص الذين إما قابلتهم لجنة اليونسكوم في التسعينيات، وإما أولئك الذين عرفت بشأنهم من وثائق صادرة عن مصادر أخرى. ألزم الجانب العراقي نفسه في الاجتماع الذي عقدته في بغداد منذ وقتٍ قصير إكمال اللائحة، وهكذا حصلنا على نحو ثمانين اسماً إضافياً.

السماح بإعطاء معلومات عن طريق مقابلات موثوقة

حصلنا في الماضي على قدرٍ كبيرٍ من المعلومات القيّمة عن طريق المقابلات. تعرّض بعض الأشخاص الذين أجريتْ المقابلات معهم للتخويف بعد حضور بعض

الرسميين العراقيين ومقاطعتهم للمقابلات. شكّل هذا الوضع خلفية للبند الذي ورد في القرار ١٤٤١ والذي ينص على حق UNMOVIC وIAEA (وكالة الطاقة الذرية الدولية) بإجراء مقابلات خاصة «بالطريقة أو في الموقع» الذي نختاره سواء في بغداد، أو حتى في الخارج.

طلبنا حتى هذا التاريخ إجراء مقابلات مع ١١ شخصاً. جاءت الردود، على الدوام، أن الشخص المعني سيتكلم بوجود مديرية الرقابة العراقية، أو على الأقل بوجود أحد الرسميين العراقيين. ربما يكون ذلك بناءً على رغبة الشخص المدعو لإجراء المقابلة في الحفاظ على دليل أنه لم يقل أي شيء لا ترغب السلطات في قوله. ألزم الجانب العراقي نفسه، خلال اجتماع جرى منذ مدة قصيرة في بغداد، تشجيع الأشخاص على إجراء مقابلات «خاصّة»، أي لوحدهم معنا. لم يتغير نمط إجراء المقابلات على الرغم من ذلك كله. إننا نأمل، على أي حال، أن يقبل الأشخاص الذي يمتلكون معرفة ببرامج التسلح إجراء مقابلات خاصة إما في بغداد وإما في الخارج، وذلك مع بعض التشجيع الإضافي.

أشعر بالأسف لأنني اضطررت إلى وضع هذا الاقتباس المطول، لكنه اقتباس ضروريّ لفهم السياق الذي يحكم مسألة أسلحة الدمار الشامل عشية انفجار الصراع. أما نحن، الحلفاء الأساسيين، فلم نشك قط في امتلاك صدّام برنامجاً نشطاً لأسلحة الدمار الشامل. وأقول في هذا المجال إننا عملنا بجدّ كبير من أجل تمرير القرار ١٤٤١. لا يمكن أن يكون هناك شك في أن السبب الوحيد لعودة المفتشين إلى العراق كان التهديد بالتحرك العسكري. كان حشد القوات الأميركية، كذلك، السبب المفهوم الوحيد لأي تعاون ممكن. لم يتمكن ذلك التعاون من تلبية مطالب القرار ١٤٤١. إن تاريخ التعامل مع صدّام لا يشجعنا على الإيمان بنزاهته بالنسبة إلى الأمم المتحدة.

كانت عمليات تعبئة القوات البريطانية جارية، وذلك تحسباً لنشوب الحرب. أدليت في هذه الفترة بتصريحاتٍ عديدة إلى البرلمان في شهر كانون الثاني/يناير. عبرت من خلالها عن آمال كبيرة بتحقيق اختراقٍ دبلوماسي كبير، وكنت أعتبر أن إمكانية إصدار قرارٍ ثانٍ عن الأمم المتحدة هي أمر محوري. لم نتمكن من حسم مسألة

ما إذا كان خرق القرار ١٤٤١ يشكّل، في ذاته، تبريراً للتحرك. ثار في هذا الوقت جدال قانوني حول هذا الموضوع، لكن سرعان ما تبيّن لنا أن القانون والسياسة متداخلان على نحو معقد. فإذا كان الناس لا يوافقون على الحرب فسيعتقدون أن قراراً ثانياً صادراً عن الأمم المتحدة، تحديداً، يجيز التحرك العسكري على نحو محدد وواضح، هو أمر ضروري من الناحية القانونية. أما إذا كانوا موافقين على إزاحة صدّام عن السلطة فإن قراراً كهذا لا يعود ضرورياً. كان إصدار قرارٍ ثانٍ يعتمد على موافقة الرئيس شيراك والرئيس بوتين، أو على الأقل على عدم استخدامهما حقّ النقض ضد القرار الجديد.

أعتقد أن من الأفضل في هذه المرحلة النظر إلى هذه القضية بناءً على نصيحة كبير القضاة [أو المدعي العام] Attorney General بيتر غولد سميث. حظيت هذه القضية بنقاشات شاملة ومفصّلة أمام لجنة استقصاء شيلكوت، لكنها تحولت مجدداً إلى فرضية راسخة تهدف إلى إظهار أن الحرب كانت غير شرعية على نحو واضح، لكن بيتر اقتنع بها، وقال إنه تعرّض لضغوط لتغيير رأيه، لكن ليس من أجل قضية شرعيةٍ محقة، بل من أجل أسبابٍ سياسية في الأساس.

أعتقد، لهذا كله، أن من المفيد إعادة عرض بعض الأفكار والمفاهيم القانونية التي تقف وراء الرأي الذي خلُص إليه بيتر في نهاية الأمر. كان القرار السابق الذي صدر عن الأمم المتحدة في مطلع التسعينيات قد أجاز تحديداً استخدام القوة من أجل إجبار صدّام على الإذعان لنظام التفتيش الذي أقرته الأمم المتحدة. نصّ القرار ٦٧٨ تحديداً على أنه:

يجيز للدول الأعضاء استخدام الوسائل الضرورية كافة من أجل تثبيت القرار ٦٦٠ (١٩٩٠) الذي صدر في ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠، وتطبيقه، بالإضافة إلى تطبيق القرارات المرتبطة به كافة، التي صدرت بعد القرار ٦٦٠ (١٩٩٠)، ومن أجل استعادة السلم والأمن الدوليين في المنطقة.

يعني ذلك أن آليات عمليات تفتيش اليونسكوم قد وُضعت في ذلك الوقت من أجل نزع سلاح صدّام، وهي تستند إلى مصادقةٍ واضحة على استخدام القوة إذا ما فشل في الإذعان لقرارات الأمم المتحدة. كان ذلك القرار لا يزال موجوداً. برزت،

لهذه الأسباب، حجةٌ منذ البداية تقول إن الإجازة باستخدام القوة العسكرية بقيت نافذة المفعول.

عادت هذه الحجة إلى الظهور كأساسٍ للأعمال العسكرية التي جرت ضد صدّام في العامين ١٩٩٣ و١٩٩٨، أي عندما خرق في ذلك الوقت قرارات الأمم المتحدة، وطرد المفتشين الدوليين خارج العراق. كان القرار ٦٧٨ لا يزال نافذ المفعول في العام ٢٠٠٢. لكننا شعرنا، كما أوضحت لي مذكرة تسلّمتها في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٢، بأن علينا بسبب مرور الوقت، استصدار قرارٍ جديد يعلن بصراحة أن صدّام يخرق قرارات الأمم المتحدة، وذلك كي يكون القرار ٦٧٨ أساساً لأي تحرك إضافي، وهكذا سلكنا طريق الأمم المتحدة، أي إن قرار الأمم المتحدة الأول كان ضرورة قانونية.

كان القرار ١٤٤١ الذي صدر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢، هو قرار الأمم المتحدة الجديد. تحدّث هذا القرار تحديداً عن خرق صدّام للقرارات، وأعطاه «مهلة أخيرة» للإذعان لها. ودعا صدّام إلى إعطاء المفتشين «حق الوصول الفوري، وغير المشروط، وغير المقيّد». وأعلن، لأول مرة، أن فشله في القيام بذلك سيكون في ذاته «خرقاً مادياً إضافياً».

صحيح أن القرار لم يعلن بوضوح أن التحرك العسكري سيكون هو الخطوة التالية، لكنه أكّد، بوضوح على القرار ٦٧٨، كما رُفضت المحاولات الفرنسية والروسية التي هدفت إلى إدخال عبارة تقول إن أي تحرك عسكري إضافي سيحتاج إلى قرارٍ ثانٍ. دعا القرار، مع ذلك، إلى إجراء تقييم يجريه المجلس في حالة خرق القرار.

نستنتج بطبيعة الحال أن بإمكان المرء أن يثير مسألة ضرورة استصدار قرارٍ واضح يجيز استخدام القوة إذا كان ذلك ضرورياً. لكن، يُمكن المجادلة من الناحية الأخرى أن ذلك ليس ضرورياً، وأن القرار ١٤٤١ كان واضحاً، وأن الإذعان إذا لم يكن كاملاً فسيعني ذلك أن صدّام يخرق القرار خرقاً مادياً، وأن القرار ٦٧٨ ما زال ساري المفعول، وأن التحرك سيكون قانونياً.

أريد أن أقول، مجدداً، إن هدفي ليس القول إن هذه الفرضية لا تقبل الجدل، بل

أريد أن أركّز على أن حجج شرعية التحرك تساوي في أهميتها حجج عدم شرعيته، هذا إن لم تكن أكثر.

وافق المجتمع الدولي، في واقع الأمر، بالإجماع على القرار ١٤٤١، لكن شعرت ببعض تأنيب الضمير حين اتضح لنا أن صدّام غير متجاوب معنا. سبق لي أن قلت لو أن صدّام اتبع قرار القذافي، وتغيّر بالفعل، لما عاد القرار ١٤٤١ ملزماً لناحية التحرك العسكري. تقبّل جورج هذا الموقف في عدة مناسباتٍ. لكن صدّام لم يفعل ذلك، ومع ذلك فإن عواقب الفشل لم تكن مقبولة بحسب روحية القرار ١٤٤١.

دار جدال حيوي بين القانونيين العاملين في وزارة الخارجية، وأعلى دائرة قانونية في البلاد. اعتبر بيتر في البداية أن القرار ١٤٤١ قد غيّر مسار الحجج على نحوٍ كبير، لكنه بقي على رأيه واثقاً، بأننا سنحتاج إلى قرارٍ آخر. كان ذلك الموقف ماثلاً في خلفية قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ١٤٤١ عند تمريره.

تحدث بيتر في النهاية مع السير جيريمي غرينستوك، الذي كان سفيرنا في المفاوضات التي ترافقت مع إصدار القرار ١٤٤١. بدأ بيتر بتغيير رأيه تدريجاً، كما أنه اقتنع في النهاية بعد مناقشة قصيرة مع المحامين الأميركيين. يكمن سبب تغييره لرأيه في طبيعة المفاوضات التي جرت، وعلى الخصوص بعد فشل محاولة فرنسا وبريطانيا الربط بين أي تحرك عسكري وقرارٍ جديد يصدر عن الأمم المتحدة.

أقول، لذلك كله، إن المسألة القانونية ترافقت مع سلبيات وإيجابيات، لكن بيتر فضّل في النهاية الاقتناع بالرأي الذي يميل إلى تحركٍ عسكري قانوني، لكن شريطة أن يتضح أن صدّام حسين لا يُظهر الإذعان التام للقرارات. أما بليكس، فعلى الرغم من كل الغموض الذي ينتابه، فكان واضحاً بالنسبة إلى تلك النقطة حتى إلى حدّ الوصول إلى البدء بأعمال العنف.

استنتجت، على الرغم من ذلك كله، ومن أجل وضع هذه القضية فوق أي زعم يناقضها، أن قراراً ثانياً هو أمرٌ مرغوب فيه على وجه التأكيد. إن من شأن هذا القرارً وفوق كل شيء، توحيد المجتمع الدولي.

أقول، ويا للأسف الشديد، وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلتها خلال

شهر شباط، إن انقسام المجتمع الدولي قد تزايد أكثر فأكثر، ولم يتناقص البتة. انقسم الموقف الأوروبي في هذا الوقت قسمين. سبق لي أن قلت إن ثلاث عشرة دولة من أصل خمس وعشرين وافقت على استخدام القوة العسكرية. وقفت الدول التي انضمّت حديثاً إلى الاتحاد إلى جانب الولايات المتحدة، الأمر الذي أثار سخط جاك شيراك الشديد عليها! لكن نموذج أوروبا «القديمة مقابل أوروبا الجديدة» كان مضللاً. دعمت إسبانيا وإيطاليا التحرك العسكري. أما حليفتا الولايات المتحدة خارج أوروبا، مثل اليابان وكوريا الجنوبية، فقد اشتركتا بدورهما في الحملة، وكذلك فعلت دول سبق لها تقديم طلبات للانضمام إلى الناتو. أعطت أستراليا دعماً ثابتاً وقوياً بفضل رئيس وزرائها جون هوارد.

اتخذ الرأي العام في عدد من الدول الداعمة تقليدياً للتحالف، مثل تركيا، موقفاً قوياً معارضاً للتدخل العسكري. قررت كندا أنها لا تستطيع تقديم الدعم من دون صدور قرارٍ جديد عن الأمم المتحدة، وهذا ما فعلته المكسيك كذلك.

ثمة دول كان تحالفها مع أميركا جزءاً أساسياً من سياستها الخارجية. لذا مالت إلى دعم الولايات المتحدة. واعتبرت دول أخرى كذلك أن التحالف مهمٌ بالنسبة إليها، لكنه ليس أساسياً. تراجعت هذه الدول فيما بعد. بدأت تحالفات جديدة بالظهور كما يحدث في حالاتٍ كهذه، وذلك بسبب الحيوية التي تميزت بها الآراء المتعارضة. مالت فرنسا، وألمانيا، وروسيا، على وجه الخصوص إلى تشكيل قطب بديل من القوة والنفوذ.

اعتبرت في ذلك الوقت أن ذلك يُلحق أضراراً كبيرة بالتحالف، لكني أدركت كذلك أنه أمرٌ حتمي. خالجت هذه الدول مشاعر قوية مثلي أنا، لكنها لم تكن مستعدة لتدليل الولايات المتحدة كثيراً، وذلك بحسب تعبير تلك الدول. اعتقدت هذه الدول أن هذا الصراع من شأنه إفساد العلاقات القائمة بين الغرب والإسلام. وانغمست أكثر في ذلك التحليل، وأعطته قوة، وذلك كلما زادت الأحاديث عن هذه المسألة.

أما بالنسبة إليّ فقد بقي الخيار هو ذاته. وافقت على التحليل الأميركي الأساسي القائل إن صدّام يمثّل تهديداً، لكني اعتبرته وحشاً من جانبي. أما قطع الشراكة مع الولايات المتحدة فسوف يمثّل في ظروفٍ كهذه، أي في أثناء بذل حلفاء أميركا

الأخلاقية التي تستوجب إزاحة صدّام عن السلطة. لكن هذا ليس سبب تحركنا، لأن هذا التحرك يجب أن يكون بحسب تفويض الأمم المتحدة بالنسبة إلى أسلحة الدمار الشامل. لكنني أقول بصراحة إن هذا هو السبب الذي يدفعنا إذا قررنا التحرك بضمير حر.

أجل، تترافق الحرب مع عواقب. لكن إذا أزحنا صدّام بالقوة، فسيموت الناس، وبعضهم من الأبرياء. سيتعيّن علينا العيش مع عواقب أفعالنا، حتى تلك غير المقصودة منها. لكن «إيقاف الحرب» يترافق مع عواقب بدوره.

أعرف أن لا حرب لو عملت بتلك النصيحة، ولم أعلن إصراري على نزع السلاح، لكن صدّام كان سيظل في السلطة. أعرف أن أناساً كثيرين من المتظاهرين سيقولون إنهم يكرهون صدّام، لكن عواقب الأخذ بنصيحتهم ستكون بقاء سيطرته على العراق، وعلى الشعب العراقي. كان هذا البلد في العام ١٩٧٨، أي في السنة التي سبقت استيلاءه على السلطة، أغنى من ماليزيا أو البرتغال. إنه البلد ذاته الذي يموت فيه ١٣٠ طفلاً من أصل ١,٠٠٠ طفل عراقي قبل وصولهم إلى سن الخامسة. يموت ما نسبته ٧٠ بالمئة من هؤلاء الأطفال نتيجة أمراض الإسهال والأمراض التنفسية، وهي الأمراض التي يسهل تجنّبها. إن ثلث الأطفال المولودين في مناطق وسط العراق وجنوبه يعانون سوء التغذية المزمن، هذا في حين يعتمد ٦٠ بالمئة من الشعب العراقي على المساعدات الغذائية، كما أن نصف عدد السكان الذين يسكنون في المناطق الريفية لا يحصلون على مياهٍ صالحة للشرب.

يعاني عشرات السجناء السياسيين ظروفاً مروعة، حتى الآن وأنا أتحدث أمامكم، في سجون صدام، ويتعرض عدد كبير منهم للإعدام الذي يجري بصورة منتظمة. إنني لا أذيع سرّاً عندما أقول إن ما يزيد على ١٥٠,٠٠٠ من المسلمين الشيعة في جنوب العراق، ومن الأكراد المسلمين في شمال العراق قتلوا في الأعوام الخمسة عشر الماضية، بينما وصلت أعداد العراقيين المنفيين في أنحاء مختلفة في العالم إلى نحو أربعة ملايين شخص، ويشمل هذا الرقم نحو ٣٥٠,٠٠٠ عراقي يعيشون الآن في بريطانيا.

إننا لسنا بصدد نظام يمتلك أسلحة دمارٍ شامل، من دونها يكون نظاماً مسالماً. بل

نظام يتنافى مع كل مبدأ من المبادئ، أو القيَم، التي يؤمن بها أي سياسي من رجال السياسة عندنا. أعرف أن لا تظاهرات ستقوم احتجاجاً على سقوط الضحايا على يد صدّام، ولن تكون هناك احتجاجات بشأن آلاف الأطفال الذين يموتون سدى كل سنة من السنوات التي تمضي على حكمه، ولن يظهر أي غضب محق بسبب غرف التعذيب، التي ستستمر في الوجود إذا بقي صدّام على قيد الحياة.

شهدت الأيام التالية سلسلةً من النشاطات السياسية المحمومة، والأحاديث، والمؤتمرات الصحفية، والمكالمات الهاتفية. زادت إفرازات الأدرينالين عندي، كما أن تركيزي أصبح تاماً. كان ذهني صافياً، بينما واظبت على متابعة توصّل الزعماء الآخرين إلى قراراتهم النهائية. أعلن بعضهم تأييد الولايات المتحدة، ووقف بعضهم ضدها، بينما تراجع بعضهم الآخر سعياً وراء الحصول على غطاء. كانت تلك فترة أليمة بالنسبة إلى الجميع من الناحية العملية. كانت الرهانات عالية كما يتذكر الجميع. كان جورج صافيَ الذهن بالنسبة إلى قراره: ستقوم أميركا بإزاحة صدام، إلا إذا حدث أمرٌ استثنائي وغير متوقع. تجمعت القدرات العسكرية الأميركية كافة حول العراق.

أذكر، للمفارقة، أنني أشرت لجورج أن صدام مع تزايد وضوح النيات الأميركية بدأ بإظهار قدرٍ أكبر من التعاون. أظهر تقرير بليكس الذي صدر في ١٤ شباط/فبراير هذه الحقيقة، وكما أشار التقرير الذي صدر في كانون الثاني/يناير إلى خرق القرار ١٤٤١، فإن التقرير الذي صدر في شهر شباط/فبراير أشار إلى قدرٍ أكبر من التعاون. أعتقد أن إعادة قراءة التقرير أمر مفيد الآن. يُوضح التقرير أن التعاون قد ازداد كثيراً مع اتضاح احتمال اللجوء إلى العمل العسكري، لكن كان من الواضح كذلك أن من غير المحتمل حلّ هذه المشكلة إلا إذا غيّر حكام العراق سلوكهم على نحو جدي، وليس موقتاً. تحدث التقرير عن نتائج التحقيقات التي أجريت على المواد المستوردة التي تُستخدم في الصواريخ ذات المدى الأطول، وخلصت إلى القول إنها تشكل خرقاً لقرارات الأمم المتحدة، التي تتضمن الصعوبات في العثور على الأنثراكس (الجمرة الخبيثة) وغاز الأعصاب الذي يُعرف باسم في. إكس من دون تعاون عراقي أكبر. خلُص التقرير إلى القول: «لو قدّم العراق التعاون الضروري في العام ١٩٩١، أي في مرحلة نزع السلاح – التي وردت من ضمن القرار ٦٨٧ (١٩٩١) – لكانت

فترة الحظر التجاري أقصر بكثير، كما كان بالإمكان تجنب ذلك العقد من العقوبات. أما اليوم، أي بعد مرور ثلاثة أشهر من تبني القرار ١٤٤١ (٢٠٠٢)، فإن فترة نزع السلاح من خلال عمليات التفتيش كان يُمكن أن تكون أقصر لو أن التعاون مع UNMOVIC، ووكالة الطاقة الذرية الدولية، كان «فورياً، وفعالاً، ومن دون شروط» ومنتظراً. أملت الأمم المتحدة إمكان نزع سلاح العراق، لكن التقرير استنتج أن الإذعان لم يصل بعد إلى التوافق مع متطلبات قرار الأمم المتحدة الذي صدر قبل ثلاثة أشهر.

تحدث هانز بليكس عن التعاون العراقي في تقريره الذي رفعه إلى الأمم المتحدة في ٧ آذار/مارس. قال إن هذا التعاون يزداد، وإن كان على نحو محدود، «ويُمكن أن يكون ذلك نتيجةً لضغوط خارجية». تحدث بليكس بعد ذلك عن مسألة المقابلات والوثائق:

اتخذ الجانب العراقي مبادرات عديدة انطلاقاً من نيته حل بعض مسائل نزع السلاح التي بقيت مفتوحة، وهي مبادرات يُمكن النظر إليها على أنها «نشطة»، أو حتى «سبّاقة»، لكن يتضح لنا أن هذه المبادرات، التي جاءت بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من صدور القرار الجديد، لا تمكننا من القول إنها تشكّل تعاوناً «فورياً».

لم يتمكن بليكس بتاتاً من الحصول على تعاون في مسألة المقابلات، وهي مسألة هامة، بل يمكننا اعتبار أنها الأهم. لم يحصل ذلك إلا بعد شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٣، ومع ISG. هذا هو السبب الذي جعلنا نحن، إضافة إلى بليكس، نسعى إلى الحصول على وقتٍ إضافي، لكنني أشك كثيراً في أن ذلك الوقت كان سيُسفر عن أي شيء غير الاستنتاج (الخاطئ) القائل إن عدم امتلاك صدّام برنامجاً نشطاً لأسلحة الدمار الشامل يعني أنه لا يشكل تهديداً.

كانت مسألة المقابلات جوهرية جداً، وذلك لأنها كانت الوسيلة التي مكّنت ISG من الحصول على حقيقة الأمر برمّته. أما الواقع فهو أنه لم يكن مستعداً للسماح لكبار المسؤولين بكشف الحقيقة. حصلنا على معلومات استخبارية في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٢، أي بعد دخول بليكس ولجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتدقيق والتفتيش العراق، وهي معلومات بقيت صحيحةً حتى الآن وتفيد أن صدام

دعا كبار مساعديه إلى العمل معاً على برامج الأسلحة، وأنه أبلغهم بأن أي شخص يتعاون في مسألة المقابلات خارج العراق سيُعامل وكأنه عميل معادٍ. كشفت ISG في وقتٍ لاحق عن دليلٍ يتحدث عن اجتماعٍ عُقِد بين ما يزيد عن ٤٠٠ عالم برئاسة طه رمضان، وهو نائب الرئيس العراقيّ، وذلك قبل وقتٍ قصيرٍ من عودة المفتشين. حذّر رمضان العلماء في هذا الاجتماع من عواقب وخيمة إذا وجد المفتشون أي شيء يتعارض مع رفع العقوبات. كان التزام العراق بحسب مضمون القرار ١٤٤١ هو العكس تماماً: الكشف عن أي شيء يتعلق بعمليات التفتيش. وجدت ISG كذلك أن عمليات التفتيش ما إن استؤنفت حتى تم حجب الخبراء الأجانب عن المفتشين.

أستطيع أن أقول الآن، إن جهودي لربما كانت عقيمةً على أي حال، وذلك على الرغم من اعتقادي في ذلك الوقت أن المقابلات سوف تُسفر عن شيء ما في الواقع.

تركزت وجهات النظر أكثر فأكثر على صدور كل تقرير غامضٍ إثر آخر.

كان الرأي العام في معظم بلدان أوروبا يعارض التحرك العسكري بشدّة. أخبرني خوسيه ماريا أزنار في إسبانيا بأن تأييد التحرك العسكري لا يزيد على ٤ بالمئة. أبلغته أن هذا هو الرقم ذاته الذي ستحصل عليه إذا ما أجريتَ استطلاعاً عن الأشخاص الذين يعتقدون أن إلفيس ما زال حياً. كان الرجل صلباً، ولهذا كان مستعداً للوقوف مع أميركا بصلابة. آمن أزنار، مثلي أنا، بأن إمكانية إيجاد رابط بين انتشار أسلحة الدمار الشامل، والجماعات الإرهابية، هي إمكانية حقيقية بحيث لا يُمكن تقبّلها، وبأن هذه هي اللحظة المناسبة لاتخاذ موقفٍ من ذلك النظام، أي نظام صدّام الذي استخدم أسلحة الدمار الشامل.

آمن الرجل كذلك، ومثلما آمنت أنا، بأن من الضروري الحصول، إذا كان ذلك ممكناً، على قرارٍ جديد من الأمم المتحدة يجيز التحرك العسكري. أبلغني جاك، وهيلاري آرمسترونغ، وسالي، وهؤلاء جميعاً هم من الأشخاص المقربين جداً مني، بأن المسيرة السياسية من دون الحصول على قرارٍ جديد من الأمم المتحدة يوافق بصراحة على التحرك العسكري، ستكون صعبة، ولربما مميتة. سألت آلاستير عن رأيه

بشأن فرص اضطراري إلى الاستقالة. قال لي: «نحو عشرين بالمئة». أجبته: «إنها تزيد عن ثلاثين بالمئة، وهي في تصاعدٍ مستمر».

عُقدت الاجتماعات الحكومية بصورة منتظمة، وكانت داعمةً للتحرك العسكري إجمالاً. كان روبين يناور من أجل العثور على مخرج ما، لكني أقول، للإنصاف، إنه فعل ذلك بشفافية ومن دون نية سيئة (في ذلك الوقت) تجاهي شخصياً.

أما كلاير فقد بقيت على طبيعتها. إن أغرب الأمور التي قيلت عن هذه التطورات هي أنها من مسؤولية رجل واحد، وأنها يجب أن تُبحَث مع عدد قليل من المستشارين المختصين يجلسون على أريكة مريحة في مكان منعزل، بمعزلٍ عن الحكومة. كانت هذه التطورات، في واقع الأمر في صلب كل اجتماع حكومي لمدة تقارب الستة أشهر. لم أكن الوحيد الذي كان يقدم ملخّصات عن الوضع، بل شاركني في ذلك جاك، وجيوف هوون. لم يكتف الجميع بحقهم في إبداء آرائهم بل، أعربوا عنها بصراحة.

كان ذلك هو التحرك العسكري الوحيد الذي وافق عليه مجلس العموم مسبقاً. كان زعماء المعارضة على علم بالتطورات يساعدهم على ذلك المسؤولون عن الاستخبارات والقادة العسكريونَ.

تصرّف زعيما المعارضة بشرفٍ واحترام، كان من الواضح أن تشارلز كينيدي سيتخذ موقفاً معارضاً للحرب، لكنه تصرّف بطريقة عقلانية وودّية، وأعتقد أنه فهم أنني في موقفٍ صعب بدوري.

كان إيان دونكان منذ وقتٍ طويل مناصراً لإزاحة صدّام، ويعتبر أنه يمثّل تهديداً، وأنه لن يتغيّر أبداً، ولذلك لا بدّ من مواجهته. كتب إيان كراساً مؤثّراً عن هذه القضية في وقتٍ مبكرٍ من العام ٢٠٠٢. كان إيان لا يحبذ الوحدة الأوروبية مثله في ذلك مثل الوزراء السابقين في حكومة ثاتشر ومناصريهم، لكنه كان مناصراً قوياً للتحالف الأميركي، كما أعطاني دعماً قوياً، وأنا أشعر بالامتنان لهذا الدعم. يُضاف إلى ذلك أنه على عكس عددٍ من زملائه لم يكن صديقاً للطقس الجيّد، لكنه بقي على رأيه ذاته حتى بعد أن اشتدت الأمور.

كنت واضحاً منذ البداية أنني سوف أحتاج إلى أصوات المحافظين كي أضمن

الفوز في مجلس العموم، وذلك لأننا كنا ملزمين إجراء تصويت قبل البدء بالتحرك العسكري. تأكدت من الفوز في جلسة التصويت ذاتها. لكن المحافظين أوضحوا، وعن حق، أنهم عند تقديم اقتراح «حجب الثقة» بعد التصويت على النزاع، سيقفون مع المتمرّدين. سأخرج من الحكم في تلك الحالة. يعني ذلك أن عليّ الفوز بأغلبية كبيرة وبطريقة تمنع أي شخص من جهتي من الوصول بمعارضته إلى حد قبول التصويت ضد الحكومة على أساس اقتراح «حجب الثقة».

أصدرت فرنسا، وألمانيا، وروسيا، بياناً مشتركاً نهار الأربعاء في ٥ آذار/مارس. فصلت هذه الدول موقفها عن موقف الولايات المتحدة. جاء جاك بعد جلسة استجواب رئيس مجلس الوزراء. أعرب جاك عن قلقه العميق بشأن الترددات السياسية. «إذا مضيتَ يوم الأربعاء مع بوش من دون الحصول على قرارٍ ثانٍ، فسيكون تغيير النظام الوحيد الذي سيحدث في هذه الغرفة». قال ذلك بصفته صديقاً وزميلاً، وكان يعني ما يقوله.

اكتشفت أن آندرو ترنبول، الذي تولى منصب أمين عام منصب الوزراء في أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢ بعد ريتشارد ولسون، كان يتفحص بهدوء قواعد حزب العمال، وما تعنيه بالنسبة إلى الحكومة في حال سقوطها. نصّت تلك القواعد على أن يتولى جون بريسكوت رئاسة الحكومة، كما وجدت مجموعة النتائج البيروقراطية التي حاول أندرو تحديدها. لم يكن، بالمناسبة، يقوم بهذا الأمر خفية، كما أنه كان يتصرف في إطار صلاحياته التي تسمح له باستكشاف الاحتمالات كلها، وكان من المؤكد أنه احتمال ممكن. ضحكت، وإن كان بصعوبة، عندما سمعت الخبر، وفكّرت: «يمكن أن تكون هذه آخر أيامي في منصبي».

سعيت بعد ذلك إلى معرفة ما إذا كان بقي أي أمل في المساعي الدبلوماسية. تعقدت الأمور أكثر في ٧ آذار/مارس، وذلك عندما أوضح بوتين أنه سوف يستخدم حقّ النقض كي يمنع صدور قرارٍ ثانٍ عن مجلس الأمن. أدركت كذلك أن لدي نحو عشرة أيام لكسب بعض الوقت للمفتشين. أما أنا فحافظت على اعتقادي أن بإمكاننا، على الرغم من أن الاحتمالات كانت تتوسع أكثر فأكثر، إرغام صدّام على الاستسلام. راجت في تلك الفترة كذلك إمكانية موافقتنا على قوات خاصة

من المفتشين من ذوي القبعات الزرقاء (مدعومة من الأمم المتحدة)، بمقدورها أن تتولى عملية نزع السلاح.

خطرت في ذهني فكرة في ذلك الحين، سعيت إلى تنفيذها مع هانز بليكس وبعض الدول الأعضاء المحايدة في مجلس الأمن الدولي.

يضمّ مجلس الأمن الدولي خمسة أعضاء دائمين، وعشرة أعضاء غير دائمين من الدول الأخرى التي تتناوب على عضوية المجلس تابعين لأميركا الجنوبية، أو إفريقيا، أو آسيا. تحظى كل دولة دائمة العضوية في مجلس الأمن بحق النقض، أما الأعضاء غير الدائمين فلا يحظون بذلك.

جاءت فكرتي في واقع الأمر، من الغموض الذي أحاط بتقارير المفتشين التي كان يرفعها بليكس إلى الأمم المتحدة. سنرى فيما بعد أن هذه التقارير، وكما قال الأميركيون عن حق، قد شكّلت دليلاً على أن قرار الأمم المتحدة الذي صدر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢ قد تعرض للخرق. قال الأميركيون استناداً إلى ذلك إن التحرك العسكري يصبح مبرّراً لدواعٍ سياسية وقانونية.

يمكننا القول، كما رأينا سابقاً، من المنظور السياسي: حسناً، لم يكن هناك إذعان تام، لكن بعض الالتزام. يتضح لنا كذلك أن بإمكاننا تحديد مجالات عدم الالتزام، وعلى الخصوص تلك المتعلقة بعدم السماح بإجراء المقابلات خارج العراق، وعدم إبراز الوثائق المتعلقة بها، ورفض إثبات الأدلة التي تشير إلى تدمير المواد الممنوعة، إلى ما هنالك. جالت في ذهني الفكرة التالية: يمكننا صوغ وثيقة مع مفتشي الأمم المتحدة نحدّد فيها مجموعات القضايا العالقة، ثم نقوم على ضوء هذه الحقيقة بتوضيح المطالب التي يتعيّن على صدّام الإذعان لها. سنعطي صدّام بعد ذلك مهلةً محدّدة – سبعة أيام – كي يبدأ بالتزام هذه الوثيقة برمّتها، وإلا فسيكون التحرك العسكري هو الخطوة التالية. اعتقد بليكس أن صدّام يستطيع أن يفعل ذلك، بينما تكفلت أنا بإقناع الولايات المتحدة بهذه الفكرة، مع أنني أعرف أن الإقناع سيكون صعباً جداً.

كانت المقابلات هي نقطة تركيزي الرئيسة. استنتجت أن علينا إخراج الأشخاص المهمّين من العراق. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يجرؤون فيها على التحدث

بصدق. تبادلت في هذا السياق أحاديث مقلقة بعض الشيء مع هانز بليكس. أبدى الرجل بعض التردد. قال لي إنهم ربما يتعرضون للقتل، أو تتعرض عائلاتهم للتعذيب. لم يُظهر الرجل استعداده لتحمّل تلك المسؤولية. شعرت ببعض السخط نتيجة موقفه هذا، لأني كنت أقول إذا كان صدّام يستطيع قتلهم، فماذا يمكننا القول عنه وعن التزامه القرار ١٤٤١؟ لكن هانز أذعن في النهاية.

أما الأشخاص المقربون إلي فقد تبنوا الرأي التالي: إذا تمكّنا من صوغ مشروع قرار في هذا التوقيت، وقدّمناه إلى مجلس الأمن واصطدم بحقّ النقض، ففي وسعنا تقبّله إذا حصلنا على دعم غالبية أعضاء مجلس الأمن. تتحول القضية على هذا النحو إلى قضية سياسية، وليس قانونية.

أجريت في خلال الأسبوع بين ٠٧ و١٤ آذار/مارس عدداً كبيراً من المكالمات الهاتفية. كانت بلدان معظم الأشخاص الذين تحدثت إليهم تقع في منطقة التوقيت الشرقي، وهذا ما اضطرني إلى إجراء هذه المكالمات في ساعات الصباح الأولى. كان من الصعب جداً إقناع جورج بفكرتي هذه، وذلك لأن إدارته كانت ضدّها كلياً. خشي قادة الجيش عنده، وعن حق، أن يمنح التأخير العدو وقتاً إضافياً، يُمكن أن يعني صعوبةً أكثر في الصراع، ومزيداً من الضحايا. أقلقت هذه النقطة القادة العسكريين عندنا كذلك، وهم الذين وضعوا مجموعة من خطط الطوارئ تحسّباً لما يُمكن أن يفعله صدّام. يُمكن للرجل أن يُضرم النار في حقول النفط، أو يُمكنه أن يُطلق مواد كيميائية، أو ما هو أسوأ من ذلك، مواد بيولوجية، أو يمكنه أن يهاجم إسرائيل. لا يعطينا سجلّه السابق أي ثقة بالنسبة إلى مصداقيته أو إنسانيته، خصوصاً وقد سبق لنا أن حصلنا على بعض المواد الاستخبارية الأميركية والبريطانية التي تفيد بوجود هذه المخاطرة.

شعرت، على الرغم من ذلك كله، بأن الأمر يستأهل المحاولة. كان ريكاردو لاغوس، رئيس تشيلي، حليفاً لنا، وكان رجلاً ذكياً وعقلانياً بالفعل، كما كان سياسياً تقدمياً، إلا أنه تحلى بجرأة القيام بأمورٍ صعبة. كان ريكاردو وفوكس، رئيس المكسيك، في وضع صعب بالفعل: كانا حليفين كبيرين للولايات المتحدة، لكن غالبية الرأي العام في بلديهما كانت ضدّ الحرب.

أوضحتُ جميع بنود القضية التي تستوجب التأخير في مذكّرة إلى جورج. تحدّثنا هاتفياً بعد ذلك. كان الأمر صعباً، لكني أوضحت الأمر له، فوافق بتردد. أعددنا هذه الوثيقة مع فريق بليكس. تضمّنت خمسة اختبارات. وهي تركّز على نحو خاص على المقابلات التي فضحت كثيراً، وكشفت عن الأمور التي كان يحجبها، وما إذا كان لديه نيات حسنة.

كانت تشيلي والمكسيك جاهزتين للسير معنا، لكن إلى حدّ معيّنٍ فقط. أوضح ريكاردو أن فرنسا إذا أبدت معارضةً قويةً فستكون المشاركة في تصويتٍ رمزي أمراً صعباً، كما سيكون من الصعب تمرير هذه الوثيقة بسبب حق النقض، ولا سيما إذا كان من جانب فرنسا، وليس من جانب روسيا.

أخذ الموقف الفرنسي، ويا للأسف، يميل نحو التشدّد، وليس نحو الليونة. بدأ الفرنسيون يقولون إنهم لن يدعموا التحرك العسكري على أيّ حال، وذلك بغضّ النظر عما سيعثر عليه المفتشون. بدا لنا أنهم كانوا يستمتعون بعلاقتهم الثلاثية المستجدة مع ألمانيا وروسيا. أخذت هذه العلاقة شكل محور قوة بديل وفعّال قادر على الوقوف في وجه الولايات المتحدة، لكن هذا الموقف أخذ يجلب لهم بعض المكاسب فيما يتعلق بمشاعر المسلمين والعرب.

قررت، على أي حال، أخذ خيار الاختبارات الخمسة. فعلنا ذلك في الساعات الأولى من يوم الخميس ١٣ آذار/مارس. لكن فرنسا رفضت الفكرة على الفور. أدلى جاك شيراك بعد ذلك بتصريح قويّ اللهجة قال فيه إنه لن يدعم أي تحرك عسكري مهما تكن الظروف. كان دومينيك دوفيلبان هو وزير الخارجية في ذلك الوقت، وهو شخصٌ أعجبت به كثيراً بالفعل، لكني اختلفت وإياه في هذه المسألة، وهكذا رفض مسألة الاختبارات في ذاتها. حدث ذلك قبل أن يرد العراقيون أنفسهم. أوضح ريكاردو بعد ذلك عدم تمكنه في هذه الحال من المشاركة في هذه التمثيلية في مجلس الأمن الدولي. بدا لنا أن طريق الأمم المتحدة بات مسدوداً.

أنهينا، في هذا الوقت، تسوية قضايانا القانونية.

قدم لنا بيتر غولد سميث وجهة نظره النهائية في ٧ آذار/مارس. سبق لي أن قلت إنه توجه إلى واشنطن حيث أجرى مناقشات مفصّلة مع محامي الإدارة هناك. بيّن

لنا بيتر الحجج التي تتوافق مع التحرك وتلك التي تتنافى معه، لكن النتيجة أتت لمصلحة هذا التحرك. قيل الكثير بعد ذلك عن «الضغوط» التي مورست عليه كي يخرج برأيه ذاك. لكن الحقيقة تبقى أنه شخصٌ نزيه بالفعل. أراد بيتر أن يكون واثقاً بقراره، لكن الأمر كان صعباً. إن العالم مليئ بالمحامين ورجال القانون، وكان لكل واحد منهم وجهة نظره في هذا الموضوع. شعر بيتر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه كما هو متوقع منه. كانت هناك نقاط قانونية مهمة تعاكس التحرك العسكري، لكن كانت هناك أيضاً نقاط قانونية أخرى إلى جانبه. ناقش بيتر الأمر، وجادل فيه، وفكر فيه، ثم أعطى قراره. جاء رأيه متوازناً، وهكذا قام بواجبه خير قيام.

كان بيتر أحد القانونيين القليلين المسؤولين عن وظيفة إدارية، كما كان ذا قدرات تنفيذية فعلية. أدّت التغييرات التي أدخلها بيتر إلى مسؤوليات مديرية الادعاء العام، وخدمات الادعاء الملكي، وإلى القضاء الجرمي، إلى فروق مهمة في نوعية الخدمات التي تقدمها الإدارة. قدّم لي بيتر مساعدةً كبيرة عندما كنت أعبّر عن نفاد صبري (ولم أكن أعبّر عن نفاد صبري هذا بطريقة مهذبة على الدوام) من المحاكم بشأن أحكامها في قضايا الهجرة، والإرهاب، واللجوء. تمسّك بيتر بالطرق الصحيحة، لكنه كان حازماً من خلال تلك القيود، وكانت لديه القدرة على ترجمة هذه الراديكالية إلى تغييرٍ حقيقي.

كان من المقرّر أن ألتقي أنا وجورج في جزيرة الآزور في ١٦ آذار/مارس. كان جزء من هدف اجتماعنا إلزام إسبانيا والبرتغال الدعم الذي أعربتا عنه، على الرغم من أن رئيسي الوزراء فيهما واقعان تحت ضغوط شديدة، بالإضافة إلى الرأي العام وآراء النواب المعاكسة لهما. تبيّن لنا بوضوح الآن أن التحرك العسكري كان حتمياً إلا إذا اختار صدّام الرحيل طوعاً. وافق جورج على إعطائه مهلة نهائية للمغادرة. لم يتوقع منه أحد أن يفعل ذلك. كان آلاستير، وجوناثان، ودافيد يعملون بجهد مع فريق بوش، ومع كوندوليزا رايس على وجه الخصوص، وذلك من أجل صوغ التصريح المناسب بالكلمات المناسبة.

أما المزاج العام في المملكة المتحدة فقد بقي متقلباً. أقدم دونالد رامسفيلد، بكل بساطة، في ١١ آذار/مارس على وضع الهرّ بين الحمائم، وذلك عندما اقترح في مؤتمرٍ صحفي عدم المشاركة في أولى العمليات العسكرية بالنظر إلى سياسات



إلى اليمين: ما إن أصبحت رئيساً للوزراء حتى تشوشت الحدود ما بين العمل والحياة. الرد على الهاتف وسط جبال البيرينيه، آب/أغسطس ١٩٩٩.

الأسفل: أحمل الطفل ليو عند وصولنا إلى مطار فلورنسا في آب/أغسطس ٢٠٠٠.

الأسفل إلى اليمين: تخصيص بعض الوقت في إيطاليا لمداعبة أوتار قيثارتي التي أحبها.





إلى اليسار: كان ليو جورج بلير أول طفل يولد لرئيس وزراء أثناء توليه منصبه، وذلك في غضون ١٥٠ سنة.

الأسفل: بيل كلينتون بعد جولة سباحة في شيكرز، ويدفع عربة ليو.









فوق: روبن كوك يلتقي فتون كورومايين التي أُصيبت بعد هجوم للمتمردين، ٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٠



فوق: قائد القوات الدفاعية، السير تشارلز غوثري بعد وصوله إلى فريتاون، سيراليون، بغية تقييم الوضع على الأرض في ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٠

إلى اليمين: جندي بريطاني يلتقي صبياً من سكان المنطقة أثناء دورية له في ضاحية فريتاون الغربية، ١٠ أيار/ مايو ٢٠٠٠.



إلى اليسار: استعراض الجنود في سيراليون، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٢. إنني فخورٌ جداً بما أنجزناه هناك.





أعلى اليمين: أزمة الوقود في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠، التي سرعان ما تبعها وباء الماشية [عند الماشية] في شهر شباط/ فبراير (إلى اليمين)



أعلى اليسار: زيارة اسكتلندا مع الجيش أثناء وباء الماشية آذار/مارس ٢٠٠١



إلى اليسار: الاحتفال مع شيري بالفوز الثاني لحزب العمال، ٨ حزيران/يونيو ٢٠٠١

إلى اليمين: كان والدي فخوراً جداً بفوزنا في ولاية ثانية.



أقصى اليمين: ظهور ليو الأول معي فوق درج ١٠ داوننغ ستريت، ومع شيري في وقت لاحق من ذلك اليوم.



فوق: اجتماعي الأول في كامب دافيد مع جورج دبليو بوش بعد انتخابه رئيساً، ٢٣ شباط/فبراير ٢٠٠١

إلى اليسار: زيارة جورج ولورا بوش إلى المملكة المتحدة في ١٩ تموز/يوليو من العام ٢٠٠١، أمام حديقة شيكرز



إلى اليمين: شيري، وليو، وجورج دبليو بوش، ١٩ تموز/يوليو ٢٠٠١









فوق: كنت على وشك إلقاء خطاب أمام المؤتمر العام للاتحادات العمالية في برايتون في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ عندما بلغتنا الأنباء عن الهجمات الكارثية على البرجين، الصورة الرئيسة: بدأت باستيعاب الصدمة، وألقيت بياناً مقتضباً ثم عدت على الفور إلى داوننغ ستريت من أجل عقد اجتماعات طارئة، إلى اليمين.

أسفل اليسار: مع رئيس بلدية نيويورك، رودلف غولياني، الذي يظهر إلى اليسار، والحاكم جورج باتاكي الذي يظهر إلى اليمين، وذلك بعد صلاة تذكارية على أرواح الضحايا البريطانيين الذين سقطوا نتيجة هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، وذلك في ٢٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

الأسفل إلى اليمين: مع جورج دبليو بوش أثناء مؤتمر صحفي في البيت الأبيض، وذلك قبل إلقائه خطاباً مشتركاً لمجلسَي الكونغرس في ٢٠ أيلول من العام ٢٠٠١







إلى اليسار: مع حميد كرزاي في كابول، أفغانستان، ٢٠٠٢

إلى الأسفل: لقاء مع الجنود البريطانيين في كامب باسشن في محافظة هلمند، تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦





إلى الأعلى: وصلت المفاوضات بشأن العراق إلى أزمة أثناء قمة الآزور. يظهر هنا من اليسار إلى اليمين، رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا آزنار، جورج دبليو بوش، ورئيس الوزراء البرتغالي خوسيه مانويل باروزو، ١٦ آذار/مارس ٢٠٠٣



إلى اليمين: مع كوفي أنان في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، آذار/مارس ٢٠٠٣









أعلى اليسار: أثناء التحضير للخطاب الذي ألقيته في مجلس العموم في سياق مناقشة مسألة العراق، ١٥ آذار/مارس ٢٠٠٣.

أعلى اليمين: تجميع أفكاري قبل عقد مؤتمر صحفي في داوننغ ستريت حول عملية السلام في الشرق الأوسط، ١٤ آذار/مارس ٢٠٠٣. أعلى اليسار واليمين: آخر التحضيرات والأفكار مع فريقي من المقرّبين قبل لحظات من دخولي إلى المجلس.

تحت: النقاش الحاسم في مجلس العموم، ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٣.









فوق: الاجتماع الوزاري لمجلس الحرب في داوننغ ستريت، ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠٣.

تحت: مع جاك شيراك في المجلس الأوروبي، ٢٤ آذار/مارس ٢٠٠٣

أقصى اليمين: مع رئيس هيئة أركان الدفاع، السير مايك بويس في مقر داوننغ ستريت، ٢٣ آذار/مارس ٢٠٠٣.







أقصى اليسار: في كامب دافيد مع آلاستير كامبل، وجورج دبليو بوش، وطوم كيلي، وماثيو ريكروفت، ودافيد مانينغ وجوناثان بويل، ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٣.

أقصى اليمين: استعراض التحضيرات الأمنية في هيلزبورو خلال زيارة جورج دبليو بوش، مع كوندوليسا رايس، والناطق باسم البيت الأبيض آري فليتشر، وجاك سترو، وكولين باول، وآلاستير كامبل، نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

إلى اليسار: مخاطبة الجلسة المشتركة لمجلسَي الكونغرس الأمريكي، ١٨ تموز/يوليو ٢٠٠٣. كان الخطاب أحد أهم

بريطانيا الداخلية. ظن بعض الناس أنه كان يحاول وقفنا عن المشاركة في المجهود العسكري. اتضح لي أن الأمر لا يعدو كونه سوء فهم. حاول الرجل أن يكون مساعِداً بالفعل. لكن الأمر لم يكن مساعِداً على أي حال، لأن الجيش كان قد حزم أمره نهائياً، أي إنه قرّر أنه سيكون جزءاً من التحرك منذ البداية، وأغفل أي احتمال بأن نبقى في الصفوف الخلفية.

حضر روبين كوك وقال: لقد اتضح الآن أن من المستحيل استصدار قرارٍ ثانٍ، وأنه يفضّل الاستقالة. وهكذا مضينا بهدوءٍ تام في تحضير بيانات الاستقالة. أدركتُ عند ذلك أهمّية إصدار قرارٍ ثانٍ بالنسبة إلى البقاء السياسي، وغير ذلك من أمور. أعترف بأنني كنت أستغرب على الدوام تقبّل التدخل العسكري، أو عدم التدخل، من الناحية الأخلاقية. إن من شأن إصدار قرارٍ ثان إضفاء شرعية أكثر على هذا التدخل، لكن الصحيح كذلك أن إصدار هذا القرار كان متعلقاً بسياسات فرنسا وروسيا ومصالحهما السياسية. سبق لنا أن تحركنا من دون نيل موافقة الأمم المتحدة في كوسوفو. كان من المشكوك فيه كثيراً أن نحصل على موافقة مجلس الأمن الدولي على تحركنا في البوسنة أو رواندا. لم أفكر في هذا الأمر بتاتاً بالنسبة إلى سيراليون. يصعب علينا مع ذلك أن نجادل، في عدم جواز تدخلنا، من الناحية الأخلاقية، في كل حالة من هاتين الحالتين. يُضاف إلى ذلك أن مسعانا إذ كان صعباً، كما تبيّن لنا في أفغانستان، فإن موافقة الأمم المتحدة في ذاتها لا تلزم البشر [الدول].

أقول لو حصلنا على هذه الموافقة لكانت الأجواء السياسية أسهل بكثير، أقله لفترةٍ من الوقت. لكننا لم نحصل على تلك الموافقة، وهكذا بات الخيار واضحاً، أقله بالنسبة إلى قادة عددٍ من الدول في ذلك الوقت: المشاركة، أو عدم المشاركة؟ تمكنا من الاعتماد على نحو ثلاثين بلداً على الأقل للمشاركة في التحالف العسكري، لكن كان من الواضح أن ثقل المهمة سوف يقع على الولايات المتحدة والمملكة المتحدة.

نهضنا في صباح ١٦ آذار/مارس في وقتٍ مبكر وسافرنا جواً إلى الآزور. كانت تلك مناسبة غامضة بعض الشيء. كنا لا نزال نعمل، في الظاهر، في سبيل الحل السياسي. حافظنا مع ذلك، على آمالنا أن تتمكن المبادرة العربية في اللحظة الأخيرة من حمل صدّام على المغادرة، أو الاستسلام. كان جورج مرتاحاً إلى التزامنا الحفاظ

على أمل التوصّل إلى السلام في آخر لحظة. جلسنا وتحدثنا لفترةٍ من الوقت في غرفة الانتظار الصغيرة التي تقع خارج الغرفة الرئيسة التي عقدنا فيها الاجتماع. كنا في قاعدة لاجيس حيث تتميز المنشآت بالبساطة، كحال القواعد الجوية العسكرية كافة، حيث تتميز الغرف بأنها عملية، وكان الديكور بسيطاً ما عدا بعض البلاط البرتغالي على الجدران. كنا في جزيرة جميلة، أو على الأقل هذا انطباعنا عندما شاهدنا الجزيرة من الجو، لكننا رأينا أماكن قليلة منها.

راجعنا مجدّداً الحجج الرئيسة. كان هادئاً تماماً، واعتبر أن علينا أن نبعث برسالة في منتهى الوضوح إلى العالم: إذا تبين أن صدّام له علاقة بأسلحة الدمار الشامل فسنلاحقه. ركّز كذلك، حتى أكثر مني، على احتمال حصول الجماعات الإرهابية على أسلحة الدمار الشامل. قال لي: «لا أريد أن أكون رئيساً على الذين يشهدون هذه الأعمال. إنني أحبّ بلادي، وهؤلاء الأشخاص يهددونها نتيجة كراهيتهم لنا».

يسهل على المرء أن يسخر من البساطة التي تتميز بها رؤية جورج بوش إلى العالم. يبدو جزء من هذه الرؤية مزدوجاً. أما في المقابل، فإننا نجد البساطة الناتجة عن التحليل المباشر الذي يترافق معها، ويصعب على المرء معارضتها. إن أميركا بلدٌ عظيم وحرّ على الرغم من أخطائها وقيودها كافة، وهذه السمات كلها ترافق كل كيان يضم بشراً. ثمة أمور كثيرة في الولايات المتحدة مما أعتبرها غير متطابقة مع طريقة تفكيرنا نحن الأوروبيين: المسدسات وعقوبة الإعدام، ونظام السجون، وبعض الأمور التي تبدو، على سبيل المثال، وكأنها عدم اكتراث للفقر داخل المدن. لكنني أعرف أن عدداً كبيراً من الأميركيين لا يوافق عليها.

لا ينبغي لأي أمرٍ من هذه الأمور أن يقلّص من قوتها، ومن جاذبيتها، أو من طيبتها الجوهرية كأمة. أعرف أن تعبير «أمة طيبة» يبدو غريباً، لكن لنا ولهم، أنظمة حكم وحقوق أساسية وحريات «طيبة». أريد أن أقول هنا إن بعض الدول قد عجزت عن تحقيق هذه الحريات حتى الآن، لكنها تسير في طريق تحقيقها، وهي ستفعل ذلك. أعتقد أن الصين هي إحدى هذه الدول، وهي تعاني مشاكل خاصة بها. في الصين أكبر عدد سكان في العالم، إذ تضم ما يزيد على خمسين جماعة عرقية، وهذا ما يجعلها تحتاج إلى بعض الوقت كي تتطور سياسياً، لكني أعتقد أن علينا أن نُظهر حساسيةً معينةً تجاه كل الضغوط التي ترافق ذلك التطور.

إذا تفحّص المرء دولاً أخرى فلا يمكنه أن يرى علامةً على التطور السليم. إننا نلاحظ، بدلاً من ذلك، استخدام السلطة الفاسد، وتخلف الدول، وشعباً مقهوراً، ومحروماً من مستقبله. لا يرى المرء، إجمالاً، منزلاً مضاءً فوق التلة يجعل من الكفاح الدائر حالياً مبرّراً، بل يرى أفقاً مشحوناً بيأسٍ أكبر على مدى النظر.

تبرز أميركا مضيئة أمام أولئك الناس الذين يعيشون في قفارٍ كئيبة. قد لا تكون بمثابة منزلٍ في بلادهم يمكنهم التطلع للوصول إليه، لكنها يُمكن أن تكون بمثابة منزلٍ يستطيعون رؤيته من البعيد، وعندما يرونه يعرفون أن طريقة عيشهم ليست هي الطريقة التي يجب أن يعيشوا بها.

تعود إليّ ذكريات كل تلك الاجتماعات المؤلمة، والمكالمات الهاتفية والمشاورات، وذلك بعد أن أسترجع الماضي وأعيد قراءة تلك الوثائق كلها. أعرف أن بريطانيا كانت تفتقد أي مخرج يمنعها من الوقوف إلى جانب الولايات المتحدة في تلك الفترة، أي عندما توجّهنا إلى الأمم المتحدة وتأكدنا أن صدّام يخرق قراراتها. أعرف، بطبيعة الحال، أن عبارةً كهذه ستكون عرضةً للتصحيح في الظروف الصعبة. هل ما قمنا به هو عمل عدواني يتصف بالجنون؟ كلا، لأننا ما كنا لندعم عدواناً كهذا. لكن لا يمكننا أن نعتبر صدام هدفاً مجنوناً، وذلك بالنظر إلى التاريخ.

إنني لا أشكّ شخصياً في كوننا سنضطرّ إلى مواجهته في مرحلةٍ ما. لكنني كنت أعزّي نفسي على الدوام، كما ذكرت في الخطاب الذي ألقيته في غلاسكو، أننا إذا كنا على خطأ فيكفي أننا أزحنا طاغيةً عن السلطة. كنت أؤيد ذلك دوماً باعتباره مبدأً عاماً.

كنت مدركاً، على الرغم من ذلك كله أن الانقسام في الرأي العام الدولي يعني بقاءنا، عملياً، تحت رحمة الأحداث، التي تكون في الحروب من النوع غير المتوقع وغير السار. غادرنا الآزور وأدركت أن الطبخة قد أصبحت جاهزة. شعرت بعزلتي، وبقبضتي المتراخية على السلطة، واعتمادي الكلّي على سير الأمور على ما يرام، وليس نحو الاتجاه الخاطئ، وهي فكرة مريعة على أي حال. يُضاف إلى ذلك أنها كانت المرة الأولى التي أقدّم فيها جنود المشاة للمشاركة في إطاحة نظام ما، وفي بيئة نمثّل فيها الشركاء الثانويين، وحيث لن نسيطر على الترتيبات المتخذة كافة. صحيح

أن الجنود البريطانيين يشاركون في أفغانستان في المعارك التي تجري على الأرض، لكن تحركنا الأساسي هناك كان المشاركة في الغارات الجوية. لكننا سنحارب قوات صدّام هذه المرة، والمقربين إليه الذين سبق لهم أن خاضوا حربين، وهم سوف يحاربون أكثر من أجل المحافظة على مركزهم المميز في السلطة العراقية.

أما الأهمّ من ذلك كله أن مع تحديقي من خلال طائرة الخطوط الجوية البريطانية المستأجرة للقيام بالرحلة النهارية، تطلعت إلى الخط الساحلي لجزيرة آزور، الذي كان يبتعد عن ناظري شيئاً فشيئاً، فأدركت أن هناك أرواحاً سوف تُزهق، وأن حياة كثيرين سوف تتغير نتيجة لهذا القرار. شعرت بالهدوء في الوقت ذاته، لكنه كان ذلك الهدوء الذي ترافق مع ربط مصيري مع مصائر كثيرين غيري. كنت أقوم بما اقتنعت بأنه صواب. لكني أؤكد، بل أقسم، إنني تمنيت لو أنني لم أفعل.

عدنا، وعقدنا اجتماعاً طارئاً لمجلس الوزراء يوم الاثنين. لم يحضر روبين بسبب استقالته. أطلعت الجميع مجدّداً على الوثائق كلها التي هي بحوزتي. أقنعت جورج في النهاية بأن يلتزم خريطة الطريق، التي كانت ذات أهمية بالغة لعملية السلام في الشرق الأوسط. توفر خريطة الطريق هذه هيكلية مناسبة، لا تزال كذلك حتى هذه الأيام، للخطوات المطلوبة نحو تحقيق السلام. قاوم الإسرائيليون هذه الخريطة (وللمفارقة دافعوا عنها بقوة في أوقاتٍ لاحقة)، كما أن موقف الإدارة الأميركية كان فاتراً تجاهها في أفضل الأحوال، إلا أنها كانت كالنصوص المقدّسة بالنسبة إلى الفلسطينيين، والعالم العربي، والاتحاد الأوروبي. أقنعنا الولايات المتحدة بعد جدالٍ كبير بالتزامها، حتى أننا التزمناها تحديداً في الإنذار النهائي الذي وجهته الولايات المتحدة إلى صدّام.

كان موقف الوزراء داعماً بالإجماع ما عدا كلير شورت، كما وقف المناصرون المخلصون كافة إلى جانبي. كان جون بريسكوت صلباً كعادته في مناسباتٍ كهذه. قدّم ديري إيرفين اقتراحاً مفيداً جداً على أساس أن فرنسا إذا لم تهدّد باستخدام حقّ النقض ضد أي قرار يجيز التحرك العسكري فقد نتمكن عندئذ من استصدار قرارٍ ثانٍ، لكن المشكلة كانت في أننا بذلنا جهداً كبيراً من أجل الحصول على قرارٍ ثانٍ يفترض الناس، خطأً، أننا بحاجةٍ إليه لكونه يمثل غطاءً لشرعية تحركنا.

جاء يوم ١٨ آذار/مارس، وبدأت معه النقاشات في مجلس العموم. كان الإنذار الذي وجّهه بوش، والذي اشتمل على التغييرات التي اقترحناها، متوازناً جداً، ولم يكن عدوانياً، كما حمل دعماً شديداً للشعب العراقي. أما الأهمّ من ذلك كله بالنسبة إليّ فهو أنه شدّد على أهمية عملية السلام في الشرق الأوسط. أعددت خطابي جيداً، وهو أهمّ خطاب ألقيته في حياتي، في وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة وفي صباح يوم الثلاثاء. إنني ألجأ إلى الكتابة في أوقاتٍ كهذه.

تمكّنت من وضع آرائي بسهولة. عدت إلى تاريخ الخروقات الدائمة للقانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة، وذكرت طرد المفتشين، والتحرك العسكري في العام ١٩٩٨. شرحت الأسباب التي تمنعنا من السماح لهذا الوضع بالاستمرار، كما ذكرت كيف تعيّن علينا بعد ١١ أيلول إرسال أوضح إشارة ممكنة على تغيّر نموذج أمننا، ولذلك يجب أن يتغيّر موقفنا من الأنظمة الشرّيرة التي استخدمت، أو طوّرت، أسلحة الدمار الشامل.

ذكرتُ في أحد مقاطع الخطاب، وهو مقطع أسفت على إيراده وكدت ألغيه تماماً من الخطاب، فترة الثلاثينيات من القرن الماضي وإجماع الناس، تقريباً، على إنكار أن هتلر يمثّل تهديداً. حرصت مع ذلك على عدم الخلط بين صدّام وهتلر، كما استبعدت عدداً كبيراً من المقارنات السطحية بين عامَي ١٩٣٠ و٢٠٠٣. تحدثت مع ذلك عن ابتهاج الناس في ميونيخ حين اعتقدوا أنهم تجنبوا التحركات العسكرية.

أعتزم الآن عرض الوضع بطريقة مختلفة. أعتقد أننا نستطيع عقد مقارنة في هذا المجال بالفعل. لكن هذه المقارنة تتعلق بالعقيدة العامة لهذا التطرف، الذي يستند

إلى مفهوم محرّفٍ للإسلام وموقفنا تجاهه، وتجاه التهديد المتزايد للفاشية، أكثر من تعلقها بالتحضيرات للتحرك العسكري. إننا نلاحظ في الحالين ترددا كبيراً في التصديق أننا ذاهبون إلى الحرب بالضرورة. أدى توقنا إلى السلام في الحالتين إلى حجب تصميم أعدائنا على تنفيذ خططهم عن أبصارنا. إننا نعذر سلوك الناس والدول في الحالين، وهو السلوك الذي كنا سنمقته في ظروفٍ أخرى. بدا الخطر بعيداً عنا في الحالين، وهذا ما دفعنا إلى التساؤل: لماذا يتوجب علينا التدخل؟

لخّصت القضية الأساسية على هذا النحو:

أريد أن أقول لأعضاء المجلس ما أعرفه. أعرف أن هناك بلداناً، أو مجموعات داخل بلدان، آخذة بالتكاثر وبالمتاجرة بأسلحة الدمار الشامل، وعلى الخصوص بتكنولوجيا الأسلحة النووية. أعرف أن هناك شركات، وأفراداً، وبعض العلماء الذين عملوا سابقاً في برامج تطوير أسلحة نووية، يبيعون أجهزتهم أو خبراتهم. أعرف كذلك أن عدداً من الدول، ومعظمها دكتاتوريات تعتمد أنظمة قمعية، تحاول يائسةً الحصول على الأسلحة الكيميائية، والأسلحة البيولوجية، أو على قدرات الأسلحة النووية تحديداً. اقتربت بعض هذه الدول كثيراً من امتلاك سلاح نووي ناجح. إن هذه الأنشطة آخذة بالازدياد، وليس بالتناقص.

إننا نعلم جميعاً بوجود جماعاتٍ إرهابية تعمل الآن في معظم الدول الكبرى. عانت عشرون دولة تقريباً الهجمات الإرهابية الخطيرة في العامين الأخيرين فقط. قُتل آلاف الناس في هذه الهجمات، وذلك من دون احتساب ضحايا ١١ أيلول/سبتمبر. إن أهداف ذلك الإرهاب لا تقتصر على القيام بأعمال العنف في ذاتها فقط، بل تتعداها إلى إثارة الرعب. تنطلق هذه الهجمات كي تُحرق وتجزّئ، وتتسبب بنتائج كارثية. كما تسمم هذه الجماعات جهود التوصل إلى حلول سلمية في كل مكان من هذا العالم سواء في الشرق الأوسط، أو في كشمير، أو في الشيشان، وكذلك في أفريقيا. أعرف أن إزاحة طالبان عن الحكم قد سددت ضربةً قويةً لهذه الجماعات، لكنها بقيت ولم تختفِ.

ثمة دوافع مختلفة وأصول مختلفة لهذين التهديدين، لكنهما يتبنيان رؤيةً مشتركةً واحدة: كراهية الحرية والديمقراطية والتسامح وهي كلّها سمات أساسية من سمات طريقتنا في الحياة. أما في هذه اللحظة فإنني أعترف تماماً بأن الربط بين هذين التهديدين ضعيف بعض الشيء، لكنه أخذ يقوى شيئاً فشيئاً. إن إمكانية التقائهما معاً – أي الجماعات الإرهابية التي تمتلك أسلحة الدمار الشامل، أو حتى ما يسمى القنبلة الإشعاعية القذرة ـ هي إمكانية حقيقية تمثّل، برأيي أنا، خطراً داهماً بالنسبة إلى بريطانيا وأمنها القومي...

أريد أن أتحدث قليلاً عن الأخطار. تؤدي ثلاثة كيلوغرامات من في إكس VX التي تنطلق من منصة إطلاق صاروخية إلى تلويث ما مساحته ٠,٢٥ كيلومتراً مربعاً من إحدى المدن. يحتوي ليتر واحد من الأنثراكس [الجمرة الخبيثة] على

ملايين الجرعات القاتلة، لكن يتعذّر علينا احتساب ما يحتويه ١٠,٠٠٠ لتر من هذه الجرعات. أما ما حدث في ١١ أيلول فقد غيّر نفسية أميركا، وهو أمرٌ مفهوم جداً، لكن كان أجدر بذلك الهجوم أن يغيّر نفسية العالم.

أدرك جيداً أن العراق ليس العنصر الوحيد في هذا التهديد، كما لم يسبق لي أن قلت إنه كان كذلك. لكني أقول إنه اختبارٌ لمدى قدرتنا على مواجهة ذلك التهديد جدياً. يتعيّن على العالم أن يتوحد في مواجهته، وأن تكون الأمم المتحدة محور الدبلوماسية والتحرك العسكري على السواء. هذا ما نصّ عليه القرار ١٤٤١، وهكذا كان الاتفاق. أريد أن أقول للمجلس، وببساطة، إن التوقف الآن، وتركيز الانتباه على الغايات وليس على الوسائل، من شأنه أن يُحدث أضراراً أكبر للأمم المتحدة على المدى الطويل، أكبر من تلك التي يحدثها أي مسلكٍ آخر في ذاته. أما إذا عدنا إلى التراخي الذي ميّز السنوات الاثنتي عشرة الماضية، أي التحدّث، والنقاش، والجدال من دون أي تحرك، أي أن نعلن نياتنا من دون أن نحققها، وأن نستمر بالتحدث بلغةٍ قوية، لكن مع نيات ضعيفة. أعتقد أن هذا هو أسوأ مسارٍ يمكن أن يتصوّره المرء. فإذا استمررنا في المسار ذاته مع عودة التهديد، سواء من العراق أو من أمكنة أخرى، فمن سيصدّقنا؟ وما هو الثمن الذي سندفعه من مصداقيتنا بسبب الطاغية التالي؟

عالجتُ في خطابي كذلك الانقسامات التي ظهرت في المجتمع الدولي، ولاسيما تلك التي ترافقت مع طريقة التفاوض التي كنت أتمناها بين أوروبا والولايات المتحدة. أخشى، عند تذكري لتلك الأيام، أن يكون خطابي هذا قد أوضح واقع العزلة التي أشعر بها، لكن من المهم أن نتساءل عما إذا كنا سنتمكن من تحقيق نتيجة أخرى مع زعامةٍ أخرى، وذلك نتيجة النقاط التي عرضتها.

كان ما شهدناه، بالفعل، نتيجةً لابتعاد أوروبا عن أميركا. لا أعني أوروبا كلها، لأن إسبانيا، وإيطاليا، وهولندا، والدنمارك والبرتغال، قد قدّمت لنا دعماً قوياً، لكن هذه الدول لا تشكّل معظم أوروبا في حال احتسابنا، كما يجدر بنا أن نفعل، الأعضاء الجدد في الاتحاد الأوروبي الذين سينضمّون إليه في العام التالي. عبّرت هذه الدول العشر عن دعم قويّ لموقف هذه الحكومة. لكن شلل الأمم المتحدة كان نتيجة طبيعية لهذا الأنقسام الحاصل.

أريد معالجة ذلك الموضوع بهذه الطريقة. يكمن في جوهر هذا الانقسام مفهوم العالم الذي يقوم على قطبي نفوذ متنافسين هما: الولايات المتحدة وحلفاؤها من جهة، ومن الجهة الثانية فرنسا، وألمانيا، وروسيا، وحلفاؤها. إنني لا أعتقد أن تلك الدول كلها تريد الوصول إلى هذه النتيجة، لكن هذا هو الواقع الذي نواجهه. أعتقد كذلك أن هذا هو مفهوم خاطئ قليلاً، بالإضافة إلى أنه يشكل خطراً كبيراً بالنسبة إلى عالمنا. إنني أعرف سبب هذا الخطر، وهو الاستياء من سيطرة الولايات المتحدة، والخوف من تفرّدها بالسيطرة على العالم. يسأل الناس: «هل تصغي الولايات المتحدة إلينا وإلى همومنا؟». أعتقد أن هناك قدراً كبيراً من عدم فهم هموم الولايات المتحدة بعد ١١ أيلول/سبتمبر. إنني أعرفها كلها. لكن طريقة التعامل مع هذه الهموم [أو المخاوف] لا تكون من خلال التنافس، بل من خلال الشراكة. كان يجدر بأوروبا أن تقول، بصوت واحد، في أيلول الماضي ما يلي: «إننا نتفهم قلقك الاستراتيجي بشأن الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، وسوف نساعدكِ على مواجهتهما. إننا نعني ما نقول عند إصدار أي قرارٍ من الأمم المتحدة، وسوف ندعمه بالأفعال إذا لم يعمد صدّام إلى نزع أسلحته بصورة طوعية. وكان يجدر بأوروبا أن تقول: «وفي المقابل إننا نطلب أمرين إليكِ [أميركا] يجب على الولايات المتحدة أن تختار، بالفعل، طريق الأمم المتحدة، وأن تعترف بالأهمية الأساسية وذات الأولوية، لإعادة إطلاق عملية السلام في الشرق الأوسط، التي نعتبرك مسؤولة عنها».

عالجتُ في آخر الخطاب موضوع تغيير النظام.

لم يسبق لي قط أن وضعت تبريراً لتحركٍ ما يهدف إلى تغيير النظام. علينا أن نتصرف بحسب البنود الواردة في القرار ١٤٤١، وهي القاعدة القانونية التي ننطلق منها. هي السبب الذي يجعلني أقول بصراحة إذا تحركنا [عسكرياً] فيجب أن نفعل ذلك بضميرٍ مرتاح، وبقلبٍ قوي. إنني أعترف كلياً بأن أولئك الذين يعارضون مسار التحرك هذا يقاسموننني كراهيتي لصدّام، ومن لا يكرهه؟.

إن وحشية القمع – معسكرات الموت والتعذيب، والسجون البربرية للخصوم السياسيين، والضرب الروتيني للأشخاص الذين يُشتبه في عدم ولائهم وكذلك لأفراد عائلاتهم – كلها أمورٌ موثقة جيداً. لقد تجاسر أحدهم في الأسبوع الماضي فقط

على الاستهزاء بصدّام، فكان الجزاء الذي لقيه هو ربطه إلى عمود إنارة في أحد شوارع بغداد، ثم قطع لسانه، وتعرّضه للتشويه، وتركه لينزف حتى الموت ليكون عبرةً للآخرين. أتذكر كذلك أنني تحدثت منذ أسابيع قليلة مع إحدى المنفيّات العراقيات. قلت لها إنني أعرف كآبة الحياة تحت سياط صدّام. أجابتني: «لكنك لا تعرف، ولا يمكنك أن تعرف. لأنك لا تعرف طبيعة الحياة وسط الخوف الدائم». إنها على حقّ، لأننا نعتبر حريتنا من المسلّمات. لكن دعونا نتخيّل طبيعة شعورنا عندما لا نقدر على التحدث، أو المناقشة، أو المجادلة، أو حتى مساءلة المجتمع الذي نعيش فيه. دعونا نتصوّر رؤية أصدقائنا وأقاربنا وهم يؤخذون بعيداً عنا، ولا نجرؤ أبداً على الشكوى. أيمكننا أن نتصور معاناة فقدان الجرأة في وجه الإرهاب عديم الرحمة. هذه هي حال الشعب العراقي. إذا تركنا صدّام في السلطة فإن الحقيقة الناصعة هي أن هذا الشعب سوف يُجبر على العيش بهذه الطريقة.

كان الجانب الأخلاقي، الذي لم يغب قط عن ذهني، للتحرك هو الذي شكّل القسم الأخير من خطابي وكانت خاتمته بمثابة صدى، ولربما غير متعمد، لخطاب شيكاغو الذي ألقيته في العام ١٩٩٩.

كسبنا التأييد بصورة رائعة في النهاية، أي ٤١٢ مقابل ١٤٩. أما فريقي، من الموظفين الحكوميين والمستشارين الخاصين، فقد كان رائعاً بالفعل، وقدّم لي أكبر قدرٍ ممكن من المساعدة المستمرة التي ساعدتني كثيراً.

عدت مجدداً إلى دوانغ ستريت. افترض الجميع أن الولايات المتحدة سوف تبدأ قصفها في اليوم التالي. أما في الواقع فإن التحرك العسكري بدأ مع القوات البريطانية، كما أن القوات الخاصة قامت بحماية آبار النفط من أجل الحؤول دون كارثة بيئية.

دخلنا الحرب. أما إلى أي فترة ستطول، ومدى صعوبتها، فهي أمور تكشّفت لنا بعد فترة قصيرة.

الفصل الخامس عشر

العراق: ما بعد الحملة العسكرية

كانت المشكلة مع حملةٍ عسكرية يتفق قسم كبير من الآراء – الرأي العام ووسائل الإعلام المهمة – على معارضتها، هو أن هذا الجزء من حملتنا تنقصه نقطة كي يبرهنها. لكن إذا لم نتمكن من جلب هذه الوسائل إلى موقفٍ محايد بطريقة ما، فهي ستعالج النزاع برغبةٍ قوية وواعية، أو غير واعية، تؤدي بها إلى اعتباره فاشلاً. إنني لا أقول ذلك بمعنى أنهم يتمنون أن تنزل الكوارث بجنود قوات التحالف، أو بالمواطنين، لكني أقصد أن مواقفها غير متوازنة. تشعر وسائل الإعلام هذه، بقوة، بأن الحملة العسكرية خاطئة، ولذلك تريد أن تقول: سبق وقلنا لكم ذلك. ترى وسائل الإعلام هذه في كل انتكاسة على أنها تأنيب للذين ناصروا ذلك التحرك، وذلك مهما حاولت مقاومة تلك النزعة بقوة، وإن كان بعضها لم يفعل ذلك بالقدر اللازم في حالة العراق. ترك هذا الأمر عواقبه الحاسمة على المراحل التالية في قضية العراق.

حرصت منذ البداية على وضع الحملة تحت راية الأمم المتحدة في أسرع وقتٍ ممكن. كما حرصت كذلك على إعادة الوحدة إلى تحالف الأطلسي الذي أصابه التشقق، وذلك لأننا سنحتاج إلى ذلك التحالف إذا ساءت الأمور.

أما بالنسبة إلى الفرضية القائلة إن التخطيط لمرحلة ما بعد العملية العسكرية لم يكن كافياً فهو أمرٌ موثق على نحو جيد. أما الدروس، المستقاة من خلاصة تقرير

المدعي العام الأميركي الذي صدر في العام ٢٠٠٩، ومن تقرير راند الذي صدر في السنة ذاتها، فقد لقيت تمحيصاً وتفحصاً كبيرين، كما أنها استوعبت إلى حدّ كبير.

لاقت حملة الاجتياح العسكري نجاحاً رائعاً. أما الحملة المدنية التي استهدفت إعادة البناء فلم تكن كذلك. إن الفصل بين ما يشكّل خطأً كان بالإمكان تجنبه، وبين التحديات التي لم تكن متوقعة ولم يكن بالإمكان توقعها، هو أمر صعب حتى في هذه الأيام. اعترفت الولايات المتحدة بأن خططها لإعادة الإعمار كانت غير كافية. أما بالنسبة إلينا في القطاع البريطاني فقد كان بإمكاننا أن نكون أفضل، لكني بالنسبة إلى منطقة مسؤوليتنا، أقول بصراحة إن الخطط الموضوعة كانت كافية، كما أنها زادت بسرعة وعولجت نقاط الضعف فيها.

كانت المشكلة حتى في حال وجود خطط كافية للفترة التالية للحملة العسكرية، أي حتى ولو كانت هذه مركزة تركيزاً شديداً وكافياً، أن ذلك يعني وجود تركيزٍ أكبر للجهود على الأمور التي لم تكن سبباً لإراقة الدماء.

أغفلت التحضيرات التي سبقت الحرب ثلاثة مجالات رئيسة مقلقة. أول هذه المجالات وأهمّها هو خوفنا من كارثة إنسانية لاعتماد سكانِ العراق على نظام صارم للبطاقات الغذائية، وهو نظام التوزيع الحكومي الذي تفكّك نتيجة الحربِ. شغل ذلك معظم تفكيرنا ومناقشاتنا داخل الحكومة، حتى المناقشات التي دارت بين الولايات المتحدة، وحلفائها الأساسيين.

عندما يقول الناس إن التخطيط للفترة التالية لم يكن كافياً فهم على حقٍ تماماً. أما ما ينساه الناس، مع ذلك، فهو أن تلك التحذيرات كانت تتعلق باحتمالات لم تتحقق، لحسن الحظ. لم تحدث كارثة إنسانية بطريقة ما، وعلى الرغم من عدم كفاية الخطط، استمر توزيع المواد الغذائية، وعاد النظام إلى العمل.

أما المسألة الرئيسة الأخرى التي كانت مصدر قلق لنا فكانت احتمال استخدام صدّام للأسلحة الكيميائية أو البيولوجية. أمضينا وقتاً كبيراً، وأنفقنا مبالغ طائلة من المال في محاولةٍ منا لحماية الناس من احتمالٍ كهذا. لم يحدث ذلك قط، بالمناسبة، ولأسباب واضحة.

قلقنا أخيراً من احتمال إقدام صدّام على إضرام النار في حقول النفط، مما

سيحدث كارثة بيئية رئيسة. لكن تمكّنا من منع وقوعها عن طريق التدخل المنظم للقوات البريطانية في الوقت المناسب أي في وقتٍ مبكرٍ من الحملة.

أما لو لم نفعل ذلك– مع اكتشافنا أن حقول النفط مفخخة بالفعل وجاهزة للإشعال – لكانت النتيجة تلويث منطقة جنوب العراق برمّتها، ومنطقة الأهوار [المستنقعات]، ومظاهر الحياة فيها، والحياة البرية وكذلك المناطق البحرية المحيطة. طرد صدّام في وقتٍ سابق عرب الأهوار، وعددهم يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ من مناطق المستنقعات التي ساعدوا في السابق على الحفاظ على بيئتها، وهكذا ظهرت علامات تدل على تدهور أوضاعها، إذ كان من شأن انتشار بقعة نفطية في هذه المناطق ترك آثارٍ كارثية كبيرة.

كانت الحملة العسكرية ذاتها هي أكثر ما أقلقنا. قلقنا أكثر بشأن قواتنا المسلحة لعدم معرفتنا إذا كان جيش صدّام، ولاسيما حرسه الجمهوري الذي كان يحكم البلاد، ويحتفظ بقبضة حديدية على مراكز السلطة فيها، سيقاتل حتى النهاية أم لا. ففي مثل هذه الحالة ستكون أرقام الضحايا كبيرةً جداً.

وهكذا بدأت العملية. حدّدت أهدافنا والتحركات التي التزمناها، في خطابٍ ألقيته أمام مجلس العموم في ٢٤ آذار/مارس، أي بعد انعقاد المجلس الأوروبي بين يومي ٢١ و٢٢ آذار/مارس.

مضت أربعة أيام فقط على دخولنا هذا الصراع. من المهم أن أعيد تعداد أهدافنا المركزية، وهي إزاحة صدّام حسين عن السلطة، والتأكد من تجريد العراق من برامج أسلحته الكيميائية، والبيولوجية، والنووية كافة، لكننا التزمنا تحديد أهدافٍ أخرى بعد تحقيق تلك الأهداف. إننا نريد الاستمرار في هذه الحملة بطريقة تقلّص معاناة الشعب العراقي إلى أقل حدّ ممكن، وهو الشعب الذي تعرّض لترهيب صدّام، ونريد الحفاظ على ثروة البلاد التي ستجلب الازدهار للشعب في المستقبل، ولا نريد أن نجعل من هذه الحرب نوعاً من الغزو، بل حرب تحرير. هذا هو السبب الذي جعلنا لا نشنّ حملة قصف عنيفة أولاً قبل أن تليها الحملة البرية، أي كما توقع بعض الناس. بدأت القوات البرية، بدلاً من ذلك، بالتحرك على الفور، وتمكنت من إحكام سيطرتها على المنشآت النفطية، وعلى المنشآت الاستراتيجية وحافظت عليها، ولم تدمرها. أما القصف الجوي فقد كان مركزاً جدّاً على أهدافٍ مختارة. كان لا بد من

وقوع ضحايا من المدنيين بطبيعة الحال، لكننا فعلنا كل ما في وسعنا من أجل إبقاء أعداد الضحايا من المدنيين في أدنى مستوى لها. أما المنشآت المائية والكهربائية فلم تكن أهدافاً للحملة. انحصرت الأهداف في أنظمة السيطرة والتحكم والبنى التحتية لحكم صدّام، وليس السكان المدنيين. فعلنا كل ما في وسعنا من أجل تأمين خطوط إمداد المساعدات الإنسانية على الرغم من أن وجود الألغام يعيقنا كثيراً.

أما في المقابل فقد ظهرت طبيعة نظام صدام بكل وضوح في أفعاله. أقدم هذا النظام على تفخيخ آباره النفطية على نحو محكم. أما لو لم نتحرك بالسرعة الكافية لكانت ثروة العراق المستقبلية تحترق في هذه اللحظات. تعود نظام صدّام عرض السجناء أمام وسائل الإعلام، الأمر الذي يتنافى مع المعاهدات الدولية كافة، أما الذين كانوا يتجرؤون على انتقاد النظام فكانوا يُعدمون على الفور.

أريد الآن أن تسمحوا لي بعرض بعض تفاصيل التحرك العسكري أمام المجلس. كانت أهدافنا في الجنوب هي تأمين المنشآت النفطية الرئيسة في شبه جزيرة الفاو، واحتلال أم قصر، وهي الميناء العراقي الوحيد المفتوح مع الخارج، وكذلك تحييد البصرة، وهي ثاني أكبر مدن العراق، بحيث لا يجعلها صدّام قاعدةً لعملياته العسكرية ضد قوات التحالف. أما في الغرب، أي في الصحراء، فكان هدفنا هو منع صدّام من استخدامه قاعدةً لشنّ عمليات عدوانية نحو الخارج. أما في الشمال فكان هدفنا هو حماية سكان منطقة الحكم الذاتي الكردية، وحماية آبار النفط الموجودة في الشمال، وكذلك حرمان صدام من إمكانية جعل المناطق الشمالية قاعدة لمقاومته. كان الهدف الحيوي، بطبيعة الحال، هو الوصول إلى بغداد بأسرع وقتٍ ممكن، وذلك من أجل وضع نهاية قريبة للنظام.

آمل أن يتفهم المجلس أن هناك حدوداً للمقدار الذي يمكنني قوله عن تفاصيل عملياتنا، وعلى الخصوص تلك التفاصيل التي تتعلق بقواتنا الخاصة، لكن على الرغم من ذلك يمكنني القول إن القوات البريطانية والأميركية تمكّنت من احتلال شبه جزيرة الفاو، وهو أمر بات مؤكداً الآن. أما المنشآت النفطية في جنوب البلاد فقد أصبحت تحت سيطرة قوات التحالف. يمكنني القول كذلك إن ميناء أم قصر أصبح الآن في قبضة قوات التحالف على الرغم من وجود جيوب للمقاومة ما زالت تقاتل، لكن الممرّ المائي الذي تحتاج إليه المساعدات الإنسانية يُعتبر مقفلاً بسبب

الألغام التي تتطلب عملية إزالتها أياماً قليلة. إن البصرة محاصرة الآن أي إنها لم تعد صالحةً كقاعدة عراقية، لكن ثمة جيوب مقاومة شرسة فيها تتألف من قوات أمنية موالية لصدام، لا تزال صامدة في مواقعها. تمكّنا من احتوائها لكنها احتفظت بقدرتها على إنزال خسائر بين قواتنا، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نتقدم بحذر. سيطرت قواتنا بإحكام على مطار البصرة الدولي. أما الصحراء الغربية فقد سيطرنا على معظم مساحتها، كما قمنا في الشمال بضرباتٍ جوية عديدة على أهدافٍ تابعة للنظام في الموصل، وكركوك، وتكريت. أبقينا خطوط الاتصالات مفتوحة مع الحكومة التركية والسلطات الكردية من أجل الحثّ على التزام الهدوء.

إن قوات التحالف، التي هي بقيادة الفوج الأميركي الخامس، هي في هذه الأثناء في طريقها إلى بغداد. وصلت هذه القوات الآن، أي وأنا أتحدث إليكم، إلى مسافة تبعد ستين ميلاً إلى الجنوب من بغداد، أي إنها أصبحت قرب كربلاء. ستحدث مواجهة على مسافة قريبة من هناك مع فرقة المدينة التابعة للحرس الجمهوري الذي يحمي الطريق إلى بغداد. ستكون تلك لحظة حاسمة بشكلٍ مؤكد. تتقدم قوات التحالف كذلك نحو الكوت التي تقع في شرق العراق. تمكّنت قواتنا من احتلال الجسرين الرئيسيين فوق نهر الفرات وبقيا بحالة سليمة. إن هذه النقطة هامة جداً.

هاجمت طائراتنا المنشآت العسكرية العراقية، ومراكز نظام صدام للسيطرة والتحكم. قامت طائرات الحلفاء بأكثر من ٥,٠٠٠ غارة، كما أن آلاف الجنود العراقيين قد استسلموا، وترك عدد كبير آخر منهم ميدان القتال، وتركوا وحداتهم عرضة للتفكك. بقي الموالون لصدّام، وهم الذين يقاومون الآن، وأعرف أنهم سوف يقاومون بشدة. إنهم نخبة الجيش الذين يكرههم السكان، لأنهم يمتلكون القليل كي يخسروه. إنهم مصمّمون على القتال بشدّة في الأيام التالية المقبلة، لكن الاستراتيجية وتوقيتها يجريان بحسب الخطة المقرّرة.

بدأ اجتماع المجلس الأوروبي مع كارثة. وصلتُ إلى بروكسل في وقتٍ متأخر من ليلة الخميس. أمضينا ليلة اليوم العشرين من آذار/مارس في منزل ممثل المملكة المتحدة، وهو منزل قديم ورائع في بروكسل يعود بناؤه إلى القرن التاسع عشر. تشتمل بروكسل على أجزاء جميلة جداً (وللأسف لا تقع مباني الاتحاد الأوروبي في أي واحد منها) وكان هذا الجزء واحداً منها. يعود طراز البناء هنا إلى هندسة منتصف

القرن التاسع عشر المميزة، فالغرف واسعة والسقوف عالية جداً، والأبواب المزدوجة بسيطة، وطويلة، ورقيقة.

أيقظني مرافقي في وقتٍ مبكرٍ من صباح يوم الجمعة وقيل لي إن ثمانية من جنود البحرية البريطانيين قد قُتلوا نتيجة حادث تحطم حوّامتهم قي الكويت. كانت تلك إشارة شؤم. لم نخسر في العمليات التي جرت حتى ذلك الوقت في كوسوفو، وسيراليون، وأفغانستان، سوى عدد قليل من الرجال. عاودني ذلك الشعور المريع بأن تلك المهمة ستكون صعبةً جداً جداً. عدت لأتخيّل عائلات الضحايا، والقرع على الأبواب، والأرامل الحزانى، واليتامى من الأطفال، والمآسي التي ترافق ذلك كله.

تقدم مني جاك شيراك وغيرهارد شرويدر في بداية الاجتماع وقدّما لي التعازي بطريقة مخلصة ومؤثّرة. شعرت بامتنان لبادرتهما هذه التي سمحت لنا بمناقشة الطريقة المناسبة لإعادة توحيد المجتمع الدولي.

أردت إقناع الولايات المتحدة بأن علينا نقل العملية السياسية برمّتها إلى الأمم المتحدة فور توقف القتال. يُمكن للأمم المتحدة في هذه الحال أن تُشرف على الانتخابات، إذ تتمتع بالسلطة الرسمية [الشكلية] لاتخاذ القرارات، على الرغم من أن السلطة الفعلية ستبقى في يد الولايات المتحدة بطبيعة الحال. يمكننا أن نقول في ذلك الوقت: حسناً، اختلفنا جميعاً في مسألة إزاحة صدام، لكنه رحل الآن، فدعونا نتفق على أن لنا مصلحةً في عراقٍ مستقرّ، ومنفتح، ومحكومٍ جيداً.

سار عمل المجلس في هذا الخصوص على نحو أفضل من المتوقع. لقد وافق على إيداع عائدات النفط صندوقاً خاصاً تديره الأمم المتحدة لمصلحة الشعب العراقي. كما وافق على حيازة الأمم المتحدة سلطة إشرافٍ قوية على البلاد بعد انتهاء العمليات القتالية، وعلى أن تمثّل الحكومة العراقية الموقتة آراء الشعب العراقي بأسره. استُبعد الشيعة من السلطة عملياً منذ الستينيات من القرن الماضي وهم الذين يمثلون ما نسبته ٦٠ بالمئة من السكان، وكذلك الحال مع الأكراد الذين يمثّلون نسبة ٢٠ بالمئة من السكان. حانت الفرصة الآن بالنسبة إلى الشيعة والأكراد للمشاركة في إدارة بلادهم.

كان إقناع الولايات المتحدة أمراً أصعب بكثير. كان كولين باول يميل كثيراً إلى

رأيي، وأعتقد أن أسبابه تماثل أسبابي كثيراً. أما ديك تشيني، ودونالد رامسفيلد، وعدد كبير من المسؤولين فقد اعتبروا أن بيروقراطية الأمم المتحدة ستفسد الأمور. كانت المهمة الأصعب، كالعادة، هي إقناع جورج. كان من المقرر أن نجتمع في ٢٧ آذار/مارس، لكني أرسلت له مذكّرةً مفصّلةً شرحت له فيها سبب إشراك الأمم المتحدة. شددت مجدداً في هذه المذكرة على الأهمية البالغة لعملية السلام في الشرق الأوسط. سبق لنا أن استعرضنا المذكرة بالتفصيل وكل سطرٍ منها عندما التقينا في كامب دافيد. ما إن درس المذكرة بعناية حتى اتضح لي أنه سوف يقتنع بالجانب المتعلق بالأمم المتحدة. كان ذلك مؤشّراً طيباً، لكن الواقع كان أن الصراع هو الذي حدّد طبيعة المشكلة.

كان الأميركيون يعتقدون أن الأمم المتحدة تعيقهم، أما اعتقادي أنا فكان وجوب إنشاء تحالف كي نفوز، وأن الأمم المتحدة كانت الوسيلة الأسهل للوصول إلى هذا التحالف. لا يقتصر الأمر على شنّ حرب عصابات بدلاً من الحرب التقليدية، وهذه ليست المرة الأولى التي تُخاض فيها حرب عصابات. كانت هذه حرباً تجري وفق تكنولوجيا حديثة ونشرات أخبار، ووسائل اتصالاتٍ حديثة. إنها حرب واقعية تُعرض مباشرة في غرف جلوس الناس في أنحاء العالم كافة، أي إنها أشبه بعرضٍ ما على الشاشة. إن ما يراه المشاهدون، والأهمّ من كل شيء ما تراه العدسات التي يرون من خلالها، هو عنصرٌ حيويّ للفوز أو للخسارة، كما أن الرأي العام يلعب، دائماً وبطبيعة الحال، دوراً هاماً في الحروب. أما الآن فإن وسائل الإعلام ترافق الجنود الذين يقاتلون في الصفوف الأمامية. يعني ذلك أن كل وسيلةٍ إعلامية تعرض تعليقها المتواصل الخاص بها. يستتبع ذلك أن مجموع ما تعرضه وسائل الإعلام من صورٍ ليس أكبر بكثير فحسب، لكنه من طبيعة مختلفةٍ كثيراً عما كان عليه الأمر من قبل. إنني أتساءل في بعض الأحيان ما إذا كانت بعض الحروب القديمة، بما فيها الحرب العالمية الثانية، كان يُمكن خوضها بالطريقة ذاتها لو أن وسائل الإعلام آنذاك كانت تحوز التقنية التي تتوافر لها حالياً. يُمكن للمرء أن يفكر في دريسدن أو هيروشيما.

إن النقطة التي أريد التشديد عليها الآن هي أن التأثير البصري للحرب الحقيقية يحجب التحليل، والسياق، أو التفسير. تتحول الحرب حدثاً في ذاتها لأن صورها

مرعبة جداً. يعني ذلك أن من المهمّ جداً في تلك الظروف أن تكون الأهداف والغايات واضحة، وأن تكون الأسباب الجوهرية الأخلاقية والجغرافية واضحةً ومتفقاً عليها بما فيه الكفاية، ومقبولة بحيث يمكنها أن تسيطر على قوة صور الحرب البصرية.

ينطبق هذا كله على كل صراع عسكري حديث تقريباً. وينطبق أكثر على أي حرب قد تكون طويلة، وهذا ما يجعل من إنشاء تحالف لقلب صدّام سبباً هاماً جداً. إنه السبب الذي يجعل من إعادة توحيد المجتمع الدولي من أجل مواجهة فترة ما بعد صدام أمراً حيوياً جداً. أما إذا جعلنا من عراق ما بعد صدام مهمةً لنا جميعاً، فإن ذلك سوف يعني وجود قدرٍ من بيروقراطية الأمم المتحدة، لكننا سنجني فائدةً كبيرة من الالتزام الدولي، أو على الأقل من الأمل المتزايد في هذا الالتزام.

كان إقناع جورج أمراً صعباً، والأصعب منه كان إقناع ديك. لكننا توصلنا في نهاية الأمر إلى اتفاق «من حيث المبدأ» يقضي بأن تتدخل الأمم المتحدة في النهاية.

أردت تسوية الأمور فتوجّهتُ تواً من كامب دافيد إلى نيويورك للقاء كوفي أنان، الذي أكنّ له احتراماً وإعجاباً كبيرين. لكن موقفه طوال الأزمة العراقية كان موقفاً مستحيلاً. فعل الرجل ما بوسعه للسير في مسارٍ عقلاني. كنت متأكداً أنه شخصياً يعارض التحرك العسكري، لكنه اقتنع كلياً بأهمّية عودة الأمم المتحدة إلى العراق، كما كان ممتناً للجهد الذي بذلته لرؤيته واستشارته.

أريد أن أشدّد هنا على أن كوفي أوضح منذ البداية أنه لا يسعى إلى أن تلعب الأمم المتحدة دوراً قيادياً، وذلك على ضوء ما تحوّل إلى نقدٍ تقليدي لاستبعاد الأمم المتحدة، ولأن هذه القضية قد أعطت كلير شورت سبباً مزعوماً للاستقالة بعد أسابيع قليلة. أراد كوفي أنان أن تكون الأمم المتحدة هي محور الأمور، لكنه اعتقد، وعن حق، أن الأمم المتحدة لا تستطيع أن تتولى زمام القيادة إلا حين تستقر البلاد. لقد أراد دوراً «مركزياً»، أو «حيوياً»، وهو ما حصل عليه.

جرت في الأيام والأسابيع التالية سلسلة مستمرّة من الاجتماعات، ومن تحديث المعلومات، والمؤتمرات، كما سُجّل تقدّم ثابت للقوات على الأرض.

تعوّدت لقاء القيادات الأساسية، أي رئيس أركان هيئة الدفاع، ورؤساء الاستخبارات، وجاك سترو، وجيوف هوون، وذلك في أوقات مبكرة من الصباح. كنت أعقد بعد ذلك مجلس حرب عند التاسعة. تميّزت اجتماعات مجالس الحرب بمعاناة كلير المستمرّة حول ما إذا كان عليها أن تبقى في الحكومة أو أن تستقيل، وكانت مثقلة كذلك بالنقاشات المفصّلة حول بنودٍ محدّدة. حاولت من جهتي أن أبقي الاجتماعات مركّزة لكن ذلك، بصراحة، كان صعباً. بقي الجميع على التزامهم الاجتماعات. طُرح اتهام في هذه الاجتماعات، عزّزه بعض كبار الموظفين الحكوميين (وليس غيرهم)، ومفاده أن هناك أخطاءً ارتُكبت في العراق لأن هذا الموضوع لم ينل نصيبه من المناقشات في الحكومة الموسّعة. أعتقد أن هذا الكلام هو نوع من الهراء بالفعل. لم أكن هناك خلال الحرب العالمية الثانية، أو حرب فولكلاند، لكني مستعد لرفع قبّعتي لو أن ونستون تشرشل، أو مرغريت ثاتشر، تعودا فعل كل شيء من خلال اجتماعات الحكومة الرسمية. يشبه ذلك المجال أي مجال آخر في الحياة. لا يستطيع المرء اتخاذ قرارات بوجود مجموعات كبيرة من الناس. يُمكن للمرء أن يجادل، ويناقش، وأن يستوعب الآراء بتلك الطريقة، لكن لا يمكنه أن يدير حرباً، أو مؤسسة، أو شركة بتلك الطريقة. لا ينجح الأمر هكذا، أو على الأقل بحسب علمي. لكن أيمكن أن تكون هذه غلطتي أنا...

قامت القوات الأميركية والبريطانية بعملٍ رائع. مرّت فترة تقلّ عن الشهرين ما بين ١٩ آذار/مارس، والنهاية الفعلية لحكومة صدّام. أبلغت مجلس العموم في تصريح أصدرته في ١٤ نيسان/أبريل أن النظام على الرغم من عدم وصول الحرب إلى نهايتها، قد انهار أساساً، وأن الحملة العسكرية قد تحققت بطريقة رائعة واستثنائية، وهكذا لخصت ما أنجزته الحملة حتى الآن:

وقعت معظم مساحة جنوب العراق تحت السيطرة البريطانية. أما منطقة غرب العراق فقد أصبحت تحت سيطرتنا الكاملة، كما أن القتال في مدينة القائم الكبيرة فآخذٌ بالتلاشي. أما في الشمال فإن القوات الكردية انسحبت من كركوك والموصل تاركةً السيطرة للقوات الأميركية الموجودة الآن داخل تكريت وحولها، لكنها تلاقي بعض المقاومة. غير أن قوات صدّام قد انهارت أساساً في أنحاء العراق كافة. أما معظم ما تبقى من أعمالٍ قتالية، ولا سيما في بغداد، فثمة قوات خارجية غير نظامية

تقوم بها. أما في بغداد ذاتها فإن الأميركيين يسيطرون على معظم المدينة، لكنهم لم يتمكنوا بعد من السيطرة على أنحائها الكاملة.

أما المشكلة التي برزت الآن فتتمثل في الفوضى التي أعقبت انهيار النظام. أعتقد أن قدراً معيناً من الفوضى هو أمر حتميّ، وهو يحدث في أي وضع ينشأ عن انهيار مفاجئ لدولة بوليسية قاسية واظبت لمدة ثلاثين عاماً على ترويع شعب. استهدفت أعمال النهب بعض مراكز النظام، بما فيها المستشفيات التي كان يستخدمها النظام. لكن الوضع خطير، وعلينا أن نعمل بإلحاح للسيطرة عليه.

أظهرت البصرة أن هذه المشاكل التي تبرز في البداية قابلةٌ للحل. إنني فخور على الخصوص بالدور الذي لعبته في البصرة القوات البريطانية، التي قادها باقتدار الرائد روبين بريمز.

يتقدم التقنيون والمدراء العراقيون بأنفسهم من القوات البريطانية، ونحن نقوم وإياهم بإعادة تسيير خدماتٍ أساسية كثيرة. عادت معظم العيادات الصحية العامة إلى العمل، كما زوّدت القوات البريطانية مستشفى البصرة الحكومي الأكسجين، والأجهزة الطبية الأخرى التي تقدر عليها. يُذكر أن نحو مئتين من رجال الشرطة قد التحقوا بأعمالهم، كما أن دوريات مشتركة بدأت بالعمل يوم ١٣ نيسان/أبريل. أما في المدن المحيطة فإن أعمال النهب إمّا توقفت وإما تتقلص كثيراً، وكذلك دوريات الشرطة المحلية قد استؤنفت من جديد، بالإضافة إلى أن التعاون مع البلديات يسير سيراً حسناً.

كانت خسائر القوات البريطانية نتيجة العمليات العسكرية طفيفةً لحسن الحظ – أقل من ثلاثين قتيلاً – كل واحد منهم يمثل فاجعة شخصية، لكن العدد يبقى قليلاً جداً بالنسبة إلى جسامة المهمة التي قمنا بها.

قامت وحدة الهندسة في الجيش البريطاني بعملٍ رائع أثناء تقدمها في مناطق الجنوب وإخمادها مراكز المقاومة العراقية، إذ كسحتْ من أمامها المتمردين جميعاً. أصلحت هذه الوحدة الجسور، والبنى التحتية لشبكات المياه والكهرباء، كما أعدت الخرائط المفصّلة من أجل أعمال الترميم والصيانة. صحيح أن موقف كلير قد أعاق الجهود المدنية، لكن التزام الجيش عوّض هذا النقص أكثر من المنتظر. أقول

بصراحة إن أي عجز ينتج عن موقف كلير كان يُمكن تعويضه بسهولة لو أن الحالة الأمنية بقيت مقبولة.

أما الجهود الأميركية التي تُبذل من خلال إدارة المساعدات الإنسانية وإعادة الإعمار فقد وقعت في نوع من الفوضى. لكن في المقابل، وكما يقتضي الإنصاف القول، لم يكن بالإمكان عمَل الكثير قبل وصول القوات الأميركية إلى بغداد ومعرفتها للأوضاع الحياتية كما هي على الأرض. سأتحدث الآن عن كيفية تطور تلك الجهود. لكن لنكن واضحين منذ البداية: يسهل علينا كثيراً القول إن أخطاء التخطيط فيما يتعلق بالقدرة المدنية على إعادة إعمار العراق هي سبب الصعوبات التي ظهرت فيما بعد. لكن هذا القول ليس صحيحاً، لأن الحقيقة الناصعة تقول إن إصلاح الأخطاء كلها بالأموال والجهود التي خصصناها كان ممكناً، في حال كانت المشكلة إدارية أو بيروقراطية. أما وجه الخطأ هنا فكان الأمن. لم تكن بعض القرارات المدنية التي اتخذت مساعِدةً لنا، وسأتحدث عنها فيما بعد، لكني أريد القول إن المفهوم القائل إن هذه القرارات هي أساس المشكلة هو مفهوم خاطئ بكل بساطة، وأخشى أن أضيف أنه مجرد وهم، لكنه وهمٌ له أهمّيته، لذلك ينبغي أخذ المعوقات المصاحبة لهذا النهج في الاعتبار في النزاعات المستقبلية. إن إعادة البناء هي في منتهى الأهمية، لكنها لا يمكن أن تتم في بيئة يسودها العنف. رأيت ذلك في العراق وفي أفغانستان، وشهدته أيضاً في غزّة والضفة الغربية.

أما القضية الأهم فهل بالإمكان أن تكون الحالة الأمنية أفضل في حال رافقتها تحضيرات أفضل مما جرى. لقد أعطت هذه التحضيرات ثمارها في بغداد والمناطق التي تحيط بها نتيجة العدد الأكبر من الجنود. أما في الجنوب حيث كان الجنود البريطانيون في البداية، ثم انضمّ إليهم ٢٠,٠٠٠ جندي من جنسيات أخرى، فلم يكن الأمر بذلك الوضوح. يمكننا القول إن الجنوب كان هادئاً نسبياً في معظم أيام العام ٢٠٠٣.

إنني أشكّ كثيراً في قدرة أي تغيير على منع تنظيم القاعدة والعناصر الإيرانية من الظهور، وهما مَن دفع البلاد إلى حافة الهاوية بين العامين ٢٠٠٥ و٢٠٠٧.

بدأت الأمور في الأسابيع الأولى تلك وكأنها تسير حسب ما هو مخطط لها. لم

يحظ النظام بالدعم من السكان جميعاً. أعلنت مدن عديدة أنها تفتح أبوابها أمام قوات التحالف. بقيت هناك عدة جيوب للمقاومة كانت تختفي سريعاً لافتقادها قواعد دعم محلية، وهكذا أُخضع الجنوب بسرعة، بسكانه الشيعة والمعادين لصدّام بقوة. عادتْ دوريات الشرطة المحلية إلى الظهور في شوارع البصرة.

أُلقي القبض على مسؤولي حزب البعث، كما أن بعضهم استسلم للقوات الأميركية. تبيّن لنا بعد احتلال سجن أبو غريب أنه خالٍ، وهو السجن الذي كان سيئ السمعة في ذلك الوقت وأصبحت أكثر سوءاً فيما بعد. أطلق صدّام جميع السجناء، حتى المجرمين منهم. كان الأجدر بهذه الخطوة أن تنذرنا، بالإضافة إلى المعلومات الاستخبارية التي كانت تفيد بأن صدام قد سمح لتنظيم القاعدة بتأسيس قاعدة له داخل العراق في مطلع العام ٢٠٠٣، وفقاً لتكتيكه القاضي بعدم مواجهة قوتنا المسلحة الأكثر تفوقاً، والسماح باحتلال البلاد، في محاولة منه لإغراقها في الفوضى. إن الاستقبال الذي لقيته القوات لم يشتمل على نثر أكاليل الزهور حتى هذه المرحلة، لكنه كان أقرب إلى استقبال قوات تحرير البلاد وليس إلى قوات احتلال. شارك مليوني شيعي في إحياء مجالس عاشوراء في كربلاء، بعدما كان ذلك ممنوعاً في عهد صدّام.

كانت الأجواء هادئةً في بغداد يومي ٢٧ و٢٨ نيسان/أبريل بما يسمح للجنرال غارنر، رئيس إدارة المساعدات الإنسانية وإعادة الإعمار، بعقد اجتماع سياسي للبحث في شؤون إعادة الإعمار. شارك في هذا الاجتماع ما يزيد على مئتين من المندوبين العراقيين وممثلي دول قوات التحالف. أما في أواخر شهر حزيران/يونيو فقد تم تشكيل أول مجلس سياسي في البصرة.

زرت البصرة بنفسي قبل هذا التاريخ، أي في ٢٩ أيار/مايو. قام الجنود البريطانيون بعمل رائع هناك. رأيت الجنود في القصر الجمهوري، وفي ميناء أم قصر بعد ذلك. كانتْ أعمال إزالة الألغام من الميناء لا تزال جاريةً استعداداً لإعادة فتحه. كانت أهمّية ذلك الميناء عظيمةً في الماضي، لكنها ضاعت كلها في عهد صدّام. كان يُمكن لهذا الميناء أن يكون أحد أعظم الموانئ في العالم كما كان في أيام أمجاد العراق القديم. انتقدني عدد من الناس بشدة عندما ألقيت خطاباً في الإمارات في العام ٢٠٠٧، أي قبل وقتٍ قليل من مغادرتي منصبي، وقلت إن البصرة يُمكن أن

تصبح مثل دبي، أو أبو ظبي. لكن الحقيقة هي أن هذا ممكن، ونحن نأمل الآن أن يتمكن هذا الميناء من مضاعفة طاقته في غضون السنوات الثلاث التالية، وذلك بعد أن تمكن من زيادة هذه الطاقة كثيراً عما كانت عليه في أيام صدّام.

زرت مدرسةً كان الجنود البريطانيون قد انتهوا من ترميمها منذ وقتٍ قريب. كانت البصرة هادئة ويخيّم عليها سلام نسبي. أما في بغداد فقد انتُزع تمثال صدام حسين من قاعدته وحطمته الجماهير وسط الهتافات. كانت تلك لحظة عظيمة. أجريت مقابلة (غير موفقة) مع صحيفة صن وسمحت لنفسي بالانجراف إلى الإدلاء بملاحظة أنني كدت أخسر منصبي بسبب الحرب. (ذلك أقل أهمية من تعريض حياة الجنود للخطر). كانت الحملة حتى تلك اللحظة صعبةً ودمويةً، وتبدو أنها قصيرة. وصلت خسائر قوات التحالف حتى نهاية شهر أيار/مايو إلى نحو خمسمئة جندي، أربعمئة منهم من الأميركيين، كما أن العدد الرسمي للضحايا العراقيين قد وصل إلى نحو ٨,٠٠٠ معظمهم من المقاتلين بطبيعة الحال.

لم تقع كارثة إنسانية، وحمينا آبار النفط، كما أن عناصر المقاومة التابعة لصدام قد انهارت. كانت تحذيرات وقوع كارثة شاملة خاطئة كلها.

اعتقدنا في ذلك الوقت أننا اقتربنا من نهاية الحملة العسكرية الرئيسة. لكن الواقع هو أننا كنا في بداية ما أصبح بعد ذلك مرحلة مختلفة من العمليات. كانت هذه الحملة صعبة ودموية، وطويلة. بدت النتيجة مشكوكاً فيها في بعض الأوقات خلال تلك السنين، وهي تبدو حتى الآن هشة.

يمكنني القول في هذه المرحلة إن غياب وحدة الموقف الدولي عند اتخاذ القرار الأساسي، والمصالح الخاصة للكثيرين في البرهنة على أننا ارتكبنا خطأ، هي كلها أمور أضرت بنا كثيراً. شعرت بذلك كله أثناء زيارتي إلى روسيا التي قمت بها في نهاية شهر نيسان/أبريل. انطلق فلاديمير بوتين بهجوم لاذع أثناء المؤتمر الصحفي، فوجّه نقده إلى البريطانيين وكأنه يتحدث إلى الأميركيين بالفعل. تبادلنا حديثاً متوتّراً، وحتى حامياً، في بعض الأحيان عند العشاء. كان بوتين مقتنعاً أن الولايات المتحدة تسير في طريق أحادي منفرد، وذلك ليس من أجل هدفٍ عملي نبيل، بل بحسب مبدأ معيّن. قال لي غير مرة: «لنفترض أننا تحركنا ضد جورجيا،

وهي قاعدة الإرهاب ضد روسيا، فماذا سيكون موقفكم لو قمنا باحتلالها؟ يقول الأميركيون إن بإمكانهم القيام بما يشاؤون». كانت الشيشان مثالاً ثانياً، على الرغم من أنني دعمت، بالفعل، قمع الإرهاب هناك.

أدركت عندئذ مدى عمق شعوره بتجاهل الولايات المتحدة روسيا، ولمست تصميمه على أن نلمس أخيراً خطأ ذلك. كانت الصعوبة في حديثنا هذا أنني كدت أتفق وإياه بشأن مسألة أحادية الموقف الأميركي وتفرده. بدا ذلك الموقف متغطرساً وخاطئاً وسلبياً بالنسبة إلى قضيتنا. لكن ذلك لا يعني أبداً أن التحرك في ذاته كان خاطئاً، أو أن أوجه التشابه التي أوردها كانت دقيقة. ثار في ذلك الوقت النزاع الهندي – الباكستاني حول كشمير وأدى إلى أعمال عنفٍ متفرقة، بالإضافة إلى أعمال إرهابية انطلقت من باكستان. لا يمكننا القول إطلاقاً إن حكومة باكستان إرهابية، أو إن باكستان من دول الشرّ، على الرغم من أن عناصر تنتمي إلى منظماتٍ حكومية قد تكون متورّطة في تلك الأعمال. أما نزاع الصين مع تايوان فيمكن اعتباره قضية تخصّ الوحدة الصينية الداخلية، ولا تمثّل هذه القضية بالذات تهديداً خارجياً لأي دولةٍ من الدول. يمكننا القول إن الشيشان قد أظهرت بعض تلك السمات ذاتها بالفعل، لكني أقول بصراحة لو أن الولايات المتحدة أو بريطانيا تحركت نحو العراق بالعنف ذاته الذي استخدمته روسيا في الشيشان لكانت الفوضى عمّت العالم.

إنني أحترم بوتين نظراً للصراحة التي يتحلى بها، ولذلك أبقينا خطوط الاتصالات مفتوحةً على الرغم من اختلافنا في الرأي. خسرنا، على الرغم من ذلك، فرصة لتكوين شراكة أميركية روسية متينة بالفعل. أما لو كنت مكان الولايات المتحدة فلن أسمح أبداً بحصول الأمر ذاته مع الصين. يمكن لأميركا أن تعقد اتفاقيات مع الصين وأن تعاملها كدولة مساويةٍ لها، ليس شكلياً فقط بل في الجوهر كذلك.

برزت أمامنا قضية أكثر إلحاحاً، وأكثر إحراجاً. كنا نبحث بجدّ ونشاط عن أسلحة الدمار الشامل، وكنا واثقين أننا سوف نجدها. كانت تلك هي اللحظة المناسبة التي أبحث عنها، وذلك لأنها سوف تسلّط الضوء على قضية رئيسة واحدة.

توغلت قواتنا أكثر فأكثر داخل العراق، وهكذا تمكّنا من الحصول على تقارير يومية. كان جنودنا يحاولون في بعض الأحيان تفتيش المصانع أو المواقع، لكن من

دون أن ينجحوا في ذلك. كنا نظنّ في بعض الأحيان أننا تمكّنا من العثور على شيء ما، لكن أملنا كان يخيب في كل مرة. مرت الأيام وزاد توتّري مع مرورها. كان دونالد رامسفيلد عند زيارتي للبصرة في نهاية شهر أيار/مايو قد اقترح، بطريقة غير مفيدة بعض الشيء أننا لن نعثر أبداً على أسلحة الدمار الشامل، وهو توقع تبيّن أنه صحيح، لكن يجب أن يُنظر إليه بطريقة حذرة بعض الشيء. كان ذلك [أسلحة الدمار الشامل] بعد كل شيء سبباً أساسياً لقيام الحرب.

التقيت عند زيارتي البصرة جيري بريمر الذي كان تسلّم تواً مسؤولية إدارة إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، التي سرعان ما تحولت إلى سلطة التحالف الموقتة. أبلغته بأن عليه أن لا يتردّد في طلب أي شيء يحتاج إليه منا، ونصحته أن يتبع الطريقة ذاتها مع إدارته. قلت له: «لا تتردّد إذا ما احتجت إلى أي شيء بل اطلبه على الفور. سأدعمك، وأنا متأكد أن رئيسك سوف يدعمك كذلك». لم أفاجأ عندما لاحظت أنه تأثر قليلاً، لكنه كان مقتدراً جداً وملتزماً.

ضاعفت جهودنا للمساعدة بعد تلك المحادثة، ليس في مجال عملياتنا في البصرة فقط، بل بالنسبة إلى كل ما يساعد الولايات المتحدة وبقية البلاد. بقي ذلك انشغالي الأهم خلال الأشهر التالية.

كانت الزيارة بمثابة إنذار حقيقي. تأكدت خلالها أننا أنجزنا الكثير من الأمور، لكن لاحظت أننا نعاني خطر ربح الحرب وخسارة السلام. كانت توقعات الشعب هائلةً جداً، إلا أن تعقيدات الحياة القبلية والدينية كانت ضخمةً جداً، وكانت مهمتنا تحدياً كبيراً، لذلك لم نجد أي سبب للرضا.

سارعت لدى عودتي إلى دعوة الوزراء الأساسيين في الحكومة إلى اجتماع، وأصدرت سلسلةً من التعليمات من أجل تحسين مستوى المساعدات التي نقدمها إلى الولايات المتحدة. كنا نعتقد أن الأميركيين سيديرون وسط البلاد في حين ندير نحن جنوبها. أدركت بعد الزيارة أننا سوف نفشل إلا إذا نجحوا في مهمتهم. أرسلت جون سورز، الذي كان سابقاً أرفع مستشار للسياسة الخارجية عندي، إلى بغداد. توصّل جون إلى الاستنتاج ذاته: تحتاج العملية الأميركية إلى تعزيزات هائلة. أرسلت مذكرةً شديدة اللهجة إلى جورج، ثم تحدثنا هاتفياً بعد ذلك.

أقرّت الأمم المتحدة، ولحسن الحظ، القرار ١٤٨٣ بالإجماع، وذلك في ٢٢ أيار/مايو. أعطى هذا القرار الأمم المتحدة دوراً أساسياً في كل مجالات تطوير العراق. كما أعادنا إلى مسارٍ متعدّد الجوانب. بذلت جهوداً حثيثة من أجل تعيين موظف كبير في الأمم المتحدة كي يذهب إلى بغداد. وافق كوفي أنان بعد بعض التداول، واختار لهذا المنصب، بعد إصرارٍ من جهتي، سيرجيو فييرا دي ميلو، المفوض الأعلى لحقوق الإنسان، وهو رجل ذو سجل وخبرات من الدرجة الأولى.

توجه اهتمامي بعد وقت قصير إلى ناحية أخرى. اشتمل برنامج توداي الذي أذاعته محطة بي. بي. سي في ٢٩ أيار/مايو على موضوع رئيس من كبير المراسلين الدفاعيين فيها آندرو جيليغان. ركّز آندرو في هذا التقرير على بعض المزاعم حول ملف أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢، وقد استمر خمساً وأربعين دقيقة. قلت سابقاً إن هذه المزاعم وردت في ذلك الملف، كما أن بعض الصحف قد ركّزت عليها في اليوم التالي بطريقة تبيّن لنا فيما بعد أنها كان يجب أن تصحّح. لكن القضية اختفت عن اهتمامات وسائل الإعلام فيما بعد.

تبين أن هذه المزاعم خاطئة. لم أعلم بوجود مناقشات داخل وزارة الدفاع بشأنها، وكذلك وزارة الداخلية، أو[JIC Just In Case] دائرة المعلومات غير المؤكدة]. كان أحد الذين شاركوا في هذه المناقشات، وعلى الرغم من أنه ليس مسؤولاً عن ذلك الملف مباشرة، هو الدكتور دافيد كيلي، وهو خبير في وزارة الدفاع، وذو خبرة نحو عشرين عاماً فيها.

لم يزعم البرنامج الذي أذاعته بي. بي. سي، ببساطة، أن الاستخبارات كانت مخطئةً بالنسبة إلى شريط الخمس والأربعين دقيقة. جاءت أقوال جيليغان على النحو التالي:

«أبلغنا أحد كبار المسؤولين الذي كان مسؤولاً عن إعداد ذلك الملف أن الحكومة كانت تعرف بالفعل أن الرسم الذي ظهر في شريط الخمس والأربعين دقيقة كان خاطئاً حتى قبل أن تقرر إدخاله في الملف... قال مصدرنا إن داوننغ ستريت أمرت قبل أسبوع من نشر التقرير بأن تُضاف إليه بعض الإثارة، وذلك كي يبدو أكثر جاذبية، كما أمَرتْ باكتشاف بعض الحقائق الجديدة».

لا أظن أن هناك اعتقاداً أكثر خطورة أو شدة. إن وجود معلومات استخبارية مغلوطة هو شيء، ووجود معلومات استخبارية تُعرف أنها مغلوطة وتُنشر مع ذلك على أنها معلومات دقيقة هو أمرٌ مختلف تماماً. لا يُعتبر هذا خطأً بل سوء تصرف. يُضاف إلى ذلك أن الأمر قد نُسب إلى ١٠ دوانغ ستريت مباشرة.

أجريَت خمسة تحقيقات منفصّلة حول هذا الموضوع، وكُتبت عنه صفحات كثيرة، وصُرفت أوقات وطاقات كثيرة لأجله. كانت العودة مجهدة إلى كل حقيقة، وكل حجّة في النقاش، وكل حجّة فرعية، وكل الأحزان الشخصية التي تسببت بها هذه القضية. أقدم الدكتور كيلي، وهو رجل محترم وشريف، على قتل نفسه، كما قدّم أكبر مسؤولَين في محطة بي. بي. سي. وهما غريغ دايك وغيفين دايفيس استقالتهما. أما آلاستير وعدد كبير من المسؤولين فقد أمضوا أشهراً عديدة من العمل المتواصل بسبب اتهامات غير صحيحة. ربما لا يزال الضرر الذي أصاب سمعتي [نزاهتي] من جراء هذه القضية موجوداً، وهو تأثير رهيب بالفعل. حدث أمر آخر نتيجة لهذه القضية: لم يعد الانقسام بشأن الحرب مجرد خلافٍ في الرأي، بل تحوّل إلى خلاف شديد حول نزاهة الأشخاص المعنيين بهذه القضية. لقد تحولت قضية صعبة إلى قضية بشعة وبقيَت كذلك.

أما أنا فأعلنت، بطبيعة الحال، الحقيقة الصريحة التي لا مفرّ منها، وهي أن صدّام على الرغم من امتلاكه الأكيد لأسلحة الدمار الشامل، إلا أننا لم نعثر عليها قط. لقد تبيّن أن المعلومات الاستخبارية كانت خاطئةً، وهنا تلعب العلاقة بين السياسة ووسائل الإعلام الحديثة دوراً حاسماً.

كانت المعلومات الاستخبارية خاطئةً، ونحن اعترفنا بذلك، كما اعتذرنا عنها، وشرحناها أيضاً. لكن وجود خطأ ليس كافياً البتة بالنسبة إلى وسائل الإعلام هذه الأيام. كان الخطأ كبيراً وجدياً، لكنه كان غلطة. يخطئ البشر على الدوام. لو استعرضنا تاريخ صدّام لباتت هذه الغلطة مفهومة. وصلت هذه الغلطة إلى عناوين الصحف، لكنها لم تكن الفضيحة الكافية التي تتعطش إليها وسائل الإعلام هذه الأيام. كانت غلطة لم تصل إلى مستوى عالٍ في سجلّ الفضائح. يعني ذلك استمرار البحث عن كذبةٍ ما، أو خدعةٍ ما، أو عملٍ لا يدخل باب الخطأ، بل باب إساءة

التصرّف. أما المشكلة فهي حين لا تُكتشف مثل هذه الكذبة، فيجري حينئذ تدبير، أو حتى اختراع، واحدة.

إنني لا أقول هنا إننا تعاملنا مع هذا الزعم كما يجب، لكنه كان أشبه بالألعاب النارية التي أشعلت مجموعة كاملة من نظريات المؤامرة، التي أدت إلى تقسيم الشعب بأقسى طريقة ممكنة في وقت كنا أحوج ما نكون إلى توحيده. كنا على خطأ قبل هذه الحادثة، أما بعدها فقد أصبحنا من «الكاذبين».

إن الحقائق الأساسية واضحةٌ تماماً. وجدنا لدى كل لجنة من لجان التحقيق، أن كل نقطة من النقاط التي وردت في الشريط كانت كاذبة، كما تبيّن لنا استحالة أي كشف آخر. لم يُقدم أحد في داوننغ ستريت، أو أي مسؤولٍ في الحكومة، على وضع الشريط الذي يستغرق خمساً وأربعين دقيقة في الملف، لكن JIC [دائرة المعلومات التي يُمكن أن تكون صحيحة] هي التي فعلت ذلك. لعلنا لم نعرف لا نحن ولا أي شخصٍ آخر، أن تلك المعلومات «لربما كانت خاطئة»، كما أننا لم نأمر قط بإضافة بعضٍ الجاذبية [تبهير] إلى الملف. لم يكن الدكتور كيلي واحداً من المسؤولين المولجين بكتابة الملف.

أما الأسوأ من ذلك فهو أن جيليغان مضى ليكتب في مقالة نشرها في مايل أون صنداي زاعماً أن آلاستير كان هو من كتب هذه المزاعم كلها، أي إنه لفّقها كلها، وهو اتهام وضع آلاستير في مواجهة جبهة مضادة للحرب، وكان ذلك أمراً من غير المعقول أن يأخذ طريقه إلى الكتابة إلا إذا كان المرء متأكداً منه، وهو لم يكن صحيحاً بطبيعة الحالة، ولذلك قمنا بنفيه نحن و JIC.

لم يتضح لنا قط أن الدكتور كيلي ـ الذي نفى المزاعم على الرغم من اعترافه بأنه تحدث مع جيليغان – قد أعطاه ملخصاً يبرّر القصة.

لكن ما حدث بعد ذلك يمثّل نموذجاً للعلاقة بيننا وبين وسائل الإعلام في السنين التالية. إذ لم تعد العلاقة بيني وبين بي. بي. سي إلى حالتها الطبيعية البتة، كما أن بعض وسائل الإعلام خرجت على حدودها بعد هذه الحادثة.

كانت المشكلة هي أن إدارة محطة بي. بي. سي لم تعترف بأن ذلك كان اتهاماً لا نستطيع إغفاله. لكن إذا أراد القادة السياسيون جميعاً ملاحقة كل خبرٍ زائف،

أو كل قصة ملفقة عن نياتهم فسيقضون أوقاتهم كلها في تمحيص الحقائق مع الصحافة. لكن هذه هي قضية مختلفة نوعياً، لأن هناك أشخاصاً يفقدون حياتهم في العراق، وهم يستطيعون مسامحة غلطة، لكنهم لا يستطيعون مسامحة الخداع. يُضاف إلى ذلك أن هذا الأمر يعني أنني ضلّلت مجلس العموم. وإذا كان ذلك صحيحاً في ذاته فسيضطرني إلى الاستقالة وإلى تحمّل العار.

حاولتُ منذ البداية أن أحمل غريغ وغيفين على فهم هذا الأمر. لعبت صداقتي مع هذين الشخصين دوراً معيقاً وليس مساعداً في هذه القضية. كانت صحيفة مايل تشنّ حملةً ضدّهما بوصفهما عميلين، ولهذا أرادا أن يبرهنا على استقلاليتهما، كما أن غريغ كان ضد الحرب شخصياً، لذلك لم يكن بإمكانه أن يكون محايداً بوصفه المدير العام لهيئة الإذاعة البريطانية.

كان كل ما أريده هو أن يتقبلا أنّ القصة غير صحيحة، وأن بإمكانهما مهاجمة الحكومة كما يشاءان، لكن عليهما سحب الاتهام بإساءة التصرف. لم يقبلا ذلك، كما أصرّ غيفين على القول إن التحقيق في اتهام ما ليس من مهمة المدراء، وهو موقف غريب لأن ذلك هو ما كان يجدر بهما فعله. حاول غريغ، الذي يمكنه أن يكون عنيداً جداً، الاستمرار بالقول إن الشريط الذي بثّه كان دقيقاً لأن ما ورد في شريط الخمس والأربعين دقيقة كان خاطئاً، وهو ما قلت باستمرار إنه ليس نقطة هامة.

يمكنني على أيّ حال أن أعرض وجهة نظري من القضية بحيث أجعلك تتأثر بها، أنت وهما معاً. لكن ما حدث بعد ذلك كان خطِراً ومأسوياً.

أدى اتهام جيليغان إلى تحرك عدة جهات. قررت لجنة الشؤون الخارجية أن عليها فتح تحقيق خاص بها، كما أننا بدأنا من جهتنا معركةً استمرت ستة أشهر، واستغرقت وقتاً كثيراً منا، وصرفنا عليها طاقاتٍ كبيرة، وقدراً كبيراً من الإحباط، والإجهاد، وذلك كله من أجل إنقاذ سمعتنا.

عرفنا في وقت مبكّر من شهر تموز/يوليو المصدر الذي استندت إليه قصة جيليغان. تقدم الدكتور كيلي منا واعترف بأنه تحدث كذلك مع سوزان واتس التي تعمل في نيوزنايت، لكن تقاريرها كانت أكثر اعتدالاً بكثير وأقلّ حدة، على الرغم من أن تلك التقارير اشتملت على الاتهام الخاطئ ذاته الذي يزعم وجود خلاف

حول الادعاء الذي ورد في شريط الخمس والأربعين دقيقة، وأن الخلاف دار بين وكالة الاستخبارات وداوننغ ستريت، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. لم يحدث نقاش قط حول هذا الموضوع، وذلك لأننا لم نعلم به بتاتاً إلا حين أقدمت دائرة JIC على وضعه في الملف.

أعتقد أنني لن أعرف أبداً السبب الحقيقي الذي جعله يُنهي حياته بيده. ولا أعتقد أن أحداً يمكنه معرفة السبب الذي وقف وراء هذا الأمر. كان ذلك محزناً جداً، وغير ضروري، وفظيعاً. قدّم الرجل خدمات كبيرة دلّت على إخلاصه طوال سنواتٍ عديدة. ربما لم يكن متعوداً الضغوط والشدة التي ترافقت مع بثّ شريط جيليغان، ولعله شعر بأنه محاصر، وبأنه معرّض للتأنيب وإجراءات الانضباط الداخلي فيما لو انكشف دوره. إنني لا أعرف ما جرى، كما لا يُفترض بي أن أخمّن في واقع الأمر. سبق لي أن التقيت عائلته في شيكرز بناء على دعوتي، وكان أفراد العائلة على قدرٍ كبير من الاحترام والذوق. أما المفارقة الفظيعة هنا فهي أن الدكتور كيلي نفسه على الرغم من الجدال كله الذي أثارته القضية، كان منذ وقتٍ طويل من دعاة التخلّص من صدّام.

اهتمت لجنة هوتون بكيفية تسرّب اسم الدكتور كيلي. كالت وسائل الإعلام اتهامات قاسية في هذا الشأن، وعلى الخصوص ضد آلاستير. أوحت هذه الاتهامات أنه هو الذي سرّب الاسم وذلك خلافاً لتعليمات وزارة الدفاع. لم يُقدم آلاستير على تسريب الاسم. أما الحقيقة فهي أننا عندما علمنا أن الأمر يتعلّق بالدكتور كيلي، وبما أن لجنة الشؤون الخارجية كانت منشغلة بالتحقيق في الزعم الذي ورد في شريط الخمس والأربعين دقيقة وبثّ ذلك الشريط، لذلك واجهنا خطر اتهامنا بإخفاء هذه المعلومة إذا ما عرفنا مصدر التسريب ورفضنا الإفصاح عن الاسم. أما الواقع فهو أن الأمر برمّته كان تحت سيطرة الإدارة التي يعمل فيها الدكتور كيلي، أي السير غيفين تيبيت، والسير دافيد أومان، وهو منسّق الأمن والاستخبارات في مكتب الحكومة، وذلك بناءً على إصراري. أُعلن الاسم في ١٠ تموز/يوليو، وهكذا قالت لجنة الشؤون الخارجية على الفور إنها سوف تُجري مقابلة معه، ولم يكن ذلك بالأمر المفاجئ.

أُجريت المقابلة معه في ١٥ تموز/يوليو. أنكر كيلي أن يكون هو مصدر قصة جيليغان، وذلك لأنه يناقضها. قال، خصوصاً، إنه لم يفكر، ولم يقل قط إن آلاستير

كان مسؤولاً عن إدخال تلك المادة في الملف. أما لجنة الاستخبارات والأمن فكانت تجري تحقيقها الخاص بها. تعيّن عليه كذلك تزويد اللجنة بالدليل. قال للّجنة في هذا السياق إنه يعتقد أن الملف «يعكس على نحو مقبول المعلومات الاستخبارية المتوافرة التي قُدّمت بطريقة جادة وواقعية».

شاركت، وسط هذه المعمعة كلها، في جلسة قاسية من جلسات استجواب رئيس مجلس الوزراء في ١٦ تموز/يوليو. رفضت محطة بي. بي. سي القول إن الدكتور كيلي هو مصدر معلوماتها. أما لجنة الشؤون الخارجية فقد قررت أنه لم يكن المصدر، ووجّهت تأنيباً إلى الحكومة. غضبت كثيراً من موقف هيئة الإذاعة البريطانية. أعرف أنها تعودت التزام النهج الصحفي التقليدي في عدم الكشف عن مصادر الأخبار التي تتلقاها، لكن هذه كانت قضية استثنائية بامتياز. نجد هنا شخصاً وُصف على أنه مصدر الخبر. كان بإمكان هيئة الإذاعة البريطانية تأكيد تورطّه أو نفيه، كما أنها لم تكن مضطرة لتسمية المصدر إن لم يكن الدكتور كيلي هو المصدر، والاكتفاء بالقول إنه شخص آخر. لكن الهيئة لم تجرؤ بالتأكيد، وذلك لأنها إذا اعترفت بأن الدكتور كيلي هو الوحيد، وأنكر أنه قال ما زعمته المحطة، فستضطرّ إلى سحب هذه القصة كما أُذيعت في الأصل. ستتأثر سمعة المحطة كثيراً إذا فعلت ذلك.

سافرت في ذلك المساء إلى الولايات المتحدة، وكان من المقرر في اليوم التالي أن أخاطب مجلسَي الكونغرس. كانت تلك لحظة عظيمة. كتبت الخطاب أثناء سفري في صباح اليوم التالي. كان ذلك الخطاب أهم خطابٍ كتبته، وبرأيي، أحد أفضل هذه الخطابات.

هذه معركة لا يُمكن خوضها، أو الفوز بها، بالجيوش فقط. إننا أقوى تسليحاً بكثير من الإرهابيين بالوسائل التقليدية، ومع ذلك، وعلى الرغم من قوتنا كلها، فقد تعلّمنا التواضع. إن هذا الشرّ لن تهزمه قوتنا لوحدها في نهاية المطاف، لأن سلاحنا الأقوى ليس بنادقنا ومدافعنا، بل معتقداتنا.

هناك أسطورة فحواها أننا على الرغم من محبتنا للحرية، لكن الآخرين لا يحبونها، وأن تعلقنا بالحرية هو نتيجة ثقافتنا، وأن الحرية والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحكم القانون هي كلها قيَم أميركية، أو قيَم غربية، وأن النساء الأفغانيات

مرتاحات تحت سياط طالبان، وأن صدّام كان محبوباً، نوعاً ما، من شعبه، وأن ميلوسيفيتش كان منقذ صربيا.

إن القيَم التي نؤمن بها يا أعضاء الكونغرس ليست قيَماً غربية، بل هي قيمٌ عالمية للروح الإنساني. إن خيار الشعوب، في أي مكان وأي زمان، عندما تُعطى فرصة الاختيار هو ذاته: الحرية وليس الطغيان، الديمقراطية وليس الدكتاتورية، حكم القانون وليس حكم الشرطة السرية.

إن انتشار الحرية هو أفضل ضمانٍ للأحرار، وهو آخر خطّ دفاعي لنا، وأول خطّ للهجوم. يهدف الإرهابيون إلى تقسيم البشرية عبر الكراهية، ولذلك ينبغي لنا توحيدها حول فكرة هي الحرية. يتعيّن علينا إيجاد القوة التي تمكّننا من الكفاح من أجل هذه الفكرة، وإيجاد التعاطف اللازم كي نجعلها شاملة. قال إبراهام لينكولن: «إن الذين يحرمون الآخرين من الحرية لا يستحقونها هم». هذا هو معنى العدالة الذي يجعل من حبّ الحرية أمراً أخلاقياً.

إننا نستعين بالسلاح في بعض الحالات التي يتعرض فيها أمننا لخطر مباشر، ونلجأ في حالات أخرى إلى قوة الإقناع. لكن الغاية واحدة في الحالات كلها: إن الحرية التي نسعى وراءها ليست لبعض الناس لكن للجميع، لأن ذلك هو الطريق الصحيح الوحيد للنصر في هذا الصراع...

إن الحرب التي نخوضها ليست حرب الحضارات، لأن لكل حضارة قدرتها الخاصة بها على إغناء التراث الإنساني. إننا نحارب لأجل الحقّ الثابت للجنس البشري، البيض منهم والسود، والمسيحيين وغير المسيحيين، سواء منهم في اليمين أو في اليسار، أو من الاتجاهات الأخرى التي لا حصر لها، لأن يكونوا أحراراً، من أجل تكوين عائلاتهم في جوّ من المحبة والأمل، واكتساب معيشتهم وتلقي مكافآت لقاء جهودهم، والتحرر من الركوع أمام أي رجل نتيجة الخوف، ومن أجل أن يكونوا أحراراً في اختيار ما يشاؤون، مادام ذلك لا يعيق حريات الآخرين. هذا هو ما نحارب لأجله. إنها معركة تستأهل أن نخوضها.

أعرف أن الأمر صعبٌ على أميركا، وأعرف أن في ناحية صغيرة أخرى من هذه البلاد المترامية الأطراف، وهناك في نيفادا أو إيداهو أو في الأماكن الأخرى التي

لم أزرها بعد، على الرغم من توقي دائماً إلى زيارتها، أعرف أن هناك رجلاً ما يمضي في حياته وهو يشعر بسعادة غامرة، ويتدبر أعماله لكنه يقول لكم أنتم القادة السياسيين لهذه البلاد: «لماذا أنا؟ ولماذا نحن؟ ولماذا أميركا؟»

أما الجواب الوحيد عن هذا السؤال فهو: «لأن أقداركم وضعتكم في هذا المكان من التاريخ، وفي هذه الفترة من الزمن، ولذلك فإن هذه هي مهمتكم كي تقوموا بها».

أما مهمتنا نحن، ومهمة أمتنا التي رافقتكم وأنتم تكبرون، وبعد أن قاتلتم إلى جانبنا، وها نحن الآن نقاتل إلى جانبكم، ونحن نفتخر كثيراً بتحالفنا معكم، ونشعر بإعجاب كبير إزاء رابطتنا المشتركة، إذ إن مهمتنا أن نكون معكم هناك، لذلك لن تكونوا لوحدكم. سنكون معكم في هذا الكفاح من أجل الحرية. فإذا كان روحنا على حق، وشجاعتنا حازمة، فإن العالم سوف يكون معنا.

كان الاستقبال حاراً. وقفوا وصفقوا طوال إلقائي للخطاب، أي إنهم صفقوا ما مقداره خمس وثلاثون مرة، لكني أعرف أنهم كانوا أسخياء مع من يتحدث أمامهم.

تحدث رجال الكونغرس وأعضاء مجلس الشيوخ معي عن هذا الخطاب غير مرة. قالوا لي إن أهم ما ميّز ذلك الخطاب هو امتلاكه الحجة، وعلى الرغم من أن الجمهوريين يحبون البنود التي تتحدث عن التشدد حيال الأمن، إلا أن بإمكان الديمقراطيين أن يتفقوا مع البرنامج الأوسع الذي تضمّنه الخطاب الذي تحدث عن تغيّر المناخ، والسلام في الشرق الأوسط، والعدالة الاجتماعية. أما المشكلة فكانت أن هذا الخطاب، وبطريقة ما، يمثّل ضعفي السياسي. وافق اليمين جزئياً عليه، وكذلك اليسار، لكن القليلين وافقوا عليه كلياً!

توجّهت مع شيري بعد إلقاء الخطاب لتناول العشاء مع جورج ولورا، اللذين كانا في منتهى السخاء والترحيب كعادتهما. أعتقد أنه تأثر بالحديث بصدق، وهكذا كانت الأمسية هادئةً وكنا في منتهى السرور. حقّقنا الفوز في تلك المرحلة، ورحل صدّام. اعتبر جورج أن النظام قد تغيّر بسهولة نسبية. أما من وجهة نظري أنا فإن الأمم المتحدة قد عادت إلى المعمعة، كما ظهر احتمال عودة المجتمع الدولي معاً مرة أخرى. كانت تلك آخر ليلة نفكّر فيها في العراق بسهولةٍ ويسر.

غادرنا في وقتٍ مبكر. عاد آلاستير إلى المملكة المتحدة، وكان من المفترض أن أسافر إلى اليابان وكوريا الجنوبية تحقيقاً لزيارة موعودة منذ وقتٍ طويل. توجهت بالسيارة برفقة شيري إلى قاعدة آندروز الجوية التي تقع خارج واشنطن. ستكون هذه رحلة طويلة. ارتدينا ملابس النوم التي تقدمها الخطوط الجوية البريطانية، واستسلمنا للنوم. أيقظني السير دافيد ماننغ في منتصف الليل. قال لي: «لدي أخبار سيئة جداً».

كان دافيد هادئاً، وواقعياً، ومستشاراً لامعاً، وهو شخص يتميّز بنزاهة عميقة، وولاءٍ عظيم، وجرأة لا يُستهان بها. كان الرجل سنداً قوياً لي طوال مشكلة العراق. كان من المفترض أن يغادر في وقتٍ قصير إلى واشنطن بصفته سفيراً. قال لي: «وُجد دافيد كيلي مقتولاً، وربما انتحر». كانت تلك لحظة فظيعة.

كانت تلك ستُعتبر مأساةً شخصيةً لو كنا نعيش في عالم عقلاني. يُمكن للمرء أن يفسّرها بالضغوط التي تعرّض لها، وهكذا سيُنظر إلى الحادثة على أنها حادثة منعزلة. أعرف أن ليس هناك أدنى فرصة لأن يحدث ذلك في عالم وسائل إعلامنا. ستُعامل هذه القضية على طريقة ووترغيت المميتة. أعلم كذلك أن هذه القضية ستثير نظريات المؤامرة من جديد، كما أنها سوف تسمح بظهور أنواع التلفيقات كافة في سياقها، وخلفيتها، وسردها. ستعلن وسائل الإعلام أنها فضيحة، وأنا أعلم أنها قادرة تماماً على تأكيد وجودها.

إنني أفكر في بعض الأحيان في قراري الذي اتخذته في تلك الساعات المبكرة، ومن خلال هاتف طائرة غير آمن، وأنا في حالةٍ من الإجهاد، وعلى متن طائرة فوق المحيط الهادئ، يقضي بفتح تحقيق مقتل الدكتور كيلي. تحدثت مع تشارلي فالكونر الذي حل محل ديري في منصب كبير القضاة في ويلز وإنكلترا. وافق تشارلي على تعيين قاضٍ شريطة أن يكون نزيهاً، وغير منحاز، وشخصاً لا يستطيع أن يتهمه أحد بأنه من حزب العمال الجديد، أو حتى أنه يعرفنا. سنفعل ذلك علناً، على الرغم من أنني لا أمتلك أيّ فكرة عن طبيعة هذه الخطوة والوقت الذي ستستغرقه. عاد تشارلي أخيراً مقترحاً اسم لورد هوتون، وهو قاضي إيرلندا الشمالية السابق، وخبير قانوني، وهو شخص يحظى بالصفات المطلوبة. يتحلى الرجل بنزاهة لا يمكن التشكيك فيها بحسب الاعتبارات كافة. لقد عُيّن في ذلك الوقت والمكان.

ربما كان يجدر بي التفكير أكثر في هذه القضية، ورفض الغرق في فظاعة الحادثة. أردت، بطبيعة الحال، الدفاع عن موقفي واسمي، لكن ذلك لم يكن الدافع الرئيس لدي. افتقر هذا الهجوم البديل على حكومتنا إلى حجج سياسية ضد حزب العمال الجديد، لذلك وصف حكومتنا أنها «متقلبة» و«خادعة»، ونعتني أنا «بالكذاب». كان ذلك الهجوم جزءاً مما آلت إليه حالة السياسة الحديثة: الهجوم الشخصي، وليس الجدال السياسي. أما في الظروف الطبيعية، وفي النقاشات الطبيعية التي تترافق مع أي قضية سياسية، فإن مثل هذه الجدالات القاسية لا تتعدى حدوداً معينة. لقد أطلق المحافظون عليّ في انتخابات العام ٢٠٠١ لقب Bliar [يقصدون بلير الكاذب] لأول مرة.

كان ذلك يتعلّق بقرار الذهاب إلى الحرب. أيمكننا أن نُظهر بعض الصلابة الحقيقية؟ ألسنا ملزمين التحقيق في الحادثة؟ ربما نعم، وربما لا. لكن شعوري في ذلك الوقت كان على النحو التالي: هذا يكفي. أريد أن يظهر كل شيء إلى العلن، وأريد أن نكون في منتهى الشفافية. أريد أن تظهر الحقيقة. إنني متأكد أن الناس سوف يتقبلون حكماً موضوعياً صادراً عن قاضٍ محترف. هل أنا متأكد؟ وبالتأكيد؟ ما زلت أعتقد، بعد التفكير في ذلك على نحوٍ متوازن، أن الأمر يستأهل. ربما مع الوقت سوف يُنظر إلى الحادثة كما هي، لكن آنئذ كان من الصعب رؤية الإيجابيات بعد ستة أشهر مثيرة.

لا أريد مناقشة كل نقطة من النقاط الواردة في الأدلة. كنت أنصح الآخرين بقراءة التقرير. لم يسبق لرئيس وزراء، وللمسؤولين الكبار كافة، أن قدّموا أدلة كهذه. لم يسبق أن حدث شيء كهذا بتاتاً، لكن كان من المقرر أن ينتهي التحقيق مع نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر. نشر اللورد هوتون التقرير في أواخر شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٤. عرض التقرير الملف وطريقة تجميعه، ودور آلاستير، والدور الذي لعبه كل قسم من أقسام وزارة الدفاع وداوننغ ستريت، وما قام به الدكتور كيلي، وذلك بالتفصيل. سأعرض الآن قسماً من الاستنتاج الذي توصل إليه التقرير:

قام فريق صغير من موظفي التقييم التابع لدائرة [JIC Just In Case] المعلومات التي قد تكون صحيحة] بإعداد الملف وصوغه. تولى السيد جون سكارليت، رئيس JIC، المسؤولية الكاملة عن صوغ الملف.

أما الزعم الذي ورد في شريط الخمس والأربعين دقيقة فقد استند إلى تقرير تسلمته دائرة المعلومات السرية SIS من مصدر تعتبره الدائرة موثوقاً به. وبناءً على ذلك، وسواء أتبيّن أن التقرير المزعوم كان موثوقاً به أم لا، فإن هذا الزعم [الاتهام] الذي أورده السيد جيليغان في ٢٩ أيار/مايو من العام ٢٠٠٣، باحتمال أن تكون الحكومة على علم مسبق به هو ادعاء خاطئ ومن دون أساس.

كان يفترض أن يقدم الملف إلى البرلمان، وأن يقرأه النواب والشعب، إذ إنه لم يكن تقييماً من قبل وكالة الاستخبارات لا يجدر أن تنظر فيه إلا الحكومة، لذلك لم أرَ أي مانع من أخذ السيد سكارليت، ودائرة JIC في الاعتبار أي اقتراحات [أوتعديلات] على النص الذي أعدته ١٠ داوننغ ستريت، وتبنّي تلك التعديلات إذا كانت متوافقة مع المعلومات الاستخبارية المتوافرة لدى JIC.

كانت إدارة بي. بي. سي مخطئةً بالنظر إلى فشلها في التحقيق في شكاوى الحكومة بالطريقة المناسبة، وهي الشكاوى التي أوحت أن التقرير الذي أذيع في الساعة ٦:٠٧ كان مغلوطاً عندما أورد أن الحكومة لربما كانت على علم بأن زعم الخمس والأربعين دقيقة كان خاطئاً حتى قبل أن تقرر إدخاله الملف.

لم يكن لدى الحكومة أي استراتيجية غير شريفة أو خفيّة، أو مضلّلة، أو سرية بغية تسريب اسم الدكتور كيلي إلى وسائل الإعلام.

عثر القاضي، بالفعل، على المعلومات كلها التي يمكنه أن يعثر عليها من أجل الدليل. لكنها كانت لحظة مؤثّرة بالنظر إلى الطريقة التي تعاملت معها وسائل الإعلام.

تعرض القاضي، بطبيعة الحال إلى أقسى أنواع الضغوط الشديدة من وسائل الإعلام. إلا أنه واجهها بالطريقة المناسبة، لكني قلقت في الأيام التي سبقت النشر، ليس بسبب الحقائق، بل بشأن ما إذا كان يشعر بأنه قادر بالفعل على الحكم على هذه الحقائق. كانت الصحافة تشجّعه حتى ذلك الحين، وكانت تقول عنه إنه رجل قُدَّ من صخر أولستر [شمال إيرلندا]، وإنه سوف يضع رجالات الحكومة المراوغين في أمكنتهم المناسبة، وإنه لا يخاف أن يسمّي الكذبة كما هي.

أبلغني ديري عندما كنت تلميذه بأن ثمة نوعين من القضاة: أولئك الذين يعرفون كيف يقررون، لكنهم يتركون ثغرات من دون تفسير، أي إنهم يتركونها للطرف الخاسر

كي يتمسك بها، وهي أشياء تعبّر عن تردد القاضي في اتخاذ حكم واضح؛ وأولئك الذين يصدرون أحكامهم مرّةً واحدةً ويقدّمون حكمهم تاماً، وصافياً، وصريحاً، وبعد سدّ المزاعم كلها وتفسير الشكوك كافة. كان اللورد هوتون من النوع الثاني.

كان الحكم الذي أصدره حكماً شاملاً، وعُرض على نحو شامل. ردّ مايكل هوارد على هذا الحكم في مجلس العموم، وحاول بحماقة الاستمرار وكأن القاضي لم يكتشف، كما فعل هو، غلطةً كبيرة شددتْ على كونه انتهازياً سبق له أن دعم الحرب، أما الآن وبعد أن أصبحت الحرب قاسية، أراد أن يستغلّ المشاعر المعادية للحرب.

أما بالنسبة إلينا فإن التقرير حمل لنا ارتياحاً كبيراً، لكننا ارتكبنا خطأً في غمرة ارتياحنا، وكانت غلطة كبيرة حملت معها نتائج خطيرة. أجريت محادثات خاصة مع غيفين دافيس خلال هذه الفترة، وأبقيت جميع الخطوط مفتوحة معه، كما حرصت على عدم الإضرار بعلاقتنا مع بي. بي. سي وهي المحطة التي تعتبر بوابة عبور الأخبار الرئيسة للبلاد.

وافقنا في سياق هذه النقاشات على أننا في حال العثور على خطأ، سوف نحاول إبقاء الوضع هادئاً عند الجانبين. جرت آخر هذه المحادثات قبل إعلان هوتون حكمه مباشرة. أكدت أمام غيفين أننا لن نضحّي بأي شخص إذا انتقد التقرير هيئة الإذاعة البريطانية.

أما اليوم الذي نُشر فيه التقرير، أي في ٢٨ كانون الثاني/يناير، فقد كان يوماً مليئاً بالنسبة إلينا. جلس فريق العمل المقرب إلي في قاعة مجلس الوزراء وسط جوّ من الرهبة والترقب. انتظرنا وصول النسخ التي جاءنا بها غودريك سميث، وهو الذي كان مساعد آلاستير. انضممت إليهم ورحنا نتفحص الاستنتاجات بنهم. ترددت في الأجواء أصوات الارتياح الجماعية عندما أدركنا أنه إلى جانبنا، وما لبثت أن سيطرت علينا الدهشة لأنه تحلى بالجرأة التي سمحت له بعدم التغطية على هيئة الإذاعة البريطانية، بل أقدم على وصفها كما هي في الواقع.

أردت بعد ذلك تحضير البيان الذي سأعرضه أمام مجلس العموم. كان ذلك بعد اليوم الذي تلا فوزنا بفارقٍ ضئيل في التصويت على أقساط التعليم. جاءت

المناسبتان في وقت واحد، لذلك كان كل ما أردته هو العودة إلى مقري كي أكتب بياني.

قال آلاستير إنه يريد أن يدلي بتصريح هو أيضاً. لقد كان غادر داوننغ ستريت في ذلك الوقت لكنه عاد كي يتسلم التقرير بصفته أحد أبطال المسرحية. كنا لا نزال قريبَين جداً أحدنا من الآخر. وافقت، ولكن مع بعض التردد. اعتقدت في الواقع أنه سوف يصرّ على ذلك، ولذلك سارع إلى كتابة بعض الكلمات. تضمّن البيان مقطعاً يقول إنه لو كان هو نفسه، أو أحد العاملين تحت إدارته مذنباً بأمرٍ كهذا – وجد القاضي أن الشريط الذي بثّته هيئة الإذاعة البريطانية ليس مغلوطاً فحسب، بل إن المسؤولين عنه عرفوا بأنه كذلك – لكانت تدحرجت الرؤوس. تحدثت عن الأمر علناً على الرغم من استيائه، كما أنه احتجّ بشدة. لم يتمكن من فهم السبب الذي دعاني إلى ذلك. سبق لي أن اتفقت مع غيفين على عدم إخبار أحد، غير آنجي، عن أحاديثنا، وهكذا لم يعلم آلاستير سبب إصراري الشديد على نشر ذلك المقطع.

لم أتمكن، من فرط لا مبالاتي وبعض الحماقة، من تفهّم الضغط الذي يتعرض له آلاستير. سبق لي أن قلت إنه شخصية عصبية جداً. يمكنكم أن تصدقوا، أو لا تصدقوا، بأنني لم أفهم هذا الجانب من شخصيته إلا عندما قرأت مذكّراته. لم أتمكن من إدراك أنه أمضى الأشهر التي تلت مغادرته لمنصبه وسط معاناة كبيرة بسبب الحكم. يعود ذلك إلى أن طبيعة وظيفته وما يرافقها من مشاغل لم تعد تصرفه عن التفكير بعد ترك منصبه. تحولت حياته إلى مجرد انتظار، لكنه في هذا الوقت بقي يتعرض لهجمات الشارع واتهاماته بأنه هو الذي تسبب بمقتل الدكتور كيلي، وبقي يتلقى في منزله الرسائل الغاضبة والمليئة بالكراهية، وعادة ما كانت تحتوي هذه الرسائل على نقط دماء. تحولت هذه الفترة عنده إلى لحظة تنفيس عاطفي هائلة. لكن أخيراً انفجر كل ذلك الغضب المتجمّع في أعماقه. لم يكن يفكر لأنه كان يهاجم.

أما عندما حان الوقت كي يدلي بتصريحه، وهو ما فعله بشيء من الانفعال، فلاحظت أنه كان يستوحي الحزن الذي تسببت به القضية برمّتها. لمس آخرون في تصريحه هذا الحقد على وسائل الإعلام التي بدأ يشعر بالكراهية تجاهها، كما أنه أعاد تثبيت تعبير دحرجة الرؤوس، وإن بكلمات أكثر اعتدالاً.

كان بإمكاني، حتى في ذلك الوقت، أن أنقذ الموقف، لكنني لم أركّز بما فيه الكفاية على هيئة الإذاعة البريطانية بسبب التحضير للبيان الذي كنت سألقيه أمام مجلس العموم، والذي سأبرئ فيه ساحتي مع مهاجمة مايكل هوارد بالنظر إلى انتهازيته. اعتقدت، على أي حال أن غيفين سوف يتصل بي قبل أن يفعل أي شيء. ألقيت بياني، وسارت الأمور على ما يرام. توجّهت بعد ذلك لزيارة إحدى الكليات. لم أكن متأكداً بعد ذلك من الخطوات التي اعتزمت هيئة الإذاعة البريطانية أخذها. كان يجدر بي، على أي حال، أن أقول إنني لا أريد أن يُقال أحدٌ من منصبه بسبب هذه القضية. لكني ركزت، بدلاً من ذلك، على القول إن كل ما أردته هو سحب تلك الرواية [الخبر] المغلوطة التي أثّرت في سمعتي.

كانت تلك غلطة. أعتقد أن غيفين قد افترض أنني ألغيت اتفاقي معه بسبب قساوة الحكم الذي صدر. قدّم غيفين وغريغ استقالتهما، لكني لم أُرِد حصول ذلك في الواقع. كان غريغ شخصاً لا يناسب هيئة الإذاعة البريطانية أبداً بسبب ما هو عليه، لكن غيفين كان رجلاً محترماً وشريفاً لذلك شعرت بأنني خذلته.

ساعدتُ كذلك على إثارة وسائل الإعلام ودفعها إلى المواجهة. إذ بقيت مذهولةً لمدة اثنتي عشرة ساعة. قررت مجموعة مايل وهيئة الإذاعة البريطانية المتحالفتان مجدداً جمع قواهما ضدنا، وكان ذلك أحد أسوأ مظاهر تلك القضية. نشرت صحيفة دايلي مايلي في اليوم التالي عنواناً صارخاً «التمويه». سارعت بعض الصحف الأخرى إلى أن تحذو حذوها. فجأة تحوّل ذلك الرجل الذي قُدَّ من صخر أولستر إلى تابع من أتباع داوننغ ستريت، كما تحولت هيئة الإذاعة البريطانية إلى ضحية أبشع مؤامرة وتمويه، وفوق ذلك كله ألم يعلم الجميع أننا من الكذابين؟ كان ذلك هو الموضوع الرئيس في الصحف لأيام عديدة، كما ترافق بعد ذلك مع استطلاعات رأي تُظهر أن الناس اعتقدوا حقاً أننا قمنا بالتمويه. تحوّلت هذه الطريقة التي كان يُفترض فيها إخماد الغليان الناتج عن عدم الثقة إلى وسيلة لتعزيز الشكوك وجعلها سامةً أخرى.

تكاثرت الاتهامات بأننا حكومة متقلّبة، ولكن كنت أطلب آنئذ إلى الآخرين إعطاء أمثلة. كان الملف أبرزها على الدوام. لكني أريد أن أشير هنا إلى أن لجنة تحقيق أخرى (واحدة من أصل أربع) استغرق عملها ستة أشهر قد توصّلت إلى نتيجة

معاكسة. أجل، لكن بقي «التمويه» على حاله كما نعلم جميعاً. كانت المشكلة الأساسية هي أن طريق معالجة النقاش السياسي لا تخضع للخلاف العقلاني الذي ينشأ بين أشخاص عقلانيين. تصدر شريط جيليغان الأخبار لأنه تضمّن اتهاماً بإساءة التصرف، وكذبةً في حقيقة الأمر. ظنّ الرجل أن لديه مصدراً لهذه المعلومة، لكن اتهاماً بهذه الخطورة يجب أن يقدّم سلفاً إلى الناس المعنيين به، وهو أمر منطقي. لم يتصل بنا أحد قبل إذاعة الشريط. لا أعتقد، على أي حال، أن مجرد غلطة يمكنها أن تتصدر الأخبار.

لكني أقول إنها يجب أن تتصدر الأخبار في الواقع. كانت المعلومات الاستخبارية مغلوطة، لذلك كان يجدر بنا أن نعتذر عنها. إن الخبر الصادق هو خبر، وخبرٌ صادق. لكن في عالم هذه الأيام لم تمتلك هذه القصة لمسة الفضيحة وعامل الإثارة، وهكذا تحولت الغلطة إلى خداع. إن هذه العلاقة التي تربط بين السياسة ووسائل الإعلام هي التي تحدّد النقاش السياسي. تشعر المعارضة بأنها تريد الانضمام إلى الجدال، وإلا فسوف تبدو وكأنها ضحية. وبدلاً من أن يكون الجدال بين وجهة نظرٍ في البلاد ووجهة نظر أخرى، فقد تحوّل إلى معركة لتقرير من هو «أكثر صدقاً» ومن هو «أقل خداعاً» من الآخر، أي إنه أصبح لعبة مناورة سياسية في معظم الأوقات.

لكن تحدثنا عن هذا الموضوع ما يكفي، لأن الأكثر خطورة كان الحالة المتدهورة داخل العراق ذاته. يتعيّن إجراء دراسة مناسبة للفترة التي أعقبت العمليات العسكرية، وهي مهمة في ذاتها لكنها تحمل أهمية أكبر للمستقبل. أما الواقع فهو أن إمكانية اعتبار انشغال الجنود البريطانيين بالقتال دفاعاً عن الأرض البريطانية أصبحت احتمالاً بعيداً. أما المهمة الأكثر احتمالاً فهي انشغال الآخرين، ولاسيما الأميركيون في بلاد بعيدة واقعة ضحية التطرف. إن كيفية معالجتنا لوضع كهذا تحتاج إلى تحليل دقيق. أما المسألة التي لم تلقَ حلاً بعد، لكنها تحتاج إلى حلّ سريع فهي: إلى أي مدى كانت التحديات التي واجهناها، ونواجهها، في العراق أو أفغانستان قابلة للتجنّب من قِبلنا، وإلى أي مدى كانت هذه التحديات حتميةً بالنظر إلى جسامة المهمة؟

أريد أن أوضح هذه النقطة بتفصيل أكبر. لم يكن ما حدث في العراق بعد شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٣ خَطِراً نسبياً في البداية. حدثت أعمال نهب وبعض أعمال

العنف، ووقعت بعض الهجمات على قوات التحالف، لكنها كلها كانت من النوع المقبول. سبق لي أن تحدثت عن كيفية إعادة الأمم المتحدة إلى الصورة. تمكنا في مطلع شهر تموز/يوليو، وبمساعدة من الأمم المتحدة من جمع مجلس الحكم العراقي. كانت تلك لحظة حاسمة. ضمّ المجلس خمسة وعشرين عضواً: ثلاثة عشر عضواً من الشيعة، وأحد عشر من السنّة، ومسيحياً واحداً. جاء ذلك المجلس نتيجة عملية مشاورات، وكان الخطوة الأولى نحو استعادة سيادة العراق. قال سيرجيو دي ميلو عن هذه الخطوة: إن العراق «يتحرك عائداً إلى المكان الذي يناسبه: «السلام مع ذاته والمشاركة الكاملة مع المجتمع الدولي».

استمرت في أمكنة أخرى العمليات العسكرية التي تهدف إلى القضاء على أي عناصر صدّامية باقية، وهكذا كانت الأمور تتجه إلى حالة جديدة من إعادة بناء البلاد. عادت المدارس لفتح أبوابها مجدداً، وعادت المستشفيات إلى العمل، كما عاد رجال الشرطة إلى مزاولة أعمالهم. أما في البصرة فتمكن ١٧,٠٠٠ طالب من تقديم امتحاناتهم في الجامعات بشكل طبيعي، وذلك مع نهاية شهر حزيران/يونيو.

لا يعني ذلك كله عدم وجود أعمال عنف في الجنوب. وقع حادث مأسوي في محافظة ميسان يوم ٢٤ من حزيران/يونيو. ذهب ستة من رجال الشرطة الملكية ضحية ذلك الحادث الذي وقع في مدينة المرج الكبير التي تقع إلى الجنوب من مدينة العمارة. كانت تلك هجمات معزولة، لكن الناس تمكنوا حتى في مطلع العام ٢٠٠٤ من قيادة سياراتهم في المناطق المحيطة بالبصرة. أبدى السير هيلاري ساينوت، ممثل المملكة المتحدة هناك، ارتياحاً نسبياً عندما جاء لوداعي في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٤ بسبب انتهاء مهامه.

قال جاك سترو في تصريحه أمام مجلس العموم في ١٥ تموز/يوليو: إننا مستعدون للرحيل ما إن ينهض العراق على قدميه.

تلقينا وعوداً سخية لتقديم الدعم المالي من أنحاء العالم كافة. تأسّس صندوق النفط، كما أن إدارة المساعدات الإنسانية وإعادة الإعمار بدأت أعمالها التي تكاثرت بسرعة كبيرة. عادت زحمة السيارات مجدداً إلى شوارع بغداد. أما الموصل وكركوك فكانتا هادئتين عموماً، كما شعرت المناطق الكردية بالتحرر.

أما النقطة المهمة هنا فكانت كما يلي: أردنا نحن وغالبية العراقيين الأمر ذاته: رحيل صدّام، ومساعدة البلاد على النهوض، ثم مغادرة البلاد بعد ذلك، ويُضاف إلى ذلك حكومة جديدة تمثّل الشعب. يبدو أن تجميد الصورة، للحظة، عند تموز/يوليو من العام ٢٠٠٣ هو أمر هام جداً لفهم ما حدث في تلك الفترة. أعرف أن الثمانية آلاف من العراقيين الذين قُتلوا هي رقم كبير جداً، لكنه رقم صغير بالمقارنة بأعداد العراقيين الذين كانوا يُقتلون عاماً بعد عام على يد صدّام. أما خسائرنا فكانت أكبر مما توقعناه بكثير، لكنها كانت أقلّ مما كان يُمكن أن ينزل بنا. لكننا نجد في المقابل أن دولةً كانت على خصام مع المجتمع الدولي، وشنّت حربين كبيرتين، تمد يديها الآن كدولة صديقة، وليستْ عدوة.

إن الفكرة القائلة إن ما حدث كان نتيجة حتمية لإزاحة صدّام عن السلطة هي فكرة خاطئة. لم تحدث قط ثورة للدفاع عن صدّام، ولم تحدث موجة من الغضب نتيجة الاجتياح، لكن كل ما رأيناه، في البداية كان، هو الارتياح والأمل.

أعرف، بالتأكيد، أن إدارة المساعدات الإنسانية وإعادة الإعمار كان بإمكانها القيام بعملٍ أفضل على صعيد خطط إعادة الإعمار، لكن ذلك لم يكن هو المشكلة. كان لدينا ما يكفي من المال، والجهود، والناس، من أجل إعادة إعمار العراق في غضون سنة واحدة من انتهاء الصراع.

أما ما حدث فكان تدهور الأوضاع الأمنية. حدث ذلك جزئياً نتيجة عمل عناصر عراقية من تلقاء نفسها، ومن ضمن مجموعات قبلية، ودينية، حتى إجرامية، وذلك بعد أن قررت إجهاض الديمقراطية الوليدة، لمحاولة إعادة الإمساك بالسلطة. لكن العامل الحاسم، والبعد الإضافي الذي أدى إلى تحويل وضع صعب إلى ما يقارب الفوضى فقد كان ارتباط هذه العناصر الداخلية المنشقة مع تَنظيم القاعدة من جهة ومع إيران من الجهة الثانية.

اكتشف الإرهابيون أمرين في هذا السياق: إذا تمكنوا من إرهاب العراقيين العاديين، وعلى الخصوص من خلال الهجمات الانتحارية فاللوم سوف يقع على التحالف وعلى الحكومة العراقية، وليس على الإرهابيين. أما بالنسبة إلى قوات التحالف فإن عتبة الألم عند الدول المتحالفة بالنسبة إلى خسارة الجنود هي عتبة

منخفضة جداً جداً، وهكذا إذا تمكن الإرهابيون من اجتيازها فإن معنويات التحالف سوف تنهار. لا أعني معنويات الجنود أنفسهم ولكن معنويات الناس في بلاد دول التحالف. يعني ذلك بكلماتٍ أخرى أن الإرهابيين إذا تمكنوا من التسبب بالفوضى فإن الخوف والأوضاع الأمنية سيعطيان إشارة إلى فشل الحملة، وسيعني ذلك أن التجربة الديمقراطية كانت مضللة، وأن العودة إلى الطرق القديمة هي المسار المفتوح الوحيد أمام العراق.

جاءت ردة الفعل على صورة الإحباط والخيبة من الحملة العسكرية، وذلك بدلاً من أن ينصبّ الغضب على أعمال الإرهاب الشريرة. يُمكن للناس أن يدركوا على مستوى معيّن أننا يجب أن نحارب الإرهابيين. لكن على مستوى آخر كانت سيارة مفخّخة تنفجر إثر سيارة، وكان الجنود يموتون ليس في ميدان المعركة بل ضحية الهجمات بالقنابل والألغام يدوية الصنع. حلّت وقائع المجازر محل التحليل المنطقي الذي يفسّر سبب وجودنا هناك، ومدى أهمية ذلك الوجود. محت إراقة الدماء الأمل وأحلّت اليأس مكانه.

أعتقد أن غياب تحالفٍ أوسع، والانقسامات التي حدثت في المجتمع الدولي، قد لعبا دورهما في هذا المجال. لكن بعد أن شاهدنا حدوث الأمر ذاته في أفغانستان فلم أعد متأكداً أن هذا الأمر صحيح تماماً.

أتت اللحظة الحاسمة في ١٩ آب/أغسطس في بغداد. انفجرت شاحنة محمّلة بالقنابل في مركز الأمم المتحدة فقتلت ما يزيد على عشرين فرداً من موظفي الأمم المتحدة بمن فيهم سيرجيو للأسف الشديد. كان يوماً مأسوياً لا يُنسى. سمعت هذه الأخبار عندما كنت في إجازة. تحدثت مع كوفي الذي كان مصدوماً. كتبت رسالةً بعد ذلك إلى زوجة سيرجيو. شعرت عندئذ، وما زلت أشعر، بإحساسٍ عميق من المسؤولية الشخصية لأنني حرصت على تعيينه، وضغطت على كوفي فيّ هذا الشأن.

لم أقدّر مدى ضخامة ذلك الهجوم في ذلك الوقت. كان هجوماً شريراً تماماً. كان الضحايا من المدنيين الذين لا حول لهم ولا طول، وممن وجدوا هناك من أجل مساعدة العراق، وكانوا هناك متمتعين بالدعم الكامل للمجتمع الدولي، وفي الواقع كانوا هم المجتمع الدولي. لكنها كانت لحظة حاسمة لأسبابٍ أخرى أيضاً.

كانت تلك هي النقطة التي يجب أن ندرك عندها أن ذلك النزاع قد تحوّل إلى شيء مختلف. كان من المحتمل جداً أن يكون هذا العمل من تخطيط تنظيم القاعدة الذي يرأسه في العراق الزرقاوي، وهو مواطن أردني دخل العراق قبل وقتٍ قصيرٍ من الاجتياح. كانت تلك هي اللحظة المناسبة لنا لحشد الدعم الدولي والقول: «سنثبت في موقفنا، ولن نسمح بطرد الأمم المتحدة من العراق. إننا نواجه الصراع ذاته ضدّ العدو ذاته في كل مكان، وبغضّ النظر عن كيفية بدئه، ولهذا نحن نقف معاً».

عمدت الأمم المتحدة، بدلاً من ذلك، إلى سحب موظفيها على الفور، ولم يعودوا بأعدادٍ كبيرة إلا بعد سنوات. نجح الأمر بالنسبة إلى تنظيم القاعدة لأنه تمكن من تغييب وجود الأمم المتحدة. زرع التنظيم الخوف في قلوب الناس بدلاً من غرس إرادة المواجهة. كانت تلك المجزرة مثالاً على فشلنا في حماية الناس أكثر مما دلّت على ميلهم إلى قتل الأبرياء.

حدث في تلك الفترة، أي في النصف الأول من العام ٢٠٠٤ ثلاثون هجوماً انتحارياً فقط، أما التقدم السياسي فقد استمرّ. ارتفع عدد الهجمات الانتحارية في النصف الأول من العام ٢٠٠٥ إلى مئتين. أعلن المتمردون السنّة في منتصف العام ٢٠٠٥ ارتباطهم بالقاعدة، أما الميليشيا المدعومة من إيران فقد بدأت عملها بإثارة أجواء عدم الاستقرار في الجنوب. بدأت بعد ذلك الهجمات الطائفية على السنّة. كان معظم الذين قُتلوا من العراقيين بطبيعة الحال، لكن إسبانيا وإيطاليا كابدتا خسارة الجنود والمدنيين، وما لبثت النداءات المطالبة بسحب قواتهما أن تصاعدت على الفور من الرأي العام في هذين البلدين إلى أن تحقّقت هذه المطالب. أما الهولنديون، والدنماركيون، واليابانيون، وجنود عدة دولٍ أخرى فقد كانوا في عداد الضحايا كذلك، مثلما كان بعض الدبلوماسيين والصحافيين.

انتقمت القوات الأميركية، وبالطبع احتُجز أشخاص كثيرون، بعضهم عن حق وبعضهم الآخر من دون سبب. تسربت في شهر نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٤ صور من داخل سجن أبو غريب تُظهر الجنود الأميركيين وهم يعذبون السجناء العراقيين. كانت تلك حوادث معزولة من دون شك، ولذلك فقد مثُل المسؤولون عنها للمحاكمة، لكنّ الضررَ الحاصل كان هائلاً. أما بالنسبة إلى الذين عارضوا التحرك العسكري منذ البداية فكانت تلك الصور بمثابة فرصة من السماء من أجل تشويه سمعة الولايات

المتحدة، بينما استخدمت محطة الجزيرة وغيرها تلك الصور كمثالٍ على موقف أميركا تجاه المسلمين.

وجّهت اتهامات مماثلة للجنود البريطانيين. أما أنا فقد فعلت ما بوسعي للدفاع عن الجنود وحمايتهم، لكن الأمر كان صعباً، وهكذا شعر رجال القانون بأنهم تحت ضغطٍ كبير لمحاكمتهم. كان ذلك وقتاً عصيباً. إن إساءة معاملة السجناء هي عمل غير مبرّر بالمرة بطبيعة الحال، وهي تستدعي المعاقبة، لكن كان من المسيئ جداً أن تحجب هذا الأفعال المعزولة من إساءة السلوك العمل الرائع الذي كان يقوم به معظم الجنود من أجل مساعدة العراق وشعبه.

استُخدمت هذه الصور، على أي حال، من أجل إذكاء المشاعر المعادية للغرب في مواقع الجهاديين الإلكترونية، حتى في وسائل الإعلام العادية. لا أعتقد أنني رأيت احتجاجاً واحداً خارج العراق ضد الهجمات الإرهابية، أو بخصوص أن أعمال التمرد تستهدف منع الشعب العراقي من تقرير شكل حكومته.

أما هدف الهجمات فكان: أنتم نفذتم الاجتياح، وذلك كان خياركم. إنها الفوضى التي تسببتم بها، لذلك اذهبوا ورتّبوها. كان الأمر مفهوماً جداً، ويمكن أن يشعر المرء بأنه مبرر. لكن هذه الحجة تُغفل بُعداً مهماً: تسببت القوى الخارجية، مثل القاعدة والمتطرفين الإسلاميين، بحدوث هذه الفوضى في العراق، وهي القوى ذاتها التي نقاتلها في كل مكان. إن مقاتلة هؤلاء في العراق لا تعد، لهذا السبب، انحرافاً عن المعركة الحقيقية، بل أصبحت جزءاً منها.

هذه هي الفكرة التي فشلنا في إيصالها. أدركت في وقت مبكر أن علينا توسيع حملتنا وربطها بالصراع الشامل. أعتقد أيضاً أن جمع القوة الناعمة مع القوة الخشنة هو أمر هام جداً، وهذا ما يجعل من دفع عملية السلام في الشرق الأوسط، ومدّ اليد نحو الإسلام المعتدل والحديث، أمراً في منتهى الأهمية.

قال قائد تنظيم القاعدة في العراق إن عدد الهجمات الانتحارية التي نُفّذت بنجاح في الفترة ما بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦ يقدّر بالآلاف. أريد أن أشدّد على نقطة بسيطة جداً: إذا حذفنا تلك الهجمات من المعادلة فإن المهمة الأمنية ستكون مختلفة جداً، أي إنها ستكون صعبة لكنها مقبولة.

تطورت العملية السياسية في العراق مع تشكيل حكومة عراقية مستقلة في شهر حزيران/يونيو ٢٠٠٤ برئاسة إياد علاوي، وهو رجل مقتدر جداً، وسياسي غير طائفي. أدركت القاعدة أن حملة التفجيرات التي تستهدف المدنيين لم تعد كافية. تألفت حكومة جديدة بعد إجراء أول انتخابات عراقية صحيحة، لكن القاعدة حاولت على الفور إفشالها. خرج معظم العراقيين للمشاركة في التصويت على الرغم من محاولات القاعدة إفشال هذه الانتخابات، وأدلوا بأصواتهم، فأظهروا للعالم أنهم يريدون الاستقرار لبلدهم. بدأ ثقل هذه الغالبية بالظهور شيئاً فشيئاً.

أراد تنظيم القاعدة تعميق الصراع، فأقدم في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٦ على تفجير مسجد سامراء، وهو أقدس مزار شيعي في العراق. أظهر هذا التفجير أن تنظيم القاعدة يرغب في إثارة العنف الطائفي. تحلّى كبار رجال الدين الشيعة بما يكفي من الشجاعة للدعوة إلى الهدوء وإن بصعوبة. لكن النتيجة لم تتأخر بالظهور: تشكّلت ميليشيا من الشيعة داخل القوى الرسمية وخارجها، وما لبثت أن نفذت أعمالاً انتقامية وحشية ضد السنّة. كان ذلك هو ما يريده تنظيم القاعدة بالتحديد. كان بعض الانتحاريين من العراقيين، لكن عدداً آخر كان من خارج العراق من الذين تسللوا عبر الحدود. كان بعض الذين نفذوا هذه الهجمات من النساء، حتى أن إحداهن كانت حاملاً.

بقي الجنوب هادئاً نسبياً حتى مطلع العام ٢٠٠٤. وقعت عدة حوادث متفرقة، لكن أعمال التخريب التي استهدفت البنى التحتية كانت مشكلةً متزايدة، لكنّ الوضع كان تحت السيطرة بطريقة أو بأخرى. قاد مقتدى الصدر، وهو رجل دينٍ شيعي متطرف له روابط قوية مع إيران، المعارضة الشيعية ضد «الاحتلال» البريطاني، وكان يحشد الدعم لهذه المعارضة. بدأ الرجل بإثارة أعمال العنف علناً.

زرت البصرة في كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٤، كما زرت كلية الشرطة الجديدة التي أسّسناها في منطقة الزبير. كانت منشأة جيدة البناء، وكنا واثقين في تلك المرحلة بولاء رجال الشرطة الذين ندرّبهم. بقيت البصرة تسير نحو التحسن، لكن مع انقضاء العام ٢٠٠٤ اتضح وجود بعض القوات الشيعية داخل العراق، والأهمّ من ذلك داخل إيران، وهي القوات التي بدأت تقلق وتغضب من التقدم السياسي الذي يسجله الجنوب. وعلى الرغم من مشاركة تنظيم القاعدة والعناصر البعثية في

التمرد، فإن الواقع كان يشير إلى أن العراق آخذٌ في التقدم. جرت انتخابات برلمانية وإقليمية في ذلك الوقت، على الرغم من صعوبة ممارسة الناس لحقّهم الديمقراطي، لكنهم مارسوا هذه الحقوق بأعدادٍ كبيرة. كانت الانتخابات تجري في ذلك الوقت على أساسٍ ديني وقبلي متوقع وغير مفاجئ، لكن ظهرت علامات تدل على تداخل بين هذه الخطوط، كما ظهر ميل متزايد للتصويت لمصلحة أشخاص يعتقدون أنهم سيقومون بالمهمة خير قيام. بدأت أموال النفط في هذا الوقت بالتدفق، وذلك على الرغم من الهجمات الإرهابية على المنشآت النفطية. كان ذلك إنجازاً على العموم، وذلك بالنظر إلى الفساد الشامل الذي رافق الحياة السياسية في البلاد على مدى ثلاثة عقود، وكذلك غياب الديمقراطية الحقيقية في المنطقة برمّتها.

لكن الانتخابات كانت، بطبيعة الحال، تهديداً كبيراً وخطراً بالنسبة إلى سائر العناصر التي تعارض فكرة وجود عراق حرّ وديمقراطي. أقول، للمفارقة، إن لتلك العناصر تحليلاً واضحاً وقوياً للأمور المعرّضة للخطر. إذا كان العراق سيستقرّ على أساس أنه بلد ديمقراطي على نحو مقبول، فإن إيران لن تصمد طويلاً في حالتها الحاضرة. سيزداد الازدهار في العراق، وهو يزداد في واقع الأمر، كما ستتوضح العلاقة بين مستويات المعيشة وأنظمة الحكم.في حين أن النفوذ الإيراني مع وجود غالبية شيعية في الحكومة سيتزايد بسهولةٍ أكبر. كان صدّام عقبةً أمام ذلك النفوذ في واقع الأمر. لكنّ العراقيين الشيعة، وعلى الرغم من ذلك النفوذ سيعتبرون أنفسهم، بمرور الوقت، كما توقعت دائماً، عراقيين. خسر الصدر قدراً كبيراً من الدعم بسرعة عندما غادر البلاد، وما لبثت الميليشيا التابعة له، والمدعومة من إيران، أن تفرقت في العام ٢٠٠٧ تحت تهديد القوة.

بدأت الاضطرابات تظهر في البصرة تدريجاً في البداية في العام ٢٠٠٤. أما المتفجرات يدوية الصنع فقد استُخدمت ضد القوات البريطانية في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٤، ووقعت أول إصابة مميتة نتيجة هذه المتفجرات في حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٤. وقد تحولت هذه المتفجرات المميتة إلى السلاح المفضّل عند عناصر الميليشيات الأشرار الذين يهاجمون القوات البريطانية. عمدت الميليشيات إلى زيادة كمية المتفجرات مع زيادة تدريع عرباتنا. تبيّن لنا أن هذه الأجهزة كلما زادت تعقيداً دلّ ذلك على أنها مصنوعة في إيران.

وقفت إيران، بكل تأكيد، وراء تدريب الميليشيات وتسليحها، وهي التي زاد تصميمها بمرور الزمن على السيطرة على الجنوب، وعلى البصرة تحديداً، لكن عدداً كبيراً من الميليشيات كان فاسداً وإجرامياً.

كتبت المؤرخة العسكرية الأميركية كيمبرلي كاغان في كتابها The Surge كيف أن القاعدة وإيران بدأتا مع الزمن بالعمل معاً من أجل تفكيك البُنى الديمقراطية في العراق. قالت المؤرخة إن إيران قامت في منتصف العام ٢٠٠٧ بدعم عناصر من القاعدة وتمويلها. حاول الأميركيون في عدة مناسبات تمتد ما بين نيسان وتموز من العام ٢٠٠٧، التحدث مع إيران من أجل التوصل إلى تسوية. تحدث الإيرانيون بمودة، لكن أفعالهم لم تتغيّر.

شهدت تلك السنة وقوع أكبر عدد من الضحايا بين القوات البريطانية، ووقعت معظم الإصابات بسبب تلك المتفجرات يدوية الصنع. كان الجنود البريطانيون يقاتلون أفراد الميليشيات ويردّون على الهجمات بقوة في كل مرة يتعرضون فيها للهجوم. تركّزت الهجمات أكثر فأكثر على البصرة تزامناً مع تسليمنا أجزاء من الجنوب إلى سيطرة العراقيين الكاملة. بقي الجنود في حالة تعبئة احتياطية في محافظات أخرى مثل ميسان، لكن جهودهم تركّزت أساساً على معالجة التحديات السياسية والعسكرية المعقّدة في المدينة ذاتها.

أما في أواخر العام ٢٠٠٦ فقد خيّم على كبار قادة الجيش إحساس بأننا فعلنا كل ما بوسعنا القيام به في البصرة. سبق لنا أن توصّلنا إلى ترتيبات أمنية مع الحاكم والميليشيا في تلك المدينة، التي تحسنت فيها الأحوال المعيشية للناس كثيراً، لكن الحالة الأمنية لم تتحسّن. كان السؤال الملحّ هو: هل نحن عامل استفزاز أم عامل دعم في البلاد؟ تجمّعت عندنا آراء متزايدة تميل إلى القول إننا عامل استفزاز.

أعترف بأنني كنت متشكّكاً على الدوام في ذلك. مالت معظم الآراء إلى القول إن البصرة يجب أن تُحكم بهذه الطريقة لأن هذه هي طبيعتها، إلا أنني كنت متشكّكاً بعمق في المفهوم القائل إن العراقيين أو، أي شخص آخر في واقع الأمر، يفضّلون العيش بهذه الطريقة، لكني كنت أفهم سبب شعور الناس هذا. بقي الموظّفون

البريطانيون المدنيون في البصرة عاجزين عن فعل الكثير، وذلك لأن مراكزهم ظلّت مقفلةً بسبب الخوف من القنابل وأعمال العنف.

زرت سانت آندروز في إيرلندا الشمالية في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٦، وذلك من أجل التفاوض مع إيان بايسلي والشين فين. أجرى رئيس الأركان العامة Chief of General Staff مقابلة مع صحيفة دايلي مايل، وذلك كي يشدّد على القول إننا وصلنا إلى النهاية في العراق، وإننا نخاطر كثيراً بأمن جنودنا هناك، وإن علينا نقل اهتمامنا إلى أفغانستان حيث نمتلك، عملياً، فرصاً أفضل. يمكنكم أن تتصوّروا أنني لم أكن مسروراً جداً، كما أنني لم أشعر بتحسّن عندما أخبرني مارتن ماك غينيس وجيري آدامز بأن الجيش الجمهوري الإيرلندي ما كان ليسمح لأحد جنرالاته بالتصرّف هكذا.

زرت البصرةَ مجدّداً في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٦، وبطبيعة الحال لاحظت المعنويات العالية التي يتمتع بها الجنود على الدوام، كما لاحظت تصميمهم على إلحاق الهزيمة بالعدو. بدا لي أن اللواء ريتشارد شريف يتمتع بقوة شخصية كبيرة. أبلغني الجنود عن عملية كانوا على وشك القيام بها ضد وحدة شرطة خارجة على القانون، وهو خبرٌ أفرحني كثيراً. نفّذ الجنود العملية في يوم عيد الميلاد، وألقوا القبض على وحدة الشرطة وفكّكوها.

عرضنا بعد ذلك شنّ هجوم كبير يهدف إلى استعادة البصرة من الميليشيات. كنا نفقد الجنود، لكن جزءاً منّ السبب كان في معرفة الميليشيات التي تسيطر على البصرة أنها طوال وجودنا هنا فستكون في خطر. تركّزت الهجمات على القوات البريطانية وليس على المدنيين، أي بعكس ما كان يحدث في وسط البلاد.

أرادت الحكومة العراقية الجديدة التي تشكلت برئاسة المالكي، ولأسباب فهمتها جيداً، أن لا تنفذ قوات التحالف العملية، بل أن تكون بقيادة العراقيين. بذل البريطانيون جهوداً كبيرة في تدريب الفرقة العاشرة بحيث تكون قادرةً على شنّ عملية كهذه في المستقبل القريب، وإن كان مع دعمٍ من قوات التحالف.

شنّت القوات العراقية والأميركية، بدعم من القوات البريطانية، أكبر عملية أمنية في البصرة وأكثرها نجاحاً منذ العام ٢٠٠٣، وهي العملية التي أطلق عليها العراقيون

تسمية «هجوم الفرسان». تمكّنت العملية من إخراج الميليشيات الإجرامية، المدعومة من إيران، من المدينة بشكلٍ فعال. كانت تلك لحظة في منتهى الأهمية، لكني شعرت بأننا لو وثقنا بمهمتنا أكثرً ولم نيأس منها بسهولة، أي مثلما أظهر الجنود الذين قاتلوا على الأرض، لكنا شاركنا بنصيب أكبر في المعركة النهائية. ترك دورنا المحدود نسبياً الذي لعبناه في إخلاء البصرة من العناصر المتمردة في العام ٢٠٠٨ أثراً سيئاً في قواتنا.

أما الحقيقة، بعد أن قيل كل شيء وفرغنا من عمل كل شيء، فهي أن القوات البريطانية كانت بطلة، إذ إنها لعبت دوراً حيوياً لا بديل منه في تأمين استقرار الجنوب، والبقاء فيه، إلى أن أصبحت القوات العراقية في موقعٍ يسمح لها بشنّ عملية مثل عملية «هجوم الفرسان».

يتعيّن أن نشير هنا إلى أن القوات البريطانية والأميركية الموجودة في العراق عملت بدءاً من شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٣، بمساندة كاملة ولا جدال فيها من الأمم المتحدة. لم يشكّل ذلك أي فرقٍ بالنسبة إلى الذين يهاجمون هذه القوات. لكن كان الأجدر أن يشكّل فرقاً بالنسبة إلى أولئك الذين ينتقدون وجودها من الخارج. إن الأعمال التي قام بها الجيش البريطاني في العام ٢٠٠٧ كانت حيويةً جداً في تمهيد الطريق أمام عملية تحرير المدينة التي جرت في العام ٢٠٠٨.

أما في بقية أنحاء العراق فكانت الأمور أكثر دموية. ساءت الحالة الأمنية أكثر مع تزايد العمليات الانتحارية، وهذا ما جعل من المستحيل على المدنيين تقديم المساعدة للعراق. اضطرّ المدنيون العاملون إلى تعيين حراسٍ شخصيين لهم كلما خرجوا، لأنهم أصبحوا أهدافاً بدورهم. بدأت العناصر المجرمة بخطف أشخاص والمطالبة بفدية. أما المتعصبون الدينيون فقد بدأوا بملاحقة أي شخصٍ يختلف معهم، وهكذا استُفرد المسيحيون وتعرضوا للترهيب.

كان أداء الجيش الأميركي رائعاً جداً، وأظهر صلابةً كبيرةً والتزاماً شديداً مع شجاعة يندر مثيلها. أما قواتنا الخاصة فقد نفّذت مع القوات الأميركية الخاصة مهمات في بغداد لم تُعلن. كانت هذه العمليات مهمةً جداً بالنسبة إلى المستقبل. قمت في هذه الفترة بعدة زيارات إلى القوات الأميركية، التي كانت مدهشةً بالفعل،

وتحلى أفرادها بشجاعة تفوق التصوّر، وبالذكاء. لم يكونوا متهوّرين أو متعجرفين، بل كانوا مجرد جنودٍ أذكياء يقومون بمهمة معينة، ولديهم رؤية واضحة بالنسبة إلى الأمور التي تقع على عاتقهم. كانت مهمتهم الأساسية ملاحقة عناصر القاعدة، وتمكنوا مع الوقت من إلحاق الهزيمة بهم. كانت حملتهم مهمةً بالطبع، وكذلك كانت عملية تعزيز القوات الأمنية العراقية. لكن المهمات التي قامت بها القوات الخاصة في العراق كانت أحد أروع فصول الحملة العسكرية برمّتها، وهي لذلك تستحقّ أن توضع في فصلٍ خاص من تاريخها. ألحقت هذه القوات أضراراً كبيرة بقدرات القاعدة وأضعفتها، ليس في العراق فقط بل في العالم أجمع.

وافقت كذلك على وضع فرقة البلاك وتش في مهمةٍ لمساعدة القوات الأميركية في عملية دوغ وود التي جرت إلى الشمال من بابل في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٤. تعرضت للانتقاد بسبب موافقتي هذه، وسمعت كلاماً تافهاً عن تعريض البريطانيين للخطر مع الأميركيين، وذلك يتجاهل كون الحقيقة عكس ذلك. كان الجنود أنفسهم جاهزين للمهمة، ولذلك أدوها على نحو متميز.

اتضح لنا في منتصف العام ٢٠٠٦ أن الحملة في العراق لا تُحرز نجاحاً. لم نفقد السيطرة على الرغم من أن القتال ضدنا أدى إلى جمودنا، ولم نفاجأ عندما اشتكى العراقيون العاديون وقالوا إننا فشلنا في توفير الأمن. بدأت المقالات بالظهور، وقارنتُ الحالة الراهنة بالأوضاع تحت حكم صدام، ولم تكن هذه المقارنات لمصلحتنا. أورد سجلّ تعداد القتلى في العراق في العام ٢٠٠٦ أن نحو ٢٨,٠٠٠ عراقي قد قُتلوا، وتبيّن لاحقاً أن عدداً مماثلاً قد قُتل في العام ٢٠٠٧. قُتل معظم هؤلاء نتيجة أعمال عنفٍ طائفية، وليس على أيدي الجنود الأميركيين أو البريطانيين، لكن اللوم وقع علينا نحن في قوات التحالف.

استبدل جورج بوش في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٦ دونالد رامسفيلد ببوب غايتس. اتخذ جورج هذا القرار من أجل زيادة عدد الجنود الأميركيين العاملين في العراق. كان ذلك قراراً هاماً، لكني لا أعتقد أن أي شخصٍ آخر كان بإمكانه اتخاذ قرارٍ مماثل، لكنه اتخذه. بدأت التعزيزات بالوصول في أواخر العام ٢٠٠٧. وقد أعطت مفعولها. كان ثمة عوامل أخرى عديدة، منها وجود فرق الصحوة السنّية، وعودة المتمردين السنّة السابقين، وهو مسعى شارك فيه جزئياً

اللواء البريطاني جيرمي لامب. شاركت الحكومة العراقية كذلك في تعزيز قوات الأمن البريطانية.

هبطت أعداد القتلى في العراق إلى ما يزيد قليلاً على ٩,٠٠٠ شخص. انخفض هذا الرقم في العام ٢٠٠٩ إلى ما دون ٤,٠٠٠. أما في شهر أيار/مايو فقد انخفض مجدداً إلى ٨٥٠.

يعني ذلك أن الفترة التي أعقبت الحملة العسكرية كانت أكثر دموية، وأكثر رعباً، وأكثر فظاعةً مما يستطيع أي شخص أن يتصوّره. لكن المخاطر التي توقعناها لم تحدث، أما تلك التي لم نتوقعها فقد تحققت مترافقة مع شراسة وفظاعة صدمت المشاعر، ولا تزال حتى هذه الساعة.

أريد طرح سؤال هنا: هل كان بالإمكان منع تلك المخاطر؟ وهل كان الأمر يستأهل هذه التضحيات كلها؟

يمكننا إلقاء اللوم، لكن جزئياً، وجزئياً فقط، على الشوائب التي رافقت عملية إعادة الإعمار، ولا سيما الجانب المدني منها. كان يُمكن لعملية الإعمار لو أنها سارت بوتيرة أسرع أن تخلق بيئةً أكثر هدوءاً، ولكان ذلك عاملاً مساعداً جداً من دون شك. يتعيّن علينا أن نتذكر شيئاً واحداً: لم تنشأ الأعمال الإرهابية عن خيبة الأمل نتيجة انعدام التقدم في إعادة البناء، بل على العكس من ذلك، هدفت هذه الأعمال إلى منع هذا التقدم. تعود البريطانيون إصلاح البنى التحتية الحيوية، لكن الإرهابيين كانوا يفجّرونها من جديد. كان نمط عمليات القاعدة في وسط البلاد وشمالها يتركز على إخافة العراقيين، ومنعهم من إعادة بناء بلدهم. لم تكن هذه الأعمال، إذاً، تعبيراً عن الإحباط بشأن وتيرة التغيير، بل كانت محاولات متعمدة لمنع هذا التغيير.

صحيحٌ لو أن جهوداً أكبر بُذلت في التخطيط المسبق، ولو أن برنامجاً لإعادة إعمار المباني المدنية أطلق، لكان ذلك قد ملأ الفراغ الذي نشأ في وقت مبكّر. كان يُمكن لهذا البرنامج أن يشتمل على وظائف فورية بالنسبة إلى العراقيين العاطلين عن العمل. لكن رأيي الشخصي هو أن من السذاجة بمكان التصديق بأن برنامجاً كهذا في ذاته كان بإمكانه إيقاف العنف الذي له جذور سياسية عميقة.

كان بإمكاننا إصلاح الشوائب التي ترافقت مع إعادة الإعمار، بسرعة، لو كان الوضع الأمني مقبولاً، وهذا نفسه يصدق على أفغانستان. كان الأمن هو القضية. لم يكن قضية من بين قضايا أخرى، بل القضية الوحيدة.

يبقى موضوع تسريح الجيش، وملاحقة البعثيين، موضوعاً مفتوحاً للنقاش لأنه أثّر في الوضع الأمني. يمكن للمرء أن يقول إن هذين العاملين ساهما في الفوضى. لكن ذلك يصدق في حدود معينة. أما الحقيقة فهي أن الجيش قد تفكّك من تلقاء نفسه بطريقة أو بأخرى. تغيّرت الطبيعة الشفافة لسياسة ملاحقة البعثيين بسرعة نظراً لتشجيع المملكة المتحدة. علينا ألا ننسى أن حزب البعث كان بالنسبة إلى عددٍ كبير من العراقيين تجسيداً لنظام صدام، أي إنه حزبٌ مكروه ويدعو إلى الخوف، أي إن استمرار وجوده يعتبر عائقاً أمام التحرير.

تم استبعاد نحو ٢٥,٠٠٠ بعثي من وظائفهم فقط، وذلك من أصل مليونَي بعثي. كان ذلك برنامجاً أقلّ صرامةً من برنامج القضاء على النازية، على سبيل المثال، في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. استعان البريطانيون بجنرال من جيش صدّام سابقاً، وكان الرجل ذا كفاءة عالية، وذلك من أجل المساعدة على حفظ النظام. ارتفعت صرخات الاحتجاجات من سكان البصرة لأنهم رأوا فيه رمزاً مكروهاً من رموز النظام القديم.

يمكننا القول الآن إن عملية ملاحقة البعثيين وتسريح الجيش كان يجب أن تتم بطريقة مختلفة. ربما لو تمت هذه العملية [بطريقة مختلفة]، أي كما اقترح الجنرال بيترايوس لكان بالإمكان ترويض قسم من السنّة. لكنني أقول ذلك بعد الاستفادة من تجاربنا طوال هذه السنين، ولذلك منَ الإنصاف ملاحظة أن هذا القول ينقضه أولئك الذين اتخذوا القرارات في ذلك الوقت، وهم الذين سيقولون إنهم كانوا تحت ضغطٍ شديد كي يفعلوا المزيد.

أريد أن أشدّد هنا أن الدروس الصحيحة، غير السهلة، هي تلك التي تعلّمناها في فترة ما بعد الحملة العسكرية. أعتقد، بطبيعة الحال، أن المرء يميل بشكلٍ طبيعي إلى استنتاجات بسيطة وبيروقراطية، وأن يُقال مع مختلف الوزراء، وفي اجتماعات

مختلفة، أن النتيجة كان يُمكن أن تكون مختلفة. أعتقد فعلاً أن هذا القول سيكون سطحياً وخاطئاً، وذلك على الأقل فيما يخص التجربة البريطانية.

أما في الجانب الأميركي، وعلى الرغم من كل الأخطاء التي ارتُكبت والتي تعترف بها الولايات المتحدة الآن، فإن إلقاء اللوم على هذه الأخطاء في إحداث الفوضى والمجازر التي أعقبتها بعد ذلك، هو تحوّل يجب أن يخضع لتحليل بعناية. إن إعادة قراءة كل التقارير عن الاجتماعات، والتقييمات، وإعادة التقييمات، ستعطينا الانطباع أننا لسنا أمام أشخاص ضعفاء أو مستهترين من الذين يتخذون قرارات حمقاء أو متسرعة، بل أمام أشخاصٍ يجهدون من أجل تحديد السياسة الصحيحة في ظروفٍ مستجدة، ومتقلبة، ومتغيرة باستمرار مع ما تحمله من عواقب غير متوقعة بالنسبة إلى الجميع.

إذاً، ما هي الدروس التي يمكنني أن أستنتجها؟ إن هذا الأمر مهمّ جداً لأننا قد نمرّ في ظروف مشابهةٍ في المستقبل.

سنبدأ أولاً بافتراض الأسوأ. اعتقدنا في البداية أن لدى العراق جهازاً فاعلاً للخدمة المدنية [الموظفون الحكوميون]، الأمر الذي يستوجب أن تكون البنى التحتية الأساسية للحكومة بُنى سليمة وقادرة. لم تكن الحال كذلك، لأن صدّام قد خرّب البلاد تماماً. لم نجد شيئاً غير السيطرة المفروضة بالخوف الشديد والقوة. كان العراق عبارةً عن صندوق سلة كامل، وهو أمر ليس بمستغرب في مثل هذه الأحوال. إن الدول الفاشلة هي على هذه الشاكلة: فاشلة. كانت فاشلة في كل مجال من المجالات بما في ذلك الأمن. علينا في المستقبل أن نكون جاهزين من أجل تشكيل حكومة ظل كي تكون جاهزةً للعمل، وهذا ما فعلناه عندما شكّلنا ما يُعرف هذه الأيام بوحدة الاستقرار في العام ٢٠٠٤، وهي هيئة متعددة الأقسام غايتها دعم الدول الخارجة من النزاعات.

يمكنني القول، وللأسباب ذاتها، إن الجنود الذين نحتاج إليهم لتنفيذ الحملة العسكرية قد يكونون مختلفين عن أولئك الذين نحتاج إليهم في مرحلة ما بعد الحملة العسكرية. تبيّن كذلك وجود حاجةٍ إلى جنودٍ أكثر، لكن من الإنصاف كذلك

الإشارة إلى أن مناطق محدّدة من البلاد – في الجنوب على سبيل المثال – لا تكون زيادة القوات الأجنبية فيها أمراً مرحباً به، بل إن هذه القوات الزائدة ستلقى مقاومة. أما النقطة المهمة مع ذلك فهي أن علينا أن نكون في وضعٍ يتميّز بمرونةٍ كافية يسمح لنا باستدعاء مزيد من الجنود، وبتلبية حاجة كهذه.

علينا أن نكون في وضع بناة الدول، لذلك يجب أن نتقبل تلك المسؤولية ونعترف بها ونخطط لها منذ البداية. كان فشلنا في تحقيق تلك الأمور واضحاً بالنسبة إلى العراق.

ثانياً، إننا بحاجة إلى بناء قدراتٍ محلية مؤلّفة من سكان البلاد كي تتولى شؤون الأمن، وبأسرع وقتٍ ممكن. يسهل على القوات المحلية القيام بالمهمات الصعبة، كما أن من الأسهل بكثير على السياسيين المحليين إقناع الآخرين.

أقول، للإنصاف، إن هذا الأمر بدأ على الفور تقريباً في العراق، وسبق لي أن قلت إن أكاديميات الشرطة، ومنشآت التدريب، قد تأسّست في أواسط العام ٢٠٠٣. لكن بناء جيش عراقي جديد كان تحدياً من نوع مختلف كلياً. استغرق بناء الجيش وقتاً طويلاً. أشرت في المذكّرات التي أرسلتها إلى الرئيس بوش في شهري أيار/مايو وحزيران/يونيو من العام ٢٠٠٤ إلى أن الجنرال بيترايوس، الذي تسلّم «عرقنة» الأمن كان ممتازاً، وأنه انتهى في ذلك الوقت من وضع خطة للقوات العراقية. كانت العرقنة من بنات أفكاري – جزئياً – ولذلك عيّنا أحد البريطانيين ليكون نائباً للجنرال بيترايوس. لكن ذلك كان جهداً لوجستياً، وتقنياً، وسياسياً كبيراً. أنجزنا بناء جيش جديد من نقطة الصفر. احتاج هذا الجيش إلى التدريب، وإلى طبقة من الضباط، ووحدات الدعم، والتجهيزات، والشرعية. احتاج إلى ذلك كله في ظروفٍ تفرض علينا الحذر المستمر من العصيان أو تسلل العناصر غير المرغوب فيها.

صدر قرار جديد عن الأمم المتحدة في شهر حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٤، وهو القرار الذي أعطى قوات الأمن العراقية السلطة التي تحتاج إليها، كما أنه وضع جدولاً زمنياً لتسليم المسؤوليات الأمنية. تمكّنت عند حلول شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٤ من الاقتناع بأن خطة بيترايوس تبدو لي وكأنها تسير بنجاح. لكن مع نهاية تلك السنة، ومع الزيادة الكبيرة التي سجّلتها الهجمات الإرهابية،

اضطررت إلى العودة تكراراً إلى فكرة احتياجنا إلى تحسين خطة «العرقنة» وإلى تسريع تطبيقها بطريقة ما.

كانت الانتخابات التي جرت في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٥ امتحاناً صعباً على نحو واضح. صمّم المتمردون على منع إجراء الانتخابات. شعر علاوي، الذي كان رئيساً للوزراء حتى ذلك الحين، بإحباطٍ كبير، وخشي أن لا يتمكن من توفير الأمن الذي يحتاج إليه شعبه. وقّعت في ذلك الوقت على صرف مبلغ إضافي يبلغ ١٢٠ مليون دولار لمصلحة القوات العراقية في الجنوب. قلت حينئذ: أيمكنني التأكد أن هذا المبلغ ضروري؟ كلا. لكني سوف أخاطر بذلك بدلاً من أن أكتشف بعد ستة أشهر أن الأمر كان ضرورياً.

بقيتُ منذ ذلك الحين في حوار مستمرّ مع الولايات المتحدة، ومع قادة جيشنا، طوال العام ٢٠٠٥، أي بعد أن حلّ ابراهيم الجعفري مكان إياد علاوي، وبعد أن حل نوري المالكي مكان الجعفري. تركّز الحوار حول كيفية تحسين كفاءة القوات العراقية بسرعة. لكن الواقع دلّ على أن المسألة ستستغرق وقتاً. وصلت قوات الأمن العراقية في العام ٢٠٠٧ إلى حالة من الجهوزية، أو على الأقل إلى أول مرحلة من الجهوزية، والقدرة المناسبة. بدا الأمر، بطريقة ما، أن حملتنا لربما لن تنجح إلا إذا ترافقت مع هذه القدرة الدنيا. دُهشت عندما عدت بالذاكرة إلى العام ٢٠٠٦ على الخصوص، ولاحظت التأكيد المتواصل والمفضّل على خطةٍ أفضل، وأسرع، وأكثر فاعلية.

أما الموضوع الآخر الذي تكرّر كثيراً في الملاحظات التي كُتبت عن الاجتماعات فكان ضرورة الصحوة السنّية. كان ذلك هو الدرس الثالث، وأهمّ ما فيه هو أن السياسة يجب أن ترافق الأمن وإعادة الإعمار. كان من المتوقع أن يقع السنّة في حالةٍ من الاضطراب بعد أن خسروا مراكز السلطة العليا التي كانوا يمسكون بها على الرغم من كونهم أقلية بين السكان. استغرق السنّة وقتاً طويلاً كي يفهموا أننا لا نرغب في استبدال دكتاتورية السنةّ بدكتاتورية شيعية. وضعنا هذه الصحوة في خانة الأولويات منذ البداية، لكن بقايا أتباع صدّام استغلوا بذكاء مخاوف السنّة، الذين أبدوا مشاعر مستمرة من النفور منا طوال العملية السياسية، وذلك على الرغم من الجهود كلها التي بذلناها من أجل طمأنتهم. أدركنا أن بعض الأعمال الإرهابية تلقى تمويلاً من خارج

العراق، يتكفّل به بعض الأشخاص الأغنياء الذين يخافون تزايد النفوذ الشيعي. بدأ الشيعة بالانتقام، وهكذا تزايد إحساسهم بأنهم يخوضون حرباً طائفية. أما خلال العام ٢٠٠٦ فلاحظ الناس أن العراق غارق في حربٍ أهلية. اقترح بعضهم أن تقسيم العراق هو الحلّ الوحيد لإنهاء هذه الحرب.

تعب السنّة في النهاية من القتال المستمرّ الذي تفرضه أنشطة تنظيم القاعدة، لذلك بدأوا بالتطلع إلى طريقةٍ للخلاص. وتمكنوا خلال العامين ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ ببطء ولكن بكل ثقة، من عقد اتفاقيات مع القوات متعددة الجنسيات ومع الحكومة العراقية، وبدأوا، بمساعدة اللواء لامب، بمقاتلة إرهابيي القاعدة الذين تسببوا لهم بقدرٍ كبيرٍ من الصعوبات والأحزان. تحوّل مجرى الأحداث مع هذا التطور الذي تزامن مع نشر قوات جديدة. استمرّت أعمال العنف بين وقتٍ وآخر، لكن قوات الأمن العراقية تمكّنت من إضعاف تنظيم القاعدة كثيراً، وسرعان ما انخفضت معنويات عناصره.

أظهر المالكي عن طريق تحركاته ضد أتباع الصدر أنه على استعداد لمقاتلة المتمرّدين الشيعة والسنّة على السواء. لكنّ المضيّ في وضع الدستور خلال العام ٢٠٠٩، وكل ما رافق هذه العملية من مشاكل قد أظهرا مدى هشاشة الوضع. تزايد تشاؤم العراقيين الذين أيدوا الحرب خلال العام ٢٠٠٦، لكنهم استعادوا تفاؤلهم مع حلول العام ٢٠٠٨. قال لي أحدهم: «سيستغرق الأمر بعض الوقت، لكنه سينجح في النهاية». إنني أصلّي كي يكون على حق.

عقدتُ آخر اجتماع لي مع المالكي في أواخر العام ٢٠٠٦، وهو ما زال يستثير قدراً كبيراً من كراهية الناس داخل البلاد (وصفه بعضهم أنه رجلٌ طائفي في أعماقه، كما أنه يعاني ضخامة التحديات). لكن ما إن جلسنا في الغرفة وجهاً لوجه حتى أخذنا بالتحدث بطريقة ودّية. كنت قد وصلت من القاعدة العسكرية بطائرة حوّامة كعادتي، وتفادينا الطيران فوق المناطق الخطرة قبل أن تحطّ الطائرة في المنطقة الخضراء، وهي الجزء المعزول والمحصّن من بغداد الذي يضمّ مساكن الأجانب والوزراء. زرتُ السفارة حيث سقطت قذائف الهاون في اليوم السابق.

كان المبنى الحكومي قصراً سابقاً لصدّام، وكانت الإجراءات الأمنية مشدّدة

جداً. كان من الصعب على المرء أن يصدّق أن بإمكان الحكومة أن تعمل انطلاقاً من هنا. تحدثت مع المالكي وشدّدت في حديثي معه على الضرورة الملحة لأن يُظهر أنه يحكم العراق بأسره، وليس الشيعة فقط، وذلك بالفعل وليس بالقول. ردّ عليّ بلغة بسيطة جداً، وأبلغني أنه سوف يُثبت بالفعل أنه سيتعامل مع أي شخص يعادي الحكومة الشرعية. قال لي إن بعض المتمرّدين هم من أنصار صدّام السابقين الذين لن يُقبلوا في الدولة أبداً، ولذلك سيتم سحقهم. وقال لي أيضاً إنه سئم من رجل الدِّين المتطرف مقتدى الصدر. وهو كما قال: «سيعلم أنني لن أتحمل هذا». لم أكن متأكداً أنني صدّقته في ذلك الوقت.

لكنني كنت مخطئاً. لقد هاجمه بالفعل وجرّده من سلاحه. وقد ترأس المالكي وعلاوي لوائح تخطت الخطوط الطائفية في انتخابات العام ٢٠١٠. أما الرئيس طالباني فقد استمرّ في لعب دور توحيدي ومحوري.

إنني أتساءل هنا: هل كان بإمكاننا حشد المزيد من الجنود في وقتٍ أبكر؟ وهل كان بإمكاننا عمل المزيد من أجل بناء القوات العراقية في وقتٍ أسرع؟ وهل كان بإمكاننا بذل المزيد من الجهود من أجل الوصول إلى الجماعات السنّية في وقتٍ أبكر؟ لا أشك في حدوث فشلٍ في هذه المجالات كافة. لكنّ الواقع هو أننا عملنا فيها كلها بجهدٍ كي ننجح. أما جنودنا فقد حاربوا بكل شجاعة. تمكنا من تكوين جيشٍ عراقي في غضون فترة تقل عن ثلاث سنوات. حاولنا على الدوام إشراك الرأي العام السنّي، حتى ذلك الأبعد عن وجهة نظرنا.

كان يمكننا أن نفعل المزيد، وعلى نحو أفضل، في هذه المجالات كلها: الأمن، إعادة البناء، السياسة. إنني متأكد من هذا، لكنني أشعر بأن الأمور ستكون على هذا النحو على الدوام. إنني أجزم بأن لم تكن هناك، ولن تكون، حملة عسكرية من أي طبيعة كانت لا تسفر عن نتائج تختلف عما كان متوقعاً منها.

لم يستند تقييمنا لما يجب علينا أن نتوقعه في العراق إلى المصادفة. استشرنا مجموعةً كبيرةً من المستشارين، كما استعنا بمعلومات العراقيين الموجودين في المنفى، وعلى الرغم من أن بعضهم كان لديه طموحات شخصية واضحة إلا أن آخرين لم يكونوا كذلك. قيل لنا أننا سوف نجد جهاز خدمة مدنية [موظفين حكوميين]

جاهزاً للعمل. لم نعثر على هذا الجهاز. قيل لنا إن كارثةً إنسانيةً سوف تقع، لكننا تمكنا من تجنب وقوع هذه الكارثة. قيل لنا إن صدّام قد يحارب حتى النهاية هذه المرّة، لكنه انهار سريعاً.

قيل لنا كذلك إن أعمال العنف الشيعية – السنية ستكون عاملاً هاماً في المعركة، لكنها كانت أقلّ مما خشيناه في البداية في واقع الأمر.

أما الأهمّ من ذلك كله فهو أن معظم الناس لم يروا أي رابطٍ بين العراق والقاعدة، وكذلك لم يتوقعوا مخاطر التدخل الإيراني إلا عند المناطق الحدودية. هنا يقع أكبر درس من الدروس التي تعلمناها.

طرحتُ سؤالاً على كبار الضباط ورجال الاستخبارات عند اجتماعي بهم في داوننغ ستريت، وذلك قبل وقت قصير من مغادرتي منصبي، وكان على النحو التالي: دعونا نفترض أن القاعدة وإيران ليستا لاعبين في هذه الأحداث، فهل كان بمستطاعنا السيطرة على الأمور؟ أجابني الحاضرون من دون تردد «نعم».

كاد هذا التهديد الخارجي الذي أُضيف إلى منشقّين في الداخل أن ينجح في تخريب الفرص التي لاحت أمام العراق. حاول هذان الطرفان تدمير دولة بكل لامبالاة شريرة، ومتوحشة، تجاه الحياة الإنسانية والمعاناة الإنسانية، وفعلا ذلك على نحو يصعب تصديقه. أُرسل الانتحاريون إلى الأسواق، واستُهدف المؤمنون في أماكن تأديتهم لصلواتهم، واغتيل الجنود ورجال الشرطة الذين أخذوا على عاتقهم إنهاض البلاد من جديد. أما موظفو الأمم المتحدة، وأفراد المنظمات غير الحكومية، والعمال المدنيون الذين حاولوا مساعدة الشعب العراقي على تحسين ظروف حياته فقد قُتلوا بالرصاص، أو فُجّروا، أو خُطفوا وقتلوا بعد ذلك.

أقول بعد ذلك كله إن استنتاجاتي هذه لا تهم أبداً مواقف المتمرّدين تجاه هذه المجزرة والمعاناة اللتين تنفّذان بوحشية متعمدة، لكنها تخصنا نحن فقط.

متى سنرى احتجاجاً على ذلك كله في أي دولةٍ غربية؟ أين كانت كل تلك المواقف الأخلاقية الشاجبة؟ وأين كان الأشقاء والشقيقات في ساعة شدّة العراقيين؟ ومن هبّ لمساعدتهم؟ وإلى أي جهة كانت الانتقادات موجّهة؟

تركّزت الانتقادات على الولايات المتحدة والمملكة المتحدة اللتين كانتا تحاولان إيقاف المجزرة، وليس على الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال. لا ينحصر عناصر القاعدة وأولئك التابعون لإيران في العراق لوحده، وهو البلد الذي أصبح ميدان المعركة بالنسبة إليهم. إننا نواجه خطرهم ذاته في الباكستان، وفي أجزاء من لبنان، وفي أجزاء من فلسطين، وفي كل أنحاء الشرق الأوسط والمناطق التي تتعداه، أي في الصومال، حتى في بعض أجزاء الشرق الأقصى. إنه الخطر ذاته الذي نواجهه في شوارعنا وفي أجوائنا، وفي الأماكن المزدحمة في بلداننا. إنه الأمر الذي ألزم كل بلدٍ من بلادنا بإنفاق مليارات الدولارات سنوياً من أجل حماية أنفسنا ضد الإرهاب.

إن استنتاجي النهائي هو أن على هذه الدولة، بغضّ النظر عما تخططه أن تستعدّ لهذا القتال والمواجهة، ولمدة طويلة إذا اقتضى الأمر، ولخوض معركة دامية. كونوا جاهزين ليس لبناء دولة تهاوت فقط، بل في وجه عدوّ يفعل كل ما في وسعه لإلحاق الضرر بنا، ولمنعنا من القيام بما هو صواب.

هل نحن جاهزون لهذه المهمة؟ هل تصميمنا على قدر تصميمهم؟ إنه سؤال حقيقي.

هل كان بإمكاننا أن نتوقّع ما ستكون عليه حالةُ العراق بعد إزاحة صدّام عن السلطة، وهل كنا مضينا في مهمتنا على الرغم من ذلك؟ وهل كان يجدر بنا المضيّ في مهمتنا هذه؟ يجيب كثيرون بالنفي عن أسئلة كهذه. كانت كلفة مهمتنا من الأموال والدماء عاليةً جداً.

لكن جوابي، على الرغم من ذلك، كان في منتهى الوضوح. كنت وافقت لو أن هذه الأموال والدماء كلها كانت مقابل إزاحة صدّام عن السلطة، لكنها لم تكن كذلك، لأننا وضعناها في سبيل معالجة عواقب التطرف الذي لم يرغب في تحقيق إرادة الشعب العراقي، بل أراد تحدّيها.

ماذا عسانا نقول عندما نُسأل: أنظروا إلى المجزرة، وكم تساوي؟ أولاً، فكّروا في المسؤول عنها. لم يكن جنود المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة هم المسؤولين. لم تكن هذه الأعمال محتّمة، بل كانت أعمالاً تخريبية مقصودة. إن تراجعنا أمام هذه الأعمال يعني تقوية العقيدة الأوسع التي تمثلها. إن رفضنا التراجع، ودعمَنا

الديمقراطية في العراق يعنيان أننا وجّهنا ضربةً ضد تلك العقيدة في كل مكان من هذا العالم.

ربما كان الأمر شبيهاً بما قاله زو إنلاي عندما سُئل عن تقييمه للثورة الفرنسية: «لا يزال الوقت مبكراً لقول أي شيء». إن كل ما أعرفه هو أنني فعلت ما اعتقدت أنه صواب. وقفت مع أميركا عندما احتاجت إلى الوقوف معها، وهكذا استطعنا تخليص العالم من طاغية. حاربنا معاً كي نساند حقّ العراقيين في الحصول على حكومة ديمقراطية.

إنني أحتفظ في درج مكتبي برسالةٍ تلقّيتها من امرأة عراقية جاءت لرؤيتي قبل بداية الحرب. أخبرتني عن التعذيب المروّع والموت الذي تعرضت له على يد نجل صدّام. توسّلت المرأة كي أتحرك. لقد عادت إلى العراق بعد سقوط صدّام، لكنها قُتلت بعد أشهر قليلة جراء أعمال العنف الطائفية. ماذا عساها ستقول الآن؟

الفصل السادس عشر
الإصلاح الداخلي

يسهل على المرء أن يستذكر تلك السنوات الأولى لحرب العراق، وأن يعتقد أنها كانت مليئة بتلك الواقعة وحدها. أما الواقع فيدلّ على أن هذه الفترة تحديداً هي التي شهدت تقدّم برنامج العمل المحلي إلى الأمام بصورة حاسمةٍ ومرضية إلى أقصى الحدود.

حدثت في الفترة ما بين العامين ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ وبداية العام ٢٠٠٥، معارك حاسمة حول إصلاح المستشفيات الحكومية المستقلة، ونظام الخدمات الصحية العامة، وحول أقساط التعليم، وبدايات برنامج أكاديميات المدن، وحول بطاقات الهوية، وكذلك حول السلوك الجرمي. أقول، للمفارقة، إن المسألة التي كادت تُزيحني عن منصبي لم تكن العراق، بل أقساط التعليم. أما السنة التي كدت فيها أن أتخلى عن منصبي طواعية فكانت خلال العام ٢٠٠٤، وذلك عندما ظننت أن لم يعد بإمكاني التحمّل، وأن أفضل شيء أقوم به هو التخلّي عن منصبي لغوردون، لأنني اعتقدت أن بإمكانه أن يُكمل برنامج الإصلاح. اتضحت لدي الأمور أكثر فأكثر فيما يخص ضرورة بقائي في منصبي على الرغم من كل شيء عندما أدركت أنه لن يُكمل ذلك البرنامج، وأن عليّ خوض معركة الولاية الثالثة.

كانت عناوينُ الصحف مثقلةً بمتاعب الحرب، لكن على الرغم من ذلك كانت

المعركة داخل الحكومة تدور حول قضايا الإصلاح التي نبعت من قلب مشروع حزب العمال الجديد.

تحدثت فيما سبق عن رحلة. حَكَم حزبنا في البداية مستعيناً بحدسٍ صافٍ وحازم، لكن من دون المعرفة والخبرة اللتين تدلاننا على المكان الذي سيوصلنا إليه ذلك الحدس فيما يتعلق بسياساتٍ محدّدة. اعتقدنا على الخصوص أن من المعقول فصل الهيكليات عن المستويات. يعني ذلك أننا نستطيع إبقاء معايير معينة للخدمات العامة المتبعة، لكن مع إجراء تغييرات جوهرية بالنسبة إلى النتائج التي تصدر عن ذلك النظام. أدركنا مع الوقت أن ذلك خاطئ، لأننا إذا لم نغيّر الهيكليات فلن يكون بإمكاننا رفع المستويات إلا ظاهرياً. أما عند بداية ولايتنا الثانية فقد تمكّنا من وضع نموذج للإصلاح: تغيير الطبيعة الرتيبة للخدمة، وإدخال المنافسة، وتقليص التمايزات بين القطاعين العام والخاص، والفصل بين الحدود التقليدية المهنية والنقابية للعمل وبين المصالح الخاصة، ولا سيما محاولة تحرير النظام والسماح له بالإبداع، وبالتمايز، وبالتنفس، ومدّ أطرافه. كان كل وجهٍ من هذه الأوجه عُرضةً لأشدّ أنواع التمحيص والبحث المفصّل. خضع كل بندٍ من بنود الإصلاح لإعادة النظر على نحو معمق مرةً بعد أخرى، وأُدخلت تعديلات على كل بندٍ من البنود، كما جرى التخفيف من بعض البنود على الرغم من انزعاجي. لكن بنود الإصلاح شكّلت بمجملها نظاماً مهماً للتغيير من شأنه توجيه نظام الإدارة نحو اتجاهٍ جديد. شكّلت هذه الإصلاحات القاعدة الأساسية لأي إصلاحٍ في المستقبل، بحيث يُمكن العودة إليها إذا ما ابتعد النظام عنها.

تعرّض كل بندٍ، على الرغم من ذلك كله لكثيرٍ من الهجوم، والنقد، والمعارضة. ربما تكون أشدّ النقاط إثارةً للخلاف هي مسألة تمويل الجامعات. وفّر الجدال حول هذا الموضوع فكرةً مدهشة عن صعوبات إحداث تغييرات في العالم الحديث، وكاد الأمر يؤدّي بي إلى الاستقالة. أثار هذا الموضوع انقساماتٍ واسعةً تكاد لا تصدّق. كلّفنا الأمر خسارة عدة مقاعد في انتخابات العام ٢٠٠٥. إن ما بدا وكأنه نتيجة ضعيفة حتى مع حصولنا على غالبية تفوق ستين مقعداً، كان سيبدو بطريقة مختلفة مع تلك المقاعد الإضافية لو أحرزنا غالبية بنسبة تزيد على الثمانين مقعداً. أدى الأمر إلى انقسام الحكومة على نحو لا يصدّق، لكنّ الإصلاحات فرضت نفسها في

نهاية المطاف في أواخر العام ٢٠٠٥، الأمر الذي أحدث ضجّةً وإن بقدرٍ قليل، أما الجدال هذه الأيام فيدور حول كيفية توسيع هذه الإصلاحات، بقدر ما يدور حول إبطال مفعولها.

كان ذلك درساً مهماً في عملية تطوير الإصلاح لأنه اعتُبر بمثابة كارثة في البداية، لكنه تقدّم على الرغم من محاولات الإضعاف والمعارضة. كانت الإصلاحات غير شعبية، لكنها حدثت ولم يمضِ وقت طويل على ظهورها وكأنها كانت موجودةً على الدوام.

يحمل هذا الدرس معه فائدةً كبيرة: إذا اعتقد المرء أن التغيير محقّ فيجب عليه أن يمضي به. تبدو المعارضة حتميةً في هذه الحالة، لكن يندر أن تكون غير قابلةٍ للإخماد. هناك على الدوام داعمون صامتون للإصلاح بالإضافة إلى منتقدين بارزين. يدور جوهر الزعامة حول القرارات التي تتعلق بالتغيير. أما إذا لم يستطع المرء مواجهة ذلك فمن الأفضل له أن لا يكون زعيماً.

يحمل هذا الدرس معه معاني أوسع تتعلق بتجاوز الانقسامات، وبتعلّم المرء كيفية التحدث من فوق الضجيج والثرثرة، وبالقدرة على التركيز دائماً وأبداً على الصورة الأوسع. صُدمت عندما أعدت قراءة الأخبار اليومية التي تناولت التغييرات بمدى حدّة المقالات التي ظهرت في تلك الفترة، والتي طواها النسيان في هذه الأيام. ترافقت كل خطوة من خطوات موضوع أقساط التعليم على وجه الخصوص مع أزماتٍ صغيرة، وبعض الفوضى. إن كل ما يهمّ الآن هو أن الإصلاح الضروري قد تحقق، وبما أنه تحقق فسيكون الهيكلية المناسبة التي تُبنى عليها أي إصلاحات مستقبلية.

بدأ الأمر بالمشاحنات المعتادة مع غوردون ومع وزارة الخزانة.

سمحت لدافيد بلنكيت بتنفيذ ما ورد في بياننا الذي أصدرناه في العام ٢٠٠١، والذي يقضي بعدم الموافقة على زيادة الأقساط. كان ذلك بعكس رأيي بعض الشيء، لكن برزت أمامنا أسباب سياسية مهمة: سرت شائعات أننا كنا نخطّط لذلك بين أعضاء نواب الحزب في البرلمان وفي اللجنة الوطنية العليا، كما أن دافيد شعر بأن علينا أن نخنق هذه القصة برمّتها. كان ذلك أحد التنازلات القليلة التي قدّمتها في برنامج العام ٢٠٠١.

اتضحت التحديات الماثلة أمام جامعاتنا أكثر فأكثر بعد وقتٍ قصير من الانتخابات. تكوّن عندي اقتناع في ذلك الوقت، أعتقد أنه قد قوي هذه الأيام، بأن مستقبل الدول المتقدمة مثل دولتنا يعتمد بقوة على رأسمالنا البشري (أي كما يجدر بنا أن نفعل)، ويعتمد كذلك على وجود نظام ديناميكي للتعليم العالي يكون على مستوى عالمي. يُضاف إلى ذلك أن دولةً مثل بريطانيا لها تقاليدها ولغتها هي دولة تصلح لمواجهة هذا التحدي. لا يمكننا، مع ذلك، النوم على أمجادنا في هذا المجال وفي المجالات الأخرى كذلك. تأملت سجلّ أعلى خمسين جامعةً في العالم، فلاحظت أن عدداً قليلاً منها يقع في بريطانيا، كما لاحظت أن البرّ الأوروبي لا يضم، تقريباً، أي جامعة من تلك الجامعات. فازت أميركا بذلك السباق بالذات، لكن الصين والهند تجدّان في إثرها. لذلك الأمر بالنسبة إلى الولايات المتحدة دلالته الخاصة. إن استحواذها على أكبر عددٍ من أفضل الجامعات الخمسين في العالم – وفي الواقع الجامعات المئة ـ لم يأت مصادفةً، أو بسبب مساحتها الكبيرة، لأن ذلك يعود، تحديداً وبوضوح، إلى نظام الأقساط. كانت جامعاتها أكثر ريادةً ومغامرة، إذ تواصلت مع متخرجيها، وأنشأت نظاماً كبيراً للمساعدات. كما أن نظام المنح المالية قد سمح لها بمساعدة الطلاب الأكثر فقراً، عدا أن مرونة الجامعات المالية سمحت لها باجتذاب أفضل الأكاديميين. إن الذين يدفعون دولارات أكثر يحصلون على الأفضل. إن الأمر بسيط إلى هذه الدرجة.

أقحمنا أنفسنا في بعض الفوضى المعتادة في الجامعات ذات المستويات الدنيا. حوّلت حكومة المحافظين السابقة ما كان يسمّى المعاهد التقنية إلى جامعات، الأمر الذي كان مقبولاً لولا أن هذا الإجراء قد ترك انطباعاً بأن لهذه المعاهد المستوى الأكاديمي ذاته، الأمر الذي يخالف الحقيقة على نحو واضح. يُذكر أن الجامعات التي كانت تقنيةً في السابق تقدّم خدمات ممتازة وهي تحتاج بدورها إلى بعض المرونة في التمويل.

حضر لمقابلتي في داوننغ ستريت، في أواخر العام ٢٠٠١ كبار رؤساء مجموعة رسل، وهي تضمّ أبرز عشرين جامعة بريطانية. كان مطلبهم واضحاً: أرادوا الحصول على تمويل إضافي. كان روي جنكنز عميد جامعة أكسفورد في ذلك الوقت يدعم بقوة زيادة الأقساط التعليمية، وقد تحدث معي شخصياً بهذا الخصوص. كان إيفور

كرو رئيس الجامعات البريطانية (لجنة رؤساء الجامعات ومساعدي العمداء) في ذلك الوقت يدعم هذا الموقف بدوره. كان الرجل عضواً قديماً في الحزب الديمقراطي الاشتراكي، وهو شخصٌ ذو خبرة في السياسات التقدمية. كان إيفور على دراية تامة بالأمور السياسية، ولذلك كان صريحاً في دعوته إلى التغيير الذي وصفه بأنه ضروري.

أقدمت في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠١ على ترقية إستيل موريس إلى منصب وزير دولة للتعليم، وهي خلفت دافيد بلنكيت الذي أصبح وزيراً للداخلية. كانت إستيل مثالاً ممتازاً لأشخاص يندر وجودهم في عالم السياسة. استقالت من منصبها في نهاية المطاف في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢، واكتفت بالقول: «إذا أردت أن أكون صادقةً فعلاً مع نفسي،فسأقول إنني لا أستمتع بهذا المنصب... لا أستطيع تقبّل أن أكون الثانية في ترتيب أفضل الوزراء. إنني قاسية جداً في الحكم على أدائي. أعتقد أنني لم أكن موفّقة في تحديد الأولويات. عليّ أن أعرف أنني أحدثت فرقاً في عملي، لكني لا أعتقد أنني قدّمت ما يكفي لرئيس الوزراء». لم أكن متأكداً في ذلك الوقت أنها جادة، لكنني استنتجت أنها جادة في النهاية. يبدو أن المسؤولية كانت ثقيلةً عليها، ولهذا لم تكن سعيدة. لم تكن تلك السيدة ضعيفةً عاطفياً بأي شكلٍ من الأشكال، بل على العكس من ذلك تمكّنت من القيام بمهامها على الرغم من مواجهتها لحملة محلية شرسة جداً من خصومها التقليديين، أي من الديمقراطيين الأحرار. كانت هذه السيدة كما ينمّ مظهرها: محترمة، وتعمل بكل جدية، لكن المستويات العليا في السياسة صعبة جداً، ولهذا شعرت بأنها ليست بالقوة التي تطمح إليها.

غادرت المنصب ليحلّ مكانها تشارلز كلارك، الذي عاش في سنوات كينوك، وكان صلباً بما فيه الكفاية لأنه تغلّب على صعوبات تلك الفترة. أعطى الرجل دفعاً قوياً في هذا المجال، على الرغم من أنه اضطر إلى وراثة ما تحوّل إلى شأن سياسي غامض مع غوردون.

ما إن حدّد رؤساء الجامعات المشكلة حتى أدركت أنّ علينا التحرك. كنا ملتزمين ما ورد في البيان الوزاري بعدم رفع الأقساط. هذا صحيح، لكن أعتقد، بصراحة، أن من السخافة تأجيل القرارات الضرورية للبلاد بسبب هذا الالتزام. هذا هو السبب الذي دفعني إلى ما تحوّل بعد ذلك إلى عملية جدالٍ ونقاشٍ في الداخل، ولاسيما

مع وزارة الخزانة، وهي العملية التي استمرّت عامين من الزمن تقريباً. بدا واضحاً منذ البداية أن غوردون ينوي المعارضة. لم أفهم مشكلته إلا بعد فترة من الزمن. اعتقد غوردون في الأساس أنه سيخوض الحملة الانتخابية الثالثة، ولهذا لا يريد لأي شيء أن يُفسد برنامجه، أو أن يقوم بأي شيء لا يحظى بالشعبية، كما من الواضح أن خطوةً كهذه لن تكون شعبية. هذا هو السبب الذي دفعه إلى معالجة هذه الأزمة بالتأجيل، كعادته، وليس بالمعارضة.

عرضنا الموضوع على بساط البحث في أواخر العام ٢٠٠١. طلب غوردون العمل أكثر على هذا الموضوع، وكان محقاً في طلبه هذا. أنجزنا الأعمال التي طلبها كما ينبغي، وهكذا بدأنا نقترب من اتخاذ قرار خلال اجتماعات إضافية عُقدت في النصف الأول من العام ٢٠٠٢. شعرت إستيل عند هذه النقطة بأنها عالقة بيننا، لكنّ حَدْسها لم يكن قوياً بما يكفي كي تقرر موقفها. تطورت الأمور، بطريقة أو بأخرى، إلى معركة إراداتٍ بيني وبين غوردون. أستطيع أن أقول إن التوتر الخلاق بيننا، الذي كان يميل إلى الإيجابية حتى ذلك الحين، قد تحوّل في هذا الوقت إلى السلبية. لكن لا أريد القول إن وجوده في الحكومة لم يعد يحمل نقاطاً إيجابية عظيمة، لأنه كان، كما أكرر دائماً، شخصيةً عظيمةً ذات مصداقية، وهو بذلك يمثّل كسباً أكيداً للحكومة على العموم، لذلك كان من الصواب بقاؤه وزيراً. لكنّ المشكلة هي أنه، وبسبب توقعاته ورغبته، أراد تجميد التقدم في عملية الإصلاحات إلى أن يتسلّم رئاسة الحكومة. لم أكن متأكداً بتاتاً أن رغبته هذه تتعلق بالسياسة المتبعة، بل برغبته في تجميد عمل الحكومة، وذلك أمر ممكن على ما يبدو، وهو العمل المثقل والواضح المعالم في ذاته، والذي بدأ يميل نحو اليسار بمرور الوقت. ترك هذا الوضع آثاره الشخصية لدى مستشارينا: إد بولز (كبير المستشارين الاقتصاديين في وزارة الخزانة) من قبل غوردون، وآندرو أدونيس من قبلي أنا.

كنت أنا وآندرو قريبين جداً من روي جينكنز. افتقدت روي كثيراً بعد وفاته في وقت مبكر من كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٣. شعرت بأسفٍ كبير عندما نقل إليّ آندرو الخبر هاتفياً. كان روي في أعماقه رجلاً نزيهاً بالفعل. كان صديقي ومرشدي في وقتٍ واحد. إنني متأكد أنه كان سيتخذ موقفاً ضد الحرب في العراق، لكنه كان سيفهم السبب وراء قراري شنّ الحرب. اكتسب آندرو منه ليس سياساته فحسب بل

شخصيته السياسية، إذ كان عقلانياً، وعقلانيته تبحث عن الحقيقة. كانت المسألة المهمة بالنسبة إليه، كما بالنسبة إلى آندرو هي هذه: هل هذا صواب؟ وبعد حصوله على جواب عن السؤال الأول كان يطرح السؤال التالي: هل هذا من السياسة في شيء؟ كان قراري هذا يستند إلى السياسة، وهو اتّبع النهج الصحيح في السياسة، وبالمناسبة، إن هذا النهج صحيحٌ بالتأكيد مع الرأي العام. لكن هذا الوضع نادر جداً.

كان إد بولز مقتدراً جداً من الناحية الفكرية، كما لديه بعض المواصفات الأساسية الضرورية للقيادة: الجرأة والقدرة على اتخاذ القرارات. لكنه كان يشكو من المثقفين الذين يميلون إلى اليسار. سبق لي أن قلت في مكانٍ آخر إن هؤلاء يفتقدون الطموح. إنهم ينكرون الأمر بطبيعة الحال، لكنهم ينظرون إلى الطبقة الوسطى، ما عدا المثقفين منهم، من مواطنيهم غير الطبيعيين. لا يعني ذلك أنهم ينظرون إليهم كأعداء أو شيء من هذا القبيل، لأن في هذا القول مبالغة كبيرة، لكنهم يعتقدون أن الشخص الذي يهتمّ بنسب الضرائب المفروضة عليهم هو أنانيّ بالضرورة، الأمر الذي يستتبع أن يكون منحرفاً قليلاً من الناحية الأخلاقية. يمكنهم أن يفهموا أن تغريمهم ليس من اللباقة في شيء لكنهم سيعتبرون أن الإقدام على ذلك قد يكون خطأ.

وضع إد استراتيجية من أجل غوردون على أساس وجود علاقة تبادلية بين الإنصاف والأسواق. يدفعنا بلير بعيداً جداً نحو «سياسة السوق»، وهكذا يُبعدنا عن الإنصاف. يعني هذا الحديث أن الاختيار، والمنافسة، والتنوع، والمرونة، ما هي في النهاية إلا محاولة لتوجيهنا نحو نظام غير عادل [غير منصف] بطبيعته. يُضاف إلى ذلك ضعف الدوافع، لأن الأمر برمّته لا يعدو كونه جزءاً من ميلٍ نحو الطبقة الوسطى، التي تؤلف تاريخياً جزءاً صغيراً من مناصري حزب العمال، وذلك كله يجري على حساب الناخبين الأساسيين.

أضاف إد إلى شخصية الناقد المثقف شخصية الناقد الحزبي المشوش تماماً، الذي يُلحق ضرراً بالحزب. كانت تلك هي الرؤية، التي أخشى تأثرها بميل غوردون إلى التعامل مع الحزب، وهي المواجهات مع الحزب التي اخترتها كي أظهر للجمهور كفاءتي المستقلة. يعني ذلك أنني ضحّيت بالحزب كي أتودّد إلى الجمهور. كان ذلك رأياً شائعاً جداً.

كان الرجل يُظهر قدراً كبيراً من الاحترام. نجحت، مع الوقت وخلال اجتماعات كثيرة مع إد وغوردون، في حمل إد على التخلي عن تحفظاته تدريجاً. كنت أنا رئيس الوزراء، وهكذا نجحت في دفعه إلى التعبير عن آرائه الحقيقية. كان إحساسه الأساسي بأن هذا الهجوم على طريقة تفكير الحزب التقليدية يهدف إلى البرهنة على أنني «استثنائي». استخدم إد تعبير «الاستثنائية». كان يعني بذلك اعتقادي أنني أنا الوحيد الذي يمكنه الفوز، وأن هذه المناقشات بشأن أقساط التعليم، والإصلاح في المدارس، والإصلاحات في قطاعات الصحة، وبطاقات الهوية، واللجوء، والقانون والنظام، والخدمات الاجتماعية، كانت كلّها مصطنعةً من أجل خلق إحساس بوجود قائد فوق الحزب. اعتقد الرجل، وأظن أنه أقنع غوردون معه، أن بإمكان المرء أن يكون زعيماً تقليدياً لحزب العمال وأن ينجح مع ذلك.

قلت له مراراً إن من الخطأ بشكلٍ أساسي وخطر، إساءة فهم الأساس الفكري والأساسي لحزب العمال الجديد. يُعتبر هذا الأساس واضحاً تماماً من الناحية الفكرية: إن حكومات العالم كافة، وبالتأكيد تلك التي أُعيد انتخابها، تعمد إلى تعديل خدماتها الحكومية والعامة بحيث يتمكن المستهلكون والمستفيدون من محاسبتها، وهم الذين تعودوا اتخاذ خياراتهم وقراراتهم في مجالات أخرى كثيرة من حياتهم. يعني ذلك، برأيي، أن هذه الإصلاحات تتطابق مع المكان الذي يتوجّه إليه «الناس».

حاولت، من الناحية السياسية، أن أشرح أن هدفي من تولّي منصبي كان خلق حالة دائمة في حزب العمل الجديد تعني، بالتحديد، أنني لست استثناءً. كان من الواضح، حتى في العام ٢٠٠٢ أننا كنا أكثر حكومة عمالية قوةً، وثباتاً من أي حكومة سبقتنا. صحيح أنني أعتقد أن الزعيم العمالي لا يستطيع أن يكون سياسياً تقليدياً من حزب العمال ويفوز، لكني أقول ذلك لأنني أعتقد أننا مضطرون إلى تغيير التقليد. فإذا ما أصبح حزب العمال الجديد مكوّناً أساسياً في طريقة تفكير حزب العمال وعمله يصبح لنا تقليد مختلف، سيكون أكثر ثباتاً ومصداقية، وأكثر قبولاً من الهيئة الناخبة. لم أرغب في إطلاق مناقشات داخل الحزب، واخترت بدلاً من ذلك البدء بالإصلاح. لكن إذا لقي الإصلاح مقاومةً فعندئذ لا يُمكن للمرء تفادي المناقشات الحادة.

مضى العام ٢٠٠٢ فبدا واضحاً أننا عالقون كحزب. أما في مطلع العام ٢٠٠٣ فقد عقدنا اجتماعات إضافية بضغط من تشارلز كلارك. أصررت هذه المرة أن تتقدم وزارة المالية ببديل محدد وذلك بدلاً من إثارة الاعتراضات باستمرار على اقتراح زيادة أقساط التعليم الذي وضعنا خطوطه الأولية.

ومختصر ما كنا نقدم من الاقتراحات أن الجامعة، بدلاً من دفع أقساط التعليم التي تبلغ ١,١٥٠ جنيهاً سنوياً مقدماً، في حين أن الطالب يدفع رسماً متغيراً يصل إلى ٣,٠٠٠ جنيه سنوياً، ستعمد إلى تقدير الفرق الذي سيدفعه الطالب بعد تخرجه بوسائل مجربة. سيحصل الطلاب الأكثر فقراً بموجب هذا البرنامج على هباتٍ ومساعدات، وسيتم تشجيع إعطاء المنح. سيُسفر هذا البرنامج عن تعزيز مداخيل الجامعات بصورةٍ ملحوظة إلى نسبة تصل إلى ٣٠ بالمئة سنوياً. كان من الواضح أنه نظام أكثر إنصافاً. صحيح أن الدَّين سيزداد، لكننا سوف نستوفي الأموال من المتخرجين فور بدء العمل. سيحصل الطلاب الفقراء بموجب هذا البرنامج على مساعداتٍ حقيقية وهامة. قدّمت الحكومة بعض التنازلات التكتيكية في هذا السياق من أجل التخفيف من مرارة المشروع، وهو أمر معتاد في مثل هذه الحالات. تردّدت كثيراً قبل تقديم بعض هذه التنازلات التي أدت إلى رفع كلفة التعليم، لكن لم يكن هناك من شكّ في أن المشروع سوف يكون مفيداً لجامعاتنا التي ستصبح أفضل حالاً من أمثالها في البرّ الأوروبي، التي تعاني أوضاعاً صعبة. سيؤدّي هذا المشروع إلى حلبة المنافسة مع الولايات المتحدة. أخبرني بعض عمداء الجامعات بعد تطبيق الإجراءات أن هذا التغيير قد أدى عملياً إلى إنقاذ جامعاتهم من الانهيار المالي. يعرف خصومنا كذلك أننا ما إن نقدّم هذا البرنامج كمفهوم حتى لا يعود هناك من مجال للتطلع إلى الوراء.

دأبت وزارة المالية في المطالبة بمزيد من العمل والتحليل. أشارت الوزارة إلى أن اقتراحاتنا تتضمّن عدة نقائص. رددت على هذا بأن الأنظمة كلها ترافقها شوائب معينة. قدمت الوزارة لنا استطلاعاً يُظهر أن خطتنا لا تحظى بالشعبية. أجبت بأن التغييرات كلها لا تحظى بالشعبية، ما عدا توفير تمويل أفضل للجامعات عن طريق زيادة الضرائب عموماً، وهكذا لا تعود المسألة مسألة تمويل، بل تتحول إلى مسألة ضريبية، الأمر الذي لا يحظى بالشعبية بطبيعة الحال. كان مشروعنا، لهذه الأسباب

كلها، قضيةً كلاسيكية لتغيير كان ضرورياً ومحقاً، ولا أعتقد أنه سيحظى بشعبية في يوم من الأيام. يتوقع الناس في المقابل، وكما كنت أعتقد على الدوام، أن تتخذ الحكومات قراراتٍ غير شعبية، وهم يعرفون أنهم سيشكون منها مع أنهم يتوقعون أن قياداتهم ستتخطى هذه الشكاوى. لكن إذا كان على المرء أن يتخلى عن السلطة فستتوقف الشكاوى وتتحول إلى مذكرة رفض، وذلك لأن الناس يعرفون في أعماقهم أن حكوماتهم قد وُجدت لتحكم.

تمكّنا أخيراً من انتزاع بديل متعاطف من وزارة الخزانة، يُعتبر في كل أوجهه وغاياته ضريبةً صافيةً وبسيطةً على المتخرجين. لم يكن هذا البديل شعبياً بطبيعة الحال في استطلاعات الرأي. يُضاف إلى ذلك أن هذا البديل قد عانى مما أعتقد أنه عيب خطير وغير قابلٍ للإصلاح: نصّ المشروع على أن المتخرجين بدلاً من إعادة قيمة أقساطهم، ستُفرَض عليهم ضريبة، تعتمد على مداخيلهم، وليس على التعليم الذي تلقوه شخصياً. يعني ذلك أن الأمر لا يتعلق بتسديد الديون الشخصية، بل بدفع مجموع ديون الطلاب الشاملة. لم يعجبني هذا المشروع على الإطلاق، لأنه كسر الرابط الهام بين ما يحصل عليه الطالب والمبالغ التي يعيدها، كما أنه يغيّر من طبيعة نظامنا الضريبي بصورة كبيرة، لكن من دون عقلانية، ولا حساسية.

لم يلقَ المشروع البديل دفعاً كبيراً من قِبَل غوردون لا لشيء إلا لأنه من أفكار إد، وهكذا كاد يسقط. يعني ذلك أن القضية هي إما نجاح مشروعنا وإما بقاء الأمور على ما هي عليه. قلت أخيراً، أي في أواسط العام ٢٠٠٣: سنلتقي مجدداً في غضون شهرٍ من الزمن، وسيتخذ القرار النهائي، إما تركه وإما المضي قُدُماً فيه. مضينا بالمشروع، لكننا أضعنا وقتاً ثميناً.

كان آندرو أدونيس نجماً بكل معنى الكلمة، وهو الذي قدّم تحليلات لا نهاية لها، وتحليلات مضادة، كما عرض الحجج بوضوحه المعتاد، وبصبره وبأدبه، وبتهذيبه أثناء سوقها. كان آندرو النقيض الصارخ لإد. أعتقد أن إد سيفوز في أي منافسة سياسية، كما أنني أقول إنني رجلٌ ذكي عموماً، لكن فيما يتعلق بالجاذبية أمام الجمهور والذكاء فإن آندرو كان في مكانٍ آخر. فهم الرجل تماماً السبب الذي يدفعنا إلى تجاوز قاعدة حزب العمال التقليدية، وكان هو نفسه رمزاً للطموح، وهو

الذي كان والده موزع بريد ومهاجراً قبرصياً يونانياً. كان يعرف أن حزب العمال إذا أراد أن يحكم لفتراتٍ طويلة، فسيتعيّن عليه أن يتطلع إلى المستقبل بشكل أساسي.

رتّب أندرو الحقائق والحجج بعناية كبيرة. أعطى تشارلز كلارك دعمه القوي للبرنامج. شعرت للمرة الأولى بأن أشخاصاً، مثل تشارلز، وآلان ميلبورن، ودافيد بلنكيت، يقفون إلى جانبي، وهم يعرفون تماماً ما أريد فعله، والسبب الذي يدفعني إلى ذلك. إنهم يمتلكون القدرات ذاتها، ويمتلك كل واحدٍ منهم الموهبة السياسية ذاتها التي تمكّنه من حمل قضية حزب العمال من أجل التحديث والتغيير. عزّز كل واحد منهم تلك المواهب من خلال اجتماعات عديدة وما حملته من نقاشات مع قادة النقابات الذين يُظهرون قدراً كبيراً من العناد، ومع النواب المتطرفين سياسياً، ومع النشطاء اليساريين، ومجموعات متنوعة أخرى من المثقفين الذين كانت مساهمتهم الأساسية هي شرح السبب الذي يمنع أي شيء من التغيّر، وذلك لكونهم متطرفين حقيقيين.

أظنّ أن لدي القدرة على إقناع أي شخص بأي شيء إذا كنت مقتنعاً به حقيقة (وهي ميزة لم تفارقني قط)، لكن الآخرين كانوا أكثر واقعية، وأكثر فاعلية. كانوا يعرفون الفرق بين التكتيك والاستراتيجية، وكيف يجب التوفيق بينهما ومتى.

أقدمنا على تأخير حديث الملكة حتى وقتٍ متأخرٍ من تلك السنة، أي حتى أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر. استمرت أخبار العراق في الاستحواذ على اهتمامات وسائل الإعلام، وكذلك برزت أخبار المحاولات لمنع الإرهاب من تهديد الأوضاع الهشة في البلاد. برزت إلى جانب ذلك كله أخبار لجنة تحقيق هوتون. لكن السبب الحقيقي لتأخير الخطاب كان تنظيم ما أصبح بعد ذلك برنامج العمل الداخلي الهام المتعلق بالخدمات الصحية العامة، والمدارس، والسلوك الجرمي، وأقساط التعليم. تمكنت من التوصل إلى اتفاق من حيث المبدأ بشأن بطاقات الهوية بعد بعض المراوغة، وقدرٍ كبيرٍ من المعارضة من جيراننا في الرقم ١١. سارت كل هذه القضايا كلها بسرعة بعد مرورها عبر مراحل التشريع المتعددة.

أما قصة أقساط التعليم فقد وصلت إلى مرحلةٍ صعبة في التصويت بعد قراءة ثانية، وهي التي كانت مقرّرةً في نهاية شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٤.

كانت تلك نقطة حرجة، لكن يبدو من الغرابة التحدث عنها الآن، لكنها كانت كذلك فعلاً.

انتُخب مايكل هوارد زعيماً لحزب المحافظين، وارتكب غلطته الأولى بعد انتخابه مباشرة. ورث الرجل معارضة زيادة أقساط التعليم من إيان دونكان سميث. كان المحافظون، بطبيعة الحال، يعرفون جيداً أن عليهم دعم هذا الإجراء، أما سبب عدم قيامهم بذلك فهو استمتاعهم بفن المعارضة الجيدة.

دعونا الآن نترك المبدأ للحظة، أي مسألة إيجابيات السياسة وسلبياتها، وذلك من أجل التركيز على السياسة في ذاتها. كانت رؤية المعارضة التقليدية على هذا النحو: اعمل على كسب الأصوات أينما تستطع. تقول استطلاعات الرأي إن مسألة أقساط التعليم لا تحظى بالشعبية. أصبحت المعارضة تياراً عاماً، لذلك من الأفضل أن نركب هذا التيار.

يمكننا أن نعتبر ذلك أمراً صائباً من الناحية السياسية في حالات كثيرة. لكن إذا استعرضنا النقاشات حول نفقات نواب البرلمان فسنلاحظ أن مداخيلهم أقلّ مما يجب، وأن النفقات الإضافية تُستخدم من أجل زيادة المدخول، لكننا لا نستطيع أن نقول ذلك. ثارت احتجاجات الناس، وتحولت إلى حالة غضب. تحرك التيار، لكن كان من غير المنطقي تماماً توقّع مقاومة المعارضة، وبالمناسبة إن ذلك ليس من الحكمة في شيء على المدى الطويل. تأسفت على الدوام على هذه الخطوات التي اتخذتها المعارضة والتي انعكست تأثيراتها داخل الحكومة. لكن من الإنصاف القول إن هذا هو ما يحدث، لأن المعارضة تتوق إلى كسب الأصوات، أما المنافع التي تجنيها فهي قصيرة المدى.

تُعتبر هذه التيارات خطرة إذا توجّهت نحو اتجاهات تختلف معها آراء النخبة من الأحزاب كافة. كان الأمر غلطة، لكنها لا تستأهل هذا الضجيج كله، فعلى الرغم من أنها آراء النخبة وعلى الرغم من تبني عدد قليل من الناس لها، إلا أن النوعية عالية وتؤثّر في من يتبناها.

وقف معنا كل سياسي كبير من حزب المحافظين سبق له أن شارك في الحكومة،

وتمنى لو أنهم قاموا بإصلاحات مماثلة. كان رأي النخبة واضحاً: التغيير ضروريّ ومحق. لم يتمكن مايكل هوارد من كسب أصواتٍ كثيرة من جراء وقوفه مع المعارضة، بل خسر قدراً كبيراً من مصداقيته. ترافق موقفه هذا مع محاولته استغلال لجنة هوتون في وقتٍ وقف فيه إلى جانب الحرب مع العراق بكل حماسة، والأمر الذي ساعدنا كثيراً على تكوين حملتنا الكبيرة المضادة له، التي ركزت خصوصاً على أنه انتهازي، مما يعني أنه لا يُعتمد عليه.

يبدو اتهامه بالانتهازية هجوماً مفرطاً في البساطة، لكنه يتضمّن درساً هاماً. تعودت تطوير خط هجوم مع كل زعيم لحزب المحافظين، لكني كنت أفعل ذلك بعد قدرٍ كبير من التفكير. كنت أفعل ذلك استناداً إلى ملاحظة دقيقة لجلسات استجواب رئيس الوزراء PMQ، لكني لم أفرط قط في قساوة الهجوم مع أنني كنت أحاول دائماً أن أجعله مؤثّراً. حاولت على الدوام الحصول على موافقة غير السياسيين. لم أكن أتساءل عما يروق مؤتمر حزب العمال عند انعقاده بحضور أعضائه كافة، لكني كنت أهتمّ بما يروق زملائي القدامى في نقابة المحامين، الذين يرغبون في الحصول على قضية معقولة، وفي مناصرتها في حال اقتناعهم بها.

سبق لي أن عرّفت مايجور على أنه ضعيف، وهايغ على أنه أفضل بإلقاء النكات مما هو في الحكم على الأمور. أما هوارد فانتهازي، وكاميرون متقلب، ولا يعرف إلى أين يذهب. (قام المحافظون بالعمل نيابةً عني في إضعاف إيان دونكان سميث). تبدو هذه الهجمات ضعيفة حتى عادية ولا توحي بشيء إذا وضعناها على هذا النحو، لكن هذا هو ما يعطي الهجمات نكهتها. تُعتبر كل واحدة من هذه الهجمات قاتلةً بالفعل إذا ما لقيت حظها من التصديق. أجل، إن الأمر لا يشبه اتهام خصمك بأنه كاذب، أو محتال، أو وغد، أو منافق، لكن الناخب المتذبذب العادي يكتفي بهزّ كتفيه عند سماعه تلك الاتهامات التي لا تخلق صدى عنده، ويعتبر أنها مبالغ فيها، ومفرطة جداً، وتمثل إهانة وليس حُجّة. لكن الاتهامات الأقل حدة، وبسبب أنها أكثر دقة، ولأنها أقلّ حدةً بالذات، يُمكن أن تعلق في الذهن. ينتهي الأمر عند هذه الاتهامات، لأنها تعني في كل حالة من الحالات عدم وجود زعيم مناسب، وهكذا تنتهي اللعبة.

أقول للإنصاف، لو أن مايكل دعمني في قضية أقساط التعليم لكان ألحق بي

الضرر بين الذين يدعمونني، ولكان استفاد كثيراً بسبب رأيه العقلاني والراجح، ولما كان ذلك غيّر في النتيجة. لكنه لم يفعل ذلك، الأمر الذي أفادني كثيراً.

لم تكن المعارضة من جهتي قليلة، وهي التي قادها نيك براون وجورج مودي، وهما مقربان إلى غوردون ويعتبران من المنظّمين الماهرين جداً. إن لديّ فريقاً سياسياً يعمل لأوقاتٍ إضافية. فسالي مورغان قد بذلت أقصى جهودها، وعملت في أرفع المستويات. انتمت تلك السيدة إلى حزب العمال الجديد، لكنها استفادت من التدريب الذي تلقته في الثمانينيات عندما كانت في الاتحادات الطالبية، كما أمكنها التواصل مع النساء من نواب حزب العمال في البرلمان، وهي فعلت ذلك بطريقة عجز عنها الآخرون. أعرف أن هناك بعض النسوة لا يستطعن التواصل والعمل مع الأخريات، بينما تتمكن نساء أخريات من القيام بهذا على نحو رائع. لم تكن سالي امرأة عادية، لأنها كانت تستطيع الوصول إلى ما يتعدى حلقة حزب العمال الجديد، وتستطيع التحدث بأكثر من لغةٍ سياسية واحدة، وهي كانت واقعية باستمرار بشأن التحديات المطروحة. كنت أنا وتشارلز من مدرسة «دعونا نمض ونقم بهذا العمل»، وكان ذلك أمراً مناسباً، لكن القيام بالأمور على هذا النحو كان يعني الحصول على الأصوات الانتخابية. كنا بحاجة في ذلك الوقت إلى الحصول على أصواتٍ أكثر. أبلغتني سالي وهيلاري آرمسترونغ، التي كانت ناقدةً عظيمةً وماهرةً في شؤون زواريب سياسات نواب حزب العمال ودهاليزها، وبثقة أن التصويت يميل إلى التعادل.

عقدنا اجتماعاً في داوننغ ستريت قُبَيل عيد الميلاد ضمّني أنا وتشارلز، وسالي، وآندرو، بالإضافة إلى دافيد هيل الذي أصبح فيما بعد مسؤولاً عن العلاقات مع الصحافة بعد مغادرة آلاستير. سُررت جداً لأن دافيد قرر العودة والخدمة في صفوف الحزب بعد عدة سنوات قضاها في القطاع الخاص، وبعد أن كان كبير المسؤولين عن شؤون الصحافة في انتخابات العام ١٩٩٧.

قال تشارلز بنبرته المعهودة: «أشعر بثقةٍ كبيرة».

لاحظت سالي بلهجةٍ لاذعة قليلاً: «لا أرى سبباً حقيقياً لذلك. هل أجريت حسابات جديدة للأصوات التي جعلتك تعتقد ذلك، أم أنك تقول ذلك انطلاقاً من تفاؤلك؟ أقول هذا لأنني أهتمّ بالأصوات وأنت لا تحظى بها».

كانت تلك فترة بشعة. كانت الدورة الثانية من التصويت ستجري في ٢٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤، كما أن لجنة تحقيق هوتون كانت ستحضر في اليوم التالي. أدركت أن شهر كانون الثاني/يناير لن يكون مريحاً بالنسبة إلينا. كانت النتيجة السيئة في المناسبتين ستسفر عن وضع عوائق كبيرة أمامنا.

كنت أفكّر على الدوام أن المرء إذا دافع عن نقطةٍ مبدئية، فلا بدّ له من إيجاد طرق أسوأ لإنهاء النقاش. سبق لي أن قلت في مراتٍ كثيرة إنني لا أتمسك بالبقاء في منصبي. شرحت هذا أمام سالي عندما جلسنا لتناول كوب من القهوة بعد مغادرة الآخرين. قالت لي بلهجةٍ لاذعةٍ مترافقة مع ابتسامة صغيرة: «حسناً، إنها خطوة عظيمة من جانبك. أنا متأكدة من ذلك. لكن عليك، إذا لم تمانع، التركيز على كسب التصويت».

سألتها: «إذاً كيف سنكسب؟».

أجابت: «لا يمكنك الفوز من دون دعم وزير الخزانة الكامل والصريح».

كان ذلك هو جوهر القضية.

بدأت في وقتٍ مبكر من السنة الجديدة أحاديثي مع غوردون، وتركز النقاش حول تركي لمنصبي. ربما لا تكون هذه الخطوة حكيمةً في كل وجهٍ من أوجهها، لكني شعرت بالإرهاق الحقيقي. واجهت عقباتٍ كثيرة عند كل المفاصل الأساسية من مفاصل سياستنا، وكذلك استشعرت وجود عقباتٍ كثيرة في الطريق أمامنا.

كانت أولى المستشفيات المستقلة إدارياً على وشك الظهور. اخترنا منها تلك التي تتمتع بأعلى المستويات، إذ تحصل على قدر أكبر من الحريات، والسلطات، والقدرة على الاختيار. كانت تلك أول خطوة كبيرة في سبيل تكوين مؤسسات ذات إدارة ذاتية وقادرة على إحداث تغييرات في عالم العناية الطبية بالطريقة التي تريدها، وذلك من أجل مواجهة التحديات التي تفرضها التغييرات في عالم العناية الصحية الحديث.

كانت المشكلة الجوهرية في نظام التقديمات والخدمات الصحية العامة هي في جمودها، وفي غياب الحوافز التي تشجع على الإبداع. كان النظام يتعامل مع

الممارسات السيئة بمثل ما يتعامل مع الممارسات الحسنة، وكان ذلك كله يجري في ظل المصالح المهنية القوية، ودعم شعبي واسع، لكن من دون أن يكون على علم بما يجري. كانت المؤسسات ذات الإدارة الذاتية أول اختراقٍ في جدار الجمود. تبعتها بعد ذلك القدرة على الاختيار، وإدخال القطاع الخاص، والتغييرات الهامة لممارسات العاملين في هذا القطاع.

بدأنا مع آلان ميلبيرن مهمة إدخال هذه الإصلاحات في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٢. أثارت هذه الخطوة مناقشاتٍ عنيفةً مع وزارة الخزانة، لكن غوردون شعر بأن آلان يعارضه بشدة. لم يواجه غوردون المشكلة بصراحة، كعادته، لكنه واجهها بحجّة تتعلق بوزارة الخزانة: تتمتع مستشفيات الإدارة الذاتية بالقدرة على الاستقراض، وهكذا فهي تمثل خطراً على المال العام. بدا الجدال وكأنه لا نهاية له، ومليئ بالضغينة، ومثير للبلبلة. كان آلان قد ترك الحكومة عندما تمكّنا أخيراً من الموافقة على القانون، بعد ضغطٍ شديد، وبعد أن بنى كثيرون موقفهم على معارضة وزارة الخزانة لهذه السياسة.

جاءني آلان في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٣، أي قبل شهر من التصويت كي يراني. كان يعرف أن التصويت سيكون ضربةً سيئةً، لكنه سئم من الأمر. شعرت بالأسف الشديد على مغادرته الحكومة، لكونه وزيراً استثنائياً. إنني لا أُرجع سبب استقالته إلى خصومته مع غوردون، لأن هناك أسباباً عديدة ضغطت عليه للرحيل، وكان من بينها أن على المرء أن يكون حذراً في السياسة البريطانية.

إن كون المرء في أعلى هرم السياسة البريطانية يعني مجازفته بحياته كل يوم. حسناً، أعرف أن السياسة هي عمل شاقّ في ذاتها، وهي لا تصلح لأصحاب القلوب الضعيفة، وقد كان الأمر هكذا على الدوام، لكن في عالم السياسة هذه الأيام تبدو الضغوط عميقةً جداً، والانتقادات قاسية، والتصويب عشوائياً، الأمر الذي يعني أننا موجودون في خطرٍ شديد يمهّد لخلق ظرف يشعر فيه الأشخاص «العاديون» بميل إلى الانسحاب وترك الأشخاص الطموحين والمتحمّسين وغريبي الأطوار مكانهم. لا يعمد الناس، بطبيعة الحال، إلى الانسحاب على الدوام، لكن يمكننا إرجاع رغبتهم الكامنة في ذلك إلى خوفهم من أن تشملهم القوة المطلقة لعاصفة الفضائح والدسائس التي تبدو بلا نهاية. إن شخصاً ذا حياة، وأسرة، ومصالح لا

تتعلق بالسياسة، وقدرة على القيام بأمورٍ أخرى سيشعر بميلٍ قوي إلى الانشغال بهذه الأمور وترك العاصفة وشأنها.

كان آلان هو أول شخص (على الرغم من أن إستيل تبدو من النموذج ذاته) ترك منصبه، في فترة ولايتي، لأنّه يرغب في ذلك فقط. كان شاباً نسبياً، أي إنه كان دون الخمسين من عمره، وكان على مستوى مواهبه، لكنه اختار ترك المنصب. لا حاجة بي إلى القول إن طاحونة الشائعات رفضت أن تصدق أن شخصاً قد يُقدم على اتخاذ هذا القرار العقلاني، ويجهد كثيراً في اختلاق كل الأسباب «الحقيقية» التي تدفعه إلى ترك المنصب. لكنه ترك منصبه للسبب الذي أعطاه: لم يعد يستمتع بالمنصب لذلك أراد تركه.

طُلب إلى جون ريد أن يملأ الفراغ. تردّد في البداية، لكنه كان اسكتلندياً، وكانت سلطات الخدمات الصحية في اسكتلندا قد نُقلت إلى السلطة التنفيذية الاسكتلندية بموجب قوانين اللامركزية. أعتقدُ أنه لربما شعر بأن المنصب ما هو إلا كأس مسمومة لأنه كان مدار جدالٍ سياسي حام، وهو تابَعَ، بالتأكيد، المناقشات التي جرت بين آلان وغوردون. تنقّل الرجل في عدة مناصب، ولذلك أراد البقاء في مكان واحد لبعض الوقت، لكني كنت متأكداً أنه يصلح للمنصب. كان رأيي فيه صائباً لمرة واحدة: فهم الرجل تماماً الأسباب التي تدعو إلى الإصلاح، وفهمَ سياستها، كما فهم كيفية الدفاع عنها بين أوساط الحزب والناس على السواء، كما أنه صمّم على المضي قُدُماً بهذه الإصلاحات. كان مناسباً تماماً للمنصب، كما أنه كان قادراً تماماً على مواجهة غوردون، وعلى فعل ما هو أكثر من ذلك، الاستمتاع بذلك. اعتقد جون، ولا أدري مدى صوابية اعتقاده، أن غوردون قد حاول إثارة فضيحة حوله في وقتٍ سابق، لكن جون ليس بذلك الشخص الذي ينسى هذه الإهانة. كان مستعداً للعمل معه، لكنه لم يكن على استعداد للخضوع.

كان دافيد بلنكيت في هذا الوقت يحرّك برنامج [إصلاح] القانون والنظام بنجاح كبير. تحدث خطاب الملكة الذي ألقته في العام ٢٠٠٢ في جوهره عن تشريعات السلوك الجرمي. عمدنا كذلك إلى نشر أول دراسة عن بطاقات الهوية. كان الإجراءان محقين في ذاتهما، وكان لهما دورهما في خطة سياسية هامة.

كان السلوك الجرمي، والجرائم الصغيرة، في عدة أحياء، وخصوصاً تلك الموجودة في الأنحاء الأكثر فقراً من أي بلدة أو مدينة، هما مصدر القلق الأول فيها. إن الرسوم الجدارية، والاتجار بالمخدّرات، والعنف، والإساءات هي عوامل قادرة على تحويل حي رائع إلى حي مريع في غضون أشهر قليلة. لكن بالنسبة إلى نوعية الحياة فهي أهمّ قضية. أما إذا عاش المرء في مكانٍ كهذا فسيعرف ما أعنيه بالضبط. جاء الأميركيون بفكرة «عدم التحمل» لمعالجة هذه المشكلة، كما أن قوانين السلوك الجرمي تستند إلى المفهوم ذاته. وهو ما يعني أنك إذا تحمّلتَ الأمور الصغيرة فسرعان ما ينتقل الذين يخرقون القانون من الانتهاكات البسيطة إلى الانتهاكات الأشدّ خطراً. هذا هو السبب الذي يدعو إلى القضاء على الأمر في مهده، أي عدم تحمّل أي شيء، ولا حتى الرسوم الجدارية، أو حتى إلقاء النفايات. يتفق هذا المفهوم برمّته مع اقتناعي بوجود المجتمعات المتماسكة التي تستند إلى تحسين الفرص، وإلى مستوى مسؤوليات أكبر. كنا نستثمر المليارات في تجديد المناطق الداخلية من المدن، لكن ذلك لا يعني شيئاً إذا تدهورت الحياة في الشوارع نتيجة الخروج على القوانين والفوضى.

إن سبب الحاجة إلى قوانين خاصة لمواجهة السلوك الجرمي كان بسيطاً جداً: الجرائم الفردية صغيرة في ذاتها بحيث لا تستدعي جهداً كبيراً من جهاز الشرطة، كما لا تستدعي فرض عقوبة كبيرة. لم يبذل أي شخص جهداً كبيراً لأن الجرائم كانت تُعامل بطريقة تقليدية. أما هدف القوانين الجديدة فكان وضع هذه الجرائم الصغيرة تحت أحكام السلوك الجرمي، وتبسيط الإجراءات، وفرض قيود حقيقية على منتهكي القوانين.

أثارت هذه الاقتراحات معارضةً شديدةً بطبيعة الحال، وكانت محقة في بعض الحالات، لأن الاقتراحات تضمّنت اختصار الإجراءات التقليدية. لكن يمكنني القول إن هذه المعارضة لم تظهر قط في الأحياء التي تكثر فيها هذه الجرائم الصغيرة، بل إنها طالبت بفرض المزيد منها. شعر المحافظون بالارتباك، وبأنهم مجبرون على المعارضة لأن أصدقاءهم من المحامين إما كرهوا تلك الأفكار وإما اختلفوا معها برمّتها. وافق مناصرو المحافظين على أي حال على هذه الإجراءات،

وهم من المفترض أن يكونوا حزب القانون والنظام. واجه المحافظون الإجراءات بالطريقتين، لكنهم فعلوا ذلك بشيء من عدم الارتياح.

كانت بطاقات الهوية أمراً مختلفاً تماماً. كانت هناك كتلة آراء معارضة لا يُستهان بها، وكان عدد منها يُخفي أسباباً عملية. أما أنا فكنت مقتنعاً بأن هذا الإجراء ضروريّ لسببين: أولاً، لم أرَ بديلاً آخر لمواجهة الهجرة غير الشرعية. كنت قلقاً حيال مسألة الهجرة في ذاتها، لأنني أعتقد أن عدم علاجها يمثّل تهديداً للعلاقات الطيبة بين الأعراق. ثانياً، اعتقدت أن البطاقات سوف تساعد، بمرور الوقت، على تبسيط المعاملات في القطاعين العام والخاص، اللذين أصبحا هذه الأيام أساس الحياة العادية. أما عقود الرهونات، والسحوبات من المصارف، وبطاقات الاعتماد، والمشروبات الروحية لمن هم دون السن القانوني، والتعامل مع ذلك العدد الكبير من الخدمات العامة، والخدمات الاجتماعية [الرفاه الاجتماعي] كلها تعاملات تتطلب، عادة، نوعاً من أنواع إثبات الهوية.

أمكنني ملاحظة المشاكل العملية كلها التي ترافق هذا المشروع، كما تمكّنت من تصوّر الوقت الذي سوف تستغرقه. أعتقد أن حجج الحريات المدنية هي في غير محلها بعض الشيء لأنني أعرف أن عدداً كبيراً من الدول الديمقراطية الناجحة يعتمد بطاقات الهوية، أما المعلومات المخزونة فيها فهي أقل من تلك التي تحتفظ بها بطاقات المتاجر الكبرى. لكن العامل الأهمّ بالنسبة إلي فهو عامل تقني. أتاحت لنا التقنيات الحديثة إمكانية إعداد بطاقة بواسطة بصمات الأصابع وحدقات الأعين، يصعب تزويرها، وهكذا تكون فرصةُ التلاعب أو إساءة الاستخدام قليلة جداً. جاءت هذه البطاقة نتيجة تضافر طرق المعيشة والتكنولوجيا المتغيرة وهي كلها العوامل التي أقنعتني بأنها صحيحة.

قرّر المحافظون الوقوف ضد هذه الخطوة بعد شيء من الأخذ والرد. فقد ارتكبوا غلطةً مرةً أخرى برأيي.

أظهر غوردون عدة حجج هامة ضد بطاقات الهوية، لأن الكلفة وطبيعة البطاقات العملية هما قضيتان مهمتان. أما حجته ضد تشريعات السلوك الجرمي فكانت واحدة من تلك التي تلقاها من مستشاريه. لدى غوردون جهاز استطلاع آراء، لكن هذا

الجهاز تعود في بعض الأحيان، ويا للأسف، إعطاءه معلومات عديمة الفائدة. كانت حجته هذه المرة أن قضايا الهجرة والقانون والنظام ذات أهمية كبيرة، وذلك لأننا أصررنا على التحدث عنها. أما دافيد على الخصوص فقد اتُهم بإثارة القضايا بدلاً من الاستجابة لها.

تعاملت مع هذا الموضوع مع بعض الدهشة. يتطلب الأمر منك أن تجول في البلاد لمدة نصف ساعة كي تدرك أن هذه القضايا كانت حقيقية جداً وحيوية جداً. أما فكرة أن هذه القضايا ستتلاشى من تلقاء ذاتها إذا ما توقفنا عن التركيز عليها فقد كانت تتصف بالجنون التام. وعلى العكس من ذلك، إن الأمر الوحيد الذي منع هذه القضايا من قلب الأمور عندنا فقد كان بسبب تحدثنا عنها وسعينا لأجلها. لم يكن ما فعلناه كافياً بطبيعة الحال، لكن عدم القيام بأي شيء كان أسوأ ألف مرة.

لم تقدّم وزارة المالية في هذه المسألة آراء كثيرة، وهكذا كانت المعارضة غير قادرة على منع الإجراء، هذا إذا لم تكن خامدة.

أخشى أن يكون القارئ حصل على الصورة العامة: كنت أدفع بالإجراءات قدماً، وكان غوردون يعارضها. كان الأمر برمّته مثيراً للإحباط ومنهكاً. عدت إلى المشكلة الرئيسة مجدداً: كيف نتعامل مع المسألة؟

كانت إقالة غوردون من الحكومة في ذلك الوقت، حتى في العام ٢٠٠١، من شأنها التسبب بانهيار كل شيء من حولنا. إذ كان يتمتع بدعم كبير في أوساط الحزب، كما حصل على دعم من ذوي النفوذ في وسائل الإعلام. اختلفت مع بول داكر من الدايلي مايل، في حين توطّدت علاقته به. كان روبيرت مردوخ معجباً بغوردون. وفي حين أبعدتني مسألة العراق عن قضايا اليساريين، توطدت علاقة غوردون معهم. صنّفه بعض الأشخاص الجدّيين، ولأسباب وجيهة جداً، على أنه وزير خزانة ممتاز، وذو فكر ثاقب، وطاقة ضخمة وهائلة ودوافع قوية. وإذا كان مشكلةً بالنسبة إلي، إلا أنه لم يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة إلى أي شخص آخر، إلا بالنسبة إلى بعض الوزراء الآخرين، لكن تلك المشاكل لم تكن كبيرة، بالنسبة إلى الآخرين وإلي أنا أيضاً، بما يكفي لمواجهته. كان متيقظاً على الدوام كعادته وحريصاً على عدم إظهار وزارة الخزانة على أنها تعارض الإصلاحات.

يُضاف إلى ذلك كله أن النتيجة كانت، على الرغم من كل المقاومة التي ظهرت، إبطاء العملية وليس إيقافها. أُقرّ كل إصلاح من الإصلاحات وإن كان بصعوبة. أعتقد أن الأمور لكانت أسهل بكثير لو أنني حصّلت على دعمه، لكنه كان بمثابة كابح، ولم يكن جداراً فاصلاً.

كان البديل المتاح أمامي لإقالته هو ذلك الذي اخترته: محاولة أخيرة للتوصّل إلى تفاهم معه، ومحاولة تطمينه أنه إذا تعاون معي، وإذا اشتركنا في البرنامج ذاته، فسأسلّمه منصبي قبل الانتخابات المقبلة.

كانت تلك خطوة غير حكيمة من جانبي لأن حظوظ نجاحها كانت قليلة جداً. أما الأمر الثاني الذي لم يتصف بالحكمة بكل تأكيد فقد كان استخدام جون بريسكوت كفاصل بيننا. إنني لا اقول ذلك لأن جون كان سيّئ النية، بل على العكس من ذلك كان مندفعاً بما أعتقد أنه يناسب حزب العمال، لكن المشكلة كانت في اعتقاده أن الفروق السياسية فيما بيننا كانت غير هامة. اعتقد جون أن هذه الفروق هي شخصية في جوهرها. كان لجون تحفظاته العميقة بشأن حزب العمال الجديد، وهي التحفظات التي حجبت عنه حقيقة أن الخلافات تمتدّ إلى جوهر ما يمثله حزب العمال الجديد.

أما بالنسبة إليّ، فعلى الرغم من أنني كنت أغضب في بعض الأحيان، وأشعر بالإحباط، نتيجة سلوك غوردون إلا أن الأمر لم يكن شخصياً في حقيقته. كان الأمر المهمّ هو إنجاح برنامج حزب العمال الجديد، والبرهنة على أن حزب العمال هو الحزب الذي يستطيع، بسبب تغيّره الذاتي، تغيير الخدمات العامة ودولة الرفاه التي ساعد على إنشائها، وتغيير هذه الخدمات جذرياً وجعلها مضمونة لأننا جعلناها حديثة ومناسبة للقرن الواحد والعشرين، ومناسبة لعالم ابتعد في تفكيره كثيراً عن العام ١٩٤٥. رأيت في هذه الإصلاحات النجاح الأمثل لمهمتي: البرهنة على كيفية تمكّن السياسات التقدمية، والحديثة في ذاتها، من تحديث الدولة، ومن الابتعاد بحزب العمال عن التعلق بماضيه الجامد والتقليدي، وهي التي ساعدت البلاد على التخلص من هذا الجمود والتعلق بالماضي. أعتقد أنني تمكنت من ملاحظة أين كانت الثاتشرية مصيبة، وأين كانت محدودة على نحو خطر وحاد. اعتقدت كذلك، وتزايد اعتقادي بمرور الزمن، أن سياسة جديدة قد انفتحت بحيث إن التمايزات

التقليدية بين اليسار واليمين لم تعد متداخلة، ولم تعد غير مساعدة على نحو شامل في تحليل الماضي، أو حتى المستقبل.

هل كان من العقلانية في شيء بالنسبة إليه إعاقة بعض الإجراءات لمجرد عدم استعدادي تسليمه منصب رئيس الوزراء؟ بالطبع لا. دعونا الآن ننظر إلى المسألة من وجهة نظره: الانتظار المستمرّ، الخوف من تضحيتي بكل السمعة السياسية [للحزب] قبل أن يتسلم المنصب، والخوف المستمر من مرور الوقت.

أريد الآن النظر إلى المسألة من وجهة نظري أنا: ستمر عليّ بنهاية العام ٢٠٠٤ سبعة أعوام في الحكم. أتعبتني أعباء منصبي. أتعبتني أحداث ١١ أيلول والعراق. أتعبتني الخصومة معه. رحل بيتر، وكذلك آلاستير، وآنجي. كبرت الظلال حجماً واشتدت قتامة.

والآن، هل أشكّل أنا عائقاً ليس أمام المنصب الذي يتوق إليه فقط، بل أمام قدره؟ أيمكننا أن نفترض أنه ما إن يحصل على المنصب سيتغيّر، ويسترخي، ويكسر صدفته التي تحميه قبل أن ينطلق بالتحليق؟ أما الأمر المهم بالنسبة إلي فهو البرنامج [الإصلاحي]، وهكذا فأنا أعتقد أنه إذا أكمله هو، بعد أن بدأت به أنا، فسيعود الفضل إلينا نحن الاثنين. ما الذي يمنعني من إنزال الحمل عن عاتقي إذا وافق على متابعة البرنامج، وما الذي سيمنعني من مغادرة منصبي والخلاص؟ تصوّر معي الارتياح الذي سأشعر به، وتصوّر الحرية، وتأمّل معي الحياة الجديدة التي تخلو من الإجهاد، والإرهاق، والصراع. إنها الحياة التي تسمح لي بالتفكير، وتسمح لي بالبناء، وبدراسة فلسفة الأديان، وهي الدراسة التي تُثير اهتمامي، واحتمال أن أتمكن من تحقيق شيء أكثر أهمية مما حققته في عالم السياسة.

كان ذلك مجرد خيالٍ بطبيعة الحال، لكنه في الحقيقة كان أسوأ من ذلك؛ كان عملاً جباناً. شعرت بالإنهاك التام، هكذا بكل بساطة وصراحة. لم يكن من عظمةٍ فيه، ولا سمو. لا علاقة للأمر بالأقدار، سواء أقداره أو أقداري لأنه صدر عن الضعف العادي الذي يميز إنساناً عادياً.

اتفقنا على أن نلتقي في شقة جون التي تقع ضمن أدميراليتي هاوس في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٣. كان اللقاء الذي سبقه عاصفاً جداً وغير مثمر

بالمرة. كانت تفصلنا أسابيع قليلة عن التصويت على أقساط التعليم، لكن النتيجة بقيت غير مضمونة بالمرة. عارضني طاقم مكتبي في تناول الغداء مع جون وغوردون، كما أطلقوا تخمينات بالنسبة إلى نتيجة الاجتماع. لا يعني هذا أنهم لا يثقون بجون، أو أنهم يعتقدون أنه يقف ضدّي، لكنهم اعتقدوا أنه يظن أن أحدنا يمكن أن يستبدل الآخر في حين أن الواقع لم يكن كذلك، وهكذا لم يثقوا بحدسه كثيراً.

سرت عبر هورس غاردس باراد في وايتهول. كان ذلك في أمسية باردة، وكانت الباحة خالية. دخلت من المدخل الجانبي، وشققت طريقي نحو الشقة مستخدماً المصعد. كانت الشقة كبيرةً ومؤثّثةً تأثيثاً جيداً، لكني اعتبرتها شاحبة، أي كما هي الحال مع سائر هذه الأماكن الممنوحة من الدولة. أما منزل جون وبولين في هال، الذي كان فندقاً لجيش الإنقاذ، فهو ذو سماتٍ أكثر تمايزاً، لكن الشقة كانت مريحة ومناسبة.

تناولت شراباً مع جون ثم انتظرنا غوردون الذي أتى متأخراً بعض الشيء عن الموعد. جلسنا لتناول العشاء على الفور. تميّز الحديث ببعض الخشونة. طلبت إلى جون بعد فترة أن يتركني أنا وغوردون كي نتحدث بمفردنا. أبلغت غوردون مخاوفي بصراحة، وقلت له إنني مستعدٌّ للرحيل، وهذا ما أعلنته مراراً، وذلك لأنني أردت قضاء ولايتين فقط، لكن عليه إزالة العقبات المستمرة والمنع المتعمد اللذين يواجهان برنامج الإصلاح. أنكر، كعادته على الدوام أنه يعرقل، وقال إنه يثير نقاطاً مالية مشروعة فقط. قلت له إنني أريد أن أعرف أنه ملتزم برنامج الإصلاح مئة بالمئة، وأنه سوف يُكمله بعد أن أترك المنصب. قال لي إنه سوف يُكمله بكل تأكيد. عاد جون فقلت له: «أوضحت أنني لن أتولى رئاسة الحكومة لفترة ثالثة، وأنني أودّ ترك المنصب قبل الانتخابات، لكني أحتاج إلى دعم غوردون الكامل وغير المشروط». قال جون إنه يعتقد أن كلامي هذا معقول، وهكذا افترقنا على هذا الأساس.

عرضتُ الأمور بكل صراحة من جهتي، لكنه قال: تلقيت تأكيداتٍ أن طوني سوف يترك منصبه. قلت: تلقيت من غوردون تأكيدات بالتعاون وبإكمال البرنامج. يمكنكم الآن الجدال في شأن من احترم كلمته ومَن لم يفعل.

غيّرت، ويا للأسف، رأيي في الوقت المناسب. كان ذلك تأكيداً ما كان يجب

أن يُطلب أو يُعطى. لم يكن من حقنا قط إعطاء السلطة بهذه الطريقة. أؤكد أن ذلك ليس من حقنا، كما ليس من الحكمة، ولم يكن أمراً صائباً من الناحية السياسية، وكذلك من الناحية الديمقراطية.

يُضاف إلى ذلك كله وجود عيب في جوهر هذا الطلب. إن العرض الذي قدّمته بالتخلي عن منصبي مقابل الموافقة على برنامج الإصلاح لهو أمرٌ يوحي، بعد التفكير فيه، أنني غير مؤهل لمنصبي. إنه أمر يعاكس متطلبات الزعامة أياً تكن هذه الزعامة. إن الإذعان لهذا المطلب هو عملٌ يُخفي استعجالاً عميقاً للحصول على المنفعة. لم أكن أعرف ماذا أفعل في ذلك الوقت، لكني أعتقد أن شعوره من جانبه بأنه مؤهلٌ للمنصب في ذلك الوقت هو أمر ما كان يجب أن يُثار في مناقشات مكتب رئيس الوزراء لأن ما من أحد «مؤهل» لهذا المنصب، وهو موضوع أخذ النقاش يزداد فيه منذ ذلك الوقت. ربما كان سيحصل على المنصب على أي حال، ولربما يجب أن يكون في ذلك المنصب، لكن ليس عن طريق الرجل الذي يحتلّ هذا المنصب، والذي يعطيه إلى شخصٍ آخر.

لا أقصد أن أعطي درساً عظيماً حول الديمقراطية، إذ من غير المستغرب أن يختار رئيس الوزراء خلفاً له. لكنّ النقطةَ التي أريد التشديد عليها هنا هي نقطة سياسية، وهي أن ذلك هو طريقة سيئة لأخذ خيارات.

يبقى سؤال بديهي بطبيعة الحال، وهو سؤال طرحه عليّ الأصدقاء تكراراً، وطرحه خصومي في بعض الأحيان، وهو سبب عدم إقالة غوردون من منصبه. كان ذلك سؤالاً مشروعاً تماماً، لكنه لا يحمل جواباً واضحاً.

كان بعض موظّفي مكتبي المقربين يقولون لي: إنك لا تدين له بما تظنّ أنك مدين له، وذلك لأن صداقتك السابقة معه لا ينبغي أن تقف عائقاً أمامك.

لم يمنعني من إقالته لا الإحساس بالواجب ولا الصداقة. أما السبب فهو أنني أخالف الرأي القائل إن غيابه عن الحكومة هو أفضل من وجوده فيها. إذا نظرنا إلى طبيعة سلوكه، وخصوصاً عند اقتراب نهاية ولايتي، فسيتضح لنا أن ذلك الافتراض هو أمرٌ استثنائي. أما الإجابة عن سؤال: «هل كانت الحياة ستكون أسهل إذا كان بعيداً عن الحكومة؟» فتبدو واضحة تماماً على أي حال. تفترض الإجابة أن كل

الأمور كانت ستبقى على حالها لو أنه أُقيل. كان العالم سيبقى هو ذاته، لكن من دون غوردون.

لا أعتقد أن هذه هي طريقة عمل السياسة.

يتعيّن على القائد السياسي في النهاية أن يعالج المواقف المعقّدة وأن يحكم عليها. يُمكن أن يُقال إن غوردون كان موقفاً معقداً يتطلب المعالجة. أعتقد أن ثمة فرقاً كبيراً بين إدارة الأمور السياسية وإدارة شركة أو فريق كرة القدم. شددت أثناء حديث أجريته مع أليكس فيرغسون على النقطة التالية. سألته: «ماذا تفعل إذا كان لديك لاعب لامع، لكنه صعبٌ بالفعل ويسبّب لك المشاكل؟». أجابني: «كنت سأتخلّص منه». أجبته: «لكن لنفترض أنه بقي في غرفة تبديل الملابس بعد أن طردته، وبقي في الفريق؟» أجابني ضاحكاً: «إنها قضية أخرى».

يتمتع غوردون بدعم كبير داخل الحزب وفي أوساط وسائل الإعلام. كان يُعتبر وزير خزانة عظيماً، وكلنا نعتبره وزيراً قوياً. أما الآراء التي توحي أن من الأفضل بالنسبة إلي أن أقيله من الحكومة، أو على الأقل تخفيض رتبته، فهي لا تأخذ بالحسبان أنني لو فعلت ذلك لكان الاضطراب قد أصاب الحكومة والحزب على الفور، ولعل ذلك كان سرّع عملية وصوله إلى منصب رئيس الوزراء. كانت وسائل الإعلام، سواء من اليمين واليسار، قد أصرّت في العام ٢٠٠٤، ولربما قبل ذلك الوقت أيضاً، على القول إن تصرفي سيكون عن حقد وخاطئاً لو أنني اتخذت هذه الخطوة. يسهل علي أن أقول الآن، وعلى ضوء الفترة التي أمضيتها كرئيس للوزراء، إن الأمر كان لا بد أن ينتهي، مع أنه بدا مستحيلاً في ذلك الوقت. أعرف أنني كنت سأحظى بدعم قليل من الأوساط النافذة لإقدامي على هذه الخطوة. أعرف أيضاً أن بعض أشدّ ناقدي غوردون كانوا يتكلمون بلغةٍ مختلفة في ذلك الوقت.

لم يكن ذلك هو سبب عدم إقدامي على هذه الخطوة، لأنني لو قررت أنه غير مؤهل للبقاء وزيراً للخزانة لكنت أقلته من منصبه، حتى ولو أدت هذه الخطوة إلى تسريع إقصائي عن منصبي. إن عدم إقدامي على هذه الخطوة لا يعود إلى افتقادي للجرأة، كما لا يتعلق الأمر بإدارة وضع معقد. أعتقد أن هذا يعود إلى ظني أنه، وعلى الرغم من كل شيء، أفضل وزير للخزانة للبلاد.

كوّنت هذا الرأي عنه لسببين. أولاً، مثلما كانت سمعة غوردون عطرة وخاطئة لمصلحته، عندما كان تحت مظلتي كرئيس للوزراء، وما زالت خاطئة حتى هذه الأيام لأنها تقلّل من تقدير نقاط قوته الجيدة. أقول للإنصاف إنني كلما فكرت في بديلٍ له كنت أستنتج أنه الأفضل لتلك الوظيفة. أعطى غوردون الحكومة ثقلاً، وصلابة، وقوة. أما من جهة حسناته فقد كان عدد كبير من تدخلاته ممتازاً، وخصوصاً على المستوى الدولي. كان فكره، وطاقته، كبيرين ومفيدين للبلاد. في وقتٍ ما من العام ٢٠٠١، تسرّبت أحاديث عن تولّيه منصباً دولياً ذا شأن. فكّرت كثيراً في ذلك الوقت، وقررت أن الحكومة سوف تكون أضعف من دونه، ولن تكون أقوى.

فكرت في وقتٍ لاحق في الأشخاص الذين يمكنهم أن يحلّوا محله. اصطدمت بالواقع غير المريح ذاته، وأعتقد أنه واقع محسوم. كان مميزاً من الآخرين. لم تبدأ شخصيات مؤهلة وذات خبرة من داخل حزب العمال الجديد والأصيل بالبروز إلا في النهاية، وهي الشخصيات التي تتمتع بما يكفي من الأقدمية والخبرة بحيث تتمكن من الحلول مكانه.

أما السبب الثاني فعلى الرغم من أن غوردون عارض عدداً كبيراً من الإصلاحات وتسبب بإبطائها، لكنه لم يمنع حدوثها. لقد حققنا هذه الإصلاحات، فأدخلنا حق الاختيار، والمنافسة جوهر الخدمات الصحية العامة عند رحيلنا. وكانت الأكاديميات قد بدأت بشق طريقها إلى الأمام، كما أُقرّت القوانين المتعلقة بالجرائم، وقوانين أقساط التعليم، وكذلك كنا انتهينا من صوغ إصلاح قوانين الرفاه الاجتماعي والتقاعد، هذا إن لم تكن قد دخلت قيد التطبيق. لا يمكننا اعتبار ذلك كله بنوداً ضئيلة، وذلك لأنها كانت تغييرات كبيرة. دعم غوردون هذه الإصلاحات في نهاية الأمر، مع أنه لم يكن يفضّل أن يُطلقها، لكن ما إن وصل الأمر إلى نقطة الحسم حتى انضمّ إلى المسيرة. أُقرّت هذه القوانين كلها، وهنا يكمن درسٌ هام. هناك سبب آخر، غير السبب الرئيس الذي يتمثّل في حزب العمال الجديد، جعل الحكومة العمالية الأولى تفوز بولايتين متتاليتين وكاملتين، هذا إذا لم نقل ثلاث ولايات، وجعلها تحكم لما يزيد على ضعف المدّة التي حكمتها أطول الحكومات العمالية التي بقيت في الحكم. هذا هو الجزء الذي لم يفهمه أحد حتى أقرب المستشارين إليّ، لكني تعودت مداعبتهم بالقول إن هذا هو السبب الذي يجعلني زعيماً من دونكم.

أخيراً، وعلى الرغم من أن الضغوط الشخصية المستمرّة من غوردون قد بدأت تضعف، إلا أنها كانت تزعجني في الواقع بأقل مما كانوا (أو لربما هو) قد أدركوا في يوم من الأيام. كانت هذه الضغوط أقل إيذاءً مما كان يمكن أن تكون عليه.

كان غوردون رافعاً راية المعارضة على الدوام، كما تجمّع حول هذه الراية النقّاد الداخليون بطبيعة الحال، أما المعارضة الطبيعية التي تترافق دوماً مع السياسات التقدمية فقد بقيت ضمن حدود معينة. أما لو استبعدناه عن الحكومة لكان حدث أحد أمرين: إما أن يجد نفسه، وقبل انقضاء فترة العشر سنوات بكثير، في وضع يسمح له بشنّ تحدّ ناجح (أو على الأقل ذلك التحدي الذي قد يحمل معه عواقب مميتة)، وإما أن يحمل شعاراً آخر، لربما أقرب إلى اليسار، ويكون أكثر تدميراً لبقاء الحزب على المدى الطويل. توصّلت، لهذه الأسباب كلها، إلى أن إبقاءه داخل الحكومة ضمن قيود معينة هو وضع أفضل من أن يكون خارجها حراً طليقاً، أو ما هو أسوأ من ذلك، أن يصبح رمزاً لقوة تسبب أضراراً أكبر وتكون موغلةً في اتجاهها نحو اليسار.

أيمكننا القول إنه كان صعباً، وإلى درجةٍ تُثير الجنون في بعض الأحيان؟ أجل. كنت دائماً إلى جانب الرأي الذي يقول إن مارغريت ثاتشر، وهي رئيسة الوزراء العظيمة، ما كان يجب عليها الوقوف في طريق زعامة مايكل هازلتاين. صمّمت مارغريت على الوقوف في طريقه إلى درجة أنها انسحبت من السباق على الزعامة بعد التحدي الذي واجهها، وهكذا سمحت لجون مايجور بالفوز. لدى هازلتاين عيوب عديدة، لكنه كان شخصية كبيرة، وكان سيشكل قوة أكبر لمواجهتي. كان بإمكان الرجل إيقاف عدوى الخوف من الاتحاد الأوروبي من الانتشار بين صفوف المحافظين. هذا هو السبب الذي جعلني أقول إنها سمحت لخياراتها الشخصية بالوقوف في طريق مصالح حزبها الحقيقية.

صمّمت على عدم تكرار ذلك الخطأ. كنت سأبرهن عن قوتي عندما أضع جانباً خصومتي الشخصية المريرة مع غوردون كي لا أقف في طريقه. ارتكبت الخطأ ذاته بموقفي هذا وإن كان ذلك بطريقة مختلفة. حاولت أنا أيضاً أن أختار خليفةً لي، لكن في الوقت الذي أدركت فيه أنني مخطئ كان الأوان قد فات.

جلب لي هذا الخيار الطمأنينة. استأنفت حديثي مع غوردون بعد العشاء بالطريقة

الصحيحة. وافق غوردون بعد أخذٍ وردّ على إقناع جورج مادي من لجنة نخبة وزارة الخزانة، ونيك براون على سحب معارضتهما. تمكنا من الفوز في التصويت على أقساط التعليم. جاءت خلاصة تقرير لجنة هوتون في مصلحتنا.

زاد اقتناعي في هذه الاثناء، لكني لم أخبر أحداً في مكتبي بأنني وافقتُ على التنازل مقابل تعاون غوردون، لكنهم خمّنوا ذلك بطبيعة الحال. لم يتراجعوا، ولعلهم كانوا على حقّ في ذلك، بل تركوا الأمور تأخذ مجراها. أما جوناثان وسالي على وجه الخصوص فكانا واثقين بأن ذلك لن يحدث. فهمَ الاثنان رغبتي في التنحي، لكنهما اعتبرا أن استنتاجي بأن غوردون يشاطرني البرنامج نفسه هو أمر غير قابلٍ للتصديق. كانا متأكدين تماماً أنه لا يفعل ذلك.

تكاثفت الأحداث في هذا الوقت بثقلها وسرعتها. حدثت في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٤ الهجمات الإرهابية في مدريد. فقد جاءت متزامنة مع الانتخابات العامة. مات في هذه الهجمات نحو مئتي شخص وجُرح ما يزيد على ٢,٠٠٠ شخص. كانت الهجمات تذكيراً صريحاً بأن حركة الإرهاب باقية حية ونشطة. كانت ذكرى ١١ أيلول/سبتمبر قد خفتت قليلاً، وذلك على الرغم من وقوع أحداثٍ تماثل تفجيرات بالي التي حدثت في العام ٢٠٠٢. تعرّضت القوانين المضادة للإرهاب، التي أقرت بعد أول جولة من الهجمات الإرهابية في نيويورك، لمعارضة مستمرة من أولئك الذين اعتبروها غير متوافقة مع الحريات البريطانية. كنت قلقاً على الدوام جراء رغبة الإرهابيين في توجيه ضربة في بريطانيا. تابعنا آخر الأخبار والتقارير كما أننا راقبنا خلايا ناشطة عديدة.

انضمت عشر دول إلى منظومة الاتحاد الأوروبي في شهر أيار/مايو. كانت بريطانيا داعمةً قويةً لتوسيع الاتحاد. كانت تلك لحظة عظيمة، كما تم الاتفاق على دستور الاتحاد الأوروبي. وافقت، مع بعض التحفظات الشديدة، على إعطاء وعدٍ بإجراء استفتاء على ذلك الدستور. كنت أعرف أن ليس بمستطاعنا تمرير الدستور في مجلس اللوردات من دون هذا الاستفتاء، حتى أن تصويت مجلس العموم لم يكن مضموناً. قابل المحافظون التصريح الذي أدليت به بكثير من الترحيب المتوقع والمبرر، وهم يعرفون بأنني لا أحبذ الأمر من كل قلبي.

شعر جاك شيراك بالاستياء لأن الأمر يشكّل له مشكلةً حقيقية. كان محقاً في ذلك، لأن بريطانيا إذا وعدت بإجراء استفتاء، فإن ذلك سيشكل ضغطاً كبيراً على فرنسا لأن تقوم بالأمر ذاته. لكن الواقع هو أنني لا أستطيع تفادي الأمر. أصرّ جاك سترو على أن من الأفضل لنا أن نتظاهر بأننا سنجري الاستفتاء مختارين بدلاً من أن نُجبَر على التصويت عليه. ذكّرني ذلك بالمدى الذي سأذهب إليه في إقناع الرأي العام البريطاني بحسنات الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. كانت الصعوبة في أن المعارضين للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي كانوا منظمين ويتمتعون بدعم شرس من وسائل الإعلام. أما الداعمون للانضمام إليه فقد كانوا غير منظمين ويتمتعّون بالدعم المعتاد من وسائل الإعلام التقدمية، أي إنهم يمضون وقتاً أكبر في انتقاد جهتهم بدلاً من الردّ على وجهات نظر خصومهم.

بقينا أقوياء نسبياً في أوروبا على الرغم من ذلك كله، كما أننا اخترنا معاركنا بحذر شديد. خرجت قليلاً على نهجي من أجل تكوين تحالفات من شأنها حمايتنا ضد أي تكتل فرنسي – ألماني محتمل، كما أنني أبقيت الخطوط مفتوحة مع شيراك وشرويدر، على الرغم من خلافنا الواسع معهما بشأن العراق.

كان غيرهارد شرويدر رجلاً صلباً جداً. أُعجبت، عموماً، بصلابته الشديدة في مجالات إصلاح السياسة الداخلية، وذلك على الرغم من اختلافنا حول السياسة الخارجية، وتعاطفت معه بشأن مشاكله مع أوسكار لافونتين، وزير ماليته السابق، الذي توجّه بقوة نحو اليسار، ولم يطل الوقت به قبل أن يؤسّس حزباً جديداً، يُضاف إلى ذلك أن لغيرهارد ميزات القيادة الحقيقية.

ذكرت في مكان آخر من هذا الكتاب أن دوافعي وراء إحضار بريطانيا إلى وسط أوروبا لا علاقة لها مع المثالية الحالمة، وذلك على الرغم من مشاركتي في فكرة النموذج الأوروبي، بل إن هذه الدوافع تتمثّل في المصلحة القومية الصرف. لا تستطيع أي دولة أوروبية، ولا حتى ألمانيا، أن تكون من الكبر بحيث تتجنب الضغوط الآتية من الدول الكبيرة إلا إذا اتحدنا معاً، وسيحصل ذلك في وقتٍ قريب، وقريبٍ جداً. إننا أقوياء إذا اتحدنا، أما إذا انقسمنا فلن نكون ضعفاء فقط، بل إن ذلك سوف يؤدي إلى الإخلال بتوازن اللعبة الجيوسياسية. يُمكن لأوروبا أن تلعب دوراً لا يقع في الوسط، بل هو إلى جانب الولايات المتحدة، والصين، والهند،

وروسيا، والبرازيل وبقية القوى الصاعدة الأخرى. يُمكن أن تفعل أوروبا الكثير بواسطة ذلك الدور، ليس من أجلها فقط بل من أجل توازن السياسة الدولية. لكن إذا وقفت دول أوروبا بعضها ضد بعض، بتأثيرات خارجية، علماً أن القوى الرئيسة تُظهر سرعةً في ملاحظة هذه الفرصة، فإن الجوانب السلبية ستظهر ليس عندنا فقط بل عند المجتمع الدولي ككل.

لقد حدثت هذه الأمور كلها بالإضافة إلى الأمور المعتادة الأخرى: أقدمت الحملة التي تنظمها مجموعة آباء من أجل العدالة على رمي كيس مليئ بمسحوق أرجواني اللون نحوي، وذلك أثناء جلسة استجواب رئيس الوزراء (كانتْ تلك أقصر جلسة استجواب حضرتها على الإطلاق، وكنت ممتناً جداً لأنها قصيرة). أُعيد انتخاب كين ليفينغستون لرئاسة بلدية لندن، كما أن بريطانيا خرجت من بطولة أوروبا لكرة القدم للعام ٢٠٠٤ بضربات الجزاء. تحولت أنظار وسائل الإعلام الكبيرة لفترة من الزمن، وساد وضع يشبه الوضع الطبيعي. أما من جهتي فقد عيّنت بيتر مندلسون مفوضاً جديداً لدى الاتحاد الأوروبي، وذلك على الرغم من المعارضة الداخلية الشديدة من بعض نواب الحزب في البرلمان، وبعض أعضاء الحكومة.

فقدنا مقعداً لمصلحة الديمقراطيين الأحرار، وحافظنا، بصعوبة، على مقعد آخر ضد ذلك الحزب في دورتَي انتخابات نصفية. عانينا خسارةً مؤلمةً لكنها ليست كارثية تماماً في الانتخابات المحلية. تمكّنا مع ذلك من الحفاظ على مقعد بيتر.

بدا موقفنا السياسي هشاً، لكننا بقينا أقوياء في الواقع. لم يتمكّن المحافظون من الفوز بالانتخابات النصفية بتاتاً خلال ولايتي كرئيس للوزراء. كان يجدر بي أن تكون معنوياتي أقوى بكثير نتيجة هذه الوقائع. كان بيتر يقول لي دائماً، لكني لم أتقبل منه قوله تماماً، «إنك أقوى بكثير مما تظن».

مضينا في القسم الأول من العام ٢٠٠٤ في تنفيذ المرحلة التالية من خطط الإصلاح. وضعنا في هذا الوقت برنامجاً للمدارس تضمّن حريةً أكبر لها، وكذلك منح الأكاديميات الناشئة، أقساطاً تعليمية مرنة وُضعت على مثال النظام الأميركي، بالإضافة إلى صناديق مستشفيات الخدمات الصحية العامة، والمستشفيات ذات الإدارة المستقلة، وتضمّن البرنامج بدايات المنافسة في القطاع الخاص، وإصلاح

قوانين اللجوء السياسي، وتشريعات السلوك الجرمي، ونظاماً تعليمياً جديداً في سنوات التعليم الأولى في مدارس رعاية الأطفال، كما أن العمل جارٍ على نظام التقاعد، وخدمات الرفاه الاجتماعي، وبطاقات الهوية.

إن هدفنا الآن هو وضع برنامج مسقبلي واضح يهدف إلى أخذ هذه التغييرات إلى مستوى جديد ومستمر وواسع. أظهرت هذه التغييرات حتى الآن وبوضوح أن استقلالية المدارس والمستشفيات كلما زادت زاد الإبداع، وكلما زادت الخيارات والمنافسة كانت نوعية الخدمات المقدمة أفضل، وخصوصاً بالنسبة إلى الخدمات الصحية العامة، كما تقلصت أوقات الانتظار التي نتجت عن انفتاح النظام على استثمارات القطاع الخاص والأموال التي تتبع المريض، وكانت المشكلة الوحيدة مع التغييرات في القانون والنظام هي أن الناس أرادوا أن تسير هذه التغييرات بوتيرة أسرع، وأن تصل إلى مدى أوسع.

نستنتج من ذلك كله أن ضخّ أموال جديدة بالإضافة إلى تغيير الأنظمة قد أعطى نتائج عديدة. بدأنا خلال العام ٢٠٠٤، وبعد أن أمضينا سبع سنوات في الحكم، بالحصول على تحسينات حقيقية ومهمة. بدأت في هذا الوقت وحدة التنفيذ Delivery unit التي أنشأها مايكل باربر بعد انتخابات العام ٢٠٠١، بإعطاء نتائج هامة. كانت هذه الوحدة إلى جانب وحدة الاستراتيجية ابتكاراً في منتهى الأهمية. تعرّضت هذه الوحدة لانتقادات حادة، وبقيت عُرضةً لانتقاد مستمرّ من جهاز الخدمة المدنية التقليدي. لكن مايكل وفريقه الصغير نسبياً، الذي يتألف من نحو ثلاثين شخصاً، كانوا يُظهرون فروقاً كمية ونوعية بالنسبة إلى أداء الحكومة.

يشرح مايكل في كتابه Instruction to Deliver، الذي أصبح ما يشبه نصّاً يحظى بتقدير شديد في أوساط القطاعات العامة في أنحاء العالم، أننا للمرة الأولى كنا نلاحق الالتزامات ذات الأولوية، ونتلقى المعطيات عن كيفية تقدّمها بصورة مباشرة، ونلاحقها بحيث نتمكن من إزالة العقبات، ومن تعديل السياسات حيثما يكن ذلك ضرورياً. أما الأهمّ من ذلك كله فهو أن المكلفين بالتنفيذ باتوا يعرفون أنهم تحت المراقبة. لم تكن تلك بالعملية العنيفة. كانت مهارة مايكل الممتازة تقضي بجعل الإدارة تبدو من خلال أدائها على أنها شراكة وأن تكون كذلك بالفعل. كانت تلك الوحدة فعالة تماماً.

شعرت في هذا الوقت بأن الأمور تتحرك بالفعل، لكننا نحتاج الآن إلى دفع الإصلاحات إلى المرحلة التالية. بدأنا العمل على مجموعة من الخطط الخمسية التي تُنشر في نهاية كل دورة صيفية. كان الهدف من نشرها هو إعطاء الحزب أرضية صلبة لحزب العمال الجديد تمكّنه من الفوز بولاية ثالثة. كان من الضروري التأكد أن الرقم ١٠ والرقم ١١، يعملان معاً من أجل تنفيذ هذه الخطط عن قرب. بدأنا بعقد جلسات تهدف إلى دفع هذه الخطط قُدُماً.

بدأت بالتحضير في هذا الوقت لاحتمال مغادرة منصبي. تركتُ أنا وشيري سوق السكن اللندنية منذ العام ١٩٩٧، لكن الأسعار ارتفعت كثيراً في هذه الفترة. بدأنا البحث عن منزل على نحو جدي بمساعدة مارتا، صديقة العائلة. لم يكن إخفاء ذلك أمراً سهلاً، لكن مارتا تعاملت مع الأمر بمهارةٍ كبيرة، وهكذا استطعنا العثور على منزلٍ في باحة كونوت، الأمر الذي سيسمح لنا بإبقاء ليو في مدرسة وستمنستر الابتدائية، وهي المدرسة التي كان سعيداً فيها.

كنت مرتاحاً لقراري بأن ولايتين كافيتان. سبق لي أن شرحت أني اتخذت قراري المتعلق بالعراق عن اقتناع تام. فعلت ما اعتقدت أنه في مصلحة البلاد العليا، بغضّ النظر عن مدى صوابيته أم لا. لكن التقاء وسائل الإعلام اليمينية التي أرادتني أن أترك منصبي لأنني أستطيع تحقيق الفوز لحزب العمال، ووسائل إعلام اليسار التي غضبت فعلاً بسبب الحرب، أدى إلى نشوء حملة شكلت ضغطاً على مرونتي وثباتي. على المرء أن يتعود تلقي الانتقاد لكونه رئيساً للوزراء. أما إذا وصل ذلك إلى تشويه السمعة فلا بد أن يتغيّر الأمر قليلاً. بدأت أتذمر في أعماقي مع أنني لست متذمراً بطبيعتي.

شعرت بالإنهاك مجدداً، وهذا هو أفضل وصفٍ وصلت إليه، على الرغم من صعوبة شرح طبيعة هذا الشعور. إنه لشرف عظيم لي أن أقوم بهذه الوظيفة بطبيعة الحال – وبالمناسبة إنها كذلك حقاً! – لكن هنا تكمن أعظم نقاط القوة لي، وكذلك أعظم نقاط ضعفي: إنني شخص عادي. أما إذا تعيّن عليّ الاختيار بين قصة مثيرة مليئة بالحركة والتشويق والمؤثّرات الخاصة حيث ينتصر البطل في النهاية، وبين دراما نفسية تتحدّث عن زوجة على فراش الموت، لكنها ما تلبث أن تكتشف أن زوجها يقيم علاقة حميمة مع صديقتها المفضّلة، ويقدم ولدها على الانتحار وما تلبث هي

نفسها أن تموت وسط الوحدة والفاقة، فإنني أختار القصة الأولى. أما إذا سألني أحدهم عما إذا كنت أفضّل أن أتناول الطعام في مطعم ممتاز مع أصدقاء يتحدثون عن أي شيء ما عدا السياسة، أو الجلوس لسماع مقطوعة Gotterdammerung لفاغنر، فإنه سيجدني في المطعم. إنني أفضّل، مثل معظم البشر، الضحك على البكاء، والمتعة على الحزن، والتفاؤل على التشاؤم. إنني أميل بطبيعتي إلى الاستيقاظ وأنا أتطلع قُدُماً إلى اليوم الذي ينتظرني.

اكتشفت أنني لا أفعل هذا. تميل الحياة في بعض الأحيان إلى أن تكون أقرب إلى قصة درامية نفسية منها إلى قصة مثيرة، ويُمكن لأوبرا فاغنر أن تُثير فينا تأملات أكثر مما تسببه ليلة مسلّية مع الأصدقاء، بينما تكون الدموع في بعض الأحيان مناسبة أكثر من الضحك. ذُرفت دموع كثيرة نتيجة لقراراتي ولا أدري ما هو السبب الذي يمنعني من المشاركة فيها. إنني لا أدري في الحقيقة كيف يمكنني تجنُّب المشاركة فيها.

تلاشت في النهاية تلك الغبطة كلها، وذلك التفاؤل كله الذي لا حدود له، بعدما رافقاني طوال سنواتي الأولى في الحكم. بدا لي، بدلاً من ذلك، أن كل يوم، وكل اجتماع، حتى كل ساعة في بعض الأحيان، بمثابة كفاح، ومواجهة لا نهاية لها مع القوى الضاغطة، سواء أكانت مرئية أم غير مرئية، وهي التي تدفعني إلى الوراء، أحياناً بثبات وأحياناً أخرى بعنف، وبالضغينة في أحيان كثيرة لكنها تترافق على الدوام مع ما يبدو وكأنه طاقة لا تنضب.

متى يتحول الإجهاد إلى إشفاقٍ على النفس، أو إلى استسلام؟ كنت واعياً جداً أن هذه المشاعر تسيطر عليّ. تقبلت الإجهاد لكني استبعدت الإشفاق على الذات والاستسلام، لكني شعرت بأن إرادتي تضعف شيئاً فشيئاً، وبأن مقاومتي تترنّح. أبلغت غوردون أنني سوف أترك منصبي إذا ما وافق على تنفيذ البرنامج ذاته الذي أتبناه أنا. أعطاني ذلك السبب (أو ربما هو مجرد عذر) للرحيل. أردت ترك منصبي على أي حال.

تحدثت مع شيري عن هذا الأمر. قالت لي إنها تعتقد أن قراري ترك المنصب هو قرار خاطئ، لكنها ستدعم قراري أياً يكن. أجبرتني، على عادتها في اللحظات

الحرجة، على أن أكون صادقاً بشأن السبب الذي يدعوني للرحيل. أخبرتني بصراحة بأنني أخدع نفسي إذا ما اعتقدت أن غوردون سيتنبى البرنامج ذاته الذي أتبناه. قالت لي: «إنك تريد ترك المنصب. إنني أفهم السبب، وأنا أريد ذلك بطريقة أو بأخرى. لكن دعنا نكن صريحين بشأن هذا الأمر».

لم أكن متأكداً أنها على صواب بشأن غوردون. اعتقدت أن من المحتمل أن يستمرّ في تطبيق البرنامج ما إن يتسلم الحكم. كان هناك سبب آخر يدفعني إلى تبني هذا الرأي، وهو يتعلق بحزب العمال. إن تمضية ولايتين في الحكم تُعتبر إنجازاً كبيراً في عالم السياسة الحديثة. قضيت عشر سنين في رئاسة الوزراء، وهي فترة يجب أن تكون الحدّ الأقصى في هذه الأيام. أما في الماضي، أي عندما كانت وتيرة السياسة أبطأ، وعندما كان الشعب لا يرى الكثير من القائد، وكان أقلّ تعرّضاً للتمحيص والانتقاد، فقد كان بوسع المرء تمضية ثلاث ولايات، أو حتى أربع. أما في هذه الأيام فإن رئيس الجمهورية، أو رئيس الوزراء، الجديد سيبدو مملاً جداً ومألوفاً جداً بالنسبة إلى الناس، حتى بعد مضي سنة واحدة على توليه الحكم. سيعتبر الشعب في السنة الثامنة أنه رأى من الرئيس ما يكفي، والعكس صحيح بالنسبة إلى الرئيس.

وافقنا على عرض لشراء المنزل، وقبلناه. كنت أميل في ذلك الوقت إلى إعلان نيّتي ترك منصبي خلال مؤتمر الحزب، وترك المنصب فعلياً عند حلول عيد الميلاد. سيعطي هذا التوقيت فرصة ستة أشهر لحملة انتخاب غوردون.

لاحظت مع ذلك أن العمل على تنفيذ الخطط الخمسية يواجه صعوباتٍ جدية. كانت المشكلة أن المرء عندما يعلن نيّته ترك المنصب، حتى ولو كان ذلك بينه وبين نفسه وفي ذهنه فقط، فسرعان ما يتسرب تلقائياً.

بقي هناك طلب واحد اتفقت عليه مع جون بريسكوت وغوردون، وهو أن أياً منهما لن يُقدم على ذكر أي شيء عن رحيلي، ولا حتى لأصدقائهما المقربين. قلت لغوردون على وجه الخصوص إنني لا أريد أن يناقش الموضوع مع إد بولز ودايفيد ميليباند. سمحت له أن يُخبر سو ناي، بينما قمت أنا بإبلاغ آنجي (التي لم تعد تعمل عندي بطبيعة الحال)، وكان هذا كل ما في الأمر. عمد غوردون، وعلى الرغم من ذلك كله، إلى إبلاغ حلقة أصدقائه المقربين إليه بالأمر.

كانت تلك مشكلة حقيقية. سبق لي أن مهدت لإمكانية رحيلي عندما صرّحت لصحيفة الغارديان أنني في حال شعرت بأنني عبء على حزب العمال فسوف أترك منصبي. كان ذلك هو أبعد ما أردت الوصول إليه، لأن مغادرتي للمنصب إذا تبين أنها ستكون قريبة ووشيكة، فسلطاتي كلها سوف تتبخر. لكني أرى الآن مقالات الصحف وهي تتحدث عن إمكانية تركي لمنصبي، ووصلت بعض المقالات إلى حد القول إن ذلك كله متفق عليه.

شعرت بالاستياء من ذلك كله، لكني افترضت في نهاية الأمر أن من المحتّم أن يتحدث غوردون إلى المقربين إليه عن الأمر، وقال إنه يحتاج إلى خطة. لكن الواقع هو أن تغيير رأيي لا علاقة له بهذا الأمر.

كانت نقاشاتي مع وزارة الخزانة هي السبب الذي حملني على البدء بالتراجع. قال لي ماثيو تايلور وجيريمي هايوود اللذان كانا يفاوضان نيابة عن ١٠ داوننغ، أن من الواضح تماماً أن إد بولز، على الخصوص، لن يدعم هذا البرنامج بأي شكل من الأشكال. أما بقية مسؤولي وزارة الخزانة فقد تحدثوا عني. قيل لي إنهم وصفوا الأمر على أنه «لا فائدة من هذا على أي حال لأنه سوف يترك منصبه».

كانت هذه الأخبار ترتدّ إلى ذهني شيئاً فشيئاً. تحدث معي ماثيو في أحد أيام شهر أيار/مايو، وقال لي: «أنت تعلم أن لا وجود لأدنى فرصة في تطبيقهم الخطط الخمسية، أليس كذلك؟» أخبرني كذلك بأنهم يفكرون في إحداث تغييرات هامة في برنامج إصلاحات أقساط التعليم.

قررت أن أتحدث بصراحة مع غوردون عن هذه الأمور كلها في وقتٍ لاحق من ذلك الشهر. أبلغته أن ثمة مخاوف جدية تساورني بشأن عدم توافق هذا البرنامج مع خطّ تفكيره. وقع غوردون هنا في الخطأ.

إنني متأكد أنني لم أتعامل معه بالطريقة الصحيحة في المواقف المتوترة. ربما يعرف كلانا الآخر أكثر مما ينبغي. ربما كذلك تصرفنا مثل زوجين يتبادلان الشجار ويسمحان لعواطفهما بالظهور قبل التفكير ملياً. لكنه ارتكب خطأً فظيعاً هذه المرة: كان يجب عليه أن يطمئنني، لكنه حاول بدلاً من ذلك أن يتحداني قليلاً. تحدث غوردون بصوتٍ عالٍ بدل أن يتحدث بنبرة هادئة.

قال لي في النهاية: وعدتَ أن ترحل وهذا كل ما في الأمر. كان ذلك تكتيكاً خاطئاً تماماً، إلا أنني كنت قاسياً جداً بدوري. غيّر لهجته عند هذه النقطة وقال إننا اتفقنا على برنامج عمل بطبيعة الحال، كما أنه أنكر أن يكون إد بولز ضد البرنامج بل إنه يدعمه مئة بالمئة، وأنكر كذلك أن يكون أخبر إد أي شيء عن تركي لمنصبي، لكنني أعرف أنه لم يقل الحقيقة في الحالين.

انتهى الاجتماع على نحو سيّئ، لكن الأسوأ من ذلك هو أن العدائية بدأت بيننا على الفور. قرر الفريق الآخر إثارة الموضوع عنوة، لكن ذلك كان حماقةً كبيرة، وذلك لأنه وضعني أمام خيارين: إما المواجهة وإما الإذعان. أما لو أذعنت فهل كان بوسعي أن أقول لنفسي عندما أنظر في المرآة غير كلمة «جبان»؟

توجّهت بنهاية شهر حزيران/يونيو إلى إسطنبول للمشاركة في اجتماع الناتو، وهناك أعلمني دافيد هيل بأولى عناوين الصحف البريطانية. تعود دافيد عدم إطلاعي على ما تقوله عني وسائل الإعلام ما عدا القليل منها، وأنا ممتنّ له لأجل ذلك. كان يقول لي: «إنني أطلعك على هذا على قاعدة «أخذ العلم». كان موظفاً ماهراً وذا ذوق سياسي ممتاز، كما يتميز بالهدوء والثقة، ولديه قدرة على كتمان الأخبار المثيرة عندما تظهر. لكن هذه الأخبار والقصص كانت وفيرةً على ما يبدو، وأكثر مما يتصوّره المرء. كانت الصحف مليئة بما يشبه هجوماً صحفياً علنياً وصريحاً من غوردون براون بعد التعليقات اللاذعة التي أدلى بها ديريك سكوت، مستشاري المالي السابق، وهي التصريحات التي تتناول غوردون. كان ديريك قد غادر داوننغ ستريت في ذلك الوقت. وكان أثناء عمله في ١٠ داوننغ «مستقلاً» (أي غير قابل للتحكم) على الرغم من كونه مستشاراً جيداً بالفعل وحرّ التفكير، أما خارج ١٠ داوننغ فقد كان من غير الممكن إبقاؤه «على تواصل». كان الجميع يعرف هذه الأمور، وغوردون يعرفها كذلك. لكن تعليقات ديريك نُشرت على نحو مبالغ فيه وقدّمت على أنها هجوم على غوردون بموافقةٍ مني، الأمر الذي لم يكن صحيحاً بأي حالٍ من الأحوال. لاحظت في ذلك بداية خط «غوردون الضحية» الذي استمرّ منذ ذلك الحين حتى وقت مغادرتي منصبي.

قال دافيد: «وماذا سنفعل الآن؟».

أجبت: «لا شيء، سوى إيضاح دعمنا لغوردون وعدم موافقتنا على آراء ديريك».

غادرت إسطنبول متوجّهاً إلى اجتماع خاص لمجلس الاتحاد الأوروبي، ثم عدت إلى لندن في ٣٠ حزيران/يونيو للإدلاء ببيانٍ حول الناتو واجتماعات الاتحاد الأوروبي. كان ذلك شهراً مليئاً بالانشغالات على نحو لا يصدّق. أما في الأسبوع الذي سبقه فقد عقدنا اجتماع الدول الثماني في سي آيلاند في ولاية جورجيا. كنت أتنقل باستمرار ولذلك لم يبقَ لي وقت للتفكير في غوردون، لكني استشعرت الضغوط المتزايدة التي تزيد بشاعةً كل يوم.

ترأست الاجتماع المعتاد للحكومة يوم الخميس، كما عقدت اجتماعات أخرى، ثم توجهت إلى شيكرز يوم الجمعة. تعودت استضافة بعض الشخصيات هناك بين وقت وآخر، ودعوة بعض الرؤساء إلى هناك عندما تدعو الحاجة، أو عندما تكون السرية والتكتم مطلوبين (كما حصل في بعض مراحل المحادثات الإيرلندية)، لكن شيكرز كانت بالإجمال مكاناً للاسترخاء والتأمل، ولطالما لاحظت أن هذين الأمرين مترافقان معاً.

كنت أجلس على الشرفة في أيام الصيف وأنا أقلّب الصحف، وكنت أتوقف بين الحين والآخر لأتناول كوباً من الشاي، أو كي أردّ على مكالمة هاتفية. تعوّدت تناول غداء خفيف من دون أي شراب، بالإضافة إلى مشاهدة فوتبول فوكس إذا صادف وجودي هناك في يوم السبت وتظاهرت بأنني محلّل رياضي، أو حتى مشاهدة لعبة حيّة إذا كان الوقت ظهراً، أو كنت أعمل قليلاً قبل التوجه إلى النادي الرياضي. أما في الماضي فكنت أتوجه إلى نادي هالتون التابع للسلاح الجوي الملكي للعب كرة المضرب.

جلستُ في عطلة نهاية الأسبوع تلك وفكرت ملياً وطويلاً. توصّلت إلى استنتاجين لا مفرّ منهما. كان الاستنتاج الأول هو عدم اعتقادي أن غوردون سوف يمضي بتحقيق البرنامج الإصلاحي. أما الحقيقة فكانت كالتالي: لو أنه آمن بصوابية هذا البرنامج لكان دعمه. يُمكن للمرء أن يستنتج مواقف شخصٍ ما من الأشخاص المحيطين به، وأنا أعرف أن الأشخاص المحيطين بغوردون لا يوافقون على البرنامج. حسناً، ربما

يمكننا إقناعهم به، وحتى الضغط عليهم لقبوله، لكن ما إن أغادر منصبي حتى يصبح من المستحيل متابعة هذا البرنامج الجديد.

أما الاستنتاج الثاني فهو أن السبب الوحيد الذي جعلني أرغب في ترك منصبي كان الجبن، هكذا وبكل بساطة. يُمكنني أن أغلّف قراري هذا بحججٍ عظيمة من التضحية، ويمكنني التظاهر بأنني سأترك منصبي من أجل مصلحة الحزب أو البلاد، أو حتى من أجل الأسرة، لكن لا جدوى من ذلك كله. لم يكن دافعي لمغادرة منصبي التضحية بل الأنانية. رغبت في الرحيل لأنني لم أعد أستطيع التحمّل بعد الآن، وبسبب بعض الإساءات، والضغوط، والملاحقة، وإساءة فهم دوافعي، وبسبب تشويه السمعة. كانت درجة الحرارة في المطبخ شديدةً إلى درجة أنني بدأت بالتعرّق.

أدركت كذلك الأمور التي ستحدث بعد رحيلي، فالحزب لن يكون حزب العمال القديم بالضبط، كما لن يكون حزب العمال الجديد الحقيقي. سنعود سريعاً إلى وضع حزب العمال التقليدي مقابل المحافظين التقليديين. سيخرج منتصر واحد من هذا الوضع.

حضر جون ريد قبل أسبوعين ليراني في استراحة نادرة بعيداً عن هذه المعمعة كلها. كان جون رجلاً حكيماً، وما إن يتمكّن من التخلّص من قبضة شيطان الشراب حتى يصبح ألمع سياسي في أي حزب. أعتقد أنه لو ظهر في وقتٍ أبكر لتمكّن من لعب دورٍ كبير في إبقاء حزب العمال في دائرة حزب العمال الجديد.

جلسنا على كرسيين من الخيزران في حديقة داوننغ ستريت. كان صريحاً جداً كعادته.

قال لي: «يجب عليك أن لا تترك المنصب». بدأت بالاعتراض لكنه أشار عليّ بالصمت. «أعرف بأنك تفكّر في الأمر، لكنها ستكون غلطة فظيعة، ليس بالنسبة إليك فقط بل بالنسبة إلى الحزب وإلى البلاد. عليك أن لا تفعل ذلك، وأنت تعرف، كما أعرف أنا، كيف سيتصرف غوردون. يُمكنه أن يصبح زعيماً في يوم من الأيام، وقد لا يستطيع، لكن إذا سلّمته السلطة الآن فسيكون ذلك عملاً خالياً منّ المسؤولية. يُضاف إلى ذلك أن عليك خوض الانتخابات حتى بعد مشكلة العراق، وحتى مع

أعبائها كافة، وسيتعيّن عليك أن تفوز بها. لكن إذا لم تفعل فإنك تهرب بعملك هذا، وذلك مهما حاولت عرض الأمر».

فكرت أثناء جلوسي في شيكرز في ذلك اليوم المشمس والرائع من أيام شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٤، أن جون ليس هو الذي أقنعني بتغيير رأيي، وذلك لأن تيسا جويل، وآلان ميلبيرن، وبيتر مندلسون وآخرين قدّموا لي الحجة ذاتها، لكنه تمكّن من إخراج أفكاري من تحت غطاء تخيّلاتي وألقى الضوء عليها. أعرف أن البقاء سيكون صعباً عليّ، حتى أنه سيكون مريعاً في بعض المراحل، لكن ترك المنصب سيعني افتقاد الجرأة البسيطة والأساسية.

أدركت أن الشعب البريطاني ـ الذي أحبه من كل قلبي، والذي شابهت علاقتي السياسية معه علاقة غرامية في بعض المراحل، وعلى الأقل من جهتي أنا – قد توقف عن محبته لي وأنه ليس مستعداً للبدء من جديد. بقي الدعم كما كان، لكن عدداً كبيراً من الناس كان حانقاً وحتى مستاءً. أما المتعة التي بقيت لي فقد كانت متعة القيام بما كنت أؤمن به من أعماق قلبي، والفوز بولاية ثالثة، وإجبار المحافظين على التغيّر، ومتابعة تنفيذ برنامج الإصلاح الداخلي الذي كنت متأكداً من صوابيته. أدركت أن العراق سيظلّ موضوعاً عاصفاً بشدة، لكنني كنت متأكداً مرة أخرى، وبغضّ النظر عن صوابية ما أفعله، أن حماقة الانسحاب كانت غير واردة بالمرة، وأنها قد تجعله كارثة. نظرت إلى برنامجنا بأقصى قدرٍ من التجرد، ونظرت كذلك إلى برنامج المحافظين بقيادة مايكل هوارد، فاتضح لي بجلاء أي البرنامجين أصوب بالنسبة إلى بريطانيا. لكن فوزنا كان يعتمد أساساً على بقائنا، وبكل جرأة، حزب العمال الجديد. لكن إذا ابتعدنا عنه، حتى على نحو هامشي، فإنني متأكد أن ذلك سيكون بمثابة النهاية بالنسبة إلينا.

اتخذت قراري بعدم الانسحاب لمصلحة غوردون، أقله ليس هذه المرة، أو ربما لا أتمكن من ذلك إطلاقاً. أبلغته قراري في الأسبوع التالي. يُمكن للقارئ تخمين ردة فعله. استرجعت كذلك إدارة الخطط الخمسية، واكتفينا بالعمل مع الوزارات المعنية، ثم اجتزنا عقبة وزارة المالية وعملنا على الرغم منها. وضعنا اللمسات الأخيرة على هذه الخطط، وهكذا أصبحت أساس بياننا للفوز بولاية ثالثة. عدت منتعشاً تماماً من عطلتي التي استمرّت أسبوعين.

حدّدت برنامجنا في الولاية الثالثة في خطابٍ ألقيته أمام مؤتمر الحزب. كان آلاستير وبيتر هايمان في الماضي هما اللذين يكتبان مسوّدة الخطاب، وهي مهمة برعا فيها. كنت أعمد بعد ذلك إلى تعديل المسودة مرة بعد أخرى، وعادة ما كان يبلغ عدد هذه المسودات العشر، أو خمس عشرة مسودة. كانا يميلان إلى جعل الخطاب عقائدياً، أما آنجي وجوناثان فكانا يميلان به إلى الناحية الأخرى. أخذت مع الوقت، وبدءاً بالخطاب الذي ألقيته في العام ٢٠٠١، في كتابة المسودات بنفسي. أما بيتر وآلاستر فكانا يكتبان مقاطع أساسية محدّدة، أو كنت أكلّفهما إعطاء الخطاب نكهةً معينة، هذا في حين كان الآخرون يبدون آراءهم. كان دافيد هيل يشير إلى الهفوات أو إلى بعض العناوين غير المقصودة، بينما كان ماثيو تايلور وآندرو أدونيس يهتمان بالمقاطع التي تشير إلى سياسة الحزب. أما سالي مورغان فكانت تزوّدنا تعليقاتها.

أوضحت في ذلك الخطاب الأمور التي أنجزناها، والأمور التي نريد إنجازها في المستقبل. حاولت، كعادتي، الربط ما بين القيَم التقليدية وتحليلٍ للعالم المستقبلي الذي ستطبّق فيه. حاولت كذلك تثبيت الحزب في وضعه الجديدً، أي ليس بوصفه حزب المستضعفين الذين سُمح لهم بأن يحكموا بين حين وآخر، ولكن بوصفه الحزب القادر على الحكم لفترة معتبرة.

واجهتني في نهاية المؤتمر مشكلة أخرى تطلبت المعالجة. عانيت في السنة الماضية عدم انتظام في نبضات القلب، وذلك للمرة الأولى في حياتي، وهي حالة تعني أن القسم الأعلى من القلب يمكن أن يبدأ بالنبض من غير تزامن مع القسم الأسفل. يتسبب هذا الأمر بعدم انتظام في نبضات القلب، وصعوبة في التنفس، وبإحساس بالتعب. يُمكن أن يتسبب هَذا الوضع بحدوث ذبحة قلبية (أجل ذبحة وليس نوبة قلبية لغرابة الأمر). عالجت هذه الحالة بعملية تعيد القلب إلى إيقاعه الطبيعي.

لاحظت في صيف العام ٢٠٠٤ أن حالة عدم الانتظام في النبض قد عاودتني. تقطعت أنفاسي نتيجة هذه الحالة (لاحظت هذه الحالة في النادي الرياضي، وأدركت حينئذ أن شيئاً ما يسير على غير ما يرام). قال لي الأطباء هذه المرة إن عليّ إجراء عملية جراحية تُعرف باسم استئصال أنسجة تالفة، وهي تعني عملياً حرق جزءٍ صغير

ضعيف من القلب. لا أجيد تفصيل الأمور الطبية على أيّ حال. طلبت المشورة الطبية وحصلت عليها. حدّد الأطباء موعد العملية ليكون بعد مؤتمر الحزب مباشرة.

بقي غوردون في مزاج شديد الخطورة. ذهب الرجل بعيداً في خطابه الذي ألقاه في مؤتمر الحزب كي يمتّدح فضائل «حزب العمال الجديد». كان ذلك غلطة من جانبه بطبيعة الحال، لكن كان في الوقت ذاته إشارة مشؤومة بالنسبة إلى الحزب. شعرت بأن عليّ معالجة قضية زعامة الحزب.

صمّمت على القول، على الرغم من نصائح معاكسة، إنني راغب في خوض الانتخابات المقبلة، ولكن ليس الانتخابات التي تليها. اعتبر معظم الناس أن من الخطأ الشنيع القول إنني سوف أتنازل. أشرت إلى أن هذه هي الرؤية التي تبنتها مارغريت ثاتشر، وهي استفادت كثيراً من موقفها هذا. يجد المرء نفسه في ورطة كبيرة بعد مرحلة معينة، ومهما كان اتجاه الأمور. وإذا قال المرء إنه سيتنازل سيقولون له: ولماذا، ألا يمكنك أن تبقى؟ أما إذا قال إنه سيمضي من دون حدّ معيّن، فسيقولون له: هل تنوي البقاء إلى الأبد؟ ليس هناك أبداً طريقة سهلة.

قررت التحدث إلى وسائل الإعلام بكثرة بحيث لا تعود تعرف ماذا تستنتج، وهكذا أخبرتها بثلاثة أخبار في وقت واحد: سأخوض انتخابات ثالثة، لكن لن أخوض الرابعة؛ اشتريت منزلاً جديداً؛ وسأخضع لعملية جراحية في القلب. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة المفتوحة أمامي، كما أنني تسليت كثيراً بهذا الحديث كله، وهذه المراوغة بينما حاولت وسائل الإعلام معرفة القصة «الحقيقية» من بين هذه الروايات الثلاث التي نُشرت تباعاً، إذ ليس من الطبيعي، بطبيعة الحال، نشر القصص الثلاث كما هي. عالج دافيد هيل هذا الموضوع بطريقة لبقة جداً. خضعت للعملية الجراحية، واشتريت المنزل فكسبت معه بعض الوقت.

الفصل السابع عشر

٢٠٠٥: ثنائية طوني بلير/ غوردون براون

كانت انتخابات العام ٢٠٠٥ متوتّرة في دعايتها، وفاسدة بالنزاعات الداخلية، ومتوحشة بطبيعة الحملة التي رافقتها، وخطرة بنتائجها. لم أتحمس لها البتة، ولم أستمتع بخوضها، لكننا فزنا بها. أما إذا فكّرنا في حصولنا على غالبية ستين مقعداً زيادة عن بقية الأحزاب مجتمعة، فإن الأمر يبدو مثل معجزة صغيرة. كانت الانتخابات هكذا بمعنى من المعاني.

قدت البلاد إلى حربٍ لم تحظ بالشعبية، وذلك بمشاركة رئيس أميركي جمهوري لا يحظى بشعبية كبيرة. سمحت هذه الحرب في النهاية للمعارضة اليمينية واليسارية بإيجاد نقطة التقاء. أما بالنسبة إلى وضعي السياسي الشخصي فقد أعطت الحرب سبباً للتفكير في أن الحزب إذا استطاع التخلص من ذلك العبء الثقيل فسيتمكن من تجديد نفسه بزعامة غوردون.

حجب ذلك كله حقيقةً أساسيةً أكثر أهمية: بقي الوضع الأساسي لحزب العمال وضعاً مسيطراً وحاسماً في صميم السياسة البريطانية. تمكنا من تحقيق الفوز على الرغم من العوائق كلها، وعلى الرغم من الحرب، وطول الفترة التي أمضيتها في رئاسة الحكومة، وعلى الرغم من أقساط التعليم التي كلفتنا كثيراً، وعلى الرغم من الجدال الداخلي مع غوردون، وعلى الرغم من النقد السلبي المتواصل من اليمين ومن اليسار.

لم يكن من المقدّر قط أن نفوز في هذه الانتخابات بحماسة، لكن سبق لي أن قلت في سياق التحليلات التي أعقبت هذه الانتخابات إن أهم ما في الأمر هو أننا لن نخسر أبداً.

كان خطاب الملكة الذي ألقته في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٤ رائعاً على نحو فاق التوقعات كافة. تضمن الخطاب البرنامج التشريعي، الذي كان دائماً وسيلةً غريبة لوصف ما تريد أن تفعله الحكومة، وعكس حيوية وتفاؤلاً كبيرين، كما وضعنا لأنفسنا برنامجاً قوياً أثناء الانتخابات. كان هذا البرنامج يحمل روح حزب العمال الجديد، كما تضمن خططاً مفصلة في مجالات سياسات الحكومة الهامة كافة: المدارس، وخصوصاً الأكاديميات منها، والمراحل التالية من خطط إصلاح الخدمات الصحية العامة، والخدمات الاجتماعية، والجرائم، وبطاقات الهوية، والإسكان والتخطيط، والحكومة المحلية، حتى الاستراتيجية الصناعية الجديدة. أقول بصراحة إن بوجود هذا الجو المخيّم على وسائل الإعلام، بما في ذلك بي. بي. سي، التي عمدت إلى معالجة موضوع واحد وهو العراق، فإن وسائل الإعلام هذه لن تعطي تغطية كبيرة لسياسة الحكومة، وخصوصاً السياسة الداخلية منها. لكنني لاحظت أمراً غريباً بشأن الجمهور، الذي يبدو أنه أحس بأننا حكومة ذات برنامج معين حتى من دون أن يعرف تفاصيل سياستنا. أحسّ الجمهور كذلك بأن الحزب لا يزال يحتفظ بمهمة يقوم بها، وبأن له رئيساً يمسك بزمام القيادة. أما الوزراء وأعضاء الحزب فإن لديهم أموراً يريدون تحقيقها، وهي التي تبقي على تركيزهم حتى مع انشغالهم بمشكلة الحرب في العراق، التي ترافقت مع رفع شعارات مثل «بلير الكذاب»، «حان وقت التغيير»، هذا بالإضافة إلى الانتقادات التي ظهرت عموماً بشأن الحملة الانتخابية الفجّة والمريعة. لدى المحافظين مجموعة من السياسات تبدو وكأنها نقاط للبحث مصمّمة لاستثارة الغضب أو الشكوى، لكن ليس التأمل أو إطلاق خطة تهم مستقبل البلاد.

أعيدَ انتخاب جورج بوش رئيساً للجمهورية، كما أنني أُعجبت بجون كيري وأظنّ أن لديه القدرة على أن يكون رئيساً ناجحاً. لكن القضية الأساسية تبقى فيما يتعلق بالحدس، وبغضّ النظر عن انتمائي السياسي، واضحة جداً وهي أن هزيمة بوش تعني هزيمةِ بلير.

سبق لي أن قلت كذلك إنني أحب جورج إضافةً إلى إعجابي به. طُرح عليّ سؤال في الآونة الأخيرة عن أكثر القادة السياسيين الذين التقيتهم ولديهم أكبر قدر من الموثوقية. وضعت اسم جورج في أعلى القائمة. كان الحاضرون من المتحررين، لكن بعضهم أبدى استياءه، بينما قهقه آخرون وظنوا أنني أمزح. لكني قصدت ما قلته. يتمتع الرجل بموثوقية حقيقية وجرأة سياسية كرئيس مثل تلك التي يتمتع بها أي رئيس آخر التقيته. قلت للحاضرين: يمكنكم أن تختلفوا معه بشأن قضية العراق (أما أنا فلا أختلف معه)، أو حول قضايا أخرى (وهذا ينطبق عليّ أنا)، وتتقبلوا مع ذلك أنه يريد بصدق نشر الحرية والديمقراطية.

يمكننا القول إنه مثالي حقيقي لكن بمعنى غريب قليلاً (أقول غريب لأنه يبدو غير متوقع). أذكر أن جورج خلال الانتخابات الفلسطينية التي جرت في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٥، وفي الوقت الذي اعتبر فيه كثيرون أن من الواجب تأجيلها كان يدعم إجراءها. لم يتجاهل جورج النصيحة التي تقول إن الانتخابات قد تسفر عن فوز حماس، كما أنه لم يعجز عن فهمها. فاكتفى بالقول بكل بساطة: «إذا كان هذا هو ما يريده الشعب فدعه يحققه».

من أغرب الأمور التي رافقت السياسة الحديثة، سعي وسائل الإعلام إلى زرع مثالٍ معيّن في الأذهان، مما يؤدي إلى تشويش التحليل الصحيح بصورة تامة. كنت أبتسم للطريقة التي جرت بها انتخابات أوباما / ماك كاين في العام ٢٠٠٨: كان باراك صاحب رؤية، بينما كان جون ذلك السياسي العجوز. دعا أحد المرشحَين أميركا إلى مستقبلٍ جديد، بينما كان الآخر أثراً قديماً من الماضي. كان ذلك هو المثال الذي قرّر مزاج الانتخابات وحدّدها.

كان جون، في واقع الأمر هو الذي صاغ سياسة خارجية يُمكن أن نُطلق عليها سياسة مفرطة في المثالية لقضية الحرية. أما باراك فقد كان السيّد الأعلى في إيصال رؤية متألقة إلى الجماهير، لكنه كان يمارس الواقعية، ويناصر النهج الحذر الذي يستند إلى مدّ اليد للآخرين، والتوصّل إلى تسويات، وعقد اتفاقيات من أجل تخفيض التوتر. كانت هذه هي العوامل المؤثّرة في الانتخابات بغضّ النظر عن المرشح الذي هو على حق. إنها حقاً ميزة فريدة في عالم السياسة الحديثة، التي يتغلب فيها المزاج العام على السياسة على الدوام.

انطبق الأمر ذاته على جورج، الذي كان يُعتبر أساساً جمهورياً يمينياً مقيتاً يهدف إلى التخلص من الدكتاتوريات العنيفة والشرسة، وهو الذي أصرّ على عدم استبدال هذه الدكتاتوريات بأخرى صديقة للولايات المتحدة وإن كانت شرسة، لكنه حاول جلب ديمقراطيات متحررة. حمل جزءٌ من هذا الميل بطبيعة الحال كراهية طبيعية وكاملة للحرب، لكن الجزء الآخر كان الخطأ الذي ارتكبه الجمهوريون في تثبيت ذلك المفهوم السخيف واسمُهُ «المحافظون الجدد»، ولطالما حذّرت جورج من هذا الأمر.

كان ذلك يعني تقديم الحرب بمفهوم عقائدي، أي اليمين ضد اليسار، وذلك بدلاً من تقديمها بطريقة تتمكن من التوحيد، وهو أمر كان يُمكن التوصّل إليه بسهولة. إن غوانتانامو هي سياسة مفهومة، لكن في الوقت ذاته كان يُمكن أن تكون مبررة لو أنها اتُبعت بنهج آخر، وهي أصبحت شوكةً في عيون جميع الذين يؤمنون بحكم القانون.

أما الحقيقة بشأن غوانتانامو فهي أن جميع من ألقيَ القبض عليهم في مناطق القتال في أفغانستان كانوا أسرى حرب بمعنى ما. ولو كانت الظروف عادية لكانوا أُعيدوا إلى بلادهم بعد انتهاء الحرب ولكنّا عشنا بسلام بعدها. لكن الحرب هذه المرة لم تكن تقليدية. لم يكن هناك من مجال لإثباتً أنهم «مذنبون»، أي كما يحصل في المحاكم العادية. لكن في المقابل، سيمثل عدد كبير منهم تهديداً، بكل تأكيد، لو أُطلق سراحهم. أما طريقة معالجة هذه القضية فقد كانت أكثر الطرائق استفزازية عموماً، وكأن المقصود كان استعداء الآراء التحررية بدلاً من محاولة مواجهة واقع المحنة التي تهدد أمننا.

حرمت عملية إعادة انتخاب جورج على أيّ حال أولئك الذين هم من داخل الحزب وخارجه من مطرقة أخرى لاستهدافي، كما أن خيبة أملهم الكبيرة كانت واضحةً جداً.

ظهرت أحداث أخرى ومضت: افتتحت الملكة مبنى البرلمان الاسكتلندي المثير للجدل (بسبب ارتفاع كلفته) في إدنبرا في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٤، ومات ياسر عرفات في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. أما في شهر كانون الأول/

ديسمبر فقد خسرتُ فيه دافيد بلنكيت كوزير للداخلية، وذلك بسبب اتهامه بتسريع طلب تأشيرة دخول لحاضنة شريكته السابقة.

شعرت بأسف حقيقي من أجله. سمح الرجل لنفسه بالوقوع في غرام امرأة متزوجة وغير مناسبة، وهي التي حملت طفلهما. أبلغني دافيد الأمر قبل عدة أشهرٍ بلهجة صادقة وندم عميق. حصل دافيد على الطلاق منذ وقتٍ طويل، وكبُر أولاده، وهكذا، بكل بساطة، أصبح وحيداً. لم تكن هذه العلاقة لتنجح على أي حال، إلا أنه كرّس نفسه لطفله، لكن الوالدة لم تكن مستعدّة لترك زوجها. كان الوضع غير مستقرّ بالمرة بالنسبة إليه، ويستحيل استمراره أو إبقاؤه سراً. وقفت إلى جانبه عندما شاع الأمر، لكن وسائل الإعلام كانت جاهزةً لتلفيق أي شيء يؤدي إلى إخراجه من الحكومة. بدت القضية وكأنها تضارب في المصالح. وجدت وسائل الإعلام هذه الحجة في طلب تأشيرة دخول، لكن الأمر لا يستأهل هذا الضجيج كله، غير أن الصحف لم تأخذ هذا في الاعتبار بعد ذلك. كان الألم والضغط الناتجان عن هذه القضية يصعّبان عليه القيام بوظيفته، إلى أن استقال من الحكومة.

كان وداعنا مؤثراً، وصمّمت على إعادته إلى الحكومة بعد الانتخابات. كنت معجباً بدافيد فعلياً وبعمق، كما اعتبرت موقفه تجاه طفله مبدئياً جداً لأنه لم يكنِ مستعداً للتخلي عنه بسبب كل الضجيج الذي يرافق إقامة دعوى قضائية. كان رجلاً محترماً بالفعل وهو يتمتع بمهارة سياسية عظيمة، لكنه اختار المرأة غير المناسبة. إنه أمر يسهل القيام به، لكنه مميت في عالم السياسة.

كان من المفترض أن أمضي إجازةً في شرم الشيخ في مصر في عطلة رأس السنة. كنت أجهّز نفسي لمغادرة شيكرز عندما سمعت رنين الهاتف. قيل لي إن أمواجاً محيطية عملاقة قد ضربت آسيا في يوم ٢٦ كانون الأول/ديسمبر. ترددت في مغادرة البلاد إذ من المحتمل أن يكون ألوف الناس قد قُتلوا، ولا بدّ أن يكون هناك بريطانيون من بينهم.

قررت الذهاب مع ذلك لأنني أجهدت نفسي بالعمل. أما ليو فبالكاد كان يراني في الآونة الأخيرة، وكنت قد عدت حديثاً من اجتماع مرهق لمجلس الاتحاد الأوروبي. يُضاف إلى ذلك أن الانتخابات المقبلة لم تعد بعيدة. قررت أن باستطاعتي

معالجة نتائج التسونامي [الموجات المحيطية العملاقة] عبر الهاتف، كما أن شرم الشيخ كان في منطقة توقيت أقرب. أدركت على الرغم من ذلك أنني سوف أتعرض للانتقاد بسبب ذهابي إلى شرم الشيخ، وهذا ما حصل بالفعل.

توزعت الأيام التي قضيتها في شرم الشيخ بين الردّ على المكالمات الهاتفية في الصباح الباكر حتى تناول الغداء في وقتٍ متأخر من اليوم، وبين أخذ قسط من الراحة فيما بعد. أجريت الترتيبات الممكنة كلها لمواجهة الوضع. طلبت إلى دوائر الخارجية والقنصلية، وإلى دوائر الطبّ الشرعي والشرطة، مساعدة السلطات في إندونيسيا وتايلاند. طلبت إليها كذلك الاهتمام بالمشاكل الإدارية كافة لمساعدة الأسر المحزونة، أو أولئك الذين يبحثون يائسين عن الأشخاص الذين يحبونهم. تبيّن لي أنني أعرف أسَرَ بعض الضحايا بمن فيهم ديكي وشايلا آتينبورو اللذان فقدا ابنتهما، وحفيدتهما، ووالدة زوجة ابنتهما.

حزنت كثيراً مع المفجوعين كما يحدث في حالاتٍ كهذه. تحدثت مع ديكي، وهو رجل ممتاز، وكان يبكي. فكرت في مشاعري لو أنني فقدت إيوان، أو نيكي، أو كاترين. علمت كذلك أن حفيدته كانت في الرابعة عشرة من عمرها، فأدركت معنى الكارثة، وشعرت بالحزن من أعماق قلبي.

عدت إلى بريطانيا وكانت لديّ مشاغل كثيرة. تلقيت في غمرة هذا الوضع أنباءً ممتازة، وهي انسحاب روبرت جاكسون، وهو نائب محافظ في البرلمان عن وانتايج، من الحزب. كان روبرت أستاذاً في كلية آل سولز في أكسفورد، وكان وزير التعليم في حكومة المحافظين السابقة ويؤيد مشروع الأقساط التعليمية وهو الذي اعتبرها خطوةً ضرورية في سبيل تعزيز التعليم العالي. يبدو الرجل وكأنه من الطبقة العليا، الأمر الذي يحجب شخصيته الدافئة والمبهجة. كلّفت آلاستير (الذي بقيت وإياه على اتصالٍ مستمر) معالجة الأمر، وهكذا سار كل شيء على أحسن ما يرام.

أريد أن أقول، وعلى ضوء ما فعلته فيما بعد، إنني نظّمت مؤتمراً في لندن من أجل دعم السلطة الفلسطينية ورئيسها الجديد محمود عبّاس، أو أبو مازن، وهو الاسم الذي يُعرف به.

أما الواقع فهو أنني صمّمت على تنفيذ استراتيجية ذات مسارين – الصلب

والناعم. أما المسار الصلب فهو الانتهاء من العراق وأفغانستان. وأما المسار الناعم فهو تحقيق الدولة الفلسطينية. رأى المجتمع الدولي في هذه الأثناء، مع ما يتصف به من قصر النظر، أن الانسحاب من غزة هو عمل إسرائيلي «أحادي الجانب»، ولذلك هو خاطئ. أما أنا فقد رأيت في هذه الخطوة رفعاً للانسحاب، وإزالة للمستوطنات. لم نجد أمامنا خيارات جدية أخرى غير السير بهذه الخطوة.

كان آريل شارون رجلاً استثنائياً، ولديه القدرة على إثارة جنون المرء في الاجتماعات. كان يكتفي بالجلوس في هذه الاجتماعات ليتحدث عن الإرهاب وكأننا لم يسبق لنا أن سمعنا به في بريطانيا. كان يتحدث بالتفصيل، ويهدد، وفوق كل شيء يستمر في الكلام حتى وإن وافقته وكأنك تعارضه. كنت أخرج من الاجتماعات أحياناً لأقول للمسؤولين عندي: «أيظن أنني فرنسي؟».

كان شارون يُظهر في الوقت ذاته مزايا القائد الحقيقي الذي يثير جنون الآخرين. كان رجلاً كبيراً بكل معنى من المعاني، وهو صلبٌ بالفعل، ولا يساوم، ولا يُمكن إرغامه على التراجع إذا لم يرغب فيه. كان رجلاً لا يتقبل السخافات من أي شخص، حتى من مناصريه. صعّب شارون على الآخرين مهمة دعم سياسة فك ارتباط بلاده مع غزّة، وهو فعل ذلك بطريقة غير ودّية إطلاقاً بالنسبة إلى الرأي العام العالمي.

أبلغت بعض القادة الآخرين أثناء لقائهم: «وماذا يهم؟» وكنت أقول إن الرأي العام في إسرائيل يُشغله، كما أنهم عانوا هناك أربع سنوات من الإرهاب. أعتقد أن الإسرائيليين لن يفعلوا ذلك بطريقة تبدو وكأنها تساعد فلسطين، أو كأنها تسترضي حساسيات الغرب. هناك حقيقة لا جدال فيها: انسحبت إسرائيل من غزّة فدعونا نستفد من هذه الخطوة إلى أقصى حدّ ممكن.

حقّق مؤتمر لندن نجاحاً كبيراً، لكني لم أكن متأكداً أن جورج يساند المؤتمر من كل قلبه، أما كوندوليزا رايس التي عُيّنت تواً وزيرةً للخارجية فكان لها رأي آخر. لم يتبق لي وقت للتركيز على موضوع فلسطين إلا على نحو متقطع، وذلك بسبب انشغالاتي الكثيرة، التي شملت الانتخابات.

(ركّزت كوندي في وقتٍ لاحق على الشرق الأوسط، وهي فعلت ذلك بحيوية وفاعلية إلى درجة أنها كادت تنجح لولا الاضطراب الذي ساد السياسة الإسرائيلية

في العام ٢٠٠٨. كانت إنسانة رائعة، وذكية على نحو استثنائي، وملتزمة إلى حدّ كبير. أما إذا كان لنا أن نشير إلى عيبٍ من جانبها فهو لربما كونها محترمةً على نحو مفرط في عالم السياسة. كانت كذلكَ مثالاً نموذجياً للمفارقة التي ترافق الأشخاص الذين يمتلكون خبرة ومقدرة على أعلى المستويات، لكن من دون أن يشغلوا وظائف سياسية بعد تقاعدهم من مناصبهم. لكن ذلك موضوع آخر!).

امتلأت الأشهر الأولى من العام ٢٠٠٥ بمذكّراتي الخاصة، التي شملت تحديد خطط الانتخابات، والعودة إلى التفاصيل الدقيقة لمجموعة من التصريحات القادمة، كما فكرت كثيراً في التصريحات الصادرة عن وزارات الحكومة في الأوقات غير المناسبة. لاحظت أن جهاز الخدمة المدنية لم يصل بعد إلى درجة تطبيق مبدأ الشفافية، وذلك بعد سنواتٍ عديدة من التشريعات، وتفحصت كذلك قانون المعلومات الذي صدر في ١ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٥.

أريد أن أتحدث الآن عن قانون حرية المعلومات. إنها ثلاث كلمات بريئة في الظاهر. إنني أنظر إلى هذه الكلمات وأنا أكتبها، وأشعر بضرورة أن أهزّ رأسي إلى ما لا نهاية. يا للحماقة، والسخافة، والجنون، ويا لتلك الحماقة غير المسؤولة. لا أعتقد في الواقع أن ثمة وصفاً كافياً للغباوة، بغضّ النظر عن مدى حيويتها. ارتعشت لحماقة الأمر.

ما إن استوعبت مدى جسامة هذه الحماقة حتى بدأت بإبلاغ أي موظف حكومي يُصغي إليّ، وإن بشكلٍ متسرّع: «أين كان السير همفري عندما احتجت إليه؟» أكملت الحكومة أولى تشريعات السلطة. تساءلت كيف سمحنا لأنفسنا، مع معرفتنا ما نعرفه، أن نقوم بهذا الشيء الذي يعيق عمل أي حكومة رصينة.

ربما يعتبر بعض الأشخاص أن هذا الكلام يُثير الصدمة. سيقولون إنني أريد ترؤس حكومة سرية، وإخفاء الأعمال السيئة للسياسيين، وحرمان الشعب من حقّ معرفة ما يجري باسمه.

أما الحقيقة فهي أن قانون حرية المعلومات لا يستخدم «الشعب» معظمه، وذلك لأن الصحافيين هم الذين يستخدمونه. أما بالنسبة إلى القادة السياسيين، فإن الأمر يشبه القول لشخص يضربك بعصا على رأسك: «إسمع، حاول أن تضرب بهذه بدلاً

من العصا»، وذلك قبل أن تعطيه مطرقة. لا يسعى الصحافيون وراء المعلومات بسبب توقهم إلى المعرفة، وهي لا تُعطى من أجل منح المعلومات للشعب. إنها تُستخدم كسلاح.

هناك سبب آخر وأهمّ بكثير يجعل من هذا القانون قانوناً خطراً وهو أن الحكومات، مثلها مثل منظمات أخرى، تحتاج إلى أن تكون قادرةً على إجراء مناقشات حول القضايا التي تحمل مقداراً معيناً من السرية والجدال بشأنها، وإقرارها. إن هذا الأمر ذو أهمّية كبيرة، لأنه أمرٌ جوهري. يشعر الشعب، من دون السرية، بأنه مقيد وبأن استعراض الخيارات محدود جداً بطريقة لا تسمح بالتوصل إلى اتخاذ قرارات بطريقة سليمة. ينطبق ذلك على كل نظام إدارة، كما أن الناس يراقبون الأشياء التي تكتبها، ويتحدثون من دون التزام الأوراق. إنها طريقة سيئة جداً لتحليل القضايا المعقّدة.

كانت عواقب ذلك القانون لا تزال تظهر في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن له تأثيرات كثيرة في العام ٢٠٠٥. لم تتضح مدى حماقة ذلك القانون إلا في أوقاتٍ متأخرة، وحينئذ أدركت أننا عبرنا ما يجب أن يكون خطوطاً حمراء، وأننا ذهبنا إلى حدّ لم يعد من المعقول معه الكشف عنه.

انشغلنا في هذا الوقت في صوغ الكلمات المناسبة للانتخابات. حسمت أمري في نهاية الأمر في مقالة عنونتها «إلى الأمام وليس إلى الوراء». أدركت أن قوتنا، وعلى الرغم من كل شيء، تكمن في امتلاكنا برنامجاً مستقبلياً. أدركت كذلك أن نقطة ضعف المحافظين هي أن وجودهم تحت قيادة مايكل هوارد يكمن في عدم تغيّرهم. «إلى الأمام وليس إلى الوراء» كان عنواناً عادياً إلى درجة الملل، لكنه كان واضحاً، بالإضافة إلى كونه شعاراً جيداً يصلح لكي يشمل مجموعة واسعة من السياسات. عملنا طوال هذه الفترة على مسارٍ مزدوج: العراق والبرنامج الداخلي. سيحاول خصومنا التركيز على العراق خصوصاً. كان علينا توسيع البرنامج. أدركت أن العراق سيجعل الرأي العام مستاءً وغاضباً. كما أدركت أنهم سيرتبكون عند محاولة استغلال موضوع العراق من أجل تغيير الحكومة. يعرف خصومنا أن المحافظين قد ساندوا الحرب، ودعموني أنا للسبب ذاته. أظهرت محاولة مايكل استغلال موضوع العراق أنه يفتقد في أعماقه الحدس السياسي الحقيقي.

عانينا كذلك مشكلة غوردون التي تواجهنا في الانتخابات في كل مرة. طلبت إلى آلان ميلبيرن العودة والمساعدة على تنسيق العملية الانتخابية. سبّب ذلك موجةً من التصريحات ضده، ومحاولة لإثارة أعصاب إيان ماك كارتني، الذي كان يقوم بمهمة جريئة بوصفه رئيساً للحزب. كان إيان رجلاً حزبياً عظيماً، كما كان مخلصاً ويجيد عملية التنظيم، لكنه لم يكن رجل استراتيجية. حاولت من جهتي تكوين هيكلية تمكّن آلان من تنظيم الحملة المناسبة لكن من دون التأثير في إيان. عاد آلاستير كي يساعدنا. وقف فيليب غولد، بطبيعة الحال، في الوسط لكن ذلك لم يضع حداً للمشاكل مع غوردون براون. كدت أتمكن من إبقاء الأمور طبيعية ، لكني أركز هنا على كلمة «كدت».

واجهنا وضعاً صعباً وخطراً بعض الشيء. اعتقد آلاستير وفيليب أن العملية يجب أن تكون أشبه شيء بحملة ثنائية طوني بلير/ غوردون براون. لم أكن أتمتع بشعبية في عدة دوائر، بينما كان غوردون وزيراً ناجحاً، لذلك كانت الفكرة صائبة. لكن بيتر مندلسون خالف آلان في الرأي كثيراً، إلا أن بيتر كرر أمامي غير مرة أنني أقوى مما أعتقد ولهذا فإنني لا أحتاج إلى هذا الترتيب. كانت الخلافات حادة جداً في بعض الأوقات بين بيتر من جهة وآلاستير وفيليب من جهة ثانية.

شعرت في مرحلةٍ ما بأنني غير متأكد من أفكاري. كنت أعرف، على مستوى معيّن، أن البرنامج هو برنامجي أنا كما كنت واثقاً بالفعل بالسياسة المتبعة. أما على مستوى آخر فقد شعرت بأنني أتعرض للاضطهاد، وإذا أردت أن أكون صريحاً مع نفسي فقد شعرت بمسحة من الإحباط بالنظر إلى ضخامة المعارضة وطبيعتها الشخصية. سبق لي أن قلت إن عبارة «بلير الكذاب» قد استُخدمت للمرة الأولى في العام ٢٠٠١، لكنّ مشكلةَ أسلحة الدمار الشامل أعطت هذا التعبير دفعاً قوياً. شكلت هذه القضية فرصةً هائلة بالنسبة إلى الذين كانوا يكرهونني في تلك الفترة مع أنني أعرف أن كلمة كراهية غير مبالغ فيها، وذلك على الرغم من الاستنتاجات التي توصّل إليها تقرير هوتون، وعلى الرغمّ من حقيقة أن أي شخص كان باستطاعته الاطلاع على تلك المعلومات الاستخبارية في موقع الحكومة ويحكم بنفسه.

يعود ذلك إلى أنهم شعروا بالغضب بسبب عجزهم. تمكّن المحافظون على الخصوص من رؤية هزيمتهم الثالثة وهي تلوح في الأفق، هذا مع العلم أنهم لم

يخسروا الانتخابات ثلاث دورات متتالية. خسر المحافظون لسببٍ وجيه بطبيعة الحال وذلك السبب هو من صنعهم، وهو يشبه ما كان يحدث مع حزب العمال في الثمانينيات من القرن الماضي. لكن الإحباط تحوّل إلى همجية مثل ما حدث مع المعارضة العمالية وثاتشر. (أذكر أن بعضهم صرخ في وجهي «إنها دكتاتورة». كنت أخطئهم وأجيب «كلا إنها ليس كذلك لأنها فازت في الانتخابات»). تمتعت السيدة ثاتشر بتأييد الصحف الرئيسة ودعمها على الدوام، أما أنا فقد كانت الصحف الرئيسة تجيز الحملة الشخصية ضدي. كانت صحيفة الدايلي مايل على الخصوص شرسة جداً. سبق لي القول إن غوردون كان مقرباً جداً إلى بول داكر، وهو رئيس تحرير مجموعة مايل. كان تلاقي هذين العاملين مريراً جداً.

أما تلك السخافة التي تدعى قضية «شيري غايت» للعام ٢٠٠٢ ـ القضية التي تدخل فيها بيتر فوستر، شريك كارول كابلين، في عملية شراء شيري لشقتين في بريستول – فقد تجاوزت الحدود مع داكر. تعودت منذ فترة طويلة تجاهل كل ما تقوله الصحافة عني بغضّ النظر عن طبيعته، لكني كنت في بعض الأحيان ألتقي صحافيين سبق لهم أن كتبوا شيئاً عني أو حتى عن شيري. كنت أبادرهم بالتحية بكل سرور ومن دون أي اكتراث. يدهشني كذلك سرعة نسيان الناس للشائعات التي تتراكم حول الشخصيات العامة، وذلك سواء أكانت جيدة أم سيئة، هذا إذا لم تكن معززة ببرنامج يقف وراءها، وعندئذ تصبح مصدر إزعاج حتى أنها كثيراً ما تخلّف ضرراً دائماً. كنت ألتقي في بعض الأحيان شخصيات عامة وأقول لهم: «كيف الحال؟» كانوا ينظرون إليّ وكأنهم يريدون أن يقولوا: «أتعني أنك لا تعرف؟» أعرف بأنهم كانوا يعانون خبراً سيئاً سلّط الأضواء عليهم، لكن بالنسبة إلي فإنني كنت أنظر إلى الأمر من دون اكتراث وأتركه كما هو. كنت سأسمح لنفسي أحياناً بالتعبير عن الاستياء، أو بإطلاق ابتسامة، لو حدث ذلك معي، لكن على أي حال كنت أمضي في طريقي بسرعة. أعرف أنني كنت سأتصرف بالطريقة ذاتها لو تعرضت للهجوم. يعني ذلك أنني لم أكن أشعر بالذعر تجاه وسائل الإعلام، ولا كنت أتتبع ما تكتبه بشغف. كانت مقالات الصحف تؤلمني في بعض الحالات، لكني كنت أستعيد هدوئي بسرعة معقولة.

وفي هذه القصة بالتحديد فإن كارول ارتكبت خطأً في التقدير عندما سمحت

لبيتر فوستر بالتدخل في حياتها، الأمر الذي اعترفت به واعتذرت عنه. ربما لم تكن شيري لتحاول شراء الشقتين في البريستول، لكن إيوان كان يدرس في جامعةٍ تقع في تلك المنطقة فظنت أن من المفيد شراءهما. أما المشكلة فتكمن في أنها لم تكن لتستطيع أن تفعل ذلك بصفتها زوجة رئيس الوزراء، وليس لأي سبب آخر يمنعها من الشراء. إنني أؤكد أن عملية الشراء ذاتها لا تشوبها أي شائبة، وكذلك الحال مع طريقة الشراء. كان الدور الذي لعبه بيتر فوستر في عملية الشراء ضئيلاً جداً. التقت شيري هذا الرجل لمدة خمس دقائق، أما أنا فلم ألتقه، أو أتحدث إليه بتاتاً. أريد القول بالمناسبة إنني لا ألوم صحيفة مايل على نشر المقالة، لكن يصعب تصديقها كما أعتقد. وردتني مكالمة هاتفية عادية في أحد مساءات أيام السبت، وهي كانت ترد في العادة من إحدى الصحف التي تصدر أيام الأحد وتطلب رداً في آخر لحظة على مقالة ما، بغية إعطاء الشخص المعني أقل وقت ممكن للإجابة. تسرّعت عند ذلك في إعطاء الإجابة عن طريق الهاتف، فقلت إن فوستر لا علاقة له بعملية الشراء، ونقلت ذلك إلى آلاستير. تورطنا بعد أيام قليلة في زوبعة إعلامية طويلة. تتالت المقالات عن فوستر وتاريخه فتكشفت عنه أشياء سيئة بالفعل. قادت صحيفة مايل هذه الحملة، وكانت تلك هي طريقتها المتبعة على الدوام، وهكذا لم تكن أي فائدة تُجنى من التوتر بشأن أخبارها.

صمّمت على مقاومة الهجوم الذي يستهدفني، وقررت أن أتعمد مواجهة نقّادي. لم يكن الأمر سهلاً، لكنه كان يحتاج إلى أن يكون مدروساً بعناية. هناك خيط رفيع يفصل بين «يمتلك ما يكفي من الشجاعة لمواجهة وضع صعب»، وبين «الجميع يكرهونه»، لكن يمكن للمرء أن يكوّن استراتيجية إذا وفّق بين الأمرين على الرغم من وجود إزعاج ما.

عانينا أثناء فترة التحضير للانتخابات مما يشبه حالة ذعر واسعة بسبب وباء الانفلونزا. يمكن للمرء أن يكتب أطروحة دكتوراه عن الأوبئة التي لا تظهر أبداً. أصدرت منظمة الصحة العالمية تقريراً زعمت فيه أن ما يراوح بين ٥٠٠,٠٠٠ و٧٠٠,٠٠٠ حالة وفاة ستحدث في العالم جراء ذلك الوباء. نُشرت الإحصائيات عن أول وباء إنفلونزا اجتاح العالم أثناء الحرب العالمية الأولى، وكانت النتيجة أن الهلع أصاب الجميع، كما أن حالات الإصابة التي حدثت تسببت بظهور عناوين تتحدث

عن الهلاك الوشيك، وهكذا كان يُعدّ أي شخصٍ مصاب بالرشح جزءاً من الكارثة العالمية.

أخشى القول إنني حاولت بذل أدنى جهدٍ ممكن بأقلّ قدرٍ ممكن من الكلفة. أدركت مقدار المخاطرة لكني لم أعتبر أن ما يُقال عن هذه الكارثة العالمية له ما يبرره. يميل الجميع في حالات كهذه إلى تجنّب المخاطرة بالاستثمار إلا إذا كان حذراً جداً، لكن كان ينتهي الأمر بإنفاق ثروةٍ كبيرة من أجل تجنب أزمة لا تحدث أبداً.

أدركت أن ردّ فعل الإدارة كان مفهوماً تماماً. أما المرة الأولى التي لا يكترث المرء فيها بالفعل فهي عندما يظهر الذئب في القرية، ولذلك على المرء أن يشقّ طريقه، ويتخذ الاحتياطات اللازمة، وأن يكون مستعداً للتحرك إذا بدا الأمر جدياً هذه المرة. لكن ما بالك بالاجتماعات التي لا تنتهي، وكل الضجيج الذي يرافقها!

تجاوزنا هذه الأزمة على أي حال، وكنا على وشك أن نبدأ بالحملة الانتخابية عندما توفي البابا يوحنا بولس الثاني في وقت مبكرٍ من نيسان/أبريل. كان البابا قائداً بارزاً للكنيسة الكاثوليكية ويتمتع بشعبية كبيرة. سبق لنا أن احتفلنا بقدّاسٍ كبير معه قبل سنتين في المكان المخصّص له للصلاة. أبدى البابا اهتماماً كبيراً بنا، وأظهر لنا قدراً كبيراً من التعاطف والاهتمام. لم يكن متفقاً معنا بشأن العراق، لكنه تفهم مخاطر القيادة وضغوطها، وحينما تحدّث معي عن هذا الموضوع لم يكن يقصد إثبات نقطةٍ ما، بل كان يريد إعطائي استشارة روحية. كان البابا محافظاً عقائدياً بطبيعة الحال لكن كانت له لمسة مشاركة حقيقية مع الآخرين.

خرج ملايين الناس إلى الشوارع عندما توفّي. توجّه رؤساء العالم إلى كنيسة القديس بولس في روما للمشاركة في الجنازة. إن الفاتيكان مكان رائع، وما إن يدخله المرء حتى يجد نفسه فجأة في مكانٍ آخر. يبادر الحرس السويسري – ووجوده تقليد مستمر منذ مطلع القرن السادس عشر – إلى إلقاء التحية، ويرشدك إلى طريق الدخول. إنها لعظمة ما بعدها عظمة. أخبرني الملك السعودي ذات مرة أنه أفخم مبنى دخله على الإطلاق (أعتقد أنه دخل عدداً قليلاً من هذه الأماكن). أما إذا قام المرء بزيارة البابا فعليه المرور بسلسلةٍ من غرف الانتظار، كل واحدة منها أفخم مما

سبقتها، وذلك قبل إلقاء التحية على قداسته. وإذا كان الهدف من فخامة الغرف هو إثارة الإعجاب فلا شك في ذلك. عرف الفاتيكان منذ البابا الأول، غريغوري، مزيجاً غريباً من السياسيين والروحانيين، وما زال الأمر كذلك بمعنى ما. صحيحٌ أنه مركز مؤسسة دينية، إلا أنه مركز سلطة كذلك، وهي سلطة يمكن التعامل معها، ولا يجوز الاستهانة بها.

أقيمت مراسم الجنازة فوق درج الكاتدرائية. وقف الرؤساء في أعلى الدرج، بينما احتشد الناس في الباحة الكبيرة. حضر الرؤساء جميعاً، وكان المكان المخصّص للوجهاء رائعاً جداً. قررت سلطات الفاتيكان أن تُجلسنا بحسب الترتيب الأبجدي. شاءت المصادفات، ويا للأسف، أن يكون مقعدي إلى جانب روبرت موغابي، وذلك لوجود اسم المملكة المتحدة بقرب زيمبابوي. كنت على وشك الجلوس في مقعدي، وفي آخر لحظة رأيت الرجل الجالس إلى جانب مقعدي، وكان يتحدث، لحسن الحظ، مع جاره في الجهة الأخرى. لم يرني، وأنا كنت على وشك إطلاق حملة انتخابية، لذلك فصورتي وأنا إلى جانبه لا تشكّل بدايةً مثاليةً للحملة. كان التفكير في هذا الأمر مريعاً.

تراجعت إلى الصفوف الخلفية حيث تجمّع السفراء ورجال الأمن وغيرهم. أثار وجودي هناك نوعاً من الذعر بين الكهنة الذين ينظمون عملية الجلوس، ثم حاولوا مراراً إرجاعي إلى الصف الأمامي من المقاعد. كانت مراسم الصلاة على وشك أن تبدأ عندما فوجئت برؤية الأمير تشارلز وهو يدخل، ويتجه إلى مقعد المملكة المتحدة بطبيعة الحال. تقدّمت نحوه بسرعة، لكن بعد فوات الأوان، وما لبث الأمير أن جلس إلى جانب موغابي. لكن ما خفف وطأة الأمر أن الأمراء لا يُنتخبون من الشعب.

أطلقنا بعد أيام قليلة حملتنا التاريخية للفوز بولاية ثالثة. أظهرت استطلاعات الرأي نتائج لمصلحتنا، وكنا نتقدم على منافسينا بنحو خمس نقاط، وذلك على الرغم من مرورنا بثلاثة أشهر صعبة. كما سمعت كلمات تذمّرٍ مستمرّة نتجت عن قراري خوض الانتخابات. عمد روبرت بيستون، وهو صحافيٍ مقرب من غوردون، إلى نشر سيرة حياته منذ وقتٍ قصير، الأمر الذي سلّط الضوء على فرضية «الضحية/ الخيانة». تردّدت هذه الأصداء لمدة أسابيع عديدة. أقول، للإنصاف، كان من

المفترض كما أظن أن يتزامن نشر الكتاب مع تسلّمه زعامة الحزب، لكنه أخذ الآن سياقاً آخر مع أنه يعني أن انقسام ثنائية طوني بلير/ غوردون براون أصبح أمراً شائعاً.

شعرت، على الرغم من ذلك كله بثقةٍ كبيرة ببياننا الانتخابي، وبسجلّ إنجازاتنا، وبقدرتنا على إظهار ضعف حملة المحافظين وهشاشتها. كانت الزيارة الأولى إلى وايموث التي تقع في قلب منطقة كانت موالية برمّتها للمحافظين في السابق، وهناك كسبنا جنوب دورسيت، وذلك للمرة الأولى منذ العام ٢٠٠١.

أما النتيجة النهائية فكانت أقل بهراً بنتائجها، أو حتى حجم الأغلبية، هذا بالإضافة إلى فقدان التناسق في تغيّر هذه النتيجة. أما بالنسبة إلى المقعدين الحرجَين الآخرين، وأحدهما مقعد جنوب دورسيه، فإنهما ساهما في زيادة الأغلبية، الأمر الذي يمثّل نتيجة استثنائية. حصل تغيّر لمصلحتنا في بعض الأماكن، لكننا خسرنا مقاعد تقليدية في مناطق أخرى لمصلحة الليبراليين الديمقراطيين، وهم الذين نشطوا ضد الحرب وفي معارضة تغيير أقساط التعليم.

صمدت القوة الناخبة لحزب العمال الجديد، وبقيت سليمة. ما إن أشارت الدلائل الواضحة إلى إعادة انتخابنا بالفعل، حتى بدأت أصوات الناخبين التي كان من المحتمل أن تذهب إلى الليبراليين الديمقراطيين لمصلحتنا للتأكد من عدم مجيئ حكومة محافظة. بدأ الحزب، بالاقتناع بأن النتيجة ستكون أفضل مع رئيس آخر، أي غوردون، لكن ذلك كان بسبب خطأ جسيم في تحليل النتيجة. أما الواقع فهو أن النتيجة مع رئيس آخر لحزب العمال الجديد كان من المحتمل أن تكون أفضل، إلا أن قرار العراق سيكون في يد شخصٍ آخر. لكن الفرق الحقيقي بين العام ٢٠٠١ والعام ٢٠٠٥ كان في خسارة ما نسبته ٤ بالمئة لمصلحة الليبراليين الديمقراطيين، الأمر الذي لا يمثّل أي تغيّر هام لمصلحة المحافظين. يعني ذلك، وبكلماتٍ أخرى، تصويتاً احتجاجياً تقليدياً، الأمر الذي كان يسهل علينا تصحيحه في ولايتنا الثالثة بحيث نكون جاهزين لمحاولة الحصول على ولاية رابعة، وذلك شريطة عدم خسارتنا الدعم الأساسي لحزب العمال الجديد الذي رافقنا. إن عدم وجود انتظام في التغيير يسمح بالقول إن التغيّر لم يكن حالة استثنائية، وذلك لأن التحليلات أثبتت أن التغيّر استمر، وهو درس سياسي مهم جداً.

استمررنا بالتقدم على هذا المنوال. كان المزاج العام مقبولاً، لكنه اعتكر قليلاً نتيجة لقرار بعض الأشخاص جعل العراق القضية الوحيدة، وهي القضية التي شغلت قسماً كبيراً من وسائل الإعلام، بينما كان موضوع العراق يعني شيئاً آخر لمعظم الناخبين.

لا يعني أن هذا يعود إلى أن الناس لا يكترثون للحرب أو لنتائجها، بل هم يكترثون لها بالفعل، خصوصاً مع فقداننا جنوداً على نحو منتظم ومريع، وذلك بسبب الحملة الإرهابية التي جرت في البصرة. شعر معظم الناس بأن القرار المتعلق بالعراق هو قرار صعب. يعني ذلك أن لديهم تقديراً حاداً لمدى صعوبة اتخاذ قرار يتعدى ميل وسائل الإعلام في الحكم على الأمور على طريقة الأبيض والأسود. كانوا يفهمون طبيعة المأزق على الرغم من اختلاف آرائهم. تعاطف الناس مع واقع أن اتخاذ القرار يقع على عاتق القائد. قال لي أشخاص كثيرون أثناء الحملة إنهم مسرورون لأن اتخاذ القرار لا يتعين عليهم بأنفسهم. سبق لي أن قلت من قبل إنهم لا يثقون بطريقة استخدام خصومي، وخصوصاً المحافظين منهم لهذا الموضوع.

كثُرت المشاكل الأخرى في هذا الوقت، مثل قضية مصنع لونغ بريدج في ميدلاندس، وهي المنطقة التي تقع في قلب المنطقة المتذبذبة، حيث كان مالكو مصنع سيارات كبير وتاريخي على وشك الإفلاس. بدأت هذه المشاكل كلها بالتزامن مع انطلاق الحملة. عملت أنا وغوردون على نحو جيد، وحصلنا على نتيجة واضحة. توجّهنا إلى هناك على الفور، وتحدثنا مع الناس في محاولة منا لحلّ المشكلة، وكان من الواضح أننا نمسك بزمام الأمور كما يبدو.

تمحور برنامجي حول القيام بزيارات إلى المدارس والمستشفيات، وإلى مراكز رعاية الأطفال، وإلى كل ما يشكّل البنى التحتية للخدمات العامة التي استثمرنا فيها الأموال الكثيرة، وحيث بدأت النتائج الملموسة بالظهور تباعاً. أما الإحصائيات التي تناولت نتائج المدارس، وأوقات الانتظار في المستشفيات، وأرقام الجرائم، فقد عكست فوائد الإصلاحات التي أجريناها. احتل التلاميذ الذين هم في العاشرة المرتبة الثالثة في العالم من حيث إجادة القراءة والكتابة، وفي سرعة التحسن في الحساب، وتمكن ثلاثة أرباع التلامذة الذين هم في الحادية عشرة من بلوغ مستويات عالية في القراءة والكتابة والرياضيات. أما المصابون بحوادث فقد اضطر ٩٧ بالمئة منهم إلى

الانتظار فترة تقل عن أربع ساعات، كما أن أحداً من المرضى لم يضطر إلى الانتظار أكثر من تسعة أشهر لإجراء عملية جراحية. انخفضت كذلك نسبة الجريمة على العموم إلى ٣٠ بالمئة، وهذا ما يعني أن الجرائم قد انخفضت بنحو خمسة ملايين جريمة [خرق للقانون] في كل سنة. أما عدد رجال الشرطة فقد زاد نحو ١٣,٠٠٠ رجل عن العام ١٩٩٧، كما عملوا مع ٤,٦٠٠ من رجال الدعم المحليين الجدد.

لم يعد البرنامج الجديد في بياننا الانتخابي يبدو وكأنه تمنيات رجل سياسة، لكنه ظهر وكأنه خطة متماسكة بدأت تعطي ثمارها. شعر الأشخاص الذين عملوا في مجال الخدمات العامة بأننا إلى جانبهم، كما شعروا، بحدسهم، أن المحافظين ليسوا كذلك. يعني ذلك أننا أقوياء في برنامجنا المحلي.

تقدّم المحافظون علينا في موضوع واحد: الهجرة. واجهتنا في أولى سنوات الحكم مشكلة حقيقية مع طلبات اللجوء التي قدّمها أشخاص يريدون الهجرة مع استثمارات مالية حقيقية. سبق لي أن قلت إن نظام التعامل مع هذه الطلبات كان قديماً جداً. تمكّنا أخيراً، وبعد جهد بسبب العقبات البيروقراطية، من تحسينه كثيراً، لكن مشكلة الهجرة غير الشرعية استمرت كما هي. لم تكن بريطانيا هي البلد الوحيد في العالم الذي يواجه مشكلةً كهذه بطبيعة الحال، لكن لاحظتُ الأحزاب التقدمية في أوروبا وهي تعالج هذه القضية بشكلٍ خاطئ وتخسر بسببها.

يكنّ اليساريون عموماً تعاطفاً طبيعياً شديداً مع المهاجرين، كما يكرهون التمييز العنصري، ويعرفون أن قضية الهجرة عادة ما تحمل معها جرثومةَ التمييز العنصري. عندما كان الناس في بريطانيا يقولون إنهم ضد الهجرة، كانت نسبة كبيرة منهم تقف ضد فئةٍ معيّنة من المهاجرين، مثل ذوي الوجوه السوداء أو السمراء. لم تكن هذه الآراء معلنةً في الغالب لكن الجميع كان يعرف أنها موجودة.

يعني ذلك أن اليساريين يميلون إلى مساواة القلق حيال الهجرة مع العنصرية الكامنة فيها. كانت تلك غلطة كبيرة. أما الواقع فيدل على أن تلك الهجرة يُمكن أن تتسبب بتوتّراتٍ حقيقية إلا إذا تمّ التحكم فيها، كما يمكنها تشكيل ضغط على الموارد المحدودة للبلاد، والأخطر من ذلك هو أنها تخلق انطباعاً بأن المناطق التي يقصدها المهاجرون بأعدادٍ كبيرة تخسر تحكّمها في مستقبلها.

كان هذا القلق طبيعياً في حالتنا هذه، وذلك بالنظر إلى أعداد المهاجرين، أي إنه لم يكن نابعاً عن العنصرية، لكنه كان منتشراً بين أوساط الناس. يُضاف إلى ذلك أن فئات معيّنة من المهاجرين المتدفقين إلى بلادنا، التي أتت من مناطق شديدة الاضطراب من العالم قد أحضرت معها مشاكلها الداخلية الخاصة بها، وهكذا دخلت هذه المشاكل من المناطق المضطربة من العالم مدن بريطانيا وقراها. كان من الطبيعي أن يتسبب لنا هذا الواقع بقلقٍ حقيقي. كنت ألقى في كل مرة أشدّد فيها على قوانين اللجوء وأنظمتها عتباً من التقدميين من ذوي النيات الطيبة الذين ظنّوا أنني أتنازل أمام العنصرية. قلت على الدوام إننا اضطررنا إلى وضع هذه التشريعات من أجل تجنّب العنصرية. كانت قوانين الهجرة تعاني فوضى كبيرة. أما التحدي السياسي الذي واجهناه فكان منع العنصرية الفردية من التطور إلى تحالفٍ شائع. كانت الأحزاب اليمينية في أنحاء أوروبا تقدّم بين وقتٍ وآخر اقتراحات تهدف إلى التشدّد في قوانين الهجرة، لكن الأحزاب اليسارية كانت تعارض بالقول: إنكم عنصريون. كان الناس يردون بالقول: «إنكم لا تدركون ماذا يحصل».

جهد المحافظون في دفعنا إلى المأزق ذاته، وهكذا بدأوا هجوماً عالي النبرة على الهجرة غير الشرعية، وادّعوا أن القلق ليس من العنصرية بشيء، وهم يأملون أن نقول الشيء ذاته. أصررتُ، بطبيعة الحال، على عدم قيامنا بأمرٍ كهذا.

زرت في مرحلة ما من الحملة الانتخابية دوفر حيث يتجمع طالبو اللجوء من الذين لا يستوفون الشروط المطلوبة. ألقيتُ خطاباً هناك يتناول ذلك الموضوع. كان غيوين بروسر هناك، وهو نائب يساري في البرلمان عن دوفر، وكان ذكياً بما يكفي كي يدرك أنه إذا لم يتسلح بحجّة تثبت وجود المشكلة فلن يستطيع الحفاظ على مقعده في الانتخابات المقبلة. تحدثت في الخطاب عن المساهمة الإيجابية التي يقدّمها المهاجرون إلى بريطانيا، لكنني اعترفت بوجود مشكلة الهجرة غير الشرعية، كما تحدثت عن كيفية مواجهتنا لها. هاجمت حزب المحافظين لأنه يُثير هذه القضية من دون حيازته سياسةً واضحةً لمعالجتها، أي إنه يستغل هذه القضية من دون حلّ المشكلة. وضعت، وسط دهشتهم، موضوع بطاقات الهوية في صلب الخطاب، وقلت إن إيجاد نظامٍ ما من أنظمة التحقق من الهوية هو الطريقة الجدية

الوحيدة لمواجهة ذلك التحدي. تمكّنا بعد ذلك الخطاب من إلحاق الهزيمة بالهجوم الذي شنّه المحافظون، وهكذا سمحت وسائل الإعلام بطرح موضوع ومناقشته. كان موقفنا معقداً بما فيه الكفاية، أي إنه كان نوعاً من «إعترف وتجنّب» كما يقول المحامون، وقد حققنا نصراً في هذا المجال.

أسفر هذا الأمر، على أيّ حال، عن فسح المجال أمام خصومنا، وخصوصاً أولئك العاملين في وسائل الإعلام، للتركيز على موضوع العراق فقط.

تعيّن علينا إدارة الحملة بعناية. ربما يقول القارئ إن هذا أمرٌ طبيعي، لكن تعيّن علينا في هذه الحالة أن نكون حذرين أكثر من المعتاد. كان أي شخص يقوم بالصراخ أو بإثارة شجار أثناء حملة العام ٢٠٠٥ يتصدّر الأخبار. كان المسؤولون عن الحملة الانتخابية يردّون بالحرص على عدم تشويشها. أما النتيجة فكانت وصول وسائل الإعلام، والوضع السياسي، إلى طريق مسدود. شعرنا في هذه المرحلة بأننا لم نُعامل بإنصاف، وشعرنا كذلك بأننا معزولون أو بأننا تعرضنا للاستغلال.

شكّل ذلك كابوساً بالنسبة إلى الذين ينظمون أنشطة الحزب، وهم الذين كانوا مجموعةً لامعةً ومخلصة جداً، ومستعدّة لتقديم أضخم التضحيات عندما تدعو الحاجة، وبأسرع وقتٍ ممكن. حرصت في الماضي على تكوين ماكينة حزبية قوية. لكن جمع الأموال اللازمة لهذه الحملة كان أصعب مما كان عليه الأمر في العام ٢٠٠١، على الرغم من أنه لم يكن أصعب بكثير، خصوصاً وأن مايكل ليفي، المسؤول عن جمع التبرعات، قد أبلى بلاءً حسناً على عادته. بقي إلى جانبنا تحالف جمهور الوسط الأساسي في الحزب صلباً ومنطقياً، يُضاف إلى ذلك أن عالم رجال الأعمال تعوّد عدم الثقة بالمحافظين، وبسياستهم الحادة تجاه أوروبا ومسائل الهجرة، وكذلك بهجماتهم الشخصية عليّ أنا. جمع المحافظون أموالاً كثيرة من مصادر معادية لفكرة الاتحاد الأوروبي، لكن أصحاب الأموال الرشيدة والحديثة بقوا معنا.

جهدت كايت غارفي، والمسؤولون عن الحملة، كثيراً في الحفاظ على طاقتنا، كما حرصوا على عدم استنفادنا لهذه الطاقات. مالت الاستقصاءات التلفزيونية إلى التحدي. تبيّن لي بوضوح أن الأمر برمّته يتعلّق بي أنا، وهو يستهدف تاريخي،

وشخصيتي، وقراراتي. كنت في وضع صعب، وكنت مستهدفاً، والشخص الذي يريدون التخلص منه. كان كل شيء طبيعياً وواضحاً، لكنه كان يعني وجوب أن نكون في منتهى الحذر، وهذا ما فعلناه.

شعرت بقدر كبير من الألم، كما اكتشفت فيما بعد أنني خضتُ الحملة برمّتها وأنا أعاني مشكلةً في عمودي الفقري. حاولت أن أبدو أحياناً بحيوية الشباب، وأن أتحرّك بحيوية أيضاً فوق خشبة المسرح، وكنت أمشي بسرعة وبتصميم، وغير ذلك من هذه التفاهات المعتادة، بينما كنت أعاني في بعض الأحيان وخزات مؤلمة أثناء قيامي بهذه الحركات. لم أستطع إظهار ملامح الألم أثناء شعوري بها. كنت أعلم باستمرار أن من بين مجموعات المصورين الصحفيين كان أربعة أو خمسة مصورين منهم يحرصون على التقاط الصور المسيئة. كانت [الأميرة] دايانا تقول باستمرار إن الصورة هي الأهم. سيعرف القارئ ماذا أعني إذا ما كان عانى ذات يوم آلام الظهر، وهي التي لا يوجد أسوأ منها، وإن كنت أعتقد أن هناك ما هو أسوأ بالنسبة إلى الشخصيات العامة. إن وجع الظهر فظيع، لكنه غير مرئي. يتعيّن على المرء أن يتجنب الآلام المرئية بأي طريقة كانت، وخصوصاً مع وسائل إعلامنا. يمكن للمرء أن يتقبّل الأشخاص ذوي الأطراف المكسورة، لكن الناس لا يتقبّلون أي شخصٍ مشوهٍ يترشح لمنصب عام.

مضيت هكذا من اجتماع إلى اجتماع، وكان كل واحد منها بمثابة مخاطرة بالنسبة إلي، وكان كل اجتماع يحمل معه إمكانية التفجر، وكانت كل ملاحظة مرشحة للتمحيص. أدركت أن كل ملمح من ملامح وجهي سبب إما للارتياح وإما للقلق الشديد، وكذلك كنت أعرف أن كل ابتسامة أو كل عبوس مهما كان ضئيلاً أو كبيراً، سيوضع تحت مجهر التمحيص... وتجد بعد ذلك من يقول إن الحملات السياسية هي حملات مفبركة على نحو مفرط. حسناً، هكذا يجب أن تكون.

يُمكن للقارئ أن يصدّق أو لا يصدّق أن علاقتي مع غوردون كانت تميل إلى الأفضل. ربما يعود السبب إلى وجودنا معاً لأوقات طويلة، وأعتقد أن هذا قد طمأنه قليلاً. تبادلت وغوردون نقاشاً مثيراً للاهتمام بشأن الضرائب والإنفاق، ولم يكن ذلك بالنقاش السيئ. رأيت أننا وصلنا إلى الحد الأقصى في الإنفاق. عمدنا إلى زيادة أقساط التأمين الوطني من أجل زيادة الأموال المدفوعة إلى الخدمات الصحية

العامة، وعلى الرغم من أن الاقتصاد آخذ بالنمو، إلا أنني أحسست بأن ذلك ليس كافياً. التزمنا كذلك حدود حزب العمال الجديد، لكننا اصطدمنا بعدة عقباتٍ في طريقنا، أو هكذا اعتقدت. كان لا بدّ أن نهتمّ في ولايتنا الثالثة بترشيد إنفاق المال. سبق لنا أن قمنا بزيادة الاستثمار في شؤون الصحة، والتعليم، والخدمات العامة وذلك بمبالغ غير مسبوقة باستثناء فترات الحروب. مثلت هذه الوقائع كلها رداً على تلك الاتهامات السخيفة بأننا لسنا حكومةً تقدميةً بالفعل. تدل الوقائع على أننا أجرينا زيادة كبيرة في الإنفاق العام من أجل التعويض عن قلّة الاستثمارات في أيام حكومة ثاتشر، لكن هذا الإنفاق لم يكن غاية في ذاته.

تبنى إد بولز، استناداً إلى الاستطلاعات التي أجرتها وزارة الخزانة، الرأي بأن الناس يريدون تحقيق المزيد من الإنفاق، وبأنهم مستعدّون لدفع ضرائب إضافية، لكني كنت أرى أن هذه الاستطلاعات لا تعني شيئاً. أعتقد أن الشعب مستعدٌ لإعطاء آراء لا تعكس مواقفه الحقيقية في قضايا كهذه. قال الناس إنهم يريدون زيادة الإنفاق [الحكومي] وهم يريدون ذلك نظرياً، لكنهم من الناحية العملية يعتقدون أن الدفع يجب أن يقع على عاتق غيرهم من الناس. هذا ما حصل على أي حال، لكني كنت أقول في السابق إن الجمهور ليس منطقياً في جميع الأحيان، لكن ذلك من حقّهم مع أنهم يتوقعون، مع ذلك، أن تتصرف حكوماتهم بطريقةٍ منطقية.

بدأت بتحديد مواقفي خلال الحملة، وإن فعلت ذلك ببطء، وكانت هذه المواقف على النحو التالي: لا أريد فرض ضرائب جديدة من أجل تمويل مزيدٍ من الإنفاق في هذا الوقت. جهدنا كثيراً في العام ٢٠٠١ من أجل إبقاء الضرائب ثابتةً على ما هي عليه، وتمكّنا من الحفاظ على ذلك الوعد، وإن كنا فعلنا ذلك بشيء من التصرف. زدنا قيمة التأمين الوطني من أجل الإنفاق على الخدمات الصحية العامة. كان ذلك إجراءً مبرّراً من قِبلنا، لكن كان من المستحيل علينا تكرار هذه الوسيلة مرةً ثانية، ولا يجدر بنا أن نحاول ذلك.

كان غوردون أكثر ميلاً لإبقاء الخيارات كلها مفتوحة، لكنه رأى، مع تقدم الحملة الانتخابية وكما سبق لي القول، أن الجميع سيفترض أنه يخطط لزيادة كبيرة في اشتراكات التأمين [الضمان] الوطني، لكن الواقع هو أنه لا يريد ذلك. تبنّى غوردون بالضرورة المواقف ذاتها التي أتبناها تقريباً.

بقيت علاقتنا جيدةً بالإجمال، كما أن تفوقنا في استطلاعات الرأي قد زاد بنهاية الأسبوع الثاني. كانت قوةُ برنامج العمل الذي وضعناه للمستقبل تكمن في روحية حزب العمال الجديد، وحقيقة سيطرتنا على النقاشات حول السياسات المتبعة، فكانت هذه العوامل كلها تدفع بأصوات الناخبين نحونا. كانت حملة المحافظين في المقابل ضئيلةً بعض الشيء، حتى أنها كانت خجولة. كان الليبراليون الديمقراطيون يتحاشون شنّ حملة شخصية على صعيد القيادات. كان تشارلز كينيدي شخصاً محترماً في جوهره، وذلك على الرغم من أنهم ملأوا مناطق نفوذهم بمنشورات مليئة بكلمات عني وعن جورج بوش، وهي الكلمات التي يفتخر بها العاملون الاجتماعيون.

تبيّن لنا بعد أن أنهينا ثلاثة أرباع الحملة أننا سائرون نحو الفوز بسهولة. قررت وسائل الإعلام بعد أن دخلنا الأيام الأخيرة للحملة التحوّل إلى مرحلة الهجوم، وذلك بعد أن أيقنت عدم وجود معركة انتخابية حقيقية. كان المسؤولون في محطة بي. بي. سي غاضبين بصدق بشأن العراق. غضب المسؤولون كذلك مع تقدم الحملة لأنها لا تسير بحسب ما كانوا يريدون. كان ذلك جزءاً كبيراً من الحملة، لكنه لم يفرض نفسه. ظنّ المسؤولون عن المحطة كذلك أن السبب يعود إلى أننا أذكياء. لكن ذلك يعود، برأيي، إلى فهم أهمّية الحملة الانتخابية، وكذلك إلى فهم تعقيداتها أيضاً. لم يتجاهل الناس هذه الحملة، لكنهم تخوفوا من نتيجتها الحاسمة. تسلّمت صحيفة مايل نسخةً سريةً من الاستشارة التي قدمها المدعي العام. كانت هذه الاستشارة دقيقة مثل كل استشارات المحامين الآخرين، وعلى الخصوص عندما يقدم طرفا النزاع حججهما، كما تضمّنت شرحاً للسلبيات والإيجابيات قبل أن تصل إلى استنتاج معيّن. قمنا بنشر ذلك الاستنتاج الذي أفاد بأن الحرب كانت شرعية بالنتيجة، لكن بالنظر إلى التقاليد المتبعة – التي هي مبرّرة في هذه الحالة – فإن هذه الاستشارة في ذاتها تبقى سريةً بالنسبة إلى الجميع ما عدا جميع كبار أعضاء الحكومة ولجنة تحقيق بتلر، وهم اطلعوا عليها بحسب شروط المجلس الاستشاري الملكي.

نشرت صحيفة مايل مقتطفاتٍ توحي في جوهرها أن المجلس الاستشاري الملكي أفاد بأن الحرب كانت غير قانونية. استغلت محطة بي. بي. سي المسألة، وعلى الرغم من أننا نشرنا الوثيقة التي تبلغ ثلاث عشرة صفحة برمّتها في اليوم التالي، أي في ٢٨ نيسان/أبريل، إلا أن الصحيفة حصلت على الفرصة التي كانت تنتظرها. شاءت

الأقدار أن نفقد جندياً إضافياً قبل وقتٍ قصير من يوم الانتخابات. كانت نتيجة هذه الحادثة المأسوية أن آخر عشرة أيام من الحملة كانت مليئة بموضوع العراق. عاد الليبراليون الديمقراطيون إلى نغمة «الكذاب» من فرط يأسهم. خسرنا نسبة تراوح ما بين ٣ و٤ بالمئة من الأصوات وقد آلت إلى مصلحة الليبراليين الديمقراطيين. لم تحاول صحيفة مايل في الحقيقة أن تقول: لا تصوتوا لهم، لكنها ركّزت بدلاً من ذلك، وبذكاء وفاعلية، أي كما فعلت بي. بي. سي، على القول: قلّلوا من الغالبية. تناغم ذلك مع المزاج السائد، الذي يوحي أن غالبية بثلاثة أرقام هي غالبية مفرطة. استنتجت من ذلك أن الجمهور حصل على ما يريده بطريقة ما.

شعرنا، نتيجةً لذلك كله، بما يشبه حدوث انتكاسة في ليلة الانتخابات بدلاً من الفوز. جلست في مايروبيلا منتظراً نتائج استطلاعات ما بعد التصويت. اتصل بي غوردون هاتفياً كي يخبرني أن آندي مار، المحرّر السياسي في بي. بي. سي، أبلغه بأنهم يعتقدون أن البرلمان سوف يكون متوازناً ومن دون غالبية. قلت له إنني أشكّ في ذلك في واقع الأمر. كنت متأكداً أن بريطانيا أرادت بقاء الحكومة على وضعها متمتعةً بغالبية محترمة، على الرغم من ذلك التركيز الكبير على العراق. تأكدت كذلك أن الناخبين الطموحين الذين ينتمون إلى أسفل الطبقة الوسطى، وهي أساس حزب العمال الجديد، سيبقون معنا، على الرغم من تبديل فئة معينة من ناخبي حزب العمال ولاءها.

اتصل بي فيليب غولد هاتفياً ليقول لي إنه يعتقد أن بإمكاننا الحصول على غالبية من ثمانين مقعداً. لو تحقق هذا الأمر لكان رائعاً. لكن المثير في ذلك هو أن الفرق ما بين ٦٦ – عدد المقاعد التي حصلنا عليها – و٨٠، كان ١٤ مقعداً فقط. أما الواقع فهو أننا لو غيّرنا سبعة [مرشحين] لكان ذلك هو الفرق. خسرنا سبعة أصوات بسبب التصويت على أقساط التعليم. لكن التصويت الذي جاء أقلّ من نسبة ٣٦ بالمئة بقليل كان قليلاً جداً بالنسبة إلى حزبٍ فائز في الانتخابات، وهكذا أسفر الأمر عن شعوري بالإحباط.

كان عليّ انتظار نتيجة التصويت كالمعتاد. كان ريغ كيز أحد المرشحين في دائرتي الانتخابية، وهو والد المؤهل البحري توم كيز الذي كان من بين ستة من ريد كابس [القبعات الحمر] الذين قتلهم الغوغاء في العراق في حزيران/يونيو من العام

٢٠٠٣. شعرت بأسف كبير عليه، وأسفت كذلك لأنه شعر بأن ابنه قد مات سدى، كما كان مقتنعاً بأن الأمر كله لا معنى له. أردت الذهاب إليه كي أتحدث معه عن الأمر، لكني أدركت كذلك أن آلات التصوير تراقب على الدوام المشهد الذي يمكنه تحديد الانتخابات بالطريقة التي تريدها وسائل الإعلام.

توجّهنا نحو مركز الحزب من أجل «الاحتفال» بالنصر. فكّر العاملون في الحزب، وعن حق: إنها ولاية ثالثة تاريخية، وغالبية تفوق الستين مقعداً، إذاً ما المشكلة في ذلك؟ بدأت في تلك الفترة ألاحظ تعارضاً بين مزاجي (المحبط بعض الشيء)، ومزاج المحتفلين (المبتهج).

كان لدي على أي حال سبب آخر للشعور بالإحباط. عندما بدأت تتضح النتيجة خلال تلك الليلة، بدأت علاقتي تتدهور بحدة مع غوردون. لم أستطع فهم السبب. أحسب أنه قد يعود إلى اعتقاده أنني أرفض استشارته بشأن تشكيل الحكومة الجديدة، في حين أنني في الواقع كنت أرفض بعض الخيارات التي قدّمها بشأن بعض المناصب التي أرادها. أثار غوردون ضجّةً حول إعطاء جيوف هوون مركز كبير المشرفين على الانضباط في الحزب، وهو مركز اعتبرت أنه لا يناسبه تماماً، كما أراد إدخال إد بولز الحكومة، وهو الذي انتُخب حديثاً، الأمر الذي اعتبرته غير مناسب كذلك. تناقشنا طويلاً كذلك بشأن مايكل ويلز، وداون بريمارولو، وكذلك بشأن آخرين لم أعتبرهم أكفاء لإدخالهم الحكومة لأسبابٍ متعددة، لكنني حاولت استيعابهم لأنهم كانوا مناصرين أقوياء له.

كانت نتائج ذلك كله هي أنني أجريت تغييرات في المناصب الوزارية، وسار الأمر على ما يرام عموماً، لاحظت أنّ نواب الحزب في البرلمان يميلون إلى التقليل من التعبير عن أفكارهم. كنت أتلقى مكالمات التهنئة التي وردتني من الخارج، ممن اعتقدوا بطبيعة الحال أن الفوز بولاية ثالثة هو أمر يدعو إلى الابتهاج، لكني لاحظت من جهة ثانية شعوراً بالقلق المتزايد من جانب نواب الحزب في البرلمان الذين انتهوا بإقناع أنفسهم بأن الأمر لا يدعو إلى السرور.

أما أنصار غوردون، الذين انضمّ إليهم في هذا الوقت أشخاصٌ مثل كلير شورت، فقد توجّهوا نحو وسائل الإعلام وراحوا يتحدثون عني، وقالوا كان بإمكاننا الحصول

على نتيجة أفضل لو كان لنا زعيم آخر، بينما اتخذ أنصاري موقفاً دفاعياً. أعرف عندما أفكر في الأمر، أنه كان سخيفاً بطبيعة الحال. سبق لبيتر أن حذّرنا على الدوام أن السبب يعود، جزئياً، إلى خوضنا حملة ثنائية طوني بلير/ غوردون براون. سمح ذلك لأنصار غوردون بتفسير النتيجة على النحو التالي: فزنا بسبب رجُلنا، لكن رجلنا امتلك قطرس الرجل الآخر كي يتعامل معه. لكن الحقيقة إنْ تسببتُ باستبعاد بعض الناخبين إلا أنني اجتذبت بعض الأصوات الأخرى. لا يعني ذلك بالضرورة أن بإمكان شخص آخر أن يجتذب تلك الأصوات، حتى ولو كان صحيحاً أنه لم يقم باستبعاد الأصوات. يعني ذلك أنني تسببت بالخلاف داخل الحزب. وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام عاملتني وكأنني خسرت هذه الانتخابات، إلا أن الواقع هو أنني لم أخسرها. سمحت لنفسي مع ذلك أن يراني الآخرون في هذه الحالة، وهو أمر غير منطقي بالمرة.

قدّم لي مايكل هوارد خدمةً جيدة عندما أعلن أنه سيترك منصب زعيم حزب المحافظين. غيّر هذا الخبر مزاجي المعتكر، لكن لم يغيّره كلياً، بل إلى حدّ ما. تذكر الناس فجأةً أن المحافظين خسروا الانتخابات، وأننا ربحناها. تلاشى الجنون، وهدأت الأمور قليلاً عندما ألقيت خطاباً أمام نواب الحزب في البرلمان نهار الأربعاء، وذلك على الرغم من بقاء قدرٍ كبير من الضجيج، وعادت جماعة غوردون إلى اغتنام الفرصة بقوة. أدركت أن كل يوم أمضيه في السلطة سيكون منذ ذلك الوقت فصاعداً بمثابة كفاح.

كانت الحملة مريعة، لكني اكتسبت صلابةً في خلالها، اتضح لي أنني ازددت صلابةً كزعيم. لا أنكر أن الشعور بالضعف، والخوف، والرغبة في الابتعاد عن المسرح السياسي قد بقي، لكن الأهمّ من ذلك كله هو أنني اعترفت بهذه المشاعر، التي أصبحت ترافقني على الدوام، ولأنها مشاعر معترف بها فقد استوعبتها، ولم تعد بمثابة شياطين تتسبب بالمعاناة، والمجادلة بشأنها، ولهذا يجب التغلب عليها، وهي مشاعري العادية والطبيعية التي يشعر بها أي إنسان في موقفٍ مشابه. ليس هناك ما يدعو إلى الخجل أو الخوف، وليس هناك شيء منها يتعدى قدرتي على التحكم فيها.

أكملت جهوزيتي في هذا الوقت كي أدير خصومةً سياسيةً مستمرّة مع غوردون.

تعيّن عليّ وضع برنامج الإصلاح من ضمن البيان الوزاري. (قررت أن غوردون لن يجرؤ على الوقوف في صفوف المعارضة الصريحة)، كما أردت أن أفعل كل ما بوسعي لتهدئة الوضع في العراق، وأردت إخراج جنودنا من هناك قبل انتهاء ولايتي (الجديدة) إذا كان ذلك ممكناً، كما وضعت في برنامجي إنجاح رئاستنا لمجموعة الثماني والاتحاد الأوروبي، والنجاح في استضافة الألعاب الأوروبية إذا كان ممكناً، لكني أشك في ذلك. تعيّن عليّ كذلك وضع برنامج أشبه بروزنامة عمل يصلح لفوزٍ ما بولايةٍ رابعة، هذا إذا ما امتلك غوردون ما يكفيّ من الذكاء كي يتبناه. أما إذا لم يمتلك تلك الشجاعة فسيكون ذلك عذراً لي للفشل الذي أخشى أن يكون حتمياً، إذا ما تولى المنصب وابتعد عن روحية حزب العمال الجديد، ولو بقدرٍ ضئيل جداً.

ظهرت في الأفق قضية مهمة أخرى، هي الدستور الأوروبي، وهي التسمية التي اعتبرناها غير مناسبة، والتي تؤدي بنا إلى التزامنا ضرورة إجراء استفتاء حولها. كان لا بد لهذه القضية من أن تشغل معظم اهتمامنا في الأشهر القليلة الأولى من ولايتنا الثالثة. كان من المقرّر أن تُجري هولندا وفرنسا هذا الاستفتاء في شهر أيار/مايو، وكانت استطلاعات الرأي غير واضحة في هذا المجال، لكني افترضت أن الفرنسيين سوف يوافقون، وأنهم إذا فعلوا ذلك فسيحذو الهولنديون حذوهم. أما استطلاعات الرأي عندنا فقد كانت تشير إلى معارضة ذلك الدستور، وكانت قلة من الناس تعتقد أن بإمكاننا تغيير آراء الناس. أما أنا فكنت أكثر ثقةً كالعادة. اعتقدت أننا قد نتمكن من إجراء استفتاء حاسم وفعال، أي باتجاه الموافقة أو الرفض. أما إذا صوّت الفرنسيون بالموافقة فقد يحذو البريطانيون حذوهم. خالفني المستشارون في رأيي هذا، لكني تصورت أن بإمكاننا شنّ حملة كبيرة تأييداً لقضيةٍ كنت أشعر بأنني محقّ بشأنها. أمكنني أن أرى كيف أن التحالف التقدمي، الذي انقسم حول مسألة العراق، يمكن أن يلتحم مجدّداً وسط حملةٍ كهذه. كانت التحديات صعبة، لكني تلهفت على خوض الصراع نوعاً ما.

ما إن هدأت الأمور قليلاً حتى أخذت إجازة في توسكانيا، وذلك في أواخر شهر أيار/مايو، وهناك مكثت عند أصدقائي من آل ستروزي في كوسونا. استمتعت بتمضية الوقت مع ليو وتمكنت من قضاء لحظات جميلة معه. كان في الخامسة من عمره، أي في العمر المدهش الذي يكاد المرء أن يرى فيه دماغه وهو يتبرعم. أما

بالنسبة إلى الآباء المغرمين بأولادهم فإن الأولاد يبدون مدهشين ومحبوبين، وإن كانوا قليلي الحركة نسبياً، وهم الذين يُمكن أن يكونوا، بصراحة، مملّين جداً. أما من عمر ثلاث سنوات فصاعداً فإن الأطفال يصبحون أكثر إثارةً للاهتمام ويبقون هكذا إلى أن يصلوا إلى الثانية عشرة حيث تغلفهم ظلال شيطانية دكناء، لكنهم يظهرون ثانية، وعلى نحو لا يصدّق، بوصفهم بشراً شبه متمدنين عندما يبلغون العشرين. يتوقف المرء عندئذ عن التفكير بأنه أب سيئ، أو بأن جينةً وراثية للإهمال تسري في العائلة، ويدرك كذلك أنهم لا يزالون أولاده ويحبهم كثيراً. هناك استثناءات لهذه القاعدة بطبيعة الحال، لكنني أتحدث عن تجربتي أنا.

أعتقد أنني استطردت كثيراً. كانت كوسونا رائعةً جداً حيث يستمتع المرء بأشعة الشمس وبقدرٍ كبير من الخصوصية. استرخيت كثيراً لأن الأخبار كلها تركّزت على فرنسا وتصويتها، وهكذا تحولت عني عينا الوحش [وسائل الإعلام] لفترةٍ موقتة. زارني نيكولا ساركوزي، وكان لا يزال وزيراً في الحكومة الجديدة في ذلك الوقت. اتضح لي في ذلك الوقت وجود معركة كبيرة حول مستقبل حزب يمين الوسط UMP الذي يتزعمه ساركوزي، لكنني استنتجت أنه واثق بالفوز.

أتقاسم بعض النقاط المشتركة مع نيكولا: الحيوية والتصميم، ونفاد صبر على التصنيفات التقليدية لليمين واليسار، وكذلك النفور الشديد من التزام العقائد والتصلّب، كما أننا كنا نحب تحليل المشاكل عن طريق الحدس بدلاً من العقيدة والمذاهب، كما أدركنا نحن الاثنين أن القرن الواحد والعشرين لا يمكن أن يتوافق مع السياسة التي كانت سائدةً خلال المئة سنة الماضية. لكننا اختلفنا مع ذلك في أمرٍ واحد: كان هو يتمتع بثقة مفرطة بالنفس، ولم ألاحظ عنده لمحة شكّ واحدة. تحدث معي بصراحة عندما سرنا عبر طريقٍ تحيطه الأشجار على جانبيه، ويؤدي إلى المنزل الذي يعيش فيه آل ستروزي. لمحتُ في حديثه الصريح ثقةً تامةً بالفوز عندما قال لي: «سوف أفوز، وسوف أصبح رئيساً».

كنت أعتبر ما سمعته مجرد غرور، أو شيئاً من الجنون لو سمعته من شخص غيره، لكنه قال ذلك بمزيج من الجاذبية والوضوح بحيث بدا كلامه واقعياً تماماً. يحب البريطانيون الشخص الذي يتحدث هكذا أمامهم، لكني لاحظت أن الفرنسيين يتقبلون هذا الكلام. كان موقفاً يحمل معه حماسة كبيرة، ونشاطاً، وكذلك تلك

المسحة من الكبرياء التي تميّز الفرنسيين بطريقة ما، والتي أُعجب بها قليلاً بطريقة ما. كنت أرى الفرنسيين وهم ينظرون إلى نيكولا ويفكرون: والآن هذا هو الرئيس.

تلقينا الأخبار بأن فرنسا صوّتت بـ»لا» للدستور، وذلك عندما جلسنا لتناول العشاء في الأيام الأخيرة لزيارتنا. أدركت على الفور أنني تخلّصت من موقفٍ صعب. صحيحٌ أنني تقت إلى المواجهة، لكن الصحيح كذلك أنني خسرت هذه المواجهة، وكان ذلك بمثابة قول كلمة «وداعاً». كان يُمكن للمرء أن يشعر بإشارات الارتياح القادمة من فوق القنال الإنكليزي وهي في طريقها إلى إيطاليا. تحدثت مع جاك سترو الذي كان واثقاً بمشاعره عندما قال: «إنها أخبار عظيمة».

قلت له: «لكنني كنت أتطلع إلى إجراء استفتاء».

أجابني: «إذاً، أنت أكثر سخافةً مما كنت أظنّ».

كانت نتيجة الاستفتاء مهمةً بالنسبة إلينا لسببٍ آخر. تولت بريطانيا رئاسة الاتحاد الأوروبي في ١ تموز/يوليو، وذلك لفترة ستة أشهر، وهي الرئاسة التي تسلمناها آخر مرة في العام ١٩٩٨.

توليت رئاسة الاتحاد الأوروبي آخر مرة قبل سبع سنوات، وكنت آنذاك في أوج حماستي التي ترافقت مع انتخابي حديثاً لمنصب رئيس الوزراء، وكنت جديداً على المسرح الأوروبي، وشخصيةً مجهولةً بالنسبة إليهم، وهم كانوا مجهولين بالنسبة إليّ. لكنني لا أعتبر أن تلك الفترة كانت من أهمّ معالم ولايتي الأولى. كنت مهتماً بالبرهنة على أن بريطانيا قد تغيّرت أكثر من اهتمامي بتغيير أوروبا. كانت جعبتنا مليئة بأفكارٍ كثيرة، لكننا لم نمتلك استراتيجية محدّدة، كما أنني جفلت من بعض «المبادرات». اقترح أحد الأشخاص اللامعين أن ربطة رئاستنا presidency tie (لكل بلد ربطة الرئاسة وشعارها الخاص بها كي تدلّ على ترؤسها للاتحاد) يجب أن يصمّمها طلاب المدارس بحسب ما يتصورون بلدهم. لم أعرف بهذه الفكرة حتى تلقيت اتصالاً من رومانو برودي الذي كان رئيساً لوزراء إيطاليا في ذلك الوقت. يصعب فهم ما يقوله برودي في بعض الأحيان، لكنه كان واضحاً جداً في هذه المناسبة. قال لي: «مرحباً يا طوني، لقد أهنتَ بلادي. أظنك تعرف أن لنا أشياء غير البيتزا، فعندنا روما، وفلورنسا، والبندقية، ومايكل آنجلو، وليوناردو دافنشي، وغاليليو، وفيردي،

وغاريبالدي، والآن يظنّ شعبي أن العالم ينظر إلينا كقطعة بيتزا من أربع طبقات. إن ذلك ليس من الإنصاف في شيء، ولذلك يجب أن يتغيّر [الشعار] وإلا فستتأثر العلاقات بين بريطانيا وإيطاليا»، كما قال أشياء أخرى مماثلة. سيدرك القارئ أن تلك الفترة لم تكن من بين فترات رئاستي المميزة إذا ما قلت إن تلك المكالمة هي كل ما أذكره عن ولايتي كرئيس للاتحاد الأوروبي.

مضت الآن ثماني سنوات على تسلّمي منصب رئاسة الوزراء، فشعرت بأنني تغيّرت، كما أن التحديات التي تواجه أوروبا تغيّرت هي كذلك نوعاً وكماً. توسّع الاتحاد الأوروبي بناءً على إصرار بريطانيا، بالإضافة إلى دولٍ أخرى، وأصبح يشمل الآن خمساً وعشرين دولة، كما أن الوقت لن يتأخر قبل أن يصبح العدد سبعاً وعشرين دولة. لكن مسألة العراق أثارت انقساماً يكاد يكون متعادلاً، وبما أن ألمانيا وفرنسا وقفتا في معسكر الرفض [للحرب] كان الأمر مؤلماً على نحو خاص. أسفرت سنوات كثيرة من الجدال الداخلي الذي كان عبارةً عن مجموعة من المشاورات، عن صوغ دستورٍ لأوروبا، لكن هذا الدستور رُفض الآن. إذاً، ما العمل؟ أما ما زاد الأمور سوءاً فهو النزاع حول موازنة الاتحاد الأوروبي، ثم مسألة التجديد.

وقفت بريطانيا في هذه المسألة الأخيرة في خضمّ النقاش والمعارضة. كانت قيمة الحسم الذي تتلقاه بريطانيا من الاتحاد مقبولة في البداية، وذلك بالإضافة إلى إعادة النظر في السياسة الزراعية المشتركة. كانت مسألة الحسومات مسألة سياسية حساسة بالنسبة إلى المملكة المتحدة، مثلما كانت مسألة التنافسية competitive access provider حساسة بالنسبة إلى فرنسا.

كانت رئاسة هذه البلاد للاتحاد الأوروبي مثيرةً للاهتمام عموماً، هذا كي لا نقول إنها كانت مثاراً للخلافات. زادت الأمور سوءاً قُبَيل تسلّمي الرئاسة، وذلك عندما رفضنا محاولة لوكسمبورغ ورئيس وزرائها، جان كلود جنكر، للحصول على تسوية بشأن الموازنة. كان جان كلود شخصاً مألوفاً في مجالس الاتحاد الأوروبي، وهو الذي تقلّد منصب وزير المالية منذ الثمانينيات من القرن الماضي. كانت اللوكسمبورغ من الدول المؤسِّسة للاتحاد الأوروبي على الرغم من صغر حجمها، كما أن جان كلود كان شخصية محترمة جداً بوصفه عضواً خبيراً وحكيماً في مجلس الاتحاد. عمل الرجل بجهد للتوصّل إلى صيغة اتفاق، لكنه كان حساساً جداً بالنسبة

إلى بريطانيا في موضوع الحسومات. لكنّي شعرت بأنني عاجز عن تحقيق شيء في هذا المجال، لأن ذلك كان يخالف سياسة الاتحاد. أعرب جان كلود عن خيبة أملٍ مريرة ومبرّرة. كنت أنا بالنسبة إليه هو من أفسد الأمر، لذلك كان له الحقّ في اعتباري مصدر ألمٍ حقيقي بالنسبة إليه.

اعترضتني مشكلتان بالنسبة إلى موضوع الحسومات، وكلتاهما مهمتان بالنسبة إلى تطور علاقتنا مع أوروبا في فترة رئاستي. كانت المشكلة الأولى هي السلوك شبه الهستيري – آسف، أريد تصحيح هذا الوصف – السلوك الهستيري لوسائل الإعلام المعادية لفكرة الاتحاد الأوروبي. كانت الصحف التي توزع مجتمعةً نحو ثمانية ملايين نسخة يومياً، وهي حالة فريدة في أوروبا بالنسبة إلى التوزيع، جميعها معادية لأوروبا بشكلٍ شرسٍ ولا عودة عنه، وكانت تسيئ تفسير ما تفعله أوروبا، وكانت تعتبر، عموماً، أن نتيجة هذه اللعبة برمّتها هي صفر. كان أي شيء يرضي بروكسل يُعتبر سيئاً بالنسبة إلى بريطانيا. كانت صحف مردوخ على وجه الخصوص قاسية جداً في هذا المجال. تحولت معظم وسائل الإعلام إلى هذا المنحى في أيام السيدة ثاتشر، كما أنني اعتبرت أن هذه المشاعر التي تركتها هي أسوأ تركة خلّفتها لبريطانيا (مع أنها كانت على وجه العموم رئيسة وزراء عظيمة).

تطور هذا المفهوم وزاد انتشاراً بأنها كانت هكذا على الدوام. لكنها لم تكن كذلك. كانت في سنة ١٩٧٩ وسنة ١٩٨٣ على الخصوص مرشحة رئاسة الوزراء مناصرة لأوروبا. كانت صحيفة مايل مؤيدة لأوروبا، وكانت صحيفة تلغراف كذلك. لكن عندما تحولت السيدة ثاتشر إلى معاداة أوروبا، نقلت هذه العدوى إلى مناصريها العاملين في وسائل الإعلام، وما إن أطل العام ٢٠٠٥ حتى أصبحت هذه الظاهرة الموضوع الأساس بالنسبة إلى قسمٍ كبير من الصحافة البريطانية.

كانت أوروبا عموماً قضيةً بسيطة بالنسبة إليّ، وذلك لأنها تتعلق بالعالم الحديث. ناصرت من جهتي المثال الأوروبي، لكن حتى ولو لم أفعل ذلك لكانت المسألة صريحة جداً: تحتاج بريطانيا إلى أوروبا في عالم تنشأ فيه قوى جديدة، وذلك كي تتمكّن من ممارسة نفوذها، ومن تعزيز مصالحها. لم تكن المسألة معقّدة، ولم تكن مسألة نفسية، بل كانت مسألة عملية من مسائل السياسة الواقعية.

نظرتُ إلى المشاعر المعادية لأوروبا بوصفها مشاعر يائسة، وبالية، وغير واقعية. كانت هذه المشاعر كذلك نتيجة تعصّب خطير، وقصر نظر تجاه العالم، إذ أعتقد أنها أثّرت سلباً في نفسية البلاد بأسرها. كانت هذه المشاعر نوعاً من أوهام حقبة ما بعد الامبراطورية.

تعززت هذه المشاعر بمرور الزمن عندما أقدم اليمين الأميركي، الذي كان يحتقر الضعف الأوروبي في مجال السياسة الأوروبية (كانت بيروقراطية بروكسل أفضل نموذج)، على الانضمام إلى اليمين البريطاني، وهكذا تكونت وجهة نظر كانت ألعوبة بالنسبة إلى الولايات المتحدة، لكنها كانت بمثابة طريق مسدود وخطر بالنسبة إلى البريطانيين. كانت تلك هي الفكرة القائلة إننا يجب أن نبقى حلفاء مخلصين للولايات المتحدة في موقفها المعارض لكي نكون شركاء أساسيين في الاتحاد الأوروبي.

كان ذلك مجرد وهم بطبيعة الحال. كانت الولايات المتحدة أقوى بكثير من المملكة المتحدة اقتصادياً وسياسياً بحيث أن تبعيةً كهذه كانت تناسبهم ولا تناسبنا. بدا واضحاً تماماً بالنسبة إلي أننا إذا عززنا نفوذنا في أوروبا فسوف ينظرون إلينا بجدية أكبر في واشنطن.

كما كان يُنظر إلى بريطانيا شبه المعزولة عن أوروبا في أنحاء أخرى من العالم بوصفها جزءاً فريداً من غرابة بريطانيا، وذلك أمرٌ مسلٍ، ينتمي إلى «البريطانيين القدماء الطيبين»، لكنه لا يعجبني أبداً. أتذكر أنني زرتُ لي كوان يو، الذي أعتبره أذكى قائد التقيته على الإطلاق، وذلك في سنغافورة في العام ١٩٩٥، أي عندما كنت زعيم المعارضة. كان شخصية غير محبوبة عند اليسار، وقد فوجئ عندما لم أسأله عن الديمقراطية في سنغافورة. سبق لي أن سمعت كثيراً عن مدى ذكائه، ويُمكن لأي شخص أن يلاحظ الإنجازات التي حققها في سنغافورة والتي كانت من أعظم ما يمكن أن تصل إليه مخيلة السياسة الحديثة. سألته بكل بساطة: أخبرني كيف يُمكن للمرء أن يفوز، وكيف يُمكنه أن يحكم.

همهم وسكت للحظة قبل أن يشرح لي أهمّ ما في الأمر. كانت نصيحته بالنسبة إلى الحكم على النحو التالي: حافِظ على إصلاحات ثاتشر، لكن تخلّص من هذا

الجنون بشأن أوروبا. قال لي: «أبلغتُ مارغريت بأن هذا جنون من جانبها. لا يُمكن لبريطانيا أن تبقى خارج أوروبا في العالم كما هو الآن. إن الأمر ليس واقعياً بالمرة». أخبرني رئيس الوزراء الهندي الرائع مانموهان سنغ بعد وقتٍ طويل الأمر ذاته. أما الصينيون فكانوا مهذّبين ورسميين جداً بحيث امتنعوا عن قول ذلك بصراحة، لكن كان من الواضح أن ذلك هو ما يفكرون فيه بدورهم.

كان السبب الذي جعل بريطانيا تتخذ هذا الموقف المعارض للاتحاد الأوروبي مسألة غريبة. أما نظريتي أنا، التي قد تكون خاطئةً تماماً، فهي أن مشكلتنا مع أوروبا هي في عدم كوننا أصحاب الفكرة، أو على الأقل في أننا لم نكن من الأعضاء المؤسّسين. أما عندما قرر هارولد ماكميلان، وعن حق، وجوب انضمامنا قال ديغول: «لا». كان ذلك العامل الذي ترافق مع مشاعر استعمارية قوية لا تزال كامنة تحت سطح الشخصية البريطانية – وهي عقدة التفوق في جزء منها، وعقدة عدم الشعور بالأمن في جزئها الآخر – هو الذي أعطانا أسطورة قومية تقول إن الاتحاد الأوروبي غير مفيد لنا بالمرة.

لدى أوروبا أوهامها الخاصة بها بطبيعة الحال: إن طريقة جعل أوروبا أقوى هي، وبكل بساطة، توحيد عمليات اتخاذ القرار فيها. يعني ذلك أن وجهة النظر المؤيدة للاتحاد الأوروبي كانت تناصر عملية التصويت بالأغلبية، ومنح سلطات أكبر للبرلمان الأوروبي، وإعطاء مجالات إضافية للتشريعات، وغير ذلك. كان ذلك مسعىً دستورياً كاملاً، لكن ذلك لم يكن دستورياً تماماً. تحول هذا الموضوع بمرور الوقت طريقة من أجل تجنّب القضية الحقيقية التي تؤثّر في قوة أوروبا: كيفية اتخاذ قرارات سياسية قوية يمكنها أن تأخذ أوروبا في الاتجاه الصحيح. أراد الناس إجراء مناقشات لا تنتهي حول الهيكلية التقنية، كما مالوا إلى تجنب المسائل السياسية الجوهرية: هل نحرّر اقتصادنا أم لا، وهل يجب أن نكون لاعبين كباراً في مسائل الدفاع أم لا، وما هو نوع السياسة الخارجية التي يتعيّن علينا اتباعها، وغير ذلك من أمور.

يعني ذلك كله أن الوهم البريطاني، أي الانحياز، كان معزّزاً بمادةٍ موضوعية مغروسة في الوهم الأوروبي. انتشرت انتقادات لأوروبا كانت ذات أساسٍ كامل، لكن لم يكن يجدر بأيّ من هذه الانتقادات أن يفصلنا عن أوروبا. أعطت هذه

الانتقادات المعارضين لفكرة الاتحاد مع أوروبا نقاطاً متينة بشأن الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه أوروبا، كما أن سلبية هذه النقاط سيطرت على النقاشات في بريطانيا.

احتلت مسألة الحسومات البريطانية rebate موقعاً أسطورياً، بل يكاد أن يكون عقائدياً في المفاوضات بشأن الموازنة التي جرت في العام ٢٠٠٥. كان تحدي هذه الأسطورة أشبه ما يكون بتعريف داروين إلى شخص متحمّس يؤمن بالخالق. دفعت بريطانيا في السنوات الأولى مبالغ غير متكافئة، وذلك على الأسس السائدة في ذلك الوقت لحساب مساهمة بريطانيا في موازنة الاتحاد الأوروبي. تمكنت السيدة ثاتشر في العام ١٩٨٣، من تأمين حسم على أساس معادلة محسوبة لكنها مترافقة مع غاية بسيطة: تقليل مساهمة المملكة المتحدة، وجعلها أكثر تكافؤاً. سعت السيدة ثاتشر بجهد، ما لبث أن أصبح جزءاً من أسطورة راسخة.

كبُرت أوروبا لكن المعادلة، التي كادت تعوض بريطانيا في ذلك الوقت عن عدم الإنصاف الذي لحق بها، عملت بطريقة أصبحت غير عادلة للآخرين. لم يكن من الصعب ملاحظة هذا الوضع، لأن الأرقام المتفق عليها كانت هناك، وهي واضحة بالجنيهات والبنسات، أو باليورو.

لكن هذه الحقائق لم تتمكن من التأثير في المناقشات الجارية في المملكة المتحدة. كان الحسم موضوعاً يُمنع المس به. أما المساءلة في هذا الموضوع فكانت تعني خيانة البلاد. أما تحليل هذه الأرقام فكان يعني دفع بريطانيا إلى الهاوية. The Spanish Inquisition would have afforded more leeway to an apostate. [لكن الاستقصاء الإسباني أعطانا فسحة جديدة من الوقت].

سبق لي أن قلت إن هناك مشكلتين في قضية الحسم. أما المشكلة الثانية فكانت غوردون، الذي تبنى خطاً متشدّداً جداً، وكنت أعرف أن عليّ الاهتمام به. هناك تقارير كثيرة توحي أنّ عليه أن «يمنعني» من التنازل عن كل شيء. لا حاجة بي إلى القول إن صحف ريوبيرت مردوخ شغلت نفسها كثيراً. هذا هو السبب الذي جعلني أعتقد أن من الأسهل كثيراً أن أتسلّم أنا زمام القيادة. لم تكن اتفاقية لوكسمبورغ سيئة، لكنها مع ذلك لم تكن جيدة بما فيه الكفاية، كما كان يمكنني أن أحقق نتيجة أفضل. كان يمكنني التفاوض بمهارةٍ أكبر لو كنت أنا مسؤولاً عن المفاوضات.

كانت مقامرة حقيقية بطبيعة الحال، لكنها رفعت كثيراً من مخاطر رئاستي. أما إذا فشلت فسيكون الأمر مريعاً، لكن إذا نجحت فسوف يُعتبر الأمر إنجازاً كبيراً.

ألقى جان كلود، بوصفه الرئيس الذي انتهت ولايته، خطاباً أمام البرلمان الأوروبي في يوم ٢٢ حزيران/يونيو، أي بعد انتهاء مؤتمر لوكسمبورغ من دون التوصل إلى اتفاق. كان من المفترض أن ألقي خطاباً في اليوم التالي بوصفي الرئيس للولاية التالية. حصل جان كلود، الذي ظنّ أعضاء البرلمان الأوروبي أنه لم يُعامَل كما يجب، على ترحيب مثير. كان رجلاً أوروبياً حقيقياً، لكنه لقي الخذلان من بيرفيديوس آلبيون. كافح الرجل كفاحاً ممتازاً، لكن البرلمان الأوروبي، الذي يشبه حزب العمال لا يحبّ شيئاً أكثر من رؤية خاسر جريء. لقي جان ترحيباً عاصفاً، ثم ألقى خطاباً ينضح بروح الاتحاد ضمّنه اتهاماً للذين لم يوافقوا على الاتفاقية بإعاقة الاتحاد الأوروبي.

لم يكن ذلك تمهيداً مناسباً لزيارتي المقرّرة في اليوم التالي. سمع المجتمعون من والد الصبية المخطوفة المصدوم والغاضب، كيف تعرضت للاعتداء بكل وحشية، وهكذا فإنهم سوف يستمعون الآن إلى الرجل المعتدي.

كانت مناسبة عظيمةً بالنسبة إلي. فزت ثلاث مرات في الانتخابات (الأمر الذي دفع ببعض الناس إلى الإعجاب بي، بينما استاء مني بعضهم الآخر، واليساريون على الخصوص، وذلك لأنهم اعتبروا أن الرئيس التقدمي الذي يفوز بهذا العدد من الانتخابات لا بدّ أن يكون غير ملتزم بالمبادئ). عدّني كثيرون شخصيةً خلافيةً بعد مشكلة العراق، كما أنني لم أجعل بريطانيا تنضمّ إلى منطقة اليورو. كان توجهي العام مناصراً للاتحاد الأوروبي، لكني حرصت على عدم تجاوز ما هو مقبول بالنسبة إلى الرأي العام البريطاني. يعني ذلك أنني أتعرّض للهجوم من قِبَل اليمين لأنني كنت مناصراً للاتحاد الاوروبي، وكذلك من اليسار لأنني لست مناصراً للاتحاد بما فيه الكفاية. سمح لي هذا الوضع أن أحكم، وأن أدفع الأمور قُدُماً بقدر ما أستطيع.

أطلق جاك شيراك في هذا الوقت السياسة الأوروبية الدفاعية المشتركة. ترأست في العام ١٩٩٨، بوصفي رئيساً للاتحاد الأوروبي، المجلس الذي جعل اليورو حقيقة واقعة (أعتقد أنني استطردت كثيراً في الصفحات السابقة)، وتمكّنت من التفاوض

بشأن تعيين ويم دويسنبيرغ في منصب رئيس المصرف المركزي الأوروبي- وكانت بالمناسبة مفاوضات شاقة، حيث تداخل الإباء الفرنسي مع العناد الهولندي، واصطدما بالمصالح الألمانية التي مثّلها هيلموت كول (الذي بدأ دوره بالتلاشي قليلاً). لعبت كذلك دوراً مؤثّراً في عملية لشبونة، وهي أول محاولة جدية تهدف إلى وضع الإصلاحات الاقتصادية الأوروبية ضمن هيكلية عمل متماسكة. لقيت نجاحاً محدوداً، لكنه كان حقيقياً. شققتُ طريقي خلال ثلاث معاهدات أوروبية أساسية، وهي أمستردام، ونيس، وروما، وهي كلها كانت مؤهلة لدفع بريطانيا إلى حدود أوروبا حيث استُبعدنا منذ العام ١٩٩٢ حتى العام ١٩٩٧. بقيت بريطانيا، بدلاً من ذلك، في قلب الأحداث معظم الأحيان.

أما أبرز عملٍ قمت به فقد كان قيامي في شهر حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٤ بتنظيم المعارضة للمطلب الفرنسي – الألماني بأن يصبح رئيس الوزراء البلجيكي غاي فيروفستاد رئيساً للمفوضية، وهكذا عُيّن خوسيه مانويل باروزو بدلاً منه. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتعطل فيها محرّك الدفع الثنائي لأوروبا [ألمانيا – فرنسا] في مسألة كبيرة كهذه. أما علاقتي مع غيرهارد شرويدر فلم تعد إلى طبيعتها قط. أما جاك شيراك فقد نظر إلى الأمر نظرة فلسفية. كان باروزو خياراً أفضل إذا أراد المرء إصلاح أوروبا في اتجاه غير فيدرالي. أما النقطة الأهمّ فهي أن من دون العلاقة مع الرؤساء الآخرين، ومن دون أن تلعب بريطانيا دوراً أساسياً وليس هامشياً، لما حدث ذلك. شكّلت هذه المناسبة درساً نموذجياً يدلّ على أهمية البقاء في مركز الأحداث. يسمح لنا بقاؤنا في الوسط بتحقيق الإنجازات. أما إذا بقينا على الهامش فلا يمكننا إنجاز أي شيء.

تعرّضت بطبيعة الحال لانتقادات من قبل مجموعات الضغط المناصرة لأوروبا، وذلك لعدم كوني «جريئاً» بما يكفي لإدخال بريطانيا منطقة اليورو. أما الحقيقة فهي أن الأمر لا يتعلق أبداً بالجرأة أم لا. ولا يتعلق كذلك بمعارضة غوردون. أما في البداية، أي في العام ١٩٩٧، فكان هو الشخص الذي أراد أن نتخذ موقفاً مؤيداً للعملة الموحّدة، بينما وقفت أنا معارضاً هذه الخطوة. كانت مشكلتي مع اليورو بسيطة جداً. كنت مؤيداً لليورو من حيث المبدأ، وكانت هذه السياسة واضحة بالنسبة إلي: من الأفضل أن ننضمّ إلى منطقة اليورو كي نكون لاعبين أساسيين في عملية

اتخاذ القرارات الاقتصادية في أوروبا. لكنني عرفت كذلك أن السياسات المعاكسة واضحة جداً بدورها. كان ذلك عرضاً اقتصادياً، واقتراحاً لوحدةٍ اقتصادية ومالية. لم يكن من الممكن تسويق هذه الفكرة سياسياً إلا إذا تبيّن أنها غير مفيدة لبريطانيا، أي إن المشكلة السياسية كانت في الاقتصاد. إذ كانت المسألة الاقتصادية غامضةً في أسوأ الأحوال، أي إنها بالتأكيد لم تكن بعيدة عن الشكوك. اعتقدت عند اقتراب انتخابات ٢٠٠١، أن من المعقول أن يتحسّن الوضع الاقتصادي بشكلٍ كبير، وكنت مصمّماً إذا حدث ذلك على إحالة الأمر على استفتاءٍ عام. اختلفتُ مع غوردون في جهره بآرائه السلبية حول اليورو. كنت أقول دائماً حتى لو لم ننضم إلى منطقة اليورو، بوجه خاص فستظل الأسباب الدبلوماسية تبدو وكأنها إيجابية على الدوام. أما إذا تحسّنت الأحوال الاقتصادية فإنني سوف أضغط باتجاه دخول بريطانيا منطقة اليورو. لم تتحسن هذه الأحوال، وبالنسبة إلي فإن الأمر انتهى. (أقول للتاريخ من غير الصحيح أبداً أنني عرضت التنازل عن منصبي إذا وافق غوردون على إدخال بريطانيا منطقة العملة الموحدة).

أقول باختصار، إنني احتفظت بسجل يُظهر عدد المناصرين والمعارضين للفكرة، لكن في تلك اللحظة بالذات أي في يوم ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٥ كان عدد المعارضين أكبر من عدد المناصرين.

انتهى الخطاب ليصبح إحد أهم خطاباتي. كتبت ذلك الخطاب بنفسي في غرفة الفندق في بروكسل، وذلك بعد أن جلست إلى طاولتي في ساعةٍ مبكرة من الصباح. كان خطاباً انساب بسهولة على الورق. تناولت قلمي ومضيت بالكتابة إلى أن انتهيت.

وقفت أمام مبنى البرلمان الأوروبي، وكان النواب جاهزين للتعبير عن معارضتهم. أقول للمناسبة إن الأمور بعد تلك الحادثة التي جرت أثناء جلسة الاستجواب في مجلس العموم كانت تبدو وكأنني موجود في ملعب مدرسة للفتيات بعد تمضية فترة في سجن محصّن جداً.

أدركت جيداً ما أريد قوله، وذلك لأنني فكّرت فيه منذ سنوات. كانت هذه هي فرصتي المنتظرة. كانت أوروبا، بالنسبة إليّ، ناضجةً للنقاش حول سياسات الطريقة

الثالثة. كانت هذه النقاشات عالقةً بين أولئك الذين تحدثوا عن أوروبا اشتراكية، الأمر الذي يعني تشريعات جديدة، وبين أولئك الذين أرادوا من أوروبا أن تكون سوقاً ولا شيء آخر. نستنتج من ذلك أن النقاش انحصر بين معارضي الاتحاد الأوروبي ومناصري هذا الاتحاد. سبق لي أن قلت إن الهدف من أوروبا الاشتراكية وأوروبا الاقتصادية يجب أن يكون دعم الواحدة للأخرى، وأن الغاية من أوروبا السياسية يجب أن يكون ترويج الديمقراطية والمؤسسات الفاعلة من أجل تطوير سياسة في هذين المجالين، وعلى العموم حيث نرغب، ونحتاج، إلى التعاون في مصالحنا المتبادلة. لكن الغاية من القيادة السياسية هي صوغ سياساتٍ مناسبة لعالم اليوم.

مضيتُ بعد ذلك لتحديد التحدّي الذي يواجه أوروبا: كيفية التغيّر في عالم متغيّر، وهو العالم الذي لا تلعب فيه الولايات المتحدة دوراً أكبر فقط، بل كذلك الصين، والهند، والقوى الناشئة، وهي الدول التي يزيد حجمها، وأعداد سكانها، ونفوذها، مع الوقت، عن كل دولة أوروبية بمفردها.

أثنيت على أوروبا، لكني سخرت من الذرائع الدستورية التي لا نهاية لها، وأشرت إلى ما كنا نقول في كل وقت إن الغاية من هذا الولع هي أن نكون «أقرب من الناس»، كنا نخسر المزيد من الدعم. وضعت بعد ذلك برنامجاً للتغيير يستند إلى القرارات السياسية الهامة واتجاهاتها.

تلقيت مساعدةً كبيرةً، بطبيعة الحال، بسبب رفض الفرنسيين والهولنديين للدستور الأوروبي في الاستفتاءات، ولذلك يصعب القول إن السياسات الحاضرة في أوروبا هي سياسات ناجحة.لا يمكن لأحد أن يُنكر أن أوروبا تمرّ في مأزق، وهذا ما عزّز حججي للتغيير.

أحدث الخطاب تأثيراً كبيراً، وأسفر عن أول دعاية محترمة لي في بريطانيا منذ سنين (حدث ذلك لأسباب سيئة وحسنة، وذلك لأن معارضي فكرة الاتحاد الأوروبي قد أحبوه). ترددت أصداء هذا الخطاب في أنحاء أوروبا، وأصبح موضوعاً للأحاديث.

أما خلال مناقشة القضايا في البرلمان بعد ذلك الخطاب، فقد تصرّفت بالطريقة

التي كنت أتصرف بها في جلسات الاستجواب، وكذلك مازحت بعضهم (يحب زملاؤهم هذا المزاح)، وهو أمر لم يُعجب نواب حزب الاستقلال البريطانيين (الأمر الذي يُظهر أن بإمكان المرء استيعاب المشكّكين البريطانيين)، كما ألقيتُ بعض النكات والأمور التي رفّهت عن الحاضرين قليلاً. كان من المفترض أن يتكلم بعدي داني كوهن بينديت، وهو أحد ثوار باريس في العام ١٩٦٨. أبلغته بأنني كنت أستمع إلى خطاباته في تلك الأيام، والآن عليه الاستماع إلى خطابي، وهو ما يشكّل تطوراً. أحب الجميع الخطاب وأثنوا عليه.

تلاشى مفعول الخطاب بمرور الوقت بطبيعة الحال، لكنه مهّد المسرح جيداً للرئاسة. إن ما كان يُمكن أن يبدأ بطريقة غير واعدة ما لبث أن انتهى بأناسٍ مندهشين وعلى استعدادٍ لتجربته.

بقي، بطبيعة الحال، عدم اتفاقنا على الموازنة. كانت سياسة أوروبا على وشك أن تشهد تغيّراً كبيراً على صعيد القيادة مع اقتراب الانتخابات في ألمانيا في شهر أيلول/سبتمبر. كافح غيرهارد والحزب الديمقراطي الاشتراكي بكل قوة من أجل اكتساب قوة في استطلاعات الرأي، وكادا أن ينجحا في ذلك، لكن آنجيلا ميركل تمكّنت من الفوز فأصبحت المستشارة [رئيسة الوزراء] الجديدة.

سبق لي أن قلت إن صداقتي مع غيرهارد قد خفّت قليلاً. تجاوز غيرهارد مسألة العراق، لكنه غضب كثيراً بشأن غاي ورئاسة المفوضية الأوروبية. اقترب مني بطريقة شخصية جداً في حفل الغداء الذي شهد تعطيل تعيين غاي. حاولت أن أشرح له أن توجه غاي إزاء أوروبا لم يكن التوجه الذي أوافق عليه. لم تكن القضية شخصية بالنسبة إليّ. أوضح لي غيرهارد أن الأمر شخصيّ بالنسبة إليه. كان موقفه مثيراً ويا للأسف. تمتع الرجل بميزات قيادية مهمة بالفعل، وهي ميزات أثارت إعجابي.

أمضيت بعض الوقت مع آنجيلا قبل الانتخابات. أما الحقيقة – وأخشى أن يصدق هذا أكثر فأكثر على علاقاتي مع وسط اليمين – فهي أن لدينا أموراً مشتركة معها أكثر من تلك التي تربطنا مع حزب الديمقراطيين الاشتراكيين، وهو الحزب الذي كان مقرباً جداً من روسيا، وعلى الرغم من أن غيرهارد كان إصلاحياً إلا أن حزبه لم يكن كذلك. كانت رؤية الحزب للنموذج الاشتراكي الأوروبي رؤيةً تقليديةً

جداً. لكن آنجيلا تمكنت من رؤية الحاجة إلى التغيير. كنت معجباً بها كشخص كذلك. بدت خجولة قليلاً في البداية، حتى متحفظة، لكن لها وميضاً خاصاً بها. أعتقد أنها صادقة وذات روح ودود، وهكذا سارت الأمور على ما يرام.

كان وصولها إلى السلطة، الذي كان متواضعاً بعض الشيء نتيجة مفاوضات الائتلاف بعد فوزها بغالبية ضئيلة، عاملاً مهماً جديداً في اتفاقية الموازنة. أثّر وصولها إلى الحكم في تحدّ رئيسٍ آخر: العلاقات مع تركيا. خطت تركيا، بقيادة حكومتها الجديدة، خطوات مهمةً نحو أوروبا. كان الحزب الإسلامي AK هو الذي يسيطر على الحكومة، الأمر الذي يتعارض مع النموذج السياسي التركي العلماني. أما رئيس الوزراء رجب طيّب أردوغان، ومن بعده وزير خارجيته عبد الله غول، فكانا عقلانيين، وتقدميين، وكانا، بصراحةٍ، أسهل وزيرَين التقيتهما في ذلك الوقت. كانا ذكيين، ويعرفان ماذا يريدان، وكانا متلهفين على دخول الاتحاد الأوروبي، وأكثر من ذلك كانا منطقيين في موضوع قبرص.

تبنت أوروبا موقفاً يساند انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي على المدى الطويل، أي إن ذلك كان سيستغرق وقتاً. كانت هناك معايير محدّدة للانضمام إلى الاتحاد، ويتعيّن تلبية هذه المعايير من أجل إرضاء الدول الأوروبية التي تضمّ أعداداً كبيرة من المهاجرين الأتراك مثل ألمانيا، وهو أعطى المجدّدين في تركيا أمراً يفكرون فيه. كان ذلك أمراً جيداً، وأعطى إحساساً بالتماسك.

كان سبب التردد يعود، جزئياً، إلى أن عضوية الاتحاد الأوروبي توسّعت كثيراً في الآونة الأخيرة، ولذلك أراد الناس بعض الوقت من أجل استيعاب هذا التوسّع. أما الجزء الآخر فكان أن تركيا، وهي الدولة التي تضمّ ما يزيد على ٧٠ مليون مسلم، كانت مصرّة على خيار واحد. لم تكن المشكلة وقوف القادة الأوروبيين ضد المسلمين، على الرغم من أن هذه المشاعر موجودة بين السكان من دون شك. يتبيّن لنا بوضوح أن علينا إجراء تغيير هام في طبيعة أوروبا من أجل وضع الأمور في نصابها.

كنت، ولا أزال، إلى جانب انضمام تركيا إلى الاتحاد. أريد أن تنظر تركيا نحو الغرب، وأن تتطلع أوروبا نحو الشرق، وأعتقد أن عضوية تركيا ستفيدنا كثيراً. كما

أن من الخطر جداً، لنا ولهم، استبعاد تركيا لأن ذلك من شأنه التشديد على أن الحضارتين اليهودية – المسيحية والإسلامية لا يمكنهما التعايش معاً. إن عواقب هذا التجافي كبيرة جداً. دُفعت تركيا بعد أن تركت المنصب إلى وضعٍ يقلّ عن عضوية كاملة. كانت تلك غلطة خطيرة جداً.

عقدت في نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر قمة غير رسمية للاتحاد الأوروبي في هامبتون كورت بالاس. أصدرت هذه القمة، على نحو غير معتاد مع قمم كهذه، برنامجاً يشتمل على قضايا مثل الجامعات، والأبحاث، والتطوير، والطاقة، والابتكار، وهي القضايا التي ستركز عليها الموازنة الأوروبية الجديدة بعقلانية. واجهت أوروبا خطر تأخرها، أما أنا فحاولت وضع برنامج يركز على مجالات تكون حيوية لتنافسية أوروبا في المستقبل.

لكن الموازنة بقيت القضية الحقيقية الوحيدة، كما أن موضوع الحسومات البريطانية أكثر نقطة مطروحة للنقاش. زادت الأمور صعوبةً بالنسبة إليّ مع ازدياد المناقشات بشأنها، وذلك لأن مجرد التحدث عنها كان مساوياً للتجديف السياسي. أراد الفرنسيون إثارة الموضوع بطريقة تحمل بعض الإكراه، وهم فعلوا ذلك باستمرار. أما أنا فقد تمكنت من الرد مستعيناً بخطابات معادية لسياسة Competitive Access Provider.

غطت الموازنة جميع بنود إنفاق الاتحاد الأوروبي بطبيعة الحال، وهنا تفرض التعقيدات نفسها. إنها لعبة متعادلة [خسارة تقابل الربح]. كانت موازنة ثابتة لأن ربح طرف يعني خسارة طرف آخر. لكل دولة مصلحة حيوية في هذا المجال، أما الأعضاء الجدد فكانوا يريدون المزيد من أموال الاتحاد الأوروبي، في حين كان قدامى الأعضاء يتطلعون إلى التمسك بأيّ امتيازات حصلوا عليها عبر التاريخ.

كانت التفاصيل بمثابة كابوس: التيارات السياسية المتداخلة، والكبرياء الوطنية، وكبرياء رؤساء الدول ورؤساء الوزارات، وهذه العوامل كلها كانت ظاهرة علناً وبكل وضوح. تعيّن على كل عضوٍ مشارك العودة إلى وطنه كي يحتفل أو يتأسف، وذلك بعد انتهاء القمة التي عُقدت في كانون الأول/ديسمبر. تحرك الجميع بسرعة جنونية

للاحتفال، لكن وسائل الإعلام في كل دولة كانت جاهزة للاعتقاد أن النتيجة تستأهل الدموع. علقت في الوسط، وذلك بسبب موقف بريطانيا من موضوع الحسومات، وهو موقف محسوم سلفاً.

تطلبت المفاوضات ساعاتٍ، وأياماً، وفي أوقات أخرى من السنة، أسابيع من المناقشات الجادة. تحولت بعد وقتٍ قصير إلى خبير حقيقي في دقائق التمويل البنيوية والمتداخلة، وفي انشغالات إسبانيا مع سبتة ومليلة، وكذلك في المعادلات السويدية والهولندية الخاصة بموضوع الحسومات على الحسومات، وكذلك في موضوع معدلات مداخيل المزارع الفرنسي التي يُمكن أن يجنيها، وفي ما يمكن لـLander الألماني أن يتحمّله، وكذلك بطبيعة الحال في تفاصيل الاعتمادات العائدة إلى كل مجال من مجالات السياسات الرئيسة في جدول إنفاق الاتحاد الأوروبي.

حالفني الحظ بوجود فريق عظيم من حولي برئاسة مستشاري لشؤون الاتحاد الأوروبي في ١٠ داوننغ ستريت، كيم داروك، وممثّل بريطانيا في بروكسل السير جون غرانت. كان جميع هؤلاء عظماء تماماً، كما أن جهاز الخدمة المدنية البريطانية عمل بأقصى طاقته، وكان خلاقاً ومستعداً للتفكير في أمور كثيرة تتعدى المألوف مستعيناً بشبكة كبيرة من الرجال الذين اتصلت بهم في كل دولة من الدول الأعضاء.

كان من المقرّر إجراء المفاوضات النهائية يومَي ١٥ و١٦ كانون الأول/ديسمبر. وكان من الواضح أنها ستستغرق الليل بطوله. كان الأمر أشبه بصورة لغزٍ مقطعة إلى أجزاء لا حصر لها. يعني ذلك أن تغيُّر حدود قطعة واحدة يجعل من القِطع الأخرى غير متطابقة. تعيّن أن يُعاد تخصيص ثلث الموازنة الكلية لمصلحة الأعضاء الجدد. يعني ذلك أن على الأعضاء القدامى في الاتحاد، بمن فيهم بريطانيا أن يدفعوا المزيد من الأموال.

تجتمع المجالس الأوروبية في الطابق الخامس من مبنى جوستوس ليبسيوس في بروكسل. كانت غرف الاجتماعات فظيعة، الأمر الذي يضغط على المرء كي يوافق وينصرف. أما الدولة التي تتولى رئاسة الاتحاد فتحتفظ بجناح من الغرف يقع على الجهة الأخرى من الممرّ، وهناك يجلس المرء ليرى ممثلي كل دولة، ويُصغي إلى قادتها وهم يشتكون، ويداهنون، ويهددون بينما ينصرف الرئيس إلى الفصل بين

ما هو تافه وما هو حقيقي، وما هي الأمور القابلة للتنازل والأمور المشوشة، وما هو الوقت المناسب للرئيس كي يُظهر بعض الهيبة.

لا تبغي أي دولة أن تتعرض للاستغلال، وفي الوقت ذاته لا تبغي أي دولة أن يُشار إليها على أنها سبب الفشل. يضطرّ المرء خلال هذه الاجتماعات المتتالية في تلك الغرفة المملة والخالية من الروح أن يقرر متى يتقدم، ومتى ينسحب ومتى يؤجل.

كانت استراتيجيتي على النحو التالي: كسب آنجيلا كحليف، واقتسام الثناء على النجاح معها. يُمكن لذلك أن يجعلها ترتاح أكثر في مستشاريتها وجعلها أكثر ثباتاً، ومساعدة الإسبانيين والإيطاليين على حلّ مشاكلهم، ومساعدة البولنديين، وعقد اتفاق مع الفرنسيين. يحين الوقت في النهاية لإدخال موضوعنا. أراد الجميع التوصّل إلى اتفاق ثم العودة إلى أوطانهم.

توصّلنا في النهاية إلى اتفاق تدفع بموجبه بريطانيا القيمة ذاتها تقريباً التي تدفعها فرنسا، وذلك للمرة الأولى. أطلقت وسائل الإعلام البريطانية وصف الخيانة على هذا الاتفاق، لكني أقول بصراحة إنها كانت ستفعل الأمر ذاته لو أنني أجبرت جاك شيراك على الطواف مقيداً في شوارع لندن. تمكّنت في ذلك الوقت من عدم الاكتراث للانتقادات. كما تمكنت من المحافظة على الحسومات، وربطت مصيرها مع CAP، ووافقت على فترة انقطاع في فترة الموازنة تسمح بإصلاح هذين الأمرين. كان الأمر أشبه بمعجزة صغيرة، مع أنني لا يجدر بي أن أقول ذلك.

كانت علاقتي مع غوردون فظيعةً جداً خلال هذا الوقت كله. أصرّ على أن توافق فرنسا على قبول إلغاء CAP، كما أنه أكد هذا المطلب في تصريحاته العلنية بطريقة أغضبت الفرنسيين. لم يطلب إليهم في واقع الأمر التخلي عن مبدأ CAP، بل أرادهم تقديم نوع من الاعتذار بسبب دعمهم لهذا المبدأ. ساعدني، للمفارقة، هذا الأمر لأنني تمكّنت من القول: أترون مشاكلي؟ والآن هل ستكونون منطقيين؟ تمكّنا بهذه الطريقة من تأدية دور الشرطي السيئ لكن الجيد المناسب معهم.

لكن مع تقدم المفاوضات إلى الساعات الأولى من الصباح أصبحت جدية أكثر. رفض غوردون عقد اتفاق. كان جون كونليف وهو مسؤول نموذجي ولامع في وزارة الخزانة، يلعب دور الوسيط، مما جعله يبذل مجهوداً كبيراً. شعر غوردون بارتياح

لتأجيل الموضوع، وذلك كي يناضل في الرئاسة التالية. أدركت أن ذلك سوف يكون مسيئاً جداً إلى سمعة البلاد، وإلى الحكومة، وإلي أنا. كنت أعرف أننا فور عودتنا إلى البلاد لن تعود هناك ضمانة بحصول بريطانيا على اتفاقية أفضل. أعتقد في الواقع أن اتفاقاً كهذا سوف يكون أسوأ بالتأكيد.

أخيراً، أخشى أن أقول إنني توقفت عن الردّ على مكالماته الهاتفية. كان جون المسكين يأتي إلى غرفة الرئاسة ويقول: «يريد وزير الخزانة أن يتحدث معك». كنت أقول: «إنني مشغول جداً بالفعل يا جون». كان يقول لي: «إنه يريد أن يلتقيك بالفعل». كنت أقول له بعد ذلك: «سأكلمه هاتفياً بعد وقتٍ قليل». كان جون يقول: «هل تعني ذلك بالفعل يا حضرة رئيس الوزراء؟» كنت أقول: «لا يا جون».

نجح الأمر بطريقة أو بأخرى، لأننا حصلنا على اتفاق جيد. تمكن غوردون من الابتعاد، لكن لم يمرّ وقت طويل حتى برزت أمور أخرى كي نفكر فيها.

الفصل الثامن عشر

النصر والمأساة

يزداد هذه الأيام جدول عمل القائد السياسي جنوناً، وتتميز وسائل السفر بالسهولة، كما تبرز القضايا الخارجية بوصفها جزءاً بارزاً من الوظيفة بالإضافة إلى الأحداث التي يُدعى ذلك القائد إلى معالجتها، وذلك كله يعني أن بإمكان المرء السفر إلى أربع أو خمس قارات في غضون عدة أيام. يُنتظر من القائد السياسي أن يفعل هذا سواء عاجلاً أو آجلاً. أصبح جدول الأعمال أكثر صرامةً بكثير مما كان عليه قبل عشرين عاماً فقط.

تعودتُ هذا البرنامج، وكسبت منه فائدةً كبرى: لم أعد أعاني الإجهاد الذي يسببه السفر. يترافق شروق الشمس عندي مع الإحساس بالنهار، أما الظلام فيعني أن الليل قد حل. إنني أتناول حبوب الميلاتونين، التي تضمن الواحدة منها النوم لست ساعات في أي مكان يوجد فيه المرء، وفي أي منطقة زمنية كانت.

أما المشكلة الوحيدة في الموضوع فتبقى أن السفر يسبب الاضطراب في الجهاز الهضمي. يتعيّن على المرء أن يأكل بطريقة صحية وبنظام. إنني بريطاني نموذجي، ولهذا أحبّ أن آخذ وقتي وراحتي في المرحاض، وهكذا أعتبر أن غرفة الحمّام مهمة جداً، كما أنني لا أستطيع العيش في مجتمع لا يحترم هذا الوضع. ربما يكون هذا الأمر مجرد تفصيلٍ غير هام بالنسبة إلى القارئ. إنني أقول دائماً: ينبغي النظر إلى

السياسيين بوصفهم بشراً، وأن يُفهموا على هذا الأساس. أما إذا عانى ذلك القائد السياسي من ليلة نوم سيئة، أو إذا شعر بانزعاج بسبب اضطرابات في الجهاز الهضمي، فإن أداءه سوف يكون سيئاً. يكمن الفارق بالنسبة إلى السياسيين، وكما أقول دائماً، في أن تصرفاتهم كلها تنتقل إلى وسائل الإعلام عن طريق الصور والأفلام، وهكذا لا يكون هناك من مجال لإعادة التصوير.

عرفت على الدوام أن الأيام السبعة التي تبدأ في ٢٠ تموز/يوليو من العام ٢٠٠٥ ستكون صعبة جداً: السفر إلى سنغافورة من أجل طلب استضافة الألعاب الأولمبية وتمضية يومين متعبين هناك، ثم العودة جواً إلى غلين إيغلز في اسكتلندا للمشاركة في قمة الدول الثماني، وهي القمة التي ترأستها بريطانيا في تلك السنة، أي إنها كانت برئاستي أنا. شكلت هاتان المسألتان تحديين كبيرين بالنسبة إلي، وكانتا مخاطرتين كبيرتين جداً بحيث إذا فشلتا بات ذلك فشلاً ذريعاً لي.

عندما تُفتتح الألعاب الأولمبية في لندن في العام ٢٠١٢ فإن أناساً كثيرين سوف يبقون في الذاكرة لأنهم هم الذين جلبوها إلى بريطانيا، لكن الأمر كله بدأ مع تيسا جويل، التي كانت في ذلك الوقت وزيرة دولة لشؤون الثقافة والإعلام والرياضة. كان معظم الوزراء متشككين عندما بدأت المنافسة في استضافة الألعاب كإمكانية لأول مرة، أما وزارة الخزانة فكانت معارضةً للفكرة. أما أنا فقد أحببت جرأة الفكرة، لكن كانت احتمالات الفوز باستضافة الألعاب ضئيلة، وذلك لأن حظوظ الفرنسيين في الفوز بها وفيرة، بينما كانت هناك عروض قوية أخرى من مدريد ونيويورك. أما بعد إنشاء القبة Dome، فقد شعرنا بقليل من التوتر إزاء حدثٍ ضخم كهذا، وهو الحدث المكلف الذي قد يكون معقداً. أما مجتمع الرياضيين فقد أدرك فوراً أهمية هذا الحدث وساند عرض الاستضافة بشكلٍ ذكي، كما أظهر طوال الوقت دعماً قوياً تجاه الفكرة يثير الإعجاب. كانت تيسا متحمسة للفكرة بدورها.

تُعدّ تيسا شخصيةً عظيمة، وهي كنز لا يقدّر بثمن. إنها تمثّل أفضل ما في الولاء السياسي، لكن ليس ذلك الولاء الأعمى، بل الولاء الهادئ. أدركت أن الحزب السياسي إذا كان يريد النجاح فسيتعيّن أن يُقاد بقوة، لكن القائد القويّ يحتاج إلى داعمين مخلصين. أما إذا ظنّ المرء أن القيادة على خطأ، أو أنها تتبع خطاً مضللاً في الأساس، فسيتعيّن تغيير القيادات، لكن ينبغي عدم الإتيان بزعيم من دون دعمه.

تحمل هذه الظاهرة مظاهر الضعف السياسي إلى الحزب. كانت تيسا مثالاً واضحاً على أقصى قدرٍ من الولاء، وهكذا بقيت معي حتى النهاية، وإن كان ذلك أمراً صعباً عليها لأنها آمنت بقيادتي. أعتقد أنها لو لم تفعل ذلك لكانت أخبرتني.

قالت لي إن الألعاب الأولمبية كانت فرصةً هامة، إذ يكفي التفكير في الشباب، وفي اللياقة، وفي الرياضة، وفي ثقة البلاد بنفسها. قلت لها: «أجل، لكن لنفترض أننا هُزمنا، والأسوأ من ذلك كله، لو هُزمنا على أيدي الفرنسيين، فسوف أشعر بالخذلان». قلت لها هذا الكلام ذات يوم بطريقة تفصيلية، وكنت آنذاك في حديقة ١٠ داوننغ حيث كنت أجلس عندما تكون الشمس مشرقة، وهناك كنت أعقد اجتماعات ثنائية. نظرت إليّ نظرة تأنيب وقالت: «لم أظن قط أن يكون مفهومك للقيادة على هذا النحو. اعتقدت أنك كنت جاهزاً للمخاطرة. إنها مخاطرة كبيرة بالفعل. يجوز، بطبيعة الحال، أن لا نفوز باستضافة الألعاب لكننا سنمتلك، على الأقل، جرأة المحاولة». عندما تقول تيسا هذا الكلام يشعر المرء بالضعف، وببعض الخجل. كما يشعر كذلك بأنها تحاول التأثير فيه، لكنه سيعرف في الوقت ذاته بأنه تأثير ناجح. قلت لها: «أوه، حسناً، سنمضي في المحاولة».

اجتمعت الحكومة، ولكن بسبب حماستي للفكرة، كما أن جون بريسكوت قدّم لنا دعماً قوياً كعادته، لكنه أرفق ذلك ببعض الانتقاد الحاد جرياً على عادته، مما يجعل الجميع يظنون أنهم سينجرفون مع التيار.

أنشأنا في منتصف العام ٢٠٠٣ فريق الدعوة لاستضافة الألعاب الأولمبية برئاسة باربرا كاساني، وهي امرأة متمرّسة ومؤهلة. أما كريغ ريدي العضو في اللجنة الأولمبية الدولية فقد كان سياسياً ماهراً وبارعاً في تلك اللجنة. تولى سب كو هذه المهمة في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٤. سبق لي أن شاهدته ذات مرة على شاشة التلفزيون في أحد سباقاته ضد ستيف أوفيت. كان الرجل رياضياً عظيماً، ومن ناحية أخرى فقد أصبح رئيس موظفي وليام هايغ، لكن مهمته تلك لم تكن موفقة. لم أكترث قط لكونه من حزب المحافظين، لأنني أعرف أنه ليس من النوع المتعصب، كما من المفيد على أيّ حال ضمّ الجميع معاً سياسياً من أجل حملة استضافة الألعاب، لكني لم أكن واثقاً به في واقع الأمر. كنت أثق بتيسا على أيّ حال، وهي كانت واثقة بنفسها. تبيّن لنا بعد ذلك أنه كان خياراً موفقاً. تمكن كو من تجنيد أي شخصٍ ينتمي

إلى عالم الرياضة على الفور بسبب كونه رياضياً. وذلك بطريقة ذكية، ومحترمة، ومقنعة، مستفيداً من شخصيته. لم تكن للرجل سمات المحافظين السيئة، بل الجيّدة.

اتضح لنا أنها مهمّة صعبة. لم نتمكن حتى من الحلول في المرتبة الثانية في هذا السباق، كما شكّكت شخصياً في إمكانية فوزنا. جرى نقاش حاد حول ما إذا كان يجدر بي الذهاب إلى سنغافورة. فعلت ذلك في النهاية، لكن لكون سنغافورة هي مسرح الحدث، تعيّن عليّ أن أكون موجوداً كي أمتلك العذر، ولكي أتجنب الانتقاد لعدم المحاولة كما ينبغي. سبقتني اللجنة الأولمبية البريطانية إلى هناك بعدة أيام. تكرّر المشهد السخيف المعتاد في مثل هذه الحالات: أمكننا التحدث عن عرض استضافة الألعاب، لكن لم يكن من المفترض بنا أن نفصّل كثيراً. أيمكن للمرء أن يلاحظ الفرق مهما حاول؟ أما أنا فلم أستطع.

كانت استراتيجيتنا بالنسبة إلى العرض الذي قدّمناه تنقسم قسمين: أقمنا استقبالاً وحفلة في مبنى المفوضية البريطانية العليا، وذلك كي نعرض ما عندنا، ومن أجل إعطاء لجنتنا لمسةً من الوحدة والتضامن. استقبلنا بعد ذلك أفراد اللجنة، وكانوا حوالى أربعين شخصاً وهم الذين انتُدبت لاستقبالهم، وقد استقبلتهم واحداً واحداً. كان عدد أعضاء اللجنة كبيراً بالنسبة إلى الهيئة الناخبة التي يبلغ عددها ١١٥ عضواً. جلست في جناح الفندق استعداداً لاستقبالهم، لكني تسلمت قبل وقتٍ قليل من دخولهم قصاصات تحتوي على تفاصيل عنهم، وهكذا تمكنت من معرفة ما يحبون، وما لا يحبون. تعلمت على مدى يومين من الاجتماعات المتتالية الدرس ذاته مجدداً، وعلى نطاق واسع، وهو أن الناخبين هم أنفسهم في الأمكنة كافة: لكل عضو صوت واحد. أما في الهيئات الانتخابية الصغيرة فيعتبر هذا الواقع مهماً.

تعلمت هذا من جون بيرتون عندما ترشحت عن مقعد سيدجفيلد. كان هناك عدد كبير من الثرثارين، والنشطاء، والمتردّدين، في اللجنة الإدارية العامة (وهي الهيئة الناخبة في ذلك الوقت)، وهم الذين كانوا يظهرون فوق المنصة، لكن جون ميّز السيدات المسنّات اللواتي لا يثابرن على الحضور، ويُظهرن بعض الخجل وعدم الثقة، وهكذا اتصلنا بغير المنحازات منهن. كان لكل واحدة منهن بعد انتهاء كل هذه الضوضاء، العدد ذاته من الأصوات مثل بقية النشطاء: صوت واحد.

كانت الهيئة الأولمبية الناخبة متنوعة عالمياً، لكن شعارها كان أكثر صدقية. كانت شيري أول شخص لاحظ ذلك. إذ توجهت إلى أنحاء أخرى من العالم منذ أن أطلقنا حملتنا، والتقت أعضاء أقلّ نفوذاً. كان هناك عدة أشخاص لم نكن لنربح الحملة من دونهم، وكانت هي من بينهم. يُمكن لزوجتي أن تكون صعبةً في بعض الأحيان، لكنها عندما تصمّم على شيء تقدم عليه. يمكنها أن ترتب غرفة أفضل من أي شخصٍ آخر التقيته.

أحبت شيري ووالدتها، وجاكي الرائعة، مربيّتنا، كل شيء يتعلّق بالرياضيين وبكل حماسة (لست كذلك في الواقع) ولهذا استمتعت بمهمتها. لكن في الوقت الذي التقينا فيه في سنغافورة كانت قد التقت عدداً كبيراً من أعضاء اللجنة، وتابعت الموضوع وإياهم، وبقيت على اتصال معهم، ولا أدري إذا كانت استمتعت بمهمتها هذه أم لا. التقينا في الحفلة التي أقمناها لأعضاء اللجنة الأولمبية الدولية «أصدقاءها القدامى»، الذين كانوا لا يُعتبرون مهمّين إذا أُخذ كل واحد منهم بمفرده، لكن لكل واحد منهم الصوت ذاته مثل أولئك الذين يثيرون ضجيجاً كبيراً. تمكّنا بهذه الطريقة من حشد دعم كبير من وراء الكواليس وبعيداً عن الأضواء. قام سب بدوره برحلاتٍ كثيرة في العالم وكان في منتهى الفاعلية.

لاحظت بسرعة أن الأشخاص الذين يقابلونني لا يرغبون أبداً في التحدث معي عن الرياضيين، إذ خمّنوا، عن حق، أنني جاهل في ذلك المضمار، لكنهم كانوا مندهشين بالسياسة ولقاء شخصية سياسية هامة. لاحظت كذلك أن خطابي الذي ألقيته منذ وقت قصير أمام البرلمان الأوروبي كان موضوعاً هاماً للنقاش. أعرف أن هذا يبدو غريباً بعض الشيء، لكن الخطاب أعطى مفعوله، لكن على الرغم من أن بعض الناس اختلفوا معي في الرأي بشأن العراق، إلا أن بعضهم الآخر اتفق معي، لكنهم جميعاً أبدوا احتراماً غريباً لاتخاذي قراراً لا يحظى بالشعبية.

يجدر بنا أن لا نبالغ كثيراً في قوة السياسة، ولذلك وضعنا دافيد بيكهام في اللجنة. كان دافيد داعماً للفكرة تماماً، وقد قام بما طُلب إليه بكل سرور، كما أثار ضجةً كبيرة في أنحاء سنغافورة كافة، وهو ما كان مطلوباً بالضبط.

تعلمت، مجدداً، في سياق هذه الاجتماعات أهمّية الإصغاء إلى الكلام.إن

معرفة الوقت المناسب للسكوت هي إحدى أهم القواعد في هذه الحياة بغضّ النظر عن السياسة. أعرف أن معظم الناس يبحثون، نفسياً، عن شخص يرغب في سماع شيء عنهم ويكون مهتماً بما يريدون قوله، بالإضافة إلى التأمل في أقوالهم واعتبارها حكيمة وهامة. ينطبق ذلك على المستويات كلها، وكلما كان المستوى أرفع كان الكلام أصدق. إنني أعمد في اجتماعاتي مع الرؤساء الآخرين، وبدرجة أقل مع أولئك الذين أعرفهم معرفة جيدة بالفعل، أو عندما تكون هناك أعمال فورية وفعلية ينبغي إنجازها، إلى الإصغاء، أو أعمد إلى طرح أسئلة عليهم كي أحملهم على الكلام كي أستطيع الإصغاء. يُعتبر الاجتماع ناجحاً إذا تمكنت من الإصغاء أكثر من الكلام.

أعرف كذلك الوقت المناسب للاختلاف في الرأي، ووقت ترك تعليق يمرّ من دون رد. أما إذا كان التعليق هاماً، وبرز سوء تفاهم شديد، فإن المرء يضطر إلى التدخل والمعارضة. ألاحظ في كثيرٍ من الحالات أن محدّثك إذا أدلى بزعم سخيف، فإن معارضته سوف لن تؤدي إلا إلى خلافٍ عقيم وغير مثمر، كما أن إنهاءً الحديث والانتقال إلى موضوعٍ آخر يصبح محرجاً. إني أنصح في حالات كهذه أن تدع الأمر يمر، إلا إذا تعلّق بموضوع النقاش الأساسي.

التقيت على أيّ حال عدداً كبيراً من أعضاء اللجنة الأولمبية الدولية، كما أنني أصغيت بكل اهتمام وبقدر ما سمح لي الوقت المحدّد للمقابلات. كانوا يأتون بكل ود وسرعة. كنت أتناول قصاصات الأوراق، وأخلطها بينما كان أعضاء اللجنة يحضّرون للاجتماع. أتى أحد الشبان الذي ذكر في القصاصة الخاصة به أنه بطل في رمي الرمح. اعتبرت ذلك أمراً غريباً بعض الشيء لأنه بدا صغير البنية، أي إن طوله يبلغ نحو خمس أقدام وثماني بوصات. اعتقدت أن من المفترض بالرماة أن يكونوا ضخام الجثة بعض الشيء، على الرغم من أنني أعترف بأن معرفتي برماة الرماح محدودة. سألته عن أهمّ عنصر من عناصر رياضته. ففاجأني جوابه تماماً: «ميزة الجليد».

فكرت في نفسي، يا الله، إنني لا أعرف أي شيء عن رمي الرمح. قلت له: «فهمت. هل هذا أمر مهمّ جداً بالنسبة إليك؟».

أجاب: «أجل، إنه الأهم، لأنه يحدّد مدى العلو الذي يمكنك أن تصل إليه». أمكنني رؤية سب وهو يومئ بقوة من ورائه، لكن على نحو غير مفهوم.

سألته: «إلى أيّ علو يمكنك الوصول؟».

قال لي: «نحو ثلاث أقدام».

تدخل سب بالقول: «إنه يعرف ذلك كله لأنه ظل بطل التزحلق على الجليد لمدة ثلاث سنوات. إنه شهير جداً بسبب تزحلقه على الجليد».

جرت حادثة مثيرة أخرى عندما حضر الوفد الروسي كي يلتقينا، وكان برئاسة رئيس بلدية موسكو. أخبرني كين ليفينغستون، بشيء من الغموض، أن أعضاء الوفد ودودون، كما أنهم على درجة عالية من التفهم. لم يعطِني تفاصيل أكثر، ولذلك اعتبرت أن من الأفضل عدم طرح أسئلة.

دخلوا واحداً بعد الآخر على الطريقة الروسية التقليدية. يلاحظ المرء شيئاً غريباً بخصوص الرجال الروس يجعلك ترغب في أن يكونوا إلى جانبك. يشعر المرء بأنهم قد يتصرفون على نحو غير لائق في سياقٍ خاطئ، أو حتى في أيّ سياقٍ آخر، وبأن الحدود التي تحيط بسلوكنا وشخصيتنا لا تنطبق عليهم. تدرك كذلك سبب فشل نابوليون، ولماذا كان هتلر أحمق لأنه حاول إخضاعهم.

جلسوا بتثاقل ونظروا نحوي. نظرت نحوهم بدوري. ابتسموا بذكاء وأومأوا. تطلع كين نحوي، وهو الذي سبق له أن انضم إلينا في هذا الاجتماع، فأومأنا نحوهم بدورنا. استمر الإيماء لبعض الوقت إلى أن بدأنا بالحديث، الذي بدا مختصراً جداً، بالنسبة إلي على الأقل. كان فحوى الحديث هو أننا نفهم بعضنا بعضاً على نحو جيد، وأنهم يحافظون على وعودهم، ونحن كذلك، وأنهم لا يحبون الأشخاص الذين لا يفعلون ذلك (شعرت ببعض الانزعاج لدى سماعي هذه الملاحظة). لم يكن هناك ما يدعو لقول المزيد لأننا، جميعاً، نحافظ على وعودنا. خرجوا الواحد بعد الآخر من الغرفة بعد جولة أخرى من الابتسامات والإيماءات.

سألت بعد أن غادر الوفد: «ماذا كان ذلك كله بحقّ السماء [الجحيم] يا كين؟»

قال لي: «لا تُقلق رأسك الجميل بهذا الشأن. أعتقد أن الأمور سارت على ما يرام».

جرت في هذا الوقت اجتماعات واستقبالات رسمية تخللت الأنشطة التي حدثت إلى جانب محاولات الإقناع. ظهرت ملكة اسبانيا، صاحبة الجلالة، التي تُعتبر ذخراً حقيقياً لبلادها، مع رئيس الوزراء الإسباني الجديد خوسيه لويز رودريغو زاباتيرو، الذي تصرف معي دائماً وعلى الرغم من صداقتي مع آزنار، بكل ودّ، وكان رئيساً ذكياً. اختلط السياسيون الكبار مع أصحاب المراكز الأقل شأناً. اختلطنا، وإن كان بشيء من عدم الارتياح، في الاستقبال الذي أقامه رئيس وزراء سنغافورة في المقرّ العام، ذلك المبنى القديم الذي شيّده الاستعمار القديم. تحدث كل واحد منا إلى شخص آخر، وراقب بدقة تحركات كل شخص، كما انتبه كل واحد منا لكل حركة غير مقصودة، أو أي إهانة، قد تؤدّي إلى خسارتنا لصوتٍ ثمين. كان الأمر مريعاً: أن نكون منافسين من دون أن نظهر أننا كذلك، وأن نحاول المحافظة على كرامتنا أثناء مناشدتنا الحصول على الأصوات.

جالت الأميرة آن على هذه الاجتماعات، بكل عناية، وذلك لأنها عضو في اللجنة الأولمبية الدولية. حازت الأميرة احتراماً كبيراً لأنها كانت ذات دراية كبيرة، وبالطبع تُعتبر الأميرة أولمبية. قدّمت مساعدات قيّمة وكبيرة وغير منظورة غالباً للأعمال الخيرية، وهي سفيرة رائعة للبلاد. أعجبت بالأميرة على الدوام. إنني أشك كثيراً في كون هذا الشعور متبادلاً، أو لعل من الأصح القول إنها كانت لامبالية، ما عدا قضية منع الصيد، وأنا متأكد أنها تكرهها. إنها لا تبتعد إلا قليلاً عن العناد الذي يتميز به كبار السن. يعتقد الناس أن الأمير فيليب لا يكترث أبداً لما يقولونه عنه. إنهم على حقٍ في ذلك: إنه لا يكترث بالفعل. أما آن فهي نفسها على الدوام. إنها على ما هي عليه، أما إذا لم يعجبك الأمر فأنت حرّ. إنني لا أمتلك هذه الميزة، لكني معجب بالذين يمتلكونها. أما الأمر المؤسف فهو أنها تمنع الناس من رؤية الجانب الآخر من شخصيتها.

أذكر، خلال اجتماعنا الأول بها في بالمورال، أن الأميرة آن نادت شيري «السيدة بلير»، فما كان من شيري إلا أن قالت: «ناديني شيري من فضلك».

ردّت آن: «أفضّل، في الواقع، أن أناديك السيدة بلير». يظهر ذلك على أنه تصرّف خشن للوهلة الأولى، وهو أمر غريب في عصر الديمقراطية. أما على مستوى آخر فإن هذا التصرف يُظهر تصميماً مثيراً للإعجاب على أن لا تكون مستجيبة لعصرنا الديمقراطي، ولعلها إشارة لنا للمغادرة.

أتذكر في وقتٍ مبكر من تسلّمي منصب رئاسة الوزراء أن قصر باكنغهام اعتبر أنه يجدر به إقامة حفل استقبال لعدد قليل من نواب حزب العمل. كنا غالبية كبيرة، وربما اعتبر القصر أنه يجب أن يفعل ذلك خشية أن تكون هناك نزعات جمهورية كامنة قد تنفجر فجأة. سار الأمر على ما يرام إلى أن اقترب الأمير فيليب من جوان والي، وهي شخصية نيابية يسارية مخلصة. قال الأمير تشارلز: «مرحباً، أي منطقة تمثلين؟».

قالت له: «إنني أمثّل ستوك».

أجاب الأمير: «إنه مكان فظيع، أليس كذلك؟».

شاركنا في احتفال ضخم في المساء حيث كان من المفترض أن أغادر سنغافورة، وقد أُلقيت فيه الخطابات الافتتاحية، بالإضافة إلى حفلة شراب أقامتها اللجنة الأولمبية الدولية. التقيت في ذلك الحفل لاعب الكرة الإسباني راوول، وحاولت إقناعه، لكن من دون جدوى، بفوائد انتقاله من ريال مدريد إلى فريق نيوكاسل يونايتد. رغبت بشدة في مغادرة المكان عندما حان وقت حفلة الشراب. كنت متعباً، ولم أكن مستعداً البتة لسماع أي رأي عن التحديات الجيوسياسية الحاضرة التي تواجه العالم هذه الأيام. سمعت ما يكفي عن الحركة الأولمبية، وعن أعضائها وحفلاتها. أراد دماغي التحول إلى تحضيرات قمة الثماني، التي تلقيت بشأنها تقارير مستمرة خلال إقامتي في سنغافورة. كنت مدركاً أكثر فأكثر إمكان حدوث نكسة مزدوجة: خسارة استضافة الألعاب الأولمبية، وفشل قمة دول الثماني.

وصل جاك شيراك إلى الحفلة بكل حيويته وحركته، وبدا وكأنه صاحب الألعاب الأولمبية وكل ما تشتمل عليه. لاحظت بشيء من التشاؤم، مع أن ذلك قد يكون ناتجاً عن مزاجي في ذلك الوقت، أن الجميع يتحلقون حوله بشيء من الرهبة. ربما لأنني بقيت فترة أطول من اللازم في الحكم، فأصبحت مألوفاً جداً لدى الناس، ولأنني

كنت متواضعاً جداً، ولم أظهر قدراً كبيراً من الهيبة. بدأت في تلك اللحظة بالتذمر، وهي إشارات يعرفها فريق العمل الذي يساعدني كله.

يصدق هذا عندما يكون من المهم جداً أن يتحلق حولك أشخاص لا يحترمونك كثيراً. كان جو غيبونز، أحد موظفي ١٠ داوننغ، وهو المسؤول عن المناسبات الرسمية، مدركاً للإنهاك الذي أشعر به، لكنه لم يكن متفهماً بالمرة السبب الذي يدفعني إلى مغادرة الحفلة. ثمة عدد كبير من الأشخاص عليّ أن ألتقيهم. كان كين لطيفاً جداً، لكنه كان حازماً جداً: يجب أن تبقى. لم تظهر أمارات التعب على شيري بتاتاً، لكن كانت ستحرمني المشاركة في الاستقبال الكبير في اليوم التالي، وذلك لأنني كنتُ مضطراً إلى استئناف تحضيراتي لقمة الثماني. يستطيع جاك أن يفعل هذا شخصياً، لكن يمكنني المشاركة عن طريق الفيديو. كان قراري الأخير أن أبقى.

أخيراً، وبعد أن كدت أشعر بالاختناق وبالتشاؤم، وبعد أن فرغ النُدُل من التقاط صورهم معي، حان وقت المغادرة، والصعود إلى متن الطائرة، ثم العودة في رحلة تستغرق اثنتي عشرة ساعة.

إن الفرق بيني وبين جاك في حفلة الشراب يلخص، ويرمز، إلى فروق طريقة تقديم باريس ولندن لعرضَيهما في استضافة الألعاب الأولمبية.

تعيّن في العام ١٩٤٨ إقناع لندن باستضافة الألعاب الأولمبية. أثّرت الحرب الباردة بعض الشيء في عملية تقديم عروض استضافة الألعاب. لكن الألعاب الأولمبية عادت في التسعينيات من القرن الماضي إلى مجاراة العصر، ولم تعد قضية دولة تقدم خدمة باستضافة الألعاب الأولمبية، بل على العكس من ذلك أصبحت استضافة الألعاب شرفاً تسعى لنيله الدولة المضيفة. أما هذه الأيام فإن اللجنة الأولمبية الدولية تشترط أن تمتلك تلك البلدان البنية التحتية اللازمة والمنشآت الرياضية الضرورية لإقامة الألعاب. تحوّلت ما كانت نقطة النهاية في الماضي إلى نقطة بداية. أما القيمة الحقيقية التي أُضيفت فهي أن المدينة المضيفة أصبح بإمكانها المساهمة في ما يُمكن أن يوصف عموماً على أنه الروح الأولمبي غير الملموس، لكن المحسوس بعمق في الحركة الأولمبية.

أقام قصر باكنغهام مأدبة عشاء لأفراد فريق التقييم في اللجنة الأولمبية الدولية

أثناء زيارتهم التمهيدية إلى لندن التي قاموا بها من أجل تقييم عرضنا. جلست رئيسة فريق التقييم بقربي في هذه المأدبة. تبيّن لي أثناء حديثي معها أن العرض الذي قدّمته لندن يُهم اللجنة أكثر مما يهمنا، أو على نحو أدق يتعلق بالأمور التي يمكن أن نقوم بها من أجل تعزيز مبادئ، الحركة الأولمبية وروحها، والمشاعر العميقة الكامنة فيها، أكثر مما يتعلق بالبنية التحتية للمنشآت الرياضية في لندن، وغير ذلك من أمور. كانت اللجنة الأولمبية الدولية خليطاً غريباً من الرياضيين، ورجال الأعمال، والشخصيات العظيمة الأخرى، لكن بغضّ النظر عن أصولهم يمكنني القول إنهم أظهروا حساسية كبيرة تجاه الاتهامات القائلة إن الأمر برمّته أصبح تجارياً، وهكذا خسر الرابط مع جوهر الحركة الأولمبية. أرادوا أن تسترجع الألعاب الأولمبية معناها، وأن تكون شيئاً أسمى وأفضل، وليس مجرد مناسبة عظيمة لجمع الأموال.

تحدث الناس عن حاجة الألعاب إلى استمرارية تعني عدم توقف الأنشطة مع انتهاء الألعاب. اعتبرت أن هذا يعني أمراً يُحدث فرقاً إيجابياً بالنسبة إلى العالم. لاحظت أن سب وآخرين يشاطرونني مشاعري هذه، وهكذا انطلقنا من أجل تقديم لندن بوصفها مدينة حديثة، وديناميكية، ومتعدّدة الثقافات، وفخورة. كانت هذه لندن بميزاتها المعاصرة، حيث الحداثة إلى جانب التقليد.

أثار الفرنسيون الانطباع ذاته الذي أثاروه في حفلة الشراب [في سنغافورة] أي انطباع «نحن سنفوز، وهذا من حسن حظكم»، كما حاولوا التأثير في الحاضرين وكأنهم قوة لا تُقهر، أي إنهم كانوا فرنسيين جداً في ذلك. أما نحن فقد حاولنا ترك انطباع «إننا نرجو تقديم خدماتنا إلى حركتكم العظيمة» لكننا تحركنا وسعينا بحماسة شديدة من وراء الكواليس – أي إننا كنا بريطانيين جداً. يُمكن للطريقة الفرنسية أن تكون محقة في بعض الحالات، لكن الفرنسيين بالغوا قليلاً. أحدث الأمر فرقاً كبيراً، وهكذا اكتسب عرضنا لمسةً أفضل.

بقي هناك شخص آخر ما كنا لنفوز من دونه: سيلفيو برلسكوني. توجهت لزيارته في آب الماضي/أغسطس في منزله في سردينيا، وذلك كي أطلب مساعدته بخصوص مطلبنا، لأن إيطاليا هي لاعب أساسي. سألني عن أهمّية استضافة الألعاب الأولمبية. قلت له: «إنها مهمة بالنسبة إلينا».

سألني: «هل هي مهمة جداً؟».

أجبته: «إنها مهمة جداً».

قال لي: «أنت صديقي، لذلك لن أعدك بشيء لكني سأرى إن كان بإمكاني المساعدة». هذا هو سيلفيو كما أعرفه، وهذا هو السبب الذي يجعلني معجباً به. يقول لي معظم السياسيين: «أعدك»، لكنهم لا يفعلون شيئاً. أما هو فيقول «لا أعدك بشيء»، لكنه يفي بالوعد الذي لم يقطعه.

أعرف أن العلاقات الشخصية مهمة جداً. إن هذا واضح، لكن الأشخاص الذين يعتقدون أن المراوغات المعقدة، والحسابات الرياضية، هي التي تحرّك المفاوضات والتسويات. تتعلق السياسة بالناس، وعلى المستويات كلها، وعلى الخصوص أولئك الذين هم في القمة. إذا أحب المرء زعيماً فسوف يساعده، حتى وإن وصل الأمر إلى مصالحه الشخصية. أما إذا لم يحبه فلن يفعل شيئاً من أجله. لكن إذا نأيت بنفسك عنه لأسباب سياسية – مثلما حدث مع سيلفيو وكل الضجيج الذي يرافقه – فلا بأس في ذلك، لكن لا تخدع نفسك: ستكون بلادك هي الخاسرة. إن ذلك الزعيم ليس أحمق، وهو يعرف أنك لست مستعداً لدفع الثمن كي تحصل على علاقة. أتعتقد أن الزعيم لا يخفي بعض الضغينة حيال هذا الأمر؟ إنني لا أعرف كيف يصوّت الإيطاليون، لكن...

غادرنا سنغافورة من دون أن نجرؤ على الأمل، لكننا أبقينا عليه مع ذلك، وهو أمل رافق الإثارة التي تميّز بها الأمر برمّته، وحقيقة إظهار الناس للود أمامك، لكني شعرت، وبطريقة ما بأن الفرنسيين لن يفوزوا باستضافة الألعاب الأولمبية.

هبطت الطائرة في مطار إدنبرا بعد رحلة استغرقت الليل برمته، وتوجهنا بالسيارة إلى فندق غلين إيغلز الفخم. اخترت غلين إيغلز ليس بسبب فخامته، لكن لأننا أردنا المكوث في مكان آمن. عُقد مؤتمر الدول الثماني برئاستي في العام ١٩٩٨ في وسط مدينة بيرمنغهام، وهي القمة الأولى التي عُقدت برئاستي، لكن عالم مؤتمرات القمة خلال السنوات السبع التي مرت منذ تلك القمة قد تغيّر كثيراً، وحدث هذا حتى قبل ١١ أيلول واستمر ذلك، بالتأكيد، بعد هذا التاريخ. إننا نعيش، بالتأكيد، في حقبة









الصورة الرئيسة: جرت مع استمرار الحرب في العراق احتجاجات خارج قصر العدل الملكي حيث انعقدت لجنة تحقيق هوتون، ٢٨ آب/أغسطس ٢٠٠٣.

أعلى اليمين: أثناء عودتي من المنطقة الخضراء بعد الزيارة التي قمت بها لجنودنا في بغداد، ٢٠٠٣.

وسط اليمين: أثناء مغادرتي داوننغ ستريت للإدلاء بشهادتي أمام لجنة تحقيق هوتون، ٢٨ آب/أغسطس ٢٠٠٣.

أسفل اليمين: أثناء إنزال تمثال صدّام حسين في بغداد بعد وصول الجنود الأميركيين، ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.







فوق: آلاستير كامبل الوفي والمخلص يغادر داوننغ ستريت، ٢٩ آب/أبريل ٢٠٠٣.



أعلى الصورة: بونو يخاطب مؤتمر حزب العمال حول الفقر في العالم في العام ٢٠٠٤.

فوق: مع دافيد بلنكيت أثناء مؤتمر العام ٢٠٠٥.

إلى اليسار: المثلجات مع غوردون أثناء حملتنا الانتخابية في الريف، ٢ أيار/مايو ٢٠٠٥. أصررت على تذوقها.

أسفل اليسار: مع بعض الفتيان في الطريق إلى أحد المراكز الاجتماعية في المنطقة الشمالية الشرقية.

تحت: أثناء تسلّمي دعوة الملكة لتأليف حكومة جديدة بعد إعادة انتخابنا التاريخية لولاية ثالثة في ٥ أيار/مايو ٢٠٠٥.









أعلى اليسار: مع استمرار عملية السلام في الشرق الأوسط، وأثناء عقد مؤتمرٍ صحفي مع آريل شارون في القدس، ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤.

فوق: شمعون بيريز أمام صورة إسحق رابين، هما الشخصيتان الأساسيتان في عملية السلام، القدس، ١٩ تموز ٢٠٠٤.



إلى اليسار: مع ياسر عرفات أثناء المحادثات التي جرت في قطاع غزة، فلسطين، ١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.







أعلى اليسار: تحت كاميرات الصحافة: آنجيلا ميركل، جاك شيراك، وأنا أثناء اجتماع الدول الثماني في ستراسبورغ، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٦.

أعلى اليمين: احتشدت كاميرات التصوير التلفزيونية عند زيارتي لمناطق الفيضانات في غلوشستر في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

إلى اليمين: السير فوق رمال الشاطئ مع قادة الدول الثماني خلال قمة سي آيلند، جورجيا، في حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٤.







فوق: بوب جيلدوف، وهو الشخص الأساسي وراء الحفلات الموسيقية الثماني الحية العالمية في ٢ تموز/يوليو ٢٠٠٥.

أعلى اليمين: قفزت دينيز لويس من الفرح مع رئيس بلدية لندن كين ليفينغستون وتيسا جويل، وذلك بعد إعلان فوز لندن بعرض تنظيم الألعاب الأولمبية في سنغافورة في العام ٢٠١٢، ٦ تموز/يوليو ٢٠٠٥.

إلى اليمين: سكان لندن يحتفلون في اللحظة ذاتها في باحة ترافلغار.



تحت: انفجرت في اليوم التالي ثلاث قنابل في مترو أنفاق لندن، وأخرى في أحد الباصات التي كانت في باحة تافيستوك. فقد اثنان وخمسون شخصاً أرواحهم، ٧ تموز/يوليو ٢٠٠٥.

إلى اليسار: أثناء إلقاء خطابي في ٨ تموز/يوليو ٢٠٠٥ بالنيابة عن الرؤساء المجتمعين حول مجزرة ٧ تموز/يوليو.





إلى اليسار: أثناء إلقاء كلمتي حول الفقر في العالم، وذلك في المسرح الفيكتوري القديم في لندن، وغوردون يصغي.

تحت: الاحتفال بيوم استرجاع تقاسم السلطة في إيرلندا الشمالية. يظهر من اليسار إلى اليمين مارتن ماك غينيس، بيرتي آهيرن، وبيتر هاين، وإيان بايسلي. ستورمونت، بلفاست، ٨ أيار/مايو ٢٠٠٧.



أسفل اليسار: عندما أعلنت في ١٠ أيار/مايو ٢٠٠٧ في نادي حزب العمال في تريمدون أنني سأتنازل في الشهر التالي عن منصب رئيس الوزراء.

أسفل اليمين: قمت في الأشهر الأخيرة بعدة زيارات متنوعة. مع الجنود البريطانيين في البصرة، العراق، ١٩ أيار/مايو ٢٠٠٧.







إلى اليمين: مع كيث هيل سكرتيري الخاص للشؤون البرلمانية.



إلى اليسار: غادرت مع الملف الذي لا غنى لي عنه لعقد آخر جلسة استجواب لي كرئيس لمجلس الوزراء، ٢٧ حزيران ٢٠٠٧.





فوق: نزولي الدرج في داوننغ ستريت لآخر مرة بعد إلقاء كلمة أمام الموظفين، ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٧.

إلى اليمين: في القطار الذي أقلّني إلى المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد.



فوق: آخر صورة لي مع العائلة فوق درج ١٠ داوننغ، ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٧



إلى اليسار: مع باراك أوباما، ٢٨ تموز/يوليو ٢٠٠٨.

تحت: مع محمود عباس، ٩ آذار/مارس ٢٠١٠.









أعلى اليسار: التقيت، في إطار مبادرة إدارة أفريقيا، الرسميين في مجلس السياحة في سيراليون، فريتاون، نيسان/أبريل ٢٠٠٩.

أعلى اليمين: أثناء اللقاء مع الشيخ ابراهيم الطلال في بيت سكاريا القريبة من بيت لحم، ١٩ آذار/مارس ٢٠٠٩، وذلك في إطار دوري كممثل للجنة الدولية الرباعية.

إلى اليسار: أتحدث باسم مؤسسة الأديان التي أسستها إلى طلاب مدرسة ونشستر في دبي، ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠١٠.

تحت: مع تلامذة مدرسة بارنز في سندرلاند، في المجمّع الرياضي التابع لجامعة نورث آمبريا، نيوكاسل – تاين، وهي المدرسة التي تُدار بالاشتراك مع المؤسسة الرياضية التي أنشأتها، ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠١٠.



من الدعاية الواسعة عن طريق الاحتجاجات. يعرف المحتجون أنهم إذا احتجوا بطريقة عنيفة فسيدفعون بذلك برامج السياسيين المنتخبين بطريقة ديمقراطية قُدماً. يمكن للحشود أن تندفع إلى داخل القمة وتخربها، وكذلك تتمكن من الاستحواذ على تغطية وسائل الإعلام، وأن تقلص من بريق هذه القمة، وباختصار الانتقاص من قيمتها. تؤدي هذه الحركات بدورها إلى دفع السياسيين إلى محاولة عزل أنفسهم عن مظاهر الاحتجاج. أما بعد قمة جنوى في العام ٢٠٠١ فإن هذه القمم باتت تُعقد في أماكن بعيدة ومنعزلة، وذلك كي لا تكون عُرضةً للعرقلة، مثل قمم إيفيان في فرنسا، وهيليندام في ألمانيا، وسي أيلاند في الولايات المتحدة.

تمكّنا من سماع صرخات معارضي العولمة ضد اجتماعنا، وذلك أثناء توجهنا بالسيارة إلى غلين إيغلز. كان هؤلاء ضد الدول الثماني، وضد النظام برمّته. لم تكن مشاعري متعاطفة معهم. لا أعرف لماذا لا يريدوننا أن نجتمع ونتحدث؟ ستدور محادثاتنا، بعد كل شيء، عن إفريقيا والتغيّر المناخي. ما هي مشكلتهم؟ أعني أن مشاعري تجاههم كانت شبيهة بمشاعرهم نحوي تقريباً.

حاولت بعد ذلك أن أجتمع مع جاك ماكدونيل، الوزير الأول الاسكتلندي. كان من المهم جداً بالنسبة إليه أن يُعتبر جزءاً من الحدث، وذلك بسبب صعوبة تنفيذ الإجراءات الأمنية. تعيّن عليه أن يلتقي السكان المحليين، وكذلك بسبب تنظيم مهرجان إدنبرا الذي سبق قمة الدول الثماني بأيام قليلة. كان الجميع يريدون عقد قمة الثماني، لكنهم أرادوا في الوقت ذاته الشكوى بسبب العرقلة التي تسببها هذه القمة في مدينتهم.

تمكنت، لحسن الحظ، من النوم في طريق عودتي من سنغافورة، ويعود سبب ذلك، جزئياً، إلى الحبة [المنومة] التي تناولتها. شعرت بالارتياح بعد أن استحممت، لكن بقي عندي القلق الناجم عن اختيار مكان الألعاب الأولمبية. اتضح لي أنْ ليس هناك أي شيء آخر يمكنني القيام به تجاه الأمر، وهكذا تمكنت من التركيز على قمة الدول الثماني.

قررت أن تكون مشاركتي مختلفة هذه السنة. كنت في موقف أضعف داخلياً بعد الانتخابات. شعر غوردون وجماعته بالغضب. كانت وسائل الإعلام تهاجمني

باستمرار تقريباً. اضطررت إلى التحدث عن تسليم القيادة إلى زعيم جديد في وقت شعرنا بأن التحدث عن الأمر يوحي بشيء من المهانة والضعف.

وصلت في ذلك الوقت إلى مرحلة جديدة من التطور الداخلي. لم أكن سعيداً، لأن الضغوط كانت شديدةً بالفعل، لكني كنت قوياً جداً من الناحية الذهنية. أردت إعطاء الأمر فترة سنتين على الأقل. كان ذلك أفضل ما يتناسب مع سعيي إلى إكمال ولايتي، وليس بالضرورة إكمالها بالفعل، لكن ذلك لم يكن خرقاً فاضحاً يصل إلى حد الخيانة الحقيقية للثقة. أعتقد لو أنني عملت أنا وغوردون بشكل منسق بحسب جدول عملٍ متفقٍ عليه، لكان من الممكن أن أترك منصبي قبل ذلك كما سبق لي أن قلت، لكنيّ سأستمرّ في منصبي سنتين على الأقل مع افتراض أن ذلك ما زال صعباً.

أما لو فكر أعضاء الحزب، أو رجال وسائل الإعلام، في الوقوف ضدي ومحاولة إزاحتي عن منصبي إكراهاً لكان وقع حمام دم. كنت مستعدّاً لعمل ما هو صواب قبل هذه النقطة، وهكذا عملت على هذا المبدأ في السنوات القليلة الماضية، وسأتابع هكذا. إنني لست على استعداد للتنازل عن المنصب، هكذا وبكل بساطة، كما أنني مستعد للمخاطرة بحدوث فشل بدلاً من السماح للخوف بتقليص مدى طموحاتي، كما أنني لست مستعداً لتضييع لحظة واحدة، أو تخفيض مستوى طموحاتي. هذا كان سبب اختلاف جدول أعمال قمة الدول الثماني.

كانت قمم الدول الثماني تركز عادة على أهمّ قضية شائعة. اشتملت هذا القضايا تقليدياً على الاقتصاد العالمي. يعكس تمثيل الدول الثماني القوى الاقتصادية والسياسية التاريخية [في الماضي] بدلاً من القوى الاقتصادية والتاريخية الراهنة. بدأنا، تدريجاً بضمّ قوى أخرى بصورة غير رسمية، الأمر الذي بدأناه في قمم الدول الثماني التي عُقدت في بيرمنغهام في العام ١٩٩٨.

أخذت الأمر إلى مستوى جديد تماماً. أولاً، قمت بدعوة خمس دول: الصين، والهند، والبرازيل، وجنوب إفريقيا والمكسيك، للاشتراك في قمة كاملة نوعاً ما حضرها رؤساء عدة دول إفريقية وعربية. تحولت الدول الثماني زائد خمساً إلى صيغة جديدة مكّنت الدول الكبرى في العالم، أو معظمها، من الاجتماع وإن بصورة غير

رسمية، وذلك في الاجتماع الدولي الوحيد غير الإقليمي خارج إطار اجتماعات الأمم المتحدة، أو منظمة التجارة العالمية.

ثانياً، قررت السعي لتحقيق جملة من الأهداف الطموحة. حددت أهدافاً مضاعفة: الحصول على حزمة شاملة من مساعدات متفق عليها لإفريقيا، وعلى الأقل تأسيس مبدأ معاهدة عالمية جديدة حول التغيّر المناخي – تضمّ الولايات المتحدة – وذلك لتكون بديلاً من بروتوكول كيوتو الذي تنتهي مدته في العام ٢٠١٢. استندت حزمة المساعدات لإفريقيا إلى مفوضية إفريقيا التي أسستها في العام ٢٠٠٤، وذلك بتشجيع من بوب جيلدوف.

بوب. ماذا عساي أقول عن بوب؟ يستطيع هذا الرجل أن يدفعك إلى حافة الجنون، ويمكنه أن يتكلم إلى ما لا نهاية. يمكنني أن أتحدث إلى قادة العالم وكأنهم أولاد مدارس يتصرفون بطريقة خاطئة. لم أكن أنزعج شخصياً من ذلك الأمر، لكنني كنت الاستثناء، صدّقوني. يُمكن لبوب أن لا يتصرف بإصرار لاعقلاني، أو بالأحرى بطريقة محمومة. يتمتع الرجل مع ذلك بفضيلتين تشفعان له: هما ذكاؤه، وجرأته. إنه ذكي بما يكفي كي يعرف الوقت المناسب للتوقف عن التسبب بكارثة، أو عن تقديم مطلب غير قابل للتفاوض. إنه جريء لأنه من ذلك الصنف من الرجال الذين يُظهرون التواضع، وهو يقول لك «لا تهني بالتسويات»، «والآن، لم تعد محبوباً، لذلك لا أريد أن أرافقك»، وغير ذلك من الأقوال التي يمتلئ بها عالم الفن بين حين وآخر. يُعتبر بوب وبونو من الملتزمين بصدق، وهما على دراية تامة بالأمور، ولذلك تراهما مهتمين بتحقيق الأهداف المرسومة أكثر من اهتمامهما بالتأكيد على تقديرهما للذات.

تزدحم مفوضية إفريقيا بموظفين من مستويات عالية. أما مجموعة الموظفين فهي متوازنة لكنها جدية. وهي تُعدّ من الأذكياء، وذوي الأذهان الصافية، ويمتلكون ما يكفي من التصميم لإظهار المفهوم الأساسي للتقرير: يتعيّن على إفريقيا في نهاية الأمر أن ترتب أمور إفريقيا. كان لتلك المجموعة مزاج «المساعدة وليس إعطاء الهبات». «أجل، إننا نحتاج إلى زيادة المساعدات، لكن شريطة أن تكون الغاية هي مساعدة إفريقيا على الوقوف على قدميها، ولا نريد سماع تلك التفاهات التي تتحدث عن عدم إمكانية حكم أنفسنا بسبب ذلك الماضي الاستعماري البشع».

كانت نظرتي إلى إفريقيا على الدوام هي نظرة الطريق الثالث: إننا نحتاج إلى شراكة بين العالم المتقدم والعالم النامي، ولا نريد علاقة متبرعين – مستفيدين. كانت مشكلة السلطات والفساد مشكلة كبيرة مثل الديون والمساعدات. كان التوصّل إلى حلول للنزاعات القائمة أمراً هاماً جداً. يعني ذلك، وبكلماتٍ أخرى، استخدام الطرق الخشنة واللينة. يشعر المواطن الغربي بأسفٍ حقيقي على محنة الأفارقة، لكنه وصل مع ذلك إلى الخشية أن تكون الحالة يائسة. كان إعطاء الأموال واجباً أخلاقياً، لكن الاقتناع بنتيجة هذه المساعدات كان ضئيلاً جداً، الأمر الذي أدى إلى الوصول إلى حالة «إعياء المتبرعين». كان ذلك شيئاً يعرفه بوب وبونو بصورة غريزية، أما إذا لم يكن ذلك صحيحاً فكانا سيعرفانه من خلال اجتماعهما الأول مع جورج.

أدركت أن بونو هو شخصية هامة بحيث يتمكّن من رؤية جورج. كان بإمكانه أن يكون رئيس جمهورية، أو رئيس وزراء، واقفاً على رأسه. يمتلك الرجل موهبة طبيعية في الحملات السياسية، وكان عظيماً مع الناس، ومتحدثاً ذكياً جداً وملهماً. أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أتساءل عما يجعله ناجحاً في كل ما يقوم به. قررت في النهاية أنه إلى جانب العمل الشاق كان يمتلك تلك الميزة التي لاحظتها في كل رجل ناجح بالفعل من بين الذين التقيتهم: كان الرجل مدفوعاً برغبة كبيرة في المضي في التحسّن من دون أن يشعر بالرضا أو بالاسترخاء. يحمل ذلك الاندفاع معه إحساساً بالتواضع إذا ما سار في الطريق الصحيح وبقي رهن التحكم. أدركت أنه سوف يؤثّر في جورج تأثيراً كبيراً، وأنه لن يُظهر أمامه تلك الكبرياء الجافة التي يُظهرها معظم أبناء جنسه.

أقول، للإنصاف، إن جورج كان مهتماً بجدول أعمال قمة الدول الثماني. أعرف أنه لا يحب مؤتمرات القمة، حتى أنه لا يثق بها في واقع الأمر. كان يشعر بضغطها ويكره التركيز الحتمي على أن أميريكا «لا تقوم بما يكفي»، كما كان يكره كل ذلك الرياء الذي يشوب هذه القمم إلى حدّ أنه أصبح ملازماً لها في بعض الأحيان. اضطررت إلى بذل جهودي معه، وتلك لم تكن يسيرة، من أجل إقناعه بالموافقة على برنامج العمل والمضي به.

كان قاسياً جداً مع إفريقيا وأنظمة حكمها، وعن حق، لكنه قام في النهاية بمضاعفة المساعدات لها، كما كان متشككاً بالنسبة إلى التغيّر المناخي. يُعتبر جورج محافظاً حقيقياً، وهو ذو ميزاتٍ أعجب لوجودها عند المحافظين، كما أنه ذو ميزات

لا تجعل منه رجلاً محافظاً سياسياً. تتمثل إحدى تلك الميزات في مقاومة التذمر الشعبي عندما يرتفع جراء أمر ما بحكم الغريزة الأولى لدى المحافظين، وهم عادة ما يكونون على حق في مقاومته. لا يصل المحافظون إلى وجهة نظر فقط لأن الآخرين يقولون إن عليهم تبنيها.

إن هذا الموقف هو السبب الذي يجعل الناس يصوتون للمحافظين على الرغم من قولهم إنهم لا يحبون السياسيين المحافظين. يميل الناس إلى السير مع الحشود، لكنهم، لغرابة الأمر، يحترمون الزعيم الذي يكون مستعداً لتحدي الجمهور. أما إذا لم يكن هذا القائد مستعداً للقيام بذلك فإن الجمهور سيشك في كونه قائداً مناسباً. إن هذا الأمر مستغرب جداً، لكن هذا هو واقع الحال. لا يفهم السياسيون التقدميون هذا الأمر عادة. إنهم يفضّلون الوقوف مع تيار التفكير السائد، وهكذا يرتبكون عندما يقول الجمهور في استطلاعات الرأي إنه يؤمن بفلان، على أنه يصوت لمصلحة شخصية أخرى في صناديق الاقتراع.

أتذكر على الدوام الصراع الانتخابي الذي دار في العام ١٩٨٣ حول سياسة حكومة حزب العمال آنذاك التي تقضي بالانسحاب من السوق الأوروبية المشتركة. لم أساند هذا الموقف شخصياً، كما أبلغت لجنة الاختيار موقفي هذا. وقفت مع موقف الحزب الرسمي أثناء الحملة الانتخابية بوصفي مرشحاً جديداً يحاول الحفاظ على سمعته. أظهرت نتائج استطلاعات الرأي أن غالبية المستطلعين تقف إلى جانب الانسحاب من السوق، وجاء هذا الموقف من مناصري حزب العمال على الخصوص. كان من المفروض أن يكون ذلك تصويتاً يفرض نفسه على مقعدٍ عمالي قوي. لم يكن الأمر كذلك. دُهشت عندما لاحظت أنني أساند سياسة غير مؤمن بها أنا فقط، بل إن مناصريّ الطبيعيين لا يؤمنون بها بدورهم. قبلت الحكومة في النهاية موقف المحافظين الذين يرون أن الانسحاب من أوروبا ليس إجراءً عملياً أبداً. انعكست مواقف الحزبيين في وقتٍ لاحق، لكن ردّ فعل الجمهور بقي كما هو. لا يمكن لأي حزب في بريطانيا أن يفوز هذه الأيام بغالبية كبيرة عن طريق مناهضة الاتحاد الأوروبي إلا إذا اتخذت الجماهير موقفاً يتسم بالحمق، وهي غالباً لا تفعل ذلك.

أعتقد أنني استطردت كثيراً. إن ما أريد قوله هو أن ردّ الفعل الطبيعي بالنسبة إلى أشخاص مثل جورج بوش عندما يقول العالم بأسره إن التغيّر المناخي يمثّل تهديداً

للكوكب، هو على النحو التالي: «أنتم تقولون ما تقولون، لكني لست مقتنعاً»، وكلما كان الادعاء أقوى كانت ردة فعله أقوى.

أجرينا مناقشة حول التغيّر المناخي مع جورج، وذلك أثناء مؤتمر قمة الثماني الذي عُقد في جنوى في العام ٢٠٠١، وكانت تلك أول قمة يحضرها. كان البلجيكيون يترأسون الاتحاد الأوروبي، وهكذا شاركوا في هذا المؤتمر. أما رئيس الوزراء البلجيكي في ذلك الوقت، غاي فيرهوفستاد، فكان رجلاً في منتهى اللطف والذكاء، يعكس روح بروكسل الحقيقية. كان الاتفاق قد تم حول معاهدة كيوتو، وقد وقّعها كلينتون، وصوّت مجلس الشيوخ الأميركي بالإجماع، أي ٩٨ مقابل صفر ضد المصادقة عليها. أعرب جورج بعد توليه المنصب عن عدم احترامه لهذه المعاهدة. أما الواقع فهو أنه في تلك اللحظة وعلى الرغم من كل ما يقوله، وفي إطار تلك الظروف لم يكن بوسعه تمرير هذه المعاهدة في الكونغرس. كان يمكنه اتخاذ موقف منضبط. تحدث جورج عما يفكر فيه، أي إنه ليس مقتنعاً بمعاهدة كيوتو، أو بجوهر الحجج عن التغيّر المناخي. أضاف جورج أن أهداف كيوتو يستحيل على أميركا تنفيذها من دون إلحاق الضرر الشديد باقتصادها، لذا لم يكن مستعداً لذلك.

قال لي غاي، بعد أن انتهى جورج من كلامه، إنه فهم ما قاله جورج، لكنْ ثمة حل بسيط جداً للمشكلة الأميركية، وهو حل سيفيد العالم، لكنه سيعطي فائدة كبيرة لفحوى رفاه الشعب الأميركي: يمكنهم تخفيض الانبعاثات بصورة كبيرة إذا ضاعفوا سعر الوقود عن طريق فرض الضريبة عليه. سيعتبر مثل هذا الإجراء جريئاً، وسيساعد على تخفيف هوسهم بالسيارات، وسيؤدي ذلك إلى إكساب جورج قبولاً كبيراً لدى الرأي العام السياسي الدولي، أقله في بلجيكا.

وصل جورج في الوقت المناسب مع بداية هذه المناقشة الأولى، ولذلك لم يحيّ الحاضرين تحية شاملة. لم يعرف غاي ولم يميّز وجوده، وهو الذي استمع إلى نصيحته بدهشة بالغة.

التفت نحوي بعد ذلك وهمس في أذني: «من هو هذا الرجل؟».

قلت له: «إنه رئيس وزراء بلجيكا».

قال جورج وهو مرتعب من مدى حماقته: «بلجيكا؟ لكن بلجيكا ليست في عداد الدول الثماني».

قلت له: «لا، لكنه موجود هنا بصفته رئيس أوروبا».

هزّ رأسه تعبيراً عن استيائه من غباوتنا نحن: «هل سمحتم للبلجيكيين بإدارة شؤون أوروبا؟».

أريد أن أقول إن وصف جورج أنه مشكّك في التغيير المناخي هو استهانة وإساءة تقدير. غيّر تفكيره بمرور الوقت، لكنه فعل ذلك ببطء شديد، وهي صفة لا تعجبني عند المحافظين، وبقدر ما تمكن من رؤية أن اعتماد الأميركيين على الكربون يضع مستقبلهم بين أيدي أنحاء غير مستقرة وخطرة من العالم. ما إن تحرك جورج حتى أمضى وقتاً أكبر في تطوير وقود نظيف. فعل ذلك أكثر من أي إدارة سابقة. أقول في هذا المجال إنه ضاعف المساعدة إلى إفريقيا بمقدار ثلاثة أضعاف. لكن العالم كوّن نظرة ثابتة عنه، لذلك لم يحصل على أي ثناء لقاء ما فعله، الأمر الذي يحصل عادة.

في المناسبات المحرجة التي تبرز فجأة مع بعض أصدقائي المقربين الذين يسألونني، بيني وبينهم، رأيي الحقيقي بجورج بوش. كنت أقول إنني معجب به بالفعل، لكني كنت ألاحظ عندهم حالةً من عدم الفهم التام. سألت أحد النواب من غير الوزراء عن سبب كرهه له إلى هذا الحدّ، فقال لي: «هذا صحيح، لكنني لا أستطيع أن أشرحه شرحاً كاملاً، لكنه هكذا». سألته بعد ذلك ماذا سيحدث لو تبيّن أنه على حق. أجابني: «أعتقد أنني سوف أكرهه أكثر في تلك الحالة».

هكذا سارت الأمور مع جورج، إذ إنه قطع أشواطاً كبيرة عند حلول قمة الدول الثماني التي عُقدت في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٥، ولكن ليس بمقدار ما أردت. رفض جورج على الدوام القول إنه سوف يُلزم الولايات المتحدة المساهمة في اتفاقية حول التغيّر المناخي. قطع جورج خطوات متقدمة تجاه إفريقيا، كما ترك سجلاً مدهشاً بالفعل في مجال تمويل صندوق مكافحة الآيدز، وفيروس نقص المناعة. إنني أتحدث عن أرقام كبيرة – ٥٠ مليار دولار إضافي على مدى السنوات التالية – علاوة على تسجيل تفاصيل إنفاقها. طرحنا أرقاماً حقيقية، والتزامات حقيقية، وأشياء ملموسة على الطاولة، وذلك بدلاً من الاكتفاء بمناقشات عامة يُمكن

الاتفاق عليها. كان جورج متوتّراً، أما أنا فكنت مدركاً تماماً أن الآخرين على الرغم من موافقتهم، إلا أنهم يفعلون ذلك نتيجة قناعتهم أن جورج سوف ينقذهم عندما يتبرع بإفساد كل شيء. أدركت كذلك أنه إذا وافق، فلن يجرؤ أحد على الاعتراض.

مارست ضغوطاً قوية عليه، وأقول بصراحة تامة، إن هذه الضغوط كانت أقوى بقليل، حتى أنها تجاوزت ما اعتقده القادة الآخرون مرغوباً فيه وضرورياً. كان الأمر مستحيلاً بالفعل لولا الدعم الذي قدّمه جورج، لكن حتى مع وجود ذلك الدعم فإن عقبات كثيرة ظهرت، إلا أنني كنت خارجها غالباً.

تميّز أسلوب الولايات المتحدة في المفاوضات التي تجري في القمم الرئاسية بصعوبة حقيقية، فهي جاهزة لسحق هذه القمة، أو حتى المجادلة في كل كلمة تُقال، ثم تأتي بعد ذلك في النهاية كي تجعل الجميع يشعرون بالامتنان لمجرد وجودها في المؤتمر. لا يُكسب هذا الموقف أصدقاء كثراً للولايات المتحدة، لكنها تعرف أن كل واحد يختفي وراء فنائه الخلفي. أما إذا تخاذلوا فإن أحداً لن يحارب بالنيابة عنهم، وهكذا سيضطرّون إلى المواجهة بأنفسهم. إنني أفهم هذا الأمر تماماً، لكنه يتسبب بلحظات حرجة لأي مضيفٍ للقمة، بما في ذلك أنا. فإذا كان للتصميم حظّ في النجاح فلربما أتمكن من تسوية الأمور مع جورج، لكنا كنا نتجه نحو التغيّر المناخي وإفريقيا، لكن لعله ظن أن قضية واحدة منهما تكفي كي تكون موضوعاً للقمة، بينما أردت أنا بحث القضيتين معاً.

ما إن يدخل الناس صلب عمليةٍ ما حتى يجدوا صعوبةً في الخروج منها. أدرك جورج أنه في اللحظة التي يتراجع فيها يجد نفسه في مسارٍ يأخذه بعيداً جداً، وذلك ما حدث بالفعل في ألمانيا بعد مرور سنتين. أدرك جورج أنه إذا وافق على هذه العملية الآن وأصدر بياناً يعترف فيه بخطورة التحديات، وحقيقة أنها بالفعل من صنع الإنسان، فإنه سوف يقيّد الولايات المتحدة. لم يختبئ جورج البتة وراء الكونغرس. يعني ذلك أنه لو قال إنه سيفعل شيئاً، فإنه سوف يحاول تحقيقه بالفعل بدلاً من مجرد الموافقة على الاعتراف بأن آخرين سوف يعيقونه عن تحقيق ما وعد به.

كانت قمة الثماني زائد خمسة منتدى في منتهى الأهمية لإثارة المجادلات والمناقشات بطريقة غير رسمية ما بين المسبّبين الرئيسيين للانبعاثات. إنني لم أكفّ

عن التشديد على أن من الأفضل بكثير أن يجتمع ما يزيد على مئة دولة تحت مظلة الأمم المتحدة من أجل التوصل إلى اتفاق حول المناخ إذا كانت الولايات المتحدة خارج ذلك الاجتماع، كما أن الهند والصين غير مستعدتين لقبول أي التزامات إضافية تهدف إلى تقليص الانبعاثات. هذا هو السبب الذي جعل دولاً قليلة من التي صادقت على معاهدة كيوتو، باستثناء بريطانيا، تصل إلى الأهداف التي وضعتها.

أما في موضوع إفريقيا فإنني أعرف أن من دون أرقام حقيقية فإننا سوف نسمع أقوالاً مثل «يا لإفريقيا المسكينة! إننا نهتمّ بكِ كثيراً». وردت هذه التفاهات في تصريح صدر منذ زمن، وهو كلام لا يخدع أحداً. أما بوب وبونو، وتحالف المنظمات غير الحكومية فقد أطلقوا حملةً فعالة. توجه هذا التحالف إلى كل دولةٍ بمفردها وحاول إشاعة الخوف لدى القيادات المعنية عن طريق إظهار مدى اتساع الدعم الشعبي للتحرك من أجل إفريقيا. فعل التحالف هذا بطريقة ذكية وأغدق ثناءً كبيراً على الرؤساء من أجل تشجيعهم. أدركت أن دفة المناقشات بوجود بوب وبونو سوف تكون عقلانية. أعرف كذلك أننا إذا حققنا الأهداف فإنهما سيقولان ذلك، وإن لم نفعل ذلك فسيدينان موقفنا. أعتقد أن ذلك منصف بما فيه الكفاية. أعرف كذلك أن [حزب] الخضر انتهازيون، حتى ولو حضر جورج مرتدياً ملابس من الخيش وأوراق الشجر، وحتى لو طلب الغفران بسبب ماضيه مع المحافظين الجدد، وحتى لو قال إن الأميركيين من الآن فصاعداً سوف يتخلّون عن سياراتهم كي يقودوا درّاجات صغيرة تستخدم طاقة الرياح.

أخشى أن أقول إنني بمرور الوقت أصبحت أكره ثقافة المنظمات غير الحكومية، وعلى الخصوص جماعات الخضر منها. لا أريد أن يُفهم من كلامي هذا أن المنظمات الحكومية لم تقم بعملٍ كبير، لكن المشكلة مع بعض هذه المنظمات هي أن وسائل الإعلام تعاملها على أساس أنها مواطنون مهتمون، وهي كذلك بالفعل، إلا أنها تتصرف كمؤسسات وتجمع الأموال، وتسوّق نفسها، وتتنافس مع منظمات غير حكومية أخرى تعمل في مجالها ذاته. يصعب على هذه المنظمات أن تقول إننا حققنا الأهداف التي التزمناها من دون تعريض وجودها للخطر، وذلك لأن سبب وجودها هو لتغيير سياسات الحكومات. تعلّمت هذه المنظمات أن تستفيد جيداً من لعبة وسائل الإعلام الحديثة، كما تعمد إلى رفع الصراخ كي تُسمع رأيها، أما

التوازن فهو كلمة غير موجودة في مفرداتها. إن كل ما نسمعه منها هو «الغضب»، «الخيانة»، «الأزمات». تمتلك هذه المنظمات كذلك عقيدتها المحدّدة ومفاهيمها السائدة الخاصة بها، التي تدافع عنها بشراسة إذا تحداها المرء، وهي لا تفعل ذلك بسبب قدراتها الذاتية، بل عن طريق إهانة دوافع الآخرين بتحديها. أما بالنسبة إلى إفريقيا فقد حاولت باستمرار أن أقنع هذه المنظمات بأن ترى في التجارة الحرة، وفي المساعدات مقابل التجارة، مصلحة إفريقية مهمة. استند جزء أساسي من تحالف هذه المنظمات إلى نظرية أن «العولمة هي مؤامرة الدول الغنية»، أما تحدي هذه النظرية فمن شأنه تفكيك الدعم المقدّم لها. هذا هو السبب الذي دفع هذه المنظمات إلى مقاومة العولمة.

يشبه الأمر حال الخضر مع الطاقة النووية. أما قضية الطاقة النووية فقد أصبحت القضية الضاغطة الرئيسة هذه الأيام إلى حدّ أصبح من الاستهتار الشديد معارضة تطوراتها، وذلك بالنظر إلى أزمة الطاقة والتغيّر المناخي. إنني أراهن أن عدداً كبيراً من الخضر يعرف ذلك بينهم وبين أنفسهم، لكن ليس من المنطقي التحدث بهذا المنطق وتقسيم حركتهم.

إن ما أريد أن أقوله هو أن السياسة تدخل كثيراً في المنظمات غير الحكومية، وأحياناً أكثر مما هو الحال في المنظمات السياسية، لكن أعضاءها يُعامَلون وكأنهم مراقبون محايدون، بينما الواقع هو أنهم ليسوا كذلك. أعرف أنهم، جزئياً، يقومون بحملة من أجل قضية معينة، لكنهم يعملون من أجل مصالح تهمّ منظماتهم. لا أريد أن أقول إن كل ما يقومون به هو خاطئ، وأعتقد أنهم جزء من ديمقراطية سليمة (إنني أعني ذلك حقاً هذه المرة).

كنا محظوظين في غلين إيغلز لأن الطقس كان دافئاً ومشمساً وساطعاً، واستطعنا الجلوس تحت أشعة الشمس الدافئة، أو على الأقل هذا ما فعله الآخرون. كنت أنهض قلقاً بعض الشيء، وأتنقل من تفاصيل مؤتمر الدول الثماني إلى التوقعات التي لا تنتهي حول قرار اللجنة الأولمبية، وهو القرار الذي تنتظره الحشود في باحتي ترافلغار والشانزليزيه. وبلغتنا في هذا الوقت أولى الإشارات عن النتيجة: استُبعدت موسكو، ونيويورك بعد ذلك.

زاد التوتر كثيراً، كما أن فريق المساعدين لدي قد يئس من محاولة التحدث معي عن إفريقيا والتغيّر المناخي، وذلك لأنني كنت أردّ عليهم بكلمات غير مفهومة. تبيّن لي من محادثاتي الكثيرة مع أعضاء اللجنة الأولمبية الذين يمثلون أميركا اللاتينية أن الأمر إذا انتهى إلى المفاضلة بين لندن ومدريد، فإنهم سوف يختارون مدريد (يحب الناطقون باللغة الإسبانية دعم بعضهم بعضاً). أما إذا كانت المفاضلة ستجري بين لندن وباريس فيُمكن أن يدعمونا. كانت المنافسة شديدةً جداً. كان عدد الناخبين [في اللجنة الأولمبية] قليلاً لذلك فمن الطبيعي أن يكون عدد الأصوات الموعودة للمتنافسين أكثر من عدد الناخبين. كنت أطلق ضحكةً مكتومةً في كل مرة كان سب يخبرني عن الأصوات الموعودة المؤكّدة التي بحوزته، الأمر الذي يعرفه أي شخص مرّ باللجنة الانتخابية في حزب العمال.

جاءت الأخبار عند الساعة العاشرة صباحاً بأن مدريد قد استُبعدت من المنافسة، ما يعني أنها انحصرت الآن بيننا وبين باريس، أي إن النتيجة لن تتأخر بعد الآن. خرج جو وباقي فريق العمل لمشاهدة إعلان النتيجة على شاشة التلفزيون، لكنني لم أستطع الانتظار. كنت في الخارج عندما انضمّ إليّ جوناثان بويل، لكنني لاحظت أنه هادئ على نحو غريب. لا أعتقد أنه اكترث كثيراً للأمر، وهو الذي كان يعمد إلى سدّ أذنيه بأصابعه عندما يُثار موضوع كرة القدم في مكتبي، الذي كان يحدث مرة كل يوم على الأقل، وكأنه كان يرجونا أن نتحدث عن هذا الموضوع في مكانٍ آخر، وذلك لأن لديه عملاً آخر يقوم به. رنّ هاتفه، فأسرع إلى الرد بقدرٍ كبير من عدم الاكتراث. تابع المحادثة بعد ذلك وكأن محدّثه أخبره أن موعداً ما قد تأجّل من الساعة ٤:٠٠ إلى الساعة ٤:١٥، ثم قال: «أوه، لقد فزنا، أليس كذلك؟ جيّد، هذا حسن».

أما أنا فقد قفزت بطبيعة الحال مثل طائر درّاج ينطلق في بريةٍ مجاورة. تذكرت في تلك اللحظة عندما كنت في سن الثانية عشرة واكتشفت أنني فزت بجائزة أحد المعارض في فيتس، وكيف رحت أركض حول حديقة منزلنا في ديرهام وأنا في منتهى البهجة والسرور، والارتياح بطبيعة الحال. تلاشت حينئذ مشاعر القلق ليحل مكانها الفرح الخالص. أظن أنني رقصت قليلاً حول جوناثان ثم عانقته بعد ذلك. لا

يحب جوناثان العناق بطبيعته، لكنه كان هناك فعانقته. جاء الآخرون بعد ذلك وهم يتراكضون، ورحّبوا بالعناق بطبيعة الحال.

كان ذلك نصراً عظيماً، ونصراً ممتازاً بالفعل. أقول للإنصاف، إنني أدركت أن هذا النصر، على الرغم من أن مؤتمر قمة الدول الثماني سيكون قفزةً كبيرةً لنا بطبيعة الحال، سيخفف الضغوط عني. بدأت بإجراء المكالمات الهاتفية احتفالاً بهذا النصر، كما ألقيَت خطابات أمام الجماهير المتجمعة في باحة ترافلغار. تمكّنت في ذلك الوقت من التركيز على موضوع قمة الدول الثماني بطريقة تفاؤلية وواثقة.

كان جاك شيراك أول الواصلين إلى مكان القمة. شعرت بأسف حقيقي تجاهه، كان نابعاً من القلب. خسر شيراك الاستفتاء حول معاهدة الاتحاد الأوروبي، وكانت تلك ضربة مؤلمة، وإشارة رفض من شعبه، وها هو الآن يتلقى هذه الضربة. قاد كل واحد منا حملته، وقد فعلت أناً ذلك باهتمام شديد، لذلك كانت النتيجة تحمل إهانةً مزدوجة. أعرف أنني كنت سأشعر بإحباطٍ لو كنت مكانه، إحباط شديد في واقع الأمر.

يمتلك جاك الجرأة ومهارة كبيرة، وذلك بغضّ النظر عن الأمور الأخرى التي يُمكن أن تُقال عنه. ظهر جاك في قاعة المؤتمر بكل لطف، وهنّأني شخصياً كما هنّأ البلاد، وتمنى لي كل التوفيق، بكل احترام وصدق. لا أعلم ما إذا كان غضب كثيراً بينه وبين نفسه، لكنني أشك كثيراً في ذلك.

كان شيراك وزيراً في فترة الستينيات من القرن الماضي، وكان رئيساً للوزراء عندما عملتُ في حانة في باريس قبل ثلاثين عاماً. رأى جاك كل شيء، وفي واقع الأمر بقي في السلطة أكثر من اللزوم، لكنه أظهر ميزةً واحدةً وهي أنه لا يشعر بالإحباط. إنه رائع في أوقات الهزيمة. لدى جاك كذلك ميزة عظيمة أخرى، هي أنه يبدو رئيساً، كما يتحدث وكأنه رئيس، ويعامل نفسه كرئيس. أما سياساته فهي أمرٌ آخر برأيي، لكن شخصيته هي الأهم. واجه جاك ليونيل جوسبان في انتخابات الرئاسة التي جرت في العام ٢٠٠٢، وكان جوسبان رئيس الوزراء الاشتراكي في التشكيلة الحكومية الائتلافية اللامعقولة التي أنتجها النظام الفرنسي خصوصاً وأن الانتخابات كانت قريبة. كنت متأكداً على الدوام أن شيراك هو الذي سوف يفوز، وعندما كان

يسألني الناس عن السبب كنت أقول لهم: لأنه يبدو وكأنه رئيس فرنسي، بينما يبدو جوسبان وكأنه أستاذ جامعة فرنسي، كما أن الفرنسيين يريدون من رؤسائهم أن يبدوا رؤساء، أي مثل ميتران.

كان من المفترض أن يبدأ مؤتمر القمة بمأدبة عشاء فاخرة أقامتها الملكة. تناولت أنا وجورج وشيري ولورا قبل ذلك شراباً. لاحظت أنه جاهز للمساعدة بطبيعة الحال، ولاحظت أيضاً أن شيري ولورا تستمتعان كثيراً معاً. زارنا صديقنا المشترك بيل جاميل. كان بيل يزداد ثراءً بسرعةٍ كبيرة، وذلك بعد أن اشترى امتيازات نفطية في بنغلادش لم يرغب فيها أحد غيره، وهي الامتيازات التي تبيّن أنها تحتوي على كميات نفطية فاقت توقعات الجميع. قلت بعد مغادرة بيل: «أعتقد أننا لم نوفق في اختيار مهنتنا يا جورج». وافق معي، لكن على سبيل المزاح فقط، وذلك لأن العمل في السياسة عملٌ تطوعي.

بدا الأمر وكأن جاك شيراك ليس لديه ما يكفي من المشاكل وهو الذي نُقل عنه قبل أيام قليلة مزاحه بشأن الطعام الإنكليزي، وإطلاقه بعض الملاحظات التي خلت من الحذر أمام فلاديمير بوتين وغيرهارد شرويدر، وقال إنه لا يثق بأشخاص يعدّون طعاماً سيئاً إلى هذه الدرجة. فعل شيراك حسناً عندما وضع الفنلنديين في الخانة ذاتها. لم أكترث شخصياً لهذه الملاحظات، ورأيت أنها مضحكة تماماً، لكن كان على الجميع أن يتظاهروا بأنهم غاضبون، وأن يبدوا قدراً كبيراً من الكبرياء. لم أكترث قط لكون شيراك أنكر أنه قال هذه الملاحظات، وهكذا التقت مجموعة منوعة من الطهاة المشهورين وبعض الطباخين، وبعضهم يكره الفرنسيين، مستنكرةً الهجوم الوحشي على الطعام الإنكليزي. أما الفنلنديون فأعتقد أنهم أبدوا قدراً كبيراً من الاستياء. أخبرني رئيس الوزراء الفنلندي في وقتٍ لاحق أن هذا الموضوع رافقته ضجة كبيرة في فنلندا I thought, Blimey, get a life.

جلسنا إلى مائدة العشاء مع الملكة، وما لبث رئيس الوزراء الياباني جونيكيرو كيوزومي أن أبدى سلسة ملاحظات. إن كيوزومي هو أحد أكثر الأشخاص إثارة للاهتمام من بين الشخصيات السياسية التي التقيتها، وهو بالتأكيد لا يشبه أي سياسي ياباني التقيته حتى الآن: إنه رئيس وزراء عظيم، وحيوي جداً، كما أنه ذو شخصية غير اعتيادية. قال لجاك حول المائدة بإنكليزيته المتردّدة ما إن بدأ بتناول

الوجبة الأولى من الطعام: «إسمع يا جاك، إنه طعام إنكليزي فاخر، ألا تظن ذلك؟» أتبع ذلك بقهقهات متقطعة. تطلع جاك نحوه بتهكم، واضطر إلى الانضمام إلى الدعابة، ثم أبلغ الملكة أنه لم يقل فعلاً ما نُسب إليه. «وماذا قلت؟» سألته الملكة، وكانت هي الشخص الوحيد الذي لم يسمع بهذه القصة، وهكذا اضطرّ جاك إلى شرح القصة من أولها، الأمر الذي أمتع جميع الحاضرين، وخصوصاً كيوزومي الذي أدرك أنه أصاب وتراً حساساً فاستغله من دون إشفاق، وراح يدلي بتعليقات عند كل وجبة جديدة من الطعام، بل عند تناول كل لقمة تقريباً، مطلقاً تعليقات قاسية بشأن جودة الطبخ، حتى خُيّل إلي أن جاك سوف يتناول مسدّساً من مساعده ويُطلق النار عليه.

تترافق مآدب عشاء الدول الثماني مع غرابة لافتة على الدوام، وذلك لأن الرؤساء يكونون متعبين من السفر في العادة، كما يتحتّم عليهم الحفاظ على برنامج عمل محدد، وحدث ذلك على الخصوص في غلين إيغلز. تعقد هذه القمم دوماً في بيئة رائعة، غير أن الشائعات تتناول، على الدوام، مدى هذه الروعة، لكن السؤال يُطرح عن كلفة عقد هذه القمم. أما الكلفة القصوى فهي الإجراءات الأمنية بطبيعة الحال، لكني أعتقد أن اللوم يقع، بطريقة ما على الرؤساء بالنظر إلى جرأتهم في التلاقي من أجل التحدث عن الشؤون الدولية، بدلاً من التحدث عن الشؤون التي تهمّ المحتجين من ذوي المشارب المختلفة، الذين يُمكن أن تخرج حركتهم على السيطرة إذا تُركوا وشأنهم. إن هذه القمم هي نوع من أنواع تمضية عطلة فاخرة، ومؤتمرات ورش عمل، كما أنها مناسبة سياسية كبيرة. لا يُمكن للمرء أن يتأكد من كيفية نجاحها.

تميل عشاءات الافتتاح إلى التميز بالودّ إلى حدّ كبير، حيث يتناول الرؤساء بعض الشراب حتى الإفراط قليلاً، لكن اللحظات الحاسمة تحين في الأيام التالية بعد اتخاذ قدر أكبر من الحذر والاحتراس. كان هذا العشاء مناسبةً جيدةً، واكبتها الملكة على نحو مرض، وذلك على الرغم من أن بعض الضيوف لم يعرفوا كيفية التصرف معها على النّحو المطلوب. أظهر بعض الرؤساء ودّاً كبيراً تجاهها. أريد الآن أن أقول شيئاً: لا يُفترض بالمرء أن يكون ودوداً مع الملكة، التي يُمكن أن تُظهر بعض الودّ لضيوفها، لكن لا يجدر بالضيوف أن يحاولوا الردّ بالمثل، وإلا فإنهم

سوف يلقون نظرة التأنيب. استمتعت كثيراً بمشاهدة الذين فهموا الفرق بين الملكة والرئيس والذين لم يفهموه. يُعتبر الاثنان رئيسَي دولة، لكن الملكة هي الملكة. إنها العائلة المالكة، لكن غير منتخبة. على المرء أن لا ينسى هذه الحقيقة.

عدتُ بعد انتهاء العشاء إلى جناحي لإعداد برنامج العمل. لاحظت وجود أمورٍ كثيرة تنتظر التحقيق – انقسام الآراء بشأن إفريقيا ومعارضة شديدة لمسألة التغيّر المناخي. لم أنم طويلاً تلك الليلة لكن نومي كان عميقاً، ونهضت باكراً للاستعداد لكني حافظت على حماستي، وبدأت بالتركيز أكثر فأكثر.

كان الاجتماع الأول ثنائياً مع جورج. تركنا الجميع بعد وقتٍ قصير وتناولنا الفطور معاً. أردت معرفة ما إذا كان سيخطو خطوةً إلى الأمام ويوافق على أن يكون جزءاً من حوار غايته العاجلة الوصول إلى معاهدة تخلف معاهدة كيوتو. رفض جورج التزام تاريخ زمني معين، وكان ذلك أمراً مفهوماً، لكن هل سيكون جزءاً من عملية تؤدّي إلى وضع برنامج زمني محدد؟ قال لي إنه جاء لمناقشة القضايا التي تهمّ إفريقيا.

ارتحت كثيراً عند استعراض برنامج قمة دول الثماني كافة بوجود فريق مقتدر ونشط بالفعل. يضمّ هذا الفريق السير مايكل جاي، الذي كان سفيراً في باريس، وهو الآن رئيس الدائرة الدبلوماسية. ارتحت كثيراً وسُررت عندما وافق على أن يكون خبيراً سياسياً في شؤون قمة الثماني (وهو الذي كان ممثل الحكومة في التحضيرات الخاصة بالقمة). كانت تلك الوظيفة ذات مستوى أدنى من فئته، لكن هذا الأمر أظهر التزامنا القمة، والأهمّية التي نعلّقها عليها. يتحلى الرجل بالخبرة المتنوعة المناسبة، والثقل، والإيمان.

كان يتمتع بدعم جوستين فورسيث، الذي انضمّ إليه من أوكسفام. يعني ذلك أنه أتى من إحدى حركات المنظّمات الحكومية غير المحبوبة. تبيّن لنا أنه رجلٌ رائع، وهو يعرفهم جميعاً لأنه كان واحداً منهم، كما أمكنه تحديد تكتيكاتهم، وتمكن من تحديد نقاط ضعفهم ونواقصهم بدقة، وكان سياسياً بارعاً من خارج عالم السياسة. اهتم جوستين بسياسات المنظمات غير الحكومية، بينما اهتم مايكل بسياسات الحكومات. أما السير نيجيل شينوالد، مستشاري للسياسة الخارجية في ١٠ داوننغ،

فقد تابع بعنايته سير الأمور ككل، وتابع على نحو خاص سير الأمور مع الأميركيين بطريقة لا يحسنها إلا هو.

عقدت مؤتمراً صحفياً قصيراً مع جورج. تعيّن عليه شرح سبب صدمه لرجل شرطة بينما كان على دراجته في مساء اليوم المنصرم. يُمكن لهذا الأمر أن يحدث مع جورج فقط. تحدّث جورج مع الشرطي في المستشفى، وكان متأسفاً جداً للحادث، لكن وسائل الإعلام تعاملت مع الأمر برمّته وكأن جورج حضر إلى غلين إيغلز لغاية وحيدة وهي العثور على شرطي اسكتلندي بغية طرحه أرضاً، بل إنه كان يتمنى لو أنه عثر على مجموعة أخرى من رجال الشرطة كي يطرحها أرضاً.

لم يُفلح أي شيء في إفساد مزاج البهجة السائدة. تطلب الأمر بعض التشجيع من أجل جمع ممثلي الدول الثماني، الأمر الذي كان سيشكّل علامةً فارقةً في تاريخ هذه المؤتمرات. أدركت المخاطر المترافقة مع جعل هذه القمة تهتمّ بما يُمكن للدول الكبيرة والقوية أن تفعله للعالم، أو مع تخلّيها عن دورها الاقتصادي التقليدي. أدركت كذلك أن هذه هي المغامرة المناسبة التي يُمكن أن آخذها. شعرت بثقةٍ كبيرة تعاودني بالنسبة إلى صحة حكمي على الأمور، وبإيماني بقدري.

سرت خطوات قليلةً نحو غرفة الصحافة الصغيرة حيث كان من المقرر أن ألتقي الرئيس الصيني هو، الذي تصرّف بطريقة رسمية جداً لكنه كان متمكناً جداً من كلمته، وأعتقد أنه كان محترماً بشكلٍ كبير. بدأنا جلستنا عندما طلبت إليه تعيين شخص يمكننا الاتصال به بصورة غير رسمية بحيث تتمكن العلاقات البريطانية الصينية من الوصول إلى مستوى جديد، وذلك بعد أن تحسنت جذرياً منذ إعادة هونغ كونغ إلى السيادة الصينية. قدّم لي هو اقتراحاً، واتفقنا ثم انتقلنا إلى برنامج عمل مؤتمر الدول الثماني.

كانت الصين مترددةً جداً في الانتقال إلى موضوع التغيّر المناخي لأنها كانت تحاذر التزامات لا تناسب مرحلة تقدمها الاقتصادي. كان الصينيون يخشون أن يُضطرّوا إلى قبول شيء يناقض أهمّ أولوية عندهم: النمو. كانت نسبة تفوق ٦٠ بالمئة من السكان تعتاش من الزراعة (أما في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي

فتبلغ هذه النسبة نحو ٣ بالمئة) كما أرادوا نقل ملايين الأشخاص من الأرياف إلى المدن. كان ذلك عملاً مستحيلاً من دون نموّ اقتصادي وصناعي قوي، الأمر الذي يستدعي استهلاكاً أكبر للطاقة. ضاعف الصينيون استهلاكهم من الفحم في الفترة ما بين العامين ٢٠٠٠ و٢٠٠٦. كانوا يعرفون أن موافقتهم على أن يكونوا جزءاً من حوار يهدف إلى التوصل إلى اتفاقية في نهاية الأمر كانت أمراً أقل براءة مما يبدو. هذا هو السبب الذي دفعهم إلى أخذ جانب الحذر الذي يُمكن فهمه، ومع ذلك كانوا يستشعرون أنهم أقوياء، ويتحسّسون المسؤوليات التي ترافق هذه القوة، كما أدركوا أنهم لا يستطيعون أن يكونوا خارج نادي الدول الكبرى وداخله في الوقت ذاته. ظننت أن بإمكاني إدخالهم هذا النادي من دون الضغط overegg عليهم، أو إعطائهم أدواراً ليسوا مستعدين لها.

مضت خمس عشرة دقيقة، وما لبث جوناثان أن ناولني ورقة، ورد فيها أن حادثاً وقع في مترو الأنفاق، مع احتمال وقوع إصابات، وقد يكون ذلك حادثاً، أو لا. أنبأني حدسي أنه ليس بحادث.

غادر جوناثان القاعة فجأة، ثمّ عاد وأمارات القلق ظاهرةً على وجهه. اعتذرت من الرئيس هو، وأبلغته ما ورد في الورقة، وسألت جوناثان ما إذا كان لديه معلومات إضافية.

قال لي: «حدث أكثر من انفجار واحد».

يا إلهي. تمنيت أن لا يكون ذلك عملاً إرهابياً، ليس على هذا النحو وليس هنا. إنه ما كنت أخشاه على الدوام، وهو أمرٌ واضح بالنسبة إليهم، لكنه يثير الانقسام عندنا. أما الآن، وفي هذه اللحظة بالذات، فإن هناك أشخاصاً لا أعرفهم تغيّرت حياتهم إلى الأبد، وربما انتهت إلى الأبد. انتهى العالم مع انطفاء آمال إنسان، وأحلامه، وطموحاته. انتهى العالم لأسباب لن يعرفوها أبداً، ولن يفهموها أبداً، ولن يستيطعوا المجادلة بشأنها. إن الإرهاب هو أقصى درجات الظلم: أي استهداف الأبرياء، لأنهم أبرياء.

نهضت مستأذناً الرئيس لكنني اضطررت إلى الانصراف والتحقق من الأمر. أمسكت بالهاتف المحمول الذي أعطاني إياه جوناثان في طريقي إلى غرفتي،

وتمكّنت من الحصول على تفاصيل قليلة. التقيت جورج الذي سمع الأخبار بطبيعة الحال. سألني مستفسراً: «هل هو هجوم إرهابي؟».

قلت له: «ربما يكون حادثاً». تبادلنا النظرات، مدركين أن الأمر ليس كذلك.

علمت حتى ذلك الحين بوقوع ثلاث هجمات في مترو أنفاق لندن في ذروة الازدحام. تحدثت مع تشارلز كلارك فوجدته بحسب ما توقعت تماماً: مركّزاً من دون أيّ ذعر، ومحاولاً التفكير في ردّ منطقي. تضمّنت الردود إغلاق شبكات المترو، ومحطات القطارات بطبيعة الحال، لكن ما هي الاحتياطات الأخرى المحتملة؟ وما هي المساعدة التي يُمكننا تقديمها إلى خدمات الطوارئ؟

سألته: «ما هو عدد الإصابات؟».

قال لي: «لا أعرف».

ـ «هل وقعت وفيات؟».

ـ «أخشى أن يكون هذا مؤكداً؟».

ـ «وكم عددها؟».

ـ «لا أعرف».

إنها أسئلة غامضة، ولا أحد يمتلك أجوبةً غامضةً عنها.

ظننا في البداية أن الأمر يتعلق بعددٍ قليل من الناس، لكنني أدركت أن كل واحد منهم يمثّل مأساة، لكنها أقل من المأساة الأسوأ. أما الأسوأ فكارثي في مثل ذلك الوقت من اليوم، وبين آلدغايت وشارع ليفربوول، وباحة رسل وتقاطع الملك King's Cross، وطريق إيدجوار وبادينغتون، وكلها خطوط مزدحمة جداً.

تلقينا عند نحو الساعة العاشرة أنباء عن وقوع انفجار رابع على حافلةٍ لنقل الركاب كانت تمرّ في باحة تافيستوك الواقعة إلى الجنوب من آبر وبرن بلايس، وهو مكان تعوّدت أن أزوره بانتظام عندما كنت محامياً في طريقي إلى المبنى القديم لمحكمة العمل [التي تفصل في النزاعات بين إدارة الشركات والعمال Industrial Tribunal]. فكّرت، ببساطة، في تلك الأوقات كلها التي كنت فيها هناك وتصوّرتها

في ذهني. تخيّلت الحافلة التي طار عنها سقفها، والأطراف المتناثرة، والعظام، والدماء المنتشرة في كل مكان. تساءلت من أجل ماذا حدث ذلك كله؟ هل كان ذلك باسم الله؟

تلاطمت في ذهني مشاعرُ الغضب، والتعاطف، والعزم وتقاطعت جميعاً. أخذت نَفَساً عميقاً. مستبعداً الأحاسيس كي أتمكّن من التفكير. أردت كذلك تقدير حجم الكارثة، وفهم مشاعر سكان البلاد، ولكن بطريقةٍ تتركني حراً كي أصفها بدقة، ولا أشعر بها إلا في حدود وصفي لها، وذلك حفاظاً على صفاء ذهني. هل يتعيّن عليّ ترك مؤتمر قمة الدول الثماني؟ هل يتعيّن علينا إلغاؤها؟ وكيف يمكنني ترؤسها وأنا أنتظر ورود الأخبار؟ وهل نعطي العدوّ فرصة النصر عن طريق تغيير الترتيبات؟ أم هل نُظهر عدم وقوفنا مع الضحايا إذا استمررنا في القمة؟

أعرف كم يحمل هذا الكلام من قسوة، لكن تعيّن عليّ إجراء الحسابات. سيتوافر لي وقتٌ كافٍ للبكاء فيما بعد. لكنني الآن أنا الرئيس، ولذلك يجب عليّ القيام بالقيادة.

تمكنا، ببطء، ومن خلال عملية سقراطية تفرض نفسها في أوقات الأزمات من وضع خطة. اتضح لنا مدى جسامة الكارثة: لم تكن تلك الكارثة الشاملة، لكن سقط اثنان وخمسون قتيلاً، وعدد آخر من الجرحى، ويعلم الله عدد الذين أصيبوا بالصدمة من جراء هذه الهجمات. إنهم اثنان وخمسون شخصاً لهم أسر، وأصدقاء، وصديقات، وأولاد. اثنان وخمسون شخصاً كانوا منغمسين في مشاغل الحياة المختلفة. اثنان وخمسون شخصاً من الذين نهضوا في الصباح من دون أن يعرفوا أن هذه هي آخر مرة يستيقظون فيها ليودعوا أحباءهم بقبلة.

اتصلت بالرؤساء الآخرين جميعاً وشرحت لهم الموقف. وقعت في حيرةٍ حقيقية بشأن مغادرة القمة. أدركت بعد ذلك الأمر بوضوح: كان عليّ أن أعود إلى لندن. لكن الأمر لم يكن كذلك في ذلك الحين. أظهر جاك أكبر قدرٍ من التعاطف، وقال لي: عليك أن تعود لأن الشعب البريطاني سيتوقع ذلك. سألته، وماذا بشأن القمة؟ اتفقنا بعد ذلك على أن يترأسها السير مايكل جاي.

تحدثت قليلاً مع وسائل الإعلام وقلت لها إنني سوف أصدر بياناً في وقتٍ لاحق

في داوننغ ستريت فور معرفتي الحقائق كافة. تكفّل تشارلز بالاهتمام بالمجلس the House. استقللت متن حوامة تابعة لسلاح الجو الملكي طارت بنا من مطار دوندي إلى نورثولت، ومن هناك إلى داوننغ ستريت.

تتخلل أوقات المآسي الكبرى لحظات قد تبدو مضحكة. سألني السفير الفرنسي، جيرار إيريرا، ما إذا كان يستطيع ركوب الطائرة معنا. قبِلَنا ذلك بطبيعة الحال. سألنا المضيف قبل الهبوط ما إذا كنا نريد طلب شيء نأكله، وذلك لأننا لم نتناول الغداء ولهذا شعرنا بالجوع. لم يتوافر لنا وقت كثير لتحضير أي شيء، لذلك اشتمل غداؤنا على طبق من طعام خفيف غير طازج، وبعض الفستق المملح غير اللذيذ، علاوة على شطائر قليلة تأبى القطارات البريطانية تقديمها في أيام ذروة الازدحام. تطلع إيريرا نحوي، وما لبث أن ارتعش وجهه. تساءلت ما إذا كنا قد قدّمنا بذلك مساعدة غير مقصودة إلى جاك شيراك في هجومه على الطعام البريطاني، وهكذا سيكون إيريرا أول شاهد للدفاع.

وصلنا إلى داوننغ ستريت وانشغلنا بكل جهد، وعلى الفور بجمع الحقائق، كما دعوت لعقد اجتماع طارئ للمكتب الإعلامي الحكومي. أما أسوأ شيء فكان عدم معرفتنا بكل ما يجري في الخارج. هل انتهت الهجمات. مَن نفّذ هذه الهجمات، ولأي سبب؟ كان من الواضح أنها من تنفيذ أشخاص تابعين لشبكة القاعدة، لكن من نفّذ هذا الهجوم بالتحديد، وهل هم جماعة محلية أم خارجية؟ مضى بعض الوقت قبل توصّلنا إلى أجوبة عن هذه الأسئلة. أمضينا أسابيع عديدة بعد ذلك تلقينا خلالها تهديدات بشنّ هجماتٍ جديدة، كما تلقينا معلومات عن وجود نية لتنفيذ هجمات كهذه. كان الأمر بمثابة كابوس. كانت كل مكالمة من هذا النوع كافيةً لدفعنا إلى إغلاق المطار، أو إيقاف شبكة المواصلات، أو إغلاق مراكز المدن الكبرى. حدثت مأساة قتل الطالب البرازيلي جان شارل دي مينزيز يوم ٢٢ تموز/ يوليو، تبيّن أنها ناتجة عن خطأ فظيع، لكنني شعرت بالأسف الشديد على الضباط الذين كانوا يتحركون بنيةٍ طيبة محاولين الحفاظ على أمن بلدهم. عقدنا في إحدى المرات اجتماعاً للمكتب الإعلامي الحكومي وذلك للبحث في آخر تهديد تلقيناه، على الرغم من أن هذه المعلومات بدت هشّة بعض الشيء. صعُب علينا تجاهل هذه المعلومات. كان يجب إيقاف شبكة المترو مجدّداً. كنا أمام أمرين: إما التحرك وإما

التجاهل. تطلعت من فوق الطاولة، وأخيراً سألت إيان بلير، مفوض شرطة المدينة، الذي قام بعملٍ رائع خلال الهجمات وبعدها، عما يجدر بنا عمله. قال لي: «أخشى أن أقول إن هذا هوَ قرارك أنت». قرّرت عدم القيام بأي شيء، لكني أمضيت ليلة قلقة جداً لم أذق فيها طعم النوم، وخصوصاً عند حلول موعد التهديد المحدد.

فكرت طوال طريق عودتنا من اسكتلندا في كيفية استجابتنا كأمة. تكفل جوناثان، وتشارلز، وآخرون في صوغ الردّ الفوري والمفصّل. أما أنا فتعيّن عليّ التركيز على كيفية التعبير عن مشاعرنا وأفكارنا كأمة. لا يتعلق الأمر هنا بالتعبير عن العواطف، أو التعاطف مع الآخرين كما يقول الناس ببساطة مفرطة في حالاتٍ كهذه، بل بتحديد المشاعر بحيث يُمكن صوغ الرد والسيطرة على العواقب. كانت عواقب مصرع اثنتين وخمسين ضحية بريئة كبيرة جداً في هذا الهجوم الذي يُعتبر أسوأ هجوم إرهابي تعرضت له المملكة المتحدة على الإطلاق، وهو أسوأ من أي هجوم قام بهِ الجيش الجمهوري الإيرلندي خلال أربعين عاماً من الاضطرابات.

يُمكن أن يستجيب الناس بطرقٍ مختلفة: ستنتظم جماعات معادية للمسلمين، وسيتكون رأي يقول إن اللوم كله يقع على بلير وبوش (أمكنني توقع هذا قبل وسائل الإعلام)، لكن الأسوأ من ذلك كله هو الإحساس باليأس وبالمأساة. كيف أمكن لهذه الهجمات أن تنفذ، في لندن بالذات، وهي تجسيد للمدينة المتعددة الثقافات، التي تلقت تكريماً فورياً تمثّل باستضافة الألعاب الأولمبية. يُضاف إلى ذلك شخصية هذه المدينة المنفتحة، والودودة وغير المنحازة؟ إنه أمر لا يصدق: نصرٌ تتبعه مأساة.

تكون عندي اقتناع بأن ردّ الفعل الأولي للشعب البريطاني من المسلمين والمسيحيين جميعاً، سيكون الاتحاد ورصّ الصفوف ضد المتطرفين، ورفض التمييز في سبيل التضامن. أدركت أن بعد فترة ستتكوّن مشاعر أخرى: الغضب والمطالبة بالتحرك من أجل منع احتمال وقوع هذه الهجمات مجدداً، وذلك عن طريق إجراءات مشدّدة بما في ذلك تشريع قوانين جديدة. أحسست بقوةٍ تدخل روحي في موضوع الحريات مقابل القوانين المضادة للإرهاب. أما عندما وصف اللورد هوفمان القوانين المضادة للإرهاب على أنها تهديد للبلاد أكبر من تهديد الإرهابيين، فلم أتمكن من التصديق، وحرتُ كيف أن رجلاً عاقلاً مثله يتمكن من التفوّه بهذه التفاهات. أدركت عندئذ أن هناك معركة مقبلة.

أدركت أن أول شيء يتعيّن عليّ عمله هو توحيد البلاد، وهكذا حاولت في البيان الذي أصدرته من داوننغ أن أفعل ذلك، وأعتقد أنني نجحت في ذلك عموماً. وجّهت تحية خاصة، إلى السكان المسلمين في بريطانيا. ساورتني شكوك في ذلك الوقت في بعض زعماء الجالية إذ كيف يواجهون، أو على الأصح لا يواجهون، هذا التطرف، لكن الوقت لم يكن مناسباً للخوض في هذه الشكوك. كان ذلك هو الوقت المناسب للسماح للروح الأولمبي بتظليل البلاد، واختراق الكارثة كما يخترق الفوز.

عدت في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة إلى غلين إيغلز. فعلنا كل ما في وسعنا لإظهار تعاطفنا مع ضحايا هذا العمل الإرهابي البشع. تعيّن علينا الآن إظهار أن مجموعة الدول الثماني الكبرى هي طريقتنا في ممارسة السياسة، وأن هذه هي قضية مهمة أيضاً. أما المقابلة بين طريقتنا وطريقة الإرهابيين فهي هامة جداً. توجّب علينا مكافحة الإرهاب، ليس عن طريق رجال الشرطة، والاستخبارات، والوكالات الأمنية فقط، بل كما سبق لي أن قلت مراراً إنها معركة أفكار. لا أعلم ما إذا كانوا قصدوا توقيت الهجمات كي تتزامن مع قمة الدول الثماني، لكنها حدثت في الوقت ذاته، ولهذا تعيّن علينا إجراء تلك المقابلة على نحو واضح: السياسة الحسنة مقابل الشرّ. إنه أمر واضح، وبسيط. لا يُمكن لأي شخص إنكاره إلا إذا كان ذميماً.

اتضح لي في وقت عودتي أن الهجمات الإرهابية قد تركت آثاراً طيبة عند الرؤساء. كانت ردة فعلهم رائعة، وهم فعلوا ذلك بتضامنٍ كامل. اتخذ الزعماء قراراً جماعياً ضمنياً بدعم جدول أعمال القمة والحصول على نتيجة. اتفق الرؤساء على البنود المتعلقة بإفريقيا، كما تم إقرار مبدأ حوار G8 زائد خمسة. أما مايكل جاي فقد قام بدوره بمهارةٍ كبيرة. قام الرؤساء بهذا كله نتيجة اشمئزازهم من الرعب الذي رافق الهجمات. لم نتمكن من الحصول على كل ما أردناه، لكن مايكل جاي قال إننا سنحصل على ثمانية بنود من أصل عشرة. صدّقوني عندما أقول بالنسبة إلى مؤتمر قمة، أعني أي قمة وخصوصاً قمة الدول الثماني، إن هذه هي نتيجة حقيقية. وضعت القمة في نهاية الأمر معياراً جديداً لهذه القمم، وهكذا اعتُبرت تاريخية عن حقّ.

اجتمعنا في اليوم التالي لعقد الجلسة الأخيرة وإصدار البيان الختامي. خطرت في ذهني فكرة إصدار بيان أعدّد فيه إنجازاتنا كي نضعها مقابل الإرهاب، وهي

الإنجازات التي نقوم بها معاً، أي جميع قادة العالم المتحدين، بحيث نوقّع ذلك البيان رمزياً كي نعطي أهمية ومصداقية أكبر للحدث. هذا ما فعلناه بعد مرور ثمانٍ وأربعين ساعة على سماعي نتيجة اختيار مكان الألعاب الأولمبية، وبعد مرور يومين على تلك الأحداث المضطربة الاستثنائية التي مرّت بي في حياتي السياسية.

أما بالنسبة إلى إفريقيا فقد وافقنا على خطة تحركٍ شاملة تستند إلى مفوضية إفريقيا. تمكنا من إقرار تحريك مبلغ ٥٠ مليار دولار من المساعدات، وإلغاء الديون، والتزامات مكافحة الآيدز والملاريا، والإدارة ومكافحة الفساد.

أما بالنسبة إلى التغيّر المناخي فقد اتفقنا على البدء بحوار الدول الثماني زائد خمسة، وذلك من أجل هدفٍ واضح يقضي بالتوصّل إلى اتفاقية عالمية تتمكن في البداية من إبطاء الانبعاثات، وتخفيضها بعد ذلك.

اتفقنا كذلك، وللتعبير عن حسن النية، على حزمة من المساعدات للسلطة الفلسطينية.

لكن أهمّ ما في الأمر كان حرصنا على الدفاع عن الممارسة السياسية الصحيحة. شعرنا جميعاً – وعلى الرغم من كل المظاهر التي أحاطت بالقمة من بذلات أنيقة وأمتعة منوعة، والكلمات المهذبة التي وردت في البيان الختامي، والمناظر البديعة المحيطة بنا، وكلها بدت من متمّمات السياسة كالعادة– بأننا نتمتع بالحنكة والصلابة إزاء معظم المشاعر السياسية، ويصدق هذا على ما كنا ننجزه.

عقدتُ مؤتمراً صحفياً في حديقة الفندق. سمعت خلاله أحد الأشخاص المنتمين إلى منظمة غير حكومية وهو يتحدث بتفاهات عن خذلاننا لإفريقيا، كما سمعت ذلك الرد الاستثنائي من بوب الذي كاد أن يحطم فيه رأس ذلك الشخص لكونه سلبياً، ثم لحقه إلى آخر ممر القاعة الصحفية، كما استمرّ بإطلاق الشتائم على طريقة الرجال الإيرلنديين الغاضبين.

أقدمت كذلك على تسجيل مقابلة مع جيم نوتي في إطار برنامج توداي. إنني معجب بجيم، لكني كنت أعرف إلى أين يريد أن يصل بالمقابلة: كان من الممكن تجنّب الهجمات لو لم ندخل العراق. كانت تلك المقابلة بمثابة كابوس، لأننا، وعلى مستوى معيّن، إذا لم نحارب أولئك الأشخاص فمن المحتمل أن لا يضعونا في قائمة

أعدائهم. سألني: لكن ما علاقة ذلك بكيفية تحديد سياستك الخارجية؟ أدركت أنني إذا أعطيت مصداقية لهذه الحجة، مهما كانت ضئيلة، فإن اللوم كله سوف يقع علينا، وليس عليهم، وهو ما يريدونه بكل تأكيد.

ارتحت كثيراً في تلك اللحظة لمجرد تجنب مواجهة هذه الحجة مباشرة. لم يكن هناك من فائدة في إظهار الغضب الذي شعرت به، لكنني شعرت بأن هذا الجدال برمّته يتجه إلى موقع جديد، وهو موقع أجد فيه نفسي معزولاً جداً، ومتراجعاً ليس بالنسبة إلى الحزب فقط، بل بالنسبة إلى الشعب. شعرت بذلك على مستوى واسع، أي على مستوى البلاد، وعلى مستوى شخصيتنا. لم أشعر بذلك بالترافق مع الخشية من السقوط السياسي، على الرغم من أنني أحسست بأن ذلك هو أمر وشيك الحدوث، لكنني أحسست به بطريقة أقل رعباً وأكثر إيلاماً.

امتلكت رؤية بالنسبة إلى بريطانيا. آمنت منذ البداية أن باستطاعتي إقناع البلاد بأن خيارنا كان صحيحاً، وهو خيار الطريقة الحديثة، أي بريطانيا الجديدة بالترافق مع حزب العمال الجديد. تعلّق ذلك بشيء يتعدى العراق، ويتعدى التحالف مع أميركا، وأكبر من أي شيء آخر بمفرده. إنه يتعلق برؤية كاملة لموقعنا في مطلع القرن الواحد والعشرين، وكذلك لكيفية تمكننا في النهاية من تخطي عظمة تاريخنا كي نكتشف الإمكانية الكاملة لمستقبلنا.

لكني لم أكن متأكداً في تلك اللحظة من قدرتي على الإقناع، ولم أكن متأكداً أن الناس سوف يقتنعون من كلامي بعد الآن. كانت القوى التي تحالفت ضدي كثيرة جداً، لكني إذا واجهت بقوة فسوف يتسبب ذلك بالانقسام والمرارة، ولكي أكون صادقاً أكثر سيتسبب بألم شخصي، هذا في وقتٍ أستطيع فيه تجنبه.

شعرتُ بذلك كله، لكني وضعته جانباً لأفكر فيه في وقتٍ لاحق. أما الآن فقد شعرت بالارتياح لأن الأسبوع قد انتهى، وهو الذي بدأ بانتصار، لكنه ما لبث أن غلّف بمأساة قبل أن ينتهي بإظهار أحسن ما في عالم السياسة.

فكرت في الانطباع الذي سيتركه هذا الأسبوع فيما بعد. ستنظر إليه بعض العائلات بوصفه فترة من أقصى درجات الحزن. لكن ثمة عائلاتٍ أخرى في إفريقيا، ليست على علمٍ بالجهود التي بذلناها من أجل تخليصها من الفقر، والجوع،

والنزاعات، والأمراض، والموت الذي يودي بحياة العشرات من الناس، بل بالملايين منهم.

دخلت من خلال باب الشقة في مساء يوم الجمعة ذاك، وتطلعت إلى ليو الذي ينام في غرفته، ثم سكبت كوباً من الشراب، وقررت مشاهدة أحد الأفلام، وهو أمر يساعدني على النسيان. حاولت التركيز على الأمور العائلية التي كانت شيري تسألني عنها، وذلك في محاولة مني لنسيان الأمر برمّته. حاولت تحرير نفسي من القلق بشأن الأمور التي قد تحدث لاحقاً، والتفكير في المكالمة التالية التي ستصلني، وفي قصاصة الورق التالية التي سوف أتسلّمها، وفي المواجهة التالية، وفي الموجة التالية من الخوف.

تأملت الطبيعة الرهيبة لثقل المسؤولية الملقاة على عاتقي، وكل الألم والإثارة. إنها السياسة: قضايا نبيلة، ووسائل وضيعة، وخطط يضعها المرء وأحداث تقلبها رأساً على عقب، ومآسٍ غير معروفة ومحاولات غير كافية من أجل التخفيف منها. صعدت إلى الطابق العلوي وتطلعت إلى ليو ثانية، إذ كان لا يزال يغط في نومٍ عميق، وهو الذي تنتظره حياة برمّتها.

كم سيتجمع من مشاعر الانتصار، ومن المآسي؟ وكم من الدموع سوف تراق، ولأي هدف؟ تذكرت والدتي. لقد تجاوزت الثانية والخمسين، وهي العمر الذي ماتت فيه. أفكّر الآن أنها ماتت في عزّ صباها. سألتها عندما كنت في العشرين من عمري، وكانت هي مريضة وتعرف أن ساعة رحيلها قد اقتربت، ما إذا كانت ترغب في العودة إلى مثل سنّي لتعيش ثانيةً إذا استطاعت. أجابتني: «كلا. كلا، إنه الألم الشديد. لا أريد أن أعانيه ثانية».

«لكنك كنتِ سعيدة في الحياة يا أمي، أليس كذلك؟».

«أجل بالطبع. لكن كلا، لا أريد تكرار التجربة. لا، قطعياً».

أدركت الآن ما كانت تعنيه حينئذ: لم تقصد أنها تفضّل الموت، وبالطبع لم يكن الأمر كذلك، لكنها كانت تعني أن تعيش التجارب كلها مجدداً، والقلق كله، والطموحات التي يسعى المرء إلى تحقيقها، والأحلام التي يعلم بأنها لم تتحقق، وذلك السعي كله... هذا هو الهدف من الحياة: أن نسعى.

كان من الممكن أن يكون ليو في قطار الأنفاق ذاك، أو في تلك الحافلة. يا الله، لا تجعل أولادي يموتون قبلي. فكرت في هذا الحزن كله الذي يسبّبه هذا الأمر، وفي آباء وأمهات الجنود الذين ماتوا في العراق، وفي أفغانستان، وفي أناسٍ آخرين كذلك من الذين دُفنوا تحت ركام أبنية بغداد أو قندهار.

فكّرت في الرعب، وفي مسؤولياتي.

أغلقت باب غرفة ليو بهدوء، وتوقفت للحظة كي أتخلّص من هذا العبء كله. أردت أن أنسى لفترة وجيزة إلى أن يحين الوقت كي أحمله مجدداً.

الفصل التاسع عشر
المواجهة

كانت آخر سنتين أفضل فترة، وأسوأ فترة، أمضيتهما في منصبي. كانتا أفضل فترة لأنني شعرت في هذا الوقت بأنني تحررت، وبأنني أصبحت أقوى وأكثر استعداداً لمواجهة أي شيء. كانتا أسوأ فترة لأنني شعرت بهذا الشعور بالذات. كان الحزب يغلي في هذا الوقت لأن غوردون بقي في حالة دائمة من التخطيط. أما وسائل الإعلام المضادة لبلير (أو معظمها) فقد أعطت انطباعاً بالموضوعية. كان العراق يترنّح على حافة الهاوية، لكن ما زاد الطين بلّةً هو أن الشرطة فتحت معي ومع فريق عملي عندما بدا أن شيئاً لا يسير على ما يرام، تحقيقاً كاد يودي بالحكومة، لكن من دون أن يتضمّن ذلك توجيه اتهامات. إنني أعود الآن بتفكيري إلى تلك الأيام وأفكر: كيف تمكّنت من الصمود طوال تلك الفترة؟

كنت أحاول في ذلك الوقت التسلّح بنوع من أنواع الدروع النفسية التي تتمكن من ردّ السهام عني بسهولة، وتسمح لي بتحقيق نوعٍ من الخفّة التي تجعلني أعوم فوق تلك الحملة الشيطانية التي تنهش أطرافي.

ترافق الأمر مع جرأة كبيرة، وتفكير في ذلك كله بفخر كبير. كنت قلِقاً لأن الحالة كانت تستدعي إما الانسحاب وإما المواجهة. أتذكر أن أحد الأصدقاء في منطقتي أخبرني منذ سنوات، وهو كان متعوداً جيراناً يُظهرون بعض الخشونة ما يلي: قف منتصباً، ولا تتراجع إذا تورطت ذات مرة في شجار. يعتقد بعض الناس أنهم إذا

خفضوا هاماتهم إلى الأرض فإن الآخرين سوف يتركونهم، لكن ذلك لا يحدث لأنهم سوف يركلونهم على الرأس، وعلى الأغلب سوف يقتلونهم. نصحني محذّراً بأن أبقى واقفاً على قدميّ، مع أنهم سوف يلحقون بي بعض الضرر إلا أنني سأنجو.

لحقَ بي بعض الضرر على وجه التأكيد، لكني بقيت واقفاً على قدميّ وأنجزت الكثير.

حدّدت، بطريقةٍ أو بأخرى، منتصف العام ٢٠٠٧، وهو موعد انتصاف مدة البرلمان، على أنه الوقت المناسب للرحيل، لكنني كنت مستعدّاً لمغادرة منصبي في وقتٍ أبكر إذا ما تعاون غوردون، وفي وقت متأخر عن هذا الموعد إذا لم يتعاون. غير أن غوردون لم يتعاون بالفعل، أو أنه فعل ذلك بطريقة لم تقنعني بأنه سوف يتابع البرنامج الإصلاحي على النحو المطلوب. لكني اضطررت، على الرغم من ذلك كله، إلى ترك المنصب بعد تمرد أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٦، وهو ما سأتحدث عنه لاحقاً.

شعرت بثقة غامرة بالإنجازات على الرغم من هذه الصعوبات كلها. كان من الأفضل بطبيعة الحال لو أنني بقيت لسنةٍ، أو لسنة ونصف سنة إضافية من أجل تثبيت البرنامج الإصلاحي أكثر فأكثر، ولكان ذلك أفضل بالنسبة إلى الحزب وإلى البلاد. أقول على الرغم من ذلك كله إن ما أنجزناه كان مهماً، وسوف يبقى.

كان سبب كل هذه الثقة التي شعرت بها أنني أمسكت بزمام البرنامج السياسي. تمكّنت من وضع وزراء في مناصب أساسية فهموا جيداً ما كنت أحاول القيام به، والسبب الذي يدفعني إلى ذلك. كان البرنامج يتعرض دائماً للإعاقة من قبل جيراننا [الوزارة المجاورة لمقرّ رئاسة الحكومة]، إلا أنني كنت أعرف أن غوردون كان قلقاً حيال دفع البرنامج بعيداً جداً خوفاً من أن تُقدم الصحف التابعة لمردوخ وصحفٌ أخرى على الاستنتاج أنه ضد الإصلاح بدلاً من الاكتفاء بالشك.

كانت كل خطوةٍ أخطوها بمثابة معركة، لكني اكتسبت في هذا الوقت صلابةً تساعدني على مواجهة الصعاب، وهكذا كنت مستعداً لأنهض كل يوم متحضّراً للمواجهة، وأخرج لمحاربة أي شيء يعترض طريقنا. لم أكن خائفاً بالضبط، لكني كدت أصل أحياناً إلى حدّ التهوّر بشأن سلامتي السياسية.

لم يكن السبب عدم استخدامي المناورات السياسية العادية كلها من أجل إيجاد مخرج، وذلك لأنني قدّمت تنازلات تكتيكية فريدة هنا وهناك. تمكنت، عموماً، في تلك الفترة، ولأول مرة منذ أن توليت منصب رئيس الوزراء، من الحكم بحسب ما أفكّر فيه حقيقةً أنه مناسب للسياسة الداخلية، وكذلك السياسة الخارجية. كنت جاهزاً في أي وقت كي أعترف بالهزيمة وأغادر منصبي، لكنني لم أكن جاهزاً لأن أتزحزح عن أهدافي الاستراتيجية الأساسية.

كتبت في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٦ دراسةً تحضيرية للاجتماعات التي عقدتها أنا وفيليب وآلاستير مع غوردون، وإد بولز، وإد ميليباند وسو ناي. قصدت إشراك هؤلاء جميعاً، وتعمدت بسط الأفكار، وحاولت إقناعهم بالفعل. عرضتُ عليهم مراراً أن أستقيل وفق شروط معقولة، وإذا ما توافرت علاقات مناسبة. لكنني أصبحت أكثر إصراراً في هذا الوقت على عدم الاستقالة طواعية إلا إذا اتضح لي أن برنامج الإصلاح سوف يستمرّ.

وضعت في الدراسة التي أعددتها في شهر شباط/فبراير خطة توضح كيفية عملنا، ثم استعرضت برنامجاً مستقبلياً محتملاً لكل بند من البنود. أطلقت إضافة إلى ذلك إجراءً داخلياً أُطلق عليه اسم تقييم المدخرات الأساسية إثر معارضة كبيرة من وزارة الخزانة. كانت الغاية من تقييم المدخرات الأساسية هي الوصول إلى النقطة التي تمكّننا من تخطي العوائق التي تحول دون الاستثمار في الخدمات العامة، ومن التركيز بدلاً من ذلك على حكومةٍ أصغر، وأكثر استراتيجية. كان ذلك في رأيي أمراً مناسباً، وحاسماً، في التعامل مع «الدولة الأوسع» ومناقشات مسألة «الضريبة والإنفاق»، التي كنت متأكداً أنها بمرور الوقت سوف تنجح في تمزيق تحالفنا السياسي في البلاد، أي إن ذلك سوف يُضعف قدرتنا على الفوز في الانتخابات. عدت مجدداً إلى الحجّة التي تحدثت عنها سابقاً خلال انتخابات العام ٢٠٠٥.

لقي برنامج تقييم المدخرات، ويالللأسف، معارضةً شديدةً في كل خطوةٍ من خطواته بحيث أنني عجزت عن وضعه موضع التنفيذ قبل مغادرتي المنصب، وهو البرنامج الذي اعتمد كلياً على تعاون غوردون.

مضت بقية بنود البرنامج الإصلاحي، على الرغم من ذلك كله بسرعة. أما بالنسبة

إلى برنامج إصلاح المدارس، وخصوصاً مع وجود آندرو أدونيس في الوزارة، وكونور رايان في منصب مستشاري الخاص، فقد تمكنا من تحقيق تقدّم كبير في ذلك البرنامج الطموح الذي أوصلني في نهاية الأمر إلى الموقع الذي أريده.

كانت الأشهر التي سبقت عيد الميلاد في العام ٢٠٠٥ مزدحمة بالعمل على نحو خاص. نشرنا في يوم ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر «الورقة البيضاء» المتعلقة بالمدارس الجديدة، التي شجّعنا فيها فكرة إقامة مدارس حكومية مجانية ومستقلة. تخلينا كذلك في هذه الورقة عن مبدأ الاختيار، الذي قسّم البلاد ما بين مدارس ابتدائية ومدارس شاملة، لكننا ابتعدنا في المجالات الأخرى عن المدارس الحكومية الشاملة. أوضحنا كذلك أن المدارس سوف تصبح كلها بمرور الوقت مستقلة إدارياً ومالياً تحت إدارة مجلس أمناء، أي إنها إما أن تكون مدارس حكومية ذات مسؤوليات خاصة، وإما أكاديميات تتمتع بمرونة أكبر بكثير في أمور التوظيف والأجور، مع إمكانية وجود شركاء من أي قطاع ترغب فيه، وستكون المدارس التي تعتمد البرامج المسائية جزءاً من الحيّ السكني الواقعة فيه، وهكذا يمكن للبالغين والصغار الاستفادة منها من أجل التعلّم، والرياضة، والتسلية، وتقديم الخدمات للحي.

حدّدت الأسباب الموجبة للإصلاح في خطابٍ ألقيته في صيف العام ٢٠٠٥ أمام منتدى السياسة الوطنية، وهو هيئة كانت ثمرةً برنامج إصلاح حزبيٍ في وقتٍ سابق كان يهدف إلى جعل عملية تقرير السياسات أكثر عقلانية، وأقل ميلاً للمواجهة.

كنت في ذلك الوقت أكتب معظم خطاباتي المهمة بنفسي، إلا أن فيل كولينز، الذي انضمّ إلى الفريق منذ وقت قصير، كان أفضل كاتب خطابات لديّ وتمكّن من تقديم خدمات كبيرة. كانت الخطابات تُكتب في داوننغ ستريت في الصباح الباكر، وذلك بسبب ضيق الوقت. تعوّدت النهوض عند الساعة الخامسة صباحاً في داوننغ ستريت، وكنت أتسلّل بهدوء إلى الطابق الأرضي تجنباً لإيقاظ الأولاد، ولكي أحضّر كوباً من الشاي آخذه إلى غرفة الجلوس. كنت أجلس في هذه الغرفة على كرسي أمام طاولة مستديرة ذات سطح جلدي، ثم أبدأ الكتابة، وأتطلع بين وقتٍ وآخر من خلال النافذة إلى الفناء الخلفي للمنزل، وأشاهد الناس الذين كانوا يهرولون في متنزه سانت جايمس، أو الذين يسرعون في طريقهم إلى الالتحاق بأعمالهم في

ساعات الصباح الأولى، وكنت أسترق النظر في بعض الأحيان إلى أشهر مبنى في بريطانيا. كنت أفكر في هؤلاء الأشخاص كافة، وفي الحياة التي يعيشها كل واحد منهم ومزاجه في ذلك اليوم، والأفكار التي تشغل أذهانهم، وشبكة أصدقاء كل واحدٍ منهم، والأمور التي تقلقهم، وطموحاتهم ومخاوفهم.

كتبت في ذلك الخطاب:

إذا كان ذلك نظاماً يدفع الناس إلى الخلف فإن ذلك النظام يجب أن يتغيّر. إن عدم تغيير ذلك النظام يعني أننا نهتمّ بالنظام أكثر مما نهتمّ بالناس، وهو أمرٌ غير مقبولٍ على الإطلاق.

يتعيّن على الإصلاحات بطبيعة الحال أن تكون مناسبة، وأن تكون قادرةً على تحقيق أهدافها. يزعم الناس في أحيان كثيرة أن التغيير يخرق المبادئ، بينما نلاحظ في الواقع أن هذه المبادئ لا تحمي مبدأً معيناً، لكنها تحمي ممارسةً معينة كثيراً ما تكون عفا عليها الزمن.

أما الأخبار الطيبة هنا فهي في وجود أمثلة حقيقية تدلّ على تحقيق تقدم مدفوعٍ باستعدادنا للتغلب على معوقات التغيير، وكذلك باستعداد عدد كبير من الموظفين الحكوميين، وحماستهم في حقيقة الأمر، لإطلاق ملكات الابتكار عندهم. إنه وقت الاندفاع إلى الأمام بصورة أسرع وعلى الجبهات كافة. إننا نفعل ذلك عندما نمحّص النظام، وعندما نحدّد أركانه، وعندما نضع الوالد والتلميذ والمريض، والمواطن الذي يلتزم النظام، في صلب النظام. أجل، لقد حققنا تقدماً كبيراً. يتعيّن علينا أن نتعلم الدروس كي لا نركن إلى الإنجازات الحاضرة، ولكي نأخذها في المستقبل إلى مستويات جديدة وعليا...

توافرت لدينا بعد ثماني سنوات مجموعة من الدلائل الملموسة التي نستطيع الاستفادة منها. أما الاستنتاج الذي أريد الوصول إليه فهو واضح جداً: لا يستطيع المال لوحده أن يقوم بالمهمة. يتعيّن أن يتشارك المال والأنظمة المحدّثة، والممارسات الناجحة والحوافز التي أوصلت إلى أفضل النتائج...

إن هذه الإصلاحات كلها هي في نهاية الأمر، مجرد وسائل تهدف إلى الوصول

إلى غاية، لكن الغاية ليست في إتاحة حرية الاختيار، بل تتمثّل في الوصول إلى خدماتٍ نوعية بغضّ النظر عن ثروة الشخص. إن غايتنا هي التوصل إلى إتاحة الفرصة لاستغلال قدراتنا إلى أقصى حدّ ممكن، وذلك مهما كانت بدايات حياتنا المهنية. إن الغاية هي ذات قيم تقدمية برمّتها. لكن الوسائل التقدمية الوحيدة هي تلك التي تُفضي إلى غاياتٍ تقدمية.

كانت أولى الأكاديميات مزدحمة جداً. وكان من الواضح أن ذلك لا يعود إلى المباني الجديدة فقط، بل تحديداً إلى عدم ظهور المدارس الأكاديمية وكأنها تعود إلى بيروقراطية بعيدة وليس إلى الحكام سواء أكانوا محليين أو قوميين، بل إنها تنتمي إلى ذاتها ولأجل ذاتها. ستكون المدرسة مسؤولة عن مصيرها. إن هذا الأمر يمنح هذه المدارس الفخر والهدف على الفور. كان أنصار هذه المدارس أفراداً ناجحين يمتلكون تصميماً وحافزاً لإنجاحها. أما الأهمّ من ذلك كله فهو أن هذه المدارس التي تحررت من ضعفٍ مزمن، أو مما هو أسوأ، أي التدخل المشروع من الناحية السياسية من الحكومة أو البلدية، باتت تضع هدفاً واحداً لها، وهو هدف لم ينشأ بسبب الانحياز السياسي بل نتيجة تفكير عقلاني يجعل المدرسة تتفوق؟

قصدت منطقة هاكني حيث زرت أكاديمية منطقة موسبورن الجديدة في هاكني داون في المكان الذي كانت تقع فيه سابقاً مدرسة شاملة، أي التي كانت فاشلة. كان التركيز على الانضباط الشديد، وعلى الزيّ الموحّد المناسب، وعلى الأخلاق الحميدة، بمثابة الحلم للطبقة الوسطى المحلية التي تتصرّف بكبرياء وتأنق، وللآباء، سواء الفقراء منهم والميسورون. أيقنت أننا نحرز نجاحاً فعلياً عندما عرضت القناة الرابعة برنامجاً أعدّ بطريقة سرية عن أكاديمية دونكاستر الجديدة. اشتمل البرنامج على شريط يعرض بعض الآباء الذين يشتكون تلقي أبنائهم تهديداً بالطرد إذا لم يحضروا إلى المدرسة في الوقت المحدّد. اعتقد منتجو البرنامج أن الناس سوف يغضبون من هذا الانضباط التعسفي، في حين شعر الآباء في الواقع بالارتياح.

تقلص، بطبيعة الحال، الضجيج حول فكرة الأكاديميات بعد مغادرتي لمنصبي، لكن الزخم استمر وعاد النشاط الكامل إلى هذه الفكرة. أعلنت في وقتٍ متأخر من العام ٢٠٠٦، ومجدداً بعد معارضة شديدة من جيراننا [الوزارة المجاورة] أننا سوف

نضاعف البرنامج الحالي ليصل إلى أربعمئة مدرسة، وكنت مرتاحاً عندئذ لأننا إذا حققنا هذا الهدف، واستكملناه ببناء المدارس الحكومية ذات المسؤوليات الخاصة، فسوف نسير في طريقِ التغيير.

يعترض غوردون على هذا القول بقوله إنه لم يعارض البرنامج بتاتاً، وأقول كي أكون منصفاً إنه لم يفعل ذلك قط على نحو مباشر، لكن كان من الواضح أن جماعته لم تؤيده، خصوصاً وأن الحصول على أي شيء من وزارة الخزانة يتطلب مجهوداً كبيراً للتغلب على العقبات اليومية الكثيرة التي تتمثل في الاعتراضات. أذكر أننا استقبلنا ذات مرة في داوننغ ستريت مدراء مدارس قدموا طلباً للحصول على وضع مدارس حكومية ذات مسؤوليات خاصة. أبلغني أحد هؤلاء المدراء بارتياح أنه وقف ضد النصيحة الصريحة التي قدّمها نائبه في البرلمان. قلت له بانزعاج: «أوه، ومن يكن ذلك النائب؟».

أجابني: «إد بولز». لم يدرك ذلك المدير أنه أكد لي شكوكي في توجّهات جماعة غوردون براون الحقيقية.

كان التقييم الأولي للأكاديميات يوصف عادة بالسلبية، لكن ذلك التقييم بمجمله ومهما كانت التغطية سلبية، كان علامة على نجاحها. قارن الناس الأكاديميات بأفضل المدارس، لكن نسوا بطبيعة الحال أنها حلّت مكان المدارس الحكومية التي فشلت على مرّ السنين، أي إنهم اختاروا أصعب المهمّات. إن الحقيقة أن الناس يجرون مقارنات كهذه لتكون معياراً للتوقّعات العالية المنوطة بها. كان من المفترض أن تكون هذه الأكاديميات ناجحة، وأن تمثّل تقدّماً كبيراً، وأن تستحقّ أن توضع إلى جانب أفضل المدارس. كانت هذه المعايير هي التي أردناها بالضبط.

تُعتبر النتائج واضحةً هذه الأيام بطبيعة الحال: تتحسن الأكاديميات بمعدل سرعة ثلاثة أضعاف تحسّن المدارس الأخرى. لكن في ذلك الوقت كان عليها أن تُثبت نفسها، لكن بعضها تعثّر في الطريق واضطر إلى العودة إلى سابق عهده. غير أن الأكاديميات نجحت إجمالاً، لكنْ ليس بالدرجة التي أطمح إليها، لكنّ نجاحها كان مقبولاً.

كانت المعارضة الحزبية ثابتةً ومستقرّة إلى حدّ لا بأس به. تأسفت كثيراً لأن إستيل

موريس شكّكت في نجاح الأكاديميات، وعادت إلى المبدأ القديم «المستويات لا المباني»، كما اشتكت أننا تخلينا عن ذلك المبدأ. لكن الواقع أن من دون مبانٍ مختلفة لا يمكن الوصول إلى المستويات العليا. دخل نيل كينوك هذه المواجهة، وهو الذي تحمس لفكرة حلول غوردون مكاني في منصب رئيس الوزراء. تركز هجومه على الأكاديميات لكونها نخبوية بمعنى أنها للأثرياء – لكن الواقع هو أنها لم تكن كذلك – أكثر من كونها أفضل من غيرها من المدارس الحكومية. كانت تلك هي النقطة الأهم بالنسبة إليّ. كان الأمر محبطاً بغضّ النظر عن حسن النية. كانت تلك حجة تصل إلى جوهر حزب العمال الجديد، وتبنيه للطموحات. لا يُمكن أن تكون المساواة، ولا يجب أن تكون، على حساب التفوق. كنت مُصرّاً على الدوام على عدم التخلي عن التفوق مهما كان نوعه. أما مهاجمة الأكاديميات، وبغضّ النظر عن رأينا بالمدارس الابتدائية، وبالمدارس الخاصة، أو أي مدارس أخرى، فهي خطأ مميت. أما في التحليل النهائي فإن هذا الهجوم كان يعني أننا مستعدون للتخلص من شيء كان ممتازاً، وذلك بحجة أنه يمثّل عقيدةً خاطئة.

أقول بالمناسبة إن مدارس كهذه قد يكون صحيحاً أنها تمثل عقيدةً خاطئة. إنني ضد مبدأ الاختيار للطالب في سن الحادية عشرة، لأن الأمر صعب جداً، ونهائي، وهكذا يُمكن اعتباره مقيّداً كثيراً في طور مبكرٍ جداً من عمر الطفل وفرصه في الحياة.

تعودت التأمل في تجربة شقيقي بيل. إنه رجل حكيم، وحساس، ومتزن، ومحترم. افتخرت بكونه شقيقي ولا أزال. إنه ذكيّ جداً كذلك، وهو الآن أحد قضاة المحكمة العليا، وذلك بعد أن كان أحد كبار مستشاري الملكة، بالإضافة إلى المؤلّفات الأكاديمية التي وضعها عن القوانين المصرفية.

كان بيل في الثالثة عشرة من عمره حين تقدم لامتحان الدخول إلى فيتيس Fettes في الستينيات من القرن الماضي. نجح بصعوبة في امتحانات الدخول وهكذا وُضع في مستوى أكاديمي أدنى. لم يُظهر بيل تفوقه قط. لكنه عندما خضع لامتحانات أوكسفورد بعد خمسة أعوام كان قد تقدم كثيراً ونال علامة Balliol مع تنويه.

يتغيّر الأولاد بمرور الزمن، ولهذا لا تُعتبر عملية تصنيفهم في هذا العمر المبكر

صحيحة ولا منصفة. لكن طريقة إدخال المدارس الشاملة comprehensives والتخلي عن المدارس الابتدائية كانا أشبه بعملية تخريب أكاديمية. يلفت نظرنا هنا أن وزراء الداخلية – خصوصاً وزراء حزب العمال وكذلك المحافظين – استمروا في إرسال أولادهم إلى المدارس الخاصة. لم يتمكن هؤلاء الوزراء من الحكم على حقيقة التغيير من خلال أولادهم، بالإضافة إلى الضغط الذي تعرضوا له من المؤسسات التعليمية، وهكذا سنّوا قوانين تحويل المدارس الابتدائية (انتقائية لكنها ممتازة) إلى مدارس شاملة (غير انتقائية وعادة ما تكون غير متفوقة، ومريعة حقاً في بعض الحالات).

فعل الوزراء ذلك على أساس أن السبب الوحيد لافتراض أفضلية المدارس الابتدائية هو لأنها انتقائية. إن هذا الخطأ الذي يقترفه بعض الناس يتمثل في قولهم إن المدارس الخاصة جيدة فقط لانتماء آباء التلاميذ إلى الطبقة الوسطى، أي إن الميسورين يتعلمون في منشآت أفضل. يعني ذلك أن هذه المدارس هي أفضل بسبب الامتيازات والانتماء الطبقي.

أما الحقيقة فهي أن هذين النوعين من المدارس هما مدارس جيدة لأسباب أخرى. إنها مستقلة، وذات مسحة أخلاقية وشخصية. تتوافر لهذه المدارس إدارات قوية تتمتع بمرونة أكبر تمكّنها من الإبداع لأن أحداً لا يمنعها من ذلك. وهي تسعى إلى التفوق. وذلك عامل شديد الأهمية لأنه يفترض أن التفوق ممكن. يعني ذلك بكلمات أخرى أن هذه المدارس تعتقد أن الفشل ليس حتمياً، وأن تجنّبه ممكن. أما إذا لم تتمكن المدارس من تجنب الفشل فإن اللوم سيقع عليها، وليس على «النظام»، أو على «خلفية الأولاد» أو «عدم كفاية الآباء».

إن هذه الخصائص – أو طريقة التفكير – تصبح أسهل إذا كان آباء الطلاب ينتمون إلى الطبقة الوسطى وإذا كان الأمر انتقائياً. إن الأمر أسهل للتفكير، وأسهل للتطبيق. لكن أساس برنامجي الإصلاحي برمّته هو أن هذا الإصلاح ليس مستحيلاً، لكن لا يمكن تطبيقه في المدارس الحكومية غير الانتقائية، إلا بشروط أ) إذا كنا مستعدّين للاعتراف بأسباب نجاح المدارس الابتدائية والخاصة، و ب) إذا كنا مستعدّين لإعطاء المدارس الحكومية الحريات ذاتها، وتشجيع تطبيق الطرائق الجديدة التي تقضي بالعمل مع شركاء جدد، و ج) إذا كنا مستعدّين لتمويلها على نحو أفضل.

تعودت الدخول في مناقشات داخلية حامية بشأن هذه المواضيع كلها، حتى مع المقربين مني. كانت هذه المناقشات تنتهي عادةً على النحو التالي: إذا أنشأنا مدرسة ذات مستوى عالٍ بالفعل في منطقة مزدحمة بمدارس مقبولةٍ فعلياً، فإن معظم الاحتمالات تشير إلى أن الآباء سوف يسارعون إلى إدخال أولادهم تلك المدرسة ذات المستوى العالي. يسبب ذلك، وبطبيعة الحال، حالة من الذعر بين جميع الآباء الذين عجزوا عن إدخال أولادهم تلك المدرسة، وكذلك بين الاستشاريين المحليين، والأساتذة وغيرهم. لكني كنت أقول على الدوام: لا يُمكن لذلك أن يكون وحده سبباً لعدم إنشاء مدارس ذات مستوى عالٍ بالفعل، وأن ذلك يجب أن يكون سبباً لتحليل الأسباب التي تجعل من المدارس الأخرى مقبولة فقط، أو فاشلة، من أجل تغييرها.

أتذكر أنني قمت بزيارةٍ إلى مدرسة في لندن قبل انتخابات العام ١٩٩٧ مباشرة. رحّب بنا المدير المسؤول، لكن سمعنا شجاراً يدور في غرفة الاستراحة المجاورة. وقفنا لنتحدث لبعض الوقت إلى أن أصبح ضجيج الشجار مزعجاً جداً. قال لنا الناظر المسؤول: «من الأفضل أن ننتقل إلى مكانٍ آخر».

أشرت إلى الطلاب المتشاجرين وقلت: «ألا يجدر بنا أن نوقف ذلك الشجار؟».

قال الناظر وهو يقودنا إلى غرفة مكتبه: «كلا». شرح لنا الناظر بعد ذلك أن العائلات التي تسكن في الجوار مثيرة للمشاكل، كما تُعتبر المخدرات مشكلةً حقيقيةً لديها، ولذلك فإن الأولاد يلقون تربية سيئة ولا يهتمون بالدراسة. كان ذلك سبباً وجيهاً، ومقنعاً بالنسبة إليه، يفسّر سبب فشل المدرسة الحتمي. كان الرجل، بالمناسبة، لبقاً وملتزماً. قال لي بما أن المدرسة لا تحظى بسمعة طيبة، وبما أن الجميع يعتقدون أنها مستودع للفاشلين، لذلك فهي ملزمة باستقبال الطلاب الذين ترفضهم المدارس الأخرى.

أريد أن أشدّد هنا على نقطة أننا تقبلنا الفشل، أعني ليس مجرد فشل عدد قليل من الطلاب، بل الفشل الجماعي للطلاب كافة. لكني كنت متأكداً من أمرين: الأول هو عدم استعدادي لتقبّل هذا الأمر إذا حصل لأولادي، والثاني هو عدم صحة أن الطلاب جميعاً أو أهاليهم يعانون المشاكل ذاتها، أو يتخذون المواقف ذاتها. كان كل

ما نفعله هو السماح لأقلية ساخطة ومنعزلة بإزعاج الغالبية بمشاكلها. لا يتعيّن علينا بطبيعة الحال أن نتقبل الفشل حتى بالنسبة إلى تلك الأقلية الساخطة والمنعزلة. إن تقبّل هذا الفشل بالنسبة إلى المدرسة برمّتها، علاوةً على وجود مئات على شاكلتها عندما تولينا مسؤوليات الوزارة، كان بمثابة ظلم اجتماعي خطير لا يصدّق. يُضاف إلى ذلك أنه الظلم الذي ساعدت عقيدتنا الخاطئة على استمراره.

حاول المحافظون مواجهة هذه المشكلة جزئياً قبل العام ١٩٩٧، وذلك عندما أنشأوا مدارس كانت تعتمد على الهبات، وتتمتع بقدرٍ أكبر من الحرية والاستقلالية. لكن المشكلة أنها كانت مجرد حلّ جزئي، أعطى حرية أكبر للمدارس التي كانت تعطي نتائج أفضل. لم يكن ذلك بالأمر الخاطئ، لذلك بذلت جهداً كبيراً للتأكد أن مع تغييرنا لأوضاع المدارس سوف نحافظ على حرياتها الأساسية، على الرغم من أن الحزب كان يكره المدارس التي تعتمد على الهبات. لكن رحلتي التي بدأت في ٠١ أيار/مايو من العام ١٩٩٧ واستمرّت حتى ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٧، تمحورت في الواقع على تصحيح انحياز ذلك البرنامج، وذلك عن طريق التركيز على المدارس الأفقر في البداية ثم الانتقال بعد ذلك إلى إنشاء نوع جديد تماماً من المدارس ـ عن طريق برنامج الأكاديميات ـ يمكنه تحقيق غايتنا التي سعى إليها برنامج المدارس المعتمدة على الهبات وكذلك برنامجنا الإصلاحي: الوصول إلى تعليم حكومي ذي مستوى عالٍ. ركّزت حكومة المحافظين على مدارس الطبقة الوسطى، أما أنا فأدركت أنني إذا أردت أن يلقى البرنامج قبولاً شاملاً، أو واسعاً على أقل تقدير فسيتعيّن عليه التوجه إلى أسوأ ما في النظام التعليمي وأفضل ما فيه.

لكنّ الكفاح من أجل تحقيق هذا البرنامج كان مريراً، واستمرّ مع عدد كبير من أعضاء الحزب حتى أواخر أشهر العام ٢٠٠٥، أي عندما أشرفت على ترك منصبي، لكن بعد أن تركت البرنامج في عهدة مجموعة موثوقة من الوزراء الذين شاركوني في رؤيتي ذاتها، وهم الذين فهموا طبيعة الموقع الذي يجب أن يقف فيه حزب العمال. شعرت، على الرغم من ذلك كله، بأننا نكسب المعركة.

كنا نصارع على جبهات أخرى كذلك. أخذ قانون الشراكة المدنية طريقه إلى التطبيق قبل عيد الميلاد مباشرة، وهو الذي أعطى الحقوق والمسؤوليات ذاتها التي

يتمتع بها المتزوجون للشركاء من الجنس ذاته. كنت فخوراً فعلاً بذلك القانون. دعمت غالبية نواب حزب العمال هذه القضية بطبيعة الحال، لكنني فكّرت في الحماسة التي تميّز بها النقاش في الماضي، أي عندما هاجمنا المحافظون بكل قسوة بسبب موقفنا من حقوق الشاذين جنسياً. كانت تلك المسألة مشكلةً حقيقيةً بالنسبة إلينا نظراً إلى خشيتنا من خسارة الأصوات في الانتخابات النصفية، لكننا وقفنا مع ذلك مع تطبيق ذلك القانون وسط جوّ من الابتهاج والاحتفالات.

كان أول شريكين يستخدمان تلك المراسم من بلفاست. توقعت نوعاً من ردود الفعل، لكن الأمر اقتصر على بعض الاعتراضات الهامسة. تلقينا رسائل من أنحاء العالم كافة، لكنني تساءلت عن مقدار ما يعنيه هذا الأمر لعددٍ كبير من الناس، وكان أكبر مما توقعته عند التصويت على القانون. أعتقد أن من المريع أن ينتقل المرء إلى وضع من الدرجة الثانية نتيجة أمرٍ يعتبره طبيعياً. ما كان يجدر بي أن أُفاجأ بمدى المعارضة على الرغم من معرفتي بذلك، لكني فوجئت بالفعل.

كان أفضل ما في الموضوع، وعلى مستوى معيّن، هو أن المحافظين بدأوا بدعم القانون في ذلك الوقت، الأمر الذي يعني أن هذه المسألة لن تُستخدم مجدّداً لتشكّل انقساماً في الحياة السياسية البريطانية. اعتقدت أن ذلك كان يشكّل كسباً مهماً لسلامة نقاشاتنا السياسية، كما أن تلك القضية كشفت عن الطبيعة المتغيّرة للسياسة في بلادنا. شعرتُ على الدوام بأن على السياسات التقدمية تكوين مجموعة مختلفة من النماذج المتعلقة بالسياسة، وذلك من أجل الوصول إلى دعم أكبر وأوسع انتشاراً. توصّلت بمرور الوقت إلى موقف – على غرار ما توصّل إليه بيل كلينتون – سأسميه سياسة «التشدد إزاء الجريمة مع مساندة حقوق الشاذين».

ربما يبدو ذلك ربطاً بين مسألتين منفصلتين، لكنني أعتبرهما تغيّراً هاماً في المواقف الاجتماعية التقدمية. أما في الأيام الماضية فقد اتخذ المحافظون موقفاً متشدّداً بالنسبة إلى القوانين والأنظمة، وبشأن قضايا «الاستقامة السياسية» مثل الهجرة والشاذين جنسياً. كان اليساريون متحرّرين، أما اليمينيون فلم يكونوا كذلك. أما جيلي أنا فقد حدّد له نموذجاً مختلفاً: إن ما يفعله المرء في حياته الخاصة هو شأنه، لكن ما يفعله للآخرين فليس كذلك. نشأ التمييز بهذه الطريقة بين المواقف تجاه البشر (عدم التمييز بين الأعراق، أو الجنس، أو المسائل الجنسية) والمواقف

تجاه النظام الاجتماعي (يتعيّن علينا فرضه). يمكننا العثور عند اليمين وعند اليسار على المواقف والانقسامات القديمة التي لا تزال سائدة، وإن كان بدرجة أقل، وعند السياسيين الذين لا يفهمون أن تيار التغيير يمكن أن يتعثر.

لكن القوانين الجديدة المتعلقة بمكافحة الإرهاب كانت أصعب، وهي القوانين التي كنا نسعى إلى تمريرها بعد القرار الذي أصدره مجلس اللوردات في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٤، والذي نصّ على أن سلطاتنا الحالية المتعلقة بتوقيف المشتبه فيهم هي غير قانونية بموجب المعاهدة الأوروبية حول حقوق الإنسان، وهي المعاهدة التي أدخلت القانون البريطاني. نشأ خلاف أساسي حول هذه المسألة بيني وبين الجسم القضائي ووسائل الإعلام، أو على الأقل قسم كبير منها، بشأن التهديدات التي نواجهها.

كان من المفترض أن تكون هذه القرارات مسألة قانونية صرفاً، ولا شك في أن مجال حقوق الإنسان عرضة للأحكام الموضوعية التي تدور حول السياسة. إنني أشكّ كثيراً في قدرتنا على الوصول إلى هذا الحكم في أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠١، أو تموز/يوليو من العام ٢٠٠٥، أي عشية الهجمات الإرهابية التي وقعت في الولايات المتحدة ولندن، لكن مرور الوقت يؤدّي إلى تخفيف وقع الصدمة. كان الأمر حقيقياً: كنا نطلب سلطاتٍ حاسمة، وغير مقبولة مبدئياً إلا في الحالات النادرة جداً.

كانت المشكلة واضحةً في الأساس، وعلى الأقل في وصفها: كنا نراقب من نشتبه أنهم إرهابيون حيث نعتقد نحن (أقصد بكلمة «نحن» القوى الأمنية، والشرطة، والقيادة السياسية) أنهم يشكلون خطراً. لكنّ إثبات التهمة قطعياً كان أمراً صعباً عادة. كنا نخصّص قدراً كبيراً من الوقت، والقوى البشرية، لمراقبة هذه المجموعات، وتقييم النتائج باستمرار. كنا ننتظر في أوقاتٍ كثيرة حتى يتجمع لدينا ما يكفي من الأدلة التي تُثبت العمل الإرهابي، لكننا كنا نخشى الانتظار مدة أطول مما ينبغي بحيث تحدث أمور غير متوقّعة بعد تنفيذ الخطط، وهكذا نفوّت علينا فرصة القبض على الإرهابيين. أما بالنسبة إلى المشتبه فيهم من الجنسيات الأجنبية، ومعظمهم كان كذلك، فقد خطرت في ذهني فكرة تقديم خيار لهم: إما مغادرة البلاد، وإما البقاء قيد الاحتجاز. كان ذلك يناقض بطبيعة الحال المبادئ المتعارف عليها لمذكّرات التوقيف، كما أنه ميّز بين المواطنين الأجانب والبريطانيين، بحيث كان ذلك يمثّل

مشكلةً قانونية، لكن توجب علينا تحمّل هذا الوضع بسبب خطر الإرهاب الحقيقي الماثل أمامنا.

ما إن أصدر مجلس اللوردات ذلك الحكم، حتى بات علينا تعديل القوانين. تمحورت المشكلة حول السلطة التي أردناها والتي تسمح للشرطة بتوقيف المشتبه فيهم في التخطيط لعمليات إرهابية، وذلك لفترة تصل إلى تسعين يوماً من دون توجيه تهمة. توافرت بطبيعة الحال جملة من الإجراءات الوقائية التي شملت مثول المشتبه فيهم أمام المحكمة كل سبعة أيام. لكن قوات الشرطة أوضحت أن تلك السلطات سوف تساعدها كثيراً، كما أنني شعرت بعد هجمات تموز/يوليو بأننا سوف نضطرّ إلى أن نخطئ نتيجة تشدّدنا. حاولنا ذلك قبل انتخابات العام ٢٠٠٥، لكن المحافظين عارضوا أيّ توقيفات إضافية من دون محاكمة. كان دافيد دافيس وزير داخلية حكومة الظل في ذلك الوقت، قد نجح في دفع المحافظين إلى موقفٍ متحرّر بالنسبة إلى عدد من القضايا المتعلقة بالقوانين والنظام، وليس بالنسبة إلى قوانين الإرهاب الدولي فقط، علاوة على المحاكمات المتعلقة بالاحتيال التي تجري على يد المحلّفين، وكذلك قضايا السلوك الإجرامي والإجراءات المتعلقة بالأرباح غير المشروعة. أعجبت كثيراً بدافيد واعتبرته سياسياً استثنائياً متمسّكاً بالمبادئ. لكني اعتبرت أن ذلك خطأ جسيم من قبل المحافظين.

أسفر ذلك الدعم الذي أظهره المحافظون أثناء فترة التحضيرات للانتخابات عن موقف غير تقليدي. ولو كنت رئيس وزراء من المحافظين لكنت دفعت الصحف اليمينية مثل مايل وتلغراف إلى مهاجمة المعارضة، وهكذا كان الوضع غير مرضٍ بالمرة.

تمكّنا بعد الانتخابات من النظر إلى الأمور بهدوء أكبر، لكن المحافظين بقوا على معارضتهم. أما الديمقراطيون الليبراليون فكانوا ضد هذه الإجراءات بطبيعة الحال، كما أن نسبة عالية من نواب الحزب في البرلمان أعلنت معارضتها لها. علمت في ذلك الوقت، وأعتقد أن الوضع لا يزال على حاله حتى هذه الأيام، أننا كنا نراقب مجموعة من خلايا المجموعات المتطرفة والإرهابيين المحتملين. أردت الحصول على السلطات في ذاتها، وأردتها كذلك من أجل إرسال إشارة قوية إلى الخارج تفيد

أن بريطانيا لن تكون مرتعاً لتحرك الجماعات الإرهابية. تعودت أن أقول للناس: ربما لا تحبون الطرق التي يتبعها بوش، لكن لم يحدث أي هجوم إرهابي خطرٍ منذ ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. أريدكم أن لا تستبعدوا أن ذلك لا يعود إلى الحظ فقط.

وقفت غالبية الرأي العام إلى جانبي، لكنّ غالبية مجلس العموم لم تكن كذلك. خسرنا تصويتاً في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٥، وذلك للمرة الأولى منذ أن توليت منصب رئيس الوزراء. نظرت إلى الأمر نظرةً عادية. توصلت إلى اقتناع في هذا الوقت بأن حظي الوحيد للبقاء في منصبي لفترة عامين، وهي الفترة الدنيا التي حددتها لنفسي لتطبيق البرنامج الإصلاحي، كان في الحكم بطريقة تُبقي الناس في دهشة مستمرّة من عدم اكتراثي الظاهر لرأي الحزب، أو للرأي العام، شريطة أن أكون مقتنعاً بأن ما أفعله صحيح وسوف يفيد الحزب والشعب على السواء في المدى الطويل. يعني ذلك أنني اعتبرت أن الطريقة الوحيدة للبقاء في السلطة كانت هي الاستعداد الدائم لفقدانها، لكن من أجل المبدأ.

تولد لديّ في ذلك الوقت اقتناع واضح بما يجدر بي فعله. شعرت أنني أقف فوق ذروة قدراتي، وفوق قمة لعبتي السياسية. توقفت مع ذلك عند المفارقة المتمثلة في حدوث هذا إبان هبوط شعبيتي إلى أدنى مستوى لها. أدركت كذلك أنني فزت في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٥، أي إنني لم أخسر، كما لاحظت وجود بقية من احترام للقيادة القوية التي تجيد اتخاذ القرارات. ربما أُصبتُ بأضرار، لكني عزمت على عدم الانحناء. لقد فضّلت خسارة التصويت على المساومة في الأساسيات، وذلك يناقض قليلاً القواعد السياسية السائدة. ظهرت عدة مقالات بعد خسارتنا هذه وتحدثت كلها عن تلاشي سلطة رئيس الوزراء. أحسست أن التهور الذي اتسمت به هذه المقالات إزاء أمرٍ آمنت بأنه محقّ قد أكسبني بعض القوة بين الناس. أدركت عندئذ أن نجاحنا في إصلاح المدارس لا يعني أن إصلاح نظام الخدمات العامة لن يكون مختلفاً. لكن الخسارة أشعرتني براحة أكبر من شعوري بالفوز عن طريق المساومات في هذه القضية الجوهرية التي تهمّ الأمن القومي.

مرّ أسبوعان على تلاشي العاصفة. قدّمنا اقتراحاً آخر مثيراً للجدل: هو أن تتوافق قوانين الشراب [الكحول] البريطانية مع القوانين السارية في أوروبا. اعتبرت أن الإصرار على قانون صارم لإقفال الحانات غير عقلاني وغير منتجٍ من عدة أوجه.

انتابني نفور طبيعي من فكرة أن سوء تصرّف أقلية من الناس يبرّر تقييد حرية الغالبية الساحقة بالتمتع بالشراب حينما يريدون. يكمن الحلّ برأيي في التشدد في تطبيق القوانين على الأقلية المخالفة لها، وليس في تغريم الغالبية التي تلتزم القانون. واجهتنا بطبيعة الحال حملة صحيفة مايل المعتادة، التي لقيت دعماً من صحف أخرى لكننا حافظنا على هدوء أعصابنا. بقيت تيسا جويل على إصرارها وكان لها ما أرادت (على الرغم من أنها تحولت إلى هدفٍ للهجوم منذ تلك اللحظة).

كنت أكافح بشدّة على الجبهات كلها. عيّنت في نهاية العام ٢٠٠٢ أداير تيرنر للقيام بمهمة مراجعة سياستنا المتعلقة بالتقاعد. تسبب هذا التعيين بمعارضةٍ قوية من غوردون، أي كما حدث عند تعيين دافيد فرويد، وهو مستشار مستقل، عندما كلّفته مراجعة شؤون الخدمات الاجتماعية. أدركت أن أداير ودافيد سيقدمان إليّ اقتراحات جذرية. تعيّن علينا مواجهة هاتين المسألتين.

كان عمل الرجلين مرتبطاً باهتمامي بالأنماط المستقبلية للإنفاق الحكومي. سبق لي أن قلت إن FSR [مراجعة الإنفاق المستقبلي] قد أُنشئت لمحاولة تحويل النقاش من حجم الاستثمار إلى القيمة التي سيضيفها، وهذا هو سبب آخر يدعونا إلى التعجيل في وتيرة الإصلاحات. لم أحدّد في ذهني نسبةً معينة للإنفاق الحكومي، بما يتوافق مع الرقم الصحيح اللازم لتوازن الاقتصاد بين القطاعين العام والخاص، لكنني أدركت ضرورة وجود حدّ معيّن. فكرت في الفترة التي تلت العام ٢٠٠٥ أن الوقت أصبح مناسباً لتحويل تركيز الحكومة، وللتخلي عن المفهوم الذي يرى أن الأمر يتعلق بالجهة التي تقوم بالإنفاق أكثر من غيرها.

اعتبرت أن ذلك مناسب للبلاد، وسياسة ذكية، وأنه سيكون أصعب بكثير لو نفّذ المحافظون سياستهم المعتادة، التي تقضي بدعم الإصلاحات. لم يكن ترحيب المعارضة بسياستنا مريحاً على الدوام، وعلى الرغم من تبني دافيد كاميرون هذا الموقف منذ البداية، وحفاظ حزبه عليه بالنسبة إلى الإصلاحات في النظام التعليمي، إلا أنهم بدأوا في مجالات الخدمات العامة بالتحالف مع المصالح الخاصة، وخصوصاً في مجال الصحة. كان ذلك مناسباً لنا كثيراً بالمعنى السياسي، وذلك لأنه سمح لنا بتمتين تحالفنا الأساسي الذي لم يكن يثق بالمحافظين في مسائل حساسة جداً، كما شعرنا بأنهم يغيرون مواقفهم كثيراً.

لم يكن الأمر على أي حال يتعلق بحجم الإنفاق العام [الحكومي]، بل يتعلق أساساً بتركيبة هذا الإنفاق. إن الإصلاحات في قضايا التقاعد والرفاه الاجتماعي كانت هامة جداً. كنا سنواجه مسائل هامة في مجالات فاتورة التقاعد الآخذة في التزايد في وقتٍ ما في المستقبل، وهو الأمر ذاته الذي ستواجهه الدول المتقدمة الأخرى. تدل الأرقام على تزايد أعداد السكان المسنّين وعلى انخفاض مستمر في أعداد الأجيال الأحدث سناً. يُضاف إلى ذلك التوقعات بشأن تحسّن مستويات المعيشة، وارتفاع تكاليف العناية الصحية لأن الناس يعمّرون أكثر: كانت الأزمة حتميةً في مرحلةٍ ما. أعتقد أن من الأفضل مواجهتها الآن، وتطبيق هيكلية تجعل التكاليف معقولةً بمرور السنين، وانتقال مسؤولية تكوين الاحتياط من الدولة إلى الفرد. ستظلّ الدولة حاضرةً بوصفها مساعدة، والضامنة في أوقات الأزمات. أعتقد أن من الأفضل أن يبذل الناس مجهوداً أكبر من أجل أنفسهم، وأن يفعلوا ذلك بطريقة تعكس أمراً آخر: يجب عليهم الآن أن يختاروا طريقة أكثر مرونة بكثير من أجل توفير تقاعدهم. إنهم يتمكّنون من ذلك إذا اتبعوا دواماً جزئياً في منازلهم، واعتمدوا وسائل متعدّدة للتوفير، وذلك بدلاً من ترتيبات التقاعد التقليدية.

حاولنا ذلك ذات مرة قبل الإصلاحات سيئة الحظ التي قدمتها هاريت هارمان وفرانك فيلد، لكنّ المشكلة مع تقاعد «أصحاب الحصص» كما كان يُطلق عليهم هي عدم إمكان تصنيفهم في فئة أو أخرى تماماً، وهم مرتاحون بين احتياطات الدولة والاحتياطات الخاصة. تعلّمت درساً أكبر أثناء محاولتنا تطبيق الإصلاحات: إذا لم تسمع صراخاً في مكانٍ ما فتيقن أن الأمر لن ينجح. يُعتبر الإجماع مهماً عظيماً، لكن في السياسة الحديثة حيث يترافق النقاش، ويا للأسف، مع الخلاف، يبدو ذلك مثل حجر الفلاسفة الذي يسعى وراءه الخيميائيون: إذا كان الأمر يبدو أعظم من أن يصدّق، أي إذا كنت تستطيع تحويل معدن عادي إلى ذهب، فليكن. إذاً، الإجماع رائع، لكنه لن يكون كذلك إذا كان جزءاً من وهم يُحدث تغييراً حقيقياً يرضي الجميع. إنه ليس كذلك، لذا ففي هذه الحالات يكون «الإجماع» إشارةً إلى أن الإصلاح ليس حقيقياً جداً، وهذا يعني أنه لن يحقق غايته.

لم يحدث تقاعد «أصحاب الحصص» قدراً كبيراً من المعارضة، ولم تظهر منهم نتيجة مهمة. احتجنا إلى التفكير على نحو أكثر حزماً، وإلى ابتكار حزمة أكثر واقعية

بالنسبة إلى الدعم الذي تقدمه الدولة، بما في ذلك رفع سن التقاعد، وإلى طريقة أكثر شمولية تمكّن أصحاب المداخيل من الطبقة الوسطى من التوفير.

طلبت إلى آداير الذي يعمل معه مساعدان ذكيان وهما جون هيلز وجيني درايك متابعة الترويج للإصلاح. شكّل التقريران اللذان صدرا عنهما في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام ٢٠٠٤ وتشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٥ أساساً لتكوين/ احتياط التقاعد للجيل المقبل. كما شكّل الإصلاح حمايةً لصندوق التقاعد الحكومي الأساسي، لكنهما استخدماه كنقطة انطلاق يمكن للفرد أن يختار انطلاقاً منها تحسين تقاعده بجهوده وقراراته الشخصية، وهذا ما حصل ضمن هيكلية ضمنت أن لا يشكّل الإنفاق على صناديق التقاعد زيادة في الناتج القومي المحلي.

شكّل الاثنان فريقاً قدّما من خلاله استشارات واسعة، كما أن وتيرة الإصلاحات، وكما سبق لي أن قلت، قاربت الإجماع بالقدر الممكن من دون التنازل عن المبادئ الأساسية للإصلاح. تقلص بعض الدعم عن بعض أوجه الإصلاح المتنوعة. لم يدعم المحافظون الإصلاح برمّته، كما أن ردة فعل وزارة الخزانة كانت شرسة جداً. أريد أن أقول، للإنصاف، إن معارضة غوردون في هذه الحالة كانت صادقة [مبررة]. لم يُقصد منها إعاقة التقدم، بل شعر بأننا نقدم التزاماً لا ضرورة له عن طريق حماية صندوق التقاعد الأساسي التابع للدولة.

أعربتُ عن معارضتي الشديدة لهذه النقطة، وشعرت بأن الناس عموماً سيعتبرون صندوق التقاعد التابع للدولة «حصةً» أو «حقاً» لهم لقاء اشتراكاتهم في صندوق التأمين الوطني. أعتقد لو بدأنا بالعبث بهذا الصندوق، على أساس نوعٍ من أنواع إعادة التوزيع خصوصاً، لكنا تورّطنا في نقاشات شديدة الضرر بالفعل.

لامس هذا الموضوع قضيةً سياسيةً شديدة الحساسية. سبق لي أن عارضت فكرة تخفيض الضرائب العالية ٥٠ بالمئة، وذلك قبل انتخابات العام ١٩٩٧. أردت دائماً إبقاء خيار تخفيض الضرائب مفتوحاً على النسب الأساسية. لكني سمحت مع ذلك بقدرٍ كبير بالفعل من إعادة التوزيع. تغيّر الحدّ الأعلى لصندوق التأمين الوطني، كما تغيّرت العلاوات الشخصية. أما الأهمّ من ذلك كله فهو أننا مع نمو الاقتصاد أنفقنا المليارات على أفقر العائلات والمتقاعدين. كان من الحماقة الشديدة الإيحاء أن

الحكومة التي تولّت زمام الحكم بين العامين ١٩٩٧ و٢٠٠٧ لم تعتمد مبدأ إعادة التوزيع [للثروة]، لأنها كانت تعتمده على نحو كبير.

يمكننا القول في هذه الأيام، بعدما حقق الاقتصاد نمواً ملحوظاً، إن الطبقة الوسطى وأصحاب المداخيل العالية أبلوا بلاءً حسناً، أما الأكثر نجاحاً فقد حققوا نجاحاً أكبر. يمكننا القول، والحالة هذه، إن الفجوة بين المداخيل – أي من أعلاها إلى أسفلها – قد توسّعت كثيراً. حدث ذلك في واقع الأمر لأن الذين يتربّعون على قمة النجاح تمكنوا من تحقيق نتائج جيدة. أما الطبقة الدنيا فقد تغيّرت مستويات مداخيلها فعلاً، على نحو كبير. كان من الممكن أن أحقق ذلك بطريقة مختلفة، لأنني لا أفضّل التسليفات الضريبية، لكنني كنت سأفعل ذلك على أيّ حال. حصل أفقر المتقاعدين على زيادة ضخمة في مداخيلهم، الأمر الذي استاء منه المتقاعدون الأفضل حالاً (كما كانت والدة زوجتي تعبّر عن ذلك على الدوام).

شعرت، عاطفياً، بأنني مع الرأي القائل إن بعض المداخيل العالية كانت غير مبرّرة. لكن فكرت، بعقلانية، أن هذا هو واقع العالم في اقتصاد معولم، أما محاولة تغيير هذا الواقع فمن شأنها إلحاق ضررٍ أكبر ولا يأتي بأي فائدة. هل يجدر بواين رووني أن يحصل على مدخول أكبر من ذلك الذي تحصل عليه ممرّضة؟ أو ذلك الذي يحصل عليه الممثلون أو مؤلفو الكتب الأكثر مبيعاً؟ أو المتاجرون بأسواق الأسهم أو متفرعاتها؟ أو حتى من الأشخاص الذين يبيعون شركاتهم في الوقت المناسب، فيحصلون من جراء ذلك على مئات الملايين بضرائب منخفضة؟ أعرف أن ذلك كله يبدو عقلانياً بمعنى ما، لكن من غير العقلاني كذلك أن يجري ذلك كله في عالم يحوز فيه بعض الأشخاص مهاراتٍ عالمية قابلة للانتقال وسط طلبٍ شديد وعرضٍ قليل.

يُمكننا، في نهاية الأمر أن نضاعفَ الضريبة المفروضة على كل لاعب كرة قدم من أندية الدرجة الأولى، لكن ذلك لا يحقّق مدخولاً كبيراً. ستكون نتيجة ذلك دفع الضرائب العليا نزولاً في سلسلة المداخيل، وهكذا سيكون المتضرّر الأكبر من هذه العملية أولئك الذين يعملون كثيراً، وسينتهي الأمر بفقداننا المواهب العالمية القابلة للانتقال، أي إن الأمر لن يمسّ بالفعل أولئك الأغنياء «الذين لا يستحقون ثرواتهم» أبداً.

اعتقدت كذلك أن علينا أن نأخذ جانب الحذر في الفترة التي تلت العام ٢٠٠٥. قد يقول بعضهم إننا لم نعمد إلى إعادة توزيع الثروة على النحو المطلوب، لكنني متأكد أننا قمنا بقدرٍ كبير من إعادة التوزيع هذه، وأن علينا الاهتمام كذلك بأصحاب الطموحات من الطبقتين الوسطى والدنيا. هذا هو السبب الذي دفعني إلى دعم أداير وتشجيعه كي يخرج بسياسة تتجنّب أي مفهوم لإعادة توزيع صندوق التقاعد الأساسي العائد إلى الدولة.

كان اليسار سعيداً على هذا الصعيد، لأنه كان يخشى، من وجهة نظرٍ أخرى، إلحاق الضرر بصندوق التقاعد العائد إلى الدولة، أي إنه كان يخشى أن يؤدي ذلك إلى انكماش مبدأ صندوق الاحتياط الشامل. يضاف إلى ذلك أننا فعلنا ذلك على أساس العودة إلى زيادة الراتب التقاعدي بما يتوافق مع المدخول وليس مع الأسعار، وذلك ما كانت تطالب به النقابات منذ زمن طويل. تمكنا مع قيامنا بهذا الإجراء من الوصول إلى حزمة بدت منصفة ومتوازنة، وهو الإجراء الذي كنت أعتقد أنه محق على أي حال، وذلك بالنظر إلى الرابط بين التقاعد واشتراكات صندوق التأمين الوطني في المداخيل.

أما الجدال الذي ثار حول خدمات الرفاه الاجتماعي فقد كان أكثر حدة، لكنه كان ضرورياً، كما كان هناك أناسٌ طيّبون وأقوياء على الجهة التقدمية من السياسة، وهم الذين فهموا الحاجة إلى التغيير. أما الأسباب الموجبة للإصلاح فقد سبق لي أن عرضتها: إساءة استغلال مساعدات العجز، ووجود عدد كبير من الناس الذين يعتمدون على المساعدات على المدى الطويل، والجهود القليلة التي بُذلت من أجل الدعم الفعال لتحويل هؤلاء إلى سوق العمل.

كان جون هوتون وزيراً عظيماً للصحة، وقد أعطى دفعاً قوياً للإصلاحات، وتصرّف على طبيعته في أمور الرفاه الاجتماعي. كان جون رجلاً لبقاً، ومخلصاً، ومجداً لامعاً في عمله. أما بالنسبة إلى من لا حدود لطموحاته (مثلي أنا)، فقد كان يفتقد الدافع القويّ للتصميم، لكنه كان يشعر بالارتياح لمستوى طموحاته. أكسبه هذا الوضع أشياء كثيرة، ومن بينها الجرأة. أراد أن يقوم بالأمر الصائب في وظيفته، وإلا فلن يقوم بأي شيء. كان ذلك موقفاً عظيماً، أكسبه فائدة كبيرة. لم يجادل كثيراً مع غوردون بينما عمل معه بسرور، وكان أشبه شيء بساعي بريد يسلّم رسالة إلى منزل

فيه كلب كبير يجهد للتخلّص منه وهو يعوي. لا يمكن لهذا الساعي أن يتجاهله، أو أن يرفض الانتباه له كثيراً. يُمكن للرجل أن يرمي له بقطعة بسكويت، لكنه في النهاية سيقوم بتسليم الرسالة.

أنتجت المراجعة التي أجراها دافيد فرويد للإنفاق على الخدمات الاجتماعية، والتي ركّزت على مساعدات العجز، تقريراً مهماً سمح لنا مع الوقت بإعادة تصميم موازنة الخدمات الاجتماعية.

أعطتنا الاقتراحات التي قدّمها تيرنر وتلك التي قدّمها فرويد فرصةً عظيمةً سمحت لنا بتوصيف الإصلاحات، وتحديدها، وتطبيقها، وهي الإصلاحات ذات الطبيعة الحيوية ليس بالنسبة إلى البلاد فقط، بل أيضاً لبقاء الحكومة. قلت لغوردون بغضّ النظر عن صوابية مجموعتَي الاقتراحات في ذاتها، إننا إذا لم ننفذها نحن فإن حكومة محافظة في المستقبل سوف تنفذها، ولكنها ستفعل ذلك على طريقة حزب المحافظين. يعطينا ذلك سبباً لننفذ هذه الإصلاحات وننسبها إلينا. ستعطينا هذه الإصلاحات فرصةً عظيمةً للبرهنة على صوابية الاستمرار في الإصلاحات والتزامنا إياها.

أعادت هذه الإصلاحات، أساساً، رسم الحدود الفاصلة بين مسؤوليات الفرد ومسؤوليات الدولة. رأيت في ذلك طريقةً مناسبةً لإيضاح العلاقة بين المجتمع والمواطن في القرن الواحد والعشرين. يتعيّن على الناس، وأكثر من سيريدون، أن يتحملوا قسطاً أكبر من الأعباء، وذلك بدلاً من الاستمرار في دفع المزيد من الضرائب العامة، لأنهم على الرغم من استعدادهم التام لتمويل أولئك الذين لا يستطيعون تحمّل نفقات معيشتهم إلا أن كرمهم هذا لا يمتدّ إلى الذين يعتقدون، مع بعض الحق، أنهم يسيئون استغلال النظام. لم أتمكن، ويا للأسف، من حمل غوردون على فهم هذا الأمر.

انشغلت عناوينُ الصحف بالفضائح المعتادة – الحقيقية، والأقل واقعية والخيالية – هذا في الوقت الذي كان يجري كل هذا العمل الجدي والهام من أجل تقرير طبيعة دولة الرفاه البريطانية في المستقبل. تمكّنت في هذا الوقت من فهم أهمية التفاعل مع وسائل الإعلام على ضوءٍ مختلف. إذ تتمكن وسائل الإعلام من تخفيض أرقام

تقدمنا على نحو كبير في استطلاعات الرأي. أما العامل الأساسي للبقاء فقد كان الحفاظ على موقعنا في وقتٍ بدأ الآخرون بخسارة مواقعهم.

مررنا خلال الأشهر الأولى من العام ٢٠٠٦ بتجربةٍ مزدوجة. جرت، وراء الكواليس، تغييرات مهمة في أنظمة الخدمات الصحية العامة، والمدارس، والجريمة، والتقاعد، والخدمات الاجتماعية، أو تم التخطيط لها. جرت كذلك مناقشة التصميم الأساسي لمجموعة حديثة من الخدمات غير مرة في اجتماعات الحكومة، لكن ذلك كان خافياً في مراحل متعددة عن أعين الشعب، وهكذا لم يمتلك الناس فكرة عنها، ولم يمتلكوا فرصة حقيقية للمشاركة في المناقشات. أما وسائل الإعلام فقد كرّست ثقافةً معيّنة في العقدين الماضيين من السنين. كانت الفضائح هي الأهم، أما سياسة الحكومة فأصبحت أقل أهمية (إلا إذا ترافقت مع خلافات، وفي هذه الحالة قد تكتسب أهمية).

تعززت هذه الظاهرة نتيجة تقرير وسائل الإعلام بعد مرور تسع سنين ضرورة إحداث تغيير. أما إذا قرر قسم كبير من وسائل الإعلام، لأي سببٍ من الأسباب – إثارة خلافات حقيقية، أو الملل، أو التوق إلى شيء أو البحث عن شخصٍ جديد جدير بكتابة التقارير عنه – أنه يريد إحداث تغيير، فإنه يستطيع إجراء مجموعة من التحقيقات الصحفية التي تجعل التغيير يبدو ضرورياً، وحتمياً، وغير قابلٍ للنقاش. أقول اختصاراً إن وسائل الإعلام هذه قد استبدلت السياسة لمصلحة الفضائح، وهكذا يبدو للناس أنهم ليس لهم غير حكومة رازحة في هذه الفضائح كافة. وذلك سرعان ما يوحي أن الحكومة لن تستطيع بعد الآن أن تفيد الشعب في شيئ.

دأبت وسائل الإعلام في آخر سنتين لي في الحكم في القول إننا فقدنا القوة، لكن الحقيقة هي أننا كنا نمتلك القوة اللازمة موضوعياً، وعلى الأقل بالنسبة إلى الإصلاحات الداخلية. لكن حملة الصحافة دلّت على نفاد صبرها ومللها من الحكومة.

أسندتُ في ذلك الوقت شؤون الاتصالات إلى دافيد هيل ليحل مكان ألاستير. أعتقد أن الأخير تلقى إشارات من وسائل الإعلام في تلك الفترة الأخيرة، ولذلك اندفع من خلالها مثل رجلٍ مجنون يحمل فأساً في يده! كانت تلك فترةً استثنائية!

برزت في كانون الثاني/يناير قضية روث كيلي وقائمة الذين اشتركوا في انتهاكاتٍ

جنسية. مرّت أيام، وأسابيع، من الغضب المدويّ والتعليقات المحمومة بسبب غلطة اكتُشفت، وتعني أن شخصاً ما قد غاب عن القائمة بسبب الفشل الأوسع للنظام (لكن من دون وجود أي دليل على تضرر أحد بالنتيجة) وذلك كان بالفعل نتيجة وضع نظامٍ جديد قيد التنفيذ.

انفجرت في شهر آذار/مارس الفضيحة التي سمّيت «المال مقابل الشرف»، والتي سأتحدث عنها لاحقاً.

برزت بعد ذلك في شهر نيسان/أبريل قضية تشارلز كلارك ومنتهكي القانون من الأجانب، الذين كان يجب ترحيلهم عن البلاد بعد انتهاء مدة عقوبتهم، لكن ذلك لم يحدث البتة. كان ذلك أمراً في منتهى الجدية، لكن تشارلز أخطأ في محاولة الانفتاح في وقتٍ مبكر جداً، أي عندما كان يتعذّر معرفة الحقائق الكاملة – كانت المشكلة، على غرار أشياء مماثلة كثيرة، موجودة، قبل تسلّمنا السلطة بوقتٍ طويل – وهكذا عانى أذىً كبيراً ترافق مع عواقب سيئة بالنسبة إليّ، وإليه، وإلى الحكومة.

تتسلط الأضواء، وكما يحدث مع أيّ قضية مشابهة، فجأةً على زاوية ظلّت مظلمة لأوقاتٍ طويلة. أعتقد أن هذا أمرٌ طبيعي تماماً، لكن ما يحدث بعد ذلك هو إسناد مواقف إليها بمفعولٍ رجعي، وهكذا ينتهي الأمر بإحساس فائق السذاجة بالتصرّفات الخاطئة. وهكذا عندما انكشفت «فضيحة» المنتهكين الأجانب أصبحت الموضوع البارز في الأخبار، وأعتقد أن هذا أمر مفهوم تماماً. كان تركيز الصحافة على هذه القضية شديداً جداً، وأصبح كل تفصيل صغير عنواناً رئيساً آخر وكأن السياسي المعني، وهو تشارلز، لم يكن يفعل شيئاً في الأشهر الماضية، وهكذا فقدَ كفاءته لأنه لم يتنبه للأمر برمّته. ظهر، بطبيعة الحال، شخص ليقول: أوه، نبهتهم جميعاً إلى هذه (عادة ما تكون إشارة عرضية في الفقرة ١٩٣ وردت في مذكرةٍ ما)، وهكذا تحول الغضب إلى هستيريا.

علينا أن نتحمّل الأمر على أيّ حال، لكنني امتلكت مهارةً كبيرةً في النهاية في مواجهة أنواع الإثارة المشابهة لها جميعاً. على المرء أن يعرف التفاصيل بسرعة، وذلك قبل أن يصعق الناس بالحقائق، والسياق، والنقيض، والتفسير، وفنّ التعمية بمهارة.

برزت قضيةٌ أخرى، وكأن ذلك كله لم يكن كافياً، كان بطلها جون بريسكوت ومساعدته الشخصية ترايسي تمبل.

إنه لأمر غريب هذا الذي يجري بين السياسة والجنس. قال لي الناس غير مرة إن السلطة نوع من الشهوة، حيث إن السياسيين تأتيهم النساء بطريقة لا يحلمون بها مع الأخريات وسط بيئة السلطة التي يهيمن عليها الذكور. أعتقد أن هذا القول يحمل نوعاً من الصحة، لأننا نجد معظم السياسيين في واقع الأمر، في جهة «منه» من دفتر «أستاذ» النظرات القوية. يصدق القول ذاته على أصحاب المليارات البشعين الذين يرافقون نساءً حسناوات. ماذا ترى النساء فيهم؟ أعتقد أن السبب واضح جداً.

أما المهم في الأمر فهو السبب الذي يدفع السياسيين إلى خوض هذه المخاطرة. تقول نظريتي إن السبب يرجع بالتحديد إلى الانضباط الذاتي القوي الذي يتعيّن على المرء أن يبذله قبل الوصول إلى القمة. يعيش السياسيون مع الضغوط، ولذلك يتعين عليهم الخضوع للتحكم الشديد في الذات كي يصلوا إلى أي منصب يريدونه، ويتعين على شخص ما أن يراقب أفعالهم وأقوالهم وتصرفاتهم. تتدخل هنا الغرائز المتحررة التي تريد انتشالك من سجن التحكم الذاتي. تأتي بعد ذلك لحظة المواجهة، وهي لحظة مثيرة جداً، وشرّيرة جداً، وهي تخلو من أي تحكم ذاتي. وهكذا تنتقل فجأة خارج عالمك المليء بالدسائس والقضايا والتخطيطاتّ التي لا تنتهي، والأمور الجدية التي تتراكم فوق أمور جدية أخرى، إلى جزيرة مسرات صحراوية بعيدة عن المتاعب كلها، ومليئة باللهو. يتحول المرء هكذا إلى شخصٍ آخر، ولو للحظةٍ واحدة، حتى يعود إلى عالم الواقع.

إنني، بالمناسبة، لا أورد هذا القول على سبيل العذر، إذ من الحمق أن يضع الإنسان نفسه في هذا الموقف الذي يدلّ على الرعونة. أما عندما ينكشف الأمر فإنه يؤدّي إلى أذىً كبير بالنسبة إلى المحيطين بك، وهنا يصبح السياسي ساذجاً بشكل استثنائي وغير مفهوم. يُمكن للسياسي هنا أن يختار بين مجموعة من الخيارات الأكثر أماناً، لكنه لا يفعل ذلك، لأنه ينفتح مع أول شخص يبدي اهتماماً به، ويتخيّله بإخلاص (وبزهو)، ويحبه كإنسان، وكذلك لأي شخصٍ لا يفكّر ولا يتصرّف مثل رفقائه السياسيين.

أما ما يميّز السياسة فهو أنها، على مستوى معيّن، مملّة جداً جداً. تبقى القضايا هي ذاتها، وهي كبيرة وهي السبب الذي يدعو المرء عادة إلى دخول عالم السياسة، لكنّ ضخامة هذه القضايا تتلاشى بسهولة بطريقةٍ ما في بيئتها. تمرّ الأيام، وتُعقد الاجتماعات المتتالية، ويُصبح العمل في منتهى الإجهاد. في أحيان كثيرة تلتقي أشخاصاً استثنائيين وملهِمين، وأنا أعتبر نفسي محظوظاً على نحو يفوق التوقعات بالأشخاص الذين يعملون معي، وهم الذين كانوا بالإجمال مرحين، بالإضافة إلى إتقانهم لأعمالهم. تميزت العلاقات داخل مكتبي وبيني وبين زملائي من النواب والوزراء بالمرح والضحك على الدوام، بالترافق مع تعليقات ساخرة على الحياة السياسية، وتعلق أكيد بالحياة. إنني أختار، إذا تعيّن عليّ الاختيار، أشخاصاً متفائلين ومستبشرين بالحياة كي يكونوا بقربي.

هناك في الغابة مستنقعات، ووحوش تفترس البشر، إلى جانب بيروقراطية غريبة تثير الإحباط، فهي من النوع الذي يجيد النقاش، وكذلك وسائل إعلام محمومة، واجتماعات مضنية.

يعتبر عدد كبير من زملائي السياسيين أن القسم المتعلق بالحيوية وحب الحياة مفقود بوضوح، وأنهم لا يلاحظون سوى وجود المستنقع. فهمت تماماً الرغبة في الهروب، وفهمت كذلك أن الأمر لا يتعلق أبداً بمدى سعادتك بزواجك. إنه انفجار اللامسؤولية في حياة مليئة بالمسؤولية. يترافق هذا الانفجار، ويا للأسف مع عواقب معينة، مثلما هو الحال مع الانفجارات المشابهة.

كنت ذات مرة مجتمعاً مع زائر أجنبيّ عندما ألحّ غوس أودونيل، الذي حل مكان آندرو تيرنبول في منصب أمين عام مجلس الوزراء، أن يراني مع جوناثان بويل. أدركت أن ذلك لا يحمل أنباءً سارة بالمرة. يمكنني أن أقول مع ذلك إنني توقعت حدوث أمرٍ استثنائي لا يتعلق بجون بريسكوت وترايسي.

أخشى أن أقول إنني تعاملت مع الأمر في البداية بشيء أقل جدية مما كان يجب، وأعتقد أن ذلك كان خطأً من جانبي. شعرت بالأسف من أجله، وفوق ذلك كله من أجل زوجته بولين، كما بالنسبة إلى ترايسي. أما ما لا يدركه أولئك الذين ينقلون فضيحةً كهذه هو أنهم على وشك إعطاء تعريف لأنفسهم يستمرّ إلى الأبد.

يُمكن للسياسي أن يتعافى، أقلّه جزئياً، أما الذين ينقلون هذه الأخبار فلا يمكنهم ذلك، لأنهم مجرد ملاحظة بسيطة في قصة واحدة. إن خيارهم الوحيد هو إما كسب معيشتهم من قصتهم هذه وإما الهلاك معها. يُعتبر الخيار الأول مذلاً وموقتاً، أما الخيار الثاني فهادئ على الأقل، لكن الحقيقة تبقى مع ذلك لأن الجميع يميزهم من خلال تلك القصة. لا أعتقد أن بإمكان أي مبلغ من المال تعويضهم عن ذلك. اتضح لي، على أي حال أن ترايسي لم تفعل ما فعلته من أجل المال، لكنّ القصة انكشفت نتيجة سوء الحظ بقدر سوء النية.

قضينا منذ ذلك الحين أوقاتاً صعبة، وما زاد الأمر سوءاً هو أن كونها موظّفة قد زاد من صوابية الانتقاد أكثر من المعتاد. صمّمت، على الرغم من ذلك، على عدم السماح لجون بترك منصبه، وهو الذي كان رجلاً يُعتمد عليه في الحزب، وكان، بالإجمال، مخلصاً وداعماً وجريئاً جداً في بعض الأوقات. أعرف أن منصب رئيس الوزراء كان إنجازاً بالنسبة إليه، وهو الإنجاز الذي افتخر به كثيراً، بحق. إن صرفه من منصبه بسبب ما تبيّن في النهاية أنه فضيحة جنسية سخيفة كان يعني إنهاء حياته المهنية بطريقة تحمل جحوداً للخدمات كلها التي قدّمها.

وضعته وسائل الإعلام تحت أنظارها مباشرة، ووضعته مكبلاً تحت مرمى نيرانها. أما جون فلم يبذل جهداً في إظهار كراهيته لوسائل الإعلام التي لم تخفِ بدورها كراهيتها له. دأبت هذه الوسائل في توجيه ضرباتها إليه حتى يوم مغادرته لمنصبه، وكانت تستخدمُ أحياناً مدفعيةَ كراهيتها الثقيلة، وكانت تنفخ في أحيانٍ أخرى في أبواق سخريتها، وقد فعلت ذلك في الحالين بابتهاج لا يرحم لتدميره.

تركت الهجمات أثراً مؤسفاً بالنسبة إليّ. كنت أعرف أن من الأفضل لي، ولأسباب أنانية، أن أصرفه من منصبه. كان من شأن هذه الخطوة تسليم رقبته لوسائل الإعلام، كما أنها سمحت بإجراء بعض التغييرات في المناصب العليا، حتى ولو تحول ذلك إلى منافسة بين طوني بلير وغوردون براون، ولكانت هذه الخطوة أبرزت بعض الأشخاص. لكني لم أتمكن من الإقدام على هذه الخطوة. كانت بولين مصمّمةً على أن يبقى في منصبه، وهي في رأيي بحق (امرأة تتمتع بمزايا أكثر مما يتوقّعه الآخرون). لم ترغب قط أن تقرن اسمه بتلك القضية [الغرامية] إذا كان لنا أن

نسميها كذلك. كانت المرأة متعقلة، ولهذا أدركت أبعاد ما تعنيه هذه القضية، وما لا تعنيه. شعرت بولين بأنها تعرّضت للخيانة، لكنها لم تشعر بأنها متروكة، وهكذا كانت غاضبةً أكثر مما كانت يائسة. شعرت بأن عليّ اتخاذ القرار الصحيح بدوري، وهكذا بقي جون في منصبه.

لكن كل ذلك الإزعاج الذي ترافق مع هجوم وسائل الإعلام نال من عزيمة جون. لم يشعر منذ تلك اللحظة بمتعة البقاء في منصبه. كان لديه شعور بالتحدي، لكن ليس بالبهجة. أراد أن يستقيل، لكن كان من الصعب بالنسبة إليه مغادرة منصبه من دون أن أترك منصبي بدوري. تحولت رغبته في الرحيل، ببطء ولكن بإصرار، إلى الاعتقاد أن الوقت قد حان لإجراء تغيير في القيادة. كانت هناك عوامل أخرى بطبيعة الحال، لكن هذا العامل لم يكن ضئيلاً.

كانت تلك أكثر الفترات غرابة، وكان برنامج الإصلاحات في أوج نشاطه. شعرت بأنني أمسك بزمام القضايا المطروحة، لكني أحسست بنوع من فوضى الفضائح والخلافات من حولي. تمكنت من مكاني العالي بين الأشجار، وبين شركاء روحي، من تجديد قواي الذهنية والجسدية قبل المغامرة بالعودة إلى أرض الواقع. تمكنا من شقّ طريقنا من خلال الأرض الوعرة بمزاج جيد وإرادة قوية بقدر ما استطعنا ذلك. لكن شعورنا بأننا تحت الحصار كان مبرّراً.

أدى هذا الوضع كذلك إلى وقوعي في الخطأ. قررت إجراء تغيير وزاري بعد انتخابات أيار/مايو من العام ٢٠٠٦، وهي كانت سيئة، لكن، بصراحة، كان من الممكن أن تكون أسوأ بكثير. كان هناك نوع من التقليد الذي يفرض إجراء تغيير كهذا كل سنة. أعتقد أن من الواضح أن الحكومات كافة تحتاج إلى إجراء تغيير من أجل بثّ دماء جديدة فيها. يُضاف إلى ذلك أن رئيس الوزراء، أو الرئيس، ينشغل دائماً بنوع من أنواع المفاوضات حول وضع حزبه، وهو ما يتطلب تلبية طموحات زملائه. تُعتبر بعض الطموحات معقولة، وبعضها الآخر غير معقول، لكنها معقولة دائماً بالنسبة إلى الذين يتمتعون بها. وإذا لم يُرقِّ المرء شخصاً ما فسيكرهه. يبحث المسؤول دوماً عن طرق مناسبة من أجل إبقاء المستبعدين عن الترقيات على حماستهم للحزب، لكن أريد أن أقول انطلاقاً من تجربتي إن ذلك لا ينجح إطلاقاً إلا إذا أعطيتهم شيئاً مهماً بالفعل يكون بديلاً من منصب الوزير، هكذا يشعرون بالرضا

لأنهم لم يتعرضوا للخداع، وبطبيعة الحال إن ذلك كله يظهر في وسائل الإعلام، لكنها تترك انطباعاً بأنهم سوف يُعفون من مناصبهم. أما الشخصيات الطيبة في ظروفٍ كهذه فيبدو أنها أقلية مميزة.

يعني ذلك كله أنني كنت مضطراً لإجراء تغيير وزاري. ولي نصيحة في هذا المجال: يتعيّن على المسؤول منح ترقيات، أو تخفيض مراتب، لغايةٍ معينة وليس لمجرد إحداث تأثير. أما في ذلك الظرف فقد صمّمت على التركيز علىٍ هذه القضية، وإظهار أننا نحافظ على حيويتنا، وأنني ما زلت أحكم للمستقبل. فكرت في تعيين تشارلز كلارك وزيراً للخارجية، لأنني اعتقدت أنه سيقوم بمهمته خير قيام. تبيّن لي بعد ذلك وجوب أن أقوم بهذه الخطوة، لكن كانت له علاقة بقضية «منتهكي القانون الأجانب». توافر لنا سبب قويّ لإبقاء جاك سترو في منصبه. قام جاك بعملٍ رائع، وكان محطّ إعجاب زملائه من وزراء الخارجية. لم يكن ثمة سبب قاهر يدعوَ لنقله، غير أنه بقيَ في منصبه لفترة خمس سنوات، لكنني حين أفكر في الأمر أعتقد أن نقله من منصبه لأجل ذلك السبب كان سيبدو حمقاً خالصاً. فكرت كذلك في تعيين دافيد ميليباند، لكنني قررت إبقاءه في منصبه من أجله، لما في ذلك من تعزيز مركزه في الحزب.

اتخذت في النهاية سلسلة قرارات «أسوأ ما في هذا العالم». أسندت إلى دافيد وزارة البيئة، ونقلت مارغريت بيكيت من تلك الوزارة إلى وزارة الخارجية. صُدمت مارغريت أكثر مما ابتهجت بهذه الترقية. أما جاك فقد انزعج بسبب استبداله، وهو أمرٌ متوقع. عرضت وزارة الدفاع على تشارلز، لكنه رفضها، حماقةً على ما أظنّ، وهكذا عاد إلى مقعده في البرلمان. كان الأمر مجرد فوضى في الوقت غير المناسب، ومع أشخاص غير مناسبين، لكني كنت أحتاج إلى أشخاص يقفون إلى جانبي. تضمّنت هذه الحركة بعض الترقيات المناسبة لأشخاص أصغر سناً مثل دوغلاس ألكسندر، وجايمس بيرنيل، وآندي بيرنهام، وجيم مورفي. قدّمت هذه التغييرات إجمالاً خدمةً قليلة للحكومة، لكنها تسببت لي بقدرٍ كبيرٍ من الأذى.

ظهرت الحرب الإسرائيلية ـ اللبنانية في العام ٢٠٠٦، وكأن ما حدث في الحكومة لا يكفي. تسببت تلك الحرب، وردة فعلي إزاءها بضررٍ أكبر لي من أي شيء آخر منذ قضية العراق. أظهرت تلك الحرب مدى ابتعادي عن الآراء السائدة

في وسائل الإعلام الغربية، وعن شعبي، لكنها أظهرت كذلك مدى جمودي في نمط التفكير الذي أتبعه.

أظهرت هذه القضية برمّتها مدى الصعوبة التي نلاقيها في الصراع الحديث، وغير المتكافئ، الذي نخوضه. شنّ حزب الله هجوماً على إسرائيل. كان مستوى الهجوم منخفضاً، لكنه أسفر عن مقتل عدة جنود إسرائيليين. كانت غزّة في ذلك الوقت مدينةً مقفلة، وذلك بعد سيطرة حماس عليها وطردها للسلطة الفلسطينية. شدّد الإسرائيليون حصارهم على غزة وبدا أن عملية السلام لن تؤدي إلى أي نتيجة. أطلقت حماس عدة صواريخ على بلدات إسرائيلية، لكن حزب الله ما لبث أن فتح جبهةً جديدة.

كان الهجوم الذي شنّه حزب الله استفزازاً متعمداً. سبق لإسرائيل أن انسحبت من لبنان، على الرغم من أن قضية مزارع شبعا بقيت عالقة، وهي التي تتعلق بالأراضي التي احتلتها إسرائيل في الثمانينيات ولا تزال محتلةً حتى الآن، وهذا هو، نظرياً، السبب الذي يقول حزب الله إنه يحتفظ لأجله بأسلحته. لكن مساحة هذه الأراضي صغيرة. لا تشكل هذه القضية مشكلةً لأي طرف، لكن التحديات الحقيقية داخل لبنان كانت تتعلق بالازدياد البطيئ والثابت لتحكم حزب الله في البُنى السياسية والعسكرية للبلاد. كان لبنان دولةً ديمقراطية، أما بيروت فقد أُعيد بناؤها منذ الكوارث التي حلّت بها في مطلع الثمانينيات. لكنّ التوتّرات المهمة الكامنة في هذه البلاد، كما في باقي بلدان المنطقة، تولدت من صراع أكبر بكثير، واستمرت بدلاً من أن تتلاشى. كان ذلك البلد ينعم بالسلام، لكنه سلامٌ هشّ، وبقي السياسيون المؤمنون بالديمقراطية فيه تحت التهديد، كما تعرّض عدد منهم، مثل رفيق الحريري، للاغتيال، وكان النفوذ السوري منتشراً. إن لبنان بلد الجمال، والتاريخ، والأمل، لكنه بلد يجتذب لنفسه كل الأجواء المسمومة التي تعمّ منطقة هي أساساً في طريق التأكل.

ردّت إسرائيل على ذلك الاستفزاز بطريقتها. كوّن الإسرائيليون اقتناعاً معيناً مستمدين هذه النظرة من فهمهم للتجارب التي مروا بها: إذا تعرضتَ للاستفزاز فلا تُدِر الخدّ الآخر، بل اضرب بكل قسوة، وإذا اقتلع عدوك عيناً فاقتلع عينيه الاثنتين. يعتقد الإسرائيليون أنهم إذا أظهروا أي إشارة تدل على الضعف فإن تاريخهم القصير كدولة، الذي يبلغ ستين عاماً، سينتهي.

ليس هناك جدال، أو شك، في الجهة التي بدأت الحرب. لاحظتُ أن نمطاً مألوفاً في هذه المسألة قد بدأ بالبروز. تتعرض إسرائيل للهجوم، فتسارع إلى الرد. هنا تكمنُ المشكلة. يقف الناس [الرأي العام] في البداية معها. أما وراء الكواليس فثمة كثيرون في منطقة الشرق الأوسط ممن يساورهم القلق من روابط حزب الله مع إيران، الذي يعتبرونه، مثل حماس، وكيلاً للنفوذ الإيراني، قد ألحوا، سرّاً، على إسرائيل في تدمير حزب الله. أما الرؤساء الغربيون الذين رأوا تزايد ذلك النفوذ فقد نصحوا إسرائيل في بداية الحرب بالوقوف بصلابة والضرب بقسوة.

انعقدت قمة للدول الثماني في سانت بطرسبرغ، بالتزامن مع بداية الحرب. وقد اكتسبت هذه القمة أهميةً كبرى لسببين. تضمّنت القمة إحدى لحظات «جورج» العظيمة. حدث ذلك من دون أن يتنبه جورج إلى أن الميكروفونات في قاعة الاجتماعات مفتوحة. حيّاني جورج بالطريقة المعروفة عنه وقال: «أنت Yo، يا بلير». مضينا في حديث تم تسجيله رسمياً إلى أن انتبهت إلى أن أحداً يصغي إلينا، لكن الحديث كان مرحاً، وكان يمكن أن يكون أسوأ آلاف المرات. شعر الناس في بريطانيا بالاستياء الشديد، لأنهم وجدوا، لسبب ما، إهانةً موجّهةً إلى بريطانيا، وهكذا أصبحنا في حالة لم نعهدها سابقاً: بتنا شعباً شديد الحساسية. أما أنا شخصياً فلم أجد في هذا الحديث شيئاً يدعو إلى الحساسية، وهكذا اعتبرت أن تحيته لي بعبارة «أنت، يا بلير» هي نوع من الدعابة. أعتقد، في واقع الأمر، أن العبارة تدلّ على مودّة حقيقية. كان جورج أقلّ الناس ميلاً للخشونة أو العدائية من بين الذين أعرفهم جميعاً من سياسيي الصف الأول. كان يتحدث إلى ألاستير وجوناثان بطريقة تخلو من الشكليات التي لا يتحمّلها معظم الرؤساء. تعود ألاستير خصوصاً ممازحته بطريقة لم يسبق لأحدٍ أن استخدمها، حتى من أولئك المقربين إليه، وأعتقد أن جورج كان يرتاح إليها. زارت مجموعة من أصدقائي البيت الأبيض، وكان ليو معهم، لكن من دوني ومن دون شيري. صودف وجود جورج في مكتبه فسمعهم. فخرج من مكتبه بعد ذلك ورافقهم في جولة في أنحاء البيت الأبيض شملت المكتب البيضوي، والتقط صوراً وإياهم، وكان مرحاً ورائعاً معهم. لم يكن مضطراً لذلك، ولم يدفعه أحد إليه، لكنه قام به بكل بساطة.

وهكذا كانت عبارة «أنت، يا بلير» مجرد دعابة، لكني، ويا للأسف، كنت الوحيد الذي فهمها!

كان ذلك حدثاً بسيطاً على أي حال. أما الموضوع الآخر فكان المناقشات المتعلقة بلبنان. لكن المثير في هذا الموضوع، ووراء التصاريح المعتادة والقرارات والمؤتمرات الصحفية كافة، كان الاعتقاد السائد أن حزب الله هو الذي تسبّب بهذه الحرب، فإذا ما تمكّنت إسرائيل من إخراجه من لبنان فسيكون ذلك أفضل.

يعرف الجميع، بطبيعة الحال، الأمور التي حدثت بعد ذلك. انتقمت إسرائيل بقوةٍ شديدة، لكن حزب الله ردّ بإطلاق الصواريخ. كان المثال الحتمي الصارخ والظاهر لهذه المعركة هو: القوة «الغربية»، التي تمتلك أسلحة متفوقة، وتتسبب بالدمار. تحوّل القلق الدولي في غضون أيام من التحريض إلى الانتقام. وتحولت إسرائيل فجأةً إلى الطرف المعتدي. كان الضرر الحاصل مثيراً للصدمة بالفعل. لكن هذه هي، على الدوام، حال القوة التي تُستخدم بهذه الطريقة. لم يكن البديل واضحاً، فإذا كان الردّ ضئيلاً فإنه سوف يسفر عن تقوية المستفزين. اعتبر الرأي العام في إسرائيل أن الردّ ضئيلٌ جداً. أما في بريطانيا، وفي كل مكان آخر ما عدا الولايات المتحدة، فكان ردّ فعل الرأي العام أن الردّ قد ذهب بعيداً جداً.

إن هذا الإجراء لا يترافق مع الفاعلية بسبب طبيعته، هذا إذا كنا نعني بالفاعلية إلحاق الهزيمة بالعدو. هذه هي نقطة هامة في الحروب الحديثة. كان حزب الله، ولا يزال، حركة حرب عصابات متمدنة. يستهدف الحزب المدنيين عمداً. إنه يمتلك أسلحةً ليست بالثقيلة، وهكذا يقتل عدداً قليلاً نسبياً من المدنيين. إنه يُبرز نفسه على أنه ملاذ المحرومين المستضعفين. أما إسرائيل فهي حكومة لديها جيش فائق التسليح، ويتمتع بتدريبٍ عالٍ وقواتٍ جوية. إنها لا تستهدف المدنيين. لكن أقوى سلاح تمتلكه إسرائيل هو الردع في بيئة تعجّ بالمدنيين، وفيها حركة حرب العصابات [المقاومة]. هذا هو السبب الذي يدفع بإسرائيل إلى محاولة تجنب هجمات إضافية. يُقتل في النهاية عدد كبير من المدنيين، وهكذا يرفع [حزب الله] راية المضطهدين.

أما الرأي العام العالمي الذي فهم عنصر الاستفزاز في البداية، فقد استاء بسرعة من المشاهد الليلية للمذابح التي تجري بحق الضحايا اللبنانيين الأبرياء. تحوّل هذا

الاستياء إلى إدانة تتسم بالحدة. برز أمامي بعد ذلك الخيار السياسي الذي ألحق بي ضرراً حقيقياً ودائماً. اجتمع الرأي العام الأوروبي بسرعة حول المطالبة بضرورة توقف الإسرائيليين، من جهة واحدة، حتى ولو استمر حزب الله بإطلاق الصواريخ. أما الرأي العام الأميركي فقد كان مختلفاً جداً، إذ أظهر أن ٦٠ بالمئة من الأميركيين يدعمون التحرك الإسرائيلي.

شعرت بأن من الخطأ الدعوة إلى وقف العمليات الحربية من جانب واحد، لأن ذلك يجب أن ينفذ من الجانبين، وهكذا يجب علينا ألاّ نتوقع من إسرائيل التوقف عن العمليات إلا إذا توقف إطلاق الصواريخ. لم تكن هذه وجهة النظر التي يتبناها معظم الناس، الذين شعروا بأننا غير مكترثين للمذابح التي تحدث. أما أنا فاعتبرت أن إيهود أولمرت، رئيس الوزراء الإسرائيلي، واقع بالفعل في ورطة. فلو كنت مكانه لاعتبرت هذا المطلب مستحيلاً إلا إذا أوقف حزب الله عملياته بدوره، أو على الأقل إذا هُزم، أو كما حدث أخيراً، بعد أن تلقى لبنان ما يكفي من الآلام بحيث لا يعود حزب الله يشعر بإمكانية معاودة ما فعله ثانية. كانت تلك طريقةً فظيعةً للردع، ورهيبة جداً بالنسبة إلى لبنان. لكني تمكنت من رؤية الوضع من جهة حزب الله، كما من جهة إسرائيل.

كانت عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية تكمن وراء كواليس كل ما يحدث، ومع توقّف عملية السلام كانت الاحتمالات مفتوحة على الأمور السيئة كافة. أما إذا تحركت هذه العملية فإن كل نفقٍ – في منطقة مليئة بمثل هذه الأنفاق المظلمة – كان يكتسب بعض الضوء على نحو مفاجئ. يعود كل شيء في رأيي إلى المشكلة ذاتها، التي يُعتبر الصراع الإسرائيلي الفلسطيني مظهراً لها، وليس سببها. استُخدم الصراع الإسرائيلي الفلسطيني كمصدرٍ فعال للاحتكاكات والحروب بسبب الاختلافات الدينية.

ربما يكون احتلال فلسطين ظلماً. يعتمد ذلك على وجهة نظرك، لكن المنطقة تعجّ بمظالم كثيرة. أما العامل الذي حوّل هذه المنطقة إلى تهديد للأمن العالمي فهو كون القدس مدينةً مقدسةً بالنسبة إلى المسلمين، وهي ثالث أقدس الأماكن الإسلامية، وذلك لأن النبي [ص]، بالنسبة إلى الإسلام، أُسري به إلى هناك ليلاً، وهكذا فاحتلال هذه الأراضي هو بمثابة إهانة، وتحقير، والأهم من ذلك كله أنه يُعتبر

رمزاً للضعف الإسلامي. أعاد الاحتلال إلى الأذهان كل بعدٍ من مشاعر الأذى التي لحقت بالمسلمين بدءاً بالحروب الصليبية وما تلاها. كان الاحتلال يعني إهانة الدِّين وتعرض الناس للاضطهاد بسببه.

بدأت ملامح الحل تظهر تدريجاً، وتدريجاً جداً، مع أخذ خطوات تجريبية في حين تطلّب الأمر خطواتٍ قوية. كان هذا الحل بمثابة تسوية. لإسرائيل دولتها، ثم تنشأ بعد ذلك دولة فلسطين وتظهر للوجود. أما القدس فتخضع أراضيها للتقسيم، بينما يتم التشارك في الأماكن المقدسة.

بدا أن هذه الإجراءات تمثّل حلاً – ليس هناك من حلّ آخر – لكن التوصّل إلى هذا الحل حمل معه شتى أنواع العقبات الأخرى. يعني ذلك كله أن التوصّل إلى حلّ بسيط بالفعل تطلب عملية معقدة على نحو مخيف. كانت النتيجة تحقيق اختراقات بين وقتٍ وآخر، لكن تخلّلتها فترات طويلة من الانتكاسات أو السير في طريق بعيد عن الطريق الصحيح. أما حين تتقدم العملية فإن كل شيء يبدو أفضل، وحين تتعثر تحدث أشياء سيئة، بحسب ما كنت أقول. أما الصراع في لبنان فهو مثال آخر.

استمرت الحرب لفترة أطول مما يجب. أما ابتعاد إسرائيل عن المجتمع الدولي – وهذه المرة عن الرأي العام العالمي وليس عن الحكومات – فقد ازداد سوءاً. شعرت بالأذى تبعاً لذلك من هذا الوضع لأنني أحد الأشخاص القليلين الذين يبدون استعداداً لتفهم وجهة نظرها.

زرت بيروت في شهر أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٦. كنت طوال تلك الفترة على تواصل مستمرّ مع رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة. إنه رجلٌ محترم كثيراً، لكنه كان مترجّحاً تماماً بين كراهية حزب الله واستحالة القيام بأي شيء إزاء التحرك الإسرائيلي غير الإدانة الشفهية القوية. هبطت طائرتي العسكرية، ثم ركبنا السيارة من المطار مع مرافقة أمنية مشدّدة كالمعتاد. لا أعتقد أن من المفاجئ القول إن عدداً كبيراً من اللبنانيين لا يحبونني، لكن كبار القادة السياسيين في هذا البلد، كالعادة، كانوا يفهمون تعقيدات الوضع، والأهمّ من كل شيء آخر، فهموا أن انتصار حزب الله سيكون بالنتيجة مأسوياً لمستقبل البلاد. اجتمعنا في مكتبه الكائن في الشطر القديم من المدينة [وسط المدينة]. لاحظت مدى جمال هذا الشطر من المدينة على

الرغم من انشغالي بالأمور السياسية، وبمدى الغنى الذي يتميز به تاريخ هذه المنطقة، وفكّرت في أديانه، وفنه، وحضارته.

كان الرجل وقوراً وودوداً. أبلغني رسالةً صريحة: لن يكون هناك سلام في المنطقة إلا إذا حُلّت القضية الإسرائيلية الفلسطينية. قال لي: «وكل شيء يصبح ممكناً مع هذا الحل، وبدونه يصبح كل شيء مستحيلاً». تعهدت مجدّداً أن أفعل كل ما بوسعي من أجل إقناع الرئيس الأميركي بإعادة تركيز جهوده على هذه القضية.

اجتمعت كذلك مع عددٍ من الوزراء، وكان بعضهم من المسلمين، وبعضهم من المسيحيين، وبعضهم من الدروز. أعرب جميع هؤلاء عن امتنانهم لأن أحداً ما جاء كي يراهم. كان رأيهم الذي يريدون نقله لي محزناً ومؤثّراً على نحو استثنائي: تقف بلادهم على شفا هاوية، ولا بدّ من إنقاذها، لكن مصير البلاد يعتمد على حسم صراع النفوذ في المنطقة برمّته. قال لي عدد منهم إن عدداً من زملائهم قد اغتيلوا على مدى السنوات الماضية، وكانوا يُستفردون تقريباً واحداً إثر آخر، وربما يكون ذلك قدرهم، لكنّ روح البلاد المعنوي كان عالياً مع ذلك، وسيقوى مع الوقت. حدثت بعض الفوضى المنظمة أثناء عقد المؤتمر الصحفي في ختام زيارتي، الأمر الذي احتل صدارة الأخبار بطبيعة الحال.

جلست مع السنيورة فأدركت أن أزمتي السياسية المتعلقة بي أصبحت أكثر حدة، بل إنها قاضية في حقيقة الأمر. تساءلت في بعض الأوقات عن السبب الذي يمنعني من الإذعان والإقدام على إدانة إسرائيل ودعوتها إلى التوقف عن القتال من جانب واحد. كان الإسرائيليون سيتفهمون الوضع، كما أن هذه الخطوة سوف تكون صمام الأمان المثالي الذي يمنع عني الانتقاد السياسي العنيف.

تمكّنت في هذا الوقت من رؤية النهج التقليدي الصرف في معالجة هذه المشكلة، وذلك بوصفه جزءاً منها، وبالمناسبة، ما هي المشكلة؟ هذا هو أول سؤال وجيه. يعتبر معظم الناس الذين قرأوا الأخبار في تموز/يوليو من العام ٢٠٠٦، أن المشكلة كانت هي النزاع القائم بين إسرائيل ولبنان. أما أنا فلا أنظر إلى الأمر على هذا النحو، لأنني حدّدت المشكلة على أنها الصراع الأوسع بين نزعات التطرف

الديني في الإسلام وبين الآخرين منا. إنني أعتبر أن لبنان واقع في شيء أكبر وأكثر أهمية من مجرد حربٍ موقتة مع إسرائيل. إنني أعتقد في الحقيقة أن قضية إسرائيل هي جزء من الصورة الأوسع.

أمكنني، بطبيعة الحال، ملاحظة أن رد الإسرائيلي لم يكن متناسباً [مع الهجوم عليها] على مستوى معيّن. تمكنت كذلك من ملاحظة لامعقولية بعض المواقف الإسرائيلية. لاحظت الظلم الهائل الذي يعانيه الفلسطينيون. لكنني استنتجت أن أياً من هذا كله لا يصل إلى جذر المسألة، وهي الكامنة في هذا الصراع الأعمق والأوسع الذي يؤثّر في منطقة الشرق الأوسط بأسرها وفي الدين الإسلامي. إذاً، ماذا يعيق عملية السلام؟ هل هي مزارع شبعا؟ كلا، ليس ذلك هو السبب في واقع الأمر. هل هو الخلاف على حدود العام ١٩٦٧، أم مسألة تبادل الأراضي بين الإسرائيليين والفلسطينيين؟ لنكن واقعيين. يُمكن للأشخاص شبه المنطقيين أن يجدوا طريقاً للحل من خلال هذه القضايا في يوم واحد إذا أرادوا ذلك، أي إذا سمحت لهم بذلك القوى المؤثّرة في ذلك الصراع الأوسع.

أما بالنسبة إليّ، فإن المرء لا يستطيع أن يفهم حزب الله إلا إذا فهم دور إيران، ولا يستطيع أن يفهم لبنان إلا إذا فهم سوريا، كما لا يستطيع فهم حماس إلا إذا فهم هذين البلدين [سوريا وإيران]، ولن يستطيع أن يفهم أي بلد منهما في حالته الحاضرة إلا إذا فهم التاريخ، وليس ذلك المتعلق بالمنطقة بل بالدِّين، وكيف ينظر إلى نفسه، وكيف تطور بحسب ما يرويه ذلك البلد، وكيف ينظر إلى أزمته. أما هنا [في لبنان]، وكما هو الأمر تماماً في العراق أو أفغانستان، فتتنافس تيارات متناقضة من التحديث والتخلف. لا يكمن الحل، بالنسبة إلي، في الاستخدام الوحيد للقوة الشديدة فقط، ولا في الاستخدام الوحيد للقوة الناعمة، بل في استخدامهما معاً.

سبق لي أن أوضحتُ بأنني فكّرت تكراراً في هذه المسألة بعد أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠١ وما بعده. ساندتُ الموقف العسكري الحازم من جانب الولايات المتحدة: وماذا كان يمكننا أن نفعل غير ذلك بعد موت آلاف الضحايا الأبرياء في ١١ أيلول؟ وماذا أمكننا أن نفعل بعد أن أصبح الإرهاب السلاح المفضّل للقاعدة وللعناصر المدعومة من إيران في العراق، وكذلك هو المفضّل عند طالبان في أفغانستان. آمنت بقوة بأن علينا مكافحة الإرهاب، وليس الاستسلام له.

سبق لي، على أي حال، أن جادلت بأن القوة لوحدها لا يمكنها ضمان فوزنا في هذا الصراع. يتعيّن علينا، إلى جانب القتال، أن نبذل، بالقدر ذاته، جهداً نشطاً لا يلين في سبيل السلام، وعلى الخصوص بين إسرائيل وفلسطين، وفي سبيل المصالحة ومدّ الجسور بين الأديان والثقافات المختلفة، وذلك من أجل توحيد الأشخاص ذوي النيات الطيبة، مهما كان إيمانهم، ومن أجل تقبّل عالم حديث يسوده التعايش.

أسفرت قسوة الصراع العسكري، والأخطاء الحتمية والحوادث التي ترافقه، عن ظهور انقسام في الرأي العام العالمي. هناك أشخاص اعتبروا فعلاً أن بوش ذاته هو المشكلة، بينما اعتبر آخرون أن القوة اللّينة هي مجرد إضاعة للوقت، ولصرف الانتباه. تغلّب الرأي الأول على الرأي الثاني بمرور الأيام. نشأت كذلك مدرسة فكرية متكاملة وجدت ترددات لها، وكانت مؤذيةً برأيي، وهي المدرسة التي طوّرت موقفاً كان جوهره: إذا أردت أن تنجح فلا تكن «بوش». إفعل عكس ما يريد تكن بخير. إنها أسطورة خطرة وخاطئة.

يعني ذلك، لتلك الأسباب أنني كنت عالقاً. شعرت في ذلك الوقت بانزعاج حقيقي من التوافق مع تلك النظرية. إذا دنت إسرائيل، فسيكون الأمر أكثر من مجرّد خداع، لأن من شأن ذلك معاكسة وجهة نظري التي طالما تمسكت بها بالنسبة إلى العالم. هذا هو السبب الذي دفعني إلى عدم الإدانة، لكنني كنت أشعر بأن نواب حزب العمال في البرلمان يتحركون كمجموعة نحو موقفٍ يتسم بالشكوى. كان الناس يستمعون إلى هذه الآراء في عقر دارهم، ولذلك شعروا بأنهم مضطرون إلى الموافقة مع الشخص الذي يشكو، وليس مع رئيس الحكومة. امتلكت تصميمي وإرادتي للتخفيف عني، وعموماً أفلحت في ذلك (وذلك هو ما أفترض أنه يحدث مع الزعماء عندما تغلبهم الكبرياء في نهاية الأمر).

توقّف البرلمان عن الانعقاد ذات مرة، وكان أمامنا بضعة أيام قبل العطلة الصيفية. تعودت تمضية هذه العطلة في شيكرز، وذلك كي أمضي بعض الوقت في التفكير، وأستمتع بصحبة العائلة. كنت أرتدي الجينز وقميصاً بنصف أكمام، وأكتب بعض الأبحاث، وأعزف قليلاً على غيتاري [قيثارتي]، وأتسلل خارجاً كي أركض في الغابات، ومعي بعض النبيذ الذي أتناوله بعد العشاء، وأتنشق هواء الليل. كان الموظفون ودودين معي، ولهذا لم يجادلونني قط (أعرف أن ذلك قد لا يبدو مناسباً

بالمرة) لأنهم موجودون للمساعدة فقط. أعرف، بالتأكيد، ضرورة مجادلة رؤساء الوزراء، لكن المرء يشعر أحياناً، ولو لليلة واحدة، بأن لا أحد ينبغي له أن يجادله في شيء، وبأن لا أحد يرسم الخطط عنه، ولا يوقظه للاشتراك في مناسبة ما ولا يفرط في عمل أي شيء ما عدا أن يسألك ماذا تفضّل للعشاء.

يجد الروح البشري دائماً، وعلى نحو ما وسائل للتكيّف. لا أعني أن الصعوبات التي تواجه رئيس الوزراء يمكن أن تُقارن، حتى على نحو ضئيل، بالأوقات الصعبة بالفعل التي يعانيها أشخاصٌ كثيرون، حتى أنهم يعانونها على نحو بطولي. إنني أعني فقط أن المرء عندما يكون في موقع القيادة، وبوصفه إنساناً عادياً، يكتشف تلك الغريزة الداخلية الاستثنائية التي تساعده على البقاء. يُمكن أن يكون ذلك مزعجاً بعض الشيء، لكن يبقى عليك أن تنهض في الصباح، وترتدي ثيابك، وتأكل، وتشرب، وتتنفس. يتعيّن عليك أن تجد معنى يترافق مع القيام بهذه الأشياء كلها. أما بالنسبة إليّ فكان المعنى الوحيد هو أن أكون صادقاً مع نفسي. ربما أشكّل أقلية تتألف من شخصٍ واحد، لكن ذلك الشخص هو الذي أؤمن به.

كنا في ذلك الصيف على وشك مغادرة البلاد إلى الخارج، وكان لبنان لا يزال متخبطاً في دائرة العنف المرعب. أدركت أن عليّ تأخير عطلتي. مكثت معظم أوقاتي في داوننغ ستريت، وحاولت التوصّل إلى قرار من الأمم المتحدة يستطيع إنهاء الصراع. تنازعني رأيان بشأن ضرورة تأجيل العطلة أم لا. تردّدت كثيراً في ذلك لأنني أدركت أن المرء إذا لم يحترس فقد لا يستطيع الاستمتاع بالعطلة، علماً أن وسائل الاتصال الحديثة أصبحت متوافرة. قررت في النهاية البقاء في لندن إلى حين التأكد أن القرار في طريقه إلى الصدور.

شعرت بالإرهاق الشديد عندما دخلت الطائرة المتجهة إلى سانت لوسيا، واستعجلت كي أستقلّ قارباً في عرض بحرٍ دافئ، بينما تداعب ظهري الرياح الدافئة. كانت تلك آخر عطلة لي بوصفي رئيساً للوزراء.

الفصل العشرون

نهاية اللعبة

تأملت بعمق في طريق عودتي في المعاني السياسية لما حدث في لبنان، وكذلك في ردة فعلي تجاهها. عقدتْ روث تيرنر، مسؤولة العلاقات الحكومية، عدة اجتماعات مع نواب الحزب في البرلمان. لم يكن هؤلاء من الموالين الاستثنائيين بالضرورة، لكنهم كانوا أشخاصاً من الذين تُعتبر خسارتهم أمراً محفوفاً بالمخاطر، مثل بيتر هاين، وجون دينهام، وكارين بوك. إنهم نواب تقليديون من حزب العمال، ولهم روابط مع اليسار واليمين، كما أنهم يتابعون عن كثب اتجاهات الحزب.

كان هؤلاء النواب أكثر صراحةً معها مما كانوا معي، فأبدوا رأياً مخالفاً بالنسبة إلى الموقف من لبنان، لكن ذلك الموقف لم يكن القضية الحقيقية بالنسبة إليهم. اعتقد النواب أن ردة فعلي تشير إلى ابتعاد، وفشل في الحدس عندي، وانفصال من جانبي، عن الرأي العام، الأمر الذي اعتبروه خطراً، بل أكثر من ذلك بعيداً عن نمط تفكيري.

عُرِفتُ في مسيرتي السياسية على أنني السياسي ذو الأسلوب المميز الذي يعكس الثقة، والسياسي الذي يستطيع التعبير عن أفكار الجمهور، والتأثير فيها، والشخص القادر على الإحساس بالرأي السائد بين الناس واتباعه بحدسٍ معين. شعر هؤلاء النواب بأنني فقدت هذه الميزة، وفقدت معها العناصر التي جعلتني ما أنا عليه. اعتبر

هؤلاء، على مستوى ما، أن هذا الفقدان هو بمثابة مأساةٍ سياسية، قد عجزوا على مستوى آخر عن فهمها.

تأملت كثيراً في الصعوبة التي أعانيها في استجابتي للرأي العام عندما بدأت طائرتي رحلتها التي تستغرق ثماني ساعات. لا يعني ذلك أنني لم أفهم الرأي العام السائد في لبنان، أو أن أكون واضحاً بشأنه. كانت الصعوبة عندي تتمثل في عدم موافقتي على ذلك الرأي. اتفقت تماماً على أن مقتل عدد كبير من المدنيين، والأطفال منهم على الخصوص، كان أمراً خاطئاً وغير مقبولٍ بالمرة. روّعتني تلك الكارثة الإنسانية. فكرت كذلك في عدد العائلات التي فُرض عليها الحداد والشعور بالحزن، وفي مقدار المرارة التي سيخلّفها هذا الوضع، وكيف سيشعر المرء إذا كان مواطناً لبنانياً عادياً بغضبٍ شديد من العالم إذا ما تخبط في هذا الكابوس.

أقلقتني كذلك المخاطر التي تترافق مع احتمال «انتصار» حزب الله، مما يخلق وضعاً يمكّنه من التخطيط لعملٍ استفزازي، ومن دفع إسرائيل إلى ردّ انتقامي يخرج الحزب بعده منتصراً. اعتبرت أن وقفاً لإطلاق النار من جانبٍ واحد قد يمنحه ذلك النصر. شعرت كذلك بأن أي شيء يضعه في شك بالنسبة إلى مغامرة محتملة في المستقبل كان تهديداً حقيقياً ومحتملاً في المستقبل. كان عليه أن يفهم أنه إذا فعل ذلك مجدداً فسيكون هناك ثمن سوف يُدفع، وأن شعب لبنان لن يسمح له بدفعه، وعلى الأقل ليس من أرواح المواطنين المدنيين.

أما بالنسبة إليّ فاعتبرت أن تحليل الوضع لا يُمكن أن يُحصر في النزاع وحده، بل لا بد أن يشمل احتمال نشوب نزاعٍ في المستقبل. إن إنهاء الصراع [هذه الحرب] وفق شروط تردع حزب الله في المستقبل هو أمرٌ من شأنه إنقاذ أرواح الناس. أعطانا ذلك متسعاً من الوقت والمجال. أردت حينذاك التقدم بمبادرة مهمة في إطار دبلوماسية القوة اللينة تهدف إلى حلّ مشكلة مزارع شبعا، وكذلك، بطبيعة الحال، إنعاش عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية. اقتنع عدد قليل من الناس بموقف «الطريق الثالث» الذي تبنيته، لكني كنت مقتنعاً تماماً بأن صدمتنا بمشاهد آثار الحرب التي ظهرت على شاشات التلفزيون، لا يمكن أن تحجب عنا عواقب التوصّل إلى سلامٍ بشروطٍ خاطئة.

نستنتج من ذلك كله أن الأمر لا يتعلق بالاتجاه الذي تهب منه الريح، بل بكوني لا أثق بسياسة اتباع وجهة الرياح السائدة فلو أن الحرب وقعت قبل عشر سنين، أي عندما كنت جديداً في منصبي، لكنت اتخذت خياراً آخر حساساً تجاه أي فكرة سائدة لدى الرأي العام. لكني تغيّرت الآن بعد أن سيطر عليّ تحليل لا ينبع من حاجة المعارضة إلى التواصل، بل من واجب الحكومة أن تحكم. لم أكن إذاً شخصاً آخر، بل زعيماً آخر. تمكنت من رؤية المشكلة بكل وضوح، واستطعت تكوين رؤية، وخصوصاً فيما يتعلق بمسائل الأمن، بأن عليّ القيام بما يُشعرني حدسي بصوابه وليس بما أحسّ بأنه يتمتع بالشعبية.

ما إن اقتربت الطائرة من الهبوط في مطار سانت لوشيا حتى بدأت بالتأمل: هل تغيّرتُ حقاً، أم أنني عنيدٌ فقط؟ هل هكذا تكون القيادة، أم أنه الزهو؟ والآن وبعد أن تدخّلنا في العراق هل كان المبدأ هو الذي قوّى عزيمتي، أم غياب أي بديل آخر؟ إلى أيّ مدى نحن صادقون مع أنفسنا؟ وكم هو صعبٌ علينا فصل دوافعنا عن الأمور التي تقلقنا، وكذلك فصل قناعاتنا عن زهونا.

ساد في اليوم الثالث من إجازتنا رعبٌ أمني كبير عندما انكشفت خطة، وكانت في مراحل متقدمة، لتفجير عدد من الطائرات المسافرة بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة. أراد الذين خططوا لهذه العملية تفجير مواد متفجّرة من سائل يحتوي على بيروكسيد قاعدي، وهذا هو سبب منع نقل السوائل في الطائرات حتى الآن. أسفر هذا الوضع، بطبيعة الحال، عن تشديد كبير في الإجراءات الأمنية المتخذة حول المطارات.

عُقدت في ذلك اليوم، وفي الأيام التالية، سلسلةٌ من المؤتمرات التي جرت عن طريق الهاتف مع وزير النقل دوغلاس ألكسندر، ووزير الداخلية جون ريد. تولّد عندي ميل قويّ بعد انقضاء الصدمة الأولية نحو التخفيف من هذا الإرباك في حركة النقل الجوي. جرت بعد ذلك سلسلة أحاديث روتينية بيننا جميعاً، وكنت أنا، كعادتي، إلى جانب راحة المسافرين، أما الباقون فكان موقفهم تجنّب المخاطر الأمنية. أقول، وللإنصاف إن جون قد استوعب الأمر كلياً، لكنه في البداية اقتنع بأن علينا أن نكون حذرين جداً. أما دوغلاس فقد تخيّل عناوين الصحف المفزعة التي تتحدث عن تجاهلنا لنصيحة الخبراء. أما أنا فاعتقدت أننا سنلحق ضرراً حقيقياً

بمطار هيثرو فور تلاشي الرعب إذا ما بالغنا في الإجراءات المتخذة، لكن كبار المسؤولين كانوا يميلون إلى المبالغة قليلاً. فأصرّوا على عدم السماح للمسافرين من رجال الأعمال بنقل أي سوائل، وأن تُشحن هذه كلها مع الحمولة، وجعلوا العطور في خانة المواد الخطرة على أن كل شيء كان يشكّل خطراً بالنسبة إليهم. توصّلنا، بعد جدالٍ كبير من جانبي، تحمّله الآخرون بكل صبر، إلى نوعٍ من أنواع التسوية، وعلى الرغم من ذلك مرّت عدة أشهر قبل أن تفرض العقلانية وجودها.

تمكنت من متابعة قضاء إجازتي على الرغم من تعرضها لمقاطعاتٍ كثيرة، ومن العدد الكبير من المكالمات الهاتفية التي دعتني للرجوع إلى إنكلترا. لا يمكن للوظيفة أن تدعك أبداً، ولا ثقل المسؤولية. إنها تجلس معك طوال الوقت، ويتعلق ثقل الوظيفة أو خفتها بالمزاج والأخبار. لكن ثقل العبء يخفّ، بطريقة ما، عندما يكون المسؤول في بيئة بعيدة. احتجت إلى تلك الإجازة كثيراً، وقد عدت منها في نهاية شهر آب/أغسطس شاعراً ببعض التفاؤل، وبأخذ نصيبي من الراحة.

استمرّ شعوري هذا نحو عشر دقائق. شعرت بأن نواب حزب العمال يميلون نحو التشدد قليلاً. أخذ فريق غوردون براون يضغط عليّ علناً أكثر فأكثر، كي أحدّد موعداً للرحيل. كان معظم حلفائه إلى يسار أنصاري، لكنهم بدأوا بكسب بعض الشبان ممن كانوا يؤيدون سياستي، وممن انجرفوا بعيداً عني لأسباب متعدّدة، وقد اكتشفت لاحقاً أنهم تلقوا وعوداً مغرية بترقيات إذا غيّروا مواقفهم.

أدركت أنني محاصرٌ الآن، وأن نواب حزب العمال منقسمون، وأن الأكثرية لربما تغيرت للمرة الأولى. لكنها تغيّرت إلى أين؟ تغيّرت لمصلحة غوردون بكل تأكيد، لكن لأجل ماذا؟ لم يعرفوا ذلك، لكن الأخطر من هذا كله هو أنهم بدوا وكأنهم لا يريدون أن يعرفوا، وكأنهم مصابون بنوعٍ غريب من قصر النظر الإرادي.

تمكّن غوردون، بالاشتراك مع إد بولز ونيك براون الذي تكفل بإجراء الترتيبات، من تشكيل تحالفٍ يقول للنواب من حزب العمال: يمكننا المحافظة على دعم حزب العمال الجديد والاستمرار في الوقت ذاته نوعاً مختلفاً من حزب العمال الجديد، أي ما يعني بعد التمحيص، من دون عناصر «التجديد». لكن الأمر لم يظهر على هذا النحو، ولم يذهب التمحيص والتحليل إلى العمق الذي يكفي معظمهم لفهم الأمر.

سأل بعضهم، وبكل تأكيد، أي نوع من التغيير هذا الذي يجري، واستنتجوا إما أنه جرى لأمرٍ لا يتعلّق بحزب العمال الجديد، وإما أنه حدث من أجل صيغة شديدة الغموض بحيث لا تعود فعالة، لكن هؤلاء النواب كانوا أقلية على أي حال.

استنتجت في ذلك الوقت ماذا ستكون عليه النتيجة فيما لو تركت منصبي، وأنها سوف تكون نوعاً من تسوية مع سياسات حزب العمال القديم وبعض سياسات حزب العمال الجديد، وكذلك مع ميل نحو اليسار، لكن تلك التسوية ليست سهلةً أبداً، كما أنها ستكون مشوّشة في نهاية الأمر. سينزع الحزب نحو سياسات حزب العمال القديم، أما الحكومة فسوف تمثل حزب العمال الجديد. اعتبرت أن ما يبقى من حزب العمال الجديد سيعتمد على مقدار ما أتمكن من إنجازه قبل تركي لمنصبي، وسيعتمد كذلك، بالتأكيد، على أيّ شخص يتقدم لحمل راية حزب العمال الجديد، ولتحدي غوردون إذا كان ذلك ضرورياً.

استمرّت اجتماعاتي مع غوردون وأفراد فريقه المقرّبين طوال العام ٢٠٠٦، لكنها لم تتطور قط إلى محاولات صادقة أو مشتركة تهدف إلى صوغ برنامج عملٍ مشترك. تغيّرت علاقتنا، على أي حال، بعد شروع التحقيق الذي بدأته الشرطة في شهر آذار/مارس.

ينبغي للمرء أن يحذر الشعور بالاستياء سياسياً، حتى يجب عليه أن يحذر السياسة أكثر عندما يكون خارج عالمها. إنها، بدايةً، عاطفة سيئة ومُربكة. ثانياً، إنها عاطفة غير صحية لدى الزعيم. ثالثاً، لا يشعر المرء بحاجة قوية إلى الشكوى بسبب الامتيازات التي تتطلبها الزعامة. لم أشعر بالاستياء قط، على العموم، أثناء فترة ولايتي. شعرت بنوبات من الغضب، هذا صحيح. شعرت بالإحباط في بعض الأحيان، وهذا صحيح كذلك، لكني لم أشعر بالاستياء وهي عاطفة مستمرة، تدمّر صاحبها تدريجاً بدلاً من أن الانفجار بين وقتٍ وآخر.

أما إذا كنت وصلت ذات مرة إلى حد الاستياء، فإن ذلك كان بسبب ما سمّي بقضية «المال مقابل ألقاب الشرف». كان استيائي بدرجةٍ أقل جراء الوقت الذي استغرقته العملية، وطبيعتها المقلقة على نحو كامل. أما الأهمّ من ذلك كله فهو الطريقة غير المنصفة بالمرة، والمريعة التي لقيها بعض أفراد فريق عملي. كان

ذلك التحقيق بمثابة محاولة لإنهاء فترة رئاستي للحكومة بطريقة تسيئ إلى سمعتي كثيراً.

أما المضحك في الأمر فهو أنني لم أنتقد الشرطة قط بسبب ذلك. تعرفت إلى أفراد الشرطة الذين عملوا على حمايتي وأُعجبت بهم، كما أنني أكنّ احتراماً كبيراً للضباط كمجموعة، وللعمل الذي يقومون به. إنني متفق كثيراً مع الذين يساعدون على تطبيق القانون وسياسة النظام العام. أمكنني ملاحظة أخطائهم، وهي الأخطاء الموجودة في أيّ مهنةٍ، لكني شعرت بأنهم يقومون بمهمتهم المرسومة معظم الوقت، كما شعرت بأن إحباطهم إزاء المحاكم والبيروقراطية كان مبرّراً بطريقة أو بأخرى. شاركت في مناسباتٍ تذكارية كثيرة أقيمت لضباط الشرطة الذين سقطوا أثناء تأديتهم لواجبهم. كانت هذه المناسبات من تنظيم صندوق المناسبات التذكارية للشرطة، وهو الصندوق الذي أسّسه مايكل وينر، لكنّ الصندوق كان واحداً من أعماله غير المعروفة، الذي أسّسه من أجل الاعتراف بأنهم ضحّوا بحياتهم في سبيل الواجب.

تمكنت في هذه الحالة من ملاحظة مشكلتهم. إنهم سيتعرضون لهجوم مرير من قِبل وسائل الإعلام إذا لم يلاحقوا هذه القضية. كانوا في وضع «الخسارة التي لا تنتهي» كلما طالت القضية. أما إذا أقفلنا هذه القضية فإنهم سوف يكونون عُرضةً للاتهام بأنهم يقومون بتغطيتها، أما إذا استمررنا فيها فسوف يكونون تحت ضغطٍ شديد للخروج بشيء (أو على الأصح الوصول إلى شخصٍ ما). أما نتيجة تلك القضية برمّتها فكانت تعرّض الحكومة في كل شهرٍ تقريباً لفضيحة تتمكن من تصدّر الأخبار على نحو يثير الدهشة عند الناس، وهكذا كانت تبرز مفاجآت كثيرة.

أظهرتُ في ذلك الوقت تشدداً كافياً إزاء أي شيء، أما الذين يعملون معي، وخصوصاً روث تيرنر وجوناثان بويل، فقد كان الأمر مريعاً جداً بالنسبة إليهم. كان من الممكن للشخصيات الأضعف أن تنهار. كان الاثنان، لحسن الحظ، قويين، لكنهما في واقع الأمر احتاجا إلى كل ذرةٍ من قواهما.

كشفت صحيفة صنداي تايمز في عددها الصادر في ١٥ آذار/مارس من العام ٢٠٠٦، عن هذه القضية. وجّهت الصحيفة الاتهام إلى مايكل ليفي، المكلّف جمع الأموال لمصلحة الحزب، بأنه عرض تقديم ألقاب شرف للمرشّحين إلى مجلس

اللوردات على قائمة حزبنا في انتخابات العام ٢٠٠٦، وذلك مقابل هباتٍ تقدم على أساس أنها قروض. لم أصدّق ذلك على أيّ حال. إذ نتيجة تشكيل لجنة التعيينات للتدقيق في الألقاب لم يكن من المعقول البتة توقع منح الألقاب بحسب ما أُشيع. لكن بما أننا حصلنا على القروض، علماً أن القروض لا تستدعي معرفة هوية المقرِضين، لذلك يمكننا اعتبارها إيحاءً واضحاً، ولو كان مغلوطاً، بأن هذه القروض قد تتحول إلى هبات إذا مُنحت تلك الألقاب.

كان جزء من المشكلة يتمثل بوقوع المانحين، وخصوصاً قبل الانتخابات، لقمةً سائغةً تنهشهم وسائل الإعلام. إن التبرع بالمال لحزبٍ سياسي يُعتبر دليلاً أولياً. لكن التبرع يستدعي إعلان اسم المتبرع، وهذا لا ينطبق على إعطاء قرض.

أعتقد أن من الصحيح القول إن عدداً كبيراً من المتبرعين لحزبَي المحافظين والعمال (ويمكنني أن أضيف حزب الليبراليين الديمقراطيين أيضاً) قد أُدخلوا المجلس بوصفهم «زملاء عاملين». لكن كما سبق لي أن قلت ليس هناك من سبب يمنع إدخالهم شريطة انتفاء أي عملية تبادلية، ووجود سبب وجيه لتعيينهم. ثمة أناس كثيرون من الذين يتبرعون للأعمال الخيرية، والذين قد يتوقعون حصولهم على تكريم من نوعٍ ما، ولعلهم يحصلون فعلاً على هذا التكريم. لكن لا يمكن للمرء أن يشترط ذلك، ولهذا لا يمكنهم التبرع بحسب وعدٍ بحصولهم عليه.

إنها مسألة بائسة على أي حال، لكنه نظام كان موجوداً منذ فترة طويلة. أما الفرق الوحيد فكان إدخالنا قوانين الشفافية، وإصرارنا على إعلان التبرّعات السياسية. لم يكن لأي شخص في الأيام الماضية أي فكرة عن الأشخاص الذين يتبرعون لحزب المحافظين، واستمرّ ذلك طوال السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، كما أن أحداً لم يكترث للسؤال. لكن الأمور اختلفت مع مجيئنا إلى الحكم بطبيعة الحال. أقدمنا على تغيير القانون هذه المرة، وهكذا انتهت، للمفارقة، هذه الخطوة من جانبنا لترتدّ علينا على نحو مذهل.

كنت متأكداً أن المتبرعين، أو المقرِضين، الفرديين لم يتسلّموا وعوداً كهذه، لكن توافرت أسباب كثيرة لوضعهم جميعاً في قائمتنا، وكان يُمكن لكل واحد منهم أن يقدّم مساهمة مهمة إلى مجلس اللوردات. تجاهل الناس حقيقة أن زعماء

الأحزاب يستطيعون من ضمن صلاحياتهم تقديم ترشيحات حزبية معينة. يعني ذلك وجود افتراض من قبل الجمهور – من دون أن يكون ذلك مفاجئاً في واقع الأمر –أن ثمة أساساً موضوعياً وغير حزبي لترشيحات مجلس اللوردات. لكن ذلك ليس طريقة عمل نظام «الزملاء العاملين» [في مجلس اللوردات]. كنت في الواقع أول رئيس وزراء يتخلى عما كان حتى ذلك الوقت السلطة المطلقة للترشيحات العائدة إلى التعيينات كافة، لكننا أبقينا على ترشيحات حزبية في عددٍ محدود من المراكز المحفوظة لحزبنا. أما الغريب في الأمر، وبطريقة ما، فهو تمكّن زعيم نقابة سبق لنقابته أن قدمت تبرعاً سخياً من الوصول إلى مجلس اللوردات من دون اعتراض أحد، لكن كبار رجال الأعمال في القطاع الخاص، ممن يُحتمل (وهذا صحيح في بعض الحالات) أن يكونوا رجال أعمال ناجحين، يُعتبرون، بطريقة ما، غير شرعيين.

اعتُبرت هذه القضية فضيحةً من الحجم المتوسط عندما نشرت صنداي تايمز قصتها، وقد أغضبت أعضاء الحزب كثيراً (متناسين مصادر الأموال التي مكّنتهم من خوض الانتخابات) كما أن وسائل الإعلام قد نشطت كثيراً لتغطيتها. لكن ما نقلها من دائرة السيطرة لتكون قصّة متفجّرةً غير قابلة للاحتواء، كان تصريح أمين صندوق الحزب جاك درومي في ١٥ آذار/مارس، الذي قال فيه إن أحداً لم يخبره عنها، وعليه فتح تحقيق في المسألة. دعا نائبٌ عن الحزب الاسكتلندي الوطني إثرَ ذلك إلى أن تفتح الشرطة تحقيقاً، ولذلك شعرت الشرطة أن لا خيار لها غير فتح تحقيقٍ كهذا. كان التحقيق مزعجاً وساماً ومقلقاً إلى أقصى الحدود. أُقفل الملف بعد أسابيع قليلة من تركي المنصب، لكن من دون توجيه أيّ اتهامات، وحصل ذلك بعد تعرّض المعنيين جميعاً لثمانية عشر شهراً تقريباً من العذاب الخالص.

ظهر تورط غوردون بهذه الطريقة. فكّرت كثيراً في ما إذا كان يجدر بي أن أذكر هذه القصة أم لا. وردت هذه الحادثة عنا نحن معاً، وإن كان على نحو غير دقيق من بعض الأوجه، في كتاب من تأليف آندرو راونسلي. هذا ما دفعني إلى تصحيحها في كتابي هذا. جرت مناقشات حادة كثيرة حول اقتراحات آداير تيرنر بشأن التقاعد. اعتبر وزير شؤون المتقاعدين، جون هوتون، أن هذه الاقتراحات مناسبة، بينما خالفه غوردون في الرأي. اتفقنا على أن يكون الاجتماع الحاسم في يوم ١٥ آذار/مارس.

لم يكن عندي أدنى شك في أن ذلك الاجتماع سوف يكون صعباً جداً. وافقت على لقاء غوردون في الصباح، أي قبل الاجتماع الثلاثي المقرر مع جون هوتون عند الساعة الرابعة بعد الظهر. كان غوردون في مزاج معتكر جداً عند دخوله غرفة الاجتماع. يمكنني أن أقول بكل صدق إنه كان أبشع اجتماع عقدناه على الإطلاق. أقول، للإنصاف، إنه اعتقد، ولسببٍ ما، أن قضية التبرعات برمّتها كانت وسيلةً استخدمتها كي أترك له فضيحة رهيبة كانت بمثابة قنبلة موقوتة. قال لي إن هذه الفضيحة كان من شأنها تدمير زعامته بالطريقة ذاتها التي استخدمها جان شيريتيان مع بول مارتن في كندا (حيث ثار خلاف حادّ بشأن تمويل حزب الأحرار، وهي القضية التي ورثها بول مارتن من جان عندما كان رئيساً للوزراء).

كانت القضية برمّتها تافهةً بطبيعة الحال، لكني أظنّ أن غوردون قد صدّقها حقاً، أو قد يكون ذلك مجرد عذر متقنٍ بإحكام. لا أستطيع أن أحدّد بطبيعة الحال، لكنني صُدمت بما قاله غوردون في الاجتماع. لم يبدأ حديثه بمعاشات التقاعد، بل تحدث عن مدى الضرر الذي تلحقه قضية القروض، وقال لا بدّ من أن تفتح اللجنة الوطنية العليا تحقيقاً في الأمر، وأنه قد يدعو بنفسه لفتح هذا التحقيق. قلت، بطبيعة الحال، إن ذلك سيُلحق ضرراً كبيراً ومثيراً، ولا يجدر بك أن تقوم بذلك في أي حالٍ من الأحوال.

كانت الحرارة دون درجة التجمد، لكنّ الصقيع زاد عندما قال بعد ذلك: حسناً، يتوقف ذلك على اجتماع هذا المساء. وقال إذا وافقتُ على وضع اقتراحات تيرنر على الرفّ انقضى الأمر، لكن إذا أصررت على الاقتراحات فإنه سوف يدعو لفتح تحقيق.

أتذكر وجود قُصاصة ورق على طاولتي، تضمّنت ترجمة مرتجلة لشعار الكتيبة الإيرلندية الملكية «Faugh a ballagh»، ويعني «أوسع الطريق». رأيت أفراد هذه الكتيبة في داوننغ ستريت عندما كانوا يتأهبون لترك مهامهم في إيرلندا الشمالية، وذلك بعد التوصّل إلى عملية السلام. كنت أمزح بشأن ما إذا كان يجب أن أستخدم شعارهم في جلسات استجواب رئيس مجلس الوزراء. لم أتمكن، بالمناسبة، من استخدام ذلك الشعار.

رأيت قُصاصة الورقة فجأة، لكن غوردون أدخل إصبعه فيها. «هذا ما يجب عليك أن تفعله – أوسع الطريق!»

لم يكن الأمر مضحكاً على أي حال، كما قيلت أشياء يجب أن تبقى ضمن جدران تلك الغرفة وتبقى تذكاراً. يكفي أن أقول إنه شعر وكأنني أعيق وراثته للمنصب، بينما شعرت أنا بأنه يدمّر سمعتي. أعتقد أن تلك السياسة كانت خاطئة، لكنني اعتبرت أنها صحيحة. وجّه تهديداً، لكنني نظرت إليه بعين الاستياء.

عقدنا بعد ذلك الاجتماع المتعلق بشؤون التقاعد مع جون هوتون عند الساعة الرابعة. أصررتُ في ذلك الاجتماع على المضيّ قدماً بالنسبة إلى اقتراحات تيرنر. انتهى الاجتماع عند الخامسة. أدلى جاك درومي بتصريحه عند السادسة، داعياً فيه إلى فتح تحقيق. لم أكن متأكداً مما إذا كان غوردون هو الذي دفعه إلى ذلك التصريح. أنكر غوردون أنه تحدث معه. لا أعتقد فعلاً أنه أراد حصول العواقب التي نتجت عن ذلك التصريح الذي ألحق أضراراً كبيرة بالحزب. أسفر ذلك التصريح عن انخفاض نسبة شعبية الحزب، وشعبيتي شخصياً، في استطلاعات الرأي كلما أُثير فيها هذا الموضوع مجدداً. كانت المفارقة أن برنامجنا السياسي الذي كان يتقدم ويتعززكنا نعود إلى ما دون مستوانا المقبول [نقطة الصفر].

أخذت علاقتنا منذ ذلك الوقت أوجهاً أخرى: كانت رسميةً في بعض المراحل، وودية في مراحل أخرى، لكنني لم أتمكن من نسيان تلك الحادثة، كما أنني وجدت صعوبةً في مسامحته. شعرت بالحزن، ليس لمجرد الأسباب المعروفة، بل لأنها تُظهر الجانب السيئ فعلاً من السياسة. تدفع السياسة بالناس إلى الإقدام على أشياء يجب أن لا يقوموا بها بالفعل، إنها مثل الوحل الذي لا يمكن تنظيفه. يُضاف إلى ذلك أنني أعرف بأن غوردون هو أفضل بكثير مما توحيه هذه الحادثة. حلّ شهر أيلول/ سبتمبر من العام ٢٠٠٦، وكانت هذه الحادثة قد استمرت عدة أشهر، وكانت تُثار كل عدة أسابيع مع بعض التسريبات الطازجة من لجنة التحقيق، علاوة على ما يحدث في لبنان. أضف إلى ذلك كله الخلافات حول البرنامج الإصلاحي، وبقائي في المنصب لمدة تسع سنين، كما لم يكن من المدهش أن يتحول موقف نواب حزب العمال في البرلمان نحو التشدّد. يُمكن للمرء أن يعذرهم على اعتقادهم بأن زعيمهم لم يعد الرصيد الرقم واحد للحزب.

تراجعنا كثيراً في استطلاعات الرأي أثناء التحقيق، وذلك للمرة الثانية منذ العام ١٩٩٧ (كانت المرة الأولى أثناء أزمة الوقود) – وكانت أزمة كبيرة جداً – لكن هذا التراجع مهم جداً في ذاته. تراجعنا عدة نقاط في هذه الاستطلاعات، لكنني بدأت في ذلك الوقت بإدراك حجم دافيد كاميرون. أحسستُ بأنه غير متأكد من قدرة أي منا على تغيير حزبه، وأدركت كذلك مدى رغبته في إحداث هذا التغيير. كان موقفهم السياسي ضعيفاً، وعلى الخصوص بالنسبة إلى القانون والنظام وأوروبا، وهكذا كانت استراتيجيتي هي المضيّ قُدُماً وبسرعة، وبثبات، في دفعهم إلى مجاراتنا أو التخلف عنا، أو في الانحراف إلى مسارٍ مختلف. كان دافيد كاميرون ذكياً وودوداً مع الناس، وأعتقد أنه يمتلك صلابةً حقيقية، لكنه لم يمضِ بما فيه الكفاية خلال المرحلة الصعبة من ممارسة السلطة، التي تشتمل على التدريب، والتثقيف، وعلى بعض الصعوبة، وهي المرحلة التي مررت بها خلال الثمانينيات ومطلع التسعينيات من القرن الماضي. تمكنت في هذه الفترة من شحذ حدسي ومؤهلاتي القيادية. لكن مؤهلاته هو ما زالت من دون شحذ، لكنني أعرف أنه يمتلك هذه الموهبة، إلا أنها خشنة وبحاجة إلى صقل.

لكنّ حزبي لم يستطع إلا أن يرى أمراً واحداً: سنلاقي المشاكل إذا بقينا مع بلير، وسوف نرتاح إذا تخلينا عنه.

عدت من إجازتي الصيفية وتوجّهت مباشرةً إلى بالمورال من أجل عقد الاجتماع الأسبوعي مع الملكة. وقع خلال نهاية الأسبوع ذاك حادث تحطم طائرة نمرود [للنقل العسكري] في أفغانستان، وقد ذهب ضحيته أربعة عشر فرداً من أفراد الجيش. أما العملية التي تحطّمت فيها الطائرة، أي عملية ميدوزا – فكانت ضربةً شديدة لقيادة طالبان، الأمر الذي أعطانا نصراً نفسياً قوياً، بعد أن فقدوا عدداً كبيراً من الضحايا.

تجدد الاهتمام بأفغانستان خلال العامين ٢٠٠٥ و٢٠٠٦. قيل في ذلك الوقت إن اهتمام الناس قد تحوّل عن أفغانستان بسبب العراق، لكن الأمر لم يكن كذلك، وعلى الأقل بالنسبة إلى البريطانيين. لم تغب مهمتنا في أفغانستان عن أذهاننا في أصعب أوقاتنا التي مرّت علينا في العراق. كانت الانتخابات التي جرت هناك في أفغانستان ناجحة جداً. أخذت الحالة الأمنية تزداد صعوبة مع ذلك، وهكذا بدأنا

في صيف العام ٢٠٠٥ بالتمهيد لاحتلال القسم الجنوبي من البلاد، أي حيث كانت طالبان لا تزال قوية، وحيث تشكل المخدرات عماد مداخيل الأفغانيين. أما الزعماء العسكريون فقد استاءوا من القدر المحدود من النجاح الذي أحرزناه في العراق، ولهذا أردنا تحويل تركيزنا من العراق إلى أفغانستان.

أرسل إليّ جون ريد في أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٥ مذكّرةً تضمّنت فترة تسعة أشهر الضرورية من أجل نشر القوات البريطانية في مقاطعة هيلمند. استمر تبادل الرسائل والاجتماعات والمؤتمرات في أواخر العام ٢٠٠٥ و٢٠٠٦. اتفقنا في المبدأ على نشر القوات، لكن جون أوضح لنا أن هذه المهمة سوف تكون صعبةً جداً، وحتى خطرة. قال لنا إن طالبان سوف تحارب بشراسة من أجل الحفاظ على سيطرتها على المنطقة التي لم ننجح قط في انتزاعها من أيديهم. علمنا بأن هناك هجمات انتحارية ستكون على قواتنا.

عقدنا في لندن مؤتمراً حول أفغانستان في شهر شباط/فبراير شاركني كوفي أنان في رئاسته. اتضحت لنا التحديات في ذلك المؤتمر، وهي المتعلقة بالقدرات المدنية والعسكرية، وفي بناء الدولة، وإعطاء الأفغان أملاً صلباً بحصولهم على ديمقراطية ناجحة من أجل المستقبل.

كان من الواضح في العراق وأفغانستان أن العدو يمتلك صورةً واضحةً جداً في ذهنه عن أهمية الحرب التي بدأناها. كان ذلك كله، بطبيعة الحال محجوباً تحت قناع مقاومة قوى الاحتلال الغربية، لكن هذه الفرضية تتجاهل الحقائق التالية: أ) وجود قرار من الأمم المتحدة يجيز وجود قواتٍ كهذه، ب) إجراء انتخابات في البلدين أسفرت عن انتخاب حكومتين أرادتا وجود تلك القوات. ج) الأهمّ من ذلك كله، أن السبب الوحيد لوجودنا كان حملة الإرهابيين في البلدين. وإذا ما أوقفوا هجماتهم الإرهابية فإننا سوف ننسحب على الفور.

كانوا يعرفون هذا جيداً بطبيعة الحال، لكن خوفهم الحقيقي هو أن نترك الشعب يقرر مصيره بنفسه، وذلك لأن النتيجة معروفة سلفاً. سيقرر الشعب إذا نال حريته الوقوف ضد التطرف وسيقف مع التحديث. مات ظاهر شاه، وهو آخر ملوك

أفغانستان الذي قام بزيارة إلى المملكة المتحدة في العام ١٩٧١ عن عمرٍ طويل بلغ اثنتين وتسعين سنة، وذلك في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٧. تذكرنا في ذلك الوقت أن أفغانستان في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كانت دولة تشقّ طريقها نحو التقدم، وكان ناتجها المحلي الإجمالي بالنسبة إلى الفرد يماثل ذلك الموجود في جنوب كوريا.

امتلك الناس رؤية واضحة عن أهمية الحرب الدائرة بالنسبة إلى عقيدتهم، لكن الرأي العام في الغرب ازداد ضبابية فيما يتعلق بأسباب وجودنا، وتساءل إذا ما كانت تستأهل [هذه الحرب] ذلك كله. عقد الناس مقارنات، مجدداً، بالحرب التقليدية المتماثلة، وذلك في حين كان من الواضح أن تلك الحرب لم تكن لا تقليدية، ولا متماثلة. كنا منشغلين في عملية بناء دولة على المدى الطويل، وكانت هذه الغاية تخدم أمننا مثل ما تخدم بناء دولتهم. كانت هذه هي حال العالم في مطلع القرن الواحد والعشرين. أما الحروب والعقائد، وكيانات القوة التي كانت سائدةً في القرن العشرين فقد كانت جزءاً من حقبة أخرى، أكثر مما هي جزء من قرنٍ آخر. تتكيف عقول الناس ببطء بطبيعة الحال.

كان موضوع تكثيف مهمتنا في أفغانستان قد تكرّر كثيراً في العام ٢٠٠٦. شعرت بقلق شديد إزاء هذا الموضوع، ولم أكن متأكداً من امتلاكنا للقيادة المدنية المناسبة هناك، وعلى الرغم من امتلاك جيشنا لخطة تلائم جهودنا هناك، إلا أن ما لم نكن متأكدين منه هو أن الآخرين يشاطروننا حماستنا، أقلّه خارج الولايات المتحدة.

كان ذهني منشغلاً بهذه المسائل كافة بالإضافة إلى التحديات الداخلية. أما في نهاية شهر آب/أغسطس، أي قبل الوقت المقرر لذهابي إلى بالمورال، ومع النقاش المنسّق الواسع الذي كان جارياً بشأن تحديد موعد لمغادرتي منصبي، قررت إجراء مقابلة في ذلك الوقت. يُمكن أن يعتقد المرء أنني تعلمت الدرس وقتذاك. أعرف قاعدةً واحدة بشأن إعطاء المقابلات: لا تعقد هذه المقابلات من دون معرفة أجوبة السؤال الأساسي. يبدو هذا بسيطاً جداً، لكن ما يدهش المرء هو عدد المرات التي انغمس فيها عدد من السياسيين المتمرّسين في مقابلات على كثرة ما لديهم من أفكار وأشياء عظيمة يريدون قولها، ثم تراهم يركزون بعد ذلك بشدّة على ما يريدونه

أن يكون موضوع المقابلة، لكن من دون التركيز إطلاقاً على الردّ الصحيح على السؤال الوحيد الذي يجب أن يُطرح.

أما السؤال الذي لا بدّ من طرحه فكان: هل أنت جاهز لتحديد تاريخ لمغادرة المنصب؟ في الواقع قررت أن يكون مؤتمر العام ٢٠٠٦ في أغلب الاحتمالات آخر مؤتمر لي. كنت أتمنى الحصول على مزيد من الوقت، لكنني أدركت أن موعد مغادرتي منصبي قد أخذ بالنفاد، كما أن جرأة جماعة غوردون أخذت تزداد كل يوم، وهذا ما كنت أخشاه منذ زمن. أما لو أعلنت موعد مغادرتي في مؤتمر الحزب الذي انعقد في نهاية شهر أيلول/سبتمبر، لكان ذلك سيشكّل مفاجأة تترافق، كالمعتاد، مع كل الحيوية والضجيج. تردّدت كثيراً قبل الإقدام على هذه الخطوة، وهكذا ما كان يجدر بي إجراء المقابلة، أو على الأقل ما كان يجدر بي إجراؤها من دون التفكير جيداً في كيفية تفادي السؤال الأهم.

كان ذهني مزدحماً بالأفكار المتعلقة بكيفية الحفاظ على روحية حزب العمال الجديد، وكيفية الردّ على الخصوم أثناء مناقشة القضايا العالقة، وكيفية مواجهة الحزب بصراحة في طرح السؤال «التغيير إلى أين؟» وذلك قبل التصميم على التغيير. ربما فكّرت بصورة لا شعورية في إمكانية انتزاع حريةٍ أكبر للمناورة، لكن من يعرف ماذا سيحدث بعد ذلك. إن السياسة هي عمل قابلٌ للتغيّر بسرعة. لكنني أعتقد، في واقع الأمر، أنني قد اتخذت قراري فعلاً. أردت التحكّم في توقيت الإعلان.

أجرت صحيفة ذي تايمز المقابلة معي في شيكرز في أواخر شهر آب/أغسطس. كان فيل وبستر شخصاً يعجبني على الدوام، وكنت أعتبره شخصاً مستقيماً، وهو الذي طرح الأسئلة في المقابلة وكان معتدلاً جداً في طرحها. سألني، بطبيعة الحال، السؤال المنتظر.

انتشرت في ذلك الوقت هذه الصيغة السخيفة التي ظهرت بعد انتخابات العام ٢٠٠٥، وهي صيغة «انتقال هادئ ومنظم» [للسلطة]، وهي التي تعني في واقع الأمر «تسليم السلطة إلى غوردون». كانت تلك، في الواقع، صيغةً خاطئة. أعتقد أن من غير المسموح وجود الفرضيات هنا. كان من الأجدر إجراء نقاشات، وانتخابات.

أراد عدد قليل من الناس في هذا الوقت الدخول في نقاشات، بينما أراد عدد أقل إجراء انتخابات، وهكذا ترسّخ هذا الواقع على أساس أنه صيغة متفق عليها.

تضمن قسم مما سمّي «الانتقال المنظم للسلطة» تحديد تاريخ معيّن، وهكذا كان من الواضح أنني سأضطرّ إلى تحديد موعدٍ في مرحلةٍ ما. ضغط غوردون بطبيعة الحال ـ وقد كان متشككاً في دوافعي وتحركاتي، وهو أمر صائب في هذا الوقت من وجهة نظره، وبكل قوة ـ من أجل تحديد موعد، وكان يفترض أن ذلك سوف يحدث في مؤتمر الحزب.

طرح فيل سؤاله عليّ فبدأت بالإجابة عنه، لكن بدلاً من الدوران حول السؤال، وهو ما كان يجدر بي فعله، اكتفيت بالقول: كلا، لا أعتزم تحديد تاريخٍ معيّن.

تأثرت كثيراً بالمذكّرة، الرائعة على نحو استثنائي، التي تلقيتها من آندرو أدونيس الذي كتبها خلال العطلة الصيفية. إنها مذكّرة رائعة إلى حد أنها تستأهل إيرادها بحذافيرها.

مذكرة شخصية إلى رئيس الوزراء من آ. أ – الاثنين ٢١ آب

أعتقد أنّ عليّ المساهمة في تفكيرك إزاء القضية الكبرى، وإن كان ذلك من أجل إيراد أمرين غير مفاجئين – أعني أ) ما إن «تحدد موعداً» حتى تتلاشى سلطتك بسرعة، كما ستتوالى بسرعة النداءات التي تطالبك بتقريب الموعد من أجل «إنهاء سياسة التهرّب الفاشلة»، وكذلك، ب) أرى أن استمرارك في منصبك ـ حتى يحين موعد مؤتمر العام ٢٠٠٧ أو إلى العام ٢٠٠٨، اعتماداً على الوضع في الصيف القادم ـ هو أمرٌ يخدم مصلحة الشعب بشدّة.

تبدو لي سلطتك السياسية أكثر من كافية لتحقيق هذا الأمر، لكن بشرط أن تضع برنامج عمل مستقبلياً نشطاً لعودتك في ذلك المؤتمر. أما تسلُّم غوردون براون للسلطة فهو عملية ستتضمن في نهاية الأمر (بغضّ النظر عن الجهود التي يبذلها عند نجاحه لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه)، حركة تغييرية تهدف إلى «تهديد كل ما يتعلق باليسار»، وذلك بالنظر إلى حلفائه، والقوى التي دعمها. يبدو كذلك أنه اختار أن يكون حلقةً ضعيفة، وإن كانت مطولة، بينك وبين كاميرون.

يبقى هناك أمران استطراديان – حول وهم «المخرج المشرّف»، و«الانتقال المنظّم للسلطة»، وكيفية استعادة زمام المبادرة.

قضيت عطلةً هادئةً ومنعزلة وأنا أتأمل في التغييرات التي جرت في منصب رئاسة الوزراء على مدى القرن المنصرم، وهكذا توصّلت إلى هذه الاستنتاجات الثلاثة:

١- لا يوجد ما يسمّى «مخارج مشرفة»، و«انتقال منظم للسلطة» – بل مخارج وانتقال للسلطة فحسب، وهي كلها واهية وغير مرضية بدرجة أو بأخرى. أعتقد أن الحياة هكذا.

٢- إن أكثر رؤساء الوزراء نجاحاً قد تركوا ١٠ داوننغ بأقل الطرق «تشريفاً»، وأكثرها «عدم انتظام». امتلك كلٌّ من غلادستون، ولويد جورج، وتشرشل، وماكميلان، وثاتشر إرادة الاحتفاظ بالسلطة لهدف محدّد حتى النهاية. أما لو أنهم خططوا إلى «مخارج مشرفة» لكانوا قادة أقل تأثيراً، ولكانوا حققوا إنجازات أقل. إننا نجد في المقابل ثلاثة من رؤساء الوزراء الذين خدموا مدداً طويلة، بحيث تمكّنوا من تحقيق عمليات انتقال «مشرفة» و«منظمة» للسلطة، أي ولسون، وبالدوين، وسالزبوري، فإنهم افتقدوا الحيوية والهدف، كما أن سمعتهم وتراثهم المأسوي لم يتعززا بالتكريم الحميم الذي لقوه. (كان آتلي لغزاً كالعادة).

٣-إن أقرب مثال على وضعك الحالي هو وضع هارولد ماكميلان كما كان في صيف العام ١٩٦٣. أما في الواقع فإن المقارنة الكبرى بينك وبين ماكميلان واضحة جداً. كان ماكميلان أحد الذين قضوا مدةً طويلةً في رئاسة الوزراء، وكان ناجحاً إلى حدّ كبير. كان الرجل مجدّداً من إنكلترا الوسطى، وذا حسّ مرهف إزاء «رياح التغيير» التي تعصف بحزبه، وبلده، وبالقضايا الدولية، كما أن نجاحاته الداخلية أصبحت من المسلّمات. غرق الرجل في صيف العام ١٩٦٣، أي عندما كانت البلاد على أعتاب انتخابات جديدة، في ما سمّي فضيحة بروفيومو، وفي كراهية العاطلين عن العمل والساخطين، وعلق كذلك في صخب وسائل الإعلام تجاه «الرجل الجديد» الذي يمكنه هزم ولسون. مرّت أشهر طويلة تميزت بارتباك شديد نتيجة قضية بروفيومو، وأحداث أخرى صغيرة ومنسية، ونتيجة نصائح غير مناسبة من الأصدقاء. قرّر على إثرها البقاء وخوض الانتخابات التالية، وعند هذه النقطة بالذات

تمكّن من توقيع معاهدة حظر التجارب [النووية] الرائعة مع جون ف. كينيدي، وذلك بعد سنوات من الإحباطات التي أصابت السياسة الخارجية (التمييز العنصري في جنوب إفريقيا وروديسيا، وأول «لا» يحصل عليها ديغول [في الاستطلاعات]). ساندته الحكومة بكل ارتياح، لكنه خُذل عندما عقد المحافظون مؤتمرهم بسبب ما خشيه لفترةٍ وجيزة مما يُمكن أن يكون حالة بروستات مميتة. أما البقية فهي معروفة: استقالة سريعة تحت الضغط، وبروز «الرجل الجديد»، السير أليك دوغلاس هيوم (!)، وكذلك فوز ولسون بعد سنةٍ من الزمن بفارقٍ ضئيل فقط... وهكذا بقي ماكميلان يأسف على السنوات الثلاث والعشرين التالية.

كيف يمكننا أن نتخذ المبادرة بحزم؟

على الجبهة الداخلية، أعتقد أنك بحاجة إلى ترويج المرحلة الثانية من عملية الإصلاح التي ستقودها. إن أفضل طريقة للقيام بذلك هو أن تضع نفسك على رأس «الخطوات التالية» لعملية إصلاح شبه شعبية، وذلك كي تتقدم هذه الخطوات إلى جانب «مسؤولية الشركات الاجتماعية»، وأن تعلن في الشهر المقبل أنك ستفعل ذلك، وأن تتوّج ذلك بخطط خمسية مجدّدة بحيث تُنشر إلى جانب «مسؤولية الشركات الاجتماعية» في السنة المقبلة. لا يتضمن ذلك تحقيق المستحيل في هذه المرحلة من قيادتك – أي «برنامج جديد» – بل التجديد المستمرّ، وتعميق برنامج (الاختيار والنوعية في حقل الخدمات العامة، والحقوق والمسؤوليات في حقل الخدمات الاجتماعية والنظام العام) وهي العملية التي كانت ناجحةً كثيراً في واقع الأمر، والتي ينظر إليها الرأي العام الوسيط، والمعلقون العقلانيون على أنك بطلها بامتياز، وذلك كله بموازاة الخصخصة، والنقابات العمالية والإصلاحات في سوق العمل التي جرت في الثمانينيات، وكذلك الاقتصاد الحرّ «للأمة الواحدة» الذي تبناه ماكميلان. إن برنامج العمل الإصلاحي الحيويّ المستمرّ، الذي سيتوقف إذا تركت منصبك في السنة التالية، هو أمرٌ أحسّ به الرأي الوسط middle opinion بغضّ النظر عن الشكاوى التي يعبّر عنها بشأن القضايا الأخرى.

تمكنت من رسم «خطة إصلاح» مفصّلة وبسرعة تستند إلى ما هو شائع في وسائل الإعلام، أو ما يجب أن تتحدث عنه. لكن إذا أراد المرء أن يضطلع بأمرٍ ذي قيمة فإنني أقترح أن تجمع مجموعة صغيرة من الأشخاص الموثوقين الذين قاموا

بأعمالٍ طلبتَها منهم في السنوات الأخيرة في حقول التعليم، والصحة، والخدمات الاجتماعية، ووزارة [دائرة] الداخلية، بحيث يتمكنون من وضع خطة لاستراتيجية داخلية، بأسرع وقتٍ ممكن.

آمل أن يأتيك ذلك كله ببعض الفائدة.

آندرو

ربما يعني ذلك أنني كنت أكثر تحديداً مما أردت، من دون قصد، في ردّي على فيل وبستر. ظهر العنوان «بلير يتحدى حزبه بشأن تاريخ مغادرته لمنصبه»، لكنه بدا عنواناً يحمل التحدي، وكأنني غيّرت رأيي وقررت أن أبقى في نهاية الأمر، ونقطة على السطر. ما إن نُشرت المقابلة حتى اتصلت بغوردون هاتفياً من أجل تطمينه أنني لم أقصد البقاء حتى نهاية الولاية. أدركت مع ذلك أنه، وربما فريقه على الخصوص، قد قرّر [أو قرروا] أنهم تعرضوا للخداع وأن الأفضل لهم أن يبدأوا المعركة.

بدأ «الانقلاب» هكذا، وقرّروا تنظيم موجات من رسائل الاستقالات، والعرائض التي تدعو إلى استقالتي. سمعت لأول مرة برسالة كهذه عندما كنا في زيارة في يورك إلى دار رعاية الأطفال والمراهقين الذين يعانون مشاكل، وذلك في ٤ أيلول/سبتمبر. كنت أفكر دائماً عندما أقوم بزياراتٍ كهذه كم كنت محظوظاً حين كنت طفلاً، وبعد أن أصبحت أباً. سمعت قصصاً مرعبة بالفعل. يترك الوالد المنزل، على سبيل المثال، بينما تتزوج الوالدة رجلاً آخر. لا يتأقلم الرجل الجديد مع المراهق فيقوم بنهاية الأمر بطرد المراهق إلى الشارع. إنه أمر لا يصدّق بالفعل. يعاني بعض الشبان مشاكل سلوكية بحيث تصبح تربيتهم أمراً مستحيلاً، لكن الأمر يشكّل صدمة مع ذلك.

كانت دار الرعاية تلك نوعاً جديداً من دور الرعاية، وهي تساعد المراهقين وتزوّدهم التدريب والتثقيف، وتعلّمهم المهارات السلوكية والشخصية. كان ذلك عملاً في منتهى الصعوبة. شعرت، كما هي الحال في الزيارات المماثلة، باحترام شديد للمريض وللهيئة التي تلتزم إدارة المكان، لكن المؤكد أنني لا أحبّ القيامَ بهذا الأمر. يتطلب الأمر نوعاً خاصاً جداً ومكرساً من الأشخاص. اصطحبنا بعض الأولاد معنا إلى مركز مؤسسة جوزف راونتري. عقدنا هناك حلقةً دراسية، كما عقدنا

اجتماعاً مع موظفي المؤسسة، وذلك تمهيداً لمحاضرة حول العزل الاجتماعي، كنت سألقيها في قاعة نيو إيرزويك فولك في يورك في اليوم التالي.

على الإنسان أن يرى الجانب الطريف من أمورٍ كهذه. تحدثت أمام المراهقين أثناء هذه الزيارة بشأن عملية إيجاد وظائف لهم، وإيجاد هدفٍ في الحياة، وغير ذلك من أمور. كانت هيلاري كوفمان ترافقني بوصفها المكلفة شؤون الصحافة في هذه الرحلة، التي كان يُفترض فيها أن تكون رحلة إقليمية ذات مستوى منخفض. نَحتني جانباً، ثم أخبرتني بأن هناك عريضة يتداولها ما بين ثلاثين وأربعين نائباً، وهي تدعو إلى استقالتي. تعددت منذ تلك اللحظة الأخبار التي زوّدني إياها فريق عملي، وكلها تدور حول منصبي المتزعزع. تنقلت بين مكانٍ وآخر كي أعرف الجديد بشأن هذه الأخبار المقلقة فقط كي أعود للتحدث مع شيرلين، أو روبرت، بشأن إمكانيات البحث عن وظائف.

اضطررت أخيراً، وسط دهشة الحاضرين في الاجتماع، إلى تخصيص بعض الوقت من أجل تقييم الوضع. تسرّبت العريضة إلى وسائل الإعلام، وإضافة إلى ذلك كان أحد الوزراء، وهو طوم واتسون من بين الموقّعين. أريد القول بالمناسبة إنني لم أشعر بغضب إزاء هذه العريضة. أدركت على الفور أنها ردة فعلٍ على المقابلة التي نشرتها جريدة تايمز، كما أنها إشارة على أن صبر فريق غوردون براون قد نفد.

شعرت، لغرابة الأمر، بالأسف على الحزب وبقيت هكذا إلى حين رحيلي. توصّلت في هذا الوقت إلى اقتناع ثابت ورؤية واضحة بأن على غوردون أن يوضح إما أن يتبع سياسة حزب العمال الجديد وإما أن يتبع أمراً آخر. حدّدت هذا الأمر الآخر وعرفت أنه سيكون كارثة. عرفت ذلك كله، لكن إذا أردت أن أكون منصفاً فعليّ أن أقول إنني استغرقت وقتاً طويلاً للتوصل إلى هذا الاستنتاج. كان رأي بعض الأشخاص الأذكياء حقاً، الذين يعرفوننا جيداً، أي أمثال فيليب وألاستير، هو أن الأمور يُمكن أن تسير على ما يرام، كما أن هذا كان رأي نواب الحزب العاديين في البرلمان من أمثال جون ريد وآلان ميلبورن من الحزبيين، وجوناثان وسالي اللذين يعملان في مكتبي، وهؤلاء جميعاً كانوا مقتنعين منذ البداية بأن عدم اتباع غوردون سياسة حزب العمال الجديد على نحو واضح، وهو أمرٌ كانوا يشكّون فيه، سيوقعنا

تحت رحمة المحافظين. أما إذا لم يكن المحافظون على مستوى التحدي، فإن ذلك سوف يعطينا فرصةً للاستمرار والبقاء. لكنْ إذا كانوا على مستوى التحدي فلن تتاح لنا هذه الفرصة.

تمكّنت مع ذلك من ملاحظة قدرة غوردون الهائلة، وكذلك مقدار تفهّمه الاستثنائي للأمور وطاقته التي لا تنضب، كما أدركت أن ذلك كله يشكّل المزايا الكبرى التي تتوافر لكل قائد. أدركت كذلك، لكن مع الأسف، أن تلك المزايا يجب أن تُقرن بحدسٍ سياسي أكيد كي تكون فعّالة تماماً. يتأتى ذلك الحدس من معرفة المرء لما يؤمن به فعلاً، وأن لا يكون ذلك الإيمان غامضاً، أو على مستوى عالٍ من العموميات، أو «القيَم»، لكنه يجب أن يكون إيماناً عملياً وعلى الأرض، وعلى مستوى الحياة اليومية. اكتشفت في خضمّ هذه المرحلة الحاسمة جداً من المصير السياسي، وجود فجوة، ليست فجوة الحدس الخاطئ بل عدم وجود حدسٍ على الإطلاق على صعيد قوة الشخصية [أو الجرأة] الإنسانية. أما على صعيد الحسابات السياسية، فهو يمتلكها، لكنه يفتقد الشعور السياسي. إنني متأكد أنه يمتلك الذكاء التحليلي، لكنه يفتقد تماماً الذكاء العاطفي.

إن غوردون رجلٌ غريب، لكني تمكّنت في نهاية الأمر من ملاحظة أن هذه ليست مشكلته الأساسية. (كان يمتلك، ولا يزال، نوعاً من أنواع الجاذبية المحببة في غرابته هذه). كانت المشكلة الأساسية هي أنه لم يفهم، بكل بساطة، جاذبية حزب العمال الجديد ما عدا ما يتعلق باستطلاعات الرأي، و«الاستراتيجية»، والفوز في الانتخابات بطريقةٍ ما. تمكّن غوردون من ملاحظة أن الأمور تسير على ما يرام، لكن من دون أن يعرف سبب ذلك النجاح. تمكّن من فهم السياسات المفصّلة، لكنه فشل في ملاحظة جاذبيتها العاطفية.

أمكنني أن ألاحظ في الاجتماعات والمحادثات كلها التي جرت بيننا بعد انتخابات العام ٢٠٠٥، أنه يعتقد أن هذه المحاولات من جانبي لمناقشة السياسة المتبعة كانت كلها حيلاً، أو وسائل لشراء مزيد من الوقت. كان يصرّ في كل مناسبة على تحديد موعد. كنت أقول له: حسناً، ما هي التوجّهات السياسية التي ستتبعها؟ كان ينظر إلى ذلك كله على أنه نوع من المراوغة، أو على أنه سعيٌ مني لإيجاد عذر للمراوغة. كان يقول لي كذلك: إنك تفعل ذلك من أجل تعزيز رصيدك، وليس من

أجل مصلحتي أنا. رددت عليه: لكن، إذا كانت السياسات صحيحة ـ مثلاً على صعيد إصلاح الأكاديميات، أو الخدمات الصحّية العامة، أو بطاقات الهوية – فإن تنفيذها يخدم مصالحك، وعلى أي حال فهو يفسّر كل شيء بطريقة مختلفة.

تمكّنت من ملاحظة الوجهة التي تقودنا إليها هذه الأمور جميعاً. كان الحزب، أو قسم كبير منه، مصمّماً على التغيير. كان من غير الممكن، واقعياً، أن أستمرّ في منصبي إلى ما بعد منتصف العام ٢٠٠٧، من دون صراع قد يكون مميتاً بالنسبة إلى الحكومة. فكّرت في الأمر، فشعرت بأن تركي لمنصبي ومجيئ غوردون سيكونان أمراً خطيراً للحكومة بدوره. فكّرت في النهاية بأن الأمر الأكثر أهمية بالنسبة إلى استمرار مشروع حزب العمال الجديد، في حال كان الأمر خطراً جداً على الحكومة، هو اتضاح أن ابتعاده عن حزب العمال الجديد، وليس إصراري على البقاء، هو الذي أنزل هذا الضرر كله. لكن من سيلاحظ هذا الاتضاح؟ وإلى أي مدى سيكون هذا الوضوح؟ كانت تلك أسئلة قيّمة، لكنني لم أكن قادراً على الإجابة عنها.

تمكّنت في هذا الوقت من التأكد أن بقائي سوف يكون مستحيلاً حتى العام ٢٠٠٨. أما وسائل الإعلام – مايل، تلغراف، غارديان، إندبندت، وميرور، بالإضافة، عملياً، إلى بي. بي. سي – فأكّدت أمراً واحداً هو أن أترك منصبي كي يحلّ مكاني، وذلك للأسباب ذاتها، التي أبداها الحزب غالباً، وعلى الأقل وسائل الإعلام اليسارية. أما وسائل الإعلام اليمينية فكانت ترغب في رحيلي لأسباب أخرى تتعلق بها. أما الصحف التابعة لريوبيرت مردوخ فقد كانت داعمةً لي على العموم، لكن حتى هو قد اعتبر أن من المنطقي بالنسبة إلي أن أترك منصبي فسحاً في المجال لغوردون.

أدركت هكذا أن ثمة أسباباً موضوعية قوية بالنسبة إلى الحزب، والأهمّ من ذلك كله، بالنسبة إلى البلاد، للبقاء في منصبي. فكّرت ملياً أنني أمتلك البرنامج السياسي الصحيح بالنسبة إلى مستقبل بريطانيا، بينما لا يمتلك غوردون مشروعاً كهذا. اختفى ذلك كله، وكما يحدث ذلك في السياسة بطريقة ما في بعض الأحيان، على يد المندفعين نحو التغيير.

جمعت، بعد عودتي إلى لندن وإلقاء محاضرة في يورك في ٥ أيلول/سبتمبر، الأشخاص الفاعلين، وكذلك استمعت إلى آراء ألاستير، وآنجي، وبيتر وبعض حلفائي

القدامى. التقيت غوردون في اليوم التالي، وجلسنا على شرفة في ١٠ دواننغ، وهو مكاني المفضّل لعقد الاجتماعات عندما تسمح حال الطقس بذلك. كان الحديث الذي تبادلناه شبيهاً بالأحاديث التي بدأناها على مدى السنوات القليلة الماضية، وهي التي كانت تجري على مستويين. كان أحدهما لفظياً، أما المستوى الآخر فلم يكن كلامياً، لكنّ المستويين كانا واضحَين تماماً.

أبلغني بأن هناك عرائض أخرى في الطريق. كان من بين الأمور التي قالها: لا أعرف شيئاً عن التفاصيل لأنني لم أشارك فيها. قال لي من دون كلمات: لم تترك لي خياراً، كما أنني لا أصدّق أنك ستترك منصبك.

أوقعني غوردون في فخّ، وهو عرف، بطريقة غريبة، أنه سوف يحتاج إلي. إنني أعرف ذلك، وأعرف كذلك أنه يستحيل عليّ البقاء في منصبي، لكن كان من الضروريّ بالنسبة إليه أن لا يكون هو في مقدمة الذين ينظمون تركي لمنصبي.

قلت له: «سأكون حريصاً على أن يكون هذا المؤتمر الأخير لي». لكنني لم أقل له: إذا ضغطت عليّ أكثر فسأتهمك بتدبير الانقلاب.

عاد إلى إصراره على تحديد موعد رحيلي، لكن كلامي كان غامضاً في هذا الشأن، وكنت مصمّماً كذلك على عدم تحديد وقتٍ في ذلك المكان والوقت بالذات. فلو فعلت ذلك لكنت اضطُرِرْتُ إلى الرحيل في غضون أسابيع فقط، وعلى أي حال كان ذلك سيكون صراعاً للبقاء.

كنت في منتهى الهدوء، لكن بعض المقرّبين إلي أرادوا أن أواجهه. قلت لهم يستحيل عليّ فعل ذلك. علينا السماح بحدوث هذا بطريقة مشرفة، كما يجب علينا استخدام الوقت من أجل تحقيق الإصلاحات المتبقية، وكذلك وضع برنامج مستقبلي عقلاني واضح. إننا نحتاج فوق كل شيء إلى إبقاء شعلة حزب العمال الجديد حية. اعتبرت أن احتمال تولّيه المنصب من بعدي يصل إلى تسعين بالمئة. اتفقت معه على أن الأمر لن ينجح. لكن كان من المهمّ بالنسبة إلينا أن لا يُعزى الفشل إلى غياب ولائنا.

أبلغ كبير المسؤولين عن الانضباط طوم واطسون بضرورة إما إلغاء اسمه من العريضة التي تطالب باستقالتي، وإما الاستقالة من الحكومة. لم تتأخر أنباء استقالته عن التسرّب إلى وسائل الإعلام. كان ردّي قاسياً.

سمعت من وسائل الإعلام أن طوم واطسون قد استقال. أردت أن أقيله من منصبه لكن بعد التحدث إليه أولاً. أما لو جاء إليّ لوحده وأعرب عن رأيه بشأن زعامة الحزب لكان ذلك أمراً آخر. أما توقيعه على عريضة جرى تسريبها إلى الصحافة فيما بعد فقد كان أمراً يعني عدم الولاء والفظاظة بالإضافة إلى أنه خاطئ. كان من المستحيل عليه لأجل ذلك أن يبقى في الحكومة.

كان ذلك الردّ قاسياً بالفعل، لكنني شعرت في ذلك الوقت بأنه يستحقّه تماماً. شعرت بالأسف تجاهه فيما بعد، وأسفت على ما فعله. أما المشكلة مع الآخرين الأصغر سناً، وهم كريس بريانت، وسيون سايمون وآخرون، فهي أنهم لم يفكروا في الأمر جيداً، وهم الذين كان يجب أن يكونوا داعمين لي. تسمّمت أفكارهم قليلاً بنشوة تغيير الزعيم ولعب دورٍ في هذا التغيير. أعتقد في الواقع أنهم لم يفعلوا ذلك عن خبث. اعتقد هؤلاء أن تغييري هو أمرٌ صائب، وهكذا بدا الأمر قبل الانتخابات الرابعة. لكن سبق لي أن طرحت السؤال: التغيير إلى ماذا؟ لم يُقدم أحد على شرح هذا الأمر بالعمق وبالطريقة اللازمة والضرورية من أجل اتخاذ قراراتٍ سياسية جدية.

وجدت في اليوم التالي، أي في ٧ أيلول/سبتمبر طريقة سهلة لتخفيف مرارة الوضع. زرت مدرسة كوينتين كيناستون في سانت جون وود، وكنت قد زرتها في وقتٍ سابق بعد أن توليت منصبي. تمكنت هكذا من ملاحظة تقدم المدرسة ونجاحها. كانت المديرة جو شاتر في منتهى اللطف، ولذلك لم تمانع في استغلال فرصة الزيارة كي أدلي بتصريح. رافقني في تلك الزيارة آلان جونسون الذي كان مخلصاً على الدوام، كما أنني كنت أشعر بأنني أستطيع أن أتكلم بسهولة أكبر عندما أكون برفقته.

شكلت أحداث الأيام الماضية موضوعات هامة في الأخبار، كما أن روح التمرّد قد انتشر في صفوف الحزب. انتشرت الفوضى في صفوف الحكومة، أما رئيسها فقد ابتعد نوعاً ما. وضع أفراد الحزب اللوم عليّ لأنني لم أترك منصبي، لكن بعضهم الآخر غضب بسبب فقدان الولاء. كان معظم أعضاء الحزب مندهشين، وأرادوا أن يتوقف الأمر برمّته وبكل الاحترام الذي يمكننا حشده.

بدأت بالاعتذار نيابةً عن الحزب وهو أمرٌ اعتبرته مناسباً. أوضحت كذلك أنني لست مستعداً الآن لتحديد موعد لرحيلي، لكني قلت إن المؤتمر التالي للحزب

سيكون آخر مؤتمر لي. أطلقت كذلك طلقة تحذير للذين يعتقدون أن مجيئ غوردون يناسب الحزب. كان أحد الأوجه السيئة فعلاً لهذا الأمر برمّته هو مفهوم استعداده للوظيفة. كنت متأكداً أن الجمهور لا ينظر إلى الأمر بهذه الطريقة، وعلى الرغم من أن خلافته لي كانت مؤكّدة، إلا أنه سيستاء من أي فكرة توحي بأن الأمر شرعي في ذاته. وجب كذلك معالجة الأمر بحذر. قلت في تصريحي: «سأقول شيئاً آخر بعد الأسبوع الذي مضى: أعتقد أن من المهمّ بالنسبة إلى حزب العمال أن يفهم، وأعتقد أن غالبية أعضاء الحزب يفهمون ذلك، أن الشعب يأتي أولاً، وأن البلاد هي التي تهمّ، كما أننا لا نستطيع أن نتعامل مع الجمهور على أنه متفرج غير مهمّ في قضية بمثل أهمية من سيكون رئيس وزرائه. هذا هو السبب الذي يدفعنا إلى عدم نسيان ذلك في سلوكنا وضبط أنفسنا في الأيام التالية».

تمكن هذا التصريح من تخفيف حدّة الوضع. بعثت في اليوم التالي مجموعة من الأشخاص المعتدلين، أي الذين لا يعتبرون أنفسهم من أنصار براون أو بلير، بياناً إلى آن كليود بوصفها رئيسة نواب الحزب في البرلمان تضمّن ترحيباً بتصريحي، وأوضحوا فيه عملياً ضرورة تحديد موعد ترك منصبي.

نشرت صحيفة صنداي تايمز في عطلة نهاية الأسبوع خبراً يوحي أن غوردون وطوم واطسون قد التقيا قبل إرسال العريضة. تمكنت من كبح جماح أنصاري الذين أرادوا خنق هذا التوجه. لم يكن لدي بطبيعة الحال أي شكّ في علم غوردون بأمر العريضة، بل إنه هو الذي رتّب أمرها. لكنني قررت أن أحاول ترك منصبي من دون أن يُقال إن أحداً قد سبّب التصدّع في صفوف الحزب، مما يعني تسليم غوردون زمام القيادة بشكلٍ منظم.

أما إذا تقدم أحد لمنافسته، فإن ذلك قد يكون أمراً آخر. لكن إذا كان من المحتّم حدوث ذلك فإنني أرغب أن يتم بطريقة محترمة، ومن دون أيّ أحقاد. لم أكن متأكداً أن من المناسب اتخاذ هذا الموقف، لكنني اتخذته لتلك الأسباب، وهكذا كانت الحال مع القرارات كلها التي تعلقت بثنائية طوني بلير/ غوردون براون.

تحدثت بعد أيام قليلة أمام مؤتمر في لندن عقدته مؤسسة التقدم Progress، وهي المؤسسة التي علقت عليها آمالاً كبيرة في تحويلها إلى هيئة استشارية تتبنى

سياسات حزب العمال الجديد. ضمّت المؤسسة شباناً لامعين يؤيدون ما كنا نسعى إلى تحقيقه. أما اليسار فكانت له مجموعته الخاصة في كومباس Compass، التي أرادت في الأساس الوصول إلى قيادة ثنائية بين إد بولز وغوردون براون. كانت هذه المجموعة ناشطةً وذكيةً لكنها اعتنقت، ويا للأسف، سياسة ليس لها أي حظّ من حظوظ النجاح في الانتخابات. امتلكت المجموعة طاقة كبيرة، كما كانت منظمة على نحو جيد. أما أنصاري أنا فكان أداؤهم جيداً مع الناخبين المعتدلين، كما كانوا مفعمين بإحساس من المستقبل الفكري الذي ينتظر الحزب، لكن فيما يتعلق بأمور التنظيم، والدسائس، والتخطيط، والتدبير فقد كانوا مثلي أنا تماماً، أي في الصف التمهيدي من مدرسة ابتدائية.

أما أسوأ ما في النهج الذي يتبعه غوردون براون فقد كان إحياء النهج القديم الذي كانت تتبعه النقابات في السابق، ومراوغات الناشطين فيها. كان ذلك كله يبعث بهجةً كبيرة لدى الذين يحبون هذا النوع من الأمور – كان ذلك جزءاً من نفسية نيك براون/ طوم واطسون/ تشارلي ويلان – لكنها كانت بعيدةً جداً عن الموقع الذي يجب أن يلتزمه كل حزب سياسي حديث، هذا إذا أراد الوصول إلى أي مركز عن طريق استخدام السياسات الصائبة، وإذا أراد أن يكون لديه أمل بالفوز.

كان أعضاء مؤسسة التقدم progress أشخاصاً محترمين، لكنهم سرعان ما وقعوا في ذلك المفهوم المضلّل والقائل إنه يتوجب عليهم أن يكونوا قوةً للوحدة على المستويين السياسي والتنظيمي، بينما كان كل ما يحتاجون إليه هو وضع برنامج عملٍ مستقبلي سليم، وترك التنظيم السياسي وشأنه. أما النتيجة التي أرادها فريق غوردون براون في تلك الفترة بالذات فكانت السعي إلى تحديد برنامج الزعيم المقبل، وهكذا فقدوا أي قدرة على التظاهر بأنهم قوة «وحدة» في الحزب.

أقول إذا أردت أن أكون منصفاً، إن بعض المقرّبين إليّ قد أشاروا بأن اللوم يقع عليّ إلى حدّ كبير، وبأن ذلك قد حدث نتيجة إصراري على أن لا ينظر أحد إليّ على أنني أعيق صعود غوردون نحو القمة. دأبت كذلك في التشديد على أن حزب العمال الجديد هو مشروع مشترك بيني وبين غوردون، وهو أمرٌ يتجاوز ما تبيّنه الوقائع. كنت أحاول دائماً إقناعه بتبني البرنامج الإصلاحي، وكنت آمل أن يتقبّله، ولو على قاعدة عدم وجود شيء أفضل. تسبّب هذا الوضع بحدوث ارتباك عند الناس.

ما إن كشفت أوراقي حتى هدأ الوضع، لكن استيقظ عندي، مجدداً، في الوقت ذاته إحساس بأن الوضع ملغّ جداً. هدأت جماعة غوردون براون، وتمّ لهم ما أرادت على الرغم من أنها بقيت متشككة، كما أنني أدركت أنها سوف تبحث عن طريقة لتقريب الموعد. أما أنصاري فقد شعروا بالحزن، لكن معنوياتهم لم تكن منخفضة كما يُمكن أن تكون. تعيّن عليّ العمل بجهدٍ من أجل رفع معنوياتهم، لكني شعرت بحيوية كبيرة، وتمكنت من تمرير بعضها إليهم.

مرّ أسبوع مدهش جداً توجّهت بعده إلى بيروت والشرق الأوسط. عدت إلى شيكرز في يوم ١٤ أيلول/سبتمبر، وذلك بغية تضميد جروحي ووضع استراتيجيتي لما تبقى لي من الوقت في منصبي، لذلك تجمّعت عندي أمور كثيرة كانت تستدعي التفكير فيها. يُعتبر شيكرز في شهر أيلول مكاناً مريحاً للمرء. يميل الطقس في هذا الوقت من السنة لأن يكون جيداً، وهكذا يتمكن المرء من الجلوس كثيراً في الباحات الخارجية.

تمكنت بطريقةٍ أو بأخرى من ترتيب نمط معيشة في أيام إجازات نهاية الأسبوع. تعوّدت أن أعمل بجدّ في الصباح، وأن أمارس بعض الرياضة بعد الظهر. كنت أتناول بعض المشروب القويّ قبل تناول عشاء جيد.

يستأهل موضوع العلاقة بين الكحول ورؤساء الوزراء تأليف كتاب مستقل. إنني لا أعتبر نفسي من الذين يثملون بأي حالٍ من الأحوال، كما أنني لا أتناول مشروباً قبل وقت الغداء إلا في يوم عيد الميلاد. أما إذا فكّرنا في الأمر الذي يكذب الجميع بشأنه – وهو مقدار ما يتناولونه من الشراب في الأسبوع – فإنني أعتبر أنني أتجاوز الحدود قليلاً. إنني أتناول قليلاً من الويسكي القوي، أو بعضاً من شراب الجِن والتونيك، إلا أنني وضعت حدوداً معينة، لكنني أيقنت أنها تعطيني بعض الطمأنينة.

على المرء أن يعيد، بعناية، تحديد علاقته بالشراب [الكحول] كلما تقدّم بالسن. يلجأ المرء عندما يكون شاباً إلى الإفراط في الشراب قليلاً في بعض الأحيان، لكنه يمتنع عن الشراب طوال أيام. ما إن يتقدم الإنسان في هذه الحياة حتى يصبح الشراب مطلباً يومياً لجسده ما يمنحه ذلك بعض الاسترخاء. يخفف الشراب من

الضغوط التي يشعر بها الإنسان، كما أنه منبّه كذلك، وباستطاعته أن يحوّل أمسية مضجرة إلى أمسية مقبولة. إن الشراب يلعب دوراً هاماً في حياتي.

أعتقد أنني لا أستطيع تقرير طبيعة الدور الذي يلعبه الشراب [الكحول] في حياتي. هل هو: أ) جيّد لأنه يُشعرني بالاسترخاء، أو ب) سيئ، لأنه كان يُمكن أن أعمل بدلاً من الاسترخاء. توصّلت إلى استنتاج – ربما يوافقني القارئ على أن أ) تتغلب على ب). ظننت أن الهرب من الضغوط والاسترخاء كان جزءاً حيوياً من إبقاء الوظيفة متوازنة، وهو يؤدي وظيفة تشبه قليلاً إجازاتي. لكنني لم أكن متأكداً، وظننت أنني أتحكم في الشراب [الكحول]. على المرء أن يكون صادقاً، لذلك أقول إن الشراب مخدّر، ولا فكاك منه. أنصحَك، لذلك، أن تستخدمه بحذر، لكن لا تسئ فهم طبيعته، بل أريدك أن تكون صادقاً في تحديد علاقته بحياتك.

خصّصتُ عدة أيام من أجل إعداد الخطاب الذي سألقيه في المؤتمر، وهو آخر خطاب ألقيه أمام حزب العمال الذي ترأسته لمدة تزيد عن ١٢ سنة حتى ذلك التاريخ. أردت كذلك أن أفكّر وأن أضع خطة للعبتي السياسية. لا يُمكن أن يكون الأمر سيئاً، وهذا أمرٌ أكيد، كما برزت أمامنا تحديات عديدة. تريد وسائل الإعلام مني أن أغادر منصبي في وقتٍ مبكر، ويعود ذلك جزئياً إلى لهفتها على إحداث تغيير، وجزئياً لأنها أرادت أن تتسلى وتتأكد من إمكانيتها تسجيل نصر ودفعي إلى الاستقالة قبل الوقت المحدّد. حسناً، أدركت أنني لا أترك منصبي، بمعنى ما، طوعاً، لكن بمعنى آخر كان ذلك قريباً جداً من مطلبي أنا، وليس مطلب وسائل الإعلام هذه كي تشعر بالراحة. يمكن لوسائل الإعلام ولي أن نحاصر بعضنا بعضاً، وأن نصطدم بعضنا ببعض، لكن ذلك كان على أساسٍ متساوٍ. ظنّت وسائل الإعلام أنها إذا انتصرت عليّ للمرة الأخيرة وأجبرتني على مغادرة منصبي فسيكون ذلك أمراً عظيماً.

يبقى أمامي التفكير في الحزب بعد ذلك. سيقبل الحزب القرار الذي سأتخذه بشأن الوقت المحدد لمغادرتي، لكنني أعرف دائماً أن اتهامات بالأنانية ستوجّه إليّ، وأنني سأبقى في منصبي من أجل مصلحتي الخاصة، وليس مصلحة الحزب.

أحسست بوجود مشكلة سلطة حقيقية. كان غوردون هو الخليفة المعيّن. كان هو المستقبل، وليس هناك من شكّ في أنه سوف يجتذب الناس إليه. أما إذا أبدى

معارضته في قضايا معينة فإن وزراء حزب العمال سيفكرون مرتين قبل الوقوف إلى جانبي، وليس إلى جانبه. أريد أن أكون منصفاً هنا وأقول ما إن أتخذ قراري حتى يفعل غوردون ما بوسعه للانضمام إليّ في هذا القرار، لكن أنصاره سيبقون على معارضتهم وإصرارهم على الاستياء والمعارضة.

أما النقابات التي أحسّت بأنها على وشك العودة إلى محور الأحداث، بالنسبة إلى الحزب على الخصوص، فبقيت على رفضها. ألقيت خطابي للمرة الأخيرة أمام مؤتمر النقابات، كانوا مهذبين ولا شيء أكثر من ذلك. أدرك كل طرف ما يفكّر فيه بالنسبة إلى الآخر، وكنت أعرف أن هناك قادة نقابات عمالية جيّدين فعلاً، من أمثال أولئك في USDAW (نقابة عمال المتاجر) وCommunity (نقابة عمال الفولاذ القديمة) -أعربوا عن أسفهم وقلقهم بسبب تركي لمنصبي، لكن النقابات الكبيرة كانت غير راضية. انتهت علاقتي معها كما بدأت: عدم فهم متبادل. لم يتمكن هؤلاء القادة من فهم السبب الذي يدفعني إلى إنجاز ما أفعله، كما أنني لم أستطع فهم عجزهم عن اعتبار ما أفعله على أنه طريق للمستقبل. أما المضحك في الأمر فهو أنني أُعجبت بهم كأشخاص، كما أنني كنت أكثر إخلاصاً لقضية النقابات الأساسية ولقضية حزب العمال أكثر مما يعتقده كثيرون، لكنهم ظنوا أنني محافظٌ يرتدي ثوب حزب العمال، أما أنا فاعتبرتهم محافظين في ثياب عمالية. هذا هو الوضع، لكن إذا عدنا إلى تاريخ الحكومات العمالية، نلاحظ أنهم شكلوا إزعاجاً لي أكثر مما كانوا بالنسبة إلى آتلي، أو ولسون، أو كالاهان، لكن يجب علينا أن لا ننسى أن نفوذهم كان أقل في ذلك الوقت.

تعيّن عليّ كذلك أن أركّز على أنصاري، وأن أرفع من معنوياتهم وأحافظ على إحساسهم بوجود الهدف. كانوا مجموعة طيّبة ضمّت أولئك الذين تحمّلوا مصاعب الفترة الماضية كافة: جوناثان بويل، وجوناثان بيرس، وليز لويد. بقيَت ليز معنا طوال هذه السنين، وأصبحت نائبة رئيس فريق الموظفين، كما أحضرت معها النظام والانضباط اللذين أفتقدهما أنا وجوناثان. لليز كذلك مزاج ممتاز، فالعمل معها ممتع جداً، وهي صادقة، تكنّ في أعماقها ذلك السحر الأنثوي الإنكليزي، وتلك الصلابة كلها، لكنها كانت، فوق كل شيء مقتدرة تماماً.

تمثل أحد أهم المظاهر، التي تدعو إلى الأسف في عودة سياسات حزب العمال

القديم إلى مؤسسة الحزب، وفي رفض الحزب لترشيحات أشخاص من جيل الشباب أكفاء بالفعل من أمثال ليز، وذلك لمصلحة أولئك الذين يحظون بدعم آلة غوردون براون الانتخابية وقد كانوا أقل كفاءة بكثير. تعودت في الأيام الأولى لزعامتي تشجيع الشبان الأذكياء والأخصائيين على الانضمام إلينا للترشح للمجلس النيابي. من هؤلاء دافيد ميليباند، وجايمس بيرنيل، وروث كيلي، ووليام بيرن. أضيف إليهم، كي أكون منصفاً، من هم أمثال غوردون براون، وإد ميليباند وإد بولز، وإيفيت كوبر. كان اتجاه الحزب في ذلك الوقت يميل إلى جيل الشباب من الذين يمتلكون كفاءات عالية بالفعل. امتلكت اقتناعاً صلباً بوجوب تشجيع الكفاءات على الدوام على الرغم من علمي أن جماعة براون قد تسبب لي بعض المتاعب. لدي بعض الأمور القاسية التي أحبّ أن أقولها بشأن إد بولز ـ وذلك لأنني أعتقد أنه تصرّف تصرفاً غير مناسب في بعض المراحل كما أخطأ في أمور تتعلق بسياسة الحزب – لكنني اعتبرت في الوقت ذاته أنه مقتدر بالفعل، وصاحب موهبة يتمنى أي حزب سياسي الحصول عليها. كنت واضحاً جداً بالنسبة إلى التعليمات التي أعطيتها إلى القواعد الحزبية: لا تضعوا أي شيء ضد هؤلاء الشبان، فهم الذين تعطيهم قدراتهم الحقّ أن يصبحوا جزءاً من كل ما يجري، كما أن من واجبنا إعطاءهم الفرص التي يستحقّونها.

أمكنني في النهاية ملاحظة أن الآخرين لا يشاطرونني هذا الشعور، والأهمّ من كون هذا الشعور غير منصف هو كونه يضرّ بمصلحة الحزب على المدى الطويل، وسيمثل ذلك مشكلة خطرة. إنها المشكلة ذاتها التي واجهتها أثناء محاولتي التي بذلتها لاختياري في مطلع الثمانينيات، والمشكلة التي كان يعانيها الحزب، هي في اجتذاب المواهب، إذ كانت الترتيبات القديمة تجري في «الغرف الملأى بدخان السجائر». لكن تمكنا من تجاوز هذه المشكلة في نهاية التسعينيات، لأن أصحاب المواهب يمتلكون الفرص.

شعرت في تلك الفترة الأخيرة بأن الأمور تعود إلى الوراء. إن عدم إدخال شخص مثل ليز البرلمان، إذا كان ذلك ممكناً، كان خسارةً لنا وليس لها. خسارة خطيرة وذات دلالة. إن الحزب الذي يستبعد الكفاءات التي لديه يقوم في الواقع بتحجيم قدراته. لقد كانت قريبةً جداً مني، فأدركت أن الأمر خلّف تأثيراً سيئاً فيها.

أما الآخرون فقد انضمّوا إلى الفريق في وقتٍ لاحق، تمتع ماثيو تايلور بمزيج

عظيم من القدرات الذهنية والذكاء السياسي. فتمكن من شقّ طريقه في الحزب بطريقة لم تبتعد كثيراً عن أسس حزب العمال الجديد، إلا أنه توسّع انطلاقاً منها. أما دافيد بينيت، وهو رئيس مدير السياسات فقد انضم إلينا من ماكينزي. كان من خارج الحزب، وأعتقد أنه اعتبر التجربة السياسية مقلقة برمّتها في بعض المراحل، لكنه كان ذكياً بالفعل، أي كما أردت أنا، أي إدخال خبرة من خارج الحزب، وصاحب طريقة تحليل مختلفة. لعب الرجل دوراً مساعداً جداً في صوغ آخر فصلٍ من فصول سياسة الحكومة.

كان الفريق السياسي، أي روث تيرنر، وجون ماك تيرنان ونيتا كلارك، بالإضافة إلى من هم من حزب العمال، أي الأمين العام بيتر وات، من طراز فاق كثيراً ما كنت آمل أن أحصل عليه في تلك المرحلة من اللعبة: الولاء الكامل، والتصميم الشديد تجاهي. كان بيتر شخصاً صلباً، وقائداً يشقّ طريقه نحو القمة، وهو ذو قاعدة قوة بديلة ويمارس قدراته بكلِ قسوة، كما كان هيئة تحقيق فيما يتعلق بنزاهة الفريق ما عدا نيتا. أما عندما أفكر في طبيعة أدائهم الممتاز أثناء تلك الفترة فإنني أشعر بإعجاب كبير تجاههم.

تعيّن عليّ معرفة كيفية التعامل مع وسائل الإعلام، والحزب، وغوردون براون، والنقابات، ومكتبي الخاص، وذلك في اللحظة التي أعلنت فيها أنني سأترك منصبي.

توجّهت إلى شيكرز كي أفكّر. قررت أن الطريقة الوحيدة للتعامل معهم هي إعطاؤهم سبباً محدداً وواضحاً للاعتقاد أنه يتعيّن عليّ البقاء حتى صيف العام ٢٠٠٧. قال لي ماثيو تايلور وبيتر مندلسون: «ما هو هدفك من هذا كله». كان ذلك هو السؤال المهم. فكرت كثيراً في السبب، وهو الذي صغته على النحو التالي: أريد ترك منصبي بعد اتخاذ قرارات جوهرية وأساسية تتعلق بسياسة تشتمل كلها على برنامج حزب العمال الجديد الذي التزمناه. أريد بعد ذلك تطبيق عملية تتضمن مشاركة الحكومة والحزب في وضع برنامج مستقبلي. يستطيع غوردون براون أن يكون شريكاً كاملاً، ويمكنه أن يوافق على المشاركة فيه، أو أن ينأى بنفسه جانباً، لكنه لن يكون قادراً على القول إنني لم أقم بوضعه، أو إنه لم يحصل على فرصة للمشاركة في صوغه. أما إذا ظهرت خلافات في سياق ذلك البرنامج فليحصل ما يحصل، لكن سيتكون لدينا في النهاية، على الأقل، برنامج واضح. لكن إذا تبناه

فسيكون ذلك حسناً، أما إذا امتنع فإن أحداً لن يستطيع القول إنه لم يمتلك الفرصة، كما أن أيّ قيادة بديلة ستكون قادرةً على فهمه والمضيّ في تطبيقه.

يمكنني القول، عموماً، على الرغم من قدرٍ كبير من التهكّم والسخرية من دوائر عديدة، إن هذا هو ما فعلناه. كنت، بعد كل شيء، رئيس الوزراء على الرغم من قولي إنني سوف أغادر منصبي، كما أنني احتفظت بسلطةٍ حقيقية تبقت لي. كنت قادراً على إجراء تغيير وزاري، وقادراً على منح الترقيات. احتفظت بمنصة للتحدث، والمناقشة، والإقناع حتى مع وجود وسائل إعلام معادية. كان يُمكن للتسعة أشهر الأخيرة أن تكون فترة وداعية مفعمة بالزهو، أي كما حاولت أصوات كثيرة من وسائل الإعلام أن تجعلها، لكننا حاولنا في واقع الأمر تحديد أجزاء هامة من برنامج التغيير، كما أننا تركنا مجموعةً هامةً من توجيهات السياسة المستقبلية إذا أراد، وذلك في حال أراد الناس التزامها، وهي تتعلق بالتقاعد، والخدمات الاجتماعية، والخدمات الصحية العامة، والمدارس، والقانون والنظام.

لم يسبق لقائد سياسي أن ترك منصبه هكذا. أخذت السياسة بالتغيّر منذ ذلك الوقت. إنني أعتبر نفسي الأول، لكني أشك في أنني سوف أكون الأخير مع ظهور زعماء أكثر شباباً، وتغيّر مركز بريطانيا في العالم.

الفصل الحادي والعشرون

الرحيل

شكّلت تلك الأشهر ضغطاً كبيراً، خصوصاً على العائلة، وخيّمت فوقها سحابةٌ من الشك وعدم الأمان. لا تتدخل أسرة رئيس الوزراء بوظيفته على الرغم من تأثرها بها على نحو خاص. إنها تشهد الأحداث، وهي تشارك في لحظات السرور والحزن، لكنها تشعر على الدوام بأنها تأخذ دور المتفرج، لأنها كذلك في نهاية الأمر.

إن أسرة رئيس الوزراء معفاة من الألم الشديد الذي هو من نصيب رئيس الوزراء لوحده، لكنها ليست معفاة من التمحيص في أمورها. تتمكّن العائلة من رؤية الألم الذي يعانيه رئيس مجلس الوزراء لكنها تظلّ بعيدةً عنه، الأمر الذي يكوّن عندها إحساساً غريباً بالضياع، فتشعر بأنها بين بين، وبأنها لا تشارك كلياً في حياته، على الرغم من أنها جزء لا يتجزأ منها.

عندما توجّهنا في البداية إلى داوننغ ستريت كنا أصغر عائلة تعيش هناك منذ زمن اللورد رسل في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، وذلك عندما كان المكان منزل العائلة. لم تكن هناك مهمّات رسمية، كما أنه لم يكن فعلياً مكاناً للعمل. أما هذه الأيام فإن داوننغ ستريت هو مكان يضج بالحركة، ومكان حكومي يعجّ بالحركة ويضمّ أبنية ملاصقة مكتظة بمئات الموظفين. إن الطبيعة الرمزية لأشهر

عنوان في بريطانيا تعني أن هذا المبنى هو مركز السلطة. يتبيّن لنا هكذا أنه أولاً وقبل كل شيء مكتب للعمل، كما أنه بالدرجة الثانية منزل الأسرة.

كان إدخال الأولاد داوننغ ستريت محبباً على مستوى معيّن، أما على مستوى آخر فإن المكان لم يكن جاهزاً لاستقبالنا بالمرة. ما إن وُلِد ليو حتى فرض نفسه في المبنى، فكان مسلّياً جداً للجميع، كما أن الموظفين أحبوه، لكن المبنى يفتقد وسائل تسمح بالعمل ورعاية الأطفال. لكننا تمكنا من التأقلم مع الأوضاع، وعلى الرغم من أنني لم أفهم قط مدى غرابة الأمر بالنسبة إلى الأولاد كي يكبروا في داوننغ ستريت، إلا أننا تحمّلنا الأمر بشكلٍ جيد على وجه الإجمال. كان شيكرز مكاناً رائعاً للاستراحة من دوامة داوننغ ستريت، أما من دونه فإن حياة رئيس الوزراء ستكون مختلفة جداً، حتى أسوأ.

عشنا في شقة تقع فوق الرقم ١١. قمنا بتجديد المطبخ الذي كان بحاجة ماسة إلى التجديد، لكن كل عملية تجديد كانت تترافق مع أخبار النفقات – كان على المقاولين العمل بحسب قواعد خاصة – كما كانت مناسبة للابتهاج. كان الناس يندهشون من عدم وجود موظفين في المنزل للقيام بأعمال الطبخ وغير ذلك من الأعمال المنزلية، لكننا فضّلنا الحياة على هذا النحو. كانت الحياة هكذا أكثر هدوءاً وأكثر خصوصية وذلك على الرغم من وجود سيلٍ دائم من الموظفين، والموظفين الحكوميين، والمراسلين. كان الأشخاص العاملون في داوننغ ستريت ودودين على وجه الإجمال، وعلى استعداد لتقديم المساعدة، وكانوا مساندين لي في تحمّل العبء كرئيس وزراء، وإن فعلوا ذلك بطريقة محسوبة لكنها واضحة مع ذلك. إنهم لا يتحدثون كثيراً عن الأمر، لكن المرء يشعر بالمساندة العاطفية التي يقدمونها بلطفٍ ومودة.

كان المنزل الذي يقع فوق الرقم ١١ أكبر مما توقعناه، كما أنه احتوى على مجموعةٍ من الغرف الاحتياطية فوق الطابقين الرئيسيين حيث تقع غرف المعيشة والنوم. اشتمل سطح الطابق العلوي الذي يطل على استعراض الخيالة من الحرس، ومتنزه سانت جايمس، على مجموعة من الأدوات الرياضية، وعلى آلة ركض، وعلى آلة تجذيف وأثقال. امتلك نيكي غرفته الخاصة حيث يحتفظ بمجموعة طبوله مع القيثارات الخاصة بي. كنا نتجمع هناك في بعض الأحيان كي نُصدر أكبر قدرٍ من الضجيج.

تمكّنا من تجاوز فترة مراهقة ثلاثة أولاد، وذلك بفضل جاكي الرائعة التي بقيت مع العائلة منذ العام ١٩٩٨، كما رافقت ولادة ليو عندما كان في سنواته الأولى في المدرسة الابتدائية. يظهر المرء على حقيقته عندما يكون بين أسرته، أي إنه يُظهر أقصى ما عنده من غضب، وأقصى ما عنده من حب، وأقصى ما عنده من قمع، وكذلك أقصى ما عنده من حوافز. لكن لا يُمكن للمرء أن يكون أنانياً بالمطلق وسط عائلته. يشعر المرء بحاجةٍ إلى أن يكون كذلك في بعض الأحيان، لكنه يشعر في أحيانٍ أكثر أنه بحاجة إلى أن يكون برفقة الآخرين. لا يمكن للإنسان أن يُخفي أوجهاً كثيرة من أوجه شخصيته عندما يكون بين أسرته، سواء منها الجيدة أو السيئة التي تكمن من دون أن تُكشف، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تطلعاته وأوهامه. هناك أوجه عديدة لأفضل ما في الإنسان وأسوأ ما فيه. على المرء كذلك أن يصفح عن بعض التجاوزات كي يتمكن الآخرون بدورهم من الصفح عن هفواته. يعمد المرء في بعض الأحيان إلى مراقبة القوة الأساسية التي تمثلها العائلة، وحينئذ يدرك أن هذه العائلة هي إحدى أعاجيب الإنجازات البشرية، وهي تستحقّ التعلّق بها على الرغم مما يرافقها من عيوب، وقلقٍ، وتوتّرات.

تمكنا من الخروج من ١٠ داوننغ بسلام وبقوة تماماً، لكن العيش هناك أثّر فينا جميعاً بطرقٍ مختلفة.

يستحقّ الدور الذي تلعبه الزوجة تأملاً عميقاً. كان الرجال يعملون في الماضي، بينما النساء لا يعملن. أما في هذه الأيام فإن النساء يعملن إلى جانب الرجال، وهكذا فإن المرأة العاملة ستجد صعوبةً شديدةً على الدوام. كان الأمر صعباً بما يكفي بالنسبة إلى شيري، وهي التي اختارت، عن صواب برأيي، أن تبقى صاحبة مهنة بدل أن تكون مجرد زوجة سياسية. لا يمكنني التأكد الآن، وبعد التفكير في الأمر أن ذلك أمرٌ ممكن، وذلك بالنظر إلى شدّة المراقبة والتمحيص في هذه الأيام.

بقيت شيري تمارس مهنتها، لكنّ الأمر كان صعباً، وذلك لأنها اضطرت إلى رفض قضايا عديدة لأنها كانت حساسة من الناحية السياسية. لم تتمتع شيري بدعم من ١٠ داوننغ بوصفها زوجة «رسمية». أما فيونا، شريكة ألاستير، وأحد قدامى الأصدقاء، وروس بريستون فقد ساعداها كثيراً، لكن كان لا بدّ أن تكون مساعدتهما بطريقة غير مباشرة نوعاً ما. أما عندما تسلّم غوردون مهامه كرئيس للوزراء، فقد

حرص على أن تحصل زوجته على مكتبٍ لائق يضمّ بعض الموظفين. أعتقد أن الأمر صائب جداً بحيث يصبح عرفاً متبعاً.

لم تعمد شيري إلى مساعدة نفسها على الدوام، كما سبق لي أن قلت إن لديها حدساً هائلاً يمكنها من مهاجمة جهات قوية، وعلى الخصوص تلك الموجودة في أوساط رجال الإعلام، وهم الذين يمتلكون، ويا للأسف، مركزاً يمكّنهم من الانتقام، لكنها قامت بعملٍ هائل. استخدمت شيري داوننغ ستريت للمرة الأولى كمكانٍ مناسب من أجل مساعدة الجمعيات الخيرية، وكانت تعقد فيه مناسبات كل ليلتين تقريباً. كانت شيري سنداً قوياً لي عندما كنت أمرّ بحالة ضعف، وكانت مصمّمة عندما كنت أحسّ بالوهن، وكانت شرسةً في الدفاع عن أسرتها. عكست صورتها عند وسائل الإعلام كاريكاتيراً للصورة الحقيقية التي كانت جزءاً من الحملة الغاضبة التي تعرضت لها، لكنها تمكنت من مواجهتها ولم تسمح لهذه الحملة أن تنال منها. تلخّص هذ الكراهية القلبية المتبادلة علاقتها مع قسم كبير من الصحافة! كانت مستعدة لتقبّل بعض النقد مع ذلك، لكن افتقاد التوازن هو الذي لم يكن مقبولاً.

كانت هجمات وسائل الإعلام اعتباطية أحياناً في الواقع، أو على الأصح انتقائية. اختار أسلافي من رؤساء الوزراء، بحسب علمي، تمضية إجازاتهم في منازل قدّمها أصدقاؤهم. أما دينيس على الخصوص فقد اضطرّ إلى العمل حتى عندما كانت السيدة ثاتشر في ١٠ داوننغ، لكن أحداً لم يوجّه اللوم إليه بهذا الشأن. تلقت السيدة ثاتشر انتقادات بشأن أولادها، لكن على وجه العموم كانت هناك فرصة أكبر للاسترخاء في تلك الأيام. أما في هذه الأيام فإن الناس يريدون معرفة كل شيء، كما أن أي شيء يعرفه الناس معرضٌ للتغليف بشيء سلبي. أما إذا كان الهجوم شخصياً جداً أم لا، فيتعلق بقرار المحرر ملاحقة الأمر. لكن إذا قررت صحيفة مثل دايلي مايل أن تفعل ذلك، فإن صحفاً أخرى سوف تنضمّ إلى الحملة ولن تكون خارج السرب.

لا يمكنني في حصيلة الأمر إلا الإشارة على أن الوجود هناك يحمل معه إثارة ونشاطاً كبيرين يترافقان مع القيام بالوظيفة التي يجب أن لا تحول جوانبها السلبية دون رؤية مظاهر التكريم الحتمية التي ترافق الجوانب الإيجابية. إننا بشرٌ في نهاية

الأمر، وهكذا يمكننا أن نفكر على النحو التالي: أجل، إن الوظيفة لشرف كبير لنا، وتالياً: أيها الحمقى!

يواجه الناس ضغوطاً من الأنواع كافة وبطرقٍ مختلفة، سواء أكانوا رؤساء وزراء أو زوجاتهم. يلجأ بعضهم إلى الشراب بينما لبعضهم جانب من الطيش، أما بعضهم الآخر فيتعرض للانهيار، وبعضهم يلجأ إلى الدِّين، وبعضهم الآخر يجد صداقة من نوعٍ خاص. لا أعتقد أن أحداً يمكنه التهرب من مواجهة هذا الوضع. أعرف أن الضُّغوط قوية جداً. أعرف كذلك أن الناس يتصورون أن رئيس الوزراء ذو شخصية استثنائية وقوية وحازمة تخلو من الخوف والشكوك، ولا يمانع أن يكون وحيداً وأن يقف وحيداً، كما يتحلى بثقة قوية تمكّنه من مواجهة القضايا الإنسانية. أقول لكم لا وجود لذلك الشخص. إن الإنسان ضعيف بطبيعته. يُمكن للإنسان عند التحديات الكبيرة أن يستحضر ما لديه من الثقة والجرأة. يحصل الأمر ذاته في حالات الأنانية الشديدة، وفي حالات التضحيات. لكن لا يتمتع أي إنسان بشخصية كهذه في الأوقات كافة.

يحتاج كل إنسان إلى الاسترخاء، وإلى ترك شعره مسترسلاً، والتخلص من أعباء السلطة وأبهتها، ولو لفتراتٍ وجيزةٍ جداً. احترس إذا كان لديك شخص مسؤول لا يفعل ذلك، فسوف يواجه المتاعب.

هناك قدر معين من الحزن يلتصق بك ولا يفارقك أبداً. يستنتج القارئ من هذه المذكّرات أنني شخصٌ متفائل ومستبشرٌ أساساً. أظنّ أن الحياة هي هبة من الله ولهذا يجب أن نعيشها إلى أقصى حدّ، ويجب أن نضع لها غاية. يتعين على شخصٍ ما أن يقوم بوظيفة رئيس الوزراء، وعلى شخصٍ أن يتخذ القرارات. ألم يسبق لي أن تحدثت عن الامتيازات التي ترافق هذه الوظيفة؟

يبدأ الإنسان بمرور الزمن، على الرغم من وجود تلك الامتيازات، بالشعور بعواقب كل قرارٍ يتخذه سواء أكان جيداً أم سيئاً. ينطبق هذا الأمر على الخصوص عندما تؤدي القرارات مباشرة إلى الحياة أو الموت. أتذكر أن القوات المتحالفة قد أقدمت أثناء أزمة كوسوفو على قصف قافلة مدنية عن طريق الخطأ، وهي الحادثة التي قُتل فيها بعض الأطفال. أعتقد أن الحزن خيم عليّ منذ تلك اللحظة. فكرت في

الحياة التي كان يُمكن أن يعيشها هؤلاء الأطفال، وفي الحزن الذي يشعر به آباؤهم، وفي طبيعة مشاعري لو كان أحد أولادي من بينهم. لكن لنفكر أيضاً في أعداد الذين كانوا سيموتون لو امتنعنا عن التحرك. أعتقد أننا كنا سننقذ أرواحاً كثيرة في البوسنة أو رواندا لو أننا تحركنا كما يجب، لكننا كنا سنفقد بعض الأرواح كذلك. أما في العراق فقد نسينا الأطفال الذين ماتوا تحت حكم صدّام حسين، والأطفال الذين كان يمكن أن يموتوا لو أنه بقي في السلطة. لكن ذلك لا يمكن أن ينسينا الذين كان يُمكن أن يعيشوا لو أننا لم نقدم على تحركنا العسكري للتخلّص منه. لا يُمكن لهذه الفكرة أن تفارقني، وهي التي تعاودني بقوة وباستمرارٍ في هدأة الليل.

تعاملت مع تلك الضغوط بمثل ما يفعل معظم المسؤولين، هذا إذا لم يكن أفضل منهم. لكني اضطررت إلى مواجهة هذا الواقع. ربما غادرني الحزن، لكن ذلك كان مجرد مظهر، إذ ما زال موجوداً في أعماقي. إنني أحاول مع ذلك أن أتغلب على شياطيني عن طريق مواجهتها.

تميّزت الأشهر الأخيرة بنوعٍ خاص من التأمل الذي يرافق العزلة. اضطررت إلى التركيز الشديد، لكني كنت أعرف أن ولايتي أوشكت على نهايتها. عملت في تلك الفترة على مستويين: الاستعداد التام لهذه الفترة إذ كنت أتخذ يومياً، وبشكلٍ طبيعي، قرارات تتعلق بسياسة الحكومة، وتجهيز نفسي ذهنياً لمغادرة منصبي، فكنتُ أفكر في ما أريد فعله، وأتساءل عما سيجلبه المستقبل لي.

تمحور خطاب الملكة الذي ألقته في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٦ حول القانون والنظام. وسلّط الأضواء على التغييرات التي أدخلناها في مديرية الداخلية [وزارة الداخلية] وفي وزارة الشؤون الدستورية، وهي التي أصبحت الآن وزارة العدل، أي الإصلاحات في بطاقات الهوية، بالإضافة إلى جرعة من الإجراءات المضادة للسلوكيات الجرمية.

اشتُهر البرنامج الإصلاحي الذي تبنته الحكومة خلال عشر سنوات من حكمها بالتعديلات الدستورية والإصلاحات في مجال التعليم والصحة، كما برزت الإصلاحات في مجالات أخرى مثل أقساط التعليم، والمدارس المتخصّصة، والأكاديميات والمدارس التي تُديرها مجالس الأمناء، والمستشفيات التي تسمح

بالاختيار والمنافسة ذات الاستقلالية الإدارية، وبرامج مكافحة أمراض السرطان والقلب. كانت هذه كلها، والإدارة الذاتية بطبيعة الحال، بارزةً تماماً.

سبق لي أن تحدثت عن الدوافع التي وقفت وراء التغييرات في القانون والنظام، وحملة مكافحة السلوك الجرمي بطبيعة الحال، وهي الدوافع ذاتها التي حملتنا على إجراء تغييراتٍ في بطاقات الهوية. لكن تحقيق هذه الإصلاحات لم يترسّخ على صعيد المخيلة والتحليل الشعبيين، وهو ما حدث بالنسبة إلى البرامج الأخرى. أعتقد أن هذا أمر خاطئ تماماً، لأن مسائل القانون والنظام، والهجرة إلى حدّ ما، كانت بالنسبة إليّ نقاطاً حيوية لم تغب قط عن تفكير الحكومة، وكانت هامةً كذلك بالنسبة إلى حزب العمال الجديد مثلما هي الأكاديميات، أو نوعية الخدمات الصحية العامة.

حمل خطاب الملكة، وما أنجزناه خلال الأشهر التالية، هذا البرنامج إلى مرحلة جديدة من سياسة الحكومة. كان البرنامج، بطبيعة الحال مثاراً لجدالات حامية في أوساط وسائل الإعلام، كما أنه لقي معارضةً من قِبل المحافظين، والليبراليين، ومن قسم كبير من حزب العمال. أعتقد أن غوردون سوف يتخلى عن هذا البرنامج عندما يتولى رئاسة الوزراء، لكني أردت أن يكون البرنامج شفافاً لأنني تأكدت حينئذ، ولا أزال، من عودته إلى الواجهة.

بدأت بإعادة تنظيم مديرية الداخلية Home Office، ووزارة العدل لإنكلترا وويلز، وذلك بعد التغيير الحكومي الذي جرى في العام ٢٠٠٣ مباشرة. كانت إعادة التنظيم هذه هي الأصعب على الإطلاق، وذلك لأنها تضمّنت خسارة ديري إيرفين، وهو مثالي الأعلى ومرشدي، لكننا حاولنا إدخال بعض الحداثة إلى الطريقة القديمة التي يعمل بموجبها النظام الجرمي. كان إدخال دافيد بلنكيت إلى وزارة الداخلية مساعداً جداً بسبب حدسه العميق في أمور الجريمة. أما تشارلي فالكونر، وبيتر فالكونر، وبيتر غولد سميث فقد عملوا جيداً. أحدثنا تغييرات كذلك بين رؤساء الخدمة المدنية [الموظفين الحكوميين]، الأمر الذي ترك أثراً جيداً ما كنا لنستطيع التوصّل إليه اعتماداً على النيات الطيبة فقط. كان التغيير البنيوي والمؤسساتي ضرورياً.

كانت المشكلة مع هذه التغييرات بسيطة: أدى الأمر إلى أولويات لم تتزامن مع أولويات الحكومة. كانت وزارة العدل لإنكلترا وويلز تضطلع بمزيج من ثلاثة

أدوار مختلفة: كان الناطق باسم مجلس اللوردات، ورئيس السلك القضائي، ورئيس المحاكم. أما أنا فاعتبرت أن هذه الأدوار الثلاثة مختلفة نوعياً. إن الدور الذي أتى آخراً في القائمة، أي المحاكم، هو الذي يأتي أولاً في الأهمية بالنسبة إليّ، لأنه يشتمل على فاعلية النظام الجرمي.

تعودت مديرية الداخلية معالجة الأمور الدستورية كلها التي تمرّ من خلالها، وممارسة امتيازات النبلاء، والعائلة المالكة، والألقاب، وشؤون المناسبات والاحتفالات، وحقوق الإنسان، والميثاق الملكي، والتعيينات، وشؤون الإكليروس، والزواج، والوصول إلى المعلومات، لكن الأمر الأهمّ بالنسبة إلي كان شؤون الجريمة. لاحظت أن طاقات الوزارة الفكرية والسياسية موجّهة إلى المجالات التي تهم طبقة النخبة، وهكذا تركتْ حياة الناس العاديين كما هي. يحتاج هؤلاء الناس إلى عناية ماكينة «مكافحة الجريمة» و«تطبيق قوانين الهجرة» الفعالة.

كان نقل ديري مؤلماً بالنسبة إليّ، ومع أن عواقب الإصلاحات الدستورية التي أدخلناها على مكتب وزارة العدل في إنكلترا وويلز قد ترافقت مع مطبات، ومع بعض الفوضى، إلا أن النتيجة كانت صائبةً تماماً. انتخب مجلس اللوردات رئيساً له، وقد اختار، صائباً امرأة هي هيلين هايمان، أما القضاة فقد عيّنتهم لجنة مستقلة. تحوّلت وزارة العدل في إنكلترا وويلز إلى وزارة الشؤون الدستورية، وهي التي تركّز على دفع عملية إصلاح النظام القضائي وتحسينه، وكذلك على إصلاح الدستور وحمايته. أما في العام ٢٠٠٧، فقد جعلنا السجون والمحاكمات من ضمن صلاحية هذه الوزارة، الأمر الذي كان منطقياً لأن مكافحة الجريمة كانت شيئاً، والتعامل مع أنظمة المحاكم ومنتهكي القوانين كان شيئاً آخر، أي من الأفضل أن تتمّ معالجتهما في وزارة واحدة كما هو حاصل في معظم وزارات العدل في الخارج.

نقلنا بعد ذلك مسؤولية الشؤون الدستورية من مديرية الداخلية Home Office، وغيّرنا وزارة العدل لإنكلترا وويلز، وعزّزنا قسم الهجرة وجوازات السفر والجنسية في مديرية الداخلية. احتجنا كذلك إلى وضعها ضمن هيكلية قانونية تحمل معنى للعالم الحديث، وهكذا ظهرت تشريعات السلوك الجرمي، ومحاولات إصلاح قوانين الإرهاب، وتشديد قواعد اللجوء والهجرة، وإلغاء المحلفين في محاكمات الاحتيال المعقدة (التي كانت تنهار بعد أشهر نظراً لتعقيداتها، وهي التي كانت تشغل المحلفين

لفترات طويلة، بحيث تستبعد الأشخاص المهنيين العاملين عن مجال المحلفين). أما الإجراءات المتعلقة باختبارات الحمض النووي فقد كانت تقدماً ذا أهمية كبيرة، لكنها لقيت مقاومة شرسة على أساس الحريات المدنية التي أظن أنها غير مبرّرة. مكّنتنا تقنية الحمض النووي الجديدة من مقارنة الحمض النووي للمشتبه فيهم بالحمض النووي العائد إلى مجرمين سابقين، وإلى من يوجد في مسرح الجريمة، وهكذا يمكننا تكوين قاعدة بيانات للأحماض النووية. جاءت النتائج مثيرةً جداً، كما تمكنا من كشف جرائم قديمة، كما أُطلق أشخاص أبرياء. أعتقد أننا إذا تمكنا من توسيع هذه القاعدة فإن النتيجة ستكون هائلة بالنسبة إلى النظام القضائي الجرمي برمّته، علماً أن نصف الجرائم تقريباً تترك أثراً يحتوي على الحمض النووي. يتعيّن، بطبيعة الحال، أن يتعامل بحذر مع المعلومات المتعلقة بالحمض النووي والحفاظ على سريّتها، لكن ربما ستجعل هذه التقنية من الصعب جداً ارتكاب الجريمة من دون أن تنكشف، كما ستجعل من المستحيل ارتكاب جرائم الاغتصاب، وهي خطرة جداً بالنسبة إلى أي مجرم يريد مهاجمة شخصٍ ما.

نشب خلاف كبير آخر حول إجراءات قانون الجرائم. كان ذلك إصلاحاً يحمل مضموناً كبيراً، من شأنه ترجيح كفة ميزان تطبيق القانون في الجريمة المنظمة لمصلحة الذين يطبقونه وليس لمصلحة المجرمين. بدأنا هذه التشريعات في شهر نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٥ مع إعلان قانون الجريمة المنظمة الخطرة والشرطة. أدى هذا القانون إلى إنشاء وكالة الجريمة المنظمة الخطرة في شهر نيسان من العام ٢٠٠٦. لقيت هذه الوكالة معارضةً قويةً كما هو متوقع. انتقد المحافظون ولجنة الشؤون الداخلية قانون العام ٢٠٠٥، وذلك نظراً لغياب بندٍ واحد فيه ينصّ على وجود قوات أمن حدودية بريطانية. أما الليبراليون الديمقراطيون فقد كانوا حذرين بشأن كيفية تمويل الوكالة، أما اتحاد قوى الشرطة فقد عارض إنشاء الوكالة لأنه قلق من فقدان الاستقلال الذي يتمتع به ضباطه تقليدياً، بالإضافة إلى تأثير ذلك في مراتبهم وأحوالهم. أما وسائل الإعلام فقد تساءلت عن القيمة الإجمالية لتلك المؤسسة. لكن ذلك أعطانا، وللمرة الأولى، سلطة مصادرة أصول المجرمين المشتبه فيهم، أو المحكوم عليهم، وذلك بالنظر إلى كون ذلك رادعاً.

أُثير الأمر برمّته نتيجة الاجتماعات التي جرت وجهاً لوجه مع ضباط الشرطة

والمقيمين في المناطق الموبوءة بالمخدّرات والدعارة. تعوّد تجار المخدرات والقوّادون حمل آلاف الجنيهات معهم، أو قيادة السيارات الفخمة. كان من المستحيل بطبيعة الحال إثبات أن هذه المبالغ الكبيرة من المال، وهذه السيارات الفخمة، آتية من الجريمة، لكن السماح لهم بذلك ترافق مع نتيجتين مؤذيتين. الأولى، وبطبيعة الحال، هي تسهيل أعمالهم بصورة ملحوظة. الثانية، وهي الأقل وضوحاً، لكنها الأهم برأيي، هي أنها تعطيهم مركزاً وميزةً في مناطقهم. يبدأ الشبان بالتطلع إليهم، كما ينظر إليهم الناس بعين الخشية، والأسوأ من ذلك بعين الإعجاب. كانوا أشخاصاً أقوياء. أما أثرهم في مناطقهم فكان مريعاً. أعطى القانون رجال الشرطة سلطة مصادرة الأصول، سواء المالية منها أم الممتلكات، وذلك شرط إجراء تحقيق بعد ذلك لمعرفة ما إذا كانت هذه الأصول قد جاءت بطريقة قانونية أم لا. مثّل هذا الأمر، بطبيعة الحال، عكساً للقوانين العادية التي تتطلب تقديم البراهين والدلائل أولاً، مما أعطى المعارضة أسبابها بشكلٍ مفهوم، لكني شعرت بأن هذه القوانين ضرورية جداً في الحياة العصرية التي تعيشها تلك المناطق.

أنشأنا المؤسسات بعد إقرار القوانين. وعمدنا بمرور الزمن إلى مضاعفة سلطات رجال الشرطة وإعطائهم الحوافز الكافية، وذلك عندما سمحنا لهم بالاحتفاظ بنسبة محدّدة من المبالغ التي يصادرونها من أنشطة الجريمة المشتبه فيها. استثارت هذه السياسة حساسيات وزارة الخزانة، لكنها وافقت في النهاية، وعلى الرغم من أننا كنا نتشاجر بشأن النسبة التي ستذهب إلى وزارة الخزانة، والنسبة التي ستذهب إلى الحكومة، إلا أن الوزارة قبلت المبدأ.

تضمّن خطاب الملكة الذي ألقته في العام ٢٠٠٦ توسيعاً أكبر لهذه الصلاحيات: إنشاء نظام منع الجرائم الخطرة، وهو الذي يمنع قيام الأفراد، أو الشركات، بالجرائم المنظمة، وذلك عن طريق فرض قيود عليهم، وإضافة مخالفات جديدة مثل تشجيع عملٍ جرمي أو المساعدة عليه عمداً، وكذلك تعزيز مصادرة الأصول عن طريق توسيع صلاحيات التحقيق والمصادرة للمحققين الماليين كافة. كنت أفضّل توسيع الصلاحيات إلى مدى أكبر لو كان الأمر عائداً إليّ، لكننا طرقنا مجالاً جديداً، أي تماماً كما فعلنا مع تشريعات مكافحة السلوك الجرمي. وحين يفكّر مختلف الوزراء في الحكومة في محاولة تهدئة مطالب الشعب، فإنهم سيعودون إلى هذا البرنامج وتحقيقه.

كان الخوف وعدم الشعور بالأمن الشخصي عنصرين رهيبين بالنسبة إلى أناس كثيرين. أما إذا تمكنا من تقليص هذه المخاوف فسيؤدي ذلك إلى تحسين الظروف المعيشية ونوعيتها على محو كبير. إن صوغ هذا البرنامج، وخصوصاً ما يتعلق منه بالسلوك الإجرامي، هو أكثر إنجازٍ أفتخر به. لا جدال في أن الحريات المدنية قد تقلّصت كثيراً، وعلى الرغم من شعوري بأنني لا أكترث للأمر، وبأنني أرفض هذه الحريات، لم أكن كذلك في واقع الأمر. كنت مدركاً جداً الحاجة إلى حماية الأبرياء المتهمين ظلماً بأنهم مذنبون.

حمدت الله مرتين أثناء وجودي في منصبي على استقلالية النظام القضائي البريطاني وسلك المحاماة: مرة خلال التحقيقات التي أجرتها لجنة هوتون، ومرة أخرى بعد إصدار الحكم في قضية «المال مقابل الألقاب». تعرض المحامي في الحالتين لضغوط شديدة، وأحياناً غير لائقة إطلاقاً، بغية القيام بما أراده قسم كبير من وسائل الإعلام. أصدر القضاء حكمه في القضيتين استناداً إلى أدلة. يمكنني، لهذا السبب، أن أكون شاهداً على قيمة السلطة المستقلة وغير المنحازة التي تعرف إبقاء السلطة [الإجرائية] ضمن حدودها، والتي تحمي البريء، وتحكم من دون خوفٍ أو محاباة.

تمكّنت، على أي حال، من رؤية الناس العاديين وهم يعيشون من دون أي حماية في بعض أنحاء البلدات والمدن التي كانت مهددةً بشدّة بطريقة لم يتمكن النظام القديم من ملاحظتها. رأيت كذلك أماكن خارجةً على القانون، وأماكن يتصرّف الناس فيها بالطريقة التي يعتقدون أنها تليق بهم. أعتقد بأننا إذا لجأنا إلى التصويت فسيعرف الناس في أي مجتمعٍ يتمكنون فيه من تكوين عائلة.

عمدنا بسبب ذلك إلى دفع برنامج القانون والنظام قُدُماً، كما تمكّنا حتى في آخر أيام حكمنا من تحقيق بعض هذه الإصلاحات.

كان حظنا من النجاح أقلّ فيما يتعلق بتشريعات الكازينوهات التي تحولت إلى قصة في ذاتها! أعتقد أنها كانت مثالاً مهماً على كيفية تغيير مزاج الناس.

عانينا مشكلة، ولا نزال، في بعض المدن البريطانية الساحلية القديمة. تدفّق الناس إلى هذه المدن في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وذلك من دون الاكتراث لبشائر الصيف، وكانوا يستمتعون بالتجوال بين وسائل

التسلية، وبالعروضات التي تُقام قرب الشواطئ، وبأجواء الكرنفالات. شعر الناس في تلك الأوقات بمتعة وإثارة كبيرتين بوسائل التسلية القديمة هذه. انتشرت في الستينيات من القرن الماضي رحلات السفر والإجازات الجماعية. أتذكر أنني قصدت بينيدورم في بداية انطلاقتها في الستينيات. أحببت هذه المدينة كثيراً، وكانت تلك المرة الأولى التي أسافر فيها جواً. تكوّن لديّ شعور، بعد أن رأيت شيئاً من إسبانيا – المأكولات الإسبانية، والدوكادوس والنبيذ الإسباني الجاف (كنت دون السن، لكن لا بأس في ذلك) – بأن البقاء في بريطانيا كان أمراً يوحي بالاستكانة، وغير عصري بالمرة. بدأت البلدات الساحلية بالانحدار تدريجاً، وواجهت مع بزوغ فجر الألفية الجديدة مستقبلاً غير مضمون، أو هي، بكل وضوح، فقدت المستقبل. كانت بلاكبول نموذجاً تقليدياً.

واجهتنا مشكلة أخرى في انتشار أنواع مختلفة من المقامرة – وعلى الخصوص على شبكة الإنترنت مباشرة – إضافة إلى محالّ المراهنة التقليدية. تعرضنا في هذه المدن لغزو من شركات الترفيه الكبيرة، ومعظمها أميركي إذ أرادت بناء مجمّعات ترفيه كبيرة تشتمل على الكازينوهات، ومجموعة كبيرة من وسائل الترفيه الأخرى، ودور السينما، والنوادي الرياضية، ومنشآتٍ أخرى.

اعتقدت أن من الأفضل لنا أن نسمح لهم بتنفيذ مشاريعهم، وذلك لأنها تعني ضخّ كمية كبيرة من أموال القطاع الخاص. لم يكن أمامنا أي بديل واقعيّ آخر. كانت المدن الساحلية تنتظر هذه المشاريع بفارغ الصبر. أرادت مانشستر الحصول على أحد هذه المشاريع، كما أنها قدّمت خططاً لإعادة تطوير وسط المدينة على ذلك الأساس. أظهر كبار المسؤولين عن هذه المشاريع مسؤوليةً كبيرة في تطبيق القوانين المشدّدة التي فُرضت على تلك المؤسسات.

أعطيت موافقتي بناءً على ذلك كله، لكن ظهرت ردة فعلٍ كبيرة. أبدت الجماعات الدينية معارضتها للمشروع على أساس أنه سوف يساعد على انتشار المقامرة. جرت الدايلي مايل على عادتها، كما أوحت بأن المشروع برمته ينضح بالفساد، ويستهدف الموظفين الحكوميين المعنيين. لكن أحداً لم يلاحظ أن أي شيء يمكن أن يفعله المرء في الكازينو ويعجز عنه في أمكنة اللهو الأخرى، أو في محالّ المراهنة، أو حتى على شبكة الإنترنت، وإن كان ذلك يحدث من دون حماية تُذكر.

أبدت تيسا جويل مساندتها بملء الروح النسائي الذي تتمتع به، وهكذا أعطينا موافقتنا. ساء الأمر كثيراً، فخسرنا تصويتاً في مجلس اللوردات، واضطررنا إلى إجراء اختيارٍ كنا بغنى عنه بين بلاكبوول أو مانشستر، كما اضطررنا إلى اختصار العدد المقترح مما يُدعى الكازينوهات الفخمة، وهي التي تجتذب أكبر قدرٍ من الاستثمارات. عمد غوردون بعد رحيلي إلى نبذ هذه المشاريع حتى كازينو مانشستر. كانت تلك خسارة كبرى لتلك المدن، وذلك بالنظر إلى عدم وجود صيغة واضحة من الاستثمارات بحيث تشكّل بديلاً جاهزاً. كان ذلك التصرف أسوأ شكلٍ من أشكال التعصب، لأنه منحاز مثلما هو غير مؤثّر. يعني ذلك أن الناس يستطيعون المقامرة كما يشاؤون، وإلى الحدّ الذي تسمح به أموالهم، لكنهم لا يتمكنون من فعل ذلك في مجمعات حديثة مجهزة بكازينو، ومركز تسلية، وتجهيزات رياضية ومحالّ متنوعة.

تبنّيت، على أيّ حال، نوعاً من أنواع المتعة التي ربما هي في غير محلّها في المضي قُدُماً بهذه المشاريع، وفي عمل ما أعتبره عقلانياً، ولم أكترث إلا قليلاً لموجات الرأي العام التي كانت تنحسر وتقوى، وذلك ما عدا الحالات التي كنت أرى فيها قضيةً دائمةً بحيث أرغب في إسماعها للناس.

واجهنا في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٧ حالة رعبٍ نتجت عن إنفلونزا الطيور. حمل هذا الوباء معه خطراً محتملاً. جرى تشخيص فيروس H5N1 في إحدى مزارع الديوك الرومية في هولتون، سافولك. عقدنا اجتماعات وتحضيرات متواصلة تحسّباً لإمكانية تحوّل هذه الظاهرة إلى أزمة كاملة. تعيّن علينا اتباع خطّ حذرٍ جداً ما بين الإفراط في ردة فعلنا، أو التقليل من ردة الفعل هذه. هناك سيل عارم من البيروقراطية عند أولئك الذين يغرقون في الإفراط في رد الفعل.

توافقنا، أنا وغوردون، على تجديد الردع النووي المستقل. ربما يعتقد المرء أنني كنت واثقاً جداً بذلك القرار، لكنني تردّدت كثيراً بشأنه. تمكّنت في ذلك الوقت من ملاحظة قوة المنطق والحجج العملية الموجّهة ضد مشروع ترايدنت، لكنني فكرت بعد تحليلٍ عميق أن التخلي عن هذا المشروع يعني الحطّ من قدر مركزنا كدولة وسط عالمٍ مضطرب، ومن شأنه أن يشكّل مخاطرة كبرى لوضعنا الدفاعي. لم أعتبر أن الأمر يتعلق بكوننا «أشداء في الدفاع» مقابل «الضعف أو المسالمة» على الإطلاق. كانت هناك حجج براغماتية تدعم هذين الوضعين. كانت الكلفة

عالية جداً، كما أن استخدامه [السلاح النووي] في عالم ما بعد الحرب الباردة هو أقل بالنسبة إلى الردع، ولا شيء بالنسبة إلى الاستخدام العسكري. هل من الأجدى استخدام تلك الأموال في شراء مزيد من الطائرات الحوّامة، أو في وسائل النقل الجوي وتجهيزات مكافحة الإرهاب؟ ليست تلك بفكرة حمقاء، ففي الأوضاع التي ربما تُستدعى فيها القوات البريطانية للقتال، كان من الواضح أيّ الأمور هو الأهم. أعرف، بصراحة، أن من غير المعقول استخدام ردعنا النووي وحده، أي من دون الولايات المتحدة. دعونا نأمل هنا أن لا ينشأ وضع تهدّد فيه الولايات المتحدة باستخدام ذلك الرادع، لكن لا يزال أمامنا وقت كافٍ كي لا نقلق بهذا الشأن كدولة.

قرّرت بعد إجراء جولةٍ عميقة من التفكير وإعادة التفكير، أن أجدّد ذلك السلاح، على الرغم من أن القرار المعاكس لم يكن من الحمق في شيء. أجريت مناقشة معمقة ومنطقية تماماً مع غوردون بهذا الخصوص، وهو الذي كان متردّداً بدوره. اتفقنا معاً في النهاية، ثم قلت له: «تصوّر أنني أقف في مجلس العموم كي أقول إنني ألغيته. إننا لن نفعل هذا، أليس كذلك؟» كان الحذر هو سيد الموقف في ذلك اليوم.

اتفقت مع غوردون على تقديم خطة التنفيذ بعد وقتٍ قصيرٍ من عقد مؤتمر حكومي في وقتٍ متأخرٍ من شهر تشرين الأول/أكتوبر. أعطيت الخطة عنواناً ينضح عظمة «مسارات نحو المستقبل». كانت الغاية من هذه الخطة هي الاستفادة من التسعة أشهرٍ المتبقية لإعطاء إحساسٍ من الوحدة لفريقَي بلير وبراون، وكذلك من أجل إعطاءٍ وصول غوردون إلى السلطة لمسةً من الاستمرارية بالإضافة إلى التغيير، ويصدق ذلك فوق كل شيء على حزب العمال الجديد.

أعتقد، بطبيعة الحال، أن غوردون ظنّ أن ذلك كله ما هو إلا خطة مدبّرة تهدف إلى تقييده أو محاصرته. أردت طمأنته، لذلك كلّفت بات ماكفادين، من قِبَلي، وإد ميليباند، من قِبله، كي يتوليا الموضوع منذ البداية. أما في الواقع فهو أنني كنت آمل أن أستطيع إقناعه. أدركت منذ وقتٍ طويل أن بعض أسباب معارضته للخطة الإصلاحية يعود لأسبابٍ سياسية، لكنني افترضت كذلك أنه ما إن يتسلم المسؤولية ويبدأ فعلياً بمعالجة القضايا العالقة، حتى يتغيّر، وهكذا يتمكن من الاقتناع بأنني لا أستعجل البرنامج لتحسين سمعتي، بل لأن تجربتي وحدسي السياسي قد أقنعاني

بعدم وجود حلولٍ أفضل للتحديات التي تواجهها البلاد. امتلكنا الآن، وعلى عكس ما كان الحال عليه في العام ٢٠٠٤، دليلاً ملموساً وواضحاً على نجاح الإصلاحات: تسجيل أطول فترة من النمو الاقتصادي على مدى مئتي سنة، وزيادة القوة العاملة بما يزيد عن ٢/٥ مليونين شخص؛ وفي مجال الخدمات الصحة عدم اضطرار أي شخص للانتظار فترة تزيد عن ستة أشهر للبدء بتلقي العلاج؛ وفي مجال المدارس ارتفاع المستويات عموماً ومضاعفة الإنفاق على التعليم بالنسبة إلى كل طالب؛ وفي القضاء الجرمي انخفاض الجريمة بنسبة ٣٥ بالمئة.

اختفت المنافسة ما بيننا، لأنه فاز وسوف يتولى المسؤولية. أما الشيء الوحيد المهمّ، وما يجب أن يكون مهماً لنا نحن الاثنين فهو أنه فاز وترشّح بذلك مشروع حزب العمال الجديد على نحو دائم يضمن عدم عودة الحزب إطلاقاً إلى ما تعوّد سابقاً من فترات حكم قصيرة وفترات معارضة طويلة. يعني ذلك أن بريطانيا قد تخلّصت من لعنة سياسات القرن العشرين، ويعني ذلك أيضاً أن التفكير التقدمي يجب أن يفرض نفسه مساوياً للتفكير المحافظ، إن لم يكن متفوقاً عليه، في أوساط الرأي العام.

إنني أعرف جيّداً، وبكل ما أوتيت من حدسٍ سياسي، أن الأمل بتحقيق النجاح، لا يمكننا أبداً إلا من خلال التمسك بمسار حزبٍ العمال الجديد، ومن خلال الالتزام الصادق وليس التكتيكي. سبق لي أن قلت إنني أؤمن بأن غوردون إذا ما انحرف عن مسار الحزب فسيضيع [سياسياً].

خشيتُ مع ذلك أن يعجز غوردون عن ملاحظة هذا الأمر. حاول الرجل التلاعب بما يتعلق بطريقة تنفيذ برنامج «مسارات نحو المستقبل». علمت أنه كان يشكك، وإن بشكلٍ متقطع، وعلمت كذلك أن أنصاره، باستثناء إد ميليباند، كانوا يهاجمون المشروع من وراء الكواليس ويقولون إنه مشروع للزهو فقط، وهكذا نظروا إليه نظرة ازدراء. لكن المشكلة هي أنني أعرف أنهم لا يملكون أي بديل. قلت له ولهم غير مرة: حسناً، أفهم أنكم لا توافقون على تحليلي أنا، لذلك أريد منكم أن تعطوني تحليلكم. أما ما حصلت عليه فيُعتبر من جهة، فوضى نتيجة محاولات تجنب الخيارات والمسائل الصعبة التي تكمن، سواء أحببنا ذلك أو لا، في جوهر قضايا السياسات [طرق التحرك] المتبعة، ومن جهة أخرى في رفضهم الإفصاح عن

أفكارهم. انتهى الأمر بهم إلى إقناع أنفسهم بأن سبب ذلك هو ضرورة نشر أفكارهم المتطرفة [أو الثورية] لحظة تسلّمهم الحكم. قلت له لا بأس في ذلك مبدئياً ما دمت تعرف ما تريد الكشف عنه، لكن لماذا لا تناقش الأمر معي على الأقل كي تختبر تلك الاقتراحات؟

أما بالنسبة إلى الإصلاحات داخل الحزب فإنه أراد أن يبقي هذه لنفسه، ولعله فعل ذلك لأسبابٍ كثيرة. أما أنا فوضعت هدفين نُصْبَ عيني. الهدف الأول هو إنهاء قضية التمويل الحزبي. ظننت أن بإمكاننا التوصّل إلى اتفاقية مع المحافظين من شأنها السماح لنا بإجراء إصلاحات مقبولة في هذا الشأن. عُيّن السير هايدن فيليبس، وهو أحد الموظفين الحكوميين السابقين، على رأس لجنة بحثت هذا الموضوع في العام ٢٠٠٦. عالج السير هايدن المسألة بطريقة براغماتية [عملية] وذكية. اقترح تقريره الذي أصدره في العام ٢٠٠٧ وضع حدّ أعلى للتبرّعات الشخصية، وللإنفاق في الحملات الانتخابية، إضافة إلى زيادة في كمية التمويل الحكومي ومداه. اعتبرت أن هذه الاقتراحات تشكل حزمة تسوية مناسبة.

كان جاك سترو هو الوزير المسؤول عن هذه القضية. ناقشنا الموضوع لوقتٍ طويل، لكنني لم أفلح فعلاً في إقناع غوردون بالموافقة على تسوية. أعتقد أنه ظن أن بإمكانه الحصول على اتفاق أفضل عندما يصبح رئيساً للوزراء، لكنه خسر فرصة تحديد إنفاق حزب المحافظين. أما أنا فقد أنبأني حدسي بخصوص الانتخابات الرابعة، أننا سوف نجمع مبلغاً أقل بكثير من دون مشاركة مايكل ليفي، ومن دون مشاركتي الشخصية. كانت تلك قضية إدارة داخلية، لكنها قضية تترافق مع عواقب واضحة بالنسبة إلى خوض معركة انتخابات.

أما القضية الحزبية الثانية فقد كانت أكثر أهميةً بالنسبة إليّ. اعتقدت منذ بعض الوقت أن حزب العمال يواجه خياراً في ممارساته السياسية، وفي طريقة عمل الحزب، وفي الطريقة التي يتفاعل فيها مع الناس، وطريقة خوضه لحملاته الانتخابية. استنتجت بدايةً أن طريقة تعاطي الحزب للسياسة أصبحت قديمة، أي صورة الحزب بأعضائه، ونشطائه، ولجانه العامة المحددة، ولجانه التنفيذية، وكل البنى التحتية للأحزاب السياسية التي كانت سائدة في القرن العشرين. هناك بعض

الحقائق الجلية المتعلقة بالأحزاب السياسية السائدة في بريطانيا وفي أماكن أخرى من العالم، وهي حقائق تستأهل التحليل. إن أعضاءنا أقلّ من أعضاء المنظمات غير الحكومية العادية، مثل منظمات حماية الطيور، والمساعدات، ومجموعات حماية البيئة. أما الطريقة التي نتواصل بها مع الجماهير التي تدعمنا فتعتبر قديمةً بمقاييس أصحاب المتاجر الكبرى. أما استخدامنا للتقنية الحديثة فهو مفجع. كانت حملة أوباما اختراقاً واضحاً، لكن الواقع هو أن الديمقراطيين في الحملة التي خاضوها لإيصال كيري إلى الرئاسة في العام ٢٠٠٤ كانوا متقدمين كثيراً على معظم الأحزاب السياسية التقدمية في أوروبا. أما حملة بوش، والهيكلية التي ناقشتها مراراً معه، وهي البنية التي أنشأها كبار مستشاريه السياسيين مثل كارل روف، فقد شكلا اختراقاً كبيراً في الوصول إلى المتعاطفين.

إن الحملات الحديثة الناجحة كلها، بما في ذلك حملة ساركوزي في فرنسا في العام ٢٠٠٧، قد استخدمت الطرق الحديثة، بالإضافة إلى تضييق الهوة بين القاعدة الأساسية والناشطين في الحزب، وبين الدعم الشعبي الأوسع.

كنت أقول لأنصاري إننا بعد تمضية عشر سنين في الحكم أصبحنا في أدنى مستوى سياسي لنا، كما خسرنا قدراً محدّداً من الدعم، وهو أمر حتمي برأيي. أعتقد أننا خسرنا بعض الذين هُرعوا نحونا بحماسة أثناء التحضيرات الانتخابية التي استمرت حتى أيار/مايو من العام ١٩٩٧. دعونا الآن نفكّر في انتخابات العام ٢٠٠٥، وهي التي كانت حملةً صعبة، وتضمّنت هجوماً شرساً علينا، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الناخبين المؤيّدين لحزب العمال الجديد بقوا معنا، وهكذا تمكّنا من زيادة أكثريتنا في بعض مواقعنا. يعني ذلك أن في تلك المراكز بعض الذين يكرهوننا، لكن معنا بعض المناصرين. يُضاف إلى ذلك أن هذه الفئة الأخيرة لم تنضم إلينا نتيجة حماسةٍ معينة بحيث تتكاثر بسرعة مثلما تتقلص بسرعة، وذلك لأنها من مناصري الحزب المخلصين. يدرك هؤلاء كل المشاكل والأخطاء التي يعانيها الحزب، لكنهم اتخذوا قراراً بالإبقاء على ولائهم للحزب.

دعونا نفترض الآن أن بعض الناخبين، ولعلهم كُثر، قد دعمونا لأنهم لا يحبون حزب المحافظين، وهذا أمرٌ معقولٌ جداً. لكن حتى ولو افترضنا أن واحداً فقط من

أصل عشرة هو من المؤمنين الحقيقيين بالحزب (ربما تكون النسبة أربعة أو خمسة من أصل عشرة)، فهذا يعني أن الرقم يصل إلى ما يزيد عن مليون شخص، وهو عدد يشكل قاعدة سياسية هامة.

يُمكننا أن نتعرف إلى هؤلاء الأشخاص، وبعضهم من المساهمين الجدد في حزب العمال الجديد. يُمكن أن يكونوا من فئاتٍ جديدة تماماً، ولعلهم يمارسون وظائفهم، بفضل سياساتنا، سواء أكانوا منسّقين رياضيين، أو مساعدين تعليميين، أو من أصحاب المهن أو التجارة الصغيرة في الصناعات أو المهن الجديدة، وهم الذين يؤمنون برؤية للاقتصاد الجديد – إنهم أشخاص يناصرون فكرة الاتحاد الأوروبي، ويؤيدون سياسة خارجية تسمح بالتدخل العسكري (لكنهم قلة...)، وهم أشخاص يشتركون في الحملات المناطقية التي تستهدف السلوك الجرمي، وغير ذلك.

يعني ذلك، وعلى الرغم من كثرة عدد المنتقدين، أنني تمكّنت من ملاحظة وجود عددٍ كبير من المناصرين، وهم الأشخاص الذين لم ينضموا إلينا بسبب الموجة السائدة، لكنهم معنا بسبب إيمانهم بسياسات تقدمية حديثة ومن نوع آخر. إنهم الأشخاص الذين نحتاج إليهم داخل مظلتنا، ليس من أجلهم بل من أجلنا. إن هؤلاء المناصرين الذين يبقون معنا لمدة طويلة ضروريون لسلامة رسم سياسات الحزب، ولعملية اختيار المرشحين المناسبين، ومن أجل تشكيل قوةٍ ضاغطة للتغيير الآتي من القاعدة – ويعتمد ذلك كله على النوعية، والمشاعر، والفطرة، ومواقف أولئك الذين لهم علاقة بالحزب. يصدق هذا الأمر أكثر عندما نكون في المعارضة. إن تقييد أنفسنا بأصحاب العقليات القديمة، أو بالقواعد النقابية من شأنه أن يُسفر عن حزبٍ من نوعٍ معين، لكن لو انفتحنا وسمحنا للحزب بتنفس الهواء النظيف الذي يأتي من المؤمنين الحقيقيين بالحزب، لحصلنا عندئذ على حزب من نوع آخر، وهو الحزب الذي يقدر على الحكم لفتراتٍ طويلة من الزمن، وسيشكل ذلك الحزب قاعدة تحالف عريضة قادرة على دعم حكومة، يمكنها منع تكرار الأخطاء التي أسفرت عن حكم المحافظين لمدة ثماني عشرة سنة، وما لا يزيد عن تسع عشرة سنة من حكم حزب العمال حتى العام ١٩٩٧ طوال تاريخنا (من بينها خمس سنوات تحمّلنا خلالها تحالفاً متشنجاً مع الليبراليين).

كنت أسعى للوصول إلى حزبٍ من هذا النوع كل تلك السنوات، وذلك عندما

أقدمت على توسيع عضوية فرع الحزب، وعندما أقدمنا على إجراء إصلاحات على طريقة اختيار المرشحين والمسؤولين. أعطتنا التقنية الجديدة والصيغ الجديدة من الحملات الانتخابية الوسائل الضرورية التي مكّنتنا من تحقيق هذه الإصلاحات. كانت رؤيتي للحزب تشتمل على نبذ المفاهيم التقليدية لعضوية الحزب وهيكليته، وعلى معاملة المناصرين، بوصفهم أعضاء يساهمون في القرارات الهامة، وكذلك على استخدام التقنية الجديدة ليس من أجل إنشاء قاعدة أنصار جديدة فقط، بل من أجل التواصل مع المناصرين ومن أجل خوض الحملات الانتخابية بطريقة مختلفة.

لاحظت أن أعضاء الحزب هذه الأيام لا يناصرون الحزب للسبب ذاته، كما أنهم لا يمتلكون أوجه الاهتمام ذاتها، وكذلك لا يظهرون الحماسة إزاء القضايا ذاتها. ربما يناصرنا شخص ما بسبب دعمنا لإفريقيا، بينما يدعمنا شخص آخر بسبب التغييرات التي أدخلناها إلى الخدمات الصحية، في حين يدعمنا شخص ثالث بسبب سياساتنا إزاء السلوك الجرمي. يُظهر الشبان اهتمامات مختلفة عن اهتمامات المسنين. ولعل وجودهم في المنطقة الجغرافية ذاتها كان أمراً هاماً بسبب الانتخابات، أو بسبب الحملات الانتخابية المحلية المحدّدة، أما ما عدا ذلك فللجغرافيا أهمية محدودة.

توافرت لنا فرصة هائلة من أجل إعادة بناء الحزب بحسبب خطوط حديثة. أعرف أن بعض التغيير كان حتمياً بكل تأكيد، كما أخذت النقابات بالاندماج، وخصوصاً اندماج اتحاد العمال والنقل مع آميكوس في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٧، مما أسفر عن قيام عملاق جديد يدعى Unite . يحظى هذا العملاق النقابي بنصف الأصوات في مؤتمر الحزب بالاشتراك مع الاتحاد العمالي العام. بقيت الهيكليات النقابية ضاربة جذورها في الماضي، كما بقي النشطاء يسيطرون على هذه النقابات. إن استمرار اعتماد الحزب مجدّداً على هذه النقابات لم يكن بالأمر السليم للحزب. توافرت، إذاً، أسباب كثيرة – بعضها خارجي، وبعضها داخلي، لكنها كلها تتعلق بالعالم المتغيّر – جعلت من الإصلاح ليس أمراً معقولاً فقط، بل ضرورياً جداً إذا كنا نريد الحفاظ على المكاسب التي حققها مشروع حزب العمال الجديد.

تمكّنت من ملاحظة الوجهة التي تسير نحوها المناقشات الجارية حالياً في أوساط الحزب. ساهم كلٌ من جون كروداس ودوغلاس ألكسندر في كتابة منشورات. تمكن جون من كسب سمعة طيبة أكسبته تموضعاً سياسياً ذكياً من جانبه. أوحى التحليل

السياسي الذي قدمه أن حزب العمال الجديد قد ابتعد عن الطبقة العاملة، كما أضاف إليه برنامجاً للحزب. كان هذا البرنامج مغلّفاً بلغة عصرية، لكنه كان في النهاية محاولة لتكوين تحالف يساري يتألف من مفكري غارديان ونشطاء النقابات المهنية. كان الرجل ذكياً بما يكفي لإخفاء جذور ذلك البرنامج، وهو الذي كان في حقيقته نسخةً حديثة ومحدثة من Bennism التي كانت سائدة في الثمانينيات من القرن الماضي. لم يكن البرنامج خالياً من الجاذبية الشعبية، لكنه لم يمتلك فرصةً جدية للوصول إلى الطبقة الوسطى الطموح، فوز ظهور عواقب السياسات.

كان دوغلاس ولا يزال رجلاً ذكياً جداً بالفعل. حاولت منعه من الانضمام إلى حلقة غوردون الخاصة، لكني لم أفلح في ذلك. كان الأمر مخجلاً بالفعل لأنه وشقيقته ويندي، الرائعة والذكية، شخصيتان نموذجيتان ومحترمتان، ومن خلفية اسكتلندية علمانية [مشيخية] Presbyterian. كان والدهما كاهناً موهوباً جداً. حاز دوغلاس اهتمام غوردون قبل أن يصبح نائباً في البرلمان، وما لبثت أن ظهرت مواهبه. كان يمتلك مقدرة عظيمة مع الكلمات، وكان مفكّراً من الدرجة الأولى ويُمكن أن يكون زعيماً بارزاً، وما زال كذلك.

لكن سحر غوردون أدى إلى جعل أمثاله من المتآمرين، وليس من المفكّرين الأحرار في تفكيرهم. كان هو مع إد بولز وآخرين على شاكلة ما كنت عليه في الثمانينيات من القرن الماضي، وبقيت كذلك إلى أن زالت الغشاوة عن عينيّ ببطء فأدركت أنهم أقرب إلى أن يكونوا جماعة من أن يكونوا أتباع كنيسة اسكتلندية.

كتب دوغلاس هذا المنشور الذي احتوى على تحليل بارع لأوجه الخطأ، لكني لاحظت أن الحلول التي قدّمها تميل إلى تجنّب القضايا الصّعبة، وتجنح نحو الغموض.

أوكلت إلى هازيل بليرز، بصفتها مسؤولة عن الحزب، رئاسة لجنة تجديد الحزب. كنت أعرف أن هازيل مناصرةٌ قوية لي، وهي تعرف جيداً كيفية قيادة الحملات الانتخابية، كما أنها ناشطة تمتلك فهماً كاملاً لحدود النشاط. عارض غوردون، في واقع الأمر، وبقوة قيام الزعامة التي أوشكت على الأفول بتقرير مستقبل الزعامة

الآتية، وذلك بغضّ النظر عن المثابرة الكبيرة التي أبدتها هازيل. أمكنني أن أفهم جيداً هذا كله ما عدا حقيقة عدم وجود رؤية بديلة، الأمر الذي قلته له مراراً، وأعتقد أن في غياب هذه الرؤية الواضحة فإن مؤسسة الحزب سوف تتراجع إلى الوراء.

كنا نعتقد خلال هذه السنوات كلها أننا نمتلك المنظور ذاته بالنسبة إلى السياسة، والحزب، والحياة، بينما في واقع الأمر كنا نمتلك منظورين مختلفين يلتقيان عند بعض النقاط، لكنهما لا يلتقيان على نحو لا يمكن فصلهما. كان في بعض الأحيان نوع من التماسك الكافي كي يسمح لنا ببعض الارتياح، وأدركنا بمرور الزمن أن ذلك يعطينا جواً من المودّة، أصبح جزءاً من جاذبية الحزب الفريدة بحيث أن نبذها كان أمراً يحدث أضراراً كبيرة، لكنه كان أسطورة مع ذلك.

سار برنامج عمل الحزب على نحو جيد، وهو الذي أسفر في النهاية عن استنتاجات وتحليلات لا بأس بها. أعطى التقدم الذي أحرزناه في مسائل الأمن، والجريمة والعدالة، و«مسارات نحو المستقبل»، فكرة عن مواجهة الجريمة وأسبابها، لكنه سلّط الضوء على التغييرات المتسارعة التي تؤثّر في المجتمع كما تؤثر في الجريمة، والأمن، وتماسك المجتمع. تضمّن المنشور وجهة نظر تقول إن الإصلاح المطلوب يرتكز على ثلاثة عناصر: كبح أكثر فاعلية، كشف الجرائم وتطبيق العقوبات على نحو أفضل، وإصلاح النظام القضائي الجرمي عن طريق تطبيق مبادئ إصلاح الخدمات العامة.

حدّد المنشور التحديات التي تواجهها بريطانيا في عالم يتجه بسرعة نحو العولمة، وكذلك أفضل الطرق لخدمة مصالح بريطانيا إذا عملنا معاً بحسب القيَم التقدمية التي نتقاسمها في عالم تعمل فيه الحكومات بسلام ضمن المجتمع الدولي. اشتمل المنشور كذلك على ما زالت تمثله بريطانيا من النفوذ والسلطة، لكن عليها استخدام القوتين الخشنة والناعمة. على بريطانيا أن تكون حاضرةً للتدخل حيثما يكون ذلك ضرورياً – استخدام التحرك العسكري حيث يكن ذلك مناسباً – وذلك من دون نسيان التحرّك الدولي بشأن قضايا الفقر والمناخ، وأن تدرك أن سياستها الخارجية محكومة بقيم محدّدة – العدالة والديمقراطية – في عالم يزداد تداخلاً. على بريطانيا التأكد منّ حصول كل شخص على مستوى معيشة متّساوٍ، وأن يتمتع

بقيم مشتركة شاملة، والاعتراف بأن التغيّر المناخي يزداد أهمية، وبأن مواجهة هذه المشكلة لن تنجح إلا في سياق العمل على مستوى عالمي أوسع.

اعترفت هذه الوثيقة بالدور المهمّ الذي يجب على الأسرة أن تلعبه في المجتمع، وذلك بغضّ النظر عن تركيبتها. اعترفت الحكومة كذلك بأن نجاح الأسَر لا يتعلق بتركيبتها، بل بالتزامها تجاه الذين يعيشون من ضمنها، وبأن الحكومة لا تزال تحتفظ بدورٍ تلعبه في التأكد من تلقي معاملة منصفة، والتمكن من التوصل إلى الخيارات ذاتها مثل الأسر الأخرى. كانت الرؤية التي وضعناها كالتالي: دعم الأسر في ممارسة حقوقها التي تسمح لها بإدارة شؤونها والاضطلاع بمسؤولياتها، وتفعيل التوازن في الأسر العاملة، وذلك بمساعدة الناس على الانتقال من الاعتماد على الخدمات الاجتماعية إلى الاعتماد على العمل، وتحسين رعاية الأطفال، ودعم الالتزامات الأُسَرية، ومخاطبة العائلات عن طريق معالجة أسباب العزل الاجتماعي المتأصل ونتائجه.

أما بالنسبة إلى دور الدولة، فاقترحت الوثيقة فكرة الدولة الاستراتيجية القادرة على منح الصلاحيات، وذلك رداً على ظهور الاتجاهات العالمية والمحلية. وضعت الوثيقة كذلك ست مزايا رئيسة لهذه الدولة: تركيز قويّ على العواقب، معالجة قضايا اضطراب الأمن، إعطاء الصلاحيات [تخويل] للمواطنين، الحقوق والمسؤوليات، وبناء الثقة، وتكوين محور استراتيجي أصغر.

أتت الوثيقة أخيراً على ذكر التحديين التوأمين: الأمن المتعلق بالطاقة، والتغيّر المناخي، وتلخيص هيكلية سياسة شاملة من أجل تحقيق أهدافنا التي تتضمن: تشجيع نشوء أسواق طاقة متنافسة، والعمل من أجل الوصول إلى هيكلية دولية قوية لما بعد العام ٢٠١٢، ووضع ضريبة على الكربون تعكس أكلاف الأضرار التي يسببها، وتشجيع التحوّل نحو تقنيات جديدة عن طريق وضع معايير، وحوافز، وتقديم الدعم؛ وإزالة العوائق أمام التغيّر في السلوكيات، والاختيار، والاستثمار، والتأكد أن المملكة المتحدة ودول أخرى قادرة على التكيّف مع تأثيرات التغيّر المناخي.

أعتقد، في واقع الأمر، لو أننا تبنينا هذه العناصر كلها ودفعناها قُدُماً لكانت أسفرت عن برنامج مستقبلي قويّ جداً فيما يتعلّق بالسياسة والتشريع.

قررت كذلك إلقاء سلسلة من الخطابات تدعى «مستقبل أمتنا»، وذلك في محاولة مني لتلخيص فلسفة مشروع حزب العمال الجديد، والأمور التي حققناها جيد، والأمور التي لم ننجح في تحقيقها والأسباب التي تقف وراء نجاحات وفشل هذه الأمور كافة. ويأتي ذلك في سياق جزء من حملةٍ تسويقية ذكية، بينما أردت أنا وضعها في سياق التفكير السياسي. يتعيّن عليّ القول، ومن دون أن يشكّل ذلك مفاجأة لي، إن وسائل الإعلام لم تكن تميل كثيراً للحديث عن مواضيع كهذه عدا المواضيع المتعلقة بالدفاع. لم تكن مشكلة وسائل الإعلام هذه مسألة مغادرتي لمنصبي، بل عدم تأكدها مما إذا كانت مغادرتي لمنصبي مجرد تغيير في الأشخاص، أم أنها تعني تغييراً في السياسة. يعني ذلك أن سلسلة الأحاديث المتعلقة بسياسة الحكومة كانت ذات أهمية قليلة لها إلا إذا كانت تتضمّن هجوماً ضد شخص، أو ضد شيء معيّن. ربما يعتقد المرء أن مهمة وسائل الإعلام هي كشف هذه الأمور كلها، لكن فريق غوردون براون قد نجح في خطته اللامعة في عدم كشف وجود جناح خاص بهم. يعني ذلك أن من الخطأ الفاضح والمشين، بالنسبة إليهم، الكشف عن آرائهم أثناء وجودي في منصبي كرئيس للوزراء. دُهشت لأن ذلك أسفر،عموماً، عن تفهم هذه الآراء إلى أقصى حدّ ممكن.

ألاحظ عندما أعيد قراءة هذه الخطابات الآن أنها تكتسب أهمية في هذه الأيام، لذلك أريد تلخيصها بإيجاز. لم تكن الغاية في كل خطاب هي الاكتفاء بعرض سياسة [أو خطة عمل]، لكن توصيف تطور تفكيري الخاص الذي يستند إلى تجربتي في الحكومة.

يُعيدنا هذا الأمر إلى شيء قلته في الفصول الأولى من هذا الكتاب. امتلكت في العام ١٩٩٧ رؤيةً لا حدود لها، لكني افتقدت التجربة السياسية التي تسمح لي برسم السياسات في الحكم. يرى الناس من خلال التحليل السياسي في بعض الأحيان وكأن الحكومة تمتلك برنامجاً عند تولي الحكم، ثم تقوم بالسعي لتنفيذه، فتنجح أو تفشل في مسعاها هذا.

لكن الحكم في واقع الأمر ليس كذلك، أي ككل شيء آخر في هذه الحياة، إذ ليس هناك من شيء غامض، أو أقلّ غموضاً، بشأن «الحكومة». يشبه الأمر في الواقع أي نشاطٍ آخر. يتعلّم المرء أثناء ممارسته، ويتعرف إلى الحقائق، وبطبيعة

الحال يُمكن للأحداث أن تغيّر هذه الحقائق. يتعلّم المرء طرق القيام بمهمته، وكذلك فنّ مهنته والعلوم التي تتعلق بها. لكن لكون السلطة السياسية نتيجة صراع سياسي – أي وجود أفكارنا «نحن»، وبرامج سياساتنا ضد «برامجهم» – فإن الميل الآن يتجه نحو النظر إلى عمل الحكومة وكأنه إغلاق باب منزل قديم والانتقال إلى مكان جديد. إن ما يفعله المرء في الواقع هو تغيير هوية المستأجر، وليس تغيير الملكية.

نستنتج من هذا كله أن من المنطقي جداً محاولة فهم السبب الذي دفع بالمستأجر القديم أن يفعل هذا وذاك، وماذا عرف، أو تعلّم، من أمور أثناء سكنه في المكان. لا تتوافق هذه المعرفة، ويا للأسف، مع طريقة ممارسة السياسة. أما في هذا العصر الذي أصبحت فيه الأهداف مشتركة عادة بينما تكون السياسات المتبعة هي الأمر الحاسم فيها، وحيث لا تكون القضية، لا يمينية ولا يسارية، بل هي، وكما سبق أن لي قلت إما محقة وإما خاطئة، فإن ذلك يُعتبر من سيئات الديمقراطية. يقضي المرء سنوات عديدة في إعادة تعلم الأمور التي أخبرك عنها المستأجر السابق من تجربته.

كان ذلك هو ما دفعني في تلك الخطابات الأخيرة إلى اختيار المجالات التي اعتبرتها درساً يمكنني مشاركة الآخرين فيه.

كان الخطاب الأول عن القانون والنظام. وكان تركيزه على ما اكتشفته في سياق محاولة مواجهة الجريمة، وهو موضوع هام جداً بالنسبة إلى الجماهير يعتبره الناس أخطر مما يبدو للسياسيين. بدأت مع ذلك الشعار القديم «الشدة مع الجريمة، والشدة مع أسباب الجريمة». إن هذا الشعار مناسب إلى أقصى الحدود. أدركت أنّ المشكلة الحقيقيةَ في عالم تسوده الجرائم الكبرى، مثل العصابات والمخدّرات، والتهريب، وتبييض الأموال، والقضايا الاجتماعية الخطرة التي تتحول إلى مجتمع من المحرومين المجرمين، هي عدم نجاح القانون والنظام التقليديين. إنني أفهم جيداً وجهة النظر التقليدية: حاوِل إثبات الذنب بطريقة تقليدية، وبحسب الطرق القضائية العادية. أقول إن هذا، ويا للأسف، لا ينجح، مع هؤلاء الناس. أما إذا أراد المرء إلحاق الهزيمة بهم فسوف يحتاج إلى سلطات حاسمة يُمكن إدماجها إدارياً بحيث تصبح نافذة على الفور. هذا هو السبب الذي أدى إلى ظهور قوانين مكافحة السلوك الجرمي، وقواعد بيانات الحمض النووي، وتشريعات «الأموال غير الشرعية»، وقوانين مكافحة الإرهاب وغير ذلك من قوانين. يُمكن للمرء أن يعتبر

هذه القوانين ثمناً مرتفعاً بالنسبة إلى الحريات التقليدية. حسناً، لكن هذا هو الثمن كما أيقنت فيما بعد. يعني ذلك أننا إذا لم ندفع فلن نحصل على نتيجة.

لكن المشكلة هنا هي أننا نعرف أولئك الذين سوف يقولون، وبحق أحياناً، لقد حُرمنا نحن المتهمين من حقوقنا. لكننا لا نستطيع أبداً أن نساوي بين الأرواح التي زُهقت والأشخاص الذين قتلتهم أيدي المجرمين الطليقة. إنهم ضحايا، لكن بإمكاننا إيقاف الجريمة بغير وسائل تقليدية. يمكننا، إذاً، أن نختار، لكن من دون أن نخدع أنفسنا بأننا لم نمتلك فرصة الاختيار.

ألقيت خطاباً آخر يرتبط بذلك كله، وهو الذي عالج موضوع العزل الاجتماعي. أشرت في هذا الخطاب بشكلٍ خاص إلى المعلومات التي تلقيتها منذ خطاب بلجر Bulger في العام ١٩٩٣. أعتقد أن السلوك المريع الذي يتصف به بعض الشبان الصغار، مثل القيام بأعمال العنف، وحمل السكاكين، وتعاطي المخدرات، إنما هو من أعراض مجتمع أضاع طريقه. سبقت دافيد كاميرون بهذا المعنى عندما تحدث عن «المجتمع المتفكك».

توصّلت إلى استنتاج، بمرور الوقت، يوحي أنني أرتكب خطأً خطيراً بتجاهل سلوك أقلية ضئيلة في واقع الأمر مقابل مجتمع بأسره. أما الحقيقة فهي أن معظم الشبان مهذبون، وفي منتهى اللطف، حتى أنهم أفضل، في الواقع، مما كان عليه عدد كبير من أبناء جيلي. ليس صحيحاً أن السلوك المريع [لأقلية من المجتمع] هو سمة تحدد المجتمع بأسره. إن الواقع هو عكس ذلك تماماً: إن ذلك أمر استثنائي برمته تقوم به قلة ذات ميزةٍ مختلفة. نستنتج من ذلك أن التركيز على الاستثناء بشكل خاص وقاطع هو البديل من تحليل السياسات ووضعها بعد ذلك في سياق «المجتمع» العام. أما عندما نتفحص المعطيات، فإننا نلاحظ أنها لا تتعلق «بالشبان» أو حتى «بالفقر»، بل بالعائلات السيئة. ولا يتعلق الأمر كذلك بـ «الحياة الأسرية». إن معظم العائلات، وعلى الرغم من ضغوط الحياة العصرية كلها، ليست سيئة، بل إنها تؤدي دورها على أكمل وجه. أما الأسر التي هي في وضع طلاق أو انفصال فهي تقوم بدورها أيضاً، باستثناء أقلية ضئيلة. إن هذا هو ما يدفعنا إلى التركيز عليها.

إننا نحتاج إلى تدخلٍ خاص فيما يتعلق بهذه العائلات، الأمر الذي لا نستطيع

أن نفعله عن طريق إجراءات الخدمات الاجتماعية العادية. إن غياب تدخل الدولة ليس حرية بالنسبة إلى هذه الأسر، لأن هذا الغياب يشجّعهم على سلوكٍ تخريبي يضرّ بهم وبمن حولهم كثيراً. ليس هناك من سبب وجيه يوجب الزيارات المنتظمة إلى هذه الأسر، أو تفحّصها من وقتٍ إلى آخر. يتطلب الأمر بعض التوقيفات والاحتجاز، وتنفيذ ذلك كله بحزم ووقف العمل بـ«حقوقهم» بما في ذلك حق إنجاب الأطفال. لا يصعب التعرّف إلى هذه العائلات، ولا إلى أولادها. لا أريد القول إن كل حالة تعني أخذ الأولاد إلى دور عناية أو ما يشبه ذلك، بل أريد فقط القول: ينبغي صوغ أي سياسة من خارج الإطار المعروف، وإلا فلن ينجح الأمر.

إننا نجد درساً أشمل للمجتمع في حقل المسؤولية الشخصية بالنسبة إلى الصحة. حدّدت في هذا الخطاب الثالث السبب الذي دفعني إلى التوصّل إلى استنتاج يوحي أنه ينبغي لسياسة العناية الصحية الحديثة أن تتضمّن تدخلاً قوياً في مجال الوجبات واللياقة.

إنني متشكك جداً في التشريعات الجديدة عادة، لكن ليس في هذا المجال، وذلك لأن الدولة، بالإضافة إلى الفرد، تتحمل كلفة الوجبات غير الصحية وفقدان اللياقة. هذا هو السبب الذي دفعني إلى السعي إلى منع التدخين، وإلى وضع ملصقات على المواد الغذائية تحتوي على معلومات عما تحتويه، والأهمّ من ذلك كله تشجيع الرياضة التي حاولت إقناع الإدارة بأن تكون جزءاً من العمل اليومي، أي أن تكون الرياضة جزءاً من الخطط السياسية العادية، وإن لم أحرز نجاحاً كاملاً في ذلك. أقدمنا على زيادة الاستثمار كثيراً في الرياضة التي أعطيناها الأولوية في المدارس. أردت توسيع هذا المنحى كي تصبح الرياضة جزءاً من المنشآت التي افتتحناها لإعطاء النصائح بالنسبة إلى اللياقة والوجبات الغذائية الصحية للجميع بشكلٍ يتجاوز النخبة. تضمنت نظريتي كذلك وجود تركيز كثير على أساليب الحياة الصحية، وعلى إعطاء الكثير من النصائح، لكن المشكلة كانت في التنظيم، والتنسيق، وتوسيع مجال الوصول إلى هذه النصائح. قدّمت الدعم إلى برنامج العشاء الذي أقامته مدرسة جامي أوليفر، وذلك للسبب ذاته. لم تعد هذه القضايا أموراً ثانوية، أو مجرد تسلية في نهاية يوم في الكنيسة، وذلك لأنها أمور جوهرية.

تضمّن الخطاب الرابع موضوعاً محبباً لي لكنه تأثر جزئياً نتيجة الفرص الضائعة

في المدرسة: العلوم. كنت تلميذاً سيئاً في هذه المادة. فشلت في مادة الفيزياء [الطبيعيات]، واستسلمت أمام مادة الكيمياء، لكني بالكاد نجحت في مادة الرياضيات، ولم أبذل جهداً في مادة علم الأحياء، لكني أمضيت عمري في الندم نتيجة موقفي هذا! لم أتمكن من فهم هذه المادة لسببٍ أو لآخر. شعرت بالغباوة التامة لأنني لم أستطع فهم أي شيء منها، دعك من فهم مبادئها وعناصرها كافة بأي طريقة ما. خيّمت خيبة الأمل، وعدم الفهم، وعدم الاكتراث، بالنسبة إلى تلك المادة، على الأيام الأولى من حياتي.

إنني مندهش الآن من العلوم ومن الإمكانيات التي تختزنها، كما دُهشت كيف أن التقدم العلمي قد أدى إلى تغيير العالم والحياة التي نعيشها.

اشتمل الخطاب على ثلاثة أوجه: شرح سبب أهمية العلوم، وسبب مضاعفتنا الاستثمار فيها تحت توجيه دافيد ساينزبوري وهو الرجل الخبير، والسبب الذي يمنعنا من السماح لمعارضيه [أو ناقديه] بمنعه من اختراق مجالاتٍ جديدة. جرت مناقشات حامية مع ناقدي شركة جي. أم فود، وهي الحملة التي قادتها الدايلي مايل، الصحيفة التي اختلقت أنواع التفاهات كلها للإيحاء أن ما تقوم به الشركة يشكّل خطراً على الصحة.

حدثت مواجهة أخرى مع الأشخاص أنفسهم بشأن ليو وما إذا كان يجب عليه أخذ اللقاح الثلاثي (الحصبة، النكاف، والحصبة الألمانية). حاول الدكتور وايكفيلد – تبيّن لنا فيما بعد أنه غير موثوق به ـ الإيحاء أن ذلك اللقاح يتسبب بالتوحد. تبنت صحيفة مايل هذه الحملة، لكنها تساءلت ما إذا كان ليو قد خضع للقاح – أي إذا قالت الحكومة إن اللقاح آمن، فما الذي يمنع ابن رئيس الوزراء من أخذه؟

لم يكن ذلك بالسؤال غير العقلاني بطبيعة الحال، وكان من الأفضل لو أننا واجهنا الأمر منذ البداية. كانت العائلة حساسة جداً إزاء كل ما يتعلق بليو وذلك لأسباب شخصية، وهكذا ناقشنا الأمر على هذا الأساس: قضية لقاح ليو لا تخضع للنقاش العام. أدركنا بعد مضيّ وقت قصير أننا لا نستطيع تحمّل الأمر. قلنا بعد ذلك، وإن كان بصورةٍ غير علنية: إننا نعتقد أن اللقاح مناسب جداً للأطفال، بمن فيهم ليو، كما أننا لن نطلب إلى الآخرين القيام بما نرفض إخضاع ليو له، وهكذا

يمكنكم اتخاذ القرارات التي تناسبكم. كان ذلك إقراراً فعالاً بطبيعة الحال. عرف الصحافيون هكذا أن ليو قد خضع للقاح، إلا أن قسماً من وسائل الإعلام فضّل اختلاق خبرٍ يوحي بغموض الأمر، وهكذا استمرّ اهتمام الجمهور بهذه القضية.

شكّل الخطاب دفاعاً قوياً عن العلوم، كما أنه فصل بين حقّ العلم في قول الحقائق كلها والحقّ في تقرير التحرك بحسب هذه الحقائق، أو الامتناع عن هذا التحرك. إن ما يجب أن لا يحدث في النقاشات العلنية هو قدرة معارضي العلم أو العلم المزيّف على حجب الحقائق، بسبب الانحياز أو بسبب رغبتنا في كون الحقائق مختلفة. كانت هذه عواقب تلك المواقف بدءاً بغاليليو مروراً بداروين حتى هذه الأيام. أما الآن فإن دولة مثل بريطانيا لا يمكنها السماح بهذا الوضع.

عالج الخطاب التالي قضية «التعددية الثقافية». كان ذلك الخطاب محاولةً لتحريك الخطط السياسية من الجدال العقيم بشأن التنوع أهو مصدر قوة، أم مصدر ضعف. أما بالنسبة إلي فإنني أعتبر أن هذا التنوع هو، بكل وضوح، مصدر قوة، لكني أعتقد أن المواطنية يجب أن تترافق مع واجبات مثل ما تترافق مع الحقوق. كان تعايش البريطانيين بعضهم مع بعض اقتناعاً يتشاركون فيه. تضمن هذا الاقتناع مساندة القيم البريطانية الأساسية، أي لغتنا، وثقافتنا، وطريقة حياتنا. يجدر بنا أن لا نختلف في هذه القضايا بل يجب أن نكون متحدين. يجدر بنا أن نمنح التنوع حريةً تامةً خارج هذا الإطار، وعندئذ يصبح التنوع مصدر قوة بالفعل.

ألقيت خطاباً عالج موضوع الدفاع، وكذلك حدّد فلسفتي الأساسية، لكنه ركّز على نقطة عملية. إننا نحتاج هذه الأيام إلى عقد جديد مع القوات المسلحة. طلبنا إلى قواتنا المسلحة العودة إلى القتال وتحمّل الخسائر في الأرواح. لم يكن الوضع على هذه الحال لمدة خمسين عاماً تقريباً، ما عدا حرب الفولكلاند وإيرلندا الشمالية. يعني ذلك أن علينا تجهيز قواتنا وتقديم المكافآت لها على النحو المناسب. أما إذا عجزنا عن المشاركة في المعارك التي تنتظرنا في المستقبل، بالتعاون مع حلفائنا الأميركيين، فإننا سوف نخسر القيمة التي تمثلها القوات المسلحة والتي تمنح بريطانيا النفوذ، والانتشار، والسلطة.

عالج الخطاب السابع موضوع أمكنة العمل. أدهشني هذا الخطاب عندما قرأته

مجدّداً لأنه غير متناسق من الناحية الفكرية، لكنه تضمن فكرة صغيرة. حاولت في الأساس القول إن بيئة العمل الحديثة تعني استغلال الرأسمال البشري وتطويره. يعني ذلك أن عقلية «الإدارة/ العمال» هي عقلية عفا عليها الزمن تماماً. يعني ذلك أن على الحكومات والنقابات، بدلاً من التركيز على لعبة «خسارة طرف كي يربح طرف آخر Zero-sum» مع الإدارة أو الرأسمال، أن تطلب إلى العمال بذل أقصى قدرٍ من المجهود والإبداع من أجل تحقيق أقصى قدرٍ من التأثير، كما أن هؤلاء العمال يجب أن يكونوا مشاركين فعالين في مفهوم العمل، مثلما هم يشاركون في تكوين الثروة. يستتبع ذلك كله ضرورة توجيه سياسة الحكومة نحو التحسين المستمر للمهارات، وليس لفرض قيود على سوق العمل.

فرض موضوع الخطاب الأخير نفسه بعد مرور عشر سنوات على وجودي في منصب رئيس الوزراء: وسائل الإعلام! عرفت بطبيعة الحال أنها سوف تتجاهله، وأنها سوف تصوّره كما يحلو لها وتسخر منه عموماً. لا أعتقد أنني أكثر الأشخاص المؤهلين للحديث عن هذا الموضوع، كما أنني لا أعتقد أن أحداً يشعر بتعاطف تجاه السياسيين ووسائل الإعلام. يضطر السياسيون، وأنا على الخصوص، إلى تخصيص وقتٍ كبير لترويض وسائل الإعلام. إن هذا هو ما يسهل على هذه الوسائل اتهام السياسيين بأنهم يخدمون مصالحهم الذاتية، وبأنهم منافقون، ومراوغون. بقيت مصمّماً على إلقاء الخطاب لأن أنسب الأشخاص لتفنيد أقوال وسائل الإعلام هو ذلك الذي يمتلك تجربة التعامل معها، وخصوصاً من تسلّم منصب رئيس الوزراء.

نهضت عند الساعة ٤:٣٠ صباحاً وبدأت بكتابة مسودة الخطاب. أعترف أنني شعرت ببعض الرهبة عندما قرأته في وقتٍ لاحق أمام كاميرات التلفزيون في بثّ حي أمام حشدٍ من الصحافيين. كتبت ذلك الخطاب من وحي ما شعرت به، وكان ذلك الشعور قوياً.

كانت الحُجّة التي ساقها الخطاب قويةً مع ذلك: الواقع هو أن وسائل الإعلام تعمل بحسب دوافع معينة تؤدي إلى الإثارة، وتتسبب بنشوء جدالات منطقية حول سياسة الحكومة أو بعض الأفكار. يُضاف إلى ذلك أن وسائل الإعلام تعمل ٢٤ ساعة في اليوم وطوال أيام الأسبوع، وهي قوية بشكلٍ هائل، لكنها تعمل من دون محاسبة مع ذلك. أما عندما تقرر وسائل الإعلام مهاجمة شخصٍ معيّن فإنها تصبح

مثل «الوحوش الكاسرة». لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد لأنها متحيزة كثيراً، وربما يعود هذا جزئياً إلى وجود المنافسة، وإلى رغبتها في إحداث أكبر قدرٍ من التأثير، أو بقصد عرض آراء مالكيها أو محرريها.

يمكن للمرء، على أي حال، أن يتصوّر كيف سارت الأمور! يتحدث الناس هنا في البلاد وفي الخارج كذلك، حتى في هذه الأيام عن ذلك الخطاب أمامي. شقّ الخطاب طريقه على الرغم من جهود كبيرة بُذلت في سبيل التشويش عليه أو نبذه.

سيطرت أخبار الانتخابات الاسكتلندية على أجواء وسائل الإعلام في الأسابيع الأخيرة، وبرزت بعدها أخبار التحضيرات النهائية لمغادرتي منصبي. حدّدت موعد ذلك الرحيل ليكون في ٢٧ حزيران/يونيو، أي بعد قمّتَي الدول الثماني والمجلس الأوروبي. عقدنا خلال هذا الوقت الآمال على إنهاء عملية السلام في إيرلندا الشمالية كي تعطي ثمارها النهائية، ومن أجل استعادة سيطرة المجلس التنفيذي وتقاسم السلطات فيه، وقد عملت بقوة في ذلك السبيل.

حدثت مواجهة مهمة بيننا وبين إيران عندما قبضت سلطاتها على خمسة عشر فرداً من أفراد البحرية الملكية في ٢٣ آذار/مارس. قال الإيرانيون إن هؤلاء كانوا يتجسّسون في المياه الإقليمية الإيرانية، وهو أمر كنا متأكدين أنه خاطئ تماماً لكنه سبّب لنا توتّراً لأيام عديدة. تمكنت من التعامل مع الأمر ببرودة على الرغم من انزعاجي الشديد من هذا العمل الإيراني. أما الأمر الوحيد الذي شغل بالي فكان إعادتهم إلى البلاد بأسرع وقتٍ ممكن، وهكذا فضّلنا اتباع المسار الديبلوماسي بدلاً من طريق المواجهة، وذلك على الرغم من الانتقادات التي وُجّهت إلينا لأننا فعلنا ذلك. ظهر بعض أفراد الطاقم أمام الكاميرات وكأنهم يُظهرون ودّاً مبالغاً فيه تجاه من أسَرَهم. تحدّث بعضهم أمام وسائل الإعلام بعد إطلاقه بعد اثني عشر يوماً، هديةً إلى بريطانيا بحسب قول الرئيس أحمدي نجاد. أحدث هذا الأمر ردة فعلٍ غاضبة ومصطنعة، خصوصاً بين الصحف التي لم تحصل على أحاديث من الذين أُطلقوا. شعرتُ بالأسف تجاههم جميعاً، وذلك لأنهم وجدوا أنفسهم في وضع غير متوقع بالمرة ومن دون أن يكون لديهم خبرة في التعاطي مع أمورٍ كهذه، ولذلك رغبت في تجاهل أي خطأ في الحكم على الأمور من جهتهم. لكن هذا الحدث شغل بال البلاد على مدى أيام.

قدّمنا في تلك الفترة اقتراحات تهدف إلى إدخال إصلاحاتٍ إلى مجلس اللوردات. أصدر غوردون عدة إشارات توحي برغبته في وجود مجلس لوردات منتخب. أما جاك سترو فقد وقف إلى جانب أن يكون مجلس اللوردات منتخباً جزئياً، وقدّم اقتراحات بهذا الخصوص. ساندت توصيات سترو، لكني شخصياً اعتبرتها اقتراحات تتصف بالجنون وهذا ما أبلغته إلى لجنة الارتباط في آخر ظهور لي أمامها في شهر حزيران/يونيو. بقي الحديث عن هذا الموضوع حتى الآن، وذلك على الرغم من شكي في حدوث ذلك فعلياً.

يُعتبر مجلس اللوردات مكاناً بريطانياً قديماً يتسم بالغرابة. إنني أميل، بطبيعتي، إلى تغيير بعض التقاليد، لكني أعتقد في هذه الحالة أن فرادة هذا المجلس تستدعي الحفاظ عليها. لا يمكنني تبرير وجود النبلاء الذين يصلون إلى مناصبهم بالوراثة، وهو أمر أعتبره خالياً من المنطق بالفعل، لكن الحجّة التي تساند انتخاب الأعضاء أو تعيينهم هي أكثر اتزاناً مما يسمح به أنصار الانتخاب. يبقى الخطر في مسألة التعيين هي المحاباة [تفضيل الأصدقاء]، والواسطة، والتعيين من قِبل السياسيين، لكن يُمكن وضع حدّ لهذه الأمور كلها عن طريق نظام مختلف للتعيين، وذلك ما اقترحته بالفعل لجنة مجلس اللوردات في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٠.

يكمن الخطر في مسألة الانتخاب في أننا سوف ننتهي بنسخة تطابق مجلس العموم، مع وجود فرق وحيد هو أنك تنتخب أولئك الذين لا يستطيعون دخول مجلس العموم، أو لا يريدون دخوله لسبب أو لآخر. أما الفائدة من وجود مجلس اللوردات كما هو الآن فهي قدرتنا على إيصال أشخاص لم يمضوا حياتهم برمّتها في السياسة، وليسوا نُسَخاً عن نواب البرلمان أو تقليداً لهم، لكنهم يمتلكون مع ذلك تجارب وخبرات عميقة ومختلفة. إن وجود شخص مثل آرا دارزي في مجلس اللوردات وكونه وزيراً للصحة في الوقت ذاته، وهو الطبيب الجرّاح الذي يعرف كل شيء عن المجالات الجديدة للعناية الصحية، يُعتبر أمراً مفيداً جداً لأوساط السياسيين الموهوبين. يتبيّن لنا، في الواقع، أن الوزراء الأعضاء في مجلس اللوردات هم من بين الأكثر اقتداراً، ومع ذلك فإنني أشك كثيراً في أن تكون غالبيتهم، أو جميعهم، على استعداد للمجازفة برصيدهم السياسي والمشاركة في الانتخابات كي يصبحوا نواباً.

يتعلق الأمر كذلك بالدور الذي يتوقع المرء أن يمارسه مجلس اللوردات. أما إذا أردناه أن يكون مجلساً لمراجعة القوانين فسيكون من الأفضل أن يضمّ نوعاً آخر من الأعضاء. أما إذا أردنا مجلساً تنافسياً فحينئذ يصبح خيار الانتخاب أقوى بكثير. لكن إذا تفحّصنا النماذج ثنائية المجالس ذات الطبيعة التنافسية الموجودة في العالم من حولنا، فإننا سوف نكتشف أن عدداً قليلاً منها يعمل بنجاح، أو على الأقل سنجد أن عدداً قليلاً منها لا يصل إلى طريقٍ مسدود. يعني ذلك أنني ضد ذلك الاقتراح.

جرت حملة انتخابات البرلمان الاسكتلندي في شهر نيسان/أبريل. سبق لنا أن تمكنا من الفوز فيها مرتين، لكن هذه المرة كانت الحملة أصعب بكثير. اقتربنا كذلك من الذكرى العاشرة من تولينا الحكم. كان ذلك إنجازاً كبيراً للحزب، أي إنها المرة الأولى التي تمكنا فيها من الوصول إلى هذا الحدّ من النجاح. اعتبرت أننا نمتلك فرصةً كبيرة للتركيز على بعض النجاحات التي أحرزناها في ذلك العقد من السنين.

أما الحقيقة فعلى الرغم من كل ما يُمكن أن يُقال، وعلى الرغم من كل ما حدث تالياً ما بين العامين ١٩٩٧ و٢٠٠٧، فإن بريطانيا تمتعت بفترة من النموّ الاقتصادي غير المتقطع. (سأعالج لاحقاً أسباب الأزمة التي حدثت في العام ٢٠٠٨). تحسن مستوى المعيشة عند نسبة العشرين بالمئة الأكثر فقراً من الشعب تحسّناً كبيراً مقارنة بالسنين التي كان فيها المحافظون في الحكم. توقّفت حالات الموت بسبب فقدان التدفئة عاماً بعد عام عند المتقاعدين في كل شتاء، وتلاشى الحديث عن الخدمات الصحية العامة بعد أن كان من ضمن الأزمات عند وسائل الإعلام، وتحسن الوضع كثيراً وبسرعة كبيرة في بعض الأحيان بالنسبة إلى لوائح الانتظار والأوقات المحدّدة للعلاج، هذا في حين أن هذا الموضوع عاد ليشكل أزمةً في انتخابات العام ٢٠١٠. كان عندنا في العام ١٩٩٧ مئة مدرسة ينجح فيها أقل من ربع التلاميذ في خمس من مواد امتحانات شهادة التعليم الثانوي. لكن بحلول العام ٢٠٠٧ انخفض عدد هذه المدارس إلى اثنين، كما أن البرنامج الأكاديمي سجّل انطلاقة قوية. كانت حكومتنا هي الحكومة الوحيدة التي شهدت انخفاض نسبة الجريمة منذ نهاية الحرب في عهدها بدل أن ترتفع، كما قدّمت الحكومة عدداً كبيراً من بنود التغيير بدءاً بأول حدّ أدنى إلزامي للأجور، ومروراً بإعطاء إجازة أمومة وأبوة موسعة، وانتهاءً بحقوق الشاذين جنسياً وبرنامج Sure Start المتعلق بالأطفال. أما المدن الداخلية مثل

بيرمنغهام، وبريستول، وليدز، وليفربول، ومانشستر، ونيوكاسل، ونوتنغهام، وشيفيلد فقد عاودت الازدهار. كما شهدت البلاد تسويات وإصلاحات دستورية جديدة وكبيرة. عارضني كثيرون في القرارات التي اتخذتها بالنسبة إلى العراق وأفغانستان، إلا أن مركز بريطانيا في العالم كان مهماً بحلول العام ٢٠٠٧، كما أن حلفها مع أميركا كان قوياً، وأصبحت لاعباً رئيساً في أوروبا، هذا بالإضافة إلى إيرلندا الشمالية. أما إذا ألقينا نظرةً شاملةً على ذلك العقد فسنراه ناجحاً على نحو معقول.

بدأنا مع اقتراب تاريخ الأول من أيار/مايو بفهم ما يجري على نحو لا يصدّق، وعندما حان وقت الذكرى ذاتها، لكننا بالكاد تمكنا من الحفاظ على وضع متساوٍ مع منافسينا في استطلاعات الرأي. وصلنا في هذا الوقت إلى منتصفٍ ولايتنا تماماً، وبالنظر إلى التحقيقات سيئة الذكر التي أجريت في إطار قضية «المال مقابل الألقاب»، فإن هذه النتيجة كانت هامة جداً في ذاتها.

قررت البدء بحملة اسكتلندا الانتخابية بنشاط. لم يكن يجدر بي أن أفعل ذلك، لكنني أيقنت أنه يجب عليّ المضيّ بهذه الحملة كي أعطيها مصداقية حقيقية. حانت في هذا الوقت الانتخابات المحلية الاسكتلندية. أعطتني الحملتان فرصة الذهاب إلى هناك كي أذكّر الناس بما يمكنني فعله.

تجاوب حزب العمال الاسكتلندي معي على نحو رائع، وذلك بغضّ النظر عما شعر به أعضاؤه في دخيلة أنفسهم. كانت ليزلي كوين، منظِّمة الحزب وأمينته العامة، ناشطةً حقيقية، وكانت تحثّهم من دون كلال على المشاركة بنشاط. قمت هناك بزيارات متنوعة، وألقيت خطابات، وشاركت في جلسات أسئلة وأجوبة كان بعضها مخططاً له، ومترافقاً مع خطاب عن اللامركزية الإدارية كنت قد حضّرته جيداً، هذا بالإضافة إلى خطابات أخرى ذات مواضيع سياسية متنوعة. أقول مع ذلك يتعيّن اختيار الجمهور بعناية. تبيّن لي في ذلك الوقت أن أي شخص يُقدم على مقاطعة أي شيء سيتمكن من الاستحواذ على الأخبار، كما أن وسائل الإعلام كانت في حالة دائمة من اليقظة كي تستغل لحظةً كهذه. تواصلت مع وسائل الإعلام بمرح كذلك، وقد تضمن هذا التواصل أجوبة سريعة بدلاً من أجوبة مغرقة في الجدية، كما أنها لم تخرج كلها عن جو المرح.

زرت أحد الشوارع في منطقة غوفان في غلاسكو حيث كان يعيش والدي. استغربت كيف عاش والدي في تلك الناحية الفقيرة من المدينة كل تلك السنين حيث كان يجمع زجاجات شراب الليمون للحصول على المال اللازم الذي يمكّنه من الذهاب إلى السينما، وكان يعيش في مسكنٍ تعود ملكيته إلى الشركة، وكان صبياً صغيراً من غلاسكو تبوّأ ابنه منصب رئيس الوزراء.

ظهرت نتيجة الانتخابات التي كدنا نفوز بها، لكننا خسرنا بفارق مقعدٍ واحد. انتهى فرز الأصوات، وأجريَت عملية فرزٍ أخرى ثم ترجحت النتيجة في الميزان. اعتقدت لفترة قصيرة أن جاك ماكونيل قد يفوز، إلا أن النتيجة جاءت عكس ذلك، لكن بفارقٍ ضئيل مكّن الحزب الوطني الاسكتلندي وزعيمه أليكس سالمون من الفوز. فلو امتلكنا ثقةً أكبر بأنفسنا لتمكنّا من إحراز نتيجة أفضل لكننا افترضنا أننا عاجزون عن الفوز.

شعرت بقلق حيال مركزي الشخصي في الحملتين الاسكتلندية والويلزية. أردت إتمام عملية السلام في إيرلندا، وبدأت بدفع برنامج السياسة الخارجية قدماً، لكنني كنت أعرف بعض الأشخاص الذين تملكتهم مشاعر مفهومة والذين اعتقدوا أن بقائي خلال هذه الحملات كلها كان أمراً يعبّر عن الأنانية. اعتبر هؤلاء أننا كنا سنحرز نتائج أفضل مع زعيم جديد، وعلى الخصوص مع غوردون الذي كان من الممكن أن نفوز معه في اسكتلندا. كان جاك ماكدونيل موالياً ومحترماً إلى درجة دفعته إلى نفي ذلك كله أمامي، لكني لم أكن متأكداً أنه يعني ما قاله. هناك أشخاص، من جهة أخرى، من الذين أدركوا أن التغيير حاصل، وهكذا لم يكن من المنطقي التصويت ضد شخصٍ سيترك مركزه في غضون أسابيع قليلة على أي حال. كان الأمر في منتهى الإحباط. كنت أعرف أن اليكس سالمون سيتمكن من الخروج من وراء الكواليس فور نهوضه على قدميه ضد حكومة وستمنستر ويُثبت نفسه في الطليعة.

سارت الخطابات على ما يرام، لكن ذلك لا يعني أنها حظيت بتغطية واسعة، لكن الذين استمعوا إليها تلقوها جيداً وفهموها على حقيقتها، كما أنها شكّلت عرضاً متكاملاً لما أنجزناه والأسباب التي دفعتنا إلى إنجازه خلال السنوات العشر التي تولينا فيها الحكم. مضيت في إصدار القرارات خلال تلك الأشهر الأخيرة.

قمت بعدة زياراتٍ إلى ويلز. لاحظت أن الوزير الأول في ويلز، رودري مورغان، أحد أنصار غوردون، لم يكن متحمساً بشدّة لمشاركتي في انتخاباته، لكنه تعامل بلياقة مع زياراتي.

استمرّت الأخبار المقلقة في ورودها من العراق. تبيّن لي أن بإمكاننا تغيير القرار الذي سبق أن اتخذناه بزيادة عدد القوات. قمت في ذلك الوقت بزيارة إلى بغداد والبصرة، وشكرت الجنود على ما فعلوه. أما في البصرة فقد استمر الجنود في التعرض للقصف بقذائف الهاون يومياً تقريباً. جلسنا في المعسكر وما لبثت واحدة من هذه القذائف أن سقطت بالقرب منا. أدركت أن من المرعب جداً أن يعيش المرء هناك مع الخوف الدائم. دُهشت لأنني لاحظت أن الجنود بقوا هادئين، لكني أدركت كذلك أن كبار الضباط اعتبروا أن مهمّتنا في العراق قد انتهت، كما أنهم عبّروا عن غضبهم من احتمال غرقنا في وحول أفغانستان، وهي البلاد التي كانت مشكلتها تكبر كل يوم.

قابلت في شهر أيار/مايو عائلة أحد الجنود الذين ماتوا هناك خلال مهمةٍ صعبة وخطرة. أدخلتهم مكتبي في داوننغ ستريت. كانت هذه الاجتماعات المتشابهة عاطفية ومفعمة بالتوتر. تتعامل العائلات مع أحزانها بطرق مختلفة. تعبّر بعض هذه العائلات عن حزنها وكأن ما حدث مخاطرة حتمية، وخصوصاً بحياة جندي مقاتل. كانت العائلات صادقةً مع نفسها إلى درجة كافية بحيث أدركت أن لدينا جيشاً متطوعاً وليس مجنداً، وأن أحباءها قد ماتوا في سبيل القيام بما أرادوا القيام به. شعر آخرون بظلم إنهاء حياة شاب في مقتبل العمر، ولذلك فإنهم احتاجوا إلى شخصٍ ما كي يلقوا اللوم عليه. عبّر آخرون عن مزيج من العواطف، بعضها محزن وبعضها الآخر يحمل الاستياء.

كانت في هذا اللقاء زوجة أحد الجنود، وكان معها ولداها الصغيران اللذان لا يعرفان والدهما إلا عن طريق ما يستقيانه من ذاكرة والدتهما. كان للوالدين وأسرة الوالد خلفية عسكرية، ولذلك تمكنوا من فهم الموقف، لكن الأمر كان صعباً مع ذلك. لم أبرّر أيّ قرار ولم ألق فيهم محاضرة. تركتهم بدلاً من ذلك يطرحون أسئلتهم، ثم سألتهم عنه، فأعطوني لمحةً عن حياته توحي بالفخر.

مضت نحو أربعين دقيقة طلبت بعدها أن أتحدث مع الأرملة لوحدها. تحدثنا قليلاً، وما لبثت الدموع أن انهمرت من عينيّ. أدركت أن المرء عندما يلتقي أشخاصاً كهؤلاء ويعرف التأثير الذي تركه قراره في شخص آخر، وتبعاً لذلك ما تركه في عائلةٍ بأسرها، فإن شيئاً ما يتغيّر في داخله. على المرء أن يتمتع بالحساسية الكافية كي يشعر بذلك كله، وأن يتمتع بعد ذلك بالجرأة الكافية للتغلب عليها لاتخاذ القرار والمضيّ به على الرغم منها ومن دون أن يفقدها.

إن هذا التأثير كله يعكس الشخص الجالس قبالتك، الذي يعطيك تذكاراً حياً يجسّد قرارك بصورة مادية. أما في اللحظات الأكثر موضوعية ووحدانية، فيُمكن للإنسان أن يتأمل القرارات الأخرى حيث لا يلتقي أبداً الأشخاص الذين تأثروا بقراره، لكنه يقدِّر النتائج الحقيقية للقرار، وذلك لأن الذين تأثروا به لا يواجهونك أبداً: الملايين الذين ساعدناهم في إفريقيا بمن فيهم الذين استفادوا من برنامج PEPFAR (خطة الرئيس بوش لمساعدات الإغاثة)، وأولئك الذين يسيرون في شوارع إيرلندا الشمالية، حتى أولئك الذين أنقذتهم الخدمات الصحية الوطنية. أذكر من بين هؤلاء أولئك الذين وقعوا ضحايا القرارات المتأخرة أو الخاطئة، والذين لا نسمع منهم أي شيء ولا يمكننا أن نعرفهم.

في النهاية علينا أن نستمرّ في الحياة سواء أكانت عواقب القرارات ماثلةً أمام أعيننا أم لا وأن نستمرّ في العمل وفي الكفاح. لكننا نفعل ذلك ونحن مدركون الواجبات التي تفرضها علينا قراراتنا، ونفعل ذلك بإلحاحٍ ضروريّ أعرف، أنه لن يتركني حتى يوم مماتي.

زرت بعض العواصم، ومنها باريس وبرلين، ووارسو وعواصم أخرى، أثناء التحضيرات لقمة المجلس الأوروبي، وذلك في محاولةٍ مني حشد الدعم لقرارٍ قوي تصدره القمة حول التغيّر المناخي. رأيت نيكولا ساركوزي في مطلع شهر أيار/مايو وذلك بعد وقتٍ قصير من النصر الذي أحرزه في الانتخابات. ظهر بحالة رائعة، كما كان يشعّ حيويةً، وطموحاً، وتصميماً يميّز خطواته، وكان ممتلئاً حماسةً إزاء التحديات التي تنتظره.

أذكر أنني رأيته في داوننغ ستريت قبل بداية الحملة الانتخابية مباشرة، وكان

يطفح حيويةً وثقةً كعادته. امتلك نيكولا خططاً عظيمة لفرنسا ولأوروبا، حتى للعالم. قلت له بعد مرور عشرين دقيقة: «يا الله! تبدو مثل نابوليون».

أجابني بكل جدية: «شكراً لك». تطلعت بإمعان، فرأيت ذلك الوميض في عينيه.

رأيته هذه المرة في باريس، قابلته أولاً عندما تناولنا الشراب معاً، ومرة ثانية حول مائدة العشاء في مطعم قرب قصر الإليزيه، حيث كان يسير أمام الحاضرين المندهشين، فبدا وكأنه يناضل من أجل الحصول على آخر صوت. كرّر ساركوزي رغبته في أن أكون رئيس أوروبا عند الاتفاق على معاهدة لشبونة. وافقته بكل تواضع، وذلك بعد أن لاحظت الإغراءات المترافقة معه، لكني أدركت كذلك (كما تبيّن لي لاحقاً بالفعل) أن إسناد المنصب إلى شخص مثلي سوف يكون صعباً جداً. أعرف أنني أتمتّع باحترام كبير في أوروبا، وأعرف كذلك أنّ لي أعداء كثراً فيها، وهناك أشخاص أغضبتهمّ ولم أعطهم اهتماماً كبيراً. كنت شخصيةً كبيرة، وليس شخصاً يسهل الاجتماع به إذا كان الآخرون يهتمون بنصيبهم من الشهرة. أعتقد أن ساركوزي ذاته يمتلك رؤية هادئة إزاء الشخصيات الكبيرة التي يراها من حوله، ولعل ذلك يعود إلى ثقته الشديدة بنفسه. أعتقد أن الآخرين لن ينظروا إلى وجودي كرئيس أوروبا بتلك الطريقة.

كان رفيقاً مدهشاً وجذّاباً، وحيوياً، كما يمتلك تلك الجرأة الفرنسية الجذابة تجاه النساء، والحياة، والضحكات وهي كلها أمور أحبها. أحببت كذلك كونه الرجل الذي يصرّ على «إما أن يتم ذلك بحسب طريقتي وإما لن يتم أبداً». امتلك الرجل الروحية التي تسمح له بطلب التغيير وتحقيقه أو محاولة تحقيقه. كنت متأكداً جداً أن هذه هي الطريقة الوحيدة لتحقيق الإصلاحات الضرورية بسرعة. لكن تقديم الاقتراحات نظرياً هو شيء وتنفيذها شيء آخر، وهو الأمر الذي كان كذلك على الدوام. رأيت، وسط هذا الدفق من الإمكانيات التي لا حدود لها والتي تميّز الرئيس الجديد، شيئاً من مشاعري أنا قبل عشر سنوات. قلت له محذّراً: «سيشتد الأمر صعوبة».

أجابني: «بالطبع، أعرف ذلك». قالها بالطريقة ذاتها التي كنت سأتبعها لو كنت مكانه، أي عندما يظنّ المرء أنه يعرف، ثم يكتشف فيما بعد أن معرفته هذه ناقصة جداً.

التقيت آنجيلا ميركل في الوقت ذاته تقريباً، لكني انزعجت قليلاً لأنني كنت سأترك منصبي في وقت تسلّمها هي وساركوزي الحكم. تسلّمت آنجيلا منصبها قبل عامين، لكن كان من الواضح أنها لم تبدأ بإثبات نفسها تماماً إلا في هذا الوقت. كانت علاقتنا وديةً بالفعل وأعجبت بها بشدّة.

هدأت الأمور في إيرلندا الشمالية بحلول ٨ أيار/مايو، كما استُعيدت عملية تقاسم السلطة. أبلغت الملكة يوم ٩ أيار أنني سوف أُعلن في اليوم التالي اليوم الذي سأتنحى فيه عن منصبي. سافرت يوم ١٠ أيار/مايو إلى سيدجفيلد بوصفي رئيس الوزراء، ونائباً في البرلمان، للمرة الأخيرة. بدأت الرحلة هناك، ويجب أن تنتهي هناك. ألقيت هناك خطابي الوداعي وأعلنت أنني سوف أتنحى يوم ٢٧ حزيران/يونيو، أي بعد انعقاد المجلس الأوروبي. بقيت ستة أسابيع قبل بدء المنافسة على الزعامة، وستأتي بعد ذلك العطلة الصيفية، وهي الوقت الذي سيسمح لغوردون بإثبات نفسه.

قمت بجولة وداعية من أجل التأكيد على الأمور التي أنجزناها، وحاولت التشديد عليها كلها. توجّهت إلى سيراليون، وإلى ليبيا، وإلى جنوب إفريقيا، وذلك من أجل التشديد على أهمية الحكم وكذلك المساعدات بالنسبة إلى مستقبل إفريقيا. عقدنا في هذا الوقت أول مؤتمر برعايةٍ حكومية وعلى مستوى عالٍ، وشاركت فيه شخصيات من عدة أديان. كان مؤتمر الدول الثماني سيُعقد في هيليجيندام في شهر حزيران/يونيو، وكذلك دورة حلف الناتو في روستوك، ثم سينعقد المجلس الأوروبي بطبيعة الحال. رأيت جورج لآخر مرة [أثناء وجودي في رئاسة الوزراء] في شهر أيار/مايو. التقيت البابا في الفاتيكان في منتصف شهر حزيران/يونيو. جرت هذه المناسبات كلها وسط جوّ مشوب بالتشوّش.

تسرّبت في ذلك الوقت بعض الوثائق عن برنامج «مسارات نحو المستقبل»، لكن بدا غوردون وكأنه فقد اهتمامه به كما أن البلاد كانت تتطلع قُدُماً نحو الرجل الجديد. تنافس مرشحون كثُر على مركز نائب الرئيس. كان من الواضح أن معسكر غوردون براون يدعم هاربيت هارمان، التي فازت في النهاية. لم يتمكن آلان جونسون من شقّ طريقه تماماً على الرغم من أنه تمكن من الوصول إلى الجولة الأخيرة وكان يجب أن يفوز. أما جون كروداس فقد أبلى بلاءً حسناً، وكان الحال كذلك مع هازيل

بليرز التي تدعم التغيير عموماً، وهي التي أحرزت نتيجة متواضعة، لكنها خاضت حملةً لا بأس بها.

لم تحدث منافسة حقيقية على زعامة الحزب. كان يُمكن لجون ريد أن يترشح، لكن صحف مردوخ استبعدته تماماً، وأخشى أن يكون ذلك بتوجيه من ريوبيرت، وذلك على الرغم من أن جون كان على وئام مع قراء صحيفة صن أكثر من غوردون. أثمرت استراتيجية غوردون ربط ريوبيرت وداكر، مما يعني عدم حصول أي مرشحين متنافسين على أي فرصة بل يعني أنهم سيسحقون على الفور.

حضر دافيد ميليباند كي يراني، وهو الذي أصبح بعد عامين رجلاً سياسياً من نوع مختلف يمتلك ميزات الزعامة الواضحة. سعى دافيد إلى الحصول على نصيحتي في ذلك الوقت، أي في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٧، وكان متردّداً لكن لم أثق تماماً بأنه يريدها. لم تكن تلك وظيفة يسعى إليها المرء متردداً بشأنها. سألني إذا ما كنت أعتقد أن عليه أن يترشح، لكني قلت له إنني لا أستطيع أن أتخذ القرار بالنيابة عنه. سألني: «وماذا سيحدث إذا ترشحت؟»

أجبته: «أعتقد أن لديك فرصة للفوز، لكني لست متأكداً من فوزك، لكنه أمرٌ واردٌ جداً».

فكّر دافيد ملياً، ولأسباب وجيهة، بأن غوردون قد أحكم قبضته على الأمور. أما أنا فلم أكن من رأيه في واقع الأمر، لكني لاحظت أن هناك حملة تهدف إلى استبعاده في ذلك الوقت، لكن برز الغموض الذي ميّز مواقفه، والثغرات الموجودة في طريقة تفكيره، وتحوّله إلى اليسار. كان من شأن ذلك كله أن يشدّد على الاختيار بين حزب العمال الجديد أو التخلي عنه.

لم يكن دافيد مقتنعاً بذلك كله، كما أن بعضهم انتقده في ذلك الوقت، وفي وقت لاحق نظراً لإفراطه في الحذر. أما أنا فقد تعاطفت معه. لم يكن وضعه في ذلك الوقت شبيهاً بوضعي في العام ١٩٩٤. كان ذلك نوعاً آخر يختلف كلياً عن حساب المخاطر. لم أوجّه له لوماً على الإطلاق، لكني نصحته أن يكون جاهزاً لاحتمال إثارة القضية مجدداً، وأن ذلك ربما يحدث في وقتٍ أسرع مما نعتقد. تمثلت الاحتمالات أمامي على النحو التالي: أ) سيحدث نوع من الفوضى، أي لن يظهر حزب العمال

الجديد تماماً، وليس ما يناقضه تماماً، و ب) سيجد غوردون نفسه أمام هجوم شرس جداً، وبسرعة، نتيجة لمساوئه الشخصية ، لكن من دون أن يكون جاهزاً له من الناحية النفسية. كان غوردون قادراً على الصمود أمام ذلك الهجوم لو أنه امتلك برنامجاً قوياً وواضحاً، أما من دون هذا البرنامج فإن ذلك يعني أنه يخوض معركته على أساس شخصيته، إلا أنه لن ينجح في ذلك أبداً.

كانت علاقتنا الشخصية مقبولة، لكنني خالفته تماماً في الأمور التي كنت أعرف أنه سيفعلها، إلا أنني أدركت استحالة تغييره. وجّهت له مذكّرة أخيرة في شباط/ فبراير من العام ٢٠٠٧، وذلك على الرغم من عدم تأكدي أنني سأنجح في إقناعه. لا يمكنني القول إنني أستطيع لومه على موقفه هذا، لأنه كان مقتنعاً أنه انتظر عشر سنوات كي يتسلم تلك الوظيفة الصعبة. أما أنا فتمكنت من مسامحته على تفكيره الذي يتساءل عن السبب الذي يمنعني من الانسحاب كي يتولى المنصب. تحدثنا عن بعض القضايا، كما قمنا بتقييم أفكارنا المتعلقة بتعزيز الترويج للحملة الانتخابية فلاحظنا أنها كانت منسقة على نحو جيد.

شرحت في تلك المذكرة أن هناك طريقتين فقط تسمحان لحزب العمال بالفوز في الانتخابات. تشتمل الطريقة الأولى على ابتعادٍ قاطع عن الفترة التي توليت فيها المسؤولية، وهو ما أطلق عليه اسم «الانقطاع التام». لكن ذلك يتطلب برنامج عملٍ جديداً وموثوقاً به. أما الطريقة الثانية فتشتمل على «استمرارية حزب العمال الجديد»، أي التزام برنامج حزب العمال الجديد لكن مع استخدامه من أجل مواجهة التحديات الجديدة. أبلغته مع ذلك أنه لا يستطيع الفوز إلا بحسب الطريقة الثانية، وذلك لأنه كان جزءاً من فترة السنوات العشر الماضية. يعني ذلك أن أي ابتعاد عن تلك الفترة سيعني انحيازه نحو اليسار قليلاً، أي بما يكفي لتخريب تحالف حزب العمال الجديد. وضعت كذلك خطة للتنسيق والتعاون فيما بيننا في الأشهر التي تسبق مغادرتي لمنصبي، بحيث يُنظر إليه على أنه أحد أعضاء حزب العمال الجديد الأصيلين، وليس على أنه زعيم تقليدي لحزب العمال.

حاولت في الأحاديث المتتالية التي أجريتها معه أن أشرح له أن عليه ألاّ يقلق من الانفصال عني. كان ذلك الأمر واضحاً جداً، أي إنه كان يتمتع بشخصية مختلفةٍ

تماماً، كما أن الفرق في الشخصية هو فرق حاد جداً. أما إذا حاول تغيير مسار سياسة الحزب الأساسي فإنه سوف ينتهي في سيره إلى وجهة لا تقود إلى أي مكان.

إنني أعيد قراءة المذكرة، لكنني أخشى احتواءها الأمور التي كان يجب أن يقوم بها وأحجم عن ذلك. كانت الموازنة فرصتنا العظيمة كي نتعاون معاً في عمل مشترك، وكي نقوي وضعنا المالي، لكن الأشخاص الذين شعر بأنهم أقرب إليه لم يوافقوا على ذلك. استمر غوردون في التحدث معي، وكان يحترمني على مستوى معيّن مثل ما كنت أنا أحترمه، لكن ذلك الشعور بجو الألفة فيما بيننا قد تلاشى. كان هذا هو حالي وحال ألاستير، وبيتر، وفيليب. تمكّن غوردون من استيعاب ما قلناه ومن لمس قوته، لكنه في الواقع لم يتمكن من الشعور به في أعماقه، وكذلك كان الحال مع أولئك الذين كانت تجمعه بهم علاقة مودة، وهم الذين اختلفوا مع آرائنا من أعماقهم. أدركت أن الأمر لن ينجح أبداً.

يصعب عليّ فعلاً أن أقول ذلك كله، ولهذا فكّرت فيه طويلاً. أعتقد أن لا شيء أسوأ من تفاهةٍ مثل «أوه، لو أنه استمع إليه»، وهكذا بعد أن حاولت، وبكل جرأة، عدم الوقوع في وضع تبرير الذات – أخشى أن يسيئ هذا الأمر إلى المذكّرات السياسية – إلا أن هذا هو ما حصل مع الأسف. إنني أنظر مع ذلك إلى تلك الأوراق التي تحدّد سياسات الحكومة: مواجهة العزل الاجتماعي، واستخدام موازنات التأمينات الاجتماعية، وصناديق التوفير البنيوية، والإصلاحات الضريبية، والمراحل التالية للإصلاح بالنسبة إلى مواجهة الجريمة، وفي الخدمات الصحية والتعليم. أما لو انطلقنا نحو مستوى جديد من سياسات حزب العمال الجديد ولم نقع في متاهات طريق مسدود من الأفكار المتضاربة وعدم القدرة على اتخاذ القرارات، لكنا في وضع أفضل يمكّننا من مواجهة الأزمة الاقتصادية، كما كان من الممكن أن نسبق المحافظين في التفكير. لكن هذا هو الواقع، وما حدث، وهكذا كان. انسكب الحليب، ولذلك لم يعد البكاء وصرير الأسنان مفيداً.

وصلنا الآن إلى الأيام القليلة الأخيرة.

استغربت أن أكون في وضع الغائب عن الساحة. كنت في ذروة قواي، هذا إذا لم أكن في ذروة قوتي. أدركت أنني أصبحت رئيس وزراء أفضل في شهر أيار/

مايو من العام ٢٠٠٧ مما كنت عليه في أيار/مايو من العام ١٩٩٧. لم يفارقني قط الشعور بالاندفاع وبالحيوية، كما حافظت على اقتناعي بأن البرنامج السياسي الذي كنت أعمل على تنفيذه هو البرنامج العملي الوحيد لمستقبل بريطانيا. أعتقد أن هذا البرنامج سيلقى الدعم في البلاد إذا شُرح بطريقة فعالة، ومع ذلك كنت أستعدّ لمغادرة منصبي.

أدركت أن وسائل الإعلام قد تخلّت عن مساندتي. وقد سبق لها أن أعربت عن إعجابها بمواهبي السياسية التي تمكّنني من الظهور أمام الجمهور، لكن هذه الوسائل توقفت عن الإصغاء إلى حججي السياسية. وأعربت عن ضجرها وسخريتها من أحاديثي. استمرّ موضوع العراق في التسبب بمرارة كبيرة أعاقت كل محاولات التحليل العقلاني للصورة الشاملة. اقتنعت الصحافة بمشروع غوردون براون، وذلك على الرغم من شعوري بأن دوافعها من وراء ذلك كانت متنوعة. ظنّ بعض الأشخاص اليساريين أنه سوف ينفذ بالفعل برنامجاً يسارياً. أما أنا فقد توقّعت أن اليمينيين يظنون، غالباً، أنه سوف ينفذ سياسة حكومة المحافظين.

أما من جهتي فأظنّ أنني ذهبت إلى أقصى حدّ استطعت الوصول إليه في ذلك الوقت ضمن تلك المجموعة المعقّدة من الظروف السياسية. شعرت بأن غوردون قد قيّدني، لكن عدداً من كبار مستشاري الوزراء، ما عدا جون ريد وتيسا جويل، لم يكن لديهم أي فكرة حقيقية عن الفارق في برامجنا السياسية، ما عدا استثناءات بارزة. لكن عدداً آخر منهم تمكن من ملاحظة الجهة التي تهبّ منها الريح، وفكّر بأن من الأفضل أن يسير معها.

استعرضت فكرة البقاء في البرلمان. أدركت أن الوقت لن يطول على ظهور المشاكل مع غوردون، ولن يعرف الحزب ماذا يفعل، لكني أدركت أيضاً أن بعض من في الحزب سيطالبني بالعودة، بينما سيرفضني بعضهم الآخر، وسيحدث خلاف مرعب، كما أن الكرة سوف تكون في متناول الجميع. لم أتمكن من المشاركة في الجدال السياسي القائم أثناء وجودي في منصبي. أما لو فعلت وقلت حتى كلمة واحدة بعيدة عن موقعها ولو بميليمترٍ واحد، لكنتُ سمعت اتهامات بالخيانة والتسبب بانشقاق الحزب. قررت، لهذا السبب، أن لا خيار لي سوى ترك المسرح السياسي البريطاني، أقلّه في الوقت الحاضر.

أما بالنسبة إلى البلاد فإن الشعب، أو على الأقل قسم كبير منه، قد توقف عن الإصغاء، كما أنه تضايق من الطريقة التي ثابرت بها على دفع البرامج التي قرروا عدم الموافقة عليها. لم يقتنع الشعب، أو قسم كبير منه، بالسياسة الخارجية التي اتبعتها واعتبر أنها قريبة جداً من سياسة الولايات المتحدة. لم يحبوا أوروبا، أي إنهم كانوا على النقيض مني. اقتنعوا كذلك بوجود طرق أسهل، وأقل عدائية، من أجل إصلاح الخدمات العامة، كما أنهم شعروا بالارتباك بشأن برنامج القانون والنظام، لكنهم دعموا فكرته الأساسية، من دون أن يقتنعوا بأننا ننفذه بالفعل.

أما الأهمّ من ذلك كله فهو أنهم أُغرقوا بأخبار «المال مقابل الألقاب»، و«الأكاذيب» بشأن العراق، وهذا الفساد، وتلك الفضيحة، وعيوب الحكومة. بدا الأمر وكأننا شخصان يقفان على طرفي لوح سميكٍ من الزجاج وهما يتحدثان. ظننتُ في ذلك الوقت، وما زلت أظن، أن بالإمكان إقناعهم، لكني عندما تكلمت لم يتمكنوا من سماعي، إلا أنهم ما لبثوا بعد ذلك أن توقفوا عن المحاولة.

غامرت مراراً في الأشهر الأخيرة في الخروج ولقاء الناس. لاحظت أن لوح الزجاج السميك لا يفصلني عن الأشخاص الذين التقيتهم. كنا نتحادث بطريقة جيدة جداً، بحيث أننا كنا نعتبر الأحاديث تجربة ممتعة. بقيت أتعلم من هذه التجارب، بالفعل، حتى اللحظة الأخيرة، لكن هؤلاء الأشخاص كانوا لا يشكلون سوى نسبة ضيئلةٍ من الناس. أما بقية الشعب فكانت تستطيع التحادث معي بطريقة غير مباشرة، لكن بالنسبة إليها كان لوح الزجاج السميك يتحول إلى أمرٍ مؤلم.

كان ذلك مؤسفاً بالنسبة إليّ وإلى الناس. أما علاقتي معهم فقد كانت أكثر إثارة، وعاطفية أكثر إذا جاز التعبير، من العلاقة العادية التي تربط بين الزعيم والأمة. يعود ذلك جزئياً إلى الإثارة التي رافقت فوزنا في انتخابات العام ١٩٩٧، وبسبب روحية حزب العمال الجديد، ولأنني كنت أتواصل مع الآخرين، وأشعر معهم بشكلٍ طبيعي، لكني أصبحت أكثر بعداً، وعزلةً، وسلطويةً، أي إنني امتلأت بالإحساس بأهمية ذاتي وليس بأهمّيتهم. أعتقد، بطبيعة الحال أن قسماً كبيراً من وسائل الإعلام قد عمل جاهداً في تركيب هذه الصورة وتثبيتها.

لكنّ الأمر تعدى ذلك بكثير. شاهدت عام ٢٠٠٥ عرضاً غير عادي لاستطلاع

الرأي قدّمه تشارلز تريفاي الذي يعمل في شركة برومس (Promise Corporation). قدّم لي نظريةً اعتبرتها طريفةً في ذلك الوقت، وإن كانت بعيدة الاحتمال، وهي توحي أن علاقتي مع الشعب البريطاني كانت أقرب إلى أن تكون علاقة زواج مبنية على الحب. يشعر الناس في البداية بأن رابطة قوية تجمعهم معاً، وهكذا وثق الشعب بي وأحبني. أما في الولاية الثانية فقد مضيت، فجأةً، في مغامرةٍ خارجية، كانت أشبه بفضيحة. توقفت عن الاهتمام بهم، وتحولت إلى رجلٍ متغطرس. تراءى لي اعتقاد أنني أصبحتُ أكبر منهم، أو بتعبيرٍ آخر زدنا ابتعاداً بعضنا عن بعض، واعتبرت أن بريطانيا صغيرة جداً بالنسبة إلى طموحاتي التي تتميز بالغرور. تعودت في الماضي إعطاءهم شعوراً طيباً، لكني بدوت منزعجاً لأنهم كانوا غير مستعدين لمجاراتي.

قال تشارلز لم يسبق لهم قط أن أجروا أبحاثاً على شخص يكنُّ له الشعب مشاعر قوية على هذا النحو. لم يلاحظ الاستطلاع تقريباً مشاعر عدم الاكتراث. أودّ القول إن السيدة ثاتشر أثارت مشاعر بهذه القوة، ولكن حول سياساتها، أما في حالتي هذه فإنها دارت حولي كشخص. أعرب بعض الأشخاص عن كراهيتهم، بينما أعرب بعضهم الآخر عن محبتهم، لكنهم تحدثوا عني كشخص يعرفونه، وليس كزعيم [رئيس وزراء] بوصفه فرداً فقط. أما أبرز رأي مع ذلك كلّه فكان أنني فقدتُ تلك اللمسة الشائعة التي ميّزت الفترة الأولى التي توليت فيها رئاسة الوزراء، وهي الفترة التي تشكلت فيها تلك الرابطة مع الشعب.

كنت متأكداً أن جزءاً من ذلك كله يعود إلى طبيعة الوظيفة، وإلى رؤية الناس للمسؤول كل ليلة في نشرات الأخبار، بملامح وجهٍ جدية، وهو يعالج قضايا جدية ويرسم السياسات بينما يقول آخرون الأمور السيئة كلها، كما يعقد جلسات الاستجواب بكل ما تحمله من مواجهة، وما تحمله من أمور متشابكة ومقلقة. كنت أقتحم في بعض الأحيان ميادين مختلفة، أي كما فعلت في المقابلة التي أجرتها معي دي أوكونور في العام ١٩٩٦. أما في شهر آذار/مارس ٢٠٠٦ أي قبل وقتٍ قليل من قضية «المال مقابل الألقاب» المعقدة ـ كما ظهرت في باركنسون ـ أظهرت هذه المقابلة الجانب الآخر مني وكانت ناجحة بالفعل. كانِ كيفن سبايسي هو الضيف الآخر الذي فهم مهمته على الوجه الصحيح، وهكذا تمكن من إحراجي بشأن جورج بوش، لكنه فعل ذلك بطريقة مرحة خلت من الحقد. كانت تلك المقابلة جزءاً من

مجهود كبير بذلته من أجل إعادة التواصل [مع الناس] على الصعيد الشخصي، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل فور انكشاف «الفضيحة».

أدركت أن هذا الابتعاد [عن الناس] الذي يكاد يكون حتمياً في هذا الوقت لم يكن جوهر المشكلة. تمثلت المشكلة في قيامي بأمور، ليس في مجال السياسة الخارجية فقط بل في مجالات أوسع، وهي التي تسببت بتكوين معارضة وخلاف وذلك من دون أن أتزحزح عنها. شعر اليسار بكراهية بسبب مساندتي لأميركا والإصلاحات في مجال الخدمات الاجتماعية، أما اليمين فقد كره مساندتي لأوروبا، وأسلوب الحكم الذي أعتمده، لكنه كره أكثر من أي شيء آخر استمراري في الحكم بينما يبقى هو مهمّشاً.

يُمكن تلخيص الفرق بين طوني بلير في العام ١٩٩٧، وطوني بلير في العام ٢٠٠٧، على هذا النحو: لو واجهت المعارضة واسعة النطاق، هذه كلها في العام ١٩٩٧، لكنت غيّرت اتجاهي. لكني لن أفعل ذلك الآن، لأنني مستعد للمضي قُدماً إذا ما اعتبرت أن ما أفعله هو الطريقة الوحيدة التي توصلني إلى غايتي. لم يعد «البقاء على تواصل» هو المبدأ الأساس الذي أستند إليه، لأن «القيام بما هو صواب» هو المبدأ الذي حلّ مكانه.

أدركت أن موقفي هذا يسبب اضطراباً في «بيت الزوجية» الذي عشنا فيه معاً أنا والشعب بسعادة. بدا هذا الموقف وكأنه يتصف بالغرور، وحتى بالزهو. لكن الأمر لا يعود إلى أنني «عشقت امرأة أخرى»، بل لأنني توصّلت إلى اقتناع يفيد أن العائلة لن تزدهر ولن تأخذ نصيبها من العناية إلا إذا عشنا هذه الحياة بطريقة مختلفة. أردت تغيير مكان السُّكنى فقط، لأنني تمكّنت من ملاحظة تغير العالم بسرعة. لاحظت أيضاً أن مكاننا فيه يحتاج إلى تعديل أساسي وسريع. لم تكن الظروف التي نعيش فيها هي ما كنا بحاجة إليه. لم تكن مشاعري هذه المرة موجّهةً نحو الحزب، بل نحو البلاد.

تأملت في وضع الدول الصناعية الثماني، وكان ذلك قبل الأزمة الاقتصادية العالمية في العام ٢٠٠٨، فأدركت أنها لا يُمكن أن تستمرّ في وضعها هذا. لاحظت أن الصين والهند والبرازيل ستطالب بمقاعد لها إلى طاولة تلك الدول. رأيت الخطر

يُحدق بأوروبا من G2: الولايات المتحدة والصين. أما بعد ذلك فإن القارة قد تواجه خطراً، إذا لم نكن حذرين من G3: الولايات المتحدة، الصين، والهند، أو حتى من G4: الولايات المتحدة، والصين، والهند، والبرازيل. ربما تمتد اللائحة إلى ما يتعدى هذه الاحتمالات. يعني ذلك أن علينا مواجهة حقيقة أن بريطانيا هي جزيرة صغيرة تضمّ ٦٠ مليون شخص يعيشون منفصلين عن برّ القارة الأوروبية، وفي عالم يشتمل على دولتين تضم كل واحدة منهما عدد سكانٍ يبلغ عشرين ضعفاً عدد السكّان في بلادنا، ولا شك في أن اقتصاد هذه البلدان سوف يتوازى مع عدد سكانها. لكن، أليس من العقم والحماقة وضع أنفسنا نحن القوميين الإنكليز في تلك البيئة، أو تجاهل الأهمية الكبرى لعلاقتنا مع الولايات المتحدة؟

يفرض علينا هذا الواقع التنافس مع ظهور هذه الاقتصادات الجديدة. لكن كيف؟ يمكننا أن نفعل ذلك بأدمغتنا ومهاراتنا، وعن طريق التقدم في سلسلة هذه القيمة المضافة. نفعل هذا عن طريق العمل بجدّ أكبر، وإذا تنافسنا في النوعية، وفي القدرة. لكن إذا أردنا أن نفعل ذلك فعلينا إصلاح نظامنا التعليمي والخدمات الاجتماعية في بلادنا، وفعل ذلك ليس بحذرٍ أكبر بل بجرأة أكبر. أمكنني رؤية جدال اليمين/ اليسار الذي هيمن على السياسة الأوروبية خلال القرن العشرين وهو يسقط أرضاً، لكنه ما زال يترنّح تحت الضربات، وما زال يقف في طريق النقاش العملي حول ما يجب عمله، وما يجب عمله بإلحاح.

تأملت أوضاع الخدمات الصحية العامة، وشعرت بالفخر بالتغيير الذي أنجزناه، لكني كنت متأكداً من أمرٍ واحد: مع التقدم الذي أحرزته التكنولوجيا، والأعمار الأطول التي يعيشها الناس، لم يعد بوسع أنظمة العناية الصحية في البلدان المتقدمة الاستمرار بكلفة معقولة، وبالحد الأدنى من التساوي في تقديم الخدمات، من دون وضع مسؤولية الفرد والسياسة الصحية العامة في محور النقاشات. سبق لي أن وصفت كيف نظرت إلى المشاكل التي ترافقت مع إجراءات النظام الجرمي في القرن التاسع عشر في محاولتها مواجهة الجرائم والخلل الاجتماعي، والتي ظهرت في القرن الواحد والعشرين.

أريد أن أقول هنا إن استيائي من العلاقة لم يكن السبب الذي يدفعني إلى التفكير، بل كان ذلك الإحساس بأنني ما لم أشرح ضرورة البحث عن سياق مختلف

لرعاية تلك العلاقة فلن أستطيع أن أكون صادقاً، أو جديراً بالثقة. أما المفارقة هنا فتكمن، ويا للأسف، في شعوري بأنني عندما أصبح أكثر انفتاحاً بشأن ما يجب أن نقوم به، تبدأ الشكوك بالإحاطة بنزاهتي.

واجهت الدرس الرابع في الجرأة السياسية التي أشرت إليها في الفصل الأول، أي المخاطرة غير المحسوبة، واتخذت تلك الخطوة. أما الآن فإنني مستعدّ للبدء بالدرس الخامس: تحقيق ما أعتقد أنه صواب، حتى ولو لم يوافق الناس عليه. بدأت بالاقتناع بذلك المفهوم، ثم شرعت في إقناع الآخرين به، لأن البقاء على اتصالٍ مع آراء الآخرين هو ما يحدّد القيادة السليمة. انتهيت إلى اعتبار أن هذه الفكرة تمتلك قيمة ضئيلة، وإلى تعريف القيادة بأنها ليست معرفة ما يريده الناس ومحاولة إرضائهم، بل معرفة ما أعتقد أنه يخدم أفضل مصالحهم ومحاولة تحقيقه. يستحيل على المرء إرضاء جميع الناس في الأوقات كافة، لكن حتى ولو كان ذلك ممكناً فسيظلّ طموحاً لا قيمة له. إن هذا الأمر ينتقص من شأن الزعامة ومن اسم هذه الزعامة ذاتها.

لا أقصد القول من وراء هذا الكلام كله أن على الزعيم عدم السعي إلى إقناع الآخرين، وعدم استخدام تأثيرات الجاذبية كلها، والنقاش، والإقناع معاً. تُعتبر هذه العناصر كلها تكتيكية، ويجب أن تُستخدم بفاعلية وكفاءة. أما الاستراتيجية فتبقى في الإشارة إلى أي اتجاه يكمن المستقبل، وفي محاولة التحرك في ذلك الاتجاه.

سبق لي أن ذكرت أننا في تلك الأسابيع الأخيرة كنا نمضي بخطواتٍ واسعة، سواء في داخل البلاد أو في خارجها. بدأنا بحزم أمتعتنا داخل جناحنا في داوننغ ستريت. إنني لا أظنّ أن أي رئيس وزراء من قبلي قد تسنّى له هذا القدر من الوقت لحزم أمتعته استعداداً للمغادرة. كانت هناك صناديق كبيرة مليئة بشتى أنواع الأغراض التي تجمعت لدينا على مدى عشر سنوات. كانت هذه أطول فترة عشتها في مكانٍ واحد. أما ليو فلم يعرف أي مكانٍ آخر حتى ذلك الوقت. إنني لا أعتبر نفسي عاطفياً بالنسبة إلى المنازل. أما عندما تركت داوننغ ستريت وشيكرز، فقد شعرت بالحزن لأنني أترك الناس، وليس الأمكنة في ذاتها. أعتقد أن من الرائع أن يعيش الإنسان في أمكنة تاريخية وجميلة، لكن ذلك ليس أهمّ ما في الأمر، إذ حيث تكون العائلة يكون المنزل.

عدتُ من آخر اجتماع لي في المجلس الأوروبي يوم السبت. توجّهت بعد ذلك إلى مانشستر في يوم الأحد، وذلك من أجل حضور مؤتمر خاص للحزب يخصّص لإعلان نتائج انتخابات زعامة الحزب وتسليم غوردون زمام القيادة. ألقيت خطابي الذي كان مختصراً وخالياً من العاطفة، وهذا ما فعلته في آخر مؤتمر عقده الحزب. أيقنت أن الحاضرين متلهفون للترحيب بالحقبة الجديدة. أما من جهتي فكنت متلهفاً ذهنياً لمغادرة المسرح. أردت أن يكون الوداع متّسماً بالاحترام وبالحماسة إذا كان ذلك ممكناً، لكن من دون عواطف.

أصدرت بياناً للمجلس [مجلس العموم] حول المجلس الأوروبي يوم الاثنين في ٢٥ حزيران/يونيو. قمت بزيارتي الأخيرة بصفتي رئيساً للوزراء يوم الثلاثاء، إلى مدرسة ابتدائية برفقة آرنولد شوارزينيغر، حاكم كاليفورنيا الذي جاء إلى داوننغ ستريت من أجل عقد اجتماع حول التغيّر المناخي، وهو ما أعطى هذه الزيارة طابعاً سوريالياً. سار آرنولد أمام صف الأولاد الذين أُرسلوا لاستقباله. بدأ أحد الأولاد بقول شيء بطريقة فيها بعض التردد، لا بدّ أن أستاذه درّبه عليها، وهي توحي أن هذا الأستاذ يجهل أفلام آرنولد. قال له: «مرحباً بك سيدي الحاكم. أحب كثيراً مشاهدة فيلمك The Terminator». أسرعت كي أقول له لربما أخطأنا سماع الاسم. كان الولد رائعاً على أي حال وقد خيّم جوّ من الحبور على طلاب المدرسة.

عقدت في اليوم التالي، وكان يوم أربعاء، آخر جلسة من جلسات الاستجواب بصفتي رئيساً للوزراء. لم يكن هناك من فائدة لي في محاولة دفع الأمور قدماً، وكذلك لم تكن هناك فائدة للمعارضة في محاولة انتقاد الأمور، وكذلك لا فائدة من أي شيء آخر غير مغادرة منصبي بطريقة لائقة. كان أول شيء فعلته هو التعبير عن مشاعر التعزية من المجلس إلى عائلات الجنود الذين سقطوا في ميادين القتال. فرغت من هذا ثم قلت مايلي:

«إنها المرة الأخيرة التي تقع فيها على عاتقي هذه الواجبات التي تدعو إلى الحزن، ولهذا السبب آمل من المجلس السماح لي بأن أقول شيئاً عن قواتنا المسلّحة، وليس عن الجنود الثلاثة فقط الذين سقطوا في الأسبوع الفائت. لم يسبق لي أن قابلت أشخاصاً يمتلكون هذا القدر كله من الإخلاص، والشجاعة، والالتزام. إنني

آسف حقاً بشأن المخاطر التي يواجهونها هذه الأيام في العراق وأفغانستان. أعرف أن بعض الناس قد يعتقدون حقاً أنهم يواجهون هذه المخاطر عبثاً. إنني لا أعتقد ذلك، ولن أفعل في المستقبل. إنني أؤمن بأنهم يقاتلون من أجل أمن هذه البلاد والعالم الأوسع ضد أشخاص يريدون تدمير طريقتنا في الحياة. لكن بغضّ النظر عما يعتقده الناس بشأن قراراتي، أعتقد أن الرأي الوحيد الذي نستخلصه من هذه القرارات: أنها أشجع القرارات وأفضلها».

تحدثت في النهاية ببعض الكلمات دعماً للسياسة والسياسيين، وهي كلمات قلتها من صميم قلبي، كما أيقنت أن المجلس سيرحّب بها:

«ربما يعمد بعض الناس إلى التقليل من شأن السياسة، لكننا نحن الذين ننشغل بها نعرف أنها المجال الذي يفخر به الناس. أعرف أن السياسة تترافق مع جوانب صعبة، وعلى الرغم من ذلك لا تزال المجال الذي يتسبب بتسارع نبضات القلب قليلاً. إنها في بعض الحالات المجال الذي يرتع فيه بعض المخادعين، لكنها المكان المناسب للسعي وراء قضايا نبيلة. إنني أتمنى الخير للجميع، سواء الأصدقاء أو الأعداء. هذا كل شيء. إنها النهاية».

تلطّف دافيد كاميرون بأن شجّع الجميع على التصفيق لي وقوفاً، وهكذا انتهى الأمر. عدت من أجل توديع الموظفين في داونتغ ستريت، لكن الأمر اختلف عما كان عليه في العام ١٩٩٧، وذلك لأنهم أخذوا بالبكاء لأنني راحل، وهو ما لم يفعلوه عند وصولي. وقفت العائلة معي للمرة الأخيرة على درج ١٠ داونتغ. توجهت بعد ذلك إلى القصر لتوديع الملكة، التي كانت لطيفةً كعادتها، ثم توجّهت بالقطار إلى سيدجفيلد لتوديع أنصاري.

شعرت بالهدوء والطمأنينة. كما شعرت كذلك بوجود عملٍ لم ينتهِ بعد، لكنني واسيت نفسي بالقول إن العمل لا ينتهي أبداً. وقفت في ذلك الوقت على أعتاب حياتي الجديدة. اعتبرت نفسي محظوظاً على الدوام لأنني أمتلك ولعاً بشيء أكبر من السياسة، وهو الدِّين. وضعت لنفسي في ذلك الوقت طموحات جديدة. أعرف أنني قطعت مسافةً كبيرةً في رحلة عمري، لكنت عرفت كذلك، وبأسى، أن عندي مسافة لا بأس بها كي أقطعها. أعرف أن ثمة خطوات أكبر ودروساً أكبر تنتظرني.

ربما يظهر في المستقبل تقييم أكثر اكتمالاً لفترة السنوات العشر التي قضيتها في السلطة، وربما لا يحدث شيء. لكنّ تقييمي لهذه الفترة لا يعتمد أبداً على ظهور ذلك التقييم.

إنني أعتبر نفسي إنساناً محظوظاً جداً على أيّ حال، وذلك لمعرفتي أن الرحلة ما زالت مستمرّة، وكذلك بسبب التحديات الجديدة التي سأستكشفها، وأيضاً بسبب الإحساس بوجود غايةٍ بقيت عظيمة كما كانت على الدوام. أعرف أن هناك نقاط ضعفٍ كثيرة ينبغي التغلب عليها، لكن في التغلب على نقاط الضعف هذه يكمن معنى الحياة. هذا هو، على الأقل، ما تعلمته أنا.

الفصل الثاني والعشرون
تذييل

إن مقولة «الغرب» هي تعبير قديم عفا عليه الزمن يعود إلى الأيام التي كان فيها العالم منقسماً بسبب الشيوعية، لكن لا تزال تفيد في اختزال «نوع» دولتنا: منفتحة، ديمقراطية، وملتزمة اقتصاد السوق، ومرتاحة عسكرياً (وخصوصاً بعد سقوط جدار برلين)، وهو بقيادة الدولة العظمى الوحيدة في العالم، أي الولايات المتحدة الأميركية. وضع الغرب لفترة عشرين عاماً بعد العام ١٩٨٩ برنامجاً تجاوب معه الآخرون. ساندتنا بعض الدول في هذا البرنامج بينما عارضتنا دولٌ أخرى، لكننا نحن الذين اخترنا الاتجاه الذي يتبعه العالم، والمقصد النهائي الذي يبدو أن التاريخ يسير نحوه.

يمكننا القول إن شقوقاً محدّدة قد بدأت بالظهور في ذلك الصرح (الغرب)، حتى أن ثغرة غريبة ظهرت في المباني الملحقة به. انشغلت قوى جديدة في بناء صروح على نحو مختلف في أمكنة لا تبعد عنا كثيراً. لكنّ النموذجَ الذي وضعناه نحن ما زال يفرض نفسه ويستأثر بأكبر قدرٍ من الاهتمام. هكذا كان الوضع في حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٧ عندما تركت منصبي.

شهدت السنوات الثلاث التي مرّت منذ ذلك الحين نوعاً من الثورة، لكن في نظام كان يبدو منيعاً. أسفرت الأزمة الاقتصادية التي نشبت في العام ٢٠٠٨ عن

تصدّع ثقتنا بعقلانية اقتصاد السوق. أما الحرب في أفغانستان فما زالت تترجّح من دون حسم. واجه الرئيس أوباما طائفةً معقّدة من التوقّعات عندما وصل إلى السلطة، كما كان الأمر معنا في العام ١٩٩٧. تعيّن عليه، كأي رئيس جمهورية أو رئيس وزراء، مواجهة صعوبات في اختيار الوزراء. كان صعود الصين صعوداً حقيقياً، وملموساً، متألقاً، وحقيقة ساطعة، ولم يعد هذا مجرد تخمين فكري مثير للاهتمام. لاحظت كذلك أن القوة تتجه شرقاً. برزت كذلك دول أخرى، مثل البرازيل وتركيا، وهي التي لم تعد تسعى لطلب إذن كي تمارس دورها، لكنها تمارسه بكل بساطة. أما الاتحاد الأوروبي فقد وقع في ورطة، ولم تعد كلمة «أزمة» مبالغة، بل وصفاً لواقع قائم. أما نحن في الغرب فنبقى ديمقراطيات، لكن لم يسبق لنا أن أظهرنا احتراماً أقل تجاه أولئك الذين ننتخبهم.

ظننا سابقاً أن الانتصار العظيم الذي أحرزناه في طريقة حياتنا هو انتصار حتميّ. أما الآن فإن هذا الانتصار أصبح وراء الظلال. إن ثقتنا بأنفسنا أصبحت قليلة، كما أن إيماننا بالذات أصبح مزعزعاً. لكنّ الأهمّ من ذلك كله هو أننا نشعر بالضعف، وبالخمول في بعض الأحيان. بدا المستقبل الذي كان مضموناً في قبضتنا وكأنه أفلت منا بحثاً عن سادة جدد. أما إذا قرأنا معظم وسائل إعلامنا فإن الصورة تبدو على هذا النحو: تذمُّر، وانحطاط، وعجز، وتحديات لم تُجابه، ووعود لم يتم الوفاء بها.

لم يسبق لي أن شعرت شخصياً بإحساس أكبر من الإحباط، ولا بحافز أكبر للقيادة. إنني أستمتع بحياتي الجديدة هذه أكثر من القديمة، وإنني أجد في هذا هدفاً كبيراً. إنني أكافح لأجل رؤيتي للعالم، لكنني أفعل ذلك بطريقة مختلفة عن تلك التي كانت متبعة في مكتبي التقليدي. حاولت أن أكتسب فهماً أكبر وأعمق للعالم. لم تعد الصين ذلك اللغز، على الرغم من أن ذلك يبقى شعوراً نسبياً. أما الشرق الأوسط فما زال مدهشاً ومرعباً. بدأت كذلك أنظر إلى الاقتصاد نظرة عمل مختلفة وأكثر شمولية. إنني أجد في المجالين الرئيسيين المتعلقين بأعمال المساعدة، أي إفريقيا والإيمان، رضا روحياً وسياسياً كذلك.

إنني أعيش حياة مفعمةً بالإيمان، لكنني أجد عالمي القديم في حالة من اليأس، وأشعر بالصدمة وبدافع كبير نتيجة لهذا الوضع. ربما يرجع ذلك إلى أنني ابتعدت

عنه، وهكذا استطعت أن أراه بوضوح أكبر. (ربما يكون ذلك مجرد وهم). وربما كان السبب كذلك هو بعض الضجيج الموجّه بالضبط إلى ما كنت أمثّله أثناء وجودي في السلطة: سياسات اقتصادية متحررة، إصلاحات السوق وفي مجال الخدمات الاجتماعية والخدمات العامة، والاهتمام بالخارج والتدخل عند الضرورة. بدا هذا الفصل، الذي أردت أن أكتبه ليكون تذييلاً، أشبه ما يكون بإعلان مبادئ.

أقول اختصاراً: إنني أختلف كثيراً مع أجزاء مهمة مما يسمّى الرد الكينزي على الأزمة الاقتصادية الذي يقتضي تحكم الدولة في الاقتصاد، كما أعتقد أن علينا إظهار القوة والتصميم بالنسبة إلى الخارج، وليس الضعف والتردّد. أعتقد أن هذه هي اللحظة المناسبة لإدخال إصلاحات أكثر في الحكومة، وليس أقل. إنني مقتنع تماماً بأننا نمتلك فرصة عظيمة للالتزام مع القوى الجديدة والصاعدة في العالم، ولاسيما الصين، شرط أن نقوم بالمهمة بكل ثقة، وليس بالخوف. أريد أن أقول اختصاراً إننا أصبحنا تبريريين، وغير قادرين على الإقناع، ومكبلين، ومشبعين بالشك، وفاقدي روح الريادة. إن طريقتنا في الحياة، وقيمنا، والأمور التي جعلت منا عظماء، تبقى كلها ليس شهادة لنا كأمم فقط، بل شهادة على أننا روّاد التقدم البشري. إنها لا تمثّل بقايا سياسات كانت قوية ذات مرة، بل إنها الروح الحي للرؤية المتفائلة للتاريخ البشري. إن كل ما نحتاج إليه هو فهم أن علينا إعادة تطبيق هذا الروح على الظروف المتغيرة، وذلك بدلاً من أن نتخلى عنه لأنه أصبح قديماً.

إن التأثير الشديد وبعيد المدى للأزمة المالية التي حدثت في العام ٢٠٠٨ مازالت تتردد أصداؤه. ربما ستسجلّ هذه الأزمة في التاريخ على أنها أهمّ حدث اقتصادي منذ الثلاثينيات من القرن الماضي. يعرف الجميع وقائع ما حدث جيداً، ولذلك لا حاجة بنا إلى تكرارها، لكن تفسير تلك الوقائع يجب أن يخضع لمناقشات كثيرة.

يسود الاعتقاد في هذه الأيام، وكما هو معتاد مع حدثٍ كهذا هو من النوع الذي يصعب تحدّيه كثيراً على هذا النحو: حدوث فشل مريع «للسوق»، الأمر الذي يحتّم على الحكومات أن تنقذه، ويستتبع تطبيق سياسة مقاومة الانكماش الكينزية من أجل حل أزمة الانكماش الاقتصادي. تمكنت المصارف في أواخر العام ٢٠٠٨ من استعادة توازنها عندما ضخت الحكومات أموال الدعم لها، وهكذا بدأت عملية مراجعة أنظمة المراقبة التي تهدف إلى إعادة ذلك القطاع المالي المتعثر [بسبب

سياسات خاطئة] إلى خطّ الصواب، وتحول الإنفاق من القروض إلى سياسة اقتصادية معتمدة.

أما من الناحية السياسية فقد عادت الدولة إلى الواجهة، وتبيّن، فجأة، أن الإصلاحات التي حدثت بتأثير السوق في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي كانت سياسات خاطئة. أما النموّ الاقتصادي فقد قيل إنه وهمٌ مؤسّس على الديون. لكن الأهمّ من ذلك كله هو أن دور الحكومات آخذٌ في التصاعد. يُمكن للمرء في هذا الوقت أن يلمس مدى الزهو الذي عبّر عنه قسم كبير من أصحاب الرأي السياسيين والأكاديميين عندما انكشفت «السوق»، وبدت أنها تتعرى من ثيابها.

دفع هذا الوضع السياسيين التقدميين، وأولئك اليساريين منهم على الخصوص إلى التأكيد أن السياسة ستشهد تحولاً حاسماً نحو تدخلٍ أكبر من قبل الدولة المركزية. بدا أن ذلك يتوافق مع تغيير المزاج العام في الولايات المتحدة (وذلك على الرغم من أن تعيينات أوباما في المراكز الاقتصادية الأساسية كانت معتدلة جداً)، شكّل دلالة على نهاية تلك الحقبة التي بدأت قبل أكثر من ثلاثين سنة مع الفلسفة الاقتصادية والسياسية التي أدخلها الثنائي ثاتشر/ ريغان.

إن الابتعاد عن تلك السياسة وإدخال بعض النظام إليها هما مهمة صعبة، وما يزيدها صعوبة هو أن تحدي أي جزء منها يستجلب قدراً هائلاً من الانتقادات، وذلك لأنها مثلت قناعة سائدة وراسخة. لكننا بحاجة ماسة إلى الكشف عن تلك القناعة الراسخة كي نتمكن من الوصول إلى وجهة نظر أفضل ومدروسةٍ أكثر.

أقول في البداية إن «السوق» لم تفشل، أما ما فشل فهو جزء من قطاعٍ واحد. إن الطريقة التي اتبعت في تأمين الديون شبه الأساسية [شبه السيادية] sub-prime، كانت خاطئة وغير مسؤولة، وتعرضت للتلاعب ثم بيعت من دون تقدير حقيقي للمخاطر المترافقة مع هذه العملية، حتى مع إعطائها قيمة مغلوطة، وغير مسؤولة، هي التي أحدثت أكبر قدرٍ من الأضرار. لم تكن بعض الأرباح التي تمثلت بالدفعات الكبيرة مقابل تحريك الضمانات المالية، والمكافآت، معروضة على نحو مريع فقط، بل كان من الصعب تبريرها، وهي ساهمت في أسوأ الحالات في تكوين نزعةٍ لـ»إتمام الصفقة» على الرغم من مساهمة فوائد المدى الطويل في الأزمة بطريقة ما. إن كل

ما أوردته هنا صحيح، ولذلك يجب معالجته. أقول مع ذلك إن ممارسة كهذه يجب أن لا تحدّد، أو تمثّل، القطاع المصرفي برمّته، دعك من القطاع الاقتصادي كله، فضلاً عن «السوق».

ثانياً، إن الحكومات هي التي فشلت كذلك، والقوانين [القواعد] هي التي فشلت. فشل السياسيون كذلك، والسياسة النقدية هي التي فشلت. أما الدَّين فقد أصبح رخيصاً جداً. لكن ذلك كله لم يكن مؤامرةً من قبل المصارف، بل كان نتيجة تقاطع غير مؤذٍ في الظاهر لسياسة المال المتحرر من القيود مع نسبة التضخم المنخفضة. إن مسؤولية الأزمة يجب أن تتوزع على غير جهة، بدلاً من أن تُلقى على السوق لوحدها، أو حتى على المصارف لوحدها.

ثالثاً، إن الفشل الذي حدث هو في التفهم، لأننا عجزنا عن ملاحظة الأزمة. يُمكن الجدال في عدم قيامنا بما كان ينبغي لنا أن نقوم به، لكن لم نفعله. يُضاف إلى ذلك كله، وهو الأمر الهام على المدى الذي يمكننا الوصول إليه في التشريع، أننا لم نكن عاجزين عن منع حدوث الأزمة حتى مع ملاحظتنا لقدومها، ولم يكن ذلك فشلاً للقوانين بمعنى أننا كنا نفتقد سلطة التدخل. كنا على استعداد للتدخل لو قالت سلطات المراقبة المالية للرؤساء إن أزمةً كبيرةً هي على وشك الوقوع، ولما كنا قلنا لهذه السلطات: لا يمكننا فعل أي شيء بخصوص هذا الأمر قبل أن نفرض قوانين جديدة. لو قالوا لنا لكنا تحركنا، لكنهم لم يفعلوا.

رابعاً، إن الابتكار في حقل المال ليس سيئاً في ذاته. إنه أمر جيد بين الحين والحين في واقع الأمر: يزيد هذا الابتكار من السيولة المالية ويعزز الأنشطة الاقتصادية. لكن الخطر يكمن في الابتكار الذي يترافق مع تأثيراتٍ لا نفهمها، ومع عواقب لا نستطيع متابعة مساراتها.

خامساً، عندما تحدث الأزمة، وأعتقد أن ذلك يصدق على أي أزمة اقتصادية مهمة هذه الأيام، فإن عواقبها تكون مضخّمة، على نحو يتجاوز أي مقارنة بما أحدثته في الماضي الطبيعة المترابطة والمتداخلة على نحو هائل للاقتصاد العالمي الحديث. تُحدث الأزمة تأثيرات بطبيعتها، وتتضاعف تلك التأثيرات عن طريق تلك القوة المراوغة ذات القدرة الواسعة، التي تُسمّى «الثقة».

إنني لا أحاول القول إن الثقة هي مجرد شعور متحرّر غير مرتبط بالوقائع. تحدد الحسابات، بطبيعة الحال، أساس الثقة. لكن ترجّح الثقة ينبع، جزئياً من النفسية التي تقف وراء طريقة معالجة الحسابات، كما أنها تعتمد أساساً على السياسة. تتمحور المعادلة على التفاعل بين الحسابات، وعلم النفس، والسياسة. نستنتج من ذلك أن الحسابات تبقى غير مؤكّدة، والسياسة غامضة، والنفسيات مضطربة تبعاً لذلك، وهكذا تكون الثقة مغلوطة.

عندما قلت إن علينا الابتعاد عن القناعة القديمة السائدة فكنت أعني ما يلي: من الصائب جداً أن تتدخل الدولة في بداية الأزمة. إن عدم التدخل يُعتبر خطأً من حيث المبدأ، وغباوة من الناحية العملية. كانت المشكلة، وأفضّل أن أقول الخطأ في الاقتناع بمجموعة من الفرضيات التي جمعت الإنفاق من الديون، والقيود المتشددة، وتحديد المصارف على أنها هي المتلاعبة، واستبعاد الحكومة وإعادة تكوينها باسم إصلاح الحكومات.

أقول إن من المفارقة (أو لعل من المتوقع) أن يكون الجمهور فهم هذا أكثر من عدد كبير من السياسيين والمعلقين، وهذا ما يفسّر سبب عدم تشكّل الميل نحو اليسار. يفهم الجمهور تماماً ماذا يعني أن تكون الدولة مجبرةً على التدخل من أجل إعادة التوازن إلى السوق والحكومة، وذلك بطريقة تتوافق مع كونها لاعباً أساساً في الاقتصاد عموماً. إن دور الحكومة هو إعادة التوازن ثم الابتعاد عن المسرح بالسرعة التي يسمح بها الاقتصاد. إن تعافي الاقتصاد لن تقوده الحكومات في نهاية الأمر بل قطاعات الصناعة، والتجارة، والابتكار من جانب الناس وإبداعهم. لكن هذا التعافي في الاقتصاد يصبح مشكوكاً فيه إذا كانت الإجراءات المأخوذة استجابة للأزمات تنتقص من حوافزهم، وتكبح روح الريادة عندهم، وتجعلهم يشعرون بالتردد حيال البيئة التي يعملون فيها.

يصدق هذا كذلك على القطاع المالي، حتى ولو بدا قول ذلك نوعاً من الهرطقة. يتعيّن إجراء إصلاحات تشريعية بطبيعة الحال، لكن الأهمّ من ذلك هو وجوب إنشاء أنظمة مراقبة وإشراف وطنية وعالمية تمكننا من فهم هذا العالم المالي الجديد، ومتابعته على نحو يمكّننا من التدخل حينما تدعونا إلى ذلك مخاطر الفشل البنيوي. لكن ما يجب ألاّ يحصل هو محاولة توقع شاملة لكل أزمة محتملة، وفرض قواعد

متشددة مقدماً لمنعها. إننا نخاطر بهذه الطريقة [إذا ما فعلنا ذلك] بتدمير نظامنا المالي، وبنزع روح الابتكار منه، وبمحاولة إرجاعه إلى عالم الماضي غير البعيد، وهو وضع غير عقلاني بالإضافة إلى أنه غير مثمر من الناحية الاقتصادية.

إن إحدى النتائج المترتّبة على انخفاض أنشطة المصارف هي وجوب مضاعفة الدولة لأنشطتها. أما في هذا الوقت فقد انتقلنا من الإقراض غير المسؤول إلى الطرف النقيض، وهو ما يعني حرمان الشركات الموثوقة والزبائن الموثوقين من القروض. إن عدم الاكتراث للمخاطر أمرٌ يجب عدم حصوله، وعدم استبداله بكراهية للمخاطرة. أقول، على سبيل المثال إن مقايضات القروض المتعثرة واشتقاقاتها ليست شيئاً سيئاً في ذاتها، بل على العكس من ذلك، إنها إذا استُخدمت وفُهمت بالطريقة الصحيحة يمكنها أن تكون ذات فائدة كبيرة. أنصح، لهذا السبب، بأن يتم فهمها، والإشراف عليها، ووضع قواعد لها عندما يكون ذلك ضرورياً، لكن يجب أن لا يُنظر إليها على أنها من نتائج الجشع. يجب أن تُعامل كما هي عليه: أدوات مالية جديدة ينبغي أن تُستخدم بعناية.

إنني أفضّل النظر إلى فرض القواعد والقوانين بعين الحذر، وعدم حرمان القطاع المالي من إبداء الرأي في إعادة الأمور إلى نصابها، وذلك لأنه كان مصدر الخطأ، لكن إذا تم التعامل مع هذا القطاع على أساس أنه شريك في محاولة لتحقيق التوازن الصحيح بين الإشراف وفرض القوانين والتعليمات، وبين التحرك العالمي والوطني، فإن من شأن ذلك تقليص المخاطر مع السماح بالإبداع.

أما بالنسبة إلى الدولة ذاتها، ودور الحكومة، فيجب أن يُعتبرا عنصرَين مناسبين للإصلاح، وكذلك كجزءٍ من المشكلة وليس كجزءٍ من الحل فقط. يعود أحد أسباب ذلك إلى تحوّل القلق بشأن الاقتصاد من ممارسات المصارف إلى الديون السيادية، وهو أمرٌ يلخّص مدى الحمق في تجاهل مسؤوليات الحكومة والدولة عما حدث.

لم تتسبب أزمة منطقة اليورو في خلق قضية الديون السيادية، بل اكتفت بكشفها.

أما الحقيقة فهي أن العالم قد تحرك على مدى فترة طويلة من الزمن، لكنه فعل ذلك بالترافق مع تردد كثير، في إصلاح أنظمة الخدمات الاجتماعية، والخدمات العامة والمؤسسات الحكومية. إن تصاعد ازدياد أعداد السكان المسنّين، وانخفاض

معدل الولادات، وازدياد مطالب الناس، وتغيّر الظروف الاجتماعية، هي كلها أمور ما برحت تواجهنا منذ عقود. كان ينبغي أن تكون الأزمة الاقتصادية (وما زال ذلك وارداً في واقع الأمر) الفرصة المناسبة لتسريع عملية الإصلاح وشحذها، وذلك بدلاً من الاستسلام المتكاسل للفكرة القائلة إن الحل الوحيد للأزمة هو في إنفاق المزيد من أموال الدولة تحت قناع التحفيز المالي. إن الحصول على القيمة مقابل المال في خدماتٍ مثل العناية الصحية، وإطلاق المنافسة في مجالات مثل التعليم، وتغيير الخدمات الاجتماعية على نحو حاسم بحيث تصبح شبكة أمان حقيقية بالنسبة إلى أولئك الذين يحتاجون إليها، وتعطي دفعاً بالنسبة إلى أولئك الذين يستطيعون، ويجب أن يستطيعوا، الوقوف على أرجلهم، وطرح الأسئلة، وإعادة التقييم، والتغيير الدائم ليس بغية التخلي عن التضامن الاجتماعي بل من أجل جعله أكثر فاعلية في هذا العالم المتغيّر، هو ما يتعيّن علينا المناداة به كتقدميين، واعتناقه كدول.

أريد أن آخذ مثالين الآن: procurement والتقاعد. ليس هناك شكّ في المثال الأول بأننا نستطيع الحصول على قيَم أفضل إذا تبنينا الممارسات التي اعتبرها القطاع الخاص بديهية منذ وقتٍ طويل. لكننا ما زلنا نخلط بين أوجه الخدمات العامة التي هي مختلفة بالفعل في النطاق، والغاية من الخدمات الخاصة، التي تترافق مع الوسائل الكفيلة بالقيام بالأمور المشتركة فيما بينهما، وبين ما إذا كانت تنفّذ بفاعلية أم من دون فاعلية. أما procurement كما كانت تنفذ خلال فترة حكمي التي استمرت عشر سنين فقد قطعت شوطاً بعيداً، لكنها لم تقترب قط من المكان الذي يجب أن تكون فيه، والذي تستطيع أن تكون فيه.

أما بالنسبة إلى التقاعد، فإنني أفضّل الربط بين المداخيل والتقاعدات بسبب مساهمات صندوق التأمينات الوطني. يتعيّن علينا، كمجتمع، أن نسأل أنفسنا ماذا نعني بالفعل بالتقاعد الآن. يتوقع الناس في عالمنا المتقدم أن يظلوا محتفظين بالحيوية في سنّ الستين وما بعده. ربما أكون استثناءً لهذه القاعدة، لكني أودّ اعتبار فكرة التوقف عن العمل في سنّ الستين فكرة سخيفة، بل مرعبة في الواقع. إننا نستطيع في هذا السنّ تغيير مستوى فاعليتنا، وحتى تغيير وظيفتنا، وهكذا لا يعود هناك من معنى لتحليل عالم ٢٠١٠ من خلال عيني جدّي.

تحسّسنا طريقنا خطوةً خطوةً نحو الوصول إلى نموذج جديد للدولة والخدمات التي تقدّمها، وفي كيفية مساهمة التكنولوجيا في توفير الأموال عن طريق تقديم طرق جديدة في العمل، وفي المرونة في التخطيط المهني، وتلزيم أقسام من الأعمال، وغير ذلك. لكنّ الأزمة التي نشهدها الآن تشدّد الحاجة إلى تسريع هذه الأمور كافة.

يوصلني هذا الكلام كله إلى قضية ذات صلة، وهي الإنفاق من القروض. أقول مجدّداً ليس هناك من شك في أن الحكومات اضطرت في حالة الانكماش الشديد وأزمة القروض للعام ٢٠٠٩، إلى تنشيط الطلب المحلي. أعتقد، على أي حال أن هناك ميزتين مهمتين في مثل هذا التحرك. الأولى: حين يجري تحليل تاريخي لبرامج [حزَم] التحفيز فإنني أعتقد أننا سوف نلاحظ أنها إجراءات محدّدة وموجّهة، أي مثل ما حصل في صناعة السيارات، حيث كانت هذه السياسة الأكثر فاعلية.

أما الميزة الثانية فهي أن عملية الإنفاق من القروض هذه تحتاج إلى الضبط بعناية شديدة وذلك في الظروف التي يمرّ بها الاقتصاد العالمي في العام ٢٠١٠.

كان كينز رجلاً عظيماً، ومفكراً ثورياً، ونموذجاً نادراً للمفكر البارز الذي يتمكن من إعطاء نصائح عملية. إنني أراهن أنه سوف يُدهش لكيفية تطبيق نظريته هذه الأيام.

كانت نسبة الإنفاق العام في المملكة المتحدة بالنسبة إلى الناتج الإجمالي المحلي ٢٦ بالمئة، وفي الولايات المتحدة الأميركية ١٩ بالمئة. أما في العام ١٩٥٠، أي بعد الحرب فقد وصل الرقمان إلى ٣٤ بالمئة و٢٤ بالمئة. أما اليوم فقد تغيّر الرقمان إلى ٤٧ بالمئة و٤٥ بالمئة.

برزت، بطبيعة الحال، الحاجة إلى وجود محفز مالي مع انخفاض الطلب بشدّة في العام ٢٠٠٩. كان حدس كينز هو أن على الدولة أن تتحرك من أجل تحفيز الطلب، هذا إذا كان الانكماش يعني تقلص النموّ بشدة، وتقليص الإنفاق، الأمر الذي يؤدي إلى نموّ أقل واقتطاعات أكثر. لكن لم يتضح قط أن تأثيرات أزمة العام ٢٠٠٨، ستكون هبوطاً مريعاً في النمو، وستستمرّ أعواماً عديدة. يعود ذلك الهبوط المريع جزئياً إلى الانهيار النفسي للأسواق الذي تبع أزمة [مصرف] ليمان، وهو ما أدى إلى انهيار في الثقة، وإلى هجر الناس الأسواق [المالية]، وإلغاء الاستثمارات

ثم العودة إلى المخابئ. إن ما لاحظته في الفترة بين ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ أن حتى الذين يمتلكون أموالاً كثيرة قد أحجموا عن الإنفاق. لكن ما إن استقرت الأسواق حتى عادوا من المخابئ كي يستأنفوا أنشطتهم.

يبرز الخطر الآن على هذا النحو: إذا لم تواجه الحكومات العجز فإن العبء سوف يقع على دافعي الضرائب الذين يخشون أن يؤدي ازدياد العجز إلى ازدياد الضرائب في المستقبل، وهو احتمال يقلّص الثقة، والاستثمار، والقوة الشرائية. يؤدّي ذلك أيضاً إلى زيادة مخاطر حدوث فترة ركود طويلة. أشدّد هنا على القول إن تعزيز الوضع المالي يجب أن يتقدم مع عناية كبيرة. إنني أوافق كلياً على أن السحب withdrawal المتسرع لبرامج التحفيز سيكون خاطئاً. إنه رأي يوضح الفارق بين الصواب والخطأ، وليس بين اليمين واليسار. تبرز لدينا الحاجة إلى موازنة التأثيرات المتعاكسة الناجمة عن تقليص العجز: تقلّص الطلب الإجمالي بسبب انكماش الإنفاق الحكومي من جهة، وثقة أكبر من قبل المستهلكين والشركات بسبب السيطرة على العجز من جهة أخرى. علينا هنا أن نتوصّل إلى استنتاج. لكن إذا فشلنا في تقديم مخرج مقنع للخلاص من الدَّين، فإن هذا الفشل الذي شهدناه في الاقتصاد العالمي في العام ٢٠١٠ مقارنةً بحالة الاقتصاد العالمي في الثلاثينيات من القرن الماضي، سيؤدّي بنا إلى الركود.

أما الفارق الكبير هذه الأيام فيكمن في أوضاع الاقتصادات الناشئة. تتميز هذه الاقتصادات بأبعادٍ جديدة كلياً، كما أن لها نقاط ضعفها الخاصة بها، لكن من المؤكّد أنها سوف تمضي في شقّ طريقها قدماً. نلاحظ هنا، للمفارقة، أن هذه الاقتصادات ستستمرّ في تبني سياسات اقتصادية حرة، وذلك في الوقت ذاته الذي بدأنا فيه من جانبنا بفقدان الثقة بهذه السياسات. أما المخاطرة التي تمرّ بها هذه الاقتصادات فهي في عجزها عن تطبيق الإصلاحات الحكومية (كالحال في الهند)، وكذلك من خلال السياسات التي تتسبب بركود النمو بحيث تغرق الأسواق ببضائعها (كحال الصين).

إذا أخذنا أوروبا كمثال، فإن ما تحتاج إليه هذه القارة هو جملة من الإجراءات التي تشكّل خطةً مدروسةً بإحكام لتقليص العجز، وتتضمن إصلاحاً أساسياً للنموذج الاجتماعي الأوروبي، وهو الإصلاح الذي بيّنت الأزمة الحاجة إليه ولم تتسبب به،

وأنظمةً وتشريعات يمكنها متابعة المخاطر البنيوية، لكنها لا تكبح الإبداع وروح الريادة التجارية، أما بالنسبة إلى منطقة اليورو فإنها تحتاج إلى التنسيق المالي الذي تتطلبه السياسة المالية الواحدة على الدوام.

يشكّل ذلك كله مجموعة واحدة، أي إننا إذا نفذنا جزءاً واحداً وتركنا جزءاً آخر فسنخاطر بالوقوع في أزمة أخطر. إننا إذا خفضنا العجز وقلّصنا من الحوافز، أو إذا تخلّفنا عن إجراء إصلاح بنيوي حقيقي، أو إذا حدث عدم توازن في الإجراءات، فسوف نتسبب بفشل البرنامج برمته، أو على الأقل تقليص تأثيراته بصورة كبيرة.

أريد الآن أن آخذ قضيّةَ اليونان أو إسبانيا على سبيل المثال. إذا تمكّن البلدان، كما آمل، من اتّباع سياسات ذات مصداقية لحلّ أزمتيهما، أي العجز في حالة اليونان والوضع المصرفي المرتبط بالمصارف في حالة إسبانيا، فإن اليورو سوف يستقرّ إذا ما ترافق ذلك مع إصلاحات حقيقية. ستتعافى الأسواق في هذه الحالة، أما الإصلاحات، وهي ضرورية في جميع الحالات، فستجعل البلدين أكثر تنافساً. أما النتيجة فلن تكون تغيير الأساسيات التي تطور اقتصاد الغرب على أساسها على مدى عقود من الزمن، لكن هذا التغيير سوف يوفّر التعديلات والإصلاحات اللازمة لتفعيل هذه المبادئ الأساسية أكثر.

إن ما يؤدّي إلى تقوية هذا المبدأ هو أن تصنيف هذه الاقتصادات الجديدة آخذٌ بالتحسّن، ويرجع ذلك بالتحديد إلى أنها تتبع سياسات أكثر انفتاحاً، كما أن هذه الاقتصادات تترنّح عندما تتوقف عن اتّباع هذه السياسات. إننا نلاحظ أن الصين تأخذ بالانفتاح والازدهار عندما تفعل ذلك. أما الهند فهي تحتاج إلى تقليل البيروقراطية، وكذلك إلى تقليل سلطة الدولة، وليس إلى زيادة هذه السلطة. أما النجاحات التي حققها الرئيس لولا في البرازيل فتعود جزئياً إلى استمراره في اتّباع سياسات الاقتصاد الكلّي المضادة للتضخّم التي اتّبعها سلفه فرناندو كاردوزو. أما اقتصادات الشرق الأوسط، مثل المملكة العربية السعودية، فهي تركّز على مبدأ التنافس وإزالة العقبات أمام الاستثمارات من دون أن تقيمها. أعتقد أن من المستغرب، ومن الحماقة إذا ما تحرّكنا في الاتجاه المعاكس.

أعتقد، على الرغم من ذلك كله، أننا قد نستعيد ثقتنا بالاقتصاد بأسرع ما

نستعيد ثقتنا بالأمن. سبق لي أن عرضت تفسيري لما حدث في العراق، وعرضت كيف حدث ذلك، وما هي الأمور التي لم تسِر على ما يُرام، ولماذا لم يزل ذلك التفسير صائباً على الرغم من ذلك. تبقى أفغانستان في الميزان الآن وبطريقة مشابهة. قمنا بإزالة نظام مكروهٍ هناك، أي كما حدث في العراق، ونحن فعلنا ذلك بنيات طيبة. يبدو أن مواطني ذلك البلد يضمرون النيات ذاتها، لكننا شعرنا بالإحباط بسبب أولئك الذين يضمرون نيات معاكسة. تتغيّر الأمور مع الزمن ولا تعود القضية تحديد ذوي النيات الطيبة وذوي النيات السيئة، بل تصبح قضية العجز الظاهر عن التغلب على القوى التي تقف ضدنا، وكذلك إحراز نصرٍ «مؤكد». يستمر حلفاؤنا في فقدان الشجاعة، وتستمرّ جماهيرنا في فقدان الإيمان، ثم نسأل: متى سينتهي ذلك كله وكيف؟

إنها الصورة التي تتحرك بسرعة، ومع كل تطور للكفاح السياسي والعسكري تبدو الأمور مختلفة من شهرٍ إلى شهر، حتى من أسبوع إلى أسبوع. يعني ذلك أن التفكير في ما حدث في الماضي من أجل رؤيةٍ أوضح للصورة أخذ يزداد صعوبةً على نحو رهيب. أريد الآن العودة إلى المبادئ الأولى في محاولة مني لتبسيط الأمور، حتى وإن كان ذلك بتعابير خشنة.

ما هي طبيعة التهديد الذي نواجهه؟ لم يأتِ هذا التهديد من شيء سبق لنا أن فعلناه، ولم يكن هناك من أي منطق في سعي الغرب وراء مواجهة. إن هذه هي القاعدة الحيوية الأولى في هذا الجدال. تلقى معظم مواطنينا هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر بمشاعر الصدمة التي كان من المتعذر توقّعها سلفاً. لم تستهدف بلدان مثل الولايات المتحدة وبريطانيا المسلمين بمعاملة غير منصفة. أما حيث كان المسلمون رازحين تحت مشاكل عرقية عموماً تجاه الذين هم من جنسٍ، أو لونٍ، آخر فإن مواقف كهذه كانت تصدر عنهم وليس نحوهم.

إن التطرف الذي نخشاه هو صراعٌ داخل الإسلام، كما أن هذا التطرف يناقض كلياً التعاليم الصحيحة للإسلام، لكننا لا نستطيع إنكار أن النشطاء يتصرّفون بوحي من دِينهم. أشعر بأننا نتجاهل في أحيان كثيرة هذا الأمر المؤكّد وكأنه وصمة تشمل المسلمين جميعهم. لكن إذا كانت هذه الفرضية صحيحة، وهي كذلك، فسيتوجب علينا مواجهتها ليس لأنها صحيحة فقط، بل لأننا إذا لم نفعل ذلك فسيتعذّر علينا

تحليل هذه المشكلة، أو الوصول إلى حلّ مناسب لها. أما إذا كان التطرف مشكلة داخل الإسلام فإن الحل يكمن، جزئياً في أفضل الحالات، داخل الإسلام ذاته. يعتمد استئصال هذه المشكلة علينا نحن، الذين هم خارج الإسلام، وإن كان من الممكن استئصالها، في واقع الأمر، من قِبل أولئك الذين هم داخل الإسلام.

لكن ما هو أكثر صعوبة هو وجود ميل (طبيعي) عندنا من أجل الاعتقاد أن أفضل طريقة لتقوية أولئك من هم داخل الإسلام ودفعهم إلى مواجهة المتطرفين هو ملاقاتهم في منتصف الطريق. أريد هنا أن أشرح ما أعنيه بهذا الكلام، لأنه يكمن في أساس مآزقنا السياسية.

يسود الاعتقاد بأن موقف بوش/ بلير كان خاطئاً لأنه فضّل المواجهة في وقت كان من الأنسب فيه التواصل معهم. يعتقد كثيرون أن أفغانستان كانت صراعاً مبرراً، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى العراق. تسبّبت مشكلة العراق بحدوث انشقاق أوسع بين الغرب والإسلام. يُقال إن العراق قد جعل الأمور أكثر صعوبةً بالنسبة إلى حلفائنا في تدعيم موقفهم داخل الإسلام من أجل مواجهة المتطرفين. حدث الأمر ذاته بالنسبة إلى سياستنا مع إسرائيل التي نظر إليها كثيرون على أنها منحازة إلى جانب واحد، وهي تعزز وجهة النظر القائلة إن الغرب معادٍ للإسلام بطبيعته. يُنظر إلى استبعادنا العراق من الاتحاد الأوروبي بطريقة مشابهة.

كان خطاب الرئيس أوباما في القاهرة في حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٩، خطاباً رائعاً في عرض مسألة التعايش السلمي إذ أرسى دعائم نهج جديد. أما إذا أُعطي الرئيس الدعم والشراكة اللذين يحتاج إليهما فسيتحول إلىً نهج يمزج بين القوة الصلبة والقوة اللينة بفاعلية. أكد الخطاب على التشدد بالنسبة إلى أفغانستان، لكنه تمكّن من الوصول إلى قلوب الناس. أوضح الخطاب أن يد الصداقة سوف تمتدّ حتى إلى سوريا وإيران، وهكذا كان الخطاب نوعاً من الاعتذار، وهو اعتُبر كذلك. كان المغزى الكامن في الخطاب على هذا النحو: كنا في السابق عديمي الاحترام ومتغطرسين، أما الآن فسنقدّم الكثير من الاحترام هذا إذا لم نكن متواضعين.

أما المشكلة مع هذا الكلام فهي: تقديم الاحترام لأي شيء بالتحديد؟ يريد الرئيس أوباما القول إنه يريد تقديم الاحترام للدين الإسلامي، وهو أمر صائب بطبيعة

الحال، لكن ذلك يجب أن لا يعني تقديم الاحترام للمبادئ الأساسية التي يُدخلها كثيرون سياساته هذه الأيام.

تكمن هنا جذور المشكلة. إن المتطرفين هم قليلو العدد، لكن معتقدهم – الذي يرى أن الإسلام ضحية الغرب الحاقد من الخارج، وأن القيادات الدينية ليست مؤهلة من الداخل – متجذّر بشدة. إن هذا هو الخطّ الذي يشعر عدد كبير من القادة السياسيين بضرورة مسايرته خوفاً من فقدان الدعم الذي يتمتعون به.

لهذا الوضع عواقب عملية، إذ يُنظَر إلى العراق وأفغانستان على أنهما معارك الغرب، ولا يُنظر إليهما، على الرغم من استثناءات قليلة، على أنهما صراع من أجل قلب الإسلام وروحه. أما النتيجة فهي عاملٌ حاسم جداً في صراعٍ كهذا.

إنني أنتقد إسرائيل في عدة مجالاتٍ، كما سبق لي أن بيّنت في الفصول السابقة كيفية إحراز تقدّم في عملية السلام. أريد أن أضع جانباً، ولو لفترة، تفاصيل عملية السلام. فوجئت أثناء تمضيتي لوقتٍ أطول في فلسطين عندما لاحظت أن جمع المال «للمقاومة» هو أسهل بكثير من تمويل عملية إقامة دولة فلسطينية، وهي العملية التي تتطلب وقتاً لكنها ضرورية جداً. يُمكن لإسرائيل، بل يجب عليها، أن تبذل جهداً أكبر في إجراء التغييرات الضرورية على الأرض – في الضفة الغربية وغزّة – وهي التغييرات التي يمكنها تثبيت عملية السلام. أعتقد أن من الصواب القول إن القضية الفلسطينية إذا تخلت عن العنف بشكلٍ نهائي وصريح، فسيمكننا عندئذ التوصل إلى اتفاقية سلام في غضون سنة واحدة، لكنني لاحظت أن الأصوات في العالم الإسلامي التي تدعوهم إلى ذلك ليست كثيرة.

تقود أميركا الآن المواجهة مع إيران وطموحاتها النووية. لكن إذا أردنا أن نكون صريحين فأقول إن إيران تشكّل خطراً داهماً على جيرانها العرب أكثر من الخطر على أميركا. تشكل إيران خطراً علينا بطبيعة الحال، لكن ذلك يرجع جزئياً إلى ما يمكن أن تعنيه إيران النووية للشرق الأوسط، وذلك بدلاً من أن تكون خطراً مباشراً علينا.

أما المشكلة فهي على النحو التالي: إن إلحاق الهزيمة بالأشكال الظاهرة والمرعبة للتطرف الديني ليس بالأمر الكافي. أريد الذهاب أبعد من ذلك كي أقول: لن تلحق الهزيمة بهذا التطرف عن طريق التركيز على المتطرفين لوحدهم. يتعيّن

علينا مواجهة المفاهيم [المتطرفة]، وتأكيد ذلك، والإقرار به، والتزامه داخل الإسلام وخارجه. لا يتعيّن علينا احترام هذه المفاهيم [المتطرفة] بل مواجهتها، والاختلاف معها، ومناقشتها على أساس السياسة، والأمن، والدِّين.

إذا تابعنا مناقشة هذه القضية بثقة وبإقناع فإن ذلك سوف يعطي القوة إلى الذين هم داخل الإسلام الذين يعرفون أن هذه هي الحجّة الصائبة لكنهم يتردّدون في تبنّيها. إنهم يتردّدون لخوفهم من أن يُتركوا وحدهم، وذلك لأننا نحن في الغرب، الذين نُعتبر حلفاءهم، سواء أكان ذلك علانية أم من وراء الستار، نجد أن التأمل في هذه المعركة هو عملية صعبة جداً، وبائسة، وفوق ذلك كله طويلة جداً.

يعود بي ذلك مجدّداً إلى أفغانستان، على الرغم من أنني أريد القول ذاته عن العراق. إن ما يحدث في أفغانستان هو أمر في منتهى البساطة في حقيقة الأمر: يعتقد أعداؤنا أنهم سيبقون بعدنا. لكنهم ليسوا وحدهم في هذا التفكير، لأن أصدقاءنا يفكرون بهذه الطريقة كذلك. أما الناس العاديون فإنهم يفكرون بهذه الطريقة: يجب أن نعقد سلاماً مع الباقين، وليس مع الماضين. يبدو من المنطقي بطبيعة الحال أن نضع جدولاً زمنياً لترك البلاد وتسليم المسؤوليات إلى الأفغان، لكن ذلك يجب أن يكون من منطلق القوة بحيث تكون قدرة الأفغان على تسلّم المسؤولية حقيقية.

يسأل المواطن العادي عندنا: «إلى متى تظنون أنكم تستطيعون الصمود؟» في الخمسينيات من القرن الماضي عندما واجهنا خطر الثورة الشيوعية سألناكم كم من الوقت تتوقعون أن نجابهها، فأجبتمونا: ما دام ذلك التهديد مستمراً. أما لو قلت إن الأمر قد يستغرق عقوداً من الزمن فلعلك ترفع حاجبيك وكأنك تريد أن تقول: حسناً، إذا كان التهديد سيستمرّ لعقودٍ من الزمن، فما هو الخيار الذي بحوزتنا؟ يعني ذلك بكلمات أخرى، وكأنك رأيت في ذلك تهديداً محدداً وواضحاً لأمننا بحيث لا يترك لنا أي خيار آخر غير مواجهته وإلحاق الهزيمة به. هناك أناس بطبيعة الحال قالوا: «الحرج ولا الموت»، لكن ذلك بالتأكيد كان أقلّ الشعارات جاذبيةً بالنسبة إلى الروح الإنساني من بين تلك التي ظهرت، كما أن أقلية من الناس قد اقتنعت به. أدرك معظم الناس أنه تهديد حقيقي وينبغي مواجهته بغضّ النظر عن طول المدة.

تكمن الصعوبة في هذه المعركة الحالية في تعريف ماهيتها. استُخدمت عبارة

«الحرب على الإرهاب» بعد ١١ أيلول/سبتمبر. نظر الناس بعين الشك إلى هذا الشعار. يعود ذلك جزئياً إلى أن هذا الشعار محدودٌ جداً. هذا هو السبب الذي دَفَعَنا إلى التخلي عنه. لكن إذا كان ما نخوضه ليس حرباً فما هو إذاً؟

إن التهديد واضح بما يكفي: هناك أنظمة الدمار الشامل بين أيدي الذين يُمكنهم أن يشنّوا حرب الدمار الشامل. إذا أمكن لهؤلاء الحصول على جهاز نووي خطير فسوف يستخدمونه. لكن التهديد يتجاوز ذلك. تمتلك تلك الحركة كذلك القدرة على زعزعة الحكومات واحتلال البلدان، وبعض هذه البلدان يُعتبر ضرورياً جداً لمصالحنا الاستراتيجية والأمنية، ليس بالمعنى الأناني للمصالح فقط بل بالنسبة إلى المجتمع العالمي أيضاً. هذا هو السبب الذي يجعل من إيران بلداً مهماً لنا. إن إيران التي تمتلك قنبلة نووية ستشجع بلداناً أخرى في المنطقة على امتلاك القدرة ذاتها، مما سيغيّر ميزان القوى كثيراً في المنطقة، وكذلك داخل الإسلام [البلدان الإسلامية]. يُضاف إلى ذلك الحرب الحقيقية الدائرة في أفغانستان.

أعتقد كذلك أن التهديد يتجاوز ذلك. إن [الإرهاب] يماثل الشيوعية الثورية في كونه حركة متطرفة، وليس مجرد سلسلة من الأعمال المتطرفة. لا يبدأ الأمر بميدان المعركة، بل يبدأ بالمدرسة، كما أنه لا يبدأ بحديثٍ عن الأسلحة العسكرية، بل بحديث عن الدِّين. يتعيّن على المرء مواجهة رجال الدِّين الذين يشجّعون على التطرف، ومنهم من هم متورطون في النشاط الإرهابي، بالإضافة إلى تعزيز قوة رجال الدِّين الذين يقفون إلى جانب الصواب. لا تتولد العقيدة هنا من الرغبة في السيطرة العسكرية، بل من وجهة نظرٍ تستند إلى الإيمان بإرادة الله. لا يتعيّن علينا هنا تفكيك النصوص [التي تدعو إلى التطرف] بصورةٍ منهجية، بل العقيدة [المتطرفة] كذلك، وأن يجري ذلك كما بُنِيَت، أي بطريقة منهجية.

علينا ربط ما يحدث عند انفجار آخر سيارة مفخّخة في كابول أو بغداد بما تعلّمه المدارس (الدينية) في باكستان، أو بحقوق المرأة في اليمن. إننا نحتاج إلى هجوم ديني مضاد، وليس إلى مجرد هجوم سياسي مضاد. إن العراق هو مجرد جزء من هذه الصورة، وكذلك هو حال أفغانستان، وكذلك هو حال الذين يموتون في الفليبين، وبومباي، وكشمير، والشيشان، وكراتشي، وفي كل مكان تصل إليه هذه العقيدة [المتطرفة] مهما كان بعيداً.

يعني ذلك أن الإجابة عن سؤال: «كم سنصمد؟» هي: «سوف نصمد طالما كان ذلك ضرورياً من أجل إلحاق الهزيمة بالتطرف». يستدعي ذلك خوض غمار القتال في بعض الأحيان، كما يستدعي ذلك الوعظ [أو التبشير]. يعني ذلك في أحيانٍ أخرى عملية السلام، أي كما هي الحال مع القضية الإسرائيلية/ الفلسطينية (لا أعني هنا قضية التطرف لكن تلك الأداة القوية التي هي بحوزة المتطرفين). يتعيّن علينا مواجهة هذه الظاهرة، وإلحاق الهزيمة بها على المستويات جميعاً، وفي كل مكانٍ من أماكن وجودها، وبين الشعوب المختلفة، وفي السياقات السياسية كافة.

علينا كذلك حشد القوى المعتدلة داخل الإسلام ودعمها، أي دعم أولئك الذين يعتنقون التعايش السلمي. لكنّ الأهمّ من ذلك كله هو أنهم يحتاجون لأن نكون أقوياء، وأن نُظهر التصميم، ويجب أن نبرهن كذلك على أننا نخوض هذه الحرب من كل قلوبنا وأرواحنا. إن ما يخشونه هو أن نكون ضعفاء، وذلك أكثر مما يخشون أن نكون أقوياء.

إننا نحتاج إلى إقناع الآخرين بوجهة نظر أوباما (أو كلينتون)، وكذلك، ببساطة، بنهج بوش (أو ريغان). إننا نحتاج إلى بناء قضية فكرية، وإلى تنظيم ذلك كله بطريقة لبقة، وأن نقرنه بقدرة قوية على المواجهة. هذا هو الوقت المناسب للقيام بذلك كله. أدركنا بعد هذه السنوات كلها التي مرّت بعد ١١ أيلول/سبتمبر أننا لم نتخلص بعد من ذلك التهديد، وأننا لن نتمكن من قهره بسرعة، فضلاً عن أنه ما زال يشكّل تهديداً لنا. أما المسألة فهي على هذا النحو: هل أدركنا أن لا خيار لنا غير إلحاق الهزيمة بهذا التهديد، وهنا تغدو المسألة الأساسية كيف نفعل ذلك؟

علينا في هذه الأثناء أن نجدّد الثقة بطريقتنا في الحياة وبالقيَم التي تمثّلها. لا توجد قضية تتعلق بأمننا القومي أكثر بساطةً مما كانت عليه معركتنا ضد الشيوعية أو الفاشية. أدركنا في تلك المعارك أننا كنا نحارب ليس من أجل حرية بلداننا فقط، بل من أجل حرية الإنسانية جمعاء، ومن أجل الفكرة القائلة إن الطغيان والتطرف هما عدوّا الجنس البشري، وليس البلدان المعنية فقط. كنا نستلهم عندما خضنا تلك المعارك ما يتجاوز الرغبة في الفوز، لكننا كنا نستوحي معتقداتنا، وحماسة نابعة من اهتمامنا بالتقدم، ومن دفع قوى الظلام إلى الظلمة مجدّداً وهو المكان الذي ينتمون إليه.

إننا نحتاج إلى بعض ذلك الإلهام والحماسة الآن. إننا حين نقرأ أخبار السيارات المفخّخة التي تنفجر في الشوارع المزدحمة، وفي أي جزءٍ من العالم، فيجب أن لا يكون ردّنا هو اللامبالاة أو اليأس، بل يجب أن يكون هذا الرد نابعاً من الجرأة، والاستياء، وفوق كل شيء من التصميم.

على أميركا وأوروبا أن تقفا معاً، وعلينا أن نواجه معاً، كما علينا أن نمضي بالتواصل مع القوى الجديدة وإقناعها بالانضمام إلينا. ليس هناك من تحدّ يواجه العالم الآن، مهما كان بسيطاً ويمكننا مواجهته، إذا ابتعدت الولايات المتحدة عن الاتحاد الأوروبي. لا يقتصر الأمر على التحدي الذي يمثله الاقتصاد، وبالتأكيد ليس على التهديد الأمني. إن بنية القوى الجيوسياسية تتغيّر بطبيعة الحال. ستطالب الصين، والبرازيل، وروسيا، وبعد ذلك إندونيسيا، والمكسيك، ودول أخرى، وبحق بأن تعامَل على قدم المساواة وكشركاء. لكن هذه الدول لا تتقاسم المصالح أو الآراء ذاتها بطبيعة الحال. ستكون هذه التحالفات مختلفةً في كل حالة، لكنها لن تكون ذات فائدة إذا كانت أوروبا وأميركا على خلاف، وفي هذه الحال لن تسهل أبداً ملاحظة الفرص، ولا مواجهة التحديات.

إنني أعتبر أن اللامبالاة تجاه تدهور العلاقات التي تربط ما بين دول جانبَي مياه الأطلسي، تدعو إلى الصدمة. يخيّم عليّ شعورٌ بأن ذلك يعود إلى حقبة مضت منذ زمنٍ طويل. إن هذا الوضع يسيئ فهم الطريقة التي يتغيّر بها العالم، أو لعل من الأفضلِ أن ننظر إلى القضية على نحو مقلوب.

يُقال إن قوى جديدة تظهر على الساحة، وإن ذلك يفرض علينا تقوية العلاقات مع هذه القوى، كما يقلّل من الحاجة إلى العلاقة القديمة. نستنتج بالنظر إلى تغيّر القوة النسبية لأوروبا وأميركا أن ذلك يجعل من المنطقي أن تتحد القوتان، علاوة على أن الاتحاد الأوروبي ضروري لزيادة قوة كل بلد أوروبي على حدة، وهكذا يصبح من الضروري أن تعمل الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي معاً.

ربما لم نستوعب بعد الأهمّية الحقيقية لنهوض الصين (أو أهمية نهوض الهند في الواقع). إنني أسافر إلى الصين مراتٍ كثيرة. هناك عدة نقاط غامضة بشأن وضع الصين في المستقبل، كما أن أولئك الذين هم على صلة شديدة بالقرارات يعيشون في

حالة من عدم اليقين. لكننا نعرف بعض الأشياء: تنفتح هذه البلاد بسرعة استثنائية. يعرف الجميع أن قوة هذا البلد الاقتصادية والسياسية الهائلة ليست إلا جزءاً ضئيلاً مما ستكون عليه في المستقبل. يتميز سكان ذلك البلد بالذكاء، والتصميم، بالإضافة إلى افتخارهم الشديد ببلدهم. إن تنوع المجموعات العرقية، والتنوع في مختلف أنحاء البلاد، ومدى تحدي التنمية الذي يتعذّر تصوّره تقريباً، هي كلها أمور مفهومة على الرغم من صعوبة تصوّر عواقبها. لكن إرادة التغلّب على هذه التحديات، والرغبة في عدم السماح للصين بأن تنزلق إلى غياهب المجهول، تحدّدان شخصية البلاد وقيادتها.

يتوجّب علينا عرض الشراكة على الصين لأنها في مصلحة البلدين. إن الشركاء الأقوياء هم أفضل من الشركاء الضعفاء. أما الغرب المقسّم الذي يتنافس على الغنائم مع القوى الجديدة فلا يشكّل وضعاً منطقياً بالنسبة إلى أي شخص.

أما بالنسبة إلى أوروبا فإن صعوبة الخيارات والتحديات هي أعظم بكثير. إن الجدال حول معاهدة ليشبونة وصل الآن إلى مرحلة القرارات الصريحة. لا يتعلق الأمر هنا بإجراءاتٍ جديدة يحب الأوروبيون أن يتجادلوا بشأنها إلى ما لا نهاية، بل بتوجيهاتٍ بشأن السياسات المتبعة. يعني ذلك أن أوروبا إذا أرادت أن تكون قويةً وقادرةً على أن تكون شريكة مع الولايات المتحدة، والصين، ودولٍ أخرى، وأن تكون مغرية كشريك، فعليها التركيز على قراراتٍ أساسية محددة.

عليها أولاً أن تستفيد تماماً من الأزمة الحالية من أجل إعادة تعريف نموذجها الاجتماعي، وتنسيق سياستها المالية والنقدية، وتحرير السوق الواحدة وهكذا يمكنها الاستفادة من فوائد التماسك الأوروبي. على أوروبا كذلك أن تنسّق الموازنة بحسب الأولويات، وذلك بدلاً من تنسيق الأولويات بحسب الموازنة.

ثانياً، على أوروبا تكوين سياسة دفاعية حقيقية يمكنها التركيز على قدرات المواجهة. تحتاج أوروبا إلى أن تكون قادرةً على حشد أعداد كبيرة من الجنود بالإضافة إلى احتياطات لوجستية وتكنولوجية، ويكون ذلك كله مترافقاً مع الإرادة، والرغبة، والقدرة، على مشاغلة العدو في قتال من نوع جديد من حرب العصابات والعمليات الإرهابية. لا يتطلب ذلك التنظيم والتعاون فقط، بل إجراء نقاشات

داخل مجتمعاتنا حول كيفية مواجهة الالتحام العسكري، وعلى الخصوص الخسائر [البشرية] التي لا بدّ أن نواجهها في حالة المواجهة المباشرة. إن أكثر من يستوعب هذه الأمور هم الرجال والنساء الذين هم على استعداد لمواجهة المخاطر ويمتلكون الإرادة على خوضها، وهم الذين يستحقّون المكافأة لأجل ذلك.

ثالثاً، ستستفيد أوروبا كثيراً، سواء اقتصادياً أو فيما يتعلق بالقيادة، وذلك عندما تتبنى سياسة مشتركة تجاه الطاقة. لا تُعتبر الشبكة الموحّدة [في أوروبا] أمراً مستحيلاً، كما أن الوفر سيكون كبيراً جداً. أما الفروق بالنسبة إلى السياسات المتبعة حيال الطاقة النووية على سبيل المثال، فيمكن التغلب عليها عن طريق قبول حتمية وجود هذه الفروق، لكن تبقى مع ذلك مجالات متعددة للتعاون. سيسفر هذا الأمر عن خفضٍ كبيرٍ في الأكلاف بالنسبة إلى الشركات والمستهلكين على السواء.

رابعاً، تمتلك أوروبا حدوداً مشتركة، وهي لذلك تواجه تهديداً مشتركاً في الهجرة غير الشرعية والجريمة المنظمة. لا يتعلق الأمر بأنظمة شينغين الخاصة باللجوء والهجرة، بل بالتشريعات العملية والتعاون في مجال الأمن الداخلي. أما الأهمّ من ذلك كله فهو أنها تتعلق بنهج متفقٍ عليه: أن تبقى مجتمعات مفتوحة خاليةً من التمييز العنصري، لكنها محتفظة بالتصميم على فرض القوانين والأنظمة في نظام من شأنه تعزيز الخوف من الأجانب إذا كان نظاماً يقرّر عشوائياً من يحقّ لهم الدخول ويطبق ما يقرّره.

خامساً، تمتلك أوروبا جامعات كانت في مقدّمة الجامعات في العالم. إن عدد الجامعات الأوروبية التي تحتل مكاناً ضمن أفضل خمسين أو مئة جامعة في العالم يُعتبر صفعة استثنائية لقدرتنا على التحديث. سترغب كل دولة في تقرير سياستها الخاصة بها، لكن يُمكن لأوروبا أن تستفيد كثيراً إذا ما اتفقت على مبادئ أساسية معينة للإصلاح، والبحث، والتعاون، وعلى الأقل بين مجموعات النخبة، واستخدام اتفاقية كهذه من أجل بناء الرأسمال الفكري الذي تحتاج إليه أوروبا كي تتمكّن من التنافس. تعتمد الاقتصادات الناجحة هذه الأيام على مؤسسات التعليم العالي الريادية. أما إذا ذهبنا إلى كاليفورنيا فسوف نرى كيف ولماذا وُجد وادي السليكون.

أريد الآن تقديم خمسة توجهات في السياسة، لكن دعونا نفكّر في الفروق

الناتجة من إدخالها إلى أوروبا، ليس بالنسبة إلى اقتصادها فقط، بل إلى مركزها، وقناعاتها، وثقتها بالنسبة إلى المستقبل. يتعيّن على أوروبا أن تتوقّف عن التفكير مثل دولة صغيرة، وأن تبدأ بالتفكير مثل دولة كبيرة. لا يتعلق الأمر هنا بالدول الأوروبية الصغيرة منها والكبيرة، والواقع أن الدول في أوروبا كما هي هذه الأيام جميعها صغيرة بالنسبة إلى القوى الجديدة. هذا هو سبب حاجتنا إلى أوروبا أكبر وأقوى بحيث تكون أكثر قدرةً على ممارسة النفوذ والتأثير في الأحداث. لا أقول إن هذا هو تحليل يستند إلى درس سياسي هام، بل هو درس واضح وصريح، ولا يحتاج إلى برهان منذ الاجتماع الأول الذي عُقد في أحد كهوف هولندا. إن أصحاب السلطة هم الذين يُحسب لهم حساب، أما الذين هم خارج دائرة السلطة والنفوذ فلا يُحسب حسابهم. لكن أكثر أمرٍ حماقة هو أن يمتلك المرء هذه السلطة من دون أن يعرف أنه يمتلكها، أو أن يكون قادراً على امتلاكها من دون أن يمتلك الجرأة على ممارستها.

أين هو موقع بريطانيا من هذا كله؟ لا أريد الآن تكرار ما تعلّمته في الفترة ما بين ١٩٩٧ و٢٠٠٧، لكني أريد التركيز على الفترة ما بين ٢٠٠٧ و٢٠١٠. أولاً، لماذا خسر حزب العمال انتخابات العام ٢٠١٠؟

أخشى أن تكون الإجابة واضحة عن هذا السؤال. فاز حزب العمال عندما كان حزب العمال الجديد، وخسر عندما توقّف عن كونه حزب العمال الجديد. لا يتعلق الأمر بغوردون براون كفرد. صحيح أنه شخصٌ غير مناسب ليكون النموذج الحديث عن الزعيم الذي يستخدم التمحيص السياسي ويعمد إلى تشريح [التدقيق] الشخصيات كافة بصورة دقيقة. لم يكن غوردون قط ذلك النوع السياسي العادي من الرجال. سبق لي أن قلت في مكانٍ آخر إنه لا يحتاج لأن يكون كذلك. يمتلك غوردون نقاط قوة: فهو يُعتبر من النوع الذي يعمل بجدّ كبير، كما يمتلك حدساً قوياً، إنه ذكيّ، ويمتلك بالتأكيد التزاماً قوياً تجاه البلاد. واصل الرجل نهج حزب العمال الجديد، لكن القضايا الشخصية جعلت من الفوز أمراً صعباً، مع أنه ليس مستحيلاً، لكن الابتعاد عن حزب العمال الجديد جعله كذلك. كان فوزنا في انتخابات العام ٢٠٠٥ أمراً مؤكّداً، أما في انتخابات العام ٢٠١٠ فكان غير مؤكد على الإطلاق، وذلك بسبب ذلك القرار الاستراتيجي، سيئ الذكر، بالتخلي عن موقع حزب العمال الجديد.

ربما يستغرب بعض الناس الأمر عند هذه النقطة. هل تخلينا عن حزب العمال الجديد؟ ألم يكن غوردون في معسكر حزب العمال الجديد، وخصوصاً بعد عودة بيتر مندلسون؟ تراوح الإجابات بين نعم ولا، وإليكم الأسباب.

كانت الأزمة الاقتصادية، ويا للمفارقة، بمثابة الفرصة. انتهزنا هذه الفرصة في البداية. قدّم غوردون أفضل ما عنده في هذه النقطة، وكان ناشطاً من الناحية الفكرية، ومدفوعاً بالكامل، وواثقاً بخطواته، كما كانت الخطة التي وضعها للمصارف مناسبة.

قرّر غوردون عند هذه النقطة أن تغيّراً قد طرأ على النموذج، وهكذا اقتنع بنظرية ما يسمّى «عودة موضة الدولة» الكينزية، التي بدت وكأنها عادت إلى السيطرة. كان ألاستير دارلنغ وزير مالية ممتازاً، لكني سأخاطر بالقول إنه لم يحصل على فرصة لتطبيق السياسة التي أرادها. كان السقف الأعلى للضريبة قد رُفع إلى ٥٠ بالمئة، كما بيّنت الموازنة Budget العودة إلى سياسة الضرائب والإنفاق، أما في العام ٢٠١٠ فكان رفع اشتراكات التأمينات الوطنية هو الطريقة التي اتّبعت من أجل مواجهة العجز، كما تم اتخاذ قرار للمواجهة على أساس الاقتطاعات [من الضريبة] مقابل الاستثمار. أما في مجالاتٍ أخرى مثل البرنامج الأكاديمي فقد تقلص الاهتمام به، كما أن الاندفاع في مجال الإصلاحات في الخدمات العامة قد ضعُف كثيراً، وكذلك حدث مع الجريمة والسلوك الجرمي حتى وقتٍ متأخرٍ جداً. أما الإصلاحات في مجال بطاقات الهوية، وهي الحل الوحيد لمشكلة الهجرة، فقد تراجعت كثيراً.

ما هي الأمور التي كان بإمكاننا أن نفعلها؟ سبق لي أن اقترحت في معرض تحليلي للاقتصاد أن الواجب علينا كان اتّباع طريقة حزب العمال الجديد من أجل الخروج من الأزمة الاقتصادية: أي إبقاء التنافسية في نِسَب الضرائب المباشرة، وتبنّي سياسة الرفع التدريجي للقيمة المضافة والضرائب غير المباشرة الأخرى من أجل إنهاء العجز، واستخدام الأزمة من أجل دفع الإصلاحات قُدُماً وبوتيرة أسرع.

أعتقد أن برنامجاً كهذا هو صائب من الناحية الاقتصادية، كما أن طريقة تنفيذه واضحة جداً. أما ما حدث في العام ٢٠١٠ فهو أننا أبطلنا تحالفنا. أعتقد أننا فعلنا ما يكفي خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية لتجنب الفشل. زاد دعم الحزب في بعض المناطق، لكن في المناطق الوسطى الأساسية، التي قدّمت لنا عدداً من

المقاعد في هوف، وهاستينغز، وكلاولي، ودورسيت فقد سجل الحزب تراجعاً كبيراً. لم تكن هذه المناطق تثق بالمحافظين في حقيقة الأمر، لكنها كانت متأكدة من أمرٍ واحدٍ بشأننا: عدنا لنكون حزب العمال القديم. أما المضحك هنا فهو أن المعلقين السياسيين لم ينظروا إلى الأمر على هذا النحو على الدوام (انشغلت وسائل الإعلام بالجدالات الدائرة في المحطات التلفزيونية)، كما أمكن للمرء أن يستنتج من تغطية النشرات الإخبارية أن الضرائب والإنفاق يكونا مسألتين هامتين. لكنّ الجمهور كان متأكداً من ذلك. أدرك الناخبون أن على أي حزبٍ يفوز في الانتخابات أن يتخذ إجراءات صارمة. أما دافعو الضرائب وذوو الطموح، ومن يوافقون حزب العمال على التعاطف الاجتماعي، لكنهم يريدوننا أن نكون أكثر استجابةً لرغبتهم في إنفاق أموالهم، فقد اعتقدوا أن المحافظين سوف يكونون أكثر تساهلاً معهم.

كان من الواضح أننا خسرنا على غير صعيد. علمت أن اللعبة قد انتهت بالنسبة إلينا عندما أبرز المحافظون نحو ثلاثين من كبار المدراء التنفيذيين في التأمينات الوطنية [الضمان الاجتماعي]. انتظر بعض المعلقين ردّ حزب العمال بمجموعته الخاصة به. اتصلت ببيتر هاتفياً، وسألته عن مجموعتنا الخاصة من كبار المدراء. قال لي: «لا. إنهم لا يريدون التصريح بوجهة نظرنا». أما الأمر المهمّ من الناحية السياسية فهو على النحو التالي: كانت مشكلة حزب العمال هي أن المحافظين سيعرّضون عملية تعافي الاقتصاد للخطر. لكن إذا تقدم ثلاثون من كبار المدراء التنفيذيين، الذين يوظّفون آلاف الأشخاص في شركاتٍ تساوي مليارات الجنيهات، وقالوا إن حزب العمال هو الذي سوف يعرّض الاقتصاد للخطر، فمن سيصدّق الناخبون؟ أما الإجابة عن هذا السؤال فهي أن الناخبين سيصدقون كبار مدراء الشركات التنفيذيين. أعرف أننا سوف نخسر أكثر من عددٍ قليلٍ من الأصوات إذا خسرنا هؤلاء المدراء، أي إننا سنخسر صدقيّتنا الاقتصادية، وكذلك سوف تفشل مجموعة متنوعة من الاقتصاديين الأكاديميين، مهما كان تميّزها، في تعويض الفارق.

أما ما فعله الناخبون في نهاية المطاف، وبطريقتهم المدهشة، فهو أنهم انتخبوا الحكومة التي أرادوها. كانوا غير واثقين بالمحافظين، ولذلك صوّتوا بكثافة لمصلحة الليبراليين الديمقراطيين إلى جانب المحافظين وشجّعوهم على التعاون معاً. انتخب الجمهور نسخةً محافظةً من حكومة وسطية (أما نجاحهم في ذلك فهو أمرٌ آخر!)

سرت في ذلك الوقت شائعات كثيرة تحدثت عن احتمال نشوء تحالف بين حزب العمال والليبراليين الديمقراطيين. أما أنا فأرى أن هذا غير صحيح بالمرة. كان الناس سيرفضون هذا الأمر لأن أصواتهم لم تكن مع ذلك التحالف. برزت، من وجهة نظري، حقيقة موضوعية، وهي أن النقاط السبع التي تفصلنا عن المحافظين تعني هزيمتنا. أدى الخوف من الانهيار، الذي لم يتحقق، إلى جعل الهزيمة القاسية تبدو وكأنها نوع من الارتياح. لكن ذلك كله كان يعني استمرارنا في مواجهة يوم آخر.

أما الخطر الذي يهدّد حزب العمال في هذه الأيام فهو أن ينجرف، أو حتى أن يتحرك بثقة، نحو اليسار. أعتقد أن خسارتنا ستكون أكبر في المرة المقبلة إذا ما فعلنا ذلك. علينا أن نخلع عنا الاتجاه التاريخي لمواجهة الأسباب التي أدت إلى خسارتنا بصراحة وبصدق.

يُمكن للمرء بطبيعة الحال أن يشير إلى الإجهاد الذي أصاب الحزب بعد ثلاث عشرة سنة، وفقداننا للثقة بسبب قضية العراق، واستهلاكنا لطاقة الحزب الذي يترافق مع السلطة، لكن هذه العناصر ليست حاسمةً لوحدها. فاز حزبنا في العام ٢٠٠٥، أي بعد نشوب أزمة العراق، وذلك في وقتٍ كان من الصعب فيه على الناخبين التصويت لحزب العمال بزعامة رئيس حكومة قاد البلاد إلى الحرب، لينتظر خمس سنين أخرى كي يختار زعيماً غير متورط فيها. أظهر الفوز الذي حققه حزب المحافظين في العام ١٩٩٢ أن من الممكن لحزبٍ أن يفوز مجدداً على الرغم من تمضيته ثلاث عشرة سنة في السلطة. يُمكن لذلك أن يحدث، وهكذا كانت انتخابات العام ٢٠١٠ متماثلة بالنسبة إلينا مع انتخابات العام ١٩٩٢، وليس مع انتخابات العام ١٩٩٧.

إذا أراد حزب العمال العودة إلى السلطة، فسيتوجّب عليه أن يدرك السرعة التي غيّرت فيها الهزيمة المشهد السياسي. يعني ذلك أنه يتعيّن على المحافظين تسوية العجز وتحديد طبيعته، وهم يستطيعون فعل ذلك مع توجيه أصابع اللوم إلى الحكومة السابقة.

أما إذا اختار حزب العمال الركون إلى شعار «العداء للمحافظين والتواطؤ مع الليبراليين الديمقراطيين»، فربما يستفيد على المدى القصير مع أنه سوف يخسر أيّ إمكانية لأن يختاره الناخبون كحكومة بديلة. يتوجّب على الحزب، بدلاً من

ذلك، أن يكون أميناً على تاريخه في المجالات الكثيرة التي يتمكن فيها من فعل ذلك، لكن يبقى عليه أن يفسّر نقاط النقد المحقة التي تتناول فترة الثلاث عشرة السنة الماضية. يتعيّن على الحزب كذلك أن ينتقد مكوّنات برنامج تخفيض العجز الذي يتبعه المحافظون، ولكن من دون انتقاد اندفاعته. أعرف أن هذا هو أمر في منتهى الصعوبة. إن الأزمة الاقتصادية العالمية هي العامل الأساسي في اقتصادنا، بطبيعة الحال، ومثلما هي في كل مكان، ولهذا يتعيّن على الدول كافة تقليص إنفاقها والتكيّف مع الأوضاع الجديدة. ينبغي لنا مع ذلك أن نتقبل أن حماسة حزب العمال لتخفيض العجز البنيوي المحتمل potential structural، أو محوه، بدءاً من العام ٢٠٠٥ وما بعده، لم تكن كافية. إن عدم تبنّي نشرة الوفر [أو الادخار] الأساسية Fundamental Savings Review للعام ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦ كانت خطأً أكبر ما اعتقدته في ذلك الوقت. أما تحليل سلبيات وإيجابيات إعطاء أهمية كبيرة للتسليفات الضريبية فكان أمراً ضرورياً. إنني أورد هذا الكلام الآن، لكنه بدا صعباً على نحو غير معقول. لكننا إذا لم نفعل ذلك فلن نتمكن من الحصول على تحليل صحيح لما فعلناه بالطريقة الصحيحة، وما فعلناه بطريقة خاطئة، وكذلك لاتجاه الحزب هذه الأيام.

إن مهاجمة طبيعة التغييرات التي أجراها تحالف المحافظين والليبراليين الديمقراطيين على الإنفاق العام تتطلب عمقاً فكرياً وتصميماً أكبر، كما يتعيّن تفحّص كل بندٍ من البنود بعناية. وهكذا، على سبيل المثال، إذا انتقدنا، كما يجب علينا أن نفعل، تقليص الاستثمار في المدارس [قطاع التعليم] فسيتعيّن علينا أن نكون جاهزين لتوضيح المجالات التي نرغب فيها، أكثر من الحكومة الجديدة، في تجميع وفر أكثر أهمية. إن قيامنا بذلك هو أفضل من شنّ حملةٍ عامة على سياسة الحكومة ككل – «تهديد تعافي الاقتصاد»، والانتهاء بعد ذلك إلى المخاطرة بعدم تحقق تعافي الاقتصاد. صحيح أن سحب الحوافز في حالة كل بلد هو مسألة وجهة نظر دقيقة، لكننا إذا درسنا أرقام التوقعات التي تضعها الحكومة في المملكة المتحدة فسوف يتبيّن لنا أن الإنفاق العام بنهاية العام ٢٠١٤ سوف يظل بنسبة ٤٢ بالمئة من الناتج الإجمالي المحلي.

إن نهجاً كهذا هو نقيض النهج السهل لأحزاب المعارضة التي تجد نفسها

مدفوعة، بصورة لاشعورية ولاإرادية نحو المعارضة الشاملة، وهو المكان [السوق] الذي تتجه إليه أصوات الناخبين على المدى القصير، كما أنه الموقع الذي يُشعر الحزب بأكبر قدرٍ من الراحة، وهو الذي يستقطب أكبر قدرٍ من التهليل. أما المشكلة فهي أنه يقيّد المعارضة التي تبدو على المدى الطويل وكأنها غير مسؤولة، وقصيرة النظر، أو حتى مخطئة تماماً.

أما التحدي الحقيقي الذي يواجه التحالف فهو تحدّ بسيط: لا يتفق المحافظون مع الليبراليين في الواقع. يشعر المحافظون بأنهم في أفضل حالاتهم عندما يُسمح لهم بالعمل في مجالات كثيرة من مجالات السياسة الداخلية، مثل إصلاح قطاع التعليم. لكنهم يكونون في أسوأ حالاتهم عندما تمثّل سياستهم تسويةً صعبةً بين توجّهات حزب العمال القديم الفطرية التي يتبناها الليبراليون الديمقراطيون، وبين القرارات الصعبة التي يريد المحافظون اتخاذها بصورة فطرية. يصدق الأمر ذاته عندما يصرّ المحافظون والليبراليون الديمقراطيون على أن يكونوا أنصار «الحريات المدنية»، لكنهم ينتهون إلى الفشل في تهدئة مخاوف الجمهور المشروعة المتعلقة بالأمن.

إن للمحافظين، من جهة أخرى، مصلحةً مشتركة في الاستقرار. يرغب الليبراليون الديمقراطيون بشدة في لعب دور من يغيّر اللعبة. يمتلك الليبراليون الديمقراطيون كذلك مجالات، مثل أوروبا، يستطيعون فيها إحداث أثرٍ سليم في المحافظين.

إن المحافظين هم الحزب الوحيد الذي يمتلك عدة خيارات: يمكنهم العمل مع الليبراليين الديمقراطيين، وهو أمرٌ جيّد، أو يمكنهم التخلي عن هذا التعاون من أجل الحصول على تفويض على أساس أَنْ لا بأس في حكمهم، لكن يمكنهم تقديم نتائج أفضل إذا أُطلقت أيديهم أكثر. يُمكن لليبراليين الأحرار أن يتمسكوا بموقعهم، وإلا فسوف يُنظر إلى التحالف على أنه خطأ تاريخي.

لا يمتلك حزب العمال أي خيار سوى المحافظة على مصداقيته لوحده. يعني ذلك، برأيي، التمسك بموقفٍ متماسك بالنسبة إلى العجز. يعني ذلك أيضاً الحفاظ على مرونة كافية لمهاجمة الحكومة من اليسار إلى اليمين، وكذلك أن يكون الحزب مستعداً لتسلّم راية الحكم في أي وقت. يعني ذلك أن يحافظ الحزب على تنافسيته على الدوام.

أما نقاط ضعف حزب المحافظين فبقيت كما هي على الدوام: تميل سياساتهم نحو الطبقة العليا، التي تتشكل بشكل كبير بحسب هموم النخبة (وهذا هو السبب الذي يفسّر سبب نفورهم من تحركناً في موضوع السلوك الجرمي)، كما أن هذه السياسات مغالية في المحافظة، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالسياسة الخارجية.

على حزب العمال كذلك أن يركز انتباهه على تجديد الحزب، بطريقة حاسمة ومعاصرة. إنني أتمنى لو كان لدي الوقت الكافي كي أخصّصه لهذه المهمة عندما كنت رئيساً للوزراء، لكن رئيس الوزراء لا يتمكن من فعل ذلك أبداً. علينا أن نستغلّ فترة وجودنا في المعارضة من أجل إعادة هيكلة العضوية، وطرق الاختيار، وتقرير السياسات. يتوجب علينا كذلك مقاومة فكرة السماح للنقابات التي اندمجت حديثاً، وأصبحت أكثر تركيزاً، بالعودة إلى السيطرة على سياسات الحزب. أقترح كذلك مدّ جسور التعاون مع القوى التقدمية الأخرى في أوروبا وما بعدها، أي حيث يكون تمثيلنا محدوداً جداً في الحكومة في الوقت الحاضر.

يُمكن الاستنتاج من هذا الكلام أنني ما زلت أفضّل سياسة الطريق الثالث التقدمية، وما زلت أعتقد أنها تمثّل أفضل فرصة لنا، ليس بالنسبة إلى يسار الوسط فقط بل بالنسبة إلى البلاد برمّتها أيضاً، وفي واقع الأمر، ليس بالنسبة إلى المملكة المتحدة فقط بل بالنسبة إلى البلدان الأخرى كذلك.

أعرف أن أشخاصاً كثُراً من الجناح السياسي التقدمي، سوف يقرأون تحليل الأزمة المالية والتهديدات الأمنية، ويقولون: لكنّ هناك أشخاصاً في الجناح اليميني يوافقون على ذلك الكلام، إذاً أين الصبغة التقدمية فيه؟

إن الردّ على ذلك السؤال هو أمرٌ حيوي جداً بالنسبة إلى مصير السياسة التقدمية، حتى أنه أمرٌ حاسم. أولاً، ما الذي يجعل المرء تقدمياً؟ كنت سأقول: إنه الإيمان بالعدالة الاجتماعية. يعني ذلك استخدام سلطة المجتمع ككل من أجل توفير الفرص، والازدهار، والأمل بالنسبة إلى الذين يفتقدون هذه الأمور، والقيام بهذا ليس داخل حدودنا القومية فقط بل خارجها، وكذلك من أجل الحكم على مجتمعاتنا بحسب أوضاع الضعفاء، بقدر ما نحكم عليها بحسب أوضاع الأقوياء، وأن نقف في الأوقات كلها وراء مبدأ أن البشر جميعاً ذوو قيمة متساوية بغضّ النظر عن العرق

والدِّين، والجنس (أحب أن أضيف: والنشاط الجنسي)، أو القدرة، وأن لا ننسى الكفاح من أجل الذين هم في أسفل السلّم الاجتماعي، والفقراء، والمستضعفين، أي أولئك الذين نسيَهم الآخرون.

أريد التشديد هنا على أن هذه كلها هي قيَم، وليست سياسات. يُمكن لهذه القيَم أن تكوّن سياسات. حصل هذا عندما ضاعفنا مساعداتنا إلى إفريقيا بمعدل ثلاثة أضعاف، وذلك بالإضافة إلى إلغاء الديون، عندما كنت رئيساً للوزراء (وهو مثال على التعاون العظيم القائم بيني وبين غوردون، وأشهد أن له دوراً فيه). يصدق الأمر ذاته على الاستثمار في الصحة، والتعليم، والمدن الداخلية، وكذلك الحال بالنسبة إلى زيادة حقوق الأمومة، أو الزواج المدني، أو بالنسبة إلى الحد الأدنى للأجور، أو حتى العلاوات الشتوية للمتقاعدين. لكننا نتميّز بالقيم الثابتة، وغير القابلة للتغيّر، التي لا تتأثر بعوامل الزمن، وذلك بدلاً من تميّزنا بالسياسات المعرّضة بالضرورة للتلاشي والتغيير.

ثانياً، أعتقد أن من الصحيح القول إن ثمة أناساً من اليمين ربما يؤمنون ببعض هذه القيَم أو ببعض هذه السياسات كلها. يلتزم المحافظون هذه الأيام تقديم المساعدات والتنمية، وهم يفعلون ذلك كحزب، وليس كوزراء فقط. أقدم جورج بوش على مضاعفة قيمة برامج الولايات المتحدة لمكافحة فيروس آيتش. آي. في/ الآيدز. أعرف أيضاً أن بعض هذه البرامج تخترق اليسار واليمين. تستمرّ إدارة أوباما كذلك بالتزام ما التزمه بوش بالنسبة إلى المدارس الخاصة التي تموّلها الدولة، كما أن حكومة دافيد كاميرون تستمرّ بالالتزام الذي قدّمته بالنسبة إلى الأكاديميات، ولساركوزي وزراء اشتراكيون في حكومته اليمينية UMP. يعني ذلك بكلماتٍ أخرى أن البيئة السياسية أصبحت بيئةً مشتركةً كما هو الحال في البيئات الأخرى.

أما النقطة المهمة هنا فهي: هذا هو واقع الحال! كما أن ذلك ليس بالأمر السيئ، بل أعتقد أنه أمر جيد، كما أن الناس، بالمناسبة، تفهموا ذلك منذ وقتٍ طويل. إن تعريف الموقع الذي يقف فيه المرء نسبة إلى ما هو عكس وضع الشخص الآخر هو أمر ليس طفولياً فقط، بل هو بعيد جداً عما تمثّله السياسة هذه الأيام. ينبغي للتقدميين ألاّ يقلقوا، أو يشعروا بالخطر نتيجة لهذا التعايش. ينبغي لهم بدلاً من ذلك

أن يشعروا بالارتياح الكامل لهذا الوضع، وذلك لأنهم يمتلكون فرصة أكبر لتزعمه إذا شعروا بهذا الارتياح.

تكمن المخاطرة الحقيقية في واقع الأمر – سواء بالنسبة إلى اليمين أو إلى اليسار – في كون الأحزاب والناشطين التابعين لها باتوا في الوقت الذي فقدت فيه الجماهير حماستها إزاء الفواصل السياسية التقليدية، أكثر تعلّقاً بها. أما النتيجة فسوف تكون اختلافاً خطراً بين الأشخاص «العاديين»، والمتعصبين السياسيين «غير العاديين»، الذين لن يتسببوا إلا بكراهية الجماهير للسياسة.

بطبيعة الحال، قد تكون الفروق بين المحافظين وحزب العمال، أو الجمهوريين والديمقراطيين، كبيرة. لكن الأزمة المالية أضفت، إلى حدّ ما، بعض الغموض على هذه الفروق (على الرغم من شكي في انطباق ذلك على السياسيين أكثر من انطباقه على الناس). أما النقطة الهامة هنا فهي أن هذه الفروق ليست ضروريةً للسياسات التقدمية كي تبقى تقدمية. سيعمد التقدميون إلى دفع السياسات المشتركة [بين المحافظين والتقدميين] نحو الفئات الأفقر من الشعب، بينما يمتنع المحافظون عن ذلك. إن المرء لا يخسر هويته كتقدمي فقط لمشاركته في سياسات معينة مع المحافظين. إنه عالم جديد، ولا شك في أننا سنتعوده.

تكمن عبقرية باراك أوباما في استمالة الناس، وفي قفزه فوق الانقسامات الحزبية، والقيام بهما على نحو صريح. إن رغبة بعض النقاد هذه الأيام في إبعاده عن الوسط هي رغبة سخيفة، كما أن اعتناق السياسات الوسطية، ليس خيانة لأنه سبق أن وعد بها.

ثالثاً، برز خطٌّ فاصل جديد في السياسة يخترق الانقسام التقليدي بين اليسار واليمين. إنه الخط الذي أسمّيه «الانفتاح مقابل الانغلاق». إن بعض الأشخاص الذين يتبعون جناح اليمين يعملون في التجارة الحرة، بينما آخرون ليسوا كذلك. يصدق ذلك نفسه على اليسار. هناك أشخاصٌ من الجانبين يناصرون الهجرة، بينما آخرون يقفون ضدها. يفضّل بعضهم التدخل في مجال السياسة الخارجية، بينما آخرون لا يفضلون ذلك. يرى بعضهم في العولمة وبروز الصين، والهند، ودولٍ أخرى، بمثابة تهديد، بينما يرى آخرون في ذلك فرصةً كبيرة. نلاحظ في هذا

المجال رابطة مشتركة مع التجارة الحرة، ودعم الهجرة (مع ضبطها بطبيعة الحال)، والمواقف السياسية التي تسمح بالتدخل العسكري، والمناصرة للعولمة، لكنها تتبنى بطبيعتها «الانفتاح مقابل الانغلاق»، وليس «اليسار مقابل اليمين». إنني أؤمن بأن التقدميين يجب أن يكونوا أبطال المواقف المنفتحة، التي هي ليست صحيحة فقط بل في موقع المنتصر، الأمر الذي برهن عنه بيل كلينتون بصورةٍ قاطعة. يبقى ذلك الخط الفاصل خطأً مهماً في السياسة المعاصرة.

رابعاً، وهو العنصر الأصعب تكتيكياً بالنسبة إلى وسط اليسار، يتعيّن على التقدميين أن يكونوا فخورين بالسياسات التي تؤدي إلى الكفاءة، مثلما يفخرون بتلك السياسات التي تؤدي إلى العدالة. لماذا؟ يعود ذلك إلى أن الدروس المستقاة منذ العام ١٩٤٥ هي أن المسألة ليست في كون القيمة المؤثرة للمال من خلال الخدمات العامة فعّالة أم عادلة، وذلك لأنها عادلة. إذا أنفقتَ [كمسؤول حكومي] أموالاً أقل على البيروقراطية، فإن ذلك يعني أنك تنفق أموالاً أكثر على العناية الأساسية. أما بالنسبة إليّ فإنني أعتبر أن الإصلاحات في قطاعات العناية الصحية، والتعليم، والخدمات الاجتماعية، والتقاعد، كانت مستندة إلى الكفاءة [الفاعلية] والعدالة [الإنصاف]. إن الخدمات الأفضل هي أكثر إنصافاً كذلك. حرصت في السياق ذاته على استقلالية مصرف إنكلترا مثلما حرصت على تثبيت الحدّ الأدنى للأجور، وعلى تشجيع الشركات مثلما كنت حريصاً على إعطاء الناس [العمال] حق الانتساب إلى النقابات، وكنت حريصاً على النموّ مثلما كنت حريصاً على مواجهة الفقر. إن بعض تلك السياسات، حتى المشاعر هي أكثر ارتباطاً في بعض الأحيان باليمين، لكن مسؤولية ذلك تقع على عاتقنا نحن، وهي تشكل كارثة لنا في الواقع.

أريد الآن التركيز على دور الدولة خصوصاً، الأمر الذي يجعل من الأهمية بمكان عدم إساءة تفسير العواقب السياسية للأزمة المالية. أعتقد أن سياسات الدولة الكبيرة المتبعة هذه الأيام سوف تفشل في النهاية. أما إذا عرض المرء سياسة «الدولة الصغيرة مقابل الدولة الكبيرة» فإن سياسة الدولة الكبيرة سوف تفوز. يصدق هذا الأمر هذه الأيام حتى بعد الأزمة. يتعيّن على التقدميين تجاوز ذلك الخيار، وتقديم مفهوم عن الدولة يؤدّي فعلياً إلى تعزيز قدرة الناس على الاختيار بأنفسهم ولا يحاول الاختيار بدلاً منهم. يعني ذلك أن حجم الدولة سوف يكون أصغر، وأكثر

استراتيجية، لكنه سيكون نشطاً كذلك، وليس بالضرورة أن يكون شريراً كما يحب بعض من هم في اليمين أن يقولوا، إلا أنه سوف يخضع لإعادة تخطيط كي يتناسب مع العالم كما هو في هذه الأيام. مرّت الخيارات التي تقدّمها التكنولوجيا في ذلك العالم بثورة. يعني ذلك أن أي موقفٍ سياسي لا يستوعب هذا الوضع سيكون محكوماً عليه بالفشل.

أما أهمّ ما في الأمر فهو عدم ترك الناس في مأزق بين حلّ يقدّمه اليمين يُعتبر قومياً في أسوأ حالاته، ورجعياً من الناحية الاجتماعية ولا مبالياً بالفقراء من الناحية الاقتصادية، وبين حلّ يقدّمه اليسار الذي هو، ويا للأسف، وعلى الرغم من النيات الطيبة، صيغة أخرى من الرجعية حيث يجري الخلط بين الدولة ومصالح الناس. أعتقد أن الناس إذا واجهوا ذلك المأزق فستكون هناك مخاطرة حقيقية في توجّههم نحو اليمين. أما سياسة الطريق الثالث فهي المخرج الوحيد المفتوح أمام التقدميين من ذلك المأزق.

تبرز كذلك قضية التذمّر العام من السياسة، وهي مشكلة حقيقية في بريطانيا وفي أمكنة أخرى في هذا العالم. تمحورت هذه الظاهرة حول الفساد المفترض لنوابنا في البرلمان، لكن «فضيحة» نفقات النواب ما هي إلا رمز لكل ما هو خاطئ في الطريقة التي يُدار بها الجدال حول السياسة.

وُضع في الثمانينيات من القرن الماضي حلّ معقول لمسألة رواتب النواب، وهو الحل الذي وضعته لجنة مستقلة حملت اسم «هيئة مراجعة الوظائف العليا»، وقد اقترحت أن تربط رواتب النواب برواتب كبار الموظفين الحكوميين بدلاً من تصويت النواب عليها، كما يجب تحديد نفقاتهم بصورة صارمة. كان يُفترض أن يمرّر المجلس هذا الحل، لكنه جمّده في الوقت الذي فُرضت فيه قيود على رواتب القطاع العام. برز، بدلاً من ذلك، حلفٌ غير معلن: لا ترتفع الرواتب بحسب رابطٍ كهذا، بل سيُفرض نظام يشبه التقييم الذاتي الكامل على النفقات. كانت إساءة استخدام النفقات واضحة ولا يُمكن الدفاع عنها، لكنها قابلة للتوضيح. لكن مهاجمة نواب البرلمان على أساس أنهم جماعة من المبذّرين والمحتالين كانت أمراً يخلو من العدل ويسبب أضراراً كبيرة. أما الذي حدث في هذه الحالة، وكما يحدث مع كل حالةٍ من الغضب العارم، فهو أن الأبرياء، أو الذين هم على قدرٍ من البساطة، قد

دفعوا الثمن إلى جانب أولئك الذين تجاوزوا حدودهم. أعتقد أن من المخجل حقاً أن أحداً لم يدافع عن النواب، بل الأنكى أن الجميع تسابقوا لإدانتهم.

إنني أعتبر الأمر ضاراً لأنه يبعد كثيراً عن النقطة الأساسية. لا ترتبط المشكلة مع هذا الجيل الحديث من النواب بشخصياتهم. تدلّني تجربتي على أنهم، إجمالاً، يهتمون بمصلحة المجتمع، لكن مشكلتهم هي قلّة خبرتهم في الحياة العملية، ونقص كبير في الكفاءة عند النواب السياسيين، وذلك بالإضافة إلى الطبيعة الاستحواذية للأنشطة المطلوبة في المسار السياسي. إن النقطة الهامة التي يعتقد معظم الناس أنها هي القضية الأساسية، أي غياب الالتزام بدوام كامل في وظيفة النائب في البرلمان، هي عكس القضية المطروحة. تتلخص المشكلة في حقيقتها في أن معظم النواب الآن يدخلون ميدان السياسة من الجامعات، وسرعان ما يصبحون باحثين أو يعملون لمصلحة الأحزاب السياسية، ويُرشَّحون للانتخابات، ثم يدخلون البرلمان، وهكذا فهم لا يمتلكون أي خبرة أبداً في الحياة غير السياسية، وذلك بغضّ النظر عن مدى قدراتهم. سبق لي أن وصفت فترة السنوات السبع التي قضيتها كمحام متفرغ في القانون الصناعي والتجاري على أنها ثمينة جداً. تعلمت من هذه الفترة كيف يعمل الناس، والشركات الحقيقية، وكيف تسير الحياة الحقيقية.

هناك استثناءات لهذه القاعدة، لأن هناك أشخاصاً يحوّلون انتباههم في وقت لاحق من حياتهم نحو السياسة ويدخلون البرلمان، لكنهم هكذا بالضبط: استثناءات. يحمل هذا الوضع عواقبه بدوره: إن أفضل الوزراء هم الآن في مجلس اللوردات. أما المصدر الأساسي للوزراء ونواب البرلمان فقد أصبح محصوراً بشكلٍ محدد. أما إذا استمرّ هذا الوضع فلا بدّ أن نفكر إذا كان يجدر بنا انتقاء الوزراء من مخزون نواب البرلمان أو اللوردات. إننا نلاحظ جيداً أن الناس غير متهيئين على نحو فظيع لما تتطلبه الإدارات الكبيرة. أما نتيجة ذلك كله فهي وجود أشخاص أكفاء في السياسة لكنهم سيئون في مجال الإدارة.

يذكّرنا هذا الكلام بقضية أخرى: إن كون المرء سيئاً في السياسة أقل خطراً على المهنة السياسية من كونه سيئاً في الإدارة. يُعتبر ذلك مشكلة في ذاته. يُمكن للسياسي الكفؤ أن يستمر حتى مع كونه مديراً سيئاً، لكن المدير الجيّد سيجد من الصعب عليه الاستمرار في عمله إذا كان سياسياً سيئاً.

كنت أكتشف، على سبيل المثال، في كل مرة أحاول فيها استدعاء شخص من القطاع العام إلى الحكومة، أن قسماً من وسائل الإعلام يحاول على الفور إيجاد زاوية ما كي يبرهن أنه مشتبهٌ فيه بطريقة ما. إن الأشخاص المستعدين للتخلي عن الرواتب الكبيرة من أجل تخصيص وقتهم للخدمة العامة ينتهون إلى التعرض لاتهامات بمحاولة تثبيت أقدامهم في سلّم الفساد.

أعرف أن دور وسائل الإعلام في الديمقراطيات الحديثة يشكّل قضية يؤمن كل سياسي رفيع أعرفه بأنها جاهزة للمناقشة. ألاحظ، مع ذلك أن هذه القضية لا تخضع للمناقشة تقريباً، وذلك لأن وسائل الإعلام، إجمالاً، لا تحب المناقشات كما أنها تنتقد كل من يحاول البدء بمناقشة، كما أن السياسيين يخشون عواقب تحدي مصالح وسائل الإعلام القوية. إننا نعيش في بيئة مكتظة بوسائل إعلام تعمل ٢٤ ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع، وهكذا فإن غياب النقاش حول تأثير وسائل الإعلام، وتفاعلها مع السياسة أمرٌ يؤثّر في نوعية نقاشات الناس حول المسائل السياسية، وهو أمرٌ مدهش من الناحية الموضوعية، حتى ولو كان يسهل تفسيره من الناحية الشخصية.

يخضع كل منحى من مناحي الحياة، بما في ذلك السلطة، لقواعد قوية من الشفافية، والتمحيص، والمحاسبة، ما عدا واحداً: وسائل الإعلام. خضع السياسيون في السنين القليلة الماضية للمحاسبة عن طريق قواعد بشأن جمعهم للأموال، ومداخيلهم، ونفقاتهم، كما حدثت ثورة في مجال المعلومات. لكن المواطن العادي، على الرغم من ذلك، يعرف القليل أو لا شيء عن أولئك الذين يمارسون تحكماً في كل ما يجري في بريطانيا. يصدق الأمر ذاته على الوزراء في الحكومة، وكذلك على النواب العاديين.

لكن، سبق لي أن تحدثت عن هذا الموضوع، وسأجرؤ مجدداً على القول إنني سأشدد على النقطة ذاتها! إنها في الواقع جزء من مسألة أكبر بكثير، وهي على النحو التالي: (أعتقد حتى وأنا أكتب أن التحدث عن الموضوع غريب بعض الشيء، كما أنني لست واثقاً، حتى هذا الوقت، بفهمي عواقبها تماماً).

أعطتني فترة السنوات الثلاث التي قضيتها بعد تركي لمنصبي الوقت الكافي للتأمل في نظام حكمنا، وكذلك لدرس الأنظمة الأخرى. ليس لدي أي شك في أن

الديمقراطية هي النظام الأفضل، كما أن الهند تبقى النموذج المضيئ للدولة الكبيرة، التي لا تزال تعدّ دولة نامية، لكنها تمكنت من تكوين ديمقراطية حقيقية. أعتقد أن بعض الأشخاص من الذين يعيشون في أنظمة ديمقراطية يميلون إلى العجرفة لكوننا ديمقراطيين، وكأن المعاناة الموجودة في العالم هي وحدها كافية لإعطائنا حكومة جيدة.

أما الحقيقة فهي أن الديمقراطيات إذا أرادت أن تحكم بنجاح فإنها مضطرة لأن تكون موجودة لسبب يختلف عن المعاناة السائدة في أمكنة أخرى. تحتاج هذه الديمقراطيات كذلك إلى حيازة القدرات، والمؤسسات، والثقافة، والقواعد التي تجعلها تحكم بفاعلية. يحتاج ذلك إلى الوقت في بعض الأحيان، وهذا يفسّر كيف أن دولةً مثل الصين، وعلى نحو يختلف عن الهند، ستكون مستعدة لديمقراطية بسيطة في مرحلةٍ معينة من تاريخ نموها. أما في الوقت الحاضر فإن ما تحتاج إليه هو قيادة ذات نيات سليمة، قادرة على اتخاذ القرارات الضرورية التي تمكّنها من التطور بصورة أسرع. إن انتشال أربعمئة مليون إنسان من براثن الفقر في غضون عشرين سنة هو أمر مدهشٌ جداً.

ينطبق الأمر ذاته على البلدان المتقدمة والديمقراطية التي لا تُسفر أنظمتها السياسية عن تشكيل حكومات فعالة. يعني ذلك بكلماتٍ أخرى أن الديمقراطية ذاتها تحتاج إلى النضج، كما يتعيّن عليها كذلك التكيف وإدخال الإصلاحات بحسب تغيّر الظروف. أريد القول إن طريقة الإدارة التي نتّبعها في وستمنستر، أو وايتهول، ليست فعالة في عالم القرن الواحد والعشرين. ربما يريد كثيرون قول الأمر ذاته عن الكونغرس والولايات المتحدة. يتطلب نظام الخدمة المدنية هذه الأيام مجموعة مهارات تختلف اختلافاً كاملاً عما كان الأمر عليه قبل ثلاثين سنة مضت، وهي المهارات القريبة جداً من تلك المطلوبة في القطاع الخاص. سبق لي كذلك أن ناقشت مسألة المراكز الرسمية وتدريب نواب البرلمان.

يعترف هذا الطرح بأن الجماهير مضلّلة وقلقة، لكنه يركّز على مسائل النزاهة، والشفافية، والمحاسبة وكأن الأمر يتعلق بمشكلة في الشخصية. لكن الأمر ليس كذلك، لأنه يتمثّل في وجود مشكلتي الكفاءة والفاعلية.

دراما نفسية، بحث حول إحباطات القيادة، تصفية حسابات بها يظهر بلير محبّباً ومتلاعباً وسياسياً لامعاً.

ليونيل باربر – فاينانشيال تايمز

يتكلّم بصراحة، مستفزّ، جدّي ومضحك بآن.

ديفيد فروست - الجزيرة



يوميات رئيس وزراء بريطانيا (طوني بلير)، كُتبت بخط يده عن رحلته السياسية في فترة حكمه والسنوات التي تلتها. تناول فيها الأبعاد الانسانية لرجل السلطة بقدر ما تناول الأبعاد السياسية.

يتحدث كيف تزعّم حزب العمال عام ١٩٩٤، وكيف غيّر المعادلة السياسية البريطانية حين أصبح رئيساً للوزراء عام ١٩٩٧ منهياً فترة حكم حزب المحافظين التي استمرّت ثمانية عشر عاماً.

يصف للمرة الأولى دوره في صياغة التاريخ الحديث، وكيف تُتخذ قرارات القيادة في الحزب وفي الحكومة.

يلقي ضوءاً على علاقاته بزملائه أمثال غوردون براون وبيتر مندلسون، وعلى المفاوضات التي كان يقودها وعلى علاقاته بقادة عالميين أمثال مانديلا وكلينتون وبوتين وبوش.

يقدّم تحليلاً نفسياً وأخلاقياً لقرارات الذهاب إلى حرب كوسوفو وسيراليون وأفغانستان وقرار الحرب على العراق الذي أثار القدر الأكبر من الجدل.

يفصح عن التقلبات التي قرّ بها عن طبيعة السلطة السياسية وكيفية استخدامها وعن تحديات القيادة.

الناشر

ISBN 978-9953-88-607-7



شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+
oks@all-prints.com
all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر